تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

جزء عم

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

جزء عم 1

الفهرس 2

سورة النبأ 78 27

سورة النازعات 79 38

سورة عبس 80 86

سورة التكوير 81 106

سورة الأنفطار 82 162

سورة المطففين 83 175

سورة الإنشقاق 84 215

سورة البروج 85 235

سورة الطارق 86 257

سورة الأعلى 87 264

سورة الغاشية 88 333

سورة الفجر 89 344

سورة البلد 90 370

سورة الشمس 91 393

سورة الليل 92 427

سورة الضحى 93 467

سورة الشرح 94 475

سورة التين 95 498

سورة العلق 96 512

سورة القدر 97 578

سورة البينة 98 582

سورة الزلزلة 99 640

سورة العاديات 100 653

سورة القارعة 101 661

سورة التكاثر 102 666

سورة العصر 103 679

سورة الهمزة 104 694

سورة الفيل 105 699

سورة قريش 106 710

سورة الماعون 107 719

سورة الكوثر 108 743

سورة الكافرون109 756

سورة النصر110 790

سورة المسد111 809

سورة الإخلاص112 820

سورة الفلق113 970

سورة الناس114 990

الفهرس (2)

جزء عم 1

الفهرس 2

الفهرس (2) 4

سورة النبأ 27

سورة النبأ1-16 28
أسماء القرآن 28
آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته 28
الجبال أوتاد للأرض 29
سمى سبحانه الشمس سراجا 29
{وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً} 29
لطائف لغوية 30
سورة النبأ17-36 31
يوم الفصل 31
لفظ الذوق يدل على جنس الاحساس 31
{جَزَاء وِفَاقاً} 32
قدم العنب 33
من الألفاظ الغريبة فى القرآن 33
سورة النبأ37-40 34
{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} 34
الروح هو ملك 35
البهائم جميعها يحشرها الله سبحانه 35
يوم القيامة لا تقبل توبة 36

سورة النازعات 38

مقدمة النازعات 39
ذكر عقوبة الدنيا والآخرة 39
الجزاء من أعظم الأمور المقسم عليه 41
الاقسام عامتها بالذوات الفاعلة و غير الفاعلة 42
من حلف بغير الله فقد أشرك 43
{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً } 43
الملائكة هم رسل الله في تدبير العالم 44
الملائكة هم الوسائط فيما يخلقه الله تعالى 45
العينان أشد الأعضاء إرتباطا بالقلب 45

لطائف لغوية 45
سورة النازعات15-26 46
لا يجوز أن يوصف بالربوبية مطلقا إلا الله وحده 46
وقت النداء في وقت مخصوص 46
الإقرار بالله تعالى من لوازم العقل 47
لم يزل الله متكلما إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته 49
الله سبحانه فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء 51
الرب تعالى لم يكن في باطن الشجرة ولا حل فيها 52
جمع بين التزكى والهدى والخشية 53
أسماء وأحكام ما قبل الرسالة وما بعدها 55
قبح أعمال الكفار قبل الرسالة 55
أصل ما تزكو به القلوب 56
التزكي هو الإيمان و العمل الصالح 57
الخشية فى القرآن مطلقة 58
فرعون لا يذكر إلا بالذم والتقبيح واللعن 58
لفظ المعصية اذا أطلق 58
السعي في كتاب الله هو العمل والفعل 59
فرعون كشف كفره 59
ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون 59
الإقرار بالصانع فطري ضروري 60
أعظم السيئات جحود الخالق 60
موسى عليه السلام خاصم فرعون الذى جحد الربوبية 62
المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل 62
النسخ لا يجوز فى الأخبار 64
{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى } 64
السنة لا تتبدل ولا تتحول 65
ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض 66
لطائف لغوية 67
سورة النازعات 27-46 69
الكتب الإلهية جاءت بالمعقولات الصحيحة الفطرية 69
لفظ السعي في كتاب الله 69
الذين يرهبون ربهم خلاف الذين يتبعون أهواءهم 70
المشروط في التكليف 70
الإنسان يكون آمرا مأمورا 71
لا يترك الحي ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه 71
إثبات تألیه القلب لله حبا خالصا 71
أعلم الناس من كان رأيه وقياسه موافقا للنصوص 72
الخشية سبب للتذكر 74
الثلاث المنجيات 74
من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم 75
العفة عن المحرمات 75
ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان 76
الحرص على المال والشرف يوجب فساد الدين 76
اصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله 77
التقوى هي الاحتماء عما يضره 78
الدار الجامعة لكل نعيم 78
{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا } 78

الكافر على قلبه موانع تصد عن القبول 79
كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا 81
التعليم والإنذار والهدى له فاعل وله قابل 82
لطائف لغوية 83

سورة عبس 86

سورة عبس 1-16 87
نزلت في ابن أم مكتوم 87
الأمر بالتذكير التام النافع 87
القلب يغتذى من القرآن بما يزكيه 88
التذكر سبب الخشية 89
الزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل 92
الخشية فى القرآن 92
القرآن غير مخلوق 92
إختصاص الله سبحانه بالإلهية 93
هل نفس المصحف هو نفس القرآن أم كتابته وما فى الصدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه ؟؟ 93
من قال إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن فهو ضال مبتدع 94
الملائكة لهم من العلوم والأحوال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال 95
لطائف لغوية 95
سورة عبس17-32 97
الخلق غير المخلوق 97
تقديم العنب 97
لا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية 98
آيات الله الدالة على قدرته وإنعامه ورحمته 99
النفع الذى يخلقه الله فى الأرض من الإنبات 100
تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به 100
الألفاظ الغريبة التي فى القرآن 100
سورة عبس 33-42 102
الإبتداء يكون فى كل مقام بما يناسبه 102
الصحبة فيها عموم وخصوص 104
إن للحسنة لنورا في القلب إن للسيئة لظلمة في القلب 104
وصف للوجوه لحالها فى الآخرة 104
لطائف لغوية 105

سورة التكوير 106

سورة التكوير 1-14 107
القرآن لم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى 107
جميع البهائم تحشر 107
زوج الشيء نظيره 108
الله سبحانه يحكم فى الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة 108
ذم قتل كل من لا ذنب له 108
تحريم قتل الولد بدون خشية الفقر أولى 109
الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم 109
سورة التكوير 15-26 110

النجوم زينة للسماء الدنيا 110
اقسام الله بالنجوم 110
القرآن ما هو بقول شيطان رجيم 111
تنزيه جبريل عليه السلام عن ان يكون شيطانا 113
اصطفى الله جبريل من الملائكة 114
في قوله تعالى { فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ } التوبة6 فسماه هنا كلام الله وقال في مكان آخر {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } التكوير 19 فما معنى ذلك ؟ 114
القرآن نزل به جبريل من الله سبحانه 125
أضافه إليهما إضافة تبليغ لا إضافة إحداث 127
الملائكة احياء ناطقون 128
توسط البشر بالرساله مثل توسط الملك بالرسالة 130
الولاية لها ركنان القوة والأمانة 132
كفر الله من جعل القرآن العربى قول البشر 133
مؤتمن على ما أرسل به 133
القرآن هو كلام الله مبلغا عنه مسموعا من القراء 134
القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه 135
جاء باسم الرسول ليتبين أنه واسطة فيه وسفير 136
كفر من يقول أن القرآن قول ملك 137
جبريل نزل عليه بالقرآن كله 138
هو ذكر لسائر الناس 139
الأعيان وقواها متفاوتة 139
الرد على الذين يقولون ان الملائكة افضل من البشر 140
كمال علم محمد صلى الله عليه وسلم ودينه 141
الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم 142
البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته إلا من أيده الله 142
ذكر صحبته لهم دليل على اللطف بهم 143
{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ } 143
لطائف لغوية 143
سورة التكوير 27-29 **145**
ذكر التذكير العام والخاص 145
مشيئة العباد موقوفة على مشيئة الله 146
قد يعلق الواجب بالشرط 146
أثبت الله المشيئتين 146
بعث محمد الى جميع الخلق 147
للعباد مشيئة و قدرة 148
إثبات الأسباب 150
فارق اهل السنة الجبرية 151
منع حصول مطالب المؤمنين بالشرك 151
الفرق بين فعل الرب ومفعوله 152
العبد مريد مختار والله جعله مريدا مختار 156
مجوس هذه الأمة 157
الإستطاعة متقدمة على الفعل و مقارنة له 157
إرادة الواجب واجبة 159
مشيئة الله ليست مثل مشيئة العبد 159
مقالة أهل السنة وأهل الحديث 160
لطائف لغوية 160

سورة الأنفطار 162

سورة الانفطار1-8 163
القرآن أخبر باستحالة العالم 163
خطاب للإنسان 163
المطلق و المقيد 163
لفظ التركيب مجمل 164
لطائف لغوية 164
سورة الانفطار 9-12 166
الحفظة الموكلين ببنى آدم 166
رسل الله في تنفيذ أمره الكوني وأمره الديني 166
سورة الانفطار 13-19 168
يوم الدين 168
اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران 168
لفظ البر اذا أطلق 168
البر يهدى الى الجنة 169
النعيم التام هو في الدين الحق 170
لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان 170
الصفات الاختيارية 171
نفى الخلة المعروفة فى الدنيا 171
{ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً } 172
{ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } 173
لطائف لغوية 173

سورة المطففين 175

مقدمة سورة والمطففين 176
على قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية لله 176
الدين وأهله ثلاث طبقات 176
المطففين1-6 178
من غشنا فليس منا 178
البخس في العقول والاديان 178
الميزان العقلى حق 180
معاد الانفس والابدان 181
لطائف لغوية 182
سورة المطففين 7-17 183
{ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ} 183
يوم يدين العباد بأعمالهم 184
{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ } 185
طرق طلب العلم والدين 185
الكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة 186
أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة 187
{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ } 187
عذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب 190
هل الكفار يرون ربهم ؟ 190
لطائف لغوية 194
المطففين18-28 195

النعيم التام هو في الدين الحق 195
أهل الجنة نوعان 196
التوبة نوعان 197
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد 197
أولياء الله هم المؤمنون المتقون 198
أولياء الله على طبقتين 199
من جعل قرب عباده المقربين ليس اليه وانما هو الى ثوابه فهو معطل مبطل 200
التنافس ليس مذموما مطلقا 201
{ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } 204
ان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان 205
من جحد رؤية الله فى الدار الآخرة فهو كافر 206
البر سبب هذا الثواب 206
للحسنة ضياء في الوجه 207
الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل 207
رؤية الله بالأبصار هي للمؤمنين في الجنة 208
الْمُقَرَّبُونَ 208
قرب الرب قربا يقوم به بفعله القائم بنفسه 210
لطائف لغوية 211
المطففين29-36 212
{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ } 212
ضعفاء الناس هم أتباع الرسل 212
{ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} 213
الأعمال هي سبب فى الثواب والعقاب 214

سورة الإنشقاق 215

الانشقاق 1-5 216
القرآن لم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى 216
{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } 216
لطائف لغوية 217
سورة الانشقاق 6-15 218
مصير الخلق كلهم إلى الله 218
لقاء الله معلوم بالاضطرار للمؤمن والكافر 218
الخطاب للإنسان خطاب للجنس 222
الخلق كلهم مرجعهم إلى الله 222
نشر صحائف الأعمال 223
من نوقش الحساب عذب 223
كان المسلمون يوردون الأسئلة على النبي صلى الله عليه وسلم 224
تعلمنا القرآن و العلم و العمل جميعا 224
الخلق غير المخلوق 225
لطائف لغوية 225
الانشقاق 16-25 227
{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ } 227
يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار 227
الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن على المؤمنين 228
سجود القرآن 229
القرآن موجب لمسمى السجود الشامل لجميع أنواعه 229

وجوب الركوع والسجود فى الكتاب والسنة 231
العمل الظاهر لازم للعمل الباطن 232
الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا 232
لطائف لغوية 233

سورة البروج 235

سورة البروج 1-10 236
إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته 236
الله سبحانه المستحق للمحامد الكاملة 236
اصحاب الاخدود 237
{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } 237
تقبل توبة العبد من جميع الذنوب الشرك فما دونه 237
الله يتوب على أئمة الكفر اذا تابوا 238
" إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر " 240
الجنة بلا عذاب لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل 241
العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان ؟ 242
لطائف لغوية 243
سورة البروج 12-16 243
{ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ } 244
بطلان قول المنكرين لكونه سبحانه يحب 246
ليس من أسماء الله الحسنى أسم يتضمن الشر 247
الله سبحانه وتعالى متمدح بأنه ذو العرش 248
الإيمان بما وصف به نفسه من غير تكييف ولا تمثيل 248
ذكر الودود لبيان مودته للمذنب إذا تاب 249
المضاف الى الله 249
الحمد نوعان 249
لطائف لغوية 250
سورة البروج17-22 251
القرآن المجيد في لوح محفوظ 251
القرآن كلام الله غير مخلوق 251
هل نفس المصحف هو نفس القرآن أم كتابته وما فى الصدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه 252
اللوح المحفوظ لا ينظر فيه غير الله عز وجل 253
الكتاب اسم للقرآن العربى بالضرورة 253
لا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظي 254
لطائف لغوية 255

سورة الطارق 257

سورة الطارق1-17 258
ذكر آياته الدالة على قدرته ووحدانيته 258
الحفظة الموكلين ببنى آدم 258
تسمية مقيدة 259
الإطلاق والتقييد فى معانى اللفظ 259
الخلق كلهم مصيرهم إلى الله 260
{ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ } 260

الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل 260
ليس الكيد كالكيد 261
الجزاء من جنس العمل 261
لا مجاز فى القرآن 262
لطائف لغوية 262

سورة الأعلى 264

الأعلى1-5 265
{ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } 265
الله سبحانه واحد وإنما تعددت صفاته 273
الموجودات العينية من آيات وجوده 274
وجوب التسبيح في الركوع والسجود 276
تسبيح الإسم يراد به تسبيح المسمى 277
الله تعالى لم يأمر بذكر اسم مفرد 277
بيان فساد قول من جعل الاسم هو المسمى 279
الله سبحانه هو العلي الأعلى 281
كل أعمال الناس تابعة لهدي الله 282
ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق 284
فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأمم 285
لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شيء 286
يظهر المعظم واسماؤه فى القلب الذى يحبه 287
الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات 288
الله سبحانه ألهم النوع الانسانى أن يعبر عما يريده 288
{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} 290
{ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5} 296
{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى } 297
{ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى } 308
الذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين 310
{ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى } 311
{ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى } 312
ليس من شرط المتقين أن يكونوا معصومين 313
صدقة الفطر تخرج قبل صلاة العيد 313
تزكية النفس 313
استعباد القلب اعظم من استعباد البدن 317
القرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده 319
القلب يغتذي من الايمان والقرآن 320
الصلاة تعم العمل الصالح كله 321
الصلاة عماد الدين 321
الشارع لم ينقل الأسماء ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة 322
تسبيح اسم الله هو تسبيح لله 322
الله سبحانه لم يشرع للمسلمين اسما مفردا مجردا 323
الله سبحانه انما خلق الخلق لدار القرار 325
الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها 325
ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لإبراهيم وموسى 326
لطائف لغوية 331

سورة الغاشية 333

سورة الغاشية1-16 334
وجوه الأشقياء ووجوه السعداء يوم القيامة 334
للحسنة ضياء في الوجه وإن للسيئة غبرة في الوجه 336
السعى فى كتاب الله 336
سورة الغاشية17-26 337
النظر إلى المخلوقات على وجه التفكر مأمور به 337
التذكير العام 338
الرب هو الجبار المسيطر 338
{لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ } 339
المسلم المستضعف فليعمل باية الصبر واهل القوة يعملون بايات القتال 339
ذم المتولى عن الطاعة 341
الكافرون لهم موعد يجزون فيه 341
{ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} 342
لطائف لغوية 342
سورة الفجر1-14 345
إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته 345
{وَلَيَالٍ عَشْرٍ } 345
النفور عن التكلم بهذه الأعداد في غاية الجهل 346
الأعمال كلها لا تقبل إلا مع العقل 346
قدرة الرب وقدرة العبد 347
لطائف لغوية 348
سورة الفجر15-20 349
السراء والضراء ابتلاء 349
النعمة والكرامة هي نعمة من وجه دون وجه 350
التنعيم ليس هو حقيقة واحدة مستوية في بنى آدم 351
" لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له " 352
ليس كل انعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة 352
لفظ كلا فيها زجر وتنبيه 353
الكرامة لزوم الاستقامة 354
أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه 355
اذا أطلق لفظ المسكين 355
المسكين لا يسأل ولا يعرف فيعطى 355
الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا 356
مساعي القلوب وأعمالها 356
سورة الفجر21-30 358
الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل 358
{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً } 359
الايمان بالمجيء بلا كيف ولا تشبيه 360
حديث النزول صحيح 361
الإيمان بما أثبته لله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم 363
اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات 364
صاحب النفس المطمئنة كراهته للمحرمات كراهة إيمان 365
بيان مسمى الروح والنفس 365
النفس موجود قائم بنفسه 366
الانفس ثلاث امارة ومطمئنة ولوامة 367

للقلوب سكينة تناسبها 368
لطائف لغوية 368

سورة البلد 370

سورة البلد1-10 371
اقسام الله بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة عليه 371
القدرة والعلم بهما يحصل الجزاء 371
بيان قدرة الرب على عين العبد 373
العينان هما ربيئة القلب 373
{ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ} 375
المقدمات البينة البرهانية 375
لفظ الهدى اذا أطلق 376
الهداية العامة جعلها الله لكل إنسان 376
{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } 377
كل مولود يولد على الفطرة 379
في كل و احد ما يقتضي معرفته بالحق و محبته له 379
لطائف لغوية 380
سورة البلد11-20 381
فكوا العانى 381
الحقيقة العرفية والشرعية معلومة في اللغة 381
الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب 382
أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه 384
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد 384
المسكين الذى يجب أن يقدم فى العطاء 385
لا تتم رعاية الخلق وسياستهم إلا بالجود والنجدة 385
اشتباه الورع الفاسد بالجبن والبخل 385
أفضل الايمان السماحة والصبر 386
كلما قوى التوحيد فى قلب العبد قوى ايمانه وتوكله 387
اكثر ما يدخل الناس الجنة 387
الاشفاع التى في القرآن 388
قرن بين الصبر والرحمة 388
المؤمن المحمود 389
إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات 390
لا تنزع الرحمة إلا من شقى 391
لطائف لغوية 391

سورة الشمس 393

سورة الشمس 1-8 394
اقسامه الله سبحانه بمخلوقاته بخلاف المخلوق 394
التقديم ليس لازما للفضل 394
إثبات لفعل العبد و الوعد و الوعيد 395
الرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها 402
الإلهام المحمود والوسوسة المذمومة 402
السعادة بالأعمال الصالحة والشقاوة بالفجور 403

المسببات والأسباب مقدر معلوم 403
إرادة النفس من جملة مخلوقات الله تعالى 409
الهدى المطلق والهدى المقيد 411
إلهام النفس الفجور والتقوى وقع بحكمة بالغة 412
لطائف لغوية 412
سورة الشمس 9-10 414
{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا } 414
الأتقياء ليسوا معصومين 415
كيف تزكو النفس 415
القرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده 419
الحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب 421
لطائف لغوية 423
سورة الشمس 11-15 424
معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية 424
المضاف الى الله سبحانه لا يخلو من ثلاثة أقسام 424
المضاف إلى الله نوعان 425
الفارق بين المضافين 425
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد 426

سورة الليل 427

سورة الليل 1-11 428
الاقسام التى فى القرآن 428
الحكمة من إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته 428
{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى } 429
الامر والنهي من لوازم وجود بني آدم 429
اعملوا فكل ميسر لما خلق له 430
تقدير الأمور تقضى بالأسباب 430
الشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه 431
وجوب الايمان بالقدر 433
السعادة و الشقاوة بالأعمال 434
لطائف لغوية 440
سورة الليل 12-16 442
{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } 442
الصلي المطلق 447
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد 448
الليل17-21 450
إسم الله العلى 450
يغتذي القلب من الايمان والقرآن 450
توحيد العلم والعمل 451
اصل الدين وقاعدته 452
إخلاص الدين لله واجب فى جميع العبادات 453
نعيم الآخرة لمن كان مؤمنا تقيا فقيرا كان أو غنيا 454
ألاحسان الى الناس لله لا لرجائهم 455
قلب الإيمان 456
الايمان التام فى القلب يقتضي الإستسلام لله 456
حكم سؤال المخلوق المخلوق 457

الإرادة التى يحبها الله ورسوله 458
فضل الصديق رضي الله عنه 459
الأدلة على ان أبا بكر من المقصودين بالآية 460
بيان بطلان استشهاد الرافضي 462
لطائف لغوية 465

سورة الضحى 467

سورة الضحى1-4 468
اقسامه سبحانه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة عليه 468
الخطاب فى القرآن 468
فنبوته صلى الله عليه وسلم لم يكن وجودها حتى نبأه الله تعالى 469
أصل العلم الإلهي ومبدأه 469
لفظ الهدى اذا أطلق 470
أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه 470
المسئول مأمور بإجابة السائل 471
ان النفوس لاتقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها 471
لطائف لغوية 472

سورة الشرح 475

سورة الشرح 1-8 476
الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم 476
الخطاب قد يكون لفظه للنبي صلى الله عليه وسلم ومعناه عام 476
علم المعاني والبيان 477
لا يذكر الله إلا ذكر معه الرسول 477
{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ } 478
الذين أعلنوا ما جاء به النبى لهم نصيب 478
الفرج مع الكرب 478
إذا استعنت فاستعن بالله 479
سورة الشرح جمعت نوعي دعاء الله 479
جماع الدين شيئان 483
الرغبة لله وحدة 483
لم يقل إرغب إلى الأنبياء والملائكة 484
العبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه 485
لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه 485
تتنوع دلالة اللفظ فى عمومه وخصوصه 487
أصل التوحيد 488
الثواب والعقاب يترتب على عبودية القلب واسره 489
لله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد 491
العبادة والخشية والتقوى لله وحده 491
ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه 492
طلب الرزق لا يتعارض مع التوكل 493
من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه فهو مشرك 494
من حلف بغير الله فقد أشرك 494
حكم سؤاله الغير أن يدعو له 495

ليعزم المسألة 496

سورة التين 498

سورة التين 1-8 499
أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الأماكن الثلاثة 499
مكة هى الأول والشام هى الآخر 500
التفاسير الباطلة 500
لا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية 501
إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته بخلاف المخلوق 502
الإبتداء لاسباب متعددة 502
جواب القسم تارة يذكر وتارة يحذف 503
عاقبة الكفار 504
إنه ما ثم دار إلا الجنة أو النار 504
الإسم متناول لآدم عينا 504
الهداية والفلاح للمؤمنين 505
العمل الظاهر لازم للعمل الباطن 505
الثواب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا 506
{ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ } 507

سورة العلق 512

مقدمة سورة العلق 513
سورة إقرأ هي أول ما نزل من القرآن 513
بهذه السورة صار نبيا 513
قصد غار حراء ليس من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم 514
العبادات البدعية 514
أول ما أنزل الله تبارك وتعالى ذكر بأنه الخالق 515
جمع بين أفضل أعمال الصلاة في أول سورة 516
أمر في أولها بالقراءة وفي آخرها بالسجود 516
كل أحد فيه ما يقتضي معرفته بالحق 517
ذكر الخلق والتعليم عموما وخصوصا 518
استعمال قياس الاولى في القران 519
سورة العلق1-5 521
البسملة آية من القرآن مفردة وليست من السورة 521
قراءة بسم الله فى أول السور 522
تنزيه الاسم وتسبيحه تنزيه للمسمى وتسبيح له 524
المشروع فى ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة 524
ذكر الخلق والتعليم 526
ذكر المطلق والمقيد 526
إثبات أن العباد لا يعلمون إلا ما علمهم إياه الله 527
أمر بالصلاة فى اول أوقات الوحي 527
شرع في الصلاة القراءة والركوع والسجود 528
أصول الدين الأصول العقلية أول ما أنزل 528
{وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ } 559
لكل شيء أربع وجودات 559

الله سبحانه هو معطى الوجودين 560
فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأمم 561
الوجود العينى والعلمى 561
جاءت الكتب الإلهية بالمعقولات الصحيحة الفطرية 562
ذكر الله هو أصل الإيمان 562
الملحدون لم يفرقوا بين الوجود العلمى والوجود العينى 564
الله سبحانه خالق الانسان ومعلمه 564
{ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى } 565
سعادة العبد فى كمال افتقاره الى ربه 565
{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى } 565
العمومات الدالة على فضل الصلاة 566
كفاية الله له أعداءه آية لنبوته 566
الشارع استعمل الاسماء مقيدة لا مطلقة 567
قرن التكذيب بالتولي 568
ذم المتولى عن الطاعة 569
الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل 569
ذكر رؤيته الأعمال يتضمن الوعيد 570
من تكلم فى الدين بلا علم كان كاذبا 570
الكذب يهدى الى الفجور 571
اسم الخاطىء فلم يجيء فى القرآن الا للاثم 571
صفة اهل النارِ 572
سجود القرآن نوعان 572
وجوب الركوع والسجود فى الكتاب والسنة 573
السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله 573
الله سبحانه يقرب من خلقه كيف شاء 574
اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد 574
لطائف لغوية 575

سورة القدر 578

مقدمة سورة القدر 579
نزول القرآن ليلة القدر 579
سورة القدر1-5 580
انزله إلى بيت العزة 580
نزول الملائكة بالوحى من أمره 580
لطائف لغوية 580

سورة البينة 582

سورة البينة1-3 583
هذه السورة سورة جليلة القدر 583
توحد الملة وتعدد الشرائع 591
لفظ المشركين 592
يدخل في الذين كفروا جميع المشركين وأهل الكتاب 592
أهل الكتاب يدخلون في الشرك المقيد 593
يمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى مع التكذيب بنبوة محمد 593

يخاطب الله فى القرآن الأميين وأهل الكتاب 594
الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس 595
دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه 595
اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران 596
كلام الله المكتوب ليس هو إلها خالقا 596
أسماء القرآن 596
الفرق بين كلام الله تعالى وبين مداد كلماته 597
الكتاب اسم للقرآن العربى 597
هل نفس المصحف هو نفس القرآن أم كتابته وما فى الصدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه 598
القرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه 598
لطائف لغوية 600
سورة البينة4-5 601
باب الفساد الذى وقع فى هذه الأمة 601
وجوب الاجتماع فى الدين 602
ذم تفرق أهل الكتاب و النهى عن التشبه بهم 603
ذم الذين يؤمنون ببعض دون بعض 605
سبب الإجتماع والألفة 605
الاختلاف سببه البغي 607
قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه 608
أعظم السيئات جحود الخالق والشرك به 609
أصل الدين 610
دين الإسلام مبنى على أصلين 612
الله سبحانه ألزم الخلق التوحيد 612
التوحيد هو أول ما دعا الرسول صلى الله عليه 613
العبادة كلها لله وحده 614
الدين هو التعاهد والتعاقد 614
أعظم عون لولي الأمر وللعامة 616
النية المعهودة فى العبادات 616
المراءاة فى العبادات من أعظم الذنوب 618
آكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة 618
الإرادة التى يحبها الله ورسوله 619
{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ } 619
دِينُ الْقَيِّمَةِ هو ما إختص به محمد 620
هل فى اللغة أسماء شرعية ؟ 621
عماد الدين 622
عطف خاص على عام 622
قطب رحى الدين 623
عمل القلب أصل العمل 623
فاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة 624
إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان 625
النية لها ركنان 626
الصلاة في أصل اللغة الدعاء 627
الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال 629
العبادات المقصودة لا تصح إلا بنية 629
العبادة كلها لله وحده لا شريك له 629
الغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم 630
لطائف لغوية 630

سورة البينة6-8 632
لفظ الكفر 632
لفظ المشركين 632
لفظ المؤمنين 632
الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا 633
لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان 634
لفظ الإيمان 634
إنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن 635
من جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر 636
اسماء الله سبحانه وصفاته مختصة به 637
وجوب الرضا بالمشروع 637
الله تعالى راض عن السابقين 638
الجزاء من جنس العمل 638
لطائف لغوية 638

سورة الزلزلة 640

مقدمة سورة الزلزلة 641
إذا زلزلت تعدل نصف القرآن 641
سورة الزلزلة 1-8 642
العمل الصالح يثاب عليه المؤمن 642
الله سبحانه مقدس منزه ان يظلم احدا 643
الوعيد لأهل الكبائر لا يلحق التائب 643
الأمر الذي حرمه الله سبحانه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له 643
لا يحاسب العباد إلا هو وحده سبحانه 645
الذنوب عواقبها مذمومة مطلقا 645
افعال العباد جارية على قانون العدل و الاحسان 645
الذنوب تضر من اصر عليها 646
الحسنة العظيمة يغفر الله بها السيئة العظيمة 646
من مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار 647
الظلم ثلاثة أنواع 648
هل الكبائر لا تغفر الا بالتوبة ؟ 650
يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان 651
لطائف لغوية 652

سورة العاديات 653

مقدمة سورة العاديات 654
سورة العاديات1-11 655
الإقسام يتضمن ذكر الآيات الدالة على الوحدانية 655
الخيل العاديات في سبيل الله 655
{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً } 655
ذم الإنسان بكونه كفورا 656
سبيل الله يحمد فيه الزهد 657
قول القلب وعمله هو الأصل 657
القلب يشبه القبر 658

البلاغة هي علم المعاني والبيان 658

سورة القارعة 661

سورة القارعة1-11 662
الأمر لله وحده 662
اليوم الاخر هو كما ذكره الله 662
السنة مطابقة لما في القرآن 663
الاعمال توزن بموازين 663
كيفية الموازين من الغيب 664

سورة التكاثر 666

مقدمة سورة التكاثر 667
تنبيه على البعث 667
سورة التكاثر1-8 669
حكم زيارة القبور 669
الزهد الشرعي 671
عِلْمَ الْيَقِينِ وعَيْنَ الْيَقِينِ 671
النعمة من النعيم 673
{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } 674
وجوب الشكر 674
اصل الدين فعل الواجبات وترك المحرمات 675
الله سبحانه لا يعاقب على ما أباح 676
تحريم الطيبات بدون سبب شرعي بدعة مذمومة 676
لطائف لغوية 677

سورة العصر 679

مقدمة سورة العصر 680
لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم 680
سورة العصر1-3 682
إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته 682
ذم الإنسان كله إلا ما إستثناه 682
أصل العلم الإلهي 682
وجوب معرفة الحق 683
الارادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر 684
التواصي بالحق مع الصبر 684
الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين 685
الصبر ضابط الأخلاق 686
الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد 686
السنة التي يجب اتباعها 688
الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد 688
احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل 689
القلب له عمل مع التصديق 689
لفظ الإيمان إذا أطلق 690

كمال الانسان 691
الفتنة سببها ترك الحق او ترك الصبر 691
لطائف لغوية 692

سورة الهمزة 694

~§§ الهمزة(مكية)9 §§~ 695
سورة الهمزة1-9 695
{ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} 695
الهمز واللمز من جنس الغيبة 696
لطائف لغوية 697

سورة الفيل 699

مقدمة سورة الفيل 700
سورة الفيل1-5 701
الرد على من يدعي ان المعجزات قوى نفسية للانبياء 701
الحكمة من ذكر سوء عاقبة من كفر بالرسل 702
دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم 702
الكعبة فإن الله شرفها وجعلها محرمة 703
آية الفيل أظهر الله تعالى بها حرمة الكعبة 705
لطائف لغوية 708

سورة قريش 710

مقدمة سورة قريش 711
دعوة قريش إلى الله 711
سورة قريش 1-4 711
فاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة 711
الغاية التي فيها صلاح للنفس 712
{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ } 713
جميع الثقلين مأمورون بالعبادة 713
التوحيد العملي الإرادي 714
العباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم 714
مكة حرمها الله 715
استجابة الله تعالى لدعاء إبراهيم 716
الرزق والنصر مقترنان فى الكتاب والسنة 716
النصر والرزق قوام أمر الناس 717

سورة الماعون 719

سورة الماعون 1-7 720
أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه 720
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد 720
المسكين الذى لا يسأل ولا يعرف 721
مراءاة الناس فى العبادات من أعظم الذنوب 721

صلاة المنافق تشتمل على التأخير والتطفيف 722
تأخير الصلاة عن الوقت حرام 723
ان لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار 726
تأخير الصلاة عن غير وقتها عمدا من الكبائر 727
حكم إعادة الصلاة في الوقت الخاص والمشترك 729
الذى يؤخر الصلاة وينقرها منافق 730
وجوب المحافظة والإدامة على الصلاة 730
حكم من ترك الصلاة والصوم عامدا 731
المحافظة على الصلاة في وقتها فرض 732
من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه الذمة 733
حكم من أخر الصلاة عن وقتها ومات 735
حكم من لم يصل المكتوبة حتى خرج وقتها 736
حكم من ترك صلاة العصر متعمدا 737
إخلاص الدين هو أصل دين الإسلام 737
انما الأعمال بالنيات 737
النية لها ركنان 738
شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع 739
حال المنافقين و المرائين 740
حكم بذل المنافع 740

سورة الكوثر 743

الكوثر 1-3 744
حقيقة معناها تعلم من آخرها 744
عماد الدين 746
عيد النحر أفضل من عيد الفطر 747
الأضحية من أعظم شعائر الاسلام 747
وقت الأضحية 748
إراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع و العبادة له 749
قدم الله الصلاة على النحر 750
الصلاة مقرونة بكل عبادة من العبادات 750
{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } 750
الله سبحانه ينتقم لرسوله ويكفيه 751
اهل البدعة شنأوا بعض ما جاء به الرسول فابترهم 752
حكم الساب اذا تاب واسلم 752
الجزاء من جنس العمل 753
لطائف لغوية 754

سورة الكافرون 756

مقدمة سورة الكافرون 757
قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن 757
سورة الكافرون 1-6 758
سورتا الإخلاص 758
قطب القرآن 758
العبادة أصلها الصدق والإرادة 761

إثبات صفات الكمال لله سبحانه وتعالى 762
سورة البراءة ووجه التكرار 763
الله تعالى لم يرض دينا غير الإسلام 782
ليس فيها رضى بدين المشركين 782
هذه السورة ليست منسوخة 784
الرد على قول وزبر التتار أن النبى رضي بدين اليهود والنصارى 784
كل دين سوي الإسلام باطل 785
العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر 786
لطائف لغوية 787

سورة النصر 790

مقدمة سورة النصر 791
إعلام النبى صلى الله عليه وسلم بقرب وفاته 791
سورة النصر 1-3 792
الإخبار بالمستقبلات 792
الأنبياء معصومون من الاقرار على الذنوب 792
الاعتبار بكمال النهاية 793
التوبة فرض على العباد دائما 794
تخليص الأعمال مما يفسدها اشد من طول الاجتهاد 795
الصدقة تطفىء الخطيئة 795
قوام الدين بالتوحيد والاستغفار 796
التوبة من أفضل الكمالات 797
ختم الاعمال بالتسبيح والإستغفار 799
السعيد يخاف في أعماله 801
الاسلام هو الدين الحق 801
التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم 803
كلمتان حبيبتان إلى الرحمن 803
التسبيح والتحميد إثبات إلهيته 803
التحميد مقرون بالتسبيح 804
فضل الاستغفار 806
المغفرة نهاية الخير 806
غاية أولياء الله التوبة 807
كان الله سبحانه ولم يزل ولا يزال 807

سورة المسد 809

سورة المسد 1-5 810
في القرآن الإخبار بالمستقبلات 810
نزلت في أبي لهب 810
القرآن شرف لمن آمن به 811
الأنساب لا عبرة بها 811
اهلاك الله المستهزئين بالرسول 811
العبد له قدرة 812
بيان بطلان قول وقوع التكليف بالممتنع لذاته 813
الجمع بين الضدين لم يرد في الشريعة 816

الولد من كسب الأب 816
من التذكير ما لم ينفع أصلا 817
نكاح الجاهلية نكاح صحيح 817
لطائف لغوية 818

سورة الإخلاص 820

مقدمة سورة الاخلاص 821
الآية أو السورة قد تنزل مرتين و أكثر 821
فضل سورة الاخلاص 821
التوحيد الذي جاءت به الرسل 822
التوحيد القولي 823
سورة الاخلاص 1-4 825
صفة الرحمن 825
الرب تعالى موصوف بصفات الكمال 827
توحيد الألوهية 836
دين الإسلام مبنى على أصلين 837
غنى الرب لازم لذاته 837
تنزيه الله سبحانه عن صفات النقص 839
التوحيد لابد فيه من عمل القلب 839
الله سبحانه منزه عن الصفات المختصة بالمخلوقين 840
هل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن ؟؟ 841
{ اللَّهُ الصَّمَد } 854
أكبر اصول الايمان 944
كره السلف ان ترد البدعة بالبدعة 947
سورة الاخلاص فيها إثبات الذات 947
الصمد اسم يتضمن إثبات صفات الكمال 949
العقل الصريح يجزم بأن الله ليس كمثله شيء 950
نزه الله نفسه عن ادعاءات النصارى 950
دلالة القرآن على الامور نوعان 950
المستوجب لصفات السؤدد 951
إثبات علوه سبحانه على ما سواه 952
يجب تنزيه الله سبحانه عن كل عيب و نقص 952
انتفاء التجسيم والتشبيه 954
وجوب إثبات ما اثبته من الصفات 954
أكمل اللذات لذة النظر إلى الله 956
فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه سبحانه 956
الله سبحانه مباين للمخلوقات 957
تنزيه الله سبحانه عن الكفؤ والسمى والمثل 957
{ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد } 959
النبى صلى الله عليه وسلم نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة 961
من شبه الله بخلقه فقد كفر 962
المسلمون وسط 963
الله سبحانه نزه نفسه عن الشريك والولد 964
كفر من جعل لله سبحانه ولدا أو والدا أو شريكا 964
طريقة السلف 966
علم بالشرع مع العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء 966

من أعظم ما يوسوس فى التوحيد 967
لطائف لغوية 968

سورة الفلق 970

مقدمة الفلق 971
سورة الفلق 1-5 971
إذا استعنت فاستعن بالله 971
الاستعاذة من الشر الموجود و المفقود 972
الإستعاذة من شر المخلوقات عموما و خصوصا 972
الله سبحانه ما خلق شيئا إلا لحكمة 975
لا يضاف لله سبحانه الشر مفردا 976
لا تمنع الاستعاذة مما خلقه من الشر 977
الشر لم يرد فى أسماء الله سحانه و إنما و رد فى مفعولاته 977
الفرق بين المحبة والمشيئة 978
وجود الملزوم بدون و جود اللازم ممتنع 978
أكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا 979
اثبات الاسباب والقوى 980
الاستعاذة انما تكون مما يحدث عنه شر 981
الدعوى ان السحر هي قوى نفسانية من أبطل الباطل 982
الحسد من امراض القلوب 983
مدح تعالى وذم على أفعال القلوب 988
الحاسد ظالم معتد 988
لطائف لغويه 989

سورة الناس 990

مقدمة سورة الناس 991
سورة الناس 1-3 991
جمع بين الاسمين اسم الإله واسم الرب 991
قلب الإيمان 992
الوسوسة 993
الوسواس أصل كل شر 995
" ان للملك لمة وللشيطان لمة " 1003
الرؤيا ثلاثة 1003
الأمر بالتعوذ من شر الوسواس 1003
ذكر الله أصل لدفع الوسواس 1004
المؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر 1004
لطائف لغوية 1006

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة النبأ
78

رقية محمود الغرايبة

~§§ النبأ(مكية)40 §§~

سورة النبأ1-16

بسم الله الرحمن الرحيم

{عَمَّ يَتَسَاءلُونَ{1} عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ{2} الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ{3} كَلَّا سَيَعْلَمُونَ{4} ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ{5} أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً{6} وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً{7} وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً{8} وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً{9} وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً{10} وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً{11} وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً{12} وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً{13} وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً{14} لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً{15} وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً{16}

أسماء القرآن

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة و نبأ على قول في قوله {عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ }النبأ2 [1]

آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته

أنه كما علم بما في مصنوعاته من الأحكام والإتقان أنه عالم وبما أن فيها من التخصيص أنه مريد فيعلم بما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم وبما فيها من الغايات المحمودة أنه حكيم والقرآن يبين آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته وآياته الدالة على إنعامه ورحمته وحكمته ولعل هذا أكثر في القرآن كقوله تعالى { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً{6} وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً{7} وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً{8} وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً{9} وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً{10} وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً{11} وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً{12} وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً{13} وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً{14} لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً{15} وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً{16} النبأ6-16 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

[2] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 200

الجبال أوتاد للأرض

قال تعالى{ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً{6} وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً{7}النبأ6-7 الجبال خلقها الله وجعلها أوتادا للأرض وآية من آياته وفيها من منافع خلقه ما هو نعم لله على عباده وسوف يفعل بها ما أخبر به فى قوله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً {105} فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً{106} لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً{107}طه105 -107 [1]

سمى سبحانه الشمس سراجا

قال تعالى{وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً }النبأ13 وسمى الشمس سراجا وهاجا والوهاج له حرارة تؤذي[2]

قل تعالى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }يونس5 ولفظ الضياء والنور ونحو ذلك يراد به الشيء بنفسه المستنير كالشمس والقمر وكالنار قال تعالى {وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً }النبأ13 وقال {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً }يونس5 وسمى سبحانه الشمس سراجا وضياء لأن فيها مع الإنارة والإشراق تسخينا وإحراقا فهي بالنار أشبه بخلاف القمر فإنه ليس فيه مع الإنارة تسخينا فلهذا قال جعل الشمس ضياء والقمر نورا والمقصود هنا أن لفظ الضياء والنور ونحو ذلك يراد به الشيء المستنير المضيء القائم بنفسه كالشمس والقمر والنار ويراد به الشعاع الذي يحصل بسبب ذلك في الهواء والأرض وهذا الثاني عرض قائم بغيره ليس هو الأول ولا صفة قائمة بالأول ولكنه حادث بسببه فالشعاع الذي هو الضوء والنور الحاصل على الماء والطين والهواء وغير ذلك هو عرض قائم بغيره وليس هو متحدا به البتة[3]

{وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً}

ماء المطر فإن الله يخلقه في السماء من السحاب ومن السحاب ينزل كما قال تعالى {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ{68} أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ{69} الواقعة68-69 وقال تعالى {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً{14} لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً{15} وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً{16}النبأ14-16 وقال تعالى { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ}النور43 أي من خلال السحاب وقوله فى غير موضع من السماء أي من العلو والسماء اسم جنس للعالي قد يختص بما فوق العرش تارة وبالأفلاك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 51

[2] القواعد النورانية ج: 3 ص: 372

[3] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 368

تارة وبسقف البيت تارة لما يقترن باللفظ والمادة التى يخلق منها المطر هى الهواء الذى فى الجو تارة وبالبخار المتصاعد من الأرض تارة وهذا ما ذكره علماء المسلمين والفلاسفة يوافقون عليه[1]

لطائف لغوية

1-لفظ اللباس فهو مستعمل فى كل ما يغشى الانسان ويلتبس به قال تعالى {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً } النبأ10 وقال { وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ } الأعراف26 وقال { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ } البقرة187 ومنه يقال لبس الحق بالباطل اذا خلطه به حتى غشيه[2]

2- قال تعالى {وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً } النبأ13 وسمى الشمس سراجا وهاجا والوهاج له حرارة تؤذي[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 262

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 111

[3] القواعد النورانية ج: 3 ص: 372

سورة النبأ17-36

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً{17} يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً{18} وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً{19} وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً{20} إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً{21} لِلْطَّاغِينَ مَآباً{22} لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً{23} لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً{24} إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً{25} جَزَاء وِفَاقاً{26} إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً{27} وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً{28} وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً{29} فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً{30} إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً{31} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{32} وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً{33} وَكَأْساً دِهَاقاً{34} لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً{35} جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً{36}

يوم الفصل

قال تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ }التوبة29 مع ان النصارى يقرون بمعاد الابدان لكن لما انكروا ما اخبر به الرسول من الاكل والشرب ونحو ذلك صاروا ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر وهؤلاء الفلاسفة لا يقرون بمعاد الابدان ولهم في معاد النفوس ثلاثة اقوال والثلاثة تذكر عن الفارابي نفسه انه كان يقول تارة هذا وتارة هذا وتارة هذا منهم من يقر بمعاد الانفس مطلقا ومنهم من يقول انما تعاد النفوس العالمة دون الجاهلة فان العالمة تبقى بالعلم فان النفس تبقى ببقاء معلومها والجاهلة التي ليس لها معلوم باق تفسد وهذا قول طائفة من اعيانهم ولهم فيه مصنفات ومنهم من ينكر معاد الانفس كما ينكر معاد الابدان وهو قول طوائف منهم وكثير منهم يقول بالتناسخ وليس شيء من ذلك ايمانا باليوم الاخر فان اليوم الاخر هو الذي ذكره الله في قوله تعالى {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }آل عمران9 وقوله تعالى {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً{17} يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً{18} وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً{19} وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً{20} إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً{21} لِلْطَّاغِينَ مَآباً{22} لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً{23} لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً{24} إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً{25} جَزَاء وِفَاقاً{26} إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً{27} وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً{28} وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً{29} فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً{30} إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً{31} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{32} وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً{33} وَكَأْساً دِهَاقاً{34} لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً{35} جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً{36}سورة النبأ17-36[1]

لفظ الذوق يدل على جنس الاحساس

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 459

قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ }النحل112 فان من الناس من يقول الذوق حقيقة فى الذوق بالفم واللباس بما يلبس على البدن وانما استعير هذا وهذا وليس كذلك بل قال الخليل الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء والاستعمال يدل على ذلك قال تعالى {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ }السجدة21 وقال { وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ }فصلت50 وقال {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }الدخان49 وقال {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا }الطلاق9 وقال {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً }النبأ24 وقال النبى ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا وفى بعض الادعية أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك فلفظ الذوق يستعمل فى كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم تحكم منه لكن ذاك مقيد فيقال ذقت الطعام وذقت هذا الشراب فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم واذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الانسان بباطنه أو بظاهره حتى الماء الحميم يقال ذاقه فالشراب اذا كان باردا أو حارا يقال ذقت حره وبرده ولفظ ذوق الجوع والخوف فان هذا اللفظ يدل على الاحساس بالمؤلم واذا أضيف الى الملذ دل على الاحساس به كقوله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا فان قيل فلم لم يصف نعيم الجنة بالذوق قيل لأن الذوق يدل على جنس الاحساس ويقال ذاق الطعام لمن وجد طعمه وان لم يأكله وأهل الجنة نعيمهم كامل تام لا يقتصر فيه على الذوق بل استعمل لفظ الذوق فى النفى كما قال عن أهل النار {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً }النبأ24 أى لا يحصل لهم من ذلك ولا ذوق وقال عن أهل الجنة {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى }الدخان56[1]

ولفظ الذوق وان كان قد يظن انه فى الاصل مختص بذوق اللسان فاستعماله فى الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل فى الاحساس بالملائم والمنافر كما ان لفظ الاحساس فى عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن واما فى اللغة فأصلة الرؤية كما قال { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ }مريم98 و المقصود لفظ الذوق قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ }النحل112 فجعل الخوف والجوع مذوقا واضاف اليهما اللباس ليشعر انه لبس الجائع والخائف فشمله واحاط به احاطة اللباس باللابس بخلاف من كان الالم لا لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ }الصافات38 وقال تعالى {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }الدخان49 وقال تعالى {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ }القمر48 وقال {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ }الدخان56 وقال تعالى {لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً{24} إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً{25}النبأ24 -25 وقال {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ }السجدة21 وقد قال النبى ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا فاستعمال لفظ الذوق في ادراك الملائم والمنافر كثير وقال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان كما تقدم ذكر الحديث[2]

{جَزَاء وِفَاقاً}

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 108

[2] الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334-335

قال تعالى {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً{17} يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً{18} وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً{19} وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً{20} إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً{21} لِلْطَّاغِينَ مَآباً{22} لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً{23} لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً{24} إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً{25} جَزَاء وِفَاقاً{26} إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً{27} وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً{28} وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً{29} فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً{30} النبأ17-30 قوله تعالى {جَزَاء وِفَاقاً} يقتضى ان العمل سببه[1]

قدم العنب

قال النبى صلى الله عليه و سلم لا تسموا العنب الكرم فإنما الكرم قلب المؤمن و هم سموا العنب الكرم لأنه أنفع الفواكه يؤكل رطبا و يابسا و يعصر فيتخذ منه أنواع و هو أعم و جودا من النخل يوجد في عامة البلاد و النخل لا يكون إلا فى البلاد الحارة و لهذا قال فى رزق الإنسان { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32}عبس 24-32 فقدم العنب و قال فى صفة الجنة {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً {31} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{32}النبأ31 -32 و مع هذا نهى النبى صلى الله عليه و سلم عن تسميته بالكرم و قال الكرم قلب المؤمن فإنه ليس في الدنيا أكثر و لا أعظم خيرا من قلب المؤمن [2]

من الألفاظ الغريبة فى القرآن

والقرآن نزل بلغة قريش الموجودة فى القرآن فإنها تفسر بلغته المعروفة فيه إذا وجدت لا يعدل عن لغته المعروفه مع وجودها وإنما يحتاج إلى غير لغته فى لفظ لم يوجد له نظير فى القرآن كقوله { وَيْكَأَنَّ اللَّهَ }القصص82 {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ }ص3 {وَكَأْساً دِهَاقاً }النبأ34 {وَفَاكِهَةً وَأَبّاً }عبس31 {تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى }النجم22 ونحو ذلك من الألفاظ الغريبة فى القرآن [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 457

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 294

[3] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 88

سورة النبأ37-40

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً{37} يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً{38} ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً{39} إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً{40}

{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً}

جاء في الصحيح إن النبي صلى الله عليه وسلم قال يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله من شيء يا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أملك لك من الله من شيء يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله من شيء وفي الصحيح أيضا لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار أو رقاع تخفق فيقول أغثني أغثني فأقول قد أبلغتك لا أملك لك من الله من شيء فيعلم من هذا أن قوله ولا يملكون من دونه الشفاعة ولا يملكون منه خطابا على مقتضاه وأن قوله في الآية لا يملكون منه كقول إبراهيم لابيه وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ وهذه الآية تشبه قوله تعالى { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً{37} يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً{38} ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً{39}النبأ 37-39 فإن هذا مثل قوله يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي قولا ففي الموضعين اشترط إذنه فهناك ذكر القول الصواب وهنا ذكر أن يرضى قوله ومن قال الصواب رضي الله قوله فإن الله إنما يرضى بالصواب وقد ذكروا في تلك الآية قولين أحدهما أنه الشفاعة أيضا كما قال ابن السائب لا يملكون شفاعة إلا بإذنه والثاني لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه قال مقاتل كذلك قال مجاهد لا يملكون منه خطابا قال كلاما هذا من تفسيره الثابت عنه وهو من أعلم أو أعلم التابعين بالتفسير قال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به وقال عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية وأسأله عنها وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه وهذا يتناول الشفاعة أيضا وفي قوله لا يملكون منه خطابا لم يذكر استثناء فإن أحدا لا يملك من الله خطابا مطلقا إذ المخلوق لا يملك شيئا يشارك فيه الخالق كما قد ذكرناه في قوله ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة أن هذا عام مطلق فإن أحدا ممن يدعى من دونه لا يملك الشفاعة بحال ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكا لهم وكذلك قوله لا يملكون منه خطابا هذا قول السلف وجمهور المفسرين وقال بعضهم هؤلاء هم الكفار لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم قال ابن عطية قوله لا يملكون الضمير للكفار أي لا يملكون من إفضاله وإكماله أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها وهذا مبتدع وهو خطأ محض والصحيح قول الجمهور والسلف أن هذا عام كما قال في آية اخرى وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا وفي حديث التجلي الذي في الصحيح لما ذكر مرورهم على الصراط قال صلى الله عليه وسلم ولا يتكلم أحد إلا الرسل ودعوى الرسل اللهم سلم سلم فهذا في وقت المرور على الصراط وهو بعد الحساب والميزان فكيف بما قبل ذلك وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل

وأولي العزم وكل يقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني فعلت كذا وكذا نفسي نفسي نغمى فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم وأيضا فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة وبعد أن ذكر الكافرين فقال {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً{31} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{32} وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً{33} وَكَأْساً دِهَاقاً{34} لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً{35} جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً{36} رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً{37} النبأ31-37 ثم قال { يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً }النبأ38 فقد أخبر أن الروح والملائكة يقومون صفا لا يتكلمون وهذا هو تحقيق قوله {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} والعرب تقول ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئا أي لا أقدر من أمره على شيء وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره ولو بالسؤال فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئا ولا الخطاب فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا قال تعالى إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء فقد أخبر الخليل أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء فكيف غيره وقال مجاهد أيضا إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا قال حقا في الدنيا وعملا به رواه والذي قبله عبد بن حميد وروى عن عكرمة وقال صوابا قال الصواب قول لا إله إلا الله فعلى قول مجاهد يكون المستثنى من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح[1]

الروح هو ملك

قال تعالى { يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً }النبأ38 الروح إنما هو ملك[2]

البهائم جميعها يحشرها الله سبحانه

قال تعالى { ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً{39} إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً{40} النبأ39-40 وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه كما دل عليه الكتاب والسنة قال تعالى {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ }الأنعام38 وقال تعالى {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ }التكوير5 وقال تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ }الشورى29 وحرف إذا إنما يكون لما يأتى لا محالة والأحاديث فى ذلك مشهورة فإن الله عز وجل يوم القيامة يحشر البهائم ويقتص لبعضها من بعض ثم

---

[1] الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 140-143

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 227

يقول لها كونى ترابا فتصير ترابا فيقول الكافر حينئذ { يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً }النبأ40 ومن قال أنها لا تحيا فهو مخطىء فى ذلك أقبح خطأ بل هو ضال أو كافر والله أعلم[1]

يوم القيامة لا تقبل توبة

قال تعالى { ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً{39} إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً{40} النبأ39-40 فإن الكافر يقول ذلك يوم القيامة حين لا تقبل توبة ولا تنفع حسنة[2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 248

[2] منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 15

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة النازعات
79

رقية محمود الغرايبة

مقدمة النازعات

ذكر عقوبة الدنيا والآخرة

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته فى الآفاق وفى انفسنا وبما شهد به فى كتابه أن المعاصى سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 وقال{ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ }الشورى48 وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون فى الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به فى الآخرة ولهذا قال مؤمن آل فرعون { يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ{30} مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ{31} وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ{32} يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{33} غافر30-33 وقال تعالى {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }القلم33 وقال {سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ }التوبة101 ولهذا يذكر الله فى عامة سور الانذار ما عاقب به أهل السيئات فى الدينا وما أعده لهم فى الآخرة وقد يذكر فى السورة وعد الآخرة فقط اذ عذاب الآخرة أعظم وثوابها أعظم وهى دار القرار وانما يذكر ما يذكره من الثواب والعذاب فى الدنيا تبعا كقوله عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }العنكبوت27 وأما ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ففى سورة { وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً{1} وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً{2} وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً{3} فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً{4} فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً{5} يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ{6} تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ{7} قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ{8} أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ{9} يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ{10} أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً{11} قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ{12} فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ{13} فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ{14} النَّازِعَاتِ 6-14 فذكر القيامة مطلقا ثم قال { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16} اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى{20} فَكَذَّبَ وَعَصَى{21} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{22} فَحَشَرَ فَنَادَى{23} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{26} النَّازِعَاتِ 15- 26 ثم ذكر المبدأ والمعاد مفصلا فقال { أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا{27} رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا{28} وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا{29} وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا{30} أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا{31} وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا{32} مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{33} النَّازِعَاتِ 27 -33 ثم قال تعالى { فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى{34} يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى{35} وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى{36} فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41} يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا{42} فِيمَ أَنتَ مِن

ذِكْرَاهَا{43} إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا{44} إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا{45} كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا{46} النَّازِعَاتِ 34-46 [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 140 و الاستقامة ج: 2 ص: 238

~§§ النازعات(مكية)46 §§~

سورة النازعات1-14

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً{1} وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً{2} وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً{3} فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً{4} فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً{5} يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ{6} تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ{7} قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ{8} أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ{9} يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ{10} أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً{11} قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ{12} فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ{13} فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ{14}

الجزاء من أعظم الأمور المقسم عليه

قال تعالى {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً {1} وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً{2} وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً{3} فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً{4} فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً{5}النازعات1-5 وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور وانما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته واقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته فالقسم اما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى {فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ }الذاريات23 وإما على جملة طلبية كقوله تعالى {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{93}الحجر92-93 مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر وقد يراد به محض القسم والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلابد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية اذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها وما أقسم عليه الرب عز وجل فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس وهو سبحانه وتعالى لما أقسم ب {وَالصَّافَّاتِ }الصافات1 و {وَالذَّارِيَاتِ }الذاريات1 و {وَالْمُرْسَلَاتِ }المرسلات1 ذكر المقسم عليه فقال تعالى {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ }الصافات4 وقال تعالى { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ{5} وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ{6}الذاريات5-6 وقال تعالى { إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ } المرسلات 7 ولم يذكره فى النازعات فان الصافات هى الملائكة وهو لم يقسم على وجودها كما لم يقسم على وجود نفسه اذ كانت الأمم معترفة بالصافات وكانت معرفته ظاهرة عندهم لا يحتاج الى أقسام بخلاف التوحيد فانه كما قال تعالى{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }يوسف106 وكذلك الملائكة يقر بها

عامة الأمم كما ذكر الله عن قوم نوح وعاد وثمود وفرعون مع شركهم وتكذيبهم بالرسل أنهم كانوا يعرفون الملائكة قال قوم نوح { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً }المؤمنون24 وقال { أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ {13} إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً {14}فصلت13-14 وقال فرعون { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ{52} فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ{53}الزخرف52-53 وكذلك مشركوا العرب قال تعالى {وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ }الأنعام8 وقال تعالى {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً }الفرقان7 وقال تعالى عن الأمم مطلقا وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً }الإسراء95 فكانت هذه الأمم المكذبة للرسل المشركة بالرب مقرة بالله وبملائكته فكيف بمن سواهم فعلم أن الاقرار بالرب وملائكته معروف عند عامة الأمم فلهذا لم يقسم عليه وانما أقسم على التوحيد لأن اكثرهم مشركون وكذلك {وَالذَّارِيَاتِ}الذاريات1 و {فَالْحَامِلَاتِ }الذاريات2 و {فَالْجَارِيَاتِ }الذاريات3 هى أمور مشهودة للناس و {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً }الذاريات4 هم الملائكة فلم يكن فيما اقسم به ما أقسم عليه فذكر المقسم عليه فقال تعالى {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ {5} وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ{6}الذاريات5 -6 و {وَالْمُرْسَلَاتِ }المرسلات1 سواء كانت هى الملائكة النازلة بالوحى والمقسم عليه الجزاء فى الآخرة أو الرياح أو هذا وهذا فهى معلومة ايضا وأما{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً }النازعات1 فهى الملائكة القابضة للأرواح وهذا يتضمن الجزاء وهو من أعظم المقسم عليه قال تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ }السجدة11 وقال تعالى {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ {61} ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ{62}الأنعام61 -62هو ولا يعين على عبادته الا هو وهذا يقين يعطى الاستعانة والتوكل وهو يقين بالقدر الذى لم يقع فان الاستعانة والتوكل انما يتعلق بالمستقبل فأما ما وقع فانما فيه الصبر والتسليم والرضى كما فى حديث عمار بن ياسر رضى الله عنه مرفوعا الى النبى أسألك الرضا بعد القضاء وقول لا حول ولا قوة الا بالله يوجب الاعانة ولهذا سنها النبى اذا قال المؤذن حى على الصلاة فيقول المجيب لا حول ولا قوة الا بالله فإذا قال حى على الفلاح قال المجيب لا حول ولا قوة الا بالله [1]

الاقسام عامتها بالذوات الفاعلة و غير الفاعلة

فالاقسام التى فى القرآن عامتها بالذوات الفاعلة و غير الفاعلة يقسم بنفس الفعل كقوله { وَالصَّافَّاتِ صَفّاً{1} فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً{2} فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً{3}الصافات 1-3 و كقوله {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً {1} وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً{2} وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً{3} فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً{4} فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً{5}النازعات1-5 {وَالْمُرْسَلَاتِ }المرسلات1 و نحو ذلك و هو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات و تارة بربها و خالقها كقوله {فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ }الذاريات23 و كقوله {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 13 ص:318- 321

و تارة يقسم بها و بربها وفى هذه السورة أقسم بمخلوق و بفعله و أقسم بمخلوق دون فعله فاقسم بفاعله فإنه قال { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4}الشمس 1-4 فأقسم بالشمس و القمر و الليل و النهار و آثارها و أفعالها كما فرق بينهما في قوله {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ }فصلت37 و قال { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء33 فإنه بأفعال هذه الأمور و آثارها تقوم مصالح بني آدم و سائر الحيوان [1]

من حلف بغير الله فقد أشرك

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً {1} وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً{2} وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً{3} فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً{4} فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً{5}النازعات1-5 والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم وفى الصحيحين عنه أنه قال من حلف باللات والعزى فليقل لا اله إلا الله وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش والكرسى والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبى والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين وأيمان البندق وسراويل الفتوة وغير ذلك لا ينعقد يمينه ولا كفارة فى الحلف بذلك والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب أبى حنيفة وأحد القولين فى مذهب الشافعى وأحمد وقد حكى اجماع الصحابة على ذلك وقيل هى مكروهة كراهة تنزيه والأول أصح حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر لأن أحلف بالله كاذبا أحب الى من أن أحلف بغير الله صادقا وذلك لأن الحلف بغير الله شرك والشرك أعظم من الكذب وإنما نعرف النزاع فى الحلف بالأنبياء فعن أحمد فى الحلف بالنبى صلى الله عليه وسلم روايتان احداهما لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبى حنيفة والشافعى والثانية ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضى وأتباعه وابن المنذر وافق هؤلاء وقصر أكثر هؤلاء النزاع فى ذلك على النبى خاصة وعدى ابن عقيل هذا الحكم الى سائر الأنبياء وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وان كان نبيا قول ضعيف فى الغاية مخالف للأصول والنصوص[2]

{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 228-229

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

العلم بالملائكة وما وكلهم الله من الامور التي يدبرونها كما قال فيهم {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }النازعات5 وقال {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً }الذاريات4 وهم الملائكة باتفاق السلف وغيرهم من علماء المسلمين لم يقل أحد من السلف إنها الكواكب [1]

ان حركات الافلاك وان كانت من جملة الاسباب فليس الحوادث كلها صادرة عن حركة الفلك بل فوق ذلك من مخلوقات الله امور اخر وملائكة الله الذين يدبر بهم امر السماء والارض وهم {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }النازعات5 و{فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً }الذاريات4 التي اقسم الله بها في كتابه ليست هي الكواكب عند احد من سلف الامة وليست الملائكة هي العقول والنفوس التي تثبتها الفلاسفة المشاون اتباع ارسطو ونحوهم كما قد بسط الكلام عليهم في غير هذا الموضع وبين خطأ من يظن ذلك ويجمع بين ما قالوه وبين ما جاءت به الرسل [2]

الملائكة هم رسل الله في تدبير العالم

فإن ما في الأجسام من حركه طبعية فإنما أصلها السكون فإنه إذا خرجت عن مستقرها كانت بطبعها تطلب مستقرها وما فيها من حركة قسرية فأصلها من القاسر القاهر فلم تبق حركة اختيارية إلا عن الإرادة والحركات إما إرادية وإما طبعية وإما قسرية لأن الفاعل المتحرك إن كان له شعور بها فهي الإرادية وإن لم يكن له شعور فإن كانت علي وفق طبع المتحرك فهي الطبعية وإن كانت علي خلاف ذلك فهي القسرية وبينا أن ما السموات والأرض وما بينهما من حركة الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركة الرياح والسحاب والمطر والنبات وغير ذلك فإنما هو بملائكة الله تعالي الموكلة بالسموات والأرض الذين {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }الأنبياء27 كما قال تعالي {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }النازعات5 {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً }الذاريات4 وكما دل الكتاب والسنة علي أصناف الملائكة وتوكلهم بأصناف المخلوقات ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره فليس لهم من الأمر شئ بل {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى }النجم26 و { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً{64} رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً{65}مريم64-65 [3]

الملائكة هم رسل الله في تدبير العالم[4]

وأما المتفلسفة واتباعهم فغايتهم أن يستدلوا بما شاهدوه من الحسيات ولا يعلمون ما وراء ذلك مثل ان يعلموا أن البخار المتصاعد ينعقد سحابا وان السحاب اذا اصطك حدث عنه صوت ونحو ذلك لكن علمهم بهذا كعلمهم بأن المنى يصير فى الرحم لكن ما الموجب لأن يكون المنى المتشابه الأجزاء تخلق منه هذه الاعضاء المختلفة والمنافع المختلفة على هذا الترتيب المحكم المتقن الذى فيه

---

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 471

[2] الرد على المنطقيين ج: 1 ص:274- 275

[3] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 10

[4] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 25

من الحكمة والرحمة ما بهر الالباب وكذلك ما الموجب لأن يكون هذا الهواء أو البخار منعقدا سحابا مقدرا بقدر مخصوص فى وقت مخصوص على مكان مختص به وينزل على قوم عند حاجتهم اليه فيسقيهم بقدر الحاجة لا يزيد فيهلكوا ولا ينقص فيعوزوا وما الموجب لأن يساق الى الارض الجرز التى لا تمطر او تمطر مطرا لا يغنيها كأرض مصر اذ كان المطر القليل لا يكفيها والكثير يهدم ابنيتها قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ }السجدة27 وكذلك السحاب المتحرك وقد علم أن كل حركة فاما ان تكون قسرية وهى تابعة للقاسر أو طبيعة وانما تكون اذا خرج المطبوع عن مركزه فيطلب عوده اليه أو ارادية وهى الأصل فجميع الحركات تابعة للحركة الارادية التى تصدر عن ملائكة الله تعالى التى هى {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }النازعات5 و {فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً }الذاريات4 وغير ذلك مما أخبر الله به عن الملائكة وفى المعقول ما يصدق ذلك فالكلام فى هذا وأمثاله له موضع غير هذا [1]

الملائكة هم الوسائط فيما يخلقه الله تعالى

وقد علم بالدلائل الكثيرة أن الله خالق الأشياء بالأسباب فعلم أن الملائكة هم الوسائط فيما يخلقه الله تعالى كما قال تعالى {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }النازعات5 [2]

العينان أشد الأعضاء إرتباطا بالقلب

و ليس من الأعضاء أشد إرتباطا بالقلب من العينين و لهذا جمع بينهما فى قوله {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ}الأنعام110 {تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ }النور37 {وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ }الأحزاب10 { قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ{8} أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ{9} النازعات 8-9 و لأن كليهما له النظر فنظر القلب الظاهر بالعينين والباطن به وحده [3]

لطائف لغوية

1-قوله تعالى {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }النازعات5 فالمدبرات هى الملائكة [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 558

[2] الصفدية ج: 1 ص: 175

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 225

[4] مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 183

سورة النازعات15-26

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16} اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى{20} فَكَذَّبَ وَعَصَى{21} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{22} فَحَشَرَ فَنَادَى{23} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{26}

لا يجوز أن يوصف بالربوبية مطلقا إلا الله وحده

قال تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16} اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى{20} فَكَذَّبَ وَعَصَى{21} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{22} فَحَشَرَ فَنَادَى{23} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{26} النازعات15-26 فقد صح من الله سبحانه أنه أخذ نكالا على ذلك وجعله في ذلك عبرة وجعل المناداة بهذه الكلمة عينها عين الكفر حيث قال { فَكَذَّبَ وَعَصَى{21} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{22} فَحَشَرَ فَنَادَى{23} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} النازعات 21-24 وإنه لا يجوز لأحد أن يقول للإنس والجن أنا ربكم غير الله تعالى ولا يجوز لأحد أن يجعل غير الله ربا كما لا يجوز أن يوصف بالربوبية مطلقا إلا الله وحده لا شريك له[1]

وقت النداء في وقت مخصوص

قال تعالى {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً }النساء164 وقوله {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}الأعراف143 وقوله {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً }مريم52 وقوله { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى{11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{12} وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى{13}طه 11-13 الآيات دليل على تكليم سمعه موسى والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ومن قال انه يسمع فهو مكابر ودليل على انه ناداه والنداء لا يكون الا صوتا مسموعا ولا يعقل فى لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازا وأيضا فقد قال تعالى {فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }النمل8 وقوله {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }القصص30 وقال { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى{11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ {12} طه 11-12 وفى هذا دليل على انه حينئذ نودى ولم يناد قبل ذلك ولما فيها من معنى الظرف كما فى قوله {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً }الجن19 ومثل هذا قوله {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ

---

[1] بغية المرتاد ج: 1 ص: 380

مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ }القصص65 {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }القصص74 فانه وقت النداء بظرف محدود فدل على أن النداء يقع فى ذلك الحين دون غيره من الظروف وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه[1]

وقوله تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16} النازعات 15-16 فوقت النداء بقوله فلما وبقوله إذ فعلم أنه كان في وقت مخصوص لم يناداه قبل ذلك[2]

الإقرار بالله تعالى من لوازم العقل

و الذين قالوا المعرفة لا تحصل إلا بالنظر قالوا لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر و غيره فيقال لهم و ليس فيما قص الله علينا من أخبار الرسل أن منهم أحدا أوجبها بل هي حاصلة عند الأمم جميعهم و لكن أكثر الرسل إفتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه كما أخبر الله عن نوح وهود و صالح و شعيب و قومهم كانوا مقرين بالخالق لكن كانوا مشركين يعبدون غيره كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه و سلم ومن الكفار من أظهر جحود الخالق كفرعون حيث قال { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ }القصص38 و قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و قال لموسى { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }الشعراء29 وقال { يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ{36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً {37}غافر36 -37 ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله فى القرآن قال { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{10} قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ{11} قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ{12} وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ{13} وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ{14} قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ{15} فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{16} أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ{17} قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ{18} وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ{19} قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ{20} فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ{21}الشعراء 10-21 قال فرعون إنكارا و جحدا { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء23 قال موسى { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ{24} قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ{25} قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ{26} قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ{27} قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا {28}الشعراء 28 الآيات وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء23 هو سؤال عن ماهية الرب كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول ما الإنسان ما الملك ما الجنى و نحو ذلك قالوا و لما لم يكن للمسئول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به و هو قوله { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }الشعراء23 و هذا قول قاله بعض المتأخرين و هو باطل فإن فرعون إنما استفهم إستفهام إنكار و جحد لم يسأل عن ماهية رب أقر بثبوته بل كان منكرا له جاحدا و لهذا قال في تمام الكلام { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص:130- 131

[2] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 64

لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }الشعراء29 و قال { وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً }غافر37 فإستفهامه كان إنكارا و جحدا يقول ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا إنكارا له فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده وأنكم إنما تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم كما قال موسى فى موضع آخر لفرعون {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ}الإسراء102 و قال الله تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }النمل14 و لم يقل فرعون و من رب العالمين فإن من سؤال عن عينه يسأل بها من عرف جنس المسؤل عنه أنه من أهل العلم و قد شك فى عينه كما يقال لرسول عرف انه جاء من عند إنسان من أرسلك و أما ما فهى سؤال عن الوصف يقول أي شيء هو هذا و ما هو هذا الذي سميته { رَبُّ الْعَالَمِينَ }الشعراء23 قال ذلك منكرا له جاحدا فلما سأل جحدا أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر و أظهر من أن يشك فيه و يرتاب فقال {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ } الشعراء24 و لم يقل موقنين بكذا و كذا بل أطلق فأي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب كما قالت الرسل لقومهم { أَفِي اللَّهِ شَكٌّ }إبراهيم10 و إن قلتم لا يقين لنا بشيء من الأشياء بل سلبنا كل علم فهذه دعوى السفسطة العامة و مدعيها كاذب ظاهر الكذب فإن العلوم من لوازم كل إنسان فكل إنسان عاقل لابد له من علم و لهذا قيل فى حد العقل إنه علوم ضرورية و هي التى لا يخلو منها عاقل فلما قال فرعون { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ }الشعراء27 و هذا من إفتراء المكذبين على الرسول لما خرجوا عن عاداتهم التى هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون و لما كانوا مظهرين للجحد بالخالق أو للإسترابة و الشك فيه هذه حال عامتهم و دينهم و هذا عندهم دين حسن و إنما إلههم الذي يطيعونه فرعون قال { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ }الشعراء27 فبين له موسى أنكم الذين سلبتم العقل النافع و أنتم أحق بهذا الوصف فقال {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }الشعراء28 فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية و أعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق فلما ذكر أولا أن من أيقن بشيء فهو موقن به و اليقين بشيء هو من لوازم العقل بين ثانيا أن الإقرار به من لوازم العقل و لكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه فإن لم يعمل به صاحبه قيل إنه ليس له عقل و يقال أيضا لمن لم يتبع ما أيقن به إنه ليس له يقين فإن اليقين أيضا يراد به العلم المستقر فى القلب و يراد به العمل بهذا العلم فلا يطلق الموقن إلا على من استقر في قلبه العلم و العمل و قوم فرعون لم يكن عندهم إتباع لما عرفوه فلم يكن لهم عقل و لا يقين و كلام موسى يقتضى الأمرين إن كان لك يقين فقد عرفته و إن كان لك عقل فقد عرفته و إن ادعيت أنه لا يقين لك و لا عقل لك فكذلك قومك فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان و من يكون هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية مع أن هذا باطل منكم فإنكم موقنون به كما قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً }النمل14و لكم عقل تعرفونه به و لكن هواكم يصدكم عن إتباع موجب العقل و هو إرادة العلو في الأرض و الفساد فأنتم لا عقل لكم بهذا الإعتبار كما قال أصحاب النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 و قال تعالى عن الكفار {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }الفرقان44 قال تعالى عن فرعون و قومه {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ }الزخرف54 و الخفيف هو السفيه الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه و بسط هذا له موضع آخر و المقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا و استدلوا حتى تعرفوه فلم يكلفوا أولا بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقر به وكل مولود يولد على الفطرة لكن عرض للفطرة ما غيرها و الإنسان إذا

ذكر ذكر ما فى فطرته و لهذا قال الله فى خطابه لموسى {فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ }طه44 ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه و يعرف إنعامه عليه و إحسانه إليه و إفتقاره إليه فذلك يدعوه إلى الإيمان { أَوْ يَخْشَى }طه44 ما ينذره به من العذاب فذلك أيضا يدعوه إلى الإيمان كما قال تعالى {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ }النحل125 فالحكمة تعريف الحق فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة و من نازعه هواه وعظ بالترغيب والترهيب فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى إتباعه فإن الحق محبوب فى الفطرة وهو أحب إليها وأجل فيها وألذ عندها من الباطل الذي لا حقيقة له فإن الفطرة لا تحب ذاك فإن لم يدعه الحق و العلم به خوف عاقبة الجحود والعصيان وما فى ذلك من العذاب فالنفس تخاف العذاب بالضرورة فكل حى يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع فمن الناس من يتبع هواه فيتبع الأدنى دون الأعلى كما أن منهم من يكذب بما خوف به أو يتغافل عنه حتى يفعل ما يهواه فإنه إذا صدق به و استحضره لم يبعث نفسه إلى هواها بل لابد من نوع من الغفلة و الجهل حتى يتبعه و لهذا كان كل عاص لله جاهلا كما قد بسط هذا فى مواضع [1]

لم يزل الله متكلما إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه فجميعه كلام الله فلا يقال بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى فانه قد أخبر انه نادى موسى فى غير موضع من القرآن كما قال تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16} النازعات15-16 والنداء لا يكون إلا صوتا باتفاق أهل اللغة وقد قال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً {163} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{164}النساء163-164 فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى فمن قال ان موسى لم يسمع صوتا بل ألهم معناه لم يفرق بين موسى وغيره وقد قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ }البقرة253 وقال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ }الشورى51 فقد فرق بين الايحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلم الله موسى فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالا وقد قال الامام أحمد رضى الله عنه وغيره من الأئمة لم يزل الله متكلما إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقدرته يتكلم بشيء بعد شيء كما قال تعالى {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى }طه11 فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك وقال تعالى { فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ }الأعراف22 فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم يناديهما قبل ذلك وكذلك قال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ }الأعراف11 بعد أن خلق آدم وصوره ولم يأمرهم قبل ذلك وكذا قوله {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }آل عمران59 فأخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير يخبر انه تكلم فى وقت معين ونادى فى وقت معين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 335-339

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ }البقرة158 وقال نبدأ بما بدأ الله به فأخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة والسلف اتفقوا على ان كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فظن بعض الناس ان مرادهم انه قديم العين ثم قالت طائفة هو معنى واحد هو الأمر بكل مأمور والنهى عن كل منهى والخبر بكل مخبر إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان انجيلا وهذا القول مخالف للشرع والعقل وقالت طائفة هو حروف وأصوات قديمة الاعيان لازمة لذات الله لم تزل لازمة لذاته وإن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معا أزلا وأبدا لم تزل ولا تزال لم يسبق منها شيء شيئا وهذا أيضا مخالف للشرع والعقل وقالت طائفة ان الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته وانه فى الأزل كان متكلما بالنداء الذى سمعه موسى وإنما تجدد استماع موسى لا أنه ناداه حين أتى الوادى المقدس بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ولكن تلك الساعة سمع النداء وهؤلاء وافقوا الذين قالوا ان القرآن مخلوق فى أصل قولهم فان أصل قولهم ان الرب لا تقوم به الامور الاختيارية فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته وقالوا هذه حوادث والرب لا تقوم به الحوادث فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول واعتقدوا أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ويثبتون حدوث العالم وأخطأوا فى ذلك فلا للاسلام نصروا ولاللفلاسفة كسروا وادعوا ان الرب لم يكن قادرا فى الازل على كلام يتكلم به ولا فعل يفعله وانه صار قادرا بعد ان لم يكن قادرا بغير أمر حدث أو يغيرون العبارة فيقولون لم يزل قادرا لكن يقولون ان المقدور كان ممتنعا وإن الفعل صار ممكنا له بعد أن صار ممتنعا عليه من غير تجدد شيء وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا كان قادرا فى الأزل على ما يمكن فيما لا يزال لا على مالا يمكن فى الأزل فيجمعون بين النقيضين حيث يثبتونه قادرا فى حال كون المقدور عليه ممتنعا عندهم ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه كما لم يفرق الفلاسفة بين هذا وهذا بل الفلاسفة ادعوا ان مفعوله المعين قديم بقدمه فضلوا فى ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول فإن الادلة لا تدل على قدم شيء بعينه من العالم بل تدل على ان ما سوى الله مخلوق حادث بعد ان لم يكن إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته كما تدل على ذلك الدلائل القطعية والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله لازما لذاته بصريح العقل وإتفاق عامة العقلاء بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازما لذاته ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ولو قدر أنه فاعل بغير ارادة فكيف بالفاعل بالارادة وما يذكر بأن المعلول يقارن علته انما يصح فيما كان من العلل يجرى مجرى الشروط فان الشرط لا يجب ان يتقدم على المشروط بل قد يقارنه كما تقارن الحياة العلم وأما ما كان فاعلا سواء سمى علة أو لم يسم علة فلا بد ان يتقدم على الفعل المعين والفعل المعين لا يجوز ان يقارنه شيء من مفعولاته ولا يعرف العقلاء فاعلا قط يلزمه مفعول معين وقول القائل حركت يدى فتحرك الخاتم هو من باب الشرط لا من باب الفاعل ولأنه لو كان العالم قديما لكان فاعله موجبا بذاته فى الأزل ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه ولو كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث وهذا خلاف المشاهدة وإن كان هو سبحانه لم يزل قادرا على الكلام والفعل بل لم يزل متكلما إذ شاء فاعلا لما يشاء ولم يزل موصوفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال ولاكرام والعالم فيه من الاحكام والاتقان ما دل على علم الرب وفيه من الاختصاص مادل على مشيئته وفيه من الإحسان ما دل عل رحمته وفيه من العواقب الحميدة ما دل على حكمته وفيه من الحوادث ما دل على قدرة الرب تعالى مع ان الرب مستحق لصفات الكمال لذات فإنه مستحق لكل كمال ممكن الوجود لا نقص فيه منزه عن كل نقص وهو سبحانه ليس له كفؤ فى شيء من أموره فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل منزه فيها عن التشبيه والتمثيل ومنزه عن النقائص مطلقا فان وصفه بها من أعظم الاباطيل وكماله من لوازم ذاته المقدسة لا يستفيده من غيره بل هو المنعم عل

خلقه بالخلق والإنشاء وما جعله فيهم من صفات الأحياء وخالق صفات الكمال أحق بها ولا كفؤ له فيها[1]

هذا وقد أخبر سبحانه عن نفسه بالنداء فى أكثر من عشرة مواضع فقال تعالى {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ }الأعراف22 وقال تعالى {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }القصص62 {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ }القصص65 وذكر سبحانه نداءه لموسى عليه السلام فى سورة طه و مريم و الطس الثلاث وفى سورة و النازعات وأخبر أنه ناداه في وقت بعينه فقال تعالى{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }القصص30 وقال تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16}النازعات15-16 وقال تعالى {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا }القصص46 {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ }الصافات104 واستفاضت الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة أنه سبحانه ينادى بصوت نادى موسى وينادى عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحى بصوت ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف كما لم يقل أحد منهم أن الصوت الذى سمعه موسى قديم ولا أن ذلك النداء قديم ولا قال أحد منهم أن هذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذى تكلم الله به بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذى يتكلم الله به وبين أصوات العباد [2]

الله سبحانه فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء

قربه سبحانه ودنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء كما قال ذلك من قاله من السلف وهذا كقربه الى موسى لما كلمه من الشجرة قال تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16} اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى{20} النازعات 15-20 وقال تعالى { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{30} القصص 30 ذكر أنه ناداه من شاطىء الوادى الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة وقوله { مِنَ الشَّجَرَةِ } القصص 30 هو بدل من قوله { مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ } القصص 30 فالشجرة كانت فيه وقال أيضا {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً }مريم52 والطور هو الجبل فالنداء كان من الجانب الايمن من الطور ومن الوادى فان شاطىء الوادى جانبه وقال {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ }القصص44 أى بالجانب الغربى وجانب المكان الغربى فدل على ان هذا الجانب الايمن هو الغربى لا الشرقى فذكر ان النداء كان من موضع معين وهو الوادى المقدس طوى من شاطىء الوادى الايمن من جانب الطور الايمن من الشجرة وذكر أنه قربه نجيا فناداه وناجاه وذلك المنادى له

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 587

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 304

والمناجى له هو الله رب العالمين لا غيره ونداؤه ومناجاته قائمة به ليس ذلك مخلوقا منفصلا عنه كما يقوله من يقول ان الله لا يقوم به كلام بل كلامه منفصل عنه مخلوق وهو سبحانه وتعالى ناداه وناجاه ذلك الوقت كما دل عليه القرآن لا كما يقوله من يقول لم يزل مناديا مناجيا له ولكن ذلك الوقت خلق فيه ادراك النداء القديم الذى لم يزل ولا يزال فهذان قولان مبتدعان لم يقل واحدا منها أحد من السلف واذا كان المنادى هو الله رب العالمين وقد ناداه من موضع معين وقربه اليه دل ذلك على ما قاله السلف من قربه ودنوه من موسى عليه السلام مع أن هذا قرب مما دون السماء وقد جاء أيضا من حديث وهب بن منبه وغيره من الاسرائيليات قربه من ايوب عليه السلام وغيره من الانبياء عليهم السلام ولفظه الذى ساقه البغوى أنه اضله غمام ثم نودى يا ايوب أنا الله يقول أنا قد دنوت منك انزل منك قريبا لكن الاسرائيليات انما تذكر على وجه المتابعة لا على وجه الاعتماد عليها وحدها وهو سبحانه وتعالى قد وصف نفسه فى كتابه وفى سنة نبيه بقربه من الداعى وقربه من المتقرب اليه فقال تبارك وتعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} البقرة186 وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى أنهم كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال ايها الناس أربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا أن الذى تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته وفى الصحيحين عن النبى يقول الله تعالى من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة [1]

الرب تعالى لم يكن فى باطن الشجرة ولا حل فيها

وقد أخبر الله تعالى في القرآن بندائه لعباده في أكثر من عشرة مواضع والنداء لا يكون إلا صوتا باتفاق أهل اللغة وسائر الناس والله أخبر أنه نادى موسى حين جاء الشجرة فقال {فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} النمل8 {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى {11} إِنِّي أَنَا رَبُّكَ {12}طه11 - 12 {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ} القصص30 {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} الشعراء10 {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً} مريم52 { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16} النازعات 15- 16 {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} القصص46 {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} القصص62 {وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ} الصافات104 في موضعين {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} القصص65 { وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا} الأعراف22 فمن قال إنه لم يزل مناديا من الأزل إلى الأبد فقد خالف القرآن والعقل ومن قال إنه بنفسه لم يناد ولكن خلق نداء في شجرة أو غيرها لزم أن تكون الشجرة هي القائلة إني أنا الله وليس هذا كقول الناس نادى الأمير إذ أمر مناديا فإن المنادي عن الأمير يقول أمر الأمير بكذا ورسم السلطان بكذا لا يقول أنا أمرتكم ولو قال ذلك لأهانه الناس والمنادي قال لموسى {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي} طه14 { إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} القصص30 وهذا لا يجوز أن يقوله ملك إلا إذا بلغه عن الله كما نقرأ نحن القرآن والملك إذا أمره الله بالنداء قال كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني أحب فلانا فأحبه ثم ينادي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 462-464

جبريل في السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فجبريل إذا نادى في السماء قال إن الله يحب فلانا فأحبوه والله إذا نادى جبريل يقول يا جبريل إني أحب فلانا ولهذا لما نادت الملائكة زكريا قال تعالى {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى}آل عمران39 وقال {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ }آل عمران42 ولا يجوز قط لمخلوق أن يقول إني أنا الله رب العالمين ولا يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له والله تعالى إذا خلق صفة في محل كان المحل متصفا بها فإذا خلق في محل علما أو قدرة أو حياة أو حركة أو لونا أو سمعا أو بصرا كان ذلك المحل هو العالم به القادر المتحرك الحي المتلون السميع البصير فإن الرب لا يتصف بما يخلقه في مخلوقاته وإنما يتصف بصفاته القائمة به بل كل موصوف لا يوصف إلا بما يقوم به لا بما يقوم بغيره ولم يقم به فلو كان النداء مخلوقا في الشجرة لكانت هي القائلة إني أنا الله وإذا كان ما خلقه الرب في غيره كلاما له وليس له كلام إلا ما خلقه لزم أن يكون إنطاقه لأعضاء الإنسان يوم القيامة كلاما له وتسبيح الحصى كلاما له وتسليم الحجر على الرسول كلاما له بل يلزم أن يكون كل كلام في الوجود كلامه لأنه قد ثبت أنه خالق كل شيء[1]

والرب تعالى لم يكن في باطن الشجرة ولا حل فيها ولا اتحد بها وقول الله إنه كلمه منها وناداه منها كقوله {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16} اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} النازعات16-17 وفي البقعة المباركة ونحو ذلك وليس في شيء من ذلك أن الرب تعالى حل في باطن الوادي المقدس أو البقعة المباركة أو الجانب الأيمن ولا أنه اتحد بشيء من ذلك ولا صار هو وشيء من ذلك جوهرا واحدا ولا شخصا واحدا كما يقول بعض النصارى إن اللاهوت والناسوت صارا جوهرا واحدا وبعضهم يقول صارا شخصا واحدا بل ولا قال أحد أنه حل في شيء من ذلك كحلول الماء في اللبن أو النار في الحديد كما يقول بعضهم إن اللاهوت حل في الناسوت كذلك ولو قدر أن بعض الناس قد قال شيئا من المقالات التي لا تدل عليها الكتب الإلهية ولا تعلم بالعقل لم يكن قوله حجة إذ لا يحتج إلا بنقل ثابت عن الأنبياء أو بما يعلم بالعقل و أن الذي كلم موسى وناداه هو الله رب العالمين وتكليمه له من الشجرة من جنس ما أخبر بنزوله إلى السماء الدنيا ونزوله يوم القيامة لحساب الخلق والكلام على ذلك مبسوط في غير هذا الموضع [2]

جمع بين التزكى والهدى والخشية

أن العمل إما بمعرفة الحق وإتباعه فى العلم والعمل جميعا صلاح القول والعمل العلم والإرادة والعلم أصل العمل و أصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له مالم يحصل معارض مانع فالعلم بالحق يوجب إتباعه إلا لمعارض راجح مثل إتباع الهوى بالإستكبار ونحوه كحال الذين قال الله فيهم {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً}الأعراف146 وقال {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّا}النمل14 وقال {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 423-425

[2] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 20

بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }الأنعام33 ولهذا قال {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}ص26 ونحو ذلك فإن أصل الفطرة التى فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق إتبعته وأحبته إذ الحق نوعان حق موجود فالواجب معرفته والصدق فى الإخبار عنه وضد ذلك الجهل والكذب وحق مقصود وهو النافع للإنسان فالواجب إرادته والعمل به وضد ذلك إرادة الباطل وإتباعه ومن المعلوم أن الله خلق فى النفوس محبة العلم دون الجهل ومحبة الصدق دون الكذب ومحبة النافع دون الضار وحيث دخل ضد ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك كما انه فى صالح الجسد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار فإذا إشتهى ما يضره أن كره ما ينفعه فلمرض فى الجسد وكذلك أيضا إذا إندفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك أحب القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح كما أن الجسد إذا إندفع عنه المرض أحب ما ينفعه من الطعام والشراب فكل واحد من وجود المقتضى وعدم الدافع سبب للآخر وذلك سبب لصلاح حال الإنسان وضدهما سبب لضد ذلك فإذا ضعف العلم غلبه الهوى الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب وإذا كان كذلك فصلاح بنى آدم الإيمان والعمل الصالح ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان أحدهما الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالا والثانى إتباع الهوى والشهوة اللذين فى النفس فيكونون غواة مغضوبا عليهم ولهذا قال {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} النجم 1-2 وقال عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فوصفهم بالرشد الذى هو خلاف الغى وبالهدى الذى هو خلاف الضلال وبهما يصلح العلم والعمل جميعا ويصير الإنسان عالما عادلا لا جاهلا ولا ظالما وهم فى الصلاح على ضربين تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له إتبعه وعمل به فهذا هو الذى يدعى الحكمة وهو الذى يتذكر وهو الذى يحدث له القرآن ذكرا والثانى ان يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذى ينهى النفس عن الهوى فهذا يدعى بالموعظة الحسنة وهذا هو القسم الثانى المذكور فى قوله { أَوْ يَخْشَى }طه44 وفى قوله { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }طه113 وقد قال فى السورة فى قصة فرعون { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} النازعات 17-19 فجمع بين التزكى والهدى والخشية كما جمع بين العلم والخشية فى قوله { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر28 وفى قوله { وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }الأعراف154 وفى قوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{66} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً{67} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{68} النساء66-68 وذلك لما ذكرنا من أن كل واحد من العلم بالحق الذى يتضمنه التذكر والذكر الذى يحدثه القرآن ومن الخشية المانعة من إتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان وهو مستلزم للآخر إذا قوى على ضده فإذا قوى العلم والتذكر دفع الهوى وإذا إندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعا ولهذا كان فساده بإنتفاء كل منهما فإذا إنتفى العلم الحق كان ضالا غير مهتد وإذا إنتفى إتباعه كان غاويا مغضوبا عليه ولهذا قال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص:240- 244

أسماء وأحكام ما قبل الرسالة وما بعدها

وقد فرق الله بين ما قبل الرسالة وما بعدها فى أسماء وأحكام وجمع بينهما فى أسماء وأحكام وذلك حجة على الطائفتين على من قال ان الافعال ليس فيها حسن وقبيح ومن قال انهم يستحقون العذاب على القولين اما الاول فانه سماهم ظالمين وطاغين ومفسدين لقوله { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} النازعات 17 {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى }طه24 وقوله {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {10} قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ{11}الشعراء10 -11 وقوله {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }القصص4 فاخبر انه ظالما وطاغيا ومفسدا هو وقومه وهذه اسماء ذم الافعال والذم انما يكون فى الافعال السيئة القبيحة فدل ذلك على ان الأفعال تكون قبيحة مذمومة قبل مجيء الرسول اليهم لا يستحقون العذاب الا بعد اتيان الرسول اليهم لقوله {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }الإسراء15 وكذلك أخبر عن هود انه قال لقومه { اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ }هود50 فجعلهم مفترين قبل أن يحكم بحكم يخالفونه لكونهم جعلوا مع الله الها آخر فاسم المشرك ثبت قبل الرسالة فانه يشرك بربه ويعدل به ويجعل معه آلهه أخرى ويجعل له أندادا قبل الرسول ويثبت أن هذه الاسماء مقدم عليها وكذلك اسم الجهل والجاهلية يقال جاهلية وجاهلا قبل مجيء الرسول واما التعذيب فلا والتولى عن الطاعة كقوله {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32}القيامة31-32 فهذا لا يكون الا بعد الرسول مثل قوله عن فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى }النازعات21 كان هذا بعد مجيء الرسول اليه كما قال تعالى { فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى{20} فَكَذَّبَ وَعَصَى{21}النازعات20-21 وقال {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ }المزمل16 هذا آخر ما وجد[1]

قبح أعمال الكفار قبل الرسالة

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول كقوله لموسى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات 17-19 وقال {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{4} وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{5}وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ {6}القصص4-6 فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى وحين كان صغيرا قبل أن يأتيه برسالة انه كان طاغيا مفسدا وقال تعالى {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى{37} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى{38} أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي{39} طه37-39 وهو فرعون فهو إذ ذاك عدو لله ولم يكن جاءته الرسالة بعد[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 20 ص:37- 38

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 679

أصل ما تزكو به القلوب

والقرآن شفاء لما فى الصدور ومن فى قلبه امراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات مايزيل الحق من الباطل فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوير والأدراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغى بعد ان كان مريدا للغى مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التى فطر عليها كما يعود البدن الى الحال الطيبعى ويغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة فى اللغة النماء والزيادة فى الصلاح يقال زكا الشئ اذا نما فى الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصى فانها بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن ومثل الدغل فى الزرع فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الردئية كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعه واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب اذا تاب من الذنوب كتن استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فاذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للاعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التى كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 وقال تعالى { وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }النور28 وقال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }النور30 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 وقال تعالى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى }عبس3 وقال تعالى { فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات18-19 فالتزكية وان كان اصلها النماء والبركة وزيادة الخير فانما تحصل بازالة الشر فلهذا صار التزكى يجمع هذا وهذا وقال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت6-7 وهى التوحيد والايمان الذى به يزكو القلب فانه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات الحق فى القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس[1]

التزكى هو الإيمان و العمل الصالح

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 95-97 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 6

قال تعالى }فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى }النازعات18 كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة[1]

قوله تعالى { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ } غافر13 فهو حق كما قال فإن المتذكر إما أن يتذكر ما يدعوا إلى الرحمة و النعمة و الثواب كما يتذكر الإنسان ما يدعوه إلى السؤال فينيب و إما أن يتذكر ما يقتضي الخوف و الخشية فلابد له من الإنابة حينئذ لينجو مما يخاف و لهذا قيل في فرعون { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ }طه44 فينيب { أَوْ يَخْشَى }طه44 و كذلك قال له موسى {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} النازعات 18-19 فجمع موسى بين الأمرين لتلازمهما و قال في حق الأعمى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4}عبس 3-4 فذكر الإنتفاع بالذكرى كما قال {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 و النفع نوعان حصول النعمة وإندفاع النقمة و نفس إندفاع النقمة نفع و إن لم يحصل معه نفع آخر و نفس المنافع التى يخاف معها عذاب نفع و كلاهما نفع فالنفع تدخل فيه الثلاثة و الثلاثة تحصل بالذكرى كما قال تعالى {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 و قال {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4}عبس 3-4 و أما ذكر التزكي مع التذكر فهو كما ذكر فى قصة فرعون الخشية مع التذكر و ذلك أن التزكي هو الإيمان و العمل الصالح الذي تصير به نفس الإنسان زكية كما قال في هذه السورة { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 و قال { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس9-10 و قال {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }الجمعة2 و قال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت 6-7 و قال موسى لفرعون { هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات 18-19 وعطف عليه {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى }عبس4 لوجوه أحدها أن التزكي يحصل بإمتثال أمر الرسول و إن كان صاحبه لا يتذكر علوما عنه كما قال { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }الجمعة2 ثم قال {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }الجمعة2 فالتلاوة عليهم و التزكية عام لجميع المؤمنين و تعليم الكتاب و الحكمة خاص ببعضهم و كذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول و أما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه الوجه الثاني أن قوله {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى }عبس4 يدخل فيه النفع قليله و كثيره و التزكي أخص من ذلك الثالث أن التذكر سبب التزكي فإنه إذا تذكر خاف و رجا فتزكي فذكر الحكم و ذكر سببه ذكر العمل و ذكر العلم و كل منهما مستلزم للآخر[2]

الخشية فى القرآن مطلقة

---

[1] الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 66

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 185

قال تعالى { هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات 18-19 الى قوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى }النازعات26 الخشية فى القرآن مطلقة تتناول خشية الله و خشية عذابه فى الدنيا و الآخرة [1]

فرعون لا يذكر إلا بالذم والتقبيح واللعن

ثم قال بعد ذلك لما ذكره الله تعالى بقوله {فَكَذَّبَ وَعَصَى{21} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{22} فَحَشَرَ فَنَادَى{23} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} النازعات 21- 24 قال الله تعالى { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{26} النازعات 25- 26 قال كثير من العلماء أي نكال الكلمة الآخرة ونكال الكلمة الأولى فنكل الله تعالى به على الكلمتين باعترافه وجعل ذلك عبرة لمن يخشى ولو كان هذا ممن لم يعاقب على ما تقدم من كفره ولم يكن عقابه عبرة بل من آمن غفر الله له ما سلف ولم يذكره بكفر ولا بذم أصلا بل يمدحه على إيمانه ويثني عليه كما أثنى على من آمن بالرسل وأخبر أنه نجاهم وفرعون هو أكثر الكفار ذكرا في القرآن وهو لا يذكره سبحانه إلا بالذم والتقبيح واللعن ولم يذكره بخير قط[2]

لفظ المعصية اذا أطلق

وكذلك لفظ المعصية و الفسوق و الكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ }هود59 فأطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال { فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ }الملك9 ومعصية من كذب وتولى قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{16} الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى }النازعات21 وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32}القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولي عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما اخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً{15} فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{16} المزمل16 ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن

كقوله { سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }الفتح16 وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ {16} المزمل 16 وقد قيل ان التأبيد لم يذكر في القرآن الا فى وعيد الكفار ولهذا قال {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً }النساء93 وقال فيمن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 175

[2] رسالة في الرد على ابن العربي ج: 1 ص: 211

يجور فى المواريث {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ }النساء14 فهنا قيد المعصية بتعدى حدوده فلم يذكرها مطلقة[1]

السعي في كتاب الله هو العمل والفعل

قال الأئمة السعي في كتاب الله هو العمل والفعل كما قال تعالى {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى }الليل4 وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً }الإسراء19 وقال تعالى {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا }البقرة205 وقال تعالى {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً }المائدة33 وقال عن فرعون {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى }النازعات22 وقال {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً }الإنسان22 [2]

فرعون كشف كفره

قال تعالى { فَكَذَّبَ وَعَصَى{21} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{22} فَحَشَرَ فَنَادَى{23} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} النازعات21-24 فإن فرعون كشف كفره وقال أنا ربكم الأعلى فادعى الربوبية علانية [3]

ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون

أن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول وكانا مشتركين في المقتضى للحكم فلولا أن في نفوس الناس من جنس ما كان في نفوس المكذبين للرسل فرعون ومن قبله لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ولكن الأمر كما قال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ }البقرة118 ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا اليهود والنصارى قال فمن وقال لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع قيل يا رسول الله فارس والروم قال فمن وكلا الحديثين في الصحيحين وقد بين القرآن أن السيئات من النفس وإن كانت بقدر الله فأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به وطلب النفس أن تكون شريكة وندا له أو أن تكون إلها من دونه وكلا هذين وقع فإن فرعون طلب أن يكون إلها معبودا دون الله تعالى وقال { فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} النازعات24 وإبليس يطلب أن يعبد ويطاع من دون الله فيريد أن يعبد ويطاع هو ولا يعبد الله ولا يطاع وهذا الذي في فرعون وإبليس هو غاية الظلم والجهل وفي نفوس سائر الإنس والجن شعبة من هذا وهذا إن لم يعن الله العبد ويهديه وإلا وقع في بعض ما وقع فيه إبليس وفرعون بحسب الإمكان قال بعض العارفين ما من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

[2] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 151 و شرح العمدة ج: 4 ص: 600 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 261

[3] الاستقامة ج: 1 ص: 179

نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون غير أن فرعون قدر فأظهر وغيره عجز فأضمر وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس وسمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته [1]

الإقرار بالصانع فطري ضروري

أما إثبات الصانع فطرقه لا تحصى بل الذي عليه جمهور العلماء أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مغروز في الجبلة ولهذا كانت دعوة عامة الرسل إلى عبادة الله وحده لا شريك له وكان عامة الأمة مقرين بالصانع مع إشراكهم به بعبادة ما دونه والذين أظهروا إنكار الصانع كفرعون خاطبتهم الرسل خطاب من يعرف أنه حق كقول موسى لفرعون {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ }الإسراء102 ولما قال فرعون { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 قال له موسى { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ{24} قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ{25} قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ{26} قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ{27} قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ{28}الشعراء 24- 28

ولما قال فرعون { فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى{49} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى{50} طه 49- 50 فكان جواب موسى له جوابا للمتجاهل الذي يظهر أنه لا يعرف الحق وهو معروف عنده فإن سؤال فرعون بقوله { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} الشعراء23 استفهام إنكار لوجوده ليس هو استفهام طلب لتعريف ماهيته كما ظن ذلك بعض المتأخرين وقالوا إن فرعون طالبه ببيان الماهية فعدل عن ذلك لامتناع الجواب بذكرها فإن هذا غلط منهم فإن فرعون لم يكن مقرا بالصانع ألبته بل كان جاحدا له وكان استفهامه استفهام إنكار لوجوده ولهذا قال { مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 وقال {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 ولو كان مقرا بوجوده طالبا لمعرفة ماهيته لم يقل هذا ولكان موسى ما أجابه إجابة لم تذكر فيها ماهيته [2]

أعظم السيئات جحود الخالق

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس و إن كانت بقدر الله فأعظم السيئات جحود الخالق و الشرك به و طلب النفس أن تكون شريكه و ندا له أو أن تكون إلها من دونه و كلا هذين وقع فان فرعون طلب أن يكون إلها معبودا دون الله تعالى و قال {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 و قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و قال لموسى {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }الشعراء29 و {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ}الزخرف54 و إبليس يطلب أن يعبد و يطاع من دون الله فيريد أن يعبد و يطاع هو و لا يعبد الله و لا يطاع وهذا الذى فى فرعون و إبليس هو غاية الظلم و الجهل وفى نفوس سائر الانسن و الجن شعبة من هذا و هذا إن لم يعن

---

[1] الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 86

[2] منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 271

الله العبد و يهديه و إلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس و فرعون بحسب الامكان قال بعض العارفين ما من نفس إلا و فيها ما فى نفس فرعون غير أن فرعون قدر فأظهر و غيره عجز فأضمر وذلك أن الانسان إذا اعتبر و تعرف نفسه و الناس و سمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع و تعلو بحسب قدرته فالنفس مشحونة بحب العلو و الرياسة بحسب إمكانها فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه و يعادى من يخالفه فى هواه و إنما معبوده ما يهواه و يريده قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً }الفرقان43 و الناس عنده فى هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك و غيرهم يقولون يارباعى أي صديق و عدو فمن وافق هواهم كان وليا و إن كان كافرا مشركا و من لم يوافق هواهم كان عدوا و إن كان من أولياء الله المتقين و هذه هى حال فرعون و الواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه لكنه

لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الالهية و جحود الصانع و هؤلاء و إن كانوا يقرون بالصانع لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته و طاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه كما عادى فرعون موسى وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل و إيمان لايطلب هذا الحد بل يطلب لنفسه ما هو عنده فان كان مطاعا مسلما طلب أن يطاع فى أغراضه و إن كان فيها ما هو ذنب و معصية لله و يكون من أطاعه في هواه أحب اليه و أعز عنده ممن أطاع و خالف هواه وهذه شعبة من حال فرعون و سائر المكذبين للرسل وإن كان عالما أو شيخا أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره حتى لو كانا يقرآن كتابا واحدا كالقرآن أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها كالصلوات الخمس فانه يحب من يعظمه بقبول قوله و الاقتداء به اكثر من غيره و ربما أبغض نظيره و أتباعه حسدا و بغيا كما فعلت اليهود لما بعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم يدعو إلى مثل ما دعا اليه موسى قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ }البقرة91 و قال تعالى {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة4 و قال تعالى {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ }الشورى14 ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون و سلط عليهم من انتقم به منهم فقال تعالى عن فرعون {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }القصص4 و قال تعالى عنهم {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً }الإسراء4 و لهذا قال تعالى {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً }القصص83 والله سبحانه و تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ليذكروه و يشكروه و يعبدوه و أرسل الرسل و أنزل الكتب ليعبدوا الله وحده و ليكون الدين كله لله و لتكون كلمة الله هي العليا كما أرسل كل رسول بمثل ذلك قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 و قال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 و قد أمر الله الرسل كلهم بهذا و أن لا يتفرقوا فيه فقال {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ }الأنبياء92 [1]

موسى عليه السلام خاصم فرعون الذى جحد الربوبية

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:323- 326

و موسى عليه السلام خاصم فرعون الذى جحد الربوبية و الرسالة و قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 [1]

المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل

و أن المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل فيكون المستكبر مشركا كما ذكر الله عن فرعون وقومه أنهم كانوا مع استكبارهم وجحودهم مشركين فقال عن مؤمن آل فرعون { وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ{41} تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ{42} لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ{43} غافر41-43 وقال {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ }غافر34 الآية وقال يوسف الصديق لهم {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {39} مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{40}يوسف39-40 وقد قال تعالى {وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ }الأعراف127 فإن قيل كيف يكون قوم فرعون مشركين وقد أخبر الله عن فرعون أنه جحد الخالق فقال {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }الشعراء23 وقال {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 وقال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 وقال عن قومه { فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ{13} وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً{14} النمل13-14 والإشراك لا يكون إلا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشرك به قيل لم يذكر الله جحود الصانع إلا عن فرعون موسى وأما الذين كانوا فى زمن يوسف فالقرآن يدل على أنهم كانوا مقرين بالله وهم مشركون به ولهذا كان خطاب يوسف للملك وللعزيز ولهم يتضمن الإقرار بوجود الصانع كقوله { أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }يوسف39 { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ }يوسف50 الى قوله {إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ }يوسف50 { وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ }يوسف52 الى قوله {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ }يوسف53 وقد قال مؤمن آل حم {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً }غافر34 فهذا يقتضي أن أولئك الذين بعث اليهم يوسف كانوا يقرون بالله ولهذا كان اخوة يوسف يخاطبونه قبل أن يعرفوا أنه يوسف ويظنونه من آل فرعون بخطاب يقتضى الاقرار بالصانع كقولهم { تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ }يوسف73وقال لهم { أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ }يوسف77 وقال {قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ }يوسف79 وقالوا له { يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ }يوسف88 وذلك أن فرعون الذي كان فى زمن يوسف أكرم أبويه وأهل بيته لما قدموا إكراما عظيما مع علمه بدينهم وإستقراء أحوال الناس يدل على ذلك فإن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 216

جحود الصانع لم يكن دينا غالبا على أمة من الأمم قط وإنما كان دين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الإشراك وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس وأولئك كان علماؤهم من الفلاسفة الصابئة المشركين الذين يعظمون الهياكل والكواكب والأصنام والاخبار المروية من نقل أخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك ولكن فرعون موسى {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ }الزخرف54 وهو الذي قال لهم دون الفراعنة المتقدمين {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 ثم قال لهم بعد ذلك { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25}النازعات25 نكال الكلمة الأولى ونكال الكلمة الآخيرة وكان فرعون فى الباطن عارفا بوجود الصانع وإنما إستكبر كإبليس وأنكر وجوده ولهذا قال له موسى {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ }الإسراء102 فلما أنكر الصانع وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها ولم يصفه الله تعالى بالشرك وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة اخرى والمنكر للصانع منهم مستكبر كثيرا ما يعبد آلهة ولا يعبد الله قط فانه يقول هذا العالم واجب الوجود بنفسه وبعض أجزائه مؤثر فى بعض ويقول إنما إنتفع بعبادة الكواكب والأصنام ونحو ذلك ولهذا كان باطن قول هؤلاء الاتحادية المنتسبة إلى الإسلام هو قول فرعون وكنت أبين أنه مذهبهم وأبين أنه حقيقة مذهب فرعون حتى حدثنى الثقة عن بعض طواغيتهم أنه قال نحن على قول فرعون ولهذا يعظمون فرعون فى كتبهم تعظيما كثيرا فانهم لم يجعلوا ثم صانعا للعالم خلق العالم ولا أثبتوا ربا مدبرا للمخلوقات وإنما جعلوا نفس الطبيعة هى الصانع ولهذا جوزوا عبادة كل شيء وقالوا من عبده فقد عبد الله ولا يتصور عندهم أن يعبد غير الله فما من شيء يعبد إلا وهو الله وهذه الكائنات عندهم اجزاؤه أو صفاته كأجزاء الانسان أو صفاته فهؤلاء إذا عبدوا الكائنات فلم يعبدوها لتقربهم الى الله زلفى لكن لأنها عندهم هى الله أو مجلى من مجاليه أو بعض من ابعاضه أو صفة من صفاته أو تعين من تعيناته وهؤلاء يعبدون ما يعبده فرعون وغيره من المشركين لكن فرعون لا يقول هى الله ولا تقربنا الى الله والمشركون يقولون هى شفعاؤنا وتقربنا الى الله وهؤلاء يقولون هى الله كما تقدم وأولئك أكفر من حيث اعترفوا بأنهم عبدوا غير الله أو جحدوه وهؤلاء أوسع ضلالا من حيث جوزوا عبادة كل شيء وزعموا أنه هو الله وان العابد هو المعبود وان كانوا إنما قصدوا عبادة الله واذا كان أولئك كانوا مشركين كما وصفوا بذلك وفرعون موسى هو الذي جحد الصانع وكان يعبد الآلهة ولم يصفه الله بالشرك فمعلوم أن المشركين قد يحبون آلهتهم كما يحبون الله أو تزيد محبتهم لهم على محبتهم لله ولهذا يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم كما قال تعالى {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ }الأنعام108 فقوم فرعون قد يكونون أعرضوا عن الله بالكلية بعد أن كانوا مشركين به واستجابوا لفرعون فى قوله { فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24} النازعات24 و { مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 ولهذا لما خاطبهم المؤمن ذكر الأمرين فقال {تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ }غافر42 فذكر الكفر به الذي قد يتناول جحوده وذكر الإشراك به أيضا فكان كلامه متناولا للمقالتين والحالين جميعا فقد تبين أن المستكبر يصير اما بعبادة آلهة أخرى مع استكباره عن عبادة الله لكن تسمية هذا شركا نظير من امتنع مع استكباره عن إخلاص الدين لله كما قال تعالى {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ {35} وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ{36}الصافات35 -36 فهؤلاء مستكبرون مشركون وإنما إستكبارهم عن إخلاص الدين لله فالمستكبر الذي لا يقر بالله فى الظاهر كفرعون أعظم كفرا منهم وابليس الذي يأمر بهذا كله ويحبه ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته أعظم كفرا من هؤلاء وإن كان عالما بوجود الله وعظمته كما أن فرعون كان أيضا عالما بوجود الله وإذا كانت البدع والمعاصي شعبة من الكفر وكانت مشتقة من شعبه كما أن الطاعات كلها شعبة من شعب الايمان ومشتقة منه وقد علم أن الذي يعرف الحق ولا

يتبعه غاو يشبه اليهود وان الذي يعبد الله من غير علم وشرع هو ضال يشبه النصارى كما كان يقول من يقول من السلف من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى فعلى المسلم أن يحذر من هذين الشبهين الفاسدين من حال قوم فيهم استكبار وقسوة عن العبادة والتأله وقد أوتى نصيبا من الكتاب وحظا من العلم وقوم فيهم عبادة وتأله باشراك بالله وضلال عن سبيل الله ووحيه وشرعه وقد جعل فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وهذا كثير منتشر فى الناس والشبه تقل تارة وتكثر اخرى فاما المستكبرون المتألهون لغير الله الذين لا يعبدون الله وانما يعبدون غيره للانتفاع به فهؤلاء يشبهون فرعون[1]

النسخ لا يجوز فى الأخبار

وقال الامام أبو عبدالله الحارث بن اسماعيل بن أسد المحاسبى فى كتابه المسمى فهم القرآن قال فى كلامه على الناسخ والمنسوخ وأن النسخ لا يجوز فى الأخبار قال لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شىء إلى أن قال وكذلك لا يجوز اذا أخبر أن صفاته حسنة عليا أن يخبر بذلك أنها دنية سفلى فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب وأنه لا يبصر ما قد كان ولا يسمع الاصوات ولا قدره له ولا يتكلم ولا كلام كان منه وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك فاذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز فان تلوت آية فى ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض اخباره كقوله عن فرعون { حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ }يونس90 الآيات وقال قد تأول قوم أن الله عنى أن ينجيه ببدنه من النار لأنه آمن عند الغرق وقال انما ذكر الله أن قوم فرعون يدخلون النار دونه وقال { فَأُوْرَدَهُمُ النَّارَ }هود98 وقال { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ }غافر45 ولم يقل بفرعون قال وهكذا الكذب على الله لأن الله تعالى يقول {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى }النازعات25[2]

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى }

فان نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظى والمعنوى او بالعموم المعنوى وعهود الله فى كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت اولها وانما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأممم لتكون عبرة لنا فنشبه حالنا بحالهم ونقيس اواخر الامم بأوائلها فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة واجمل قصص الانبياء ثم قال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى }يوسف111 اى هذه القصص المذكورة فى الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 628-634

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 66

كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{26}النازعات25-26

وقال في سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع اعدائه ببدر وغيرها {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ }آل عمران13 وقال تعالى فى محاصرته لبنى النضير {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ }الحشر2 فأمرنا ان نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الامم وذكر فى غير موضع ان سنته فى ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة فقال تعالى {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً {60} مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً{61} سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً{62} الأحزاب60 -62 وقال تعالى { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{22} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً{23} الفتح 22-23 واخبر سبحانه ان دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين فينبغى للعقلاء ان يعتبروا بسنة الله وأيامه فى عبادة ودأب الامم وعاداتهم كل ما فيه شر جزئي إضافى ففيه من الخير العام و الحكمة و الرحمة أضعاف ذلك [1]

السنة لا تتبدل ولا تتحول

و ما يثنى ذكره من القصص فى القرآن كقصة موسى وغيرها ليس المقصود بها أن تكون سمرا بل المقصود بها أن تكون عبرا كما قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ}يوسف111 فالذى وقع شيء واحد وله صفات فيعبر عنه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من الصفات التى يعتبر بها المعتبرون وليس هذا من التكرير فى شيء[2]

وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول فى غير موضع و السنة هى العادة التى تتضمن أن يفعل فى الثاني مثل ما فعل بنظيره الاول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ }يوسف111 والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال { فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ }الحشر2 وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ }يوسف111 أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب فى أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 427

[22] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 186

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }آل عمران137 وقال تعالى { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{26}النازعات25-26[1]

ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض

و كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى مما فيه شر جزئي إضافى ففيه من الخير العام و الحكمة و الرحمة أضعاف ذلك مثل إرسال موسى إلى فرعون فانه حصل به التكذيب و الهلاك لفرعون و قومه و ذلك شر بالاضافة اليهم لكن حصل به من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة و الاعتبار بقصة فرعون ما هو خير عام فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به كما قال تعالى { فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ{55} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ{56} الزخرف55-56 و قال تعالى بعد ذكر قصته {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى }النازعات26 وكذلك محمد صلى الله عليه و سلم شقي برسالته طائفة من مشركي العرب و كفار أهل الكتاب و هم الذين كذبوه و أهلكهم الله تعالى بسببه و لكن سعد بها أضعاف هؤلاء ولذلك من شقى به من أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم فأهلك الله بالجهاد طائفة و اهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك و الذين أذلهم الله من أهل الكتاب بالقهر و الصغار أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصغار فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم لئلا يعظم كفرهم و يكثر شرهم ثم بعدهم حصل من الهدى و الرحمة لغيرهم مالا يحصيهم إلا الله و هم دائما يهتدى منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة و اليد فالمصلحة بارساله و إعزازه و إظهار دينه فيها من الرحمة التى حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافى لما فى ذلك من الخير و الحكمة أيضا إذ ليس فيما خلقه الله سبحانه شر محض أصلا بل هو شر بالاضافة الله بل كلها أمر وجودي و كل موجود و حادث فالله هو الذي يحدثه و ذلك أن الحسنات إما فعل مأمور به أو ترك منهى عنه و الترك أمر و جودي فترك الانسان لما نهى عنه و معرفته بأنه ذنب قبيح و بأنه سبب للعذاب و بغضه و كراهته له و منع نفسه منه إذا هويته و اشتهته و طلبته كل هذه أمور وجودية كما أن معرفته بأن الحسنات كالعدل و الصدق حسنة و فعله لها أمور وجودية ولهذا إنما يثاب الانسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية و قصد فعلها ابتغاء وجه ربه و طاعة لله و لرسوله و يثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها و الامتناع منها قال تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ }الحجرات7 و قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى {40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات40-41 و قال تعالى{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ }العنكبوت45 وفى الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله و رسوله أحب إليه مما سواهما و من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله و من كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وفى السنن عن البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه و سلم أوثق عرى الايمان الحب فى الله و البغض فى الله وفيها عن أبي أمامة عن النبى صلى الله عليه و سلم من أحب لله و أبغض لله و أعطى لله و منع لله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 23

فقد استكمل الايمان وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدري عن النبى صلى الله عليه و سلم قال من رأي منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الايمان وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما ذكر الخلوف قال من جاهدهم بيده فهو مؤمن و من جاهدهم بلسانه فهو مؤمن و من جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل و قد قال تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }الممتحنة4 وقال على لسان الخليل { إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27} الزخرف 26-27 و { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{75} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ{77}الشعراء75-77 و قال { فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{79} }الأنعام78-79 وهذا البغض و العداوة و البراءة مما يعبد من دون الله و من عابديه هي أمور موجودة فى القلب و على اللسان و الجوارح كما أن حب الله و موالاته و موالاة أوليائه أمور موجودة فى القلب و على اللسان و الجوارح و هى تحقيق قول لا إله إلا الله و هو إثبات تأليه القلب لله حبا خالصا و ذلا صادقا و منع تأليهه لغير الله وبغض ذلك وكراهته فلا يعبد الا الله ويحب أن يعبده ويبغض عبادة غيره و يحب التوكل عليه و خشيته و دعاءه و يبغض التوكل على غيره و خشيته و دعاءه فهذه كلها أمور موجودة فى القلب وهى الحسنات التى يثيب الله عليها وأما مجرد عدم السيئات من غير أن يعرف أنها سيئة و لا يكرهها بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله أو تخطر كما تخطر الجمادات التى لا يحبها و لا يبغضها فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات و لكن لا يعاقب أيضا على فعلها فكأنه لم يفعلها فهذا تكون السيئات فى حقه بمنزلتها فى حق الطفل و المجنون و البهيمة لا ثواب و لا عقاب ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها فان لم يعتقد تحريمها و يكرهها و الا عوقب على ترك الايمان بتحريمها [1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات 17-19 وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقيصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك [2]

2-قال تعالى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات 17-19 و التزكية جعل الشيء زكيا إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:276- 281 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 52

[2] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 46

[3] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 95-97 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 6

3- قال تعالى {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى }النازعات26 و الخشية فى القرآن مطلقة تتناول خشية الله و خشية عذابه فى الدنيا و الآخرة [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 175

سورة النازعات 27-46

{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا{27} رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا{28} وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا{29} وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا{30} أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا{31} وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا{32} مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{33} فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى{34} يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى{35} وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى{36} فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41} يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا{42} فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا{43} إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا{44} إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا{45} كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا{46}

الكتب الإلهية جاءت بالمعقولات الصحيحة الفطرية

جاءت الكتب الإلهية بخطاب الناس بالمعقولات الصحيحة الفطرية فإن الرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة وتحويلها والنفس إنما تنال كمالها بسعادتها ونجاتها بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة ولهذا حيث ذكر الله في كتابه شيئا من هذه الأسماء التي تدل على الفعل لم يعقل العقلاء من ذلك إلا أنه محدث كقوله تعالى {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا{27} رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا{28} وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا{29} وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا{30} أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا{31} وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا{32} مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{33} النازعات27-33 إلى أمثال ذلك من الخطاب الذي قد علم بالإضطرار معناه وأن بناءها أمر حادث كان بعد أن لم يكن[1]

لفظ السعي في كتاب الله

قال تعالى { فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى{34} يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى{35} النازعات34-35 قال الأئمة السعي في كتاب الله هو العمل والفعل كما قال تعالى {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى } الليل4 وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً } الإسراء19 وقال تعالى {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا } البقرة205 وقال تعالى {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ

[1] الصفدية ج: 2 ص: 159

يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً }المائدة33 وقال عن فرعون {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى }النازعات22 وقال {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً }الإنسان22 [1]

الذين يرهبون ربهم خلاف الذين يتبعون أهواءهم

قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 37-41
المستكبر هو الذي لا يقبل ما لا يهواه فإن النبى قد فسر الكبر فى الحديث الصحيح بأنه بطر الحق وغمط الناس ففي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذاك فقال لا إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس وبطر الحق جحده ودفعه وغمط الناس إحتقارهم وازدراؤهم وكذلك ذكر الله الكبر فى قوله بعد أن قال {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ }الأعراف145 الى أن قال {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً }الأعراف146 وهذا حال الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وهو الغاوى كما قال {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ {175} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ {176} الأعراف175 -176 الآية وهذا مثل علماء السوء وقد قال لما رجع موسى اليهم {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }الأعراف154 فالذين يرهبون ربهم خلاف الذين يتبعون أهواءهم كما قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى {40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات40-41 فأولئك المستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ولا يفهمون لما تركوا العمل بما علموه إستكبارا وإتباعا لأهوائهم عوقبوا بأن منعوا الفهم والعلم فان العلم حرب للمتعالى كما أن السيل حرب للمكان العالي والذين يرهبون ربهم عملوا بما علموه فأتاهم الله علما ورحمة إذ من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم [2]

المشروط فى التكليف

فإن الله يأمر الإنسان بما يكرهه وينهاه عما يحبه كما قال تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ }البقرة216 وقال{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40 وهو قادر على فعل ذلك إذا أراده وعلى ترك ما نهى عنه وليس من شرط المأمور به أن يكون العبد مريدا له ولا من شرط المنهي عنه أن يكون العبد كارها له فإن الفعل يتوقف على القدرة والإرادة والمشروط في

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 151 و شرح العمدة ج: 4 ص: 600 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 261

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 626

التكليف أن يكون العبد قادرا على الفعل لا أن يكون مريدا له لكنه لا يوجد إلا إذا كان مريدا له فالإرادة شرط في وجوده لا في وجوبه [1]

الإنسان يكون آمرا مأمورا

معقولا في الإنسان أنه يكون آمرا مأمورا كقوله { إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }يوسف53 وقوله {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40 مع أن العبد له آمر وناه فوقه [2]

لا يترك الحي ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه

قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 37-41 فأما وجود الفعل فلا يكون إلا عن محبة وإرادة حتى دفعه للأمور التي يكرهها ويبغضها هو لما في ذلك من المحبوب أو اللذة يجدها بالدفع فيقال شفى صدره وقلبه والشفاء والعافية بمحبوب والمحبة والإرادة تكون إما بواسطة وإما بغير واسطة مثل فعله للأشياء التي يكرهها كشرب الدواء والمكروه وفعل الأشياء المخالفة لهواه وصبره ونحو ذلك فإن هذه الأمور وإن كانت مكروهة من بعض الوجوه فإنما يفعل أيضا لمحبة وإرادة وإن لم تكن المحبة لنفسها بل المحبة لملازمها فإنه يحب العافية والصحة المستلزمة لإرادة شرب الدواء ويحب رحمة الله ونجاته من عذابه المستلزم لإرادة ترك ما يهواه كما قال تعالي {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40 فلا يترك الحي ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه لكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة كما يفعل ما يكرهه لما محبته أقوي من كراهة ذلك وكما يترك ما يحبه لما كراهته أقوي من محبة ذلك ولهذا كانت المحبة والإرادة أصلا للبغض والكراهة وعلة لها ولازما مستلزما لها من غير علة [3]

إثبات تأليه القلب لله حبا خالصا

قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 37-41 إنما يثاب الانسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية و قصد فعلها ابتغاء وجه ربه و طاعة لله و لرسوله و يثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها و الامتناع منها قال تعالى { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ }الحجرات7 و قال تعالى{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ }العنكبوت45 وفى

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 106

[2] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 413

[3] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 8

الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله و رسوله أحب إليه مما سواهما و من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله و من كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار وفى السنن عن البراء بن عازب عن النبى صلى الله عليه و سلم أوثق عرى الايمان الحب فى الله و البغض فى الله وفيها عن أبي أمامة عن النبى صلى الله عليه و سلم من أحب لله و أبغض لله و أعطى لله و منع لله فقد استكمل الايمان وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدري عن النبى صلى الله عليه و سلم قال من رأي منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الايمان وفى الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما ذكر الخلوف قال من جاهدهم بيده فهو مؤمن و من جاهدهم بلسانه فهو مؤمن و من جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل و قد قال تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }الممتحنة4 وقال على لسان الخليل { إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27} الزخرف 26-27 و { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{75} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ{77}الشعراء75-77 و قال { فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{79} }الأنعام78-79 وهذا البغض و العداوة و البراءة مما يعبد من دون الله و من عابديه هي أمور موجودة فى القلب و على اللسان و الجوارح كما أن حب الله و موالاته و موالاة أوليائه أمور موجودة فى القلب و على اللسان و الجوارح و هى تحقيق قول لا إله إلا الله و هو إثبات تأليه القلب لله حبا خالصا و ذلا صادقا و منع تأليهه لغير الله وبغض ذلك وكراهته فلا يعبد الا الله ويحب أن يعبده ويبغض عبادة غيره و يحب التوكل عليه و خشيته و دعاءه و يبغض التوكل على غيره و خشيته و دعاءه فهذه كلها أمور موجودة فى القلب وهى الحسنات التى يثيب الله عليها وأما مجرد عدم السيئات من غير أن يعرف أنها سيئة و لا يكرهها بل لا يفعلها لكونها لم تخطر بباله أو تخطر كما تخطر الجمادات التى لا يحبها و لا يبغضها فهذا لا يثاب على عدم ما يفعله من السيئات و لكن لا يعاقب أيضا على فعلها فكأنه لم يفعلها فهذا تكون السيئات فى حقه بمنزلتها فى حق الطفل و المجنون و البهيمة لا ثواب و لا عقاب ولكن إذا قامت عليه الحجة بعلمه تحريمها فان لم يعتقد تحريمها و يكرهها و الا عوقب على ترك الايمان بتحريمها [1]

أعلم الناس من كان رأيه وقياسه موافقا للنصوص

أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقا للنصوص كما قال مجاهد أفضل العبادة الرأي الحسن وهو اتباع السنة ولهذا قال تعالي {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }سبأ6 ولهذا كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة والشريعة في مسائل الاعتقاد الخبرية ومسائل الأحكام العملية أهل الأهواء لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم فصاحبه ممن اتبع هواه بغير علم ولهذا يذكر الله في القرآن من يتبع

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:278- 281

هواه بغير علم ويذم من يتبع هواه بغير هدي من الله كما قال تعالي { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ }القصص50 وقال تعالي {وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ }الأنعام119 وكل من اتبع هواه اتبعه بغير علم إذ لا علم بذلك إلا بهدي الله الذي بعث الله به رسله كما قال تعالي { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} طه123-124 ولهذا ذم الله الهوى في مواضع من كتابه واتباع الهوى يكون في الحب والبغض كقوله تعالي {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ }ص26 فهنا يكون اتباع الهوى هو ما يخالف الحق في الحكم قال تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً }النساء135 فهنا يكون اتباع الهوى فيما يخالف القسط من الشهادة وغيرها والحق هو العدل واتباع الهوى في خلاف ذلك هو من الظلم وقد نهى رسول الله عن اتباع أهواء الخلق وقال تعالي {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }البقرة120 فنهاه عن اتباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءه من العلم وكذلك قال تعالي في الآية الأخرى { وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ }البقرة145 وقال تعالي {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ }المائدة49 وقال تعالي {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ }الأنعام150 فقد نهاه عن اتباع أهواء المشركين واتباع أهواء أهل الكتاب وحذره أن يفتنوه عما أنزل الله إليه من الحق وذلك يتضمن النهي عن اتباع أهواء أحد في خلاف شريعته وسنته وكذا أهل الأهواء من هذه الأمة وقد بين ذلك في قوله تعالي {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ {18} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ{19} الجاثية18-19 فقد أمره في هذه الآية باتباع الشريعة التي جعله عليها ونهاه عن اتباع ما يخالفها وهي أهواء الذين لا يعلمون ولهذا كان كل من خرج عن الشريعة والسنة من أهل الأهواء كما سماهم السلف وقال تعالي {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ }المؤمنون71 وقال تعالي {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة77 وقال تعالي {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ }الأنعام119 وقال تعالي {قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ } القصص48 إلي قوله { فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{49} فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{50}القصص49-50 وقال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ{16} وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ{17} محمد16-17 فذكر الذين أوتوا العلم وهم الذين يعلمون أن ما أنزل إليه من ربه الحق ويفقهون ما جاء به وذكر المطبوع علي قلوبهم فلا يفقهون إلا قليلا الذين اتبعوا أهوائهم يسألونهم ماذا قال الرسول آنفا وهذه حال من لم يفقه الكتاب

والسنة بل يستشكل ذلك فلا يفقهه أو قرأه متعارضا متناقضا وهي صفة المنافقين ثم ذكر صفة المؤمنين فقال تعالي { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ } محمد17 زيادة الهدي وهو ضد الطبع علي قلوب أولئك وآتاهم تقواهم وهو ضد اتباع أولئك الأهواء فصاحب التقوى ضد صاحب الأهواء كما قال تعالي قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 37-41 وقال تعالي {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا }الفتح26 [1]

الخشية سبب للتذكر

أن الخشية سبب للتذكر فكل منهما قد يكون سببا للآخر فقد يخاف الإنسان فيتذكر و قد يتذكر الأمور المخوفة فيطلب النجاة منها و يتذكر ما يرجو به النجاة منها فيفعله فإن قيل مجرد ظن المخوف قد يوجب الخوف فكيف قال { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر28 قيل النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن و إنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة و أما من كان يظن أن العذاب يقع و لا يوقن بذلك فلا يترك هواه و لهذا قال {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40 و قال تعالى في ذم الكفار {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ }الجاثية32 و وصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون و لهذا أقسم الرب على وقوع العذاب و الساعة و أمر نبيه أن يقسم على وقوع الساعة و على أن القرآن حق فقال {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ }التغابن7 و قال {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ }سبأ3 و قال {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ }يونس53 [2]

الثلاث المنجيات

ففى الحديث ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع و اعجاب المرء بنفسه و بازائها الثلاث المنجيات خشية الله فى السر و العلانية و القصد في الفقر و الغنى و كلمة الحق فى الغضب و الرضا و هي التى سألها فى الحديث الآخر اللهم اني اسألك خشيتك فى السر و العلانية و أسألك كلمة الحق فى الغضب و الرضا و اسألك القصد فى الفقر و الغنى فخشية الله بازاء اتباع الهوى فان الخشية تمنع ذلك كما قال {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40 و القصد في الفقر و الغنى بازاء الشح المطاع و كلمة الحق فى الغضب و الرضا بازاء اعجاب المرء بنفسه [3]

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص:19- 22

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:182- 185

[3] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 481

من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم

قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 37-41 فإنه من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم و حسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه و العلم الشرعى من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح فإن العلم قائد والعمل سائق والنفس حرون فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر إين يسلك فغايته أن يستطرح للقدر وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه فهذا حائر لا يدرى أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به قال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }الصف5 هذا جاهل وهذا ظالم قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً }الأحزاب72 مع أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدرى أنه ظالم والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ }النساء17 قال أبو العالية سألت اصحاب محمد فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وقد روى الخلال عن أبى حيان التيمى قال العلماء ثلاثة فعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله وعالم بالله وبأمر الله فالعالم بالله الذى يخشاه والعالم بأمر الله الذى يعرف أمره ونهيه قلت والخشية تمنع إتباع الهوى قال تعالى { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 40-41 والكمال فى عدم الهوى وفى العلم هو لخاتم الرسل الذى قال فيه { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4} النجم 1-4 فنفى عنه الضلال والغى ووصفه بأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل وهو الوحى فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد ووصف أعداءه بضد هذين فقال تعالى { إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى }النجم23 فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا[1]

العفة عن المحرمات

فأما إذا ابتلى الانسان بالعشق وعف وصبر فانه يثاب على تقواه لله وقد روى فى الحديث أن من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات كان شهيدا وهو معروف من رواية يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا وفيه نظر ولا يحتج بهذا لكن من المعلوم بأدلة الشرع انه إذا عف المحرمات نظرا وقولا وعملا وكتم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون فى ذلك كلام محرم اما شكوى الى المخلوق واما إظهار فاحشة واما نوع طلب للمعشوق وصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى ما فى قلبه من الم العشق كما يصبر المصاب عن الم المصيبة فان هذا يكون ممن اتقى الله وصبر { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف90 وهكذا مرض الحسد وغيره من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 544-545

امراض النفوس واذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله فينهاها خشية من الله كان ممن دخل فى قوله{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 40-41 فالنفس إذا أحبت شيئا سعت في حصوله بما يمكن حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلها مقامات لتلك الغاية فمن احب محبة مذمومة أو أبغض بغضا مذموما وفعل ذلك كان آثما مثل أن يبغض شخصا لحسده له فيؤذي من له به تعلق إما بمنع حقوقه أو بعدوان عليهم او لمحبة له لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم أو ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله وهذه أمراض كثيرة في النفوس والإنسان قد يبغض شيئا فيبغض لأجله أمورا كثيرة بمجرد الوهم والخيال وكذلك يحب شيئا فيحب لأجله أمورا كثيرة لأجل الوهم والخيال كما قال شاعرهم أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب فقد أحسب سوداء فأحب جنس السواد حتى في الكلاب وهذا كله مرض في القلب في تصوره وإرادته فنسأل الله ان يعافى قلوبنا من كل داء ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء والقلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده[1]

ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان

أن ما يحصل للإنسان من الحسنات التي يعملها كلها أمور وجودية أنعم الله بها عليه وحصلت بمشيئة الله ورحمته وحكمته وقدرته وخلقه ليس في الحسنات أمر عدمي غير مضاف إلى الله بل كلها أمر وجودي وكل موجود وحادث فالله هو الذي يحدثه وذلك أن الحسنات إما فعل مأمور به أو ترك منهي عنه والترك أمر وجودي فترك الإنسان لما نهى عنه ومعرفته بأنه ذنب قبيح وبأنه سبب للعذاب وبغضه وكراهته له ومنع نفسه منه إذا هويته واشتهيته وطلبته كل هذه أمور وجودية كما أن معرفته بأن الحسنات كالعدل والصدق حسنة وفعله لها أمور وجودية ولهذا إنما يثاب الإنسان على فعل الحسنات إذا فعلها محبا لها بنية وقصد فعلها ابتغاء وجه ربه وطاعة لله ولرسوله ويثاب على ترك السيئات إذا تركها بالكراهة لها والامتناع منها قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40 وفي الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار[2]

الحرص على المال والشرف يوجب فساد الدين

فى الصحيحين أنه قال إياكم والشح فان الشح اهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وامرهم بالقطيعة فقطعوا وعن كعب عن النبى أنه قال ما ذئبان جائعان ارسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه قال الترمذى حديث حسن فحرص الرجل على المال والشرف يوجب فساد الدين فاما مجرد الحب الذى فى القلب إذا كان

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 25 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 133-134

[2] الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 53

الانسان يفعل ما امره الله به ويترك ما نهى الله عنه ويخاف مقام ربه وينهى النفس عن الهوى فان الله لا يعاقبه على مثل هذا إذا لم يكن معه عمل وجمع المال وإذ قام بالواجبات فيه ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه لكن اخراج فضول المال والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم وافرغ للقلب واجمع للهم وانفع فى الدنيا والآخرة وقال النبى صلى الله عليه وسلم من اصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن اصبح والآخرة اكبر همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه ضيعته وأتته الدنيا وهى راغمة قال تعالى قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 37-41 [1]

اصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله

قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {2} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3} الأنفال2 -3 فانه ذكر وجل قلوبهم اذا ذكر الله وزيادة ايمانهم اذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه واقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا وكذلك الانفاق من المال والمنافع فكان هذا مستلزما للباقى فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشيته والخوف منه وقد فسروا { وَجِلَتْ }الأنفال2 بفرقت وفى قراءة ابن مسعود اذا ذكر الله فرقت قلوبهم وهذا صحيح فان الوجل فى اللغة هو الخوف يقال حمرة الخجل وصفرة الوجل ومنه قوله تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ }المؤمنون60 قالت عائشة يا رسول الله هل الرجل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنة الصديق هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقال السدى فى قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ }الأنفال2 هو الرجل يريد أن يظلم او يهم بمعصية فينزع عنه وهذا كقوله تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41} النازعات 40-41 وقوله {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ }الرحمن46 قال مجاهد وغيره من المفسرين هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدى الله فيتركها خوفا من الله واذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه الى فعل المأمور وترك المحظور قال سهل بن عبد الله ليس بين العبد وبين الله حجاب اغلظ من الدعوى ولا طريق اليه اقرب من الافتقار واصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ويدل على ذلك قوله تعالى {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }الأعراف154 فأخبر ان الهدى والرحمة للذين يرهبون الله قال مجاهد وابراهيم هو الرجل يريد ان يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب رواه ابن أبى الدنيا عن ابن الجعد عن شعبة عن منصور عنهما فى قوله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ }الرحمن46 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 108

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 30

التقوى هى الاحتماء عما يضره

وكما أن المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون فلا يحتمون ولا يصبرون على الأدوية الكريهة لما في ذلك من تعجيل نوع من الراحة واللذة ولكن ذلك يعقبهم من الآلام ما يعظم قدره او يعجل الهلاك فكذلك بنو آدم هم جهال ظلموا أنفسهم يستعجل أحدهم ما ترغبه لذته ويترك ما تكرهه نفسه مما هو لا يصلح له فيعقبهم ذلك من الألم والعقوبات إما في الدنيا وإما في الآخرة ما فيه عظم العذاب والهلاك الأعظم و التقوى هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضا استعمال الضار فلا يكون صاحبه من المتقين وأما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لا يكون فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتذيا بما معه من المواد التي تضره حتى يهلك ولهذا كانت العاقبة للتقوى وللمتقين لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الإسلام والكرامة وإن وجدوا ألما في الابتداء لتناول الدواء والإحتماء كفعل الأعمال الصالحة المكروهة ولكثرة الأعمال الباطلة المشتهاة قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 37-41 [1]

الدار الجامعة لكل نعيم

قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41} النازعات 40-41 ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار [2]

{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }

وقوله تعالى {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى10 يقتضى أن كل من يخشي يتذكر و الخشية قد تحصل عقب الذكر و قد تحصل قبل الذكر و قوله { مَن يَخْشَى }الأعلى10 مطلق و من الناس من يظن أن ذلك يقتضى أنه لابد أن يكون قد خشي أولا حتى يذكر و ليس كذلك بل هذا كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 و قوله{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 و قوله { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45 و قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 و هو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه لم يكن وعيد قبل سماع القرآن و كذلك قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 و هو إنما إتبع الذكر و خشى الرحمن بعد أن أنذره الرسول و قد لا يكونون خافوها قبل الإنذار و لا كانوا متقين قبل سماع القرآن بل به صاروا متقين و هذا كما يقول القائل ما يسمع هذا إلا سعيد و إلا مفلح و إلا من رضي الله عنه و ما يدخل في الإسلام إلا من هداه الله و نحو ذلك و إن كانت هذه الحسنات و النعم تحصل بعد الإسلام و سماع القرآن و

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 31

[2] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

مثل هذا قوله {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }الجاثية20 و قد قال في نظيره {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى }الأعلى11 و إنما يشقى بتجنيها و هذا كما يقال إنما يحذر من يقبل و إنما ينتفع بالعلم من عمل به فمن إستمع القرآن فآمن به و عمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم و من لم يؤمن به و لم يعمل به لم يكن من المتقين و لم يكن ممن إهتدى به بل هو كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى }فصلت44 و لم يرد أنهم كانوا مؤمنين فلما سمعوه صار هدى و شفاء بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار فى حقه هدى و شفاء و كان من المؤمنين به بعد سماعه و هذا كقوله فى النوع المذموم { يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ {26} الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ{27}البقرة26-27 و لا يجب أن يكونوا فاسقين قبل ضلالهم بل من سمعه فكذب به صار فاسقا و ضل و سعد بن أبى و قاص و غيره أدخلوا فى هذه الآية أهل الأهواء كالخوارج و كان سعد يقول هم من { الْفَاسِقِينَ {26} الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ{27}البقرة26-27 و لم يكن علي و سعد و غيرهما من الصحابة يكفرونهم وسعد أدخلهم فى هذه الآية لقوله و ما يضل به إلا الفاسقين و هم ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه و تأويله على غير ما أراد الله فتمسكوا بمتشابهه و أعرضوا عن محكمه و عن السنة الثابتة التى تبين مراد الله بكتابه فخالفوا السنة و إجماع الصحابة مع ما خالفوه من محكم كتاب الله تعالى و لهذا أدخلهم كثير من السلف فى الذين { فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ}آل عمران7 {الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً }الأنعام159 و بسط هذا له موضع آخر و المقصود الآية و قد دلت على أن كل من يخشي فلابد أن يتذكر فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية و قد يخشى فتدعوه الخشية إلى التذكر و هذا المعنى ذكره قتادة فقال و الله ما خشي الله عبد قط إلا ذكره {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى }الأعلى11 قال قتادة فلا و الله لا يتنكب عبد هذا الذكر زهدا فيه و بغضا له و لأهله إلا شقيا بين الشقاء و الخشية فى القرآن مطلقة تتناول خشية الله و خشية عذابه فى الدنيا و الآخرة قال تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا{42} فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا{43} إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا{44} إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا{45} كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا{46}النازعات42-46 و قال تعالى{فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45 و قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ {17} يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ{18}الشورى17-18 و قال { قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ{26} فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ{27}الطور26-27[1]

الكافر على قلبه موانع تصد عن القبول

قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41}النازعات 37-41 قال تعالى { وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ }يونس101 فالآيات أفقية و أرضية و قرآنية و هي أدلة العلم و الإنذار يقتضى الخوف فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل به ن فهذا تنفعه الحكمة و

[11] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 171-174

الإنذر لمن يعرف الحق و له هوي يصده فينذر بالعذاب الذي يدعوه إلى مخالفة هواه و هو خوف العذاب و هذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة و آخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل فيجادل بالتى هي أحسن و قد قال تعالى {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ }الأنعام111 و قال {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 فالمراد أن الكافر ما دام كافرا لا يقبل الحق سواء انذر أم لم ينذر و لا يؤمن ما دام كذلك لأن على قلبه و سمعه و بصره موانع تصد عن الفهم و القبول و هكذا حال من غلب عليه هواه و هو سبحانه لم يقل أنهم لا يؤمنون و قيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة أو حقت عليه الكلمة كقوله {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ {96} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{97}يونس96 -97 فبين أن هؤلاء لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم وقت رؤية العذاب الأليم كإيمان فرعون المذكور قبلها و موسى قد دعا عليه فقال { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ {88} قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا {89}يونس88 -89 و أما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ }الأنعام111 الآية فبين أنهم قد يؤمنوا إذا شاء و آية البقرة مطلقة عامة {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة6 فإنه ذكر فى أول السورة أربع آيات فى صفة المؤمنين و آيتين فى صفة الكافرين و بضع عشرة آية في المنافقين فبين حال الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التى على قلبه و سمعه و بصره و ليس قال إن الله لا يهدى أحدا من هؤلاء فيسمع و يقبل و لكن هو حين يكون كافرا لا تتناوله الآية و هذا كما يقال فى الكافر الحربى لا يجوز أن تعقد له الذمة ولا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربيا فالكفار ما داموا كفارا هم بهذه المثابة لهم موانع تمنعهم من الإيمان كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك و إن أنذروا و هذا كقوله {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }البقرة171 فهذا مثل كل كافر ما دام كافرا وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم و سمعهم و ابصارهم فإنهم لا يسمعون لذلك المعنى المشتق منه وهو الكفر فما داموا هذه حالهم فهم كذلك و لكن تغير الحال ممكن كما قال { إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ }الأنعام111 و كما هو الواقع و مثل هذا يفيد أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه و إنذاره و بيانه يحصل الهدى و لو كان أكمل الناس و أن الداعى و إن كان صالحا ناصحا مخلصا فقد لا يستجيب المدعو لا لنقص فى الدعاء لكن لفساد فى المدعو و هذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل و قبول القابل كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه لا يقطع الحجارة و الحديد و نحو ذلك و النفخ يؤثر إذ كان هناك قابل لا يؤثر في الرماد و الدعاء و التعليم و الإرشاد و كل ما كان من هذا الجنس له فاعل و هو المتكلم بالعلم و الهدى و النذارة و له قابل و هو المستمع فإذا كان المستمع قابلا حصل الإنذار التام و التعليم التام و الهدى التام و إن لم يكن قابلا قيل علمته فلم يتعلم و هديته فلم يهتد و خاطبته فلم يصغ و نحو ذلك فقوله في القرآن {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 هو من هذا إنما يهتدي من يقبل الإهتداء و هم المتقون لا كل أحد و ليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم بل قد يكونوا كفارا لكن إنما يهتدى به من كان متقيا فمن إتقى الله إهتدى بالقرآن و العلم و الإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن و هكذا قوله {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً }يس70 الإنذار التام فإن الحي يقبله و لهذا قال { وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ }يس70 فهم لم يقبلوا الإنذار و مثله قوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 و عكسه قوله {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ }البقرة26 أي كل من ضل به فهو فاسق فهو ذم لمن يضل به فإنه فاسق ليس أنه كان فاسقا قبل

ذلك و لهذا تأولها سعد بن أبى و قاص في الخوارج و سماهم فاسقين لأنهم ضلوا بالقرآن فمن ضل بالقرآن فهو فاسق[1]

كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا

قال تعالى { فَأَمَّا مَن طَغَى{37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41} يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا{42} فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا{43} إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا{44} إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا{45} كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا{46} النازعات 37-46 فأصل ما يوقع الناس فى السيئات الجهل و عدم العلم بكونها تضرهم ضررا راجحا أو ظن أنها تنفعهم نفعا راجحا و لهذا قال الصحابة رضي الله عنهم كل من عصى الله فهو جاهل و فسروا بذلك قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ }النساء17 كقوله {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }الأنعام54 و لهذا يسمى حال فعل السيئات الجاهلية فانه يصاحبها حال من حال جاهلية قال ابو العالية سألت اصحاب محمد صلى الله عليه و سلم عن هذه الآية {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ }النساء17 فقالوا كل من عصى الله فهو جاهل و من تاب قبيل الموت فقد تاب من قريب وعن قتادة قال اجمع اصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم على ان كل من عصى ربه فهو فى جهالة عمدا كان او لم يكن و كل من عصى الله فهو جاهل و كذلك قال التابعون و من بعدهم قال مجاهد من عمل ذنبا من شيخ أو شاب فهو بجهالة و قال من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته و قال ايضا هو إعطاء الجهالة العمد و قال مجاهد أيضا من عمل سوءا خطأ أو إثما عمدا فهو جاهل حتى ينزع منه رواهن ابن أبي حاتم ثم قال و روى عن قتادة و عمرو بن مرة و الثوري و نحو ذلك ذلك خطأ أو عمدا وروى عن مجاهد و الضحاك قالا ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا و لا حراما و لكن من جهالته حين دخل فيه و قال عكرمة الدنيا كلها جهالة وعن الحسن البصري أنه سئل عنها فقال هم قوم لم يعلموا مالهم مما عليهم قيل له أرأيت لو كانوا قد علموا قال فليخرجوا منها فانها جهالة قلت و مما يبين ذلك قوله تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر28 و كل من خشيه و أطاعه و ترك معصيته فهو عالم كما قال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ }الزمر9 و قال رجل للشعبى أيها العالم فقال إنما العالم من يخشى الله و قوله تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر28 يقتضي أن كل من خشى الله فهو عالم فإنه لا يخشاه إلا عالم رضي الله عنه ويقتضي أيضا أن العالم من يخشى الله كما قال السلف قال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا ومثل هذا الحصر يكون من الطرفين حصر الأول في الثاني وهو مطرد وحصر الثاني في الأول نحو قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 وقوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 وقوله {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 570-587

سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ {15} تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ {16} السجدة15-16 [1]

التعليم والإنذار والهدى له فاعل وله قابل

قال تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا{42} فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا{43} إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا{44} إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا{45} كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا{46}النازعات42-46 وقول المصلي سمع الله لمن حمده اي استجاب له و كما فى قوله تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 و قوله و قوله { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45 و نحو ذلك فان الهدى و الانذار و التذكير و التعليم لابد فيه من قبول المتعلم فاذا تعلم حصل له التعليم المقصود و الا قيل علمته فلم يتعلم كما قيل {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 [2]

أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفى لإنتفاء كماله وتمامه وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وأما قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 وقوله {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ }الأعراف30 وقوله { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل37 وقوله {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة16 وهذا كثير فى القرآن وكذلك الإنذار قد قال {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً }مريم97 وقال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ }يونس2 وقال في الخاص {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 فهذا الإنذار الخاص وهو التام النافع الذى إنتفع به المنذر والإنذار هو الإعلام بالمخوف فعلم المخوف فخاف فآمن وأطاع وكذلك التذكير عام وخاص فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة قال تعالى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ {86} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{87}ص86-87 وقال تعالى { وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 290-293

[2] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 415

}المدثر31 وقال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ }التكوير27 ثم قال {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير28 فذكر العام والخاص[1]

لطائف لغوية

1-وحصر الثاني في الأول نحو قوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45[2] قوله صلى الله عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات) لفظه إنما للحصر عند جماهير العلماء وهذا مما يعرف بالإضطرار من لغة العرب كما تعرف معانى حروف النفى والإستفهام والشرط وغير ذلك لكن تنازع الناس هل دلالتها على الحصر بطريق المنطوق او المفهوم على قولين والجمهور على أنه بطريق المنطوق والقول الآخر قول بعض مثبتى المفهوم كالقاضى أبى يعلى فى أحد قوليه وبعض الغلاة من نفاته وهؤلاء زعموا أنها تفيد الحصر وإحتجوا بمثل قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ }الحجرات10 وقد إحتج طائفة من الأصوليين على أنها للحصر بأن حرف إن للإثبات و حرف ما للنفى فإذا إجتمعا حصل النفى والإثبات جميعا وهذا خطأ عند العلماء بالعربية فإن ما هنا هى ما الكافة ليست ما النافية وهذه الكافة تدخل على إن وأخواتها فتكفها عن العمل وذلك لأن الحروف العاملة اصلها ان تكون للإختصاص فإذا إختصت بالإسم أو بالفعل ولم تكن كالجزء منه عملت فيه فإن وأخواتها إختصت بالإسم فعملت فيه وتسمى الحروف المشبهة للأفعال لأنها عملت نصبا ورفعا وكثرت حروفها وحروف الجر اختصت بالإسم فعملت فيه وحروف الشرط إختصت بالفعل فعملت فيه بخلاف أدوات الإستفهام فإنها تدخل على الجملتين ولم تعمل وكذلك ما المصدرية ولهذا القياس فى ما النافية أن لا تعمل أيضا على لغة تميم ولكن تعمل على اللغة الحجازية التى نزل بها القرآن فى مثل قوله تعالى { مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ }المجادلة2 و { مَا هَـذَا بَشَراً }يوسف31 إستحسانا لمشابهتها ليس هنا لما دخلت ما الكافة على أن أزالت إختصاصها فصارت تدخل على الجملة الإسمية والجملة والفعلية فبطل عملها كقوله{ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ }الرعد7 وقوله { إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }الطور16 وقد تكون ما التى بعد أن إسما لا حرفا كقوله { إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ }طه69 بالرفع اى ان الذى صنعوه كيد ساحر خلاف قوله {إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا }طه72 فإن القراءة بالنصب لا تستقيم إذا كانت ما بمعنى الذى وفى كلا المعنين الحصر موجود لكن إذا كانت ما بمعنى الذى فالحصر جاء من جهة أن المعارف هى من صيغ العموم فإن الأسماء أما معارف وإما نكرات والمعارف من صيغ العموم والنكرة فى غير الموجب كالنفى وغيره من صيغ العموم فقوله { إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ}طه69 تقديره أن الذى صنعوه كيد ساحر وأما الحصر فى إنما فهو من جنس الحصر بالنفى والإستثناء كقوله تعالى {مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا }الشعراء154 {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ }آل عمران144 والحصر قد يعبر عنه بأن الأول محصور فى الثانى وقد يعبر عنه بالعكس والمعنى واحد وهو أن الثانى أثبته الأول ولم يثبت له غيره مما يتوهم أنه ثابت له وليس المراد أنك تنفى عن الأول كل ما سوى الثانى فقوله { إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ }الرعد7 أى انك لست ربا لهم ولا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 154-156

[2] الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 64

محاسبا ولا مجازيا ولا وكيلا عليهم كما قال {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }الغاشية22 وكما قال { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ }آل عمران20[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 18 ص:265- 267

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة عبس
80

رقية محمود الغرايبة

~§§ عبس(مكية)42 §§~

سورة عبس 1-16

{عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2} وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{5} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{6} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{7} وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى{10} كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{15} كِرَامٍ بَرَرَةٍ{16}

نزلت فى ابن أم مكتوم

وابن أم مكتوم كان رجلا صالحا وفيه نزل قوله تعالى{عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2} عبس1-2 وكان من المهاجرين[1]

الأمر بالتذكير التام النافع

أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع كما هو أمر بالتذكير المشترك و هذا التام النافع يخص به المؤمنين المنتفعين فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل و كلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به و يذكرهم بمعانيه و يذكرهم بما نزل قبل ذلك بخلاف الذين قال فيهم {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ {49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51}المدثر49-51 فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت عليهم و هم معرضون عن التذكرة لا يسمعون و لهذا قال { عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2} وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{5} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{6} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{7} وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى{10} عبس 1-10 فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر و قال { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} الاعلى 10 إلى قوله{ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14}الاعلى 11 فذكر التذكر و اللتزكي كما ذكرهما هناك و أمره أن يقبل على من أقبل عليه

[1] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 241

دون من أعرض عنه فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك فيكون مأمورا أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيرا يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة كما قال { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ{54} وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ{55} الذاريات 54-55 وقال { وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً }الإسراء110و فى الصحيحين عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسبوا القرآن و من أنزل عليه و من جاء به فقال الله له و لا تجهر به فيسمعه المشركون و لا تخافت به عن أصحابك فنهى عن أن يسمعهم إسماعا يكون ضرره أعظم من نفعه وهكذا كل ما يأمر الله به لابد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته و المصلحة هي المنفعة و المفسدة هي المضرة فهو إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت المصلحة راجحة و هو أن تحصل به منفعة راجحة على المضرة و هذا يدل على الوجه الأول و الثانى فحيث كان الضرر راجحا فهو منهى عما يجلب ضررا راجحا و النفع أعم فى قبول جميعهم فقبول بعضهم نفع و قيام الحجة على من لم يقبل نفع و ظهور كلامه حتى يبلغ البعيد نفع و بقاؤه عند من سمعه حتى بلغه إلى من لم يسمعه نفع فهو صلى الله عليه و سلم ما ذكر قط إلا ذكرى نافعة لم يذكر ذكرى قط يكون ضررها راجحا و هذا مذهب جمهور المسلمين من السلف و الخلف أن ما أمر الله به لابد أن تكون مصلحته راجحة و منفعته راجحة و أما ما كانت مضرته راجحة فإن الله لا يأمر به [1]

القلب يغتذى من القرآن بما يزكيه

قال تعالى { عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2} وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} عبس1-4 والقرآن شفاء لما فى الصدور ومن فى قلبه امراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات مايزيل الحق من الباطل فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوير والأدراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغى بعد ان كان مريدا للغى مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التى فطر عليها كما يعود البدن الى الحال الطبيعى ويغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة فى اللغة النماء والزيادة فى الصلاح يقال زكا الشئ اذا نما فى الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصى فانها بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن ومثل الدغل فى الزرع فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الردئية كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعه واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب اذا تاب من الذنوب كتن استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فاذا تاب من الذنوب

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 164-165

تخلصت قوة القلب وإراداته للاعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التى كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 وقال تعالى { وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }النور28 وقال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }النور30 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 وقال تعالى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى }عبس3 وقال تعالى { فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات18-19 فالتزكية وان كان اصلها النماء والبركة وزيادة الخير فانما تحصل بازالة الشر فلهذا صار التزكى يجمع هذا وهذا وقال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت6-7 وهى التوحيد والايمان الذى به يزكو القلب فانه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات الحق فى القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب والتزكية جعل الشئ زكيا إنما فى ذاته وإما فى الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس[1]

التذكر سبب الخشية

و قوله {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ }ق33 وفي هذه الآية قال {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى10 و قال فى قصة فرعون {فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 فعطف الخشية على التذكر و قال{ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }الفرقان62 و في قصة الرجل الصالح المؤمن الأعمى قال{ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} عبس 3-4 و قال في حم المؤمن {ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ {12} هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ{13}غافر12-13 فقال {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ }غافر 13 و الإنابة جعلها مع الخشية في قوله { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ{32} مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ{33} ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ{34} ق32-34 و ذلك لأن الذي يخشي الله لابد أن يرجوه و يطمع فى رحمته فينيب إليه و يحبه و يحب عبادته و طاعته فإن ذلك هو الذي ينجيه مما يخشاه و يحصل به ما يحبه و الخشية لا تكون ممن قطع بأنه معذب فإن هذا قطع بالعذاب يكون معه القنوط و اليأس و الإبلاس ليس هذا خشية و خوفا و إنما يكون الخشية و الخوف مع رجاء السلامة و لهذا قال {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ}الشورى22 فصاحب الخشية لله ينيب إلى الله كما قال { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ{31} هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ{32} مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ{33} ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ{34} ق31-34 و هذا يكون مع تمام الخشية و الخوف فأما فى مباديها فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب و الذنب الذي يقتضيه فيشتغل بطلب النجاة و السلام و يعرض عن طلب الرحمة و الجنة و قد يفعل مع سيئاته حسنات توازيها و تقابلها فينجو بذلك من النار و لا يستحق الجنة بل يكون من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:95- 97 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 6

أصحاب الأعراف و إن كان مآلهم إلى الجنة فليسوا ممن أزلفت لهم الجنة أى قربت لهم إذ كانوا لم يأتوا بخشية الله و الإنابة إليه و استجمل بعد ذلك وأما قوله فى قصة فرعون { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 و قوله { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4}عبس 3-4 فلا يناقض هذه الآية لأنه لم يقل فى هذه الآية سيخشى من يذكر بل ذكر أن كل من خشى فإنه يتذكر إما أن يتذكر فيخشى و إن كان غيره يتذكر فلا يخشى و إما أن تدعوه الخشية إلى التذكر فالخشية مستلزمة للتذكر فكل خاش متذكر كما قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}فاطر28 فلا يخشاه إلا عالم فكل خاش لله فهو عالم هذا منطوق الآية و قال السلف و أكثر العلماء إنها تدل على أن كل عالم فإنه يخشى الله كما دل غيرها على أن كل من عصى الله فهو جاهل كما قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن قوله {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ }النساء17 فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل و كذلك قال مجاهد و الحسن البصرى و غيرهم من العلماء التابعين و من بعدهم و ذلك أن الحصر فى معنى الإستثناء و الإستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء فنفي الخشية عمن ليس من العلماء و هم العلماء به الذين يؤمنون بما جاءت به الرسل يخافونه قال تعالى{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }الزمر9 و أثبتها للعلماء فكل عالم يخشاه فمن لم يخش الله فليس من العلماء بل من الجهال كما قال عبدالله بن مسعود كفى بخشية الله علما و كفى بالإغترار بالله جهلا و قال رجل للشعبى أيها العالم فقال إنما العالم من يخشى الله فكذلك قوله {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى10 يقتضى أن كل من يخشاه فلابد أن يكون ممن تذكر و قد ذكر أن الأشقى يتجنب الذكرى فصار الذي يخشى ضد الأشقى فلذلك يقال كل من تذكر خشى و التحقيق أن التذكر سبب الخشية فإن كان تاما أوجب الخشية كما أن العلم سبب الخشية فإن كان تاما أوجب الخشية و على هذا فقوله فى قصة فرعون { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 جعل ذلك نوعين لما فى ذلك من الفوائد أحدها أنه إذا تذكر أنه مخلوق و أن الله خالقه و ليس هو إلها و ربا كما ذكر و ذكر إحسان الله إليه فهذا التذكر يدعوه إلى إعترافه بربوبية الله و توحيده و إنعامه عليه فيقتضى الإيمان و الشكر وإن قدر أن الله لا يعذبه فإن مجرد كون الشيء حقا و نافعا يقتضي طلبه و إن لم يخف ضررا بعدمه كما يسارع المؤمنون إلى فعل التطوعات و النوافل لما فيها من النفع و إن كان لا عقوبة فى تركها كما يحب الإنسان علوما نافعة و إن لم يتضرر بتركها و كما قد يحب محاسن الأخلاق و معالي الأمور لما فيها من المنفعة و اللذة في الدنيا و الآخرة و إن لم يخف ضررا بتركها فهو إذا تذكر آلاء الله و تذكر إحسانه إليه فهذا قد يوجب إعترافه بحق الله و توحيده و إحسانه إليه و يقتضي شكره لله و تسليم قوم موسى إليه و أن لم يخف عذابا فهذا قد حصل بمجرد التذكر قال {أَوْ يَخْشَى }طه44 و نفس الخشية إذا ذكر له موسى ما توعده الله به من عذاب الدنيا و الآخرة فإن هذا الخوف قد يحمله على الطاعة و الإنقياد و لو لم يتذكر و قد يحصل تذكر بلا خشية و قد يحصل خشية بلا تذكر و قد يحصلان جميعا و هو الأغلب قال تعالى { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 و أيضا فذكر الإنسان يحصل بما عرفه من العلوم قبل هذا فيحصل بمجرد عقله و خشيته تكون بما سمعه من الوعيد فبالأول يكون ممن له قلب يعقل به و الثانى يكون ممن له أذن يسمع بها و قد تحصل الذكرى الموجبة للخير بهذا و بهذا كما قال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ{36} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ{37} ق36-37 الفائدة الثانية أن التذكر سبب الخشية و الخشية حاصلة عن التذكر فذكر التذكر الذي هو السبب و ذكر الخشية التى هي النتيجة و إن كان أحدهما مستلزما للآخر كما قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ{37} ق37 و كما قال أهل النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 و قال {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }الحج46 فكل من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعا يعقل به ما قالوه ينجو و إلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه كما قال {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ }محمد16 و قال {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ }يونس42 و قال {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف2 و كذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع و قد إعترف أهل النار بمجيء الرسل فقالوا {قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ }الملك9و كذلك المعتبرين بآثار المعذبين الذين قال فيهم {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا }الحج46 إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل و الناجين الذين صدقوهم فسمعوا قول الرسل و صدقوهم الفائدة الثالثة أن الخشية أيضا سبب للتذكر كما تقدم فكل منهما قد يكون سببا للآخر فقد يخاف الإنسان فيتذكر و قد يتذكر الأمور المخوفة فيطلب النجاة منها و يتذكر ما يرجو به النجاة منها فيفعله فإن قيل مجرد ظن المخوف قد يوجب الخوف فكيف قال { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر28 قيل النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن و إنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة و أما من كان يظن أن العذاب يقع و لا يوقن بذلك فلا يترك هواه و لهذا قال {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40 و قال تعالى في ذم الكفار {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ }الجاثية32 و وصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون و لهذا أقسم الرب على وقوع العذاب و الساعة و أمر نبيه أن يقسم على وقوع الساعة و على أن القرآن حق فقال {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ }التغابن7 و قال {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ }سبأ3 و قال {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ }يونس53 وأما قوله تعالى { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ }غافر13 فهو حق كما قال فإن المتذكر إما أن يتذكر ما يدعوا إلى الرحمة و النعمة و الثواب كما يتذكر الإنسان ما يدعوه إلى السؤال فينيب و إما أن يتذكر ما يقتضي الخوف و الخشية فلابد له من الإنابة حينئذ لينجو مما يخاف و لهذا قيل في فرعون { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ }طه44 فينيب { أَوْ يَخْشَى }طه44 و كذلك قال له موسى {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} النازعات 18-19 فجمع موسى بين الأمرين لتلازمهما و قال في حق الأعمى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} عبس 3-4 فذكر الإنتفاع بالذكرى كما قال {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 و النفع نوعان حصول النعمة وإندفاع النقمة و نفس إندفاع النقمة نفع و إن لم يحصل معه نفع آخر و نفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع و كلاهما نفع فالنفع تدخل فيه الثلاثة و الثلاثة تحصل بالذكرى كما قال تعالى {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 و قال {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} عبس 3-4 و أما ذكر التزكي مع التذكر فهو كما ذكر في قصة فرعون الخشية مع التذكر و ذلك أن التزكي هو الإيمان و العمل الصالح الذي تصير به نفس الإنسان زكية كما قال في هذه السورة { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 و قال { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس9-10 و قال {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }الجمعة2 و قال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ

كَافِرُونَ{7}فصلت 6-7 و قال موسى لفرعون { هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات 18-19 وعطف عليه {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى }عبس4 لوجوه أحدها أن التزكي يحصل بإمتثال أمر الرسول و إن كان صاحبه لا يتذكر علوما عنه كما قال { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }الجمعة2 ثم قال {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }الجمعة2 فالتلاوة عليهم و التزكية عام لجميع المؤمنين و تعليم الكتاب و الحكمة خاص ببعضهم و كذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول و أما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه الوجه الثاني أن قوله {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى }عبس4 يدخل فيه النفع قليله و كثيره و التزكي أخص من ذلك الثالث أن التذكر سبب التزكي فإنه إذا تذكر خاف و رجا فتزكي فذكر الحكم و ذكر سببه ذكر العمل و ذكر العلم و كل منهما مستلزم للآخر فإنه لا يتزكى حتى يتذكر ما يسمعه من الرسول كما قال { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى} الاعلى10 فلا بد لكل مؤمن من خشية و تذكر و هو إذا تذكر فإنه ينتفع و قد تتم المنفعة فيتزكى [1]

الزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل

قال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 الآية وقال {فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }النور28 وقال {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }فصلت7 وقال { أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{5} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{6} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{7}عبس5-7 وأصل الزكاة الزيادة في الخير ومنه يقال زكا الزرع وزكا المال اذا نما ولن ينمو الخير الا بترك الشر والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكيا الا مع ترك الشر فإنه يدنس النفس ويدسيها قال الزجاج دساها جعلها ذليلة حقيرة خسيسة[2]

الخشية فى القرآن

قال تعالى { وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9}عبس8-9 والخشية فى القرآن مطلقة تتناول خشية الله و خشية عذابه فى الدنيا و الآخرة [3]

القرآن غير مخلوق

فكلام الله كالتوراة وزبور داود والإنجيل والقرآن وغير ذلك فإن هذا كله كلام الله وهو مكتوب في القراطيس باتفاق أهل الملل بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب في القراطيس وقد قال تعالى في القرآن { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقال تعالى { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} بِأَيْدِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 175-185

[22] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 637 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 62

[33] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 175

سَفَرَةٍ{15} عبس 11-15 ومعلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ليس هو إلها خالقا وهو كلام كثير لا ينحصر في كلمة ولا كلمتين [1]

وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً }الكهف109 وكلمات الله غير مخلوقة والمداد الذى يكتب به كلمات الله مخلوق والقرآن المكتوب فى المصاحف غير مخلوق وكذلك المكتوب فى اللوح المحفوظ وغيره قال تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقال { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} عبس11-14 وقال تعالى { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2 -3 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{80} الواقعة 77-80[2]

إختصاص الله سبحانه بالإلهية

و هذا سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2}الاخلاص 1-2 وتعاليه عن الشركاء يقتضي إختصاصه بالإلهية وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده كما قال{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 أي و إن كانوا كما يقولون يشفعون عنده بغير إذنه و يقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب و الإله دونهم وكانوا يبتغون إليه سبيلا بالعبادة له والتقرب إليه هذا أصح القولين كما قال { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ {30}الانسان 29-30 و قال { إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{15} كِرَامٍ بَرَرَةٍ{16}عبس11-12 و قال {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ }الإسراء57 ثم قال {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً }الإسراء43 فتعالى عن أن يكون معه إله غيره أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه فهذا هو الذي كانوا يقولون و لم يكونوا يقولون أن آلهتهم تقدر أن تمانعه أو تغالبه بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق و إن كانوا هم لم يقولوا ذلك كما قال {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ }المؤمنون91[3]

هل نفس المصحف هو نفس القرآن أم كتابته وما فى الصدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه ؟؟

---

[1] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 326

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 56

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 124

الواجب ان يطلق ما أطلقه الكتاب والسنة كقوله تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقوله { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79}الواقعة77-79 وقوله { وَالطُّورِ{1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{2} فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ{3} الطور1-3 وقوله { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة2-3 وقوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{15} كِرَامٍ بَرَرَةٍ{16}عبس 11-16 وكذلك قول النبى لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو وقوله استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم فى عقلها وكلاهما فى الصحيحين وقوله الجوف الذى ليس فيه شىء من القرآن كالبيت الخرب قال الترمذى حديث صحيح فمن قال القرآن فى المصاحف والصدور فقد صدق ومن قال فيها حفظه وكتابته فقد صدق ومن قال القرآن مكتوب فى المصاحف محفوظ فى الصدور فقد صدق ومن قال ان المداد أو الورق أو صفة العبد أو فعله أو حفظه وصوته قديم أو غير مخلوق فهو مخطىء ضال ومن قال إنما فى المصحف ليس هو كلام الله أو ما فى صدور القراء ليس هو كلام الله أو قال إن القرآن العزيز لم يتكلم به الله ولكن هو مخلوق أو صنفه جبريل أو محمد وقال إن القرآن فى المصاحف كما أن محمدا فى التوراة والانجيل فهو أيضا مخطىء ضال فان القرآن كلام والكلام نفسه يكتب فى المصحف بخلاف الأعيان فانه إنما يكتب اسمها وذكرها فالرسول مكتوب فى التوراة والإنجيل ذكره ونعته كما أن القرآن فى زبر الأولين وكما أن أعمالنا فى الزبر قال تعالى {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ }الشعراء196 وقال تعالى {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ }القمر52 ومحمد مكتوب فى التوراة والإنجيل كما أن القرآن فى تلك الكتب وكما ان أعمالنا فى الكتب وأما القرآن فهو نفسه مكتوب فى المصاحف ليس المكتوب ذكره والخبر عنه كما يكتب إسم الله فى الورق ومن لم يفرق بين كتابة الأسماء والكلام وكتابة المسميات والأعيان كما جرى لطائفة من الناس فقد غلط غلطا سوى فيه بين الحقائق المختلفة كما قد يجعل مثل هؤلاء الحقائق المختلفة شيئا واحدا كما قد جعلوا جميع أنواع الكلام معنى واحدا [1]

انه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله[2]

من قال إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن فهو ضال مبتدع

وإذا كتب المسلمون مصحفا فإن أحبوا أن لا ينقطوه ولا يشكلوه جاز ذلك كما كان الصحابة يكتبون المصاحف من غير تنقيط ولا تشكيل لأن القوم كانوا عربا لا يلحنون وهكذا هي المصاحف التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار في زمن التابعين ثم فشا اللحن فنقطت المصاحف وشكلت بالنقط الحمر ثم شكلت بمثل خط الحروف فتنازع العلماء في كراهة ذلك وفيه خلاف عن الإمام أحمد رحمه الله وغيره من العلماء قيل يكره ذلك لأنه بدعة وقيل لا يكره للحاجة إليه وقيل يكره النقط دون الشكل لبيان الإعراب والصحيح أنه لا بأس به والتصديق بما ثبت عن النبي أن الله يتكلم بصوت وينادي آدم عليه السلام بصوت إلى أمثال ذلك من الأحاديث فهذه الجملة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص:564- 566

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 129

كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة وقال أئمة السنة القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق حيث تلى وحيث كتب فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن إنها مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل ولا يقال غير مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد ولم يقل قط أحد من أئمة السلف إن أصوات العباد بالقرآن قديمه بل أنكروا على من قال لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق وأما من قال إن المداد قديم فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة قال الله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً }الكهف109 فأخبر أن المداد يكتب به كلماته وكذلك من قال ليس القرآن في المصحف وإنما في المصحف مداد وورق أو حكاية وعبارة فهو مبتدع ضال بل القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو ما بين الدفتين والكلام في المصحف على الوجه الذي يعرفه الناس له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء وكذلك من زاد على السنة فقال إن ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة فهو مبتدع ضال كمن قال إن الله لا يتكلم بحرف ولا بصوت فإنه أيضا مبتدع منكر للسنة وكذلك من زاد وقال إن المداد قديم فهو ضال كمن قال ليس في المصاحف كلام الله وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون إن الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط كلام الله فهو بمنزلة من يقول ما تكلم الله بالقرآن ولا هو كلامه هذا الغلو من جانب الإثبات يقابل التكذيب من جانب النفي وكلاهما خارج عن السنة والجماعة وكذلك أفراد الكلام في النقطة والشكلة بدعة نفيا وإثباتا وإنما حدثت هذه البدعة من مائة سنة أو أكثر بقليل فإن من قال إن المداد الذي تنقط به الحروف ويشكل به قديم فهو ضال جاهل ومن قال إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن فهو ضال مبتدع بل الواجب أن يقال هذا القرآن العربي هو كلام الله وقد دخل في ذلك حروفه بإعرابها كما دخلت معانيه ويقال ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله فإن كان المصحف منقوطا مشكولا أطلق على ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله وإن كان غير منقوط ولا مشكول كالمصاحف القديمة التي كتبها الصحابة كان أيضا ما بين اللوحين هو كلام الله فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظي لا حقيقة له ولا يجوز أن يحدث في الدين ما ليس منه[1]

الملائكة لهم من العلوم والأحوال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال

فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً}فاطر1 فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}الحج75 وملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا قال تعالى{ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{15} كِرَامٍ بَرَرَةٍ{16}عبس 13-16[2]

لطائف لغوية

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 404

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 122

1-قال تعالى { وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9}عبس8-9 السعي في كتاب الله لمعنى الفعل و العمل[1]

[1]شرح العمدة ج: 4 ص: 600

سورة عبس17-32

{ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ{17} مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ{18} مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ{19} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ{20} ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ{21} ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ{22} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ{23} فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32}

الخلق غير المخلوق

وأما أفعاله المتعدية إلى المفعول به الحادثة كقوله {مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ{19} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ{20} ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ{21} ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ{22} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ{23} فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32}سورة عبس17-32 ومثل هذا كثير في القرآن والاحتجاج به ظاهر على قول الجمهور الذين يجعلون الخلق غير المخلوق وهو الصواب فإن الذين يقولون الخلق هو المخلوق قولهم فاسد وقد بينا فساده في غير هذا الموضع وشبهتهم أنه لو كان غيره لكان إن كان قديما لزم قدم المخلوق وإن كان محدثا احتاج إلى خلق آخر فيلزم التسلسل وإن كان قائما به فيكون محلا للحوادث وقد أجابهم الناس عن هذا كل قوم بجواب بين فساد قولهم وطائفة منعت قدم المخلوق كالإرادة فإنهم سلموا أنها قديمة مع حدوث المراد وطائفة منعت قيامه به وقالت لا يقوم به الخلق فلا يكون محلا للحوادث فإذا قالوا إن الخلق هو المخلوق ولا يقوم به فلان يجوز أن يكون غير المخلوق ولا يقوم به أولى وطائفة قالت لا نسلم أنه إذا افتقر المخلوق المنفصل إلى خلق أن يفتقر ما يقوم به من الخلق إلى خلق آخر بل يكتفي فيه القدرة والمشيئة فإنكم إذا جوزتم وجود الحادث الذي يباينه بمجرد القدرة والمشيئة فوجود مالا يباينه بها أولى بالجواز وهؤلاء وغيرهم يمانعونهم في قيام الحوادث به[1]

تقديم العنب

قال النبى صلى الله عليه و سلم لا تسموا العنب الكرم فإنما الكرم قلب المؤمن و هم سموا العنب الكرم لأنه أنفع الفواكه يؤكل رطبا و يابسا و يعصر فيتخذ منه أنواع و هو أعم و جودا من النخل يوجد في عامة البلاد و النخل لا يكون إلا فى البلاد الحارة و لهذا قال فى رزق

---

[11] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 66

الإنسان { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32} عبس 24-32 فقدم العنب و قال فى صفة الجنة {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً {31} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{32} النبأ31 -32 و مع هذا نهى النبى صلى الله عليه و سلم عن تسميته بالكرم و قال الكرم قلب المؤمن فإنه ليس في الدنيا أكثر و لا أعظم خيرا من قلب المؤمن[1]

لا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية

أن ما خلقه الله في سائر الأرض من القوت واللباس والمراكب والمساكن لم يكن كل نوع منه كان موجودا في الحجاز فلم يأكل النبي من كل نوع من أنواع الطعام القوت والفاكهة ولا لبس من كل نوع من أنواع اللباس ثم ان من كان من المسلمين بأرض أخرى كالشام ومصر والعراق واليمن وخراسان وأرمينية وأذربيجان والمغرب وغير ذلك عندهم أطعمة وثياب مجلوبة عندهم أو مجلوبة من مكان آخر فليس لهم أن يظنوا ترك الإنتفاع بذلك الطعام واللباس سنة لكون النبي لم يأكل مثله ولم يلبس مثله إذ عدم الفعل إنما هو عدم دليل واحد من الأدلة الشرعية وهو أضعف من القول باتفاق العلماء وسائر الأدلة من أقواله كأمره ونهيه وإذنه من قول الله تعالى هي أقوى وأكبر ولا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية وكذلك إجماع الصحابة أيضا من أقوى الأدلة الشرعية فنفي الحكم بالاستحباب لانتفاء دليل معين من غير تأمل باقي الأدلة خطأ عظيم فان الله يقول { وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا }فصلت10 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً }البقرة29 وقال تعالى {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ }الجاثية13 وقال تعالى {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }النحل8 ولم تكن البغال موجودة بأرض العرب ولم يركب النبي بغلة إلا البغلة التي أهداها له المقوقس من أرض مصر بعد صلح الحديبية وهذه الآية نزلت بمكة ومثلها في القرآن يمتن الله على عباده بنعمه التي لم تكن بأرض الحجاز كقوله تعالى { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} عبس 24-31 ولم يكن بأرض الحجاز زيتون ولا نقل عن النبي أنه أكل زيتونا ولكن لعل الزيت كان يجلب إليهم وقد قال تعالى {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ }التين1 ولم يكن بأرضهم لا هذا ولا هذا ولا نقل عن النبي أنه أكل منهما وكذلك قوله {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ }المؤمنون20 وقد قال النبي كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة وقال تعالى { الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ }النور35 وكذلك قوله {وَحَدَائِقَ غُلْباً } عبس30 وكذلك قوله في البحر { لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا }النحل14 وقوله { وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ{12} لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ{13} وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ{14} الزخرف12-14 ولم يركب النبي البحر ولا أبو بكر ولا عمر وقد أخبر بمن يركب البحر من أمته غزاة في

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 294

سبيل الله كأنهم ملوك على الأسرة لأم حرام بنت ملحان وقالت ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم وكانت سنة رسول الله أنه يطعم ما يجده في أرضه ويلبس ما يجده ويركب ما يجده مما أباحه الله تعالى فمن استعمل ما يجده في أرضه فهو المتبع للسنة كما أنه حج البيت من مدينته فمن حج البيت من مدينة نفسه فهو المتبع للسنة وإن لم تكن هذه المدينة تلك

وكان يجاهد من يليه من الكفار من المشركين وأهل الكتاب فمن جاهد من يليه من هؤلاء فقد اتبع السنة وإن كان نوع هؤلاء غير نوع أولئك إذ أولئك كان غالبهم عربا ولهم نوع من الشرك هم عليه فمن جاهد سائر المشركين تركهم وهندهم وغيرهم فقد فعل ما أمر الله به وإن كانت أصنامهم ليست تلك الأصنام ومن جاهد اليهود والنصارى فقد اتبع السنة وإن كان هؤلاء اليهود والنصارى من نوع آخر غير النوع الذي جاهدهم النبي فانه جاهد يهود المدينة كقريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر وضرب الجزية على نصارى نجران وغزا نصارى الشام عربها ورومها عام تبوك ولم يكن فيها قتال وأرسل إليهم زيدا وجعفرا وعبد الله بن رواحة قاتلوهم في غزوة مؤتة وقال أميركم زيد فان قتل فجعفر فان قتل فعبد الله بن رواحة وصالح أهل البحرين وكانوا مجوسا على الجزية وهم أهل هجر وفي الصحيح أنه قدم مال البحرين فجعله في المسجد وما ثاب حتى قسمه وهذا باب واسع قد بسطناه في غير هذا الموضع وميزنا بين السنة والبدعة وبينا ان السنة هي ما قام الدليل الشرعي عليه بأنه طاعة لله ورسوله سواء فعله رسول الله أو فعل على زمانه أو لم يفعله ولم يفعل على زمانه لعدم المقتضى حينئذ لفعله أو وجود المانع منه فانه إذا ثبت أنه أمر به أو استحبه فهو سنة كما أمر باجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب وكما جمع الصحابة القرآن في المصحف وكما داوموا على قيام رمضان في المسجد جماعة[1]

آيات الله الدالة على قدرته وإنعامه ورحمته

أنه كما علم بما في مصنوعاته من الأحكام والإتقان أنه عالم وبما أن فيها من التخصيص أنه مريد فيعلم بما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم وبما فيها من الغايات المحمودة أنه حكيم والقرآن يبين آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته وآياته الدالة على إنعامه ورحمته وحكمته ولعل هذا أكثر في القرآن كقوله تعالى { قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ{17} مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ{18} مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ{19} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ{20} ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ{21} ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ{22} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ{23} فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32}سورة عبس17-32 أنه كما علم بما في مصنوعاته من الأحكام والإتقان أنه عالم وبما أن فيها من التخصيص أنه مريد فيعلم بما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم وبما فيها من الغايات المحمودة أنه حكيم والقرآن يبين آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته وآياته الدالة على إنعامه ورحمته وحكمته[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 315-318

[2] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص:199- 200

النفع الذى يخلقه الله فى الأرض من الإنبات

النفع الذى يخلقه الله فى الأرض من الإنبات كما قال تعالى { فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32} عبس27-32[1]

تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به

تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روى شعبة عن سليمان عن عبدالله بن مرة عن أبى معمر قال قال أبو بكر الصديق أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى اذا قلت فى كتاب الله ما لم أعلم وقال أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا محمود بن يزيد عن العوام بن حوشب عن ابراهيم التيمى ان أبا بكر الصديق سئل عن قوله {وَفَاكِهَةً وَأَبّاً } عبس31 فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى ان أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم منقطع وقال أبو عبيد أيضا حدثنا يزيد عن حميد عن انس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر {وَفَاكِهَةً وَأَبّاً } عبس31 فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ثم رجع الى نفسه فقال ان هذا لهو التكلف يا عمر وقال عبد بن حميد حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال كنا عند عمر بن الخطاب وفى ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ {وَفَاكِهَةً وَأَبّاً } عبس31 فقال ما الأب ثم قال ان هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه وهذا كله محمول على أنهما رضى الله عنهما انما أرادا استكشاف علم كيفية الاب والا فكونه نبتا من الارض ظاهر لا يجهل لقوله تعالى { فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} عبس27-31 وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبى مليكة ان ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فابى أن يقول فيها اسناده صحيح [2]

الألفاظ الغريبة التى فى القرآن

والقرآن نزل بلغة قريش الموجودة فى القرآن فإنها تفسر بلغته المعروفة فيه إذا وجدت لا يعدل عن لغته المعروفه مع وجودها وإنما يحتاج إلى غير لغته فى لفظ لم يوجد له نظير فى القرآن كقوله { وَيْكَأَنَّ اللَّهَ } القصص82 {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ } ص3 {وَكَأْساً دِهَاقاً } النبأ34 {وَفَاكِهَةً وَأَبّاً } عبس31 {تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى } النجم22 ونحو ذلك من الألفاظ الغريبة فى القرآن[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 294

[2] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 373

[3] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 88

سورة عبس 33-42

{ فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ{33} يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ{34} وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ{35} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ{36} لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ{37} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ{38} ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ{39} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ{40} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ{41} أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ{42}

الإبتداء يكون فى كل مقام بما يناسبه

و لجماعة من الفضلاء كلام فى قوله تعالى {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ {34} وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ{35} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ{36} عبس34-36 لم إبتدأ بالأخ و من عادة العرب أن يبدأ بالأهم فلما سئلت عن هذا قلت أن الإبتداء يكون فى كل مقام بما يناسبه فتارة يقتضي الإبتداء بالأعلى و تارة بالأدنى و هنا المناسبة تقتضي الإبتداء بالأدنى لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلا شيئا بعد شيء فلو ذكر القرب أولا لم يكن فى ذكر الأبعد فائدة طائلة فإنه يعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد و لما حصل للمستمع إستشعار الشدة مفصلة فإبتدئ بنفي الأبعد منتقلا منه إلى الأقرب فقيل أولا { يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ } عبس34 فعلم أن ثم شدة ت جب ذلك وقد يجوز أن يفر من غيره ويجوز أن لا يفر فقيل { وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ } عبس35 فعلم أن الشدة أكبر من ذلك بحيث تو جب الفرار من الأبوين ثم قيل { وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} عبس 36 فعلم أنها طامة بحيث توجب الفرار مما لا يفر منهم إلا فى غاية الشدة و هي الزوجة و البنون و لفظ صاحبته أحسن من زوجته قلت فهذا فى الخبر ونظيره في الأمر قوله { فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ }البقرة196 و قو له {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ }المائدة89 فإن الواجبات نوعان على الترتيب فيقدم فيه الأعلى فالأعلى كما فى كفارة الظهار و القتل و اليمين و على التخيير فإبتدأ فيها بأخفها ليبين أنه مجزيا لا نقص فيه و إن ذكر الأعلى بعده للترغيب فيه لا للإيجاب فإنتقال القلب من العمل الأدنى إلى الأعلى أو لى من أن يؤمر بالأعلى ثم يذكر له الأدنى فيزدريه القلب و لهذا لما ذكر فى جزاء الصيد الأعلى إبتداء كان لنا فى ترتيبه رو ايتان و إذا نصرنا المشهو ر قلنا قدم فيه الأعلى لأن الأدنى بقدرته فى قو له { أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً }المائدة95 و لهذا لما إبتدأ بالأثقل فى حدود المحاربين لم يكن عندنا على التخيير و لا على الترتيب بل بحسب الجرائم و ليس فى لفظ الآية ما يقتضى التخيير كما يتوهمه طائفة من الناس فإنه لم يقل الواجب أو الجزاء هذا مما لا يفر منهم إلا فى غاية الشدة و هي الزوجة و البنون و لفظ صاحبته أحسن من زوجته قلت فهذا فى الخبر ونظيره في الأمر قوله { فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ }البقرة196 و قو له {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ }المائدة89 فإن الواجبات نوعان على الترتيب فيقدم فيه الأعلى فالأعلى كما فى كفارة الظهار و القتل و اليمين و على التخيير فإبتدأ فيها بأخفها ليبين أنه مجزيا لا نقص فيه و إن ذكر الأعلى بعده للترغيب فيه لا للإيجاب فإنتقال القلب من العمل الأدنى إلى الأعلى أولى من أن يؤمر بالأعلى ثم يذكر له الأدنى فيزدريه القلب و لهذا لما

ذكر فى جزاء الصيد الأعلى إبتداء كان لنا في ترتيبه روايتان و إذا نصرنا المشهور قلنا قدم فيه الأعلى لأن الأدنى بقدرته فى قوله { أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً }المائدة95 و لهذا لما إبتدأ بالأثقل فى حدود المحاربين لم يكن عندنا على التخيير و لا على الترتيب بل بحسب الجرائم و ليس فى لفظ الآية ما يقتضى التخيير كما يتوهمه طائفة من الناس فإنه لم يقل الواجب أو الجزاء هذا أو هذا أو هذا كما قال فكفارته هذا أو هذا أو هذا و كما قال { فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ }البقرة196 و إنما قال إنما جزاءهم هذا أو هذا أو هذا فالكلام فيه نفي و إثبات تقديره ما جزاؤهم إلا أحد الثلاثة كما قال فى آية الصدقات {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ }التوبة60 أي ما هي إلا لهؤلاء و قد تقرر أن مثل هذا الخطاب يثبت للمذكور ما نفاه عن غيره فلما نفى الجواز لغير الأصناف اثبت الجواز لا الوجوب و لا الإستحقاق كما فهمه من إعتقد وجوب الإستيعاب من ظاهر الخطاب و هنا نفى أن يكون ما سوى أحد هذه جزاء فأثبت أن يكون جزاء المحارب أحد هذه العقو بات و المحاربون جملة ليسوا واحدا فظهر الفرق بين هذه الآية و بين الآيتين من وجوه أحدها أن المحاربين ذكرو ا بإسم الجمع و مقابلة الجمع بالجمع تقتضي توزيع الأفراد على الأفراد فلو قيل جزاء المعتدين إما القتل و إما القطع و إما الجلد و إما الصلب و إما الحبس لم يقتض هذا التخيير فى كل معتد بين هذه العقوبات بل توزيع العقوبات على أنواعهم كذلك إذا قيل جزاء المحاربين كذا أو كذا أو كذا أو كذا بخلاف قوله { فَكَفَّارَتُهُ }المائدة89 و قوله {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ }البقرة184 الثاني أن المقصود نفي جواز ما سوى و إثبات ضده و هي جواز المذكور فى الجملة و ذلك أعم من أن يكون مخيرا أو معينا بخلاف ما إذا لم يكن المقصود إلا مجرد الإثبات فإن إثباته بصيغة التخيير يدل عليه و هذا معروف في مواد الإثبات المحض أو مواد الحصر كما قال صلى الله عليه و سلم للخصم المدعي شاهداك أو يمينه و فى لفظ ليس لك منه إلا ذلك فحصر طريق الحق و ليس الغرض التخيير و كذلك يقال الواجب فى القتل القصاص أو الدية و لا تصح الصلاة إلا بوضو ء أو تيمم و لابد يوم الجمعة من الظهر أو الجمعة و لا يترك فى دار الإسلام إلا مسلم أو معاهد و سبب ذلك أنه إذا كان بعض المقصود الذي دل عليه اللفظ نفس ما سوى الأمور المذكورة كان مدلوله إثباتا يقتضى النفي و هو الوجود المشترك من هذه الأمور والقدر المشترك بينها أعم من أن يكون معينا أو مخيرا و أما إذا أثبتت إبتداء فلو لم تكن مخيرة بل معينة و لم يدل اللفظ عليه كان تلبيسا الوجه الثالث وهو لطيف أن يقال مفهوم أو إثبات التقسيم المطلق كما قلنا إن الواو مفهومها التشريك المطلق بين المعطو ف والمعطوف عليه فأما الترتيب فلا ينفيه ولا يثبته إذ الدال على مجرد المشترك لا يدل على المميز فكذلك أو هي للتقسيم المطلق وهو ثبوت أحد الأمرين مطلقا و ذلك أعم من أن يثبت على سبيل التخيير بينه و بين الآخر أو على سبيل الترتيب أو على سبيل التوزيع وهو ثبوت هذا في حال و هذا في حال كما أنهم قالوا هي فى الطلب يراد بها الإباحة تارة كقولهم تعلم النحو أو الفقه والتخيير أخرى كقولهم كل السمك أو اللبن و أرادوا بالإباحة جواز الجمع و هي فى نفسها تثبت القدر المشترك و هو أحد الإثنين إما مع إباحة الآخر أو حظره فلا تدل عليه بنفسها بل من جهة المادة الخاصة و لهذا جمعنا بين القتل و الصلب و بينه و بين القطع على رواية فإن أو لا تنفى ذلك فإذا كان حرف أو يدل على مجرد إثبات أحد المذكورات فهنا مسلكان أحدهما أن يقال إذا كانت فى مادة الإيجاب أفادت التخيير و إذا كانت فى مادة الجواز أفادت القدر المشترك كما هو مشهور عن النحاة المتكلمين فى معاني الحروف أنهم يقولون يراد بها تارة الأذن فى أحد الشيئين مع حظر الآخر وتارة الأذن في أحدهما و إن ضم إليه الآخر كما ذكروه من الأمثلة و حينئذ فهذه الآية فى مادة الجواز لأن المنفي هو الجواز فيكون المثبت هو الجواز كما ذكرناه فى آية الصدقات بخلاف آية الكفارة فإنها فى مادة الوجوب المسلك الثانى أن يقال لا فرق بين المادتين

الجواز و الوجوب بل وفى الوجوب قد يباح الجمع كما لو كفر بالجميع مع الغنى لكن يقال دلالتها فى الجميع على التفريق المطلق ضد دلالة الواو ثم إن لم يدل دليل على ترتيب و لا تعيين جاز فعل كل و احد من الخصال لعدم ما يدل على التعيين و الترتيب لا للدليل المنافى لذلك كما فى قوله {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ }النساء92 فإن الرقبة المعينة يجزي عتقها كثبوت القدر المشترك فيها و عدم ما يوجب المعين لا لدليل دل على نفس المعين و ليس تقييد المطلق رفعا لظاهر اللفظ بل ضم حكم آخر إليه و هذا مسلك حسن في هذا الموضع و نظائره فإنه يجب الفرق بين ما يثبته اللفظ و بين ما ينفيه فإذا قلنا في المحاربين بالتعيين لدليل خبري أو قياسي كان كالقو ل بالترتيب فى الوضوء الإيمان فى الرقبة و نحوهما[1]

الصحبة فيها عموم وخصوص

قال تعالى { فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ{33} يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ{34} وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ{35} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ{36} عبس 33-36 أن الصحبة فيها عموم وخصوص فيقال صحبة ساعة ويوما وجمعة وشهرا وسنة وصحبة عمره كله وقد قال تعالى { وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ }النساء36 قيل هو الرفيق في السفر وقيل الزوجة وكلاهما تقل صحبته وتكثر وقد سمى الله الزوجة صاحبة في قوله { أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ }الأنعام101[2]

إن للحسنة لنورا فى القلب إن للسيئة لظلمة فى القلب

قال ابن عباس رضي الله عنه إن للحسنة لنورا في القلب وضياء في الوجه وقوة في البدن وزيادة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وغبرة في الوجه وضعفا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل احد كما قال تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ{38} ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ{39} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ{40} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ{41} أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ{42} عبس 38- 42 [3]

وصف للوجوه لحالها فى الآخرة

قال تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ{38} ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ{39} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ{40} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ{41} أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ{42} عبس 38- 42

و هذا كله و صف للوجوه لحالها فى الآخرة لا فى الدنيا [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 73-79

[2] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 390

[3] الاستقامة ج: 1 ص: 352

[4] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 220

فمن لم يكن من الوجوه الباسرة كان من الوجوه الناضرة[1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى { فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ{33} يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ{34} وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ{35} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ{36} عبس 33-36 وأما التقديم في اللفظ فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى[2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 440

[2] الجواب الصحيح ج: 2 ص: 217

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة التكوير
81

رقية محمود الغرايبة

~§§ التكوير(مكية)29 §§~

سورة التكوير1-14

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ{1} وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ{2} وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ{3} وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ{4} وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ{5} وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ{6} وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ{7} وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ{8} بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ{9} وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ{10} وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ{11} وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ{12} وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ{13} عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ{14}

القرآن لم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى

فالذي جاءت به السنة مطابق لما في القرآن في المستقبل أخبر تعالى بالقيامة والحسنات والجنة والنار ولم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى بحيث لا يبقى شيء بل أخبر باستحالة العالم قال تعالى {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ{1} وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ{2} وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ{3} وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ{4} وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ{5} وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ{6}التكوير 1-6 وأمثال هذه النصوص التي تبين الإستحالة والتغير على السموات والأرض والجبال وأنها تستحيل أنواعا من الإستحالة لتعدد الأوقات[1]

جميع البهائم تحشر

وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه كما دل عليه الكتاب والسنة قال تعالى {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}الأنعام38 وقال تعالى {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}التكوير5 وقال تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}الشورى29 وحرف إذا إنما يكون لما يأتى لا محالة والأحاديث فى ذلك مشهورة فإن الله عز وجل يوم القيامة يحشر البهائم ويقتص لبعضها من بعض ثم يقول لها كونى ترابا فتصير ترابا فيقول الكافر حينئذ

---

[1] الصفدية ج: 2 ص: 225

{ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً }النبأ40 ومن قال أنها لا تحيا فهو مخطىء فى ذلك أقبح خطأ بل هو ضال أو كافر والله أعلم [1]

زوج الشىء نظيره

قال تعالى {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ {22} الصافات22 قال عمر بن الخطاب ونظراؤهم وهذا ثابت عن عمر وروى ذلك عنه مرفوعا وكذلك قال ابن عباس واشباههم وكذلك قال قتادة والكلبى كل من عمل بمثل عملهم فأهل الخمر مع أهل الخمر وأهل الزنا مع أهل الزنا وعن الضحاك ومقاتل قرناؤهم من الشياطين كل كافر معه شيطانه فى سلسلة وهذا كقوله {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ }التكوير7 قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح قال ابن عباس وذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة وقال الحسن وقتادة ألحق كل امرىء بشيعته اليهودى مع اليهود والنصرانى مع النصارى وقال الربيع بن خيثم يحشر المرء مع صاحب عمله وهذا كما ثبت فى الصحيح عن النبى لما قيل له الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم قال المرء مع من أحب وقال الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقال المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وزوج الشىء نظيره وسمى الصنف زوجا لتشابه افراده كقوله { فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ }لقمان10 وقال {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }الذاريات49 قال غير واحد من المفسرين صنفين ونوعين مختلفين السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والسهل والجبل والشتاء والصيف والجن والانس والكفر والايمان والسعادة والشقاوة والحق والباطل والذكر والانثى والنور والظلمة والحلو والمر وأشباه ذلك[2]

الله سبحانه يحكم فى الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة

ان الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول وسنته عادته التى يسوى فيها بين الشىء وبين نظيره الماضى وهذا يقتضى أنه سبحانه يحكم فى الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة ولهذا قال {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ }القمر43 وقال {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ }الصافات22 أى أشباههم ونظراءهم وقال {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ }التكوير7 قرن النظير بنظيره[3]

ذم قتل كل من لا ذنب له

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 248

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 63

[3] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 23

قو له { وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ{8} بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ{9}التكوير 8-9 دليل على أنه لا يجوز قتل النفس إلا بذنب منها فلا يجوز قتل الصبى والمجنون لأن القلم مرفوع عنهما فلا ذنب لهما و هذه العلة لا ينبغي أن يشك فيها فى النهي عن قتل صبيان أهل الحرب و أما العلة المشتركة بينهم و بين النساء فكونهم ليسوا من أهل القتال على الصحيح الذي هو قول الجمهور أو كونهم يصيرون للمسلمين فأما التعليل بهذا وحده فى الصبى فلا والآية تقتضي ذم قتل كل من لا ذنب له من صغير وكبير و سؤالها توبيخ قاتلها [1]

تحريم قتل الولد بدون خشية الفقر أولى

قال الله تعالى {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ {8} بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ{9}التكوير 8 -9 وقال الله تعالى {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ }الإسراء31 وفى الصحيحين عن ابن مسعود عن النبى أنه قيل له أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قيل ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك وإذا كان الله قد حرم قتل الولد مع الحاجة وخشية الفقر فلأن يحرم قتله بدون ذلك أولى وأحرى [2]

الجنة هى الدار الجامعة لكل نعيم

قال الله تعالى { وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ{10} وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ{11} وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ{12} وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ{13} عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ{14}التكوير10-14 ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار تختلف في القرآن أحكام المقدمات بالنسب والاضافة [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 80

[2] مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 162

[333] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

سورة التكوير 15-26

{ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16} وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ{17} وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ{18} إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26}

النجوم زينة للسماء الدنيا

واما النجوم فان الله أخبر أنها زينة للسماء الدنيا كما قال تعالى {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ }الصافات6 وقال {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ }الملك5 فقال بعض من قال ان الافلاك غير السموات وان المراد بالسماء الدنيا هنا الفلك الثامن الذى يذكر أهل الهيئة أن الكواكب الثابتة فيه وادعوا ان تلك هى السموات العلى وان الافلاك هى السموات الدنيا ولكن هذا قول مبنى على أصل ضعيف وأيضا فان الذى نشهده هو الكواكب وقال تعالى { فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16} التكوير15 والخنوس الاختفاء وذلك قبل ظهورها من المشرق والكنوس رجوعها من جهة المغرب فما خنس ظهورها كنس بعد مغيبها جوار حال ظهورها تجرى من المشرق الى المغرب والشمس والقمر فى الفلك كما أخبر الله تعالى لا تنتقل من سماء الى سماء[1]

اقسام الله بالنجوم

واما اقسام الله بالنجوم كما اقسم بها فى قوله { فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16}التكوير15-16 فهو كاقسامه بغير ذلك من مخلوقاته كما اقسم بالليل والنهار والشمس والقمر وغير ذلك يقتضى تعظيم قدر المقسم به والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة والمنفعة للناس والانعام عليهم وغير ذلك ولا يوجب ذلك ان تتعلق القلوب به او يظن انه هو المسعد المنحس كما لا يظن ذلك فى { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى{1} وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى{2} الليل 1-2 وفى { وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً{1} فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً{2}الذاريات 1-2 وفى { وَالطُّورِ{1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{2} الطور1-2 وأمثال ذلك وإعتقاد المعتقد ان نجما من النجوم السبعة هو المتولى لسعده ونحسه اعتقاده فاسد وان المعتقد انه هو المدبر له فهو كافر وكذلك ان انظم الى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كفرا وشركا محصنا وغاية من يقول ذلك ان يبنى ذلك على ان هنا الولد حين ولد بهذا الطالع وهذا القدير يمتنع ان يكون وحده هو المؤثر فى احوال هذا المولود بل غايته ان يكون جزءا يسيرا من جملة الأسباب وهذا

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 594

القدر لا يوجب ما ذكر بل ما علم حقيقة تأثيره فيه مثل حال الوالدين وحال البلد الذى هو فيه فان ذلك سبب محسوس فى احوال المولود ومع هذا فليس هذا مستقلا ثم إن الأوائل من هؤلاء المنجمين المشركين الصابئين واتباعهم قد قيل انهم كانوا اذا ولد لهم المولود اخذوا طالع المولود وسموا المولود باسم يدل على ذلك فاذا كبر سئل عن اسمه اخذ السائل حال الطالع فجاء هؤلاء الطرقية يسألون الرجل عن اسمه واسم امه ويزعمون انهم يأخذون من ذلك الدلالة على احواله وهذه ظلمات بعضها فوق بعض منافية للعقل والدين وأما اختياراتهم وهو انهم يأخذون الطالع لما يفعلونه من الأفعال مثل اختياراتهم للسفر ان يكون القمر فى شرفه وهو السرطان وان لا يكون فى هبوطه وهو العقرب فهو من هذا الباب المذموم ولما أراد على بن ابى طالب ان يسافر لقتال الخوارج عرض له منجم فقال يا أمير المؤمنين لا تسافر فإن القمر فى العقرب فانك ان سافرت

والقمر فى العقرب هزم اصحابك او كما قال فقال على بل أسافر ثقة بالله وتوكلا على الله وتكذيبا لك فسافر فبورك له فى ذلك السفر حتى قتل عامة الخوارج وكان ذلك من أعظم ما سر به حيث كان قتاله لهم بأمر النبى وأما ما يذكره بعض الناس ان النبى قال لا تسافر والقمر فى العقرب فكذب مختلق بإتفاق أهل الحديث [1]

القرآن ما هو بقول شيطان رجيم

فمقصود الدعوة النبوية الفن الإلهي ومقدمات القياس فيه هى من القسم الأول الذى تختلف فيه أحكام المقدمات بالنسب والاضافة فتدبر هذا فإنه خالص نافع عظيم القدر يوضح هذا الفصل أن القرآن وإن كان كلام الله فإن الله أضافه الى الرسول المبلغ له من الملك والبشر فأضافه إلى الملك فى قوله { فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16} وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ{17} وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ{18} إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير15-21 فهذا جبرائيل فإن هذه صفاته لا صفات محمد ثم قال {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} التكوير 22 أضافه إلينا إمتنانا علينا بأنه صاحبنا كما قال { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} النجم 1-2 {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} التكوير 23-24 فهو محمد أى بمتهم وعلى القراءة الأخرى ببخيل وزعم بعض المتفلسفة أنه جبرائيل أيضا وهو العقل الفاعل الفائض وهومن تحريف الكلم عن مواضعه فإن صفات جبرائيل تقدمت وإنما هذا وصف محمد ثم قال {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} التكوير 25 لما أثبت أنه قول الملك نفى أن يكون قول الشيطان كما قال فى الشعراء { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{194}الشعراء 193-194 الى قوله { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ{210} وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ{211} الشعراء 210-211 إلى قوله { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{221} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{222} يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ{223} الشعراء 221-223 وأضافه إلى الرسول البشرى فى قوله { فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ{38} وَمَا لَا تُبْصِرُونَ{39} إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} الحاقة 38-43 فنفى عنه أن يكون قول شاعر أو كاهن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 35 ص:177- 183

وهما من البشر كما ذكر فى آخر الشعراء أن الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم كالكهنة الذين يلقون إليهم السمع وأن الشعراء يتبعهم الغاوون فهذان الصنفان اللذان قد يشتبهان بالرسول من البشر لما نفاهما علم أن الرسول الكريم هو المصطفى من البشر فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس كما أنه فى سورة التكوير لما كان الشيطان قد يشبه بالملك فنفى أن يكون قول شيطان رجيم علم أن الرسول المذكور هوالمصطفى من الملائكة وفى إضافته إلى هذا الرسول تارة والى هذا تارة دليل على أنه اضافة بلاغ وأداء لا اضافة احداث لشىء منه أو انشاء كما يقوله بعض المبتدعة الأشعرية من أن حروفه ابتداء جبرائيل أو محمد مضاهاة منهم فى نصف قولهم لمن قال انه قول البشر من مشركى العرب ممن يزعم أنه أنشأه بفضله وقوة نفسه ومن المتفلسفة الذين يزعمون أن المعانى والحروف تأليفه لكنها فاضت عليه كما يفيض العلم على غيره من العلماء فالكاهن مستمد من الشياطين {وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ }الشعراء224 وكلاهما فى لفظه وزن هذا سجع وهذا نظم وكلاهما له معان من وحى الشياطين كما قال النبى أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفخه وقال همزه المؤتة ونفثة الشعر ونفخة الكبر وقوله تعالى {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ }التكوير25 ينفى الأمرين كما أنه فى السورة الأخرى قال {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42}الحاقة41 -42 وكذلك قال فى الشعراء {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ }الشعراء210 مطلقا ثم ذكر علامة من تنزل عليه الشياطين بأنه أفاك أثيم وأن الشعراء يتبعهم الغاوون فظاهر القرآن ليس فيه أن الشعراء تتنزل عليهم الشياطين الا اذا كان أحدهم كذابا أثيما فالكذاب فى قوله وخبره والأثيم فى فعله وأمره وذاك والله أعلم لأن الشعر يكون من الشيطان تارة ويكون من النفس أخرى كما أنه إذا كان حقا يكون من روح القدس كما قال النبى لما دعا لحسان بن ثابت اللهم أيده بروح القدس وقال إهجهم وهاجهم وجبرائيل معك فلما نفى قسم الشيطان نفى قسم النفس ولهذا قال { يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ }الشعراء224 والغى اتباع الشهوات التى هى هوى النفوس ولهذا قال أبو حيان ما كان من نفسك فأحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنه وما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه فهذا والله أعلم سبب ذلك وأما التقسيم الى الكاهن والشاعر من جهة المعنى فهو والله اعلم لأن الكلام نوعان خبر وانشاء والكاهن يخبر بالغيوب مخلطا فيه الصدق بالكذب لا يأتون بالحق محضا واذا ألقى الشيطان فى أمنية أحدهم شيئا فى القلب لم ينسخ منه بل أكثرهم كاذبون كما قال تعالى وكما بينه النبى فى حديث الكهان لما قال إنهم يزيدون فى الكلمة مائة كذبة بخلاف الرسول والنبى والمحدث كما فى قراءة ابن عباس وغيره فإن الله ينسخ ما يلقى الشيطان والقراءة العامة ليس فيها المحدث إذ يجوز أن يقر على بعض الخطأ ويدخل الشيطان فى أمنيته بعض ما يلقيه فلا ينسخ بخلاف الرسول والنبى فإنه لا بد من نسخ ما يلقى الشيطان وأن يحكم الله آياته لأنه حق والمحدث مأمور بأن يعرض ما يحدثه على ما جاء به الرسول ولهذا ألقى الشيطان لعمر وهو محدث فى قصة الحديبية وقصة موت النبى وقصة اختلافه وحكيم بن حزام فى سورة الفرقان فأزاله عنه نور النبوة وأما الشاعر فشأنه التحريك للنفوس فهو من باب الأمر الخاص المرغب فلهذا قيل فيهم { يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ }الشعراء224 فضررهم فى الأعمال لا فى الاعتقادات وأولئك ضررهم فى الاعتقادات ويتبعها الأعمال ولهذا قال {أَفَّاكٍ أَثِيمٍ }الشعراء222 ومعنى الكهانة والشعر موجود فى كثير من المتفلسفة والمتصوفة والمتكلمة والمتفقهة والعامة والمتفقرة الخارجين عن

الشريعة الذين يتكلمون بالغيوب عن كهانة ويحركون النفوس بالشعر ونحوه وهم من أتباع المتنبئين الكذابين لهم مادة من الشياطين كما قد رأيناه كثيرا فى أنواع من هذه الطوائف وغيرها لمن نور الله صدره وقذف فى قلبه من نوره [1]

تنزيه جبريل عليه السلام عن ان يكون شيطانا

أن مذهب الملاحدة فيما يقولونه من الكلام وينظمونه من الشعر بين حديث مفترى وشعر مفتعل واليهما أشار أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما قال له عمر بن الخطاب فى بعض ما يخاطبه به يا خليفة رسول الله تألف الناس فأخذ بلحيته وقال يا ابن الخطاب أجبارا فى الجاهلية خوارا فى الاسلام علام أتألفهم أعلى حديث مفترى أم شعر مفتعل يقول انى لست أدعوهم الى حديث مفترى كقرآن مسيلمة ولا شعر مفتعل كشعر طليحة الاسدي وهذان النوعان هما اللذان يعارض بهما القرآن أهل الفجور والافك المبين قال تعالى { فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ{38} وَمَا لَا تُبْصِرُونَ{39} إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} الحاقة 38-43 وقال تعالى {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} الشعراء 192-193 الى قوله { وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ{210} الشعراء210 الى آخر السورة فذكر فى هذه السورة علامة الكهان الكاذبين والشعراء الغاوين ونزهه عن هذين الصنفين كما فى سورة الحاقة وقال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20}التكوير 19-20 الى آخر السورة فالرسول هنا جبريل وفى الآية الأولى محمد ولهذا نزه محمدا هناك عن ان يكون شاعرا أو كاهنا ونزه هنا الرسول اليه أن يكون من الشياطين[2]

قال تعالى {فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ }الطور29 إلى قوله { إِن كَانُوا صَادِقِينَ{34} الطور34 فنزه سبحانه وتعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم عمن تقترن به الشياطين من الكهان والشعراء والمجانين وبين ان الذى جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه قال الله تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }الحج75 وقال تعالى { وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{194} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ{195} الشعراء192-195 وقال تعالى {قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}البقرة97 الآية وقال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ }النحل98 إلى قوله { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ{102} النحل102 فسماه الروح الامين وسماه روح القدس وقال تعالى { فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16}التكوير15-16 يعنى الكواكب التى تكون فى السماء خانسة اى مختفية قبل طلوعها فاذا ظهرت رآها الناس جارية فى السماء فاذا غربت ذهبت إلى كناسها الذى يحجبها {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} التكوير 17 أى إذا ادبر واقبل الصبح { وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ{18} التكوير 18 اى اقبل { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19}التكوير19 وهو

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 49-53

[22] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 137

جبريل عليه السلام { ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير20-21 اى مطاع فى السماء امين ثم قال { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} التكوير22 اى صاحبكم الذى من الله عليكم به إذ بعثه إليكم رسولا من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون ان تروا الملائكة كما قال تعالى وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضى الامر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا الآية وقال تعالى { وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} التكوير 23 أى رأى جبريل عليه السلام {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} التكوير 24 اى بمتهم وفى القراءة الاخرى بضنين اى ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بجعل كما يفعل من يكتم العلم إلا بالعوض { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25}التكوير 25 فنزه جبريل عليه السلام عن ان يكون شيطانا كما نزه محمدا عن ان يكون شاعرا او كاهنا فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد صلى الله عليه وسلم فيفعلون ما امر به وينتهون عما عنه زجر ويقتدون به فيما بين لهم ان يتبعوه فيه فيؤيدهم بملائكته وروح منه ويقذف الله فى قلوبهم من انواره ولهم الكرامات التى يكرم الله بها اولياءه المتقين وخيار اولياء الله كراماتهم لحجة فى الدين أو لحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم كذلك[1]

اصطفى الله جبريل من الملائكة

وجبريل الذي نزل بالوحي على محمد هو روح القدس وهو روح الحق كما قال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }النحل102 وهذا الروح إنما جعله بمجيء محمد والكلام الذي نزل به هو الذي بلغه محمد ولهذا قال الله تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }الحج75 فاصطفى الله جبريل من الملائكة واصطفى محمدا من البشر ولهذا يضاف القول الذي هو القرآن إلى قول هذا تارة وإلى قول هذا تارة كما قال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير19-21 فهذا الرسول هنا جبريل وقال تعالى في الآية الأخرى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} الحاقة 40-43 فهذا الرسول هنا محمد وأضافه إلى كل منهما بلفظ الرسول لتضمنه أنه بلغه عن مرسله لم يقل إنه لقول ملك ولا نبي بل كفر من قال إنه قول البشر كما ذكر ذلك عن التوحيد[2]

في قوله تعالى { فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ }التوبة6 فسماه هنا كلام الله وقال في مكان آخر {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }التكوير19 فما معنى ذلك ؟

سئل ابن تيمية في قوله تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ }التوبة6 فسماه هنا كلام الله وقال في مكان آخر {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }التكوير19 فما معنى ذلك فإن طائفة ممن يقول بالعبارة يدعون أن هذا حجة لهم ثم يقولون أنتم تعتقدون أن موسى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 273 و الجواب الصحيح ج: 5 ص: 347 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 148-149

[2] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 312

صلوات الله عليه سمع كلام الله عز وجل حقيقة من غير واسطة وتقولون إن الذي تسمعونه كلام الله حقيقة وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك وتقولون إن القرآن صفات الله تعالى وأن صفة الله تعالى قديمة فإن قلتم إن هذا نفس كلام الله تعالى فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية وإن قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا ونحن نطلب منكم جوابا نعتمد عليه إن شاء الله تعالى الجواب الحمد لله رب العالمين هذه الآية حق كما ذكر الله وليست إحدى الآيتين معارضة للأخرى بوجه من الوجوه ولا في واحدة منهما حجة لقول باطل وإن كان كل من الآيتين قد يحتج به بعض الناس لقول باطل وذلك أن قوله {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ }التوبة6 فيه دلالة على أنه يسمع كلام الله من التالي المبلغ وأن ما يقرأه المسلمون هو كلام الله كما في حديث جابر الذي في السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم {الم{1} غُلِبَتِ الرُّومُ{2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ{3} الروم 1-3 قالوا هذا كلامك أم كلام صاحبك فقال ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي ولكنه كلام الله وقد قال تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} المدثر 11-25 فمن قال إن هذا قول البشر كان قوله مضاهيا لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئا منشئا لا لمن أداه راويا مبلغا فإذا كان مثل هذا معلوما في تبليغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى أن لا يجعل كلاما لغير الخالق وقد أخبر تعالى بأنه تنزيل منه فقال {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }الأنعام114 وقال {حم{1} تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ{2} فصلت 1- 2 { تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1}الزمر 1 فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وكلاهما مبلغ له كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ }المائدة67 وقال {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً {27} لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً{28} الجن27-28 وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء كما أن المعلمين له في هذا الزمان والتاليين له في الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئا من حروفه ولا معانيه قال الله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ }النحل98 إلى قوله { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ{102} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ{103} النحل 101-103 وكان بعض المشركين يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة إما عبد الحضرمي وإما غيره كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى { لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } النحل 103 يضيفون إليه التعليم لسان أعجمي وهذا الكلام عربي وقد أخبر أنه نزله روح القدس من ربك بالحق فهذا بيان أن

هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف حروفه وبيان أن هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق فدل على أن القرآن منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الناس أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشد قول لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا وقوله وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع بيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع وهذا الشعر قاله منشئه لفظه ومعناه وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بقلبه ثم إذا أنشده المنشد وبلغه علم أنه شعر ذلك المنشئ وكلامه ونظمه وقوله مع أن هذا الثاني أنشده بحركة نفسه وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب الأول وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشئ والشعر شعره لا شعر المنشد والمحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا روى قوله إنما الأعمال بالنيات بلغه بحركته وصوته مع أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به بحركته وصوته وليس صوت المبلغ صوت النبي صلى الله عليه وسلم ولا حركته كحركته والكلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا كلام المبلغ له عنه فإذا كان هذا معلوما معقولا فكيف لا يعقل أن يكون القارئ إذا قرأ { الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2} الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ{3} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{4} الفاتحة 2-4 أن يقال هذا الكلام كلام البارئ وإن كان الصوت صوت القارئ فمن ظن أن الأصوات المسموعة من القراء صوت الله فهو ضال مفتر مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول قائل قولا لم يقله أحد من أئمة المسلمين بل قد أنكر الإمام أحمد وغيره على من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق وبدعوه كما جهموا من قال لفظي بالقرآن مخلوق وقالوا القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف فمن قال لفظي به قديم أو صوتي به قديم فابتداع هذا وضلاله واضح فمن قال إن لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته أو فعله أو شيئا من ذلك فهو مبتدع وهؤلاء قد يحتجون بقوله { حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ }التوبة6 ويقولون هذا كلام الله غير مخلوق فهذا غير مخلوق ونحن لا نسمع إلا صوت القارئ وهذا جهل منهم فإن سماع كلام الله بل وسماع كل كلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة الرسول المبلغ له قال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }الشورى51 ومن قال إن الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران أو إنا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران فهو من أعظم الناس جهلا وضلالا ولو قال قائل إنا نسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم كما سمعه الصحابة منه لكان ضلالا واضحا فكيف من يقول إنا نسمع كلام الله منه كما سمعه موسى وإن كان الله كلم موسى تكليما بصوت سمعه موسى فليس صوت المخلوقين صوتا للخالق وكذلك مناداته بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات صوته كجر السلسلة على الصفا وأمثال ذلك مما جاءت به النصوص والآثار كلها ليس فيها أن صفة المخلوق هي صفة الخالق بل ولا مثلها بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق و صفة المخلوق فليس كلامه مثل كلامه ولا معناه مثل معناه ولا حرفه مثل حرفه ولا صوته مثل صوته كما أن ليس علمه مثل علمه ولا قدرته مثل قدرته ولا سمعه مثل سمعه ولا بصره مثل بصره فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولما استقر في فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وبين سماعه من المبلغ عنه كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه أوضح من أن يحتاج إلى الاطناب وقد بين أئمة السنة والعلم كالامام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتابه خلق

الأفعال وغيرهما من أئمة السنة من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره ما لا يخالفهم فيه أحد من العلماء أهل العقول والدين فصل وأما قوله تعالى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }التكوير19 فهذا قد ذكره في موضعين فقال في الحاقة {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} الحاقة40-43 فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم وقال في التكوي الجواب { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} التكوير 19-23 فالرسول هنا جبريل فأضافه إلى الرسول من البشر تارة وإلى الرسول من الملائكة تارة باسم الرسول ولم يقل إنه لقول ملك ولا نبي لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ عن غيره ليس من عنده {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }العنكبوت18 فكان قوله{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ }الحاقة40 بمنزلة قوله لتبليغ رسول أو مبلغ من رسول كريم وليس معناه أنه أنشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئا منه أو أحدثه رسول كريم إذ لو كان منشئا لم يكن رسولا فيما أنشأه وابتدأه ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقا وأيضا فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها فبطل أن تكون إضافته إلى الرسول هنا لأجل إحداث لفظه ونظمه ولو جاز أن تكون الإضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه لجاز أن نقول إنه قول البشر وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر فإن قال قائل فالوحيد جعل الجميع قول البشر ونحن نقول إن الكلام العربي قول البشر وأما معناه فهو كلام الله فيقال لهم هذا نصف قول الوحيد ثم هذا باطل من وجوه أخرى وهو أن معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة وأنتم تجعلون ذلك المعنى معنى واحدا هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآنا وإذا عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإذا عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين فإن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن توراة وأيضا فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين وإنما يشتركان في مسمى الكلام ومسمى كلام الله كما يشترك الأعيان في مسمى النوع فهذا الكلام وهذا الكلام كله يشترك في أنه كلام الله اشتراك الأشخاص في أنواعها كما أن الإنسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان وليس في الخارج شخص بعينه هو هذا وهذا و هذا وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والإنجيل والقرآن وهو معنى آية الدين وآية الكرسي ومن خالف هذا كان في مخالفته لصريح العقول من جنس من قال إن أصوات العباد وأفعالهم قديمة أزلية فاضرب بكلام البدعتين رأس قائلهما والزم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وبسبب هاتين البدعتين الحمقاوين ثارت الفتن وعظمت الأحزاب إن كان كل من أصحاب القولين قد يقررونهما بما قد يلبس على كثير من الناس كما قرر من قال إن الصوت المسموع من العبد أو بعضه قديم أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه وأما أفعال العباد فرأيت بعض المتأخرين يقول إنها قديمة خيرها وشرها وفسر ذلك بأن الشرع قديم والقديم قديم وهي مشروعة مقدرة ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله والمشروع الذي هو المأمور به والمنهى عنه ولم يفرق بين القدر الذي هو علم الله وكلامه وبين القدر الذي هو مخلوقاته والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطرار أن الأمر والخبر نوعان للكلام لفظه ومعناه ليس الأمر والخبر صفات لموصوف واحد فمن جعل الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواعا له فقد خالف الضرورة إذ لم يفرق بين الواحد بالنوع والواحد بالعين فإن انقسام الموجود إلى القديم والمحدث والواجب والممكن والخالق والمخلوق والقائم بنفسه والقائم بغيره كانقسام الكلام إلى الأمر والخبر أو إلى الإنشاء والأخبار أو إلى الأمر والنهي والخبر فمن قال الكلام معنى واحد هو الأمر والخبر فهو

كمن قال الموجود واحد هو الخالق والمخلوق أو الواجب والممكن وكما أن حقيقة هذا تؤول إلى تعطيل الخالق فحقيقة هذا تؤول إلى تعطيل كلامه وتكليمه وهذا حقيقة قول فرعون الذي أنكر الخالق وتكليمه لموسى ولهذا آل الأمر بمحققي هؤلاء إلى تعظيم فرعون وتوليه وتصديقه في قوله {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 بل إلى تعظيمه على موسى وإلى الاستحقار بتكليم الله لموسى كما قد بسط في غير هذا الموضع وأيضا فيقال ما يقول في كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره كما قد ينقل كلام النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والعلماء الشعراء وغيرهم ويسمع من الرواة أو المبلغين أن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ أو كلام المبلغ عنه فإن قال كلام المبلغ لزم أن يكون القرآن كلاما لكل من سمع منه فيكون القرآن المسموع كلام ألف ألف قارئ لا كلام الله تعالى وأن يكون قوله إنما الأعمال بالنيات كلام كل من رواه لا كلام الرسول وحينئذ لا فضيلة للقرآن في {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }التكوير19 فإنه على قول هؤلاء قول كل منافق قرأه والقرآن يقرأه المؤمن والمنافق كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترنجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها على هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد بل قول ألف ألف بشر وأكثر من ذلك وفساد هذا في العقل والدين واضح وإن قال كلام المبلغ عنه علم أن الرسول المبلغ القرآن ليس كلامه ولكنه كلام الله ولكن لما كان الرسول قد يقال إنه شيطان بين الله أنه تبليغ ملك كريم لا تبليغ شيطان رجيم ولهذا قال { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} إلى قوله { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} التكوير 19 -25 وبين في هذه الآية أن الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون وما هو على الغيب بظنين متهم ذكره باسم الصاحب لما في ذلك من النعمة به علينا إذ كما لا نطيق أن نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من جنسنا كما قال تعالى {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ }التوبة128 وقال {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ }الأنعام9 كما قال في الآية الأخرى { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} النجم 1 -2 وبين أن الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي أنهما مبلغان فكان هذا في تحقيق أنه كلام الله فلما كان الرسول البشري يقال إنه مجنون أو مفتر نزهه عن هذا وهذا وكذلك في السورة الأخرى قال { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43}الحاقة40-43 وهذا مما يبين أنه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه فإنه قال {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193}الشعراء192-193 فجمع بين قوله {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }الحاقة40 وبين قوله {تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }الحاقة43 والضميران عائدان إلى واحد فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلا من رب العالمين بل كان يكون تنزيلا من الرسول ومن جعل الضمير عائدا في هذا إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر مع أنه ليس في الكلام ما يقتضي اختلاف الضميرين ومن قال إن هذا عبارة عن كلام الله فقل له هذا الذي نقرأه هو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك أو البشر على زعمك أم هو نفس تلك العبارة فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله وحينئذ فيبقى النزاع لفظيا فإنه متى قال إن محمدا سمعه من جبريل جميعه وجبريل سمعه من الله جميعه والمسلمون سمعوه من الرسول جميعا فقد قال الحق وبعد هذا فقوله عبارة لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ كما سنبينه إن قلت ليس هذا عبارة عن تلك العبارة بل هو نفس تلك العبارة فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه كما يسمع من المبلغ عنه إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة جبريل فحينئذ هذا يبطل أصل قولك

واعلم أن أصل القول بالعبارة أن محمدا أبا عبد الله بن كلاب هو أول من قال في الإسلام أن معنى القرآن كلام الله وحروفه ليس كلام الله فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنة والجماعة وكان قد ذهب إلى إثبات الصفات لله تعالى وخالف المعتزلة وأثبت العلو لله على العرش ومباينته المخلوقات وقرر ذلك تقرير هو أكمل من تقرير أتباعه بعد وكان الناس قد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره هل يقال له حكاية عنه أم لا وأكثر المعتزلة قالوا هو حكاية عنه فقال ابن كلاب القرآن العربي حكاية عن كلام الله ليس بكلام الله فجاء بعده أبو الحسن فسلك مسلكه في إثبات أكثر الصفات وفي مسألة القرآن أيضا واستدرك عليه قوله إن هذا حكاية وقال الحكاية إنما تكون مثل المحكي فهذا يناسب قول المعتزلة وإنما يناسب قولنا أن نقول هو عبارة عن كلام الله لأن الكلام ليس من جنس العبارة

فأنكر أهل السنة والجماعة عليهم عدة أمور أحدها قولهم إن المعنى كلام الله وإن القرآن العربي ليس كلام الله وكانت المعتزلة تقول هو كلام الله مخلوق فقال هؤلاء هو مخلوق وليس بكلام الله لأن من أصول أهل السنة أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان هو العالم القادر وكذلك الحركة وهذا مما احتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية في قولهم إن كلام الله مخلوق خلقه في بعض الأجسام قالوا لهم لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه فكانت الشجرة هي القائلة إني أنا الله رب العالمين فقال أئمة الكلابية إن كان القرآن العربي مخلوقا فليس كلام الله فقال طائفة من متأخريهم بل نقول الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة فقال لهم المحققون فهذا يبطل أصل حجتكم على المعتزلة فإنكم لما سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه بغيره أمكن للمعتزلة أن يقولوا ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره الثاني قولهم إن ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر وهو معنى التوراة والإنجيل والقرآن وقال أكثر العقلاء هذا الذي قالوه معلوم الفساد بالضرورة الثالث أن ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله ومسألة القرآن لها طرفان أحدهما تكلم الله به وهو أعظم الطرفين والثاني تنزيله إلى خلقه وقد بسطنا الكلام في ذلك في عدة مواضع وبينا مقالات أهل الأرض كلهم في هذه المسائل وما دخل في ذلك من الاشتباه ومأخذ كل طائفة ومعنى قول السلف القرآن كلام الله غير مخلوق وأنهم قصدوا به إبطال قول من يقول إن الله لم يقم بذاته كلام ولهذا قال الأئمة كلام الله من الله ليس ببائن منه وذكرنا اختلاف المنتسبين إلى السنة هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته أم لا وقول من قال من أئمة السنة لم يزل الله متكلما إذا شاء وأن قول السلف منه بدأ لم يريدوا أنه فارق ذاته وحل في غيره فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته بل قالوا منه بدأ أي هو المتكلم به ردا على المعتزلة والجهمية وغيرهم الذين قالوا بدأ من المخلوق الذي خلق فيه وقولهم إليه يعود أي علمه فلا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في الصدور منه آية والمقصود هنا جواب مسائل السائل فصل وأما قول القائل أنتم تعتقدون أن موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة وتقولون إن الذي تسمعونه كلام الله حقيقة وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك فيقال له بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق فإن كل عاقل يميز بين سماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم منه بغير واسطة كسماع الصحابة منه وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر وابن عباس وكل من يسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا وهو الموضعين شعر حسان لا شعر غيره والإنسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم أن ذلك الشعر أنشأ معانيه ونظم حروفه بالأصوات المقطعة يرويه بحركة نفسه وأصوات نفسه فإذا كان هذا الفرق معقولا في كلام المخلوقين بين سماع

الكلام من المتكلم به ابتداء وسماعه بواسطة الراوي عنه أو المبلغ عنه فكيف لا يعقل ذلك في سماع كلام الله وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب فهو إلى تأديب المجانين أقرب منه إلى خطاب العقلاء وكذلك من توهم أن الصوت قديم وأن المراد قديم فهذا لا يقوله ذو حس سليم بل ما بين لوحي المصحف كلام الله وكلام الله ثابت في مصاحف المسلمين لا كلام غيره فمن قال إن الذي في المصحف ليس بكلام الله بل كلام غيره فهو ملحد مارق ومن زعم أن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره كما كتب في المصاحف وأن المراد قديم أزلي فهو أيضا مارق بل كلام المخلوقين يكتب في الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله تعالى والشبهة تنشأ في مثل هذا من جهة أن بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد مثال ذلك أن الإنسان يقول رأيت الشمس والقمر والهلال إذا رآه بغير واسطة وهذه الرؤية المطلقة وقد يراه في ماء أو مرآة فهذه رؤية مقيدة فإذا أطلق قوله رأيته أو ما رأيته حمل على مفهوم اللفظ المطلق وإذا قال لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة فهو كلام صحيح مع التقييد واللفظ يختلف معناه بالإطلاق والتقييد فإذا وصل بالكلام ما يغيره معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله ألف سنة إلا خمسين عاما كان هذا المجموع دالا على تسعمائة وخمسين سنة لطرق الحقيقة عند جماهير الناس ومن قال إن هذا مجاز فقد غلط فإن هذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقرن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعة هي من تمام الكلام ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين ولا يجوز نفي مفهومهما بخلاف استعمال نفي الأسد في الرجل الشجاع مع أن قول القائل هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز نزاع لفظي وهو مستند من أنكر المجاز في اللغة وفي القرآن ولم ينطق بهذا أحد من السلف والائمة ولم يعرف لفظ المجاز في كلام أحد من الآئمة إلا في كلام الإمام أحمد فإن فيما كتبه من الرد على الزنادقة والجهمية هذا من مجاز القرآن وأول من قال ذلك مطلقا أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه الذي صنفه في مجاز القرآن ثم إن هذا كان معناه عند الأولين مما يجوز في اللغة ويسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى المجاز ثم إنه لا ريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير المقصود فإن القائل إذا قال رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك في الماء والمرآة فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة وإذا قال قائل ما رأى ذلك بل رأى مثاله أو خياله أو الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا مانعا لما يعلمه الناس ويقولونه من أنه رآه في الماء أو المرآة حقيقة مقيدة وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم من رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي هو كما قال صلى الله عليه وسلم رآه حقا فمن قال رآه في المنام حقا فقد أخطأ ومن قال إن رؤيته في اليقظة بلا واسطة كالرؤية المقيدة في النوم فقد أخطأ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك وكذلك ما سمعه منه من الكلام في المنام هو سماع منه في المنام وليس هذا كالسماع منه في اليقظة وقد يرى الرائي المنام أشخاصا ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك وإنما رأى أمثالهم ولكن يقال رآهم في المنام حقيقة فيحترز بذلك عن الرؤيا التي هي حديث النفس فإن الرؤيا ثلاثة أقسام رؤيا بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في المنام وقد ثبت هذا التقسيم في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وتلك الرؤيا يظهر لكل من الفرق بينها وبين اليقظة ما لا يظهر في غيرها فكما أن الرؤية تكون مطلقة وتكون بواسطة المرآة والماء أو غير ذلك حتى أن المرئي يختلف باختلاف المرآة فإذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك فكذلك في السماع يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ ففي الموضعين المقصود سمع كلامه كما أن هناك في الموضعين يقصدونه لكن إذا كان بواسطة اختلف باختلاف الواسطة فيختلف باختلاف أصوات المبلغين كما يختلف باختلاف

المرايا قال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }الشورى51 فجعل التكليم ثلاثة أنواع الوحي المجرد والكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام والتكليم بواسطة إرسال الرسول كما كلم الرسل بإرسال الملائكة وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون متفقون على أن أمرهم بما أمرهم به من القرآن وأخبرهم به من القرآن فأمره ونهيه وإخباره بواسطة الرسول فهذا المعنى أوجب الشبهة والنبي صلى الله عليه وسلم يروي عن ربه ويخبر عن ربه

ويحكي عن ربه فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذي قاله راويا حاكيا عنه فلو قال من قال إن القرآن حكاية أن محمدا حكاه عن الله كما يقال بلغه عن الله وأداه عن الله لكان قد قصد معنى صحيحا لكن يقصدون ما يقصده القائل بقوله فلانا يحكي فلانا أي يفعل مثل فعله وهو إنما يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل قال الله تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }الإسراء88 ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة لا بالوسائل المطلوبة لغيرها فلما كان مقصود الرائي أن يرى الوجه مثلا فرآه بالمرآة حصل مقصوده وقال رأيت الوجه وإن كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع في المرآة وكذلك من كان مقصوده أن يسمع القول الذي قاله غيره الذي ألف ألفاظه وقصد معانيه فإذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود وإن كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير باختلاف الصائتين والقلوب وإنما أشير إلى المقصود لا إلى ما ظهر به المقصود كما في الاسم والمسمى فإن القائل إذا قال جاء زيد وذهب عمرو لم يكن مقصوده الإخبار بالمجيء والإتيان هو لفظ زيد ولفظ عمرو وإلا كان مبطلا فكذلك إذا قال القائل هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فالمقصود بواسطة حركة التالي وصوته فمن ظن المشار إليه هو صوت القارئ وحركته كان مبطلا ولهذا لما قرأ أبو طالب المكي على الإمام أحمد رضي الله عنه قل هو الله أحد الإخلاص 1 وسأله هل هذا كلام الله وهل هو مخلوق فأجابه كلام الله وهو غير مخلوق ونقل عنه أبو طالب خطأ منه أنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فاستدعاه وغضب عليه وقال أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق قال لا ولكن قرأت عليك قل هو الله أحد وقلت لك هذا غير مخلوق فقلت نعم قال فلم تحكي عني مالم أقل لا تقل هذا فإن هذا لم يقله عالم وقصته مشهورة حكاها عبد الله وصالح وحنبل والمروزي وثوبان وبسطها الخلال في كتاب السنة وصنف المروزي في مسألة اللفظ مصنفا ذكر فيه قول الأئمة وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه فإن الإشارة إذا أطلقت انصرفت إلى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به لا ما وصل به إلينا من أفعال العباد وأصواتهم فإذا قيل لفظي جعل نفس الوسائط غير مخلوقة وهذا باطل كما أن رأى راء في مرآة فقال أكرم الله هذا الوجه وحياه أو قبحه كان دعاؤه على الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة لا على الشعاع المنعكس فيها وكذلك إذا رأى القمر في الماء فقال قد أبدر فإنما مقصوده القمر الذي في السماء لا خياله وكذلك من سمعه يذكر رجلا فقال هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم أن المشار إليه هو الشخص المسمى بالاسم لا نفس الصوت المسموع من الناطق فلو قال هذا الصوت أو صوت فلان صالح أو فاسق فسد المعنى وكان بعضهم يقول لفظي بالقرآن مخلوق كرجل ضرب رجلا وعليه فروة فأوجعه بالضرب فقال له لا تضربني فقال أنا ما أضربك وإنما أضرب الفروة فقال إنما الضرب يقع علي فقال هكذا إذا قلت لفظي بالقرآن مخلوق فالخلق إنما يقع على القرآن يقول كما أن المقصود بالضرب بدنك واللباس واسطة فهكذا المقصود بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة فإذا قلت مخلوق وقع ذلك على المقصود كما إذا سمعت قائلا يذكر رجلا فقلت أنا أحب هذا وأنا أبغض هذا انصرف الكلام إلى المسمى المقصود بالاسم لا إلى الصوت الذاكر ولهذا قال الأئمة القرآن كلام الله غير مخلوق كيفما تصرف

خلاف أفعال العباد وأصواتهم فإنه من نفى عنها الخلق كان مبتدعا ضالا وأما قول القائل يقولون إن القرآن صفته وأن صفات الله غير مخلوقة فإن قلتم إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية وإن قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا فمن تبين له ما نبهنا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله فإن منشأ الشبهة أن قول القائل هذا كلام الله يجعل أحكامه واحدة سواء كان كلامه مسموعا منه أوكلامه مبلغا عنه ومن هنا ضلت طوائف من الناس طائفة قالت هذا كلام الله وهذا حروف وأصوات مخلوقة وكلام الله مخلوق وطائفة قالت هذا مخلوق وكلام الله ليس بمخلوق وهذا ليس كلام الله وطائفة قالت هذا كلام الله وكلام الله ليس بمخلوق وهذا ألفاظنا وتلاوتنا فألفاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة ومنشأ ضلال الجميع من عدم الفرق في المشار إليه في هذا وأنت تقول هذا الكلام تسمعه من قائله فتقول هذا الكلام صدق وحق وصواب وكلام حكيم وكذلك إذا سمعته من ناقله تقول هذا الكلام صدق وحق وصواب وهو كلام حكيم فالمشار إليه في الموضعين واحد وتقول أيضا إن هذا صوت حسن وهذا كلام من وسط القلب فالمشار إليه هنا ليس هو المشار إليه هناك بل أشار إلى ما يختص به هذا من صوته وقلبه وإذا كتب الكلام صفحتين كالمصحفين تقول في كل منهما هذا قرآن كريم وهذا كتاب مجيد وهذا كلام فالمشار إليه واحد ثم تقول هذا خط حسن وهذا قلم النسخ أو الثلث وهذا الخط أحمر أو أصفر والمشار إليه هنا ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر فإذا ميز الإنسان في المشار إليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق وعلم أن هذا القرآن كلام الله غير مخلوق وأن المشار إليه الكلام من حيث هو مع قطع النظر عما به وصل إلينا من حركات العباد وأصواتهم ومن قال هذا مخلوق وأشار به إلى مجرد صوت العبد وحركته لم يكن له في هذا حجة على أن القرآن نفسه حروفه ومعانيه الذي تعلم هذا القارئ من غيره وبلغه بحركته وصوته مخلوق من اعتقد ذلك فقد أخطأ وضل ويقال لهذا هذا الكلام الذي أشرت إليه كان موجودا قبل أن يخلق هذا القارئ فهب أن القارئ لم يخلق ولا وجدت لا أفعاله ولا أصواته فمن أين يلزم أن الكلام نفسه الذي كان موجودا قبله يعدم بعدمه ويحدث بحدوثه فإشارته بالخلق إن كان إلى ما يختص به هذا القارئ من أفعاله وأصواته فالقرآن غني عن هذا القارئ وموجود قبله فلا يلزم من عدم هذا عدمه وإن كانت إلى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل إلى محمد وبلغه محمد لأمته وهو كلام الله الذي تكلم به وذلك يمتنع أن يكون مخلوقا فإنه لو كان مخلوقا لكان كلاما لمحله الذي خلق فيه ولم يكن كلاما لله ولأنه لو كان سبحانه إذا خلق كلاما كان كلامه ما نطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال وشهادة الجلود بل كل كلام في الوجود وهذا قول الحلولية الذين يقولون وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه ومن قال القرآن مخلوق فهو بين أمرين إما أن يجعل كل كلام في الوجود كلامه وبين أن يجعله غير متكلم بشيء أصلا فيجعل العباد المتكلمين أكمل منه وشبهه بالأصنام والجامدات والموات كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا فيكون قد فر عن إثبات صفات وشبهه بالجامد والموات وكذلك قول القائل هذا نفس كلام الله وعين كلام الله وهذا الذي في المصحف هوعين كلام الله ونفس كلام الله وأمثال هذه العبارات هذه مفهومها عند الإطلاق في نظر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره وأنه لا زيادة فيه ولا نقصان فإن من ينقل كلام غيره ويكتبه في كتاب قد يزيد فيه وينقص كما جرت عادة الناس في كثير من مكاتبات الملوك وغيرها فإذا جاء كتاب السلطان فقيل هذا الذي فيه كلام السلطان بعينه بلا زيادة ولا نقص يعني لم يزد فيه الكاتب ولا نقص وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة في مسألة من تصنيفه قيل هذا الكلام كلام فلان بعينه يعني لم يزد فيه ولم ينقص كما قال النبي صلى الله عليه وسلم نضر الله امرأ سمع حديثا فبلغه كما سمعه فقوله فبلغه كما سمعه لم يرد أن يبلغه بحركاته وأصواته التي سمعه بها ولكن أراد أنه يأتي بالحديث على وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص فيكون قد بلغه

كما سمعه فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله صلى الله عليه وسلم ويكون قد سمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قاله وذلك معنى قولهم وهذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه لا يريدون أن هذا هو أصواته وحركاته وهذا لا يقوله عاقل ولا يخطر ببال عاقل ابتداء ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس يلجئ أصحابه إلى القرمطة في السمعيات والسفسطية في العقليات ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة فإن من تكلم بكلام سمع منه ونقل عنه أو كتبه في كتاب لا يقول العاقل إن ما قام بالمتكلم من المعاني التي في قلبه والألفاظ القائمة بلسانه فارقته وانتقلت إلى المستمع والمبلغ عنه ولا فارقته وحلت في الورق بل ولا يقول إن نفس ما قام من المعاني والألفاظ هو نفس المراد الذي في الورق بل ولا يقول إن نفس ألفاظه التي هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه فهذه الأمور كلها ظاهرة لا يقولها عاقل في كلام المخلوق إذا سمع وبلغ وتكتب في كتاب فكيف يقال ذلك في كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه أو كتبه سبحانه كما كتب في التوراة لموسى وكما كتب القرآن في اللوح المحفوظ يكون كما كتب في مصاحفهم وإذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه عنه بلفظه ومعناه بل شعر مخلوق كما يبلغ شعر حسان وابن رواحة ولبيد وأمثالهم من الشعراء ويقول الناس هذا شعر حسان بعينه وهذا هو شعر حسان وهذا شعر لبيد بعينه كقوله ألا كل شيء ما خلا الله باطل ومع هذا فيعلم كل عاقل أن رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء نفس صفاتهم حين حلت بل ولا عين ما قام بأولئك من صفاتهم وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين فكيف يتوهم متوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل في مخلوقاته وأن ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات الباري حلت فيه وهم لا يقولون مثل ذلك في المخلوق بل يمثلون العلم بنور السراج يقتبس من المتعلم ولا ينقص ما عند العالم كما يقتبس المقتبس ضوء السراج فيحدث الله له ضوء كما يقول إن الهوى ينقلب نارا بمجاورة الفتيلة للمصباح من غير أن تتغير تلك النار التي في المصباح والمقرئ يقرأ القرآن ويعلم العلم ولم ينقص مما عنده شيء بل يصير عند المتعلم مثل ما عنده ولهذا يقال فلان ينقل علم فلان وينقل كلامه ويقال العلم الذي كان عند فلان صار إلى فلان وأمثال ذلك كما يقال نقلت ما في الكتاب ونسخت ما في الكتاب أو نقلت الكتاب ونسخته وهم لا يريدون إلا نفس الحروف التي في الكتاب الأول عدمت منه وحلت في الثاني بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس نقل العلم والكلام وذلك يحصل بأن يجعل في الثاني مثل ما في الأول فيبقى المقصود بالأول منقولا منسوخا وإن كان لم يتغير الأول بخلاف نقل الأجسام وتوابعها فإن ذلك إذا نقل من موضع إلى موضع زال عن الأول وذلك لأن الأشياء لها وجود في أنفسها وهو وجودها العيني أولها ثبوتها في العلم ثم في اللفظ المطابق للعلم ثم في الخط وهذا الذي يقال وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان ووجود في البيان ووجود عيني ووجود علمي ولفظي ورسمي ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق 1-5 فذكر الخلق عموما وخصوصا وذكر التعليم عموما وخصوصا فالخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق العلم والعلم يطابق المعلوم ومن هنا غلط من غلط فظن أن القرآن في المصحف كالأعيان في الورق فظن أن قوله { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78}الواقعة77-78 كقوله { الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ }الأعراف157 فجعل إثبات القرآن الذي هو كلام الله في المصاحف كإثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط وكإثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام وأما إثبات اسم الرسول فهذا كإثبات الأعمال او كإثبات القرآن في زبر الأولين قال تعالى {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ }القمر52 وقال تعالى {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ }الشعراء196 فثبوت الأعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوبا عندهم في التوراة

والإنجيل ولهذا مثل سبحانه بلفظ الزبر والكتب زبر يقال زبرت الكتاب إذا كتبته والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب فالقرآن نفسه ليس عند بني إسرائيل ولكن ذكره كما أن محمدا ليس عندهم ولكن ذكره فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف فإن نفس القرآن أثبت فيها فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينا وهذا مبسوط في موضعه والمقصود هنا أن نفس الموجودات وصفاتها إذا انتقلت من محل إلى محل حلت في ذلك المحل الثاني وأما العلم بها والخبر عنها فيأخذه الثاني عن الأول مع بقائه في الأول وإن كان الذي عند الثاني هو نظير ذلك ومثله لكن لما كان المقصود بالعلمين واحدا في نفسه صارت وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليه ولم يكن للناس غرض في تعدد التابع كما في الاسم مع المسمى فإن اسم الشخص وإن ذكره أناس متعددون ودعا به أناس متعددون فالناس يقولون إنه اسم واحد لمسمى فإذا قال أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدا رسول الله وقال ذلك هذا المؤذن وهذا المؤذن وقاله غير المؤذن فالناس يقولون إن هذا المكتوب هو اسم الله واسم رسوله كما أن المسمى هو الله ورسوله وإذا قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 {وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا }هود41 وقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وقال بسم الله ففي الجميع المذكور هو اسم الله وإن تعدد الذكر والذاكر فالخبر الواحد من المخبر الواحد من مخبره والأمر الواحد بالمأمور به من الأمر الواحد بمنزلة الاسم الواحد لمسماه هذا في المؤلف نظير هذا في المفرد وهذا هو واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد المقصود وإن تعدد من يذكر ذلك الاسم والخبر وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم وأما قول القائل إن قلتم إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية فهذا قياس فاسد مثال رجل ادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم يحل بذاته في بدن الذي يقرأ حديثه فأنكر الناس ذلك عليه وقالوا النبي صلى الله عليه وسلم لا يحل في بدن غيره فقال أنتم تقولون إن المحدث يقرأ كلامه وأن ما يقرأه هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم فإذا قلتم ذلك فقد قلتم بالحلول ومعلوم أن هذا في غاية الفساد والناس متفقون على إطلاق القول بأن كلام زيد في هذا الكلام وهذا الذي سمعناه كلام زيد ولا يستجيز العاقل إطلاق القول بأنه هو نفسه في هذا المتكلم أو في هذا الورق وقد نطقت النصوص بأن القرآن في الصدور كقول النبي صلى الله عليه وسلم استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتا من صدور الرجال من النعم في عقلها وقوله الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب وأمثال ذلك وليس هذا عند عاقل مثل أن يقال الله في صدورنا وأجوافنا ولهذا لما ابتدع شخص يقال له الصوري بأن قال القرآن في صدورنا فقد قال بقول النصارى فقيل لأحمد قد جاءت جهمية رابعة إلى جهمية الخلقية واللفظية والواقفية وهذه الواقفة اشتد نكيره لذلك وقال هذا أعظم من الجهمية وهو كما قال فإن الجهمية ليس فيهم من ينكر أن يقال القرآن في الصدور ولا يشبه هذا بقول النصارى بالحلول إلا من هو في غاية الضلالة والجهالة فإن النصارى يقولون الأب والابن وروح القدس إله واحد وأن الكلمة التي هي اللاهوت تدرعت الناسوت وهو عندهم إله يخلق ويرزق ولهذا كانوا يقولون إن الله هو المسيح ابن مريم ويقولون المسيح ابن الله ولهذا كانوا متناقضين فإن الذي تدرع المسيح كان هو الإله الجامع للأقانيم فهو الأب نفسه وإن كان هو صفة من صفاته فالصفة لا تخلق ولا ترزق وليست إلها والمسيح عندهم إله ولو قال النصارى إن كلام الله في صدر المسيح كما هو في صدور الأنبياء والمؤمنين لم يكن في قولهم ما ينكر فالحلولية المشهورون بهذا الاسم من يقول بحلول الله في البشر كما قالت النصارى والغالبة من الرافضة وغلاة أتباع المشايخ يقولون بحلوله في كل شيء كما قالت الجهمية أنه بذاته في كل مكان وهو سبحانه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وكذلك من قال باتحاده بالمسيح أو غيره أو قال باتحاده بالمخلوقات كلها أو قال وجود المخلوقات أو نحو ذلك فأما قول

القائل إن كلام الله في قلوب أنبيائه وعباده المؤمنين وإن الرسل بلغت كلام الله والذي بلغته هو كلام الله وأن الكلام في الصحيفة ونحو ذلك فهذا لا يسمى حلولا ومن سماه حلولا لم يكن بتسميته لذلك مبطلا للحقيقة وقد تقدم أن ذلك لا يقتضي مفارقته صفة المخلوق له وانتقالها إلى غيره فكيف صفة الخالق تبارك وتعالى ولكن لما كان فيه شبهة الحلول تنازع الناس في إثبات لفظ الحلول ونفيه عنه هل يقال إن كلام الله حال في المصحف أو حال في الصدور وهل يقال كلام الناس المكتوب حال في المصحف أو حال في قلوب حافظيه فمنهم طائفة نفت الحلول كالقاضي أبي يعلى وأمثاله وقالوا ظهر كلام الله في هذا ولا نقول حل لأن حلول صفة الخالق في المخلوق أو حلول القديم في المحدث ممتنع وطائفة أطلقت القول بأن كلام الله حال في المصحف كأبي إسماعيل الأنصاري الهروي الملقب بشيخ الإسلام وقالوا ليس هذا هو الحلول المحذور الذي نفيناه بل نطلق القول بأن الكلام في الصحيفة ولا يقال بأن الله في الصحيفة أو في صدر الإنسان كذلك نطلق القول بأن كلامه حال في ذلك دون حلول ذاته وطائفة قالت كأبي علي بن أبي موسى وغيره قالوا لا نطلق الحلول نفيا ولا إثباتا لأن إثبات ذلك يوهم انتقال صفة الرب إلى المخلوقات ونفي ذلك يوهم نفي نزول القرآن إلى الخلق فنطلق ما أطلقته النصوص ونمسك عما في إطلاقه محذور لما في ذلك من الإجمال وأما قول القائل إن قلتم بالحلول قلتم بمقالتنا فجواب ذلك أن المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور فإذا زالت لم يبق منكرا أحدهما من يقول إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد وإن الله خلقه في غيره الثاني قول من يقول إن كلام الله ليس إلا معنى واحدا هو الأمر والنهي والخبر وإن الكتب الإلهية تختلف باختلاف العبارات لا باختلاف المعاني فيجعل معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحدا وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي كمن يقول إن معاني أسماء الله الحسنى معنى واحد فمعنى العليم والقدير والرحيم والحليم معنى واحد فهذا اتحاد في أسمائه وصفاته وآياته الثالث قول من يقول إن ما بلغه الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله بل كلام التالين لا كلام رب العالمين فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها وأما قول من قال إن القرآن العربي كلام الله نقله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه تارة يسمع من الله وتارة من رسله وهو كلام الله حيث تصرف وكلام الله حيث يتكلم لم يخلقه في غيره ولا يكون كلام الله مخلوقا ولو قرأه الناس وكتبوه وسمعوه ومن قال مع ذلك أن أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه وإذا نفى الحلول وأراد به أن صفة الموصوف لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فقد أصاب في هذا المعنى لكن عليه مع ذلك أن يؤمن أن القرآن العربي كلام الله تعالى وليس هو ولا شيء منه كلاما لغيره ولكن بلغته عنه رسله وإذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأن كلامه حروفه ومعانيه ومع العلم بأن شيئا من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا من كلام الله أولى وأظهر و الله أعلم[1]

القرآن نزل به جبريل من الله سبحانه

قد أخبر الله في غير موضع من القرآن نزل منه وأنه نزل به جبريل منه رد على هذا المبتدع المفتري وأمثاله ممن يقول إنه لم ينزل منه قال تعالى {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

[11] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 267-289 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 265-274 دقائق التفسير ج: 2 ص: 183 -186 و سؤال عمن يقول إن صفات ج: 1 ص: 159

}الأنعام114 وقال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }النحل102 وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ {194} الشعراء 193-194 وقال {قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ }البقرة97 وقال هنا {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }النحل102 فبين أن جبريل نزله من الله لا من هواه ولا من لوح ولا من غير ذلك وكذلك سائر آيات القرآن كقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }الزمر1وقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }غافر2 وقوله {تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }فصلت2 وقوله {تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }السجدة2 وقوله {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ }المائدة67 فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله فمن قال أنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح أو الهواء فهو مفتر على الله مكذب لكتاب الله متبع لغير سبيل المؤمنين ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزله من بعض المخلوقات كالمطر بأنه قال { أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً }الأنعام99 فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزله من السماء والقرآن أخبر أنه منزل منه وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله { وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ }الحديد25 لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء وكذلك أنزل الحيوان فإن الذكر ينزل الماء في الإناث فلم يقل فيه من السماء ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة وأنزلها مكتوبة فيكون بنو إسرائيل قد قرأوا الألواح التي كتبها الله وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ومحمد أخذه عن جبريل عن اللوح فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية و الله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وأنه أنزله عليه تلاوة لا كتابة وفرقه عليهم لأجل ذلك فقال {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً }الإسراء106 وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً }الفرقان32 ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوبا كانت العبارة عبارة جبريل وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر أن يتكلم به وهذا خلاف دين المسلمين وإن احتج محتج بقوله{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} التكوير 19-20 قيل له فقد قال في الآية الأخرى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} الحاقة40-42 فالرسول في هذه الآية جبريل والرسول في الآية الأخرى محمد فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال { لَقَوْلُ رَسُولٍ } ولم يقل ملك ولا نبي ولا ريب أن الرسول بلغه كما قال{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ }المائدة67 فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ولما أنزل الله {الم{1} غُلِبَتِ الرُّومُ{2} الروم 1-2 خرج أبو بكر الصديق فقرأها على الناس فقالوا هذا كلامك أم كلام صاحبك فقال ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله وإن احتج بقوله {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ }الأنبياء2 قيل له هذه الآية حجة عليك فإنه لما قال {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ }الأنبياء2 علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث لأن النكرة إذا وصفت ميزتها بين الموصوف وغيره كما لو قال ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديدا فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة

العرب كما قال {كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ }يس39 وقال {قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ }يوسف95 وقال { وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ }الأحقاف11 وقال { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{75} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{76} الشعراء 75-76 وكذلك قوله { جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً }الزخرف3 لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه ولكن قال { جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً }الزخرف3 أي صيرناه عربيا لأنه قد كان قادرا على أن ينزله عجميا وينزله عربيا فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربيا دون عجمي وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع و الله أعلم [1]

وكان جبريل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي غير مرة واتاه مرة في صورة اعرابي وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان الحرث بن هشام قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي قال يأتيني احيانا في مثل صلصلة الجرس وهو اشد على فيفصم عني وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعى ما يقول قالت عائشة لقد رايته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا وقد قال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} التكوير19-25 واكثر القراء يقرءون بظنين يعني بمتهم وقد قرى بضنين أي ببخيل وزعم بعض المتفلسفة ان هذا هو العقل الفعال لانه دائم الفيض فيقال قد قال { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ {21} التكوير19-25 والعقل الفعال لو قدر وجوده فلا تأثير له فيما ثم وانما تأثيره فيما تحت فلك القمر فكيف ولا حقيقة له بل ما يدعونه من المجردات والمفارقات غير النفس الناطقة ك العقول والنفوس انما وجودها في الاذهان لا في الاعيان كما بسط الكلام عليها في الصفدية وغيرها [2]

أضافه إليهما إضافة تبليغ لا إضافة إحداث

والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس فاصطفى جبريل من الملائكة واصطفى محمدا من الناس وقال فى جبريل {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }التكوير19 وقال في محمد {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }الحاقة40 وكلاهما رسول من الله كما قال{ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة 1-3 فكلاهما رسول من الله بلغ ما أرسل به[3]

فإصطفى لكلامه الرسول الملكى فنزل به على الرسول البشري الذي إصطفاه و قد أضافه إلى كل من الرسولين لأنه بلغه و أداه لا لأنه أنشأه و إبتداه قال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21}التكوير19-21 فهذا نعت جبريل الذي قال فيه{قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ }البقرة97 و قال { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص:299- 302 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 521

[2] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 278

[3] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 68

الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{194} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ{195}الشعراء193-195 و قال { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ{102} النحل 101-102 و قال فى الآية الأخرى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{46} فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ{47} الحاقة40-47 فهذه صفة محمد صلى الله عليه و سلم المجلد وأضاف القول إلى كل منهما بإسم الرسول فقال

{ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } الحاقة 40 لأن الرسول يدل على المرسل فدل على أنه قول رسول بلغه عن مرسل لم يقل إنه لقول ملك و لا بشر بل كفر من جعله قول بشر بقوله { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} المدثر11-25 فمن قال إنه قول بشر أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر و من جعله قول رسول من البشر فقد صدق لأن الرسول ليس له فيه إلا التبليغ و الأدء كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}المائدة67 و فى سنن أبي داود عن جابر بن عبدالله أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يعرض نفسه على الناس فى الموسم و يقول ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى المجلد و الذي إتفق عليه السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق [1]

الملائكة احياء ناطقون

فإن الله وصف الملائكة بصفات تقتضي أنهم أحياء ناطقون خارجون عن قوى البشر وعن العقول والنفوس التي تثبتها الفلاسفة فعلم أن الملائكة التي أخبرت عنها الأنبياء ليسوا مطابقين لما يقوله هؤلاء الذين يقولون أن معجزات الأنبياء قوى نفسانية فأخبر أن الذي جاء بالقرآن رسول كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين وأنه مطاع ثم أمين وهذا يمتنع أن تكون صفة أعراض تقوم بنفوس البشر ولا سيما عند هؤلاء الفلاسفة الذين يمنعون أن يكون لدعاء البشر تأثير في الملأ الأعلى وقد أخبر أنه رآه عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى وأنه رآه بالأفق المبين وما يحصل في نفس الرسول لا يكون هنا ولا هنا [2]

إنه من المتواتر عن الانبياء صلوات الله عليهم أن الملائكة احياء ناطقون يأتونهم عن الله بما يخبر به ويامر به تارة وينصرونهم ويقاتلون معهم تارة وكانت الملائكة احيانا تأتيهم في صورة البشر والحاضرون يرونهم وقد اخبر الله عن الملائكة في كتاب بأخبار متنوعة وذلك يناقض ما يزعمونه من ان الملك انما هو الصورة الخيالية التي ترتسم في الحس المشترك او انها العقول والنفوس قال

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 95

[22] الصفدية ج: 1 ص: 200

الله تعالى { عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى{5} ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى{6} وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى{7} ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى{8} فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى{9} فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى{10} مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى{11} أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى{12} وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى{13} عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى{14} عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى{15} إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى{16} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى{17} لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى{18} النجم5-18 وفي الصحيحين عن مسروق قال كنت متكئا عند عائشة رضى الله عنها فقالت يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد اعظم على الله الفريه قلت ماهن قالت من زعم ان محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ومن زعم انه يعلم ما في غد فقد اعظم على الله الفرية ومن أعظم انه كتم شيئا مما اوحى اليه فقد أعظم على الله الفرية قال وكنت متكئا فجلست فقلت يا أم المؤمنين انظري ولا تعجليني الم يقل الله تعالى {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ }التكوير23 { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}النجم13 فقالت أنا أول هذه الامة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنما هو جبريل لم اره على صورته التي خلق عليها هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والارض وفي لفظ فقلت فأين قوله عزوجل { ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى{8} فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى{9} فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى{10} النجم8-10 قالت إنما ذاك جبريل عليه السلام كان يأتيه في صورة الرجال وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد أفق السماء وفي الصحيحين ايضا عن الشيباني قال سألت زر بن حبيش عن قول الله {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى }النجم9 قال اخبرني ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم راى جبريل له ستمائة جناح وعن ابن مسعود ايضا قال ما كذب الفؤاد ما راى قال راى جبريل له ستمائة جناح وعنه ايضا لقد راى من ايات ربه الكبرى قال راى جبريل في صورته له ستمائة جناح وقال البخاري في بعض طرقه راى رفرفا اخضر قد سد الافق وعن عبد الله قال لقد راى من ايات ربه الكبرى قال راى رفرفا اخضر قد سد الافق وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى }النجم13 قال راى جبريل وقد قال سبحانه{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} التكوير19-25 فبين ان الرسول الذي جاء به الى محمد رسول كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين وهذه صفة لا تنطبق على ما في النفس من الخيال ولا على العقل الفعال فانه اخبر انه مطاع والمطاع فوق السموات ليس هذا ولا هذا وكذلك قوله{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{194} الشعراء193-194 وقوله {قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ {97} مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ{98}البقرة97-98 وقال تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ {102} النحل 101-102 وفي الصحيحين عن عائشة ان الحرث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي قال احيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو اشده على فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعى ما يقول قالت عائشة ولقد رايته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا[1]

---

[11] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 489-492

توسط البشر بالرساله مثل توسط الملك بالرسالة

فتوسط البشر بالرساله مثل توسط الملك بالرسالة كما قال تعالى {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }الحج75 وقال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير19-21 فهذا جبريل ثم قال{وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} التكوير22 وقوله وما صاحبكم كقوله في الاية الاخرى {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }النجم2 فقوله { صَاحِبُكُمْ }النجم2 تنبيه على نعمته على البشر واحسانه اليهم إذ بعث اليهم من يصحبهم ويصحبونه بشرا مثلهم فانهم لا يطيقون الاخذ عن الملك كما قال تعالى{وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ{8} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ{9} الانعام 8-9 وايضا في قوله{ صَاحِبُكُم }التكوير22 بيان انه عربي بعث بلسانهم كما قال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ }إبراهيم4 وقد قال تعالى {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة128 قيل المراد من انفس العرب فالخطاب لهم وقيل من انفس بني ادم فهو بشر لا ملك ولا جني لان الخطاب لجميع الخلق الذين ارسل اليهم لا سيما وهذه في سورة براءة وهي من اخر القران نزولا وقيل ان هذه الاية اخر ما نزل وقد نزلت بعد دعوة الروم والفرس والقبط وهو بالمؤمنين من هؤلاء كلهم رؤف رحيم ولا ريب انه صلى الله عليه وسلم من الانس ومن العرب افضل الانس ومن قريش افضل العرب ومن بني هاشم افضل قريش والانفس يراد بهم جنس الانسان كما قال تعالى {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً }النور12 فقوله صاحبكم مثل قوله من انفسكم ومثل قوله {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ }يونس2 وقوله{ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً }الإسراء93 لم يقصد بهذا اللفظ تفضيل الملك عليه كما توهمه بعض الناس كما ان قوله { أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ }يونس2 وقوله { سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً }الإسراء93 لم يقصد به ان غيره افضل منه وقال سبحانه { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} التكوير 22-25 فالرسول هنا هو الرسول الملكي جبريل وقال في السورة الاخرى{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{46} فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ{47} الحاقة40-47 فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم واضافه الى هذا الرسول تارة والى هذا تارة لان كلا من الرسولين بلغه واداه ولفظ الرسول يتضمن مرسلا ارسله فكان في اللفظ ما يبين ان الرسول مبلغ له عن غيره لا ان الرسول احدث شيئا منه كما توهمه بعض الناس وظن ان اضافته الى رسول يقتضى انه هو الذي احدث القران العربي فانه قد اضافه الى هذا تارة والى هذا تارة فلو كان المراد الاحداث لتناقض الخبران ولانه اضافه اليه باسم رسول لم يقل انه لقول ملك ولا قول بشر بل قد كفر من قال انه قول البشر في قوله { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26}

المدثر 11-26 والكلام الذي توعد بسقر من قال انه قول البشر هو الكلام الذي اضافه الى رسول من البشر تارة والى رسول من الملائكة تارة لان المراد هناك انه بلغه والذي كفره قال انه انشأه وانه كلام نفسه سواء كان المراد المعنى او اللفظ او كلاهما فان الذي لعنه الله هو الذي قال ان هذا الا قول البشر فمن قال ان هذا القران قول البشر فهو من جنس قوله من بعض الوجوه ولهذا قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}التوبة6 فأخبر ان ما يسمعه المستجير هو كلام الله والمستجير يسمعه بصوت القارىء والصوت صوت القارى والكلام كلام الباري كما قال النبي صلى الله عليه وسلم زينوا القران بأصواتكم وقال لله اشد اذنا الى الرجل الحسن الصوت بالقران من صاحب القينة الى قينته وكذلك ذكر في غير موضع ان الصوت المسموع من العبد هو صوت العبد كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ }الحجرات2 وقال {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ }الحجرات3 وقال لقمان لابنه {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }لقمان19 وفي سنن ابي داود عن جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في الموسم الا رجل يحملني الى قومه لابلغ كلام ربي فان قريشا قد منعوني ان ابلغ كلام ربي عود الى اصل الموضوع فرسل الله وسائط في تبليغ رسالاته كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ }المائدة67 وقال تعالى { إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً{27} لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ{28}الجن27-27 وقال تعالى عن نوح { وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{61} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي {62} الاعراف61-62 وكذلك قال هود { وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{67} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي{68}الاعراف 67-68 وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بلغوا عني ولو اية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار وفي السنن عن زيد بن ثابت وابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال نضر الله امرا سمع منا حديثا فبلغه الى من يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو افقه منه وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في حجة الوداع ليبلغ الشاهد الغائب فرب من مبلغ اوعى من سامع والمقصود هنا ان الحنفاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له وهم مسلمون وجميع الانبياء واممهم كانوا مسلمين مؤمنين {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ }آل عمران85 لان {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ }آل عمران19 في كل زمان ومكان وقد اخبر الله عن نوح وابراهيم واسرائيل وغيرهم الى الحواريين انهم كانوا مسلمين ونوح اول رسول بعث الى اهل الارض كما ثبت ذلك في الحديث المتفق على صحته حديث الشفاعة عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن جعل ما يثبته الحنفاء من توسط البشر او توسط الملئكة من جنس ما يثبته المشركون واخذ يفاضل بين البشر والملئكة لم يكن عارفا بدين الاسلام بل قول الحنفاء هو ما قاله الله تعالى في كتابه حيث قال{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{80}آل عمران79-80 فمن اتخذ هؤلاء او هؤلاء اربابا كما يقول من يجعلهم وسائط في العبادة والدعاء ونحو ذلك فهو كافر وصاحب الكتب المضنون بها قد جعل الملائكة والنبيين وسائط وجعل هذه شفاعتهم موافقة للفلاسفة كما تقدم من ان هذا القول شر من قول مشركي العرب وجاء بعده صاحب كتاب السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم فذكر فيه الشرك الصريح من عبادة الكواكب والجن والشياطين ودعواتها وبخورها وخواتيمها واصنامها التي تجعل

لها على مذهب المشركين الكلدانيين والكشدانيين الذين بعث اليهم ابراهيم الخليل وبنى على ذلك القول بقدم العالم وان لا سبب لحدوث الحوادث الا مجرد حركة الفلك كما يقوله هؤلاء القائلون بقدم العالم الذين هم شر من مشركي العرب وكذلك ذكر في تفسير حديث المعراج ما هو مبني على اصول هؤلاء الذين هم اكفر الكفار كقوله ان الانبياء الذين رآهم النبي صلى الله عليه وسلم هم الكواكب فآدم القمر ويوسف الزهرة ونحو هذا الهذيان وان المعراج انما هو رؤية قلبه الوجود كما يذكر ابن عربي وغيره مثل هذا المعراج ويثبتون لانفسهم اسراء ومعراجا وهذه خيالات تلقيها الشياطين مناسبة لما يعتقدونه من الالحاد على عادة الشياطين في إضلال بني آدم فانما يضلونهم بما يقبلونه منهم وما يوافق اهواءهم والحمد لله رب العالمين[1]

الولاية لها ركنان القوة والأمانة

قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم أخرجاه في الصحيحين لكن إن كان منه عجز ولا حاجة إليه أو خيانة عوقب على ذلك وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب فان الولاية لها ركنان القوة والأمانة كما قال تعالى{إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ }القصص26 وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ }يوسف54 وقال تعالى فى صفة جبريل { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21}التكوير 19-21 والقوة فى كل ولاية بحسبها فالقوة فى إمارة الحرب ترجع الى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها فان الحرب خدعة والى القدرة على انواع القتال من رمى وطعن وضرب وركوب وكر وفر ونحو ذلك كما قال الله تعالى {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ }الأنفال60 وقال النبى ارموا واركبوا وان ترموا أحب إلى من ان تركبوا ومن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا وفى رواية فهى نعمة جحدها رواه مسلم والقوة فى الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة والى القدرة على تنفيذ الأحكام والآمانة ترجع الى خشية الله وألا يشترى بآياته ثمنا قليلا وترك خشية الناس وهذه الخصال الثلاث التى اخذها الله على كل من حكم على الناس فى قوله تعالى { فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ }المائدة44 ولهذا قال النبى القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وقاض فى الجنة فرجل علم الحق وقضى بخلافة فهو فى النار ورجل قضى بين الناس على جهل فهو فى النار ورجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة رواه أهل السنن والقاضى اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما سواء كان خليفة او سلطانا او نائبا او واليا او كان منصوبا ليقضى بالشرع او نائبا له حتى من يحكم بين الصبيان فى الخطوط إذا تخايروا هكذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر فصل اجتماع القوة والأمانة فى الناس قليل ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول اللهم اشكو اليك جلد الفاجر وعجز الثقة فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها فاذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر اعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررا فيها فيقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع وان كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينا كما

---

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 539-545

سئل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو واحدهما قوى فاجر والآخر صالح ضعيف مع ايهما يغزى فقال أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجورة على نفسه وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوى الفاجر وقد قال النبى إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وروى بأقوام لا خلاق لهم وان لم يكن فاجرا كان أولى بامارة الحرب ممن هو أصلح منه فى الدين إذا لم يسد مسده ولهذا كان النبى يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال ان خالدا سيف سله الله على المشركين مع انه أحيانا قد كان يعمل ما ينكره النبى حتى إنه مرة قام ثم رفع يديه الى السماء وقال اللهم إنى أبرأ اليك مما فعل خالد لما ارسله إلى بنى جذيمة فقتلهم واخذ اموالهم بنوع شبهة ولم يكن يجوز ذلك وانكره عليه بعض من معه من الصحابة حتى وداهم النبى صلى الله عليه وسلم وضمن اموالهم ومع هذا فما زال يقدمه فى إمارة الحرب لأنه كان اصلح فى هذا الباب من غيره وفعل ما فعل بنوع تأويل وكان ابو ذر رضى الله عنه اصلح منه فى الأمانة والصدق ومع هذا فقال له النبى ياأبا ذر انى اراك ضعيفا وانى احب لك ما احب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم رواه مسلم نهى ابا ذر عن الامارة والولاية لأنه رآه ضعيفا مع انه قد روى ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اصدق لهجة من ابى ذر[1]

كفر الله من جعل القرآن العربى قول البشر

قد كفر الله من جعل القرآن العربى قول البشر وقد جعله تارة قول رسول من البشر وتارة قول رسول من الملائكة فقال فى موضع {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43}الحاقة 40-43 فهذا الرسول محمد وقال فى الآية الاخرى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21}التكوير 19-20 فهذا جبريل فاضافه تارة الى الرسول الملكي وتارة الى الرسول البشرى والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وكان بعض هؤلاء ادعى ان القرآن العربى احدثه جبريل او محمد فقيل لهم لواحدثه احدهما لم يجز اضافته الى الاخر وهو سبحانه اضافه الى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبى فدل على انه قول رسول بلغه عن مرسله لا قول ملك او نبى احدثه من تلقاء نفسه بل قد كفر من قال انه قول البشر[2]

مؤتمن على ما أرسل به

فقوله { نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ {102} النحل102 بيان لنزول جبريل به من الله فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله {قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ }البقرة97 وهو الروح الأمين كما فى قوله {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{194} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ{195} الشعراء192-195

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 253-256 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 15

[22] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 50

وفى قوله { الْأَمِينُ}{193}الشعراء193 دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص منه فان الرسول الخائن قد يغير الرسالة كما قال فى صفته فى الآية الأخرى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21}التكوير 19-21 [1]

القرآن هو كلام الله مبلغا عنه مسموعا من القراء

فان قيل فقد قال تعالى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }الحاقة40 وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي قيل هذا باطل وذلك لأن الله ذكر هذا فى القرآن فى موضعين والرسول فى أحد الموضعين محمد والرسول فى الآية الأخرى جبريل قال تعالى فى سورة الحاقة { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} الحاقة40-43 فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم وقال فى سورة التكوير { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير 19-21 فالرسول هنا جبريل فلو كان أضافه إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئا لكان الخبران متناقضين فانه إن كان أحدهما هو الذى أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذى أحدثها وأيضا فانه قال {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } ولم يقل لقول ملك ولا نبى ولفظ الرسول يستلزم مرسلا له فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله لا أنه أنشأ منه شيئا من جهة نفسه وهذا يدل على أنه أضافة إلى الرسول لأنه بلغه وأداه لا لأنه أنشأ منه شيئا وابتداه وأيضا فان الله قد كفر من جعله قول البشر بقوله {17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} المدثر 18-25 ومحمد بشر فمن قال انه قول محمد فقد كفر ولا فرق بين أن يقول هو قول بشر أو جنى أو ملك فمن جعله قولا لأحد من هؤلاء فقد كفر ومع هذا فقد قال تعالى{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ } فجعله قول الرسول البشرى مع تكفيره من يقول انه قول البشر فعلم ان المراد بذلك ان الرسول بلغه عن مرسله لا انه قول له من تلقاء نفسه وهو كلام الله الذى أرسله كما قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ }التوبة6 فالذى بلغه الرسول هو كلام الله لا كلام الرسول ولهذا كان النبى يعرض نفسه على الناس بالمواسم ويقول الا رجل يحملنى إلى قومه لأبلغ كلام ربى فان قريشا قد منعونى ان ابلغ كلام ربى رواه أبو داود وغيره والكلام كلام من والكلام كلام من قاله مبتدئا لا كلام من قاله مبلغا مؤديا وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض فسماع موسى سماع مطلق بلا واسطة وسماع الناس سماع مقيد بواسطة كما قال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }الشورى51 ففرق بين التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى وبين التكليم بواسطة الرسول كما كلم الأنبياء بارسال رسول اليهم والناس يعلمون أن النبى إذا تكلم بكلام تكلم به بحروفه ومعانيه بصوته ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كما قال نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه فالمستمع منه يبلغ حديثه كما سمعه لكن بصوت نفسه لا بصوت

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 127

الرسول فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته والمبلغ بلغ كلام الرسول لكن بصوت نفسه واذا كان هذا معلوما فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك ولهذا قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ }التوبة6 وقال النبى زينوا القرآن بأصواتكم فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذى يقرأ به العبد صوت القارىء وأصوات العباد ليست هى عين الصوت الذى ينادى الله به ويتكلم به كما نطقت النصوص بذلك بل ولا مثله فان الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله فليس علمه مثل علم المخلوقين ولا قدرته مثل قدرتهم ولا كلامه مثل كلامهم ولا نداؤه مثل ندائهم ولا صوته مثل أصواتهم فمن قال عن القرآن الذى يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله أو هو كلام غيره فهو ملحد مبتدع ضال ومن قال ان أصوات العباد أو المداد الذى يكتب به القرآن قديم أزلى فهو ملحد مبتدع ضال بل هذا القرآن هو كلام الله وهو مثبت فى المصاحف وهو كلام الله مبلغا عنه مسموعا من القراء ليس هو مسموعا منه والانسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ويراها فى ماء أو مرآة فهذه رؤية مقيدة بالواسطة وتلك رؤية مطلقة بطريق المباشرة وكذلك الكلام يسمع من المتكلم به بطريق المباشرة ويسمع من المبلغ عنه بواسطة والمقصود بالسماع هو كلامه فى الموضعين كما ان المقصود بالرؤية هو المرئى فى الموضعين فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق والاختلاف والاتفاق زالت عنه الشبهة التى تصيب كثيرا من الناس فى هذا الباب فان طائفة قالت هذا المسموع كلام الله والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق فكلام الله مخلوق وهذا جهل فانه مسموع من المبلغ ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقا ان يكون نفس الكلام مخلوقا وقالت طائفة هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق والقرآن ليس مخلوق فلا يكون هذا المسموع كلام الله وهذا جهل فان المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذى يسمع من المتكلم به ومن المبلغ عنه وطائفة قالت هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فيكون هذا الصوت غير مخلوق وهذا جهل فانه إذا قيل هذا كلام الله فالمشار إليه هو الكلام من حيث هو هو وهو الثابت إذا سمع من الله وإذا سمع من المبلغ عنه وإذا قيل للمسموع انه كلام الله فهو كلام الله مسموعا من المبلغ عنه لا مسموعا منه فهو مسموع بواسطة صوت العبد وصوت العبد مخلوق وأما كلام الله نفسه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف وهذه نكت قد بسط الكلام فيها فى غير هذا الموضع[1]

القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه

والقراءة مصدران لكن شاع استعمال ذلك فى نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو وهو المراد باللفظ فى اطلاقهم فإذا قيل لفظى أو اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر أن هذا القرآن الذى يقرؤه ويلفظ به مخلوق واذا قيل لفظى غير مخلوق أشعر أن شيئا مما يضاف إليه غير مخلوق وصوته وحركته مخلوقان لكن كلام الله الذى يقرؤه غير مخلوق والتلاوة قد يراد بها نفس الكلام الذى يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد وقد يراد بها مجموعهما فإذا أريد بها الكلام نفسه الذى يتلى فالتلاوة هى المتلو وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هى المتلو وإذا أريد بها المجموع فهى متناولة للفعل والكلام فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات البارى تعالى بل الذى كانوا عليه أن القرآن كلام

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 135-139

الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه وليس شيء منه كلاما لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما بل قد كفر الله من جعله قول البشر مع أنه سبحانه أضافه تارة إلى رسول من البشر وتارة إلى رسول من الملائكة فقال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} الحاقة 40-43فالرسول هنا محمد وقال تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} التكوير19-27 فالرسول هنا جبريل وأضافه سبحانه إلى كل منهما بإسم رسول لأن ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئا منه إذ لو كان قد أحدث منه شيئا لم يكن رسولا فيما أحدثه بل كان منشئا له من تلقاء نفسه وهو سبحانه يضيفه إلى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة فلو كانت الاضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران فان انشاء أحدهما له يناقض انشاء الآخر له وقد كفر الله تعالى من قال أنه قول البشر فمن قال أن القرآن أو شيئا منه قول بشر أو ملك فقد كذب ومن قال أنه قول رسول من البشر ومن الملائكة بلغه عن مرسله ليس قولا انشأه فقد صدق ولم يقل أحد من السلف أن جبريل أحدث الفاظه ولا محمدا صلى الله عليه وسلم ولا أن الله تعالى خلقها فى الهواء أو غيره من المخلوقات ولا أن جبريل أخذها من اللوح المحفوظ بل هذه الاقوال هى من أقوال بعض المتأخرين [1]

جاء باسم الرسول ليتبين أنه واسطة فيه وسفير

أضافه تارة إلى رسول هو جبريل وتارة إلى رسول هو محمد بقوله فى الآية الأولى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21}التكوير 19-21 فهذا جبريل وقال فى الآية الأخرى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} الحاقة 40-42 وهذا محمد فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتدأ حروفه وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منهما لامتناع أن يكون كل منهما هو أحدث حروفه و لأنه قال {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ } وهذا إخبار عن القرآن الذى هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضا فلو كان الرسول ابتدأه لكان القرآن من عنده لا من عند الله وإنما أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله ولهذا قال { لَقَوْلُ رَسُولٍ } ولم يقل لقول ملك ولا نبى بل جاء باسم الرسول ليتبين أنه واسطة فيه وسفير والكلام كلام لمن اتصف به مبتدئا منشئا لا لمن تكلم به مبلغا مؤديا كما يقال مثل ذلك فى جميع كلام الناس فكيف بكلام الله وهذا على القول المشهور فى التفسير المطابق لظاهر القرآن أن الرسول فى أحد الموضعين محمد وفى الآخر جبريل عليه السلام[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص:307- 309

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 377-378

كفر من يقول أن القرآن قول ملك

القرآن كلام الله تعالى وليس كلام جبرئيل ولا كلام محمد وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين وأصحابهم الذين يفتى بقولهم فى الاسلام كأبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وغيرهم وجبريل سمعه من الله وسمعه محمد من جبريل كما قال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }النحل102 وروح القدس هو جبريل وقال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }الأنعام114 وقال تعالى {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }الزمر1 وقال تعالى {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }غافر2 فهو منزل من الله كما قال تعالى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{194} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ{195}الشعراء193-195 وأما قوله تعالى{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19}التكوير19 فانه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لكونه احدث منه شيئا وابتداه فانه سبحانه قال فى إحدى الآيتين { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} الحاقة40-43 فالرسول هنا محمد وقال فى الآية الأخرى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير19-21 فالرسول هنا جبريل والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس فلو كانت إضافته إلى أحدهما لكونه الف النظم العربى وأحدث منه شيئا غير ذلك تناقض الكلام فانه ان كان نظم احدهما لم يكن نظم الآخر وأيضا فانه قال { لَقَوْلُ رَسُولٍ } ولم يقل لقول ملك ولا نبى ولفظ الرسول يشعر بأنه مبلغ له عن مرسله لا أنه أنشأ من عنده شيئا وأيضا فقوله { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } ضمير يعود إلى القرآن والقرآن يتناول معانيه ولفظه ومجموع هذا ليس قولا لغير الله باجماع المسلمين واطلاق القول بان القرآن كلام جبريل أو محمد أو غيرهما من المخلوقين كفر لم يقله أحد من أئمة المسلمين بل عظم الله الانكار على من يقول إنه قول البشر فقال تعالى { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} المدثر11 إلى قوله { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27}المدثر 18-27 فمن قال أن القرآن قول البشر فقد كفر وكذلك من قال انه قول ملك وإنما يقول إنه قول جبريل احد رجلين أما رجل من الملاحدة والفلاسفة الذين يقولون إنه فيض فاض على نفس النبى من العقل الفعال ويقولون أنه جبريل ويقولون إن جبريل هو الخيال الذى يتمثل فى نفس النبى يقولون أنه تلقاه معان مجردة ثم انه تشكل فى نفسه حروفا كما يتشكل فى نفس النائم كما يقول ذلك إبن عربى صاحب الفصوص وغيره من الملاحدة ولهذا يدعى أنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول فان المعدن عنده هو العقل و الملك هو الخيال الذى فى نفسه والنبى عندهم يأخذ من هذا الخيال وهذا الكلام من أظهر الكفر باجماع المسلمين واليهود والنصارى وهو مما يعلم فساده بالاضطرار من دين المسلمين أو رجل ينتسب إلى مذهب الأشعرى ويظن ان هذا قول الأشعرى بناء على ان الكلام العربى لم يتكلم الله به عنده وإنما كلامه معنى واحد قائم بذات الرب هو الأمر والخبر ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا وان عبر عنه بالعبرانية كان توراة وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا وهذا القول وان كان قول ابن كلاب والقلانسى والأشعرى ونحوهم فلم يقولوا إن الكلام العربى كلام جبريل ومن حكى هذا عن الأشعري نفسه فهو مجازف وإنما قال طائفة من المنتسبين إليه كما قالت طائفة أخري أنه نظم محمد ولكن المشهور عنه أن الكلام العربي مخلوق ولا يطلق عليه القول بأنه كلام الله لكن إذا كان مخلوقا فقد يكون خلقه في الهواء أو في جسم لكن

القول إذا كان ضعيفا ظهر الفساد في لوازمه وهذا القول أيضا لم يقله أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين واصحابهم الذين يفتى بقولهم بل كان الشيخ أبو حامد الاسفرائيني يقول مذهبي ومذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وسائر علماء الأمصار فى القرآن مخالف لهذا القول وكذلك أبو محمد الجوينى والدأبى المعالى قال مذهب الشافعى وأصحابه فى الكلام ليس هو الأشعرى وعامة العقلاء يقولون إن فساد هذا القول معلوم بالاضطرار فانا نعلم أن التوراة إذا عربت لم تكن هى القرآن ونعلم أن آية الكرسى ليست هى معنى آية الدين والله تعالى قد فرق فى كتابه ين تكليمه لموسى وإيحائه إلى غيره بقوله تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ }النساء163 إلى قوله { وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً }النساء164 وقال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ }الشورى51 ففرق بين التكليم الذى حصل لموسى وبين الايحاء المشترك وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة كما قال تعالى {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى {13} إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا {14}طه13 -14 والرسول إذا بلغه إلى الناس وبلغه الناس عنه كان مسموعا سماعا مقيدا بواسطة المبلغ كما قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ }التوبة6 فهو مسموع مبلغ عنه بواسطة المخلوق بخلاف سماع موسى عليه السلام وان كان العبد يسمع كلام الرسول من المبلغين عنه فليس ذلك كالسماع منه فأمر الله تعالى أعظم ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على ان القرآن الذى يقرأه المسلمون كلام الله تعالى ولم يقل أحد منهم أن اصوات العباد ولا مداد المصاحف قديم مع اتفاقهم على ان المثبت بين لوحى المصحف كلام الله وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم فالكلام الذى يقرؤه المسلمون كلام الله والأصوات التى يقرؤون بها أصواتهم والله أعلم [1]

و قوله تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27}التكوير19-27 هو جبريل و هو نظير ما فى سورة الشعراء أنه تنزلت به الملائكة لا الشياطين بخلاف الإفك و نحو ه فإنه تنزل به الشياطين فوقع الفرق بين النبى صلى الله عليه وسلم والأفاك والشاعر و الكاهن وبين الملك والشيطان والعلماء ورثة الأنبياء[2]

جبريل نزل عليه بالقرآن كله

فلو لم يكن الكلام الا معنى مجردا لكان نصف القرآن كلام الله ونصفه ليس كلام الله فالمعنى كلام الله والالفاظ ليست كلام الله وهذا خلاف المعلوم من دين المسلمين ولهذا يفرقون بين القرآن الذى هو كلام الله وبين ما أوحاه الى نبيه من المعانى المجردة ويعلمون أن جبريل نزل عليه بالقرآن كله ليس لجبريل ولا لمحمد منه الا التبليغ والاداء فهذا رسوله من الملائكة وهذا رسوله من البشر ولهذا اضافه الله الى هذا تارة والى هذا تارة بلفظ الرسول كما قال {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ {40} وَمَا هُوَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 554-559

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 80

بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} الحاقة40 -42 وقال {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ {19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21}التكوير19-21 فهذا جبريل وقد ظن بعض الغالطين أن اضافته الى الرسول تقتضى أنه أنشأ حروفه وهذا خطأ لأنه لو كان جبريل أو محمد هو الذى أنشأ لفظه ونظمه امتنع أن يكون الآخر الذى انشأ ذلك فلما اضافه الى هذا تارة والى هذا تارة علم أنه أضافه اليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه انشأه وابتداه لا لفظه ولا معناه ولهذا قال { لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } ولم يقل لقول ملك ولا نبى فذكر ذلك بلفظ الرسول ليبين أنه يبلغ عن غيره كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ }المائدة67 وفى السنن أن النبى كان يعرض نفسه على الناس فى الموسم ويقول الا رجل يحملنى الى قومه لأبلغ كلام ربى فان قريشا قد منعونى ان أبلغ كلام ربى وأيضا فان قوله {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } عائد الى القرآن فتناوله للفظ كتناوله للمعنى و القرآن اسم لهما جميعا ولهذا اذا فسره المفسر وترجمه المترجم لم يقل لتفسيره وترجمته أنه قرآن بل اتفق المسلمون على جواز مس المحدث لكتب التفسير واتفقوا على أنه لا تجوز الصلاة بتفسيره وكذلك ترجمته بغير العربية عند عامة أهل العلم والقول المروى عن أبى حنيفة قيل أنه رجع عنه وقيل أنه مشروط بتسمية الترجمة قرآنا وبكل حال فتجويز اقامة الترجمة مقامه فى بعض الأحكام لا يقتضى تناول اسمه لها كما أن القيمة اذا اخرجت من الزكاة عن الابل والبقر والغنم لم تسم ابلا ولا بقرا ولا غنما بل تسمى باسمها كائنة ما كانت وكذلك لفظ التكبير فى الصلاة اذا عدل عنه الى لفظ التسبيح ونحوه وقيل ان الصلاة تنعقد بذلك كما يقول أبو حنيفة لم يقل أن ذلك لفظ تكبير فكذلك اذا قدر أنا ترجمنا القرآن ترجمة جائزة لم يقل أن الترجمة قرآن ولم نسمها قرآنا فلو كان القرآن انما كان كلام الله لأجل المعنى فقط ولفظه ونظمه ليس كلام الله بل سمى بذلك لدلالته على كلام الله كان ما شارك هذا اللفظ والنظم من الدلالة مشاركا له فى الاسم والحكم فكان يجب تسميته قرآنا واثبات أحكام القرآن له والكلام على هذا مبسوط فى موضع آخر [1]

هو ذكر لسائر الناس

قال تعالى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} سورة التكوير الآيات 19- 29 فهو ذكر لسائر الناس[2]

الأعيان وقواها متفاوتة

الأعيان وقواها متفاوتة فلا ريب أن قوة جبريل الذي قال الله فيه { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير 19 21 وقد روى أنه قلع قرى قوم

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 541-543

[2] الجواب الصحيح ج: 1 ص: 443

لوط الستة ورفعها ثم قلبها عليها فلا ريب أن هذه القوة التي للملك مما امتاز بها على أصحاب القوى المعروفة[1]

الرد على الذين يقولون ان الملائكة افضل من البشر

وها نحن نذكر ما احتجوا به قوله تعالى { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير 19-21 فهذه صفة جبرائيل ثم قال { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} التكوير 22 فوصف جبرائيل بالكرم والرسالة والقوة والتمكين عنده وانه مطاع وانه امين فوصفه بهذه الصفات الفاضلة ثم عطف عليه بقوله { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} التكوير 22 فاضاف الرسول البشرى الينا وسلب عنه الجنون واثبت له رؤية جبرائيل ونفى عنه البخل والتهمة وفى هذا تفاوت عظيم بين البشر والملائكة وبين الصفات والنعم وهذا قاله بعض المعتزلة زل به عن سواء السبيل والجواب اولا اين هو من قوله (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ{1} وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ{2} الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ{3} وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ{4} فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{5} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{6} فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 1-8 وقوله (وَالضُّحَى{1} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{2} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{3} 1-3 الايات وقوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً }الفتح1 الآيات { عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً }الإسراء79 واين هو عن قصة المعراج التى تأخر فيها جبرائيل عن مقامه ثم اين هو عن الخلة وهو التقريب فهذا نزاع من لم يقدر النبى قدره ثم نقول ثانيا لما كان جبرائيل هو الذى جاء بالرسالة وهو صاحب الوحى وهو غيب عن الناس لم يروه بأبصارهم ولم يسمعوا كلامه بآذانهم وزعم زاعمون ان الذى يأتيه شيطان يعلمه ما يقول او انه انما يعلمه إياه بعض الإنس اخبر الله العباد ان الرسول الذى جاء به ونعته احسن النعت وبين حاله احسن البيان وذلك كله انما هو تشريف لمحمد ونفى عنه ما زعموه وتقرير للرسالة اذ كان هو صاحبه الذى يأتيه بالوحى فقال { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}التكوير 19 اى ان الرسول البشرى لم ينطق به من عند نفسه وانما هو مبلغ يقول ما قيل له فكان فى اسم الرسول اشارة الى محض التوسط والسعاية ثم وصفه بالصفات التى تنفى كل عيب من القوة والمكنة والامانة والقرب من الله سبحانه فلما استقر حال الرسول الملكى بين انه من جهته وانه لا يجىء الا بالخير وكان الرسول البشرى معلوم ظاهره عندهم وهو الذى يبلغهم الرسالة ولولا هؤلاء لما اطاقوا الاخذ عن الرسول الملكى وانما قال { صَاحِبُكُم }التكوير 22 اشارة الى انه قد صحبكم سنين قبل ذلك ولا سابقة له بما تقولون فيه وترمونه من الجنون والسحر وغير ذلك وانه لولا سابقته وصحبته اياكم لما استطعتم الاخذ عنه الا تسمعه يقول }وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً }الأنعام9 تمييزا من المرسلين ثم حقق رسالته بأنه رأى جبرائيل وانه مؤتمن على ما يأخذه عنه فقام امر الرسالة بهاتين الصفتين وجاء على الوجه الأبلغ والاكمل والأصلح وقد احتجوا بآيات تقدم التنبيه على مقاصدها من وصف الملائكة بالتسبيح والطاعة والعبادة وغير ذلك [2]

---

[1] الصفدية ج: 1 ص: 165

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 388-390

كمال علم محمد صلى الله عليه وسلم ودينه

قال تعالى{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }الصف9 والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالعلم النافع والعمل الصالح فمن اتبع الرسل حصل له سعادة الدنيا والآخرة وإنما دخل في البدع من قصر في اتباع الأنبياء علما وعملا ولما بعث الله محمدا بالهدى ودين الحق تلقى ذلك عنه المسلمون أمته فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمة محمد أخذوه عن نبيهم مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته اكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم هو من الأصل المعلم وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علما ودينا وهذه الأمور توجب العلم الضروري بأنه كان صادقا في قوله { إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً }الأعراف158 لم يكن كاذبا مفتريا فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم إن كان صادقا أو هو من شر الناس وأخبثهم إن كان كاذبا وما ذكر من كمال علمه ودينه يناقض الشر والخبث والجهل فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين وهذا يستلزم أنه كان صادقا في قوله { إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً }الأعراف158 لأن الذي لم يكن صادقا إما أن يكون متعمدا للكذب أو مخطئا والأول يوجب أنه كان ظالما غاويا والثاني يقتضي أنه كان جاهلا ضالا وكمال علمه ينافي جهله وكمال دينه ينافي تعمد الكذب فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمدا للكذب ولم يكن جاهلا يكذب بلا علم وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقا عالما بأنه صادق ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4} النجم 1-4 وقال تعالى عن الملك الذي جاء به { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} التكوير19-21 ثم قال عنه { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} التكوير22-24 أي بمتهم أو بخيل كالذي لا يعلم إلا بجعل أو لمن يكرمه }وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} التكوير25-27

وقال تعالى { وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{194} بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ{195} الشعراء 192-195 إلى قوله { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{221} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{222} يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ{223} الشعراء 221-223 بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه فإن الشيطان يقصد الشر وهو الكذب والفجور ولا يقصد الصدق والعدل فلا يقترن إلا بمن فيه كذب إما عمدا وإما خطأ فإن الخطأ في الدين هو من الشيطان أيضا كما قال ابن مسعود لما سئل عن مسألة أقول فيها برأيي فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه فالرسول بريء من تنزل الشيطان عليه في العمد والخطأ بخلاف غير الرسول فإنه قد يخطىء ويكون خطؤه من الشيطان وإن كان خطؤه مغفورا له فإذا لم يعرف له خبر أخبر به كان فيه مخطئا ولا أمر أمر به كان فيه فاجرا علم أن الشيطان لم ينزل عليه وإنما ينزل عليه ملك كريم ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43}الحاقة 40-43[1]

[1] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 446-448

الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم

الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم والخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم لا تكون للكفار والسحرة والكهان ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاء بالقرآن ملك لا شيطان فقال إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27}التكوير19-27[1]

البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته إلا من أيده الله

من الأشياء ما يرى ومنها ما لا يرى والفارق بينهما لا يجوز أن يكون أمورا عدمية لأن الرؤية أمر وجودي والمرئى لا يكون إلا موجودا فليست عدمية لا تتعلق بالمعدوم ولا يكون الشرط فيه إلا أمرا وجوديا لا يكون عدميا وكل ما لا يشترط فيه إلا الوجود دون العدم كان بالوجود الأكمل أولى منه بالأنقص فكل ما كان وجوده أكمل كان أحق بأن يرى وكل ما لم يمكن أن يرى فهو أضعف وجودا مما يمكن أن يرى فالأجسام الغليظة أحق بالرؤية من الهواء والضياء أحق بالرؤية من الظلام لأن النور أولى بالوجود والظلمة أولى بالعدم والموجود الواجب الوجود أكمل الموجودات وجودا وأبعد الأشياء عن العدم فهو أحق بأن يرى وإنما لم نره لعجز أبصارنا عن رؤيته لا لأجل امتناع رؤيته كما أن شعاع الشمس أحق بأن يرى من جميع الأشياء ولهذا مثل النبي صلى الله عليه وسلم رؤية الله به فقال ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر شبه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئى مثل المرئى ومع هذا فإذا حدق البصر في الشعاع ضعف عن رؤيته لا لامتناع في ذات المرئى بل لعجز الرائى فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله تعالى الآدميين وقواهم حتى أطاقوا رؤيته ولهذا لما تجلى الله عز وجل للجبل خر موسى صعقا { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }الأعراف143 قيل أول المؤمنين بأنه لا يراك حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده فهذا للعجز الموجود في المخلوق لا لامتناع في ذات المرئى بل كان المانع من ذاته لم يكن إلا لنقص وجوده حتى ينتهى الأمر إلى المعدوم الذي لا يتصور أن يرى خارج الرائي ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته إلا من أيده الله كما أيد نبينا صلى الله عليه وسلم قال تعالى { وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ{8} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ{9}الأنعام 8- 9 قال غير واحد من السلف هم لا يطيقون أن يروا الملك في صورته فلو أنزلنا إليهم ملكا لجعلناه في صورة بشر وحينئذ كان يشتبه عليهم هل هو ملك أو بشر فما كانوا ينتفعون بإرسال الملك إليهم فأرسلنا إليهم بشرا من جنسهم يمكنهم رؤيته والتلقي عنه وكان هذا من تمام الإحسان إلى الخلق والرحمة ولهذا قال تعالى { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ

---

[1] عقيدة الفرقة الناجية ج: 1 ص: 9

الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27}التكوير22-27[1]

ذكر صحبته لهم دليل على اللطف بهم

معلوم أن لفظ الصاحب في اللغة يتناول من صحب غيره ليس فيه دلالة بمجرد هذا اللفظ على أنه وليه أو عدوه أو مؤمن أو كافر إلا لما يقترن به وقد قال تعالى { وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ }النساء36 وهو يتناول الرفيق في السفر والزوجة وليس فيه دلالة على إيمان أو كفر وكذلك قوله تعالى { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} النجم 1- 2 وقوله {وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ }التكوير22 المراد به محمد صلى الله عليه وسلم لكونه صحب البشر فإنه إذا كان قد صحبهم كان بينه وبينهم من المشاركة ما يمكنهم أن ينقلوا عنه ما جاءه من الوحي وما يسمعون به كلامه ويفقهون معانيه بخلاف الملك الذي لم يصحبهم فإنه لا يمكنهم الأخذ عنه وأيضا قد تضمن ذلك أنه بشر من جنسهم وأخص من ذلك أنه عربي بلسانهم كما قال تعالى {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة128 وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ }إبراهيم4 فإنه إذا كان قد صحبهم كان قد تعلم لسانهم وأمكنه أن يخاطبهم بلسانهم فيرسل رسولا بلسانهم ليتفقهوا عنه فكان ذكر صحبته لهم هنا على اللطف بهم والإحسان إليهم[2]

{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ }

و قد قال تعالى فى وصف الرسول {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ }التكوير24 وفيها قراءتان فمن قرأ بظنين أي ما هو بمتهم على الغيب بل هو صادق أمين فيما يخبر به ومن قرأ بضنين أي ما هو ببخيل لا يبذله إلا بعوض كالذين يطلبون العوض على ما يعلمونه فوصفه بأنه يقول الحق فلا يكذب و لا يكتم و قد و صف أهل الكتاب بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها و يخفون كثيرا و أنهم يشترون به ثمنا قليلا ومع هذا و هذا قد أمده بالصبر على أذاهم و جعله كذلك يعطيهم ما هم محتاجون إليه غاية الحاجة بلا عوض و هم يكرهونه و يؤذونه عليه و هذا أعظم من الذي يبذل الدواء النافع للمرضى و يسقيهم إياه بلا عوض و هم يؤذونه كما يصنع الأب الشفيق وهو أب المؤمنين [3]

لطائف لغوية

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 333

[2] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 470

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:315- 316

1-قال تعالى { فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16}التكوير15-16 فسمى الكواكب جواري[1]

2- قال تعالى { وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ{17} وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ{18}التكوير17-18 ومن التنازع الموجود عن المفسرين ما يكون اللفظ فيه محتملا للأمرين اما لكونه مشتركا فى اللفظ كلفظ {عَسْعَسَ }التكوير17 الذى يراد به اقبال الليل وادباره [2]

[1] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 208
[2] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 355

سورة التكوير 27-29

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء منكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29}

ذكر التذكير العام والخاص

و ذكر الله يراد به تارة ذكر العبد ربه ويراد به الذكر الذى أنزله الله كما قال تعالى {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ }الأنبياء50 وقال نوح {أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ }الأعراف63 وقال {وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ }الحجر6 وقال {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ }الأنبياء2وقال {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}الزخرف44 وقال { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} التكوير 27-28 وقال {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ }يس69 [1]

أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفى لإنتفاء كماله وتمامه وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وأما قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 وقوله {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ }الأعراف30 وقوله { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل37 وقوله {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة16 وهذا كثير فى القرآن وكذلك الإنذار قد قال {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً }مريم97 وقال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ }يونس2 وقال في الخاص {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 فهذا الإنذار الخاص وهو التام النافع الذى إنتفع به المنذر والإنذار هو الإعلام بالمخوف فعلم المخوف فخاف

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:156- 158

فآمن وأطاع وكذلك التذكير عام وخاص فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة قال تعالى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ {86} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{87}ص86-87 وقال تعالى { وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ }المدثر31 وقال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ }التكوير27 ثم قال {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير28 فذكر العام والخاص[1]

مشيئة العباد موقوفة على مشيئة الله

قو له تعالى { وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير29 أخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته و مع هذا فلا يوجب ذلك وجود الفعل منهم إذ أكثر ما فيه أنه جعلهم شائين ولا يقع الفعل منهم حتى يشاؤه منهم كما فى قو له تعالى{ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ {56} المدثر55-56 و مع هذا فلابد من إرادة الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم فهنا أربع إرادات إرادة البيان و إرادة المشيئة و إرادة الفعل و إرادة الإعانة و الله أعلم[2]

قد يعلق الواجب بالشرط

قد يعلق الواجب بالشرط لبيان حكم من الأحكام كقوله{إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ }المائدة6 وقد قدروا فيه إذا أردتم القيام وقدروا إذا أردت القراءة فإستعذ والطهارة واجبة والقراءة فى الصلاة واجبة وقد قال { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} التكوير27-28 ومشيئة الإستقامة واجبة [3]

أثبت الله المشيئتين

أن الله رب كل شيء و خالقه و مليكه لارب غيره و لا خالق سواه و إنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن لا حول و لا قوة إلا به و لا ملجأ منه إلا إليه و أنه على كل شيء قدير فجميع ما فى السموات و الأرض من الأعيان و صفاتها و حركاتها فهي مخلوقة له مقدورة له مصرفة بمشيئته لا يخرج شيء منها عن قدرته و ملكه و لا يشركه فى شيء من ذلك غيره بل هو سبحانه لا إله إلا هو و حده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير فالعبد فقير الى الله فى كل شيء يحتاج إليه فى كل شيء لا يستغنى عن الله طرفة عين فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له فنقول إذا ألهم العبد أن يسأل الله الهداية و يستعينه على طاعته أعانه و هداه و كان ذلك سبب سعادته فى الدنيا و الآخرة و إذا خذل العبد فلم يعبد الله و لم يستعن به و لم يتوكل عليه و كل الى حوله و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 561-561

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 81

[3] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 165

قوته فيوليه الشيطان و صد عن السبيل و و شقي فى الدنيا و الآخرة و كل ما يكون في الوجود هو بقضاء الله و قدره لا يخرج أحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المحفوظ ليس لأحد على الله حجة بل { فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ }الأنعام149 كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و على العبد أن يؤمن بالقدر و ليس له أن يحتج به على الله فالإيمان به هدى و الإحتجاج به على الله ضلال وغي بل الإيمان بالقدر يو جب أن يكون العبد صبارا شكورا صبورا على البلاء شكورا على الرخاء إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره سو اء كانت النعمة حسنة فعلها أو كانت خيرا حصل بسبب سعيها فإن الله هو الذي يسر عمل الحسنات و هو الذي تفضل بالثواب عليها فله الحمد فى ذلك كله و إذا أصابته مصيبة صبر عليها و إن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره فالله هو الذي سلط ذلك الشخص و هو الذي خلق أفعاله و كانت مكتوبة على العبد كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{23}الحديد22-23 و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ }التغابن11 قالو ا هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و عليه إذا أذنب أن يستغفر و يتوب و لا يحتج على الله بالقدر و لا يقول أي ذنب لي و قد قدر علي هذا الذنب بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب و إن كان ذلك كله بقضاءالله و قدره و مشيئته إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته و خلقه لكن العبد هو الذي أكل الحرام و فعل الفاحشة و هو الذي ظلم نفسه كما أنه هو الذي صلى و صام و حج و جاهد فهو الموصوف بهذه الأفعال وهو المتحرك بهذه الحركات و هو الكاسب بهذه المحدثات له ما كسب و عليه ما إكتسب و الله خالق ذلك و غيره من الأشياء لما له فى ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة و مشيئته النافذة قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ }غافر55 فعلى العبد أن يصبر على المصائب و أن يستغفر من المعائب و الله تعالى لا يأمر بالفحشاء و لا يرضى لعباده الكفر و لايحب الفساد و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له و مشيئة العبد للخير والشر موجودة فإن العبد له مشيئة للخير و الشر وله قدرة على هذا و هذا و هو العامل لهذا و هذا و الله خالق ذلك كله و ربه و مليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و قد أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب و مشيئة العبد و بين أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب في قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} الانسان 29-30 و قال تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير27-29 و قد قال تعالى { أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{78} مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{79}النساء78-79[1]

بعث محمد الى جميع الخلق

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص:237-240

قال تعالى { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 27-29 فان الله بعث محمدا الى جميع الخلق وقال {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً }الأعراف158 وقال {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ }سبأ28 وقال تعالى { الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً }الفرقان1 وقال {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }الأنبياء107 فاسم الناس و العالمين يدخل فيه العرب وغير العرب من الفرس والروم والهند والبرر[1]

للعباد مشيئة و قدرة

ومما إتفق عليه سلف الأمة و أئمتها مع إيمانهم بالقضاء و القدر و أن الله خالق كل شيء و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و أنه يضل من يشاء و يهدي من يشاء أن العباد لهم مشيئة و قدرة يفعلون بمشيئتهم و قدرتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم أن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله كما قال الله تعالى { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56} المدثر54-56 و قال تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} الانسان 29-30 و قال { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 27-29 و القرآن قد أخبر بأن العباد يؤمنون و يكفرون و يفعلون و يعملون و يكسبون و يطيعون و يعصون و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يحجون و يعتمرون و يقتلون و يزنون و يسرقون و يصدقون و يكذبون و يأكلون و يشربون و يقاتلون و يحاربون فلم يكن من السلف و الأئمة من يقول أن العبد ليس بفاعل و لا مختار و لا مريد و لا قادر و لا قال أحد منهم أنه فاعل مجازا بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة و المجاز متفقون على أن العبد فاعل حقيقة و الله تعالى خالق ذاته و صفاته و أفعاله و أول من ظهر عنه إنكار ذلك هو الجهم بن صفوان و أتباعه فحكى عنهم أنهم قالوا أن العبد مجبور و أنه لافعل له أصلا و ليس بقادر أصلا و كان الجهم غاليا فى تعطيل الصفات فكان ينفي أن يسمى الله تعالى بإسم يسمى به العبد فلا يسمى شيئا و لا حيا و لا عالما و لا سميعا و لا بصيرا إلا على و جه المجاز و حكي عنه أنه كان يسمى الله تعالى قادرا لأن العبد عنده ليس بقادر فلا تشبيه بهذا الإسم على قوله و كان هو و أتباعه ينكرون أن يكون لله حكمة فى خلقه و أمره و أن يكون له رحمة و يقولون إنما فعل بمحض مشيئة لا رحمة معها و حكى عنه أنه كان ينكر أن يكون الله أرحم الراحمين و أنه كان يخرج الى الجذمى فينظر إليهم و يقول أرحم الراحمين يفعل مثل هذا بهؤلاء و كان يقول العباد مجبورون على أفعالهم ليس لهم فعل و لا إختيار وكان ظهور جهم و مقالته فى تعطيل الصفات و فى الجبر و الارجاء في أواخر دولة بني أمية بعد حدوث القدرية و المعتزلة و غيرهم فإن القدرية حدثوا قبل ذلك فى أواخر عصر الصحابة فلما حدثت مقالته المقابلة لمقالة القدرية أنكرها السلف و الأئمة كما أنكروا قول القدرية من المعتزلة و غيرهم و بدعوا الطائفتين حتى فى لفظ الجبر أنكروا على من قال جبر و على من قال لم يجبر والآثار بذلك معروفة عن الأوزاعي و سفيان الثوري و عبد الرحمن بن مهدي و أحمد بن حنبل و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 207

غيرهم من سلف الأمة و أئمتها كما ذكر طرفا من ذلك أبو بكر الخلال فى كتاب السنة هو و غيره ممن يجمع أقوال السلف و قال الأوزاعي و الزبيدي و غيرهما ليس فى الكتاب و السنة لفظ جبر و إنما فى السنة لفظ جبل كما فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لأشبح عبد القيس لما قدم عليه و فد عبد القيس من البحرين فقالوا يارسول الله بيننا و بينك هذا الحي من كفار مضر و إنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل نعمل به و نأمر به من و راءنا فقال آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و أن تؤدوا خمس ما غنمتم ونهاهم عن الإنتباذ فى الأوعية التى يسرع إليها السكر حتى قد يشرب الرجل و لا يدري أنه شرب مسكرا بخلاف الظروف التى توكأ فانها إذا إشتد الشراب إنشقت و نهي عن الدباء و هو القرع و الحنتم و هو ما يصنع من المدر كالجرار و المزفت و هي الظروف المزفتة و النقير و هو الخشب المنقور ثم قد قيل أن النبى صلى الله عليه و سلم أباح ذلك بعد هذا النهي و لهذا تنازع العلماء فى هذا النهي هل هو منسوخ أم لا على قولين مشهورين للعلماء هما روايتان عند أحمد والقول بالنسخ مذهب أبى حنيفة و الشافعي و القول بأن هذا كان لم ينسخ مذهب مالك لكن مالك لا ينهي إلا عن صنفين فإنه ثبت فى صحيح البخاري أنه حرم ذلك الصنفين و أباح الآخرين بعد النهي و أما مسلم فروى فى صحيحه النسخ فى الجميع فلهذا إختلف قول أحمد لأن الأحاديث بالنهي متواترة و حديث النسخ ليس مثلها فلهذا صار للناس فيها ثلاثة أقوال و هؤلاء و فد عبد القيس كانوا بالبحرين أسلموا طوعا كما أسلم أهل المدينة و أول جمعة جمعت فى الإسلام فى قرية عندهم من قرى البحرين و المقصود أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لأشج عبد القيس إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم و الإناءة فقال أخلقين تخلقت بهما أما خلقين جبلت عليهما فقال بل خلقين جبلت عليهما فقال الحمد لله الذي جبلنى على ما يحب فقال الأوزاعي و الزبيدي و غيرهما من السلف لفظ الجبل جاءت به السنة فيقال جبل الله فلانا على كذا و أما لفظ الجبر فلم يرد و أنكر الأوزاعي و الزبيدي و الثوري و أحمد بن حنبل و غيرهم لفظ الجبر فى النفي و الإثبات و ذلك لأن لفظ الجبر مجمل فإنه يقال جبر الأب إبنته على النكاح و جبر الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه و معنى ذلك إكرهه ليس معناه أنه جعله مريدا لذلك مختارا محبا له راضيا به قالوا و من قال إن الله تعالى جبر العباد بهذا المعنى فهو مبطل فإن الله أعلى و أجل قدرا من أن يجبر أحدا و إنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريدا للفعل مختارا له محبا له راضيا به و الله سبحانه قادر على ذلك فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريدا له محبا له راضيا به فكيف يقال أجبره و أكرهه كما يجبر المخلوق المخلوق مثل ما يجبر السلطان و الحاكم و الأب و غيرهم من يجبرونه إما بحق و إما بباطل و إجبارهم هو إكراههم لغيرهم على الفعل و الإكراه قد يكون إكراها بحق و قد يكو ن إكراها بباطل فالأول كإكراه من إمتنع من الوا جبات على فعلها مثل إكراه الكافر الحربي على الإسلام أو أداء الجزية عن يد وهم صاغرون و إكراه المرتد على العود إلى الإسلام و إكراه من أسلم على إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و صوم رمضان و حج البيت و على قضاء الديون التى يقدر على قضائها و على أداء الأمانة التى يقدر على أدائها و إعطاء النفقة الو اجبة عليه التى يقدر على إعطائها و أما الإكراه بغير حق فمثل إكراه الإنسان على الكفر و المعاصي و هذا الإجبار الذي هو الإكراه يفعله العباد بعضهم مع بعض لأنهم لا يقدرون على إحداث الإرادة و الإختيار فى قلوبهم و على جعلهم فاعلين لأفعالهم و الله تعالى قادر على إحداث إرادة للعبد و لإختياره و جعله فاعلا بقدرته و مشيئته فهو أعلا و أقدر من أن يجبر غيره و يكرهه على أمر شاءه منه بل إذا شاء جعله فاعلا له بمشيئته كما أنه قادر على أن يجعله فاعلا للشيء مع كراهته له فيكو ن مريدا له حتى يفعله مع بغضه له كما قد يشرب المريض الدواء مع كراهته له قال الله تعالى

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً }الرعد15 و قال {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً }آل عمران83 فكل ما يقع من العباد بإرادتهم و مشيئتهم فهو الذي جعلهم فاعلين له بمشيئتهم سواء كانوا مع ذلك فعلوه طوعا أو كانوا كارهين له فعلوه كرها و هو سبحانه لا يكرههم على ما لا يريدوه كما يكره المخلوق المخلوق حيث يكرهه على أمر و إن لم يرده و ليس هو قادرا أن يجعله مريدا له فاعلا له لامع الكراهة و لا مع عدمها فلهذا يقال للعبد إنه جبر غيره على الفعل و الله أعلى و أجل و أقدر من أن يقال بأنه جبر بهذا المعنى و قد يستعمل لفظ الجبر فى أعم من ذلك بحيث يتناو ل كل من قهر غيره و قدر عليه فجعله فاعلا لما يشاء منه و إن كان هو المحدث لإرادته و قدرته عليه قال محمد بن كعب القرظي فى إسم الله الجبار قال هو الذي جبر العباد على ما أراد و كذلك ينقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب أنه قال فى الدعاء المأثور اللهم داحي المدحو ات و باري المسمو كات جبار القلوب على فطرتها شقيها و سعيدها و الجبر من الله بهذا الإعتبار معناه القهر و القدرة و أنه يقدر أن يفعل ما يشاء و يجبر على ذلك و يقهرهم عليه فليس كالمخلوق العاجز الذي يشاء مالا يكون و يكون ما لا يشاء و من جبره و قهره و قدرته أن يجعل العباد مريدين لما يشاء منهم إما مختارين له طوعا و إما مريدين له مع كراهتهم له و يجعلهم فاعلين له و هذا الجبر الذي هو قهره بقدرته لا يقدر عليه غيره و ليس هو كإجبار غيره و إكراهه من و جوه منها أن ما سواه عاجز لايقدر أن يجعل العباد مريدين لما يشاؤه و لا فاعلين له و منها أن غيره قد يجبر الغير و يكرهه إكراها يكون ظالما به و الله تعالى عادل لا يظلم مثقال ذرة و منها أن غيره قد يكون جاهلا أو سفيها لايعلم ما يفعله و ما يجبر عليه و لا يقصد حكمة تكون غير ذلك و الله عليم حكيم ما خلقه و أمر به له فيه حكمة بالغة صادرة من علمه و حكمته و قدرته[1]

إثبات الأسباب

فالذي عليه السلف و أتباعهم و أئمة أهل السنة و جمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر المخالفون للمعتزلة إثبات الأسباب و إن قدرة العبد مع فعله لها تأثير كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها و الله تعالى خلق الأسباب و المسببات و الأسباب ليست مستقلة بالمسببات بل لابد لها من أسباب أخر تعاونها و لها مع ذلك أضداد تمانعها و المسبب لا يكون يخلق جميع أسبابه و يدفع عنه أضداده المعارضة له و هو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته و قدرته كما يخلق سائر المخلوقات فقدره العبد سبب من الأسباب و فعل العبد لايكون بها و حدها بل لابد من الإرادة الجازمة مع القدرة و إذا أريد بالقدرة القوة القائمة بالإنسان فلابد من إزالة الموانع كإزالة القيد و الحبس و نحو ذلك و الصاد عن السبيل كالعدو و غيره وقوله تعالى {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }التكوير29 لايدل على أن العبد ليس بفاعل لفعله الإختيارى و لا أنه ليس بقادر عليه و لا أنه ليس بمريد بل يدل على أنه لا يشاؤه إلا أن يشاء الله و هذه الآية رد على الطائفتين المجبرة الجهمية و المعتزلة القدرية فإنه تعالى قال {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير28 فأثبت للعبد مشيئة و فعلا ثم قال {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }التكوير29 فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئته الله و الأولى رد على الجبرية و هذه رد على القدرية الذين يقولون قد يشاء العبد مالا يشاؤه الله كما يقولون إن الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 459-463

يشاء مالا يشاؤون وإذا قالوا المراد بالمشيئة هنا الأمر على أصلهم و المعنى و ما يشاؤون فعل ما أمر الله به إن لم يأمر الله به قيل سياق الآية يبين أنه ليس المراد هذا بل المراد و ما تشاؤون بعد أن أمرتم بالفعل أن تفعلوه إلا أن يشاء الله فإنه تعالى ذكر الأمر و النهي و الوعد و الوعيد ثم قال بعد ذلك {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ {30} الانسان29-30 و قوله { وَمَا تَشَاؤُونَ {30} الانسان 30 نفي لمشيئتهم فى المستقبل و كذلك قوله {إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ {30} الانسان30 تعليق لها بمشيئة الرب فى المستقبل فإن حرف أن تخلص الفعل المضارع للإستقبال فالمعنى إلا أن يشاء بعد ذلك و الأمر متقدم على ذلك و هذا كقول الإنسان لا أفعل هذا إلا أن يشاء الله وقد إتفق السلف و الفقهاء على أن من حلف فقال لأصلين غدا إن شاء الله أو لأقضين ديني غدا إن شاء الله و مضى الغد و لم يقضه أنه لا لايحنث و لو كانت المشيئة هي الأمر لحنث لأن الله أمره بذلك و هذا مما إحتج به على القدرية و ليس لهم عنه جواب و لهذا خرق بعضهم الإجماع القديم و قال أنه يحنث و أيضا فقوله {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ{30} الانسان30 سيق لبيان مدح الرب و الثناء عليه ببيان قدرته و بيان حاجة العباد إليه و لو كان المراد لا تفعلون إلا أن يأمركم لكان كل أمر بهذه المثابة فلم يكن ذلك من خصائص الرب التى يمدح بها و إن أريد أنهم لا يفعلون إلا بأمره كان هذا مدحا لهم لا له [1]

فارق اهل السنة الجبرية

اعلم أن العبد فاعل على الحقيقة و له مشيئة ثابتة و له إرادة جازمة و قوة صالحة و قد نطق القرآن بإثبات مشيئة العباد فى غير ما آية كقوله { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير28-29 {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً }المزمل19 { فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56} المدثر55-56 ونطق بإثبات فعله فى عامة آيات القرآن يعملون يفعلون يؤمنون يكفرون يتفكرون يحافظون يتقون وكما أنا فارقنا مجوس الأمة بإثبات أنه تعالى خالق فارقنا الجبرية بإثبات أن العبد كاسب فاعل صانع عامل و الجبر المعقول الذي أنكره سلف الأمة و علماء السنة هو أن يكون الفعل صادرا على الشيء من غير إرادة و لا مشيئة و لا إختيار مثل حركة الأشجار بهبوب الرياح وحركة بإطباق الأيدي و مثله فى الاناسي حركة المحموم و المفلوج و المرتعش فإن كل عاقل يجد تفرقة بديهية بين قيام الإنسان و قعوده و صلاته و جهاده و زناه و سرقته و بين إنتعاش المفلوج و إنتفاض المحموم و نعلم أن الأول قادر على الفعل مريد له مختار و أن الثانى غير قادر عليه و لامريد له و لا مختار [2]

منع حصول مطالب المؤمنين بالشرك

فتوحيد الربوبية أنه لا خالق الا الله فلا يستقل شيء سواه باحداث أمر من الامور بل ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن فكل ما سواه اذا قدر سببا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق فاذا طلب

---

[1] دقائق التفسير ج: 3 ص: 27-28 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 488 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 370

[2] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 393-394

مما سواه احداث امر من الامور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه حتى ما يطلب من العبد من الافعال الاختيارية لا يفعلها الا باعانة الله له كأن يجعله فاعلا لها بما يخلقه فيه من الارادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة وعند وجود القدرة التامة والارادة الجازمة يجب وجود المقدور فبمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وما سواه لا تستلزم ارادته شيئاً بل ما أراده لا يكون الا بامور خارجة عن مقدوره ان لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده ونفس ارادته لا تحصل الا بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29}}التكوير28-29 وقال تعالى {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{31} انسان 29-31 وقال { فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56}المدثر 55-56 والراجي لمخلوق طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق وذلك المخلوق عاجز عنه ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد[1]

الفرق بين فعل الرب ومفعوله

فجمهور أهل السنة من السلف والخلف يقولون إن العبد له قدرة وإرادة وفعل وهو فاعل حقيقة والله خالق ذلك كله كما هو خالق كل شيء كما دل على ذلك الكتاب والسنة قال تعالى عن إبراهيم {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }البقرة128 وقال تعالى عن إبراهيم {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي }إبراهيم40 وقال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا }السجدة24وقال تعالى {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ }الأنبياء73 وقال { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21}المعارج 19- 21 فأخبر أن الله يجعل المسلم مسلما والمقيم الصلاة مقيم للصلاة والإمام الهادي إماما هاديا وقال عن المسيح صلى الله عليه وسلم {وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ }مريم31 إلى قوله {وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً }مريم32 فبين أن الله هو الذي جعله برا بوالدته ولم يجعله جبارا شقيا وهذا صريح قول أهل السنة في أن الله عز وجل خالق أفعال العباد وقال تعالى عن فرعون وقومه {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ }القصص41 وقد قال تعالى { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 28- 29 وقال تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30}الإنسان 29 -30 وقوله { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} المدثر 54- 55 فأثبت مشيئة العبد وقوله كلا إلا بمشيئة الرب تعالى وهذا صريح قول أهل السنة في إثبات مشيئة العبد وأنها لا تكون إلا بمشيئة الرب وقد أخبر أن العباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويتقون ويفسقون ويصدقون ويكذبون ونحو ذلك في مواضع كثير وأخبر أن لهم استطاعة وقوة في غير موضع وأئمة أهل السنة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 331 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

وجمهورهم يقولون إن الله خالق هذا كله والخلق عندهم ليس هو المخلوق فيفرقون بين كون أفعال العباد مخلوقة مفعولة للرب وبين أن يكون نفس فعله الذي هو مصدر فعل يفعل فعلا فإنها فعل للعبد بمعنى المصدر وليست فعلا للرب تعالى بهذا الاعتبار بل هي مفعولة له والرب تعالى لا يتصف بمفعولاته ولكن هذه الشناعات لزمت من لا يفرق بين فعل الرب ومفعوله ويقول مع ذلك إن أفعال العباد فعل لله كما يقول ذلك الجهم بن صفوان وموافقوه والأشعري وأتباعه ومن وافقهم من أتباع الأئمة ولهذا ضاق بهؤلاء البحث في هذا الموضع كما قد بسط في موضعه [1]

فمذهب سلف الأمة ان الله خالق كل شيء و ربه و مليكه و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و أنه على كل شيء قدير و أنه هو الذي خلق العبد هلوعا إذا مسه الشر جزوعا و إذا مسه الخير منوعا و نحو ذلك أن العبد فاعل حقيقة و له مشيئة و قدرة قال تعالى {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ {28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 28 -29 و قال تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} الإنسان29-30 و قال تعالى { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55}وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56} المدثر 54-56 وهذا الموضع إضطرب فيه الخائضون فى القدر فقالت المعتزلة و نحوهم من النفاة الكفر و الفسوق و العصيان أفعال قبيحة و الله منزه عن فعل القبيح بإتفاق المسلمين فلا تكون فعلا له وقال من رد عليهم من المائلين إلى الجبر بل هي فعله و ليست أفعالا للعباد بل هي كسب للعبد و قالوا إن قدرة العبد لاتأثير لها فى حدوث مقدورها و لا فى صفة من صفاتها و أن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها فيكون الفعل خلقا من الله إبداعا و إحداثا و كسبا ممن العبد لوقوعه مقارنا لقدرته و قالوا إن العبد ليس محدثا لأ فعاله و لا موجدا لها و مع هذا فقد يقولون إنا لانقول بالجبر المحض بل نثبت قدرة حادثة و الجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه و بين الخلق فقالوا الكسب عبارة عن إقتران المقدور بالقدرة الحادثة و الخلق هو المقدور بالقدرة القديمة و قالوا أيضا الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه و الخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه فقال لهم الناس هذا لا يوجب فرقا بين كون العبد كسب و بين كونه فعل و أوجد و أحدث و صنع و عمل و نحو ذلك فإن فعله و إحداثه و عمله و صنعه هو أيضا مقدور بالقدرة الحادثة و هو قائم فى محل القدرة الحادثة و أيضا فهذا فرق لا حقيقة له فأن كون المقدور فى محل القدرة أو خارجا عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه و هو مبني على أصلين أن الله لايقدر على فعل يقوم بنفسه و أن خلقه للعالم هو نفس العالم و أكثر العقلاء من المسلمين و غيرهم على خلاف ذلك و الثاني أن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل و جودها و لا يكون شيء من مقدورها خارجا عن محلها و فى ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه و أيضا فإذا فسر التأثير بمجرد الإقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجا عن المحل و أيضا قال لهم المنازعون من المستقر فى فطر الناس أن من فعل العدل فهو عادل و من فعل الظلم فهو ظالم و من فعل الكذب فهو كاذب فإذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه و ظلمه و عدله بل الله فاعل ذلك لزم أن يكون هو المتصف بالكذب و الظلم قالوا و هذا كما قلتم أنتم و سائر الصفاتية من المستقر فى فطر الناس أن من قام به العلم فهو عالم ومن قامت به القدرة فهو قادر و من قامت به الحركة فهو متحرك و من قام به التكلم فهو متكلم

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص:110- 113

و من قامت به الإرادة فهو مريد و قلتم إذا كان الكلام مخلوقا كان كلاما للمحل الذي خلقه فيه كسائر الصفات فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات نظيرها أيضا من فعل الأفعال وقالوا أيضا القرآن مملوء بذكر إضافة هذه الأفعال إلى العباد كقوله تعالى {جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }الواقعة24 و قوله { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ }فصلت40 و قوله {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ }التوبة105 و قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 و أمثال ذلك و قالوا أيضا أن الشرع و العقل متفقان على أن العبد يحمد و يذم على فعله و يكون حسنة له أو سيئة فلو لم يكن الافعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم عليها وفى المسألة كلام ليس هذا موضع بسطه لكن ننبه على نكت نافعة فى هذا الموضع المشكل فتقول قول القائل هذا فعل هذا و فعل هذا لفظ فيه إجمال فإنه تارة يراد بالفعل نفس الفعل و تارة يراد به مسمى المصدر فيقول فعلت هذا إفعله فعلا و عملت هذا إعمله عملا فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمى المصدر كصلاة الإنسان و صيامه و نحو ذلك فالعمل هنا هو المعمول و قد إتحد هنا مسمى المصدر و الفعل و إذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب و بناء الدار و نحو ذلك فالعمل هنا غير المعمول قال تعالى {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ }سبأ13 فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن و من هذا الباب قوله تعالى {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }الصافات96 فإنه فى أصح القولين ما بمعنى الذي و المراد به ما تنحتونه من الأصنام كما قال تعالى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{96} الصافات95-96 أي و الله خلقكم و خلق الأصنام التى تنحتونها و منه حديث حذيفة عن النبى صلى الله عليه و سلم أن الله خالق كل صانع و صنعته لكن قد يستدل بالآية على أن الله خلق أفعال العباد من و جه آخر فيقال إذا كان خالقا لما يعملونه من المنحوتات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذي أحدثوه فيها فإنها إنما صارت أوثانا بذلك التأليف و إلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم و إذا كان خالقا للتأليف كان خالقا لأفعالهم والمقصود أن لفظ الفعل و العمل و الصنع أنواع و ذلك كلفظ البناء و الخياطة و النجارة تقع على نفس مسمى المصدر و على المفعول و كذلك لفظ التلاوة و القراءة و الكلام و القول يقع على نفس مسمى المصدر و على ما يحصل بذلك من نفس القول و الكلام فيراد بالتلاوة و القراءة نفس القرآن المقروء المتلو كما يراد بها مسمى المصدر والمقصود هنا أن القائل إذا قال هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر فهذا باطل بإتفاق المسلمين و بصريح العقل و لكن من قال هي فعل الله و أراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات فهذا حق ثم من هؤلاء من قال أنه ليس لله فعل يقوم به فلا فرق عنده بين فعله و مفعوله و خلقه و مخلوقه وأما الجمهور الذين يفرقون بين هذا و هذا فيقولون هذه مخلوقه لله مفعوله لله ليست هي نفس فعله و أما العبد فهي فعله القائم به و هي أيضا مفعوله له إذا أريد بالفعل المفعول فمن لم يفرق في حق الرب تعالى بين الفعل و المفعول إذا قال أنها فعل الله تعالى و ليس لمسمى فعل الله عنده معنيان و حينئذ فلا تكون فعلا للعبد و لا مفعوله له بطريق الأولى و بعض هؤلاء قال هي فعل للرب و للعبد فأثبت مفعولا بين فاعلين وأكثر المعتزلة يوافقون هؤلاء على أن فعل الرب تعالى لا يكون إلا بمعنى مفعوله مع أنهم يفرقون فى العبد بين الفعل و المفعول فلهذا عظم النزاع و أشكلت المسألة على الطائفتين و حاروا فيها وأما من قال خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته قال إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ومفعولة للرب كسائر المفعولات ولم يقل أنها نفس فعل الرب وخلقه بل قال أنها نفس فعل العبد وعلى هذا تزول الشبهة فأنه يقال الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلا له كما يفعلها العبد وتقوم به ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه

فى غيره من الطعوم والألوان والروائح والأشكال والمقادير والحركات وغير ذلك فإذا كان قد خلق لون الإنسان لم يكن هو المتلون به وإذا خلق رائحة منتنة أ و طعما مرا أ و صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح لم يكن هو متصفا بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والأفعال القبيحة ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها وسببا لذمه وعقابه وجالبة لألمه وعذابه وهذا أمر يعود على الفاعل الذي قامت به لا على الخالق الذي خلقها فعلا لغيره ثم على قول الجمهور الذين يقولون له حكمة فيما خلقه فى العالم مما هو مستقبح وضار ومؤذ يقولون له فيما خلقه من هذه الأفعال القبيحة الضارة لفاعلها حكمة عظيمة كما له حكمة عظيمة فيما خلقه من الأمراض والغموم ومن يقول لا تعلل أفعاله لا يعلل لا هذا ولا هذا يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق في الإنسان عمى ومرضا وجوعا وعطشا ووصبا ونصبا ونحو ذلك كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى والكراهة عاد إليه ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك هي أمور ضارة مكروهة مؤذية وهذا معنى كونها سيئات وقبائح إي أنها تسوء صاحبا وتضره وقد تسوء أيضا غيره وتضره كما أن مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره يبين ذلك أن القدرية سلموا أن الله قد يخلق فى العبد كفرا وفسوقا على سبيل الجزاء كما فى قوله تعالى {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ }الأنعام110 وقوله {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً }البقرة10 وقوله { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }الصف5 ثم أنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلا للعبد وكسبا له يجزى عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهي مخلوقة لله تعالى فالقول عند أهل الإثبات فيما يخلقه من أعمال العباد إبتداء كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه وإن إفترقا من وجه آخر وهم لا يمكنهم أن يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلا لله دون هذا وهذا فعلا للعبد دون هذا ولكن يقولون أن هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد وذلك لايحسن منه لكونه إبتداء للعبد بما يضره وهم يقولون لايحسن منه أن يضر الحيوان إلا بجرم سابق أو عوض لاحق وأما أهل الإثبات للقدر فمن لم يعلل منهم لا يفرق بين مخلوق ومخلوق وأما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون لله تعالى فيما يخلقه من أذى الحيوان حكم عظيمة كما له حكم في غير هذا ونحن لا نحصر حكمته فى الثواب والعوض فإن هذا قياس لله تعالى على الواحد من الناس وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله و المعتزلة مشبهة في الأفعال معطلة فى الصفات ومن أصولهم الفاسدة أنهم يصفون الله بما يخلقه فى العالم إذ ليس عندهم صفة لله قائمة به ولا فعل قائم به فيسمونه به ويصفونه بما يخلقه فى العالم مثل قولهم هو متكلم بكلام يخلقه فى غيره ومريد بإرادة يحدثها لا فى محل وقولهم أن رضاه وغضبه وحبه وبغضه هو نفس المخلوق الذي يخلقه من الثواب والعقاب وقولهم أنه لو كان خالقا لظلم العبد وكذبه لكان هو الظالم الكاذب وأمثال ذلك من الأقوال التى إذا تدبرها العاقل علم فسادها بالضرورة ولهذا إشتد نكير السلف والأئمة عليهم لا سيما لما أظهروا القول بأن القرآن مخلوق وعلم السلف أن هذا فى الحقيقة هو إنكار لكلام الله تعالى وأنه لو كان كلامه هو مايخلقه للزم أن يكون كل كلام مخلوق كلاما له فيكون إنطاقه للجلود يوم القيامة وإنطاقه للجبال والحصى بالتسبيح وشهادة الأيدى والأرجل ونحو ذلك كلاما له وإذا كان خالقا لكل شيء كان كل كلام موجود كلامه وهذا قول الحلولية من الجهمية كصاحب الفصوص وأمثاله ولهذا يقولون وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه وقد علم بصريح المعقول أن الله تعالى إذا خلق صفة فى محل كانت صفة لذلك المحل فإذا خلق حركة فى محل كان ذلك المحل هو المتحرك بها إذا خلق لونا أو ريحا فى جسم كان هو المتلون المتروح بذلك وإذا خلق علما أ و قدرة أو حياة في محل كان ذلك المحل هو العالم القادر الحي فكذلك إذا خلق إرادة وحبا وبغضا في محل كان هو

المريد المحب المبغض وإذا خلق فعلا لعبد كان العبد هو الفاعل فإذا خلق له كذبا وظلما وكفرا كان العبد هو الكاذب الظالم الكافر وإن خلق له صلاة وصوما وحجا كان العبد هو المصلي الصائم الحاج والله تعالى لا يوصف بشيء من مخلوقاته بل صفاته قائمة بذاته وهذا مطرد على أصول السلف وجمهور المسلمين من أهل السنة وغيرهم ويقولون أن خلق الله للسموات والأرض ليس هو نفس السموات والأرض بل الخلق غير المخلوق لا سيما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة الذين وافقوهم على إثبات صفات الله وأفعاله ومن وافقهم من الجهمية والقدرية نقضوا هذا الأصل على من لم يقل أن الخلق غير المخلوق كالأشعرى ومن وافقه فقالوا إذ قلتم أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل دون غيره كما ذكرتم في الحركة والعلم والقدرة وسائر الأعراض إنتقض ذلك عليكم بالعدل والإحسان وغيرهما من أفعال الله تعالى فإنه يسمى عادلا بعدل خلقه فى غيره محسنا بإحسان خلقه فى غيره فكذا يسمى متكلما بكلام خلقه فى غيره والجمهور من أهل السنة وغيرهم يجيبون بإلتزام هذا الأصل ويقولون إنما كان عادلا بالعدل الذي قام بنفسه ومحسنا بالإحسان الذي قام بنفسه وأما المخلوق الذي حصل للعبد فهو أثر ذلك كما أنه رحمن رحيم بالرحمة التى هي صفته وأما ما يخلقه من الرحمة فهو أثر الرحمة وإسم الصفة يقع تارة على الصفة التى هي مسمى المصدر ويقع تارة على متعلقها الذي هو مسمى المفعول كلفظ الخلق يقع تارة على الفعل وعلى المخلوق أخرى والرحمة تقع على هذا وهذا وكذلك الأمر يقع على أمره الذي هو مصدر أمر يأمر أمرا يقع على المفعول تارة كقوله تعالى {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً }الأحزاب38 وكذلك لفظ العلم يقع على المعلوم و القدرة تقع على المقدور ونظائر هذا متعددة وقد إستدل الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة في جملة ما إستدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله عليه السلام أعوذ بكلمات الله التامات ونحو ذلك وقالوا الإستعاذة لا تحصل بالمخلوق ونظير هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك[1]

العبد مريد مختار والله جعله مريدا مختار

وأهل السنة يقولون بهذا العلم الضروري فيقولون إن العبد فاعل والله خلقه فاعلا والعبد مريد مختار والله جعله مريدا مختار قال الله تعالى{ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} الإنسان 29- 30 وقال تعالى{ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير28-29 فأثبت مشيئة العبد وجعلها لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى وقال الخليل صلى الله عليه وسلم {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء }إبراهيم40 وقال { فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ }إبراهيم37 وقال هو وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }البقرة128 وقال {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا }الأنبياء73 وقال {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ }القصص41 وأمثال ذلك في الكتاب والسنة فدليلهم اقتضى مشيئة العبد وأنه فاعل بالاختيار وهذا الدليل اقتضى أن هذه المشيئة والاختيار حصلت بمشيئة الرب فكلا الأمرين حق فمن قال إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار أو قال إنه لا قدرة له أو أنه لم يفعل ذلك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 118-127

الفعل أو لا أثر لقدرته فيه ولم يحدث تصرفاته فقد أنكر موجب الضرورة الأولى ومن قال إن إرادته وفعله حدثت بغير سبب اقتضى حدوث ذلك وأن العبد أحدث ذلك وحاله عند إحداثه كما كان قبل إحداثه بل خص أحد الزمانين بالإحداث من غير سبب اقتضى تخصيصه وأنه صار مريدا فاعلا محدثا بعد أن لم يكن كذلك من غير شيء جعله كذلك فقد قال بحدوث الحوادث بلا فاعل وإذا قالوا الإرادة لا تعلل كان هذا كلاما لا حقيقة له فإن الأرادة أمر حادث فلا بد له من محدث وهذا كما قالوا إن البارىء يحدث إرادة لا في محل بلا سبب اقتضى حدوثها ولا إرادة فارتكبوا ثلاث محالات حدوث حادث بلا إرادة من الله وحدوث حادث بلا سبب حادث وقيام الصفة بنفسها لا في محل وإن شئت قلت كونه مريدا أمر ممكن والممكن لايترجح وجوده على عدمه ولا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح تام وهذا مما يحتج به الرازي عليهم وهو صحيح في نفسه لكنه تناقض في مسألة حدوث العالم[1]

مجوس هذه الأمة

وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم وللعباد القدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال الله تعالى{ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 28-29 وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها[2]

الإستطاعة متقدمة على الفعل و مقارنة له

والصواب الذي دل عليه الكتاب و السنة أن الإستطاعة متقدمة على الفعل و مقارنة له أيضا و تقارنه أيضا إستطاعة أخرى لا تصلح لغيره فالإستطاعة نوعان متقدمة صالحة للضدين و مقارنة لا تكون إلا مع الفعل فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له و هذه هي الموجبة للفعل المحققة له قال الله تعالى فى الأولى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً }آل عمران97

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 237

[2] العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 38

و لو كانت هذه الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما و جب الحج إلا على من حج و لما عصى أحد بترك الحج و لا كان الحج و اجبا على أحد قبل الإحرام به بل قبل فراغه و قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }التغابن16 فأمر بالتقوى بمقدار الإستطاعة و لو أراد الإستطاعة المقارنة لما و جب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط إذ هو الذي قارنته تلك الإستطاعة و قال تعالى {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا }البقرة286 و الوسع الموسوع و هو الذي تسعه و تطيقه فلو أريد به المقارن لما كلف أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط دون ما تركه من الواجبات و قال تعالى {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً }المجادلة4 و المراد به الإستطاعة المتقدمة و إلا كان المعنى فمن لم يفعل الصيام فإطعام ستين فيجوز حينئذ الإطعام لكل من لم يصم و لا يكون الصوم و اجبا على أحد حتى يفعله و قال النبى صلى الله عليه و سلم إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم و لو أريد به المقارنة فقط لكان المعنى فاتوا منه ما فعلتم فلا يكونون مأمورين إلا بما فعلوه و كذلك قال النبى صلى الله عليه و سلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب و لو أريد المقارن لكان المعنى فإن لم تفعل فتكون مخيرا و نظائر هذا متعددة فإن كل أمر علق فى الكتاب و السنة و جوبه بالإستطاعة و عدمه بعدمها لم يرد به المقارنة و إلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها و قد أسقطها عمن لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك الواجب المذكور و أما الإستطاعة المقارنة الموجبة فمثل قوله تعالى { مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ }هود20 و قوله {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }الكهف101 فهذه الإستطاعة هي المقارنة الموجبة إذ الأخرى لابد منها فى التكليف فالأولى هي الشرعية التى هي مناط الأمر و النهي و الثواب و العقاب و عليها يتكلم الفقهاء و هي الغالبة فى عرف الناس و الثانية هى الكونية التى هي مناط القضاء و القدر و بها يتحقق وجود الفعل فالأولى للكلمات الأمريات الشرعيات و الثانية للكلمات الخلقيات الكونيات كما قال { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ }التحريم12 وقد اختلف الناس في قدره العبد على خلاف معلوم الحق أو مراده و التحقيق أنه قد يكون قادرا بالقدرة الأولى الشرعية المتقدمة على الفعل فإن الله قادرا أيضا على خلاف المعلوم و المراد وإلا لم يكن قادرا إلا على ما فعله و ليس العبد قادرا على ذلك بالقدرة المقارنة للفعل فإنه لا يكون إلا ما علم الله كونه و أراد كونه فإنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و كذلك قول الحواريين {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ }المائدة112 إنما إستفهموا عن هذه القدرة وكذلك ظن يونس{ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ }الأنبياء87 أي فسر بالقدرة كما يقال للرجل هل تقدر أن تفعل كذا أي هل تفعله و هو مشهور فى كلام الناس و لما إعتقدت القدرية أن الأولى كافية فى حصول الفعل و أن العبد يحدث مشيئته جعله مستغنيا عن الله حين الفعل كما أن الجبرية لما إعتقدت أن الثانية موجبة للفعل و هي من غيره راوه مجبورا على الفعل و كلاهما خطأ قبيح فإن العبد له مشيئة و هي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك في عدة مواضع من كتابه {فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56}المدثر 55-56 { فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} الانسان29-30 { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29}التكوير 28-29 فإذا كان الله قد جعل العبد مريدا مختارا شائيا إمتنع أن يقال هو مجبور مقهور مع كونه قد جعل مريدا و إمتنع أن يكون هو الذي إبتدع لنفسه المشيئة فإذا قيل هو مجبور على أن يختار مضطر إلى أن يشاء فهذا لا نظير له و ليس هو المفهوم من الجبر بالإضطرار و لا يقدر على ذلك إلا الله ولهذا إفترق القدرية و الجبرية على طرفى نقيض و كلاهما مصيب فيما أثبته دون ما نفاه فأبو الحسين البصري و من و افقه من القدرية

يزعمون أن العلم بأن العبد يحدث أفعاله و تصرفاته علم ضروري و إن جحد ذلك سفسطة وابن الخطيب و نحوه من الجبرية يزعمون أن العلم بإفتقار رجحان فعل العبد على تركه الى مرجح من غير العبد ضروري لأن الممكن المتساوي الطرفين لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح و كلا القولين صحيح لكن دعوى إستلزام أحدهما نفي الآخر ليس بصحيح فإن العبد محدث لأفعاله كاسب لها و هذا الإحداث مفتقر الى محدث فالعبد فاعل صانع محدث و كونه فاعلا صانعا محدثا بعد أن لم يكن لابد له من فاعل كما قال { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} التكوير 28 فإذا شاء الإستقامة صار مستقيما ثم قال {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 29 فما علم بالإضطرار و ما دلت عليه الأدلة السمعية و العقلية كله حق و لهذا كان لا حول و لا قوة إلا بالله و العبد فقير إلى الله فقرا ذاتيا له في ذاته و صفاته و أفعاله مع أن له ذاتا و صفات و أفعالا فنفي أفعاله كنفي صفاته و ذاته و هو جحد للحق شبيه بغلو غالية الصوفية الذين يجعلونه هو الحق أو جعل شيء منه مستغنيا عن الله أو كائنا بدونه جحد للحق شبيه بغلو الذي قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و قال إنه خلق نفسه و إنما الحق ما عليه أهل السنة و الجماعة و إنما الغلط فى إعتقاد تناقضه بطريق التلازم و أن ثبوت أحدهما مستلزم لنفي الآخر فهذا ليس بحق و سببه كون العقل يزيد على المعلوم المدلول عليه ما ليس كذلك و تلك الزيادة تناقض ما علم و دل عليه [1]

إرادة الواجب واجبة

فإن إرادة الواجب واجبة كما قال تعالى {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير28 ويجب عليه أن يريده ويعزم عليه حين وجوبه عليه[2]

مشيئة الله ليست مثل مشيئة العبد

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأ سماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مسماهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمى الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }البقرة255 وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }الروم19وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ }الروم19 اسم للحى المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطق مسمى موجود فى الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 372-376

[2] شرح العمدة ج: 2 ص: 207

الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فقال ووصف نفسه بالمشيئة ووصف عبده بالمشيئة فقال { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير28-29 ومعلوم أن مشيئة الله ليست مثل مشيئة العبد[1]

مقالة أهل السنة وأهل الحديث

و ذكر أهل الكلام الذين ينقلون مقالات الناس مقالة أهل السنة وأهل الحديث كما ذكره أبو الحسن الأشعرى فى كتابه الذى صنفه فى اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين فذكر فيه أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة وغيرهم ثم قال ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث وجملة قولهم الاقرار بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء من عند الله وبما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون من ذلك شيئا الى أن قال وان الله على عرشه كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 وان له يدين بلا كيف كما قال تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص75وأقروا أن لله علما كما قال { أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء166 { وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ }فصلت47 وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة وقالوا أنه لا يكون فى الأرض من خير ولا شر الا ما شاء الله وأن الأشياء تكون بمشيئة الله كما قال {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }التكوير29 الى أن قال ويقولون ان القرآن كلام الله غير مخلوق ويصدقون بالأحاديث التى جاءت عن رسول الله مثل ان الله ينزل الى سماء الدنيا فيقول هل من مستغفر فاغفر له كما جاء فى الحديث ويقرون أن الله يجىء يوم القيامة كما قال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وان الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }ق16 وذكر أشياء كثيرة الى أن قال فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب[2]

لطائف لغوية

قال { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير27-29 ان أصناف العالمين يراد به جميع اصناف الخلق كما فى قوله تعالى {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 13

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 185

[3] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 367

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الأنفطار
82

رقية محمود الغرايبة

~§§ الانفطار(مكية)19 §§~

سورة الانفطار1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ{1} وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ{2} وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ{3} وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ{4} عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ{5} يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ{6} الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ{7} فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ{8}

القرآن أخبر باستحالة العالم

فالذي جاءت به السنة مطابق لما في القرآن في المستقبل أخبر تعالى بالقيامة والحسنات والجنة والنار ولم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى بحيث لا يبقى شيء بل أخبر باستحالة العالم قال تعالى { إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ{1} وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ{2} وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ{3} وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ{4} الانفطار 1-4 وأمثال هذه النصوص التي تبين الإستحالة والتغير على السموات والأرض والجبال وأنها تستحيل أنواعا من الإستحالة لتعدد الأوقات[1]

خطاب للإنسان

فإن الإنسان إنما ذكر مخبرا عنه لم يخاطب و الرسول هو الذي أنزل عليه القرآن و الخطاب فى هذه السور له كقوله {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى }الضحى3 و قوله {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }الشرح1 و قوله{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 والإنسان إذا خوطب قيل له {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ }الانفطار6 {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً }الانشقاق6 و أيضا فبتقدير أن يكون خطابا للإنسان يجب أن يكون خطابا للجنس كقوله {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ }الانشقاق6 [2]

المطلق و المقيد

---

[1] الصفدية ج: 2 ص: 225

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 285

قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} الاعلى2 فأطلق الخلق و التسوية و لم يخص بذلك الإنسان كما أطلق قوله بعد {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى3 لم يقيده فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات و قد بين موسى عليه السلام شموله فى قوله { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 و قد ذكر المقيد بالإنسان فى قوله { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ{6} الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ{7}الانفطار6-7 و قد ذكر المطلق و المقيد فى أول ما نزل من القرآن و هو قوله{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق1-5 و فى جميع هذه الآيات مطلقها و مقيدها و الجامع بين المطلق و المقيد قد ذكر خلقه و ذكر هدايته و تعليمه بعد الخلق كما قال فى هذه السورة { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى2 -3 لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها فلابد أن تهدى إلى تلك الغاية التى خلقت لها فلا تتم مصلحتها و ما أريدت له إلا بهدايتها لغاياتها و هذا مما يبين أن الله خلق الأشياء لحكمة و غاية تصل إليها كما قال ذلك السلف و جمهور المسلمين و جمهور العقلاء وقالت طائفة كجهم و أتباعه إنه لم يخلق شيئا لشيء و وافقه أبو الحسن الأشعري و من اتبعه من الفقهاء أتباع الأئمة و هم يثبتون أنه مريد و ينكرون أن تكون له حكمة يريدها و طائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته و حكمته و ينكرون إرادته و كلاهما تناقض و قد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء فى غير هذا الموضع و أن منتهاهم جحد الحقائق فإن هذا يقول لو كان له حكمة يفعل لأجلها لكان يجب أن يريد الحكمة و ينتفع بها و هو منزه عن ذلك و ذاك يقول لو كان له إرادة لكان يفعل لجر منفعة فإن الإرادة لا تعقل إلا كذلك و أرسطو و أتباعه يقولون لو فعل شيئا لكان الفعل لغرض و هو منزه عن ذلك[1]

لفظ التركيب مجمل

ان لفظ التركيب مجمل يراد به تركيب الجسم من اجزاء كانت متفرقة فاجتمعت كتركيب السكنجبين وغيره من الادوية بل ومن الاطعمة والاشربة والملابس والمساكن من اجزائها التي كانت متفرقة فألف بينها وركب بعضها مع بعض حتى صارت على الحال المركبة وقد يراد ب المركب ما لا يمتزج فيه احد الاثنين بالاخر كما يقال ركب الباب في موضعه وركب المسمار في الباب وهذا التركيب اخص من الاول وهو المشهور من الكلام وقد قال تعالى {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ }الانفطار8 [2]

لطائف لغوية

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:129- 130

[2] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 223

1-فإن المركب في اللغة ما ركبه مركب كالأدوية المركبة من المعاجين والأشربة ونحو ذلك وبالمركب ما ركب على غيره أو فيه كالباب المركب في موضعه ونحوه ومنه قوله تعالى {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ }الانفطار8 [1]

[1]الصفدية ج: 1 ص: 105 و منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 200

سورة الانفطار 9-12

{ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{9} وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12}

الحفظة الموكلين ببنى آدم

قال تعالى {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{9} وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12}الانفطار 9-12 ذكر الله الحفظة الموكلين ببنى آدم الذين يحفظونهم ويكتبون أعمالهم فى مواضع من كتابه[1]

رسل الله فى تنفيذ أمره الكونى وأمره الدينى

فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً}فاطر1 فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}الحج75 وملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا قال تعالى{ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12}الانفطار 10-12[2]

وقوله تعالى { وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }ق16 يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك يعلمون ما يوسوس به العبد نفسه كما قال {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }الزخرف80 فهو يسمع ومن يشاء من الملائكة يسمعون ومن شاء من الملائكة وأما الكتابة فرسله يكتبون كما قال ههنا {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }ق18 وقال تعالى {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ }يس12 فأخبر بالكتابة بقوله نحن لأن جنده يكتبون بأمره وفصل فى تلك الآية بين السماع والكتابة لأنه يسمع بنفسه وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره والملائكة يكتبون فقوله { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }ق16 مثل قوله { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ }يس12 لما كانت ملائكته متقربين الى العبد بأمره كما كانوا يكتبون عمله بأمره قال ذلك وقربه من كل أحد بتوسط الملائكة كتكليمه كل أحد بتوسط الرسل كما قال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }الشورى51 فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل وذاك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 250

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 122

قربه اليهم عند الاحتضار وعند الأقوال الباطنة فى النفس والظاهرة على اللسان وقال تعالى { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12} الانفطار 10-12[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 512-513

سورة الانفطار 13-19

{ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ{15} وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ{16} وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ{19}

يوم الدين

أن أسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل وهكذا الدين الذي يدين به الناس في الباطن والظاهر لا بد فيه من الحب والخضوع بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم فإنها قد تكون خضوعا ظاهرا فقط والله سبحانه وتعالي سمى يوم القيامة يوم الدين كما قال {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }الفاتحة4 وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلهذا من قال هو يوم الحساب ويوم الجزاء فقد ذكر بعض صفات الدين قال تعالي { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{9} وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ{15} وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ{16} وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ{19} الانفطار9-19 وقال تعالي { فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87} الواقعة86-87 أي مقهورين ومدبرين ومجزيين[1]

اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران

ان اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد ما لا يدخل فيه عند الإقتران بغيره كلفظ البر والإيمان إذا أفرده أدخل فيه الأعمال الصالحة والتقوى كقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ }الانفطار13[2]

لفظ البر اذا أطلق

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ البر اذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به كما في قوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14}الانفطار13 -14 وقوله { وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى }البقرة189 وقوله {وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 34 و مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 262

[2] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 118

وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }البقرة177 فالبر اذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى والتقوى اذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ثم قد يجمع بينهما كما فى قوله تعالى {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى}المائدة2 وكذلك لفظ الأبرار اذا أطلق دخل فيه كل تقى من السابقين والمقتصدين واذا قرن بالمقربين كان أخص قال تعالى فى الأول {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14}الانفطار13 -14 وقال فى الثانى { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} المطففين18-21[1]

البر يهدى الى الجنة

التقوى كما فسرها الاولون والاخرون فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وقد قال تعالى فى اكبر سورة فى القرآن { الم{1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3}البقرة1-3 الى اخرها فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من اقام الصلاة وايتاء الزكاة وقال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }البقرة21 وقال {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }البقرة177 وهذه الاية عظيمة جليله القدر من أعظم آى القرآن واجمعه لامر الدين وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن خصال الايمان فنزلت وفى الترمذى عن فاطمة بنت قيس عنه أنه قال ان فى المال حقا سوى الزكاة وقرأ هذه الآية وقد دلت على امور أحدها انه اخبر ان الفاعلين لهذه الامور هم المتقون وعامة هذه الامور فعل مأمور به الثانى انه أخبر ان هذه الأمور هى البر واهلها هم الصادقون يعنى فى قوله آمنا وعامتها امور وجودية هى افعال مأمور بها فعلم أن المامور به أدخل فى البر والتقوى والايمان من عدم المنهى عنه وبهذه الاسماء الثلاثة استحقت الجنة كما قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} الانفطار13-14 وقال { أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص28 {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ }القمر54 وقال {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ }السجدة18[2]

ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 165

[2] مجموع الفتاوى ج: 20 ص:132- 134

وسلم أنه قال عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا فأخبر النبي ص أن الصدق يستلزم البر وأن الكذب يستلزم الفجور وقد قال تعالى وقد قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} الانفطار13-14 ولهذا كان بعض المشايخ إذا أمر متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفر ويتعب قلبه أمره بالصدق ولهذا يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون قل لمن لا يصدق لا يتبعني ويقولون الصدق سيف الله في الأرض ما وضع على شيء إلا قطعه ويقول يوسف بن اسباط وغيره ما صدق الله عبد إلا صنع له وأمثال هذا كثير والصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان والإسلام[1]

النعيم التام هو في الدين الحق

أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذونها دينا أو لا يتخذونها دينا والذين يتخذونها دينا إما أن يكون الدين بها دين حق أو دين باطل فنقول النعيم التام هو في الدين الحق فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل كما أخبر الله بذلك في كتابه في غير موضع كقوله {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 وقوله عن المتقين المهتدين {أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }البقرة5 وقوله تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126} طه123-126 وقوله تعالى { فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة38 وقوله تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} الانفطار13-14 ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام [2]

لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}التوبة72 فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً }النساء122 الآيات فى هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 10 وأمراض القلوب ج: 1 ص: 39 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 39

[2] ب قاعدة في المحبة ج: 1 ص:137- 138

الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق بإسم الايمان وكما علق بإسم التقوى واسم البر فى مثل قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ }القمر54 وقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ }الانفطار13 وباسم أولياء الله كقوله { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{62} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{64} يونس62-64 فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون فى قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان[1]

الصفات الاختيارية

قوله تعالى{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }الفاتحة4وكونه مالكا ليوم الدين يوم يدين العباد بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ{19} الانفطار 17-19 فان الملك هو الذى يتصرف بأمر فيطاع ولهذا انما يقال ملك للحى المطاع الامر لا يقال فى الجمادات لصاحبها ملك انما يقال له مالك ويقال ليعسوب النحل ملك النحل لأنه يأمر فيطاع والمالك القادر على التصريف فى المملوك واذا كان الملك هو الآمر الناهى المطاع فان كان يأمر وينهى بمشيئته كان أمره ونهيه من الصفات الاختيارية وبهذا أخبر القرآن قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ }المائدة1 وان كان لا يأمر وينهى بمشيئته بل امره لازم له حاصل بغير مشيئته ولا قدرته لم يكن هذا مالكا ايضا بل هذا اولى أن يكون مملوكا فان الله تعالى خلق الانسان وجعل له صفات تلزمه كاللون والطول والعرض والحياء ونحو ذلك مما يحصل لذاته بغير اختياره فكان باعتبار ذلك مملوكا مخلوقا للرب فقط وانما يكون ملكا اذا كان يأمر وينهى باختياره فيطاع وان كان الله خالقا لفعله ولكل شىء ولكن المقصود أنه لا يكون ملكا الا من يأمر وينهى بمشيئته وقدرته بل من قال أنه لازم له بغير مشيئته أو قال أنه مخلوق له فكلاهما يلزمه أنه لا يكون ملكا واذا لم يمكنه أن يتصرف بمشيئته لم يكن مالكا أيضا فمن قال أنه لا يقوم به فعل اختيارى لم يكن عنده فى الحقيقة مالكا لشىء واذا اعتبرت سائر القرآن وجدت أنه من لم يقر بالصفات الاختيارية لم يقم بحقيقة الايمان ولا القرآن فهذا يبين أن الفاتحة وغيرها يدل على الصفات الاختيارية[2]

نفى الخلة المعروفة فى الدنيا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 348

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 262-263

قال تعالى { مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ }البقرة254 ومعلوم أنه إنما نفى الخلة المعروفة ونفعها المعروف كما ينفع الصديق الصديق فى الدنيا كما قال { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ{19} الانفطار 17-19 وقال {لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ{15} يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ{16}غافر16 لم ينف أن يكون فى الآخرة خلة نافعة بإذنه فإنه قد قال { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{66} الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ{67} يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ{68} الزخرف 66-68 الآيات وقد قال النبى يقول الله تعالى حقت محبتى للمتحابين فى ويقول الله تعالى أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى فتعين أن الأمر كله عائد الى تحقيق التوحيد وأنه لا ينفع أحد ولا يضر الا بإذن الله وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله ولا يستعان به من دون الله وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة فلا يبقى من يدعى لنفسه معه شركا فى ربوبيته أو الهيته ولا من يدعى ذلك لغيره بخلاف الدنيا فإنه وإن لم يكن رب ولا اله الا هو فقد اتخذ غيره ربا والها وادعى مدعون وفى الدنيا يشفع الشافع عند غيره وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له فى الشفاعة ويكون خليله فيعينه ويفتدى نفسه من الشر فقد ينتفع بالنفوس والأموال فى الدنيا والنفوس ينتفع بها تارة بالإستقلال وتارة بالإعانة وهى الشفاعة والأموال بالفداء فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة قال تعالى {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ }البقرة48 وقال { لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ }البقرة254 كما قال { لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً }لقمان33 فهذا هذا والله أعلم وعاد ما نفاه الله من الشفاعة الى تحقيق أصلى الإيمان وهى الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد كما قرن بينهما فى مواضع كثيرة كقوله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ}البقرة8 وقوله {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ }البقرة156 وقوله {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }لقمان28 وقوله { وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }البقرة28 وأمثال ذلك[1]

{ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً }

فإنه قد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى قال يافاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا ياعباس عم رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا سلونى ما شئتم من مالى وثبت عنه فى الصحيح أنه قال لا ألفين أحدكم يجئ يوم القيامة وعلى رقبته بعير له رغاء فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أغنى عنك من الله شيئا قد بلغتك الحديث بتمامه وذكر مثل ذلك فى غير ذلك من الأقوال فالرسول الله يقول مثل هذا لاهل بيته وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه من المهاجرين والانصار يقول إنه ليس يغنى عنهم من الله شيئا وقد قال تعالى { يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ} الانفطار19 وقال {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً }البقرة48 وأمثال ذلك من نصوص القرآن والسنة وقد علم أنه ليس

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 117-118

للأنبياء وغيرهم يوم القيامة الا الشفاعة وقد ثبت فى الصحيح أن الناس يأتون آدم ليشفع فيقول نفسى نفسى وكذلك يقول نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل وهم أفضل الخلق ويقول لهم عيسى اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإذا رأيت ربى خررت له ساجدا فيقول أى محمد ارفع رأسك وقل يسمع واسئل تعط واشفع تشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة وذكر مثل ذلك فى المرة الثانية فهذا خير الخلق وأكرمهم على الله اذا رأى ربه لايشفع حتى يسجد له ويحمده ثم يأذن له فى الشفاعة فيحد له حدا يدخلهم الجنة وهذا تصديق قوله تعالى { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة255 الى غير ذلك من الآيات وقد جاء فى الحديث الصحيح أنه تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون لكن بإذنه فى أمور محدودة ليس الامر الى اختيار الشافع فهذا فيمن علم أنه يشفع فلو قال قائل ان محمدا يخلص كل مريديه من النار لكان كاذبا بل فى أمته خلق يدخلون النار ثم يشفع فيهم وأما الشيوخ فليس لهم شفاعة كشفاعته والرجل الصالح قد يشفعه الله فيمن يشاء ولا شفاعة إلا فى أهل الإيمان [1]

{ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ }

فان الأمر يومئذ لله هو {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ }الانفطار19 وكما قال تعالى {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }الأنعام94 [2]

لطائف لغوية

والله سبحانه وتعالي سمى يوم القيامة يوم الدين كما قال {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }الفاتحة4 وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلهذا من قال هو يوم الحساب ويوم الجزاء فقد ذكر بعض صفات الدين قال تعالي { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{9} وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ{15} وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ{16} وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ{19} الانفطار9-19 [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 105

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 101

[3] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 34 و مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 262

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة المطففين

83

رقية محمود الغرايبة

~§§ المطففين(مكية)36 §§~

مقدمة سورة والمطففين

على قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية لله

قال الله تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }يونس62 فكل من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا وهم على درجتين السابقون المقربون وأصحاب اليمين المقتصدون كما قسمهم الله تعالى فى سورة فاطر وسورة الواقعة والانسان والمطففين وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى أنه قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه فالمتقربون الى الله بالفرائض هم الأبرار المقتصدون أصحاب اليمين والمتقربون اليه بالنوافل التى يحبها بعد الفرائض هم السابقون المقربون وإنما تكون النوافل بعد الفرائض وقد قال أبو بكر الصديق فى وصيته لعمر ابن الخطاب اعلم أن لله عليك حقا بالليل لا يقبله بالنهار وحقا بالنهار لا يقبله بالليل وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة فإنه كلما كان الولى أعظم اختصاصا بالرسول وأخذا عنه وموافقة له كان أفضل إذ الولى لا يكون وليا لله إلا بمتابعة الرسول باطنا وظاهرا فعلى قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية لله[1]

الدين وأهله ثلاث طبقات

ما بينه النبى فى حديث جبريل فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات أولها الإسلام وأوسطها الإيمان وأعلاها الإحسان ومن وصل الى العليا فقد وصل إلى التى تليها فالمحسن مؤمن والمؤمن مسلم وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنا وهكذا جاء القرآن فجعل الأمة على هذه الأصناف الثلاثة قال تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ }فاطر32 فالمسلم الذى لم يقم بواجب الايمان هو الظالم لنفسه والمقتصد هو المؤمن المطلق الذى أدى الواجب وترك المحرم والسابق بالخيرات هو المحسن الذى عبد الله كأنه يراه وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس فى المعاد الى هذه الثلاثة فى سورة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 224

الواقعة و المطففين و هل أتى وذكر الكفار ايضا وأما هنا فجعل التقسيم للمصطفين من عباده [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 358

المطففين1-6

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ{1} الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{2} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{3} أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ{4} لِيَوْمٍ عَظِيمٍ{5} يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{6}

من غشنا فليس منا

قال الله تعالى { وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ{1} الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{2} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{3} المطففين1-3 وقال فى قصة شعيب { أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ{181} وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ{182} وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ{183} الشعراء181-183 وقال تعالى { إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً } النساء107 وقال { وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } يوسف52 وفى الصحيحين عن حكيم بن حزام قال قال رسول الله البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعها وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال ما هذا يا صاحب الطعام فقال أصابته السماء يا رسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس من غشنا فليس منا وفى رواية من غشنى فليس منى فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ان الغاش ليس بداخل فى مطلق اسم أهل الدين والايمان كما قال لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن فسلبه حقيقة الايمان التى بها يستحق حصول الثواب والنجاة من العقاب وان كان معه أصل الايمان الذى يفارق به الكفار ويخرج به من النار [1]

البخس في العقول والاديان

أن الفلاسفة إذا عدلوا عن المعرفة الفطرية العقلية للمعينات الى اقيسة كلية وضعوا الفاظها وصارت مجملة تتناول حقا وباطلا حصل بها من الضلال ما هو ضد المقصود من الموازين وصارت هذه الموازين عائلة لا عادلة وكانوا فيها من المطففين { الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{2} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{3} المطففين 2-3 واين البخس في الاموال من البخس في العقول والاديان مع ان اكثرهم لا يقصدون البخس بل هم بمنزلة من قد ورث موازين من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 71

ابيه يزن بها تارة له وتارة عليه ولا يعرف أهى عادلة ام عائلة والميزان التي انزلها الله مع الكتاب حيث قال الله تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى17 وقال {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ }الحديد25هي ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشئ بمثله وخلافه فيسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عبادة وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف فان قيل إذا كان هذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أرسلت به الرسل قيل لان الرسل ضربت للناس الامثال العقليه التي يعرفون بها التماثل والاختلاف فان الرسل دلت الناس وارشدتهم الى ما به يعرفون العدل ويعرفون الاقيسة العقلية الصحيحة التي يستدل بها على المطالب الدينية فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيما للعلوم النبوية بل الرسل صلوات الله عليهم بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علما وعملا وضربت الامثال فكملت الفطرة بما نبهتها عليه وأرشدتها مما كانت الفطرة معرضة عنه او كانت الفطرة قد فسدت بما حصل لها من الاراء والاهواء الفاسدة فأزالت ذلك الفساد وبينت ما كانت الفطرة معرضة عنه حتى صار عند الفطرة معرفة الميزان التي أنزلها الله وبينها رسله والقرآن والحديث مملوء من هذا يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والامثال المضروبة ويبين طرق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية21 وقوله {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{36}القلم35 -36 أي هذا حكم جائر لا عادل فان فيه تسوية بين المختلفين وقال {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص28 ومن التسوية بين المتماثلين قوله {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ }القمر43 وقوله {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ }البقرة214 والقرآن مملوء من ذلك لكن ليس هذا موضعه وإنما المقصود التنبيه على جنس الميزان العقلى وانها حق كما ذكر الله في كتابه وليست هي مختصة بمنطق اليونان وإن كان فيه قسط منها بل هى الاقيسة الصحيحة المتضمنة التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين سواء صيغ ذلك بصيغة قياس الشمول أو بصيغة قياس التمثيل وصيغ التمثيل هى الاصل وهي أكمل والميزان القدر المشترك وهو الجامع وهو الحد الاوسط وإنزاله تعالى الميزان مع الرسل كانزاله الايمان وهو الامانة معهم والايمان لم يحصل إلا بهم كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الاخر حدثنا ان الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة وحدثنا عن رفع الامانة قال ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منترا وليس فيه شئ فقد بين في هذا الحديث أن الامانة التي هى الايمان أنزلها في أصل القلوب فان الجذر هو الاصل وهذا إنما كان بواسطة الرسل لما اخبروا بما اخبروا به فسمع ذلك ف ألهم الله القلوب الايمان وانزله في القلوب وكذلك أنزل الله سبحانه الميزان في القلوب لما بينت الرسل العدل وما يوزن به عرفت القلوب ذلك فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الامور حتى تعرف التماثل والاختلاف وتضع من الالات الحسية ما يحتاج اليه في ذلك كما وضعت موازين النقدين وغير ذلك وهذا من وضعه تعالى الميزان قال تعالى { وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ{7} أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ{8} وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا

الْمِيزَانَ{9} الرحمن 7-9وقال كثير من المفسرين هو العدل وقال بعضهم ما يوزن به ويعرف العدل وهما متلازمان[1]

الميزان العقلى حق

قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ }الشورى17 وقال {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }الحديد25 والميزان فسره السلف بالعدل وفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان وقد أخبر تعالى انه انزل ذلك كما انزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط فما يعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو من الميزان وكذلك ما يعرف به اختلاف المختلفات فاذا علمنا ان الله تعالى حرم الخمر لما ذكره من انها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وتوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء ثم رأينا النبيذ يماثلها فى ذلك كان القدر المشترك الذي هو العلة هو الميزان الذي انزله الله فى قلوبنا لنزن به هذا ونجعله مثل هذا فلا نفرق بين المتماثلين فالقياس الصحيح هو من العدل الذي امر الله به ومن علم الكليات من غير معرفة المعين فمعه الميزان فقط والمقصود بها وزن الامور الموجودة في الخارج وإلا فالكليات لولا جزئياتها المعينة لم يكن بها اعتبار كما انه لولا الموزونات لم يكن الى الميزان من حاجة ولا ريب أنه إذا حضر أحد الموزونين واعتبر بالآخر بالميزان كان اتم فى الوزن من ان يكون الميزان وهو الوصف الكلي المشترك في العقل اى شيء حضر من الاعيان المفردة وزن بها مع مغيب الآخر ولا يجوز لعاقل ان يظن ان الميزان العقلى الذي انزله الله هو منطق اليونان لوجوه احدهما ان الله انزل الموازين مع كتبه قبل ان يخلق اليونان من عهد نوح وابراهيم وموسى وغيرهم وهذا المنطق اليوناني وضعه ارسطو قبل المسيح بثلاثمائة سنة فكيف كانت الامم المتقدمة تزن به الثانى أن أمتنا أهل الاسلام ما زالوا يزنون بالموازين العقلية ولم يسمع سلفا بذكر هذا المنطق اليونانى وإنما ظهر في الاسلام لما عربت الكتب الرومية فى عهد دولة المأمون أو قريبا منها الثالث انه ما زال نظار المسلمين بعد ان عرب وعرفوه يعيبونه ويذمونه ولا يلتفتون اليه ولا الى أهله فى موازينهم العقلية والشرعية ولا يقول القائل ليس فيه مما انفردوا به إلا إصطلاحات لفظية وإلا فالمعانى العقلية مشتركة بين الامم فانه ليس الأمر كذلك بل فيه معانى كثيرة فاسدة ثم هذا جعلوه ميزان الموازين العقلية التى هى الأقيسة العقلية وزعموا أنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن ان يزل في فكره وليس الامر كذلك فانه لو احتاج الميزان الى ميزان لزم التسلسل و أيضا فالفطرة ان كانت صحيحة وزنت بالميزان العقلي وان كانت بليدة او فاسدة لم يزدها المنطق الا بلادة وفسادا ولهذا يوجد عامة من يزن به علومه لابد ان يتخبط ولا يأتى بالادلة العقلية على الوجه المحمود ومتى أتى بها على الوجه المحمود اعرض عن اعتبارها بالنطق لما فيه من العجز والتطويل وتبعيد الطريق وجعل الواضحات خفيات وكثرة الغلط والتغليط فانهم اذا علموا عن المعرفة الفطرية العقلية للمعينات التى أقيسة كلية وضعوا الفاظها وصارت مجملة تتناول حقا وباطلا حصل بها من الضلال ما هو ضد المقصود من الموازين وصارت هذه الموازين عائلة لا عادلة وكانوا فيها من المطففين {الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{2} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{3} المطففين 2-3 واين البخس فى الاموال من البخس في العقول والأديان مع أكثرهم لا يقصدون

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 382-384

البخس بل هم بمنزلة من ورث موازين من ابيه يزن بها تارة له وتارة عليه ولا يعرف أهي عادلة ام عائلة والميزان التى انزلها الله مع الكتاب ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشيء بمثله وخلافه فتسوى بين المتماثلين وتفرق بين المختلفين بما جعله الله فى فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف فإذا قيل إن كان هذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله مما ارسل به الرسل قيل لأن الرسل ضربت للناس الامثال العقلية التى يعرفون بها التماثل والاختلاف فان الرسل دلت الناس وارشدتهم الى ما به يعرفون العدل ويعرفون الأقسية العقلية الصحيحة التى يستدل بها على المطالب الدينية فليست العلوم النبوية مقصورة على الخبر بل الرسل صلوات الله عليهم بينت العلوم العقلية التى بها يتم دين الله علما وعملا وضربت الأمثال فكملت الفطرة بما نبتها عليه وارشدتها لما كانت الفطرة معرضة عنه أو كانت الفطرة قد فسدت بما يحصل لها من الآراء والاهواء الفاسدة فأزالت ذلك الفساد والقرآن والحديث مملوءان من هذا يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والامثال المضروبة ويبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية21 الآية وقوله {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ{35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{36}القلم35 -36 اي هذا حكم جائر لا عادل فان فيه تسوية بين المختلفين ومن التسوية بين المتماثلين قوله {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ }القمر43 وقوله {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم }البقرة214 الآية و المقصود التنبيه على ان الميزان العقلى حق كما ذكر الله فى كتابه وليست هي مختصة بمنطق اليونان بل هي الاقسية الصحيحة المتضمنة للتسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين سواء صيغ ذلك بصيغة قياس الشمول او بصيغة قياس التمثيل وصيغ التمثيل هي الاصل وهي الحمل والميزان هو القدر المشترك وهو الجامع[1]

معاد الانفس والابدان

قال تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ }التوبة29 مع ان النصارى يقرون بمعاد الابدان لكن لما انكروا ما اخبر به الرسول من الاكل والشرب ونحو ذلك صاروا ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر وهؤلاء الفلاسفة لا يقرون بمعاد الابدان ولهم في معاد النفوس ثلاثة اقوال والثلاثة تذكر عن الفارابي نفسه انه كان يقول تارة هذا وتارة هذا ومنهم من يقر بمعاد الانفس مطلقا ومنهم من يقول انما تعاد النفوس العالمة دون الجاهلة فان العالمة تبقى بالعلم فان النفس تبقى ببقاء معلومها والجاهلة التي ليس لها معلوم باق تفسد وهذا قول طائفة من اعيانهم ولهم فيه مصنفات ومنهم من ينكر معاد الانفس كما ينكر معاد الابدان وهو قول طوائف منهم وكثير منهم يقول بالتناسخ وليس شيء من ذلك ايمانا باليوم الاخر فان اليوم الاخر هو الذي ذكره الله في قوله تعالى {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }آل عمران9 وقوله تعالى {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ{1} الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{2} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{3} أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم

[1] مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 239-240

مَّبْعُوثُونَ{4} لِيَوْمٍ عَظِيمٍ{5} يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{6} المطففين1-6 وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يوم يقوم الناس لرب العالمين يقوم احدهم في العرق الى انصاف اذنيه [1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ{4} لِيَوْمٍ عَظِيمٍ{5} يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{6} المطففين4 -6 وهو يوم القيامة[2]

2-قال تعالى { يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} المطففين6 ان أصناف العالمين يراد به جميع اصناف الخلق كما فى قوله تعالى {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2[3]

---

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 459

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 506

[3] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 367

سورة المطففين 7-17

{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ{7} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ{8} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{9} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{13} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15} ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ{16} ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{17}

{ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ}

قال تعالى { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ{7} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ{8} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{9} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{13} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15} ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ{16} ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{17}سورة المطففين 7-17 وقال الامام أحمد فى المسند حدثنا أبو معاوية ثنا الاعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال خرجنا مع رسول الله فى جنازة رجل من الانصار فانتهينا الى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وفى يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ثم قال ان العبد المؤمن اذا كان فى انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل عليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسون منه مد بصره ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجى الى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها ريح كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون يعنى بها على ملأ من الملائكة بين السماء والارض الا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به الى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التى تليها حتى ينتهوا به الى السماء السابعة فيقول الله تعالى اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه الى الارض فانى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول له الله ربى فيقولان له وما دينك فيقول دينى الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء ان صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد

بصره قال فيأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول ابشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة حتى ارجع الى اهلى ومالى وقال وان العبد الكافر اذا كان فى انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل عليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول ايتها النفس الخبيثة اخرجى الى سخط من الله وغضب قال فتتفرق فى جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حين يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها الى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله }لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ {الأعراف40 فيقول الله اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }الحج31 فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار والبسوه من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف اضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول ابشر بالذى يسؤوك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة قلت هذا قد رواه عن البراء بن عازب غير واحد غير زاذان منهم عدى بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد [1]

يوم يدين العباد بأعمالهم

قال تعالى {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12}المطففين 10-12 يوم الدين يوم يدين العباد بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر[2]

أن أسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل وهكذا الدين الذي يدين به الناس في الباطن والظاهر لا بد فيه من الحب والخضوع بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم فإنها قد تكون خضوعا ظاهرا فقط والله سبحانه وتعالي سمى يوم القيامة يوم الدين كما قال {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }الفاتحة4 وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلهذا من قال هو يوم الحساب ويوم الجزاء فقد ذكر بعض صفات الدين قال تعالي { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{9} وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ{15} وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ{16} وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 439-442

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 262

نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ{19} الانفطار9-19 وقال تعالي { فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87} الواقعة86-87 أي مقهورين ومدبرين ومجزيين[1]

{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

وفي الصحيح عن جندب ان النبي صلى الله عليه وسلم حدث ان رجلا قال لا يغفر الله لفلان وان الله قال من الذي يتألى على اني لا أغفر لفلان فإني قد غفرت لفلان واحبطت عملك وقال الترمذي وابن ماجة عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون وقد روى أبو هريرة عن النبى أنه قال إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه و إن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }المطففين14 رواه الترمذى وصححه وفى الصحيح انه قال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة والغين حجاب رقيق أرق من الغيم فأخبر أنه يستغفر الله استغفارا يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لاتصير رينا وقال حذيفة إن الإيمان يبدو فى القلب لمظة بيضاء فكلما إزداد العبد إيمانا إزداد قلبه بياضا فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقا وإن النفاق يبدو منه لمظة سوداء فكلما إزداد العبد نفاقا إزداد قلبه سوادا فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربدا وقال صلى الله عليه وسلم إن النور إذا دخل القلب إنشرح وإنفسح قيل فهل لذلك من علامة يا رسول الله قال نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإستعداد للموت قبل نزوله [2]

طرق طلب العلم والدين

والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي فالطريق الشرعي هو النظر فيما جاء به الرسول والإستدلال بأدلته والعمل بموجبها فلا بد من علم بما جاء به وعمل به لا يكفي أحدهما وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية فإن الرسول بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه والرسل بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها كما ضرب الله في القرآن من كل مثل وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته وأما الطريقان المبتدعان فأحدهما طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي فإن هذا فيه باطل كثير وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة والثاني طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة فإن هؤلاء يقولون إذا صفى الإنسان نفسه على الوجه الذي يذكرونه فاضت عليه العلوم بلا تعلم وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة بل مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول وكثير ما يقع من هؤلاء وهؤلاء وتقدح كل طائفة في الأخرى وينتحل كل منهم اتباع الرسول والرسول ليس ما جاء به موافقا لما قال هؤلاء ولا هؤلاء {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 35

[2] الاستقامة ج: 2 ص: 193 و مجموع الفتاوى ج: 17 ص:523 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 283-284 و رسالة في التوبة ج: 1 ص: 225

مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }آل عمران67 وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه على طريقة أهل البدع من أهل الكلام والرأي ولا على طريقة أهل البدع من أهل العبادة والتصوف بل كان على ما بعثه الله من الكتاب والحكمة وكثير من أهل النظر يزعمون أنه بمجرد النظر يحصل العلم بلا عبادة ولا دين ولا تزكية للنفس وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريق الرياضة بمجرده تحصل المعارف بلا تعلم ولا نظر ولا تدبر للقرآن والحديث وكلا الفريقين غالط بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم إن لم يعرف ذلك من جهته وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلا بالتعلم من جهته ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلا مع العمل به وإلا فقد قال الله تعالى{ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }الصف5 وقال { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ {109} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{110}الأنعام109-110 وقال {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }المطففين14[1]

الكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة

أن الإنسان قد يخفى عليه كثير من أحوال نفسه فلا يشعر بها أن كثيرا من الناس يكون فى نفسه حب الرياسة كمن لا يشعر به بل إنه مخلص فى عبادته و قد خفيت عليه عيوبه و كلام الناس فى هذا كثير مشهور و لهذا سميت هذه الشهوة الخفية قال شداد بن أوس يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء و الشهوة الخفية قيل لأبي داود السجستاني ما الشهوة الخفية قال حب الرياسة فهي خفية تخفى على الناس و كثيرا ما تخفى على صاحبها بل كذلك حب المال و الصورة فإن الإنسان قد يحب ذلك و لا يدري بل نفسه سكنة ما دام ذلك موجودا فإذا فقده ظهر من

جزع نفسه و تلفها ما دل على المحبة المتقدمة و الحب مستلزم للشعور فهذا شعور من النفس بأمور وجب لها والإنسان قد يخفى ذلك عليه من نفسه لا سيما والشيطان يغطي على الإنسان أمورا و ذنوبه أيضا تبقى رينا على قلبه قال تعالى { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15}المطففين 14-15 و في الترمذي و غيره عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه و إن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }المطففين14 قال الترمذى حديث حسن صحيح و منه قوله تعالى {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ }البقرة88 و قال {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ }الأعراف201 فالمتقون إذا أصابهم هذا الطيف الذي يطيف بقلوبهم يتذكرون ما علموه قبل ذلك فيزول الطيف و يبصرون الحق الذي كان معلوما و لكن الطيف يمنعهم عن رؤيته قال تعالى {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ }الأعراف202 فإخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص:428- 430

غيهم { ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ }الأعراف202 لا تقصر الشياطين عن المدد و الإمداد ولا الإنس عن الغي فلا يبصرون مع ذلك الغي ما هو معلوم لهم مستقر في فطرهم لكنهم ينسونه و لهذا كانت الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها و تقويته وإمداده و نفي المغير للفطرة فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة و تكميلها لا بتغيير الفطرة و تحويلها والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة [1]

أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة

وقال أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى المتكلم صاحب الطريقة المنسوبة اليه فى الكلام فى كتابه الذى صنفه فى اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين وذكر فرق الروافض والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرهم ثم قال مقالة اهل السنة وأصحاب الحديث جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله تعالى وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يردون شيئا من ذلك وان الله واحد احد فرد صمد لا اله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وان محمدا عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ويقرون أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لأنهم عن الله محجوبون قال عز وجل {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15[2]

{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }

وأما الذين نفوا الرؤية (رؤية الكفار) مطلقا على ظاهره المأثور عن المتقدمين فاتباع لظاهر قوله {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 روى ابن بطة باسناده عن اشهب قال قال رجل لمالك يا أبا عبدالله هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة فقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب قال تعالى {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 وعن المزنى قال سمعت ابن أبى هرم يقول قال الشافعى فى كتاب الله {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 دلالة على أن اولياءه يرونه على صفته وعن حنبل بن اسحق قال سمعت أبا عبدالله يعنى أحمد بن حنبل يقول أدركت الناس وما ينكرون من هذه الاحاديث شيئا أحاديث الرؤية وكانوا يحدثون بها على الجملة يمرونها على حالها غير منكرين لذلك ولا مرتابين قال أبو عبدالله {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 فلا يكون حجاب الا لرؤية فأخبر الله ان من شاء الله ومن اراد فانه يراه والكفار لا يرونه وقال قال الله {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ{22} إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ{23} والاحاديث التى تروى فى النظر الى الله حديث جرير بن عبدالله وغيره تنظرون الى ربكم أحاديث صحاح وقال {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ }يونس26 النظر الى الله قال أبو عبدالله أحاديث الرؤية نؤمن بها ونعلم أنها حق ونؤمن بأننا نرى ربنا يوم القيامة لا نشك فيه ولا نرتاب قال وسمعت أبا عبدالله يقول من زعم أن الله لا يرى فى الآخرة فقد كفر وكذب بالقرآن ورد على الله تعالى أمره يستتاب فان تاب والا قتل قال حنبل قلت لأبى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 347-348

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 91 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 66

عبدالله فى احاديث الرؤية فقال صحاح هذه نؤمن بها وتقر بها وكل ما روى عن النبى باسناد جيد اقررنا به قال أبو عبدالله اذا لم نقر بما جاء عن النبى ودفعناه رددنا على الله أمره قال الله { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا }الحشر7 وكذلك قال ابو عبدالله الماجشون وهو من اقران مالك فى كلام له فورب السماء والارض ليجعل الله رؤيته يوم القيامة للمخلصين ثوابا فتنضر بها وجوههم دون المجرمين وتفلج بها حجتهم على الجاحدين جهم وشيعته وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا يرونه كما زعموا أنه لا يرى ولا يكلمهم ولا ينظر اليهم ولهم عذاب اليم كيف لم يعتبروا بقول الله تعالى {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 أفيظن أن الله يقصيهم ويعنتهم ويعذبهم بأمر يزعم الفاسق أنه واولياؤه فيه سواء ومثل هذا الكلام كثير فى كلام غير واحد من السلف مثل وكيع ابن الجراح وغيره وقال القاضى ابو يعلى وغيره كانت الامة فى رؤية الله بالابصار على قولين منهم المحيل للرؤية عليه وهم المعتزلة والنجارية وغيرهم من الموافقين لهم على ذلك والفريق الآخر أهل الحق والسلف من هذه الامة متفقون على أن المؤمنين يرون الله فى المعاد وان الكافرين لا يرونه فثبت بهذا اجماع الامة ممن يقول بجواز الرؤية وممن ينكرها على منع رؤية الكافرين لله وكل قول حادث بعد الاجماع فهو باطل مردود وقال هو وغيره ايضا الأخبار الواردة فى رؤية المؤمنين لله انما هى على طريق البشارة فلو شاركهم الكفار فى ذلك بطلت البشارة ولا خلاف بين القائلين بالرؤية فى أن رؤيته من أعظم كرامات اهل الجنة قال وقول من قال انما يرى نفسه عقوبة لهم وتحسيرا على فوات دوام رؤيته ومنعهم من ذلك بعد علمهم بما فيها من الكرامة والسرور يوجب ان يدخل الجنة الكفار ويريهم ما فيها من الحور والولدان ويطعمهم من ثمارها ويسقيهم من شرابها ثم يمنعهم من ذلك ليعرفهم قدر ما منعوا منه ويكثر تحسرهم وتلهفهم على منع ذلك بعد العلم بفضيلته و العمدة قوله سبحانه {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 فانه يعم حجبهم عن ربهم فى جميع ذلك اليوم وذلك اليوم {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }المطففين6 وهو يوم القيامة فلو قيل انه يحجبهم فى حال دون حال لكان تخصيصا للفظ بغير موجب ولكان فيه تسوية بينهم وبين المؤمنين فان الرؤية لا تكون دائمة للمؤمنين والكلام خرج مخرج بيان عقوبتهم بالحجب وجزائهم به فلا يجوز ان يساويهم المؤمنون فى عقاب ولا جزاء سواه فعلم ان الكافر محجوب على الاطلاق بخلاف المؤمن واذا كانوا فى عرصة القيامة محجوبين فمعلوم أنهم فى النار أعظم حجبا وقد قال سبحانه وتعالى {وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً }الإسراء72 وقال {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }طه124 واطلاق وصفهم بالعمى ينافى الرؤية التى هى أفضل أنواع الرؤية فبالجملة فليس مقصودى بهذه الرسالة الكلام المستوفى لهذه المسألة فان العلم كثير وانما الغرض بيان أن هذه المسألة ليست من المهمات التى ينبغى كثرة الكلام فيها وايقاع ذلك الى العامة والخاصة حتى يبقى شعارا ويوجب تفريق القلوب وتشتت الاهواء وليست هذه المسألة فيما علمت مما يوجب المهاجرة والمقاطعة فان الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سنة واتباع وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا كما اختلف الصحابة رضى الله عنهم والناس بعدهم فى رؤية النبى صلى الله عليه وسلم ربه فى الدنيا وقالوا فيها كلمات غليظة كقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجرا ولا تقاطعا وكذلك ناظر الامام أحمد أقواما من أهل السنة فى مسألة الشهادة للعشرة بالجنة حتى آلت المناظرة الى ارتفاع الاصوات وكان أحمد وغيره يرون الشهادة ولم يهجروا من امتنع من الشهادة الى مسائل نظير هذه كثيرة والمختلفون فى هذه المسألة اعذر من غيرهم اما الجمهور فعذرهم

ظاهر كما دل عليه القرآن وما نقل عن السلف وان عامة الاحاديث الواردة فى الرؤية لم تنص الا على رؤية المؤمنين وأنه لم يبلغهم نص صريح برؤية الكفار ووجدوا الرؤية المطلقة قد صارت دالة على غاية الكرامة ونهاية النعيم وأما المثبتون عموما وتفصيلا فقد ذكرت عذرهم وهم يقولون قوله كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون هذا الحجب بعد المحاسبة فانه نوع رؤية وهذا حجب عام متصل وبهذا الحجب يحصل الفرق بينهم و المؤمنين فانه سبحانه وتعالى يتجلى للمؤمنين فى عرصات القيامة بعد ان يحجب الكفار كما دلت عليه الاحاديث المتقدمة ثم يتجلى لهم فى الجنة عموما وخصوصا دائما ابدا سرمدا ويقولون ان كلام السلف مطابق لما فى القرآن ثم ان هذا النوع من الرؤية الذى هو عام للخلائق قد يكون نوعا ضعيفا ليس من جنس الرؤية التى يختص بها المؤمنون فان الرؤية أنواع متباينة تباينا عظيما لا يكاد ينضبط طرفاها وهنا آداب تجب مراعاتها منها ان من سكت عن الكلام فى هذه المسألة ولم يدع الى شىء فانه لا يحل هجره وان كان يعتقد أحد الطرفين فان البدع التى هى أعظم منها لا يهجر فيها الا الداعية دون الساكت فهذه أولى ومن ذلك أنه لا ينبغى لاهل العلم أن يجعلوا هذه المسألة محنة وشعارا يفضلون بها بين اخوانهم واضدادهم فان مثل هذا مما يكرهه الله ورسوله وكذلك لا يفاتحوا فيها عوام المسلمين الذين هم فى عافية وسلام عن الفتن ولكن اذا سئل الرجل عنها أو رأى من هو أهل لتعريفه ذلك القى اليه مما عنده من العلم ما يرجو النفع به بخلاف الايمان بأن المؤمنين يرون ربهم فى الآخرة فان الايمان بذلك فرض واجب لما قد تواتر فيها عن النبى وصحابته وسلف الأمة ومن ذلك أنه ليس لاحد أن يطلق القول بأن الكفار يرون ربهم من غير تقييد لوجهين أحدهما ان الرؤية المطلقة قد صار يفهم منها الكرامة والثواب ففى اطلاق ذلك ايهام وايحاش وليس لأحد أن يطلق لفظا يوهم خلاف الحق الا أن يكون مأثورا عن السلف وهذا اللفظ ليس مأثورا الثانى أن الحكم اذا كان عاما فى تخصيص بعضه باللفظ خروج عن القول الجميل فانه يمنع من التخصيص فان الله خالق كل شىء ومريد لكل حادث ومع هذا يمنع الانسان ان يخص ما يستقذر من المخلوقات وما يستقبحه الشرع من الحوادث بأن يقول على الانفراد يا خالق الكلاب ويا مريدا للزنا ونحو ذلك بخلاف ما لو قال يا خالق كل شىء ويا من كل شىء يجرى بمشيئته فكذلك هنا لو قال ما من احد الا سيخلو به ربه وليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان أو قال أن الناس كلهم يحشرون الى الله فينظر اليهم وينظرون اليه كان هذا اللفظ مخالفا فى الايهام للفظ الاول فلا يخرجن أحد عن الالفاظ المأثورة وان كان قد يقع تنازع فى بعض معناها فان هذا الامر لابد منه فالامر كما قد أخبر به نبينا والخير كل الخير فى اتباع السلف الصالح والاستكثار من معرفة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه فيه والاعتصام بحبل الله وملازمة ما يدعو الى الجماعة والالفة ومجانبة ما يدعو الى الخلاف والفرقة الا ان يكون امرا بينا قد أمر الله ورسوله فيه بأمر من المجانبة فعلى الرأس والعين وأما اذا اشتبه الامر هل هذا القول أو الفعل مما يعاقب صاحبه عليه أو ما لا يعاقب فالواجب ترك العقوبة لقول النبى ادرءوا الحدود بالشبهات فانك ان تخطىء فى العفو خير من أن تخطىء فى العقوبة رواه ابو داود ولا سيما اذا آل الامر الى شر طويل وافتراق أهل السنة والجماعة فان الفساد الناشىء فى هذه الفرقة أضعاف الشر الناشىء من خطأ نفر قليل فى مسألة فرعية واذا اشتبه على الانسان امر فاليدع بما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله اذا قام الى الصلاة يقول اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم وبعد هذا فاسأل الله العظيم رب العرش العظيم ان يوفقنا واياكم لما يحبه ويرضاه من القول والعمل

ويرزقنا اتباع هدى نبيه باطنا وظاهرا ويجمع على الهدى شملنا ويقرن بالتوفيق امرنا ويجعل قلوبنا على قلب خيارنا ويعصمنا من الشيطان ويعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وقد كتبت هذا الكتاب وتحريت فيه الرشد وما أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله ومع هذا فلم أحط علما بحقيقة ما بينكم ولا بكيفية اموركم وانما كتبت على حسب ما فهمت من كلام من حدثنى والمقصود الاكبر انما هو اصلاح ذات بينكم وتأليف قلوبكم واما استيعاب القول فى هذه المسألة وغيرها وبيان حقيقة الامر فيها فربما اقول او اكتب فى وقت آخر ان رأيت الحاجة ماسة اليه فانى فى هذا الوقت الى انتظام أمركم أوكد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبة وسلم تسليما كثيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل[1]

عذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب

النعيم فى الدار الآخرة أيضا مثل النظر اليه لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق سبحانه وتعالى كما فى الدعاء المأثور اللهم إنى أسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة رواه النسائى غيره وفى صحيح مسلم وغيره وعن صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنه إن لكم عند الله موعدا يريد ان ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه سبحانه فما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر اليه وهو الزيادة فبين النبى أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله فى الجنة لم يعطهم شيئا أحب اليهم من النظر اليه وإنما يكون أحب اليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب فكلما كان الشىء أحب الى الإنسان كان حصوله ألذ له وتنعمه به أعظم وروى أن يوم الجمعة يوم المزيد وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة وفى الأحاديث والآثار ما يصدق هذا قال الله تعالى فى حق الكفار {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15} ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ{16}المطففين15 -16 فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب ولذة النظر الى وجهه أعلى اللذات ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى [2]

هل الكفار يرون ربهم ؟

ان القرآن قد أخبر أنه يلقاه الكفار ويلقاه المؤمنون كما قال { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ{6} فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{7} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{8} وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً{9} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ{10} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً{11} وَيَصْلَى سَعِيراً{12} الانشقاق 6-12 وقد تنازع الناس فى الكفار هل يرون ربهم مرة ثم يحتجب عنهم أم لا يرونه بحال تمسكا بظاهر قوله {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 ولأن الرؤية اعظم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 499-503

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 27

الكرامة والنعيم والكفار لاحظ لهم فى ذلك وقالت طوائف من أهل الحديث والتصوف بل يرونه ثم يحتجب كما دل على ذلك الاحاديث الصحيحة التى فى الصحيح وغيره من حديث أبى سعيد وابى هريرة وغيرهما مع موافقة ظاهر القرآن قالوا وقوله { لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبوا ودليل ذلك قوله {إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 فعلم أن الحجب كان يومئذ فيشعر بأنه يختص بذلك اليوم وذلك انما هو فى الحجب بعد الرؤية فأما المنع الدائم من الرؤية فلا يزال فى الدنيا والآخرة قالوا ورؤية الكفار ليست كرامة ولا نعيما اذ اللقاء ينقسم الى لقاء على وجه الاكرام ولقاء على وجه العذاب فهكذا الرؤية التى يتضمنها اللقاء ومما احتجوا به الحديث الصحيح حديث سفيان بن عيينة حدثنا سهيل بن أبى صالح عن ابيه عن ابى هريرة هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر وقد روى مسلم وابو داود وأحمد فى المسند وابن خزيمة فى التوحيد وغيره قال قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية الشمس ليست فى سحابة قالوا لا قال والذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم الا كما تضارون فى رؤية أحدهما قال فيلقى العبد فيقول أى فل الم أكرمك واسودك وازوجك واسخر لك الخيل والابل واذرك ترأس وتربع فيقول بلى يا رب قال فيقول فظننت انك ملاقى فيقول لا فيقول فانى انساك كما نسيتنى ثم قال يلقى الثانى فيقول له مثل ذلك فيقول أى رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع فيقول ههنا اذا قال ثم يقال الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد على فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقى فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل فذلك المنافق ليعذر من نفسه وذلك الذى يسخط الله عليه وتمام الحديث قال ثم ينادى مناد ألا تتبع كل أمة ما كانت تعبد فتتبع الشياطين والصليب اولياؤهم الى جهنم وبقينا ايها المؤمنون فيأتينا ربنا فيقول ما هؤلاء فنقول من عباد الله المؤمنين آمنا بربنا ولم نشرك به شيئا وهو ربنا تبارك وتعالى وهو يأتينا وهو يثبتنا وهو ذا مقامنا حتى يأتينا ربنا فيقول انا ربكم فيقول انطلقوا فننطلق حتى نأتى الجسر وعليه كلاليب من نار تخطف عند ذلك حلت الشفاعة لى اللهم سلم اللهم سلم فاذا جاوزوا الجسر فكل من انفق زوجا من المال فى سبيل الله مما يملك فتكلمه خزنة الجنة تقول يا عبدالله يا مسلم هذا خير فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله ان هذا عبد لا توى عليه يدع بابا ويلج من آخر فضرب كتفه وقال انى أرجو أن تكون منهم قال سفيان بن عيينة حفظته انا وروح بن القاسم ورددده علينا مرتين أو ثلاثا سئل سفيان عن قوله تراس وتربع فقال كان الرجل اذا كان راس القوم كان له الرباع وهو الربع وقال النبى لعدى بن حاتم حيث قال يا رسول الله انى على دين قال أنا أعلم بدينك منك انك مستحل الرباع ولا يحل لك وهذا الحديث معناه فى الصحيحين وغيرهما من وجوه متعددة يصدق بعضها بعضا وفيه أنه سئل عن الرؤية فأجاب بثبوتها ثم اتبع ذلك بتفسيره وذكر أنه يلقاه العبد والمنافق وأنه يخاطبهم وفى حديث ابى سعيد وابى هريرة انه يتجلى لهم فى القيامة مرة للمؤمنين والمنافقين بعد ما تجلى لهم اول مرة ويسجد المؤمنون دون المنافقين وقد بسط الكلام على هذه المسألة فى غير هذا الموضع وأما الجهمية من المعتزلة وغيرهم فيمتنع على أصلهم لقاء الله لأنه يمتنع عندهم رؤية الله فى الدنيا والآخرة وخالفوا بذلك ما تواترت به السنن عن النبى وما اتفق عليه الصحابة وأئمة الاسلام من المؤمنين يرون ربهم فى الاخرة واحتجوا بحجج كثيرة عقلية ونقلية قد بينا فسادها مبسوطا وذكرنا دلالة العقل والسمع على جواز الرؤية وهذه المسألة من الأصول التى كان يشتد نكير السلف والائمة على من خالف فيها وصنفوا فيها مصنفات مشهورة والثانى أن عندهم لا يتصور الكدح اليه ولا العرض عليه ولا الوقوف عليه ولا ان يحبه العبد ولا أن يجده ولا ان يشار اليه ولا ان يرجع اليه ولا يؤوب اليه اذ هذه الحروف تقتضى ان يكون حال العبد بالنسبة اليه فى

الآخرة وبينهما فضل يقتضى تقربا اليه ودنوا منه وان يكون حال العبد بالنسبة اليه مخالف لحاله فى الدنيا وهذا كله محال عندهم فانهم لا يقرون بأن الخالق مباين للمخلوق كما اتفق السلف والأئمة وصرحوا بأنه مباين للخلق ليس داخلا فى المخلوقات ولا المخلوقات داخلة فيه بل تارة يجعلونه حالا بذاته فى كل مكان وتارة يجعلون وجوده عين وجود المخلوقات وتارة يصفونه بالامور السلبية المحضة مثل كونه غير مباين للعالم ولا حال فيه فهم بين أمرين اما أن يصفوه بما يقتضى عدمه وتعطيله فينكرونه وان كانوا يقرون به فيجمعون فى قولهم بين الاقرار والانكار والنفى والاثبات وقد يصرح بعضهم بصحة الجمع بين النقيضين ويقول أن هذا غاية التحقيق والعرفان واما ان يصفوه بما يقتضى انه عين المخلوقات او جزء منها أو صفة لها وذلك أيضا يقتضى قولهم بعدم الخالق وتعطيل الصانع وان كانوا مقرين بوجود موجود غيره وان جعلوه اياه ثم يجدون فى المخلوقات مباينا فى ربوبية المخلوق فيقولون بالجمع بين النقيضين كما تقدم وقد يقولون بعبادة الاصنام وان عباد الاصنام على حق وعباد العجل على حق وانه ما عبد غير الله قط اذ لا غير عندهم بل الوجود واحد ويقولون بامتناع الدعوة اليه وأنه يمكن ان يتقرب اليه ويصل اليه وهم يقولون ما عدم فى البداية فيدعى الى الغاية بل هو عين المدعو فكيف يدعو الى نفسه وكلام السلف والائمة فى ذم الجهمية وتكفيرهم كثير جدا وهؤلاء ومن وافقهم على بعض اقوالهم التى تنفى حقيقة اللقاء يتأولون اللقاء على أن المراد به لقاء جزاء ربهم ويقولون ان الجزاء قد يرى كما فى قوله { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{25} قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{26} فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ{27}الملك 25-27 فان ضمير المفعول فى راوه عائد الى الوعد والمراد به الموعود أى فلما رأوا ما وعدوا سيئت وجوه الذين كفروا ومن قال أن الضمير عائد هنا الى الله فقوله ضعيف وفساد قول الذين يجعلون المراد لقاء الجزاء دون لقاء الله معلوم بالاضطرار بعد تدبر الكتاب والسنة يظهر فساده من وجوه أحدها أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين الثانى أن حذف المضاف اليه يقارنه قرائن فلابد أن يكون مع الكلام قرينة تبين ذلك كما قيل فى قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا}يوسف82 ولو قال قائل رأيت زيدا أو لقيته مطلقا واراد بذلك لقاء ابيه أو غلامه لم يجز ذلك فى لغة العرب بلا نزاع ولقاء الله قد ذكر فى كتاب الله وسنة رسوله فى مواضع كثيرة مطلقا غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء الله لقاء بعض مخلوقاته من جزاء أو غيره الثالث أن اللفظ اذا تكرر ذكره فى الكتاب ودار مرة بعد مرة على وجه واحد وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الاطلاق ولم يبين ذلك كان تدليسا وتلبيسا يجب أن يصان كلام الله عنه الذى أخبر أنه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين وانه بيان للناس واخبر أن الرسول قد بلغه البلاغ المبين وأنه بين للناس ما نزل اليهم واخبر أن عليه بيانه ولا يجوز أن يقال ما فى العقل دلالة على امتناع ارادة هذا المعنى هو القرينة التى دل المخاطبين على الفهم بها لوجهين أحدهما أن يقال ليس فى العقل ما ينافى ذلك بل الضرورة العقلية والبراهين العقلية توافق ما دل عليه القرآن كما قال {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ }سبأ6 وما يذكر من الحجج العقلية المخالفة لمدلول القرآن فهو شبهات فاسدة عند من له خبرة جيدة بالمعقولات دون من يقلد فيها بغير نظر تام الثانى أنه لو فرض أن هناك دليلا عقليا ينافى مدلول القرآن لكان خفيا دقيقا ذا مقدمات طويلة مشكلة متنازع فيها ليس فيها مقدمة متفق عليها بين العقلاء اذ ما يذكر من الادلة العقلية المخالفة لمدلول القرآن هى شبهات فاسدة كلها ليست من هذا الباب ومعلوم ان المخاطب الذى اخبر انه بين للناس وان كلامه بلاغ مبين وهدى للناس اذا اراد بكلامه ما لا يدل عليه ولا يفهم منه الا بمثل هذه القرينة لم يكن قد بين وهدى بل قد كان لبس واضل وهذا مما اتفق المسلمون على وجوب تنزيه

الله ورسوله بل وعامة الصحابة والائمة من ذلك الرابع ان قول النبى فى الحديث المتفق عليه اللهم لك الحمد أنت رب السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد انت قيوم السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد انت نور السموات والأرض ومن

فيهن انت الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق اللهم لك اسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت واليك حاكمت وبك خاصمت اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما اسررت وما اعلنت وما أنت أعلم به منى انت الهى لا اله الا أنت وفى لفظ أعوذ بك ان تضلنى انت الحى الذى لا تموت والجن والانس يموتون ففى الحديث فرق بين لقائه وبين الجنة والنار والجنة والنار تتضمن جزاء المطيعين والعصاة فعلم أن لقاءه ليس هو لقاء الجنة والنار الخامس أن النبى ذكر فى غير حديث ما يبين لقاء العبد ربه كما فى الصحيحين عن عدى بن حاتم عن النبى أنه قال ما منكم من أحد الا سيكلمه الله ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر ايمن منه فلا يرى الا شيئا قدمه وينظر اشأم منه فلا يرى الا شيئا قدمه فتستقبله النار فمن استطاع ان يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل فان لم يستطع فبكلمة طيبة الى أمثال ذلك من الاحاديث السادس أنه لو أريد بلقاء الله بعض المخلوقات اما جزاء واما غير جزاء لكان ذلك واقعا فى الدنيا والآخرة فكان العبد لا يزال ملاقيا لربه ولما علم المسلمون بالاضطرار من دين الاسلام ان لقاء الله لا يكون الا بعد الموت علم بطلان ان اللقاء لقاء بعض المخلوقات ومعلوم ان الله قد جازى خلقا على أعمالهم فى الدنيا بخير وشر كما جازى قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وكما جازى الانبياء واتباعهم ولم يقل مسلم ان لقاء هذه الامور فى الدنيا لقاء الله ولو قال قائل ان لقاء الله جزاء مخصوص وهو الجنة مثلا او النار لقيل له ليس فى لفظ هذا لقاء مخصوص ولا دليل عليه وليس هو بأولى من أن يقال لقاء الله تعالى لقاء بعض ملائكته او بعض الشياطين وامثال ذلك من التحكمات الموجودة فى الدنيا والاخرة اذ ليس دلالة اللفظ على تعيين هذا بأولى من دلالته على تعيين هذا فبطل ذلك الوجه السابع أن لقاء الله لم يستعمل فى لقاء غيره لا حقيقة ولا مجازا ولا استعمل لقاء زيد فى لقاء غيره اصلا بل حيث ذكر هذا اللفظ فانما يراد به لقاء المذكور اذ ما سواه لا يشعر اللفظ به فلا يدل عليه الوجه الثامن أن قوله هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً{43} تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً{44} الأحزاب43-44 فلو كان اللقاء هو لقاء جزائه لكان هو لقاء الاجر الكريم الذى اعد لهم واذا اخبر بأنهم يلقون ذلك لم يحسن بعد ذلك الاخبار باعداده اذ الاعداد مقصوده الوصول فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود هذا نزاع بين العى الذى يصان عنه كلام أوسط الناس فضلا عن كلام رب العالمين لا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية وذلك لا يكون الا فى اللقاء المعروف لا فى حصول شىء من النعيم المخلوق الوجه التاسع أن قول النبى فى الحد يث الصحيح من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه أخبر فيه ان الله يحب لقاء عبد ويكره لقاء عبد وهذا يمتنع حمله على الجزاء لأن الله لا يكره جزاء أحد ولأن الجزاء لا يلقاه الله ولأنه ان جاز أن يلقى بعض المخلوق كالجزاء او غيره جاز أن يلقى العبد فالمحذور الذى يذكر فى لقاء العبد موجود فى لقائه سائر المخلوقات فهذا تعطيل النص واما ان يقال

بل هو لاق لبعضها فيتناقض قول الجهمى ويبطل ودلائل بطلان هذا القول لا تكاد تحصى يضيق هذا الاستفتاء عن ذكر كثير منها فضلا عن أكثرها [1]

لطائف لغوية

1-قال الله { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ{7} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ{8} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{9} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{13} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14}المطففين7-14 أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضر كما قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ }البقرة286 فبين سبحانه أن كسب النفس لها أو عليها و الناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 466-475

[2] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 387

المطففين18-28

{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28}

النعيم التام هو في الدين الحق

أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذونها دينا أو لا يتخذونها دينا والذين يتخذونها دينا إما أن يكون الدين بها دين حق أو دين باطل فنقول النعيم التام هو في الدين الحق فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل كما أخبر الله بذلك في كتابه في غير موضع كقوله {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 وقوله عن المتقين المهتدين {أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }البقرة5 وقوله تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126} طه123-126 وقوله تعالى {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ{7} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ{8} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{9} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{13} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15} ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ{16} ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{17} كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28} المطففين7-28 وقوله تعالى { فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة38 وقوله تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} الانفطار13-14 ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام [1]

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 138

أهل الجنة نوعان

والواجب أن يعلم أن كل ما اعده الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك هو في الجنة كما أن كل ما وعد به أعداءه هو فى النار وقد قال تعالى {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }السجدة17 وفى الحديث الصحيح عن النبى يقول الله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه وإذا علم أن جميع ذلك فى الجنة فالناس فى الجنة على درجات متفاوتة كما قال {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً }الإسراء21 وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو فى الجنة وطلب الجنة والإستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله وجميع اوليائه السابقين المقربين واصحاب اليمين كما فى السنن أن النبى سأل بعض اصحابه كيف تقول فى دعائك قال أقول اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار أما أنى لاأحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال حولهما ندندن فقد أخبر أنه هو ومعاذ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة فى حياة النبى إنما يدندنون حول الجنة أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ومعاذ ومن يصلى خلفهما من المهاجرين والأنصار ولو طلب هذا العبد ما طلب كان فى الجنة وأهل الجنة نوعان سابقون مقربون وأبرار أصحاب يمين قال تعالى { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28}المطففين 18-28 قال إبن عباس تمزج لأصحاب اليمين مزجا ويشربها المقربون صرفا وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة فقد أخبر أن الوسيلة التى لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله ورجاء ان يكون هو ذلك العبد هى درجة فى الجنة فهل بقى بعد الوسيلة شىء أعلى منها يكون خارجا عن الجنة يصلح للمخلوقين وثبت فى الصحيح ايضا فى حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس فى مجالس الذكر قال فيقولون للرب تبارك وتعالى وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك قال فيقول وما يطلبون قالوا يطلبون الجنة قال فيقول وهل رأوها قال فيقولون لا قال فيقول فكيف لو رأوها قال فيقولون لو رأوها لكانوا أشد لها طلبا قال ومم يستعيذون قالوا يستعيذون من النار قال فيقول وهل رأوها قال فيقولون لا قال فيقول فكيف رأوها قالوا لو رأوها لكانوا أشد منها إستعاذة قال فيقول أشهدكم إنى أعطيتهم ما يطلبون وأعذتهم مما يستعيذون أو كما قال قال فيقولون فيهم فلان الخطآء جاء لحاجة فجلس معهم قال فيقول هم القوم لا يشقى بهم جليسهم فهؤلاء الذين هم من أفضل اولياء الله كان مطلوبهم الجنة ومهربهم من النار والنبى لما بايع الأنصار ليلة العقبة وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشائخ(مشائخ الصوفية) كلهم قالوا للنبى إشترط لربك ولنفسك ولأصحابك قال أشترط لنفسى أن تنصرونى مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم وأشترط لأصحابى أن تواسوهم قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال لكم الجنة قالوا مد يدك فوالله لا نقيلك ولا نستقيلك وقد قالوا له فى اثناء البيعة إن بيننا وبين القوم حبالا وعهودا وأنا ناقضوها فهؤلاء الذين بايعوه من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله وبذلا لنفوسهم وأموالهم فى رضا الله ورسوله على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه ولكن علموا ان فى الجنة كل محبوب ومطلوب بل

وفى الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها هذا وهذا كما قال تعالى {لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ }ق35وقال { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ }الزخرف71 ففيها ما يشتهون وفيها مزيد على ذلك وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه كما قال ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا باب واسع [1]

التوبة نوعان

التوبة نوعان واجبة ومستحبة فالواجبة هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور وهذه واجبة على جميع المكلفين كما أمرهم الله بذلك في كتابه وعلى ألسنة رسله والمستحبة هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين إما الكافرين وإما الفاسقين قال تعالى { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ{7} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ{8} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{9} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{13} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15} ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ{16} ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{17}سورة المطففين 7-17 إلى قوله { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28} المطففين 18-28 قال ابن عباس تمزج لأصحاب اليمين مزجا ويشرب بها المقربون صرفا [2]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

ان اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد ما لا يدخل فيه عند الإقتران بغيره كلفظ البر والإيمان إذا أفرده أدخل فيه الأعمال الصالحة والتقوى كقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ }المطففين22[3]

لفظ البر اذا أطلق تناول جميع ما أمر الله به كما فى قوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14}الانفطار13 -14 وقوله { وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى }البقرة189 وقوله {وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:- 704 و الاستقامة ج: 2 ص: 111 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 250 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 134-135

[22] رسالة في التوبة ج: 1 ص: 227

[3] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 118

وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }البقرة177 فالبر اذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى والتقوى اذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ثم قد يجمع بينهما كما فى قوله تعالى {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى}المائدة2 وكذلك لفظ الأبرار اذا أطلق دخل فيه كل تقى من السابقين والمقتصدين واذا قرن بالمقربين كان أخص قال تعالى فى الأول {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14}الانفطار13 -14 وقال فى الثانى { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} المطففين18-21[1]

أولياء الله هم المؤمنون المتقون

و أولياء الله هم المؤمنون المتقون سواء سمى أحدهم فقيرا أو صوفيا أو فقيها أو عالما أو تاجرا أو جنديا أو صانعا أو أميرا أو حاكما أو غير ذلك قال الله تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {62} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{63}يونس62-63 وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولا بد له منه وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين أصحاب اليمين والمقربين السابقين فالصنف الأول الذين تقربوا إلى الله بالفرائض والصنف الثانى الذى تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى احبهم كما قال تعالى وهذان الصنفان قد ذكرهم الله فى غير موضع من كتابه كما قال {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ }فاطر32 وكما قال الله تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28} المطففين 22-28 قال ابن عباس يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لأصحاب اليمين مزجا وقال تعالى{وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً{17} عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً{18}الإنسان17-18 وقال تعالى { فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{8} وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{9} وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ{10} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ{11}الواقعة8-10 وقال تعالى {فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ{88} فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ{89} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{90} فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{91} الواقعة88-91 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168-169

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 23-24

أولياء الله على طبقتين

وأولياء الله على طبقتين سابقون مقربون وأصحاب يمين مقتصدون ذكرهم الله فى عدة مواضع من كتابه العزيز فى أول سورة الواقعة وآخرها وفى سورة الانسان والمطففين وفى سورة فاطر فانه سبحانه وتعالى ذكر فى الواقعة القيامة الكبرى فى أولها وذكر القيامة الصغرى فى آخرها فقال فى أولها { إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ{1} لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ{2} خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ{3} إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً{4} وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً{5} فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً{6} وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً{7} فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{8} وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{9} وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ{10} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ{11} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{12} ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ{13} وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ{14} الواقعة 1-14 فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التى يجمع الله فيها الأولين والآخرين كما وصف الله سبحانه ذلك فى كتابه فى غير موضع ثم قال تعالى فى آخر السورة { فَلَوْلَا{83} أى فهلا { إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ{83} وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ{84} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ{85} فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87} فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ{88} فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ{89} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{90} فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{91} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ{92} فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ{93} وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ{94} إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ{95} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ{96} الواقعة83-96 وقال تعالى فى سورة الانسان { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً{3} إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً{4} إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً{5} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً{6} يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً{7} وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً{8} إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً{9} إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً{10} فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً{11} وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً{12} الانسان 3-12 الآيات وكذلك ذكر فى سورة المطففين فقال {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ }المطففين7 الى ان قال { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28} المطففين 18-28 وعن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف قالوا يمزج لأصحاب اليمين مزجا ويشرب بها المقربون صرفا وهو كما قالوا فان تعالى قال يشرب بها ولم يقل يشرب منها لأنه ضمن ذلك قوله يشرب يعنى يروى بها فان الشارب قد يشرب ولا يروى فاذا قيل يشربون منها لم يدل على الرى فاذا قيل يشربون بها كان المعنى يروون بها فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها الى مادونها فلهذا يشربون منها صرفا بخلاف اصحاب اليمين فانها مزجت لهم مزجا وهو كما قال تعالى فى سورة الانسان { كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً{5} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً{6} الانسان5-6 فعباد الله هم المقربون المذكورون فى تلك السورة وهذا لأن الجزاء من جنس العمل فى الخير والشر كما قال النبى من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه رواه مسلم فى صحيحه وقال صلى الله عليه وسلم

الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء قال الترمذى حديث صحيح وفى الحديث الآخر الصحيح الذى فى السنن يقول الله تعالى انا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها إسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته وقال ومن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله ومثل هذا كثير وأولياء الله تعالى على نوعين مقربون واصحاب يمين كما تقدم وقد ذكر النبى عمل القسمين فى حديث الأولياء فقال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل اداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فالابرار اصحاب اليمين هم المتقربون اليه بالفرائض يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم ولا يكلفون انفسهم بالمندوبات ولا الكف عن فضول المباحات وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات فلما تقربوا اليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم احبهم الرب حبا تاما كما قال تعالى ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه يعنى الحب المطلق كقوله تعالى {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6- 7 اى انعم عليهم الانعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً }النساء69 فهؤلاء المقربون صارت المباحات فى حقهم طاعات يتقربون بها الى الله عز وجل فكانت اعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفا كما عملوا له صرفا والمقتصدون كان فى اعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه فلم يشربوا صرفا بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه فى الدنيا [1]

من جعل قرب عباده المقربين ليس اليه وانما هو الى ثوابه فهو معطل مبطل

الذين يجعلون الفلسفة هى التشبيه بالاله على قدر الطاقة ويوجد هذا التفسير فى كلام طائفة كأبى حامد الغزالى وامثاله ولا يثبت هؤلاء قربا حقيقيا وهو القرب المعلوم المعقول ومن جعل قرب عباده المقربين ليس اليه وانما هو الى ثوابه واحسانه فهو معطل مبطل وذلك ان ثوابه واحسانه يصل اليهم ويصلون اليه ويباشرهم ويباشرونه بدخوله فيهم ودخولهم فيه بالاكل واللباس فاذا كانوا يكونون فى نفس جنته ونعيمه وثوابه كيف يجعل اعظم الغايات قربهم من احسانه ولا سيما والمقربون هم فوق أصحاب اليمين الابرار الذين كتابهم فى عليين { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28} المطففين 18-28 قال ابن عباس يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لأصحاب اليمين مزجا فقد أخبر ان الأبرار فى نفس النعيم وانهم يسقون من الشراب الذى وصفه الله تعالى ويجلسون على الارائك ينظرون فكيف يقال ان المقربين الذين هم أعلا من هؤلاء بحيث

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 177-180

يشربون صرفها ويمزج لهؤلاء مزجا انما تقريبهم هو مجرد النعيم الذى أولئك فيه هذا مما يعلم فساده بأدنى تأمل[1]

التنافس ليس مذموما مطلقا

ومن امراض القلوب الحسد كما قال بعضهم فى حده انه اذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء فلا يجوز ان يكون الفاضل حسودا لأن الفاضل يجرى على ما هو الجميل وقد قال طائفة من الناس إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود وان لم يصر للحاسد مثلها بخلاف الغبطة فانه تمنى ملها من غير حب زوالها عن المغبوط والتحقيق ان الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان احدهما كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم واذا ابغض ذلك فانه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضا فى قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وان لم يحصل له نفع بزوالها لكن نفعه زوال الألم الذى كان فى نفسه ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة واشده كالمريض الذى عولج بما يسكن وجعه والمرض فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض فان تلك النعمة قد تعود على المحسود واعظم منها وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود والحاسد ليس له غرض فى شئ معين لكن نفسه تكره ما انعم به على النوع ولها قال من قال انه تمنى زوال النعمة فان من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه و النوع الثانى ان يكره فضل ذلك الشخص عليه فيجب أن يكون مثله او افضل منه فهذا حسد وهو الذى سموه الغبطة وقد سماه النبى حسدا فى الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما انه قال لاحسد الا فى اثنتين رجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ورجل اتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق هذا لفظ ابن مسعود ولفظ ابن عمر رجل اتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل اتاه الله مالا فهو ينفق منه فى الحق آناء الليل والنهار وراه البخارى من حديث أبى هريرة ولفظه لاحسد الا فى اثتين رجل اتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار فسمعه رجل فقال ياليتنى أوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا ورجل اتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق فقال رجل ياليتنى اوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه ما يعمل هذا فهذا الحسد الذى نهى عنه النبى الا فى موضعين هو الذى سماه اولئك الغبطة وهو ان يحب مثل حال الغير ويكره ان يفضل عليه فإن قيل اذا لم سمى حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته ان يتفضل عليه ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك فلما كان مبدأ ذلك كراهته ان يتفضل عليه الغير كان حسدا لأنه كراهة تتبعها محبة واما من احب ان ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى احوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شئ ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثانى وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان فى الأمر المحبوب المطلوب كلاهما يطلب ان يأخذه وذلك لكراهية أحدهما ان يتفضل عليه الآخر كما يكره المستبقان كل منهما ان يسبقه الآخر والتنافس ليس مذموما مطلقا بل هو محمود فى الخير قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} المطففين22-26 فأمر المنافس ان ينافس فى هذا

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 12-13

النعيم لا ينافس فى نعيم الدنيا الزائل وهذا موافق لحديث النبى فانه نهى عن الحسد إلا فيمن اوتى العلم فهو يعمل به ويعلمه ومن اوتى المال فهو ينفقه فاما من اوتى علما ولم يعمل به ولم يعلمه او أوتى مالا ولم ينفقه فى طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله فانه ليس فى خير يرغب فيه بل هو معرض للعذاب ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل أدى الأمانات إلى اهلها وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة لكن هذا فى جهاد عظيم كذلك المجاهد فى سبيل الله والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم فلهذا لم يذكره وإن كان المجاهد فى سبيل الله أفضل من الذى ينفق المال بخلاف المنفق والمعلم فان هذين ليس لهم فى العادة عدو من خارج فان قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه فذلك أفضل لدرجتهما وكذلك لم يذكر النبى المصلى والصائم والحاج لأن هذه الأعمال لا يحصل منها فى العادة من نفع الناس الذى يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والانفاق والحيد فى الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة وإلا فالعامل لايحسد فى العادة ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح اكثر من غيره بخلاف هذين النوعين فانهما يحسدان كثيرا ولهذا يوجد بين أهل العلم لهم أتباع من الحسد مالا يوجد فيمن ليس كذلك وكذلك فيمن له اتباع بسبب إنفاق ماله فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين مثلا بهذا ومثلا بهذا فقال {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{75} وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{76} النحل 75-76 والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه فان الأوثان لاتقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع فاذا قدر عبد مملوك لايقدر على شئ وأخر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوى هذا المملوك العاجز عن الاحسان وهذا القادر على الاحسان المحسن إلى الناس سرا وجهرا وهو سبحانه قادر على الاحسان إلى عباده وهو محسن إليهم دائما فكيف يشبه به العاجز المملوك الذى لايقدر على شئ حتى يشرك به معه وهذا مثل الذى اعطاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل والنهار و المثل الثانى إذا قدر شخصان أحدهما ابكم لا يعقل ولا يتكلم ولايقدر على شئ وهو مع هذا كل على مولاة اينما يوجهه لا يأت بخير فليس فيه من نفع قط بل هو كل على من يتولى أمره وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ويعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم وهذا نظير الذى اعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس وقد ضرب ذلك مثلا لنفسه فانه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم كما قال تعالى {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }آل عمران18 وقال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }هود56 ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس كان عبد الله يعلم الناس واخوه يطعم الناس فكانوا يعظمون على ذلك ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال هذا والله الشرف او نحو ذلك هذا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه نافس ابا بكر رضى الله عنه الانفاق كما ثبت فى الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال امرنا رسول الله ان نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت اليوم اسبق ابا بكر ان سبقته يوما قال فجئت بنصف مالى قال فقال لى رسول الله ما ابقيت لاهلك قلت مثله واتى ابو بكر رضى الله عنه بكل ما عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ابقيت لاهلك قال ابقيت لهم الله ورسوله فقلت لا اسابقك الى شئ ابدا فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة لكن حال الصديق رضى الله عنه افضل منه انه خال من المنافسة مطلقا لا ينظر الى حال غيره وكذلك موسى فى حديث المعراج حصل له منافسة وغبطة للنبى حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله

عليه وسلم فقيل له ما يبكيك فقال ابكى لان غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من امته اكثر ممن يدخلها من امتى اخرجاه فى الصحيحين وروى فى بعض الالفاظ المروية غير الصحيح مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته اكرمته وفضلته قال فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال من هذا معك ياجبريل قال هذا احمد قال مرحبا بالنبى الامى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لامته قال ثم اندفعنا فقلت من هذا يا جبريل قال هذا موسى ابن عمران قلت ومن يعاتب قال يعاتب ربه فيك قلت ويرفع صوته على ربه قال إن الله عز وجل قد عرف صدقه وعمر رضى الله عنه كان مشبها بموسى ونبينا حاله افضل من حال موسى فانه لم يكن عنده شيء من ذلك وكذلك كان فى الصحابة ابو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الامور فكانوا ارفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة وإن كان ذلك مباحا ولهذا استحق أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون امين هذه الأمة فإن المؤتمن إذا لم يكن فى نفسه مزاحمة على شئ مما اؤتمن عليه كان احق بالامانة ممن يخاف مزاحمته ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف انه لا يزاحم على الكبرى ويؤتمن على المال من يعرف انه ليس له غرض فى اخذ شئ منه وإذا اؤتمن من فى نفسه خيانة شبه بالذئب المؤتمن على الغنم فلا يقدر ان يؤدى الامانة فى ذلك لما فى نفسه من الطلب لما اؤتمن عليه وفى الحديث الذى رواه الامام احمد فى مسنده عن أنس رضىالله عنه قال كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من اهل الجنة قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبى مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما كان اليوم الثالث قال النبى صلى الله عليه وسلم مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما قام النبى صلى الله عليه وسلم اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه فقال انى لاحيت ابى فاقسمت ان لا ادخل عليه ثلاثا فان رأيت ان تؤينى اليك حتى تمضى الثلاث فعلت قال نعم قال أنس رضى الله عنه فكان عبد الله يحدث انه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير انه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم الى صلاة الفجر فقال عبد الله غير انى لم اسمعه يقول إلا خيرا فلما فرغنا من الثلاث وكدت ان احقر عمله قلت ياعبد الله لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من اهل الجنة فطلعت انت الثلاث مرات فأردت أن آوى اليك لأنظر ما عملك فاقتدى بذلك فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله قال ماهو إلا ما رأيت غير اننى لا أجد على احد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق فقول عبد الله بن عمرو له هذه التى بلغت بك وهى التى لانطيق يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال { وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }الحشر9 اى مما اوتى اخوانهم المهاجرون قال المفسرون لا يجدون فى صدرهم حاجة اى حسدا وغيظا مما اوتى المهاجرون ثم قال بعضهم من مال الفئ وقيل من الفضل والتقدم فهم لا يجدون حاجة مما اوتوا من المال ولا من الجاه والحسد يقع على هذا وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله احب الآخرون ان يفعلوا نظير ذلك فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ }المطففين26 واما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى فى حق اليهود {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ }البقرة109 يودون اى يتمنون ارتدادكم حسدا فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق لأنهم لما رأوا انكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم وكذلك فى الآية الاخرى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن

فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً{54} فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً{55}النساء54 -55 وقال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{2} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ{3} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ{4} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ{5} الفلق1-5 وقد ذكر طائفة من المفسرين انها نزلت بسبب حسد اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم حتى سحروه سحره ليبد بن الاعصم اليهودى فالحاسد المبغض للنعمة على من انعم الله عليه بها ظالم معتد والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهى عن ذلك إلافيما يقربه الى الله فاذا احب ان يعطى مثل ما اعطى مما يقربه الى الله فهذا لا بأس به واعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر الى حال الغير افضل ثم هذا الحسد ان عمل بموجبه صاحب كان ظالما معتديا مستحقا للعقوبة الا ان يتوب وكان المحسود مظلوما مأمورا بالصبر والتقوى فيصبر على اذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه كما قال تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة109 [1]

{ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ }

في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما قال لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق هذا لفظ ابن مسعود ولفظ ابن عمر رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار ورواه البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار فسمعه رجل فقال يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق فقال رجل يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه فإن قيل إذا لم سمي حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه قيل مبدأ هذا الحب هونظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يفضل عليه ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يفضل عليه الغير كان حسدا لأنه كراهة تتبعها محبة وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني وقد يسمى المنافسة فيتنافس الإثنان في الأمر المحبوب المطلوب كلاهما يطلب أن يأخذه وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر والتنافس ليس مذموما مطلقا بل هو محمود في الخير قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} المطففين22-26 فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل وهذا موافق لحديث النبي صلى الله عليه وسلم فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه ومن أوتى المال فهو ينفقه فأما من أوتي علما ولم يعمل به ولم يعلمه أو أوتي مالا ولم ينفقه في طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله فإنه ليس في خير يرغب فيه بل هو معرض للعذاب وعمر بن الخطاب رضي الله عنه نافس أبا بكر رضي الله عنه الإنفاق كما ثبت في الصحيح

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 111-121

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما قال فجئت بنصف مالي قال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قلت مثله وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قال أبقيت لهم الله ورسوله فقلت لا أسابقك إلى شيء أبدا فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل منه وهو خال من المنافسة مطلقا لا ينظر إلى حال غيره وكذلك موسى صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج حصل له منافسة وغبطة للنبي صلى الله عليه وسلم حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له ما يبكيك فقال أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي أخرجاه في الصحيحين وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون ان يفعلوا نظير ذلك فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال تعالى { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } المطففين26[1]

ان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار}التوبة72 فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً }النساء122 الآيات فى هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق بإسم الايمان وكما علق بإسم التقوى واسم البر فى مثل قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ }القمر54 وقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ }المطففين22 وباسم أولياء الله كقوله { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{62} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{64} يونس62-64 فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون فى قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان[2]

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 15-19

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 348

من جحد رؤية الله فى الدار الآخرة فهو كافر

قال تعالى { كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ{7} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ{8} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{9} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{13} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15} ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ{16} ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{17} كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} المطففين 7-24 الذى يجب على كل مسلم اعتقاده أن المؤمنين يرون ربهم فى الدار الآخرة فى عرصة القيامة وبعد ما يدخلون الجنة على ما تواترت به الاحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم عند العلماء بالحديث فانه أخبر انا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر والشمس عند الظهيرة لا يضام فى رؤيته و رؤيته سبحانه هى أعلى مراتب نعيم الجنة وغاية مطلوب الذين عبدوا الله مخلصين له الدين وان كانوا فى الرؤية على درجات على حسب قربهم من الله ومعرفتهم به والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله فى الدار الآخرة فهو كافر فان كان ممن لم يبلغه العلم فى ذلك عرف ذلك كما يعرف من لم تبلغه شرائع الاسلام فان أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة مشهورة قد دون العلماء فيها كتبا مثل كتاب الرؤية للدارقطنى ولأبى نعيم وللآجرى وذكرها المصنفون فى السنة كابن بطة واللالكائى وابن شاهين وقبلهم عبدالله بن أحمد بن حنبل وحنبل بن اسحق والخلال والطبرانى وغيرهم وخرجها أصحاب الصحيح والمساند والسنن وغيرهم [1]

البر سبب هذا الثواب

وأولياء الله الذين هم أولياؤه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون فقد أخبر سبحانه أن أولياءه هم المؤمنون المتقون وقد بين المتقين في قوله تعالى {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }البقرة177 والتقوى هي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه وقد أخبر النبي عن حال أولياء الله وما صاروا به أولياء ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله تبارك وتعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها في يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فقد ذكر في هذا الحديث أن التقرب

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 485

إلى الله تعالى على درجتين إحداهما التقرب إليه بالفرائض والثانية هي التقرب إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض فالأولى درجة المقتصدين الأبرار أصحاب اليمين والثانية درجة السابقين المؤمنين كما قال الله تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28} المطففين 22-28 قال ابن عباس رضي الله عنهما يمزج لأصحاب اليمين مزجا ويشربه المقربون صرفا وقد ذكر الله هذا المعنى في عدة مواضع من كتابه فكل من آمن بالله ورسوله واتقى الله فهو من أولياء الله[1]

للحسنة ضياء في الوجه

قال ابن عباس رضي الله عنه إن للحسنة لنورا في القلب وضياء في الوجه وقوة في البدن وزيادة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وغبرة في الوجه وضعفا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل احد كما قال تعالى إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} المطففين 22- 24 وقال عليه السلام أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم كأشد كوكب في السماء إضاءة[2]

فالنضرة جمال وجوههم والسرور جمال قلوبهم كما قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24}المطففين22-24[3]

الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182}الصافات180 -182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 417 و مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 440

[2] الاستقامة ج: 1 ص: 352

[3] دقائق التفسير ج: 3 ص: 22

المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} المطففين23 [1]

رؤية الله بالأبصار هى للمؤمنين فى الجنة

قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} المطففين22-23

وكل من قال من العباد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأى ربه بعيني رأسه فهو غالط في ذلك بإجماع أهل العلم والإيمان نعم رؤية الله بالأبصار هي للمؤمنين في الجنة وهي أيضا للناس في عرصات القيامة كما تواترت الأحاديث عن النبي حيث قال إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب وكما ترون القمر ليلة البدر صحوا ليس دونه سحاب وقال جنات الفردوس أربع جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن وقال إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول واتفق عليها أهل السنة والجماعة[2]

الْمُقَرَّبُونَ

وقوله من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة فقرب الشىء من الشىء مستلزم لقرب الآخر منه لكن قد يكون قرب الثانى هو اللازم من قرب الاول ويكون منه ايضا قرب بنفسه فالاول كمن تقرب الى مكة أو حائط الكعبة فكلما قرب منه قرب الآخر منه من غير أن يكون منه فعل والثانى كقرب الانسان الى من يتقرب هو اليه كما تقدم فى هذا الاثر الالهى فتقرب العبد الى الله وتقريبه له نطقت له نصوص متعددة مثل قوله {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ }الإسراء57 {فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ }الواقعة88 {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ }المطففين28 { وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ }النساء172 {وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ }آل عمران45 وما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه الحديث وفى الحديث اقرب ما يكون العبد من ربه فى جوف الليل الآخر وقد بسطنا الكلام على هذه الاحاديث ومقالات الناس فى هذا المعنى فى جواب الاسئلة المصرية على الفتيا الحموية فهذا

---

[1] العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 18 ومجموع الفتاوى ج: 3 ص: 137

[2] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 391

قرب الرب نفسه الى عبده وهو مثل نزوله الى السماء الدنيا وفى الحديث الصحيح ان الله يدنو عشية عرفة الحديث فهذا القرب كله خاص وليس فى الكتاب والسنة قط قرب ذاته من جميع المخلوقات فى كل حال فعلم بذلك بطلان قول الحلولية فانهم عمدوا الى الخاص المقيد فجعلوه عاما مطلقا كما جعل اخوانهم الاتحادية ذلك فى مثل قوله كنت سمعه وفى قوله فيأتيهم فى صورة غير صورته وان الله قال على لسان نبيه سمع الله لمن حمده وكل هذه النصوص حجة عليهم فاذا فصل تبين ذلك فالداعى والساجد يوجه روحه الى الله والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب فكون الله عز وجل منها قريبا قربا يلزم من قربها ويكون منه قرب آخر كقربه عشية عرفة وفى جوف الليل والى من تقرب منه شبرا تقرب منه ذراعا وفى الزهد لأحمد عن عمران القصير ان موسى عليه السلام قال يا رب اين أبغيك قال أبغنى عند المنكسرة قلوبهم انى أدنو منهم كل يوم باعا لولا ذلك لانهدموا فقد يشبه هذا قوله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين الى آخره وظاهر قوله { فَإِنِّي قَرِيبٌ }البقرة186 يدل على أن القرب نعته ليس هو مجرد ما يلزم من قرب الداعى والساجد ودنوه عشية عرفة هو لما يفعله الحاج ليلتئذ من الدعاء والذكر والتوبة والا فلو قدر أن أحدا لم يقف بعرفة لم يحصل منه سبحانه ذلك الدنو اليهم فانه يباهى الملائكة بأهل عرفة فاذا قدر أنه ليس هناك أحد لم يحصل فدل ذلك على قربه منهم بسبب قربه تقربهم منهم كما دل عليه الحديث الآخر والناس فى آخر الليل يكون فى قلوبهم من التوجه والتقرب والرقة ما لا يوجد فى غير ذلك الوقت وهذا مناسب لنزوله الى السماء الدنيا وقوله هل من داع هل من سائل هل من تائب ثم ان هذا النزول هل هو كدنوه عشية عرفة معلق بأفعال فان فى بلاد لكفر ليس فيهم من يقوم الليل فلا يحصل لهم هذا النزول كما ان دنوه عشية عرفة لا يحصل لغير الحجاج فى سائر البلاد اذ ليس لها وقوف مشروع ولا مباهاة الملائكة وكما أن تفتيح ابواب الجنة وتغليق ابواب النار وتصفيد الشياطين اذا دخل شهر رمضان انما هو للمسلمين الذين يصومونه لا الكفار الذين لا يرون له حرمة وكذلك اطلاعه يوم بدر وقوله لهم اعملوا ما شئتم كان مختصا بأولئك أم هو عام فيه كلام ليس هذا موضعه والكلام فى هذا القرب من جنس الكلام فى نزوله كل ليلة ودنوه عشية عرفة وتكليمه لموسى من الشجرة وقوله ان بورك من فى النار ومن حولها وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وذكرنا ما قاله السلف فى ذلك كحماد بن زيد واسحاق وغيرهما من أنه ينزل الى السماء الدنيا ولا يخلو منه العرش وبينا أن هذا هو الصواب وان كان طائفة ممن يدعى السنة يظن خلو العرش منه وقد صنف أبو القاسم عبدالرحمن بن منده فى ذلك مصنفا وزيف قول من قال انه ينزل ولا يخلو منه العرش وضعف ما نقل فى ذلك عن أحمد فى رسالة مسدد وقال انها مكذوبة على أحمد وتكلم على راويها البردعى أحمد بن محمد وقال انه مجهول لا يعرف فى اصحاب أحمد وطائفة تقف لا تقول يخلو ولا لا يخلو وتنكر على من يقول ذلك منهم الحافظ عبدالغنى المقدسى واما من يتوهم أن السموات تنفرج ثم تلتحم فهذا من أعظم الجهل وان وقع فيه طائفة من الرجال وأما من لا يعتقد أن الله فوق العرش فهو لا يعتقد نزوله لا بخلو ولا بغير خلو وقال بعض أكابرهم لبعض المثبتين ينزل أمره فقال من عند من ينزل أنت ليس عندك هناك أحد أثبت أنه هناك ثم قل ينزل أمره وهذا نظير قول اسحاق بن راهوية بحضرة الامير عبدالله بن طاهر والصواب قول السلف أنه ينزل ولا يخلو منه العرش وروح العبد فى بدنه لا تزال ليلا ونهارا الى أن يموت ووقت النوم تعرج وقد تسجد تحت العرش وهى لم تفارق جسده وكذلك اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وروحه فى بدنه وأحكام الارواح مخالف لأحكام الأبدان فكيف بالملائكة فكيف برب العالمين والليل يختلف فيكون ثلثه بالمشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب ونزوله الذى أخبر به رسوله الى سماء هؤلاء فى ثلث ليلهم والى سماء

هؤلاء فى ثلث ليلهم لا يشغله شأن عن شأن وكذلك قربه من الداعى المتقرب اليه والساجد لكل واحد بحسبه حيث كان واين كان والرجلان يسجدان فى موضع واحد ولكل واحد قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر[1]

قرب الرب قربا يقوم به بفعله القائم بنفسه

قال الله تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}البقرة186 فهنا هو نفسه سبحانه وتعالى القريب الذى يجيب دعوة الداع لا الملائكة وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا ان الذى تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته وذلك لأن الله سبحانه قريب من قلب الداعى فهو اقرب اليه من عنق راحلته وقربه من قلب الداعى له معنى متفق عليه بين أهل الاثبات الذين يقولون ان الله فوق العرش ومعنى آخر فيه نزاع فالمعنى المتفق عليه عندهم يكون بتقريبه قلب الداعى اليه كما يقرب اليه قلب الساجد كما ثبت فى الصحيح أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فالساجد يقرب الرب اليه فيدنو قلبه من ربه وان كان بدنه على الأرض ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر صار الآخر اليه قريبا بالضرورة وان قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته كما أن من قرب من مكة قربت مكة منه وقد وصف الله انه يقرب اليه من يقربه من الملائكة والبشر فقال {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}النساء172 وقال { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ{10} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ{11}الواقعة11 وقال تعالى { فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ{88} فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ{89} الواقعة 88-89 وقال تعالى {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ }المطففين28 وقال {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ }الإسراء57 وقال {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً }مريم52 وأما قرب الرب قربا يقوم به بفعله القائم بنفسه فهذا تنفيه الكلابية ومن يمنع قيام الأفعال الاختيارية بذاته وأما السلف وأئمة الحديث والسنة فلا يمنعون ذلك وكذلك كثير من اهل الكلام فنزوله كل ليلة الى السماء الدنيا ونزوله عشية عرفة ونحو ذلك هو من هذا الباب ولهذا حد النزول بأنه الى السماء الدنيا وكذلك تكليمه لموسى عليه السلام فانه لو أريد مجرد تقريب الحجاج وقوام الليل اليه لم يخص نزوله بسماء الدنيا كما لم يخص ذلك فى اجابة الداعى وقرب العابدين له قال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ }البقرة186 وقال من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وهذه الزيادة تكون على الوجه المتفق عليه بزيادة تقريبه للعبد اليه جزاء على تقربه باختياره فكلما تقرب العبد باختياره قد شبر زاده الرب قربا اليه حتى يكون كالمتقرب بذراع فكذلك قرب الرب من قلب العابد وهو ما يحصل فى قلب العبد من معرفة الرب والايمان به وهو المثل الأعلى وهذا أيضا لا نزاع فيه وذلك ان العبد يصير محبا لما أحب الرب مبغضا لما ابغض مواليا لمن يوالى معاديا لمن يعادى فيتحد مراده مع المراد المأمور به الذى يحبه الله ويرضاه وهذا مما يدخل فى موالاة العبد لربه وموالاة الرب لعبده فان الولاية ضد العداوة و الولاية تتضمن المحبة والموافقة و العداوة تتضمن البغض والمخالفة وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى أنه قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 241-243

الى عبدى أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن ستعاذنى لأعيذنه وما ترددت فى شىء انا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه فأخبر سبحانه وتعالى أنه يقرب العبد بالفرائض ولا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه الله فيصير العبد محبوبا لله كما قال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ }آل عمران31 وقال تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }المائدة54 وقال تعالى {وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }البقرة195 وقال تعالى { فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }التوبة4 وقال {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }التوبة7 وقال تعالى { إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }البقرة222 وقال تعالى {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ }الصف4 وقال تعالى { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ }التوبة108 وقال تعالى { وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ }آل عمران146[1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ }المطففين28 والباء للإلصاق وهي لا تدخل الا لفائدة فاذا دخلت على فعل يتعدى بنفسه أفادت قدرا زائدا كما في قوله {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ }الإنسان6 فانه لو قيل يشرب منها لم تدل على الري فضمن يشرب معنى يروي فقيل { يَشْرَبُ بِهَا }الإنسان6 فأفاد ذلك أنه شرب يحصل معه الري وباب تضمين الفعل معنى فعل آخر حتى يتعدى بتعديته كقوله { لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ }ص24 وقوله {وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا }الأنبياء77 وقوله {وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ }المائدة49 وأمثال ذلك كثير في القرآن[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص:508- 512

[2] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 54 و مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 123-124

المطففين29-36

{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ{29} وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ{30} وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ{31} وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ{32} وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ{33} فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{34} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{35} هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ{36}

{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ }

والكفار بالرسل من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وقوم إبراهيم وموسى ومشركى العرب والهند والروم والبربر والترك واليونان والكشدانيين وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم واهواءهم ويعرضون عن ذكر الله الذى آتاهم من عنده كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{38} وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{39} البقرة 38-39 وفى موضع آخر { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} طه123-124 الآية وفى أخرى { إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي }الأعراف35 ثم إنهم مع أنهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ويدعون الجدل والكلام والقوة والسلطان والمال ويصفون إتباع المرسلين بأنهم سفهاء واراذل وضلال ويسخرون منهم قال الله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ{29} وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ{30} وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ{31} وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ{32} وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ{33} المطففين29-33 [1]

و مثله فى هذه الأمة كثير يسخرون من المؤمنين و يرمونهم بالجنون و العظائم التى هم أولى بها منهم [2]

ضعفاء الناس هم أتباع الرسل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 11

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 75

كان سعد وابن مسعود وصهيب وبلال وغيرهم من المستضعفين وطلب المشركون من النبي صلى الله عليه وسلم طردهم فنهاه الله عن ذلك وأنزل {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ }الأنعام52 إلى قوله {أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ }الأنعام53 وقوله {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً }الكهف28 وقال في المستضعفين من المؤمنين { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ{29} وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ{30} وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ{31} وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّونَ{32} وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ{33} فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{34} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{35} المطففين 29- 34 وقال {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }البقرة212 وقال {وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ{48} أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ{49} الأعراف 48- 49 وقال { وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ{62} أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ{63} ص 62 63 وقال عن قوم نوح {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ }الشعراء111 وقال تعالى {فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ }هود27 وقال عن قوم صالح { قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ{75} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ{76} الأعراف 75- 76 وفي الصحيحين أن هرقل سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم قال بل ضعفاؤهم قال هم أتباع الرسل [1]

{ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ}

وقال تعالى {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }التوبة79 روى عن ابن عباس أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم فى النار فيسرعون اليه فيغلق ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون اليه فيغلق فيضحك منهم المؤمنون قال تعالى { فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{34} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{35} هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ{36} المطففين34-36 وعن الحسن البصرى اذا كان يوم القيامة خمدت النار لهم كما تخمد الاهالة من القدر فيمشون فيخسف بهم وعن مقاتل اذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب فيبقون فى الظلمة فيقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا [2]

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 544

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 112

الأعمال هى سبب فى الثواب والعقاب

الأعمال هي سبب فى الثواب والعقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب و أنه قدر ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة و إنه علم ذلك كان هذا كذبا و بهتانا بخلاف ما إذا قال {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ }البقرة37 فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة فإنه يكون صادقا فى ذلك و الله سبحانه علم مايكون من آدم قبل أن يكون و هو عالم به بعد أن كان و كذلك كل ما أخبربه من قصص الأنبياء فإنه علم أنه أهلك نوح وعاد وثمود وفرعون و لوط و مدين و غيرهم بذنوبهم و أنه نجى الأنبياء و من إتبعهم بإيمانهم و تقواهم كما قال {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }الأعراف165 و كذلك خبره عما يكون من السعادة و الشقاوة بالأعمال كقوله {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ }الحاقة24 و قوله تعالى {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }الزخرف72 و قو له { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ{29} وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ{30} وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ{31} وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ{32} وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ{33} فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{34} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{35} هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ{36}المطففين29-36 و أمثال هذا فى القرآن كثير جدا بين سبحانه فيما يذكره من سعادة الآخرة و شقاوتها أن ذلك كان بالأعمال المأمور بها و المنهي عنها كما يذكر نحو ذلك فيما يقضيه من العقوبات و المثوبات فى الدنيا أيضا[1]

[11] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 278

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الإنشقاق
84

رقية محمود الغرايبة

§§~الانشقاق(مكية)25~§§

الانشقاق 1-5

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ{1} وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ{2} وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ{3} وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ{4} وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ{5}

القرآن لم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى

فالذي جاءت به السنة مطابق لما في القرآن في المستقبل أخبر تعالى بالقيامة والحسنات والجنة والنار ولم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى بحيث لا يبقى شيء بل أخبر باستحالة العالم قال تعالى {إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ{1} وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ{2} وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ{3} وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ{4} وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ{5} الانشقاق 1-5 وأمثال هذه النصوص التي تبين الإستحالة والتغير على السموات والأرض والجبال وأنها تستحيل أنواعا من الإستحالة لتعدد الأوقات[1]

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ }

و المقصود هنا أنه على هذا الأصل اذا خلق المخلوقات رآها وسمع اصوات عباده وكان ذلك بمشيئته وقدرته اذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم وقد جاء فى القرآن والسنة فى غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ملك كذاب وشيخ زان وعائل مستكبر وكذلك فى الاستماع قال تعالى {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ }الانشقاق2 أى استمعت وقال النبى صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشىء كاذنه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به وقال لله أشد أذنا الى صاحب القرآن من صاحب القينة الى قينته فهذا تخصيص بالاذن وهو الاستماع لبعض الاصوات دون بعض وكذلك سمع الاجابة كقوله سمع الله لمن حمده وقول زكريا{ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء }آل عمران38 وقول الخليل { إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ

---

[1] الصفدية ج: 2 ص: 225

الدُّعَاء } إبراهيم39 وقوله ان ربى سميع قريب يقتضى التخصيص بهذا السمع فهذا التخصيص ثابت فى الكتاب والسنة وهو تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته كما تقدم[1]

أي استمعت أذنا أي استماعا كقوله {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} الانشقاق أي استمعت وقال صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به وقال ليس منا من لم يتغن بالقرآن ولهذا السماع من المواجيد العظيمة والأذواق الكريمة ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة مالا يسعه خطاب ولا يحويه كتاب كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان مالا يحيط به بيان[2]

لطائف لغوية

1-قوله تعالى {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } الانشقاق2 اى استمعت[3]

قال تعالى {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } الانشقاق2 اذن يأذن اذنا اى استمع يستمع استماعا[4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 133

[2] أمراض القلوب ج: 1 ص: 74

[3] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 81 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 75 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 74

[4] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 235

سورة الاتشقاق 6-15

{ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ{6} فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{7} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{8} وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً{9} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ{10} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً{11} وَيَصْلَى سَعِيراً{12} إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً{13} إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ{14} بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً{15}

مصير الخلق كلهم إلى الله

فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ} الانشقاق 6 فأي سبيل سلكها العبد فالى الله مرجعه ومنتهاه لا بد له من لقاء الله ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[1]

لقاء الله معلوم بالاضطرار للمؤمن والكافر

اما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة بعد السلوك والمسير وقالوا ان لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى واحتجوا بآيات اللقاء على من انكر رؤية الله فى الآخرة من الجهمية كالمعتزلة وغيرهم وروى عن عبدالله بن المبارك انه قال فى قوله { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً }الكهف110 ولا يرائى او قال ولا يخبر به أحدا وجعلوا اللقاء يتضمن معنيين أحدهما السير الى الملك والثانى معاينته كما قال {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ }الانشقاق6 فذكر أنه يكدح الى الله فيلاقيه والكدح اليه يتضمن السلوك والسير اليه واللقاء يعقبهما واما المعاينة من غير مسير اليه كمعاينة الشمس والقمر فلا يسمى لقاء وقد يراد باللقاء الوصول الى الشيء والوصول الى الشيء بحسبه ومن دليل ذلك أن الله تعالى قد قال { إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ }الأنفال45 {إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ }الأنفال15[2]

ان القرآن قد أخبر أنه يلقاه الكفار ويلقاه المؤمنون كما قال { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ{6} فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{7} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{8} وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً{9} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ{10} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً{11} وَيَصْلَى سَعِيراً{12} الانشقاق 6-12 وقد تنازع الناس فى الكفار هل يرون ربهم مرة ثم يحتجب عنهم أم لا يرونه

---

[1] دقائق التفسير ج: 3 ص: 152

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 462

بحال تمسكا بظاهر قوله {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 ولأن الرؤية اعظم الكرامة والنعيم والكفار لاحظ لهم فى ذلك وقالت طوائف من أهل الحديث والتصوف بل يرونه ثم يحتجب كما دل على ذلك الاحاديث الصحيحة التى فى الصحيح وغيره من حديث أبى سعيد وابى هريرة وغيرهما مع موافقة ظاهر القرآن قالوا وقوله { لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبوا ودليل ذلك قوله {إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ }المطففين15 فعلم أن الحجب كان يومئذ فيشعر بأنه يختص بذلك اليوم وذلك انما هو فى الحجب بعد الرؤية فأما المنع الدائم من الرؤية فلا يزال فى الدنيا والآخرة قالوا ورؤية الكفار ليست كرامة ولا نعيما اذ اللقاء ينقسم الى لقاء على وجه الاكرام ولقاء على وجه العذاب فهكذا الرؤية التى يتضمنها اللقاء ومما احتجوا به الحديث الصحيح حديث سفيان بن عيينة حدثنا سهيل بن أبى صالح عن ابيه عن ابى هريرة هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر وقد روى مسلم وابو داود وأحمد فى المسند وابن خزيمة فى التوحيد وغيره قال قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية الشمس ليست فى سحابة قالوا لا قال والذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم الا كما تضارون فى رؤية أحدهما قال فيلقى العبد فيقول أى فل الم أكرمك واسودك وازوجك واسخر لك الخيل والابل واذرك ترأس وتربع فيقول بلى يا رب قال فيقول فظننت انك ملاقى فيقول لا فيقول فانى انساك كما نسيتنى ثم قال يلقى الثانى فيقول له مثل ذلك فيقول أى رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع فيقول ههنا اذا قال ثم يقال الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد على فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقى فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل فذلك المنافق ليعذر من نفسه وذلك الذى يسخط الله عليه وتمام الحديث قال ثم ينادى مناد ألا تتبع كل أمة ما كانت تعبد فتتبع الشياطين والصليب اولياؤهم الى جهنم وبقينا ايها المؤمنون فيأتينا ربنا فيقول ما هؤلاء فنقول من عباد الله المؤمنين آمنا بربنا ولم نشرك به شيئا وهو ربنا تبارك وتعالى وهو يأتينا وهو يثبتنا وهو ذا مقامنا حتى يأتينا ربنا فيقول انا ربكم فيقول انطلقوا فننطلق حتى نأتى الجسر وعليه كلاليب من نار تخطف عند ذلك حلت الشفاعة لى اللهم سلم اللهم سلم فاذا جاوزوا الجسر فكل من انفق زوجا من المال فى سبيل الله مما يملك فتكلمه خزنة الجنة تقول يا عبدالله يا مسلم هذا خير فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله ان هذا عبد لا توى عليه يدع بابا ويلج من آخر فضرب كتفه وقال انى أرجو أن تكون منهم قال سفيان بن عيينة حفظته انا وروح بن القاسم ورددده علينا مرتين أو ثلاثا سئل سفيان عن قوله تراس وتربع فقال كان الرجل اذا كان راس القوم كان له الرباع وهو الربع وقال النبى لعدى بن حاتم حيث قال يا رسول الله انى على دين قال أنا أعلم بدينك منك انك مستحل الرباع ولا يحل لك وهذا الحديث معناه فى الصحيحين وغيرهما من وجوه متعددة يصدق بعضها بعضا وفيه أنه سئل عن الرؤية فأجاب بثبوتها ثم اتبع ذلك بتفسيره وذكر أنه يلقاه العبد والمنافق وأنه يخاطبهم وفى حديث ابى سعيد وابى هريرة انه يتجلى لهم فى القيامة مرة للمؤمنين والمنافقين بعد ما تجلى لهم اول مرة ويسجد المؤمنون دون المنافقين وقد بسط الكلام على هذه المسألة فى غير هذا الموضع وأما الجهمية من المعتزلة وغيرهم فيمتنع على أصلهم لقاء الله لأنه يمتنع عندهم رؤية الله فى الدنيا والآخرة وخالفوا بذلك ما تواترت به السنن عن النبى وما اتفق عليه الصحابة وأئمة الاسلام من المؤمنين يرون ربهم فى الاخرة واحتجوا بحجج كثيرة عقلية ونقلية قد بينا فسادها مبسوطا وذكرنا دلالة العقل والسمع على جواز الرؤية وهذه المسألة من الأصول التى كان يشتد نكير السلف والائمة على من خالف فيها وصنفوا فيها مصنفات مشهورة والثانى أن عندهم لا يتصور الكدح اليه ولا العرض عليه ولا الوقوف عليه ولا ان يحبه العبد ولا أن يجده ولا ان يشار

اليه ولا ان يرجع اليه ولا يؤوب اليه اذ هذه الحروف تقتضى ان يكون حال العبد بالنسبة اليه فى الآخرة وبينهما فضل يقتضى تقربا اليه ودنوا منه وان يكون حال العبد بالنسبة اليه مخالف لحاله فى الدنيا وهذا كله محال عندهم فانهم لا يقرون بأن الخالق مباين للمخلوق كما اتفق السلف والأئمة وصرحوا بأنه مباين للخلق ليس داخلا فى المخلوقات ولا المخلوقات داخلة فيه بل تارة يجعلونه حالا بذاته فى كل مكان وتارة يجعلون وجوده عين وجود المخلوقات وتارة يصفونه بالامور السلبية المحضة مثل كونه غير مباين للعالم ولا حال فيه فهم بين أمرين اما أن يصفوه بما يقتضى عدمه وتعطيله فينكرونه وان كانوا يقرون به فيجمعون فى قولهم بين الاقرار والانكار والنفى والاثبات وقد يصرح بعضهم بصحة الجمع بين النقيضين ويقول أن هذا غاية التحقيق والعرفان واما ان يصفوه بما يقتضى انه عين المخلوقات او جزء منها أو صفة لها وذلك أيضا يقتضى قولهم بعدم الخالق وتعطيل الصانع وان كانوا مقرين بوجود موجود غيره وان جعلوه اياه ثم يجدون فى المخلوقات مباينا فى ربوبية المخلوق فيقولون بالجمع بين النقيضين كما تقدم وقد يقولون بعبادة الاصنام وان عباد الاصنام على حق وعباد العجل على حق وانه ما عبد غير الله قط اذ لا غير عندهم بل الوجود واحد ويقولون بامتناع الدعوة اليه وأنه يمكن ان يتقرب اليه ويصل اليه وهم يقولون ما عدم فى البداية فيدعى الى الغاية بل هو عين المدعو فكيف يدعو الى نفسه وكلام السلف والائمة فى ذم الجهمية وتكفيرهم كثير جدا وهؤلاء ومن وافقهم على بعض اقوالهم التى تنفى حقيقة اللقاء يتأولون اللقاء على أن المراد به لقاء جزاء ربهم ويقولون ان الجزاء قد يرى كما فى قوله { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{25} قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{26} فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ{27}الملك 25-27 كنتم به تدعون فان ضمير المفعول فى راوه عائد الى الوعد والمراد به الموعود أى فلما رأوا ما وعدوا سيئت وجوه الذين كفروا ومن قال أن الضمير عائد هنا الى الله فقوله ضعيف وفساد قول الذين يجعلون المراد لقاء الجزاء دون لقاء الله معلوم بالاضطرار بعد تدبر الكتاب والسنة يظهر فساده من وجوه أحدها أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين الثانى أن حذف المضاف اليه يقارنه قرائن فلابد أن يكون مع الكلام قرينة تبين ذلك كما قيل فى قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا}يوسف82 ولو قال قائل رأيت زيدا أو لقيته مطلقا واراد بذلك لقاء ابيه أو غلامه لم يجز ذلك فى لغة العرب بلا نزاع ولقاء الله قد ذكر فى كتاب الله وسنة رسوله فى مواضع كثيرة مطلقا غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء الله لقاء بعض مخلوقاته من جزاء أو غيره الثالث أن اللفظ اذا تكرر ذكره فى الكتاب ودار مرة بعد مرة على وجه واحد وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الاطلاق ولم يبين ذلك كان تدليسا وتلبيسا يجب أن يصان كلام الله عنه الذى أخبر أنه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين وانه بيان للناس واخبر أن الرسول قد بلغه البلاغ المبين وأنه بين للناس ما نزل اليهم واخبر أن عليه بيانه ولا يجوز أن يقال ما فى العقل دلالة على امتناع ارادة هذا المعنى هو القرينة التى دل المخاطبين على الفهم بها لوجهين أحدهما أن يقال ليس فى العقل ما ينافى ذلك بل الضرورة العقلية والبراهين العقلية توافق ما دل عليه القرآن كما قال {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ }سبأ6 وما يذكر من الحجج العقلية المخالفة لمدلول القرآن فهو شبهات فاسدة عند من له خبرة جيدة بالمعقولات دون من يقلد فيها بغير نظر تام الثانى أنه لو فرض أن هناك دليلا عقليا ينافى مدلول القرآن لكان خفيا دقيقا ذا مقدمات طويلة مشكلة متنازع فيها ليس فيها مقدمة متفق عليها بين العقلاء اذ ما يذكر من الادلة العقلية المخالفة لمدلول القرآن هى شبهات فاسدة كلها ليست من هذا الباب ومعلوم ان المخاطب الذى اخبر انه بين للناس وان كلامه بلاغ مبين وهدى للناس اذا اراد بكلامه ما لا يدل عليه ولا يفهم منه الا بمثل

هذه القرينة لم يكن قد بين وهدى بل قد كان لبس واضل وهذا مما اتفق المسلمون على وجوب تنزيه الله ورسوله بل وعامة الصحابة والائمة من ذلك الرابع ان قول النبى فى الحديث المتفق عليه اللهم لك الحمد أنت رب السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد انت قيوم السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد انت نور السموات والأرض ومن فيهن انت الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق اللهم لك اسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت واليك حاكمت وبك خاصمت اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما اسررت وما اعلنت وما أنت أعلم به منى انت الهى لا اله الا أنت وفى لفظ أعوذ بك ان تضلنى انت الحى الذى لا تموت والجن والانس يموتون ففى الحديث فرق بين لقائه وبين الجنة والنار والجنة والنار تتضمن جزاء المطيعين والعصاة فعلم أن لقاءه ليس هو لقاء الجنة والنار الخامس أن النبى ذكر فى غير حديث ما يبين لقاء العبد ربه كما فى الصحيحين عن عدى بن حاتم عن النبى أنه قال ما منكم من أحد الا سيكلمه الله ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر ايمن منه فلا يرى الا شيئا قدمه وينظر اشأم منه فلا يرى الا شيئا قدمه فتستقبله النار فمن استطاع ان يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل فان لم يستطع فبكلمة طيبة الى أمثال ذلك من الاحاديث السادس أنه لو أريد بلقاء الله بعض المخلوقات اما جزاء واما غير جزاء لكان ذلك واقعا فى الدنيا والآخرة فكان العبد لا يزال ملاقيا لربه ولما علم المسلمون بالاضطرار من دين الاسلام ان لقاء الله لا يكون الا بعد الموت علم بطلان ان اللقاء لقاء بعض المخلوقات ومعلوم ان الله قد جازى خلقا على أعمالهم فى الدنيا بخير وشر كما جازى قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وكما جازى الانبياء واتباعهم ولم يقل مسلم ان لقاء هذه الامور فى الدنيا لقاء الله ولو قال قائل ان لقاء الله جزاء مخصوص وهو الجنة مثلا او النار لقيل له ليس فى لفظ هذا لقاء مخصوص ولا دليل عليه وليس هو بأولى من أن يقال لقاء الله تعالى لقاء بعض ملائكته او بعض الشياطين وامثال ذلك من التحكمات الموجودة فى الدنيا والاخرة اذ ليس دلالة اللفظ على تعيين هذا بأولى من دلالته على تعيين هذا فبطل ذلك الوجه السابع أن لقاء الله لم يستعمل فى لقاء غيره لا حقيقة ولا مجازا ولا استعمل لقاء زيد فى لقاء غيره اصلا بل حيث ذكر هذا اللفظ فانما يراد به لقاء المذكور اذ ما سواه لا يشعر اللفظ به فلا يدل عليه الوجه الثامن أن قوله هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً{43} تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً{44} الأحزاب43-44 فلو كان اللقاء هو لقاء جزائه لكان هو لقاء الاجر الكريم الذى اعد لهم واذا اخبر بأنهم يلقون ذلك لم يحسن بعد ذلك الاخبار باعداده اذ الاعداد مقصوده الوصول فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود هذا نزاع بين العى الذى يصان عنه كلام أوسط الناس فضلا عن كلام رب العالمين لا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية وذلك لا يكون الا فى اللقاء المعروف لا فى حصول شىء من النعيم المخلوق الوجه التاسع أن قول النبى فى الحد يث الصحيح من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه أخبر فيه ان الله يحب لقاء عبد ويكره لقاء عبد وهذا يمتنع حمله على الجزاء لأن الله لا يكره جزاء أحد ولأن الجزاء لا يلقاه الله ولأنه ان جاز أن يلقى بعض المخلوق كالجزاء او غيره جاز أن يلقى العبد فالمحذور الذى يذكر فى لقاء العبد موجود فى لقائه سائر المخلوقات فهذا تعطيل النص واما ان يقال بل هو لاق لبعضها

فيتناقض قول الجهمى ويبطل ودلائل بطلان هذا القول لا تكاد تحصى يضيق هذا الاستفتاء عن ذكر كثير منها فضلا عن أكثرها [1]

فسر طائفة من أهل السنة اللقاء فى كتاب الله بالرؤية منهم ابو عبدالله بن بطة الامام قالوا فى قول الله { الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ }الكهف105 وفى قوله {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }العنكبوت5 وفى قول الله { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ{45}الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }البقرة45-46 وفى قوله { قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ }البقرة249 وفى قوله {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ }الأنعام31 ان اللقاء يدل على الرؤية والمعاينة وعلى هذا المعنى فقد استدل المثبتون بقوله سبحانه وتعالى { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ{6} الانشقاق 6 ومن أهل السنة من قال اللقاء اذا قرن بالتحية فهو من الرؤية وقال ابن بطة سمعت أبا عمر الزاهد اللغوى يقول سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى بلغنا يقول فى قوله { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً{43} تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ {44}الأحزاب43-44 أجمع أهل اللغة أن اللقاء ههنا لا يكون الا معاينة ونظرة بالأبصار وأما الفريق الأول فقال بعضهم ليس الدليل من القرآن على رؤية المؤمنين ربهم قوله { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ {44}الأحزاب44 وانما الدليل آيات أخر مثل قوله {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ{22} إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ{23} القيامة 22-23 وقوله {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ }يونس26 وقوله { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23}المطففين 22-23 وقوله {لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ }ق35 [2]

الخطاب للإنسان خطاب للجنس

فإن الإنسان إنما ذكر مخبرا عنه لم يخاطب و الرسول هو الذي أنزل عليه القرآن و الخطاب فى هذه السور له كقوله {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى }الضحى3 و قوله {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }الشرح1 و قوله{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 والإنسان إذا خوطب قيل له {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ }الانفطار6 {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً }الانشقاق6 و أيضا فبتقدير أن يكون خطابا للإنسان يجب أن يكون خطابا للجنس كقوله {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ }الانشقاق6 [3]

الخلق كلهم مرجعهم إلى الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 466-475

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 488

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 285

فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أى طريق سلكوا كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ }الانشقاق6 وقال { وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ }آل عمران28 {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ }الغاشية25 أي إلينا مرجعهم [1]

نشر صحائف الأعمال

وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق فتنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره كما قال سبحانه وتعالى { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{7} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{8} وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً{9} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ{10} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً{11} وَيَصْلَى سَعِيراً{12} الانشقاق 6-12 ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها[2]

من نوقش الحساب عذب

وهو بعد أن وعد بالثواب أو أوجب مع ذلك على نفسه الثواب يمتنع منه خلاف خبره وخلاف حكمه الذي كتبه على نفسه وخلاف موجب أسمائه الحسنى وصفاته العلي ولكن لو قدر أنه عذب من يشاء لم يكن لأحد منعه كما قال تعالى { قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً }المائدة17 وهو سبحانه لو ناقش من ناقشه من خلقه يعذبه كما ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من نوقش الحساب عذب قالت قلت يا رسول الله أليس الله يقول { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{7} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{8}الانشقاق 7 -8 فقال ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا لهم من أعمالهم وهذا قد يقال لأجل المناقشة في الحساب والتقصير في حقيقة الطاعة وهو قول من يجعل الظلم مقدورا غير واقع وقد يقال بأن الظلم لا حقيقة له وأنه مهما قدر من الممكنات لم يكن ظلما والتحقيق أنه إذا قدر أن الله فعل ذلك فلا يفعله إلا بحق لا يفعله وهو ظالم لكن إذا لم يفعله فقد يكون ظلما يتعالى الله عنه [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 211

[22] العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 33

[3] منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 468-470

ولهذا جاء في حديث الشفاعة الصحيح إذا طلبت الشفاعة من أفضل الخلق آدم ونوح وإبراهيم وموسى واعتذر كل منهم بما فعل قال لهم عيسى اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولهذا قال في الحديث لما قيل له ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بعفوه فتبين بهذا الحديث أنه لا بد من عفو الله وتجاوزه عن العبد وإلا فلو ناقشه على عمله لما استحق به الجزاء[1]

كان المسلمون يوردون الأسئلة على النبى صلى الله عليه وسلم

أن المؤمنين كانوا يسألونه عن أدنى شبهة تقع في القرآن حتى نساؤه فراجعته عائشة في قوله من نوقش الحساب عذب وذكرت قوله تعالى {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{7} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{8}الانشقاق7-8 حتى قال لها ذلك العرض[2]

وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه صلى الله عليه وسلم كما أورد عليه عمر عام الحديبية لما صالح المشركين ولم يدخل مكة فقال له ألم تكن تحدثنا أن نأتي البيت ونطوف به قال بلى اقلت لك أنك تأتيه في هذا العام قال لا قال فإنك آتيه ومطوف به وكذلك أجابه أبو بكر ولم يكن سمع جواب النبي صلى الله عليه وسلم له معلوم أنه ليس في ظاهر اللفظ توقيت ذلك بعام ولكن السائل ظن ما لا يدل اللفظ عليه [3]

تعلمنا القرآن و العلم و العمل جميعا

أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة فى آية أو حديث سأل عن ذلك كما سأله عمر فقال ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت و نطوف به و سأله أيضا عمر ما بالنا نقصر الصلاة و قد أمنا و لما نزل قوله { وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ }الأنعام82 شق عليهم و قالوا أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم و لما نزل قوله {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ }البقرة284 شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك و لما قال النبى صلى الله عليه و سلم من نوقش الحساب عذب قالت عائشة ألم يقل الله {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً }الانشقاق8 قال إنما ذلك العرض قالوا و الدليل على ما قلناه إجماع السلف فإنهم فسروا جميع القرآن و قال مجاهد عرضت المصحف على إبن عباس من فاتحته الى خاتمته أقفه عند كل آية و أسأله عنها و تلقوا ذلك عن النبى صلى الله عليه و سلم كما قال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان و عبدالله بن مسعود و غيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم و العمل قالوا فتعلمنا القرآن و العلم و العمل جميعا [4]

---

[1] رسالة في دخول الجنة ج: 1 ص: 150

[2] الصفدية ج: 1 ص: 140

[33] الجواب الصحيح ج: 1 ص: 227

[4] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 395-396

الخلق غير المخلوق

وأما أفعاله المتعدية إلى المفعول به الحادثة كقوله {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً}الانشقاق8 ومثل هذا كثير في القرآن والاحتجاج به ظاهر على قول الجمهور الذين يجعلون الخلق غير المخلوق وهو الصواب فإن الذين يقولون الخلق هو المخلوق قولهم فاسد وقد بينا فساده في غير هذا الموضع وشبهتهم أنه لو كان غيره لكان إن كان قديما لزم قدم المخلوق وإن كان محدثا احتاج إلى خلق آخر فيلزم التسلسل وإن كان قائما به فيكون محلا للحوادث وقد أجابهم الناس عن هذا كل قوم بجواب بين فساد قولهم وطائفة منعت قدم المخلوق كالإرادة فإنهم سلموا أنها قديمة مع حدوث المراد وطائفة منعت قيامه به وقالت لا يقوم به الخلق فلا يكون محلا للحوادث فإذا قالوا إن الخلق هو المخلوق ولا يقوم به فلان يجوز أن يكون غير المخلوق ولا يقوم به أولى وطائفة قالت لا نسلم أنه إذا افتقر المخلوق المنفصل إلى خلق أن يفتقر ما يقوم به من الخلق إلى خلق آخر بل يكتفي فيه القدرة والمشيئة فإنكم إذا جوزتم وجود الحادث الذي يباينه بمجرد القدرة والمشيئة فوجود مالا يباينه بها أولى بالجواز وهؤلاء وغيرهم يمانعونهم في قيام الحوادث به[1]

لطائف لغوية

1-اما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة بعد السلوك والمسير وقالوا ان لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى واحتجوا بآيات اللقاء على من انكر رؤية الله فى الآخرة من الجهمية كالمعتزلة وغيرهم وروى عن عبدالله بن المبارك انه قال فى قوله { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً }الكهف110 ولا يرائى او قال ولا يخبر به أحدا وجعلوا اللقاء يتضمن معنيين أحدهما السير الى الملك والثانى معاينته كما قال {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ }الانشقاق6 فذكر أنه يكدح الى الله فيلاقيه والكدح اليه يتضمن السلوك والسير اليه واللقاء يعقبهما واما المعاينة من غير مسير اليه كمعاينة الشمس والقمر فلا يسمى لقاء وقد يراد باللقاء الوصول الى الشيء والوصول الى الشيء بحسبه ومن دليل ذلك أن الله تعالى قد قال { إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ }الأنفال45 {إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ }الأنفال15[2]

2-قال تعالى { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ{10} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً{11} وَيَصْلَى سَعِيراً{12} الانشقاق10-12 صلى النار و اصطلابها لما فيه من المماسة و المقاربة [3]

3-قال تعالى { بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً }الانشقاق15 بصير منزه عن العمى [4]

---

[1] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 66

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 462

[3] شرح العمدة ج: 4 ص: 27

[4] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الانشقاق 16-25

{ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ{16} وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ{17} وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ{18} لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ{19} فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ{22} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ{23} فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{24} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{25}

{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ }

و عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه و سلم قال وقت المغرب ما لم يسقط ثور الشفق رواه احمد و مسلم و النسائي و أبو داود و لفظه فور الشفق و ثور الشفق ثوران حمرته و فوره فورانه و سطوعه و هذا إنما يكون في الشفق الأحمر و لأن الأحمر أظهر في الإستعمال من الشفق الأبيض قال الفراء سمعت بعض العرب يقول عليه ثوب كأنه الشفق و كان احمر و لهذا فسر اكثر الناس قوله تعالى {فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ }الانشقاق16 بالحمرة و ما قبلها من النهار و فهم اكثر الصحابة و أكابرهم من الشفق الحمرة قال عمر و ابن عمر و ابن عباس و أبو هريرة رضي الله عنهم الشفق الحمرة و قال عبادة بن الصامت و شداد بن اوس الشفق شفقان الحمرة و البياض فإذا غابت الحمرة حلت الصلاة[1]

أما وقت العشاء فهو مغيب الشفق الأحمر لكن فى البناء يحتاط حتى يغيب الأبيض فإنه قد تستتر الحمرة بالجدران فإذا غاب البياض تيقن مغيب الأحمر هذا مذهب الجمهور كمالك والشافعى وأحمد وأما أبوحنيفة فالشفق عنده هو البياض[2]

يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار

الايمان قولا وعملا ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا فى قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج الى بيته فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق فى القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح

---

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 176

[2] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 93

ولهذا انما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار كقوله { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ{42} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ{43}القلم 42-43 وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما فى الحديث الطويل حديث التجلي أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط وثبت أيضا فى الصحيح أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء الا موضع السجود فان الله حرم على النار أن تأكله فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله وكذلك ثبت فى الصحيح أن النبى يعرف أمته يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فدل على أن من لم يكن غرا محجلا لم يعرفه النبى فلا يكون من أمته وقوله تعالى { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{45} كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ{46} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{47} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ{48} المرسلات 45-48 وقوله تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ{22} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ{23} الانشقاق 20-23 وكذلك قوله تعالى { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32} القيامة 31-32 وكذلك قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} المدثر 42-46 فوصفه بترك الصلاة كما وصفه بترك التصديق ووصفه بالتكذيب والتولي و المتولي هو العاصي الممتنع من الطاعة كما قال تعالى {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }الفتح16 وكذلك وصف أهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين وكذلك قرن التكذيب بالتولي فى قوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق 9-16 أيضا فى القرآن علق الاخوة فى الدين على نفس اقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما علق ذلك على التوبة من الكفر فاذا انتفي ذلك انتفت الاخوة و أيضا فقد ثبت عن النبى أنه قال العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر وفى المسند من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه الذمة و أيضا فإن شعار المسلمين الصلاة ولهذا يعبر عنهم بها فيقال اختلف أهل الصلاة وإختلف أهل القبلة والمصنفون لمقالات المسلمين يقولون مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين وفى الصحيح من صلى صلاتنا وإستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ما لنا وعليه ما علينا وأمثال هذه النصوص كثيرة فى الكتاب والسنة[1]

الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن على المؤمنين

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن على الإنس و الجن فقد قرأ على الجن القرآن و كان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام و يقرأ عليهم القرآن و يقرأه على الناس فى الصلاة و غير الصلاة قال تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص:611- 613

يَسْجُدُونَ{21}الانشقاق20-21 و قال تعالى { إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً }مريم58 و قال تعالى{ لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ }آل عمران164 و ذكر مثل هذا فى غير موضع فهو يتلو على المؤمنين آيات الله [1]

سجود القرآن

فى سجود القرآن وهو نوعان خبر عن أهل السجود ومدح لهم أو أمر به وذم على تركه وفى الانشقاق أمر صريح عند سماع القرآن { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21}الانشقاق20-21 فالستة الأول الى الأولى من الحج خبر ومدح والتسع البواقى من الثانية من الحج أمر وذم لمن لم يسجد الا ص فنقول قد تنازع الناس فى وجوب سجود التلاوة قيل يجب وقيل لا يجب وقيل يجب اذا قرئت السجدة فى الصلاة وهو رواية عن أحمد والذى يتبين لى أنه واجب فان الآيات التى فيها مدح لا تدل بمجردها على الوجوب لكن آيات الأمر والذم والمطلق منها قد يقال إنه محمول على الصلاة كالثانية من الحج والفرقان واقرأ وهذا ضعيف فكيف وفيها مقرون بالتلاوة كقوله {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }السجدة15 فهذا نفى للايمان بالآيات عمن لا يخر ساجدا اذا ذكر بها واذا كان سامعا لها فقد ذكر بها وكذلك سورة الانشقاق {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21} الانشقاق 20-21 وهذا ذم لمن لا يسجد اذا قرىء عليه القرآن كقوله {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ }المدثر49 {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ }الحديد8 { فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً }النساء78 وكذلك سورة النجم قوله{ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ{59} وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ{60} وَأَنتُمْ سَامِدُونَ{61} فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا{62}النجم 59-62 أمر بالغا عقب ذكر الحديث الذى هو القرآن يقتضى أن سماعه سبب الأمر بالسجود لكن السجود المأمور به عند سماع القرآن كما أنه ليس مختصا بسجود الصلاة فليس هو مختصا بسجود التلاوة فمن ظن هذا أو هذا فقد غلط بل هو متناول لهما جميعا كما بينه الرسول فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه فالسجود عند سماع آية السجدة هو سجود مجرد عند سماع آية السجدة سواء تليت مع سائر القرآن أو وحدها ليس هو سجودا عند تلاوة مطلق القرآن فهو سجود عند جنس القرآن وعند خصوص الأمر بالسجود فالأمر يتناوله وهو أيضا متناول لسجود القرآن أيضا وهو أبلغ[2]

القرآن موجب لمسمى السجود الشامل لجميع أنواعه

وفى قوله تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21}الانشقاق20-21 فهذا يتناول جميع القرآن وأنه من قرىء عليه القرآن فهو مأمور بالسجود والمصلى قد قرىء عليه القرآن وذلك سبب للأمر بالسجود فلهذا يسمع القرآن ويسجد الامام والمنفرد يسمع قراءة نفسه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 481-682

[2] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 139

وهو يقرأ على نفسه القرآن وقد يقال لا يصلون لكن قوله {خَرُّوا سُجَّداً }السجدة15 صريح فى السجود المعروف لاقترانه بلفظ الخرور وأما هذه الآية ففيها نزاع قال ابو الفرج {وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ }الانشقاق21 فيه قولان أحدهما لا يصلون قاله عطاء وابن السائب والثانى لا يخضعون له ولا يستكينون له قاله ابن جرير واختاره القاضى أبو يعلى قال واحتج بها قوم على وجوب سجود التلاوة وليس فيها دلالة على ذلك وانما المعنى لا يخشعون الا ترى أنه اضاف السجود الى جميع القرآن والسجود يختص بمواضع منه قلت القول الأول هو الذى يذكره كثير من المفسرين لا يذكرون غيره كالثعلبى والبغوى وحكوه عن مقاتل والكلبى وهو المنقول عن مفسرى السلف وعليه عامة العلماء وأما القول الثانى فما علمت أحدا نقله عن أحد من السلف والذين قالوه انما قالوه لما رأوا أنه لا يجب على كل من سمع شيئا من القرآن أن يسجد فأرادوا أن يفسروا الآية بمعنى يجب فى كل حال فقالوا يخضعون ويستكينون فان هذا يؤمر به كل من قرىء عليه القرآن ولفظ السجود يراد به مطلق الخضوع والاستكانة كما قد بسط هذا فى مواضع لكن يقال لهم الخضوع مأمور به وخضوع الانسان وخشوعه لا يتم الا بالسجود المعروف وهو فرض فى الجملة على كل أحد وهو المراد من السجود المضاف الى بنى آدم حيث ذكر فى القرآن اذ هو خضوع الآدمى للرب والرب لا يرضى من الناس بدون هذا الخضوع اذ هو غاية خضوع العبد ولكل مخلوق خضوع بحسبه هو سجوده وأما ان يكون سجود الانسان لا يراد به الا خضوع ليس فيه سجود الوجه فهذا لا يعرف بل يقال هم مأمورون اذا قرىء عليهم القرآن بالسجود وان لم يكن السجود التام عقب استماع القرآن فانه لابد أن يكون بين صلاتين فاذا قاموا الى الصلاة فقد أتوا بالسجود الواجب عليهم وهم لما قرىء عليهم حصل لهم نوع من الخضوع والخشوع باعتقاد الوجوب والعزم على الامتثال فاذا اعتقدوا وجوب الصلاة وعزموا على الامتثال فهذا مبدأ السجود المأمور به ثم اذا صلوا فهذا تمامه كما قال فى المشركين { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }التوبة5 فهم اذا تابوا والتزموا الصلاة كف عن قتالهم فهذا مبدأ اقامتها ثم اذا فعلوها فقد أتموا اقامتها وأما اذا التزموها بالكلام ولم يفعلوا فانهم يقاتلون ومما يدل على ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سجد بها فى الصلاة ففى الصحيحين عن أبى رافع قال صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ اذا السماء انشقت فسجد فقلت ما هذه قال سجدت بها خلف أبى القاسم ولا أزال اسجد بها حتى ألقاه وهذا الحديث قد اتفق العلماء على صحته وأما سجوده فيها فرواه مسلم دون البخارى والسجود فيها قول جمهور العلماء كأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم وهو قول ابن وهب وغيره من اصحاب مالك فكيف يقال ان لفظ السجود فيها لم يرد به الا مطلق الخضوع والاستكانة وأما السجود المعروف فلم يدل عليه اللفظ ولو كان هذا صحيحا لم يكن السجود الخاص مشروعا اذا تليت لا سيما فى الصلاة وبهذا يظهر جواب من أجاب من احتج بها على وجوب سجود التلاوة بأن المراد الخضوع فان قيل فاذا فسر السجود بالصلاة كما قاله الاكثرون لم يجب سجود التلاوة قيل الصلاة مرادة من جنس قراءة القرآن كما تقدم وهذه الآية توجب على من قرىء عليه القرآن أن يسجد فان قرىء عليه خارج الصلاة فعليه أن يسجد قريبا اذا حضر وقت الصلاة فانه ما من ساعة يقرأ عليه فيها القرآن الا هو وقت صلاة مفروضة فعليه أن يصليها اذ بينه وبين وقت الصلاة المفروضة أقل من نصف يوم فاذا لم يصل فهو ممن اذا قرىء عليه القرآن لا يسجد فان قرىء عليه القرآن فى الصلاة فعليه أن يسجد سجدة يخر فيها من قيام وسجدة يخر فيها من قعود وكل منهما بعد ركوع كما بينه الرسول وأما السجود عند تلاوة هذه الآية فهو السجود الخاص وهو سجود التلاوة وهذا سجود مبادر اليه عند سماع هذه الآية فانها أمرته أن يسجد اذا قرىء عليه القرآن فمن تمام المبادرة أن يسجد عند سماعها سجود التلاوة ثم يسجد عند

تلاوة غيرها كما تقدم فان هذه الآية تأمر بالسجود اذا قرىء عليه هى أو غيرها فهى الآمرة بالسجود عند قراءة القرآن دون سائر الآيات التى لا يسجد عندها فكان لها حض من الأمر بالسجود مع عموم كونها من القرآن فتخص بالسجود لها ويسجد فى الصلاة اذا قرئت كما يسجد اذا قرىء غيرها وبهذا فسرها النبى فانه سجد بها فى الصلاة وفعله اذا خرج امتثالا لأمر أو تفسيرا لمجمل كان حكمه حكمه فدل ذلك على وجوب السجود الذى سجده عند قراءة هذه السورة لا سيما وهو فى الصلاة والصلاة مفروضة واتمامها مفروض فلا تقطع الا بعمل هو أفضل من اتمامها فعلم أن سجود التلاوة فيها أفضل من اتمامها بلا سجود ولو زاد فى الصلاة فعلا من جنسها عمدا بطلت صلاته وهنا سجود التلاوة مشروع فيها وعن أحمد فى وجوب هذا السجود فى الصلاة روايتان والأظهر الوجوب كما قدمناه لوجوه متعددة منها أن نفس الأئمة يؤمرون أن يصلوا كما صلى النبى وهو هكذا صلى والله أعلم وقوله { لَا يَسْجُدُونَ }الانشقاق21 ولم يقل لا يصلون يدل على أن السجود مقصود لنفسه وأنه يتناول السجود فى الصلاة وخارج الصلاة فيتناول أيضا الخضوع والخشوع كما مثل فالقرآن موجب لمسمى السجود الشامل لجميع أنواعه فما من سجود الا والقرآن موجب له ومن لم يسجد اذا قرىء عليه مطلقا فهو كافر ولكن لا يجب كل سجود فى كل وقت بل هو بحسب ما بينه رسول الله ولكن الآية دلت على تكرار السجود عند تكرار قراءة القرآن عليه وهذا واجب اذا قرىء عليه القرآن فى الصلاة وخارج الصلاة كما تقدم والله أعلم وأما الأمر المطلق بالسجود فلا ريب أنه يتناول الصلوات الخمس فانها فرض بالاتفاق ويتناول سجود القرآن لأن النبى سن السجود فى هذه المواضع فلابد أن يكون ما تلى سببا له والا كان أجنبيا والمذكور انما هو الأمر فدل على أن هذا السجود من السجود المأمور به والا فكيف يخرج السجود المقرون بالأمر عن الأمر وهذا كسجود الملائكة لآدم لما أمروا وهكذا جاء فى الحديث الصحيح اذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكى يقول يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار رواه مسلم والنبى ذكر هذا ترغيبا فى هذا السجود فدل على أن هذا السجود مأمور به كما كان السجود لآدم لأن كلاهما أمر وقد سن السجود عقبه فمن سجد كان متشبها بالملائكة ومن أبى تشبه بابليس بل هذا سجود لله فهو أعظم من السجود لآدم وهذا الحديث كاف فى الدلالة على الوجوب وكذلك الآيات التى فيها الأمر المقيد والأمر المطلق أيضا [1]

وجوب الركوع والسجود فى الكتاب والسنة

فإن الله تعالى أوجب الركوع والسجود فى الكتاب والسنة وهو واجب بالإجماع لقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا }الحج77 وقوله تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21}الانشقاق20-21 [2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 150-156

[2] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 566

العمل الظاهر لازم للعمل الباطن

قال تعالى {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }الانشقاق25 أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [1]

الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا

قال تعالى {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }الانشقاق25 أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ }البقرة98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ }الأحزاب7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ }محمد2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا }محمد2 وهذه نزلت فى الصحابةوغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ }البقرة238

وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيصا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عمن سواهم [1]

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }التوبة33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }الانشقاق25 [2]

لطائف لغوية

1-لفظ البشارة عند الإطلاق إنما تناول الإخبار بما يسر فالبشارة بالخير وأما مع التقييد فقد قال تعالى {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }الانشقاق24[3]

2-قال تعالى {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }الانشقاق24 وعذابه اسم جامع لكل شر ودار العذاب الخالص هى النار [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

[3] مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 306 و مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 573

[4] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة البروج
85

رقية محمود الغرايبة

§§~البروج(مكية)22~§§

سورة البروج 1-10

{ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ{1} وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ{2} وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ{3} قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ{4} النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ{5} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ{6} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ{7} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{8} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{9} إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ{10}

إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا{ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ{1} وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ{2} وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ{3}سورة البروج 1-3 فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم [1]

الله سبحانه المستحق للمحامد الكاملة

قال تعالى { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }البروج8 اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو فى نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهى امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذى منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب [1]

اصحاب الاخدود

وقد اخرجا في الصحيحين عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسط بردة له في ظل الكعبة فقلنا يا رسول الا تستنصر لنا الا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تعجلون ومعلوم ان هذا انما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في معرض الثناء على اولئك لصبرهم وثباتهم وليكون ذلك عزة للمؤمنين من هذه الامة وقد دل على ذلك ايضا ما ذكره الله في قصة اصحاب الاخدود حيث قال {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ }البروج10 وقد روى مسلم في صحيحه عن صهيب قصتهم مبسوطة فيها ان الراهب صبر حتى قتل وان الغلام امر بقتل نفسه لما علم ان ذلك سبب لايمان الناس إذا رأوا تلك الآية وأن الناس لما آمنو فتنهم الكفار حتى يرجعوا عن دينهم فلم يرجعوا حتى ان المرأة التي ارادت ان ترجع انطق الله صبيها وقال اصبري يا اماه فإنك على الحق قال تعالى { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ{4} النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ{5} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ{6} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ{7} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{8} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{9} إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ{10} البروج4-10 [2]

{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }

قوله سبحانه وتعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا }البروج10 وكانت فتنتهم انهم القوهم في النار حتى يكفروا [3]

تقبل توبة العبد من جميع الذنوب الشرك فما دونه

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 84

[2] الاستقامة ج: 2 ص: 332

[3] الصارم المسلول ج: 3 ص: 920

وفي صحيح مسلم عنه ايضا من حديث ابي هريرة قال والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم ونحوه في الصحيح من رواية ابي ايوب وقال لعائشة لما قيل فيها الإفك يا عائشة ان كنت الممت بذنب فاستغفري الله وتوبى اليه فإن العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه وان كنت برئية فسيبرئك الله وفي الصحيح عن جندب ان النبي صلى الله عليه وسلم حدث ان رجلا قال لا يغفر الله لفلان وان الله قال من الذي يتألى على اني لا أغفر لفلان فإني قد غفرت لفلان واحبطت عملك وقال الترمذي وابن ماجة عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون وقال ان العبد اذا اذنب نكتت في قلبه نكته سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وان زاد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى فيه كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون سورة المطففين 14 وفي صحيح مسلم عن ابي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وهذا الباب واسع والله تعالى يقبل توبة العبد من جميع الذنوب الشرك فما دونه كما قال تعالى{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ }البروج10[1]

الله يتوب على أئمة الكفر اذا تابوا

قوله يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا وفى رواية وأنا اغفر الذنوب ولا أبالى فاستغفرونى أغفر لكم فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان أحدهما المغفرة لمن تاب كما فى قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ{53} وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{54}الزمر53-54 فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت فإن الله سبحانه وتعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب وقد دخل فى هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه قال تعالى{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ }التوبة5 إلى قوله {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ}التوبة5 وقال فى الآية الأخرى {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }التوبة11 وقال {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ }المائدة73 إلى قوله {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }المائدة74 وهذا القول الجامع بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم وإن كان من الناس من يستثنى بعض الذنوب كقول بعضهم إن توبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطنا للحديث الإسرائيلى الذى فيه فكيف من أضللت وهذا غلط فإن الله قد بين فى كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على ائمة الكفر الذين هم اعظم من أئمة البدع وقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ }البروج10 قال الحسن البصرى إنظروا إلى هذا الكرم عذبوا أولياءه وفتنوهم ثم هو يدعوهم إلى التوبة وكذلك توبة القاتل ونحوه وحديث أبى سعيد المتفق عليه فى الذى قتل تسعة وتسعين نفسا يدل على قبول توبته وليس فى الكتاب والسنة ما ينافى ذلك ولا نصوص الوعيد فيه وفى غيره من

---

[11] الاستقامة ج: 2 ص: 193

الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة فليست آية الفرقان بمنسوخة بآية النساء إذ لا منافاة بينهما فإنه قد علم يقينا أن كل ذنب فيه وعيد فإن لحوق الوعيد مشروط بعدم التوبة إذ نصوص التوبة مبينة لتلك النصوص كالوعيد فى الشرك واكل الربا واكل مال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب ومن قال من العلماء توبته غير مقبولة فحقيقة قوله التى تلائم أصول الشريعة أن يراد بذلك أن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا حق ولا فرق فى ذلك بين القاتل وسائر الظالمين فمن تاب من ظلم لم يسقط بتوبته حق المظلوم لكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته وإن لم يعوضه فى الدنيا فلا بد له من العوض فى الآخرة فينبغى للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا إستوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلسا ومع هذا فإذا شاء الله ان يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما إذا شاء أن يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ولهذا فى حديث القصاص الذى ركب فيه جابر بن عبدالله إلى عبدالله بن أنيس شهرا حتى شافهه به وقد رواه الإمام أحمد وغيره وإستشهد به البخارى فى صحيحه وهو من جنس حديث الترمذى صحاحه أو حسانه قال فيه إذا كان يوم القيامة فإن الله يجمع الخلائق فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار قبله مظلمة ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا لأحد من أهل الجنة حتى اقصه منه فبين فى الحديث العدل والقصاص بين اهل الجنة واهل النار وفى صحيح مسلم من حديث ابى سعيد ان أهل الجنة إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا اذن لهم فى دخول الجنة وقد قال سبحانه وتعالى لما قال { وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً}الحجرات12 والإغتياب من ظلم الأعراض قال { أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ }الحجرات12 فقد نبههم على التوبة من الإغتياب وهو من الظلم وفى الحديث الصحيح من كان عنده لأخيه مظلمة فى دم أو مال أو عرض فليأته فليستحل منه قبل أن ياتى يوم ليس فيه درهم ولا دينار إلا الحسنات والسيئات فإن كان له حسنات وإلا اخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم يلقى فى النار أو كما قال وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فاما إذا إغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك فقد قيل من شرط توبته إعلامه وقيل لا يشترط ذلك وهذا قول الأكثرين وهما روايتان عن أحمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والإستغفار وعمل صالح يهدى إليه يقوم مقام إغتيابه وقذفه قال الحسن البصرى كفارة الغيبة أن تستغفر لمن إغتبته وأما الذنوب التى يطلق الفقها ء فيها نفى قبول التوبة مثل قول أكثرهم لا تقبل توبة الزنديق وهو المنافق وقولهم إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله وكذلك قول كثير منهم أو أكثرهم فى سائر الجرائم كما هو احد قولى الشافعى واصح الروايتين عن أحمد وقولهم فى هؤلاء إذا تابوا بعد الرفع إلى الإمام لم تقبل توبتهم فهذا إنما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم أى لا تقبل توبتهم بحيث يخلى بلا عقوبة بل يعاقب أما لأن توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها ولما لأن رفع العقوبة بذلك يفضى إلى إنتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم ولا يريدون بذلك إن من تاب من هؤلاء توبة صحيحة فإن الله لا يقبل توبته فى الباطن إذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء بل هذه التوبة لا تمنع إلا إذا عاين أمر الآخرة كما قال تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً {17} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ {18}النساء17-18 الآية قال أبو العالية سألت اصحاب محمد عن ذلك فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وأما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذى قال أنا الله فلما

أدركه الغرق { قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ }يونس90 قال الله تعالى {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }يونس91 وهذا استفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها فإن استفهام الإنكار إما بمعنى النفي إذا قابل الأخبار وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء وهذا من هذا ومثله قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{83} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ{84} فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا {85} غافر 83-85 الآية بين أن التوبة بعد رؤية البأس لاتنفع وأن هذه سنة الله التي قد خلت في عباده كفرعون وغيره وفي الحديث إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر وروي ما لم يعاين وقد ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم عرض على عمه التوحيد في مرضه الذي مات فيه وقد عاد يهوديا كان يخدمه فعرض عليه الإسلام فأسلم فقال الحمد لله الذي أنقذه بي من النار ثم قال لأصحابه آووا أخاكم ومما يبين أن المغفرة العامة في الزمر هي للتائبين أنه قال في سورة النساء {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ }النساء116 فقيد المغفرة بما دون الشرك وعلقها على المشيئة وهناك أطلق وعمم فدل هذا التقييد والتعليق على أن هذا في حق غير التائب ولهذا استدل أهل السنة بهذه الآية على جواز المغفرة لأهل الكبائر في الجملة خلافا لمن أوجب نفوذ الوعيد بهم من الخوارج والمعتزلة وإن كان المخالفون لهم قد أسرف فريق منهم من المرجئة حتى توقفوا في لحوق الوعيد بأحد من أهل القبلة كما يذكر عن غلاتهم أنهم نفوه مطلقا ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه ونصوص الكتاب والسنة مع اتفاق سلف الأمة وأئمتها متطابقة على أن من أهل الكبائر من يعذب وأنه لايبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان [1]

" إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر "

فإن الذنوب مطلقا من جميع المؤمنين هي سبب العذاب لكن العقوبة بها في الآخرة في جهنم تندفع بنحو عشرة أسباب السبب الأول التوبة فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوبة مقبولة من جميع الذنوب الكفر والفسوق والعصيان قال الله تعالى {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ }الأنفال38وقال تعالى {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }التوبة11 وقال تعالى { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{73} أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{74} المائدة 73 -74 وقال {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ }البروج10 قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم والجود فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ثم هو يدعوهم إلى التوبة والتوبة عامة لكل عبد مؤمن كما قال تعالى { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً{72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{73} الأحزاب 72- 73 وقد أخبر الله في كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة كقوله {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 430-433 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 186-190

}البقرة37 وقول إبراهيم وإسماعيل { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{127} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{128} البقرة 127- 128 وقال موسى { أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ{155} وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ {156} الأعراف 155- 156 وقوله {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }القصص16 وقوله { سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }الأعراف143 وكذلك ما ذكره في قصة داود وسليمان وغيرهما وأما المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فكثير مشهور وأصحابه كانوا أفضل قرون الأمة فهم أعرف القرون بالله وأشدهم له خشية وكانوا أقوم الناس بالتوبة في حياته وبعد مماته فمن ذكر ما عيب عليهم ولم يذكر توبتهم التي بها رفع الله درجتهم كان ظالما لهم كما جرى من بعضهم يوم الحديبية وقد تابوا منه مع أنه كان قصدهم الخير وكذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة تاب منها بل زانيهم كان يتوب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له كما تاب ماعز بن مالك وأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى طهره بإقامة الحد عليه وكذلك الغامدية بعده وكذلك كانوا زمن عمر وغيره إذا شرب أحدهم الخمر أتى إلى أميره فقال طهرني وأقم على الحد فهذا فعل من يأتي الكبيرة منهم حين يعلمها حراما فكيف إذا أتى احدهم الصغيرة أو ذنبا تأول فيه ثم تبين له خطؤه أن التوبة مشروعة لكل عبد للأنبياء ولمن دونهم وأن الله سبحانه يرفع عبده بالتوبة وإذا ابتلاه بما يتوب منه فالمقصود كمال النهاية لا نقص البداية فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين وهو يبدل بالتوبة السيئات حسنات والذنب مع التوبة يوجب لصاحبه من العبودية والخشوع والتواضع والدعاء وغير ذلك مالم يكن يحصل قبل ذلك ولهذا قال طائفة من السلف إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة ويفعل الحسنة فيدخل بها النار يفعل الذنب فلا يزال نصب عينيه إذا ذكره تاب إلى الله ودعاه وخشع له فيدخل به الجنة ويفعل الحسنة فيعجب بها فيدخل النار وفي الأثر لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أعظم من الذنب وهو العجب وفي أثر آخر لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه وفي أثر آخر يقول الله تعالى أهل ذكرى أهل مجالستي وأهل شكري أهل زيادتي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا اقنطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب والتائب حبيب الله سواء كان شابا أو شيخا [1]

الجنة بلا عذاب لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}البروج11 أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال

[1] منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 206

الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ }البقرة98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ }الأحزاب7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ }محمد2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا }محمد2 وهذه نزلت فى الصحابةوغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ }البقرة238 وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيصا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عمن سواهم[1]

العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان ؟

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}البروج11 أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة82 فقد يقال إسم الإيمان

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 198-199

لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه[1]

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }التوبة33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}البروج11[2]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ }البروج1 وقال { النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ }البروج5

لفظ الذات في الأصل تأنيث ذو وهو يستعمل مضافا يتوصل به إلى الوصف بالأجناس فإذا كان الموصوف مذكرا قيل ذو كذا وإن كان مؤنثا قيل ذات كذا كما يقال ذات سوار[3]

2- قال تعالى { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }البروج8[4] عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب

3- قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}البروج11 قوله تعالى {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا }يوسف82 وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال [5]

سورة البروج 12-16

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

[3] الصفدية ج: 1 ص: 109 ومجموع الفتاوى ج: 3 ص: 334

[4] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

[5] مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

{ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ{12} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ{13} وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16}

{ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ }

{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ }البروج14اذ المقصود هنا ذكر اسمه الودود والاكثرون على ما ذكره ابن الأنباري وأنه فعول بمعنى فاعل أي هو الواد كما قرنه بالغفور وهو الذي يغفر وبالرحيم وهو الذي يرحم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الري حدثنا سفيان في قوله إن ربي رحيم ودود قال محب وقال قرئ على يونس حدثنا ابن وهب قال وقال ابن زيد قوله الودود قال الرحيم وقد ذكر فيه قولين القول الاول رواه من تفسير الوالبي عن ابن عباس قوله الودود قال الحبيب والثاني قول ابن زيد الرحيم وما ذكره الوالبي أنه الحبيب قد يراد به المعنيان أنه يحب ويحب فان الله يحب من يحبه وأولياؤه يحبهم ويحبونه والبغوي ذكر الأمرين فقال وللودود معنيان أن يحب المؤمنين وقيل هو بمعنى المودود أي محبوب المؤمنين وقال أيضا في قوله وهو الغفور الودود أي المحب لهم وقيل معناه المودود كالحلوب والركوب بمعنى المحلوب والمركوب وقيل يغفر ويود أن يغفر وقيل المتودد إلى أوليائه بالمغفرة قلت هذا للفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبي صلى الله عليه وسلم تزوجوا الودود الولود وفعول بمعنى فاعل كثير كالصبور والشكور وأما بمعنى مفعول فقليل وأيضا فان سياق القرآن يدل على أنه أراد أنه هو الذي يود عباده كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم فان شعيبا قال واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربي رحيم ودود فذكر رحمته ووده كما قال تعالى وجعل بينكم مودة ورحمة وهو أراد

وصفا يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كونه ودودا كما قال إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بأرض دوية مهلكة ثم وجدها بعد اليأس فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له وكذلك قوله في الآية الأخرى وهو الغفور الودود فانه مثل قوله وهو الغفور الرحيم وأيضا فان كونه مودودا أي محبوبا يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به مثل اسم الآله فإن الآله المعبود هو مودود بذلك ومثل اسمه الصمد ومثل ذي الجلال والاكرام ونحو ذلك وكونه مودودا ليس بعجيب وإنما العجب جوده واحسانه فانه يتودد إلى عباده كما في الاثر يا عبدي كم أتودد اليك بالنعم وأنت تتمقت إلي بالمعاصي ولا يزال ملك كريم يصعد إلي منك بعمل سيء وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من تقرب إلي شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب مني ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة وجاء في تفسير اسمه الحنان المنان أن الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه والمنان الذ يجود بالنوال قبل السؤال وأيضا فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين كما قال الوالبي عن ابن عباس انه الحبيب وذلك أنه إذا كان يود عباده فهو مستحق لان يوده العباد بالضرورة ولهذا من قال انه يحب المؤمنين قال انهم يحبونه فان كثيرا من الناس يقول انه محبوب وهو لا يحب شيئا مخصوصا لكن محبته بمعنى مشيئته العامة ومن الناس من قال إنه لا يحب مع أنه يثبت محبته للمؤمنين فالقسمة في المحبة رباعية فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين قالوا إنه يحب ويحب والجهمية والمعتزلة تنكر الأمرين ومن الناس من قال إنه يحبه المؤمنون وأما هو فلا يحب شيئا دون شيء ومنهم من عكس فقال بل هو يحب المؤمنين مع أن ذاته لا يحب كما يقولون إنه يرحم ولا يرحم

فاذا قيل إن الودود بمعنى الواد لزم أن يكون مودودا بخلاف العكس فالصواب القطع بأن الودود وان كان ذلك متضمنا لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط ولفظ الوداد بالكسر هو مثل الموادة والتواد وذاك يكون من الطرفين كالتحاب وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة إذا وجدهما بعد اليأس وهذا الفرح يقتضي أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله سيجعل لهم الرحمن ودا قال يحبهم وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه فنادى جبريل في السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه [1]

وما يذكر في الإسرائيليات إن الله قال لداود أما الذنب فقد غفرناه وأما الود فلا يعود فهذا لو عرفت صحته لم يكن شرعا لنا وليس لنا أن نبني ديننا على هذا فإن دين محمد صلى الله عليه وسلم في التوبة جاء بما لم يجئ به شرع من قبله ولهذا قال أنا نبي الرحمة وأنا نبي التوبة وقد رفع به من الآصار والأغلال ما كان على من قبلنا وقد قال تعالى في كتابه {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }البقرة222 وأخبر أنه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب أعظم من فرح الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد اليأس فإذا كان هذا فرح الرب بتوبة التائب وتلك محبته كيف يقال إنه لا يعود لمودته {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16} البروج 14-19 ولكن وده بحسب ما يتقرب إليه العبد بعد التوبة فإن كان ما يأتي به من محبوبات الحق بعد التوبة أفضل مما كان يأتي به قبل ذلك كانت مودته له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة وإن كان أنقص كان الأمر أنقص فإن الجزاء من جنس العمل وما ربك بظلام للعبيد وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه ومعلوم أن أفضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وكانت محبة الرب لهم ومودته لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان أعظم محبة ومودة وكلما تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض أحبهم وودهم وقد قال تعالى {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }الممتحنة7 نزلت في المشركين الذين عادوا الله ورسوله مثل أهل الأحزاب كأبي سفيان بن حرب وأبي سفيان ابن الحارث والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وغيرهم فإنهم بعد معاداتهم ورسوله جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودة وكانوا في ذلك متفاضلين وكان عكرمة وسهيل والحارث بن هشام أعظم مودة من أبي سفيان بن حرب ونحوه وقد ثبت في الصحيح أن هند امرأة أبي سفيان أم معاوية قالت و الله يا رسول الله ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك وقد أصبحت وما على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي

---

[11] النبوات ج: 1 ص: 77-79

أن يعزوا من أهل خبائك فذكر النبي صلى الله عليه وسلم لها نحو ذلك ومعلوم أن المحبة والمودة التي بين المؤمنين إنما تكون تابعة لحبهم تعالى فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله فالحب من كمال التوحيد والحب مع الله شرك قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 فتلك المودة التي صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين عادوهم من المشركين إنما كانت مودة ومحبة ومن أحب الله أحبه الله ومن ود الله وده الله فعلم أن الله أحبهم وودهم بعد التوبة كما أحبوه وودوه فكيف يقال إن التائب إنما تحصل له المغفرة دون المودة [1]

بطلان قول المنكرين لكونه سبحانه يحب

و أن المنكرين لكونه يحب من الجهمية و من و افقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يعبد كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة و لا رحمة يقتضي أنه لا يحمد فهم إنما يصفونه بالقدرة و القهر و هذا إنما يقتضى الإجلال فقط لا يقتضى الإكرام و المحبة و الحمد و هو سبحانه الأكرم قال تعالى {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ {12} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ{13}البروج12 -13 ثم قال { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16} البروج14-16 و قال شعيب {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }هود90 وفى أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق و بأنه الأكرم والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقا مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقا لا يصفونه بالكرم ولا الرحمة ولا الحكمة و إن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها بل يطلقونها لأجل مجيئها فى القرآن ثم يلحدون فى أسمائه و يحرفون الكلم عن مواضعه فتارة يقولون الحكمة هي القدرة و تارة يقولون هي المشيئة و تارة يقولون هي العلم وأن الحكمة و إن تضمنت ذلك و استلزمته فهي أمر زائد على ذلك فليس كل من كان قادر أو مريدا كان حكيما و لا كل من كان له علم يكون حكيما حتى يكون عاملا بعلمه قال ابن قتيبة و غيره الحكمة هي العلم و العمل به و هي أيضا القول الصواب فتتناول القول السديد و العمل المستقيم الصالح و الرب تعالى أحكم الحاكمين و أحكم الحكماء و الأحكام الذي فى مخلوقاته دليل على علمه و هم مع سائر الطوائف يستدلون بالأحكام على العلم و إنما يدل إذا كان الفاعل حكيما يفعل لحكمة و هم يقولون إنه لا يفعل لحكمة و إنما يفعل بمشيئة تخص أحد المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص و هذا مناقض للحكمة بل هذا سفه وهو قد نزه نفسه عنه فى قوله { لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ{17} بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ{18}الأنبياء17-18 وقد أخبر أنه إنما خلق السموات و الأرض و ما بينهما بالحق و أنه لم يخلقها باطلا و أن ذلك ظن الذين كفروا و قال{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً }المؤمنون115 و قال {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }القيامة36 أي مهملا لا يؤمر و لا ينهى و هذا إستفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه و لا تنزهه عن فعل و إن كان من منكرات الأفعال و لا تنعته بلوازم كرمه و رحمته و حكمته و عدله فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 304-305 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 343-344

بذلك و لا يفعل ما يضاد ذلك بل تجوز كل مقدور أن يكون و أن لا يكون و إنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعى أو عادة مطردة مع تناقضهم فى الإستدلال بالخبر أخبار الرسل و عادات الرب كما بسط هذا في مواضع مثل الكلام على معجزات الأنبياء و على إرسال الرسل و الأمر و النهى و على المعاد و نحو ذلك مما يتعلق بأفعاله و أحكامه الصادرة عن مشيئته فإنها صادرة عن حكمته و عن رحمته و مشيئته مستلزمة لهذا و هذا لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها [1]

ليس من أسماء الله الحسنى أسم يتضمن الشر

قالت طوائف من المسلمين و أهل الكلام و الفقه و غيرهم من الحنفية و الحنبلية و غيرهم و من الكرامية و الصوفية و كثير من المتفلسفة جميع ما يحدثه الله عز وجل فى الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال الله تعالى { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 و قال {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ }السجدة7 و الضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقا و إن كان شرا بالنسبة إلى من تضرر به و لهذا لا يجيء في كلام الله تعالى و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم إضافة الشر و حده إلى الله بل لا يذكر الشر إلا على أحد و جوه ثلاثة إما أن يدخل فى عموم المخلوقات فإنه إذا دخل فى العموم أفاد عموم القدرة و المشيئة و الخلق و تضمن ما إشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم و إما أن يضاف إلى السبب الفاعل و إما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }الزمر62 و نحو ذلك و من هذا الباب أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع و الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع فلا يفرد الإسم المانع عن قرينه و لا الضار عن قربنه لإن إقترانهما يدل على العموم و كل مافى الوجود من رحمة و نفع و مصلحة فهو من فضله تعالى و ما فى الوجود من غير ذلك فهو من عدله فكل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل و النهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه و بيده الأخرى القسط يخفض و يرفع فأخبر أن يده اليمنى فيها الإحسان إلى الخلق و يده الأخرى فيها العدل و الميزان الذى به يخفض و يرفع فحفضه و رفعه من عدله و إحسانه إلى خلقه من فضله وأما حذف الفاعل فمثل قول الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 و قوله تعالى في سورة الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 و نحو ذلك و إضافته إلى السبب كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 و قوله { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا }الكهف79 مع قوله { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا }الكهف82 و قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 و قوله { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا }الأعراف23 و قوله تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ }آل عمران165 و أمثال ذلك ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى أسم يتضمن الشر و إنما يذكر الشر فى مفعولاته كقوله { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{49} وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{50} الحجر 49-50 و قوله { إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 297-298

}الأعراف167 و قوله {اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }المائدة98 و قوله { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ{12} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ{13} وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} البروج 12-14 فبين سبحانه أن بطشه شديد و أنه هو الغفور الودود وقوله { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ }الرعد6 وقوله{غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ }غافر3 [1]

الله سبحانه وتعالى متمدح بأنه ذو العرش

فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء}هود7 وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والأرض وفى رواية له كان الله ولم يكن شىء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شىء وفى رواية لغيره صحيحة كان الله ولم يكن شىء معه وكان عرشه على الماء ثم كتب فى الذكر كل شىء وثبت فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وهذا التقدير بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وهو سبحانه وتعالى متمدح بأنه ذو العرش كقوله سبحانه {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 وقوله تعالى{ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16} البروج 14-16 وقد قرىء المجيد بالرفع صفة لله وقرىء بالخفض صفة للعرش وقال تعالى {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {86} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ{87} المؤمنون86 -87 فوصف العرش بأنه مجيد وأنه عظيم وقال تعالى {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ }المؤمنون116 فوصفه بأنه كريم أيضا وكذلك فى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى كان يقول عند الكرب لا اله الا الله العظيم الحليم لا اله الا الله رب العرش العظيم لا اله الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم فوصفه فى الحديث بأنه عظيم وكريم أيضا[2]

الإيمان بما وصف به نفسه من غير تكييف ولا تمثيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص:94- 95

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 551

به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182}الصافات180 -182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ }البروج14[1]

ذكر الودود لبيان مودته للمذنب إذا تاب

فلا يستوحش أهل الذنوب وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة فانه ودود رحيم بالمؤمنين يحب التوابين ويحب المتطهرين ولهذا قال شعيب {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }هود90 وقال هنا {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ }البروج14 فذكر الودود في الموضعين لبيان مودته للمذنب إذا تاب اليه بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ود فيه [2]

المضاف الى الله

المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة كان منه اضافة المخلوقات كقوله { نَاقَةُ اللَّهِ}هود64 وقوله { أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ }البقرة125 وقوله{ رَسُولُ اللَّهِ }الشمس13 و { عِبَادُ اللَّهِ }الإنسان6وقوله { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ}البروج15 وقوله { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ }البقرة255 فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق[3]

الحمد نوعان

قال تعالى { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16}البروج14-16 اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 132 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 14

[2] النبوات ج: 1 ص: 79

[3] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 144

بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو فى نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهى امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذى منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب [1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ }البروج14 الودود فعول من الود [2]

2- و قد تجيء الصفات خبرا بعد خبر كقوله { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16} البروج 14-16 و لو كان { فَعَّالٌ } البروج16 صفة لكان معرفا بل هو خبر بعد خبر و قوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ }الحديد3 خبر بعد خبر لكن بالعطف بكل من الصفات و أخبار المبتدأ قد تجيء بعطف و بغير عطف و إذا ذكر بالعطف كان كل إسم مستقلا بالذكر و بلا عطف يكون الثاني من تمام الأول بمعنى و مع العطف لا تكون الصفات إلا للمدح و الثناء أو للمدح و أما بلا عطف فهو فى النكرات للتمييز و فى المعارف قد يكون للتوضيح[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 84

[2] النبوات ج: 1 ص: 75

[33] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 130

سورة البروج17-22

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ{17} فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ{18} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ{19} وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ{20} بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22}

القرآن المجيد فى لوح محفوظ

قال تعالى{ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج 21-22 القرآن المجيد في لوح محفوظ وهو في أم الكتاب وهو { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{80} الواقعة 77-79[1]

انه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله [2]

القرآن كلام الله غير مخلوق

قال تعالى{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ{17} فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ{18} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ{19} وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ{20} بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج 17-22

و الاقتصاد في السنة واتباعها كما جاءت بلا زيادة ولا نقصان مثل الكلام في القرآن وسائر الصفات فإن مذهب سلف الأمة وأهل السنة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود هكذا قال غير واحد من السلف روى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار وكان من التابعين الأعيان قال مازلت أسمع الناس يقولون ذلك والقرآن الذي أنزله الله على رسوله هو هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم وهو كلام الله لا كلام غيره وإن تلاه العباد وبلغوه بحركاتهم وأصواتهم فإن الكلام لمن قاله مبتدئا لا لمن قاله مبلغا مؤديا قال الله تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ }التوبة6 وهذا القرآن في المصاحف كما قال تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقال تعالى { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2 -3 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} الواقعة77-78 والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه كل ذلك يدخل في القرآن وفي كلام الله وإعراب الحروف هو من تمام الحروف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ

---

[1] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 345

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 129

القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه[1]

وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً }الكهف109 وكلمات الله غير مخلوقة والمداد الذى يكتب به كلمات الله مخلوق والقرآن المكتوب فى المصاحف غير مخلوق وكذلك المكتوب فى اللوح المحفوظ وغيره قال تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقال { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} عبس11-13 وقال تعالى { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2 -3 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{80} الواقعة 77-80 [2]

هل نفس المصحف هو نفس القرآن أم كتابته وما فى الصدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه

الواجب ان يطلق ما أطلقه الكتاب والسنة كقوله تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقوله { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79}الواقعة77-79 وقوله { وَالطُّورِ{1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{2} فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ{3} الطور1-3 وقوله { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة2-3 وقوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{15} كِرَامٍ بَرَرَةٍ{16}عبس 11-16 وكذلك قول النبى لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو وقوله استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم فى عقلها وكلاهما فى الصحيحين وقوله الجوف الذى ليس فيه شىء من القرآن كالبيت الخرب قال الترمذى حديث صحيح فمن قال القرآن فى المصاحف والصدور فقد صدق ومن قال فيها حفظه وكتابته فقد صدق ومن قال القرآن مكتوب فى المصاحف محفوظ فى الصدور فقد صدق ومن قال ان المداد أو الورق أو صفة العبد أو فعله أو حفظه وصوته قديم أو غير مخلوق فهو مخطىء ضال ومن قال إنما فى المصحف ليس هو كلام الله أو ما فى صدور القراء ليس هو كلام الله أو قال إن القرآن العزيز لم يتكلم به الله ولكن هو مخلوق أو صنفه جبريل أو محمد وقال إن القرآن فى المصاحف كما أن محمدا فى التوراة والانجيل فهو أيضا مخطىء ضال فان القرآن كلام والكلام نفسه يكتب فى المصحف بخلاف الأعيان فانه إنما يكتب اسمها وذكرها فالرسول مكتوب فى التوراة والإنجيل ذكره ونعته كما أن القرآن فى زبر الأولين وكما أن أعمالنا فى الزبر قال تعالى {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ }الشعراء196 وقال تعالى {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ }القمر52 ومحمد مكتوب فى التوراة والإنجيل كما أن القرآن فى تلك الكتب وكما ان أعمالنا فى الكتب وأما القرآن فهو نفسه مكتوب فى المصاحف ليس المكتوب ذكره والخبر عنه كما يكتب إسم الله فى الورق ومن لم يفرق بين كتابة الأسماء والكلام وكتابة المسميات والأعيان كما جرى لطائفة من الناس فقد غلط غلطا سوى فيه بين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 401

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 56

الحقائق المختلفة كما قد يجعل مثل هؤلاء الحقائق المختلفة شيئا واحدا كما قد جعلوا جميع أنواع الكلام معنى واحدا[1]

فكلام الله كالتوراة وزبور داود والإنجيل والقرآن وغير ذلك فإن هذا كله كلام الله وهو مكتوب في القراطيس باتفاق أهل الملل بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب في القراطيس وقد قال تعالى في القرآن { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} }البروج21-22 و معلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ليس هو إلها خالقا وهو كلام كثير لا ينحصر في كلمة ولا كلمتين[2]

اللوح المحفوظ لا ينظر فيه غير الله عز وجل

الأصل الثاني من الأصلين الفاسدين كون روح العبد تطالع اللوح المحفوظ فإن هذا هو قول هؤلاء من المتفلسفة القرامطة أن اللوح المحفوظ وهو العقل الفعال أو النفس الكلية وذلك ملك من الملائكة وأن حوادث الوجود منتقشة فيه فإذا اتصلت به النفس الناطقة فاضت عليها وكل من علم ما جاء به الرسول يعلم بالاضطرار أن مراده باللوح المحفوظ ليس هو هذا ولا اللوح المحفوظ ملك من الملائكة باتفاق المسلمين بل قد أخبر أنه قرآن مجيد في لوح محفوظ وقال { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79}الواقعة77-79 ولم يقل أحد من علماء المسلمين أن أرواح كل من رأى مناما تطلع على اللوح المحفوظ بل قد جاء في الحديث أنه لا ينظر فيه غير الله عز وجل في حديث أبي الدرداء ثم اللوح المحفوظ فوق السماوات والنفس والعقل اللذان يذكرونهما متصلان بفلك القمر دون ما فوقهما من العقول والنفوس[3]

الكتاب اسم للقرآن العربى بالضرورة

والكتاب اسم للقرآن العربى بالضرورة والاتفاق فان الكلابية أو بعضهم يفرق بين الكلام وكتاب الله فيقول كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق وكتابه هو المنظوم المؤلف العربى وهو مخلوق والقرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة والله تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنا وكتابا وكلاما فقال تعالى {الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ }الحجر1 وقال {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ }النمل1 وقال {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ }الأحقاف29 الى قوله تعالى {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ }الأحقاف30 فبين ان الذى سمعوه هو القرآن وهو الكتاب وقال {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22}البروج21-22 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} الواقعة 77-78 وقال { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2-3 وقال {وَالطُّورِ{1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{2} فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ{3}الطور 1-3 وقال {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ }الأنعام7 ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 564-566

[2] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 326

[3] بغية المرتاد ج: 1 ص: 326

كما قال تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} الواقعة 77-78 وقال { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً }الإسراء13[1]

لا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظي

قال تعالى {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22}البروج21-22 وإذا كتب المسلمون مصحفا فإن أحبوا أن لا ينقطوه ولا يشكلوه جاز ذلك كما كان الصحابة يكتبون المصاحف من غير تنقيط ولا تشكيل لأن القوم كانوا عربا لا يلحنون وهكذا هي المصاحف التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار في زمن التابعين ثم فشا اللحن فنقطت المصاحف وشكلت بالنقط الحمر ثم شكلت بمثل خط الحروف فتنازع العلماء في كراهة ذلك وفيه خلاف عن الإمام أحمد رحمه الله وغيره من العلماء قيل يكره ذلك لأنه بدعة وقيل لا يكره للحاجة إليه وقيل يكره النقط دون الشكل لبيان الإعراب والصحيح أنه لا بأس به والتصديق بما ثبت عن النبي أن الله يتكلم بصوت وينادي آدم عليه السلام بصوت إلى أمثال ذلك من الأحاديث فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة وقال أئمة السنة القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق حيث تلى وحيث كتب فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن إنها مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل ولا يقال غير مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد ولم يقل قط أحد من أئمة السلف إن أصوات العباد بالقرآن قديمه بل أنكروا على من قال لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق وأما من قال إن المداد قديم فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة قال الله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً }الكهف109 فأخبر أن المداد يكتب به كلماته وكذلك من قال ليس القرآن في المصحف وإنما في المصحف مداد وورق أو حكاية وعبارة فهو مبتدع ضال بل القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو ما بين الدفتين والكلام في المصحف على الوجه الذي يعرفه الناس له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء وكذلك من زاد على السنة فقال إن ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة فهو مبتدع ضال كمن قال إن الله لا يتكلم بحرف ولا بصوت فإنه أيضا مبتدع منكر للسنة وكذلك من زاد وقال إن المداد قديم فهو ضال كمن قال ليس في المصاحف كلام الله وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون إن الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط كلام الله فهو بمنزلة من يقول ما تكلم الله بالقرآن ولا هو كلامه هذا الغلو من جانب الإثبات يقابل التكذيب من جانب النفي وكلاهما خارج عن السنة والجماعة وكذلك أفراد الكلام في النقطة والشكلة بدعة نفيا وإثباتا وإنما حدثت هذه البدعة من مائة سنة أو أكثر بقليل فإن من قال إن المداد الذي تنقط به الحروف ويشكل به قديم فهو ضال جاهل ومن قال إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن فهو ضال مبتدع بل الواجب أن يقال هذا القرآن العربي هو كلام الله وقد دخل في ذلك حروفه بإعرابها كما دخلت معانيه ويقال ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله فإن كان المصحف منقوطا مشكولا أطلق على ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله وإن كان غير منقوط ولا مشكول كالمصاحف القديمة التي كتبها الصحابة كان أيضا ما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 125

بين اللوحين هو كلام الله فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظي لا حقيقة له ولا يجوز أن يحدث في الدين ما ليس منه[1]

لطائف لغوية

1- قال تعالى { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ{17} فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ{18} البروج17-18 وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقيصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك [2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 404

[2] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 46

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الطارق
86

رقية محمود الغرايبة

~§§ الطارق(مكية)17 §§~

سورة الطارق1-17

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ{1} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ{2} النَّجْمُ الثَّاقِبُ{3} إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ{4} فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ{5} خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ{6} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{7} إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ{8} يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ{9} فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ{10} وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ{11} وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ{12} إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ{13} وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ{14} إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً{15} وَأَكِيدُ كَيْداً{16} فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً{17}

ذكر آياته الدالة على قدرته ووحدانيته

قال تعالى { وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ{1} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ{2} النَّجْمُ الثَّاقِبُ{3} إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ{4}الطارق 1-4 وقوله تعالى {وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ{11} وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ{12}الطارق11-12 فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1]

الحفظة الموكلين ببنى آدم

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

قال تعالى { وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ{1} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ{2} النَّجْمُ الثَّاقِبُ{3} إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ{4}الطارق 1-4 ذكر الله الحفظة الموكلين ببنى آدم الذين يحفظونهم ويكتبون أعمالهم فى مواضع من كتابه[1]

تسمية مقيدة

قال تعالى { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ{5} خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ{6} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{7}الطارق 5-7 سمى المني ماء تسمية مقيدة ولم يدخل في الاسم المطلق حيث قال { فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ }النساء43 [2]

لفظ الماء عند الاطلاق لا يتناول المني وإن كان يسمى ماء مع التقييد كقوله تعالى { خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ{6} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{7} الطارق 6-7 [3]

الإطلاق والتقييد فى معانى اللفظ

فإن الإطلاق والتقييد فى معانى اللفظ ففرق بين النوعين فإن الناس يغلطون لعدم التفريق بين هذين غلطا كثيرا جدا وذلك ان كل اسم فإما أن يكون مسماه معينا لا يقبل الشركة كأنا وهذا وزيد ويقال له المعين والجزء واما أن يقبل الشركة فهذا الذى يقبل الشركة هو المعنى الكلى المطلق وله ثلاث اعتبارات كما تقدم وأما اللفظ المطلق والمقيد فمثال {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ }المجادلة3 و { فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء }المائدة6 وذلك أن المعنى قد يدخل فى مطلق اللفظ ولا يدخل فى اللفظ المطلق أى يدخل فى اللفظ لا بشرط الإطلاق ولا يدخل فى اللفظ بشرط الإطلاق كما قلنا فى لفظ الماء فإن الماء يطلق على المنى وغيره كما قال قال تعالى { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ{5} خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ{6} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{7}الطارق 5-7 ويقال ماء الورد لكن هذا لا يدخل فى الماء عند الاطلاق لكن عند التقييد فاذا أخذ القدر المشترك بين لفظ الماء المطلق ولفظ الماء المقيد فهو المطلق بلا شرط الإطلاق فيقال الماء ينقسم الى مطلق ومضاف ومورد التقسيم ليس له اسم مطلق لكن بالقرينة يقتضى الشمول والعموم وهو قولنا الماء ثلاثة أقسام فهنا أيضا ثلاثة أشياء مورد التقسيم وهو الماء العام وهو المطلق بلا شرط لكن ليس له لفظ مفرد الا لفظ مؤلف والقسم المطلق وهو اللفظ بشرط اطلاقه والثانى اللفظ المقيد وهو اللفظ بشرط تقييده وانما كان كذلك لان المتكلم باللفظ إما أن يطلقه أو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 250

[2] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 70

[3] مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 305

يقيده ليس له حال ثالثة فاذا أطلقه كان له مفهوم واذا قيده كان له مفهوم ثم اذا قيده إما أن يقيده بقيد العموم أو بقيد الخصوص فقيد العموم كقوله الماء ثلاثة أقسام وقيد الخصوص كقوله ماء الورد [1]

الخلق كلهم مصيرهم إلى الله

قال تعالى {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ{8} يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ{9} فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ{10}الطارق 8-10 فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ} الانشقاق 6 فأي سبيل سلكها العبد فالى الله مرجعه ومنتهاه لا بد له من لقاء الله ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[2]

{ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ }

و قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ }البقرة213 الى قوله {فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }البقرة213 ومن أعظم الإختلاف الإختلاف فى المسائل العلمية الخبرية المتعلقة بالإيمان بالله و اليوم الآخر فلابد أن يكون الكتاب حاكما بين الناس فيما إختلفوا فيه من ذلك و يمتنع أن يكون حاكما إن لم يكن معرفة معناه ممكنا و قد نصب الله عليه دليلا و إلا فالحاكم الذي يبين ما فى نفسه لا يحكم بشيء و كذلك إذا قيل هو الحاكم بالكتاب فإن حكمه فصل يفصل به بين الحق و الباطل و هذا إنما يكون بالبيان و قد قال تعالى فى القرآن {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ{13} وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ{14}الطارق 13-14 أي فاصل يفصل بين الحق و الباطل فكيف يكون فصلا إذا لم يكن الى معرفة معناه سبيل [3]

الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 165

[2] دقائق التفسير ج: 3 ص: 152

[3] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 430

رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182}الصافات180 -182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه وقوله {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً{15} وَأَكِيدُ كَيْداً{16}الطارق 15-16[1]

ليس الكيد كالكيد

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأ سماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مسماهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمى الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }البقرة255 وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }الروم19وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ }الروم19 اسم للحى المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطق مسمى موجود فى الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه ووصف نفسه بأنه يمقت الكفار ووصفهم بالمقت فقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ }غافر10 وليس المقت مثل المقت وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد كما وصف عبده بذلك فقال { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ }الأنفال30 وقال { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً{15} وَأَكِيدُ كَيْداً{16} الطارق15-16 وليس المكر كالمكر ولا الكيد كالكيد [2]

الجزاء من جنس العمل

وقوله { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ }الأنفال30 وقوله {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ }البقرة15 واما الاستهزاء والمكر بان يظهر الانسان الخير والمراد شر فهذا اذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم واما اذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلا حسنا قال الله تعالى{ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 132 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 13

[22] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 14

آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ{14} اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ {15}البقرة14-15 فان الجزاء من جنس العمل وقال تعالى {وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً}النمل50 كما قال { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً{15} وَأَكِيدُ كَيْداً{16}الطارق15-16 وقال {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ }يوسف76 وكذلك جزاء المعتدى بمثل فعله فان الجزاء من جنس العمل وهذا من العدل الحسن وهو مكر و كيد اذا كان يظهر له خلاف ما يبطن[1]

لا مجاز فى القرآن

وكذلك ما ادعوا أنه مجاز فى القرآن كلفظ المكر و الاستهزاء و السخرية المضاف الى الله وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز وليس كذلك بل مسميات هذه الأسماء اذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلما له وأما اذا فعلت بمن فعلها بالمجنى عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلا كما قال تعالى { كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ }يوسف76 فكاد له كما كادت اخوته لما قال له أبوه { لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً }يوسف5 وقال تعالى { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً{15} وَأَكِيدُ كَيْداً{16} الطارق15-16 وقال تعالى {وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {50} فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ{51}النمل50-51 فلا مجاز فى القرآن بل وتقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف والخلف فيه على قولين وليس النزاع فيه لفظيا بل يقال نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق تبين أنها فروق باطلة وكلما ذكر بعضهم فرقا أبطله الثانى[2]

لطائف لغوية

1-قال تعالى { إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ }الطارق8 قدير منزه عن العجز والضعف[3]

2- قال تعالى { وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ }الطارق11 و{ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ }الطارق12 فإن ذات تأنيث ذو وهو يستعمل مضافا يتوصل به إلى الوصف بالأجناس فإذا كان الموصوف مذكرا قيل ذو كذا وإن كان مؤنثا قيل ذات كذا كما يقال ذات سوار[4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 471

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 112-113

[3] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

[4] الصفدية ج: 1 ص: 109 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 334

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الأعلى
87

رقية محمود الغرايبة

~§§ الأعلى(مكية)19 §§~

الأعلى1-5

بسم الله الرحمن الرحيم

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5}

{ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }

وهو سبحانه و صف نفسه بالعلو و هو من صفات المدح له بذلك و التعظيم لأنه من صفات الكمال كما مدح نفسه بأنه العظيم و العليم و القدير و العزيز و الحليم و نحو ذلك و أنه الحي القيوم و نحو ذلك من معاني أسمائه الحسنى فلا يجوز أن يتصف بأضداد هذه فلا يجوز أن يوصف بضد الحياة و القيومية و العلم و القدرة مثل الموت و النوم و الجهل و العجز و اللغوب و لا بضد العزة و هو الذل و لا بضد الحكمة و هو السفه فكذلك لا يوصف بضد العلو و هو السفول و لا بضد العظيم و هو الحقير بل هو سبحانه منزه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له فثبوت صفات الكمال له ينفى إتصافه بأضدادها و هي النقائص و هو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من صفات الكمال فهو منزه عن النقص المضاد لكماله و منزه عن أن يكون له مثل فى شيء من صفاته و معانى التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين و قد دل عليهما سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن بقوله{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} الاخلاص1-2 فإسمه الصمد يجمع معاني صفات الكمال كما قد بسط ذلك فى تفسير هذه السورة و فى غير موضع و هو كما فى تفسير إبن أبى طلحة عن إبن عباس أنه المستوجب لصفات السؤدد العليم الذي قد كمل فى علمه الحكيم الذي قد كمل فى حكمته إلى غير ذلك مما قد بين و قوله الأحد يقتضي أنه لا مثل له و لا نظير { وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص4 وقد ذكرنا في غير موضع أن ما وصف الله تعالى به نفسه من الصفات السلبية فلا بد أن يتضمن معنى ثبوتيا فالكمال هو في الوجود والثبوت والنفي مقصودة نفي ما يناقض ذلك فاذا نفي النقيض الذي هو العدم والسلب لزم ثبوت النقيض الآخر الذي هو الوجود والثبوت وبينا هذا في آية الكرسى وغيرها مما في القرآن كقوله { لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ }البقرة255 فانه يتضمن كمال الحياة والقيومية وقوله { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة255 يتضمن كمال الملك وقوله { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة255 يقتضي اختصاصه بالتعليم دون ما سواه والوحدانية تقتضي الكمال والشركة نقتضي الكمال والشركة نقتضي النقص وكذلك قوله { وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا }البقرة255 { وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ }ق38و{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ }الأنعام103 و{ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ }سبأ3 وأمثال ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع والمقصود هنا أن علوه من صفات المدح اللازمة له فلا يجوز اتصافه بضد

العلو ألبتة ولهذا قال النبى في الحديث الصحيح أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ولم يقل تحتك وقد تكلمنا على هذا الحديث في غير هذا الموضع وإذا كان كذلك فالمخالفون للكتاب والسنة وما كان عليه السلف لا يجعلونه كتصفا بالعلو دون السفول بل إما أن يصفوه بالعلو والسفول أو بما يستلزم ذلك وإما أن ينفوا عنه العلو والسفول وهم نوعان فالجهمية القائلون بأنه بذاته في كل مكان أو بأنه لا داخل العالم و لا خارجه لا يصفونه بالعلو دون السفول فانه إذا كان في مكان فالأمكنة منها عال وسافل فهو في العالي عال وفي السافل سافل بل إذا قالوا إنه في كل مكان فجعلوا الأمكنة كلها محال له ظروفا وأوعية جعلوها في الحقيقة أعلى منه فان المحل يحوى الحال والظرف والوعاء يحوي المظروف الذي فيه والحاوى فوق المحوى والسلف والأئمة وسائر علماء السنة إذا قالوا إنه فوق العرش وإنه في السماء فوق كل شيء لا يقولون إن هناك شيئا يحويه أو يحصره أو يكون محلا له أو ظرفا ووعاء سبحانه وتعالى عن ذلك بل هو فوق كل شيء وهو مستغن عن كل شيء وكل شيء مفتقر إليه وهو عال على كل شيء وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته وكل مخلوق مفتقر إليه وهو غنى عن العرش وعن كل مخلوق وما في الكتاب والسنة من قوله {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء }الملك16 ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن السماء هي نفس المخلوق العالي العرش فما دونه فيقولون قوله في السماء بمعنى على السماء كما قال { وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ }طه71 أي على جذوع النخل وكما قال { فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ }آل عمران137 أي على الأرض ولا حاجة إلى هذا بل السماء اسم جنس للعالي لا يخص شيئا فقوله في السماء أي في العلو دون السفل وهو العلي الأعلى فله اعلى العلو وهو ما فوق العرش وليس هناك غيره العلى الأعلى سبحانه وتعالى والقائلون بأنه في كل مكان هو عندهم في المخلوقات السفلية القذرة الخبيثة كما هو في المخلوقات العالية وغلاة هؤلاء الأتحادية الذين يقولون الوجود واحد كابن عربى الطائى صاحب فصوص الحكم و الفتوحات الملكية يقولون الموجود الواجب القديم هو الموجود المحدث الممكن ولهذا قال ابن عربى في فصوص الحكم ومن أسمائه الحسنى العلى على من ثم إلا هو وعن ماذا وما هو إلا هو فعلوه لنفسه وهو من حيث الوجود عين الموجودات فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليس إلا هو إلى أن قال فالعلى لنفسه هو الذي يكون له جميع الأوصاف الوجودية والنسب العدمية سواء كانت محمودة عرفا وعقلا وشرعا أو مذمومة عرفا وعقلا وشرعا وليس ذلك إلا المسمى الله فهو عنده الموصوف بكل ذم كما هو الموصوف بكل مدح وهؤلاء يفضلون عليه بعض المخلوقات فان في المخلوقات ما يوصف بالعلو دون السفول كالسماوات وما كان موصوفا بالعلو دون السفول كان أفضل ممن لا يوصف بالعلو أو يوصف بالعلو و السفول وقد قال فرعون{ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 قال ابن عربى ولما كان فرعون في منصب التحكم والخليفة بالسيف جاز في العرف الناموسي أن قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 أي وإن كان أن الكل أربابا بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته من الحكم فيكم ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه بل أقروا له بذلك وقالوا له { فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا }طه72 فالدولة لك فصح قول فرعون { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعاتً24 فبهذا وأمثاله يصححون قول فرعون { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24
وينكرون أن يكون الله عاليا فضلا على أن يكون هو الأعلى ويقولون على من يكون اعلى أو عما ذا يكون اعلى وهكذا سائر الجهمية يصفون بالعلو على وجه المدح ما هو عال من المخلوقات كالسماء والجنة والكواكب ونحو ذلك ويعملون أن العالي أفضل من السافل وهم لا يصفون ربهم بأنه الأعلى ولا العلي بل يجعلونه في السافلات كما هو في العاليات والجهمية الذين يقولون ليس هو

داخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه ألبته هم أقرب إلى التعطيل والعدم كما أن أولئك أقرب إلى الحلول والاتحاد بالمخلوقات فهؤلاء يثبتون موجودا لكنه في الحقيقة المخلوق لا الخالق وأولئك ينفون فلا يثبتون وجودا ألبته لكنهم يثبتون وجود المخلوقات ويقولون إنهم يثبتون وجود الخالق وإذا قالوا نحن نقول هو عال بالقدرة أو بالقدر قيل هذا فرع ثبوت ذاته وأنتم لم تثبتوا موجودا يعرف وجوده فضلا عن أن يكون قادرا أو عظيم القدر وإذا قالوا كان الله قبل خلق الأمكنة والمخلوقات موجودا وهو الآن على ما عليه كان لم يتغير ولم يكن هناك فوق شيء ولا عاليا على شيء فكذلك هو الآن قيل هذا غلط ويظهر فساده بالمعارضة ثم بالحل وبيان فساده أما الأول فيلزمهم أن لا يكون الآن عاليا بالقدرة ولا بالقدر كما كان في الأزل فانه إذا قدر وجوده وحده فليس هناك موجود يكون قادرا عليه و لا قاهرا له ولا مستوليا عليه و لا موجودا يكون هو أعظم قدرا منه فان كان مع وجود المخلوقات لم يتجدد له علو عليها كما زعموا فيجب أن يكون بعدها ليس قاهرا لشيء ولا مستوليا عليه ولا قاهرا لعباده و لا قدره أعظم من قدرها وإذا كانوا يقولون هم جميع العقلاء إنه مع وجود العقلاء إنه مع وجود المخلوق يوصف بأمور إضافية لا يوصف بها إذا قدر موجودا وحده علم أن التسوية بين الحالين خطأ منهم وقد اتفق العقلاء على جواز تجدد النسب والاضافات مثل المعية وإنما النزاع في تجدد ما يقوم بذاته من الأمور الأختيارية وقد بين في غير هذا الموضع أن النسب والاضافات مستلزمة لأمور ثبوتية وأن وجودها بدون الأمور الثبوتيه ممتنع والانسان إذا كان جالسا فتحول المتحول عن يمينه بعد أن كان عن شماله قيل إنه عن شماله فقد تجدد من هذا فعل به تغيرت النسبة والاضافة وكذلك من كان تحت السطح فصار فوقه فان النسبة بالتحتية والفوقية تجدد لما تجدد فعل هذا وإذا قيل نفس السقف لم يتغير قيل قد يمنع هذا ويقال ليس حكمه إذا لم يكن فوقه شيء كحكمه إذا كان فوقه شيء وإذا قيل عن الجالس إنه لم يتغير قيل قد يمنع هذا ويقال ليس حكمه إذا كان الشخص عن يساره كحكمة أن كان عن يمينه فانه يحجب هذا الجانب ويوجب من التفات الشخص وغير ذلك مالم يكن قبل ذلك وكذلك من تجدد له أخ أو ابن أخ بايلاد أبيه أو أخيه قد وجد هنا أمور ثبوتية وهذا الشخص بصير فيه من العطف والحنو على هذا الولد المتجدد مالم يكن قبل ذلك وهى الرحم والقرابة وبهذا يظهر الجواب الثانى وهو أن يقال العلو والسفول ونحو ذلك من الصفات المستلزمة للاضافة وكذلك الاستواء والربوبية والخالقية ونحو ذلك فذا كان غيره موجودا فاما أن يكون عاليا عليه وإما أن لا يكون كما يقولون هم إما أن يكون عاليا عليه وإما أن لا يكون كما يقولون هم إما أن يكون عاليا عليه بالقهر أو بالقدر أو لا يكون خلاف ما إذا قدر وحده فانهم لا يقولون إنه حينئذ قاهر أو قادر أو مستول عليه فلا يقال عال عليه وإن قالوا إنه قادر وقاهر كان ذلك مشروطا بالغير وكذلك علو القدر قيل وكذلك علو ذاته ما زال عاليا بذاته لكن ظهور ذلك مشروط بوجود الغير والالزامات مفحمة لهم وحقيقة قولهم إنه لم يكن قادرا في الأزل ثم صار قادرا يقولون لم يزل قادرا مع امتناع المقدور وإنه لم يكن الفعل ممكنا فصار ممكنا فيجمعون بين النقيضين فصل وأما الذين يصفونه بالعلو والسفول فالذين يقولون هو فوق العرش وهو أيضا في كل مكان والذين يقولون إذا نزل كل ليلة فانه يخلو منه العرش أو غيره من المخلوقات أكبر منه ويقولون لا يمتنع أن يكون الخالق أصغر من المخلوق كما يقول شيخوخهم إنه لا يمتنع أن يكون الخالق أسفل من المخلوق فهؤلاء لا يصفونه بأنه أكبر من كل شيء بل ولا هو على قولهم الكبير المتعال و لا هو العلى العظيم وقد بسط الرد على هؤلاء في مسألة النزول لما ذكر قول أئمة السنة مثل حماد بن زيد واسحق بن راهويه وغيرهما إنه ينزل و لا يخلو منه العرش ذكر قول من انكر ذلك من المتأخرين المنتسبين إلى الحديث والسنة وبين فساد قولهم شرعا وعقلا وهؤلاء في مقابلة الذين ينفون النزول وإذا قيل حديث النزول ونحوه ظاهره

ليس يحتمل التأويل فهذا صحيح إذا أريد بالظاهر ما يظهر لهؤلاء ونحوهم من أنه ينزل إلى أسفل فيصير تحت العرش كما ينزل الانسان من سطح داره إلى أسفل وعلى قول هؤلاء و لا يبقى حينئذ العلي ولا الأعلى بل يكون تارة أعلى وتارة أسفل تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام ومن نزوله إلى الأرض لما خلقها ومن نزوله لتكليم موسى وغير ذلك كله من باب واحد كقوله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ }البقرة210 وقوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وقوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ }الأنعام158 والنفاة المعطلة ينفون المجيء والاتيان بالكلية ويقولون ما ثم ألا ما يحدث في المخلوقات والحلولية يقولون إنه يأتى ويجيء بحيث يخلو منه مكان ويشغل آخر فيخلو منه ما فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه فاذا اتى وجاء لم يصر على قولهم العلى الأعلى ولكن هو العلى العظيم لا سيما إذا قالوا إنه يحويه بعض المخلوقات فتكون أكبر منه سبحانه وتعالى عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوا عظيما وكذلك قوله {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء }الملك16 إن كان قد قال أحد إنه في جوف السماء فهو شر قولا من هؤلاء ولكن هذا ما عملت به قائلا معينا منسوبا إلى علم حتى أحكيه قولا ومن قال إنه في السماء فمراده أنه في العلو ليس مراده أنه في جوف الأفلاك إلا أن بعض الجهال يتوهم ذلك وقد ظن طائفة أن هذا ظاهر اللفظ إلى الأرض لما خلقها ومن نزوله لتكليم موسى وغير ذلك كله من باب واحد كقوله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ }البقرة210 وقوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وقوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ }الأنعام158 والنفاة المعطلة ينفون المجيء والاتيان بالكلية ويقولون ما ثم ألا ما يحدث في المخلوقات والحلولية يقولون إنه يأتى ويجيء بحيث يخلو منه مكان ويشغل آخر فيخلو منه ما فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه فاذا اتى وجاء لم يصر على قولهم العلى الأعلى ولكن هو العلى العظيم لا سيما إذا قالوا إنه يحويه بعض المخلوقات فتكون أكبر منه سبحانه وتعالى عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوا عظيما وكذلك قوله {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء }الملك16 إن كان قد قال أحد إنه في جوف السماء فهو شر قولا من هؤلاء ولكن هذا ما عملت به قائلا معينا منسوبا إلى علم حتى أحكيه قولا ومن قال إنه في السماء فمراده أنه في العلو ليس مراده أنه في جوف الأفلاك إلا أن بعض الجهال يتوهم ذلك وقد ظن طائفة أن هذا ظاهر اللفظ الظاهر ولا ريب أنه محمول على خلاف هذا بالاتفاق لكن هذا هو الذي يظهر لعامة المسلمين الذين يطلقون هذا القول ويسمعونه أو هو مدلول اللفظ في اللغة هو مما لا يسلم لهم كما قد يبسط في مواضع وقد قال تعالى{قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ }النمل65 فاستثنى نفسه والعالم { مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }النمل65 و لا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع لأن المستثنى مرفوع ولو كان منقطعا لكان منصوبا والمرفوع على البدل والعامل فيه هو العامل في المبدل منه وهو بمنزلة المفرغ كأنه قال لا يعلم الغيب إلا الله فيلزم أنه داخل في { مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }النمل65 وقد قدمنا أن لفظ السماء يتناول كل ما سما ويدخل فيه السموات والكرسي والعرش وما فوق ذلك لأن هذا في جانب النفى وهو لم يقل هنا السموات السبع بل عم بلفظ السموات وإذا كان لفظ السماء قد يراد به السحاب ويراد به الفلك ويراد به ما فوق العالم ويراد به العلو مطلقا ف السموات جمع سماء وكل من فيما يسمى سماء وكل من فيما يسمى أرضا لا يعلم الغيب إلا الله وهو سبحانه قال{قُل لَّا يَعْلَمُ مَن }النمل65 ولم يقل ما فانه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه ب من لتكون أبلغ فانهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلا الله

وهذا هو الغيب المطلق عن جميع المخلوقين الذي قال فيه {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً }الجن26 والغيب المقيد ما عمله بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الانس وشهدوه فانما هو غيب عمن غاب عنه ليس هو غيبا عمن شهده والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا فيكون غيبا مقيدا أي غيبا عمن غاب عنه من المخلوقين لا عما شهده ليس غيبا مطلقا غاب عن المخلوقين قاطبة وقوله { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ }الأنعام73 أي عالم ما غاب عن العباد مطلقا ومعينا وما شهدوه فهو سبحانه يعلم ذلك كله والنفاة للعلو ونحوه من الصفات معترفون بأنه ليس مستندهم خبر الأنبياء لا الكتاب ولا السنة ولا أقوال السلف ولا مستندهم فطرة العقل وضرورته ولكن يقولون معنا النظر العقلي وأما أهل السنة المثبتون للعلو فيقولون إن ذلك ثابت بالكتاب والسنة والاجماع مع فطرة الله التى فطر العباد عليها وضرورة العقل ومع نظر العقل واستدلاله لكن الذين يقولون بأنه ينزل ولا يبقى فوق العرش وأنه يكون في جوف المخلوقات ونحو هؤلاء قد يقولون إن مستندهم في ذلك السمع وهو ما فهموه من القرآن أو من الأحاديث الصحيحة أو غير الصحيحة أو من أقوال السلف وهم أخطأوا من حيث نظروا اقتصروا على فهمه من نص واحد كفهمهم من حديث النزول ولم يتدبروا ما في الكتاب والسنة مما يصفه بالعلو والعظمة ونحو ذلك مما ينافى أن يكون شيء أعلى منه أو أكبر منه ويتدبروا أيضا دلالة النص مثل نزوله إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر بأن الليل يختلف فيكون ليل أهل المشرق ونصفه وثلثه الآخر قبل ذلك في المغرب بقريب من يوم فيلزم على قولهم أنه لايزال تحت العرش وهو قد أخبر أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض وما ذكروه ينافى استواءه على العرش وأنه ليس فوق العرش كما قد بسط في مواضع فصل { الْأَعْلَى }الأعلى1 على وزن أفعل التفضيل مثل الأكرم والأكبر والأجمل ولهذا قال النبى لما قال أبو سفيان أعل هبل أعل هبل فقال النبى ألا تجيبونه قالوا وما نقول قال قل الله أعلى وأجل وهو مذكور بأداة التعريف الأعلى مثل { وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }العلق3 بخلاف ما إذا قيل الله أكبر فانه منكر ولهذا معنى يخصه بتميز به ولهذا معنى يخصه يتميز به كما بين العلو والكبرياء والعظمة فان هذه الصفات وإن كانت متقاربة بل متلازمة فبينها فروق لطيفة ولهذا قال النبى فيما يروى عن ربه تعالى العظمة إزاري والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحدا منهما عذبته فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء وهو أعلى من الازار ولهذا كان شعائر الصلاة والأذان والأعياد والأماكن العالية هو التكبير وهو أحد الكلمات التى هي أفضل الكلام بعد القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبى ولم يجيء في شيء من الأثر بدل قول الله أكبر الله أعظم ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير فلو قال الله أعظم لم تنعقد به الصلاة لقول النبى مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم وهذا قول مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف وداود وغيرهم ولو أتى بغير ذلك من الأذكار مثل سبحان الله والحمد لله لم تنعقد به الصلاة ولأن التكبير مختص بالذكر في حال الارتفاع كما ان التسبيح مختص بحال الانخفاض كما في السنن عن جابر بن عبد الله قال كنا مع رسول الله إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك ولما نزل قوله{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال اجعلوها في سجودكم وثبت عنه أنه كان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربى الأعلى ولم يكن يكبر في الركوع والسجود لكن قد كان يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه كان يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي بتأول القرآن أي يتأول قوله {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً }النصر3 فكان يجمع بين التسبيح والتحميد وكذلك قد كان يقرن

بالتسبيح في الركوع والسجود والتهليل كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت افتقدت النبى ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسست ثم رجعت فاذا هو راكع أو ساجد يقول سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت فقلت بأبي أنت وأمي إنى لفى شأن وإنك لفى شأن ففى هذه الأحاديث كلها أنه كان يسبح في الركوع والسجود لكن قد يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل وقد يقرن به الدعاء ولم ينقل انه كبر في الركوع والسجود وأما قراءة القرآن فيهما فقد ثبت عنه انه قال إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا وساجدا رواه مسلم من حديث علي ومن حديث ابن عباس وذلك ان القرآن كلام الله فلا يتلى الا في حال الارتفاع والتكبير ايضا محلة الارتفاع وجمهور العلماء على انه يشرع التسبيح في الركوع والسجود وروى عن مالك انه كره المداومة على ذلك لئلا يظن وجوبه ثم اختلفوا في وجوبه فالمشهور عن أحمد وإسحق وداود وغيرهم وجوبه وعن أبي حنيفة والشافعي استحبابه والقائلون بالوجوب منهم من يقول يتعين سبحان ربى العظيم و سبحان ربى الأعلى للأمر بهما وهو قول كثير من اصحاب أحمد ومنهم من يقول بل يذكر بعض الأذكار المأثورة والأقوى انه يتعين التسبيح إما بلفظ سبحان وإما بلفظ سبحانك ونحو ذلك وذلك أن القرآن سماها تسبيحا فدل على وجوب التسبيح فيها وقد بينت السنة أن محل ذلك القيام وسماها قياما و سجودا و ركوعا وبينت السنة علة ذلك ومحله وكذلك التسبيح يسبح في الركوع والسجود وقد نقل عن النبى أنه كان يقول سبحان ربى العظيم و سبحان ربى الأعلى وانه كان يقول سبحانك اللهم وب اللهم اغفر لي و سبحانك وبحمدك لا اله الا انت وفي بعض روايات أبو داود سبحان ربي العظيم وبحمده وفي استحباب هذه الزيادة عن أحمد روايتان وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله كان يقول في ركوعه وسجوده سبوح قدوس رب الملائكة والروح وفي السنن أنه كان يقول سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة فهذه كلها تسبيحات والمنقول عن مالك انه كان يكره المداومة على ذلك فان كان كراهة المداومة على 0 سبحان ربي الأعلى والعظيم فله وجه وان كان كراهة المداومة على جنس التسبيح فلا وجه له وأظنه الأول وكذلك المنقول عنه إنما هو كراهة المداومة على سبحان ربى العظيم لئلا يظن انها فرض وهذا يقتضي ان مالكا انكر أن تكون فرضا واجبا وهذا قوى ظاهر بخلاف جنس التسبيح فان أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جدا وقد علم انه كان يداوم على التسبيح بألفاظه متنوعة وقوله اجعلوها في ركوعكم وفي سجودكم يقتضى أن هذا محل لامتثال هذا الأمر لا يقتضى انه لا يقال إلا هي مع ما قد ثبت انه كان يقول غيرها والجمع بين صيغتى تسبيح بعيد بخلاف الجمع بين التسبيح والتحميد والتهليل والدعاء فان هذه أنواع والتسبيح نوع واحد فلا يجمع فيه بين صيغتين وأيضا قد ثبت في الصحيح أنه قال أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر فهذا يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها فان جعل التسبيح نوعا واحدا ف سبحان الله أفضل بهذا الحديث وأيضا فقوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } الأعلى1 و {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } الواقعة74 أمر بتسبيح ربه ليس أمرا بصيغة معينة فاذا قال سبحان الله وبحمده سبحانك اللهم وبحمدك فقد سبح ربه الأعلى والعظيم واسمه الله يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن وإن كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه ففى اسمه الله التصريح بالالهية واسمه الله أعظم من اسمه الرب وفي مسلم عن ابي ذر أن رسول الله سئل أي الكلام أفضل فقال ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده فالقيام فيه التحميد و في الاعتدال من الركوع وفي الركوع والسجود التسبيح وفي الانتقال التكبير وفي القعود التشهد وفيه التوحيد فصارت الأنواع الأربعة في الصلاة والفاتحة أيضا فيها التحميد والتوحيد فالتحميد والتوحيد ركن يجب في القراءة

والتكبير ركن في الافتتاح والتشهد الآخر ركن في القعود كما هو المشهور عن أحمد وهو مذهب الشافعي وفيه التشهد المتضمن للتوحيد يبقي التسبيح وأحمد يوجبه في الركوع والسجود وروي عنه أنه ركن وهو قوي لثبوت الأمر به في القرآن والسنة فكيف يوجب الصلاة على النبى ولم يجىء أمر بها في الصلاة خصوصا و لا يوجب التسبيح مع الأمر به في الصلاة ومع كون الصلاة تسمى تسبيحا وكل ما سميت به الصلاة من أبعاضها فهو ركن فيها كما سميت قياما و ركوعا و سجودا وقراءة وسميت أيضا تسبيحا ولم يأت عن النبى ما ينفي وجوبه في حال السهو كما ورد في التشهد الأول أنه لما تركه سجد للسهو لكن قد يقال لما لم يأمر به المسيء في صلاته دل على أنه واجب ليس بركن وبسط هذه المسائل له موضع آخر والمقصود هنا أن التسبيح قد خص به حال الانخفاض كما خص حال الارتفاع بالتكبير فذكر العبد في حال انخفاضه وذله ما يتصف به الرب مقابل ذلك فيقول في السجود سبحان ربي الأعلى وفي الركوع سبحان ربي العظيم و الأعلى يجمع معاني العلو جميعا و أنه الأعلى بجميع معانى العلو و قد إتفق الناس على أنه علي على كل شيء بمعنى أنه قاهر له قادر عليه متصرف فيه كما قال {إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ }المؤمنون91 و على أنه عال عن كل عيب و نقص فهو عال عن ذلك منزه عنه كما قال تعالى { وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً {39} أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً{40} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً{41} قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً{42} سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً{43} الإسراء39 -43 فقرن تعاليه عن ذلك بالتسبيح و قال تعالى { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ{91} عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{92}الؤمنون91-92 و قالت الجن {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً }الجن3 و فى دعاء الإستفتاح سبحانك اللهم و بحمدك و تبارك إسمك و تعالى جدك و في الصحيحين أنه كان يقول فى آخر إستفتاحه تباركت و تعاليت أستغفرك و أتوب إليك فقد بين سبحانه أنه تعالى عما يقول المبطلون و عما يشركون فهو متعال عن الشركاء و الأولاد كما أنه مسبح عن ذلك و تعاليه سبحانه عن الشريك هو تعاليه عن السمي و الند و المثل فلا يكون شيء مثله و قد ذكروا من معاني العلو الفضيلة كما يقال الذهب أعلى من الفضة و نفى المثل عنه يقتضى أنه أعلى من كل شيء فلا شيء مثله و هو يتضمن أنه أفضل و خير من كل شيء كما أنه أكبر من كل شيء و فى القرآن {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ }النمل59 و يقول{أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }النحل17 و يقول { أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى }يونس35 و قالت السحرة { وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى }طه73 و هو سبحانه يبين أن المعبودين دونه ليسوا مثله فى مواضع كقوله {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ {31} فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ{32} كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{33} قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ{34} قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{35} وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ{36}يونس31-36 وقال تعالى { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ{17} وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{18} وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ{19} وَالَّذِينَ يَدْعُونَ

مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{20} أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ{21}النحل18-21 و كذلك قوله في أثناء السورة {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ {75} وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{76} النحل75 -76 فهو سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه و أنه لا مثل له و يبين ما إختص به من صفات الكمال و إنتفائها عما يعبد من دونه و يبين أنه يتعالى عما يشركون و عما يقولون من إثبات الأولاد و الشركاء له و قال {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 و هم كانوا يقولون إنهم يشفعون لهم و يتقربون بهم لكن كانوا يثبتون الشفاعة بدون إذنه فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة و هذا نوع من الشرك فلهذا قال تعالى {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ }الزخرف86 فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله كما روى إبن أبى حاتم عن السدي فى قوله { إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 يقول لإبتغت الحوائج من الله و عن معمر عن قتادة { لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 لإبتغوا التقرب إليه مع أنه ليس كما يقولون و عن سعيد عن قتادة لو كان معه آلهة كما يقولون يقول لو كان معه آلهة إذا لعرفوا له فضله و مزيته عليهم و لإبتغوا إليه ما يقربهم إليه و روي عن سفيان الثوري لتعاطوا سلطانه و عن أبى بكر الهذلي عن سعيد بن جبير سبيلا إلى أن يزيلوا ملكه و الهذلي ضعيف فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه فى كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء و الأولاد فليس كمثله شيء و هذا يقتضى ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه و أنه لا يماثله غيره فى شيء من صفات الكمال بل هو متعال عن أن يماثله شيء و تضمن أنه عال على كل ما سواه قاهر له قادر عليه نافذة مشيئته فيه و أنه عال على الجميع فوق عرشه فهذه ثلاثة أمور في إسمه العلى و إثبات علوه على ما سواه و قدرته عليه و قهره يقتضي ربوبيته له و خلقه له و ذلك يستلزم ثبوت الكمال و علوه عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له فى صفات الكمال و هذا و هذا يقتضي جميع ما يوصف به في الإثبات و النفي ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال و فى النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال و ينزه عن أن يكون له مثل فى صفات الكمال كما قد دلت على هذا و هذا سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2}الاخلاص 1-2 وتعاليه عن الشركاء يقتضي إختصاصه بالإلهية و أنه لا يستحق العبادة إلا هو و حده كما قال{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 أي و إن كانوا كما يقولون يشفعون عنده بغير إذنه و يقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب و الإله دونهم وكانوا يبتغون إليه سبيلا بالعبادة له والتقرب إليه هذا أصح القولين كما قال { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ {30}الانسان 29-30 و قال { إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} عبس11-12 و قال {أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ }الإسراء57 ثم قال {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً }الإسراء43 فتعالى عن أن يكون معه إله غيره أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه فهذا هو الذي كانوا يقولون و لم يكونوا يقولون أن آلهتهم تقدر أن تمانعه أو تغالبه بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق و إن كانوا هم لم يقولوا ذلك كما قال {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ }المؤمنون91 فقد تبين أن إسمه الأعلى يتضمن إتصافه بجميع صفات الكمال و تنزيهه عما ينافيها من صفات النقص و عن أن يكون له مثل و أنه لا إله إلا هو و لا رب سواه والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن

التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التى يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده قال إبن أبي حاتم حدثنا أبى ثنا إبن نفيل الحرانى ثنا النضر إبن عربي قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال إسم يعظم الله به و يحاشي به من السوء و قال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا حفص بن غياث عن حجاج عن إبن أبي مليكة عن إبن عباس قال سبحان قال تنزيه الله نفسه من السوء و عن الضحاك عن إبن عباس فى قوله {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً} الإسراء1 قال عجب و عن أبى الأشهب عن الحسن قال سبحان إسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه و قد جاء عن غير و احد من السلف مثل قول إبن عباس أنه تنزيه نفسه من السوء و روي فى ذلك حديث مرسل و هو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة و نفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال و فيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران إسم يعظم الله به و يحاشى به من السوء و روى عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عثمان بن عبدالله بن موهب عن موسى بن طلحة قال سئل النبى صلى الله عليه و سلم عن التسبيح فقال إنزاهه عن السوء و قال حدثنا الضحاك إبن مخلد عن شبيب عن عكرمة عن إبن عباس سبحان الله قال تنزيهه حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم قال جاء رجل إلى إبن عباس فقال لا إله إلا الله نعرفها أنه لا إله غيره و الحمد لله نعرفها أن النعم كلها منه و هو المحمود عليها و الله أكبر نعرفها أنه لا شيء أكبر منه فما سبحان الله فقال إبن عباس و ما ينكر منها هي كلمة رضيها الله لنفسه و أمر بها ملائكته و فزع إليها الأخيار من خلقه [1]

الله سبحانه واحد وإنما تعددت صفاته

ان العطف قد يكون للتغاير في الذوات و قد يكون للتغاير في الأسماء و الصفات كقوله (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5} الاعلى1-5 و هو سبحانه واحد و إنما تعددت أسماؤه و صفاته[2]

وعطف الشيء على الشيء فى القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم الذى ذكر لهما وعطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين كقوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} الاعلى 1-4[3]

فإنه عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد كقوله { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى2-3 وقوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} الحديد3 وقوله { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{1} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{2} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{3} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ{4} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{5} المؤمنون1-5 ونظائر هذا كثيرة [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:97- 127

[2] شرح العمدة ج: 4 ص: 157 و مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 200

[3] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 177

[4] مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 397

الموجودات العينية من آيات وجوده

كانت طريقة الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه الاستدلال على الرب تعالى بذكر اياته وان استعملوا في ذلك القياس استعملوا القياس الاولى ولم يستعملوا قياس شمول يستوى افراده ولا قياس تمثيل محض فان الرب تعالى لا مثل له ولا يجتمع هو وغيره تحت كلي يستوي افراده بل ما ثبت بغيره من كمال لا نقص فيه فثبوته له بطريق الاولى وما تنزه عنه غيره من النقائص فتنزهه عنه بطريق الاولى استعمال قياس الاولى في القران ولهذا كانت الاقيسة العقلية البرهانية المذكورة في القران من هذا الباب كما يذكره في دلائل ربو بيته وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وامكان المعاد وغير ذلك من المطالب العالية السنية والمعالم الالهية التي هي اشرف العلوم واعظم ما تكمل به النفوس من المعارف وان كان كما لها لا بد فيه من كمال علمها وقصدها جميعا فلا بد من عبادة الله وحده المتضمنة لمعرفته ومحبته والذل له واما استدلاله تعالى بالآيات فكثير في القران والفرق بين الايات وبين القياس ان الاية هي العلامة وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول لا يكون مدلوله امرا كليا مشتركا بين المطلوب وغيره بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول كما ان الشمس آية النهار قال تعالى وجعلنا اليل والنهار ايتين فمحونا اية اليل وجعلنا اية النهار مبصرة فنفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار وكذلك آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نفس العلم بها يوجب العلم بنبوته بعينه لا يوجب امرا كليا مشتركا بينه وبين غيره وكذلك آيات الرب تعالى نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى لا يوجب علما كليا مشتركا بينه وبين غيره والعلم بكون هذا مستلزما لهذا هو جهة الدليل فكل دليل في الوجود لا بد ان يكون مستلزما للمدلول والعلم باستلزام المعين للمعين المطلوب اقرب الى الفطرة من العلم بأن كل معين من معينات القضية الكلية يستلزم النتيجة والقضايا الكلية هذا شأنها فان القضايا الكلية ان لم تعلم معيناتها بغير التمثيل والا لم تعلم الا بالتمثيل فلا بد من معرفة لزوم المدلول للدليل الذي هو الحد الاوسط فلا بد ان يعرف ان كل فرد من افراد الحكم الكلي المطلوب يلزم كل فرد من افراد الدليل كما اذا قيل كل ا ب وكل ب ج فكل ج ا فلا بد ان يعرف ان كل فرد من افراد الجيم يلزم كل فرد من أفراد الباء وكل فرد من أفراد الباء يلزم كل فرد من أفراد الالف ومعلوم ان العلم بلزوم الجيم المعين للباء المعين والباء المعين للالف المعين اقرب الى الفطرة من هذا وهذا كما قدمناه في امثلة اقيستهم البرهانية مثل قولهم الكل اعظم من الجزء و الاشياء المساوية لشيء واحد متساوية و الضدان لا يجتمعان والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ونحو ذلك فان هذه قضايا كلية ومعلوم ان الانسان اذا تصور ما يتصوره من معين او جزئه فان تصوره لكون هذا الكل المعين اعظم من جزئه اسبق الى عقله من ان يتخيل ان كل كل اعظم من جزئه فهو يتصور ان بدنه اعظم من يده ورجله وان السماء اعظم من كواكبها والجبل اعظم من بعضه والمدينة اعظم من بعضها ونحو ذلك قبل ان يتصور القضية الكلية الشاملة لجميع هذه الافراد ولذلك اذا تصور شيئا معينا يعلم انه لا يكون موجودا معدوما في حال واحدة قبل ان يتصور ان كل نقيضين لا يجتمعان ولذلك اذا تصور سوادا معينا علم انه لا يكون اللون الواحد سوادا بياضا قبل ان يتصور ان كل ضدين لا يجتمعان

وامثال ذلك كثيرة واذا قيل تلك القضية الكلية تحصل في الذهن ضرورة او بديهة من واهب العقل قيل فحصول تلك القضية المعينة في الذهن من واهب العقل اقرب عظم الفرق بين اثبات الرب بالايات وبين اثباته بالقياس البرهاني ومعلوم ان كل ما سوى الله من الممكنات فانه مستلزم لذات الرب تعالى يمتنع وجوده بدون وجود ذات الرب تعالى وتقدس وان كان مستلزما ايضا لامور كلية مشتركة بينه وبين غيره فلأنه يلزم من وجوده وجود لوازمه وتلك الكليات المشتركة من لوازم المعين اعني يلزمه ما يخصه من ذلك الكلي العام والكلي المشترك يلزمه بشرط وجوده ووجود العالم الذي يتصور القدر المشترك وهو سبحانه يعلم الامور على ما هي عليه فيعلم نفسه المقدسة بما يخصها ويعلم الكليات انها كليات فيلزم من وجود الخاص وجود العام المطلق أي حصة المعين من ذلك العام كما يلزم من وجود هذا الانسان وجود الانسان ومن وجود هذا الانسان وجود الانسانية والحيوانية القائمة به فكل ما سوى الرب مستلزم لنفسه المقدسة بعينها يمتنع وجود شيء سواه بدون وجود نفسه المقدسة فان الوجود المطلق الكلي لا تحقق له في الاعيان فضلا عن ان يكون خالقا لها مبدعا ثم يلزم من وجوده المعين الوجود المطلق المطابق للمعين فاذا تحقق الوجود الواجب تحقق الوجود المطلق المطابق للمعين واذا تحقق الفاعل لكل شيء تحقق الفاعل المطلق المطابق واذا تحقق القديم الازلي تحقق القديم المطلق المطابق واذا تحقق الغنى عن كل شيء تحقق الغنى المطابق واذا تحقق رب كل شيء تحقق الرب المطابق كما ذكرنا انه اذا تحقق هذا الانسان وهذا الحيوان تحقق الانسان المطلق المطابق والحيوان المطلق المطابق لكن المطلق لا يكون مطلقا الا في الاذهان لا في الاعيان والله تعالى هو الخالق للامور الموجودة في الاعيان والمعلم للصور الذهنية المطابقة لما في الاعيان ولهذا كان اول ما انزل على رسوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق1-5 بين في اول ما انزل انه خالق الاعيان عموما وخصوصا فكما انه خالق الموجودات العينية فهو المعلم للماهيات الذهنية فالموجودات الخارجية ايات مستلزمة لوجود عينه واذا تصورتها الاذهان معينة او مطلقة فهو المعلم لهذا المتصور إذ الصور الذهنية ايضا من آياته المستلزمة لوجود عينه لكنها تدل مع ذلك على هدايته وتعليمه كما قال تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى1-3 {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 كما ان الموجودات العينية من آيات وجوده والصور الذهنية من حيث انها موجودات عينيه من هذا الباب كما أنها من جهة مطابقتها للموجودات الخارجية من الباب الاول لكن إذا علم إنسان وجود إنسان مطلق وحيوان مطلق لم يكن عالما بنفس المعين كذلك من علم واجبا مطلقا وفاعلا مطلقا وغنيا مطلقا لم يكن عالما بنفس رب العالمين وما يختص به عن غيره وذلك هو مدلول آياته تعالى فآياته تستلزم عينه التي يمنع تصورها من وقوع الشركة فيها وكل ما سواه دليل على عينه وآية له فانه ملزوم لعينه وكل ملزوم فانه دليل على لازمة ويمتنع تحقق شئ من الممكنات إلا مع تحقق عينه فكلها ملزوم لنفس الرب دليل عليه آية له [1]

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 150-154

وجوب التسبيح فى الركوع والسجود

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال لما نزلت {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 قال رسول الله إجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال إجعلوها فى سجودكم رواه أبو داود وإبن ماجه فأمر النبى صلى الله عليه وسلم يجعل هذين التسبيحين فى الركوع والسجود وأمره على الوجوب وذلك يقتضى وجوب ركوع وسجود تبعا لهذا التسبيح وذلك هو الطمأنينة ثم إن من الفقهاء من قد يقول التسبيح ليس بواجب وهذا القول يخالف ظاهر الكتاب والسنة فإن ظاهرهما يدل على وجوب الفعل والقول جميعا فإذا دل دليل على عدم وجوب القول لم يمنع وجوب الفعل وأما من يقول بوجوب التسبيح فيستدل لذلك بقوله تعالى { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا }طه130 وهذا أمر بالصلاة كلها كما ثبت فى الصحيحين عن جرير بن عبدالله البجلى رضى الله عنه قال كنا جلوسا عند النبى إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضارون فى رؤيته فإن إستطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فإفعلوا ثم قرأ { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا }طه130 وإذا كان الله عز وجل قد سمى الصلاة تسبيحا فقد دل ذلك على وجوب التسبيح كما أنه لما سماها قياما فى قوله تعالى {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً }المزمل2 دل على وجوب القيام وكذلك لما سماها قرآنا فى قوله تعالى { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ }الإسراء78 دل على وجوب القرآن فيها ولما سما وسجودا فى مواضع دل على وجوب الركوع والسجود فيها وذلك أن تسميتها بهذه الأفعال دليل على أن هذه الأفعال لازمة لها فاذا وجدت هذه الأفعال فتكون من الأبعاض اللازمة كما أنهم يسمون الإنسان بإبعاضه اللآزمة له فيسمونه رقبة ورأسا ووجها ونحو ذلك كما فى قوله تعالى {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ }النساء92 ولو جاز وجود الصلاة بدون التسبيح لكان الأمر بالتسبيح لا يصلح ان يكون أمرا بالصلاة فإن اللفظ حينئذ لا يكون دالا على معناه ولا على ما يستلزم معناه [1]

فقوله تعالى {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ }السجدة15 يدل على أن التذكير بها كقراءتها فى الصلاة موجب للسجود والتسبيح وأنه من لم يكن اذا ذكر بها يخر ساجدا ويسبح بحمد ربه فليس بمؤمن وهذا متناول الآيات التى ليس فيها سجود وهى جمهور آيات القرآن ففى القرآن أكثر من ستة آلاف آية وأما آيات السجدة فبضع عشرة آية وقوله { ذُكِّرُوا بِهَا }السجدة15 يتناول جميع الآيات فالتذكير بها جميعها موجب للتسبيح والسجود وهذا مما يستدل به على وجوب التسبيح والسجود وعلى هذا تدل عامة أدلة الشريعة من الكتاب والسنة تدل على وجوب جنس التسبيح فمن لم يسبح فى السجود فقد عصى الله ورسوله واذا أتى بنوع من أنواع التسبيح المشروع أجزأه وللفقهاء فى هذه المسألة ثلاثة اقوال قيل لا يجب ذكر بحال وقيل يجب ويتعين قوله سبحان ربى الأعلى لا يجزىء غيره وقيل يجب جنس التسبيح وان كان هذا النوع أفضل من غيره لأنه أمر به ان يجعل فى السجود وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنواع أخر وقوله اجعلوها فى سجودكم فيه كلام ليس هذا موضعه اذ قد يقال المسبح لربه بأى اسم سبحه فقد سبح اسم ربه الأعلى كما أنه بأى اسم دعاه فقد دعا ربه الذى له الأسماء الحسنى كما قال {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى }الإسراء110 وقال {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا }الأعراف180 فاذا كان يدعى بجميع أسمائه الحسنى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 550

وبأى اسم دعاه فقد دعا الذى له الأسماء الحسنى وهو يسبح بجميع أسمائه الحسنى وبأى اسم سبح فقد سبح الذى له الأسماء الحسنى ولكن قد يكون بعض الأسماء أفضل من بعض وبسط هذا له موضع آخر [1]

تسبيح الإسم يراد به تسبيح المسمى

فإن الإسم نفسه يسبح و يذكر و يراد بذلك المسمى و الإسم نفسه لا يفعل شيئا لا إكراما و لا غيره و لهذا ليس فى القرآن إضافة شيء من الأفعال و النعم إلى الإسم و لكن يقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ }الرحمن78 و نحو ذلك فإن اسم الله مبارك تنال معه البركة و العبد يسبح إسم ربه الأعلى فيقول سبحان ربى الأعلى و لما نزل قوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال إجعلوها في سجودكم فقالوا سبحان ربي الأعلى فكذلك كان النبى صلى الله عليه و سلم لا يقول سبحان إسم ربى الأعلى لكن قوله سبحان ربي الأعلى هو تسبيح لإسمه يراد به تسبيح المسمى لا يراد به تسبيح مجرد الإسم كقوله {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}الإسراء110 فالداعى يقول يا الله يا رحمن و مراده المسمى و قوله { أَيّاً مَّا }الإسراء110 أي الإسمين تدعوا و دعاء الإسم هو دعاء مسماه وهذا هو الذى أراده من قال من أهل السنة أن الإسم هو المسمى أرادوا به أن الإسم إذا دعى و ذكر يراد به المسمى فإذا قال المصلي الله أكبر فقد ذكر اسم ربه و مراده المسمى لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة فى الخارج فإن فساد هذا لا يخفى على من تصوره ولو كان كذلك كان من قال نارا إحترق لسانه و بسط هذا له موضع آخر [2]

الله تعالى لم يأمر بذكر اسم مفرد

و ما ذكره سيبويه وغيره من ائمة النحو ان العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به ما كان قولا فالقول لا يحكي به الا كلام تام او جملة اسمية او فعلية ولهذا يكسرون ان جاءت بعد القول فالقول لا يحكى به اسم والله تعالى لا يأمر احدا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسما مفردا مجردا والاسم المجرد لا يفيد الايمان باتفاق اهل الاسلام ولا يؤمر به فى شيء من العبادات ولا فى شيء من المخاطبات ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر ان بعض الأعراب مر بمؤذن يقول اشهد ان محمدا رسول الله بالنصب فقال ماذا يقول هذا هذا الاسم فاين الخبر عنه الذى يتم به الكلام وما فى القرآن من قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً }المزمل8 وقوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وقوله { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15} الاعلى 14-15 وقوله {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 ونحو ذلك لا يقتضى ذكره مفردا بل فى السنن انه لما نزل قوله {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل قوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال اجعلوها فى سجودكم فشرع لهم ان يقولوا فى الركوع سبحان ربي العظيم وفى السجود سبحان ربي الأعلى وفى الصحيح انه كان يقول فى ركوعه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 150

[22] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:322- 324

سبحان ربى العظيم وفى سجوده سبحان ربى الأعلى وهذا هو معنى قوله اجعلوها فى ركوعكم وسجودكم باتفاق المسلمين فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد كما فى الصحيح عنه انه قال افضل الكلام بعد القرآن اربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وفى الصحيح عنه انه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من قال فى يومه مائة مره لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كتب الله له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت احد بأفضل مما جاء به الا رجل قال مثل ما قال او زاد عليه ومن قال فى يومه مائة مره سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر وفى الموطأ وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال افضل ما قلته انا والنبيون من قبلى لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفى سنن ابن ماجة وغيره عنه انه قال افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله ومثل هذه الأحاديث كثيرة فى انواع ما يقال من الذكر والدعاء وكذلك ما فى القرآن من قوله تعالى {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام121 وقوله { فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ }المائدة4 انما هو قوله بسم الله وهذا جملة تامة اما اسمية على اظهر قولى النحاة او فعلية والتقدير ذبحى باسم الله او اذبح باسم الله وكذلك قول القارىء بسم الله الرحمن الرحيم فتقديره قراءتى بسم الله او اقرأ بسم الله ومن الناس من يضمر فى مثل هذا ابتدائى بسم الله او ابتدأت بسم الله والأول احسن لأن الفعل كله مفعول بسم الله ليس مجرد ابتدائه كما اظهر المضمر فى قوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 وفى قوله { بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا }هود41 وفى قول النبى من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها اخرى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله ومن هذا الباب قول النبى فى الحديث الصحيح لربيبة عمر بن ابى سلمة سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فالمراد ان يقول بسم الله ليس المراد ان يذكر الاسم مجردا وكذلك قوله فى الحديث الصحيح لعدى بن حاتم اذا ارسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل وكذلك قوله اذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله وعند خروجه وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وامثال ذلك كثير وكذلك ما شرع للمسلمين فى صلاتهم واذانهم وحجهم واعيادهم من ذكر الله تعالى انما هو بالحملة التامة كقول المؤذن الله اكبر الله اكبر اشهد ان لا اله الا الله اشهد ان محمدا رسول الله وقول المصلى الله اكبر سبحان ربى العظيم سبحان ربى الاعلى سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد التحيات لله وقول الملبى لبيك اللهم لبيك وامثال ذلك فجميع ما شرعه الله من الذكر انما هو كلام تام لا اسم مفرد لا مظهر ولا مضمر وهذا هو الذى يسمى فى اللغة كلمة كقوله كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله العظيم وقوله افضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد الا كل شيء ما خلا الله باطل ومنه قوله تعالى {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ }الكهف5 الآية وقوله {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً }الأنعام115 وامثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة فى الكتاب والسنة بل وسائر كلام العرب فانما يراد به الجملة التامة كما كانوا يستعملون الحرف فى الاسم فيقولون هذا حرف غريب اى لفظ الاسم غريب وقسم سيبوية الكلام الى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم وفعل وكل من هذه الأقسام يسمى حرفا لكن خاصة الثالث انه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهى اسماء ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها كما قال النبى من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات اما انى لا اقول الم حرف ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف وقد سأل الخليل اصحابه عن النطق بحرف الزاى

من زيد فقالوا زاي فقال جئتم بالاسم وانما الحرف ز ثم ان النحاة اصطلحوا على ان هذا المسمى فى اللغة بالحرف يسمى كلمة وان لفظ الحرف يخص لما جاء المعنى ليس باسم ولا فعل كحروف الجر ونحوها واما الفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ وتارة باسم ذلك الحرف ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده انه هكذا فى لغة العرب ومنهم من يجعل لفظ الكلمة فى اللغة لفظا مشتركا بين الاسم مثلا وبين الجملة ولا يعرف فى صريح اللغة من لفظ الكلمة الا الجملة التامة والمقصود هنا ان المشروع فى ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة وهو المسمى بالكلام والواحد منه بالكلمة وهو الذى ينفع القلوب ويحصل به الثواب والأجر والقرب الى الله ومعرفته ومحبته وخشيته وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية واما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرا او مضمرا فلا اصل له (كما يقول بعض المتصوفة وغيرهم قول (الله)فقط على اعتبار انه ذكر) فضلا عن ان يكون من ذكر الخاصة والعارفين بل هو وسيلة الى انواع من البدع والضلالات وذريعة الى تصورات احوال فاسدة من احوال اهل الالحاد واهل الاتحاد كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع[1]

بيان فساد قول من جعل الاسم هو المسمى

ولهذا لما كان يقصد بذكر اسمه ذكر المسمى صار يقول من يقول إن الاسم هو المسمى أن المراد المقصود من الاسم هو المسمى لا أن نفس اللفظ هو المسمى فإن هذا لا يقوله عاقل وتنزيه الاسم وتسبيحه تنزيه للمسمى وتسبيح له كما قال تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وجاء في الحديث لا تقوم القيامة حتى لا يعبد الله اسم أي لا يعبد الله باسم من أسمائه فإنه إذا قيل دعوت الله وعبدته فإنما في اللفظ الاسم والمقصود هو المسمى [2]

واما احتجاجهم بقوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وان المراد سبح ربك الأعلى وكذلك قوله {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن78 وما أشبه ذلك فهذا للناس فيه قولان معروفان وكلاهما حجة عليهم منهم من قال الاسم هنا صلة والمراد سبح ربك وتبارك ربك واذا قيل هو صلة فهو زائد لا معنى له فيبطل قولهم أن مدلول لفظ اسم ألف سين ميم هو المسمى فانه لو كان له مدلول مراد لم يكن صلة ومن قال أنه هو المسمى وأنه صلة كما قاله ابن عطية فقد تناقض فان الذى يقول هو صلة لا يجعل له معنى كما يقوله من يقول ذلك فى الحروف الزائدة التى تجىء للتوكيد كقوله {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ}آل عمران159 و {عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ }المؤمنون40 ونحو ذلك ومن قال انه ليس بصلة بل المراد تسبيح الاسم نفسه فهذا مناقض لقولهم مناقضة ظاهرة و التحقيق أنه ليس بصلة بل أمر الله بتسبيح اسمه كما أمر بذكر اسمه والمقصود بتسبيحه وذكره هو تسبيح المسمى وذكره فان المسبح والذاكر انما يسبح اسمه ويذكر اسمه فيقول سبحان ربى الأعلى فهو نطق بلفظ ربى الأعلى والمراد هو المسمى بهذا اللفظ فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى ومن جعله تسبيحا للاسم يقول المعنى أنك لا تسم به غير الله ولا تلحد فى أسمائه فهذا مما يستحقه اسم الله لكن هذا تابع للمراد بالآية ليس هو المقصود بها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:228- 233

[22] القواعد النورانية ج: 3 ص: 401

القصد الأول وقد ذكر الأقوال الثلاثة غير واحد من المفسرين كالبغوى قال قوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 اى قل سبحان ربى الأعلى والى هذا ذهب جماعة من الصحابة وذكر حديث ابن عباس ان النبى قرأ {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 فقال سبحان ربى الأعلى قلت فى ذلك حديث عقبة بن عامر عن النبى أنه لما نزل {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال اجعلوها فى سجودكم والمراد بذلك ان يقولوا فى الركوع سبحان ربى العظيم وفى السجود سبحان ربى الاعلى كما ثبت فى الصحيح عن حذيفة عن النبى أنه قام بالبقرة والنساء وآل عمران ثم ركع نحوا من قيامه يقول سبحان ربى العظيم وسجد نحوا من ركوعه يقول سبحان ربى الأعلى وفى السنن عن ابن مسعود عن النبى اذا قال العبد فى ركوعه سبحان ربى العظيم ثلاثا فقد تم ركوعه وذلك أدناه واذا قال فى سجوده سبحان ربى الأعلى ثلاثا فقد تم سجوده وذلك أدناه وقد أخذ بهذا جمهور العلماء قال البغوى وقال قوم معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون وجعلوا الاسم صلة قال ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحدا لأن أحدا لا يقول سبحان اسم الله وسبحان اسم ربنا انما يقولون سبحان الله وسبحان ربنا وكان معنى سبح اسم ربك سبح ربك قلت قد تقدم الكلام على هذا والذى يقول سبحان الله وسبحان ربنا إنما نطق بالاسم الذى هو الله والذى هو ربنا فتسبيحه انما وقع على الاسم لكن مراده هو المسمى فهذا يبين انه ينطق باسم المسمى والمراد المسمى وهذا لا ريب فيه لكن هذا لا يدل على أن لفظ اسم الذى هو ألف سين ميم المراد به المسمى لكن يدل على أن أسماء الله مثل الله وربنا وربى الاعلى ونحو ذلك يراد بها المسمى مع أنها هى فى نفسها ليست هى المسمى لكن يراد بها المسمى فأما اسم هذه الأسماء ألف سين ميم فلا هو المسمى الذى هو الذات ولا يراد به المسمى الذى هو الذات ولكن يراد به مسماه الذى هو الأسماء كأسماء الله الحسنى فى قوله {وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى }الأعراف180 فلها هذه الاسماء الحسنى التى جعلها هؤلاء هى التسميات وجعلوا التعبير عنها بالأسماء توسعا فخالفوا اجماع الأمم كلهم من العرب وغيرهم وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول والذين شاركوهم فى هذا الأصل وقالوا الأسماء ثلاثة قد تكون هى المسمى وقد تكون غيره وقد تكون لا هى هو ولا غيره وجعلوا الخالق والرازق ونحوهما غير المسمى وجعلوا العليم والحكيم ونحوهما للمسمى غلطوا من وجه آخر فانه اذا سلم لهم أن المراد بالاسم الذى هو ألف سين ميم هو مسمى الاسماء فاسمه الخالق هو الرب الخالق نفسه ليس هو المخلوقات المنفصلة واسمه العليم هو الرب العليم الذى العلم صفة له فليس العلم هو المسمى بل المسمى هو العليم فكان الواجب أن يقال على أصلهم الاسم هنا هو المسمى وصفته وفى الخالق الاسم هو المسمى وفعله ثم قولهم ان الخلق هو المخلوق وليس الخلق فعلا قائما بذاته قول ضعيف مخالف لقول جمهور المسلمين كما قد بسط فى موضعه فتبين أن هؤلاء الذين قالوا الاسم هو المسمى انما يسلم لهم أن أسماء الأشياء اذا ذكرت فى الكلام أريد به المسمى وهذا مما لا ينازع فيه أحد من العقلاء لأن لفظ اسم ألف سين ميم يراد به الشخص وما ذكروه من قول لبيد الى الحول ثم اسم السلام عليكما فمراده ثم النطق بهذا الاسم وذكره وهو التسليم المقصود كأنه قال ثم سلام عليكم ليس مراده ان السلام يحصل عليهما بدون ان ينطق به ويذكر اسمه فان نفس السلام قول فان لم ينطق به ناطق ويذكره لم يحصل وقد احتج بعضهم بقول سيبويه ان الفعل امثلة اخذت من لفظ احداث الاسماء وبنى لما مضى ولما لم يكن بعد وهذا لا حجة فيه لأن سيبويه مقصوده بذكر الاسم والفعل ونحو ذلك الالفاظ وهذا اصطلاح النحويين سموا الألفاظ بأسماء معانيها فسموا قام ويقوم وقم فعلا والفعل هو نفس الحركة فسموا اللفظ الدال عليها باسمها وكذلك اذا قالوا اسم معرب ومبنى

فمقصودهم اللفظ ليس مقصودهم المسمى واذا قالوا هذا الاسم فاعل فمرادهم أنه فاعل فى اللفظ اى أسند اليه الفعل ولم يرد سيبويه بلفظ الاسماء المسميات كما زعموا ولو أراد ذلك فسدت صناعته [1]

والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور فى القلب وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى فانه من الكلام والكلام اسم لفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره لكن ذكره بهما أتم والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وامر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى فيدعى بأسمائه الحسنى ويسبح اسمه وتسبيح اسمه هو تسبيح له اذ المقصود بالاسم المسمى كما أن دعاء هو دعاء المسمى قال تعالى {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى }الإسراء110 والله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال { اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً }الأحزاب41 {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ }الأعراف205 وهذا كثير وقال {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً }المزمل8 كما قال {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام118 {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام121{ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ }المائدة4 لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذى هو ألف سين ميم واما فى قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ }المزمل8 فيقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله فى الذبيحة {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام118 كقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 وقوله {بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا }هود41 فقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 هو قراءة بسم الله فى أول السور وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارىء مأمور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هى تابعة لغيرها وهنا يقول {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }النمل30 كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم فى قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ }الإنسان25 فانه يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ}الإنسان25 يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله { وَاذْكُر رَّبَّكَ }آل عمران41 فقد يتناول ذكر القلب وقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 هو كقول الآكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله وأما التسبيح فقد قال {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }الأحزاب42 وقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وقال {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 [2]

الله سبحانه هو العلى الأعلى

وإسمه العلى يفسر بهذين المعنيين يفسر بأنه أعلى من غيره قدرا فهو أحق بصفات الكمال و يفسر بأنه العالي عليهم بالقهر و الغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم و هم المقدورون و هذا يتضمن كونه خالقا لهم و ربا لهم و كلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شيء فلا شيء فوقه كما قال النبى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 199-202

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص:209- 212

صلى الله عليه و سلم أنت الأول فليس قبلك شيء و أنت الآخر فليس بعدك شيء و أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء فلا يكون شيء قبله و لا بعده و لا فوقه ولا دونه كما أخبر النبى صلى الله عليه و سلم و أثنى به على ربه و إلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصا و كان ذلك أعلى منه وإن قيل إنه لا داخل العالم و لا خارجه كان ذلك تعطيلا له فهو منزه عن هذا و هذا هو العلي الأعلى مع أن لفظ العلي و العلو لم يستعمل فى القرآن عند الإطلاق إلا فى هذا وهو مستلزم لذينك لم يستعمل فى مجرد القدرة ولا فى مجرد الفضيلة ولفظ العلو يتضمن الإستعلاء و غير ذلك من الأفعال إذا عدى بحرف الإستعلاء دل على العلو كقوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف54 فهو يدل على علوه على العرش و السلف فسروا الإستواء بما يتضمن الإرتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري فى صحيحه عن أبي العالية فى قوله { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف54 قال إرتفع و كذلك رواه ابن أبي حاتم و غيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبى إياس عن أبى جعفر عن أبى الربيع عن أبى العالية { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف54 قال إرتفع[1]

كل أعمال الناس تابعة لهدى الله

وجلب المنفعة ودفع المضرة أما أن يكون في الدين أو في الدنيا فصارت أربعة أقسام الهداية والمغفرة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدين والطعام والكسوة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا وإن شئت قلت الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن وهو الأصل في الأعمال الإرادية والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن الطعام لجلب منفعته واللباس لدفع مضرته وفتح الأمر بالهداية فإن الهداية وإن كانت الهداية النافعة هى المتعلقة بالدين فكل اعمال الناس تابعة لهدى الله إياهم كما قال سبحانه { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى 1-3 وقال موسى { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 وقال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 وقال {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }الإنسان3 ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام احدها الهداية إلى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم وبين المؤمن والكافر و الثانى الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 وقال تعالى { إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وقال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 فهذا مع قوله {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ }القصص56 يبين أن الهدى الذى أثبته هو البيان والدعاء والأمر والنهى والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذى نفاه وهو القسم الثالث الذى لا يقدر عليه إلا الله والقسم الثالث الهدى الذى هو جعل الهدى فى القلوب وهو الذى يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على أن الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 358- 359

القدرة على الطاعة وأما من قال أنهما إستطاعتان إحداهما قبل الفعل وهى الإستطاعة المشروطة فى التكليف كما قال تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}آل عمران97 وقال النبى لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وهذه الإستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى وهى الإستطاعة التى لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة وأما الذى عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فاثبات النوعين جميعا كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا والثانية المقارنة للفعل وهى الموجبة له وهى المنفية عمن لم يفعل فى مثل قوله { مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ }هود20 وفى قوله { لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }الكهف101 وهذا الهدى الذى يكثر ذكره فى القرآن فى مثل قوله{اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 وقوله {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام125 وفى قوله { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }الكهف17 وأمثال ذلك وهذا هو الذى تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له ويزعمون أن العبد هو الذى يهدى نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فإستهدونى أهدكم فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما امرهم بذلك فى أم الكتاب فى قوله {اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 وعند القدرية إن الله لا يقدر من الهدى إلا على ما فعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وإزاحة العلة ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر فى هداية الله تعالى ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر فى باب الهدى وقد بين الإختصاص فى هذه بعد عموم الدعوة فى قوله {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }يونس25 فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذى يجوزه عليه بعض المثبتة وبيان أنه هو الذى يهدى عباده ردا على القدرية فأخبر هناك بعدله الذى يذكره بعض المثبتة وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذى تنكره القدرية وإن كان كل منهما قصده تعظيما لا يعرف ما إشتمل عليه قوله والقسم الرابع الهدى فى الآخرة كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{23} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ{24}الحج23-24 وقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ }يونس9 فقوله { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ }يونس9 كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ }الطور21 على أحد القولين فى الآية وهذا الهدى ثواب الإهتداء فى الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر فى الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ{22} مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ{23}الصافات 22-23 وقال وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً }الإسراء72 وقال { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126} طه 123-126 وقال {وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً }الإسراء97 الآية فأخبر أن الضالين فى الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال الراحموان يرحمهم الرحمن إرحموا من فى الأرض يرحكم من فى السماء وقال من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى

الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار [1]

ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق

والله سبحانه قد تفضل على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة أحدهما أن كل مولود يولد على الفطرة كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو نصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }الروم30 قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }الروم30 وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه و سلم قال يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين و حرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالالهية محبة له تعبده لا تشرك به شيئا و لكن يفسدها ما يزين لها شياطين الانس و الجن بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ {172} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{173}الأعراف172 -173 وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع الثاني أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة و أسباب العلم و بما أنزل إليهم من الكتب و أرسل إليهم من الرسل قال تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 1-5 و قال تعالى {الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4} الرحمن1-4 وقال تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى1-3 و قال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق و محبته له وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى و الآخرة وجعل في فطرته محبه لذلك لكن قد يعرض الانسان بجاهليته و غفلته عن طلب علم ما ينفعه و كونه لا يطلب ذلك و لايريده أمر عدمي لا يضاف إلى الله تعالى فلا يضاف إلى الله لاعدم علمه بالحق و لا عدم إرادته للخير لكن النفس كما تقدم الارادة و الحركة من لوازمها فانها حية حياة طبيعية لكن سعادتها و نجاتها إنما تتحقق بأن تحى الحياة النافعة الكاملة و كان مالها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها فلا هي حية متنعمة بالحياة و لا هي ميتة مستريحة من العذاب قال تعالى {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{9} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{12} ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى{13}الاعلى9-13 فالجزاء من جنس العمل لما كان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها بل كانت حياته من جنس حياة البهائم و لم يكن ميتا عديم الاحساس كان في الآخرة كذلك فان مقصود الحياة هو حصول ما ينتفع به الحي و يستلذ به و الحي لابد له من لذة أو ألم فاذا لم تحصل له اللذة لم يحصل له مقصود الحياة فان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 171-175 والفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 422

الألم ليس مقصودا كمن هو حي فى الدنيا و به أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء فهذا يبقى طول حياته يختار الموت و لا يحصل له فلما كان من طبع النفس الملازم لها وجود الارادة و العمل إذ هو حارث همام فان عرفت الحق و أرادته و أحبته و عبدته فذلك من تمام إنعام الله عليها وإلا فهي بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله و مرادات سيئة تضرها فهذا الشر قد تركب من كونها لم تعرف الله و لم تعبده و هذا عدم لا يضاف إلى فاعل و من كونها بطبعها لا بد لها من مراد معبود فعبدت غيره و هذا هو الشر الذي تعذت عليه و هو من مقتضى طبعها مع عدم هداها والقدرية يعترفون بهذا جميعه و بأن الله خلق الانسان مريدا لكن يجعلون المخلوق كونه مريدا بالقوة و القبول أي قابلا لأن يريد هذا و هذا و أما كونه مريدا لهذا المعين و هذا المعين فهذا عندهم ليس مخلوقا لله و غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا فان الله خالق هذا كله وإرادة النفس لما يريده من الذنوب و فعلها هو من جملة مخلوقات الله تعالى فان الله خالق كل شيء و هو الذي ألهم النفس التى سواها فجورها و تقواها وكان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى دعائه اللهم آت نفسي تقواها و زكها أنت خير من زكاها أنت و ليها و مولاها وهو سبحانه جعل إبراهيم و آله ائمة يهدون بأمره و جعل فرعون و آله أئمة يدعون الى النار و يوم القيامة لا ينصرون لكن هذا لا يضاف مفردا إلى الله تعالى لوجهين من جهة علته الغائية و من جهة سببه و علته الفاعلية أما الغائية فان الله إنما خلقه لحكمة هو باعتبارها خير لاشر و إن كان شرا إضافيا فاذا أضيف مفردا توهم المتوهم مذهب جهم أن الله يخلق الشر المحض الذي لاخير فيه لأحد لا لحكمة و لا رحمة و الاخبار و السنة و الاعتبار تبطل هذا المذهب كما أنه إذا قيل محمد و أمته يسفكون الدماء و يفسدون فى الأرض كان هذا ذما لهم و كان باطلا و إذا قيل يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا و يكون الدين كله لله و يقتلون من منعهم من ذلك كان هذا مدحا لهم و كان حقا فاذا قيل ان الرب تبارك و تعالى حكيم رحيم أحسن كل شيء خلقه و أتقن ما صنع و هو أرحم الراحمين أرحم بعباده من الوالدة بولدها والخير كله بيديه و الشر ليس إليه بل لا يفعل الا خيرا و ما خلقه من ألم لبعض الحيوانات أو من أعمالهم المذمومة فله فيها حكمة عظيمة و نعمة جسيمة كان هذا حقا و هو مدح للرب و ثناء عليه وأما إذا قيل إنه يخلق الشر الذي لا خير فيه و لا منفعة لأحد و لا له فيها حكمة و لا رحمة و يعذب الناس بلاذنب لم يكن هذا مدحا للرب و لا ثناء عليه بل كان بالعكس ومن هؤلاء [1]

فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأمم

ومما يبين به فضل أمته على جميع الأمم وذلك مستلزم لكونه رسولا صادقا كما تقدم وهو آية وبرهان على نبوته فإن كل ملزوم فإنه دليل على لازمه إن الأمم نوعان نوع لهم كتاب منزل من عند الله كاليهود والنصارى ونوع لا كتاب لهم كالهند واليونان والترك وكالعرب قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وما من أمة إلا ولا بد لها من علم وعمل بحسبهم ويقوم به ما يقوم من مصالح دنياهم وهذا من الهداية العامة التي جعلها الله لكل إنسان بل لكل حي كما يهدي الحيوان لجلب ما ينفعه بالأكل والشرب ودفع ما يضره باللباس والكن وقد خلق الله فيه حبا لهذا وبغضا لهذا قال تعالى {

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:295-300 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص:205- 208 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 66-68

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى 1-3 وقال موسى {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50[1]

لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شيء

وقال الامام أبو عبدالله الحارث بن اسماعيل بن أسد المحاسبى فى كتابه المسمى فهم القرآن قال فى كلامه على الناسخ والمنسوخ وأن النسخ لا يجوز فى الأخبار قال لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شيء إلى أن قال وكذلك لا يجوز اذا أخبر أن صفاته حسنة عليا أن يخبر بذلك أنها دنية سفلى فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب وأنه لا يبصر ما قد كان ولا يسمع الاصوات ولا قدره له ولا يتكلم ولا كلام كان منه وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك فاذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز فان تلوت آية فى ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض اخباره وكذلك قوله تعالى {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }الأنعام18 وقوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 وقوله {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء }الملك16 وقوله {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ }فاطر10 وقال {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ }السجدة5 وقال {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }المعارج4 وقال لعيسى { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ }آل عمران55 الآية وقال {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ }النساء158 وقال {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ }الأعراف206 وذكر الآلهة أن لو كان آلهة لابتغوا الى ذى العرش سبيلا حيث هو فقال {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 أى طلبه وقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال أبو عبدالله فلن ينسخ ذلك لهذا أبدا كذلك قوله {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }الزخرف84 وقوله { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }ق16 وقوله {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ}الأنعام3 وقوله { مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }المجادلة7 الآية فليس هذا بناسخ لهذا ولا هذا ضد لذلك وأعلم أن هذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته فيكون فى أسفل الأشياء أو ينتقل فيها لانتقالها ويتبعض فيها على أقدارها ويزول عنها عند فنائها جل وعز عن ذلك وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال فزعموا أن الله تعالى فى كل مكان بنفسه كائنا كما هو على العرش لا فرقان بين ذلك ثم أحالوا فى النفى بعد تثبيت ما يجوز عليه فى قولهم ما نفوه لأن كل من يثبت شيئا فى المعنى ثم نفاه بالقول لم يغن عنه نفيه بلسانه واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى فى كل شيء بنفسه كائنا ثم نفوا معنى ما أثبتوه فقالوا لا كالشيء فى الشيء قال ابو عبدالله لنا قوله { حَتَّى نَعْلَمَ }محمد31 { وَسَيَرَى اللّهُ }التوبة94 { إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ }الشعراء15 فانما معناه حتى يكون الموجود فيعلمه موجودا ويسمعه مسموعا ويبصره مبصرا لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر وأما قوله {وَإِذَا أَرَدْنَا }الإسراء16 اذا جاء وقت كون المراد فيه وان قوله { عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }الأنعام18 الآية

---

[11] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 5

{أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء }الملك16 { إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 فهذا وغيره مثل قوله {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }المعارج4 {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ }فاطر10 هذا منقطع يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء كلها منزه عن الدخول فى خلقه لا يخفى عليه منهم خافية لأنه أبان فى هذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده لأنه قال {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ}الملك16 يعنى فوق العرش والعرش على السماء لأن من قد كان فوق كل شىء على السماء فى السماء وقد قال مثل ذلك فى قوله {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ}التوبة2 يعنى على الأرض لا يريد الدخول فى جوفها وكذلك قوله { يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ }المائدة26 يعنى على الأرض لا يريد الدخول فى جوفها وكذلك قوله { وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ }طه71 يعنى فوقها عليها وقال {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء }الملك16 ثم فصل فقال { أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ}الملك16 ولم يصل فلم يكن لذلك معنى اذا فصل قوله { مَّن فِي السَّمَاء }الملك16 ثم استأنف التخويف بالخسف إلا أنه على عرشه فوق السماء وقال تعالى {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ }السجدة5 وقال {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }المعارج4 فبين عروج الأمر وعروج الملائكة ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة اليه فقال {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ }المعارج4 فقال صعودها إليه وفصله من قوله إليه كقول القائل اصعد الى فلان فى ليلة أو يوم وذلك أنه فى العلو وان صعودك إليه فى يوم فاذا صعدوا الى العرش فقد صعدوا الى الله عز وجل وان كانوا لم يروه ولم يساووه فى الإرتفاع فى علوه فإنهم صعدوا من الأرض وعرجوا بالأمر الى العلو قال تعالى {بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ }النساء158 ولم يقل عنده[1]

يظهر المعظم واسماؤه فى القلب الذى يحبه

أن المعروف المحبوب فى قلب العارف المحب له أحكام واخبار صادقة كقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }الزخرف84 وقوله تعالى { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }الروم27 وقوله تعالى {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا }الجن3 وقوله { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وقوله فى الاستفتاح سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك ويحصل لقلوب العارفين به استواء وتجل لا يزول عنها يقربه كل أحد لكن أهل السنة يقرون بكثير مما لا يعرفه اهل البدعة كما يقرون باستوائه على العرش ومثل قوله عبدى مرضت فلم تعدنى فيقول اى رب كيف أعودك وانت رب العالمين فيقول اما علمت ان عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتنى عنده فقد أخبر أنه عند عبده وجعل مرضه مرضه والانسان قد تكون عنده محبة وتعظيم لامير أو عالم أو مكان بحيث يغلب على قلبه ويكثر من ذكره وموافقته فى اقواله واعماله فيقال ان أحدهما الآخر كما يقال ابو يوسف ابو حنيفة ويشبه هذا من بعض الوجوه ظهور الاجسام المستنيرة وغيرها فى الأجسام الشفافة كالمرآة المصقولة والماء الصافى ونحو ذلك بحيث ينظر الانسان فى الماء الصافى السماء والشمس والقمر والكواكب كما قال بعضهم اذا وقع السماء على صفاء كدر انى يحركه النسيم ترى فيه السماء بلا امتراء كذاك البدر يبدو والنجوم وكذا قلوب ارباب التجلى يرى فى صفوها الله العظيم وكذلك نرى فى المرآة صورة ما يقابلها من الشمس والقمر والوجوه وغير ذلك ثم قد يحاذى تلك المرآة مرآة

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 69

اخرى فترى فيها الصورة التى رؤيت فى الاولى ويتسلل الامر فيه وهذه المرآئى المنعكسة تشبه من وجه بعيد ظهور اسم المحبوب المعظم فى الورق بالخط والكتابة سواء كان بمداد او بتنقير او بغير ذلك فانه هنا لم يظهر الا حروف اسمه فى جسم لا حس له ولا حركة وفى االاجسام الصقيلة ظهرت صورته لكن من غير شعور بالمظهر ولا حركة فالاول مظهر اسمه وهذا مظهر ذاته واما فى قلوب العباد وأرواحهم فيظهر المعروف المحبوب المعظم واسماؤه فى القلب الذى يعلمه ويحبه وذلك نوع أكمل وارفع من غيره بل ليس له نظير والى ذلك اشار بقوله { كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ }المجادلة22 [1]

الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات

كان أول ما أنزل الله على نبيه { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} العلق1 إلى قوله { عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق5 فبين سبحانه فى أول ما أنزله انه سبحانه هو الخالق الهادى{ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى2-3 كما قال موسى {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الانسان فقال { خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} العلق2 ثم ذكر انه علم فان الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات [2]

والله سبحانه الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى الذي اخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة يهدي من يشاء من عباده بما تيسر له من الأدلة التي تبين له الحق من الباطل والصدق من الكذب كما في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم [3]

قال تعالى { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 3-5 سمى ووصف نفسه بالكرم و بأنه الأكرم بعد إخباره أنه خلق ليتبين أنه ينعم على المخلوقين و يوصلهم إلى الغايات المحمودة كما قال فى موضع آخر {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الأعلى2 -3 و كما قال موسى عليه السلام { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 و كما قال الخليل عليه السلام {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ }الشعراء78 فالخلق يتضمن الإبتداء و الكرم تضمن الإنتهاء[4]

الله سبحانه ألهم النوع الانسانى أن يعبر عما يريده

والمقصود هنا أنه لا يمكن أحدا أن ينقل عن العرب بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة فى اللغة ثم استعملوها بعد الوضع وانما المعروف المنقول

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 28-29
[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 111
[3] منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 420
[4] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 294

بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعانى فان ادعى مدع أنه يعلم وضعا يتقدم ذلك فهو مبطل فان هذا لم ينقله أحد من الناس ولا يقال نحن نعلم ذلك بالدليل فانه ان لم يكن اصطلاح متقدم لم يمكن الاستعمال قيل ليس الأمر كذلك بل نحن نجد أن الله يلهم الحيوان من الأصوات ما به يعرف بعضها مراد بعض وقد سمى ذلك منطقا وقولا فى قول سليمان { عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ }النمل16 وفى قوله { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }النمل18 وفى قوله { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ }سبأ10وكذلك الآدميون فالمولود اذا ظهر منه التمييز سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ويشير الى المعنى فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل فى ذلك المعنى أى أراد المتكلم به ذلك المعنى ثم هذا يسمع لفظا بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم بل ولا أوقفوه على معانى الأسماء وان كان أحيانا قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء فيوقف عليها كما يترجم للرجل اللغة التى لا يعرفها فيوقف على معانى ألفاظها وان باشر أهلها مدة علم ذلك بدون توقيف من أحدهم نعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه كما يولد لأحدهم ولد فيسميه اسما إما منقولا واما مرتجلا وقد يكون المسمى واحدا لم يصطلح مع غيره وقد يستوون فيما يسمونه وكذلك قد يحدث للرجل آلة من صناعة أو يصنف كتابا أو يبنى مدينة ونحو ذلك فيسمى ذلك باسم لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم فى اللغة العامة وقد قال الله تعالى { الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4} الرحمن 1-4 و { قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ }فصلت21 وقال {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الأعلى2-3 فهو سبحانه يلهم الانسان المنطق كما يلهم غيره وهو سبحانه اذا كان قد علم آدم الأسماء كلها وعرض المسميات على الملائكة كما أخبر بذلك فى كتابه فنحن نعلم أنه لم يعلم آدم جميع اللغات التى يتكلم بها جميع الناس الى يوم القيامة وان تلك اللغات اتصلت الى أولاده فلا يتكلمون الا بها فان دعوى هذا كذب ظاهر فان آدم عليه السلام انما ينقل عنه بنوه وقد اغرق الله عام الطوفان جميع ذريته الا من فى السفينة وأهل السفينة انقطعت ذريتهم الا أولاد نوح ولم يكونوا يتكلمون بجميع ما تكلمت به الأمم بعدهم فان اللغة الواحدة كالفارسية والعربية والرومية والتركية فيها من الاختلاف والأنواع ما لا يحصيه الا الله والعرب أنفسهم لكل قوم لغات لا يفهما غيرهم فكيف يتصور أن ينقل هذا جميعه عن أولئك الذين كانوا فى السفينة وأولئك جميعهم لم يكن لهم نسل وانما النسل لنوح وجميع الناس من أولاده وهم ثلاثة سام وحام ويافث كما قال الله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فلم يجعل باقيا الا ذريته وكما روى ذلك عن النبى أن أولاده ثلاثة رواه أحمد وغيره ومعلوم أن الثلاثة لا يمكن أن ينطقوا بهذا كله ويمتنع نقل ذلك عنهم فان الذين يعرفون هذه اللغة لا يعرفون هذه واذا كان الناقل ثلاثة فهم قد علموا أولادهم واولادهم علموا أولادهم ولو كان كذلك لاتصلت ونحن نجد بنى الأب الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لا تعرفها الأخرى والأب واحد لا يقال أنه علم أحد ابنيه لغة وابنه الآخر لغة فان الأب قد لا يكون له الا ابنان واللغات فى أولاده أضعاف ذلك والذى أجرى الله عليه عادة بنى آدم أنهم انما يعلمون أولادهم لغتهم التى يخاطبونهم بها أو يخاطبهم بها غيرهم فأما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها أولادهم وأيضا فانه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط من غيرهم والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم فى الأسماء التى علمها الله آدم قولان معروفان عن السلف أحدهما أنه انما علمه أسماء من يعقل واحتجوا بقوله { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ }البقرة31 قالوا وهذا الضمير لا يكون الا لمن يعقل وما لا يعقل يقال فيها عرضها ولهذا قال أبو العالية علمه أسماء الملائكة لأنه لم يكن حينئذ من يعقل الا الملائكة ولا كان ابليس قد انفصل عن الملائكة ولا كان له ذرية وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم علمه أسماء ذريته وهذا

يناسب الحديث الذى رواه الترمذى وصححه عن النبى أن آدم سأل ربه أن يريه صور الأنبياء من ذريته فرآهم فرئى فيهم من يبص فقال يا رب من هذا قال ابنك داود فيكون قد أراه صور ذريته أو بعضهم وأسماءهم وهذه أسماء أعلام لا أجناس والثانى ان الله علمه أسماء كل شيء وهذا هو قول الأكثرين كابن عباس وأصحابه قال ابن عباس علمه حتى الفسوة والفسية والقصعة والقصية أراد الأسماء الاعراض والأعيان مكبرها ومصغرها والدليل على ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه قال فى حديث الشفاعة إن الناس يقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شيء وأيضا قوله الاسماء كلها لفظ عام مؤكد فلا يجوز تخصيصه بالدعوى وقوله ثم عرضهم على الملائكة لأنه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل فغلب من يعقل كما قال فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع قال عكرمة علمه أسماء الأجناس دون أنواعها كقولك انسان وجن وملك وطائر وقال مقاتل وابن السائب وابن قتيبة علمه أسماء ما خلق فى الأرض من الدواب والهوام والطير ومما يدل على أن هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم ان أكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية ليس عندهم أسماء خاصة للأولاد والبيوت والأصوات وغير ذلك مما يضاف الى الحيوان بل انما يستعملون فى ذلك الاضافة فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة وأيضا فكل أمة ليس لها كتاب ليس فى لغتها أيام الأسبوع وانما يوجد فى لغتها اسم اليوم والشهر والسنة لأن ذلك عرف بالحس والعقل فوضعت له الأمم الأسماء لأن التعبير يتبع التصور وأما الأسبوع فلم يعرف الا بالسمع لم يعرف أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الا بأخبار الانبياء الذين شرع لهم أن يجتمعوا فى الأسبوع يوما يعبدون الله فيه ويحفظون به الأسبوع الأول الذى بدأ الله فيه خلق هذا العالم ففى لغة العرب والعبرانيين ومن تلقى عنهم أيام الأسبوع بخلاف الترك ونحوهم فانه ليس فى لغتهم أيام الأسبوع لأنهم لم يعرفوا ذلك فلم يعبروا عنه فعلم أن الله ألهم النوع الانسانى أن يعبر عما يريده ويتصوره بلفظه وان أول من علم ذلك أبوهم آدم وهم علموا كما علم وان اختلفت اللغات وقد أوحى الله الى موسى بالعبرانية والى محمد بالعربية والجميع كلام الله وقد بين الله بذلك ما أراد من خلقه وأمره وان كانت هذه اللغة ليست الأخرى مع أن العبرانية من أقرب اللغات الى العربية حتى انها أقرب اليها من لغة بعض العجم الى بعض[1]

{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}

قوله {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى2-3 العطف يقتضي إشتراك المعطوف و المعطوف عليه فيما ذكر و أن بينهما مغايرة إما فى الذات و إما فى الصفات و هو في الذات كثير كقوله{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا }الحج17 و أما فى الصفات فمثل هذه الآية فإن الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى لكن هذا الإسم و الصفة ليس هو ذاك الإسم و الصفة و مثله قوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ }الحديد3 و مثله قوله {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }البقرة3 إلى قوله{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }البقرة4 و قوله {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 92-95

يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ }النساء162 و قوله { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{1} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{2} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{3}المؤمنون1-3 و قوله {إِلَّا الْمُصَلِّينَ{22} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ{23} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{24}المعارج 22-24الآيات و قوله {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}الأحزاب35الآيات فإنه من صدق و صبر و لم يسلم و لم يؤمن لم يكن ممن أعد الله لهم مغفرة و أجرا عظيما و كثيرا ما تأتي الصفات بلا عطف كقوله {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ }الحشر23و قوله { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3}الناس1-3 و قد تجيء خبرا بعد خبر كقوله { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16} البروج 14-16 و لو كان { فَعَّالٌ } البروج16 صفة لكان معرفا بل هو خبر بعد خبر و قوله {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ }الحديد3 خبر بعد خبر لكن بالعطف بكل من الصفات و أخبار المبتدأ قد تجيء بعطف و بغير عطف و إذا ذكر بالعطف كان كل إسم مستقلا بالذكر و بلا عطف يكون الثاني من تمام الأول بمعنى و مع العطف لا تكون الصفات إلا للمدح و الثناء أو للمدح و أما بلا عطف فهو فى النكرات للتمييز و فى المعارف قد يكون للتوضيح و { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} الاعلى2-4 وصف بكل صفة من هذه الصفات و مدح بها و أثني عليه بها و كانت كل صفة من هذه الصفات مستوجبة لذلك فصل قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} الاعلى2 فأطلق الخلق و التسوية و لم يخص بذلك الإنسان كما أطلق قوله بعد {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} الاعلى3 لم يقيده فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات و قد بين موسى عليه السلام شموله فى قوله { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 و قد ذكر المقيد بالإنسان فى قوله { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ{6} الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ{7}الانفطار6-7 و قد ذكر المطلق و المقيد فى أول ما نزل من القرآن و هو قوله{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق1-5 و فى جميع هذه الآيات مطلقها و مقيدها و الجامع بين المطلق و المقيد قد ذكر خلقه و ذكر هدايته و تعليمه بعد الخلق كما قال فى هذه السورة { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى2-3 لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها فلابد أن تهدى إلى تلك الغاية التخلقت لها فلا تتم مصلحتها و ما أريدت له إلا بهدايتها لغاياتها و هذا مما يبين أن الله خلق الأشياء لحكمة و غاية تصل إليها كما قال ذلك السلف و جمهور المسلمين و جمهور العقلاء وقالت طائفة كجهم و أتباعه إنه لم يخلق شيئا لشيء و وافقه أبو الحسن الأشعري و من اتبعه من الفقهاء أتباع الأئمة و هم يثبتون أنه مريد و ينكرون أن تكون له حكمة يريدها و طائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته و حكمته و ينكرون إرادته و كلاهما تناقض و قد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء فى غير هذا الموضع و أن منتهاهم جحد الحقائق فإن هذا يقول لو كان له حكمة يفعل لأجلها لكان يجب أن يريد الحكمة و ينتفع بها و هو منزه عن ذلك و ذاك يقول لو كان له إرادة لكان يفعل لجر منفعة فإن الإرادة لا تعقل إلا كذلك و أرسطو و أتباعه يقولون لو فعل شيئا لكان الفعل لغرض و هو منزه عن ذلك فيقال لهؤلاء هذه الحوادث مشهودة ألها محدث أم لا فإن قالوا لا فهو غاية المكابرة و إذا جوزوا حدوث الحوادث بلا محدث فتجويزها بمحدث لا إرادة له أولى و إن قالوا لها محدث ثبت الفاعل و إذا ثبت الخالق المحدث فأما أن يفعل بإرادة أو بغير إرادة فإن قالوا يفعل بغير إرادة كان ذلك أيضا مكابرة فإن كل حركة فى العالم إنما صدرت عن إرادة فإن الحركات إما طبعية و إما قسرية و إما إرادية لأن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من سبب خارج و ما كان منها

فإما أن يكون مع الشعور أو بدون الشعور فما كان سببه من خارج فهو القسري و ما كان سببه منها بلا شعور فهو الطبعي و ما كان مع الشعور فهو الإرادي فالقسرى تابع للقاسر و الذي يتحرك بطبعه كالماء و الهواء و الأرض هو ساكن فى مركزه لكن إذا خرج عن مركزه قسرا طلب العود إلى مركزه فأصل حركته القسر و لم تبق حركة أصلية إلا الإرادية فكل حركة فالعالم فهي عن إرادة فكيف تكون جميع الحوادث و الحركات بلا إرادة و أيضا فإذا جوزوا أن تحدث الحوادث العظيمة عن فاعل غير مريد فجواز ذلك عن فاعل مريد أولى وإذا ثبت أنه مريد قيل إما أن يكون أرادها لحكمة و إما أن يكون أرادها لغير حكمة فإن قالوا لغير حكمة كان مكابرة فإن الإرادة لا تعقل إلا إذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل و أيضا فإذا جوزوا أن يكون فاعلا مريدا بلا حكمة فكونه فاعلا مريدا لحكمة أولى بالجواز و أما قولهم هذا لا يعقل إلا فى حق من ينتفع و ذلك يوجب الحاجة و الله منزه عن ذلك فإن أرادوا أنه يوجب إحتياجه إلى غيره أو شيء من مخلوقاته فهو ممنوع و باطل فإن كل ما سواه محتاج إليه من كل و جه و هو الصمد الغني عن كل ما سواه و كل ما سواه محتاج إليه و هو القيوم القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه فكيف يكون محتاجا إلى غيره و إن أرادوا أنه تحصل له بالخلق حكمة هي أيضا حاصلة بمشيئته فهذا لا محذور فيه بل هو الحق و إذا قالوا الحكمة هي اللذة قيل لفظ اللذة لم يرد به الشرع و هو موهم و مجمل لكن جاء الشرع بأنه يحب و يرضى و يفرح بتوبة التائبين و نحو ذلك فإذا أريد ما دل عليه الشرع و العقل فهو حق و إن قالوا الحكمة إما أن تراد لنفسها أو لحكمة قيل المرادات نوعان ما يراد لنفسه و ما يراد لغيره و قد يكون الشيء غاية و حكمة بالنسبة إلى مخلوق و هو مخلوق لحكمة أخرى فلابد أن ينتهي الأمر إلى حكمة يريدها الفاعل لذاتها و المعتزلة و من و افقهم كإبن عقيل و غيره تثبت حكمة لا تعود إلى ذاته و أما السلف فإنهم يثبتون حكمة تعود إليه كما قد بين في غير هذا الموضع و المقصود هنا ذكر قوله تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى 2-3 و التسوية جعل الشيئين سواء كما قال {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ }فاطر19 و قوله تعالى { تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ }آل عمران64 و سواء و سط لأنه معتدل بين الجوانب و ذلك أنه لابد فى الخلق و الأمر من العدل فلابد من التسوية بين المتماثلين فإذا فضل أحدهما فسد المصنوع كما فى مصنوعات العباد إذا بنوا بنيانا فلابد من التسوية بين الحيطان إذ لو رفع حائط على حائط رفعا كثيرا فسد و لابد من التسوية بين جذوع السقف فلو كان بعض الجذوع قصيرا عن الغاية و بعضها فوق الغاية فسد و كذلك إذا بنى صف فوق صف لابد من التسوية بين الصفوف و كذلك الدرج المبنية و كذلك إذا صنع لسقى الماء جداول و مساكب فلابد من العدل و التسوية فيها و كذلك إذا صنعت ملابس للآدميين فلابد من أن تكون مقدرة على أبدانهم لا تزيد و لا تنقص و كذلك ما يصنع من الطعام لابد أن تكون أخلاطه على وجه الإعتدال و النار التى تطبخه كذلك و كذلك السفن المصنوعة ولهذا قال الله لداود { وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ }سبأ11 أي لا تدق المسمار فيقلق و لا تغلظه فيفصم و إجعله بقدر فإذا كان هذا في مصنوعات العباد و هي جزء من مصنوعات الرب فكيف بمخلوقاته العظيمة التى لا صنع فيها للعباد كخلق الإنسان و سائر البهائم و خلق النبات و خلق السموات و الأرض و الملائكة فالفلك الذي خلقه و جعله مستديرا ما له من فروج كما قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ{3} ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ{4} الملك3-4 و قال تعالى {وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ }الذاريات7 وقال {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ }ق6 فهو سبحانه سواها كما سوى الشمس و القمر و غير ذلك من المخلوقات فعدل بين أجزائها و لو كان أحد جانبى السماء داخلا

أو خارجا لكان فيها فروج و هي الفتوق و الشقوق و لم يكن سواها كمن بنى قبة و لم يسوها و كذلك لو جعل أحد جانبيها أطول أو أنقص و نحو ذلك فالعدل و التسوية لازم لجميع المخلوقات و المصنوعات فمتى لم تصنع بالعدل و التسوية بين المتماثلين و قع فيها الفساد و هو سبحانه {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى }الأعلى2 قال أبو العالية فى قوله { خَلَقَ فَسَوَّى }الأعلى2 قال سوى خلقهن و هذا كما قال تعالى { فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ }البقرة29 ثم إذا خلق المخلوق فسوى فإن لم يهده إلى تمام الحكمة التى خلق لها فسد فلابد أن يهدى بعد ذلك إلى ما خلق له و تلك الغاية لابد أن تكون معلومة للخالق فإن العلة الغائية هي أول فى العلم و الإرادة و هي آخر فى الوجود و الحصول و لهذا كان الخالق لابد أن يعلم ما خلق فإنه قد أراده و أراد الغاية التى خلقه لها و الإرادة مستلزمة للعلم فيمتنع أن يريد الحي ما لا شعور له به و الصانع إذا أراد أن يصنع شيئا فقد علمه و أراده و قدر فى نفسه ما يصنعه و الغاية التى ينتهي إليها و ما الذي يوصله إلى تلك الغاية و الله سبحانه قدر و كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنةوكان عرشه على الماء و فى البخاري عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه و سلم قال كان الله و لم يكن شيء قبله و كان عرشه على الماء و كتب فى الذكر كل شيء و خلق السموات و الأرض و فى رواية ثم خلق السموات و الأرض فقد قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء إلى يوم القيامة كما فى السنن عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال أول ما خلق الله القلم فقال أكتب فقال ما أكتب فقال أكتب ما يكون إلى يوم القيامة و أحاديث تقديره سبحانه و كتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جدا روى إبن أبي حاتم عن الضحاك أنه سئل عن قوله {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }القمر49 فقال قال إبن عباس إن الله قدر المقادير بقدرته و دبر الأمور بحكمته و علم ما العباد صائرون إليه و ما هو خالق و كائن من خلقه فخلق الله لذلك جنة و نارا فجعل الجنة لأوليائه و عرفهم و أحبهم و تولاهم و وفقهم و عصمهم و ترك أهل النار إستحوذ عليهم إبليس و أضلهم و أزلهم فخلق لكل شيء ما يشاكله في خلقه ما يصلحه من رزقه في بر أو فى بحر فجعل للبعير خلقا لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب و كذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها فى خلقها فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف قال إبن أبي حاتم ثنا أبى ثنا يحيى بن زكريا بن مهران القزاز نا حبان بن عبيدالله قال سألت الضحاك عن هذه الآية {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }القمر49 قال الضحاك قال ابن عباس فذكره و قال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا طلحة بن سنان عن عاصم عن الحسن قال من كذب بالقدر فقد كذب بالحق خلق الله خلقا و أجل أجلا و قدر رزقا و قدر مصيبة و قدر بلاء و قدر عافية فمن كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن و قال حدثنا الحسن بن عرفة ثنا مروان بن شجاع الجزري عن عبد الملك بن جريج عن عطاء بن أبى رباح قال أتيت إبن عباس و هو ينزع من زمزم و قد إبتلت أسافل ثيابه فقلت له قد تكلم فى القدر فقال أو قد فعلوها قلت نعم قال فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ{48} إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ{49}القدر48-49 أولئك شرار هذه الأمة فلا تعودوا مرضاهم و لا تصلوا على موتاهم إن رأيت أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين و قال أيضا حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا سهل الخياط ثنا أبو صالح الحداني نا حبان بن عبيدالله قال سألت الضحاك عن قوله {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا }الحديد22 قال قال ابن عباس إن الله خلق العرش فإستوى عليه ثم خلق القلم فأمره ليجري بإذنه و عظم القلم كقدر ما بين السماء و الأرض فقال القلم بما يا رب أجرى فقال بما أنا خالق و كائن فى خلقى من قطر أو نبات أو نفس أو أثر يعنى به العمل أو رزق أو أجل فجرى القلم بما هو كائن

إلى يوم القيامة فأثبته الله في الكتاب المكنون عنده تحت العرش فقوله سبحانه {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 يتضمن أنه قدر ما سيكون للمخلوقات و هداها إليه علم ما يحتاج إليه الناس و الدواب من الرزق فخلق ذلك الرزق و سواه و خلق الحيوان و سواه و هداه إلى ذلك الرزق و هدى غيره من الأحياء أن يسوق إليه ذلك الرزق و خلق الأرض و قدر حاجتها إلى المطر و قدر السحاب و ما يحمله من المطر وخلق ملائكة هداهم ليسوقوا ذلك السحاب إلى تلك الأرض فيمطر المطر الذي قدره و قدر ما نبت بها من الرزق و قدر حاجة العباد إلى ذلك الرزق و هداهم إلى ذلك الرزق و هدى من يسوق ذلك الرزق إليهم و قد ذكر المفسرون أنواعا من تقديره و هدايته فروى ابن جرير و ابن أبي حاتم و غيرهما بالإسناد الثابت عن مجاهد فى قوله { قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 قال الإنسان للشقاوة و السعادة و هدى الأنعام لمراتعها و كذلك رواه عبد بن حميد فى تفسيره قال هدى الإنسان للسعادة و الشقاوة و هدى الأنعام لمراتعها و قال حدثنا يونس عن شيبان عن قتادة {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 قال لا و الله ما أكره الله عبدا على معصية قط و لا على ضلالة و لا رضيها له و لا أمره و لكن رضي لكم الطاعة فأمركم بها و نهاكم عن معصيته قلت قتادة ذكر هذا عند هذه الآية ليبين أن الله قدر ما قدره من السعادة و الشقاوة كما قال الحسن و قتادة و غيرهما من أئمة المسلمين فإنهم لم يكونوا متنازعين فما سبق من سبق تقدير الله و إنما كان نزاع بعضهم في الإرادة و خلق الأفعال و إنما نازع فى التقدير السابق و الكتاب أولئك الذين تبرأ منهم الصحابة كإبن عمر و إبن عباس و غيرهما و ذكر قتادة أن الله لم يكره أحدا على معصية و هذا صحيح فإن أهل السنة المثبتين للقدر متفقون على أن الله لا يكره أحدا على معصية كما يكره الوالي و القاضي و غيرهما للمخلوق على خلاف مراده يكرهونه بالعقوبة و الوعيد بل هو سبحانه يخلق إرادة العبد للعمل و قدرته و عمله و هو خالق كل شيء و هذا الذي قاله قتادة قد يظن فيه أنه من قول القدرية و أنه لسبب مثل هذا إتهم قتادة بالقدر حتى قيل إن مالكا كره لمعمر أن يروى عنه التفسير لكونه إتهم بالقدر وهذا القول حق و لم يعرف أحد من السلف قال إن الله أكره أحدا على معصية بل أبلغ من ذلك أن لفظ الجبر منعوا من إطلاقه كالأوزاعى و الثوري و الزبيدي و عبدالرحمن بن مهدي و أحمد بن حنبل و غيرهم نهوا عن أن يقال إن الله جبر العباد و قالوا إن هذا بدعة فى الشرع و هو مفهم للمعنى الفاسد قال الأوزاعي و غيره أن السنة جاءت ب جبل و لم تأت ب جبر فإن النبى صلى الله عليه و سلم قال لأشج عبد القيس إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم و الأناة فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما فقال بل خلقين جبلت عليهما قال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله و قال الزبيدي و غيره إنما يجبر العاجز يعنى الجبر الذي هو بمعنى الإكراه كما تجبر المرأة على النكاح و الله أجل و أعظم من أن يجبر أحدا يعنى أنه يخلق إرادة العبد فلا يحتاج إلى إجباره فالزبيدي و طائفة نفوا الجبر و كان مفهومه عندهم هذا و أما الأوزاعى و أحمد بن حنبل و غيرهما فكرهوا أن يقال جبر و أن يقال لم يجبر لأن الجبر قد يراد به الإكراه و الله لا يكره أحدا و قد يراد به أنه خالق الإرادة كما قال محمد بن كعب الجبار هو الذي جبر العباد على ما اراد و الجبر بهذا المعنى صحيح و قول مجاهد فى قوله { قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 هدى الإنسان للسعادة و الشقاوة يبين أن هذا عنده مما دخل فى قوله { قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 أي هدى السعداء إلى السعادة التى قدرها و هدى الأشقياء إلى الشقاء الذي قدره وهكذا قال مجاهد فى قوله {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}الإنسان3 قال السعادة و الشقاوة و قال عكرمة سبيل الهدى رواهما عبد بن حميد و كذلك روى إبن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 قال الشقاوة و السعادة و قد قال هو و جماهير السلف و {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 أي الخير والشر رواه إبن أبي حاتم عن إبن مسعود ثم قال

و روي عن علي إبن أبى طالب و إبن عباس فى إحدى و شقيق بن سلمة و أبي صالح و مجاهد و الحسن و محمد بن كعب و عكرمة و شرحبيل بن سعيد و ابن سنان الرازي و الضحاك و عطاء الخراسانى و عمرو بن قيس الملائى نحو ذلك و روي عن محمد بن كعب القرظى قال الحق و الباطل و هذا كلام مجمل فيه ما هو متفق عليه و هو أنه يبين للناس ما أرسله من الرسل و نصبه من الدلائل و الآيات و أعطاهم من العقول طريق الخير و الشر كما في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ }فصلت17 و أما إدخال الهدى الذى هو الإلهام في ذلك بمعنى أنه هدى المؤمن إلى أن يؤمن و يعمل صالحا إلى أن يسعد بذلك و هدى الكافر إلى ما يعمله إلى أن يشقى بذلك فهذا منهم من يدخله فى الآية كمجاهد و غيره و يدخله فى قوله {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}الإنسان3 و عكرمة و غيره يخرجون ذلك عن معنى هذه الآية و إن كانوا مقرين بالقدر و من قال هدى بمعنى بين فقط فقد هدى كل عبد إلى نجد الخير و الشر جميعا أي بين له طريق الخير و الشر و من أدخل فى ذلك السعادة و الشقاوة يقول في هذا تقسيم أي هذه الهداية عامة مشتركة و خص المؤمن بهداية إلى نجد الخير و خص الكافر بهداية إلى نجد الشر و من لم يدخل ذلك فى الآية قد يحتجون بحديث من مراسيل الحسن قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يقول يا أيها الناس إنما هما النجدان نجد الخير و نجد الشر فما يجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ويحتجون بأن إلهام الفاجر طريق الفجور لم يسمه هدى بل سماه ضلالا و الله إمتن بأنه هدى و قد يجيب الآخر بأن يقول هو لا يدخل فى الهدى المطلق لكن يدخل فى الهدى المقيد كقوله {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ }الصافات23 و كما في لفظ البشارة قال { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }آل عمران21 و لفظ الإيمان فقال { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء51 و هذان القولان فى قوله {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 قيل هو البيان العام و قيل بل ألهم الفاجر الفجور و التقي التقوى و هذا فى تلك الآية أظهر لأن الإلهام إستعماله مشهور فى إلهام القلوب لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة و قد علم النبى صلى الله عليه و سلم حصينا الخزاعى لما أسلم أن يقول اللهم ألهمني رشدي و قني شر نفسي و لو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلا للمسلم و الكافر قال إبن عطية و سوى معناه عدل و أتقن حتى صارت الأمور مستوية دالة على قدرته و وحدانيته و قرأ جمهور القراء قدر بتشديد الدال فيحتمل أن يكون من القدر و القضاء و يحتمل أن يكون من التقدير و الموازنة بين الأشياء قلت هما متلازمان لأن التقدير الأول يسمى تقديرا لأن ما يجري بعد ذلك يجري على قدره فهو موازن له و معادل له قال و قرأ الكسائي و حده بتخفيف الدال فيحتمل أن يكون بمعنى القدرة و يحتمل أن يكون من التقدير و الموازنة قلت و هذا قول الأكثرين أنهما بمعنى و احد قال إبن عطية و قوله { فَهَدَى }الأعلى3 عام لوجوه الهدايات فى الإنسان و الحيوان و قد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات فقال الفراء معناه هدى و أضل و إكتفى بالواحد لدلالتها على الأخرى قال و قال مقاتل و الكلبى هدى إلى و طىء الذكور للإناث و قيل هدى المولود عند و ضعه إلى مص الثدي و قال مجاهد هدى الناس للخير و الشر و البهائم للمراتع قال إبن عطية و هذه الأقوال مثالات و العموم فى الآية أصوب فى كل تقدير و فى كل هداية و قد ذكر أبو الفرج بن الجوزى هذه الأقوال و غيرها فذكر سبعة أقوال قدر السعادة و الشقاوة و هدى للرشد و الضلالة قاله مجاهد و قيل جعل لكل دابة ما يصلحها و هداها إليه قاله عطاء و قيل قدر مدة الجنين فى الرحم ثم هداه للخروج قاله السدى و قيل قدرهم ذكرانا و إناثا و هدى الذكور لإتيان الإناث قاله مقاتل وقيل قدر فهدى و أضل فحذف و أضل لأن فى الكلام ما يدل عليه حكاه الزجاج و قيل قدر الأرزاق و هدى إلى طلبها و قيل قدر الذنوب فهدى إلى التوبة حكاهما الثعلبى قلت القول الذي حكاه الزجاج هو قول الفراء و هو من جنس قوله إن نفعت

و إن لم تنفع و من جنس قوله سرابيل تقيكم الحر و البرد و قد تقدم ضعف مثل هذا و لهذا لم يقله أحد من المفسرين و الأقوال الصحيحة هي من باب المثالات كما قال إبن عطية و هكذا كثير من تفسير السلف يذكرون من النوع مثالا لينبهوا به على غيره أو لحاجة المستمع إلى معرفته أو لكونه هو الذي يعرفه كما يذكرون مثل ذلك في مواضع كثيرة كقوله { سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ }الفتح16 و قوله و {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ }الجمعة3 و قوله { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }المائدة54 و قوله { فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ }فاطر32 وكذلك تفسير {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ }الفجر3 و {وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ }البروج3 و غير ذلك و قوله {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ }الذاريات21 و أمثال ذلك كثير من تفسيرهم هو من باب المثال و من ذلك قولهم إن هذه الآية نزلت فى فلان و فلان فبهذا يمثل بمن نزلت فيه نزلت فيه أولا و كان سبب نزولها لا يريدون به أنها آية مختصة به كآية اللعان و آية القذف و آية المحاربة و نحو ذلك لا يقول مسلم إنها مختصة بمن كان نزولها بسببه واللفظ العام و إن قال طائفة إنه يقصر على سببه فمرادهم على النوع الذي هو سببه لم يريدوا بذلك أنه يقتصر على شخص و احد من ذلك النوع فلا يقول مسلم إن آية الظهار لم يدخل فيها إلا أوس بن الصامت و آية اللعان لم يدخل فيها إلا عاصم بن عدي أو هلال بن أمية و أن ذم الكفار لم يدخل فيه إلا كفار قريش و نحو ذلك مما لا يقوله مسلم و لا عاقل فإن محمدا صلى الله عليه و سلم قد عرف بالإضطرار من دينه أنه مبعوث إلى جميع الإنس و الجن و الله تعالى خاطب بالقرآن جميع الثقلين كما قال{لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ }الأنعام19 فكل من بلغه القرآن من إنسي و جني فقد أنذره الرسول به و الإنذار هو الإعلام بالمخوف و المخوف هو العذاب ينزل بمن عصى أمره و نهيه فقد أعلم كل من و صل إليه القرآن أنه إن لم يطعه و إلا عذبه الله تعالى و أنه إن أطاعه أكرمه الله تعالى و هو قد مات فإنما طاعته بإتباع ما في القرآن مما أوجبه الله و حرمه و كذلك ما أوجبه الرسول و حرمه بسنته فإن القرآن قد بين وجوب طاعته و بين أن الله أنزل عليه الكتاب و الحكمة و قال لأزواج نبيه {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ }الأحزاب34

{ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5}

ثم قال { وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5}الاعلى4-5 هو سبحانه لما ذكر قوله { قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى 3 دخل فى ذلك ما قدره من أرزاق العباد و البهائم و هداهم إليها فهدى من يأتي بها إليهم و ذلك من تمام إنعامه على عباده كما جاء فى الأثر إن الله يقول إنى و الجن و الإنس لفي نبأ عظيم أخلق و يعبدون غيري و أرزق و يشكرون سواي وهذا المعنى قد روى فى قوله {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }الواقعة82 أي تجعلون شكركم و شكر ربكم التكذيب بإنعام الله و إضافة الرزق إلى غيره كالأنواء كما ثبت فى الصحيح عن إبن عباس قال مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال النبى صلى الله عليه و سلم أصبح من الناس شاكر و منهم كافر قالوا هذه رحمة الله و قال بعضهم لقد صدق نوء كذا و كذا قال فنزلت هذه الآية { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } الواقعة75 حتى بلغ {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }الواقعة82 و في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلىالله عليه و سلم قال ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقولون الكوكب كذا و كذا و في رواية بكوكب كذا و كذا و روى ابن المنذر فى تفسيره ثنا محمد بن علي يعني الصائغ ثنا سعيد هو ابن منصور ثنا هشيم عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقرأ و تجعلون

شكركم أنكم تكذبون يعنى الأنواء و ما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافرا و كانوا يقولون مطرنا بنوء كذا و كذا فأنزل الله {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }الواقعة82 و روى إبن أبى حاتم عن عطاء الخراسانى عن عكرمة فى قول الله {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }الواقعة82 قال تجعلون رزقكم من عند غير الله تكذيبا و شكرا لغيره لكن قوله {وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى }الأعلى4 خص به إخراج المرعى و هو ما ترعاه الدواب و ذكر أنه جعله {غُثَاء أَحْوَى }الأعلى5 و هذا فيه ذكر أقوات البهائم لكن أقوات الآدميين اجل من ذلك وقد دخلت هى واقوات البهائم فى قوله { قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 وايضا فالذى يصير غثاء احوى لم تقتت به البهائم وانما تقتات به قبل ذلك فهو والله اعلم خص هذا بالذكر لانه مثل الحياة الدنيا اذ كانت هذه السورة تضمنت اصول الايمان الايمان بالله واليوم الاخر والايمان بالرسل والكتب التى جاؤا بها وذلك يتضمن الايمان بالملائكة وفيها العمل الصالح الذى ينفع فى الآخرة والفاسد الذى يضر فيها فذكر سبحانه المرعى عقب ما ذكره من الخلق و الهدى ليبين مآل بعض المخلوقات و أن الدنيا هذا مثلها و قد ذكر الله ذلك فى الكهف و يونس و الحديد قال تعالى {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً }الكهف45 و قال تعالى {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {24} وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{25}يونس24 -25 و قال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ }الحديد20 و قد جعل إهلاك المهلكين حصادا لهم فقال {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ }هود100 و قال { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{4} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6} فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ{7} أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ{8}التين 4-8 فقوله { وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5} الاعلى4-5 هو مثل للحياة الدنيا و عاقبة الكفار و من إغتر بالدنيا فإنهم يكونون فى نعيم و زينة و سعادة ثم يصيرون إلى شقاء فى الدنيا و الآخرة كالمرعى الذي جعله غثاء أحوى [1]

{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }

قوله { فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{9} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{12} الاعلى9-12 فقوله { إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى}الاعلى9 كقوله { فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 و قوله { إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى}الاعلى9 و إن هي الشرطية و حكى الماوردي أنها بمعنى ما و هذه تكون ما المصدرية و هي بمعنى الظرف أي ذكر ما نفعت ما دامت تنفع و معناها قريب من معنى الشرطية و أما إن ظن ظان

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 127-154

أنها نافية فهذا غلط بين فإن الله لا ينفى نفع الذكرى مطلقا و هو القائل { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ{54} وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ{55} الذاريات54-55 ثم قال { الْمُؤْمِنِينَ{55} الذاريات55 و عن {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 إن قبلت الذكرى و عن مقاتل فذكر و قد نفعت الذكرى و قيل ذكر إن نفعت الذكرى و إن لم تنفع قاله طائفة أولهم الفراء و اتبعه جماعة منهم النحاس و الزهراوي و الواحدي و البغوي و لم يذكر غيره قالوا و إنما لم يذكر الحال الثانية كقوله {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ }النحل81 و أراد الحر و البرد وإنما قالوا هذا لأنهم قد علموا أنه يجب عليه تبليغ جميع الخلق و تذكيرهم سواء آمنوا أو كفروا فلم يكن وجوب التذكير مختصا بمن تنفعه الذكرى كما قال فى الآية الآخرى { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} الغاشية 21-22 و قال {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ }الزخرف44 و قال { وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ {51} وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{52} القلم51 -52 و قال{ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً }الفرقان1 و هذا الذي قالوه له معنى صحيح و هو قول الفراء و أمثاله لكن لم يقله أحد من مفسري السلف و لهذا كان أحمد بن حنبل ينكر على الفراء و أمثاله ما ينكره و يقول كنت أحسب الفراء رجلا صالحا حتى رأيت كتابه فى معاني القرآن و هذا المعنى الذي قالوه مدلول عليه بآيات أخر و هو معلوم بالإضطرار من أمر الرسول فإن الله بعثه مبلغا و مذكرا لجميع الثقلين الإنس و الجن لكن ليس هو معنى هذه الآية بل معنى هذه يشبه قوله {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45 و قوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 و قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 و قوله { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28}التكوير2-28 فالقرآن جاء بالعام و الخاص و هذا كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 و نحو ذلك وسبب ذلك أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفى لإنتفاء كماله وتمامه وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وأما قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 وقوله {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ }الأعراف30 وقوله { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل37 وقوله {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة16 وهذا كثير فى القرآن وكذلك الإنذار قد قال {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً }مريم97 وقال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ }يونس2 وقال في الخاص {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 فهذا الإنذار الخاص وهو التام النافع الذى إنتفع به المنذر والإنذار هو الإعلام بالمخوف فعلم المخوف فخاف فآمن وأطاع وكذلك التذكير عام وخاص فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة قال تعالى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ

{86} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{87}ص86-87 وقال تعالى { وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ }المدثر31 وقال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ }التكوير27 ثم قال {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير28 فذكر العام والخاص والتذكر هو الذكر التام الذي يذكره المذكر به وينتفع به وغير هؤلاء قال تعالى فيهم {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ {2} لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ{3}الأنبياء2-3 وقال تعالى {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ }الشعراء5 فقد أتاهم وقامت به الحجة ولكن لم يصغوا إليه بقلوبهم فلم يفهموه أو فهموه فلم يعملوا به كما قال {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ }الأنفال23 والخاص هو التام النافع وهو الذي حصل معه تذكر لمدكر فإن هذا ذكرى كما قال { فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{9} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11}الاعلى 9-11 أي يجنب الذكرى وهو إنما جنب الذكرى الخاصة وأما المشترك الذي تقوم به الحجة فقد ذكر هو وغيره بذلك وقامت الحجة عليهم وقد قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }الإسراء15 وقال { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ }النساء165 وقال عن أهل النار { كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {8} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ {9}الملك8-9 وقال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا }الأنعام130 وأما تمثيلهم ذلك بقوله { سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ }النحل81 أي و تقيكم البرد فعنه جوابان أحدهما أنه ليس هناك حرف شرط علق به الحكم بخلاف هذا الموضع فإنه إذا علق الأمر بشرط و كان مأمورا به فى حال وجود الشرط كما هو مأمور به فى حال عدمه كان ذكر الشرط تطويلا للكلام تقليلا للفائدة و إضلالا للسامع و جمهور الناس على أن مفهوم الشرط حجة و من نازع فيه يقول سكت عن غير المعلق لا يقول إن اللفظ دل على المسكوت كما دل على المنطوق فهذا لا يقوله أحد الثاني أن قوله { تَقِيكُمُ الْحَرَّ}النحل81 على بابه و ليس فى الآية ذكر البرد و إنما يقول إن المعطوف محذوف هو الفراء و أمثاله ممن أنكر عليهم الأئمة حيث يفسرون القرآن بمجرد ظنهم و فهمهم لنوع من علم العربية عندهم و كثيرا لا يكون ما فسروا به مطابقا و ليس في الكلام ما يدل على ذكر البرد و لكن الله ذكر فى هذه السورة إنعامه على عباده و تسمى سورة النعم فذكر فى أولها أصول النعم التى لابد منها و لا تقوم الحياة إلا بها و ذكر في أثنائها تمام النعم و كان ما يقي البرد من أصول النعم فذكر فى أول السورة في قوله {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ }النحل5 فالدفء ما يدفىء و يدفع البرد و البرد الشديد يوجب الموت بخلاف الحر فقد مات خلق من البرد بخلاف الحر فإن الموت منه غير معتاد و لهذا قال بعض العرب البرد بؤس و الحر أذى فلما ذكر فى أثنائها تمام النعم ذكر الظلال و ما يقي الحر و ذكر الأسلحة و ما يقي القتل فقال{وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ }النحل81 فذكر أنه يتم نعمته كما بين ذلك فى هذه الآيات فقال { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ }النحل81 و فرق بين الظلال و الأكنان فإن الظلال يكون بالشجر و نحوه مما يظل و لا يكن بخلاف ما فى الجبال من الغيران فإنه يظل و يكن فهذا فى الأمكنة ثم قال فى اللباس { وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ }النحل81 فهذا فى اللباس و اللباس و المساكن كلاهما تقي الناس ما يؤذيهم من حر و برد و عدو و كلاهما تسترهم عن أعين الناظرين و في البيوت خاصة يسكنون كما قال {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ }النحل80 فلما ذكر البيوت المسكونة إمتن بكونه جعلها سكنا يسكنون فيها من تعب الحركات و ذكر أنه جعل لهم بيوتا أخرى يحملونها

معهم و يستخفونها يوم ظعنهم و يوم إقامتهم فذكر البيوت الثقيلة التى لا تحمل و الخفيفة التى تحمل فتبين أن ما مثلوا به حجة عليهم فقوله {إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 كما قال مفسروا السلف و الجمهور على بابها قال الحسن البصري تذكرة للمؤمن و حجة على الكافر وعلى هذا فقوله تعالى { إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجوه أحدها أنه لم يخص قوما دون قوم لكن قال {فَذَكِّرْ }الأعلى9 و هذا مطلق بتذكير كل أحد و قوله { إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 لم يقل إن نفعت كل أحد بل أطلق النفع فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع و التذكير المطلق العام ينفع فإن من الناس من يتذكر فينتفع به و الآخر تقوم عليه الحجة و يستحق العذاب على ذلك فيكون عبرة لغيره فيحصل بتذكيره نفع أيضا و لأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد و غيره فتحصل بالذكرى منفعة فكل تذكير ذكر به النبى صلى الله عليه و سلم للمشركين حصل به نفع فى الجملة و إن كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه و إعتبروا به و جاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة فإن قيل فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع فأي فائدة فى التقييد قيل بل منه ما لم ينفع أصلا و هو ما لم يؤمر به و ذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن كأبى لهب فإنه بعد أن أنزل الله قوله {سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ }المسد3 فإنه لا يخص بتذكير بل يعرض عنه و كذلك كل من لم يصغ إليه و لم يستمع لقوله فإنه يعرض عنه كما قال {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ }الذاريات54 ثم قال {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 فهو إذا بلغ قوما الرسالة فقامت الحجة عليهم ثم إمتنعوا من سماع كلامه أعرض عنهم فإن الذكرى حينئذ لا تنفع أحدا و كذلك من أظهر أن الحجة قامت عليه و أنه لا يهتدى فإنه لا يكرر التبليغ عليه

الوجه الثانى أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع كما هو أمر بالتذكير المشترك و هذا التام النافع يخص به المؤمنين المنتفعين فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل و كلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به و يذكرهم بمعانيه و يذكرهم بما نزل قبل ذلك بخلاف الذين قال فيهم {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ {49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51}المدثر49-51

فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت عليهم و هم معرضون عن التذكرة لا يسمعون و لهذا قال { عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2} وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{5} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{6} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{7} وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى{10} عبس 1-10 فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر و قال { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{12} ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى{13}قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15} الاعلى10-15 فذكر التذكر و اللتزكي كما ذكرهما هناك و أمره أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض عنه فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك فيكون مأمورا أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيرا يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة كما قال { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ{54} وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ{55} الذاريات 54-55 وقال { وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً }الإسراء110 و فى الصحيحين عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسبوا القرآن و من أنزل عليه و من جاء به فقال الله له و لا تجهر به فيسمعه المشركون و لا تخافت به عن أصحابك فنهى عن أن يسمعهم إسماعا يكون ضرره أعظم من نفعه وهكذا كل ما يأمر الله به لابد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته و المصلحة هي المنفعة و المفسدة هي المضرة فهو إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت المصلحة راجحة و هو أن تحصل به منفعة راجحة على المضرة و هذا يدل على الوجه الأول و الثانى فحيث كان الضرر راجحا فهو منهى عما يجلب ضررا راجحا و النفع أعم فى

قبول جميعهم فقبول بعضهم نفع و قيام الحجة على من لم يقبل نفع و ظهور كلامه حتى يبلغ البعيد نفع و بقاؤه عند من سمعه حتى بلغه إلى من لم يسمعه نفع فهو صلى الله عليه و سلم ما ذكر قط إلا ذكرى نافعة لم يذكر ذكرى قط يكون ضررها راجحا و هذا مذهب جمهور المسلمين من السلف و الخلف أن ما أمر الله به لابد أن تكون مصلحته راجحة و منفعته راجحة و أما ما كانت مضرته راجحة فإن الله لا يأمر به و أما جهم و من و افقه من الجبرية فيقولون إن الله قد يأمر بما ليس فيه منفعة و لا مصلحة ألبتة بل يكون ضررا محضا إذا فعله المأمور به و قد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة ممن سلك مسلك المتكلمين أبى الحسن الأشعري و غيره في مسائل القدر فنصر مذهب جهم و الجبرية الوجه الثالث أن قوله {الذِّكْرَى }الأعلى9 يتناول التذكر و التذكير فإنه قال {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 فلابد أن يتناول ذلك تذكيره ثم قال { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11}الأعلى10-11 و الذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى و هو التذكر فضمير الذكرى هنا يتناول التذكر و إلا فمجرد التذكير الذي قامت به الحجة لم يتجنبه أحد لكن قد يراد بتجنبها أنه لم يستمع إليها و لم يصغ كما قال { لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }فصلت26 و الحجة قامت بوجود الرسول المبلغ و تمكنهم من الإستماع و التدبر لا بنفس الإستماع ففي الكفار من تجنب سماع القرآن و إختار غيره كما يتجنب كثير من المسلمين سماع أقوال أهل الكتاب و غيرهم و إنما ينتفعون إذا ذكروا فتذكروا كما قال{ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى10 فلما قال قال {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 فقد يراد بالذكرى نفس تذكيره تذكر أو لم يتذكر و تذكيره نافع لا محالة كما تقدم و هذا يناسب الوجه الأول و قد ذكر بعضهم أن هذا يراد به توبيخ من لم يتذكر من قريش قال إبن عطية إختلف الناس فى معنى قوله{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 فقال الفراء و النحاس و الزهراوي معناه و إن لم تنفع فاقتصر على الإسم الواحد لدلالته على الثانى قال و قال بعض الحذاق قوله { إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى }الأعلى9 إعتراض بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش أي إن نفعت الذكرى فى هؤلاء الطغاة العتاة و هذا كنحو قول الشاعر لقد أسمعت لو ناديت حيا و لكن لا حياة لمن تنادى

وهذا كله كما تقول لرجل قل لفلان و إعذله إن سمعك إنما هو توبيخ للمشار إليه قلت هذا القائل هو الزمخشرى و هذا القول فيه بعض الحق لكنه أضعف من ذاك القول من وجه آخر فإن مضمون هذا القول أنه مأمور بتذكير من لا يقبل و لا ينتفع بالذكرى دون من يقبل كما قال إن نفعت الذكرى فى هؤلاء الطغاة العتاة و كما أنشده فى البيت ثم البيت الذى أنشده خبر عن شخص خاطب آخر فيقول لقد أسمعت لو كان من تناديه حيا و هذا كقوله{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة6 و قوله {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ }النمل80 و قوله {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ }الأنبياء45 فهذا يناسب معنى البيت و هو خبر خاص وأما الأمر بالإنذار فهو مطلق عام و إن كان مخصوصا فالمؤمنون أحق بالتخصيص كما قال { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45 و قال {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 ليس الأمر مختصا بمن لا يسمع كيف و قد قال بعد ذلك { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11}الاعلى 10-11 فهذا الذي يخشي هو ممن أمره بتذكيره و هو ينتفع بالذكرى فكيف لا يكون لهذا الشرط فائدة إلا ذم من لم يسمع و أما قول القائل قل لفلان و أعذله إن سمعك فهذا و أمثاله يقوله الناس لمن يظنون أنه لا يقبل و لكن يرجون قبوله فهم يقصدون توبيخه على تقدير الرد لا على تقدير القبول فيقولون قل له إن كان يسمع منك و قل له إن كان يقبل و إنصحه إن كان يقبل النصيحة و هو كله من هذا الباب فهو أمر بالنصيحة التامة المقبولة إن كان يقبلها و أمر بأصل النصح و إن رده و ذم له على

هذا التقدير و كذلك قوله { فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى } الاعلى9 أمر بتذكير كل أحد فإن إنتفع كان تذكره تاما نافعا و إلا حصل أصل التذكير الذي قامت به الحجة و دل ذلك على ذمه و إستحقاقه التوبيخ مع أنه سبحانه إنما قال { إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى } الاعلى9 و لم يقل ذكر من تنفعه الذكرى فقط كما فى قوله { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45فهناك الأمر بالتذكير خاص و قد جاء عاما و خاصا كخطاب القرآن ب يا أيها الناس و هو عام و ب يا أيها الذين آمنوا خاص لمن آمن بالقرآن فهناك قال { فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 و هنا قال{ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11} الاعلى10-11 و لم يقل سينتفع من يخشي فإن النفع الحاصل بالتذكير أعم من تذكر من يخشى فإنه إذا ذكر قامت الحجة علىالجميع و الأشقى الذي تجنبها حصل بتذكيره قيام الحجة عليه و إستحقاقه لعذاب الدنيا و الآخرة و في ذلك لله حكم و منافع هي نعم على عباده فكل ما يقضيه الله تعالى هو من نعمته على عباده و لهذا يقول عقب تعديد ما يذكره {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }الرحمن13 و لما ذكر ما ذكره فى سورة النجم و ذكر إهلاك مكذبى الرسل قال{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى }النجم55 فإهلاكهم من آلاء ربنا و آلاؤه نعمه التى تدل على رحمته و على حكمته و على مشيئته و قدرته و ربوبيته سبحانه و تعالى و من نفع تذكير الذي يتجنبها أنه لما قامت عليه الحجة و استحق العذاب خف بذلك شر عن المؤمنين فإن الله يهلكهم بعذاب من عنده أو بأيديهم و بهلاكه ينتصر الإيمان و ينتشر و يعتبر به غيره و ذلك نفع عظيم و هو أيضا يتعجل موته فيكون أقل لكفره فإن الله أرسل محمدا رحمة للعالمين فبه تصل الرحمة إلى كل أحد بحسب الإمكان و أيضا فإن الذي يتجنبها بتجنبه إستحق هذا الوعيد المذكور فصار ذلك تحذيرا لغيره من أن يفعل مثل فعله قال تعالى {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا }البقرة66 و قال تعالى عن فرعون {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ }الزخرف56 و قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ }يوسف111 وقوله {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى10 يقتضى أن كل من يخشي يتذكر و الخشية قد تحصل عقب الذكر و قد تحصل قبل الذكر و قوله { مَن يَخْشَى }الأعلى10 مطلق و من الناس من يظن أن ذلك يقتضى أنه لابد أن يكون قد خشي أولا حتى يذكر و ليس كذلك بل هذا كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 و قوله{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 و قوله { فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45 و قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 و هو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه لم يكن وعيد قبل سماع القرآن و كذلك قوله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 و هو إنما إتبع الذكر و خشى الرحمن بعد أن أنذره الرسول و قد لا يكونون خافوها قبل الإنذار و لا كانوا متقين قبل سماع القرآن بل به صاروا متقين و هذا كما يقول القائل ما يسمع هذا إلا سعيد و إلا مفلح و إلا من رضي الله عنه و ما يدخل في الإسلام إلا من هداه الله و نحو ذلك و إن كانت هذه الحسنات و النعم تحصل بعد الإسلام و سماع القرآن و مثل هذا قوله {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }الجاثية20 و قد قال في نظيره {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى }الأعلى11 و إنما يشقى بتجنيها و هذا كما يقال إنما يحذر من يقبل و إنما ينتفع بالعلم من عمل به فمن إستمع القرآن فآمن به و عمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم و من لم يؤمن به و لم يعمل به لم يكن من المتقين و لم يكن ممن إهتدى به بل هو كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى }فصلت44 و لم يرد أنهم كانوا مؤمنين فلما سمعوه صار هدى و شفاء بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار فى حقه هدى و شفاء و كان من المؤمنين به بعد سماعه و هذا كقوله فى النوع المذموم { يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ {26} الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ{27}البقرة26-27 و لا يجب أن

يكونوا فاسقين قبل ضلالهم بل من سمعه فكذب به صار فاسقا و ضل و سعد بن أبى و قاص و غيره أدخلوا فى هذه الآية أهل الأهواء كالخوارج و كان سعد يقول هم من { الْفَاسِقِينَ {26} الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ{27}البقرة26-27 و لم يكن علي و سعد و غيرهما من الصحابة يكفرونهم وسعد أدخلهم فى هذه الآية لقوله و ما يضل به إلا الفاسقين و هم ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه و تأويله على غير ما أراد الله فتمسكوا بمتشابهه و أعرضوا عن محكمه و عن السنة الثابتة التى تبين مراد الله بكتابه فخالفوا السنة و إجماع الصحابة مع ما خالفوه من محكم كتاب الله تعالى و لهذا أدخلهم كثير من السلف فى الذين { فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ}آل عمران7 {الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً }الأنعام159 و بسط هذا له موضع آخر و المقصود الآية و قد دلت على أن كل من يخشي فلابد أن يتذكر فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية و قد يخشى فتدعوه الخشية إلى التذكر و هذا المعنى ذكره قتادة فقال و الله ما خشي الله عبد قط إلا ذكره {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى }الأعلى11 قال قتادة فلا و الله لا يتنكب عبد هذا الذكر زهدا فيه و بغضا له و لأهله إلا شقيا بين الشقاء و الخشية فى القرآن مطلقة تتناول خشية الله و خشية عذابه فى الدنيا و الآخرة قال الله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا{42} فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا{43} إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا{44} إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا{45} النازعات42-45 و قال تعالى{فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }ق45 و قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ {17} يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ{18}الشورى17-18 و قال { قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ{26} فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ{27}الطور26-27 و قوله {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ }ق33 وفي هذه الآية قال {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى10 و قال فى قصة فرعون {فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 فعطف الخشية على التذكر و قال{ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }الفرقان62 و فى قصة الرجل الصالح المؤمن الأعمى قال{ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} عبس 3-4 و قال فى حم المؤمن {ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ {12} هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ{13}غافر12-13 فقال {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ }غافر 13 و الإنابة جعلها مع الخشية في قوله { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ{32} مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ{33} ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ{34} ق32-34 و ذلك لأن الذي يخشي الله لابد أن يرجوه و يطمع فى رحمته فينيب إليه و يحبه و يحب عبادته و طاعته فإن ذلك هو الذي ينجيه مما يخشاه و يحصل به ما يحبه و الخشية لا تكون ممن قطع بأنه معذب فإن هذا قطع بالعذاب يكون معه القنوط و اليأس و الإبلاس ليس هذا خشية و خوفا و إنما يكون الخشية و الخوف مع رجاء السلامة و لهذا قال {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ }الشورى22 فصاحب الخشية لله ينيب إلى الله كما قال { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ{31} هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ{32} مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ{33} ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ{34} ق31-34 و هذا يكون مع تمام الخشية و الخوف فأما فى مباديها فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب و الذنب الذي يقتضيه فيشتغل بطلب النجاة و السلام و يعرض عن طلب الرحمة و الجنة و قد يفعل مع سيئاته حسنات توازيها و تقابلها فينجو بذلك من النار و لا يستحق الجنة بل يكون من أصحاب الأعراف و إن كان مآلهم إلى الجنة فليسوا ممن أزلفت لهم الجنة أى قربت لهم إذ كانوا لم يأتوا بخشية الله و الإنابة إليه و استجمل بعد ذلك وأما قوله فى قصة فرعون { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 و قوله

{ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4}عبس 3-4 فلا يناقض هذه الآية لأنه لم يقل فى هذه الآية سيخشى من يذكر بل ذكر أن كل من خشى فإنه يتذكر إما أن يتذكر فيخشى و إن كان غيره يتذكر فلا يخشى و إما أن تدعوه الخشية إلى التذكر فالخشية مستلزمة للتذكر فكل خاش متذكر كما قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}فاطر28 فلا يخشاه إلا عالم فكل خاش لله فهو عالم هذا منطوق الآية و قال السلف و أكثر العلماء إنها تدل على أن كل عالم فإنه يخشى الله كما دل غيرها على أن كل من عصى الله فهو جاهل كما قال أبو العالية سألت أصحاب محمد عن قوله {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ }النساء17 فقالوا لي كل من عصى الله فهو جاهل و كذلك قال مجاهد و الحسن البصرى و غيرهم من العلماء التابعين و من بعدهم و ذلك أن الحصر فى معنى الإستثناء و الإستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء فنفي الخشية عمن ليس من العلماء و هم العلماء به الذين يؤمنون بما جاءت به الرسل يخافونه قال تعالى{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }الزمر9 و أثبتها للعلماء فكل عالم يخشاه فمن لم يخش الله فليس من العلماء بل من الجهال كما قال عبدالله بن مسعود كفى بخشية الله علما و كفى بالإغترار بالله جهلا و قال رجل للشعبى أيها العالم فقال إنما العالم من يخشى الله فكذلك قوله {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى10 يقتضى أن كل من يخشاه فلابد أن يكون ممن تذكر و قد ذكر أن الأشقى يتجنب الذكرى فصار الذي يخشى ضد الأشقى فلذلك يقال كل من تذكر خشى و التحقيق أن التذكر سبب الخشية فإن كان تاما أوجب الخشية كما أن العلم سبب الخشية فإن كان تاما أوجب الخشية و على هذا فقوله فى قصة فرعون { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 جعل ذلك نوعين لما فى ذلك من الفوائد أحدها أنه إذا تذكر أنه مخلوق و أن الله خالقه و ليس هو إلها و ربا كما ذكر و ذكر إحسان الله إليه فهذا التذكر يدعوه إلى إعترافه بربوبية الله و توحيده و إنعامه عليه فيقتضى الإيمان و الشكر وإن قدر أن الله لا يعذبه فإن مجرد كون الشيء حقا و نافعا يقتضي طلبه و إن لم يخف ضررا بعدمه كما يسارع المؤمنون إلى فعل التطوعات و النوافل لما فيها من النفع و إن كان لا عقوبة فى تركها كما يحب الإنسان علوما نافعة و إن لم يتضرر بتركها و كما قد يحب محاسن الأخلاق و معالي الأمور لما فيها من المنفعة و اللذة في الدنيا و الآخرة و إن لم يخف ضررا بتركها فهو إذا تذكر آلاء الله و تذكر إحسانه إليه فهذا قد يوجب إعترافه بحق الله و توحيده و إحسانه إليه و يقتضي شكره لله و تسليم قوم موسى إليه و أن لم يخف عذابا فهذا قد حصل بمجرد التذكر قال {أَوْ يَخْشَى }طه44 و نفس الخشية إذا ذكر له موسى ما توعده الله به من عذاب الدنيا و الآخرة فإن هذا الخوف قد يحمله على الطاعة و الإنقياد و لو لم يتذكر و قد يحصل تذكر بلا خشية و قد يحصل خشية بلا تذكر و قد يحصلان جميعا و هو الأغلب قال تعالى { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 و أيضا فذكر الإنسان يحصل بما عرفه من العلوم قبل هذا فيحصل بمجرد عقله و خشيته تكون بما سمعه من الوعيد فبالأول يكون ممن له قلب يعقل به و الثاني يكون ممن له أذن يسمع بها و قد تحصل الذكرى الموجبة للخير بهذا و بهذا كما قال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ{36} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ{37} ق36-37 الفائدة الثانية أن التذكر سبب الخشية و الخشية حاصلة عن التذكر فذكر التذكر الذي هو السبب و ذكر الخشية التى هي النتيجة و إن كان أحدهما مستلزما للآخر كما قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ{37} ق37 و كما قال أهل النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 و قال {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ

الَّتِي فِي الصُّدُورِ }الحج46 فكل من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعا يعقل به ما قالوه ينجو و إلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه كما قال {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ }محمد16 و قال {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ }يونس42 و قال {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف2 و كذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع و قد إعترف أهل النار بمجيء الرسل فقالوا {قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ }الملك9 و كذلك المعتبرين بآثار المعذبين الذين قال فيهم {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا }الحج46 إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل و الناجين الذين صدقوهم فسمعوا قول الرسل و صدقوهم الفائدة الثالثة أن الخشية أيضا سبب للتذكر كما تقدم فكل منهما قد يكون سببا للآخر فقد يخاف الإنسان فيتذكر و قد يتذكر الأمور المخوفة فيطلب النجاة منها و يتذكر ما يرجو به النجاة منها فيفعله فإن قيل مجرد ظن المخوف قد يوجب الخوف فكيف قال { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر28 قيل النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن و إنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة و أما من كان يظن أن العذاب يقع و لا يوقن بذلك فلا يترك هواه و لهذا قال {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }النازعات40 و قال تعالى في ذم الكفار {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ }الجاثية32 و وصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون و لهذا أقسم الرب على وقوع العذاب و الساعة و أمر نبيه أن يقسم على وقوع الساعة و على أن القرآن حق فقال {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ }التغابن7 و قال {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ }سبأ3 و قال {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ }يونس53 وأما قوله تعالى { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ }غافر13 فهو حق كما قال فإن المتذكر إما أن يتذكر ما يدعوا إلى الرحمة و النعمة و الثواب كما يتذكر الإنسان ما يدعوه إلى السؤال فينيب و إما أن يتذكر ما يقتضي الخوف و الخشية فلابد له من الإنابة حينئذ لينجو مما يخاف و لهذا قيل في فرعون { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ }طه44 فينيب { أَوْ يَخْشَى }طه44 و كذلك قال له موسى {هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19} النازعات 18-19 فجمع موسى بين الأمرين لتلازمهما و قال في حق الأعمى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} عبس 3-4 فذكر الإنتفاع بالذكرى كما قال {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 و النفع نوعان حصول النعمة وإندفاع النقمة و نفس إندفاع النقمة نفع و إن لم يحصل معه نفع آخر و نفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع و كلاهما نفع فالنفع تدخل فيه الثلاثة و الثلاثة تحصل بالذكرى كما قال تعالى {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 و قال {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} عبس 3-4 و أما ذكر التزكي مع التذكر فهو كما ذكر في قصة فرعون الخشية مع التذكر و ذلك أن التزكي هو الإيمان و العمل الصالح الذي تصير به نفس الإنسان زكية كما قال في هذه السورة { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 و قال { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس9-10 و قال {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }الجمعة2 و قال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت 6-7 و قال موسى لفرعون { هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات 18-19 وعطف عليه {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى }عبس4 لوجوه أحدها أن التزكي يحصل بإمتثال أمر الرسول و إن كان صاحبه لا يتذكر علوما

عنه كما قال { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }الجمعة2 ثم قال {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }الجمعة2 فالتلاوة عليهم و التزكية عام لجميع المؤمنين و تعليم الكتاب و الحكمة خاص ببعضهم و كذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول و أما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه الوجه الثاني أن قوله {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى }عبس4 يدخل فيه النفع قليله و كثيره و التزكي أخص من ذلك الثالث أن التذكر سبب التزكي فإنه إذا تذكر خاف و رجا فتزكي فذكر الحكم و ذكر سببه ذكر العمل و ذكر العلم و كل منهما مستلزم للآخر فإنه لا يتزكى حتى يتذكر ما يسمعه من الرسول كما قال { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى} الاعلى10 فلا بد لكل مؤمن من خشية و تذكر و هو إذا تذكر فإنه ينتفع و قد تتم المنفعة فيتزكى و قوله { لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }الفرقان62 فيه أيضا نحو هذه الوجوه فإن الشاكر قد يشكر الله على نعمه و إن لم يخف و التذكر قد يقتضى الخشية و أيضا فإن التذكر يقتضي الخوف من العقاب و طلب الثواب فيعمل للمستقبل و الشكر على النعم الماضية و أيضا فالتذكر تذكر علوم سابقة و منها تذكر نعم الله عليه فهو سبب للشكر تذكر السبب و المسبب و أيضا فإن الشكر يقتضي المزيد من النعم و التذكر قد يكون لهذا و قد يكون خوفا من العذاب و قد يكون الأمر بالعكس فالشاكر قد يشكر الشكر الواجب لئلا يكون كفورا فيعاقب على ترك الشكر بسلب النعمة و عقوبات أخر و المتذكر قد يتذكر ما أعده الله لمن أطاعه فيطيعه طلبا لرحمته و أيضا فالتذكر قد يكون لفعل الواجبات التى يدفع بها العقاب و الشكور يكون للمزيد من فضله كما في الصحيحين أن النبى صلىالله عليه و سلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له أتفعل هذا و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر فقال أفلا أكون عبدا شكورا و قال صلى الله عليه و سلم لا يتمنين أحدكم الموت إما محسن فيزداد إحسنا و إما مسيئا فلعله أن يستعتب فالمؤمن دائما فى نعمة من ربه تقتضي شكرا و فى ذنب يحتاج إلى إستغفار و هو في سيد الإستغفار يقول أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى فإغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت و قد علم تحقيق قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 فما أصابه من الحسنات هي نعم الله فتقتضي شكرا و ما أصابه من المصائب فبذنوبه تقتضى تذكرا لذنوبه يوجب توبة و إستغفارا و قد جعل الله { اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ }الفرقان62 فيتوب و يستغفر من ذنوبه {أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }الفرقان62 لربه على نعمه و كل ما يفعله الله بالعبد من نعمة و كل ما يخلفه الله فهو نعمة الله عليه فكلما نظر إلى ما فعله ربه شكر و إذا نظر إلى نفسه إستغفر و التذكر قد يكون تذكر ذنوبه و عقاب ربه و قد يدخل فيه تذكر آلائه و نعمه فإن ذلك يدعو إلى الشكر قال تعالى {اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ }الأحزاب9 فى غير موضع فقد أمر بذكر نعمه فالمتذكر يتذكر نعم ربه و يتذكر ذنوبه و أيضا فهو ذكر الشكور لأنه مقصود لنفسه فإن الشكر ثابت في الدنيا و الآخرة و ذكر التذكر لأنه أصل للإستغفار و الشكر و غير ذلك فذكر المبدأ و ذكر النهاية و هذا المعنى يجمع ما قيل و الله سبحانه أعلم والتذكر إسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره كما قال { أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ }فاطر37 أي قامت الحجة عليكم بالنذير الذي جاءكم و بتعميركم عمرا يتسع للتذكر و قد أمر سبحانه بذكر نعمه فى غير موضع كقوله{ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ }البقرة231 و المطلوب بذكرها شكرها كما قال { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{150} كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{151} فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ{152} البقرة 150-152 و قوله {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ

}البقرة151 يتناول كل من خوطب بالقرآن و كذلك قوله {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة128 فالرسول من أنفس من خوطب بهذا الكلام إذ هي كاف الخطاب و لما خوطب به أولا قريش ثم العرب ثم سائر الأمم صار يخص و يعم بحسب ذلك و فيه ما يخص قريشا كقوله { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} قريش1-2 و قوله {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ }الزخرف44 و فيه ما يعم العرب و يخصهم كقوله {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ }الجمعة2 و الأميون يتناول العرب قاطبة دون أهل الكتاب ثم قال {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ }الجمعة3 فهذا يتناول كل من دخل في الإسلام بعد دخول العرب فيه إلى يوم القيامة كما قال ذلك مقاتل بن حيان و عبد الرحمن بن زيد و غيرهما فإن قوله {وَآخَرِينَ مِنْهُمُ }الجمعة3 أي في الدين دون النسب إذ لو كانوا في النسب لكانوا من الأميين و هذا كقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ }الأنفال75 و قد ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت سئل النبي صلى الله عليه و سلم عنهم فقال لو كان الإيمان معلقا بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس فهذا يدل على دخول هؤلاء لا يمنع دخول غيرهم من الأمم و إذا كانوا هم منهم فقد دخلوا في قوله {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ }آل عمران164 فالمنة على جميع المؤمنين عربهم و عجمهم سابقهم و لاحقهم و الرسول منهم لأنه إنسي مؤمن و هو من العرب أخص لكونه عربيا جاء بلسانهم و هو من قريش أخص والخصوص يوجب قيام الحجة لا يوجب الفضل إلا بالإيمان و التقوى لقوله {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }الحجرات13 و لهذا كان الأنصار أفضل من الطلقاء من قريش و هم ليسوا من ربيعة و لا مضر بل من قحطان و أكثر الناس على أنهم من ولد هود ليسوا من ولد إبراهيم و قيل إنهم من ولد إسماعيل لحديث أسلم لما قال إرموا فإن أباكم كان راميا و أسلم من خزاعة و خزاعة من و لد إبراهيم و في هذا كلام ليس هذا موضعه إذ المقصود أن الأنصار أبعد نسبا من كل ربيعة و مضر مع كثرة هذه القبائل و مع هذا هم أفضل من جمهور قريش إلا من السابقين الأولين من المهاجرين و فيهم قرشي و غير قرشي و مجموع السابقين ألف و أربعمائة غير مهاجري الحبشة فقوله {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ }التوبة128 يخص قريشا و العرب ثم يعم سائر البشر لأن القرآن خطاب لهم و الرسول من أنفسهم و المعنى ليس بملك لا يطيقون الأخذ منه و لا جنى ثم يعم الجن لأن الرسول أرسل إلى الإنس و الجن و القرآن خطاب للثقلين و الرسول منهم جميعا كما قال {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ }الأنعام130 فجعل الرسل التي أرسلها من النوعين مع أنهم من الإنس فإن الإنس و الجن مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين فإنهم يأكلون و يشربون و ينكحون و ينسلون و يغتذون و ينمون بالأكل و الشرب و هذه الأمور مشتركة بينهم و هم يتميزون بها عن الملائكة فإن الملائكة لا تأكل و لا تشرب و لا تنكح و لا تنسل فصار الرسول من أنفس الثقلين بإعتبار القدر المشترك بينهم الذي تميزوا به عن الملائكة حتى كان الرسول مبعوثا إلى الثقلين دون الملائكة و كذلك قوله {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ }آل عمران164 هو كقوله { وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ }البقرة231 و قوله {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ }البقرة151 ثم قال{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ }البقرة152 و المقصود أنه أمر بذكر النعم و شكرها وقال {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ }البقرة47 في غير موضع و قال للمؤمنين { وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ }الأعراف86 فذكر النعم من الذكر الذي أمروا به و مما أمروا به تذكرة قصص الأنبياء المتقدمين كما قال {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

إِبْرَاهِيمَ }مريم41 {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى }مريم51 {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ }مريم54 {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ }مريم56 و قال { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ }ص17 {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ }ص45 {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ}ص48 و مما أمروا به تذكرة ما و عدوا به من الثواب و العقاب قال تعالى {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ }ص46 ومما أمروا بتذكره آيات الله التى يستدلون بها على قدرته و على المعاد كقوله { وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً{66} أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً{67}مريم 66-67 و قد قال لموسى { وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ }إبراهيم5 و هي تتناول أيام نعمه و أيام نقمه ليشكروا و يعتبروا و لهذا قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }إبراهيم5 فإن ذكر النعم يدعو إلى الشكر و ذكر النقم يقتضي الصبر على فعل المأمور و إن كرهته النفس و عن المحظور و إن أحبته النفس لئلا يصيبه ما أصاب غيره من النقمة [1]

{ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }

قال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }فاطر28 والمعنى انه لا يخشاه الا عالم فقد اخبر الله ان كل من خشى الله فهو عالم كما قال فى الآية الأخرى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }الزمر9 والخشية أبدا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطا كما ان الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا فأهل الخوف لله والرجاء له هم اهل العلم الذين مدحهم الله وقد روى عن أبى حيان التيمى انه قال العلماء ثلاثة فعالم بالله ليس عالما بأمر الله وعالم بأمر الله ليس عالما بالله وعالم بالله عالم بأمر الله فالعالم بالله هو الذى يخافه والعالم بأمر الله هو الذى يعلم امره ونهيه وفى الصحيح عن النبى انه قال والله انى لأرجو ان اكون اخشاكم لله واعلمكم بحدوده واذا كان اهل الخشية هم العلماء الممدوحون فى الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ويدل عليه قوله تعالى }وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ{13} وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ{14}إبراهيم13-14 وقوله {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ }الرحمن46 فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف وذلك إنما يكون لأنهم ادوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب ولهذا يقال للفاجر لا يخاف الله ويدل على هذا المعنى قوله تعالى {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ }النساء17 قال أبو العالية سألت اصحاب محمد عن هذه الآية فقالوا لى كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب وكذلك قال سائر المفسرين قال مجاهد كل عاص فهو جاهل حين معصيته وقال الحسن وقتادة وعطاء والسدى وغيرهم انما سموا جهالا لمعاصيهم لا انهم غير مميزين وقال الزجاج ليس معنى الآية انهم يجهلون انه سوء لأن المسلم لو أتى ما يجهله كان كمن لم يواقع سوءا وانما يحتمل امرين احدهما انهم عملوه وهم يجهلون المكروه فيه والثانى انهم اقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة وآثروا العاجل على الآجل فسموا جهالا لايثارهم القليل على الراحة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 154-194

الكثيرة والعافية الدائمة فقد جعل الزجاج الجهل إما عدم العلم بعاقبة الفعل واما فساد الارادة وقد يقال هما متلازمان وهذا مبسوط فى الكلام مع الجهمية والمقصود هنا أن كل عاص لله فهو جاهل وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله وانما يكون جاهلا لنقص خوفه من الله إذ لو تم خوفه من الله لم يعص ومنه قول ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وذلك لأن تصور المخوف يوجب الهرب منه وتصور المحبوب يوجب طلبه فاذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على انه لم يتصوره تصورا تاما ولكن قد يتصور الخبر عنه وتصور الخبر وتصديقه وحفظ حروفه غير تصور المخبر عنه وكذلك اذا لم يكن المتصور محبوبا له ولا مكروها فان الانسان يصدق بما هو مخوف على غيره ومحبوب لغيره ولا يورثه ذلك هربا ولا طلبا وكذلك اذا اخبر بما هو محبوب له ومكروه ولم يكذب المخبر بل عرف صدقه لكن قلبه مشغول بأمور اخرى عن تصور ما أخبر به فهذا لا يتحرك للهرب ولا للطلب وفى الكلام المعروف عن الحسن البصرى ويروى مرسلا عن النبى العلم علمان فعلم فى القلب وعلم على اللسان فعلم القلب هو العلم النافع وعلم اللسان حجة الله على عبادة وقد أخرجا فى الصحيحين عن ابى موسى عن النبى انه قال مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولاريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها وهذا المنافق الذى يقرأ القرآن يحفظه ويتصور معانيه وقد يصدق انه كلام الله وان الرسول حق ولايكون مؤمنا كما ان اليهود يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وليسوا مؤمنين وكذلك ابليس وفرعون وغيرهما لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة فان ذلك يستلزم العمل بموجبه لامحالة ولهذا صار يقال لمن لم يعمل بعلمه أنه جاهل كما تقدم وكذلك لفظ العقل وان كان هو فى الأصل مصدر عقل يعقل عقلا وكثير من النظار جعله من جنس العلوم فلابد ان يعتبر مع ذلك انه علم يعمل بموجبه فلا يسمى عاقلا من عرف الخير فطلبه والشر فتركه ولهذا قال اصحاب النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 وقال عن المنافقين { تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ }الحشر14 ومن فعل ما يعلم انه يضره فمثل هذا ماله عقل فكما ان الخوف من الله يستلزم العلم به فالعلم به يستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه وهذا هو الذى قصدنا بيانه اولا ويدل على ذلك ايضا قوله تعالى { فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{9} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{12} الاعلى 9-12 فأخبر ان من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال الله تعالى {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ }غافر13 وقال {تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ }ق8 ولهذا قالوا فى قوله {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى }الأعلى10 سيتعظ بالقرآن من يخشى الله وفى قوله { وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ }غافر13 انما يتعظ من يرجع الى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره فان تذكر محبوبا طلبه وان تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }يس10 وقال سبحانه {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }يس10 فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان الانذار هو الاعلام بالمخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذى تم تخويفه واما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 ومن هديته فلم يهتد كما قال {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 فلم يتم

هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع فالمؤثر التام يستلزم اثره فمتى لم يحصل اثره لم يكن تاما والفعل اذا صادف محلا قابلا تم والا لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ويقال الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم الفساد الفطرة و الفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالممرور الذى يجد العسل مرأ فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ {109} وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{110}الأنعام109 [1]

الذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين

ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين ولهذا قال عمر بن حبيب من الصحابة اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه وهو كذلك وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه اجلسوا بنا ساعة نؤمن قال تعالى { وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ }الكهف28 وقال تعالى {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }الذاريات55 وقال تعالى {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى {10} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11}الأعلى10-11 ثم كلما تذكر الانسان ما عرفه قبل ذلك وعمل به حصل له معرفة شئ آخر لم يكن عرفه قبل ذلك وعرف من معانى أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك كما فى الأثر من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وهذا أمر يجده فى نفسه كل مؤمن وفى الصحيح عن النبى مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحى والميت قال تعالى { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً }الأنفال2 وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه وتزيدهم عملا بذلك العلم وتزيدهم تذكرا لما كانوا نسوه وعملا بتلك التذكرة وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم قال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ }فصلت53 أى ان القرآن حق ثم قال تعالى { أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }فصلت53 فإن الله شهيد فى القرآن بما أخبر به فآمن به المؤمن ثم اراهم فى الآفاق وفى انفسهم من الايات ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن فبينت لهم هذه الآيات ان القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك وقال تعالى {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ {6} وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ{7} تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ{8}ق6-8 فالآيات المخلوقة والمتلوة فيها تبصرة وفيها تذكرة تبصرة من العمى وتذكرة من الغفلة فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف ويذكر من عرف ونسى والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له فى أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت فيؤمن بتلك المعانى ويزداد علمه وعمله وهذا موجود فى كل من قرأ القرآن بتدبر

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 23-26

بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه ثم كلما فعل شيئا مما أمر به استحضر أنه امر به فصدق الامر فحصل له فى تلك الساعة من التصديق فى قلبه ما كان غافلا عنه وإن لم يكن مكذبا منكرا [1]

{ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى }

وقوله { وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{12} ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى{13} الاعلى11-13 و قد ذكر فى سورة الليل قوله { فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى{14} لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{16} الليل 14-16 و هذا الصلي قد فسره النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها و لا يحيون و لكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد كان بالبادية و فى رواية ذكرها إبن أبي حاتم فقال ذكر عن عبدالصمد بن عبدالوارث ثنا أبى ثنا سليمان التيمي عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خطب فأتى على هذه { لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى }الأعلى13 فقال النبى صلى الله عليه و سلم أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها و لا يحيون و أما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم فيشفعون فيؤتى بهم إلى نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت الغثاء فى حميل السيل فقد بين النبى صلى الله عليه و سلم أن هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها و أن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم و أن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحما ثم يشفع فيهم فيخرجون و يؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل و هذا المعني مستفيض عن النبى صلى الله عليه و سلم بل متواتر فى أحاديث كثيرة في الصحيحين و غيرهما من حديث أبى سعيد و أبى هريرة و غيرهما و فيها الرد على طائفتين على الخوارج و المعتزلة الذين يقولون إن أهل التوحيد يخلدون فيها و هذه الآية حجة عليهم و على من حكي عنه من غلاة المرجئة أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء و أولئك و فيه رد على من يقول يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحدا النار كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة و مرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة و هم الواقفة من أصحاب أبى الحسن و غيرهم كالقاضي أبى بكر و غيره فإن النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد و خروجهم و القول ب أن أحدا لا يدخلها من أهل التوحيد ما أعلمه ثابتا عن شخص معين فأحكيه عنه لكن حكي عن مقاتل بن سليمان و قال إحتج من قال ذلك بهذه الآية و قد أجيبوا بجوابين أحدهما جواب طائفة منهم الزجاج قالوا هذه نار مخصوصة لكن قوله بعدها و { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الليل17 لا يبقى فيه كبير و عد فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها وجواب آخرين قالوا لا يصلونها صلي خلود و هذا أقرب و تحقيقه أن الصلي هنا هو الصلي المطلق و هو المكث فيها و الخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائما فأما من دخل و خرج فإنه نوع من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 237

الصلي ليس هو الصلي المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها و النار لم تأكله كله فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود و الله أعلم [1]

{ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }

قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 و { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى } الاعلى 14 معنى التزكية قال قتادة وابن عيينة وغيرهما قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال وقال الفراء والزجاج قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع وليس هو مراد من الآية بل المراد بها الأول قطعا لفظا ومعنى أما اللفظ فقوله من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد على من فإذا قيل قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص في زكاها يعود على من هذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته كما يقال قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه وأما اذا كان المعنى قد أفلح من زكاه الله لم يبق في الجملة ضمير يعود على من فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو من وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على من لا ضمير الفاعل ولا المفعول فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز نعم لو قيل قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب وهو لم يقل قد أفلحت نفس زكاها فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة بل قال قد أفلح من زكاها فالجملة صلة لمن لا صفة لها ولا قال أيضا قد أفلحت النفس التي زكاها فإنه لو قيل ذلك وجل في زكاها ضمير يعود على اسم الله صح فإذا تكلفوا وقالوا التقدير قد أفلح من زكاها هي النفس التي زكاها وقالوا في زكى ضمير المفعول يعود على من وهي تصلح للمذكر والمؤنث والواحد والعدد فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل قد أفلح ولم يقل قد أفلحت قيل لهم هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فإنما يصح اذا دل الكلام على ذلك في مثل ومن على أن المراد لنا وكذا قوله ومنهم من يستمعون اليك ونحو ذلك وأما هنا فلس في لفظ من وما بعدها ما يدل على أن المراد به النفس المؤنثه فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على ارادته فإن مثل هذا مما يصان كلام الله عز وجل عنه فلو قدر احتمال عود ضمير زكاها الى نفس والى من مع أن لفظ من لا دليل يوجب عوده عليه لكان الى المؤنث أولى من اعادته الى ما يحتمل التذكير والتأنيث وهو في التذكير أظهر لعدم دلالته على التأنيث فان الكلام اذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف والقرآن منزه عن ذلك والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام الى ما لا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف اذا كان نصا من جهة المعنى فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور ولبسط هذا موضع آخر التزكية في الكتاب السنة والمقصود هنا أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها كقوله قد أفلح من تزكى فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا ينهي ولا ترغيب ولا ترهيب والقرآن اذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد القدر فلا يقول من جعله الله مؤمنا بل يقول قد أفلح المؤمنون قد أفلح من تزكى اذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلا فكيف بكلام الله ألا ترى أنه في مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم اما بما ليس من أفعالهم وإما بإنعامه بالايمان والعمل الصالح ويذكره في سياق قدرته ومشيئته وأما في معرض الأمر فلا يذكره

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 194-197

الا عند النعم كقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى الآية فهذا مناسب وقوله قد أفلح من تزكى وهذه الأية من جنس الثانية لا الأولى والمقصود ذكر التزكية قال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }النور30[1]

ليس من شرط المتقين أن يكونوا معصومين

قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس9-10 و قال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 و قال {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 و قال{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ }النور21 و ليس من شرط المتقين و نحوهم أن لا يقع منهم ذنب و لا أن يكونوا معصومين من الخطأ و الذنوب فإن هذا لو كان كذلك لم يكن في الأمة متق بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين و من فعل ما يكفر سيئاته دخل في المتقين كما قال {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً }النساء31 [2]

صدقة الفطر تخرج قبل صلاة العيد

وعيد النحر أفضل من عيد الفطر ولهذا كانت العبادة فيه النحر مع الصلاة والعبادة في ذاك الصدقة مع الصلاة والنحر أفضل من الصدقة لأنه يجتمع فيه العبادتان البدنية والمالية فالذبح عبادة بدنية ومالية والصدقة والهدية عبادة مالية ولأن الصدقة في الفطر تابعة للصوم لأن النبي صلى الله عليه وسلم فرضها طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين ولهذا سن أن تخرج قبل الصلاة كما قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15} الأعلى 14-15 وأما النسك فإنه مشروع في اليوم نفسه عبادة مستقلة ولهذا يشرع بعد الصلاة كما قال تعالى { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{2} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ{3} الكوثر2-3 فصلاة الناس في الأمصار بمنزلة رمي الحجاج جمرة العقبة وذبحهم في الأمصار بمنزلة ذبح الحجاج هديهم وفي الحديث الذي في السنن أفضل الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر [3]

تزكية النفس

ففي تزكية النفس وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 قال قتادة وإبن عيينة وغيرهما قد أفلح من

---

[1] الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 59-61

[2] منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 85

[3] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 172 و مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 222

زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال وقال الفراء والزجاج قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله وكذلك ذكره الوالبى عن إبن عباس وهو منقطع و ليس هو مراد من الآية بل المراد بها الأول قطعا لفظا ومعنى أما اللفظ فقوله من زكاها إسم موصول ولا بد فيه من عائد على { مَن }فإذا قيل قد أفلح الشخص الذى زكاها كان ضمير الشخص فى زكاها يعود على { مَن } هذا وجه الكلام الذى لا ريب فى صحته كما يقال قد أفلح من إتقى الله وقد افلح من أطاع ربه وأما إذا كان المعنى قد أفلح من زكاه الله لم يبق فى الجملة ضمير يعود على من فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو من وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على من لا ضمير الفاعل ولا المفعول فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز نعم لو قيل قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب وهو لم يقل قد أفلحت نفس زكاها فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة بل قال { مَن } فالجملة صلة ل { مَن } لا صفة لها ولا قال أيضا قد أفلحت النفس التى زكاها فإنه لو قيل ذلك وجعل فى { زَكَّاهَا } ضمير يعود على إسم الله صح فإذا تكلفوا وقالوا التقدير {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 هى النفس التى زكاها وقالوا فى زكى ضمير المفعول يعود على { مَن }وهى تصلح للمذكر والمؤنث والواحد والعدد فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقة ولهذا قيل {قَدْ أَفْلَحَ } ولم يقل قد أفلحت قيل لهم هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فإنما يصح إذا دل على الكلام على ذلك فى مثل ومن على أن المراد لنا وكذا قوله {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ }يونس42 ونحو ذلك وأما هنا فليس فى لفظ {مَن }وما بعدها ما يدل على أن المراد به النفس المؤنثة فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته فإن مثل هذا مما يصان كلام الله عز وجل عنه فلو قدر إحتمال عود ضمير {زَكَّاهَا } إلى نفس وإلى {مَن } مع أن لفظ {مَن } لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث وهو فى التذكير أظهر لعدم دلالته على التأنيث فإن الكلام إذا إحتمل معنيين وجب حمله على اظهرهما ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف والقرآن منزه عن ذلك والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى مالا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف إذا كان نصا من جهة المعنى فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور ولبسط هذا موضع آخر والمقصود هنا أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها كقوله {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهى ولا ترغيب ولا ترهيب والقرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد القدر فلا يقول من جعله الله مؤمنا بل يقول {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ }المؤمنون1 {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 إذ ذكر مجرد القدر فى هذا يناقض المقصود ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلا فكيف بكلام الله ألا ترى أنه فى مقام الأمر والنهى والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد والمدح والذم وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم إما بما ليس من أفعالهم وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح ويذكره فى سياق قدرته ومشيئته وأما فى معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النعم كقوله {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا }النور21 الآية فهنا مناسب وقوله {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى والمقصود ذكر التزكية قال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 الآية وقال {فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }النور28 وقال {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }فصلت7 وقال {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى }عبس7و اصل الزكاة الزيادة فى الخير ومنه يقال زكا الزرع وزكا المال إذا نما ولن ينمو الخير إلا بترك الشر والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها و لايكون الرجل متزكيا إلا

مع ترك الشر فإنه يدنس النفس ويدسيها قال الزجاج { دَسَّاهَا }الشمس10 جعلها ذليلة حقيرة خسيسة وقال الفراء {دَسَّاهَا }الشمس10لأن البخيل يخفى نفسه ومنزله وماله قال إبن قتيبة أى أخفاها بالفجور والمعصية فالفاجر دس نفسه أى قمعها وخباها وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها واللئام تنزل الأطراف والوديان فالبر والتقوى يبسط النفس ويشرح الصدر بحيث يجد الإنسان فى نفسه إتساعا وبسطا عما كان عليه قبل ذلك فإنه لما إتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها بحيث يجد البخيل فى نفسه أنه ضيق وقد بين النبى ذلك فى الحديث الصحيح فقال مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد إضطرت أيديهما إلى تراقيهما فجعل المتصدق كلما هم بصدقة إتسعت وإنبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها وأنا رأيت رسول الله يقول باصبعه فى جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع أخرجاه وإخفاء المنزل وإظهاره تبعا لذلك قال تعالى {يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ }النحل59 الآية فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها فى بدنه بعضها فى بعض ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل والنفس البرة التقية النقية التى قد زكاها صاحبها فإرتفعت وإتسعت ومجدت ونبلت فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من فى السقاء وكالشعرة من العجين قال إبن عباس إن للحسنة لنورا فى القلب وضياء فى الوجه وقوة فى البدن وسعة فى الرزق ومحبة فى قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة فى القلب وسوادا فى الوجه ووهنا فى البدن وضيقا فى الرزق وبغضة فى قلوب الخلق قال تعالى {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً }الأعراف58 الآية وهذا مثل البخيل والمنفق قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام125 الآية وقال {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ }البقرة257 الآية وقال له في سياق الرمى بالفاحشة وذم من أحب إظهارها فى المؤمنين والمتكلم بما لا يعلم {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 الآية فبين ان الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 الآية وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال النفس فإنها تعلم أن السيئات مذمومة ومكروه فعلها ويجاهد نفسه إذا دعته إليها إن كان مصدقا لكتاب ربه مؤمنا بما جاء عن نبيه ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة فتزكو بذلك أيضا بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تتدنس وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل والثواب إنما يكون على عمل موجود وكذلك العقاب فأما العدم المحض فلا ثواب فيه ولا عقاب لكن فيه عدم الثواب والعقاب والله سبحانه أمر بالخير ونهى عن الشر وإتفق الناس على أن المطلوب بالأمر فعل موجود وإختلفوا فى النهى هل المطلوب أمر وجودى أم عدمى فقيل وجودى وهو الترك وهذا قول الأكثر وقيل المطلوب عدم الشر وهو أن لا يفعله و التحقيق أن المؤمن إذا نهى عن المنكر فلابد أن لا يقربه ويعزم على تركه ويكره فعله وهذا أمر وجودى بلا ريب فلا يتصور أن المؤمن الذى يعلم أنه وجودى لكن قد لا يكون مريدا له كما يكره أكل الميتة طبعا ومع ذلك فلا بد له من إعتقاد التحريم والعزم على تركه لطاعة الشارع وهذا قدر زائد على كراهة الطبع وهو أمر وجودى يثاب عليه ولكن ليس كثواب من كف نفسه وجاهدها عن طلب المحرم ومن كانت كراهته للمحرمات كراهة إيمان وقد غمر إيمانه حكم طبعه فهذا أعلى الأقسام الثلاثة وهذا صاحب النفس المطمئنة وهو أرفع من صاحب اللوامة التى تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه وتتلوم وتتردد هل تفعله أم لا وأما من لم يخطر بباله أن الله حرمه وهو مريد له بل لم يفعله فهذا لا

يعاقب ولا يثاب إذا لم يحصل منه أمر وجودى يثاب عليه أو يعاقب فمن قال المطلوب أن لا يفعل لان أراد أن هذا المطلوب يكفي في عدم العقاب فقد صدق وإن أراد أنه يثاب على هذا العدم فليس كذلك والكافر إذا لم يؤمن بالله ورسوله فلا بد لنفسه من أعمال يشتغل بها عن الإيمان وترك الأعمال كفر يعاقب عليها ولهذا لما ذكر الله عقوبة الكفار فى النار ذكر امورا وجودية وتلك تدس النفس ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس وكان الشرك أعظم ما يدسيها وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف قالوا فى {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 تطهر من الشرك ومن المعصية بالتوبة وعن أبى سعيد وعطاء وقتادة صدقة الفطر ولم يريدوا الآية لم تتناول إلا هى بل مقصودهم أن من أعطى صدقة الفطر وصلى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها ولهذا كان يزيد بن حبيب كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة ويتصدق بها قبل الصلاة ولو لم يجد إلا بصلا قال الحسن {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 من كان عمله زاكيا وقال أبوالأحوص زكاة الأمور كلها وقال الزجاج تزكى بطاعة الله عز وجل ومعنى الزاكى النامى الكثير وكذلك قالوا فى قوله { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت6-7 قال إبن عباس لا يشهدون أن لا إله إلا الله وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم أى ليست زاكية وقيل لا يطهرونها بالإخلاص كأنه اراد والله أعلم أهل الريا فإنه شرك وعن الحسن لا يؤمنون بالزكاة ولا يقرون بها وعن الضحاك لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة وعن إبن السائب لا يعطون زكاة أموالهم قال كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون و التحقيق أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة كقوله {فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى }النازعات18 وقوله {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها فإن قيل يؤتى فعل متعد قيل هذا كقوله { ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا }الأحزاب14 وتقدم قبلها أن الرسول دعاهم وهو طلب منه فكان هذا اللفظ متضمنا قيام الحجة عليهم بالرسل والرسل إنما يدعونهم لما تزكو به أنفسهم ومما يليق أن الزكاة تستلزم الطهارة لأن معناها معنى الطهارة قوله {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ }التوبة103 من الشر { وَتُزَكِّيهِم }التوبة103 بالخير قال اللهم طهرنى بالماء والبرد والثلج كان يدعو به فى الإستفتاح وفى الإعتدال من الركوع والغسل فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها و البرد يعطى قوة وصلابة وما يسر يوصف بالبرد وقرة العين ولهذا كان دمع السرور باردا ودمع الحزن حارا لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن فسأل النبى أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون ما فيه من الفرح والسرور الذ ي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب وقوله بالثلج والبرد والماء البارد تمثيل بما فيه من هذا الجنس والا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك كما يقال أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال صلى الله عليه وسلم الآن بردت جلدته ويقال برد اليقين وحرارة الشك ويقال هذا الأمر يثلج له الصدر إذا كان حقا يعرفه القلب ويفرح به حتى يصير فى مثل برد الثلج ومرض النفس أما شبهة وأما شهوة أو غضب والثلاثة توجب السخونة ويقال لمن نال ممطلوبه برد قلبه فإن الطالب فيه حرارة الطلب وقوله {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ }التوبة103 دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة فإنه بعد قوله {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ }التوبة102 الآية فالتوبه والعمل الصالح يحصل بها التطهير والتزكية ولهذا قال فى سياق قوله {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ }النور30 الآيات { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً }النور31 الآية فأمرهم جميعا بالتوبة فى سياق ما ذكره لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس كما فى الصحيح إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا الحديث وكذلك في الصحيح أن قوله {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }هود114 نزلت بسبب رجل نال من إمرأة كل شىء إلا

الجماع ثم ندم فنزلت ويحتاج المسلم فى ذلك الى أن يخاف الله وينهى النفس عن الهوى ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه بل على إتباعه والعمل به فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله وعملا صالحا وثبت عنه أنه قال المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله فيؤمر بجهادها

كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصى ويدعو اليها وهو الى جهاد نفسه أحوج فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية والصبر فى هذا من أفضل الأعمال فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد كما قال والمهاجر من هجر السيئات ثم هذا لا يكون محمودا فيه إلا إذا غلب بخلاف الأول فإنه من يقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة إلخ وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى وأن يخاف مقام ربه فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد فإذا غلب لكان لضعف إيمانه فيكون مفرطا بترك المأمور بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به ومع إمتثال المأمور لا تفعل المحظور فإنهما ضدان قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24 الآية وقال {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }الحجر42 فعباد الله مخلصون لا يغويهم الشيطان و الغى خلاف الرشد وهو إتباع الهوى فمن مالت نفسه الى محرم فليأت بعبادة الله كما أمر الله مخلصا له الدين فإن ذلك يصرف عنه السوء الفحشاء خشية ومحبة والعبادة له وحده وهذا يمنع من السئيات فإذا كان تائبا فإن كان ناقصا فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحيا لها بعد الوقوع فهو كالترياق الذى يدفع آثر السم ويرفعه بعض حصوله وكالغذاء من الطعام والشراب وكالإستمتاع من بالحلال الذى يمنع النفس عن طلب الحرام فإذا حصل له طلب إزالته وكالعلم الذى يمنع من الشك ويرفعه بعد وقوعه وكالطب الذى يحفظ الصحة ويدفع المرض وكذلك كما فى القلب من الإيمان يحفظ بأشباهة مما يقوم به وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات وأزيل بهذه ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه وكذلك الإيمان والكفران متضادان فكل ضدين فأحدهما يمنع الآخر تارة ويرفعه أخرى كالسواد والبياض حصل موضعه ويرفعه إذا كان حاصلا كذلك الحسنات والسئيات[1]

استعباد القلب اعظم من استعباد البدن

وكلما طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه فكما ان طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه كما قيل استغن عمن شئت تكن نظيره وافضل على من شئت تكن اميره واحتج الى من شئت تكن اسيره فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له واعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا اما على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه واما على اهله واصدقائه واما على امواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات او يموت قال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 625-637 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 64-65

خَبِيراً }الفرقان58 وكل من علق قلبه بالمخلوقات ان ينصروه او يرزقوه او ان يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وان كان فى الظاهر اميرا لهم مدبرا لهم متصرفا بهم فالعاقل ينظر الى الحقائق لا الى الظواهر فالرجل اذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلب اسيرا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو فى الظاهر سيدها لانه زوجها وفي الحقيقة هو اسيرها ومملوكها لا سيما اذا درت بفقره اليها وعشقه لها وانه لا يعتاض عنها بغيرها انها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذى لا يستطيع الخلاص منه بل اعظم فإن اسر القلب اعظم من اسر البدن واستعباد القلب اعظم من استعباد البدن فان من استعبد بدنه واسترق لا يبالى اذا كان قلبه متريحا من ذلك مطمئنا بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص واما اذا كان القلب الذي هو الملك رقيقا مستعبدا متيما لغير الله هذا هو الذل والاسر المحض والعبودية لما استعبد القلب وعبودية القلب واسره هي التى يترتب عليها الثواب والعقاب ان المسلم لو اسره كافر او استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك اذا كان قائما بما يقدر علي من الواجبات ومن استعبد بحق اذا ادى حق الله وحق مواليه له اجران ولو اكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالايمان لم يضره ذلك واما من استعبد قلبه صار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان فى الظاهر ملك الناس فالحرية حريةالقلب والعبودية عبودية القلب كما ان الغنى غنى النفس قال النبى ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس وهذا لعمري اذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة فاما من استعبد قلبه صورةمحرمة امرأة اوصبى فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه وهؤلاء من اعظم الناس عذابا واقلهم ثوابا فإن العاشق لصورة اذا بقى قلبه متعلقا بها مستعبدا لها اجتمع له من انواع الشر والفساد ما لا يحصيه الا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة اشد ضررا عليه ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول اثره من قلبه وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى افاقة من به سكران وقيل قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق اعظم مما بالمجانين العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وانما يصرع المجنون فى الحين ومن اعظم اسباب هذا البلاء اعراض القلب عن الله فان القلب اذا ذاق طعم عبادة الله والاخلاص له لم يكن عنده شيء قط احلى من ذلك ولا ألذ ولا اطيب والانسان لا يترك محبوبا الا بمحبوب آخر يكون أحب اليه منه او خوفا من مكروه فالحب الفاسد انما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح او بالخوف من الضرر قال تعالى في حق يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24 فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل الى الصورة والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء باخلاصه لله ولهذا يكون قبل ان يذوق حلاوة العبودية لله والاخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها فاذا ذاق طعم الاخلاص وقوى فى قلبه انقهر له هواء بلا علاج قال تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ }العنكبوت45 فان الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله وحصول هذا المحبوب اكبر من دفع المكروه فان ذكر الله عبادة لله وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها واما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه فلما عرضت له ارادة الشر طلب دفع ذلك فانه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل ولهذا قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس 9-10 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 وقال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 وقال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو ازكى للنفس وبين ان ترك الفواحش من زكاة النفوس وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك

والكذب وغير ذلك وكذلك طالب الرئاسة والعلو فى الارض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه فهو فى الظاهر رئيس مطاع وفى الحقيقة عبد مطيع لهم والتحقيق ان كلاهما فيه عبودية للآخر وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله واذا كان تعاونهما على العلو فى الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة او قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر وهكذا ايضا طالب المال فان ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان منها ما يحتاج العبد اليه كما يحتاج اليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك هذا يطلبه من الله ويرغب اليه فيه يكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه وبساطة الذي يجلس عليه بل بمنزة الكنيف الذي يقضى فيه حاجته من غير ان يستعبده فيكون هلوعا { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21} المعارج20-21 و منها ما لا يحتاج العبد اليه فهذه لا ينبغى له ان يعلق قلبه بها فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدا لها وربما صار معتمدا على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله وهذا من احق الناس بقوله صلى الله عليه وسم تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة وهذا هو عبد هذه الأمور فلو طلبها من الله فإن الله اذا اعطاه اياها رضي واذا منعه اياها سخط وانما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما احبه الله ورسوله ويبغض ما ابغضه الله ورسوله ويوالي اولياء الله ويعادى اعداء الله تعالى وهذا هو الذى استكمل الايمان كما فى الحديث من احب لله وابغض لله واعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان وقال اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله وفى الصحيح عنه ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه فكان الله ورسوله احب اليه مما سواهما واحب المخلوق لله لا لغرض آخر فكان هذا فكان من تمام حبه لله فان محبة محبوب من تمام محبة المحبوب فاذا احب أنبياء الله واولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد احبهم لله لا لغيره وقد قال تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}المائدة54 ولهذا قال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }آل عمران31 فان الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به فمن كان محبا لله لزم ان يتبع الرسول فيصدقه فيما اخبر ويطيعه فيما امر ويتأسى به فيما فعل ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله[1]

القرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده

والقرآن شفاء لما فى الصدور ومن فى قلبه امراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات مايزيل الحق من الباطل فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوير والأدراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى فيها عبرة ما

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:184- 191

يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغى بعد ان كان مريدا للغى مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التى فطر عليها كما يعود البدن الى الحال الطيبعى ويغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة فى اللغة النماء والزيادة فى الصلاح يقال زكا الشئ اذا نما فى الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصى فانها بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن ومثل الدغل فى الزرع فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الردئية كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعه واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب اذا تاب من الذنوب كتن استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فاذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للاعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التى كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 وقال تعالى { وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }النور28 وقال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }النور30 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 وقال تعالى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى }عبس3 وقال تعالى { فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات18-19 فالتزكية وان كان اصلها النماء والبركة وزيادة الخير فانما تحصل بازالة الشر فلهذا صار التزكى يجمع هذا وهذا وقال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت6-7 وهى التوحيد والايمان الذى به يزكو القلب فانه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات الحق فى القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب والتزكية جعل الشئ زكيا إنما فى ذاته وإما فى الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس[1]

القلب يغتذي من الايمان والقرآن

ويغتذي القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يتغذى البدن بما ينميه ويوقمه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة في اللغة النماء والزيادة في الصلاح يقال زكا الشيء إذا نما في الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:95- 97 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 6

زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى التوبة {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103وكذلك ترك الفواحش يزكو به القلب وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الاخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع فإذا استفرغ البدن من الاخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب إذاتاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر شيئا فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا وقال فصلت وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إليهة الحق في القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب و التزكية جعل الشيء زكيا إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس[1]

الصلاة تعم العمل الصالح كله

فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال قال تعالى {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ {97} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{98} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{99} الحجر97 -99 تعم جميع الطاعات و قد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها و كذلك قوله {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }البقرة45 فان الصبر و إن كان هو الحبس عن المكروهات فإن فيه فعل جميع العبادات و كذلك قوله { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 فان الصلاة تعم العمل الصالح كله و إن خص بالصدقة و غيرها[2]

الصلاة عماد الدين

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 6

[2] شرح العمدة ج: 4 ص: 89

وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة[1]

الشارع لم ينقل الأسماء ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة

وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ }بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}العلق9-10 وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}العلق9-10 فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى فإذا قيل لهم {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ } عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد [2]

تسبيح اسم الله هو تسبيح لله

والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور فى القلب وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى فانه من الكلام والكلام اسم لفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

لسانه فقد ذكره لكن ذكره بهما أتم والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وامر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى فيدعى بأسمائه الحسنى ويسبح اسمه وتسبيح اسمه هو تسبيح له اذ المقصود بالاسم المسمى كما أن دعاء هو دعاء المسمى قال تعالى {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى }الإسراء110 والله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال { اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً }الأحزاب41 {وَاذْكُرِ رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ }الأعراف205 وهذا كثير وقال {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً }المزمل8 كما قال {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام118 {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام121{ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ }المائدة4 لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذى هو ألف سين ميم واما فى قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ }المزمل8 فيقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله فى الذبيحة {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام118 كقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 وقوله {بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا }هود41 فقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 هو قراءة بسم الله فى أول السور وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارىء مأمور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هى تابعة لغيرها وهنا يقول {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }النمل30 كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم فى قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ }الإنسان25 فانه يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ}الإنسان25 يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله { وَاذْكُر رَّبَّكَ }آل عمران41 فقد يتناول ذكر القلب وقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 هو كقول الآكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله وأما التسبيح فقد قال {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }الأحزاب42 وقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وقال {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 [1]

الله سبحانه لم يشرع للمسلمين اسما مفردا مجردا

و ما ذكره سيبويه وغيره من ائمة النحو ان العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به ما كان قولا فالقول لا يحكي به الا كلام تام او جملة اسمية او فعلية ولهذا يكسرون ان جاءت بعد القول فالقول لا يحكى به اسم والله تعالى لا يأمر احدا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسما مفردا مجردا والاسم المجرد لا يفيد الايمان باتفاق اهل الاسلام ولا يؤمر به فى شىء من العبادات ولا فى شىء من المخاطبات ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر ان بعض الأعراب مر بمؤذن يقول اشهد ان محمدا رسول الله بالنصب فقال ماذا يقول هذا هذا الاسم فاين الخبر عنه الذى يتم به الكلام وما فى القرآن من قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً }المزمل8 وقوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وقوله { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15} الاعلى 14-15 وقوله {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 ونحو ذلك لا يقتضى ذكره مفردا بل فى السنن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص:209- 212

انه لما نزل قوله {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل قوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال اجعلوها فى سجودكم فشرع لهم ان يقولوا فى الركوع سبحان ربي العظيم وفى السجود سبحان ربي الأعلى وفى الصحيح انه كان يقول فى ركوعه سبحان ربى العظيم وفى سجوده سبحان ربى الأعلى وهذا هو معنى قوله اجعلوها فى ركوعكم وسجودكم باتفاق المسلمين فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد كما فى الصحيح عنه انه قال افضل الكلام بعد القرآن اربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وفى الصحيح عنه انه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من قال فى يومه مائة مره لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كتب الله له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت احد بأفضل مما جاء به الا رجل قال مثل ما قال او زاد عليه ومن قال فى يومه مائة مره سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر وفى الموطأ وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال افضل ما قلته انا والنبيون من قبلى لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير وفى سنن ابن ماجة وغيره عنه انه قال افضل الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله ومثل هذه الأحاديث كثيرة فى انواع ما يقال من الذكر والدعاء وكذلك ما فى القرآن من قوله تعالى {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام121 وقوله { فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ }المائدة4 انما هو قوله بسم الله وهذا جملة تامة اما اسمية على اظهر قولى النحاة او فعلية والتقدير ذبحى باسم الله او اذبح باسم الله وكذلك قول القارىء بسم الله الرحمن الرحيم فتقديره قراءتى بسم الله او اقرأ بسم الله ومن الناس من يضمر فى مثل هذا ابتدائى بسم الله او ابتدأت بسم الله والأول احسن لأن الفعل كله مفعول بسم الله ليس مجرد ابتدائه كما اظهر المضمر فى قوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 وفى قوله { بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا }هود41 وفى قول النبى من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها اخرى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله ومن هذا الباب قول النبى فى الحديث الصحيح لربيبة عمر بن ابى سلمة سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فالمراد ان يقول بسم الله ليس المراد ان يذكر الاسم مجردا وكذلك قوله فى الحديث الصحيح لعدى بن حاتم اذا ارسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل وكذلك قوله اذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله وعند خروجه وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وامثال ذلك كثير وكذلك ما شرع للمسلمين فى صلاتهم واذانهم وحجهم واعيادهم من ذكر الله تعالى انما هو بالحملة التامة كقول المؤذن الله اكبر الله اكبر اشهد ان لا اله الا الله اشهد ان محمدا رسول الله وقول المصلى الله اكبر سبحان ربى العظيم سبحان ربى الاعلى سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد التحيات لله وقول الملبى لبيك اللهم لبيك وامثال ذلك فجميع ما شرعه الله من الذكر انما هو كلام تام لا اسم مفرد لا مظهر ولا مضمر وهذا هو الذى يسمى فى اللغة كلمة كقوله كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله العظيم وقوله افضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد الا كل شىء ما خلا الله باطل ومنه قوله تعالى {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ }الكهف5 الآية وقوله {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً }الأنعام115 وامثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة فى الكتاب والسنة بل وسائر كلام العرب فانما يراد به الجملة التامة كما كانوا يستعملون الحرف فى الاسم فيقولون هذا حرف غريب اى لفظ الاسم غريب وقسم سيبوية الكلام الى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم وفعل وكل من هذه الأقسام يسمى حرفا لكن خاصة الثالث انه حرف جاء لمعنى ليس

باسم ولا فعل وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهى اسماء ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها كما قال النبى من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات اما انى لا اقول الم حرف ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف وقد سأل الخليل اصحابه عن النطق بحرف الزاى من زيد فقالوا زاي فقال جئتم بالاسم وانما الحرف ز ثم ان النحاة اصطلحوا على ان هذا المسمى فى اللغة بالحرف يسمى كلمة وان لفظ الحرف يخص لما جاء المعنى ليس باسم ولا فعل كحروف الجر ونحوها واما الفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ وتارة باسم ذلك الحرف ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده انه هكذا فى لغة العرب ومنهم من يجعل لفظ الكلمة فى اللغة لفظا مشتركا بين الاسم مثلا وبين الجملة ولا يعرف فى صريح اللغة من لفظ الكلمة الا الجملة التامة والمقصود هنا ان المشروع فى ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة وهو المسمى بالكلام والواحد منه بالكلمة وهو الذى ينفع القلوب ويحصل به الثواب والأجر والقرب الى الله ومعرفته ومحبته وخشيته وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية واما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرا او مضمرا فلا اصل له (كما يقول بعض المتصوفة وغيرهم قول (الله)فقط على اعتبار انه ذكر) فضلا عن ان يكون من ذكر الخاصة والعارفين بل هو وسيلة الى انواع من البدع والضلالات وذريعة الى تصورات احوال فاسدة من احوال اهل الالحاد واهل الاتحاد كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع[1]

الله سبحانه انما خلق الخلق لدار القرار

واذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي انما تذم اذا اعقبت الما اعظم منها او منعت لذة خيرا منها وتحمد اذا اعانت على اللذة المستقرة وهو نعيم الاخرة التي هي دائمة عظيمة كقوله تعالى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{16} وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى{17} الاعلى 16-17 والله سبحانه انما خلق الخلق لدار القرار وهي الجنة والنار فأما الدار الدنيا فمنقطعة ولذاتها لا تصفوا ولا تدوم ابدا بخلاف الاخرة فإن لذاتها ونعيمها صاف من الكدر دائم غير منقطع ليس فيها حزن ولا نصب ولا لغوب واهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يمتخطون بل فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين[2]

الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

والشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ }الأعراف145 وقال {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم }الزمر55 فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:228- 233

[2] الاستقامة ج: 2 ص: 151

أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }الزمر18 فاقتضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله تعالى {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ }الإسراء53 وقد يقال هذا نظير قوله تعالى {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى }الأعلى17 ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجبا والثاني محرما وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسيىء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا فقوله تعالى {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم }الزمر55 هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما امر بالإحسان في قوله تعالى {وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }البقرة195 والإحسان منه واجب ومنه مستحب[1]

ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لإبراهيم وموسى

جمع الله سبحانه بين إبراهيم و موسى صلى الله عليهما و على سائر المرسلين فى أمور مثل قوله { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى{18} صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى{19} الاعلى 18-19 و فى حديث أبى ذر الطويل قلت يا رسول الله كم كتابا أنزل الله قال مائة كتاب و أربعة كتب ثلاثين صحيفة على شيث و خمسين على إدريس و عشر على إبراهيم و عشر على موسى قبل التوراة و أنزل التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان و قال فى الحديث فهل عندنا شيء مما فى صحف إبراهيم فقال نعم و قرأ قوله { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15} بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{16} وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى{17} إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى{18} صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى{19} الاعلى14-19 فإن التزكي هو التطهر و التبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس كما قال { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى}الاعلى14 و لهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء و الزيادة و تارة بالنظافة و الإماطة و التحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين إزالة الشر و زيادة الخير و هذا هو العمل الصالح و هو الإحسان و ذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له الذي هو أصل الإيمان و هو قول { وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} الاعلى15 فهذه الثلاث قد يقال تشبه الثلاث التى يجمع الله بينها في القرآن فى مواضع مثل قوله في أول البقرة {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3}البقرة 2-3 و مثل قوله { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ }التوبة5 {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }التوبة11 و قد يقال تشبه الثنتين المذكورتين في قوله { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً }البقرة62 و قوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ }النساء125 لكن هنا التزكي فى الآية أعم من الإنفاق فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك فأول التزكي التزكي من الشرك كما قال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7} فصلت 6-7 و قال {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }الجمعة2 و التزكي من الكبائر الذي هو تمام التقوى كما قال { فَلَا

---

[1] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 19

تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى }النجم32 و قال {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً }النساء49 فعلم أن التزكية هو الإخبار بالتقوى و منه التزكي بالطهارة و بالصدقة و الإحسان كما قال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 و{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ }الأعلى15 العمل فقد يذكر إسم ربه من لا يصلي و من الفقهاء من يقول هو ذكر في أول الصلاة و لهذا و الله أعلم قدم التزكي فى هذه الآية و كان طائفة من السلف إذا أدوا صدقة الفطر قبل صلاة العيد يتأولون بهذه الآية و كان بعض السلف أظنه يزيد بن أبى حبيب يستحب أن يتصدق أمام كل صلاة لهذا المعنى و لما قدم الله الصلاة على النحر فى قوله {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 و قدم التزكي على الصلاة فى قوله { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15} الاعلى 14-15 كانت السنة أن الصدقة قبل الصلاة فى عيد الفطر و أن الذبح بعد الصلاة في عيد النحر و يشبه و الله أعلم أن يكون الصوم من التزكي المذكور في الآية فإن الله يقول {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }البقرة183 فمقصود الصوم التقوى و هو من معنى التزكى و فى حديث إبن عباس فرض رسول الله صلى الله عليه و سلم صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو و الرفث و طعمة للمساكين فالصدقة من تمام طهرة الصوم و كلاهما تزك متقدم على صلاة العيد فجمعت هاتان الكلمتان الترغيب فيما أمر الله به من الإيمان و العمل الصالح و فى قوله { بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{16} وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى{17} الاعلى16-17 الإيمان باليوم الآخر و هذه الأصول المذكورة في قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة62 و قال { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى{18} صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى{19} الاعلى18-19 و قال أيضا { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى{33} وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى{34} أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى{35} أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى{36} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{37} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{38} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{39} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى{40} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى{41}النجم 33-41 و أيضا فإن إبراهيم صاحب الملة و إمام الأمة قال الله تعالى {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }النحل123 و قال{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ }البقرة130 وقال {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً }النساء125 و قال {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلّهِ حَنِيفاً }النحل120 و قال { جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}البقرة124 و موسى صاحب الكتاب و الكلام و الشريعة الذي لم ينزل من السماء كتاب أهدى منه و من القرآن و لهذا قرن بينهما في مواضع كقوله { قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً }الأنعام91 إلى قوله {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ }الأنعام92 و قوله { قَالُوا سِحْرَانِ }القصص48 إلى قوله {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ}القصص49 و قول الجن { إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ }الأحقاف30و قوله{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}الأحقاف10 و قول النجاشي إن هذا و الذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة و قيل في موسى {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً }النساء164 و في إبراهيم { وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً }النساء125 و أصل الخلة عبادة الله و حده و العبادة غاية الحب و الذل و موسى صاحب الكتاب و الكلام و لهذا كان الكفار بالرسل ينكرون حقيقة خلة إبراهيم و تكليم موسى و لما نبغت البدع الشركية في هذه الأمة أنكر ذلك الجعد بن درهم فقتله المسلمون لما ضحى به أمير العراق خالد بن عبدالله و قال ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإنى مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا و لم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه و لما بعث الله نبيه

صلى الله عليه و سلم بعثه إلى أهل الأرض و هم فى الأصل صنفان أميون و كتابيون و الأميون كانوا ينتسبون إلى إبراهيم فإنهم ذريته و خزان بيته و على بقايا من شعائره و الكتابيون أصلهم كتاب موسى و كلا الطائفتين قد بدلت و غيرت فأقام ملة إبراهيم بعد اعوجاجها و جاء بالكتاب المهيمن المصدق لما بين يديه المبين لما اختلف فيه و ما حرف و كتم من الكتاب الأول وإبراهيم و موسى قاما بأصل الدين الذي هو الإقرار بالله و عبادته وحده لا شريك له و مخاصمة من كفر بالله فأما إبراهيم فقال الله فيه {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }البقرة258 و ذكر الله عنه أنه طلب منه أرادة إحياء الموتى فأمره الله بأخذ أربعة من الطير فقرر أمر الخلق و البعث المبدأ و المعاد الإيمان بالله و اليوم الآخر و هما اللذان يكفر بهما أو بأحدهما كفار الصابئة و المشركين من الفلاسفة و نحوهم الذين بعث الخليل إلى نوعهم فإن منهم من ينكر وجود الصانع و فيهم من ينكر صفاته و فيهم من ينكر خلقه و يقول إنه علة و أكثرهم ينكرون إحياء الموتى و هم مشركون يعبدون الكواكب العلوية و الأصنام السفلية و الخليل صلوات الله عليه رد هذا جميعه فقرر ربوبية ربه كما فى هذه الآية و قرر الإخلاص له و نفى الشرك كما في سورة الأنعام و غيرها و قرر البعث بعد الموت و استقر فى ملته محبته لله و محبة الله له بإتخاذ الله له خليلا ثم إنه ناظر المشركين بعبادة من لا يوصف بصفات الكمال فقال لأبيه {إِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً }مريم42 و قال لأبيه و قومه { مَا تَعْبُدُونَ{70} قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ{71} قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ{72} أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ{73} قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ{74} قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{75} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ{77} الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ{78} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ{79} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ{80} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ{81}الشعراء70-81 إلى آخر الكلام و قال {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }الأنعام79 و قال { إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{28}الزخرف 26-28 فإبراهيم دعا إلى الفطرة و هو عبادة الله و حده لا شريك له و هو الإسلام العام و الإقرار بصفات الكمال لله و الرد على من عبد من سلبها فلما عابهم بعبادة من لا علم له و لا يسمع و لا يبصر قال { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء{38} الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء{39} ابراهيم 38-39 و لما عابهم بعبادة من لا يغنى شيئا فلا ينفع و لا يضر قال { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ{78} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ{79} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ{80} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ{81} وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ{82} الشعراء78-82 فإن الإنسان يحتاج إلى جلب المنفعة لقلبه و جسمه و دفع المضرة عن ذلك و هو أمر الدين و الدنيا فمنفعة الدين الهدى و مضرته الذنوب و دفع المضرة المغفرة و لهذا جمع بين التوحيد و الإستغفار في مواضع متعددة و منفعة الجسد الطعام و الشراب و مضرته المرض و دفع المضرة الشفاء و أخبر أن ربه يحيي و يميت و أنه فطر السموات و الأرض و إحياؤه فوق كماله بأنه حي و أنه فطر السموات و الأرض يقتضي إمساكها و قيامها الذى هو فوق كماله بأنه قائم بنفسه حيث قال عن النجوم { لا أُحِبُّ الآفِلِينَ }الأنعام76 فإن الآفل هو الذى يغيب تارة و يظهر تارة فليس هو قائما على عبده فى كل وقت و الذين يعبدون ما سوى الله من الكواكب و نحوها و يتخذونها أوثانا يكونون فى و قت البزوغ طالبين سائلين و في وقت الأفول لا يحصل مقصودهم و لا مرادهم فلا يجتلبون منفعة و

لا يدفعون مضرة و لا ينتفعون إذ ذاك بعبادة فبين ما في الآلهة التى تعبد من دون الله من النقص و بين ما لربه فاطر السموات و الأرض من الكمال بأنه الخالق الفاطر العليم السميع البصير الهادى الرازق المحيي المميت و سمى ربه بالأسماء الحسنى الدالة على نعوت كماله فقال { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ }البقرة129 و قال { فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }إبراهيم36 و قال { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً }مريم47 فوصف ربه بالحكمة و الرحمة المناسب لمعنى الخلة كما قال {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً }مريم47 و موسى عليه السلام خاصم فرعون الذى جحد الربوبية و الرسالة و قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 و قصته فى القرآن مثناة مبسوطة لا يحتاج هذا الموضع إلى بسطها و قرر أيضا أمر الربوبية و صفات الكمال لله و نفى الشرك و لما إتخذ قومه العجل بين الله لهم صفات النقص التى تنافى الألوهية فقال {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ }الأعراف148و قال { فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ{88} أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً{89} وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ {90}طه 88-89 فوصفه بأنه و إن كان قد صوت صوتا هو خوار فإنه لا يكلمهم و لا يرجع إليهم قولا و أنه لا يهديهم سبيلا و لا يملك لهم ضرا و لا نفعا و كذلك ذكر الله سبحانه على لسان محمد فى الشرك عموما و خصوصا فقال { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{191} وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ{192} وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ{193} إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{194} أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ{195} إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ{196} وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ{197} الاعراف191-197 و استفهم إستفهام إنكار و جحود لطرق الإدراك التام و هو السمع و البصر و العمل التام و هو اليد و الرجل كما أنه سبحانه لما أخبر فيما روى عنه رسوله عن أحبابه المتقربين إليه بالنوافل فقال و لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به و يده التى يبطش بها و رجله التى يمشي بها وأهل السنة و الجماعة المتبعون لإبراهيم و موسى و محمد صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين يثبتون ما أثبتوه من تكليم الله و محبته و رحمته و سائر ما له من الأسماء و المثل الأعلى و ينزهونه عن مشابهة الأجساد التى لا حياة فيها فإن الله قال {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ }ص34 و قال {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ }الأنبياء8و قال { عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ }طه88 فوصف الجسد بعدم الحياة فإن الموتان لا يسمع و لا يبصر و لا ينطق و لا يغنى شيئا و أما أهل البدع و الضلالة من الجهمية و نحوهم فإنهم سلكوا سبيل أعداء إبراهيم و موسى و محمد الذين أنكروا أن يكون الله كلم موسى تكليما و اتخذ إبراهيم خليلا و قد كلم الله محمدا و اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا و رفعه فوق ذلك درجات و تابعوا فرعون الذى قال { يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ {36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً {37}غافر36-37 و تابعوا المشركين الذين {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا }الفرقان60 و اتبعوا الذين ألحدوا فى أسماء الله فهم يجحدون حقيقة كونه الرحمن أو أنه يرحم أو يكلم أو يود عباده أو يودونه أو أنه فوق السموات و يزعمون أن من أثبت له هذه الصفات فقد شبهه بالأجسام الحسية و هي الحيوان كالإنسان و أن هذا تشبيه لله بخلقه فهم قد

شبهوه بالأجساد الميتة فيما هو نقص و عيب و تشبيه دلت الكتب الإلهية و الفطرة العقلية أنه عيب و نقص بل يقتضي عدمه و أما أهل الإثبات فلو فرض أن فيما قالوه تشبيها ما فليس هو تشبيها بمنقوص معيب و لا هو فى صفة نقص أو عيب بل فى غاية ما يعلم أنه الكمال و أن لصاحبه الجلال و الإكرام فصار أهل السنة يصفونه بالوجود و كمال الوجود و أولئك يصفونه بعدم كمال الوجود أو بعدم الوجود بالكلية فهم ممثلة معطلة ممثلة فى العقل و الشرع معطلة في العقل و الشرع أما فى العقل فلأنهم مثلوه بالعدم و الأجساد الموتان و أما فى الشرع فإنهم مثلوا ما جاءت به الرسل من صفاته بنفس صفات المخلوقات و إن كان هذا التمثيل الذي إدعوا أنه معنى النصوص أقل تمثيلا من تمثيلهم الذى إدعوه و أما تعطيلهم فى العقل فإنه تعطيل للصفات تعطيل مستلزم لعدم الذات و لهذا ألجىء كثير منهم إلى نفى الذات بالكلية و صاروا على طريقة فرعون لا يقرون إلا بوجود المخلوقات و إن كانوا قد ينافقون فيقرون بألفاظ لا معنى لها أو بعبادات لا معبود لها و أما تعطيلهم للشرع فإنهم جحدوا ما في كتب الله من المعانى و حرفوا الكلم عن مواضعه أو قالوا نحن كالأميين لا نعلم الكتاب إلا أماني أو قلوبنا غلف و قالوا لما جاء به الرسول من الكتاب و السنة نظير ما قالته الكفار {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ }فصلت5 و {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ }هود91 وهكذا قال هؤلاء لا نفقه كثيرا مما يقول الرسول و قالوا كما قال الذين يستمعون للرسول فإذا خرجوا من عنده { قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً }محمد16 و صاروا كالذين قيل فيهم{وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً{46}الإسراء45 -46 فتدبر ما ذكره الله عن أعداء الرسل من نفي فقههم و تكذيبهم تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله و عن تدبر كتابه و إتبع ما تتلوه الشياطين و ما توحيه إلى أوليائها و الله يهدينا صراطا مستقيما و لهذا كانت هذه الجهمية المعطلة المشابهون للكفار و المشركين من الصابئة و غيرهم الجاحدة لوجود الصانع أو صفاته ترمي أهل العلم و الإيمان و الكتاب و السنة تارة بأنهم يشبهون اليهود لما فى التوراة و كتب الأنبياء من الصفات و لما إبتدعه بعض اليهود من التشبيه المنفى عن الله و تارة بأنهم يشبهون النصارى لما أثبتته النصارى من صفة الحياة و العلم و لما إبتدعته من أن الأقانيم جواهر و أن أقنوم الكلمة إتحد بالناسوت و هذا الرمي موجود فى كلامهم قبل الإمام أحمد بن حنبل و فى زمنه و هو موجود فى كلامه و كلام أصحابه حكاية ذلك ذكره فى كتاب الرد على الجهمية و الزنادقة و أنهم قالوا إذا أثبتم الصفات فقد قلتم بقول النصارى و رد ذلك و فى مسائله أن طائفة قالوا له من قال القرآن غير مخلوق أو هو فى الصدور فقد قال بقول النصارى و هكذا الجهمية ترمى الصفاتية بأنهم يهود هذه الأمة و هذا موجود فى كلام متقدمي الجهمية و متأخريهم مثل ما ذكره أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي الجهمي الجبري و إن كان قد يخرج إلى حقيقة الشرك و عبادة الكواكب و الأوثان في بعض الأوقات و صنف فى ذلك كتابه المعروف فى السحر وعبادة الكواكب و الأوثان مع أنه كثيرا ما يحرم ذلك و ينهى عنه متبعا للمسلمين و أهل الكتب و الرسالة و ينصر الإسلام و أهله في مواضع كثيرة كما يشكك أهله و يشكك غير أهله فى أكثر المواضع و قد ينصر غير أهله فى بعض المواضع فإن الغالب عليه التشكيك و الحيرة أكثر من الجزم والبيان و هؤلاء لهم أجوبة أحدها أن مشابهة اليهود و النصارى ليست محذورا إلا فيما خالف دين الإسلام و نصوص الكتاب و السنة و الإجماع و إلا فمعلوم أن دين المرسلين واحد و أن التوراة و القرآن خرجا من مشكاة واحدة و قد إستشهد الله بأهل الكتاب فى غير موضع حتى قال {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ

}الأحقاف10 فإذا أشهد أهل الكتاب على مثل قول المسلمين كان هذا حجة و دليلا و هو من حكمة إقرارهم بالجزية فيفرح بموافقة المقالة المأخوذة من الكتاب والسنة لما يأثره أهل الكتاب عن المرسلين قبلهم و يكون هذا من أعلام النبوة و من حجج الرسالة و من الدليل على إتفاق الرسل الثاني أن المشابهة التى يدعونها ليست صحيحة فإن أهل السنة لا يوافقون اليهود و النصارى فيما إبتدعوه من الدين و الإعتقاد و لهذا قلت في بيان فساد قول ابن الخطيب إنه لم يفهم مقالة أهل الحديث و السنة من الحنبلية و غيرهم و لم يفهم مقالة النصارى و أوضحت ذلك في موضعه كما بين الإمام أحمد الفرق بين مقالة أهل السنة و بين مقالة النصارى المبتدعة كما يبين الفرق بين مقالة أهل السنة و مقالة اليهود المبتدعة الثالث أنه إذا فرض مشابهة أهل الإثبات لليهود أو النصارى فأهل النفى و التعطيل مشابهون للكفار و المشركين من النصارى و غيرهم و معلوم قطعا أن مشابهة أهل الكتابين خير من مشابهة من ليس من أهل الكتاب من الكفار بالربوبية و النبوات و نحوهم و لهذا قيل المشبه أعشى و المعطل أعمى و لهذا فرح المؤمنون على عهد النبى صلى الله عليه و سلم بإنتصار النصارى على المجوس كما فرح المشركون بانتصار المجوس على النصارى فتدبر هذا فإنه نافع فى مواضع و الله أعلم و لهذا كان المعتزلة و نحوهم من القدرية مجوس هذه الأمة و هم يجعلون الصفاتية نصارى الأمة و يميلون إلى اليهود لموافقتهم لهم فى أمور كثيرة أكثر من النصارى كما يميل طائفة من المتصوفة و المتفقرة إلى النصارى أكثر من اليهود فإذا كان الصفاتية إلى النصارى أقرب و ضدهم إلى المجوس و المشركين أقرب تبين أن الصفاتية أتباع النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه الذين فرحوا بانتصار الروم النصارى على فارس المجوس و أن المعطلة هم إلى المشركين أقرب الذين فرحوا بانتصار المجوس على النصارى[1]

ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لإبراهيم وموسى كما قال في آخر سبح { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى{18} صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى{19} الاعلى 18-19 [2]

لطائف لغوية

1-والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5} الاعلى1-5 والذي خلق هو الذي قدر وأخرج[3]

صفة لموصوف واحد والعطف لتغاير الصفات [4]

2-وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ }الأنفال24 وهو لا يدعو الا الى ذلك والتقييد هنا لا مفهوم له فانه لا يقع دعاء لغير ذلك وهذا كقوله تعالى { وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً }النور33 فانهن اذا لم يردن تحصنا امتنع الاكراه ولكن فى هذا بيان الوصف المناسب للحكم ومنه قوله تعالى {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }المؤمنون117 وقوله { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 198-216

[2] رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: 1 ص: 126

[3] الجواب الصحيح ج: 2 ص: 282 و الجواب الصحيح ج: 3 ص: 459 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 136

[4] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 275

}البقرة61 فالتقييد فى جميع هذا للبيان والايضاح لا لإخراج فى وصف آخر ولهذا يقول من يقول من النحاة الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص وفى النكرات للتخصيص يعنى فى المعارف التى لا تحتاج الى تخصيص كقوله { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} الاعلى 1-2 وقوله {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}الأعراف157 وقوله {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2} الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ{3} الفاتحة 2-3 والصفات فى النكرات اذا تميزت تكون للتوضيح أيضا[1]

3-فقد سمى الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينموا إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى [2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 61

[2] مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 8

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الغاشية

88

رقية محمود الغرايبة

~§§ الغاشية(مكية)26 §§~

سورة الغاشية1-16

بسم الله الرحمن الرحيم

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ{1} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ{2} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{3} تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً{4} تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ{5} لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ{6} لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ{7} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ{8} لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ{9} فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ{10} لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً{11} فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ{12} فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ{13} وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ{14} وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ{15} وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ{16} سورة الغاشية1-16

وجوه الأشقياء ووجوه السعداء يوم القيامة

قوله {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ{1} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ{2} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{3} تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً{4} تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ{5} لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ{6} لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ{7} الغاشية 1-7 فيها قولان أحدهما أن المعنى وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة تصلى يوم القيامة نارا حامية و يعنى بها عباد الكفار كالرهبان و عباد البدود و ربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج القول الثاني أن المعنى أنها يوم القيامة تخشع أي تذل و تعمل و تنصب قلت هذا هو الحق لوجوه أحدها أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه أي وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية و على الأول لا يتعلق إلا بقوله { تَصْلَى } الغاشية4 و يكون قوله { خَاشِعَةٌ } الغاشية2 صفة للوجوه قد فصل بين الصفة و الموصوف بأجنبى متعلق بصفة أخرى متأخرة و التقدير و جوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نارا حامية و التقديم و التأخير على خلاف الأصل فالأصل إقرار الكلام على نظمه و ترتيبه لا تغيير ترتيبه ثم إنما يجوز فيه التقديم و التأخير مع القرينة أما مع اللبس فلا يجوز لأنه يلتبس على المخاطب و معلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم و التأخير بل القرينة تدل على خلاف ذلك فإرادة التقديم و التأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان و أمر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق الوجه الثاني أن الله قد ذكر و جوه الأشقياء و وجوه السعداء فى السورة فقال بعد ذلك { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ{8} لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ{9} فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ{10} لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً{11} فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ{12} فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ{13} وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ{14} وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ{15} وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ{16}الغاشية8-16 و معلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا فى الدنيا إذ هذا ليس بمدح فالواجب تشابه الكلام و تناظر القسمين

لا إختلافهما و حينئذ فيكون الأشقياء وصفت وجوههم بحالها فى الآخرة الثالث أن نظير هذا التقسيم قوله {21 وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ{22} إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ{23} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ{24} تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ{25} القيامة22-25 وقوله {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ{38} ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ{39} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ{40} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ{41} أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ{42} عبس 38-42 و هذا كله وصف للوجوه لحالها فى الآخرة لا فى الدنيا الرابع أن وصف الوجوه بالأعمال ليس فى القرآن و إنما فى القرآن ذكر العلامة كقوله { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم }الفتح29و قوله { وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ }محمد30 و قوله { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا }الحج72 و ذلك لأن العمل والنصب ليس قائما بالوجوه فقط بخلاف السيما والعلامة الخامس أن قوله {خَاشِعَةٌ{2} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{3}الغاشية 2-3 لو جعل صفة لهم فى الدنيا لم يكن فى هذا اللفظ ذم فإن هذا إلى المدح أقرب وغايته أنه وصف مشترك بين عباد المؤمنين وعباد الكفار والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص لقيل خاشعة للأوثان مثلا عاملة لغير الله ناصبة فى طاعة الشيطان و ليس فى الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصا بالكفار و لا كونه مذموما و ليس فى القرآن ذم لهذا الوصف مطلقا و لا وعيد عليه فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف فى القرآن السادس أن هذا الوصف مختص ببعض الكفار و لا موجب للتخصيص فإن الذين لا يتعبدون من الكفار أكثر وعقوبة فساقهم فى دينهم أشد فى الدنيا و الآخرة فإن من كف منهم عن المحرمات المتفق عليها و أدى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع الله إلها آخر و يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق و يزنون فإذا كان الكفر و العذاب على هذا التقدير فى القسم المتروك أكثر و أكبر كان هذا التخصيص عكس الواجب السابع أن هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة و النسك إبتداء ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار و المبتدعة و ليس فى الخطاب تقييد كان هذا سعيا فى إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه[1]

خشوع البصر وخفضه وسكونه ضد تقليبه فى الجهات كقوله تعالى { فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ{6} خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ{7} مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ{8}القمر6-8 وقوله تعالى { يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ{43} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ{44} المعارج43-44 وفى القراءة الأخرى خشعا أبصارهم وفى هاتين الآيتين وصف أجسادهم بالحركة السريعة حيث لم يصف بالخشوع إلا أبصارهم بخلاف آية الصلاة فإنه وصف بالخشوع جملة المصلين بقوله تعالى {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ }المؤمنون2 وقوله تعالى {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }البقرة45 وقال تعالى { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ{42} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ{43} القلم42-43 ومن ذلك خشوع الأصوات كقوله تعالى { وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ }طه108 وهو إنخفاضها وسكونها وقال تعالى {وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ{44} وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ {45} }الشورى44-45 وقال تعالى{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ{2} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{3} تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً{4} تُسْقَى مِنْ

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 217-220

عَيْنٍ آنِيَةٍ{5} الغاشية2-5 وهذا يكون يوم القيامة وهذا هو الصواب من القولين بلا ريب كما قال فى القسم الآخر { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ{8} لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ{9} فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ{10}الغاشية8-10 [1]

للحسنة ضياء فى الوجه وإن للسيئة غبرة فى الوجه

قال ابن عباس رضي الله عنه إن للحسنة لنورا في القلب وضياء في الوجه وقوة في البدن وزيادة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وغبرة في الوجه وضعفا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل احد كما قال تعالى { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ{2} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{3} تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً{4} الغاشية 2-4 } و وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ{8} لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ{9} الغاشية 8-9 وقال عليه السلام أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم كأشد كوكب في السماء إضاءة[2]

السعى فى كتاب الله

قال تعالى{ و وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ{8} لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ{9} الغاشية 8-9 قال الأئمة السعى فى كتاب الله هو العمل والفعل كما قال تعالى {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى }الليل4 وقال تعالى{وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً }الإسراء19 وقال تعالى {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا }البقرة205 [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 556-565

[2] الاستقامة ج: 1 ص: 352

[3] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 259

سورة الغاشية17-26

{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ{17} وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ{18} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ{19} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ{20} فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ{23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{24} إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{25} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ{26}

النظر إلى المخلوقات على وجه التفكر مأمور به

ومن هنا يظهر الفرق فى السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر والفاجر وكذلك النظر إلى زينة الحياة فتنة فقال تعالى {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى }طه131 وفى التوبة {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ }التوبة55 الآية وقال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ }النور30 الآية وقال{ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }الكهف28 وقال { أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ{17} وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ{18} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ{19} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ{20} فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} }الغاشية17-21 وقال{قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }يونس101 وقال {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}سبأ9الآية وكذلك قال الشيطان { إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ }الأنفال48 وقال{فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ }الشعراء61 الآيات وقال {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً }الأنفال43 الاية فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها منهى عنه والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والإعتبار مأمور به مندوب إليه وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لدفع شر أولئك وإزالته فمأمور به وكذلك رؤية الإعتبار شرعا فى الجملة فالعين الواحدة ينظر إليها نظرا مأمورا به إما للإعتبار وإما لبغض ذلك والنظر إليه لبغض الجهاد منهى عنه وكذلك الموالاة والمعاداة وقد تحصل للعبد فتنة بنظر منهى عنه وهو يظن أنه نظر عبرة وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة كالذين قال الله تعالى فيهم {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي }التوبة49 الآية فإنها نزلت فى الجد بن قيس لما أمره النبى أن يتجهز لغزو الروم فقال

إني مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم فإئذن لى فى القعود قال تعالى { أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ }التوبة49[1]

التذكير العام

أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفى لإنتفاء كماله وتمامه وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وأما قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 وقوله {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ }الأعراف30 وقوله { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل37 وقوله {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة16 وهذا كثير فى القرآن وكذلك الإنذار قد قال {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً }مريم97 وقال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ }يونس2 وقال في الخاص {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 فهذا الإنذار الخاص وهو التام النافع الذى إنتفع به المنذر والإنذار هو الإعلام بالمخوف فعلم المخوف فخاف فآمن وأطاع وكذلك التذكير عام وخاص فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة قال تعالى {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ{23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{24} إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{25} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ{26}الغاشية21-26 وقال تعالى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ {86} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{87}ص86-87 وقال تعالى { وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ }المدثر31 وقال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ }التكوير27 ثم قال {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير28 فذكر العام والخاص[2]

الرب هو الجبار المسيطر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص:342- 344

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 154-157

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا والتحقيق أن الشيء إسم لما يوجد فى الأعيان ولما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء فى التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئا فى الخارج ومنه قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 و لفظ الشيء فى الآية يتناو ل هذا و هذا فهو على كل شئ ما وجد و كل ماتصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزاد عليه شئ وأنه يدخل فى ذلك القدرة على الأعيان جاءت فى مثل قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ }المؤمنون12 {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ }البلد5 و جاءت منصوصا عليها فى الكتاب و السنة أما الكتاب فقوله {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ }الزخرف41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم و هذا نص فى قدرته على الأعيان المفعولة و قوله { وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ}ق45 و { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22}الغاشية21-22 و نحو ذلك و هو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر و ذلك يستلزم قدرته عليهم و قوله { فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ }الأنبياء87 على قول الحسن و غيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادرعليه و على أمثاله و كذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى و قال له ماحملك على ماصنعت قال خشيتك يارب فغفر له و هو كان مخطئا فى قوله لئن قدرالله على ليعذبنى كما يدل عليه الحديث و أن الله قدر عليه لكن لخشيته و إيمانه غفرالله له هذا الجهل و الخطأ الذى و قع منه و قد يستدل بقوله {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ }المرسلات20 الى وله {فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ }المرسلات23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين و إن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه و القدرة عليه قدرة على خلقه و جاء أيضا الحديث منصوصا فى مثل قول النبى صلى الله عليه و سلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده لله أقدرعليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد و أنه أقدر عليه منه على عبده و فيه إثبات قدرة العبد[1]

{لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }

قال تعالى { إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ }الرعد7 أى انك لست ربا لهم ولا محاسبا ولا مجازيا ولا وكيلا عليهم كما قال { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22}الغاشية21-22 وكما قال { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ }آل عمران20[2]

المسلم المستضعف فليعمل باية الصبر واهل القوة يعملون بايات القتال

وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }الحجر94 { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22}الغاشية21-22 { فَاعْفُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 10-12

[2] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 267

عَنْهُمْ وَاصْفَحْ }المائدة13 {وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا }التغابن14 {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ }البقرة109 {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ }الجاثية14 ونحو هذا في القران مما امر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فانه نسخ ذلك كله قوله تعالى { فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ }التوبة5 وقوله تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ }التوبة29 الى قوله { وَهُمْ صَاغِرُونَ }التوبة29 فنسخ هذا عفوه عن المشركين وكذلك روى الامام احمد وغيره عن قتادة قال امر الله نبيه ان يعفوا عنهم ويصفح حتى ياتي الله بامره وقضائه ثم انزل الله عز وجل براءة فاتى الله بامره وقضائه فقال تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }التوبة29 الاية قال فنسخت هذه الاية ما كان قبلها وامر الله فيها بقتال اهل الكتاب حتى يسلموا او يقروا بالجزية صغارا ونقمة لهم وكذلك ذكر موسى بن عقبة عن الزهري ان النبي لم يكن يقاتل من كف عن قتاله لقوله تعالى { فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً }النساء90 الى ان نزلت براءة وجملة ذلك انه لما نزلت براءة امر ان يبتدي جميع الكفار بالقتال وثنيهم وكتابيهم سواء كفوا عنه او لم يكفوا وان ينبذ اليهم تلك العهود المطلقة التي كانت بينه وبينهم وقيل له فيها { جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ }التوبة73 بعد ان كان قد قيل له {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ }الأحزاب48 ولهذا قال زيد بن اسلم نسخت هذه الاية ما كان قبلها فاما قبل براءة وقبل بدر فقد كان مامورا بالصبر على اذاهم والعفو عنهم واما بعد بدر وقبل براءة فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عمن سالمه كما فعل بابن الاشرف وغيره ممن كان يؤذيه فبدر كانت اساس عز الدين وفتح مكة كانت كمال عز الدين فكانوا قبل بدر يسمعون الاذى الظاهر ويؤمرون بالصبر عليه وبعد بدر يؤذون في السر من جهة المنافقين وغيرهم فيؤمرون بالصبر عليه وفي تبوك امروا بالاغلاظ للكفار والمنافقين فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من اذاهم في مجلس خاص ولا عام بل مات بغيظه لعلمه بانه يقتل اذا تكلم وقد كان بعد بدر لليهود استطالة واذى للمسلمين الى ان قتل كعب بن الاشرف قال محمد بن اسحاق في حديثه عن محمد بن مسلمة قال فاصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودي الا وهو يخاف على نفسه وروى باسناده عن محيصة ان رسول الله قال من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على ابن سليمة رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حويصة ابن مسعود اذ ذاك لم يسلم وكان اسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول اي عدو الله قتلته اما والله لرب شحم في بطنك من ماله فوالله ان كان اسلام حويصة فقال محيصة فقلت له والله لقد امرني بقتله من لو امرني بقتلك لضربت عنقك فقال لو امرك محمد بقتلي لقتلتني فقال محيصة نعم والله فقال حويصة والله ان دينا بلغ هذا منك لعجب وذكر غير ابن اسحاق ان اليهود حذرت وذلت وخافت من يوم قتل ابن الاشرف فلما اتى الله بامره الذي وعده من ظهور الدين وعز المؤمنين امر رسوله بالبراءة الى المعاهدين وبقتال المشركين كافة وبقتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى الذين امر الله بهما في اول الامر وكان اذ ذاك لايؤخذ من احد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيرهم جزية وصارت تلك الايات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه وصارت اية الصغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده او لسانه وبهذه الاية ونحوها كان المسلمون يعملون في اخر عمر رسول الله وعلى عهده خلفائه الراشدين وكذلك هو الى قيام الساعة لاتزال طائفة من هذه الامة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام فمن كان من المؤمنين بارض هو فيها مستضعف او في وقت هو فيه مستضعف فليعمل باية الصبر والصفح

عمن يؤذي الله ورسوله من الذين اوتوا الكتاب والمشركين واما اهل القوة فانما يعملون باية قتال ائمة الكفر الذين يطعنون في الدين وباية قتال الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون [1]

ذم المتولى عن الطاعة

قال تعالى{لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ{23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{24} إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{25} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ{26} الغاشية22 -26 قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{16} الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى }النازعات21 وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32}القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما اخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً{15} فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{16} المزمل15-16 ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله { سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }الفتح16 وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ {16} المزمل 16[2]

الكافرون لهم موعد يجزون فيه

قال تعالى{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{85} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{86} الحجر 85-86 وبعض الناس يظن أن قوله {هُوَ الْخَلاَّقُ }الحجر86 إشارة إلى أنه خالق أفعال العباد فلا ينبغي التشديد فى الإنكار عليهم بل يصفح عنهم الصفح الجميل لأجل القدر و هذا من أعظم الجهل فإنه سبحانه قد عاقب المخالفين له و لرسله و غضب عليهم و أمر بمعاقبتهم و أعد لهم من العذاب ما ينافى قول هؤلاء المعطلين لأمره و نهيه و وعده و وعيده و قوله { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} الحجر85 تعلق بما قبله و هو قوله { وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } الحجر 85 فإن لهم موعدا يجزون فيه كما قال تعالى فى نظائر ذلك { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ }الرعد40 { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{21} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ{23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{24} إِنَّ إِلَيْنَا

---

[1] الصارم المسلول ج: 2 ص: 409-414

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

إِيَابَهُمْ{25} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ{26} الغاشية21-26 و قوله {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ }الصافات174 و قوله {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }الزخرف89 [1]

{ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ}

قال تعالى{لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{22} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ{23} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{24} إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{25} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ{26} الغاشية22 -26 فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا كما قال تعالى { إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} الغاشية25 أي الينا مرجعهم وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ }الانشقاق6 وقال { وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ }آل عمران28 فأي سبيل سلكها العبد فالى الله مرجعه ومنتهاه لا بد له من لقاء الله ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[2]

لطائف لغوية

1- وقد جاء فى الكتاب والسنة الفاظ من نحو لقاء الله كقوله {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{25} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ{26} الغاشية25-26[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 102

[2] دقائق التفسير ج: 3 ص: 152 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 211

[3] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 466

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الفجر
89

رقية محمود الغرايبة

~§§ الفجر(مكية)30 §§~

سورة الفجر1-14

بسم الله الر حمن الرحيم

{وَالْفَجْرِ{1} وَلَيَالٍ عَشْرٍ{2} وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ{4} هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ{5} أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ{6} إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ{7} الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ{8} وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ{9} وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ{10} الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ{11} فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ{12} فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ{13} إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ{14}

إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته

قال تعالى { وَالْفَجْرِ{1} وَلَيَالٍ عَشْرٍ{2} وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ{4} هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ{5}الفجر 1-5 فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم [1]

{وَلَيَالٍ عَشْرٍ }

وعشر ذي الحجة اسم لمجموع الليالي وأيامها فإن يوم النحر من عشر ذي الحجة ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام العشر وقال تعالى {وَلَيَالٍ عَشْرٍ } الفجر2 ويوم النحر داخل فيها [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

[2] شرح العمدة ج: 2 ص: 380

النفور عن التكلم بهذه الأعداد في غاية الجهل

ومن تعصب الرافضة أنهم لا يذكرون اسم العشرة بل يقولون تسعة وواحد وإذا بنوا أعمدة أو غيرها لا يجعلونها عشرة وهم يتحرو ذلك في كثير من أمورهم مع أن الكتاب العزيز قد جاء بذكر العشرة والعشر في غير موضع كما في قوله تعالى { فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ }البقرة196 وقال {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً }البقرة234 وقال تعالى {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ }الأعراف142 وقال تعالى {وَالْفَجْرِ{1} وَلَيَالٍ عَشْرٍ{2}الفجر1-2 فذكر سبحانه وتعالى اسم العشرة في مواضع محمودة وذكر اسم التسعة في موضع مذموم كقوله تعالى {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ }النمل48 وقال النبي صلى الله عليه وسلم تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان وكان يعتكف العشر الأواخر حتى قبضه الله تعالى وقال ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العشرة فإذا كان الله ورسوله قد تكلم باسم العشرة وعلق بهذا العدد أحكاما شرعية محمودة كان نفورهم عن التكلم بذلك لكونه قد تسمى به عشرة من الناس يبغضونهم غاية الجهل والتعصب ثم قولهم تسعة واحدة هو معنى العشرة مع طول العبارة وإذا كان اسم العشرة أو التسعة أو السبعة يقع على كل معدود بهذا العدد سواء كان من الناس أو الدواب أو الثياب أو الدراهم وبعض المعدودات يكون محمودا وبعضها يكون مذموما فنفور هؤلاء الجهال عن التكلم بهذه الأعداد في غاية الجهل وإنما هو كنفورهم عن التكلم بأسماء قوم يبغضونهم كما ينفرون عمن اسمه أبو بكر وعمر وعثمان بغضهم لشخص كان اسمه هذا الاسم وقد كان من الصحابة رضي الله عنهم من هو مسمى بأسماء تسمى بها بعض الكفار كالوليد بن الوليد وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في قنوته إذا قنت اللهم انج الوليد بن الوليد وانج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين وهذا الوليد مؤمن تقى وأبوه الوليد كافر شقى وكذلك عقبة بن أبي معيط من كفار قريش وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم رأيت كأني في دار عقبة بن رافع وأتينا برطب ابن طاب فأولت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة لنا في الاخرة وأن ديننا قد طاب [1]

الأعمال كلها لا تقبل إلا مع العقل

ومن كان مسلوب العقل أو مجنونا فغايته أن يكون القلم قد رفع عنه فليس عليه عقاب ولا يصح إيمانه ولا صلاته ولا صيامه ولا شيء من أعماله فإن الأعمال كلها لا تقبل إلا مع العقل فمن لا عقل له لا يصح شيء من عبادته لا فرائضه ولا نوافله ومن لا فريضة له ولا نافلة ليس من أولياء الله ولهذا قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى }طه128 أي العقول وقال تعالى {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ }الفجر5 أي لذي عقل وقال تعالى { وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ }البقرة197 وقال {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ }الأنفال22 وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فاما من لا يعقل فإن الله

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 139-140

لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 وقال تعالى {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }الأعراف179 وقال {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }الفرقان44 فمن لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه ولا نفله [1]

قدرة الرب وقدرة العبد

قد تنازع الناس فى قدرة الرب و العبد فقالت طائفة كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل و يتناول مقدوره و هذا أصح الأقوال و به نطق الكتاب و السنة و هو أن كل نوع من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر و مقدوره المباين له وقد تبين بعض ما دل على ذلك فى قدرة الرب و أما قدرة العبد فذكر قدرته على الأفعال القائمة به كثيرة و هذا متفق عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة مثل قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }التغابن16 {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً }المجادلة4 { وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }التوبة42 و قول النبى صلى الله عليه و سلم صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك وأيضا فالقرآن دل على أن المفعولات الخارجة مصنوعة لهم و ما كان مصنوعا لهم فهو مقدور بالضرورة و الإتفاق و المنازع يقول ليس شئ خارجا عن محل قدرتهم مصنوعا لهم و هذا خلاف القرآن قال تعالى لنوح {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا }هود37 و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ }هود38 و قد أخبر أن الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبنى آدم و جعلها من آياته فقال {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ }يس41 وقال تعالى {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ }الأعراف137 و إنما دمر مابنوه و عرشوه فأما الأعراض التى قامت بهم فتلك فنيت قبل أن يغرقوا و قوله {وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ }الأعراف137 دليل على أن العروش مفعول لهم هم فعلوا العرش الذى فيه و هو التأليف و مثل قوله {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ }الشعراء128 يدل على أن المبني هم بنوه حيث قال أتبنون و كذلك قوله {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً }الشعراء149 هو كقوله { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ }الصافات95 و قوله { جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ }الفجر9 دل على أنهم جابوا الصخر أي قطعوه [2]

لطائف لغوية

1-لفظ الذات في الأصل تأنيث ذو كقوله {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ }الفجر7 وهي تستلزم الإضافة [3]

وهو يستعمل مضافا يتوصل به إلى الوصف بالأجناس فإذا كان الموصوف مذكرا قيل ذو كذا وإن كان مؤنثا قيل ذات كذا كما يقال ذات سوار [1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 436 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 264

[22] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 17

[3] الصفدية ج: 1 ص: 109

2- قال تعالى {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ} الفجر 10 وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقيصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك [2]

3-وقد جاء فى الكتاب والسنة الفاظ من نحو لقاء الله كقوله {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } الفجر14[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 334

[2] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 46

[3] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 466

سورة الفجر15-20

{ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ{17} وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{18} وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً{19} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20}

السراء والضراء ابتلاء

قال النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينفع ذا الجد منك الجد أما الأولى فبالخفض وأما الثانية فبالضم والمعنى أن صاحب الجد لا ينفعه منك جده أي لا ينجيه ويخلصه منك جده وإنما ينجيه الإيمان والعمل الصالح والجد هو الغنى وهو العظمة وهو المال بين صلى الله عليه وسلم أنه من كان له في الدنيا رياسة ومال لم ينجه ذلك ولم يخلصه من الله وإنما ينجيه من عذابه إيمانه وتقواه فإنه صلى الله عليه وسلم قال اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد فبين في هذا الحديث أصلين عظيمين أحدهما توحيد الربوبية وهو أن لا معطي لما منع الله ولا مانع لما أعطاه ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل إلا هو والثاني توحيد الإلهية وهو بيان ما ينفع وما لا ينفع وأنه ليس كل من أعطى مالا أو دنيا أو رياسة كان ذلك نافعا له عند الله منجيا له من عذابه فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب قال تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا {17} الفجر 15-17 يقول ما كل من وسعت عليه أكرمته ولا كل من قدرت عليه أكون قد أهنته بل هذا ابتلاء ليشكر العبد على السراء ويصبر على الضراء فمن رزق الشكر والصبر كان كل قضاء يقضيه الله خيرا له كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وتوحيد الإلهية أن يعبد الله ولا يشرك به شيئا فيطيعه ويطيع رسله ويفعل ما يحبه ويرضاه وأما توحيد الربوبية فيدخل ما قدره وقضاه وإن لم يكن مما أمر به وأوجبه وأرضاه والعبد مأمور بأن يعبد الله ويفعل ما أمر به وهو توحيد الإلهية ويستغفر الله على ذلك وهو توحيد له فيقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 و الله أعلم والمنافق هلوع جزوع كما قال تعالى { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21} إِلَّا الْمُصَلِّينَ{22} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ{23} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{24} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{25} المعارج19-25 إلى قوله { أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ{35} المعارج35 [1]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 262 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 75 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 447-448

النعمة والكرامة هي نعمة من وجه دون وجه

والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }البقرة172 وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وفي الأثر الطاعم الشاكر كالصائم الصابر رواه ابن ماجة عن النبي وقد قال تعالى {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }التكاثر8 ولما ضاف النبي أبا الهيثم بن التيهان وجلسوا في الظل وأطعمهم فاكهة ولحما وسقاهم ماء باردا قال هذا من النعيم الذي تسألون عنه والسؤال عنه لطلب شكره لا لإثم فيه فالله تعالى يطلب من عباده شكر نعمه وعليه أن لا يستعين بطاعته على معصيته فإذا ترك ما وجب عليه في نعمته من حق واستعان بها على محرم صار فعله بها وتركه لما فيها سببا للعذاب أيضا فالعذاب أستحقه بترك المأمور وفعل المحظور على النعمة التي هي من فعل الله تعالى وإن كان فعله وتركه بقضاء الله وقدره بعلمه ومشيئته وقدرته وخلقه فأن حقيقة الأمر أنه نعم العبد تنعيما وكان ذلك التنعيم سببا لتعذيبه أيضا فقد اجتمع في حقه تنعيم وتعذيب ولكن التعذيب إنما كان بسبب معصيته حيث لم يؤد حق النعمة ولم يتق الله فيها وعلى هذا فهذه التنعمات هي نعمة من وجه دون وجه فليست من النعم المطلقة ولا هي خارجة عن جنس النعم مطلقها ومقيدها فباعتبار ما فيها من التنعم يصلح أن يطلب حقها من الشكر وغيرها وينهى عن استعمالها في المعصية فتكون نعمة في باب الأمر والنهي والوعد والوعيد وباعتبار أن صاحبها يترك فيها المأمور ويفعل فيها المحظور الذي يزيد عذابه على نعمها كانت وبالا عليه وكان أن لا يكون ذلك من حقه خيرا له من أن يكون فليست نعمة في حقه في باب القضاء والقدر والخلق والمشيئة العامة وإن كان يكون نعمة في حق عموم الخلق والمؤمنين وعلى هذا يظهر ما تقدم من خيرات الله فإن ذلك استدراج ومكر وإملاء وهذا الذي ذكرناه من ثبوت الإنعام بها من وجه وسلبه من وجه آخر مثل ما ذكر الله في قوله تعالى

{ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا {17} الفجر15-17 فإنه قد أخبر أنه أكرمه وأنكر قول المبتلى ربي أكرمن واللفظ الذي أخبر الله به مثل اللفظ الذي أنكره الله من كلام المبتلى لكن المعني مختلف فإن المبتلي اعتقد أن هذه كرامة مطلقة وهي النعمة التي يقصد بها أن النعم إكرام له والإنعام بنعمة لا يكون سببا لعذاب أعظم منها وليس الأمر كذلك بل الله تعالى ابتلاه بها ابتلاء ليتبين هل يطيعه فيها أم يعصيه مع علمه بما سيكون من الأمرين لكن العلم بما سيكون شيء وكون الشيء والعلم به شيء وأما قوله تعالى { فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهِ }الفجر15 فإنه تكريم بما فيه من اللذات ولهذا قرنه بقوله { وَنَعَّمَهُ }الفجر15 ولهذا كانت خوارق العادات التي تسميها العامة كرامة ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقا بل في الحقيقة الكرامة هي لزوم الاستقامة وهى طاعة الله وإنما هي مما يبتلي الله به عبده فإن أطاعه بها رفعه وإن عصاه بها خفضه وإن كانت من آثار طاعة أخري كما قال تعالى {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً{16} لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً{17}الجن16-17 وإذا كان في النعمة والكرامة هذان الوجهان فهي من باب الأمر والشرع نعمة يجب الشكر عليها وفي باب الحقيقة القدرية لم تكن لهذا الفاجر بها إلا فتنة ومحنة استوجب بمعصية الله فيها العذاب وهي في ظاهر الأمر أن يعرف حقيقة الباطن ابتلاء وامتحان يمكن أن تكون من أسباب سعادته ويمكن أن تكون من أسباب شقاوته وظهر بها جانب الابتلاء بالمر فإن الله يبتلي بالحلو والمر كما قال تعالى { وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }الأنبياء35

وقال { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }الأعراف168 فمن ابتلاه الله بالمر بالبأساء والضراء والبأس وقدر عليه رزقه فليس ذلك إهانة له بل هو ابتلاء فإن أطاع الله في ذلك كان سعيدا وإن عصاه في ذلك كان شقيا كما كان مثل ذلك سببا للسعادة في حق الأنبياء والمؤمنين وكان شقاء وسببا للشقاء في حق الكفار والفجار وقال تعالى { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ }البقرة177 وقال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ }البقرة214 {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ }التوبة101وقال تعالى {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }السجدة21 وقال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ }المؤمنون76 وكما أن الحسنات وهي المسار الظاهرة التي يبتلي بها العبد تكون عن طاعات فعلها العبد فكذلك السيئات وهي المكاره التي يبتلي بها العبد تكون عن معاصي فعلها العبد كما قال تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 وقال تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ }آل عمران165 وقال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ }الشورى30 وقال تعالى {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ }النساء62 وقال تعالى وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ }الشورى48 ثم تلك المسار التي هي من ثواب طاعته إذا عصي الله فيها كانت سببا لعذابه والمكاره التي هي عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا

لسعادته فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب وما ظاهره عذاب وهو ألم عاجل قد يكون سببا للنعيم وما هو طاعه فيما يري الناس قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة إذا ابتلي في هذه الطاعة وما هو معصية فيما يري الناس قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه وتصبره على المصيبة التي هي عقوبة ذلك الذنب فالأمر والنهي يتعلق بالشيء الحاصل فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا وينهي عن المعصية مطلقا ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به وأما القضاء والقدر وهو علم الله وكتابه وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه فهو باعتبار الحقيقة الآجلة فالأعمال بخواتيمها والمنعم عليهم في الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان [1]

التنعيم ليس هو حقيقة واحدة مستوية في بنى آدم

قال تعالى{ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16}كَلَّا {17} الفجر15-17 فإن التنعم إما بالأمور الدنيوية وإما بالأمور الدينية فأما الدنيوية فهي الحسية مثل الأكل والشرب والنكاح واللباس وما يتبع ذلك والنفسية وهي الرياسة والسلطان فأما الأولي فالمؤمن والكافر والمنافق مشتركون في جنسها ثم يعلم أن التنعيم بها ليس هو حقيقة واحدة مستوية في بنى آدم بل هم متفاوتون في قدرها ووصفها

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص:163- 169

تفاوتا عظيما فإن من الناس من يتنعم بنوع من الأطعمة والأشربة الذي يتأذي بها غيره إما لاعتياده ببلده وإما لموافقته مزاجه وإما لغير ذلك ومن الناس من يتنعم بنوع من المناكح لا يحبها غيره كمن سكن البلاد الجنوبية فإنه يتنعم بنكاح السمر ومن سكن البلاد الشمالية فإنه يتنعم بنكاح البيض وكذلك اللباس والمساكن فإن أقواما يتنعمون من البرد بما يتأذي به غيرهم وأقواما يتنعمون من المساكن بما يتأذي به غيرهم بحسب العادة والطباع وكذلك الأزمنة فإنه في الشتاء يتنعم الإنسان بالحر وفي الصيف يتنعم بالبرد وأصل ذلك أن التنعم في الدنيا بحسب الحاجة إليها والانتفاع بها فكل ما كانت الحاجة أقوي والمنفعة أكثر كان التنعم واللذة أكمل والله قد أباح للمؤمنين الطيبات فالذين يقتصدون في المآكل نعيمهم بها أكثر من نعيم المسرفين فيها فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقي لهذا عندهم كبير لذة مع أنهم قد لا يصبرون عنها وتكثر أمراضهم بسببها وأما الدين فجماعه شيئان تصديق الخبر وطاعة الأمر ومعلوم أن التنعم بالخبر بحسب شرفه وصدقه والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره فهو من أعظم الناس نعيما بذلك بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب وأما طاعة الأمر فإن من كان ما يؤمر به صلاحا وعدلا ونافعا يكون تنعمه به أعظم من تنعم من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع وهذا من الفرق بين الحق والباطل فإن الله سبحانه يقول في كتابه { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ{1} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ{2} ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ{3}محمد1-3 وقال {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}النور39 وتفصيل ذلك أن الحق نوعان حق موجود وحق مقصود وكل منهما ملازم للآخر فالحق الموجود هو الثابت في نفسه فيكون العلم به حقا والخبر عنه حقا والحق المقصود هو النافع الذي إذا قصده الحي انتفع به وحصل له النعيم [1]

" لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له "

ومما يظهر الأمر ما ابتلي الله به عباده في الدنيا من السراء والضراء وقال سبحانه { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا {17} الفجر15-17 يقول الله سبحانه ليس الأمر كذلك ليس إذا ما ابتلاه فأكرمه ونعمه يكون ذلك إكراما مطلقا وليس إذا ما قدر عليه رزقه يكون ذلك إهانة بل هو ابتلاء في الموضعين وهو الاختبار والامتحان فإن شكر الله على الرخاء وصبر على الشدة كان كل واحد من الحالين خيرا له كما قال النبي لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وإن لم يشكر ولم يصبر كان كل واحد من الحالين شرا له[2]

ليس كل انعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 157

[2] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 157

قال تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16}كَلَّا {17} الفجر15-17 أي ليس الأمر كذلك فليس كل من وسع عليه رزقه يكون مكرما ولا كل من قدر عليه رزقه يكون مهانا بل قد يوسع عليه رزقه إملاء وإستدراجا وقد يقدر عليه رزقه حماية وصيانة له وضيق الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لماله من ذنوب وخطايا كما قال بعض السلف إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وفى الحديث عن النبى من أكثر الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات والإستغفار سبب للرزق والنعمة وأن المعاصي سبب للمصائب والشدة فقال تعالى {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } هود1 إلى قوله { وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ } هود3 [1]

قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ } النساء79 فقد دخل فى ذلك نعم الدنيا كلها كالعافية والرزق والنصر وتلك حسنات يبتلى الله العبد بها كما يبتليه بالمصائب هل شكر أم لا وهل يصبر أم لا كما قال تعالى {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}الأعراف168 وقال {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً }الأنبياء35 { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16}كَلَّا {17} الفجر15-17 [2]

كما جاء فى الحديث المعروف أن سعد بن ابى وقاص قال يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم ايسهم له مثل ما يسهم لا ضعفهم فقال يا سعد وهل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم واخلاصهم وقد يكون للرزق والنصر اسباب أخر فان الفجار والكفار أيضا يرزقون وينصرون وقد يجدب الارض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم لينيبوا اليه ويتوبوا من ذنوبهم فجميع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكروب وقد يملى للكفار ويرسل السماء عليهم مدرارا ويمددهم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون إما ليأخذهم فى الدنيا أخذ عزيز مقتدر واما ليضعف عليهم العذاب فى الآخرة فليس كل انعام كرامة ولا كل امتحان عقوبة قال الله تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16}كَلَّا {17} الفجر15-17 [3]

لفظ كلا فيها زجر وتنبيه

قال تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16}كَلَّا {17} الفجر15-17 قال الله تبارك وتعالى {كَلَّا }الفجر17 ولفظ كلا فيها زجر وتنبيه زجر عن مثل هذا القول وتنبيه على ما يخبر به ويومر به بعده وذلك انه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله عز وجل مكرما له بها ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهينا له بذلك بل هو سبحانه يبتلى عبده بالسراء والضراء فقد يعطى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 54

[2] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 100

[3] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 443

النعم الدنيوية لمن لا يحبه ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك وقد يحمى منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه وايضا كرامات الأولياء لابد ان يكون سببها الايمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق اعداء الله لا من كرامات اولياء الله فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء وإنما تحصل عند الشرك مثل دعاء الميت والغائب او بالفسق و العصيان واكل المحرمات كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات ومثل الغناء والرقص لا سيما مع النسوة الاجانب والمردان وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلا طويلا فاذا جاءت الصلاة صلى قاعدا او ينقر الصلاة نقر الديك وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد فهذه احوال شيطانية وهو ممن يتناوله قوله تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ }الزخرف36 فالقرآن هو ذكر الرحمن قال الله تعالى {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126}طه124-126 يعنى تركت العمل بها قال ابن عباس رضى الله عنهما تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه ان لا يضل فى الدينا ولا يشقى فى الآخرة ثم قرأ هذه الآية[1]

الكرامة لزوم الاستقامة

وأن الكرامة لزوم الاستقامة وأن الله لم يكرم عبده بكرامة اعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة اوليائه ومعاداة اعدائه وهؤلاء هم اولياء الله الذين قال الله فيهم {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }يونس62 فإن كانوا موافقين له فيما اوجبه عليهم فهم من المقتصدين وان كانوا موافقين فيما اوجبه واحبه فهم من المقربين مع ان كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجبا واما ما يبتلي الله به عبده من السراء بخرق العادة او بغيرها او بالضراء فليس ذلك لاجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه بل قد يسعد بها قوم اذا اطاعوه فى ذلك وقد يشقى بها قوم اذا عصوه في ذلك قال الله تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16}كَلَّا {17} الفجر15-16 كلا ولهذا كان الناس في هذه الأمور على ثلاثة اقسام قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في الطاعة وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها في معصية الله كبلعام وغيره وقوم تكون في حقهم بمنزلة المباحات والقسم الأول هم المؤمنون حقا المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله ولكثرة اللغط في هذا الأصل نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 301

واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان[1]

أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه

قال تعالى { كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} الفجر17 اليتيم فى الآدميين من فقد أباه لأن أباه هو الذى يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق ولهذا كان تابعا فى الدين لوالده وكان نفقته عليه وحضانته عليه والانفاق هو الرزق و الحضانة هى النصر لأنها الايواء ودفع الأذى فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه لأن الانسان ظلوم جهول والمظلوم عاجز ضعيف فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضى ومن جهة ضعف المانع ويتولد عنه فسادان ضرر اليتيم الذى لا دافع عنه ولا يحسن اليه وفجور الآدمى الذى لا وازع له فلهذا أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه فى آيات كثيرة مثل قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }البقرة83 وقوله {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ }البقرة177 الى قوله {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ }البقرة177 وقوله {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }البقرة215[2]

اذا أطلق لفظ المسكين

قال تعالى { وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } الفجر18 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله { وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}البقرة271 وقوله { فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ }المائدة89 والثانى كقوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ }التوبة60 [3]

المسكين لا يسأل ولا يعرف فيعطى

قال تعالى { وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } الفجر18 ففى الحديث الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافا فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فبين النبى صلى الله عليه وسلم أن الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 23 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 49 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 49

[2] مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 110

[3] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

مسكينا وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء فانه مسكين قطعا وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله[1]

الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا

الزهد خلاف الرغبة يقال فلان زاهد فى كذا وفلان راغب فيه و الرغبة هى من جنس الإرادة فالزهد فى الشيء إنتفاء الإرادة له أما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريدا له ولا كارها له وكل من لم يرغب فى الشيء ويريده فهو زاهد فيه وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه ولهذا كان أساس الطريق الإرادة كما قال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }الأنعام52 وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً }الإسراء19 ونظائرة متعددة كما رغب فى الزهد وذم ضده في قوله {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ {15} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ{16}هود15-16 وقال تعالى{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ{1} التكاثر 1 السورة و قال تعالى {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً {19} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20}الفجر 19 -20 وقال { إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ{6} وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ{7} وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ{8} العاديات 6-8 وقال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ }الحديد20الآية وهذا باب واسع وإنما المقصود هنا تميز الزهد الشرعى من غيره وهو الزهد المحمود وتميز الرغبة الشرعية من غيرها وهى الرغبة المحمودة فإنه كثيرا ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيرا ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذى ضل سعى صاحبه [2]

مساعى القلوب وأعمالها

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء فى الحديث الذى فى الترمذى من احب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد إستكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر فى بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ }البقرة165 ومن كان حبه لله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 301

[2] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:616- 617 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 51

وبغضه لله لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن إستعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما إستعاذ منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى { وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ }البقرة93 وذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 وقال { وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً{19} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20}الفجر19-20 ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل [1]

[11] الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 184 ومجموع الفتاوى ج: 10 ص:754- 769

سورة الفجر21-30

{ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً{21} وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً{22} وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{23} يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي{24} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ{25} وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ{26} يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30}

الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182}الصافات180 -182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف

به نفسه فى سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً{21} وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً{22} الفجر21-22[1]

فان وصفه سبحانه وتعالى بالاستواء الى السماء وهى دخان كوصفه بأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم إستوى على العرش ووصفه بالاتيان والمجيء فى مثل قوله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ }البقرة210 وقوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ }الأنعام158 وقوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وكذلك قوله تعالى {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف54 وقوله {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ }الذاريات47 وقوله {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }الروم40 وقوله {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ }السجدة5 وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف الله تعالى بها نفسه التى تسميها النحاة أفعالا متعدية وهى غالب ما ذكر فى القرآن أو يسمونها لازمة لكونها لا تنصب المفعول به بل لا تتعدى اليه الا بحرف الجر كالاستواء الى السماء وعلى العرش والنزول الى السماء الدنيا ونحو ذلك فان الله وصف نفسه بهذه الأفعال ووصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية فى مثل قوله {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ }ص71وقوله { وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً }النساء164 وقوله تعالى {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا }الأعراف22 وقوله {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ }القصص65 ونحو ذلك مما وصف به نفسه فى كتابه وما صح عن رسوله فان القول فى جميع ذلك من جنس واحد ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله في النفى والاثبات والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} فبين أنه لم يكن أحد كفوا له وقال تعالى {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 فأنكر أن يكون له سمى وقال تعالى {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً }البقرة22 وقال تعالى {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ }النحل74 وقال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفؤ والسمى والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له فى صفاته ولا أفعاله[2]

{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }

هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء كما أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه سبحانه استوى إلى السماء وهي دخان وأنه سبحانه يأتي في ظلل من الغمام والملائكة كما قال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وقال {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}الأنعام158 وقال تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 وقال تعالى {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ }التوبة105 [3]

---

[1] العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 11 ومجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130-131

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 323

[3] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 305

وصف الله سبحانه نفسه بالنزول الى السماء الدنيا في الثلث الاخير من الليل كما ورد في الاحاديث الصحيحة وأيضا بالنزول عشية عرفة في عدة أحاديث صحيحة وبعضها فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها عن النبى أنه قال ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة وانه عز وجل ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم عرفة ان الله ينزل الى سماء الدنيا يباهى بأهل عرفة الملائكة فيقول أنظروا الى عبادى اتونى شعثا غبرا ضاحين من كل فج عميق وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ان الله ينزل الى السماء الدنيا يباهى بأهل عرفة الملائكة ويقول أنظروا الى عبادى اتونى شعثا غبرا فوصف أنه يدنو عشية عرفة الى السماء الدنيا ويباهى الملائكة بالحجيج فيقول انظروا الى عبادى اتونى شعثا غبرا ما أراد هؤلاء ووصفه نفسه بالنزول كوصفه فى القرآن بأنه {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}الأعراف54 وبأنه { اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ }فصلت11 وبأنه نادى موسى وناجاه في البقعة المباركة من الشجرة {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }القصص30 وبالمجيء والاتيان فى قوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وقال {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ }الأنعام158 والأحاديث المتواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى اتيان الرب يوم القيامة كثيرة وكذلك اتيانه لأهل الجنة يوم الجمعة [1]

الايمان بالمجيء بلا كيف ولا تشبيه

وقال أبو نعيم الأصبهانى صاحب الحلية فى عقيدة له قال فى أولها طريقتنا طريقة المتبعين الكتاب والسنة واجماع الأمة قال فمما اعتقدوه أن الأحاديث التى ثبتت عن النبى فى العرش واستواء الله يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه وان الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم وهو مستو على عرشه فى سمائه دون أرضه وخلقه وقال الحافظ أبو نعيم فى كتابه محجة الواثقين ومدرجة الوامقين تأليفه وأجمعوا أن الله فوق سمواته عال على عرشه مستو عليه لا مستول عليه كما تقول الجهمية أنه بكل مكان خلافا لما نزل فى كتابه {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء }الملك16 { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ }فاطر10 {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 له العرش المستوى عليه والكرسى الذى وسع السموات والأرض وهو قوله { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ }البقرة255 وكرسيه جسم والأرضون السبع والسموات السبع عند الكرسى كحلقة فى أرض فلاة وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كما قاله النبى وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفا صفا كما قال تعالى {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وزاد النبى صلى الله عليه وسلم وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 374

بين عباده فيغفر لمن يشاء من مذنبى الموحدين ويعذب من يشاء كما قال تعالى {فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}البقرة284 وقال عمرو بن عثمان المكى فى كتابه الذى سماه التعرف بأحوال العباد والمتعبدين وأعلم رحمك الله تعالى ان الله تعالى واحد لا كالآحاد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد الى أن قال خلصت له الأسماء السنية فكانت واقعة فى قديم الأزل بصدق الحقائق لم يستحدث تعالى صفة كان منها خليا واسما كان منه بريا تبارك وتعالى فكان هاديا سيهدى وخالقا سيخلق ورازقا سيرزق وغافرا سيغفر وفاعلا سيفعل ولم يحدث له الإستواء إلا وقد كان فى صفة أنه سيكون ذلك الفعل فهو يسمى به فى جملة فعله كذلك قال الله تعالى {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 بمعنى أنه سيجىء فلم يستحدث الاسم بالمجىء وتخلف الفعل لوقت المجىء فهو جاء سيجىء ويكون المجىء منه موجودا بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه لأن ذلك فعل الربوبية فيستحسر العقل وتنقطع النفس عند ارادة الدخول فى تحصيل كيفية المعبود فلا تذهب فى أحد الجانبين لا معطلا ولا مشبها وأرض لله بما رضى به لنفسه وقف عند خبره لنفسه مسلما مستسلما مصدقا بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير[1]

وقال أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى المتكلم صاحب الطريقة المنسوبة اليه فى الكلام فى كتابه الذى صنفه فى اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين وذكر فرق الروافض والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرهم ثم قال مقالة اهل السنة وأصحاب الحديث جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله تعالى وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يردون شيئا من ذلك وان الله واحد احد فرد صمد لا اله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وان محمدا عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ويقرون أن الله يجىء يوم القيامة كما قال تعالى {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وقال أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى المتكلم صاحب الطريقة المنسوبة اليه فى الكلام فى كتابه الذى صنفه فى اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين وذكر فرق الروافض والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرهم ثم قال مقالة اهل السنة وأصحاب الحديث وقال الأشعرى أيضا فى اختلاف أهل القبلة فى العرش فقال قال أهل السنة وأصحاب الحديث ان الله ليس بجسم ولا يشبه الاشياء وأنه استوى على العرش كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 ولا نتقدم بين يدى الله فى القول بل نقول استوى بلا كيف وان له وجها كما قال {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن27 وان له يدين كما قال {خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص75 وأن له عينين كما قال {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا }القمر14 وأنه يجىء يوم القيامة هو وملائكته كما قال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وأنه ينزل إلى سماء الدنيا كما جاء فى الحديث ولم يقولوا شيئا الا ما وجدوه فى في الكتاب أو جاءت به الرواية عن رسول الله[2]

حديث النزول صحيح

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 60-64

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 91

وهذا مما احتج به السلف على من ينكر الحديث فبينوا له أن القرآن يصدق معنى هذا الحديث كما احتج به اسحاق بن راهويه بن راهويه على بعض الجهمية بحضرة الأمير عبدالله بن طاهر أمير خراسان قال أبو عبدالله الرباطى حضرت يوما مجلس الامير عبدالله بن طاهر ذات يوم وحضر إسحق بن راهويه فسئل عن حديث النزول أصحيح هو فقال نعم فقال له بعض قواد عبدالله يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة قال نعم قال كيف ينزل قال اثبته فوق حتى أصف لك النزول فقال له الرجل اثبته فوق فقال له إسحق قال الله تعالى {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 فقال الأمير عبدالله بن طاهر يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة فقال اسحق أعز الله الأمير ومن يجىء يوم القيامة من يمنعه اليوم قال الشيخ أبو عثمان النيسابورى الصابونى الملقب بشيخ الاسلام فى رسالته فى السنة قال ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب كل ليلة الى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف بل يثبتون ما أثبته رسول الله وينتهون فيه اليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ويكلون علمه الى الله سبحانه وتعالى وكذلك يثبتون ما أنزل الله فى كتابه من ذكر المجىء والاتيان المذكورين فى قوله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ }البقرة210 وقوله عز وجل {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وقال أبو عثمان قرأت فى رسالة أبى بكر الإسماعيلى الى أهل جيلان أن الله ينزل الى السماء الدنيا على ما صح به الخبر عن النبى وقد قال عز وجل {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ }البقرة210 وقال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 نؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف فلو شاء سبحانه أن يبين كيف ذلك فعل فانتهينا إلى ما أحكمه وكففنا عن الذى يتشابه اذ كنا قد أمرنا به فى قوله {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ }آل عمران7 وروى عبدالرحمن بن منده باسناده عن حرب بن إسماعيل قال سألت اسحق بن إبراهيم قلت حديث النبى ينزل الله إلى السماء الدنيا قال نعم ينزل الله كل ليلة الى السماء الدنيا كما شاء وكيف شاء[1]

قال أبو عبدالله بن حامد فى صفات الفعل ومما يجب على أهل الإيمان التصديق به أن الحق سبحانه ينزل الى سماء الدنيا فى كل ليلة وينزل يوم عرفة من غير تكييف ولا مثل ولا تجديد ولا شبه وقال هذا نص امامنا قال يوسف بن موسى قلت لأبى عبدالله ينزل الله الى سماء الدنيا كيف شاء من غير وصف قال نعم وقال فى مسألة الاستواء على العرش فيما رواه عنه حنبل ربنا على العرش بلا حد ولا صفة وقال فى رواية المروذى قيل له عن ابن المبارك يعرف الله على العرش بحد قال بلغنى ذلك وأعجبه ثم قال أبو عبدالله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ }البقرة210 وقال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 قال ابن حامد فالمذهب على ما ذكرنا لا يختلف ان ذاته تنزل ورأيت بعض أصحابنا يروى عن أبى عبدالله فى الاتيان انه قال يأتى بذاته قال وهذا على حد التوهم من قائله وخطأ من اضافته اليه كما قررنا عنه من النص قال ابن حامد فاذا تقرر هذا الاصل فى نزول ذاته من غير صفة ولا حد فانا نقول انه بانتقال من مكانه الذى هو فيه الا ان طائفة من أصحابنا قالت ينزل من غير انتقال من مكانه كيف شاء قال والصحيح ما ذكرنا لا غيره قال وقد ابا أصل هذه المسألة أهل الاعتزال فقالوا لا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 375

نزول له ولا حركة ولا له من مكانه زوال وهو بكل مكان على ما كان قال وهذا منهم جهل قبيح لنص الاخبار وساق بعض الأحاديث المأثورة فى ذلك قال ومما يجب التصديق به والرضا مجيئه الى الحشر يوم القيامة بمثابة نزوله الى سمائه وذلك بقوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وقال تعالى {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ }الزمر69 قال وهذا دليل على أنه اذا جاءهم وجلس على كرسيه اشرقت الأرض كلها بأنواره [1]

الإيمان بما أثبته لله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهذا نقله الأشعري في كتاب المقالات عن أهل السنة والحديث فقال ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم ويأخذون بالكتاب والسنة ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ولا يحدثون في دينهم ما لم يأذن به الله ويقرون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال وجاء ربك والملك صفا صفا وإن الله يقرب من خلقه كما يشاء كما قال ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ثم قال الأشعري وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب وقال أبو عثمان النيسابوري الملقب بشيخ الإسلام في رسالته المشهورة في السنة قال ويثبت أهل الحديث نزول الرب سبحانه في كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف بل يثبتون له ما أثبته له رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتهون فيه إليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ويكلون علمه إلى الله وكذلك يثبتون ما أنزل الله في كتابه من ذكر المجيء والإتيان في ظلل من الغمام والملائكة وقوله عز وجل وجاء ربك والملك صفا صفا وقال سمعت الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول سمعت أبا زكريا يحيى بن [2]

و ذكر أهل الكلام الذين ينقلون مقالات الناس مقالة أهل السنة وأهل الحديث كما ذكره أبو الحسن الأشعرى فى كتابه الذى صنفه فى اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين فذكر فيه أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة وغيرهم ثم قال ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث وجملة قولهم الاقرار بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء من عند الله وبما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون من ذلك شيئا الى أن قال وان الله على عرشه كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5وان له يدين بلا كيف كما قال تعالى { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص75وأقروا أن لله علما كما قال { أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}النساء166 { وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ }فصلت47 وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة وقالوا أنه لا يكون فى الأرض من خير ولا شر الا ما شاء الله وأن الأشياء تكون بمشيئة الله كما قال {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ }الإنسان30 الى أن قال ويقولون ان القرآن كلام الله غير مخلوق ويصدقون بالأحاديث التى جاءت عن رسول الله مثل ان الله ينزل الى سماء الدنيا فيقول هل من مستغفر فاغفر له كما جاء فى الحديث ويقرون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وان الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 164-166

[2] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 50

}ق16 وذكر أشياء كثيرة الى أن قال فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب[1]

والقول المشهور عن السلف عند أهل السنة والحديث هو الاقرار بما ورد به الكتاب والسنة من أنه يأتى وينزل وغير ذلك من الافعال اللازمة قال أبو عمرو الطلمنكى أجمعوا يعنى أهل السنة والجماعة على أن الله يأتى يوم القيامة والملائكة صفا صفا لحساب الامم وعرضها كما يشاء وكيف يشاء قال تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ }البقرة210 وقال تعالى {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 قال وأجمعوا على ان الله ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا على ما أتت به الاثار كيف شاء لا يحدون فى ذلك شيئا[2]

اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات

فان الله تعالى سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمى نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيما الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى وقال تعالى {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 وامثال ذلك فالقول فى بعض هذه الصفات كالقول فى بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 رد على أهل النفى والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا ان الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين ان الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشى الى أن هذه الاسماء حقيقة لله مجاز للخلق واما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الاشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الائمة الاربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون ان هذه الاسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وان كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون ان له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 185-186

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 578

[3] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 197

صاحب النفس المطمئنة كراهته للمحرمات كراهة إيمان

قال تعالى { وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{23} يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي{24} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ{25} وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ{26} يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30}سورة الفجر 23-30 أن ترك السيئات هو من أعمال النفس فإنها تعلم أن السيئات مذمومة ومكروه فعلها ويجاهد نفسه إذا دعته إليها إن كان مصدقا لكتاب ربه مؤمنا بما جاء عن نبيه ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة فتزكو بذلك أيضا بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تتدنس وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل والثواب إنما يكون على عمل موجود وكذلك العقاب فأما العدم المحض فلا ثواب فيه ولا عقاب لكن فيه عدم الثواب والعقاب والله سبحانه أمر بالخير ونهى عن الشر وإتفق الناس على أن المطلوب بالأمر فعل موجود وإختلفوا فى النهى هل المطلوب أمر وجودى أم عدمى فقيل وجودى وهو الترك وهذا قول الأكثر وقيل المطلوب عدم الشر وهو أن لا يفعله و التحقيق أن المؤمن إذا نهى عن المنكر فلابد أن لا يقربه ويعزم على تركه ويكره فعله وهذا أمر وجودى بلا ريب فلا يتصور أن المؤمن الذى يعلم أنه وجودى لكن قد لا يكون مريدا له كما يكره أكل الميتة طبعا ومع ذلك فلا بد له من إعتقاد التحريم والعزم على تركه لطاعة الشارع وهذا قدر زائد على كراهة الطبع وهو أمر وجودى يثاب عليه ولكن ليس كثواب من كف نفسه وجاهدها عن طلب المحرم ومن كانت كراهته للمحرمات كراهة إيمان وقد غمر إيمانه حكم طبعه فهذا أعلى الأقسام الثلاثة وهذا صاحب النفس المطمئنة وهو أرفع من صاحب اللوامة التى تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه وتتلوم وتتردد هل تفعله أم لا وأما من لم يخطر بباله أن الله حرمه وهو مريد له بل لم يفعله فهذا لا يعاقب ولا يثاب إذا لم يحصل منه أمر وجودى يثاب عليه أو يعاقب فمن قال المطلوب أن لا يفعل لان أراد أن هذا المطلوب يكفي في عدم العقاب فقد صدق وإن أراد أنه يثاب على هذا العدم فليس كذلك والكافر إذا لم يؤمن بالله ورسوله فلا بد لنفسه من أعمال يشتغل بها عن الإيمان وترك الأعمال كفر يعاقب عليها ولهذا لما ذكر الله عقوبة الكفار فى النار ذكر امورا وجودية وتلك تدس النفس ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس وكان الشرك أعظم ما يدسيها [1]

بيان مسمى الروح والنفس

قال تعالى { وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{23} يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي{24} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ{25} وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ{26} يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30}سورة الفجر 23-30 فخاطبها بالرجوع إلى ربها وبالدخول في عباده ودخول جنته وهذا تصريح بأنها مربوبة والنفس هنا هي الروح التي تقبض وإنما تتنوع صفاتها كما قال النبي في الحديث الصحيح لما ناموا عن صلاة الفجر في السفر قال إن الله قبض أروحنا حيث شاء وردها حيث شاء وفي رواية قبض أنفسنا حيث شاء وقال تعالى{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:630- 637

مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ }الزمر42 والمقبوض المتوفى هي الروح كما في صحيح مسلم عن أم سلمة قالت دخل رسول الله على ابي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهدين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه ووى مسلم أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله ألم تروا أن الإنسان إذا مات شخص بصره قالوا بلى قال فكذلك حين يتبع بصره نفسه فسماه تارة روحا وتارة نفسا وروى أحمد بن حنبل وابن ماجة عن شداد بن أوس قال قال رسول الله إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر فإن البصر يتبع الروح وقولوا خيرا فإنه يؤمن على ما يقول أهل الميت ودلائل هذا الأصل وبيان مسمى الروح والنفس وما فيه من الإشتراك كثير لا يحتمله هذا الجواب وقد بسطناه في غير هذا الموضع[1]

النفس موجود قائم بنفسه

قال تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }الزمر42 وهذا بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ثم منها ما يمسك فلا يرسل الى بدنه وهو الذى قضى عليه الموت ومنها ما يرسل الى أجل مسمى وهذا إنما يكون فى شيء يقوم بنفسة لا فى عرض قائم بغيره فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت والأحاديث الصحيحة توافق هذا كقول النبى باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت نفسى فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين وقال لما ناموا عن صلاة الصبح أن الله قبض أرواحنا حيث شاء بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ثم منها ما يمسك فلا يرسل الى بدنه وهو الذى قضى عليه الموت ومنها ما يرسل الى أجل مسمى وهذا إنما يكون فى شيء يقوم بنفسة لا فى عرض قائم بغيره فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت والأحاديث الصحيحة توافق هذا كقول النبى باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت نفسى فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين وقال لما ناموا عن صلاة الصبح أن الله قبض أرواحنا حيث شاء وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {60} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ{61} ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ{62}الأنعام60 -62 فهذا توف لها بالنوم إلى أجل الموت الذى ترجع فيه إلى الله وأخبار أن الملائكة تتوفاها بالموت ثم يردون الى الله والبدن وما يقوم به من الأعراض لايرد إنما يرد الروح وهو مثل قوله فى يونس {ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ }الأنعام62 وقال تعالى{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى }العلق8 وقال تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30}الفجر 27-30 وقال تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ }السجدة11 وتوفى الملك إنما يكون لما هو موجود قائم بنفسه والا فالعرض القائم بغيره لا يتوفى فالحياة القائمة بالبدن لا تتوفى بل نزول وتعدم كما تعدم حركته وإدراكه وقال تعالى فى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص:225- 226

المؤمنين {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ {99} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{100}المؤمنون99-100 فقوله { ارْجِعُونِ {99} المؤمنون99 طلب لرجع النفس الى البدن كما قال فى الواقعة { فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87} الواقعة86-87 وهو يبين أن النفس موجودة تفارق البدن بالموت قال تعالى { إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{100}المؤمنون 100 آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1]

الانفس ثلاث امارة ومطمئنة ولوامة

الناس هنا ثلاثة اقسام قوم لا يقومون إلا في اهواء نفوسهم فلا يرضون الا بما يعطونه ولا يغضبون الا لما يحرمونه فإذا اعطى احدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال او الحرام زال غضبه وحصل رضاه وصار الأمر الذي كان عنده منكرا ينهى عنه ويعاقب عليه ويذم صاحبه ويغضب عليه مرضيا عنه وصار فاعلا له وشريكا فيه ومعاونا عليه ومعاديا لمن ينهى عنه وينكر عليه وهذا غالب في بني آدم يرى الانسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه الا الله وسببه ان الانسان ظلوم جهول فلذلك لا يعدل بل ربما كان ظالما في الحالين يرى قوما ينكرون على المتولى ظلمه لرعيته واعتداءه عليهم فيرضى اولئك المنكرين ببعض الشيء من منصب او مال فينقلبون اعوانا له واحسن احوالهم ان يسكنوا عن الانكار عليه وكذلك تراهم ينكرون على من يشرب الخمر ويزني ويسمع الملاهي حتى يدخلوا احدهم معهم في ذلك او يرضوه ببعض ذلك فتراه حينئذ قد صار عونا لهم وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم الى اقبح من الحال التي كانوا عليها وقد يعودون الى ما هو دون ذلك او نظيره وقوم يقومون قومه ديانة صحيحة يكونون في ذلك مخلصين لله مصلحين فيما عملوه ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما اوذوا فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم من خير امة اخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا وهم غالب المؤمنين فمن فيه دين وله شهوة تجتمع في قلوبهم ارادة الطاعة وارادة المعصية وربما غلب هذا تارة وهذا تارة وهذه القسمة الثلاثية كما قيل الانفس ثلاث امارة ومطمئنة ولوامة فالأولون هم اهل الانفس الامارة التي تأمرهم بالسوء والأوسطون هم اهل النفوس المطمئنة التي قيل فيها { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30} سورة الفجر 27 30 والاخرون هم اهل النفوس اللوامة التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه وتتلوم تارة كذا وتارة كذا او تخلط عملا صالحا وأخر سيئا وهؤلاء يرجى ان يتوب عليهم اذا اعترفوا بذنوبهم كما قال الله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم سورة التوبة 102 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص:268- 271

[2] الاستقامة ج: 2 ص: 251-252

للقلوب سكينة تناسبها

قال تعالى { وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{23} يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي{24} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ{25} وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ{26} يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30}سورة الفجر 23-30 والحركة والسكون والطمأنينة التى توصف بها النفس ليست مماثلة لما يوصف به الجسم قال تعالى { أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }الرعد28 والاطمئنان هو السكون قال الجوهرى اطمأن الرجل اطمئنانا وطمأنينة أى سكن قال تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} الفجر 27-28 وكذلك للقلوب سكينة تناسبها قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ }الفتح4 وكذلك الريب حركة النفس للشك ومنه الحديث أن النبى مر بظبى حاقف فقال لا يريبه أحد ويقال رابنى منه ريب و دع ما يريبك الى ما لا يريبك وقال الكذب ريبة والصدق طمأنينة فجعل الطمأنينة ضد الريبة وكذلك اليقين ضد الريب واليقين يتضمن معنى الطمأنينة والسكون ومنه ماء يقن وكذلك يقال انزعج وازعجه فانزعج أى أقلقه ويقال ذلك لمن قلقت نفسه ولمن قلق بنفسه وبدنه حتى فارق مكانه وكذلك يقال قلقلت نفسه واضطربت نفسه ونحو ذلك من أنواع الحركة ويسمى ما يألفه جنس الانسان ويحبه سكنا لأنه يسكن اليه ويقال فلان يسكن الى فلان ويطمئن اليه ويقال القلب يسكن الى فلان ويطمئن اليه اذا كان مأمونا معروفا بالصدق فان الصدق يورث الطمأنينة والسكون وقد سميت الزوجة سكنا قال تعالى {خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا }الروم21 وقال { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا }الأعراف189 فيسكن الرجل الى المرأة بقلبه وبدنه جميعا وقد يكون بدن الشخص ساكنا ونفسه متحركة حركة قوية وبالعكس قد يسكن قلبه وبدنه متحرك والمحب للشىء المشتاق اليه يوصف بأنه متحرك اليه ولهذا يقال العشق حركة نفس فارغة فالقلوب تتحرك الى الله تعالى بالمحبة والانابة والتوجه وغير ذلك من أعمال القلوب وان كان البدن لا يتحرك الى فوق فقد قال النبى أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ومع هذا فبدنه أسفل ما يكون فينبغى أن يعرف ان الحركة جنس تحته أنواع مختلفة باختلاف الموصوفات بذلك وما يوصف به نفس الانسان من ارادة ومحبة وكراهة وميل ونحو ذلك[1]

لطائف لغوية

قال تعالى { فَادْخُلِي فِي عِبَادِي }الفجر29 ولفظ العبد فى القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده

ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 570

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 43

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة البلد
90

رقية محمود الغرايبة

~§§ البلد(مكية)20 §§~

سورة البلد1-10

بسم الله الرحمن الرحيم

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ{1} وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ{2} وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{3} لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ{4} أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ{5} يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً{6} أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ{7} أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9} وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ{10}

اقسام الله بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة عليه

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1]

القدرة والعلم بهما يحصل الجزاء

قال تعالى { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ{1} وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ{2}وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{3}البلد 1-3 وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور وانما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته واقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته فالقسم اما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى {فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ }الذاريات23 وإما على جملة طلبية كقوله تعالى {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{93}الحجر92-93 مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر وقد يراد به محض القسم والمقسم عليه يراد بالقسم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

توكيده وتحقيقه فلابد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية اذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها وما أقسم عليه الرب عز وجل فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب وتارة يحذفه كما يحذف جواب لو كثيرا كقوله تعالى { لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ }التكاثر5 وقوله {وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ }الرعد31 {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ }الأنفال50 {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ }سبأ51 {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ }الأنعام27 {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ }الأنعام30 ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام لأن المراد أنك لو رأيته لرئيت هولا عظيما فليس فى ذكر الجواب زيادة على ما دل المحرم وهو أيضا تنبيه فاذا أقسم به وفيه الحلال فاذا كان فيه الحرام كان أولى بالتعظيم وكذلك اذا أريد الحلول فانه هو السلبى فالمعنى واحد وقد أقسم ب { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ{1} وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ{2}وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{3}البلد 1-3 والجواب مذكور فى قوله تعالى{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ }البلد4 وهو مكابدة أمر الدنيا والآخرة وهذه المكابدة تقتضى قوة صاحبها وكثرة تصرفه واحتياله فقال تعالى { أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ{5} يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً{6}يَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ{7} البلد5-7 فهذا الانسان من جنس أولئك الأمم ومن جنس الذى قال { مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ{28} هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ{29}الحاقة 28-29 له قوة يكابد بها الأمور وكل أهلكه أفيظن مع هذا أنه لن يقدر عليه أحد فيجازيه بأعماله ويحسب أن ما أهلكه من المال لم يره أحد فيعلم ما فعل والقدرة والعلم بهما يحصل الجزاء بل بهما يحصل كل شيء واخباره تعالى بأنه قادر وأنه عالم يتضمن الوعيد والتهديد فانه اذا كان قادرا أمكن الجزاء واذا كان عالما أمكن الجزاء فبالعدل يقدر ما عمل ومن لم يكن قادرا عالما لم يمكنه الجزاء فان العاجز عن الشخص لا يمكنه جزاؤه والذى له قدرة لكن لا يرى ما فعل ان جازاه بلا علم كان ظالما معتديا فلابد له من العلم بما فعل ولهذا كان الحاكم يحتاج الى الشهود والملوك يحتاجون الى أهل الديوان يخبرونهم بمقادير الأموال وغيرها ليكون عملهم بعلم ذكر أنه خلق الانسان فى كبد { أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ }البلد 5 ولن لنفى المستقبل يقول أيحسب أن لن يقدر عليه فى المستقبل أحد ولهذا كان ذاك الخائف من ربه الذى أمر أهله باحراقه وذرايته يعلم أن الجزاء متعلق بالقدرة فقال لئن قدر الله على ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا من العالمين وهو سبحانه يهدد بالقدرة لكون المقدور يقترن بها كما يهدد بالعلم لكون الجزا يقع معه كما فى قوله تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ }الأنعام65 فقال النبى صلى الله عليه وسلم لما نزلت أعوذ بوجهك أعوذ بوجهك { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ }الأنعام65 فقال هاتان أهون وذلك لأنه تكلم فى ذكر القدرة ونوع المقدور كما يقول القائل أين تهرب منى أنا اقدر أن أمسكك وكذلك فى العلم بالرؤية كقوله هنا { أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ{7}البلد7 وقوله تعالى فى الذى ينهى عبدا اذا صلى {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى }العلق14 وقوله تعالى {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}التوبة105 وقوله {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }الزخرف80 وقوله تعالى { وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ{52} وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ{53}القمر52-53 وأمثال ذلك فذكر رؤيته الأعمال وعلمه بها واحصائه لها يتضمن الوعيد بالجزاء عليها كما يقول القائل قد علمت ما فعلت وقد جاءتنى أخبارك كلها وأمثال ذلك فليس المراد

الاخبار بقدرة مجردة وعلم مجرد لكن بقدرة وعلم يقترن بهما الجزاء اذ كان مع حصول العلم والقدرة يمكن الجزاء ويبقى موقوفا على مشيئة المجازى لا يحتاج معه الى شيء حينئذ فيجب طلب النجاة بالاستغفار والتوبة اليه وعمل الحسنات التى تمحو السيئات[1]

بيان قدرة الرب على عين العبد

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا والتحقيق أن الشيء إسم لما يو جد فى الأعيان و لما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكو ن هو شيء فى التقدير و العلم و الكتاب و أن لم يكن شيئا فى الخارج و منه قو له {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 و لفظ الشيء فى الآية يتناو ل هذا و هذا فهو على كل شئ ما و جد و كل ماتصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء و لا يزاد عليه شئ و أنه يدخل فى ذلك القدرة على الأعيان جاءت فى مثل قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ }المؤمنون12 {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ }البلد5 و جاءت منصوصا عليها فى الكتاب و السنة أما الكتاب فقوله {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ }الزخرف41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم و هذا نص فى قدرته على الأعيان المفعولة و قوله { وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ}ق45 و {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }الغاشية22 و نحو ذلك و هو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر و ذلك يستلزم قدرته عليهم و قوله { فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ }الأنبياء87 على قول الحسن و غيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه و على أمثاله و كذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى و قال له ماحملك على ماصنعت قال خشيتك يارب فغفر له و هو كان مخطئا فى قوله لئن قدرالله على ليعذبنى كما يدل عليه الحديث و أن الله قدر عليه لكن لخشيته و إيمانه غفرالله له هذا الجهل و الخطأ الذى و قع منه و قد يستدل بقوله {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ }المرسلات20 الى وله {فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ }المرسلات23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين و إن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه و القدرة عليه قدرة على خلقه و جاء أيضا الحديث منصوصا فى مثل قول النبى صلى الله عليه و سلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده لله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد و أنه أقدر عليه منه على عبده و فيه إثبات قدرة العبد[2]

العينان هما ربيئة القلب

قوله تعالى { أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9} وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ{10} البلد 8-10 الهداية محلها القلب و هذه الأعضاء الثلاثة التى هي دائمة الحركة و الكسب إما للإنسان و إما عليه بخلاف ما يتحرك من داخل فإنه لا يتعلق به ثواب و لا عقاب و بخلاف بقية الأعضاء الظاهرة فإن

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 13 ص:315- 317

[22] مجموع الفتاوى ج: 8 ص:9- 12

السكون أغلب و حركتها قليلة بالنسبة إلى هذه و هذه الثلاثة التى يروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال من كان صمته فكرا و نطقه ذكرا و نظره عبرة و فى حديث عند ابن أبي حاتم فى صفة النبى صلى الله عليه و سلم أنه كان كثير الصمت دائم الفكر متواصل الأحزان فالصمت و الفكر للسان و القلب و أما الحزن فليس المراد به الحزن الذي هو الألم على فوت مطلوب أو حصول مكروه فإن ذلك منهى عنه و لم يكن من حاله و إنما أراد به الإهتمام و التيقظ لما يستقبله من الأمور و هذا مشترك بين القلب و العين و فيه أيضا في الصحيحين حديث إبن عباس أنه كان إذا قام من الليل يصلى ينظر إلى السماء و يقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران فيجمع بين الذكر و النظر و الفكر فالنظر أي نظر القلب و نظر العين و الذكر أيضا لابد مع ذكر اللسان من ذكر القلب و لما كان النظر مبدأ و الذكر منتهى لأن النظر يتقدم الإدراك و العلم و الذكر يتأخر عن الإدراك و العلم و لهذا كان المتكلمة فى النظر المقتضي للعلم و كان المتصوفة في الذكر المقرر للعلم قدم آلة النظر على آلة الذكر و ختم بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاكر و ذكر سبحانه اللسان و الشفتين لأنهما العضوان الناطقان فأما الهواء و الحلق و النطع و اللهوات و الأسنان فمتصلة حركة بعضها مرتبطة بحركة البعض بمنزلة غيرها من أجزاء الحنك فأما اللسان و الشفتان فمنفصلة ثم الشفتان لما كانا النهاية حملا الحروف الجوامع الباء و الفاء و الميم و الواو فأما الباء و الفاء فهما الحرفان السببيان فإن الباء أبدا تفيد الالصاق و السبب و كذلك الفاء تفيد التعقيب و السبب و بالأسباب تجتمع الأمور بعضها ببعض و أما الميم و الواو فلهما الجمع و الإحاطة ألا ترى أن الميم ضمير لجمع المخاطبين فى الأنواع الخمسة ضميري الرفع و النصب المتصلين و المنفصلين و ضمير الخفض فى مثل قوله أنتم و علمتم و إياكم و علمكم و بكم و ضمير لجمع الغائبين فى الأنواع الخمسة أيضا و المضمر أيا كان إما متكلم أو مخاطب أو غائب واحد أو إثنان أو جمع مرفوع أو منصوب أو مجرور فقد أحاطت بالجميع مطلقا أما الجمع المطلق فبنفسها و أما الجمع المقدر بإثنين فبزيادة علم التثنية و هو الألف في مثل أنتما و علمتما و كذلك الباقي و لهذا زيدت الواو في الجمع المطلق فقيل عليهموا و إنتموا كما زيدت الألف في التثنية و من حذفها حذفها تخفيفا و لأن ترك العلامة علامة فصارت الميم مشتركة ثم الفارق الألف أو عدمها مع الواو و أما الواو فلها جموع الضمائر الغائبة في مثل قالوا و نحوها و أما المتصلة مثل إياكم و هم فعلى اللغتين فلما صارت الواو تمام المضمر المرفوع المنفصل و الياء تمام المؤنث صارت للمؤنث مطلقا في جميع أحواله لأنه تلو المذكر و المفرد مذكره و مؤنثه قبل المثنى و المجموع فإن المفرد قبل المركب ثم الألف صارت علم التثنية مطلقا فالمظهر و المضمر كما أن الواو علم لجمع المذكر و جعل الياء علمي النصب و الجر فى المظهر من المثنى و المجموع لأن المظهر قبل المضمر و أقوى منه فكانت أحق أن تكون فيه من الألف فحين ما كان أقوى كانت الواو و حين ما كان أوسط كان الياء وأما الجموع الظاهرة فالواو هي علم الجمع المذكر الصحيح كما أن الألف علم التثنية و لهذا ينطق بها حيث لا إعراب لكن فى حال النصب و الخفض قلبتا يائين لأجل الفرق و ذلك لأن الأسماء الظاهرة لها الغيبة دون الخطاب فى جميع العربية و ذلك لأن الواو أقوى حروف العلة و الضمة بعضها و هي أقوى الحركات لما فيها من الجمع و كونها آخرا فجعلت للجمع و الألف أخف حروف العلة فجعلت للإثنين لأن الياء كانت قد صارت للمؤنث فى المفرد المرفوع الذي هو الأصل في قولك و جاءت الميم في مثل اللهم إشعار بجميع الأسماء و ذلك لأن حرف الشفة لما كان جامعا للقوة من مبدأ مخارج الحروف إلى منتهاها بمنزلة الخاتم الآخر الذي حوى ما فى المتقدم و زيادة كان جامعا لقوى الحروف فجعل جامعا للأسماء مظهرها و مضمرها و جامعا بين المفردات و الجمل فالواو و الفاء عاطفان و الفاء رابطة جملة بجملة و لما كانت النون قريبة من الفيهة فهي أنفية جعلت لجمع

المؤنث لأنه دون جمع المذكر و ثنى العينين و الشفتين لأن العينين هما ربيئة القلب و ليس من الأعضاء أشد إرتباطا بالقلب من العينين و لهذا جمع بينهما فى قوله {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ}الأنعام110 {تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ }النور37 {وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ }الأحزاب10 { قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ{8} أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ{9} النازعات 8-9 و لأن كليهما له النظر فنظر القلب الظاهر بالعينين والباطن به وحده و كذلك اللسان هو الذكر و الشفتان أنثاه [1]

فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه وهذا ترجمانه[2]

{ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ}

قال ابو عمر بن عبدالبر في التمهيد حين عدد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان فى قوله { أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9} البلد8-9 بمعنى ألم نجعله ناظرا متكلما فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين لأن الكلام الذى جرت به النعمة لا يتم الا بهما [3]

المقدمات البينة البرهانية

إذا جادل القران يسأل ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية التى لا يمكن أحد ان يجحدهما لتقرير المخاطب بالحق ولاعترافه بانكار الباطل كما فى مثل قوله {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ }الطور35 {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس81 وقوله { أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ{58} أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ{59} الواقعة58-59 وقوله {وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى }طه133 وقوله {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ }العنكبوت51 وقوله {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ }الشعراء197 وقوله{ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9} وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ{10} البلد 8-10 إلى أمثال ذلك مما يخاطبهم باستفهام التقرير المتضمن اقرارهم واعترافهم بالمقدمات البرهانية التى تدل على المطلوب فهو من أحسن جدل بالبرهان فان الجدل انما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات وان لم تكن بينة معروفة فاذا كانت بينة معروفة كانت برهانية والقرآن لا يحتج فى مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما هي الطريقة الجدلية عند اهل المنطق وغيرهم بل بالقضايا والمقدمات التى تسلمها الناس وهي برهانية وان كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها كقوله {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 221

[2] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 384

[33] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 335

بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ }الأنعام91 فان الخطاب لما كان مع من يقر بنبوة موسى من أهل الكتاب ومع من ينكرها من المشركين ذكر ذلك بقوله { قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}الأنعام91 وقد بين البراهين الدالة على صدق موسى فى غير موضع وعلى قراءة من قرأ يبدونها كابن كثير وابي عمرو جعلوا الخطاب مع المشركين وجعلوا قوله { وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ }الأنعام91 احتجاجا على المشركين بما جاء به محمد فالحجة على اولئك نبوة موسى وعلى هؤلاء نبوة محمد ولكل منهما من البراهين ما قد بعضه فى غير موضع وعلى قراءة الأكثرين بالتاء هو خطاب لأهل الكتاب وقوله {عُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ }الأنعام91 بيان لما جاءت به الأنبياء مما انكروه فعلمهم الأنبياء ما لم يقبلوه ولم يعلموه فاستدل بما عرفوه من أخبار الأنبياء وما لم يعرفوه [1]

لفظ الهدى اذا أطلق

قال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا }الأعراف43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام87 وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ }التوبة33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا [2]

الهداية العامة جعلها الله لكل إنسان

ومما يبين به فضل أمته على جميع الأمم وذلك مستلزم لكونه رسولا صادقا كما تقدم وهو آية وبرهان على نبوته فإن كل ملزوم فإنه دليل على لازمه إن الأمم نوعان نوع لهم كتاب منزل من عند الله كاليهود والنصارى ونوع لا كتاب لهم كالهند واليونان والترك وكالعرب قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وما من أمة إلا ولا بد لها من علم وعمل بحسبهم ويقوم به ما يقوم من مصالح دنياهم وهذا من الهداية العامة التي جعلها الله لكل إنسان بل لكل حي كما يهدي الحيوان لجلب ما ينفعه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 19 ص:164- 166

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

بالأكل والشرب ودفع ما يضره باللباس والكن وقد خلق الله فيه حبا لهذا وبغضا لهذا قال تعالى{ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9} البلد 8-9[1]

وقال تعالى {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 على قول الأكثرين وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها والتقية تقواها فالالهام عنده هو البيان بالادلة السمعية والعقلية وأهل السنة يقولون كلا النوعين من الله هذا الهدى المشترك وذلك الهدى المختص وإن كان قد سماه إلهاما كما سماه هدى كما فى قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 وكذلك قد قيل فى قوله {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 أي بيناه له طريق الخير والشر وهو هدى البيان العام المشترك وقيل هدينا المؤمن لطريق الخير والكافر لطريق الشر فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى كما جعل أولئك البيان إلهاما وكذلك قوله {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }الإنسان3 قيل هو الهدى المشترك وهو أنه بين له الطريق التى يجب سلوكها والطريق التى لا يجب سلوكها وقيل بل هدى كلا من الطائفتين إلى ما سلكه من السبيل إما شاكرا وإما كفورا لكن تسمية هذا هدى قد يعتذر عنه بأنه هدى مقيد لا مطلق كما قال {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }الانشقاق24 وكما قال { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ }النساء51 وأنه { يَقُولُ الْحَقَّ}الأحزاب4 و { يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ }النحل90 فهو موافق لقوله وأمره لعلمه وحكمه كما أن القرآن وسائر كلامه كذلك وبإعتبار أنه أنعم على العبد بواسطة جنده بالملائكة ويقال لضد هذا وهو الخطأ هذا من الشيطان والنفس لأن الله لا يقوله ولا يأمر به ولأنه إنما ينكته في قلب الإنسان الشيطان ونفسه تقبله من الشيطان فإنه يزين لها الشيء فتطيعه فيه وليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد ولكن يفوته به نوع من الحسنات كالنسيان فإنه من الشيطان والاحتلام من الشيطان والنعاس عند الذكر والصلاة من الشيطان والصعق عند الذكر من الشيطان ولا إثم على العبد فيما غلب عليه إذا لم يكن ذلك بقصد منه أو بذنب[2]

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }

وجلب المنفعة ودفع المضرة أما أن يكون في الدين أو في الدنيا فصارت أربعة أقسام الهداية والمغفرة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدين والطعام والكسوة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا وإن شئت قلت الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن وهو الأصل في الأعمال الإرادية والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن الطعام لجلب منفعته واللباس لدفع مضرته وفتح الأمر بالهداية فإنها وإن كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين فكل أعمال الناس تابعة لهدي الله إياهم كما قال سبحانه { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى1-3 وقال موسى {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 وقال {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }الإنسان3 [3]

---

[11] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 6

[2] مجموع الفتاوى ج: 15 ص:98- 100

[33] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 422

الهداية البيان والتعريف كما قال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 قال علي وابن مسعود سبيل الخير والشر وعن ابن عباس سبيل الهدى والضلال وقال مجاهد سبيل السعادة والشقاوة أي فطرناه على ذلك وعرفناه اياه والجميع واحد والنجدان الطريقان الواضحان والنجد المرتفع من الأرض فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطريقين العاليين والهدى والتبيين والتعريف في هذه الآية يشترك فيه بنو آدم ويعرفونه بعقولهم[1]

و قول مجاهد فى قوله { قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 هدى الإنسان للسعادة و الشقاوة يبين أن هذا عنده مما دخل فى قوله { قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 أي هدى السعداء إلى السعادة التى قدرها و هدى الأشقياء إلى الشقاء الذي قدره وهكذا قال مجاهد فى قوله {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}الإنسان3 قال السعادة و الشقاوة و قال عكرمة سبيل الهدى رواهما عبد بن حميد و كذلك روى إبن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 قال الشقاوة و السعادة و قد قال هو و جماهير السلف و {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 أي الخير والشر رواه إبن أبي حاتم عن إبن مسعود ثم قال و روي عن علي إبن أبى طالب و إبن عباس فى إحدى و شقيق بن سلمة و أبي صالح و مجاهد و الحسن و محمد بن كعب و عكرمة و شرحبيل بن سعيد و ابن سنان الرازي و الضحاك و عطاء الخراسانى و عمرو بن قيس الملائى نحو ذلك و روي عن محمد بن كعب القرظى قال الحق و الباطل و هذا كلام مجمل فيه ما هو متفق عليه و هو أنه يبين للناس ما أرسله من الرسل و نصبه من الدلائل و الآيات و أعطاهم من العقول طريق الخير و الشر كما في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ }فصلت17 و أما إدخال الهدى الذى هو الإلهام في ذلك بمعنى أنه هدى المؤمن إلى أن يؤمن و يعمل صالحا إلى أن يسعد بذلك و هدى الكافر إلى ما يعمله إلى أن يشقى بذلك فهذا منهم من يدخله فى الآية كمجاهد و غيره و يدخله فى قوله {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}الإنسان3 و عكرمة و غيره يخرجون ذلك عن معنى هذه الآية و إن كانوا مقرين بالقدر و من قال هدى بمعنى بين فقط فقد هدى كل عبد إلى نجد الخير و الشر جميعا أي بين له طريق الخير و الشر و من أدخل فى ذلك السعادة و الشقاوة يقول في هذا تقسيم أي هذه الهداية عامة مشتركة و خص المؤمن بهداية إلى نجد الخير و خص الكافر بهداية إلى نجد الشر و من لم يدخل ذلك فى الآية قد يحتجون بحديث من مراسيل الحسن قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يقول يا أيها الناس إنما هما النجدان نجد الخير و نجد الشر فما يجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ويحتجون بأن إلهام الفاجر طريق الفجور لم يسمه هدى بل سماه ضلالا و الله إمتن بأنه هدى و قد يجيب الآخر بأن يقول هو لا يدخل فى الهدى المطلق لكن يدخل في الهدى المقيد كقوله {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ }الصافات23 و كما في لفظ البشارة قال { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }آل عمران21 و لفظ الإيمان فقال { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء51 و هذان القولان فى قوله {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 قيل هو البيان العام و قيل بل ألهم الفاجر الفجور و التقي التقوى و هذا فى تلك الآية أظهر لأن الإلهام إستعماله مشهور فى إلهام القلوب لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة و قد علم النبى صلى الله عليه و سلم حصينا الخزاعى لما أسلم أن يقول اللهم ألهمني رشدي و قني شر نفسي و لو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلا للمسلم و الكافر[2]

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 580 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 21

[22] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:143- 145

كل مولود يولد على الفطرة

والله سبحانه قد تفضل على بنى آدم بأمرين هما أصل السعادة أحدهما أن كل مولود يولد على الفطرة كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو نصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }الروم30 قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }الروم30 وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه و سلم قال يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين و حرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالالهية محبة له تعبده لا تشرك به شيئا و لكن يفسدها ما يزين لها شياطين الانس و الجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ {172} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{173}الأعراف172 -173 وتفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع الثاني أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة و أسباب العلم و بما أنزل إليهم من الكتب و أرسل إليهم من الرسل قال تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 1-5 و قال تعالى {الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4} الرحمن1-4 وقال تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى1-3 و قال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق و محبته له وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى و الآخرة وجعل فى فطرته محبه لذلك لكن قد يعرض الانسان بجاهليته و غفلته عن طلب علم ما ينفعه [1]

فى كل و احد ما يقتضى معرفته بالحق و محبته له

أن الله تعالى هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم من العقل و بما أنزل إليهم من الكتب و أرسل إليهم من الرسل قال تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} العلق1 إلى قوله{ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 1-5 و قال تعالى { الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4} الرحمن 1-4 و قال تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى 1-3 و قال {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 ففي كل و احد ما يقتضي معرفته بالحق و محبته له و قد هداه الى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الآخرة و جعل فى فطرته محبة لذلك لذلك لكن قد يعرض الإنسان بجاهليته وغفلته عن طلب علم ما ينفعه وكونه لا يطلب ذلك ولا يريده أمر عدمي ولا يضاف إلى الله تعالى فلا يضاف إلى الله لا عدم علمه بالحق ولا عدم إرادته للخير

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:295- 297

لكن النفس من لوازمها الإرادة و الحركة فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها أن تحيا الحياة النافعة فتعبد الله و متى لم تحيى هذه الحياة كانت ميتة و كان مالها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها فلا هي حية متنعمة بالحياة و لا ميتة مستريحة من العذاب قال تعالى {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} الأعلى13 فالجزاء من جنس العمل لما كان فى الدنيا ليس بحي الحياة النافعة و لا ميتا عديم الإحساس كان في الآخرة كذلك و النفس إن علمت الحق و أرادته فذلك من تمام إنعام الله عليها و إلا فهى بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله و مرادات سيئة فهذا تركب من كونها لم تعرف الله و لم تعبده و هذا عدم [1]

لطائف لغوية

قال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} البلد10 قال على وإبن مسعود سبيل الخير والشر وعن إبن عباس سبيل الهدى والضلال وقال مجاهد سبيل السعادة والشقاوة أى فطرناه على ذلك وعرفناه إياه والجميع واحد والنجدان الطريقان الواضحان والنجد المرتفع من الأرض فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطريقين العاليين [2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 205-206 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 67

[2] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 580

سورة البلد11-20

{ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} فَكُّ رَقَبَةٍ{13} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16} ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ{20}

فكوا العانى

قال تعالى {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} فَكُّ رَقَبَةٍ{13} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16}البلد11 -16 قوله {فَكُّ}البلد13 فإن هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الإنسان يعنى إختياره و يقهر عليه إذا تخلص منه يقال إنفك منه كالأسير و الرقيق المقهور بالرق و الأسر يقال فككت الأسير فإنفك و فككت الرقبة قال تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} فَكُّ رَقَبَةٍ{13}البلد12-13 و قال النبى صلى الله عليه و سلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عودوا المريض و أطعموا الجائع و فكوا العانى و فى الصحيح أيضا أن عليا لما سئل عما في الصحيفة فقال فيها العقل و فكاك الأسير و أن لا يقتل مسلم بكافر ففكه فصله عمن يقهره و يستولى عليه بغير إختياره و التفريق بينهما [1]

الحقيقة العرفية والشرعية معلومة فى اللغة

قال { كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ }المائدة64 فهذا اللفظ اصله ان المحاربين يوقدون نارا يجتمع اليها اعوانهم وينصرون وليهم على عدوهم فلا تتم محاربتهم الا بها فاذا طفئت لم يجتمع امرهم ثم صار هذا كما تستعمل الامثال في كل محارب بطل كيده كما يقال يداك اوكتا و فوك نفخ ومعناه انت الجانى على نفسك وكما يقال الصيف ضيعت اللبن معناه فرطت وقت الامكان وهذه الالفاظ كان لها معنى خاص نقلت بعرف الاستعمال الى معنى اعم من ذلك وصار يفهم منها ذلك عند الاطلاق لغلبة الاستعمال ولا يفهم منها خصوص معناها الاول كسائر الالفاظ التى نقلها اهل العرف الى اعم من معناها مثل لفظ الرقبة والراس فى قوله { فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ }المجادلة3 { فَكُّ

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 494

رَقَبَةٍ}البلد13 وقد يقال ان هذا من باب دلالة اللزوم فان تحرير العنق يستلزم تحرير سائر البدن ولهذا تنازع الفقهاء اذا قال يدك حر ان دخلت الدار فقطعت يده ثم دخل الدار هل يعتق على وجهين بناء على انه من باب السراية او من باب العبادة والصحيح انه من باب العبادة ومعناه انت حر ان فعلت كذا والحقيقة العرفية والشرعية معلومة في اللغة [1]

الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب

قوله يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فإستطعمونى أطعمكم وكلكم عار إلا من كسوته فإستكسونى أكسكم فيقضتى أصلين عظيمين أحدهما وجوب التوكل على الله فى الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس وأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التى تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال { وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ }البقرة233 وقال {وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ }النساء5 فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} فَكُّ رَقَبَةٍ{13} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16}البلد11 -16 وقوله {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ }الحج36 وقوله { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ }الحج28 وقال {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ }يس47 فذم من يترك المأمور به إكتفاء بما يجرى به القدر ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافى وجوب التوكل على الله فى وجوب السبب بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب إذ ليس فى المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب ولهذا لا يجب أن تقترن الحوداث بما قد يجعل سببا إلا بمشيئة الله تعالى فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فمن ظن الإستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل وأخل بواجب التوحيد ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب فمن رجا نصرا أو رزقا من غير الله خذله الله كما قال على رضى الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وقد قال تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }فاطر2 وقال تعالى {وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ }يونس107 وقال { قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }الزمر38 وهذا كما أن من أخذ يدخل فى التوكل تاركا لما أمر به من الأسباب فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله بترك ما أمره فإن فعل المأمور به عبادة لله وقد قال تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وقال { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 وقال شعيب عليه السلام {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 وقال {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }الشورى10 وقال {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 20 ص:471- 472

وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا }الممتحنة4 فليس من فعل شيئا أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلا أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه وهما مع إشتراكهما فى جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل فى الحقيقة من جملة الأسباب وقد روى أبو داود فى سننه أن النبى قضى بين رجلين فقال المقضى عليه حسبى الله ونعم الوكيل فقال النبى إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى أنه قال المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير إحرص على ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان ففى قوله صلى الله عليه وسلم إحرص على ما ينفعك وإستعن بالله ولا تعجز أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الإستعانة بالله فمن إكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ونهى عن العجز الذى هو ضد الكيس كما قال فى الحديث الآخر إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس وكما فى الحديث الشامى الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من إتبع نفسه هواها وتمنى على الله فالعاجز فى الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز هو مقابل البر فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه ومنه الحديث كل شىء بقدر حتى العجز والكيس ومن ذلك ما روى البخارى فى صحيحه عن إبن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى { وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى }البقرة197فمن فعل ما أمر به من التزود فإستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجا كان مطيعا لله فى هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتا إلى ازواد الحجيج كلا على الناس وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون فى تركه لما أمر به من جنسن هذا التارك للتزود المأمور به وفى هذه النصوص بيان غلط طوائف تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصا او قدحا فى التوحيد والتوكل وإن تركه من كمال التوكل والتوحيد وهم فى ذلك ملبوس عليهم وقد يقترن بالغلط إتباع الهوى فى إخلاد النفس إلى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك فأما إن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو فى التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك كمن يصرف همته فى توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء أو نيل رزقه بلا سعى فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعى اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه فى عمل صالح أنفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذى قدره درهم أو نحوه وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصا وإنقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة وقد قال في الحديث كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستكسوني أكسكم وفي الطبراني أوغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع المخلوق والمأمور وإنما غلطوا من حيث ظنوا سبق التقدير يمنع أن يعون بالسبب المأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه فمن قدره الله من أهل السعادة كان مما قدره الله يتيسر لعمل أهل السعادة ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره أنه ييسره لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقة بن جعشم وغيرهم

ومنه حديث الترمذي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقي نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وطائفة تظن أن التوكل انما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل كذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ومن تركها بالكلية فهو إما كافر وإما منافق لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علما وعملا بأقل لوما من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة إن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها والأمور الظاهرة كما لها وفروعها التي لا تتم إلا بها [1]

أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه

اليتيم فى الآدميين من فقد أباه لأن أباه هو الذى يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق ولهذا كان تابعا فى الدين لوالده وكان نفقته عليه وحضانته عليه والانفاق هو الرزق و الحضانة هى النصر لأنها الايواء ودفع الأذى فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه لأن الانسان ظلوم جهول والمظلوم عاجز ضعيف فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضى ومن جهة ضعف المانع ويتولد عنه فسادان ضرر اليتيم الذى لا دافع عنه ولا يحسن اليه وفجور الآدمى الذى لا وازع له فلهذا أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه فى آيات كثيرة مثل قوله {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} فَكُّ رَقَبَةٍ{13} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16}البلد11 -16 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }البقرة83 وقوله {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ }البقرة177 الى قوله {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ }البقرة177 وقوله {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }البقرة215[2]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} فَكُّ رَقَبَةٍ{13} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16}البلد11 -16 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله { وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا

---

[11] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 426-430 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 179-183

[22] مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 110

الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}البقرة271 وقوله { فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ }المائدة89 والثانى كقوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ }التوبة60 [1]

المسكين الذى يجب أن يقدم فى العطاء

ففى الحديث الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافا فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فبين النبى صلى الله عليه وسلم أن الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينا وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء فانه مسكين قطعا وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله[2]

لا تتم رعاية الخلق وسياستهم إلا بالجود والنجدة

وولاة الأمور فان عليهم من الصبر والحلم ما ليس على غيرهم كما أن عليهم من الشجاعة والسماحة ما ليس على غيرهم لأن مصلحة الامارة لا تتم الا بذلك فكما وجب على الأئمة الصبر على أذى الرعية وظلمها إذا لم تتم المصلحة إلا بذلك اذ كان تركه يفضى الى فساد اكثر منه فكذلك يجب على الرعية الصبر على جور الائمة وظلمهم إذا لم يكن فى ترك الصبر مفسدة راجحة فعلى كل من الراعى والرعية للآخر حقوقا يجب عليه أداؤها كما ذكر بعضه فى كتاب الجهاد والقضاء وعليه أن يصبر للآخر ويحلم عنه فى أمور فلا بد من السماحة والصبر فى كل منهما كما قال تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }البلد17 وفى الحديث أفضل الايمان السماحة والصبر ومن اسماء الله الغفور الرحيم فبالحلم يعفو عن سيئاتهم وبالسماحة يوصل اليهم المنافع فيجمع جلب المنفعة ودفع المضرة فأما الامساك عن ظلمهم والعدل عليهم فوجوب ذلك أظهر من هذا فلا حاجة الى بيانه والله أعلم [3]

اشتباه الورع الفاسد بالجبن والبخل

وكثيرا ما يشتبه الورع الفاسد بالجبن والبخل فان كلاهما فيه ترك فيشتبه ترك الفساد لخشية الله تعالى بترك مايؤمر به من الجهاد والنفقة جبنا وبخلا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع قال الترمذى حديث صحيح وكذلك قد يترك الانسان العمل ظنا أو إظهارا أنه ورع وإنما هو كبر وإرادة للعلو وقول النبى إنما الأعمال بالنيات كلمة جامعة كاملة

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

[22] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 301

[33] مجموع الفتاوى ج: 28 ص:180- 181

فان النية للعمل كالروح للجسد وإلا فكل واحد من الساجد لله والساجد للشمس والقمر قد وضع جبهته على الأرض فصورتهما واحدة ثم هذا أقرب الخلق إلى الله تعالى وهذا أبعد الخلق عن الله وقد قال الله تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ{20}البلد17-20 وفى الأثر أفضل الايمان السماحة والصبر فلا تتم رعاية الخلق وسياستهم إلا بالجود الذى هو العطاء والنجدة التى هى الشجاعة بل لايصلح الدين والدنيا إلا بذلك ولهذا كان من لا يقوم بهما سلبه الأمر ونقله إلى غيره[1]

أفضل الايمان السماحة والصبر

فى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال للنبى ما الاسلام قال اطعام الطعام ولين الكلام قال فما الايمان قال السماحة والصبر فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة وكذلك لين الكلام وأما السماحة والصبر فخلقان فى النفس قال تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }البلد17 وهذا أعلى من ذاك وهو أن يكون صبارا شكورا فيه سماحة بالرحمة للانسان وصبر على المكاره وهذا ضد الذى خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا فان ذاك ليس فيه عند النعمة ولا صبر عند(ناقص ن م)[2]

والذنوب تنقص الإيمان فإذا تاب العبد أحبه الله وقد ترتفع درجته بالتوبة قال بعض السلف كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد ابن جبير إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينة ويعجب بها ويعمل السيئة فتكون نصب عينة فيستغفر الله ويتوب إليه منها وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الأعمال بالخواتيم والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبته تندفع عنه بعشرة أسباب أن يتوب فيتوب الله عليه فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له أو يستغفر فيغفر له أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيا وميتا أو يهدون له من ثواب أعمالهم لينفعه الله به أو يشفع فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أو يبتليه الله في الدنيا بمصائب تكفر عنه أو يبتليه في البرزخ والصعقة فيكفر بها عنه أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه أو يرحمه أرحم الراحمين فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فيما يروى عنه رسوله يا عبادي إنما هي أعمالكم احصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه فإن كان المؤمن يعلم أن القضاء خير إذا كان صابرا شكورا وكان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم له كان قد رضى بما هو خير له وفي الحديث الصحيح عن علي قال إن الله يقضي بالقضاء فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء وهذا اكمل من الرضا والصبر فلهذا ذكر في ذاك الرضا وفي هذا الصبر ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيرا له فكيف مع الرضا ولهذا جاء في الحديث المصاب

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 291 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 49

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 27

من حرم الثواب فالأثر الذي رواه الشافعي في مسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات سمعوا قائلا يقول يا آل بيت رسول الله إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب ولهذا لم نؤمر بالحزن المنافي للرضا قط مع أنه لا فائدة فيه فقد يكون مضرة لكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب وذلك لا ينافي الرضا يخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه وبهذا تعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت وقال إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء وأن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت وأن الفضيل بن عياض لما مات ابنه على فضحك وقال رأيت أن الله قضى فأحببت أن أرضى بما قضى الله به حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله كحال النبي صلى الله عليه وسلم فهذا أكمل قال تعالى البلد { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ{20}البلد17-20 فذكر سبحانه التواصي بالصبر والرحمة[1]

كلما قوى التوحيد فى قلب العبد قوى ايمانه وتوكله

والعبد اذا انعم الله عليه بالتوحيد فشهد ان لا اله الا الله مخلصا من قلبه والاله هو المعبود الذى يستحق غاية الحب والعبودية بالأجلال والاكرام والخوف والرجاء يفنى القلب بحب الله تعالى عن حب ما سواه ودعائه والتوكل عليه وسؤاله عما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه حلاه الله بالأمن والسرور والحبور والرحمة للخلق والجهاد فى سبيل الله فهو يجاهد ويرحم له الصبر والرحمة قال الله تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ{20}البلد17-20 وكلما قوى التوحيد فى قلب العبد قوى ايمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه[2]

اكثر ما يدخل الناس الجنة

قال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 فالغض من البصر وحفظ الفرج يتضمن البعد عن نجاسة الذنوب ويتضمن الأعمال الصالحة التى يزكو بها الإنسان وهو أزكى والزكاة تتضمن الطهارة فإن فيها معنى ترك السيئات ومعنى فعل الحسنات ولهذا تفسر تارة بالطهارة وتارة بالزيادة والنماء ومعناها يتضمن الأمرين وإن قرن الطهارة معها فى الذكر مثل قوله {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}التوبة103 فالصدقة توجب الطهارة من الذنوب وتوجب الزكاة التى هى العمل الصالح كما ان الغض من البصر وحفظ الفرج هو أزكى لهم وهما يكونان بإجتناب الذنوب وحفظ الجوارح ويكونان بالتوبة والصدقة التى هى الإحسان وهذان هما التقوى والإحسان و {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل128

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 58

[22] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 35

وقد روى الترمذى وصححه ان النبى سئل ما اكثر ما يدخل الناس النار فقال الأجوفان الفم والفرج وسئل عن اكثر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق فيدخل فى تقوى الله حفظ الفرج وغض البصر ويدخل فى حسن الخلق الإحسان إلى الخلق يكون عن الرحمة والله تعالى يقول {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }البلد17 بكونها زاكية[1]

الاشفاع التى فى القرآن

وقد ذكر الله سبحانه في البقرة و النساء الأقسام الأربعة فى العطاء إما أن لا يعطي فهو البخيل المذموم فى النساء أو يعطى مع الكراهة و المن و الأذى فلا يكون بتثبيت و هو المذموم فى البقرة أو مع الرياء فهو المذموم فى السورتين فبقي القسم الرابع ابتغاء رضوان الله و تثبيتا من أنفسهم

ونظيره الصلاة أما أن لايصلي أو يصلي رياء أو كسلان أو يصلي مخلصا و الأقسام الثلاثة الآول مذمومة وكذلك الزكاة و نظير ذلك الهجرة و الجهاد فإن الناس فيهما أربعة اقسام و كذلك { إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً }الأنفال45 فى الثبات و الذكر و كذلك { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ{20}البلد17-20 فى الصبر و المرحمة أربعة أقسام و كذلك {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ }البقرة45 فهم في الصبر و الصلاة فعامة هذه الاشفاع التى في القرآن إما عملان و إما وصفان فى عمل انقسم الناس فيها قسمة رباعية ثم ان كانا عملين منفصلين كالصلاة و الصبر و الصلاة و الزكاة و نحو ذلك نفع احدهما و لو ترك الآخر و ان كانا شرطين فى عمل كالاخلاص و التثبت لم ينفع احدهما فإن المن و الأذى محبط كما أن الرياء محبط كما دل عليه القرآن و من هذا تقوى الله و حسن الخلق ف {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل128 و البر و التقوى و الحق و الصبر و أفضل الإيمان السماحة و الصبر بخلاف الاشفاع في الذم كالافك و الاثم والاختيال و الفخر و الشح و الجبن و الاثم و العدوان فإن الذم ينال احدهما مفردا ومقرونا لأن الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته فقد لا تحصل المنفعة الا بتمامة و الشر يطلب عدمه لمضرته و بعض المضار يضر فى الجملة غالبا[2]

قرن بين الصبر والرحمة

وفى الصحيح عن النبى أنه كان يقول فى خطبه خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به اشبه كان إلى الكمال اقرب وهو به احق ومن كان عن ذلك ابعد وشبهه اضعف كان عن الكمال ابعد وبالباطل أحق والكامل هو من كان لله اطوع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص:387- 393

[2] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:95- 98

وعلى ما يصيبه اصبر فكلما كان اتبع لما يأمر الله به ورسوله واعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا فى غير موضع من كتابه وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين والمعاهدين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى{بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ }آل عمران125وقال أخوة يوسف له {قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف90 وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا فقال تعالى {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }يونس109 وفى اتباع ما اوحى اليه التقوى كلها تصديقا لخبر الله وطاعة لامره وقرن بين الرحمة والصبر فى مثل قوله تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ{20}البلد17-20 وفى الرحمة الاحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها فان القسمة ايضا رباعية اذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين مثل كثير من النساء ومن يشبههن ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع والمحمود هو الذى يصبر ويرحم كم قال الفقهاء فى صفة المتولى ينبغى ان يكون قويا من غير عنف لينا من غير ضعف فبصبره يقوى وبلينه يرحم وبالصبر ينصر العبد فان النصر مع الصبر وبالرحمة يرحمه الله تعالى كما قال النبى إنما يرحم الله من عباده الرحماء وقال من لم يرحم لا يرحم وقال لا تنزع الرحمة إلا من شقى الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء والله أعلم [1]

المؤمن المحمود

كما قال تعالى فيما يروى عنه رسول الله يا عبادى انما هى اعمالكم احصيها لكم ثم او فيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه فإذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له اذا كان صبارا شكورا او كان قد استخار الله وعلم ان من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له كان قد رضى بما هو خير له وفى الحديث الصحيح عن على رضى الله عنه قال ان الله يقضى بالقضاء فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ففى هذا الحديث الرضا والاستخارة فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء وهذا اكمل من الضراء والصبر فلهذا فى ذكر الرضا وفى هذا الصبر ثم اذا كان القضاء مع الصبر خيرا له فكيف مع الرضا ولهذا فى الحديث المصاب من حرم الثواب فى الاثر الذى رواه الشافعي فى مسنده أن النبى لما مات سمعوا قائلا يقول يا آل بيت رسول الله ان فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا واياه فارجوا فان المصاب من حرم الثواب ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافى للرضا قط مع انه لا فائدة فيه فقد يكون فيه مضرة لكنه عفى عنه اذا لم يقترن به ما يكرهه الله لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب وذلك لا ينافى الرضا بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه وبهذا يعرف معنى قول النبى لما بكى على الميت وقال إن هذه رحمة جعلها الله

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 677 ومجموع الفتاوى ج: 11 ص: 36 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 109-110

فى قلوب عبادة وانما يرحم الله من عباده الرحماء فان هذا ليس كبكاء من يبكى لحظه لا لرحمة الميت فان الفضيل بن عياض لما مات ابنه على فضحك وقال رأيت ان الله قد قضى فأحببت ان ارضى بما قضى الله به حاله حال حسن بالنسبة الى اهل الجزع واما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى كحال النبي فهذا اكمل كما قال تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ{20}البلد17-20 فذكر سبحانه التواصى بالصبر والمرحمة والناس أربعة اقسام منهم من يكون فيه صبر بقسوة ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع والمؤمن المحمود الذى يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس[1]

إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات

والحق المبين أن كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا كما امره ربه وهؤلاء هم عباد الله وهم المؤمنون والمسلمون وهم اولياء الله المتقون وحزب الله المفلحون وجند الله الغالبون وهم اهل العلم النافع والعمل الصالح وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها كملوا القوة النظرية العلمية والقوة الارادية العملية كما قال تعالى { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ{20}البلد17-20[2]

فبالصبر تترك الشهوات ففي الحديث المرسل عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات[3]

فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور وترك السيء المحظور ويدخل في ذلك الصبر على الاذى وعلى ما يقال والصبر على ما يصيبه من المكاره والصبر عن البطر عند النعم وغير ذلك من انواع الصبر ولا يمكن العبد ان يصبر ان لم يكن له ما يطمئن له ويتنعم به ويغتذى به وهو اليقين كما في الحديث الذي رواه ابو بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يا ايها الناس سلوا الله اليقين والعافية فانه لم يعط احد بعد اليقين خيرا من العافية فسلوهما الله وكذلك اذا امر غيره بحسن او احب موافقته له على ذلك او نهى غيره عن شيء فيحتاج ان يحسن الى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصود من حصول المحبوب واندفاع المكروه فإن النفوس لا تصبر على المر الا بنوع من الحلو لا يمكن غير ذلك ولهذا امر الله تعالى بتأليف القلوب حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيبا في الصدقات وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 46-47 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 58

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 97

[3] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 25

الْمَشْأَمَةِ{19} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ{20}البلد17-20 فلا بد ان يصبر وان يرحم وهذا هو الشجاعة والكرم[1]

لا تنزع الرحمة إلا من شقى

واما قول القائل الرحمة ضعف وخور فى الطبيعة وتألم على المرحوم فهذا باطل أما أولا فلأن الضعف والخور مذموم من الآدميين والرحمة ممدوحة وقد قال تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }البلد17 وقد نهى الله عباده عن الوهن والحزن فقال تعالى {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران139 وندبهم الى الرحمة وقال النبى فى الحديث الصحيح لا تنزع الا من شقى وقال من لا يرحم لا يرحم وقال الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ومحال ان يقول لا ينزع الضعف والخور الا من شقى ولكن لما كانت الرحمة تقارن فى حق كثير من الناس الضعف والخور كما فى رحمة النساء ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقا [2]

لطائف لغوية

1-قوله {فَكُّ}البلد13 فإن هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الإنسان يعنى إختياره و يقهر عليه إذا تخلص منه يقال إنفك منه كالأسير و الرقيق المقهور بالرق و الأسر يقال فككت الأسير فإنفك و فككت الرقبة قال تعالى {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} فَكُّ رَقَبَةٍ{13} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16}البلد11 -16 و قال النبى صلى الله عليه و سلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عودوا المريض و أطعموا الجائع و فكوا العانى و فى الصحيح أيضا أن عليا لما سئل عما في الصحيفة فقال فيها العقل و فكاك الأسير و أن لا يقتل مسلم بكافر ففكه فصله عمن يقهره و يستولى عليه بغير إختياره و التفريق بينهما [3]

2- قال تعالى {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }البلد17 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هى الجنة[4]

---

[1] الاستقامة ج: 2 ص: 261

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 117

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 494

[4] ب مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الشمس
91

رقية محمود الغرايبة

~§§ الشمس(مكية)15 §§~

سورة الشمس 1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4} وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8}

اقسامه الله سبحانه بمخلوقاته بخلاف المخلوق

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4} وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6}الشمس 1-6 والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1]

التقديم ليس لازما للفضل

أن الإبتداء قد يكون كثيرا بغير الافضل بل يبتدأ بالشىء لاسباب متعددة كما فى قوله تعالى {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ }التين1 {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4} وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6}الشمس 1-6 و {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ }الرحمن68 الى غير ذلك ولم يدل التقديم فى شىء من هذه المواضع على فضل المبدوء به فعلم أن التقديم ليس لازما للفضل [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 386

إثبات لفعل العبد و الوعد و الوعيد

فى قوله تعالى { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4}الشمس 1-4 و ضمير التأنيث فى { جَلَّاهَا} و{ يَغْشَاهَا} لم يتقدم ما يعود عليه إلا الشمس فيقتضي أن النهار يجلى الشمس و أن الليل يغشاها و التجلية الكشف و الإظهار و الغشيان التغطية و اللبس معلوم أن الليل و النهار ظرفا الزمان و الفعل إذا أضيف إلى الزمان فقيل هذا الزمان أو هذا اليوم يبرد أو يبرد أو ينبت الأرض و نحو ذلك فالمقصود أن ذلك يكون فيه كما يوصف الزمان بأنه عصيب و شديد و نحس و بارد و حار و طيب و مكروه و المراد و صف ما فيه فكون الشيء فاعلا و موصوفا هو بحسب ما يليق به كل شيء بحسبه فالنهار يجلى الشمس و الليل يغشاها و إن كان ظهور الشمس هو سبب النهار و مغيبها سبب الليل و قد ذكر ذلك بقوله {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} الشمس1 فأضاف الضحى إليها و الضحى يعم النهار كله كما قال {أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا{27} رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا{28} وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا{29}النازعات 27-29 و قال { وَالضُّحَى{1} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{2} الضحى 1-2 و قوله {وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8} الشمس5-8 فقد قيل إن ما مصدرية و التقدير و السماء و بناء الله إياها و الأرض و طحو الله إياها و نفس و تسوية الله إياها لابد من ذكر الفاعل فى الجملة لا يصلح أن يقدر المصدر هنا مضافا إلى الفعل فقط فيقال و بنائها لأن الفاعل مذكور في الجملة فى قوله و ما بناها و ما طحاها فإن الفعل لابد له من فاعل في الجملة و مفعول أيضا فلابد أن يكون في التقدير الفاعل و المفعول لكن إذا كانت مصدرية كانت ما حرفا ليس فيها ضمير فيكون ضمير الفاعل فى بناها عائدا على غير مذكور بل إلى معلوم و التقدير و السماء و ما بناها الله و هذا خلاف الأصل و خلاف الظاهر والقول الثاني أنها موصولة و التقدير الذي بناها و الذي طحاها و ما فيها عموم و إجمال يصلح لما لا يعلم و لصفات من يعلم كقوله تعالى { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3}الكافرون 2-3 و قوله { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء3 و هذا المعنى يجيء فى قوله{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3 و هذا المعني كما أنه ظاهر الكلام و أصله هو أكمل فى المعنى أيضا فإن القسم بالفاعل يتضمن الإقسام بفعله بخلاف الإقسام بمجرد الفعل و أيضا فالاقسام التى فى القرآن عامتها بالذوات الفاعلة و غير الفاعلة يقسم بنفس الفعل كقوله { وَالصَّافَّاتِ صَفّاً{1} فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً{2} فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً{3}الصافات 1-3 و كقوله {وَالنَّازِعَاتِ }النازعات1 {وَالْمُرْسَلَاتِ }المرسلات1 و نحو ذلك و هو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات و تارة بربها و خالقها كقوله {فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ }الذاريات23 و كقوله {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3 و تارة يقسم بها و بربها وفى هذه السورة أقسم بمخلوق و بفعله و أقسم بمخلوق دون فعله فاقسم بفاعله فإنه قال { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4}الشمس 1-4 فأقسم بالشمس و القمر و الليل و النهار و آثارها و أفعالها كما فرق بينهما في قوله {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ }فصلت37 و قال { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء33 فإنه بأفعال هذه الأمور و آثارها تقوم مصالح بني آدم و سائر الحيوان و قال { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا } الشمس 1 و لم يقل و نهارها و لا ضيائها لأن الضحى يدل على النور و الحرارة جميعا و بالأنوار و الحرارة تقوم مصالح العباد ثم أقسم بالسماء و الأرض و بالنفس و لم يذكر معها فعلا فذكر فاعلها فقال {وَمَا بَنَاهَا} { وَمَا طَحَاهَا} { وَمَا سَوَّاهَا} فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس لأنها تفعل البر و الفجور و هو سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته لكن ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله { وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8}الشمس 7-8 فإذا كان قد

بين أنه خالق فعل العبد الذي هو أظهر الأشياء فعلا و إختيارا و قدرة فلأن يكون خالق فعل الشمس و القمر و الليل و النهار بطريق الأولى و الأحرى و أما السماء و الأرض فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بها إلا ما يظهر من الشمس و القمر و الليل و النهار و السماء و الأرض أعظم من الشمس و القمر و الليل و النهار و النفس أشرف الحيوان المخلوق فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسبا و كان إقسامه بصانعها تنبيها على أنه صانع ما فيها من الشمس و القمر و الليل و النهار فتضمن الكلام الأقسام بصانع هذه المخلوقات و بأعيانها و ما فيها من الآثار و المنافع لبني آدم و ختم القسم بالنفس التى هي آخر المخلوقات فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات و بين أنه خالق جميع أفعالها و دل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها و هو سبحانه مع ما ذكر من عموم خلقه لجميع الموجودات على مراتبها حتى أفعال العبد المنقسمة إلى التقوى و الفجور و بين إنقسام الأفعال إلى الخير و الشر و إنقسام الفاعلين إلى مفلح و خائب سعيد و شقي و هذا يتضمن الأمر و النهي و الوعد و الوعيد فكان فى ذلك رد على القدرية المجوسية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه و إلهامه و على القدرية المشركية الذين يبطلون أمره و نهيه و وعده و وعيده إحتجاجا بقضائه و قدره و قد قيل فى قوله { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 إن الضمير عائد إلى الله أي قد أفلح من زكاها الله و قد خاب من دساها الله و هذا مخالف للظاهر بعيد عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن إذا كان الأحسن قد أفلحت من زكاها الله و قد خابت من دساها و هذا ضعيف و أيضا فقوله {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} الشمس 8 بيان للقدر فلا حاجة إلى ذكره مرة ثانية عقب ذلك فى مثل هذه السورة القصيرة و لهذا لم يذكر عن النبى صلى الله عليه و سلم فى إثبات القدر إلا هذه الآية دون الثانية كما فى صحيح مسلم عن أبى الأسود الدئلي قال قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشيء قضي عليهم و مضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم فقلت بل شيء قضى عليهم و مضى عليهم قال فقال أفلايكون ذلك ظلما قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا و قلت كل شيء خلق الله و ملك يده فلا يسأل عما يفعل و هم يسألون فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحرز عقلك فإن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشيء قضى عليهم و مضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم فقال لا بل شيء قضي عليهم و مضى فيهم و تصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8}الشمس 7-8 فبين النبى صلى الله عليه و سلم أن تصديق ما أخبر به من القضاء قوله {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} الشمس8 والذى فى الحديث هو القدر السابق من علم الله و كتابه و كلامه و هذا إنما تنكره غالية القدرية و أما الذي في القرآن فهو خلق الله أفعال العباد و هذا أبلغ فإن القدرية المجوسية تنكره فالذي فى القرآن يدل على ما في الحديث و زيادة و لهذا جعله النبى صلى الله عليه و سلم مصدقا له و ذلك من وجوه أحدها أنه إذا علم أن الله هو الملهم للفجور و التقوى و لم يكن في ذلك ظلم كما تقوله القدرية الإبليسية و لا مخالفة للأمر والنهي و الوعد و الوعيد كما تقوله القدرية المشركية ف الإقرار بأن الله كتب ذلك و قدره قبل وجوده مما لا نزاع فيه عند الإنسان من جهة القدر ولهذا قد أقر بالقدر السابق جمهور القدرية الذين ينكرون خلق الأفعال و لم يثبت أحد من القدرية أن الله خالق أفعال العباد و ينكره من جهة القدر أن الله خالق ذلك الوجه الثاني أنه إذا ثبت أن الله خالق فعل العبد وأنه الملهم الفجور و التقوى كان ذلك من جملة مصنوعاته و الشبهة التى عرضت للقدرية التى سأل المزنيان للنبى صلى الله عليه و سلم إنما هي فى أعمال العباد التى عليها الثواب والعقاب خاصة و لم ينكروا من جهة القدر أن الله

قدر ما يخلقه هو قبل وجوده و إنما أنكر من أنكر منهم إذا إشتبه أمر أفعال العباد و هؤلاء يقولون إن الله يقدر الأمور قبل وجودها إلا أفعال العباد والسعادة والشقاوة فإن ذلك لا ينبغي أن يعلمه حتى يكون لأن أمر الأمير بما يعلم أن المكلف لا يطيعه فيه بل يكون ضررا عليه مستقبح عندهم و قد حكى طوائف من المصنفين فى أصول الفقه و غيرهم الخلاف فى ذلك عن المعتزلة و قالوا يجوز أن الله يأمر العبد بما يعلم أنه لا يفعله خلافا للمعتزلة لأن فى جنس المعتزلة من يخالف فى ذلك و أكثرهم لا يخالف فى ذلك و إنما يخالف فيه طائفة منهم فإذا كان القرآن قد أثبت أنه الملهم للنفس فجورها و تقواها كان ذلك من جملة مفعولاته فلا تبقى شبهة القدرية أنه قدر ذلك قبل وجوده كما لا شبهة عندهم فى تقديره لما يخلقه من الأعيان و الصفات وأما من أنكر تقديره العلم من منكرة الصفات أو بعضها فأولئك لهم مأخذ آخر ليس مأخذهم أمر الصفات الوجه الثالث أنه قد كان ألهم الفجور و التقوى و هو خالق فعل العبد فلابد أن يعلم ما خلقه قبل أن يخلقه كما قال {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ }الملك14 لأن الفاعل المختار يريد ما يفعله و الإرادة مستلزمة لتصور المراد وذلك هو العلم بالمراد المفعول و إذا كان خلقه للشيء مستلزما لعلمه به فذلك أصل القدر السابق و ما علمه الله سبحانه بقوله و بكتبه فلا نزاع فيه و هذا بين في جميع الأشياء في هذا و غيره فإنه سبحانه إذا ألهم الفجور والتقوى فالملهم أن لم يميز بين الفجور و التقوى و يعلم أن هذا الفعل الذي يريد أن يفعله هذا فجور و الذي يريد أن يفعله هذا تقوى لم يصح منه إلهام الفجور و التقوى فظهر بهذا حسن ما ذكره النبى صلى الله عليه و سلم من تصديق الآية لما أخبر به النبى صلى الله عليه و سلم من القدر السابق و قوله سبحانه {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 كما يدل على القدر فيدل على الشرع فإنه لو قال فألهمها أفعالها كما يقول الناس خالق أفعال العباد لم يكن في ذلك تمييز بين الخير و الشر و المحبوب و المكروه و المأمور به و المنهي عنه بل كان فيه حجة للمشركين من المباحية و الجبرية الذين يدفعون الأمر و النهي و الحسن و القبح فإنه خلق أفعال العباد فلما قال{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 كان الكلام تفريقا بين الحسن المأمور به و القبيح المنهي عنه و أن الأفعال منقسمة إلى حسن و سيء مع كونه تعالى خالق الصنفين وهذه طريقة القرآن فى غير موضع يذكر المؤمن و الكافر و أفعالهما الحسنة و السيئة و و عده و وعيده و يذكر أنه خالق الصنفين كقوله {يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ}النحل93 و نحو ذلك و هذا الأصل ضلت فيه الجبرية و القدرية فإن القدرية المجوسية قالوا إن الأفعال تنقسم إلى حسن و قبيح لصفات قائمة بها و العبد هو المحدث لها بدون قدرة الله و بدون خلقه فقالت الجبرية بل العبد مجبور على فعله و الجبر حق يوجب وجود أفعاله عند وجود الأسباب التى يخلقها الله وإمتناع وجودها عند عدم شيء من الأسباب و إذا كان مجبورا يمتنع أن يكون الفعل حسنا أو قبيحا لمعنى يقوم به و هذه طريقة أبي عبدالله الرازي و نحوه من الجبرية النافين لإنقسام الفعل فى نفسه إلى حسن و قبيح و الأولى طريقة أبى الحسين البصري و نحوه من القدرية القائلين بأن فعل العبد لم يحدثه إلا هو و العلم بذلك ضروري أو نظري و أن الفعل ينقسم فى نفسه إلى حسن و قبيح و العلم بذلك ضروري و أبو الحسين إمام المتأخرين من المعتزلة وله من العقل و الفضل ما ليس لأكثر نظرائه لكن هو قليل المعرفة بالسنن ومعانى القرآن و طريقة السلف و هو و أبو عبدالله الرازي في هذا الباب فى طرفي نقيض و مع كل منهما من الحق ما ليس مع الآخر فأبو الحسين يدعى أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضرورى و الرازى يدعى أن العلم بأن إفتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده و يمتنع عند عدمه ضرورى كذلك بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضرورى ثم يعتقد كل فريق أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة و ليس الأمر كذلك بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضرورى و مصيب فى ذلك و إنما و قع

غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثا لفعله و كون هذا الإحداث ممكن الوجود بمشيئة الله تعالى و لهذا كان مذهب أهل السنة المحضة أن العبد فاعل لفعله حقيقة كما ادعاه أبو الحسين من الضرورة لا يقولون ليس بفاعل حقيقة أو ليس بفاعل كما يقوله المائلون إلى الجبر مثل طائفة أبى عبدالله الرازى يقولون مع ذلك إن الله هو الخالق لهذا الفاعل و لفعله و هو الذى جعله فاعلا حقيقة و هو خالق أفعال العباد كما يقوله أهل الإثبات من الأشعرية طائفة الرازى و غيرهم لا كما يقوله القدرية مثل أبى الحسين و طائفته إن الله لم يخلق أفعال العباد و لهذا نص الأئمة كالإمام أحمد و من قبله من الأئمة كالأوزاعى و غيره على إنكار إطلاق القول بالجبر نفيا و إثباتا فلا يقال ان الله جبر العباد و لا يقال لم يجبرهم فإن لفظ الجبر فيه إشتراك و إجمال فإذا قيل جبرهم أشعر بأن الله يجبرهم على فعل الخير و الشر بغير إختيارهم و إذا قيل لم يجبرهم أشعر بأنهم يفعلون ما يشاؤون بغير إختياره و كلاهما خطأ و قد بسطنا القول فى هذا فى غير هذا الموضع و المقصود هنا أن هذين الفريقين إعتقدوا تنافى القدر و الشرع كما إعتقد ذلك المجوس و المشركون فقالوا إذا كان خالقا للفعل إمتنع أن يكون الفعل فى نفسه حسنا له ثواب أو قبيحا عليه عقاب ثم قالت القدرية لكن الفعل منقسم فليس خالقا للفعل و قالت الجبرية لكنه خالق فليس الفعل منقسما ولكن الجبرية المقرون بالرسل يقرون بالإنقسام من جهة أمر الشارع و نهيه فقط و يقولون له أن يأمر بما شاء لا لمعنى فيه و ينهي عما يشاء لا لأجل معنى فيه و يقولون فى خلقه و في أمره جميعا يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و أما من غلب عليه رأي أو هوى فإنه ينحل عن ربقة الشارع إذا عاين الجبر و يقولون ما يقوله المشركون { لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام148 و من أقر بالشرع و الأمر و النهي و الحسن و القبح دون القدر و خلق الأفعال كما عليه المعتزلة فهو من القدرية المجوسية الذين شابهوا المجوس و للمعتزلة من مشابهة المجوس و اليهود نصيب وافر و من أقر بالقضاء و القدر و خلق الأفعال و عموم الربوبية و أنكر المعروف و المنكر و الهدى و الضلال و الحسنات و السيئات ففيه شبه من المشركين و الصابئة و كان الجهم بن صفوان و من إتبعه كذلك لما ناظر أهل الهند كما كان المعتزلة كذلك لما ناظروا المجوس الفرس و المجوس أرجح من المشركين فإن من أنكر الأمر و النهي أو لم يقر بذلك فهو مشرك صريح كافر أكفر من اليهود و النصارى و المجوس كما يوجد ذلك فى كثير من المتكلمة و المتصوفة أهل الاباحة و نحوهم و لهذا لم يظهر هؤلاء و نحوهم فى عصر الصحابة و التابعين لقرب عهدهم بالنبوة و إنما ظهر أولئك القدرية المجوسية لأن مذهبهم فيه تعظيم للأمر و النهي و الثواب و العقاب فهم أقرب إلى الكتاب و السنة و الرسول و الدين من هؤلاء المعطلة للأمر و النهي فإن هؤلاء من شر الخلق و أما القدرية الإبليسية فهم الذين يقرون بوجود الأمر و النهي من الله و يقرون مع ذلك بوجود القضاء و القدر منه لكن يقولون هذا فيه جهل و ظلم فإنه بتناقضه يكون جهلا و سفها و بما فيه من عقوبة العبد بما خلق فيه يكون ظلما وهذا حال إبليس فإنه {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }الحجر39 فأقر بأن الله أغواه ثم جعل ذلك عنده داعيا يقتضي أن يغوى هو ذرية آدم و إبليس هو أول من عادى الله و طغى فى خلقه و أمره وعارض النص بالقياس و لهذا يقول بعض السلف أول من قاس إبليس فإن الله أمره بالسجود لآدم فاعترض على هذا الأمر بأنى خير منه و إمتنع من السجود فهو أول من عادى الله و هو الجاهل الظالم الجاهل بما فى أمر الله من الحكمة الظالم بإستكباره الذي جمع فيه بين بطر الحق و غمط الناس ثم قوله لربه فبما أغويتني لأفعلن جعل فعل الله الذي هو إغواؤه له حجة له و داعيا إلى أن يغوى إبن آدم و هذا طعن منه في فعل الله و أمره و زعم منه أنه قبيح فأنا أفعل القبيح أيضا فقاس نفسه على ربه و مثل نفسه بربه و لهذا كان مضاهيا للربوبية كما ثبت فى صحيح

مسلم عن جابر عن النبى صلى الله عليه و سلم إن إبليس ينصب عرشه على البحر ثم يبعث سراياه فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة فيجيء الرجل فيقول ما زلت به حتى فعل كذا ثم يجيء لآخر فيقول ما زلت به حتى فرقت بينه و بين زوجته فيلتزمه و يدنيه منه و يقول أنت أنت والقدرية قصدوا تنزيه الله عن السفه و أحسنوا فى هذا القصد فإنه سبحانه مقدس عما يقول الظالمون من إبليس و جنوده علوا كبيرا حكم عدل لكن ضاق ذرعهم و حصل عندهم نوع جهل إعتقدوا معه أن هذا التنزيه لا يتم إلا بأن يسلبوه قدرته على أفعال العباد و خلقه لها و شمول إرادته لكل شيء فناظروا إبليس و حزبه فى شيء و استحوذ عليهم إبليس من ناحية أخرى و هذا من أعظم آفات الجدال في الدين بغير علم أو بغير الحق و هو الكلام الذي ذمه السلف فإن صاحبه يرد باطلا بباطل و بدعة ببدعة فجاء طوائف ممن ناظرهم من أهل الإثبات ليقرروا أن الله خالق كل شيء ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و أنه على كل شيء قدير فضاق ذرعهم و علمهم و اعتقدوا أن هذا لا يتم إن لم تنكر محبة الله و رضاه و ما خص به بعض الأفعال دون بعض من الصفات الحسنة و السيئة و تنكر حكمته و رحمته فيجوز عليه كل فعل لا ينزه عن ظلم و لا غيره من الأفعال و زاد قوم في ذلك حتى عطلوا الأمر و النهي و الوعد و الوعيد رأسا و مال هؤلاء إلى الارجاء كما مال الأولون إلى الوعيد فقالت الوعيدية كل فاسق خالد فى النار لا يخرج منها أبدا و قالت الخوارج هو كافر و غالية المرجئة أنكرت عقاب أحد من أهل القبلة و من صرح بالكفر أنكر الوعيد فى الآخرة رأسا كما يفعله طوائف من الإتحادية و المتفلسفة و القرامطة و الباطنية و كان هؤلاء الجبرية أكفر بالأمر و النهي و الوعد و الوعيد من المعتزلة الوعيدية القدرية و أما مقتصدة المرجئة الجبرية الذين يقرون بالأمر و النهي و الوعد و الوعيد و أن من أهل القبلة من يدخل النار فهؤلاء أقرب الناس إلى أهل السنة و قد روى الترمذى عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لعنت القدرية و المرجئة على لسان سبعين نبيا أنا آخرهم لكن المعتزلة من القدرية أصلح من الجبرية و المرجئة و نحوهم فى الشريعة علمها و عملها فكلامهم في أصول الفقه و في إتباع الأمر و النهي خير من كلام المرجئة من الأشعرية و غيرهم فإن كلام هؤلاء فى أصول الفقه قاصر جدا و كذلك هم مقصرون فى تعظيم الطاعات و المعاصي و لكن هم في أصول الدين أصلح من أولئك فإنهم يؤمنون من صفات الله و قدرته و خلقه بما لايؤمن به أولئك و هذا الصنف أعلى فلهذا كانت المرجئة فى الجملة خيرا من القدرية حتى إن الارجاء دخل فيه الفقهاء من أهل الكوفة و غيرهم بخلاف الإعتزال فإنه ليس فيه أحد من فقهاء السلف و أئمتهم فإذا كان الضلال فى القدر حصل تارة بالتكذيب بالقدر و الخلق و تارة بالتكذيب بالشرع و الوعيد و تارة بتظليم الرب كان فى هذه السورة ردا على هذه الطوائف كلها فقوله تعالى{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 إثبات للقدر بقوله{فَأَلْهَمَهَا }الشمس8 و إثبات لفعل العبد بإضافة الفجور و التقوى إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة و المتقية و إثبات للتفريق بين الحسن و القبيح و الأمر و النهي بقوله {فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 و قوله بعد ذلك { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس 8-9 إثبات لفعل العبد و الوعد و الوعيد بفلاح من زكى نفسه و خيبة من دساها و هذا صريح فى الرد على القدرية المجوسية و على الجبرية للشرع أو لفعل العبد و هم المكذبون بالحق و أما المظلمون للخالق فإنه قد دل على عدله بقوله{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا }الشمس 7 و التسوية التعديل فبين أنه عادل فى تسوية النفس التى ألهمها فجورها و تقواها و ذكر بعد ذلك عقوبة من كذب رسله و طغى و أنه لا يخاف عاقبة إنتقامه ممن خالف رسله ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا فإن الله ينتقم منه و لا يخاف عاقبة إنتقامه كما إنتقم من إبليس و جنوده و أن تظلمه من ربه و تسفيهه له إنما يهلك به نفسه و لن يضر الله شيئا فان العباد لن يبلغوا ضر الله فيضروه و لن يبلغوا نفعه فينفعوه و لو أن أولهم و آخرهم و إنسهم و جنهم كانوا على أتقى قلب رجل

منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئا و لو أن أولهم و آخرهم و إنسهم و جنهم كانوا على أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئا و لهذا لما سأل عمران بن حصين أبا الأسود الدئلي عن ذلك ليحرز عقله هل يكون ذلك ظلما فذكر أن ذلك ليس منه ظلما و خاف من قوله سبحانه و تعالى عما يقولون علوا كبيرا و ذكر حديث النبى صلى الله عليه و سلم و إستشهاده بهذه الآية و قد تبين أن القدرية الخائضين بالباطل إما أن يكونوا مكذبين لما أخبر به الرب من خلقه أو أمره و إما أن يكونوا مظلمين له فى حكمه و هو سبحانه الصادق العدل كما قال تعالى{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ }الأنعام115 فإن الكلام إما إنشاء و إما إخبار فالإخبار صدق لا كذب و الإنشاء أمر التكوين و أمر التشريع عدل لا ظلم و القدرية المجوسية كذبوا بما أخبر به عن خلقه و شرعه من أمر الدين و الإبليسية جعلوه ظالما فى مجموعهما أو فى كل منهما و قد ظهر بذلك أن المفترقين المختلفين من الأمة إنما ذلك بتركهم بعض الحق الذي بعث الله به نبيه و أخذهم باطلا يخالفه و إشتراكهم فى باطل يخالف ما جاء به الرسول و هو من جنس مخالفة الكفار للمؤمنين كما قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}البقرة253 إلى قوله { وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }البقرة253 فإذا إشتركواً في باطل خالفوا به المؤمنين المتبعين للرسل نسوا حظا مما ذكروا به فألقى بينهم العداوة و البغضاء و إختلفوا فيما بينهم فى حق آخر جاء به الرسول فآمن هؤلاء ببعضه و كفروا ببعضه و الآخرون يؤمنون بما كفر به هؤلاء و يكفرون بما يؤمن به هؤلاء و هنا كلا الطائفتين المختلفتين المفترقتين مذمومة و هذا شأن عامة الإفتراق و الإختلاف فى هذه الأمة و غيرها و هذا من ذلك فإنهم إشتركوا فى أن كون الرب خالقا لفعل العبد ينافى كون فعله منقسما إلى حسن و قبيح و هذه المقدمة إشتركوا فيها جدلا من غير أن تكون حقا فى نفسها أو عليها حجة مستقيمة وهي إحدى المقدمتين التى يعتمدها الرازي فى مسألة التحسين و التقبيح فإنه إعتقد فى محصوله و غيره على أن العبد مجبور على فعله و المجبور لا يكون فعله قبيحا فلا يكون شيء من أفعال العباد قبيحا و هذه الحجة بنفي ذلك أصلها حجة المشركين المكذبين للرسل الذين قالوا {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ}الأنعام148 فإنهم نفوا قبح الشرك و تحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات بإثبات القدر لكن هؤلاء الذين يحتجون بالجبر على نفي الأحكام إذا أقروا بالشرع لم يكونوا مثل المشركين من كل و جه و لهذا لم يكن المتكلمون المقرون بالشريعة كالمشركين و إن كان فيهم جزء من باطل المشركين لكن يوجد فى المتكلمين و المتصوفة طوائف يغلب عليهم الجبر حتى يكفروا حينئذ بالأمر و النهي و الوعد و الوعيد و الثواب و العقاب إما قولا و إما حالا و عملا و أكثر ما يقع ذلك فى الأفعال التى توافق أهواءهم يطلبون بذلك إسقاط اللوم و العقاب عنهم و لا يزيدهم ذلك إلا ذما و عقابا كالمستجير من الرمضاء بالنار فإن هذا القول لا يطرد العمل به لأحد إذ لا غنى لبني آدم بعضهم من بعض من إرادة شيء و الأمر به و بغض شيء و النهي عنه فمن طلب أن يسوى بين المحبوب و المكروه و المرضى و المسخوط و العدل و الظلم و العلم و الجهل و الضلال و الهدى و الرشد و الغي فإنه لا يستمر على ذلك أبدا بل إذا حصل له ما يكرهه و يؤذيه فر إلى دفع ذلك و عقوبة فاعله بما قدر عليه حتى يعتدي فى ذلك فهم من أظلم الخلق فى تفريقهم بين القبيح من الظلم و الفواحش منهم و من غيرهم و ممن يهوونه و من لا يهوونه و إحتجاجهم بالقدر لأنفسهم دون خصومهم و تجد أحدهم عند فعل ما يحمد عليه يغلب على قلبه حال أهل القدر فيجعل نفسه هو المحدث لذلك دون الله و ينسى نعمة الله عليه فى إلهامه إياه تقواه و هذا من أظلم الخلق كما قال أبو الفرج ابن الجوزي أنت عند الطاعة قدرى و عند المعصية جبرى أي مذهب وافق هواك تمذهبت به وأهل العدل ضد ذلك إذا فعلوا حسنة شكروا الله عليها لعلمهم بأن الله هو الذي حبب إليهم الإيمان و زينه فى قلوبهم و أنه هو

الذي كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }آل عمران135 فاتبعوا أباهم حيث أذنب {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }البقرة37 و قال {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }الأعراف23 و يقول أحدهم أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى كما قال النبى صلى الله عليه و سلم سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتنى و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما إستطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على و أبوء بذنبى فإغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت و كما فى الحديث الصحيح أيضا إن الله تعالى يقول يا عبادي إنما هي أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله و من وجد شرا فلا يلومن إلا نفسه و يقولون بموجب قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 قال إبن القيم رحمه الله ذكر سبحانه في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة فقال شيخ الإسلام أبو العباس تقى الدين ابن تيمية هذا و الله أعلم من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى فإنه لم يكن فى الأمم المكذبة أخف ذنبا و عذابا منهم إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد و مدين و قوم لوط و غيرهم و لهذا لما ذكرهم و عادا قال {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ }فصلت15 {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 و كذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر و التكبر و الأعمال السيئة كاللواط و بخس المكيال و الميزان و الفساد فى الأرض كما فى سورة هود و الشعراء و غيرهما فكان فى قوم لوط مع الشرك إتيان الفواحش التى لم يسبقوا إليها و فى عاد مع الشرك التجبر و التكبر و التوسع فى الدنيا و شدة البطش و قولهم {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً }فصلت15 و فى أصحاب مدين مع الشرك الظلم في الأموال و فى قوم فرعون الفساد فى الأرض و العلو و كان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم و جرائمهم فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التى لا يقوم لها شيء و عذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم فجمع لهم بين الهلاك و الرجم بالحجارة من السماء و طمس الأبصار و قلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها و الخسف بهم إلى أسفل سافلين و عذب قوم شعيب بالنار التى أحرقتهم و أحرقت تلك الأموال التى إكتسبوها بالظلم و العدوان و أما ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا فى الحال فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء و ذنبهم مع الشرك عقر الناقة التى جعلها الله آية لهم فمن انتهك محارم الله و استخف بأوامره و نواهيه و عقر عباده و سفك دماءهم كان أشد عذابا و من اعتبر أحوال العالم قديما و حديثا و ما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد و سفك الدماء بغير حق و أقام الفتن و إستهان بحرمات الله علم أن النجاة فى الدنيا و الآخرة للذين آمنوا و كانوا يتقون[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 226-250

الرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها

جاءت الكتب الإلهية بخطاب الناس بالمعقولات الصحيحة الفطرية فإن الرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة وتحويلها والنفس إنما تنال كمالها بسعادتها ونجاتها بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة ولهذا حيث ذكر الله في كتابه شيئا من هذه الأسماء التي تدل على الفعل لم يعقل العقلاء من ذلك إلا أنه محدث كقوله تعالى {وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا }الشمس5 إلى أمثال ذلك من الخطاب الذي قد علم بالإضطرار معناه وأن بناءها أمر حادث كان بعد أن لم يكن[1]

الإلهام المحمود والوسوسة المذمومة

وإذا كان ما يوحيه الى عباده تارة يكون بوساطة ملك وتارة بغير وساطة فهذا للمؤمنين كلهم مطلقا لا يختص به الأنبياء قال تعالى {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ }القصص7 و قال تعالى {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ }المائدة111و إذا كان قد قال {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ }النحل68 الآية فذكر أنه يوحي إليهم فالى الإنسان أولى و قال تعالى { وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا}فصلت12 و قد قال تعالى {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8}الشمس7-8 فهو سبحانه يلهم الفجور و التقوى للنفس و الفجور يكون بواسطة الشيطان و هو إلهام و سواس و التقوى بواسطة ملك و هو إلهام و حي هذا أمر بالفجور و هذا أمر بالتقوي و الأمر لابد أن يقترن به خبر و قد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أطلق لا يراد به الوسوسة و هذه الآية مما تدل على أنه يفرق بين إلهام الوحي و بين الوسوسة فالمأمور به أن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي و إن كان من الفجور فهو من و سوسة الشيطان فيكون الفرق بين الإلهام المحمود و بين الوسوسة المذمومة هو الكتاب و السنة فإن كان مما ألقي في النفس مما دل الكتاب و السنة على أنه تقوى لله فهو من الإلهام المحمود و إن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس المذموم و هذا الفرق مطرد لا ينتقض [2]

فإن ما يلقيه الله فى قلوب المؤمنين من الالهامات الصادقة العادلة هي من وحي الله وكذلك ما يريهم إياه فى المنام قال عبادة بن الصامت رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى منامه وقال عمر اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنهم يتجلى لهم أمور صادقه وقد قال تعالى {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي }المائدة111 {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى }القصص7 { وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا }يوسف15 وقال {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 على قول الأكثرين وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها والتقية تقواها فالالهام عنده هو البيان بالادلة السمعية والعقلية وأهل السنة يقولون كلا النوعين من الله هذا الهدى المشترك وذلك الهدى المختص وإن كان قد سماه إلهاما كما سماه هدى كما فى قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 وكذلك قد قيل فى قوله {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 أي بيناه له طريق الخير والشر وهو هدى البيان العام المشترك وقيل هدينا المؤمن لطريق الخير والكافر لطريق الشر فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى كما جعل أولئك البيان إلهاما وكذلك قوله {إِنَّا

---

[1] الصفدية ج: 2 ص: 159

[2] مجموع الفتاوى ج: 17 ص:528- 529

هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً }الإنسان3 قيل هو الهدى المشترك وهو أنه بين له الطريق التى يجب سلوكها والطريق التى لا يجب سلوكها وقيل بل هدى كلا من الطائفتين إلى ما سلكه من السبيل إما شاكرا وإما كفورا لكن تسمية هذا هدى قد يعتذر عنه بأنه هدى مقيد لا مطلق كما قال {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }الانشقاق24 وكما قال { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ }النساء51 وأنه { يَقُولُ الْحَقَّ}الأحزاب4 و { يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ }النحل90 فهو موافق لقوله وأمره لعلمه وحكمه كما أن القرآن وسائر كلامه كذلك وبإعتبار أنه أنعم على العبد بواسطة جنده بالملائكة ويقال لضد هذا وهو الخطأ هذا من الشيطان والنفس لأن الله لا يقوله ولا يأمر به ولأنه إنما ينكته في قلب الإنسان الشيطان ونفسه تقبله من الشيطان فإنه يزين لها الشيء فتطيعه فيه وليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد ولكن يفوته به نوع من الحسنات كالنسيان فإنه من الشيطان والاحتلام من الشيطان والنعاس عند الذكر والصلاة من الشيطان والصعق عند الذكر من الشيطان ولا إثم على العبد فيما غلب عليه إذا لم يكن ذلك بقصد منه أو بذنب [1]

السعادة بالأعمال الصالحة والشقاوة بالفجور

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الأسود الدئلي قال قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشئ قضى عليهم و مضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم فقلت بل شئ قضى عليهم و مضى عليهم قال فقال أفلا يكون ظلما قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا و قلت كل شئ خلق الله و ملك يده فلا يسأل عما يفعل و هم يسألون فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ص فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشئ قضى عليهم و مضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون منه مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم قال لا بل شئ قضى عليهم و مضى فيهم و تصديق ذلك في كتاب الله { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8}الشمس 8-7 وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام و جرت به المقادير أم فيما يستقبل قال لا بل فيما جفت به الأقلام و جرت به المقادير قال ففيم العمل فقال اعملوا فكل ميسر و فى لفظ كل عامل ميسر لعمله وفي السنن عن ابن أبي خزامة عن أبيه قال قلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا قال هي من قدر الله فهذه السنن وغيرها تبين أن الله سبحانه وإن كان قد تقدم علمه وكتابيه وكلامه بما سيكون من السعادة والشقاوة فمما قدره أن يكون ذلك بالأسباب التي قدرها فالسعادة بالأعمال الصالحة والشقاوة بالفجور وكذلك الشفاء الذي يقدره للمريض يقدره بالأدوية والرقى وكذلك سائر ما يقدر من أمر الدنيا والآخرة[2]

المسببات والأسباب مقدر معلوم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 98-100

[2] الاستقامة ج: 1 ص: 174-175

فاما قول القائل ان قوم قد خصوا بالسعادة و قوم قد خصوا بالشقاوة و السعيد لا يشقى و الشقي لا يسعد و فى الأعمال لا تراد لذاتها بل لجلب السعادة ودفع الشقاوة و قد سبقنا و جود الأعمال فلا وجه لإتعاب النفس فى عمل ولا كفها عن ملذوذ قال المكتوب فى القدم واقع لامحالة فهذه المسألة قد أجاب فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم فى غير حديث ففي الصحيحين عن عمران بن حصين قال قيل يا رسول الله اعلم أهل الجنة من أهل النار قال نعم قيل ففيم يعمل العاملون قال كل ميسر لما خلق له و فى رواية البخاري قلت يارسول الله كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له رواه مسلم فى صحيحه عن أبى الأسود الدؤلي قال قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشيء قضي عليهم و مضى عليهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم فقلت بل شيء قضى عليهم و مضى عليهم قال فقال أفلا يكون ذلك ظلما قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا و قلت كل شيء خلق الله و ملك يده فلا يسأل عما يفعل و هم يسألون فقال يرحمك الله أني لم أراد بما سألتك إلا لأجود عقلك أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالا يارسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشيء قضى عليهم و مضى فيهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم فقال لا بل شيء قضى عليهم و مضى فيهم و تصديق ذلك في كتاب الله { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8} الشمس 7-8 وروى مسلم فى صحيحه عن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال يارسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام و جرت به المقادير أم فيما يستقبل قال لا بل فيما جفت به الأقلام و جرت به المقادير قال ففيم العمل قال زهير ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه فسألت عما قال فقال إعملوا فكل ميسر و في لفظ آخر فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم كل عامل ميسر بعمله وفى الصحيحين عن علي بن أبى طالب رضي الله عنه قال كنا في جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقعد و قعدنا حواله و معه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا و قد كتب الله مكانها من الجنة و النار إلا و قد كتبت شقية أو سعيدة فقال رجل يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا و ندع العمل من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل أهل السعادة و من كان من أهل الشقاوة فسيصير الى عمل أهل الشقاوة فقال إعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة و أما أهل الشقاوة فسييسرون الى عمل أهل الشقاوة ثم قرأ { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} الليل 5-10 و فى رواية البخاري أفلا نتكل على كتابنا و ندع العمل فمن كان من أهل السعادة سيصير الى عمل أهل السعادة و من كان من أهل الشقاوة سيصيرالى عمل أهل الشقاوة و قال أما عمل أهل السعادة الحديث وفى رواية فى الصحيحين عن علي قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم و فى يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال ما منكم من نفس إلا و قد علم منزلها من الجنة و النار فقالوا يا رسول الله فلم نعمل أولا نتكل قال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} الليل 5-6 الى قوله { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} الليل 10 فقد أخبر النبى صلى الله عليه و سلم فى هذه الأحاديث و غيرها بما دل عليه القرآن أيضا من أن الله سبحانه و تعالى تقدم علمه و كتابه و قضاؤه بما سيصير إليه العباد من السعادة و الشقاوة كما تقدم علمه و كتابه بغير ذلك من أحوال العباد و غيرهم كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله و اجله و

رزقه و شقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها و إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بيها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها و فى الصحيحين عن أنس بن مالك و رفع الحديث قال إن الله و كل بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد أن يقضي خلقه قال الملك أي رب ذكر أو أنثى شقي أو سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب ذلك في بطن أمه وهذا المعنى فى صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري أيضا والنصوص و الآثار فى تقدم علم الله و كتابته و قضائه و تقديره الأشياء قبل خلقها و أنواعها كثيرة جدا وقد بين النبى صلى الله عليه و سلم أن ذلك لا ينافى و جود الأعمال التى بها تكون السعادة و الشقاوة و إن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة و قد نهي أن يتكل الإنسان على القدر السابق و يدع العمل و لهذا كان من إتكل على القدر السابق و ترك ما أمر به من الأعمال هو من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا و كان تركهم لما يجب عليهم من العمل من جملة المقدور الذي يسروا به لعمل أهل الشقاوة فإن أهل السعادة هم الذين يفعلون المأمور و يتركون المحظور فمن ترك العمل الواجب الذي أمر به و فعل المحظور متكلا على القدر كان من جملة أهل الشقاوة الميسرين لعمل أهل الشقاوة وهذا الجواب الذي أجاب به النبى صلى الله عليه و سلم فى غاية السداد و الإستقامة وهو نظير ما أجاب به فى الحديث الذي رواه الترمذي أنه قيل يارسول الله أريت أدوية نتداوى بها و رقى نسترقي بها و تقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وذلك لأن الله سبحانه و تعالى هو يعلم الأشياء على ما هي عليه و كذلك يكتبها فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل و غيره و قضى أنها تكون كذلك و قدر ذلك لم يجز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التى جعلها الله أسبابا و هذا عام فى جميع الحوادث مثال ذلك إذا علم الله و كتب أنه سيولد لهذين ولد و جعل الله سبحانه ذلك معلقا بإجتماع الأبوين على النكاح و إنزال الماء المهين الذي ينعقد منه الولد فلا يجوز أن يكون وجود الولد بدون السبب الذي علق به وجود الولد و الأسباب و إن كانت نوعين معتادة و غريبة فالمعتادة كولادة الآدمى من أبوين و الغريبة كولادة الإنسان من أم فقط كما ولد عيس أو من أب فقط كما ولدت حواء أو من غير أبوين كما خلق آدم أبو البشر من طين فجميع الأسباب قد تقدم علم الله بها و كتابته لها و تقديره إياها و قضاؤه بها كما تقدم ربط ذلك بالمسببات كذلك أيضا الأسباب التى بها يخلق النبات من إنزال المطر و غيره من هذا الباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ }البقرة164 وقال { فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ }الأعراف57 و قال { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ }الأنبياء30 و أمثال ذلك فجميع ذلك مقدر معلوم مقضى مكتوب قبل تكوينه فمن ظن أن الشىء إذا علم و كتب أنه يكفى ذلك فى و جوده و لا يحتاج إلى ما به يكون من الفاعل الذي يفعله و سائر الأسباب فهو جاهل ضال ضلالا مبينا من و جهين أحدهما من جهة كونه جعل العلم جهلا فإن العلم يطابق المعلوم و يتعلق به على ما هو عليه و هو سبحانه قد علم أن المكونات تكون بما يخلقه من الأسباب لأن ذلك هو الواقع فمن قال أنه يعلم شيئا بدون الأسباب فقد قال على الله الباطل و هو بمنزلة من قال أن الله يعلم أن هذا الولد و لد بلا أبوين و أن هذا النبات نبت بلا ماء فإن تعلق العلم بالماضي و المستقبل سواء فكما أن من أخبر عن الماضي بعلم الله بوقوعه بدون الأسباب يكون مبطلا فكذلك من أخبر عن المستقبل كقول القائل إن الله علم أنه خلق آدم من غير طين و علم أنه يتناسل الناس من غير تناكح و أنه أنبت الزروع من غير ماء ولا تراب فهو باطل ظاهر بطلانه لكل أحد و كذلك إخباره عن المستقبل و كذلك الأعمال

هي سبب فى الثواب و العقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب و أنه قدر ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة و إنه علم ذلك كان هذا كذبا و بهتانا بخلاف ما إذا قال {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ }البقرة37 {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ }طه121 فإنه يكون صادقا فى ذلك و الله سبحانه علم مايكون من آدم قبل أن يكون و هو عالم به بعد أن كان و كذلك كل ما أخبربه من قصص الأنبياء فإنه علم أنه أهلك نوح وعاد وثمود وفرعون و لوط و مدين و غيرهم بذنوبهم و أنه نجى الأنبياء و من إتبعهم بإيمانهم و تقواهم كما قال {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }الأعراف165 و قال {فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }العنكبوت40 الآية و قال { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ }الأنعام146 و قال { فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ }غافر21 و قال {فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ }الأنعام6 و قال {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {52} وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ{53}النمل52 و قال {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ }هود102 و قال {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف56 و قال {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً }الإسراء3 و قال { إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ {34} نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ{35}القمر34 و قال {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ }الأعراف137و أمثال ذلك فى القرآن كثير و كذلك خبره عما يكون من السعادة و الشقاوة بالأعمال كقوله {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ }الحاقة24 و قوله تعالى {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }الزخرف72 و قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ }الطور21 و قو له{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ }المؤمنون111 و قو له {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً }الإنسان12 الآيات و قو له {هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }المطففين36 و قو له { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48}المدثر 42-48 و أمثال هذا فى القرآن كثير جدا بين سبحانه فيما يذكره من سعادة الآخرة و شقاوتها أن ذلك كان بالأعمال المأمور بها و المنهي عنها كما يذكر نحو ذلك فيما يقضيه من العقوبات و المثوبات فى الدنيا أيضا و الوجة الثاني أن العلم بأن الشيء سيكون و الخبر عنه بذلك و كتابة ذلك لا يوجب إستغناء ذلك عما به يكون من الأسباب التى لا يتم إلا بها كالفاعل و قدرته و مشيئته فإن إعتقاد هذا غاية فى الجهل إذ هذا العلم ليس موجبا بنفسه لوجود المعلوم بإتفاق العلماء بل هو مطابق له على ما هو عليه لا يكسبه صفة و لا يكتسب منه صفة بمنزلة علمنا بالأمور التى قبلنا كالموجودات التى كانت قبل و جودنا مثل علمنا بالله و أسمائه و صفاته فإن هذا العلم ليس مؤثرا فى و جود المعلوم بإتفاق العلماء و إن كان من علومنا ما يكون له تأثير فى و جود المعلوم كعلمنا بما يدعونا الى الفعل و يعرفنا صفته و قدره فإن الأفعال الإختيارية لاتصدر إلا ممن له شعور و علم إذ الإرادة مشروطة بوجود العلم و هذا التفصيل الموجود فى علمنا بحيث ينقسم إلى علم فعلي له تأثير فى المعلوم و علم إنفعالي لا تأثير له فى و جود المعلوم هو فصل الخطاب في العلم فإن من الناس من يقول العلم صفة إنفعالية لا تأثير له فى المعلوم كما يقوله طوائف من أهل الكلام و منهم من يقول بل هو صفة فعلية له تأثير فى المعلوم كما يقوله طوائف من أهل الفلسفة

و الكلام والصواب أنه نوعان كما بيناه و هكذا علم الرب تبارك و تعالى فإن علمه بنفسه سبحانه لا تأثير له فى و جود المعلوم و أما علمه بمخلوقاته التى خلقها بمشيئته و إرادته فهو مما له تأثير فى و جود معلوماته و القول في الكلام و الكتاب كالقول في العلم فإنه سبحانه و تعالى إذا خلق الشيءخلقه بعلمه و قدرته و مشيئته و لذلك كان الخلق مستلزما للعلم و دليلا عليه كما قال تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك14 و أما إذا أخبر بما سيكون قبل أن يكون فعلمه و خبره حينئذ ليس هو المؤثر فى وجوده لعلمه وخبره به بعد وجوده لثلاثة أوجه أحدها أن العلم و الخبر عن المستقبل كالعلم و الخبر عن الماضي الثانى أن العلم المؤثر هو المستلزم للإرادة المستلزمة للخلق ليس هو ما يستلزم الخبر و قد بينا الفرق بين العلم العملي و العلم الخبري الثالث أنه لو قدر أن العلم و الخبر بما سيكون له تأثير فى و جود المعلوم المخبر به فلا ريب أنه لا بد مع ذلك من القدرة و المشيئة فلا يكون مجرد العلم موجبا له بدون القدرة و الإرادة فتبين أن العلم و الخبر و الكتاب لا يوجب الإكتفاء بذلك عن الفاعل القادر المريد مما يدل على ذلك أن الله سبحانه و تعالى يعلم و يخبر بما سيكون من مفعولات الرب كما يعلم أنه سيقيم القيامة و يخبر بذلك و مع ذلك فمعلوم أن هذا العلم و الخبر لا يوجب و قوع المعلوم المخبر به بدون الأسباب التى جعلها الله أسبابا له إذا تبين ذلك فقول السائل السعيد لايشقى و الشقي لايسعد كلام صحيح أى من قدر الله أن يكون سعيدا يكون سعيدا لكن بالأعمال التى جعله يسعد بها و الشقي لا يكون شقيا إلا بالأعمال التى جعله يشقى بها التى من جملتها الإتكال على القدر و ترك الأعمال الواجبة وأما قوله و الأعمال لاتراد لذاتها بل لجلب السعادة و دفع الشقاوة و قد سبقنا و جود الأعمال فيقال له السابق نفس السعادة و الشقاوة أو تقدير السعادة و الشقاوة علما و قضاء و كتابا هذا موضع يشتبه و يغلط فيه كثير من الناس حيث لا يميزون بين ثبوت الشيء فى العلم و التقدير و بين ثبوته فى الوجود و التحقيق فإن الأول هو العلم به و الخبر عنه و كتابته و ليس شيء من ذلك داخلا فى ذاته و لا فى صفاته القائمة به ولهذا يغلط كثيرمن الناس فى قول النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح الذى رواه ميسرة قال قلت يارسول الله متى كنت نبيا و فى رواية متى كتبت نبيا قال و آدم بين الروح و الجسد فيظنون أن ذاته و نبوته و جدت حينئذ و هذا جهل فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره و قد قال له { بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ }يوسف3 و قال {وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى }الضحى7 و في الصحيحين أن الملك قال له حين جاءه إقرأ فقال لست بقارئ ثلاث مرات ومن قال أن النبى صلى الله عليه و سلم كان نبيا قبل أن يوحى إليه فهو كافر بإتفاق المسلمين و إنما المعنى أن الله كتب نبوته فأظهرها و أعلنها بعد خلق جسد آدم و قبل نفخ الروح فيه كما أخبر أنه يكتب رزق المولود و أجله و عمله و شقاوته وسعادته بعد خلق جسده و قبل نفخ الروح فيه كما فى حديث العرباض بن سارية الذي رواه أحمد و غيره عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إني عبد الله و خاتم النبيين و فى رواية أني عبد الله لمكتوب خاتم النبيين و أن آدم لمجندل فى طينته و سأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم و بشرى عيس و رؤيا أمي رأت حين و لدتني أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكثير من الجهال المصنفين و غيرهم يرويه كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين و آدم لا ماء و لا طين و يجعلون ذلك و جوده بعينه و آدم لم يكن بين الماء و الطين بل الماء بعض الطين لا مقابله و إذا كان كذلك فإن قال السابق نفس السعادة و الشقاوة فقد كذب فإن السعادة إنما تكون بعد و جود الشخص الذي هو السعيد و كذلك الشقاوة لا تكون إلا بعد و جود الشقى كما أن العمل و الرزق لا يكون إلا بعد و جود العامل و لا يصير رزقا إلا بعد و جود المرتزق و إنما السابق هو العلم بذلك و تقديره لانفسه و عينه و إذا كان كذلك فالعمل أيضا سابق كسبق السعادة و الشقاوة و كلاهما معلوم مقدر و هما متأخران فى الوجود و

الله سبحانه علم و قدر أن هذا يعمل كذا فيسعد به و هذا يعمل كذا فيشقى به و هو يعلم أن هذا العمل الصالح يجلب السعادة كما يعلم سائر الأسباب و المسببات كما يعلم أن هذا يأكل السم فيموت و أن هذا يأكل الطعام فيشبع و يشرب الشراب فيروى و ظهر فساد قول السائل فلا و جه لإتعاب النفس فى عمل و لا لكفها عن ملذوذات و المكتوب فى القدم و أقع لامحالة و ذلك أن المكتوب فى القدم هو سعادة السعيد لما يسر له من العمل الصالح و شقاوة الشقي لما يسر له من العمل السيء ليس المكتوب أحدهما دون الآخر فما أمر به العبد من عمل فيه تعب أو إمتناع عن شهوة هو من الأسباب التى تنال بها السعادة والمقدر المكتوب هو السعادة و العمل الذي به ينال السعادة و إذا ترك العبد ما أمر به متكلا على الكتاب كان ذلك من المكتوب المقدور الذي يصير به شقيا و كان قوله ذلك بمنزلة من يقول أنا لا آكل و لا أشرب فإن كان الله قضى بالشبع و الري حصل و إلا لم يحصل أو يقول لا أجامع إمرأتى فإن كان الله قضى لي بولد فأنه يكون و كذلك من غلط فترك الدعاء أو ترك الإستعانة و التوكل ظانا أن ذلك من مقامات الخاصة ناظرا الى القدر فكل هؤلاء جاهلون ضالون و يشهد لهذا ما رواه مسلم في صحيحه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف و فى كل خير و احرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره بالحرص على ما ينفعه و الإستعانه بالله و نهاه عن العجز الذي هو الإتكال على القدر ثم أمره إذا أصابه شيء أن لا ييأس على ما فاته بل ينظر إلى القدر و يسلم الأمر لله فإنه هنا لا يقدر على غير ذلك كما قال بعض العقلاء الأمور أمران أمر فيه حيلة و أمر لاحيلة فيه فما فيه حيلة لا يعجز عنه و ما لا حيلة فيه لا يجزع منه و فى سنن أبى داود أن رجلين إختصما إلى النبى صلى الله عليه و سلم فقضى على أحدهما فقال المقضي عليه حسبنا الله و نعم الوكيل فقال النبى صلى الله عليه و سلم إن الله يلوم على العجز و لكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله و نعم الوكيل و فى الحديث الآخر الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و العاجز من إتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأمانى رواه إبن ماجه و الترمذى و قال حديث حسن و عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و العاجز من إتبع نفسه هواها و تمنى على الله عز وجل و من الناس من يصحفه فيقول الفاجر و إنما هو العاجز فى مقابلة الكيس كما فى الحديث الآخر كل شيء بقدر حتى العجز و الكيس

وهنا سؤال يعرض لكثير من الناس و هو أنه إذا كان المكتوب و اقعا لا محالة فلو لم يأت العبد بالعمل هل كان المكتوب يتغير و هذا السؤال يقال فى مسألة المقتول يقال لو لم يقتل هل كان يموت و نحو ذلك فيقال هذا لو لم يعمل عملا صالحا لما كان سعيدا و لو لم يعمل عملا سيئا لما كان شقيا و هذا كما يقال إن الله يعلم ما كان و ما يكون و ما لايكون لو كان كيف كان يكون فإن هذا من باب العلم و الخبر بما لا يكون لو كان كيف يكون كقوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }الأنبياء22 و قوله {ب وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ }الأنعام28 و قوله {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً }التوبة47 و قوله {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ }الأنفال23 و أمثال ذلك كما روى أنه يقال للعبد فى قبره حين يفتح له باب إلى الجنة و إلى النار و يقال هذا منزلك و لو عملت كذا وكذا أبدلك الله به منزلا آخر و كذلك يقال هذا لو لم يقتله هذا لم يمت بل كان يعيش إلا أن يقدر له سبب آخر يموت به و اللآزم فى هذه الجملة خلاف الواقع المعلوم و المقدور و التقدير للممتنع قد يلزمه حكم ممتنع و لا محذور فى ذلك و مما يشبه هذه المسألة أن النبى صلى الله عليه و سلم خرج يوم بدر فأخبر أصحابه بمصارع المشركين فقال هذا مصرع فلان و هذا مصرع فلان ثم أنه دخل العريش جعل يجتهد فى الدعاء و يقول اللهم أنجز لي ما و عدتني و ذلك لأن علمه بالنصر لايمنع

أن يفعل السبب الذي به ينصر و هو الإستغاثة بالله و قد غلط بعض الناس هنا و ظن أن الدعاء الذي علم و قوع مضمونه كالدعاء الذي فى آخر سورة البقرة لا يشرع إلا عبادة محضة و هذا كقول بعضهم إن الدعاء ليس هو إلا عبادة محضة لأن المقدور كائن دعا أو لم يدع فيقال له إذا كان الله قد جعل الدعاء سببا لنيل المطلوب المقدر فكيف يقع بدون الدعاء و هو نظير قولهم أفلا ندع العمل و نتكل على الكتاب ومما يوضح ذلك أن الله قد علم و كتب أنه يخلق الخلق و يرزقهم و يميتهم و يحييهم فهل يجوز أن يظن أن تقدم العلم و الكتاب معن لهذه الكائنات عن خلقه و قدرته و مشيئته فكذلك علم الله بما يكون من أفعال العباد و أنهم يسعدون بها و يشقون كما يعلم مثلا أن الرجل يمرض أو يموت بأكله السم أو جرحه نفسه و نحو ذلك و هذا الذي ذكرناه مذهب سلف الأمة و أئمتها وجمهور الطوائف من أهل الفقه و الحديث و التصوف و الكلام و غيرهم و إنما نازع فى ذلك غلاة القدرية و ظنوا أن تقدم العلم يمنع الأمر و النهي و صاورا فريقين فريق أقروا بالأمر و النهي و الثواب و العقاب و أنكروا أن يتقدم بذلك قضاء و قدر و كتاب و هؤلاء نبغوا فى أواخر عصر الصحابة فلما سمع الصحابة بدعم تبرؤا منهم كما تبرؤا منهم و رد عليهم عبد الله بن عمر و و عبد الله بن عباس و جابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع و غيرهم و قد نص الأئمة كمالك و الشافعي و أحمد على كفر هؤلاء الذين ينكرون علم الله القديم و الفريق الثانى من يقر بتقدم علم الله و كتابه لكن يزعم أن ذلك يغني عن الأمر و النهي و العمل و أنه لايحتاج إلى العمل بل من قضى له بالسعادة دخل الجنة بلا عمل أصلا و من قضى عليه بالشقاوة شقى بلا عمل فهؤلاء ليسوا طائفة معدودة من طوائف أهل المقالات و إنما يقوله كثير من جهال الناس و هؤلاء أكفر من أولئك و أضل سبيلا و مضمون قول هؤلاء تعطيل الأمر و النهي و الحلال و الحرام و الوعد و الوعيد وهؤلاء أكفر من اليهود و النصارى بكثير و هؤلاء هم الذين سأل السائل عن مقالتهم وأما جمهور القدرية فهم يقرون بالعلم و الكتاب المتقدم لكن ينكرون أن الله خلق أفعال العباد و أرادة الكائنات و تعارضهم القدرية المجبرة الذين يقولون ليس للعبد قدرة و لا إرادة حقيقية و لا هو فاعل حقيقة و كل هؤلاء مبتدعة ضلال و شر من هؤلاء من يجعل خلق الأفعال و إرادة الله الكائنات مانعة من الأمر و النهي كالمشركين الذين قالوا {س لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام148 فهؤلاء أكفر من اليهود و النصارى و مضمون قولهم تعطيل جميع ما جاءت به الرسل كلهم من الأمر و النهي ثم قولهم متناقض معلوم الفساد بالضرورة لا يمكن أن يحيى معه بنو آدم لإستلزامه فساد العباد فإنه إذا لم يكن على العباد أمر و نهي كان لكل أحد أن يفعل ما يهواه كما قال تعالى {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ }المؤمنون71 فإذا قيل أنه يمكن كل أحد مما يهواه من قتل النفوس و فعل الفواحش و أخذ الأموال و غير ذلك كان ذلك غاية الفساد و لهذا لا تعيش أمة من نبى آدم إلا بنوع من الشريعة التى فيها أمر و نهي و لو كانت بوضع بعض الملوك مع ما فيها من فساد من و جوه أخرى [1]

إرادة النفس من جملة مخلوقات الله تعالى

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 272-289

و النفس بطبعها تحركة فإنها حية و الحركة الإرادية من لوازم الحياة و لهذا أصدق الأسماء الحارث و الهمام و فى الحديث مثل القلب مثل ريشة ملقاة إلخ و فيه القلب أشد تقلبا من القدر إذا إستجمعت غليانا فإذا كان كذلك فإن هداها الله علمها ما ينفعها و ما يضرها فأرادت ما ينفعها و تركت مايضرها و الله سبحانه تفضل على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة أحدهما أن كل مولود يولد على الفطرة كما فى الصحيحين و لمسلم عن عياض بن حمار مرفوعا إنى خلقت عبادى حنفاء الحديث فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت محبة لله تعبده لا تشرك به شيئا و لكن يفسدها من يزين لها من شياطين الإنس و الجن قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا }الأعراف172 الآية و تفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع الثانى أن الله تعالى هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم من العقل و بما أنزل إليهم من الكتب و أرسل إليهم من الرسل قال تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} العلق1 إلى قوله{ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 1-5 و قال تعالى { الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4} الرحمن 1-4 و قال تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الاعلى 1-3 و قال {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 ففي كل و احد ما يقتضي معرفته بالحق و محبته له و قد هداه الى أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الآخرة و جعل فى فطرته محبة لذلك لكن قد يعرض الإنسان عن طلب علم ما ينفعه و ذلك الاعراض أمر عدمي لكن النفس من لوازمها الإرادة و الحركة فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها أن تحيا الحياة النافعة فتعبد الله و متى لم تحيى هذه الحياة كانت ميتة و كان مالها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها فلا هي حية متنعمة بالحياة و لا ميتة مستريحة من العذاب قال تعالى {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى }الأعلى13 فالجزاء من جنس العمل لما كان فى الدنيا ليس بحي الحياة النافعة و لا ميتا عديم الإحساس كان في الآخرة كذلك و النفس إن علمت الحق و أرادته فذلك من تمام إنعام الله عليها و إلا فهى بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله و مرادات سيئة فهذا تركب من كونها لم تعرف الله و لم تعبده و هذا عدم والقدرية يعترفون بهذا و بأن الله خلق الإنسان مريدا لكن يجعلونه مريدا بالقوة و القبول أي قابلا لأن يريد هذا و هذا و أما كونه مريدا لهذا المعين و هذا المعين فهذا عندهم ليس مخلوقا لله و غلطوا بل الله خالق هذا كله و هو الذي ألهم النفس فجورها و تقواها و كان صلى الله عليه و سلم يقول اللهم آت نفسي تقواها إلخ و الله سبحانه جعل إبراهيم و أهل بيته أئمة يدعون بأمره و جعل آل فرعون أئمة يدعون إلى النار و لكن هذا إلى هذا إلى الله لوجهين من جهة علته الغائية و من جهة سببه أما العلة الغائية فإنه أنما خلقه لحكمة هو بإعتبارها خير و إن كان شرا إضافيا فإذا أضيف مفردا توهم المتوهم مذهب جهم بن صفوان أن الله خلق الشر المحض الذي لا خير فيه لأحد لا لحكمة و لا لرحمة و الكتاب و السنة و الإعتبار يبطل هذا كما إذا قيل محمد و أمته يسفكون الدماء و يفسدون في الأرض كان هذا هذا ذما لهم و كان باطلا و إذا قيل يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا و يقتلون من منعهم من ذلك كان هذا مدحا لهم و كان حقا فإذا قيل أن الرب تعالى حكيم رحيم أحسن كل شيء خلقه و هو أرحم الراحمين و الخير بيديه و الشر ليس إليه لا يفعل إلا خيرا و ما خلقه من ألم لبعض الحيوان و من أعماله المذمومة فله فيه حكمة عظيمة و نعمة جسيمة كان هذا حقا و هو مدح للرب وأما إذا قيل يخلق الشر الذي لاخير فيه و لا منفعة لأحد و لا له فيه حكمه و لا رحمة و يعذب الناس بلا ذنب لم يكن مدحا له بل العكس و قد بينا

بعض ما فى خلق جهنم و إبليس و السيئات من الحكمة و الرحمة و ما لم نعلم أعظم و الله سبحانه و تعالى يستحق الحمد و الحب و الرضا لذاته و لإ حسانه هذا حمد شكر و ذاك حمد مطلقا [1]

الهدى المطلق والهدى المقيد

و قول مجاهد فى قوله { قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 هدى الإنسان للسعادة و الشقاوة يبين أن هذا عنده مما دخل فى قوله { قَدَّرَ فَهَدَى }الأعلى3 أي هدى السعداء إلى السعادة التى قدرها و هدى الأشقياء إلى الشقاء الذي قدره وهكذا قال مجاهد فى قوله {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}الإنسان3 قال السعادة و الشقاوة و قال عكرمة سبيل الهدى رواهما عبد بن حميد و كذلك روى إبن أبي حاتم عن مجاهد فى قوله {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 قال الشقاوة و السعادة و قد قال هو و جماهير السلف و {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 أي الخير والشر رواه إبن أبي حاتم عن إبن مسعود ثم قال و روي عن علي إبن أبى طالب و إبن عباس فى إحدى و شقيق بن سلمة و أبي صالح و مجاهد و الحسن و محمد بن كعب و عكرمة و شرحبيل بن سعيد و ابن سنان الرازي و الضحاك و عطاء الخراسانى و عمرو بن قيس الملائى نحو ذلك و روي عن محمد بن كعب القرظى قال الحق و الباطل و هذا كلام مجمل فيه ما هو متفق عليه و هو أنه يبين للناس ما أرسله من الرسل و نصبه من الدلائل و الآيات و أعطاهم من العقول طريق الخير و الشر كما في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ }فصلت17 و أما إدخال الهدى الذى هو الإلهام في ذلك بمعنى أنه هدى المؤمن إلى أن يؤمن و يعمل صالحا إلى أن يسعد بذلك و هدى الكافر إلى ما يعمله إلى أن يشقى بذلك فهذا منهم من يدخله فى الآية كمجاهد و غيره و يدخله فى قوله {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}الإنسان3 و عكرمة و غيره يخرجون ذلك عن معنى هذه الآية و إن كانوا مقرين بالقدر و من قال هدى بمعنى بين فقط فقد هدى كل عبد إلى نجد الخير و الشر جميعا أي بين له طريق الخير و الشر و من أدخل فى ذلك السعادة و الشقاوة يقول في هذا تقسيم أي هذه الهداية عامة مشتركة و خص المؤمن بهداية إلى نجد الخير و خص الكافر بهداية إلى نجد الشر و من لم يدخل ذلك فى الآية قد يحتجون بحديث من مراسيل الحسن قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يقول يا أيها الناس إنما هما النجدان نجد الخير و نجد الشر فما يجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ويحتجون بأن إلهام الفاجر طريق الفجور لم يسمه هدى بل سماه ضلالا و الله إمتن بأنه هدى و قد يجيب الآخر بأن يقول هو لا يدخل فى الهدى المطلق لكن يدخل في الهدى المقيد كقوله {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ }الصافات23 و كما في لفظ البشارة قال { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }آل عمران21 و لفظ الإيمان فقال { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء51 و هذان القولان فى قوله {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }الشمس8 قيل هو البيان العام و قيل بل ألهم الفاجر الفجور و التقي التقوى و هذا فى تلك الآية أظهر لأن الإلهام إستعماله مشهور فى إلهام القلوب لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة و قد علم النبى صلى الله عليه و سلم حصينا الخزاعى لما أسلم أن يقول اللهم ألهمني رشدي و قني شر نفسي و لو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلا للمسلم و الكافر [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 205-207 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 68

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 145

إلهام النفس الفجور والتقوى وقع بحكمة بالغة

والذي يجب على العبد أن يعلم أن علم الله و قدرته و حكمته و رحمته فى غاية الكمال الذي لا يتصور زيادة عليها بل كلما أمكن من الكمال الذي لا نقص فيه فهو و اجب للرب تعالى و قد يعلم بعض العباد بعض حكمته و قد يخفى عليهم منها ما يخفى و الناس يتفاضلون فى العلم بحكمته و رحمته و عدله و كلما إزداد العبد علما بحقائق الأمور إزداد علما بحكمة الله و عدله و رحمته و قدرته و علم أن الله منعم عليه بالحسنات عملها و ثوابها و أن ما يصيبه من عقوبات ذنوبه فبعدل الله تعالى و أن نفس صدور الذنوب منه و إن كان من جملة مقدورات الرب فهو لنقص نفسه و عجزها و جهلها الذي هو من لوازمها و أن ما فى نفسه من الحسنات فهو من فعل الله و إحسانه و جوده و أن الرب مع أنه قد خلق النفس و سواها و ألهما فجورها و تقواها فإلهام الفجور و التقوى وقع بحكمة بالغة لو إجتمع الأولون و الآخرون من عقلاء الآدميين على أن يروا حكمة أبلغ منها لم يروا حكمة أبلغ منها لكن تفصيل حكمة الرب مما يعجز كثير من الناس عن معرفتها و منها ما يعجز عن معرفته جميع الخلق حتى الملائكة و لهذا قالت الملائكة لما قال الله تعالى لهم {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء }البقرة30 قال { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }البقرة30 فتكفيهم المعرفة المجملة و الإيمان العام والله سبحانه قد أمرهم أن يطلبوا منه جميع ما يحتاجون إليه من هدى و رشاد و صلاح فى المعاش و المعاد و مغفرة و رحمة و كان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى الحديث الصحيح اللهم إني أسالك الهدى و التقى و العفة و الغنى و يقول اللهم آت نفسي تقواها و زكها أنت خير من زكاها أنت و ليها و مولاها و يقول اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري و أصلح لي دنياي التى فيها معاشي و اصلح لي آخرتى التى فيها معادي و اجعل الحياة زيادة لي فى كل خير و اجعل الموت راحة لي من كل شر و كل هذا فى الأحاديث التى في الصحيح وفى صحيح مسلم أنه كان يقول إذا قام من الليل اللهم رب جبريل و ميكائيل و إسرافيل فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما إختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم و قد أمرنا الله تعالى أن نقول فى صلاتنا {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة 6-7 و هذا أفضل الأدعية و أوجبها على العباد و من تحقيق بهذا الدعاء جعله الله من أهل الهدى و الرشاد فإنه سميع الدعاء لا يخلف الميعاد و الله أعلم [1]

لطائف لغوية

1-أن الإبتداء قد يكون كثيرا بغير الافضل بل يبتدأ بالشيء لاسباب متعددة كما فى قوله تعالى {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ }التين1 {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4} وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7}

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص:513- 515

الشمس1-7 و {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ }الرحمن68 الى غير ذلك ولم يدل التقديم فى شىء من هذه المواضع على فضل المبدوء به فعلم أن التقديم ليس لازما للفضل [1]

2-قال تعالى {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا }الشمس2 تَلَاهَا بمعنى الاتباع أي تبعها[2]

3- ولفظ ما يدل على الصفة بخلاف من فإنه يدل على العين كقوله {وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا }الشمس5 أي و بانيها [3]

و على هذا قوله فما وصف للأشخاص و لم يقل فمن لأن ما يراد به الصفات دون الأعيان و هو المقصود كقوله { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء3 و قوله {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ }الكافرون2 و قوله {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا }الشمس7 [4]

ما هي لما لا يعلم و لصفات من يعلم و لهذا تكون للجنس العام لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته كما قال { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء3 أي الذي طاب و الطيب من النساء فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب و قصد هذه الصفة دون مجرد العين عبر ب ما و لو عبر ب من كان المقصود مجرد العين و الصفة للتعريف حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة كما إذا قلت جاءني من يعرف و من كان أمس في المسجد و من فعل كذا و نحو ذلك فالمقصود الإخبار عن عينه و الصلة للتعريف و إن كانت تلك الصفة قد ذهبت و منه قوله { وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} الشمس 5-7 على القول الصحيح إنها إسم موصول و المعنى و بانيها و طاحيها و مسويها و لما قال { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 أخبر ب من لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه و إن كان فعله للتزكية و التدسية قد ذهب فى الدنيا فالقسم هناك بالموصوف بحيث أنه إنما أقسم بهذا الموصوف و الصفة لازمة فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها و لا مطحية إلا بطاحيها و لا مسواة إلا بمسويها و أما المرء المزكى نفسه و المدسيها فقد انقضى عمله فى الدنيا و فلاحه و خيبته فى الآخرة ليسا مستلزما لذلك العمل و نحو هذا قوله {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3 [5]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 386

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168 ومجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 555

[4] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 294

[5] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 603

سورة الشمس 9-10

{ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}

{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }

قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 و { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} الاعلى 14 معنى التزكية قال قتادة وابن عيينة وغيرهما قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال وقال الفراء والزجاج قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع وليس هو مراد من الآية بل المراد بها الأول قطعا لفظا ومعنى أما اللفظ فقوله من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد على من فإذا قيل قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص في زكاها يعود على من هذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته كما يقال قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه وأما اذا كان المعنى قد أفلح من زكاه الله لم يبق في الجملة ضمير يعود على من فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو من وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على من لا ضمير الفاعل ولا المفعول فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز نعم لو قيل قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب وهو لم يقل قد أفلحت نفس زكاها فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة بل قال قد أفلح من زكاها فالجملة صلة لمن لا صفة لها ولا قال أيضا قد أفلحت النفس التي زكاها فإنه لو قيل ذلك وجل في زكاها ضمير يعود على اسم الله صح فإذا تكلفوا وقالوا التقدير قد أفلح من زكاها هي النفس التي زكاها وقالوا في زكى ضمير المفعول يعود على من وهي تصلح للمذكر والمؤنث والواحد والعدد فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل قد أفلح ولم يقل قد أفلحت قيل لهم هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فإنما يصح اذا دل الكلام على ذلك في مثل ومن على أن المراد لنا وكذا قوله ومنهم من يستمعون اليك ونحو ذلك وأما هنا فلس في لفظ من وما بعدها ما يدل على أن المراد به النفس المؤنثه فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على ارادته فإن مثل هذا مما يصان كلام الله عز وجل عنه فلو قدر احتمال عود ضمير زكاها الى نفس والى من مع أن لفظ من لا دليل يوجب عوده عليه لكان الى المؤنث أولى من اعادته الى ما يحتمل التذكير والتأنيث

وهو في التذكير أظهر لعدم دلالته على التأنيث فان الكلام اذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف والقرآن منزه عن ذلك والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام الى ما لا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف اذا كان نصا من جهة المعنى فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور ولبسط هذا موضع آخر التزكية في الكتاب السنة والمقصود هنا أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها كقوله قد أفلح من تزكى فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا ينهي ولا ترغيب ولا ترهيب والقرآن اذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد القدر فلا يقول من جعله الله مؤمنا بل يقول قد أفلح المؤمنون قد أفلح من تزكى اذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلا فكيف بكلام الله ألا ترى أنه في مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم اما بما ليس

من أفعالهم وإما بإنعامه بالايمان والعمل الصالح ويذكره في سياق قدرته ومشيئته وأما في معرض الأمر فلا يذكره الا عند النعم كقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى الآية فهذا مناسب وقوله قد أفلح من تزكى وهذه الأية من جنس الثانية لا الأولى والمقصود ذكر التزكية قال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }النور30 [1]

الأتقياء ليسوا معصومين

قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس9-10 و قال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 و قال {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 و قال{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ }النور21 و ليس من شرط المتقين و نحوهم أن لا يقع منهم ذنب و لا أن يكونوا معصومين من الخطأ و الذنوب فإن هذا لو كان كذلك لم يكن في الأمة متق بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين و من فعل ما يكفر سيئاته دخل في المتقين كما قال {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً }النساء31 [2]

كيف تزكو النفس

قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس9-10 وأما الزكاة فهى متضمنة النماء والزيادة كالزرع وإن كانت الطهارة قد تدخل فى معناها فإن الشىء إذا تنظف مما يفسده زكى ونما وصلح وزاد فى نفسه كالزرع ينفى من الدغل قال الله تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ }النور21 [3]

أن التزكي هو الإيمان و العمل الصالح الذي تصير به نفس الإنسان زكية كما قال في هذه السورة { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 و قال { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس9-10 و قال {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }الجمعة2 و قال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت 6-7 و قال موسى لفرعون { هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات 18-19 المنفعة فيتزكى [4]

---

[1] الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 59-61

[2] منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 85

[3] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 393

[4] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:184- 185

ففى تزكية النفس وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 قال قتادة وإبن عيينة وغيرهما قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال وقال الفراء والزجاج قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله وكذلك ذكره الوالبى عن إبن عباس وهو منقطع و ليس هو مراد من الآية بل المراد بها الأول قطعا لفظا ومعنى أما اللفظ فقوله من زكاها إسم موصول ولا بد فيه من عائد على { مَن }فإذا قيل قد أفلح الشخص الذى زكاها كان ضمير الشخص فى زكاها يعود على { مَن } هذا وجه الكلام الذى لا ريب فى صحته كما يقال قد أفلح من إتقى الله وقد افلح من أطاع ربه وأما إذا كان المعنى قد أفلح من زكاه الله لم يبق فى الجملة ضمير يعود على من فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو من وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على من لا ضمير الفاعل ولا المفعول فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز نعم لو قيل قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب وهو لم يقل قد أفلحت نفس زكاها فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة بل قال { مَن } فالجملة صلة ل { مَن } لا صفة لها ولا قال أيضا قد أفلحت النفس التى زكاها فإنه لو قيل ذلك وجعل فى { زَكَّاهَا } ضمير يعود على إسم الله صح فإذا تكلفوا وقالوا التقدير {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 هى النفس التى زكاها وقالوا فى زكى ضمير المفعول يعود على { مَن } وهى تصلح للمذكر والمؤنث والواحد والعدد فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقة ولهذا قيل {قَدْ أَفْلَحَ } ولم يقل قد أفلحت قيل لهم هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فإنما يصح إذا دل على الكلام على ذلك فى مثل ومن على أن المراد لنا وكذا قوله {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ }يونس42 ونحو ذلك وأما هنا فليس فى لفظ {مَن }وما بعدها ما يدل على أن المراد به النفس المؤنثة فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته فإن مثل هذا مما يصان كلام الله عز وجل عنه فلو قدر إحتمال عود ضمير {زَكَّاهَا } إلى نفس وإلى {مَن } مع أن لفظ {مَن } لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث وهو فى التذكير أظهر لعدم دلالته على التأنيث فإن الكلام إذا إحتمل معنيين وجب حمله على اظهرهما ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف والقرآن منزه عن ذلك والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى مالا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف إذا كان نصا من جهة المعنى فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور ولبسط هذا موضع آخر والمقصود هنا أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها كقوله {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهى ولا ترغيب ولا ترهيب والقرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد القدر فلا يقول من جعله الله مؤمنا بل يقول {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ }المؤمنون1 {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 إذ ذكر مجرد القدر فى هذا يناقض المقصود ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلا فكيف بكلام الله ألا ترى أنه فى مقام الأمر والنهى والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد والمدح والذم وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم إما بما ليس من أفعالهم وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح ويذكره فى سياق قدرته ومشيئته وأما فى معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النعم كقوله {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا }النور21 الآية فهنا مناسب وقوله {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى والمقصود ذكر التزكية قال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 الآية وقال {فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }النور28 وقال {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ }فصلت7 وقال {وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى }عبس7و اصل الزكاة الزيادة فى الخير

ومنه يقال زكا الزرع وزكا المال إذا نما ولن ينمو الخير إلا بترك الشر والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها و لايكون الرجل متزكيا إلا مع ترك الشر فإنه يدنس النفس ويدسيها قال الزجاج { دَسَّاهَا }الشمس10 جعلها ذليلة حقيرة خسيسة وقال الفراء {دَسَّاهَا }الشمس10 لأن البخيل يخفى نفسه ومنزله وماله قال إبن قتيبة أى أخفاها بالفجور والمعصية فالفاجر دس نفسه أى قمعها وخباها وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها واللئام تنزل الأطراف والوديان فالبر والتقوى يبسط النفس ويشرح الصدر بحيث يجد الإنسان فى نفسه إتساعا وبسطا عما كان عليه قبل ذلك فإنه لما إتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها بحيث يجد البخيل فى نفسه أنه ضيق وقد بين النبى ذلك فى الحديث الصحيح فقال مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد إضطرت أيديهما إلى تراقيهما فجعل المتصدق كلما هم بصدقة إتسعت وإنبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها وأنا رأيت رسول الله يقول باصبعه فى جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع أخرجاه وإخفاء المنزل وإظهاره تبعا لذلك قال تعالى {يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ }النحل59 الآية فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها فى بدنه بعضها فى بعض ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل والنفس البرة التقية النقية التى قد زكاها صاحبها فإرتفعت وإتسعت ومجدت ونبلت فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من فى السقاء وكالشعرة من العجين قال إبن عباس إن للحسنة لنورا فى القلب وضياء فى الوجه وقوة فى البدن وسعة فى الرزق ومحبة فى قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة فى القلب وسوادا فى الوجه ووهنا فى البدن وضيقا فى الرزق وبغضة فى قلوب الخلق قال تعالى {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً }الأعراف58 الآية وهذا مثل البخيل والمنفق قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام125 الآية وقال {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ }البقرة257 الآية وقال له فى سياق الرمى بالفاحشة وذم من أحب إظهارها فى المؤمنين والمتكلم بما لا يعلم {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 الآية فبين ان الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 الآية وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال النفس فإنها تعلم أن السيئات مذمومة ومكروه فعلها ويجاهد نفسه إذا دعته إليها إن كان مصدقا لكتاب ربه مؤمنا بما جاء عن نبيه ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة فتزكو بذلك أيضا بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تتدنس وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل والثواب إنما يكون على عمل موجود وكذلك العقاب فأما العدم المحض فلا ثواب فيه ولا عقاب لكن فيه عدم الثواب والعقاب والله سبحانه أمر بالخير ونهى عن الشر وإتفق الناس على أن المطلوب بالأمر فعل موجود وإختلفوا فى النهى هل المطلوب أمر وجودى أم عدمى فقيل وجودى وهو الترك وهذا قول الأكثر وقيل المطلوب عدم الشر وهو أن لا يفعله و التحقيق أن المؤمن إذا نهى عن المنكر فلا بد أن لا يقربه ويعزم على تركه ويكره فعله وهذا أمر وجودى بلا ريب فلا يتصور أن المؤمن الذى يعلم أنه وجودى لكن قد لا يكون مريدا له كما يكره أكل الميتة طبعا ومع ذلك فلا بد له من إعتقاد التحريم والعزم على تركه لطاعة الشارع وهذا قدر زائد على كراهة الطبع وهو أمر وجودى يثاب عليه ولكن ليس كثواب من كف نفسه وجاهدها عن طلب المحرم ومن كانت كراهته للمحرمات كراهة إيمان وقد غمر إيمانه حكم طبعه فهذا أعلى الأقسام الثلاثة وهذا

صاحب النفس المطمئنة وهو أرفع من صاحب اللوامة التى تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه وتتلوم وتتردد هل تفعله أم لا وأما من لم يخطر بباله أن الله حرمه وهو مريد له بل لم يفعله فهذا لا يعاقب ولا يثاب إذا لم يحصل منه أمر وجودى يثاب عليه أو يعاقب فمن قال المطلوب أن لا يفعل لان أراد أن هذا المطلوب يكفي في عدم العقاب فقد صدق وإن أراد أنه يثاب على هذا العدم فليس كذلك والكافر إذا لم يؤمن بالله ورسوله فلا بد لنفسه من أعمال يشتغل بها عن الإيمان وترك الأعمال كفر يعاقب عليها ولهذا لما ذكر الله عقوبة الكفار فى النار ذكر امورا وجودية وتلك تدس النفس ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس وكان الشرك أعظم ما يدسيها وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف قالوا فى {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 تطهر من الشرك ومن المعصية بالتوبة وعن أبى سعيد وعطاء وقتادة صدقة الفطر ولم يريدوا الآية لم تتناول إلا هى بل مقصودهم أن من أعطى صدقة الفطر وصلى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها ولهذا كان يزيد بن حبيب كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة ويتصدق بها قبل الصلاة ولو لم يجد إلا بصلا قال الحسن {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 من كان عمله زاكيا وقال أبو الأحوص زكاة الأمور كلها وقال الزجاج تزكى بطاعة الله عز وجل ومعنى الزاكى النامى الكثير وكذلك قالوا فى قوله { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت6-7 قال إبن عباس لا يشهدون أن لا إله إلا الله وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم أى ليست زاكية وقيل لا يطهرونها بالإخلاص كأنه اراد والله أعلم أهل الريا فإنه شرك وعن الحسن لا يؤمنون بالزكاة ولا يقرون بها وعن الضحاك لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة وعن إبن السائب لا يعطون زكاة أموالهم قال كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون و التحقيق أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة كقوله {فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى }النازعات18 وقوله {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها فإن قيل يؤتى فعل متعد قيل هذا كقوله { ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا }الأحزاب14 وتقدم قبلها أن الرسول دعاهم وهو طلب منه فكان هذا اللفظ متضمنا قيام الحجة عليهم بالرسل والرسل إنما يدعونهم لما تزكو به أنفسهم ومما يليق أن الزكاة تستلزم الطهارة لأن معناها معنى الطهارة قوله {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ }التوبة103 من الشر { وَتُزَكِّيهِم }التوبة103 بالخير قال اللهم طهرنى بالماء والبرد والثلج كان يدعو به فى الإستفتاح وفى الإعتدال من الركوع والغسل فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها و البرد يعطى قوة وصلابة وما يسر يوصف بالبرد وقرة العين ولهذا كان دمع السرور باردا ودمع الحزن حارا لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن فسأل النبى أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون ما فيه من الفرح والسرور الذ ي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب وقوله بالثلج والبرد والماء البارد تمثيل بما فيه من هذا الجنس والا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك كما يقال أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال صلى الله عليه وسلم الآن بردت جلدته ويقال برد اليقين وحرارة الشك ويقال هذا الأمر يثلج له الصدر إذا كان حقا يعرفه القلب ويفرح به حتى يصير فى مثل برد الثلج ومرض النفس أما شبهة وأما شهوة أو غضب والثلاثة توجب السخونة ويقال لمن نال ممطلوبه برد قلبه فإن الطالب فيه حرارة الطلب وقوله {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ }التوبة103 دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة فإنه بعد قوله {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ }التوبة102 الآية فالتوبه والعمل الصالح يحصل بها التطهير والتزكية ولهذا قال فى سياق قوله {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ }النور30 الآيات { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً }النور31 الآية فأمرهم جميعا بالتوبة فى سياق ما ذكره لأنه لا يسلم أحد

من هذا الجنس كما فى الصحيح إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا الحديث وكذلك في الصحيح أن قوله {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }هود114 نزلت بسبب رجل نال من إمرأة كل شيء إلا الجماع ثم ندم فنزلت ويحتاج المسلم فى ذلك الى أن يخاف الله وينهى النفس عن الهوى ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه بل على إتباعه والعمل به فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله وعملا صالحا وثبت عنه أنه قال المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله فيؤمر بجهادها

كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصى ويدعو اليها وهو الى جهاد نفسه أحوج فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية والصبر فى هذا من أفضل الأعمال فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد كما قال والمهاجر من هجر السيئات ثم هذا لا يكون محمودا فيه إلا إذا غلب بخلاف الأول فإنه من يقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة إلخ وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى وأن يخاف مقام ربه فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد فإذا غلب لكان لضعف إيمانه فيكون مفرطا بترك المأمور بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به ومع إمتثال المأمور لا تفعل المحظور فإنهما ضدان قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24 الآية وقال {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }الحجر42 فعباد الله مخلصون لا يغويهم الشيطان و الغى خلاف الرشد وهو إتباع الهوى فمن مالت نفسه الى محرم فليأت بعبادة الله كما أمر الله مخلصا له الدين فإن ذلك يصرف عنه السوء الفحشاء خشية ومحبة والعبادة له وحده وهذا يمنع من السئيات فإذا كان تائبا فإن كان ناقصا فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحيا لها بعد الوقوع فهو كالترياق الذى يدفع آثر السم ويرفعه بعض حصوله وكالغذاء من الطعام والشراب وكالإستمتاع من بالحلال الذى يمنع النفس عن طلب الحرام فإذا حصل له طلب إزالته وكالعلم الذى يمنع من الشك ويرفعه بعد وقوعه وكالطب الذى يحفظ الصحة ويدفع المرض وكذلك كما فى القلب من الإيمان يحفظ بأشباهة مما يقوم به وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات وأزيل بهذه ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه وكذلك الإيمان والكفران متضادان فكل ضدين فأحدهما يمنع الآخر تارة ويرفعه أخرى كالسواد والبياض حصل موضعه ويرفعه إذا كان حاصلا كذلك الحسنات والسئيات[1]

وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله قال تعالى { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ{7}فصلت 6-7 وهى عند المفسرين التوحيد[2]

القرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 625-637 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 62-63

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 299

والقرآن شفاء لما فى الصدور ومن فى قلبه امراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات مايزيل الحق من الباطل فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوير والأدراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغى بعد ان كان مريدا للغى مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التى فطر عليها كما يعود البدن الى الحال الطيبعى ويغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة فى اللغة النماء والزيادة فى الصلاح يقال زكا الشئ اذا نما فى الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصى فانها بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن ومثل الدغل فى الزرع فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الردئية كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعه واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب اذا تاب من الذنوب كتن استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فاذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للاعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التى كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 وقال تعالى { وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }النور28 وقال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }النور30 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 وقال تعالى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى }عبس3 وقال تعالى { فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات18-19 فالتزكية وان كان اصلها النماء والبركة وزيادة الخير فانما تحصل بازالة الشر فلهذا صار التزكى يجمع هذا وهذا وقال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت6-7 وهى التوحيد والايمان الذى به يزكو القلب فانه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات الحق فى القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب والتزكية جعل الشئ زكيا إنما فى ذاته وإما فى الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا فى نفسه او فى اعتقاد الناس قال تعالى { فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ }النجم32 أى تخبروا بزكاتها وهذا غير قوله {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 ولهذا قال { هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى }النجم32 وكان اسم زينب برة فقيل تزكى نفسها فسماها رسول الله زينب واما قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ }النساء49 اى يجعله زاكيا ويخبر بزكاته كما يزكى المزكى الشهود فيخبر بعدلهم و العدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما ان الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه بل ظلمها فصلاح القلب فى العدل وفساده فى الظلم واذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة286 والعمل له اثر فى القلب من نفع وضر وصلاح قبل اثره فى الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى

{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا }الجاثية15 وقال تعالى {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا }الإسراء7 قال بعض السلف ان للحسنة لنورا فى القلب وقوة فى البدن وضياء فى الوجه وسعة فى الرزق ومحبة فى قلوب الخلق وان للسيئة لظلمة فى القلب وسوادا فى الوجه ووهنا فى البدن ونقصا فى الرزق وبغضا فى قلوب الخلق وقال تعالى { كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ }الطور21 [1]

الحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب

وكلما طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه فكما ان طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه كما قيل استغن عمن شئت تكن نظيره وافضل على من شئت تكن اميره واحتج الى من شئت تكن اسيره فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له واعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا اما على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه واما على اهله واصدقائه واما على امواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات او يموت قال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً }الفرقان58 وكل من علق قلبه بالمخلوقات ان ينصروه او يرزقوه او ان يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وان كان فى الظاهر اميرا لهم مدبرا لهم متصرفا بهم فالعاقل ينظر الى الحقائق لا الى الظواهر فالرجل اذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلب اسيرا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو فى الظاهر سيدها لانه زوجها وفي الحقيقة هو اسيرها ومملوكها لا سيما اذا درت بفقره اليها وعشقه لها وانه لا يعتاض عنها بغيرها انها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذى لا يستطيع الخلاص منه بل اعظم فإن اسر القلب اعظم من اسر البدن واستعباد القلب اعظم من استعباد البدن فان من استعبد بدنه واسترق لا يبالى اذا كان قلبه متريحا من ذلك مطمئنا بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص واما اذا كان القلب الذي هو الملك رقيقا مستعبدا متيما لغير الله هذا هو الذل والاسر المحض والعبودية لما استعبد القلب وعبودية القلب واسره هي التى يترتب عليها الثواب والعقاب ان المسلم لو اسره كافر او استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك اذا كان قائما بما يقدر علي من الواجبات ومن استعبد بحق اذا ادى حق الله وحق مواليه له اجران ولو اكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالايمان لم يضره ذلك واما من استعبد قلبه صار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان فى الظاهر ملك الناس فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما ان الغنى غنى النفس قال النبى ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس وهذا لعمري اذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة فاما من استعبد قلبه صورةمحرمة امرأة اوصبى فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه وهؤلاء من اعظم الناس عذابا واقلهم ثوابا فإن العاشق لصورة اذا بقى قلبه متعلقا بها مستعبدا لها اجتمع له من انواع الشر والفساد ما لا يحصيه الا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة اشد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:95-99 وأمراض القلوب ج: 1 ص: 6

ضررا عليه ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول اثره من قلبه وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى افاقة من به سكران وقيل قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق اعظم مما بالمجانين العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وانما يصرع المجنون فى الحين ومن اعظم اسباب هذا البلاء اعراض القلب عن الله فان القلب اذا ذاق طعم عبادة الله والاخلاص له لم يكن عنده شيء قط احلى من ذلك ولا ألذ ولا اطيب والانسان لا يترك محبوبا الا بمحبوب آخر يكون أحب اليه منه او خوفا من مكروه فالحب الفاسد انما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح او بالخوف من الضرر قال تعالى في حق يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24 فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل الى الصورة والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء باخلاصه لله ولهذا يكون قبل ان يذوق حلاوة العبودية لله والاخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها فاذا ذاق طعم الاخلاص وقوى فى قلبه انقهر له هواه بلا علاج قال تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ }العنكبوت45 فان الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله وحصول هذا المحبوب اكبر من دفع المكروه فان ذكر الله عبادة لله وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها واما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه فلما عرضت له ارادة الشر طلب دفع ذلك فانه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل ولهذا قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10}الشمس 9-10 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 وقال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 وقال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو ازكى للنفس وبين ان ترك الفواحش من زكاة النفوس وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك وكذلك طالب الرئاسة والعلو فى الارض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه فهو فى الظاهر رئيس مطاع وفى الحقيقة عبد مطيع لهم والتحقيق ان كلاهما فيه عبودية للآخر وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله واذا كان تعاونهما على العلو فى الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة او قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر وهكذا ايضا طالب المال فان ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان منها ما يحتاج العبد اليه كما يحتاج اليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك هذا يطلبه من الله ويرغب اليه فيه يكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه وبساطة الذي يجلس عليه بل بمنزة الكنيف الذي يقضى فيه حاجته من غير ان يستعبده فيكون هلوعا { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21} المعارج20-21 و منها ما لا يحتاج العبد اليه فهذه لا ينبغى له ان يعلق قلبه بها فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدا لها وربما صار معتمدا على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله وهذا من احق الناس بقوله صلى الله عليه وسم تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة وهذا هو عبد هذه الأمور فلو طلبها من الله فإن الله اذا اعطاه اياها رضي واذا منعه اياها سخط وانما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما احبه الله ورسوله ويبغض ما ابغضه الله ورسوله ويوالي اولياء الله ويعادى اعداء الله تعالى وهذا هو الذى استكمل الايمان كما فى الحديث من احب لله وابغض لله واعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان وقال اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله

وفى الصحيح عنه ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا لله ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه فكان الله ورسوله احب اليه مما سواهما واحب المخلوق لله لا لغرض آخر فكان هذا فكان من تمام حبه لله فان محبة محبوب من تمام محبة المحبوب فاذا احب أنبياء الله واولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد احبهم لله لا لغيره وقد قال تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}المائدة54 ولهذا قال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }آل عمران31 فان الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به فمن كان محبا لله لزم ان يتبع الرسول فيصدقه فيما اخبر ويطيعه فيما امر ويتأسى به فيما فعل ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله[1]

لطائف لغوية

1-فقد سمى الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينموا إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى [2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 184-191

[2] مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 8

سورة الشمس 11-15

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا{11} إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا{12} فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا{13} فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا{14} وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا{15}

معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية

قال تعالى {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا{11} إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا{12} فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا{13} فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا{14} وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا{15} الشمس11-15 ومعلوم أن معجزات الأنبياء خارجة عن القوانين الطبيعية مثال ذلك إخراج صالح الناقة من هضبة من الهضاب فإن هذا خارج عن قوى النفس والطبيعية لأن الهضبة لا يمكن ان تخرج ناقة حية تاكل وتشرب منها منها ولا يمكن في القوى الطبيعية أن تخرجها لا بقوى نفس ولا بسحر ولا غير ذلك بل الساحر غايته أن يتصرف في الأعراض بفعل ما يحدث عنه الأمراض والقتل ونحو ذلك مما يقدر عليه سائر الآدميين فإن الإنسان يمكنه أن يضرب غيره حتى يمرضه أو يقتله فالساحر والعائن وغيرهما ممن يتصرف بقوى الأنفس يفعل في المنفصل ما يفعله القادر في المتصل فهذا من أفعال العباد المعروفة المقدروة وأما قلب الأعيان إلى ما ليس في طبعها الانقلاب إليه فإخراج صالح الناقة من هضبة من الهضاب فليس هذا من جنس مقدور البشر لا معتادا ولا نادرا ولا يحصل بقوى نفس أصلا وهذه الحادثة الخارقة للعادة فيها إثبات الصانع وإثبات نبوة أنبيائه فإن حدوث هذا الحادث على هذا الوجه في مثل ذلك المقام يوجب علما ضروريا أنه من القادر المختار لتصديق صالح عليه السلام[1]

المضاف الى الله سبحانه لا يخلو من ثلاثة أقسام

المضاف الى الله سبحانه فى الكتاب والسنة سواء كانت اضافة اسم الى اسم او نسبة فعل الى اسم او خبر باسم عن اسم لا يخلو من ثلاثة أقسام أحدها اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة255 وقوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ }الذاريات58 وفى حديث الاستخارة اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وفى الحديث الاخر اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق فهذا فى الاضافة الاسمية واما بصيغة الفعل فكقوله { عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ }البقرة187 وقوله { عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ }المزمل20 واما الخبر الذى هو جملة اسمية فمثل قوله { وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

---

[1] الصفدية ج: 1 ص: 138

عَلِيمٌ }البقرة282 {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة284 وذلك لان الكلام الذى توصف به الذوات اما جملة او مفرد فالجملة اما اسمية كقوله { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }البقرة282 او فعلية كقوله { عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ }المزمل20 اما المفرد فلابد فيه من اضافة الصفة لفظا او معنى كقوله { بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة255 وقوله { هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً }فصلت15 او اضافة الموصوف كقوله { ذُو الْقُوَّةِ }الذاريات58 و القسم الثانى اضافة المخلوقات كقوله {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا }الشمس13 وقوله { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ }الحج26 وقوله { رَسُولَ اللَّهِ }النساء157 و {عِبَادَ اللَّهِ }الصافات40 وقوله { ذُو الْعَرْشِ }غافر15 وقوله { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ }البقرة255 فهذا القسم لا خلاف بين المسلمين فى انه مخلوق كما ان القسم الاول لم يختلف اهل السنة والجماعة فى انه قديم وغير مخلوق وقد خالفهم بعض اهل الكلام فى ثبوت الصفات لا فى أحكامها وخالفهم بعضهم فى قدم العلم واثبت بعضهم حدوثه وليس الغرض هنا تفصيل ذلك الثالث ما فيه معنى الصفة والفعل مثل قوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً }النساء164 وقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82[1]

المضاف إلى الله نوعان

والمضاف إلى الله نوعان فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والكلام والحياة وإما أن يكون عينا قائمة بنفسها فالأول إضافة صفة كقوله {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة255 فالمضاف في الأول صفة لله قائمة به ليست مخلوقة له بائنة عنه والمضاف في الثاني مملوك لله مخلوق له بائن عنه لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التي اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى كما خص ناقة صالح من بين النوق وكما خص بيته بمكة من البيوت وكما خص عباده الصالحين من بين الخلق والثاني إضافة عين كقوله تعالى {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا }الشمس13[2]

الفارق بين المضافين

أن الفارق بين المضافين أن المضاف إن كان شيئا قائما بنفسه أو حالا فى ذلك القائم بنفسه فهذا لا يكون صفة لله لأن الصفة قائمة بالموصوف فالأعيان التى خلقها الله قائمة بأنفسها و صفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة لكن أضيفت لنوع من الإختصاص المقتضي للإضافة لا لكونها صفة و الروح الذي هو جبريل من هذا الباب كما أن الكعبة و الناقة من هذا الباب و مال الله من هذا الباب و روح بنى آدم من هذا [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 144

[2] الجواب الصحيح ج: 2 ص: 156

[3] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 151

الإضافة تقتضي اختصاص المضاف بصفات تميز بها عن غيره حتى استحق الإضافة كما اختصت الكعبة والناقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم بيت الله وناقة الله وعباد الله كذلك اختصت الروح المصطفاة بأن يقال لها روح الله بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار فإنها مخلوقة لله ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة كما لا تضاف إليه الجمادات كما تضاف الكعبة ولا نوق الناس كما تضاف ناقة صالح التي كانت آية من آياته كما قال تعالى قال تعالى {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا{11} إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا{12} فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا{13}الشمس11-13 وقال {وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ } هود64[1]

وقال النبى الريح من روح الله اي من الروح التى خلقها الله فاضافة الروح الى الله إضافة ملك لا إضافة وصف إذ كل ما يضاف إلى الله ان كان عينا قائمة بنفسها فهو ملك له وان كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله فالاول كقوله تعالى {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا{11} إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا{12} فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا{13}الشمس11-13 وقوله {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا }مريم17وهو جبريل { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً {17} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً{18} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً{19} مريم17-19 وقال {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ }التحريم12 وقال عن آدم {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ }الحجر29 وقال تعالى{ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ}الحج26 وقال{مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ }الحشر7 والثانى كقولنا علم الله وكلام الله وقدرة الله وحياة الله وامر الله[2]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا{11} إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا{12} فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا{13} فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا{14} وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا{15} الشمس11-15 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الذنوب اذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما فى قوله { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً }الزمر53 ثم قد يقرن بغيره كما فى قوله { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا }آل عمران147[3]

---

[1] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 249

[2] مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 290

[3] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الليل
92

رقية محمود الغرايبة

~§§ الليل(مكية)21 §§~

سورة الليل 1-11

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى{1} وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى{2} وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{3} إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى{4} فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى{11}

الاقسام التى فى القرآن

فالاقسام التي فى القرآن عامتها بالذوات الفاعلة و غير الفاعلة يقسم بنفس الفعل كقوله { وَالصَّافَّاتِ صَفّاً{1} فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً{2} فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً{3}الصافات 1-3 و كقوله {وَالنَّازِعَاتِ }النازعات1 {وَالْمُرْسَلَاتِ }المرسلات1 و نحو ذلك و هو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات و تارة بربها و خالقها كقوله {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ }الذاريات23 و كقوله {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3 و تارة يقسم بها و بربها وفى هذه السورة أقسم بمخلوق و بفعله و أقسم بمخلوق دون فعله فاقسم بفاعله فإنه قال { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4}الشمس 1-4 فأقسم بالشمس و القمر و الليل و النهار و آثارها و أفعالها كما فرق بينهما في قوله {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ }فصلت37 و قال { كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }الأنبياء33 فإنه بأفعال هذه الأمور و آثارها تقوم مصالح بني آدم و سائر الحيوان [1]

الحكمة من إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كقوله تعالى { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى{1} وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى{2} الليل 1-2 والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 238

بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1]

اقسام الله بالليل والنهار والشمس والقمر وغير ذلك يقتضى تعظيم قدر المقسم به والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة والمنفعة للناس والانعام عليهم وغير ذلك قال تعالى { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى{1} وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى{2} الليل 1-2 وفى { وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً{1} فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً{2}الذاريات 1-2 وفى { وَالطُّورِ{1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{2} الطور1-2 [2]

{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى }

قال تعالى {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى }الليل5 و قال {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل128 و هذان الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال التعظيم لأمر الله و الرحمة لعباد الله فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع و التواضع و ذلك اصل التقوى و الرحمة لعباد الله بالاحسان إليهم و هذان هما حقيقة الصلاة و الزكاة فان الصلاة متضمنة للخشوع لله و العبودية له و التواضع له و الذل له و ذلك كله مضاد للخيلاء و الفخر و الكبر و الزكاة متضمنه لنفع الخلق و الاحسان إليهم و ذلك مضاد للبخل[3]

الامر والنهى من لوازم وجود بنى آدم

وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهى ولا بد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها اما بمعروف واما بمنكر كما قال تعالى { إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }يوسف53 فان الأمر هو طلب الفعل وارادته والنهى طلب الترك وارادته ولا بد لكل حى من ارادة وطلب فى نفسه يقتضى بهما فعل نفسه ويقتضى بهما فعل غيره اذا أمكن ذلك فان الانسان حى يتحرك بارادته وبنوا آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع اثنان فصاعدا فلابد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة اثنين كما قيل الاثنان فما فوقهما جماعة لكن لما كان ذلك اشتراكا فى مجرد الصلاة حصل باثنين أحدهما إمام والآخر مأموم كما قال النبى لمالك بن الحويرث وصاحبه اذا حضرت الصلاة فاذنا وأقيما وليؤمكما اكبركما وكانا متقاربين فى القراءة وأما الأمور العادية ففى السنن انه قال لا يحل لثلاثة يكونون فى سفر الا أمروا عليهم أحدهم وإذا كان الأمر والنهى من لوازم وجود بنى آدم فمن لم يأمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله ويؤمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله والا فلا بد أن يأمر وينهى ويؤمر وينهى اما بما يضاد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

[2] مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 183

[3] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 214

ذلك واما بما يشترك فيه الحق الذى أنزل الله بالباطل الذى لم ينزله الله واذا اتخذ ذلك دينا كان دينا مبتدعا وهذا كما أن كل بشر فانه حي متحرك بارادته همام حارث فمن لم تكن نيته صالحة وعمله عملا صالحا لوجه الله والا كان عملا فاسدا أو لغير وجه الله وهو الباطل كما قال تعالى { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى{1} وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى{2} وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{3} إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى{4} فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى{11} الليل 1-11 وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ }محمد1 وقال تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ }النور39 وقال تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً }الفرقان23[1]

اعملوا فكل ميسر لما خلق له

وفي الصحيحين عن علي بن ابي طالب قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ص فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخسرته ثم قال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل السعاده واما من كان من أهل الشقاء فسيصير لعمل الشقاء ثم قرأ { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7}الليل 5-7 و في الصحيح عن عمران بن حصين قال قال رجل يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار قال نعم قال فلم يعمل العاملون قال كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له و في رواية كل ميسر لما خلق له وفي صحيح مسلم من حديث أبي الأسود الدئلي قال قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشئ قضى عليهم و مضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم فقلت بل شئ قضى عليهم و مضى عليهم قال فقال أفلا يكون ظلما قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا و قلت كل شئ خلق الله و ملك يده فلا يسأل عما يفعل و هم يسألون فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ص فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشئ قضى عليهم و مضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون منه مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم قال لا بل شئ قضى عليهم و مضى فيهم و تصديق ذلك في كتاب الله و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها سورة الشمس 6 7[2]

تقدير الأمور تقضى بالأسباب

وأما قولهم الأمور قد فرغ منها فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء أنه لا حاجة إليه لأن المطلوب إن كان مقدرا فلا حاجة إليه وإن لم يكن مقدرا لم ينفع وهذا القول من أفسد الأقوال شرعا وعقلا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 169 و الاستقامة ج: 2 ص: 294

[2] الاستقامة ج: 1 ص: 172

وكذلك قول من قال التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة وإنما هو عبادة محضة وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضا وكذلك قول من قال الدعاء إنما هو عبادة محضة فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن يتوقف على أسباب مقدرة أيضا تكون من العبد ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم ولهذا كان طور قولهم يوجب تعطيل العمال بالكلية وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا مرات فأجاب عنه كما أخرجاه في الصحيحين عن عمران بن حصين قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم أهل الجنة من أهل النار قال نعم قالوا ففيم العمل قال كل ميسر لما خلق له وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال كنا في جنازة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ومعه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض ثم رفع رأسه وقال ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل من القوم يا نبي الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما أهل السعادة فييسرون للسعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة ثم قال نبي الله صلى الله عليه وسلم { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10}الليل5-10 أخرجه الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد وروى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقى نتقيها أترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وقد جاء هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث فبين صلى الله عليه وسلم وآله وسلم ان تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافى ان تكون سعادة هذا بالاعمال الصالحة وشقاوة هذا بالاعمال السيئة فانه سبحانه يعلم الامور على ما هي عليه وكذلك يكتبها فهو يعلم ان السعيد يسعد بالاعمال الصالحة والشقي يشقى بالاعمال السيئة فمن كان سعيدا ييسر للاعمال الصالحة التى تقتضي السعادة ومن كان شقيا ييسر للاعمال السيئة التى تقضي الشقاوة وكلاهما ميسر لما خلق له وهو ما يصير اليه من مشيئة الله العامة الكونية التى ذكرها الله سبحانه فى كتابه فى قوله تعالى { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ {119}هود118 -119 واما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه وهو إرادته الدينية التى امروا بموجبها فذلك مذكور فى قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 [1]

الشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه

فالشر ليس إلى الله بوجه من الوجوه فإنه وان كان الله خالق أفعال العباد فخلقه للطاعات نعمة و رحمة و خلقه للسيئات له فيه حكمة و رحمة و هو مع هذا عدل منه فما ظلم الناس شيئا و لكن الناس ظلموا أنفسهم وظلمهم لأنفسهم نوعان عدم عملهم بالحسنات فهذا ليس مضافا إليه و عملهم للسيئات خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التى خلقهم لها و أمرهم بها فكل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل [2]

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 45-46 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 45 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 23-24

[2] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:334- 335 والحسنة والسيئة ج: 1 ص: 95

أنما يبتلى به من الذنوب و إن كان خلقا لله فهو عقوبة له على عدم فعل ما خلقة الله له و فطره عليه فإنه خلقه لعبادته وحده ودل عليه الفطرة فلما لم يفعل ما خلق له ما فطر عليه عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك و المعاصي قال تعالى {اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً }الإسراء63 الى قوله{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً }الإسراء65 و قال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{100} النحل99-100 الآية و قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ {201} وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ{202} الأعراف201 -202 فتبين أن الإخلاص يمنع من تسلط الشيطان كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24 فكان إلهامه لفجوره عقوبة له و عدم فعل الحسنات ليس أمرا موجودا حتى يقال إن الله خلقه و من تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكر الله فى خلق الكفر و المعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ }الأنعام125 الآية و قال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }الصف5 و قال { وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} الليل 8-10 و هذا و أمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور و ترك مأمور وتلك الأمور إنما كانت منهم و خلقت فيهم لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له و لابد لهم من حركة و إرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات عدلا من الله حيث وضع ذلك موضعه فى محله القابل له و هو القلب الذي لا يكون الا عاملا فاذا لم يعمل الحسنة استعمل فى عمل السيئة كما قيل نفسك إن لم تشغلها شغلتك وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام طائفتى القدرية المكذبة و المجبرة الذين يقولون خلقها لذلك و التعذيب لهم ظلم يقال لهم إنما أوقعهم فيها و طبع على قلوبهم عقوبة لهم فما ظلمهم و لكن ظلموا أنفسهم يقال ظلمته إذا نقصته حقه قال تعالى {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً }الكهف33 وكثير منهم يسلمون أن الله خلق من الأعمال ما يكون جزاء على عمل متقدم و يقولون خلق طاعة المطيع لكن ما خلق شيئا من الذنوب إبتداء بل جزاء فيقولون أول ما يفعل العبد لم يحدثه الله و ما ذكرنا يوجب أن يكون الله خالق كل شيء لكن أولها عقوبة على عدم فعله لما خلق له و العدم لا يضاف الى الله فما أحدثه فأوله عقوبة على هذا العدم و سائرها قد يكون عقوبة على ما و جد و قد يكون عقوبة على إستمراره على العدم فما دام لا يخلص لله لا يزال مشركا و الشيطان مسلط عليه ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه بأن إستعمله إبتداء فيما خلق له تخصيص بفضله و هذا منه لا يوجب الظلم و لا يمنع العدل و لهذا يقول تعالى { وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ }البقرة105و كذلك الفضل هو أعلم به كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد فى غيرها و بسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض و جودية و غير ذلك من حكمته و تحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان قوله تعالى {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ }الأنعام110 هذا من تمام قوله { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ }الأنعام109 فذكر أن هذا التقليب يكون لمن لم يؤمنوا به أول مرة و هذا عدم الإيمان لكن يقال هذا بعد دعاء الرسول صلى الله عليه و سلم لهم و قد كذبوا و تركوا الإيمان و هذه أمور و جودية لكن الموجب هو عدم الإيمان و ما ذكر شرط فى التعذيب كإرسال الرسول فإنه قد

يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح لا يستحق به العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان و من الناس من يقول ضد الإيمان هو تركه و هو أمر و جودى لا ضد له إلا ذلك [1]

وجوب الايمان بالقدر

سئل شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس عن الحديث الذى و رد إن الله قبض قبضتين فقال هذه للجنة و لا أبالي و هذه للنار و لا أبالي فهل هذا الحديث صحيح و الله قبضها بنفسه أو امر أحدا من الملائكة بقبضها و الحديث الآخر فى إن الله لما خلق آدم أراه ذريته عن اليمين و الشمال ثم قال هؤلاء إلى النار و لا أبالي و هؤلاءإلى الجنة و لا أبالي و هذا فى الصحيح فأجاب رضي الله عنه نعم هذا المعنى مشهور عن النبى صلى الله عليه و سلم من وجوه متعددة مثل ما فى موطأ مالك و سنن أبى داود و النسائى و غيره عن مسلم بن يسار و فى لفظ عن نعيم بن ربيعة أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }الأعراف172 الآية فقال عمر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و فى لفظ سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم سئل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فإستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فإستخرج منه ذرية فقاله خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله إذا خلق الرجل للجنة إستعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة إذا خلق الرجل للنار إستعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار وفى حديث الحكم بن سفيان عن ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله قبض قبضة فقال إلى الجنة برحمتى و قبض قبضة فقال إلى النار و لا أبالي و هذا الحديث و نحوه فيه فصلان أحدهما القدر السابق و هو أن الله سبحانه علم أهل الجنة من أهل النار من قبل أن يعملوا الأعمال و هذا حق يجب الإيمان به بل قد نص الأئمة كمالك و الشافعي و أحمد أن من جحد هذا فقد كفر بل يجب الإيمان أن الله علم ما سيكون كله قبل أن يكون و يجب الإيمان بما أخبر به من أنه كتب ذلك و أخبر به قبل أن يكون كما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و كان عرشه على الماء و فى صحيح البخارى و غيره عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال كان الله و لا شيء غيره و كان عرشه على الماء و كتب فى الذكر كل شيء و خلق السموات و الأرض و في لفظ ثم خلق السموات و الأرض وفى المسند عن العرباض بن سارية عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إنى عند الله مكتوب بخاتم النبيين و أن آدم لمنجدل فى طينته و سأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى إبراهيم و بشرى عيسى و رؤيا أمي رأت حين و لدتني أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام و فى حديث ميسرة الحر قلت يا رسول الله متى كتبت نبيا و فى لفظ متى كنت نبيا قال و آدم بين الروح و الجسد وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو الصادق المصدوق إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 222-224 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص:334- 335 والحسنة والسيئة ج: 1 ص: 95

أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال أكتب رزقه و عمله و أجله و شقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح قال فوالذي نفس بيده أو قال فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وفى الصحيحين عن على بن أبي طالب رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ببقيع الغرقد في جنازة فقال ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار و مقعده من الجنة فقالوا يارسول الله أفلا نتكل على الكتاب و ندع العمل قال إعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة و أما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ قوله تعالى { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10}الليل5-10 وفى الصحيح أيضا أنه قيل له يارسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار فقال نعم فقيل له ففيم العمل قال إعملوا فكل ميسر لما خلق له فبين النبى صلى الله عليه و سلم أن الله علم أهل الجنة من أهل النار و أنه كتب ذلك و نهاهم أن يتكلوا على هذا الكتاب و يدعوا العمل كما يفعله الملحدون و قال كل ميسر لما خلق له و أن أهل السعادة ميسرون لعمل أهل السعادة و أهل الشقاوة ميسرون لعمل أهل الشقاوة و هذا من أحسن ما يكون من البيان وذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأمور على ما هي عليه و هو قد جعل للأشياء أسبابا تكون بها فيعلم أنه تكون بتلك الأسباب كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ إمرأة فيحبلها فلو قال هذا إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطء كان أحمق لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء و كذلك إذا علم أن هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء و يبذره من الحب فلو قال إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر كان جاهلا ضالا لأن الله علم أن سيكون بذلك و كذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل و هذا يروي بالشرب و هذا يموت بالقتل فلابد من الأسباب التى علم الله أن هذه الأمور تكون بها وكذلك إذا علم أن هذا يكون سعيدا فى الآخرة و هذا شقيا فى الآخرة قلنا ذلك لأنه يعمل بعمل الأشقياء فالله علم أنه يشقى بهذا العمل فلو قيل هو شقي و إن لم يعمل كان باطلا لأن الله لا يدخل النار أحدا إلا بذنبه كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص85 فأقسم أنه يملؤها من إبليس و أتباعه و من إتبع إبليس فقد عصى الله تعالى ولا يعاقب الله العبد على ما علم أنه يعمله حتى يعمله [1]

السعادة و الشقاوة بالأعمال

فاما قول القائل ان قوم قد خصوا بالسعادة و قوم قد خصوا بالشقاوة و السعيد لا يشقى و الشقي لا يسعد و فى الأعمال لا تراد لذاتها بل لجلب السعادة ودفع الشقاوة و قد سبقنا و جود الأعمال فلا وجه لإتعاب النفس فى عمل و لا كفها عن ملذوذ قال المكتوب فى القدم واقع لامحالة فهذه المسألة قد أجاب فيها رسول الله صلى الله عليه و سلم فى غير حديث ففي الصحيحين عن عمران بن حصين قال قيل يا رسول الله اعلم أهل الجنة من أهل النار قال نعم قيل ففيم يعمل العاملون قال كل ميسر لما خلق له و فى رواية البخاري قلت يارسول الله كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له رواه

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 65-69

مسلم فى صحيحه عن أبى الأسود الدؤلي قال قال لي عمران بن حصين أرأ يت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشيء قضي عليهم و مضى عليهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم فقلت بل شيء قضى عليهم و مضى عليهم قال فقال أفلا يكون ذلك ظلما قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا و قلت كل شيء خلق الله و ملك يده فلا يسأل عما يفعل و هم يسألون فقال يرحمك الله أني لم أراد بما سألتك إلا لأجود عقلك أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالا يارسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم و يكدحون فيه أشيء قضى عليهم و مضى فيهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم و ثبتت الحجة عليهم فقال لا بل شيء قضى عليهم و مضى فيهم و تصديق ذلك في كتاب الله { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8} الشمس 7-8 وروى مسلم فى صحيحه عن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال يارسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام و جرت به المقادير أم فيما يستقبل قال لا بل فيما جفت به الأقلام و جرت به المقادير قال ففيم العمل قال زهير ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه فسألت عما قال فقال إعملوا فكل ميسر و في لفظ آخر فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم كل عامل ميسر بعمله وفى الصحيحين عن علي بن أبى طالب رضي الله عنه قال كنا في جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقعد و قعدنا حواله و معه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا و قد كتب الله مكانها من الجنة و النار إلا و قد كتبت شقية أو سعيدة فقال رجل يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا و ندع العمل من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل أهل السعادة و من كان من أهل الشقاوة فسيصير الى عمل أهل الشقاوة فقال إعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة و أما أهل الشقاوة فسييسرون الى عمل أهل الشقاوة ثم قرأ { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} الليل 5-10 و فى رواية البخاري أفلا نتكل على كتابنا و ندع العمل فمن كان من أهل السعادة سيصير الى عمل أهل السعادة و من كان من أهل الشقاوة سيصيرالى عمل أهل الشقاوة و قال أما عمل أهل السعادة الحديث وفى رواية فى الصحيحين عن علي قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم و فى يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال ما منكم من نفس إلا و قد علم منزلها من الجنة و النار فقالوا يا رسول الله فلم نعمل أولا نتكل قال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} الليل 5-10 فقد أخبر النبى صلى الله عليه و سلم فى هذه الأحاديث و غيرها بما دل عليه القرآن أيضا من أن الله سبحانه و تعالى تقدم علمه و كتابه و قضاؤه بما سيصير إليه العباد من السعادة و الشقاوة كما تقدم علمه و كتابه بغير ذلك من أحوال العباد و غيرهم كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله و اجله و رزقه و شقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها و إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها و فى الصحيحين عن أنس بن مالك و رفع الحديث قال إن الله و كل بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة إ أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد أن يقضي خلقه قال الملك أي رب ذكر أو أنثى شقي أو سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب ذلك في بطن

أمه وهذا المعنى فى صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري أيضا والنصوص و الآثار فى تقدم علم الله و كتابته و قضائه و تقديره الأشياء قبل خلقها و أنواعها كثيرة جدا وقد بين النبى صلى الله عليه و سلم أن ذلك لا ينافى و جود الأعمال التى بها تكون السعادة و الشقاوة و إن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة و قد نهي أن يتكل الإنسان على القدر السابق و يدع العمل و لهذا كان من إتكل على القدر السابق و ترك ما أمر به من الأعمال هو من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا و كان تركهم لما يجب عليهم من العمل من جملة المقدور الذي الذي يسروا به لعمل أهل الشقاوة فإن أهل السعادة هم الذين يفعلون المأمور و يتركون المحظور فمن ترك العمل الواجب الذي أمر به و فعل المحظور متكلا على القدر كان من جملة أهل الشقاوة الميسرين لعمل أهل الشقاوة وهذا الجواب الذي أجاب به النبى صلى الله عليه و سلم فى غاية السداد و الإستقامة وهو نظير ما أجاب به فى الحديث الذي رواه الترمذي أنه قيل يارسول الله أريت أدوية نتداوى بها و رقى نسترقي بها و تقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وذلك لأن الله سبحانه و تعالى هو يعلم الأشياء على ما هي عليه و كذلك يكتبها فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل و غيره و قضى أنها تكون كذلك و قدر ذلك لم يجز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التى جعلها الله أسبابا و هذا عام فى جميع الحوادث مثال ذلك إذا علم الله و كتب أنه سيولد لهذين ولد و جعل الله سبحانه ذلك معلقا بإجتماع الأبوين على النكاح و إنزال الماء المهين الذي ينعقد منه الولد فلا يجوز أن يكون وجود الولد بدون السبب الذي علق به وجود الولد و الأسباب و إن كانت نوعين معتادة و غريبة فالمعتادة كولادة الآدمى من أبوين و الغريبة كولادة الإنسان من أم فقط كما ولد عيس أو من أب فقط كما ولدت حواء أو من غير أبوين كما خلق آدم أبو البشر من طين فجميع الأسباب قد تقدم علم الله بها و كتابته لها و تقديره إياها و قضاؤه بها كما تقدم ربط ذلك بالمسببات كذلك أيضا الأسباب التى بها يخلق النبات من إنزال المطر و غيره من هذا الباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ }البقرة164 وقال { فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ }الأعراف57 و قال { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ }الأنبياء30 و أمثال ذلك فجميع ذلك مقدر معلوم مقضى مكتوب قبل تكوينه فمن ظن أن الشىء إذا علم و كتب أنه يكفى ذلك فى و جوده و لا يحتاج إلى ما به يكون من الفاعل الذي يفعله و سائر الأسباب فهو جاهل ضال ضلالا مبينا من و جهين أحدهما من جهة كونه جعل العلم جهلا فإن العلم يطابق المعلوم و يتعلق به على ما هو عليه و هو سبحانه قد علم أن المكونات تكون بما يخلقه من الأسباب لأن ذلك هو الواقع فمن قال أنه يعلم شيئا بدون الأسباب فقد قال على الله الباطل و هو بمنزلة من قال أن الله يعلم أن هذا الولد و لد بلا أبوين و أن هذا النبات نبت بلا ماء فإن تعلق العلم بالماضي و المستقبل سواء فكما أن من أخبر عن الماضي بعلم الله بوقوعه بدون الأسباب يكون مبطلا فكذلك من أخبر عن المستقبل كقول القائل إن الله علم أنه خلق آدم من غير طين و علم أنه يتناسل الناس من غير تناكح و أنه أنبت الزرو ع من غير ماء و لا تراب فهو باطل ظاهر بطلانه لكل أحد و كذلك إخباره عن المستقبل و كذلك الأعمال هي سبب فى الثواب و العقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب و أنه قدر ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة و إنه علم ذلك كان هذا كذبا و بهتانا بخلاف ما إذا قال {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ }البقرة37 {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ }طه121 فإنه يكون صادقا فى ذلك و الله سبحانه علم ما يكون من آدم قبل أن يكون و هو عالم به بعد أن كان و كذلك كل ما أخبربه من قصص الأنبياء فإنه علم أنه أهلك نوح وعاد وثمود وفرعون و لوط و مدين و

غيرهم بذنوبهم و أنه نجى الأنبياء و من إتبعهم بإيمانهم و تقواهم كما قال {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }الأعراف165 و قال {فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }العنكبوت40 الآية و قال { ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ }الأنعام146 و قال { فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ }غافر21 و قال {فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ }الأنعام6 و قال {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {52} وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ{53}النمل52 و قال {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ }هود102 و قال {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف56 و قال {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً }الإسراء3 و قال { إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ {34} نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ{35}القمر34 و قال {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ }الأعراف137و أمثال ذلك فى القرآن كثير و كذلك خبره عما يكون من السعادة و الشقاوة بالأعمال كقوله {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ }الحاقة24 و قوله تعالى {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }الزخرف72 و قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ }الطور21 و قو له{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ }المؤمنون111 و قو له {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً }الإنسان12 الآيات و قو له {هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }المطففين36 و قو له { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48}المدثر 42-48 و أمثال هذا فى القرآن كثير جدا بين سبحانه فيما يذكره من سعادة الآخرة و شقاوتها أن ذلك كان بالأعمال المأمور بها و المنهي عنها كما يذكر نحو ذلك فيما يقضيه من العقوبات و المثوبات فى الدنيا أيضا و الوجة الثاني أن العلم بأن الشيء سيكون و الخبر عنه بذلك و كتابة ذلك لا يوجب إستغناء ذلك عما به يكون من الأسباب التى لا يتم إلا بها كالفاعل و قدرته و مشيئته فإن إعتقاد هذا غاية فى الجهل إذ هذا العلم ليس موجبا بنفسه لوجود المعلوم بإتفاق العلماء بل هو مطابق له على ما هو عليه لا يكسبه صفة و لا يكتسب منه صفة بمنزلة علمنا بالأمور التى قبلنا كالموجودات التى كانت قبل و جودنا مثل علمنا بالله و أسمائه و صفاته فإن هذا العلم ليس مؤثرا فى و جود المعلوم بإتفاق العلماء و إن كان من علومنا ما يكون له تأثير فى و جود المعلوم كعلمنا بما يدعونا الى الفعل و يعرفنا صفته و قدره فإن الأفعال الإختيارية لاتصدر إلا ممن له شعور و علم إذ الإرادة مشروطة بوجود العلم و هذا التفصيل الموجود فى علمنا بحيث ينقسم إلى علم فعلي له تأثير فى المعلوم و علم إنفعالي لا تأثير له فى و جود المعلوم هو فصل الخطاب في العلم فإن من الناس من يقول العلم صفة إنفعالية لا تأثير له فى المعلوم كما يقوله طوائف من أهل الكلام و منهم من يقول بل هو صفة فعلية له تأثير فى المعلوم كما يقوله طوائف من أهل الفلسفة و الكلام والصواب أنه نوعان كما بيناه و هكذا علم الرب تبارك و تعالى فإن علمه بنفسه سبحانه لا تأثير له فى و جود المعلوم و أما علمه بمخلوقاته التى خلقها بمشيئته و إرادته فهو مما له تأثير فى و جود معلوماته و القول في الكلام و الكتاب كالقول في العلم فإنه سبحانه و تعالى إذا خلق الشيءخلقه بعلمه و قدرته و مشيئته و لذلك كان الخلق مستلزما للعلم و دليلا عليه كما قال تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك14 و أما إذا أخبر بما سيكون قبل أن يكون فعلمه و

خبره حينئذ ليس هو المؤثر فى وجوده لعلمه وخبره به بعد وجوده لثلاثة أوجه أحدها أن العلم و الخبر عن المستقبل كالعلم و الخبر عن الماضي الثانى أن العلم المؤثر هو المستلزم للإرادة المستلزمة للخلق ليس هو ما يستلزم الخبر و قد بينا الفرق بين العلم العملي و العلم الخبري الثالث أنه لو قدر أن العلم و الخبر بما سيكون له تأثير فى و جود المعلوم المخبر به فلا ريب أنه لا بد مع ذلك من القدرة و المشيئة فلا يكون مجرد العلم موجبا له بدون القدرة و الإرادة فتبين أن العلم و الخبر و الكتاب لا يوجب الإكتفاء بذلك عن الفاعل القادر المريد مما يدل على ذلك أن الله سبحانه و تعالى يعلم و يخبر بما سيكون من مفعولات الرب كما يعلم أنه سيقيم القيامة و يخبر بذلك و مع ذلك فمعلوم أن هذا العلم و الخبر لا يوجب و قوع المعلوم المخبر به بدون الأسباب التى جعلها الله أسبابا له إذا تبين ذلك فقول السائل السعيد لايشقى و الشقي لا يسعد كلام صحيح أى من قدر الله أن يكون سعيدا يكون سعيدا لكن بالأعمال التى جعله يسعد بها و الشقي لا يكون شقيا إلا بالأعمال التى جعله يشقى بها التى من جملتها الإتكال على القدر و ترك الأعمال الواجبة وأما قوله و الأعمال لاتراد لذاتها بل لجلب السعادة و دفع الشقاوة و قد سبقنا و جود الأعمال فيقال له السابق نفس السعادة و الشقاوة أو تقدير السعادة و الشقاوة علما و قضاء و كتابا هذا موضع يشتبه و يغلط فيه كثير من الناس حيث لا يميزون بين ثبوت الشيء فى العلم و التقدير و بين ثبوته فى الوجود و التحقيق فإن الأول هو العلم به و الخبر عنه و كتابته و ليس شيء من ذلك داخلا فى ذاته و لا فى صفاته القائمة به ولهذا يغلط كثيرمن الناس فى قول النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح الذى رواه ميسرة قال قلت يارسول الله متى كنت نبيا و فى رواية متى كتبت نبيا قال و آدم بين الروح و الجسد فيظنون أن ذاته و نبوته و جدت حينئذ و هذا جهل فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره و قد قال له { بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ }يوسف3 و قال {وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَى }الضحى7 و في الصحيحين أن الملك قال له حين جاءه إقرأ فقال لست بقارئ ثلاث مرات ومن قال أن النبى صلى الله عليه و سلم كان نبيا قبل أن يوحى إليه فهو كافر بإتفاق المسلمين و إنما المعنى أن الله كتب نبوته فأظهرها و أعلنها بعد خلق جسد آدم و قبل نفخ الروح فيه كما أخبر أنه يكتب رزق المولود و أجله و عمله و شقاوته وسعادته بعد خلق جسده و قبل نفخ الروح فيه كما فى حديث العرباض بن سارية الذي رواه أحمد و غيره عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إني عبد الله و خاتم النبيين و فى رواية أني عبد الله لمكتوب خاتم النبيين و أن آدم لمجندل فى طينته و سأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم و بشرى عيس و رؤيا أمي رأت حين و لدتني أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكثير من الجهال المصنفين و غيرهم يرويه كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين و آدم لا ماء و لا طين و يجعلون ذلك و جوده بعينه و آدم لم يكن بين الماء و الطين بل الماء بعض الطين لا مقابله و إذا كان كذلك فإن قال السابق نفس السعادة و الشقاوة فقد كذب فإن السعادة إنما تكون بعد و جود الشخص الذي هو السعيد و كذلك الشقاوة لا تكون إلا بعد و جود الشقى كما أن العمل و الرزق لا يكون إلا بعد و جود العامل و لا يصير رزقا إلا بعد و جود المرتزق و إنما السابق هو العلم بذلك و تقديره لانفسه و عينه و إذا كان كذلك فالعمل أيضا سابق كسبق السعادة و الشقاوة و كلاهما معلوم مقدر و هما متأخران فى الوجود و الله سبحانه علم و قدر أن هذا يعمل كذا فيسعد به و هذا يعمل كذا فيشقى به و هو يعلم أن هذا العمل الصالح يجلب السعادة كما يعلم سائر الأسباب و المسببات كما يعلم أن هذا يأكل السم فيموت و أن هذا يأكل الطعام فيشبع و يشرب الشراب فيروى و ظهر فساد قول السائل فلا و جه لإتعاب النفس فى عمل و لا لكفها عن ملذوذات و المكتوب فى القدم و أقع لامحالة و ذلك أن المكتوب فى القدم هو سعادة السعيد لما يسر له من العمل الصالح و شقاوة الشقي لما يسر له من العمل السيء ليس المكتوب

أحدهما دون الآخر فما أمر به العبد من عمل فيه تعب أو إمتناع عن شهوة هو من الأسباب التى تنال بها السعادة والمقدر المكتوب هو السعادة و العمل الذي به ينال السعادة و إذا ترك العبد ما أمر به متكلا على الكتاب كان ذلك من المكتوب المقدور الذي يصير به شقيا و كان قوله ذلك بمنزلة من يقول أنا لا آكل و لا أشرب فإن كان الله قضى بالشبع و الري حصل و إلا لم يحصل أو يقول لا أجامع إمرأتى فإن كان الله قضى لي بولد فأنه يكون و كذلك من غلط فترك الدعاء أو ترك الإستعانة و التوكل ظانا أن ذلك من مقامات الخاصة ناظرا الى القدر فكل هؤلاء جاهلون ضالون و يشهد لهذا ما رواه مسلم في صحيحه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف و فى كل خير و احرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره بالحرص على ما ينفعه و الإستعانه بالله و نهاه عن العجز الذي هو الإتكال على القدر ثم أمره إذا أصابه شيء أن لا ييأس على ما فاته بل ينظر إلى القدر و يسلم الأمر لله فإنه هنا لا يقدر على غير ذلك كما قال بعض العقلاء الأمور أمران أمر فيه حيلة و أمر لاحيلة فيه فما فيه حيلة لا يعجز عنه و ما لا حيلة فيه لا يجزع منه و فى سنن أبى داود أن رجلين إختصما إلى النبى صلى الله عليه و سلم فقضى على أحدهما فقال المقضي عليه حسبنا الله و نعم الوكيل فقال النبى صلى الله عليه و سلم إن الله يلوم على العجز و لكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله و نعم الوكيل و فى الحديث الآخر الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و العاجز من إتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأمانى رواه إبن ماجه و الترمذى و قال حديث حسن و عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و العاجز من إتبع نفسه هواها و تمنى على الله عز وجل و من الناس من يصحفه فيقول الفاجر و إنما هو العاجز فى مقابلة الكيس كما فى الحديث الآخر كل شيء بقدر حتى العجز و الكيس

وهنا سؤال يعرض لكثير من الناس و هو أنه إذا كان المكتوب و اقعا لا محالة فلو لم يأت العبد بالعمل هل كان المكتوب يتغير و هذا السؤال يقال فى مسألة المقتول يقال لو لم يقتل هل كان يموت و نحو ذلك فيقال هذا لو لم يعمل عملا صالحا لما كان سعيدا و لو لم يعمل عملا سيئا لما كان شقيا و هذا كما يقال إن الله يعلم ما كان و ما يكون و ما لايكون لو كان كيف كان يكون فإن هذا من باب العلم و الخبر بما لا يكون لو كان كيف يكون كقوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }الأنبياء22 و قوله {ب وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ }الأنعام28 و قوله {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً }التوبة47 و قوله {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ }الأنفال23 و أمثال ذلك كما روى أنه يقال للعبد فى قبره حين يفتح له باب إلى الجنة و إلى النار و يقال هذا منزلك و لو عملت كذا وكذا أبدلك الله به منزلا آخر و كذلك يقال هذا لو لم يقتله هذا لم يمت بل كان يعيش إلا أن يقدر له سبب آخر يموت به و اللآزم فى هذه الجملة خلاف الواقع المعلوم و المقدور و التقدير للممتنع قد يلزمه حكم ممتنع و لا محذور فى ذلك و مما يشبه هذه المسألة أن النبى صلى الله عليه و سلم خرج يوم بدر فأخبر أصحابه بمصارع المشركين فقال هذا مصرع فلان و هذا مصرع فلان ثم أنه دخل العريش جعل يجتهد فى الدعاء و يقول اللهم أنجز لي ما و عدتني و ذلك لأن علمه بالنصر لايمنع أن يفعل السبب الذي به ينصر و هو الإستغاثة بالله و قد غلط بعض الناس هنا و ظن أن الدعاء الذي علم و قوع مضمونه كالدعاء الذي فى آخر سورة البقرة لا يشرع إلا عبادة محضة و هذا كقول بعضهم إن الدعاء ليس هو إلا عبادة محضة لأن المقدور كائن دعا أو لم يدع فيقال له إذا كان الله قد جعل الدعاء سببا لنيل المطلوب المقدر فكيف يقع بدون الدعاء و هو نظير قولهم أفلا ندع العمل و نتكل على الكتاب ومما يوضح ذلك أن الله قد علم و كتب أنه يخلق الخلق و يرزقهم و يميتهم

و يحييهم فهل يجوز أن يظن أن تقدم العلم و الكتاب معن لهذه الكائنات عن خلقه و قدرته و مشيئته فكذلك علم الله بما يكون من أفعال العباد و أنهم يسعدون بها و يشقون كما يعلم مثلا أن الرجل يمرض أو يموت بأكله السم أو جرحه نفسه و نحو ذلك و هذا الذي ذكرناه مذهب سلف الأمة و أئمتها وجمهور الطوائف من أهل الفقه و الحديث و التصوف و الكلام و غيرهم و إنما نازع فى ذلك غلاة القدرية و ظنوا أن تقدم العلم يمنع الأمر و النهي و صاورا فريقين فريق أقروا بالأمر و النهي و الثواب و العقاب و أنكروا أن يتقدم بذلك قضاء و قدر و كتاب و هؤلاء نبغوا فى أواخر عصر الصحابة فلما سمع الصحابة بدعم تبرؤا منهم كما تبرؤا منهم و رد عليهم عبد الله بن عمر و و عبد الله بن عباس و جابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع و غيرهم و قد نص الأئمة كمالك و الشافعي و أحمد على كفر هؤلاء الذين ينكرون علم الله القديم و الفريق الثانى من يقر بتقدم علم الله و كتابه لكن يزعم أن ذلك يغني عن الأمر و النهي و العمل و أنه لايحتاج إلى العمل بل من قضى له بالسعادة دخل الجنة بلا عمل أصلا و من قضى عليه بالشقاوة شقى بلا عمل فهؤلاء ليسوا طائفة معدودة من طوائف أهل المقالات و إنما يقوله كثير من جهال الناس و هؤلاء أكفر من أولئك و أضل سبيلا و مضمون قول هؤلاء تعطيل الأمر و النهي و الحلال و الحرام و الوعد و الوعيد وهؤلاء أكفر من اليهود و النصارى بكثير و هؤلاء هم الذين سأل السائل عن مقالتهم وأما جمهور القدرية فهم يقرون بالعلم و الكتاب المتقدم لكن ينكرون أن الله خلق أفعال العباد و أرادة الكائنات و تعارضهم القدرية المجبرة الذين يقولون ليس للعبد قدرة و لا إرادة حقيقية و لا هو فاعل حقيقة و كل هؤلاء مبتدعة ضلال و شر من هؤلاء من يجعل خلق الأفعال و إرادة الله الكائنات مانعة من الأمر و النهي كالمشركين الذين قالوا {س لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ }الأنعام148 فهؤلاء أكفر من اليهود و النصارى و مضمون قولهم تعطيل جميع ما جاءت به الرسل كلهم من الأمر و النهي ثم قولهم متناقض معلوم الفساد بالضرورة لا يمكن أن يحيى معه بنو آدم لإستلزامه فساد العباد فإنه إذا لم يكن على العباد أمر و نهي كان لكل أحد أن يفعل ما يهواه كما قال تعالى {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ }المؤمنون71 فإذا قيل أنه يمكن كل أحد مما يهواه من قتل النفوس و فعل الفواحش و أخذ الأموال و غير ذلك كان ذلك غاية الفساد و لهذا لا تعيش أمة من نبى آدم إلا بنوع من الشريعة التى فيها أمر و نهي و لو كانت بوضع بعض الملوك مع ما فيها من فساد من و جوه أخرى [1]

لطائف لغوية

1-ما موصولة كقوله تعالى { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3}الكافرون 3-2 و قوله { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء3 و هذا المعنى يجيء فى قوله{ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3[2]

ما هي لما لا يعلم و لصفات من يعلم و لهذا تكون للجنس العام لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته كما قال { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء3 أي الذي طاب و الطيب من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 272-289

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 238

النساء فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب و قصد هذه الصفة دون مجرد العين عبر ب ما و لو عبر ب من كان المقصود مجرد العين و الصفة للتعريف حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة كما إذا قلت جاءني من يعرف و من كان أمس في المسجد و من فعل كذا و نحو ذلك فالمقصود الإخبار عن عينه و الصلة للتعريف و إن كانت تلك الصفة قد ذهبت و منه قوله { وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} الشمس 5-7 على القول الصحيح إنها إسم موصول و المعنى و بانيها و طاحيها و مسويها و لما قال { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 أخبر ب من لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه و إن كان فعله للتزكية و التدسية قد ذهب فى الدنيا فالقسم هناك بالموصوف بحيث أنه إنما أقسم بهذا الموصوف و الصفة لازمة فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها و لا مطحية إلا بطاحيها و لا مسواة إلا بمسويها و أما المرء المزكى نفسه و المدسيها فقد انقضى عمله فى الدنيا و فلاحه و خيبته فى الآخرة ليسا مستلزما لذلك العمل و نحو هذا قوله {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3 [1]

2- قال الأئمة السعي في كتاب الله هو العمل والفعل دون العدو كما قال تعالى {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى }الليل4 وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً }الإسراء19 وقال تعالى {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا }البقرة205 وقال تعالى {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً }المائدة33 وقال عن فرعون {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى }النازعات22 وقال {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً }الإنسان22 [2]

3-وأما أفعاله المتعدية إلى المفعول به الحادثة كقوله تعالى { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى }الليل7 { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى }الليل10 [3]

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:596-597

[2] شرح العمدة ج: 4 ص: 600 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 151 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 259

[3] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 66

سورة الليل 12-16

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى{12} وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى{13} فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى{14} لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{16}

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }

فى آيات ثلاثة متناسبة متشابهة اللفظ والمعنى يخفى معناها على أكثر الناس قوله تعالى { قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{41} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{42} الحجر41-42 وقوله تعالى {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ }النحل9 وقوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى{12} وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى{13}الليل12-13 فلفظ هذه الآيات فيه أن السبيل الهادى هو على الله وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي فى الآية الأولى ثلاثة أقوال بخلاف الآيتين الأخرتين فإنه لم يذكر فيها إلا قولا واحدا فقال فى تلك الآية إختلفوا فى معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال أحدها أنه يعنى بقوله هذا الإخلاص فالمعنى أن الإخلاص طريق إلى مستقيم و على بمعنى إلى و الثانى هذا طريق على جوازه لأنى بالمرصاد فأجازيهم بأعمالهم وهو خارج مخرج الوعيد كما تقول للرجل تخاصمه طريقك على فهو كقوله {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }الفجر14 و الثالث هذا صراط على إستقامته أى أنا ضامن لإستقامته بالبيان والبرهان قال وقرأ قتادة ويعقوب هذا صراط على أى رفيع قلت هذه الأقوال الثلاثة قد ذكرها من قبله كالثعلبي والواحدي والبغوي وذكروا قولا رابعا فقالوا واللفظ للبغوى وهو مختصر الثعلبي قال الحسن معناه صراط مستقيم وقال مجاهد الحق يرجع إلى وعليه طريقه لا يعرج على شىء وقال الأخفش يعنى على الدلالة على الصراط المستقيم وقال الكسائى هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أى لا تفلت منى كما قال تعالى {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }الفجر14 وقيل معناه على إستقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية فذكروا الأقوال الثلاثة وذكروا قول الأخفش على الدلالة على الصراط المستقيم وهو يشبه القول الأخير لكن بينهما فرق فإن ذاك يقول على إستقامته الأدلة فمن سلكه كان على صراط مستقيم والآخر يقول على أن أدل الخلق عليه بإقامة الحجج ففى كلا القولين أنه بين الصراط المستقيم بنصب الأدلة لكن هذا جعل الدلالة عليه وهذا جعل عليه إستقامته أى بيان إستقامته وهما متلازمان ولهذا والله أعلم لم يجعله أبو الفرج قولا رابعا وذكروا القراءة الأخرى عن يعقوب وغيره أى رفيع قال البغوي وعبر بعضهم عنه رفيع أن ينال مستقيم أن يمال قلت القول الصواب هو قول أئمة السلف قول مجاهد ونحوه فإنهم أعلم بمعانى القرآن لا سيما مجاهد فإنه قال عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحه إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها وقال الثورى إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به والأئمة كالشافعى واحمد والبخارى ونحوهم يعتمدون على تفسيره والبخارى فى صحيحه أكثر ما

ينقله من التفسير ينقله عنه والحسن البصرى أعلم التابعين بالصرة وما ذكروه عن مجاهد ثابت عنه رواه الناس كابن أبى حاتم وغيره من تفسير ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{41} الحجر41 الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شىء وذكر عن قتادة أنه فسرها على قراءته وهو يقرأ على فقال فقال أى رفيع مستقيم وكذلك ذكر ابن أبى حاتم عن السلف أنهم فسروا آية النحل فروى من طريق ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قوله { قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 قال طريق الحق على الله وروى عن السدى انه قال الإسلام وعطاء قال هى طريق الجنة فهذه الأقوال قول مجاهد والسدى وعطاء فى هذه الآية هى مثل مجاهد والحسن فى تلك الآية وذكر ابن أبى حاتم من تفسير العوفى عن ابن عباس فى قوله {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 يقول على الله البيان أن يبين الهدى والضلالة وذكر ابن ابى حاتم فى هذه الآية ولم يذكر فى أية الحجر إلا قول مجاهد فقط وابن الجوزى لم يذكر فى آية النحل إلا هذا القول الثانى وذكره عن الزجاج فقال {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 القصد إستقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد إذا قصد بك إلى ما تريد قال الزجاج المعنى وعلى الله تبين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين وكذلك الثعلبى والبغوى ونحوهما لم يذكروا إلا هذا القول لكن ذكروه باللفظين قال البغوى يعنى بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل بيان الحق بالآيات والبراهين قال والقصد الصراط المستقيم {وَمِنْهَا جَآئِرٌ }النحل9 يعنى ومن السبيل ماهو جائر عن الإستقامة معوج فالقصد من السبيل دين الإسلام والجائر منها اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر قال جابر بن عبدالله { قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 بيان الشرائع والفرائض وقال عبدالله بن المبارك وسهل بن عبدالله قصد السبيل السنة ومنها جائر الأهواء والبدع دليله قوله تعالى {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }الأنعام153 ولكن البغوي ذكر فيها القول الآخر ذكره فى تفسير قوله تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى عن الفراء كما سيأتى فقد ذكر القولين فى الآيات الثلاث تبعا لما قبله كالثعلبى وغيره والمهدى}الليل12 ذكر فى الآية الأولى قولين من الثلاثة وذكر فى الثانية ما رواه العوفى وقولا آخر فقال قوله { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ }الحجر41 أى على أمرى وإرادتى وقيل هو على التهديد كما يقال على طريقك وإلى مصيرك وقال فى قوله {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 قال ابن عباس أى بيان الهدى من الضلال وقيل السبيل الإسلام {وَمِنْهَا جَآئِرٌ}النحل9 أى ومن السبيل جائر أى عادل عن الحق وقيل المعنى وعنها جائر أى عن السبيل ف من بمعنى عن وقيل معنى{ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل 9 سيركم ورجوعكم والسبيل واحدة بمعنى الجمع قلت هذا قول بعض المتأخرين جعل القصد بمعنى الإرادة أي عليه قصدكم للسبيل فى ذهابكم ورجوعكم وهو كلام من لم يفهم الآية فإن السبيل القصد هى السبيل العادلة أى عليه السبيل القصد و السبيل إسم جنس ولهذا قال { وَمِنْهَا جَآئِرٌ }النحل9 أى عليه القصد من السبيل ومن السبيل جائر فأضافه إلى إسم الجنس إضافة النوع إلى الجنس أى القصد من السبيل كما تقول ثوب خز ولهذا قال { قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 وأما من ظن أن التقدير قصدكم السبيل فهذا لا يطابق لفظ الآية ونظمها من وجوه متعددة وابن عطية لم يذكر فى آية الحجر إلا قول الكسائى وهو أضعف الأقوال وذكر المعنى الصحيح تفسيرا للقراءة الأخرى فذكر أن جماعة من السلف قرأوا على مستقيم من العلو والرفعة قال والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الإخلاص لما إستثنى إبليس من أخلص قال الله له هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بأغوائك أهله قال وقرأ جمهور الناس على مستقيم والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى إنقسام الناس إلى غاو ومخلص لما قسم إبليس هذين

القسمين قال الله هذا طريق على أى هذا أمر إلى مصيره والعرب تقول طريقك فى هذا الأمر على فلان أى إليه يصير النظر فى أمرك وهذا نحو قوله {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }الفجر14 قال والآية على هذه القراءة خبر يتضمن وعيدا قلت هذا قول لم ينقل عن احد من علماء التفسير لا فى هذه الآية ولا فى نظيرها وإنما قاله الكسائى لما اشكل لما أشكل عليه معنى الآية الذى فهمه السلف ودل عليه السياق والنظائر وكلام العرب لا يدل على هذا القول فإن الرجل وإن كان يقول لمن يتهدده ويتوعده على طريقك فإنه لا يقول إن طريقك مستقيم وأيضا فالوعيد إنما يكون للمسيء لا يكون للمخلصين فكيف يكون قوله هذا إشارة إلى إنقسام الناس إلى غاو ومخلص وطريق هؤلاء غير طريق هؤلاء هؤلاء سلكوا الطريق المستقيم التى تدل على الله وهؤلاء سلكوا السبيل الجائرة وأيضا فإنما يقول لغيره فى التهديد طريقك على من لا يقدر عليه فى الحال لكن ذاك يمر بنفسه عليه وهو متمكن منه كما كان أهل المدينة يتوعدون أهل مكة بأن طريقكم علينا لما تهددوهم بأنكم آويتم محمدا وأصحابه كما قال أبوجهل لسعد بن معاذ لما ذهب سعد إلى مكة لا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم فقال لئن منعتنى هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة أو نحو هذا فذكر أن طريقهم فى متجرهم إلى الشام عليهم فيتمكنون حينئذ من جزائهم ومثل هذا المعنى لا يقال فى حق الله تعالى فإن الله قادر على العباد حيث كانوا كما قالت الجن {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً }الجن12 وقال {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ }الشورى31 واذا كانت العرب تقول ما ذكره يقولون طريقك فى هذا ألأمر على فلان أى إليه يصير أمرك فهذا يطابق تفسير مجاهد وغيره من السلف كما قال مجاهد الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شىء فطريق الحق على الله وهو الصراط المستقيم الذى قال الله فيه { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ }الحجر41 كما فسرت به القراءة الأخرى فالصراط فى القرائتين هذا الصراط المستقيم الذى أمر الله المؤمنين أن يسألوه إياه فى صلاتهم فيقولوا{اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 وهو الذى وصى به فى قوله {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }الأنعام153 وقوله هذا إشارة إلى ما تقدم ذكره وقوله {إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }الحجر40 فتعبد العباد له بإخلاص الدين له طريق يدل عليه وهو طريق مستقيم ولهذا قال بعده {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}الحجر42 وابن عطية ذكر أن هذا معنى الآية فى تفسير الآية الأخرى مستشهدا به مع أنه لم يذكره فى تفسيرها فهو بفطرته عرف أن هذا معنى الآية ولكنه لما فسرها ذكر ذلك القول كأنه هو الذى إتفق أن رأى غيره قد قاله هناك فقال رحمه الله وقوله {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ }النحل9 وهذه أيضا من أجل نعم الله تعالى أى على الله تقويم طريق الهدى وتنبيه وذلك بنصب الأدلة وبعث الرسل وإلى هذا ذهب المتأولون قال ويحتمل أن يكون المعنى أن من سلك السبيل القاصد فعلى الله طريقه وإلى ذلك مصيره فيكون هذا مثل قوله {هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ }الحجر41 وضد قول النبى والشر ليس إليك أى لا يفضى إلى رحمتك وطريق إلى رحمتك وطريق قاصد معناه بين مستقيم قريب ومنه قول الراجز بعيد عن نهج الطريق القاصد قال والألف واللام فى السبيل للعهد وهى سبيل الشرع وليست للجنس ولو كانت للجنس لم يكن منها جائر وقوله {وَمِنْهَا جَآئِرٌ}النحل9 يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم كعباد الأصنام والضمير فى {وَمِنْهَا }النحل9 يعود على {السَّبِيلِ }النحل9 التى يتضمنها معنى الآية كأنه قال ومن السبيل جائر فأعاد عليها وإن كان لم يجز لها ذكر لتضمن لفظه السبيل بالمعنى لها قال ويحتمل أن يكون الضمير فى {وَمِنْهَا }النحل9 على سبيل الشرع المذكورة ويكون من

للتبعيض ويكون المراد فرق الضلالة من امة محمد كأنه قال ومن بنيات الطريق من هذه السبيل ومن شعبها جائر قلت سبيل أهل البدع جائرة خارجة عن الصراط المستقيم فيما إبتدعوا فيه ولا يقال إن ذلك من السبيل المشروعة وأما قوله إن قوله { قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9هى سبيل الشرع وهى سبيل الهدى والصراط المستقيم وأنها لو كانت للجنس لم يكن منها جائر فهذا أحد الوجهين فى دلالة الآية وهو مرجوح والصحيح الوجه الآخر أن السبيل إسم جنس ولكن الذى على الله هو القصد منها وهى سبيل واحد ولما كان جنسا قال {وَمِنْهَا جَآئِرٌ }النحل9 والضمير يعود على ما ذكر بلا تكلف وقوله لو كان للجنس لم يكن منها جائر ليس كذلك فإنها ليست كلها عليه بل إنما عليه القصد عليها وهى سبيل الهدى والجائر ليس من القصد وكأنه ظن أنه إذا كانت للجنس يكون عليه قصد كل سبيل وليس كذلك بل إنما عليه سبيل واحدة وهى الصراط المستقيم هى التى تدل عليه وسائرها سبل الشيطان كما قال {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }الأنعام153 وقد أحسن رحمه الله فى هذا الإحتمال وفى تمثيله ذلك بقوله { هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ }الحجر41 وأما آية الليل قوله {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }الليل12 فابن عطية مثلها بهذة الآية لكنه فسرها بالوجه الأول فقال ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعا أى تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك ومنهم الإدراك كما قال {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 ثم كل أحد يتكسب ما قدر له وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان ولو كان كذلك لم يوجد كافر قلت وهذا هو الذى ذكره ابن الجوزى وذكره عن الزجاج قال الزجاج إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال وهذا التفسير ثابت عن قتادة رواه بن عبدالحميد قال حدثنا يونس عن شيبان عن قتادة {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }الليل12 علينا بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته وكذلك رواه إبن أبى حاتم فى تفسير سعيد عن قتادة فى قوله {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }الليل12 يقول على الله البيان بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته لكن قتادة ذكر أنه البيان الذى أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه فتبين به حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته وأما الثعلبى والواحدى والبغوى وغيرهم فذكروا القولين وزادوا أقوالا أخر فقالوا واللفظ للبغوى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }الليل12 يعنى البيان قال الزجاج علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة وهو قوله قتادة قال على الله بين حلاله وحرامه وقال الفراء يعنى من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله تعالى {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد قال وقيل معناه إن علينا للهدى والإضلال كقوله بيدك الخير قلت هذا القول هو من الأقوال المحدثة التى لم تعرف عن السلف وكذلك ما أشبه فإنهم قالوا معناه بيدك الخير والشر والنبى فى الحديث الصحيح يقول والخير بيدك والشر ليس إليك والله تعالى خالق كل شيء لا يكون فى ملكه إلا ما يشاء والقدر حق لكن فهم القرآن ووضع كل شيء موضعه وبيان حكمة الرب وعدله مع الإيمان بالقدر هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان وقد ذكر المهدوى الأقوال الثلاثة فقال إن علينا لله للهدى والضلال فحذف قتادة المعنى إن علينا بيان الحلال والحرام وقيل المعنى إن علينا أن نهدى من سلك سبيل الهدى قلت هذا هو قول الفراء لكن عبارة الفراء أبين فى معرفة هذا القول فقد تبين أن جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لايدل إلا على الله ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين وأما الثانى فقد يقول طائفة ليس على الله شيء لا بيان هذا ولا هذا فإنهم متنازعون هل أوجب على نفسه كما قال { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ }الأنعام54 وقوله { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }الروم47 وقوله {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا }هود6 وإذا كان عليه بيان الهدى من الضلال وبيان حلاله وحرامه

وطاعته ومعصيته فهذا يوافق قول من يقول إن عليه إرسال الرسل وإن ذلك واجب عليه فإن البيان لا يحصل إلا بهذا وهذا يتعلق بأصل آخر وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه

أوجبته مشيئته وأنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن فما شاءه وجب وجوده ومالم يشأه إمتنع وجوده وبسط هذا موضع آخر ودلالة الآيات على هذا فيها نظر وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعا وأنه أرشد بها إلى الطريق المستقيم وهى الطريق القصد وهى الهدى إنما تدل عليه وهو الحق طريقه على الله لا يعرج عنه لكن نشأت الشبهة من كونه قال { عَلَيْنَا }الليل12 بحرف الإستعلاء ولم يقل إلينا والمعروف أن يقال لمن يشار إليه أن يقال هذه الطريق إلى فلان ولمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول طريقنا على فلان وذكر هذا المعنى بحرف الإستعلاء وهو من محاسن القرآن الذى لا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أى طريق سلكوا كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ }الانشقاق6 وقال { وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ }آل عمران28 {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ }الغاشية25 أي إلينا مرجعهم وقال {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {60} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ{61} ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ{62}الأنعام60-62 وقال { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى{36} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{37} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{38} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{39} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى{40} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى{41} وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى{42} النجم 36-42 وقال {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ }يونس46 فأي سبيل سلكها العبد فإلى الله مرجعه ومنتهاه لابد له من لقاء الله { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى }النجم31 وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى وهو الصراط المستقيم هو الذى يسعد أصحابه وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته فيكون الله وليهم دون الشيطان وهذه سبيل من عبدالله وحده وأطاع رسله فلهذا قال {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }الليل12 {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ }الحجر41 فالهدى وقصد السبيل والصراط المستقيم إنما يدل على عبادته وطاعته لا يدل على معصيته وطاعة الشيطان فالكلام تضمن معنى الدلالة إذ ليس المراد ذكر الجزاء فى الآخرة فإن الجزاء يعم الخلق كلهم بل المقصود بيان ما أمر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله ما الذى يدل على ذلك فكأنه قيل الصراط المستقيم يدل على الله على عبادته وطاعته وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم يقولون هذه الطريق على فلان إذا كانت تدل عليه وكان هو الغاية المقصود بها وهذا غير كونها عليه بمعنى أن صاحبها يمر عليه وقد قيل فهن المنايا أى واد سلكته عليها طريقى أو على طريقها وهو كما قال الفراء من سلك الهدى فعلى الله سبيله فالمقصود بالسبيل هو الذي يدل ويوقع عليه كما يقال إن سلكت هذه السبيل وقعت على المقصود ونحو ذلك وكما يقال على الخبير سقطت فإن الغاية المطلوبة إذا كانت عظيمة فالسالك يقع عليها ويرمى نفسه عليها وأيضا فسالك طريق الله متوكل عليه فلابد له من عبادته ومن التوكل عليه فإذا قيل عليه الطريق المستقيم تضمن أن سالكه عليه يتوكل وعليه تدل الطريق وعلى عبادته وطاعته يقع ويسقط لا يعدل عن ذلك إلى نحو ذلك من المعانى التى يدل عليها حرف الإستعلاء دون حرف الغاية وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط

مستقيم فعليه الصراط المستقيم وهو على صراط مستقيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا والله أعلم[1]

قال تعالى {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 أي القصد و هو السبيل العدل أي إليه تنتهي السبيل العادلة كما قال تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }الليل12 أي الهدي إلينا هذا أصح الأقوال فى الآيتين و كذلك قوله تعالى {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ }الحجر41 [2]

الصلى المطلق

وقوله { وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{12} ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى{13} الاعلى11-13 و قد ذكر فى سورة الليل قوله { فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى{14} لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{16} الليل 14-16 و هذا الصلي قد فسره النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها و لا يحيون و لكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد كان بالبادية و فى رواية ذكرها إبن أبي حاتم فقال ذكر عن عبدالصمد بن عبدالوارث ثنا أبى ثنا سليمان التيمي عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خطب فأتى على هذه { لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى }الأعلى13 فقال النبى صلى الله عليه و سلم أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها و لا يحيون و أما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم فيشفعون فيؤتى بهم إلى نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت الغثاء فى حميل السيل فقد بين النبى صلى الله عليه و سلم أن هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها و أن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم و أن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحما ثم يشفع فيهم فيخرجون و يؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل و هذا المعني مستفيض عن النبى صلى الله عليه و سلم بل متواتر فى أحاديث كثيرة في الصحيحين و غيرهما من حديث أبى سعيد و أبى هريرة و غيرهما و فيها الرد على طائفتين على الخوارج و المعتزلة الذين يقولون إن أهل التوحيد يخلدون فيها و هذه الآية حجة عليهم و على من حكي عنه من غلاة المرجئة أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء و أولئك و فيه رد على من يقول يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحدا النار كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعة و مرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة و هم الواقفة من أصحاب أبى الحسن و غيرهم كالقاضي أبى بكر و غيره فإن النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد و خروجهم و القول ب أن أحدا لا يدخلها من أهل التوحيد ما أعلمه ثابتا عن شخص معين فأحكيه عنه لكن حكي عن مقاتل بن سليمان و قال إحتج من قال ذلك بهذه الآية و قد أجيبوا بجوابين أحدهما جواب طائفة منهم الزجاج قالوا هذه نار مخصوصة لكن قوله بعدها و { وَسَيُجَنَّبُهَا

---

[1] دقائق التفسير ج: 3 ص: 148-153 ومجموع الفتاوى ج: 15 ص: 198-216

[2] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 231

الْأَتْقَى{17} الليل17 لا يبقى فيه كبير و عد فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها وجواب آخرين قالوا لا يصلونها صلي خلود و هذا أقرب و تحقيقه أن الصلي هنا هو الصلي المطلق و هو المكث فيها و الخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائما فأما من دخل و خرج فإنه نوع من الصلي ليس هو الصلي المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها و النار لم تأكله كله فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود و الله أعلم [1]

وقوله {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى }الليل15 لا يخلو إما أن يكون المراد بالصلي نوعا من التعذيب كما قيل إن الذي تصليه النار هو الذي تحيط به وأهل القبلة لا تحرق النار منهم مواضع السجود أو تكون نارا مخصوصة [2]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى{12} وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى{13}الليل12-14 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا }الأعراف43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام87 وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ }التوبة33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا[3]

وكذلك لفظ المعصية و الفسوق و الكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ }هود59 فأطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال { فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ }الملك9 ومعصية من كذب وتولى قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{16} الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال فى فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى }النازعات21 وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32}القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولى عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما اخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً{15} فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{16} المزمل16 ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله {

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:194- 197

[2] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 298

[3] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }الفتح16 وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ {16} المزمل 16 وقد قيل ان التأبيد لم يذكر في القرآن الا فى وعيد الكفار ولهذا قال {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً }النساء93 وقال فيمن يجوز فى المواريث {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ }النساء14 فهنا قيد المعصية بتعدى حدوده فلم يذكرها مطلقة[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 59-60

الليل17-21

{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21}

إسم الله العلى

وإسمه العلى يفسر بهذين المعنيين يفسر بأنه أعلى من غيره قدرا فهو أحق بصفات الكمال و يفسر بأنه العالي عليهم بالقهر و الغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم و هم المقدورون و هذا يتضمن كونه خالقا لهم و ربا لهم و كلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شيء فلا شيء فوقه كما قال النبى صلى الله عليه و سلم أنت الأول فليس قبلك شيء و أنت الآخر فليس بعدك شيء و أنت الظاهر فليس فوقك شيء و أنت الباطن فليس دونك شيء فلا يكون شيء قبله و لا بعده و لا فوقه و لا دونه كما أخبر النبى صلى الله عليه و سلم و أثنى به على ربه و إلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصا و كان ذلك أعلى منه وإن قيل إنه لا داخل العالم و لا خارجه كان ذلك تعطيلا له فهو منزه عن هذا و هذا هو العلي الأعلى مع أن لفظ العلي و العلو لم يستعمل فى القرآن عند الإطلاق إلا فى هذا و هو مستلزم لذينك لم يستعمل فى مجرد القدرة و لا فى مجرد الفضيلة و لفظ العلو يتضمن الإستعلاء و غير ذلك من الأفعال إذا عدى بحرف الإستعلاء دل على العلو كقوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف54 فهو يدل على علوه على العرش و السلف فسروا الإستواء بما يتضمن الإرتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري فى صحيحه عن أبي العالية فى قوله { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف54 قال إرتفع و كذلك رواه ابن أبي حاتم و غيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبى إياس عن أبى جعفر عن أبى الربيع عن أبى العالية { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف54 قال إرتفع[1]

يغتذي القلب من الايمان والقرآن

ويغتذي القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يتغذى البدن بما ينميه ويوقمه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة في اللغة النماء والزيادة في الصلاح يقال زكا الشيء إذا نما في الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 358-359

زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 17-20 وكذلك ترك الفواحش يزكو به القلب وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الاخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع فإذا استفرغ البدن من الاخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب إذاتاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر شيئا فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل التزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا وقال فصلت وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات إليهة الحق في القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب و التزكية جعل الشيء زكيا إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر كما يقال عدلته إذا جعلته عدلا في نفسه أو في اعتقاد الناس[1]

توحيد العلم والعمل

ان لفظ الايمان انما يستعمل فى بعض الاخبار وهو مأخوذ من الأمن كما ان الاقرار مأخوذ من قر فالمؤمن صاحب امن كما ان المقر صاحب اقرار فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه فاذا كان عالما بأن محمدا رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس بمؤمن به بل كافر به ومن هذا الباب كفر ابليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وغير هؤلاء فان ابليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا بل استكبر عن امر ربه وفرعون وقومه قال الله فيهم {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً }النمل14 وقال له موسى { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ }الإسراء102 وقال تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ }البقرة146 فمجرد علم القلب بالحق ان لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان وان من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه وهذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به وحينئذ فالايمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف الايمان قول وعمل ثم انه اذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة فان الارادة الجازمة اذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا وانما ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة او لعدم كمال الارادة والا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختيارى فاذا اقر

---

[11] أمراض القلوب ج: 1 ص: 5

القلب اقرارا تاما بان محمدا رسول الله واحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك لكن ان كان عاجزا لخرس ونحوه او الخوف ونحوه لم يكن قادرا على النطق بهما

و ابو طالب وان كان عالما بان محمدا رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبته لله بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبوبه هو الرئاسة فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بهما زوال دينه الذى يحبه فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يقر بهما فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه ابو بكر الذى قال الله فيه {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل 17-21 وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلى غيرهم لنطق بالشهادتين قطعا فكان حبه حبا مع الله لا حبا لله ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرته لأنه لم يعمله لله والله لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه بخلاف الذى فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى وهذا مما يحقق ان الايمان والتوحيد لابد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلابد من اخلاص الدين لله والدين لا يكون دينا الا بعمل فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد انزل الله عز وجل سورتى الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هو الله احد احداهما فى توحيد القول والعلم و الثانية فى توحيد العمل والارادة فقال فى الأول { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثانى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} الكافرون1-6 فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عباده غير الله واخلاص العبادة لله[1]

اصل الدين وقاعدته

ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه امركم وعبادة الله تتضمن كمال محبة الله وكمال الذل لله فاصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو المعبود الذى تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه و والإله ما تألهه القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك والله سبحانه وتعالى أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته وبرجائه وعن سؤال ما سواه بسؤاله وعن العمل لما سواه بالعمل له وعن الإستعانة بما سواه بالإستعانة به ولهذا كان وسط الفاتحة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى فإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى على عبدى وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل وإذا قال إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل فوسط السورة إياك نعبد وإياك نستعين فالدين أن لا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا إياه والملائكة والأنبياء وغيرهم عباد الله كما

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:271- 286 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص:324- 325

قال الله تعالى { لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{172} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{173}النساء172-173 فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح وحب اليهود لموسى وحب الرافضة لعلى وحب الغلاة لشيوخهم وأئمتهم مثل من يوالى شيخا أو إماما وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو متساويان فى الرتبة فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد الذين يوالون الشيوخ والأئمة دون البعض وإنما المؤمن من يوالى جميع أهل الإيمان قال الله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }الحجرات10 وقال النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه وقال مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وقال عليه السلام لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ومما يبين الحب لله والحب لغير الله ان أبا بكر كان يحب النبى مخلصا لله وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله فتقبل الله عمل أبى بكر وانزل فيه { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل17-21 واما ابو طالب فلم يتقبل عمله بل ادخله النار لأنه كان مشركا عاملا لغير الله وابو بكر لم يطلب اجره من الخلق لا من النبى ولا من غيره بل من آمن به وأحبه وكلأه واعانه بنفسه وماله متقربا بذلك إلى الله وطالبا الاجر من الله ورسوله يبلغ عن الله امره ونهيه ووعده ووعيده قال تعالى { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ }الرعد40 والله هو الذى يخلق ويرزق ويعطى ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل وهو سبحانه مسبب الأسباب ورب كل شىء ومليكه والأسباب التى يفعلها العباد مما أمر الله به وأباحه فهذا يسلك وأما ما ينهى عنه نهيا خالصا أو كان من البدع التى لم يأذن الله بها فهذا لا يسلك[1]

إخلاص الدين لله واجب فى جميع العبادات

فإن الله يجزى المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين والمتصدق يتصدق لوجه الله ولا يطلب أجره من المخلوقين بل من الله تعالى كما قال تعالى { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل17-21 وقال تعالى {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ }البقرة265 الآية وقال عن عبادة الصالحين {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }الإنسان9 ولهذا لا ينبغى لأحد أن يسأل بغير الله مثل الذى يقول كرامة لابى بكر ولعلى أو للشيخ فلان أو الشيخ فلان بل لا يعطى إلا من سأل لله وليس لأحد أن يسأل لغير الله فإن إخلاص الدين لله واجب فى جميع العبادات البدنية والمالية كالصلاة والصدقة والصيام والحج فلا يصلح الركوع والسجود إلا لله ولا الصيام إلا لله ولا الحج إلا إلى بيت الله ولا الدعاء إلا لله قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ }الأنفال39 وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ

---

[1] ب مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 319 ومجموع الفتاوى ج: 11 ص:525- 526

الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 وقال تعالى { تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1} إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} الزمر 1-2 وهذا هو اصل الإسلام وهو أن لا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بالبدع كما قال تعالى { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }الكهف110 وقال تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }هود7 قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قالوا يا ابا على ما اخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة والكتاب[1]

نعيم الآخرة لمن كان مؤمنا تقيا فقيرا كان أو غنيا

والاحسان إلى الفقراء الذين ذكرهم الله فى القرآن قال الله فيهم {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ }البقرة271 إلى قوله {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ }البقرة273 وأهل الفىء وهم الفقراء المجاهدون الذين قال الله فيهم {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً }الحشر8 الآية والمحسن إليهم وإلى غيرهم عليه ان يبتغى بذلك وجه الله ولا يطلب من مخلوق لا فى الدنيا ولا فى الآخرة كما قال تعالى {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل17-21 وقال { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً{8} إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً{9}الإنسان8 -9 الأية ومن طلب من الفقراء الدعاء أو الثناء خرج من هذه الآية فان فى الحديث الذى فى سنن أبى داود من اسدى إليكم معروفا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تعلموا انكم قد كافأتموه ولهذا كانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بهدية تقول للمرسول اسمع ما دعوا به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا ويبقى اجرنا على الله وقال بعض السلف إذا اعطيت المسكين فقال بارك الله عليك فقل بارك الله عليك اراد انه إذا اثابك بالدعاء فادع له بمثل ذلك الدعاء حتى لا تكون اعتضت منه شيئا هذا والعطاء لم يطلب منهم وقد قال النبى ما نفعنى مال كمال أبى بكر انفقه يبتغى به وجه الله كما اخبر الله عنه لا يطلب الجزاء من مخلوق لا نبى ولا غيره لا بدعاء ولا شفاعة وقول القائل ان للفقراء فى الآخرة دولة واى دولة فهذا كذب بل الدولة لمن كان مؤمنا تقيا فقيرا كان أو غنيا وقال تعالى { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ{14} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ{15} الآيتين وقال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14}الانفطار 13-14 وقال تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص28 ونظير هذا فى القرآن كثير ومع هذا فالمؤمنون الانبياء وسائر الأولياء لا يشفعون لاحد إلا باذن الله كما قال تعالى { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة255 وقال { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى }الأنبياء28 وقال تعالى {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ }الانفطار19 فمن احسن إلى مخلوق يرجو ان ذلك المخلوق يجزيه يوم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 147-148

القيامة كان من الاخسرين اعمالا {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً }الكهف104 بل إنما يجزى على الأعمال يومئذ الواحد القهار الذى إليه الاياب والحساب الذى لا يظلم مثقال ذرة وان تكن حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما ولا يقبل من العمل إلا ما اريد به وجهه[1]

ألاحسان الى الناس لله لا لرجائهم

إن الله سبحانه غنى حميد كريم واجد رحيم فهو سبحانه محسن الى عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر لا لجلب منفعة اليه من العبد ولا لدفع مضرة بل رحمة وإحسانا والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما وإن كان ذلك أيضا من تيسير الله تعالى فإنهم لا يفعلون ذلك الا لحظوظهم من العبد اذا لم يكن العمل لله فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك وكذلك من أحب إنسانا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه فهو يجب أن ينال حظه من تلك المحبة ولولا التلذاذه بها لما أحبه وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو ولو بالدعاء أو الثناء فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله فاجناد الملوك وعبيد المالك وأجراء الصانع وأعوان الرئيس كلهم إنما يسعون فى نيل أغراضهم به لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد علم وأدب من جهة أخرى فيدخل ذلك فى الجهة الدينية أو يكون فيها طبع عدل وإحسان من باب المكأفاة والرحمة والا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه وهذا من حكمة الله التى أقام بها مصالح خلقه وقسم بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا قال الله تعالى {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }الزخرف32 إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر اذا لم يراع العدل فإذا دعوته فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه والرب سبحانه يريدك لك ولمنفعتك بك لا لينتفع بك وذلك منفعة عليك بلا مضرة فتدبر هذا فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجوا المخلوق أو تطلب منه منفعة لك فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول كما أنه لا يقدر عليه ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الإحسان اليهم وإحتمال الأذى منهم بل أحسن اليهم لله لا لرجائهم وكما لا تخفهم فلا ترجهم وخف الله فى الناس ولا تخف الناس فى الله وارج الله فى الناس ولا ترج الناس فى الله وكن ممن قال الله فيه { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل 17-21 وقال فيه {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }الإنسان9 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 111

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 31

قلب الإيمان

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة255 فالعبادة والإستعانة وما يدخل فى ذلك من الدعاء والإستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والإستغفار كل هذا لله وحده لا شريك له فالعبادة متعلقة بألوهيته والإستعانة متعلقة بربوبيته والله رب العالمين لا إله إلا هو ولا رب لنا غيره لا ملك ولا نبى ولا غيره بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له ندا وهو خلقك والشرك أن تجعل لغيره شركا أو نصيبا فى عبادتك وتوكلك وإستعانتك وكذلك الزكاة العامة من الصدقات كلها والخاصة لا يتصدق إلا لله كما قال تعالى { وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 19-20[1]

الايمان التام فى القلب يقتضى الإستسلام لله

إذا قرن الإيمان بالإسلام فإن الإيمان فى القلب والاسلام ظاهر كما فى المسند عن النبي أنه قال الاسلام علانية والإيمان فى القلب والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الإستسلام لله والانقياد له والا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والإنقياد باطنا ولا يحصل ذلك فى الظاهر مع القدرة عليه كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانا جازما امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم إنتفاء الإيمان القلبى التام وبهذا يظهر خطأ جهم ومن إتبعه فى زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع فى الآخرة فإن هذا ممتنع إذ لا يحصل الايمان التام فى القلب إلا ويحصل فى الظاهر موجبه بحسب القدرة فان من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبا جازما

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 75

وهو قادر على مواصلته ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك وأبو طالب إنما كانت محبته للنبى صلى الله عليه وسلم لقرابته منه لا لله وإنما نصره ودب عنه لحمية النسب والقرابة ولهذا لم يتقبل الله ذلك منه وإلا فلو كان ذلك عن إيمان فى القلب لتكلم بالشهادتين ضرورة والسبب الذي أوجب نصره للنبى صلى الله عليه وسلم وهو الحمية هو الذي أوجب امتناعه من الشهادتين بخلاف أبي بكر الصديق ونحوه قال الله تعالى { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 18-20 [1]

حكم سؤال المخلوق المخلوق

وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما فى قوله تعالى{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 وهذا لأن العلم يجب بذله فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة وهو يزكو على التعليم لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل ولهذا يشبه بالمصباح وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة لصاحبها أن يسألها ممن هى عنده وكذلك مال الفيء وغيره من الأموال المشتركة التى يتولى قسمتها ولى الأمر للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية لأن المستولى يجب عليه أداء الحق الى مستحقه ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه اليه فالبائع يسأل الثمن والمشترى يسأل المبيع ومن هذا الباب قوله تعالى {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً }النساء1 ومن السؤال ما لا يكون مأمورا به والمسئول مأمور بإجابة السائل قال تعالى { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ }الحج36 ومنه الحديث ان أحدكم ليسألنى المسألة فيخرج بها يتأبطها نارا وقوله اقطعوا عنى لسان هذا وقد يكون السؤال منهيا عنه نهى تحريم أو تنزيه وإن كان المسئول مأمورا بإجابة سؤاله فالنبى كان من كماله أن يعطى السائل وهذا فى حقه من فضائله ومناقبه وهو واجب أو مستحب وإن كان نفس سؤال السائل منهيا عنه ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئا من ذلك ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين كما أشار عليه عمر فى بعض مغازيه لما استأذنوه فى نحر بعض ظهرهم فقال عمر يا رسول الله كيف بنا إذا لقينا العدو غدا رجالا جياعا ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو الله بالبركة فإن الله يبارك لنا فى دعوتك وفى رواية فإن الله سيغيثنا بدعائك وإنما كان سأله ذلك بعض المسلمين كما سأله الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره وكما سألته أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس وكما سأله أبو هريرة أن يدعو الله أن يحببه وأمه الى عباده المؤمنين ونحو ذلك وأما الصديق فقد قال الله فيه وفى مثله { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21}الليل 17-21 وقد ثبت فى الصحاح عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم ان أمن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 553

الناس علينا فى صحبته وذات يده أبو بكر ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا فلم يكن فى الصحابة أعظم منه من الصديق فى نفسه وماله وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاءا من مخلوق فقال تعالى { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل 17-21 فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى فإنه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد والنبي كان له على أبي بكر وعلى غيره نعمة الإيمان والعلم وتلك النعمة لا تجزى فإن أجر الرسول فيها على الله كما قال تعالى {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ }الشعراء109 وأما على وزيد وغيرهما فإن النبي كان له عندهم نعمة تجزى فإن زيدا كان مولاه فاعتقه قال تعالى {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ }الأحزاب37 وعلى كان فى عيال النبى لجدب أصاب أهل مكة فأراد النبى والعباس التخفيف عن أبى طالب من عياله فأخذ النبى عليا الى عياله وأخذ العباس جعفرا الى عياله وهذا مبسوط فى موضع آخر والمقصود هنا أن الصديق كان أمن الناس فى صحبته وذات يده لأفضل الخلق رسول الله لكونه كان ينفق ماله فى سبيل الله كاشترائه المعذبين ولم يكن النبى محتاجا فى خاصة نفسه لا الى أبى بكر ولا غيره بل لما قال له فى سفر الهجرة ان عندى راحلتين فخذ احداهما فقال النبى بالثمن فهو أفضل صديق لأفضل نبى وكان من كماله أنه لا يعمل ما يعمله الا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من أحد من الخلق لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم ومن الجزاء أن يطلب الدعاء قال تعالى عمن أثنى عليهم {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }الإنسان9 والدعاء جزاء كما فى الحديث من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه وكانت عائشة إذا أرسلت الى قوم بصدقة تقول للرسول اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا ويبقى أجرنا على الله وقال بعض السلف إذا قال لك السائل بارك الله فيك فقل وفيك بارك الله فمن عمل خيرا مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبيا أو رجلا صالحا أو ملكا من الملوك أو غنيا من الأغنياء فهذا العامل للخير مأمور بأن يفعل ذلك خالصا لله يبتغى به وجه الله لا يطلب به من المخلوق جزاء ولا دعاء ولا غيره لا من نبى ولا رجل صالح ولا من الملائكة فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين وهذا هو دين الإسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل فلا يقبل من أحد دينا غيره[1]

الإرادة التى يحبها الله ورسوله

فإن الحى لابد له من ارادة فلا يمكن حيا أن لا تكون له إرادة فإن الإرادة التى يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر إستحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له والله تعالى وصف الأنبياء والصديقين بهذه الإرادة فقال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }الأنعام52 وقال تعالى {وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 19-20 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 186-188

[2] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 495

وكذلك الزكاة العامة من الصدقات كلها والخاصة لا يتصدق إلا لله كما قال تعالى {وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 19-20 [1]

و قوله صلى الله عليه وسلم من هم بحسنة و من هم بسيئة إنما هو في المؤمن الذى يهم بسيئة أو حسنة يمكنه فعلها فربما فعلها وربما تركها لأنه أخبر أن الحسنة تضاعف بسمعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وهذا إنما هو لمن يفعل الحسنات لله كما قال تعالى {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ }البقرة261 و { ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ }البقرة265 و {ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى }الليل20 وهذا للمؤمنين فإن الكافر وإن كان الله يطعمه بحسناته فى الدنيا وقد يخفف عنه بها فى الآخرة كما خفف عن أبى طالب لإحسانه إلى النبى وبشفاعة النبى فلم يوعد لكافر على حسناته بهذا التضعيف وقد جاء ذلك مقيدا فى حديث آخر أنه فى المسلم الذى هو حسن الإسلام والله سبحانه أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم [2]

فضل الصديق رضى الله عنه

قال الله تعالى { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 17-20 ذكر المفسرون مثل ابن جرير الطبري وعبد الرحمن بن أبي حاتم وغيرهما بالأسانيد عن عروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن المسيب وغيرهم أنها نزلت في أبي بكر [3]

وأما الصديق فقد قال الله فيه وفى مثله { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 17-20 وقد ثبت فى الصحاح عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم ان أمن الناس علينا فى صحبته وذات يده أبو بكر ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا فلم يكن فى الصحابة أعظم منه من الصديق فى نفسه وماله وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاءا من مخلوق فقال تعالى { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 17-20 فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى فإنه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد والنبى كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم وتلك النعمة لا تجزى فإن أجر الرسول فيها على الله كما قال تعالى وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى إلا على رب العالمين وأما على وزيد وغيرهما فإن النبى كان له عندهم نعمة تجزى فإن زيدا كان مولاه فاعتقه قال تعالى وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك وعلى كان فى عيال النبى لجدب أصاب أهل مكة فأراد النبى والعباس التخفيف عن أبى طالب من عياله فأخذ النبى عليا الى عياله وأخذ العباس جعفرا الى عياله وهذا مبسوط فى موضع آخر والمقصود هنا أن الصديق كان أمن الناس فى صحبته وذات يده لأفضل[4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 75
[2] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 769
[3] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 555
[4] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 186

الأدلة على ان أبا بكر من المقصودين بالآية

في الصحيحين انه قال لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا و هذا الحديث مستفيض بل متواتر عند أهل العلم بالحديث فإنه قد اخرج في الصحاح من وجوه متعددة من حديث ابن مسعود وأبي سعيد و ابن عباس و ابن الزبير و هو صريح في انه لم يكن عنده من أهل الأرض أحد احب إليه من آبي بكر فإنه الخلة هي كمال الحب و هذا لا يصلح إلا لله فإذا كانت ممكنة و لم يصلح لها إلا أبو بكر علم انه احب الناس إليه و قوله في الحديث الصحيح لما سئل أي الناس احب إليك قال عائشة قيل من الرجال قال أبوها و قول الصحابة أنت خيرنا و سيدنا وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يقوله عمر بين المهاجرين و الأنصار و لا ينكر ذلك منكر و أيضا فالنبي صلى الله عليه و سلم محبته تابعة لمحبة الله و أبو بكر احبهم إلى الله تعالى فهو احبهم إلى رسوله و إنما كان كذلك لأنه اتقاهم و أكرمهم وأكرم الخلق علي الله تعالى اتقاهم بالكتاب و السنة و إنما كان اتقاهم لأن الله تعالى قال { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل17-21 و أئمة التفسير يقولون إنه أبو بكر و نحن نبين صحة قولهم بالدليل فنقول الأتقى قد يكون نوعا و قد يكون شخصا وإذا كان نوعا فهو يجمع أشخاصا فإن قيل انهم ليس فيهم شخص هو اتقى كان هذا باطلا لأنه لا شك إن بعض الناس اتقى من بعض مع أن هذا خلاف قول أهل السنة و الشيعة فإن هؤلاء يقولون إن اتقى الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم من هذه الأمة هو أبو بكر و هؤلاء يقولون هو علي و قد قال بعض الناس هو عمر و يحكى عن بعض الناس غير ذلك و من توقف أو شك لم يقل انهم مستوون في التقوى فإذا قال انهم متساوون في الفضل فقد خالف إجماع الطوائف فتعين إن يكون هذا اتقى و إن كان الأتقى شخصا فإما إن يكون أبا بكر أو عليا فإنه إذا كان اسم جنس يتناول من دخل فيه و هو النوع و هو القسم الأول أو معينا غيرهما و هذا القسيم منتف باتفاق أهل السنة و الشيعة و كونه عليا باطل أيضا لأنه قال { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل18-21 و هذا الوصف منتف في علي لوجوه أحدها إن هذه السورة مكية بالاتفاق و كان علي فقيرا بمكة في عيال النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن له مال ينفق منه بل كان النبي صلى الله عليه وسلم قد ضمه إلى عياله لما أصابت أهل مكة سنة الثاني انه قال و { وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى } الليل19 و علي كان للنبي صلى الله عليه و سلم عنده نعمة تجزى و هو إحسانه إليه لما ضمه إلى عياله بخلاف أبي بكر فإنه لم يكن له عنده نعمة دنيوية لكن كان له عنده نعمة الدين و تلك لا تجزى فإن اجر النبي صلى الله عليه و سلم فيها على الله لا يقدر أحد يجزيه فنعمة النبي صلى الله عليه وسلم عند آبي بكر دينية لا تجزى و نعمته عند علي دنيوية تجزى ودينية و هذا الأتقى ليس لأحد عنده نعمة تجزى و هذا الوصف لأبى بكر ثابت دون علي فان قيل المراد به انه انفق ماله لوجه الله لا جزاء لمن انعم عليه و إذا قدر أن شخصا أعطى من احسن إليه أجرا و أعطى شيئا آخر لوجه الله كان هذا مما ليس لأحد عنده من نعمة تجزى قيل هب إن الأمر كذلك لكن علي لو انفق لم ينفق إلا فيما يأمره به النبي صلى الله عليه و سلم و النبي له عنده نعمة تجزى فلا يخلص إنفاقه عن المجازاة كما يخلص إنفاق أبي بكر و علي اتقى من غيره لكن أبا بكر اكمل في وصف التقوى مع إن لفظ الآية انه ليس عنده قط لمخلوق نعمة تجزى و هذا وصف من يجازي الناس على إحسانهم إليه فلا يبقى لمخلوق عليه منة و هذا الوصف منطبق على أبي بكر انطباقا لا يساويه فيه أحد من المهاجرين فإنه لم يكن في المهاجرين عمر و عثمان و علي و غيرهم رجل اكثر إحسانا إلى الناس قبل الإسلام و بعده بنفسه و ماله من أبي بكر كان مؤلفا محببا يعاون

الناس على مصالحهم كما قال فيه ابن الدغنة سيد القارة لما أراد إن يخرج من مكة مثلك يا أبا بكر لا يخرج و لا يخرج فإنك تحمل الكل و تقري الضيف و تكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق و في صلح الحديبية لما قال لعروة بن مسعود امصص بظر اللات أنحن نفر عنه و ندعه قال لأبى بكر لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك و ما عرف قط إن أحدا كانت له يد على أبي بكر في الدنيا لا قبل الإسلام و لا بعده فهو أحق الصحابة { وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى} الليل19 فكان أحق الناس بالدخول في الآية و أما علي رضي الله عنه فكان للنبي صلى الله عليه و سلم عليه نعمة دنيوية و في المسند لأحمد أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه و يقول إن خليلي امرني أن لا أسال الناس شيئا و في المسند و الترمذي وأبي داود حديث عمر قال عمر امرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم إن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت اليوم اسبق أبا بكر إن سبقته يوما فجئت بنصف مالي فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم ما أبقيت لأهلك فقلت مثله قال و اتى أبو بكر بكل ما عنده فقال ما أبقيت لأهلك قال أبقيت لهم الله و رسوله فقلت لا أسابقك إلى شيء أبدا فأبو بكر رضي الله عنه جاء بماله كله و مع هذا فلم يكن يأكل من أحد لا صدقة و لا صلة و لا نذرا بل كان يتجر و يأكل من كسبه و لما ولي الناس و اشتغل عن التجارة بعمل المسلمين أكل من مال الله و رسوله الذي جعله الله له لم يأكل من مال مخلوق و أبو بكر لم يكن النبي صلى الله عليه و سلم يعطيه شيئا من الدنيا يخصه به بل كان في المغازي كواحد من الناس بل يأخذ من ماله ما ينفقه على المسلمين و قد استعمله النبي صلى الله عليه و سلم و ما عرف انه أعطاه عمالة و قد أعطى عمر عمالة و أعطى عليا من الفيء و كان يعطي المؤلفة قلوبهم من الطلقاء و أهل نجد و السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار لا يعطيهم كما فعل في غنائم حنين و غيرها و يقول إني لأعطي رجالا و ادع رجالا و الذي ادع احب إلي من الذي أعطي أعطى رجالا لما في قلوبهم من الجزع و الهلع و أكل رجالا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى و الخير و لما بلغه عن الأنصار كلام سألهم عنه فقالوا يا رسول الله أما ذوو الرأي منا فلم يقولوا شيئا و أما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا و يتركنا و سيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون إن يذهب الناس بالأموال و ترجعوا إلى رحالكم برسول الله فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يا رسول الله قد رضينا قال فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله و رسوله على الحوض قالوا سنصبر و قوله تعالى {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل17-21 استثناء منقطع و المعنى لا يقتصر في العطاء على من له عنده يد يكافئه بذلك فان هذا من العدل الواجب للناس بعضهم على بعض بمنزلة المعاوضة في المبايعة و المؤاجرة و هذا واجب لكل أحد على كل أحد فإذا لم يكن لأحد عنده نعمة تجزى لم يحتج إلى هذه المعادلة فيكون عطاؤه خالصا لوجه ربه الأعلى بخلاف من كان عنده لغيره نعمة يحتاج إن يجزيه لها فإنه يحتاج أن يعطيه مجازاة له على ذلك و هذا الذي ما لأحد عنده من نعمة تجزى إذا أعطى ماله يتزكى فانه في معاملته للناس يكافئهم دائما و يعاونهم و يجازيهم فحين أعطاه الله ماله يتزكى لم يكن لأحد عنده من نعمة تجزى و فيه أيضا ما يبين أن التفضيل بالصدقة لا يكون إلا بعد أداء الواجبات من المعاوضات كما قال تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ }البقرة219 و من تكون عليه ديون و فروض و غير ذلك أداها و لا يقدم الصدقة على قضاء هذه الواجبات و لو فعل ذلك فهل ترد صدقته على قولين معروفين للفقهاء و هذه الآية يحتج بها من ترد صدقته لأن الله إنما أثنى على من اتى ماله يتزكى و ما لأحد عنده من نعمة تجزى فإذا كان عنده نعمة تجزى فعليه إن يجزيها

قبل إن يؤتي ماله يتزكى فإما إذا آتى ماله يتزكى قبل إن يجزيها لم يكن ممدوحا فيكون عمله مردودا لقوله عليه الصلاة والسلام من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد الثالث انه قد صح عن النبي صلى الله عليه و سلم انه قال ما نفعني مال كمال أبي بكر و قال إن أمن الناس علينا في صحبته و ذات يده أبو بكر بخلاف علي رضي الله عنه فإنه لم يذكر عنه النبي صلى الله عليه و سلم شيئا من إنفاق المال و قد عرف إن أبا بكر اشترى سبعة من المعذبين في الله في أول الإسلام و فعل ذلك ابتغاء لوجه ربه الأعلى لم يفعل ذلك كما فعله أبو طالب الذي أعان النبي صلى الله عليه و سلم لأجل نسبه وقرابته لا لأجل الله تعالى و لا تقربا إليه و إن كان الأتقى اسم جنس فلا ريب انه يجب أن يدخل فيه اتقى الأمة و الصحابة خير القرون فأتقاها اتقى الأمة وأتقى الأمة إما أبو بكر وإما علي وإما غيرهما و الثالث منتف بالإجماع و علي إن قيل انه يدخل في هذا النوع لكونه بعد أن صار له مال اتى ماله يتزكى فيقال أبو بكر فعل ذلك في أول الإسلام وقت الحاجة إليه فيكون اكمل في الوصف الذي يكون صاحبه هو الأتقى و أيضا فالنبي صلى الله عليه و سلم إنما كان يقدم الصديق في المواضع التي لا تحتمل المشاركة كاستخلافه في الصلاة و الحج و مصاحبته وحده في سفر الهجرة و مخاطبته و تمكينه من الخطاب و الحكم والإفتاء بحضرته و رضاه بذلك إلى غير ذلك من الخصائص التي يطول وصفها و من كان اكمل في هذا الوصف كان اكرم عند الله فيكون احب إليه فقد ثبت بالدلائل الكثيرة إن أبا بكر هو اكرم الصحابة في الصديقية و افضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون و من كان اكمل في ذلك كان افضل و أيضا فقد ثبت في النقل الصحيح عن علي انه قال خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر و عمر و استفاض ذلك و تواتر عنه و توعد بجلد المفتري من يفضله عليه و روي عنه انه سمع ذلك من النبي صلى الله عليه و سلم و لا ريب أن عليا لا يقطع بذلك إلا عن علم و أيضا فإن الصحابة اجمعوا على تقديم عثمان الذي عمر افضل منه و أبو بكر افضل منهما و هذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع[1]

بيان بطلان استشهاد الرافضي

قال الرافضي وأما قوله { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} الليل 17 فإن المراد به أبو الدحداح حيث اشترى نخلة لشخص لأجل جاره وقد عرض النبي صلى الله عليه وسلم على صاحب النخلة نخلة في الجنة فسمع أبو الدحداح فاشتراها ببستان له ووهبها الجار فجعل النبي صلى الله عليه وسلم له بستانا عوضها في الجنة والجواب أن يقال لا يجوز أن تكون هذه الآية مختصة بأبي الدحداح دون أبي بكر باتفاق أهل العلم بالقرآن وتفسيره وأسباب نزوله وذلك أن هذه السورة مكية باتفاق العلماء وقصة أبي الدحداح كانت بالمدينة باتفاق العلماء فإنه من الأنصار والأنصار إنما صحبوه بالمدينة ولم تكن البساتين وهي الحدائق التي تسمى بالحيطان إلا بالمدينة فمن الممتنع أن تكون الآية لم تنزل إلا بعد قصة أبي الدحداح بل إن كان قد قال بعض العلماء إنها نزلت فيه فمعناه أنه ممن دخل في الآية وممن شمله حكمها وعمومها فإن كثيرا ما يقول بعض الصحابة والتابعين نزلت هذه الآية في كذا ويكون المراد بذلك أنها دلت على هذا الحكم وتناولته وأريد بها هذا الحكم ومنهم من يقول بل قد تنزل الآية مرتين مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب فعلى قول هؤلاء يمكن أنها نزلت مرة ثانية في

---

[11] منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 375-385 و منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 14

قصة أبي الدحداح وإلا فلا خلاف بين أهل العلم أنها نزلت بمكة قبل أن يسلم أبو الداحداح وقبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أنها نزلت في قصة أبي بكر فذكر ابن جرير في تفسيره بإسناده عن عبد الله بن الزبير وغيره أنها نزلت في أبي بكر وكذلك ذكره ابن أبي حاتم والثعلبي أنها نزلت في أبي بكر عن عبد الله وعن سعيد بن المسيب وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي حدثنا محمد بن أبي عمر العدني حدثنا سفيان حدثنا هشام بن عروة عن أبيه قال أعتق أبو بكر سبعة كلهم يعذب في الله بلالا وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة وأم عميس وأمه بني المؤمل قال سفيان فأما زنيرة فكانت رومية وكانت لبني عبد الدار فلما أسلمت عميت فقالوا أعمتها اللات والعزى قالت فهي كافرة باللات والعزى فرد الله إليها بصرها وأما بلال فاشتراه وهو مدفون في الحجارة فقالوا لو أبيت إلا أوقية لبعناكه فقال أبو بكر لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته قال وفيه نزلت { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} الليل 17 إلى آخر السورة وأسلم وله أربعون ألفا فأنفقها في سبيل الله ويدل على أنها نزلت في أبي بكر وجوه أحدها أنه قال { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} الليل 17 وقال {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }الحجرات13 فلا بد أن يكون أتقى الأمة داخلا في هذه الآية وهو أكرمهم عند الله ولم يقل أحد إن أبا الدحداح ونحوه أفضل وأكرم من السابقين الأولين من المهاجرين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم بل الأمة كلهم سنيهم وغير سنيهم متفقون على أن هؤلاء وأمثالهم من المهاجرين أفضل من أبي الدحداح فلا بد أن يكون الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى فيهم وهذا القائل قد ادعى أنها نزلت في أبي الدحداح فإذا كان القائل قائلين قائلا يقول نزلت فيه وقائلا يقول نزلت في أبي بكر كان هذا القائل هو الذي يدل القرآن على قوله وإن قدر عموم الأية لهما فأبو بكر أحق بالدخول فيها من أبي الدحداح وكيف لا يكون كذلك وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما نفعني مال قط كمال أبي بكر فقد نفى عن جميع مال الأمة أن ينفعه مال أبي بكر فكيف تكون تلك الأموال المفضولة دخلت في الآية والمال الذي هو أنفع الأموال له لم يدخل فيها الوجه الثاني أنه إذا كان الأتقى هو الذي يؤتى ماله يتزكى وأكرم الخلق أتقاهم كان هذا أفضل الناس والقولان المشهوران في هذه الآية قول أهل السنة أن أفضل الخلق أبو بكر وقول الشيعة علي فلم يجز أن يكون الأتقى الذي هو أكرم الخلق على الله واحدا غيرهما وليس منهما واحد يدخل في الأتقى وإذا ثبت أنه لا بد من دخول أحدهما في الأتقى وجب أن يكون أبو بكر داخلا في الآية ويكون أولى بذلك من علي لأسباب أحدها أنه قال { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} الليل18وقد ثبت في النقل المتواتر في الصحاح وغيرها أن أبا بكر أنفق ماله وأنه مقدم في ذلك على جميع الصحابة كما ثبت في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه عاصبا رأسه بخرقة فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن خلة الإسلام أفضل سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد إلا خوخة أبي بكر وفي الصحيحين عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم إن أمن الناس في صحبته وماله أبو بكر وفي البخاري عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت وواساني بنفسه ماله فهل أنتم تاركوا لي صاحبي مرتين فما أوذى بعدها وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر فبكى أبو بكر وقال هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله وعن عمر قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما فجئت بنصف مالي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قلت مثله وجاء أبو بكر بماله كله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك قال أبقيت لهم الله ورسوله فقلت لا

أسابقك إلى شيء أبدا رواه أبو داود والترمذي وصححه فهذه النصوص الصحيحة المتواترة الصريحة تدل على أنه كان من أعظم الناس إنفاقا لماله فيما يرضى الله ورسوله وأما علي فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمونه لما أخذه من أبي طالب لمجاعة حصلت بمكة وما زال علي فقيرا حتى تزوج بفاطمة وهو فقير وهذا مشهور معروف عن أهل السنة والشيعة وكان في عيال النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له ما ينفقه ولو كان له مال لأنفقه لكنه كان منفقا عليه لا منفقا السبب الثاني قوله {وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى} الليل 19 وهذه لأبي بكر دون علي لأن أبا بكر كان للنبي صلى الله عليه وسلم عنده نعمة الإيمان أن هداه الله به وتلك النعمة لا يجزى بها الخلق بل أجر الرسول فيها على الله كما قال تعالى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ }ص86 وقال قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ }سبأ47 وأما النعمة التي يجزى بها الخلق فهي نعمة الدنيا وأبو بكر لم تكن للنبي صلى الله عليه وسلم عنده نعمة الدنيا بل نعمة دين بخلاف علي فإنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم عنده نعمة دنيا يمكن أن تجزى

الثالث أن الصديق لم يكن بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم سبب يواليه لأجله ويخرج ماله إلا الإيمان ولم ينصره كما نصره أبو طالب لأجل القرابة وكان عمله كاملا في إخلاصه لله تعالى كما قال { إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل 20- 21 وكذلك خديجة كانت زوجته والزوجة قد تنفق مالها على زوجها وإن كان دون النبي صلى الله عليه وسلم وعلي لو قدر أنه أنفق لكان أنفق على قريبه وهذه أسباب قد يضاف الفعل إليها بخلاف إنفاق أبي بكر فإنه لم يكن له سبب إلا الإيمان بالله وحده فكان من أحق المتقين بتحقيق قوله { إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}الليل20 وقوله { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 17- 20 إستثناء منقطع والمعنى لا يقتصر في العطاء على من له عنده نعمة يكافئه بذلك فإن هذا من باب العدل الواجب للناس بعضهم على بعض بمنزلة المعاوضة في المبايعة والمؤاجرة وهو واجب لكل أحد على أحد فإذا لم يكن لأحد عنده نعمة تجزى لم يحتج إلى هذه المعاوضة فيكون عطاؤه خالصا لوجه ربه الأعلى بخلاف من كان عنده لغيره نعمة يحتاج أن يجزيه بها فإنه يحتاج أن يعطيه مجازاة على ذلك وهذا الذي ما لأحد عنده من نعمة تجزى إذا أعطى ماله يتزكى في معاملته للناس دائما يكافئهم ويعاوضهم ويجازيهم فحين إعطائه ماله يتزكى لم يكن لأحد عنده من نعمة تجزى وفيه أيضا ما يبين أن الفضل بالصدقة لا يكون إلا بعد أداء الواجب من المعاوضات كما قال تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ }البقرة219 فمن عليه ديون من أثمان وقرض وغير ذلك فلا يقدم الصدقة على قضاء هذه الواجبات ولو فعل ذلك فهل ترد صدقته على قولين معروفين للفقهاء فهذه الآية يحتج بها من صدقته لأن الله تعالى إنما أثنى على من آتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى فإذا كان عنده نعمة تجزى فعليه أن يجزى بها قبل أن يؤتى ماله يتزكى فإذا آتى ماله يتزكى قبل أن يجزى بها لم يكن ممدوحا فيكون عمله مردودا لقوله صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد الرابع أن هذه الآية إن قدر أنه دخل فيها من دخل من الصحابة فأبو بكر أحق الأمة بالدخول فيها فيكون هو الأتقى من هذه الأمة فيكون أفضلهم وذلك لأن الله تعالى وصف الأتقى بصفات أبو بكر أكمل يها من جميع الأمة وهو قوله { الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} الليل 18 وقوله { وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} الليل 19- 20 أما إيتاء المال فقد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إنفاق أبي بكر أفضل من إنفاق غيره وأن معاونته له بنفسه وماله أكمل من معاونة غيره وأما ابتغاء التي تجزى فأبو بكر لم يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم مالا قط ولا حاجة دنيوية وأنه كان يطلب منه العلم لقوله الذي ثبت في الصحيحين أنه قال

للنبي صلى الله عليه وسلم علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ولا أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم مالا يخصه به قط بل إن حضر غنيمة كان كآحاد الغانمين وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ماله كله وأما غيره من المنفقين من الأنصار وبني هاشم فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم مالا يعطى غيرهم فقد أعطى بني هاشم وبني المطلب من الخمس ما لم يعط غيرهم واستعمل عمر وأعطاه عماله وأما أبو بكر فلم يعطه شيئا فكان أبعد الناس من النعمة التي تجزى وأولاهم بالنعمة التي لا تجزى وأما إخلاصه في ابتغاء وجه ربه الأعلى فهو أكمل الأمة في ذلك فعلم أنه أكمل من تناولته الآية في الصفات المذكورة كما أنه أكمل من تناول قوله{وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ }الزمر33 وقوله { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى }الحديد10 وقوله {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ }التوبة100 وأمثال ذلك من الآيات التي فيها مدح المؤمنين من هذه الأمة فأبو بكر أكمل الأمة في الصفات التي يمدح الله بها المؤمنين فهو أولاهم بالدخول فيها وأكمل من دخل فيها فعلم أنه أفضل الأمة [1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21}الليل 17-21 اسم الوجه فى الكتاب والسنة إنما يذكر فى سياق العبادة له والعمل له والتوجه إليه فهو مذكور فى تقرير ألوهيته وعبادته وطاعته لا فى تقرير وحدانية كونه خالقا وربا وذلك المعنى هو العلة الغائية وهذا هو العلة الفاعلية والعلة الغائية هى المقصودة التى هى أعلى وأشرف بل هى علة فاعلية للعلة الفاعلية ولهذا قدمت فى مثل قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 وفى مثل قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 [2]

[1] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 493-505

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 30

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الضحى
93

رقية محمود الغرايبة

~§§ الضحى(مكية)11 §§~

سورة الضحى1-4

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالضُّحَى{1} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{2} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{3} وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى{4}

اقسامه سبحانه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة عليه

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1]

الخطاب فى القرآن

فإن الإنسان إنما ذكر مخبرا عنه لم يخاطب و الرسول هو الذي أنزل عليه القرآن و الخطاب فى هذه السور له كقوله {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى } الضحى3 و قوله {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } الشرح1 و قوله{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ } العلق1 والإنسان إذا خوطب قيل له {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } الانفطار6 {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً } الانشقاق6 و أيضا فبتقدير أن يكون خطابا للإنسان يجب أن يكون خطابا للجنس كقوله {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ } الانشقاق6[2]

فقوله فى هذه السورة {اقْرَأْ } العلق1 كقوله فى آخرها {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } العلق19 و قوله { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ{9} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ{10} وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ{11} الضحى 9-11 هذا متناول لجميع الأمة و قوله {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ {1} قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً{2} المزمل1-2 فإنه كان خطابا للمؤمنين كلهم و كذلك قوله { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2} المدثر1-2 لما أمر بتبليغ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 285

ما أنزل إليه من الإنذار و هذا فرض على الكفاية فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه و ينذروا كما أنذر قال تعالى { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }التوبة122 و الجن لما سمعوا القرآن { وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ }الأحقاف29 [1]

فنبوته صلى الله عليه وسلم لم يكن وجودها حتى نبأه الله تعالى

فنبوته صلى الله عليه وسلم لم يكن وجودها حتى نبأه الله تعالى على رأس أربعين سنة من عمره كما قال تعالى له { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى{6} وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَى{7} وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى{8}الضحى6-8 [2]

يغلط كثير من الناس فى قول النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح الذى رواه ميسرة قال قلت يارسول الله متى كنت نبيا و فى رواية متى كتبت نبيا قال و آدم بين الروح و الجسد فيظنون أن ذاته و نبوته و جدت حينئذ و هذا جهل فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره و قد قال له { بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ }يوسف3 و قال {وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَى }الضحى7 و في الصحيحين أن الملك قال له حين جاءه إقرأ فقال لست بقارئ ثلاث مرات ومن قال أن النبى صلى الله عليه و سلم كان نبيا قبل أن يوحى إليه فهو كافر بإتفاق المسلمين و إنما المعنى أن الله كتب نبوته فأظهرها و أعلنها بعد خلق جسد آدم و قبل نفخ الروح فيه كما أخبر أنه يكتب رزق المولود و أجله و عمله و شقاوته وسعادته بعد خلق جسده و قبل نفخ الروح فيه كما فى حديث العرباض بن سارية الذي رواه أحمد و غيره عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إني عبد الله و خاتم النبيين و فى رواية أني عبد الله لمكتوب خاتم النبيين و أن آدم لمجندل فى طينته و سأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم و بشرى عيس و رؤيا أمي رأت حين و لدتني أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكثير من الجهال المصنفين و غيرهم يرويه كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين و آدم لا ماء و لا طين و يجعلون ذلك و جوده بعينه و آدم لم يكن بين الماء و الطين بل الماء بعض الطين لا مقابله [3]

أصل العلم الإلهى ومبدأه

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ }سبأ50 وقال {وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَى }الضحى7 وقال {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:327- 328

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 149

[3] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 278

الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ }يوسف3 فأخبر انه كان قبله من الغافلين وقال {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 وفى صحيح البخارى فى خطبة عمر لما توفى النبى كلام معناه أن الله هدى نبيكم بهذا القرآن فاستمسكوا به فإنكم وتقرير الحجة فى القرآن بالرسل كثير كقوله {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }النساء165[1]

لفظ الهدى اذا أطلق

قال تعالى {وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدَى }الضحى7 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا }الأعراف43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام87 وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ }التوبة33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{71} الصافات69 -71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ{67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{68}الأحزاب67 -68 وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }النجم2 وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ }القمر47[2]

أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه

قال تعالى { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى}الضحى6 اليتيم فى الآدميين من فقد أباه لأن أباه هو الذى يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق ولهذا كان تابعا فى الدين لوالده وكان نفقته عليه وحضانته عليه والانفاق هو الرزق و الحضانة هى النصر لأنها الايواء ودفع الأذى فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه لأن الانسان ظلوم جهول والمظلوم عاجز ضعيف فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضى ومن جهة ضعف المانع ويتولد عنه فسادان ضرر اليتيم الذى لا دافع عنه ولا يحسن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 2

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

اليه وفجور الآدمى الذى لا وازع له فلهذا أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه فى آيات كثيرة مثل قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }البقرة83 وقوله {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ }البقرة177 الى قوله {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ }البقرة177 وقوله {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }البقرة215[1]

المسئول مأمور بإجابة السائل

ومن السؤال ما لا يكون مأمورا به والمسئول مأمور بإجابة السائل قال تعالى {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ }الضحى10 وقد يكون السؤال منهيا عنه نهى تحريم أو تنزيه وإن كان المسئول مأمورا بإجابة سؤاله فالنبى كان من كماله أن يعطى السائل وهذا فى حقه من فضائله ومناقبه وهو واجب أو مستحب وإن كان نفس سؤال السائل منهيا عنه ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئا من ذلك ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين كما أشار عليه عمر فى بعض مغازيه لما استأذنوه فى نحر بعض ظهرهم فقال عمر يا رسول الله كيف بنا إذا لقينا العدو غدا رجالا جياعا ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو الله بالبركة فإن الله يبارك لنا فى دعوتك وفى رواية فإن الله سيغيثنا بدعائك وإنما كان سأله ذلك بعض المسلمين كما سأله الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره وكما سألته أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس وكما سأله أبو هريرة أن يدعو الله أن يحببه وأمه الى عباده المؤمنين ونحو ذلك [2]

ان النفوس لاتقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها

فليس حسن النية بالرعية والاحسان اليهم ان يفعل ما يهوونه ويترك ما يكرهونه فقد قال الله تعالى {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ}المؤمنون71 وقال تعالى للصحابة{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ }الحجرات7 وإنما الاحسان اليهم فعل ما ينفعهم فى الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه لكن ينبغى له ان يرفق بهم فيما يكرهونه ففى الصحيحين عن النبى انه قال ما كان الرفق فى شئ إلا زانه ولا كان العنف فى شئ إلا شانه وقال إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول والله انى لأريد أن أخرج لهم المرة من الحق فأخاف ان ينفروا عنها فأصبر حتى تجئ الحلوة من الدنيا فأخرجها معها فاذا نفروا لهذه سكنوا لهذه وهكذا كان النبى إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول وسأله مرة بعض أقاربه أن يوليه على الصدقات ويرزقه منها فقال ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد فمنعهم إياها وعوضهم من الفئ وتحاكم اليه على وزيد وجعفر فى ابنه حمزة فلم يقض بها لواحد منهم ولكن قضى بها لخالتها ثم إنه طيب قلب كل واحد منهم بكلمة حسنة فقال لعلى أنت منى وأنا منك وقال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 110

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 186

لجعفر أشبهت خلقى وخلقى وقال لزيد انت أخونا ومولانا فكهذا ينبغى لولى الأمر فى قسمه وحكمه فان الناس دائما يسألون ولى الأمر مالا يصلح بذله من الولايات والأموال والمنافع والأجور والشفاعة فى الحدود وغير ذلك فيعوضهم من جهة أخرى إن أمكن أو يردهم بميسور من القول مالم يحتج إلى الاغلاظ فان رد السائل يؤلمه خصوصا من يحتاج الى تأليفه وقد قال الله تعالى {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ }الضحى10 وقال الله تعالى {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً }الإسراء26 إلى قوله {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً }الإسراء28 وإذا حكم على شخص فانه قد يتأذى فاذا طيب نفسه بما يصلح من القول والعمل كان ذلك تمام السياسة وهو نظير ما يعطيه الطبيب للمريض من الطب الذى يسوغ الدواء الكريه وقد قال الله لموسى عليه السلام لما أرسله إلى فرعون {فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }طه44 وقال النبى لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا وبال مرة أعرابى فى المسجد فقام أصحابه اليه فقال لاتزرموه ألا تقطعوا عليه بوله ثم أمر بدلو من ماء فصب عليه وقال النبى إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين والحديثان فى الصحيحين وهذا يحتاج اليه الرجل فى سياسة نفسه وأهل بيته ورعيته فان النفوس لاتقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها التى هى محتاجة اليها فتكون تلك الحظوظ عباده لله وطاعة له مع النية الصالحة ألا ترى ان الأكل والشرب واللباس واجب على الانسان حتى لو اضطر الى الميتة وجب عليه الأكل عند عامة العلماء فان لم يأكل حتى مات دخل النار لأن العبادات لاتؤدى غلا بهذا ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب اضطر الى الميتة وجب عليه الأكل عند عامة العلماء فان لم يأكل حتى مات دخل النار لأن العبادات لاتؤدى غلا بهذا ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولهذا كانت نفقة الإنسان على نفسه وأهله مقدمه على غيرها ففى السنن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله تصدقوا فقال رجل يارسول الله عندى دينار فقال تصدق به على نفسك قال عندى آخر قال تصدق به على زوجتك قال عندى آخر قال تصدق به على ولدك قال عندى آخر قال تصدق به على خادمك قال عندى آخر قال انت أبصر به وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجر الذى أنفقتة على أهلك وفى صحيح مسلم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى وهذا تأويل قوله تعالى{ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ }البقرة219 أى الفضل وذلك لأن نفقة الرجل على نفسه وأهله فرض عين بخلاف النفقة فى الغزو والمساكين فانه فى الأصل إما فرض على الكفاية وإما مستحب وإن كان قد يصير متعينا إذا لم يقم غيره به فان إطعام الجائع واجب ولهذا جاء فى الحديث لو صدق السائل لما أفلح من رده ذكره الامام احمد وذكر انه إذا علم صدقه وجب إطعامه [1]

لطائف لغوية

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 367-368 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 114

1- وأما أفعاله المتعدية إلى المفعول به الحادثة كقوله {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى }الضحى5 [1]

[1] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 66

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الشرح
94

رقية محمود الغرايبة

~§§ الشرح(مكية)8 §§~

سورة الشرح 1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ{1} وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ{2} الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ{3} وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ{4} فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{5} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{6} فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم

فإن الإنسان إنما ذكر مخبرا عنه لم يخاطب و الرسول هو الذي أنزل عليه القرآن و الخطاب فى هذه السور له كقوله {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى }الضحى3 و قوله {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }الشرح1 و قوله{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 والإنسان إذا خوطب قيل له {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ }الانفطار6 {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً }الانشقاق6 و أيضا فبتقدير أن يكون خطابا للإنسان يجب أن يكون خطابا للجنس كقوله {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ }الانشقاق6 [1]

الخطاب قد يكون لفظه للنبي صلى الله عليه وسلم ومعناه عام

والخطاب قد يكون لفظه للنبي صلى الله عليه وسلم ومعناه عام كقوله {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ }يونس94 { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ }الزمر65 {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ }الشرح7 {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي }سبأ50 ونحو ذلك وذلك أن الأصل فيما خوطب به النبى فى كل ما أمر به ونهى عنه وأبيح له سار في حق أمته كمشاركة أمته له فى الأحكام وغيرها حتى يقوم دليل التخصيص فما ثبت في حقه من الأحكام ثبت في حق الأمة إذا لم يخصص هذا مذهب السلف والفقهاء ودلائل ذلك كثيرة كقوله { فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا }الأحزاب37 الآية ولما أباح له الموهوبة قال { خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}الأحزاب50 الآية [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 285

[2] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 84

علم المعاني والبيان

وليست الفصاحة التشدق في الكلام والتقعير في الكلام ولا سجع الكلام ولا كان في خطبة علي ولا سائر خطباء العرب من الصحابة وغيرهم تكلف الأسجاع ولا تكلف التحسين الذي يعود إلى مجرد اللفظ الذي يسمى علم البديع كما يفعله المتأخرون من أصحاب الخطب والرسائل والشعر وما يوجد في القرآن من مثل قوله { وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً }الكهف104 و {إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ }العاديات11 ونحو ذلك فلم يتكلف لأجل التجانس بل هذا تابع غير مقصود بالقصد الأول كما يوجد في القرآن من أوزان الشعر ولم يقصد به الشعر كقوله تعالى { وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ }سبأ13 وقوله {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }الحجر49 { وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ{2} الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ{3}الشرح 2- 3 ونحو ذلك وإنما البلاغة المأمور بها في مثل قوله تعالى { وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً }النساء63 هي علم المعاني والبيان فيذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة للمطلوب ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني فالبلاغة بلوغ غاية المطلوب أو غاية الممكن من المعاني بأتم ما يكون من البيان فيجمع صاحبها بين تكميل المعاني المقصودة وبين تبيينها بأحسن وجه ومن الناس من تكون همته إلى المعاني ولا يوفيها حقها من الألفاظ المبينة ومن الناس من يكون مبينا لما في نفسه من المعاني لكن لا تكون تلك المعاني محصلة للمقصود المطلوب في ذلك المقام فالمخبر مقصودة تحقيق المخبر به فإذا بينه وبين ما يحقق ثبوته لم يكن بمنزلة الذي لا يحقق ما يخبر به أو لا يبين ما يعلم به ثبوته والأمر مقصودة تحصيل الحكمة المطلوبة فمن أمر ولم يحكم ما أمر به أو لم يبين الحكمة في ذلك لم يكن بمنزلة الذي أمر بما هو حكمة وبين وجه الحكمة فيه وأما تكلف الأسجاع والأوزان والجناس والتطبيق ونحو ذلك مما تكلفه متأخروا الشعراء والخطباء والمترسلين والوعاظ فهذا لم يكن من دأب خطباء الصحابة والتابعين والفصحاء منهم ولا كان ذلك مما يهتم به العرب وغالب من يعتمد ذلك يزخرف اللفظ بغير فائدة مطلوبة من المعاني كالمجاهد الذي يزخرف السلاح وهو جبان [1]

لا يذكر الله إلا ذكر معه الرسول

فالاسم يظهر به المسمى ويعلو فيقال للمسمى سمة اى اظهره واعله اى اعل ذكره بالاسم الذى يذكر به كما قال تعالى {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }الشرح4[2]

وقد أمر الله بطاعة رسوله فى أكثر من ثلاثين موضعا من القرآن وقرن طاعته بطاعته وقرن بين مخالفته ومخالفته كما قرن بين اسمه واسمه فلا يذكر الله إلا ذكر معه قال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }الشرح4 قال لا أذكر إلا ذكرت معى وهذا كالتشهد والخطب والأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فلا يصح الاسلام إلا بذكره

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص:53- 55

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 208

والشهادة له بالرسالة وكذلك لا يصح الأذان إلا بذكره والشهادة له ولا تصح الصلاة إلا بذكره والشهادة له ولا تصح الخطبة إلا بذكره والشهادة له [1]

{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }

ان كل من لم يشهد برسالة المرسلين فإنه لا يكون الا مشركا يجعل مع الله الها اخر وان التوحيد والنبوة متلازمان وكل من ذكر الله عنه في كتابه انه مشرك فهو مكذب للرسل ومن اخبر عنه انه مكذب للرسل فانه مشرك ولا تتم الشهادة لله بالالهية الا بالشهادة لعبده بالرسالة كما جاء مرفوعا في قوله تعالى {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }الشرح4 قال لا اذكر الا ذكرت معي ولا تتم لامتك خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا انك عبدي ورسولي [2]

الذين أعلنوا ما جاء به النبى لهم نصيب

فان الله نصر الكتاب بأمر من عنده وانتقم ممن خرج عن حكم الكتاب كما قال تعالى{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ }التوبة40 الى قوله { وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }التوبة40 وقوله لأبى بكر { إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة40 وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل128 وقال تعالى { إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }البقرة153 وكل من وافق الرسول فى أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه فى ذلك وله نصيب من قوله { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة40 فان المعية الالهية المتضمنة للنصر هى لما جاء به الى يوم القيامة وهذا قد دل عليه القرآن وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه وقال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }فصلت53 الى آخر السورة وقال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }القصص 83 وقال تعالى { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{2} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ{3} الكوثر2-3 فمن شنأ شيئا مما جاء به الرسول فله من ذلك نصيب ولهذا قال ابو بكر بن عياش لما قيل له ان بالمسجد أقواما يجلسون ويجلس الناس اليهم فقال من جلس للناس جلس الناس اليه لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم وذلك ان اهل البدعة شنأوا بعض ما جاء به الرسول فابترهم بقدر ذلك والذين أعلنوا ما جاء به النبى فصار لهم نصيب من قوله تعالى {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }الشرح4 فان ما اكرم الله به نبيه من سعادة الدنيا والأخرة فللمؤمنين المتابعين نصيب بقدر ايمانهم فما كان من خصائص النبوة والرسالة فلم يشارك فيه احد من أمته وما كان من ثواب الايمان والأعمال الصالحة فلكل مؤمن نصيب بقد ذلك [3]

الفرج مع الكرب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 105

[2] الاستقامة ج: 2 ص: 21

[3] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 38

في حديث ابن مسعود مرفوعا وموقوفا إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته وإن مأدبة الله هي القرآن والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده آخر الليل وأوقات الأذان والإقامة وفي سجوده وفي أدبار الصلوات ويضم إلى ذلك الاستغفار فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعا حسنا إلى اجل مسمى وليتخذ وردا من الأذكار في النهار ووقت النوم وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه ويكتب الإيمان في قلبه وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين وليكن هجيراه لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال ولا يسأم من الدعاء والطلب فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي وليعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً } {إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً }الشرح5-6 ولم ينل أحد شيئا من ختم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر[1]

إذا استعنت فاستعن بالله

وأما ما في القرآن من ذكر عبادته وحده ودعائه وحده والإستعانة به وحده والخوف منه وحده فكثير كقوله { وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ }الأحزاب39 وقوله { فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }النحل51 و { وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ }البقرة41[2]

وأوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وأوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم طائفة من أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئا فكان سوط أحدهم يسقط من كفه فلا يقول لأحد ناولني إياه وثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون والإسترقاء طلب الرقية وهو من أنواع الدعاء[3]

سورة الشرح جمعت نوعي دعاء الله

الأحاديث المعروفة في الصحاح والسنن والمسانيد تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في دبر صلاته قبل الخروج منها وكان يأمر أصحابه بذلك ويعلمهم ذلك ولم ينقل أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس يدعو بعد الخروج من الصلاة هو والمأمومون جميعا لا في الفجر ولا في العصر ولا في غيرهما من الصلوات بل قد ثبت عنه أنه كان يستقبل أصحابه ويذكر الله ويعلمهم ذكر الله عقيب الخروج من الصلاة ففي الصحيح أنه كان قبل أن ينصرف يستغفر ثلاثا ويقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أنه كان يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 27

[2] منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 447

[3] زيارة القبور ج: 1 ص: 11

وله الحمد وهوعلى كل شئ قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وفي الصحيح من حديث ابن الزبي الجواب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يهلل بهؤلاء الكلمات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون وفي الصحيحين عن ابن عباس إن رفع الناس أصواتهم بالذكر كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ كنا نعرف انقضاء صلاته بالتكبير والأذكار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها المسلمين عقيب الصلاة أنواع أحدها إنه يسبح ثلاثا وثلاثين ويحمد ثلاثا وثلاثين ويكبر ثلاثا وثلاثين فتلك تسع وتسعون ويقول تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير رواه مسلم في صحيحه والثاني يقولها خمسا وعشرين ويضم إليها لا إله إلا الله وقد رواه مسلم والثالث يقول الثلاثة ثلاثا وثلاثين وهذا على وجهين أحدهما أن يقول كل واحدة ثلاثا وثلاثين والثاني أن يقول كل واحدة إحدى عشرة مرة والثلاثة والثلاثون في الحديث المتفق عليه في الصحيحين والخامس يكبر أربعا وثلاثين ليتم مائة والسادس يقول الثلاثة عشرا عشرا فهذا هو الذي مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك مناسب لأن المصلي يناجي ربه فدعاؤه له ومسألته إياه وهو يناجيه أولى به من مسألته ودعائه بعد انصرافه عنه وأما الذكر بعد الانصراف فكما قالت عائشة رضي الله عنها هو مثل مسح المرآة بعد صقالها فإن الصلاة نور فهي تصقل القلب كما تصقل المرآة ثم الذكر بعد ذلك بمنزلة مسح المرآة وقد قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8 قيل إذا فرغت من أشغال الدنيا فانصب في العبادة وإلى ربك فارغب وهذا أشهر القولين وخرج شريح القاضي على قوم من الحاكة يوم عيد وهم يلعبون فقال مالكم تلعبون قالوا إنا تفرغنا قال أوبهذا أمر الفارغ وتلا قوله تعالى{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8 ويناسب هذا قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ{1} قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً{2} نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً{3} أَوْ زِدْ عَلَيْهِ{4} إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً{5} إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً{6} إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً{7} المزمل1-7 أي ذهابا ومجيئا وبالليل تكون فارغا وناشئة الليل في أصح القولين إنما تكون بعد النوم يقال نشأ إذا قام بعد النوم فإذا قام بعد النوم كانت مواطأة قلبه للسانه أشد لعدم ما يشغل القلب وزوال أثر حركة النهار بالنوم وكان قوله {أَقْوَمُ} المزمل 6 وقد قيل إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء وإلى ربك فارغب وهذا القول سواء كان صحيحا أو لم يكن فإنه يمنع الدعاء في آخر الصلاة لا سيما والنبي صلى الله عليه وسلم هو المأمور بهذا فلا بد أن يمتثل ما أمر الله به ودعاؤه في الصلاة المنقول عنه في الصحاح وغيرها إنما كان قبل الخروج من الصلاة وقد قال لأصحابه في الحديث الصحيح إذا تشهد أحدكم فليستعذ ب الله من أربع يقول اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وفي حديث ابن مسعود الصحيح لما ذكر التشهد قال ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه وقد روت عائشة وغيرها دعاءه في صلاته بالليل وأنه كان قبل الخروج من الصلاة فقول من قال إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء يشبه قول من قال في حديث ابن مسعود لما ذكر التشهد فإذا فعلت ذلك فقد قضيت صلاتك فإن شئت أن تقوم فقم وإن شئت أن تقعد فاقعد وهذه الزيادة سواء كانت من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو من كلام من أدرجها في حديث ابن مسعود كما يقول ذلك من ذكره من أئمة الحديث ففيها أن قائل ذلك جعل ذلك قضاء للصلاة فهكذا جعله هذا المفسر فراغا من الصلاة قول ضعيف فإن قوله {فَإِذَا فَرَغْتَ }الشرح7 مطلق ولأن الفارغ أن أريد به الفارغ من العبادة

فالدعاء أيضا عبادة وإن أريد به الفراغ من أشغال الدنيا بالصلاة فليس كذلك يوضح ذلك أنه لا نزاع بين المسلمين أن الصلاة يدعى فيها كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيها فقد ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول في دعاء الإستفتاح اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد وأنه كان يقول اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت وثبت عنه في الصحيح أنه كان يدعو إذا رفع رأسه من الركوع وثبت عنه الدعاء في الركوع والسجود سواء كان في النفل أو في الفرض وتواتر عنه الدعاء آخر الصلاة وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم فإذا كان الدعاء مشروعا في الصلاة لا سيما في آخرها فكيف يقول {فَإِذَا فَرَغْتَ }الشرح7 من الصلاة { فَانصَبْ }الشرح7 في الدعاء والذي فرغ منه هو نظير الذي أمر به فهو في الصلاة كان ناصبا في الدعاء لا فارغا ثم انه لم يقل مسلم إن الدعاء بعد الخروج من الصلاة يكون أوكد وأقوى منه في الصلاة ثم لو كان قوله { فَانصَبْ }الشرح7 في الدعاء لم يحتج إلى قوله تعالى {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ }الشرح8 فإنه قد علم أن الدعاء إنما يكون لله فعلم أنه أمره بشيئين أن يجتهد في العبادة عند فراغه من أشغاله وأن تكون رغبته إلى ربه لا إلى غيره كما في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5 موافق لقوله { فَانصَبْ }الشرح7 وقوله { وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 موافق لقوله {وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ }الشرح8 ومثله قوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقوله { هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 وقول شعيب عليه السلام { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }الشورى10 ومنه الذي يروى عند دخول المسجد اللهم اجعلني من أوجه من توجه إليك وأقرب من تقرب إليك وأفضل من سألك ورغب إليك والأثر الآخر وإليك الرغباء والعمل وذلك أن دعاء الله المذكور في القرآن نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة ورغبة فقوله {فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح7-8 يجمع نوعي دعاء الله قال تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً }الجن19وقال تعالى {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }المؤمنون117 الآية ونظائره كثيرة وأما لفظ دبر الصلاة وعقبها فقد يراد به آخر جزء منه وقد يراد به ما يلي آخر جزء منه كما في دبر الإنسان فإنه آخر جزء منه ومثله لفظ العقب قد يراد به الجزء المؤخر من الشيء كعقب الإنسان وقد يراد به ما يلي ذلك فالدعاء المذكور في دبر الصلاة إما أن يراد به اخر جزء منها ليوافق بقية الأحاديث أو يراد به ما يلى آخرها ويكون ذلك ما بعد التشهد كما سمى ذلك قضاء للصلاة وفراغا منها حيث لم يبق إلا السلام المنافي للصلاة بحيث لو فعله عمدا في الصلاة بطلت صلاته ولا تبطل سائر الأذكار المشروعة في الصلاة أو يكون مطلقا أو مجملا وبكل حال فلا يجوز أن يخص به ما بعد السلام لأن عامة الأدعية المأثورة كانت قبل ذلك ولا يجوز أن يشرع سنة بلفظ مجمل يخالف السنة المتواترة بالألفاظ الصريحة والناس لهم فيما بعد السلام ثلاثة أقوال منهم من لا يرى قعود الإمام مستقبل المأموم لا بذكر ولا دعاء ولا غير ذلك وحجتهم ما يروى عن السلف أنهم كانوا يكرهون للإمام أن يستديم استقبال القبلة بعد السلام فظنوا أن ذلك يوجب قيامه من مكانه ولم يعلموا أن انصرافه مستقبل المأمومين بوجهه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل فحصل هذا المقصود وهذا يفعله من يفعله

من أصحاب مالك ومنهم من يرى دعاء الإمام والمأموم بعد السلام ثم منهم من يرى ذلك في الصلوات الخمس ومنهم من يراه في صلاة الفجر والعصر كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم وليس مع هؤلاء بذلك سنة وإنما غايتهم التمسك بلفظ مجمل أو بقياس كقول بعضهم ما بعد الفجر والعصر ليس بوقت صلاة فيستحب فيه الدعاء ومن المعلوم أن ما تقدمت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة الصحيحة بل المتواترة لا يحتاج فيه إلى مجمل ولا إلى قياس وأما قول عقبة بن عام الجواب أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة فهذا بعد الخروج منها وأما حديث أبي أمامة قيل يا رسول الله أي الدعاء أسمع قال جوف الليل الأخير ودبر الصلوات المكتوبة فهذا يجب أن لا يخص ما بعد السلام بل لا بد أن يتناول ما قبل السلام وإن قيل إنه يعم ما قبل السلام وما بعده لكن ذلك لا يستلزم أن يكون دعاء الإمام والمأمومين جميعا بعد السلام كما لا يلزم ذلك قبل السلام بل إذا دعا كل واحد وحده بعد السلام فهذا لا يخالف السنة وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك يتناول ما قبل السلام إذا تناول ما بعده أيضا كما تقدم فإن معاذا كان يصلي إماما بقومه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي إماما وقد بعثه إلى اليمن معلما لهم فلو كان هذا مشروعا للإمام والمأموم مجتمعين على ذلك كدعاء القنوت لكان يقول اللهم أعنا على ذكرك وشكرك فلما ذكره بصيغة الإفراد علم أنه لا يشرع للإمام والمأموم ذلك بصيغة الجمع ومما يوضح ذلك ما في الصحيح عن البراء بن عازب قال كنا إذا صلينا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحببنا أن نكون عن يمينه يقبل علينا بوجهه قال فسمعته يقول رب قني عذابك يوم تبعث عبادك أو يوم تجمع عبادك فهذا فيه دعاؤه صلى الله عليه وسلم بصيغة الإفراد كما في حديث معاذ وكلاهما إمام وفيه أنه كان يستقبل المأمومين وأنه لا يدعو بصيغة الجمع وقد ذكر حديث معاذ بعض من صنف في الأحكام في الأدعية في الصلاة قبل السلام موافقة لسائر الأحاديث كما في مسلم و السنن الثلاثة عن أبي هريرة أن النبي قال إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ ب الله من أربع من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وفي مسلم وغيره عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وفي السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل ما تقول في الصلاة قال أتشهد ثم أقول اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار أما و الله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال صلى الله عليه وسلم حولهما ندندن رواه أبو داود وأبو حاتم في صحيحه وظاهر هذا أن دندنتهما أيضا بعد التشهد في الصلاة ليكون نظير ما قاله وعن شداد ابن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في صلاته اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ولسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم رواه النسائي وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في الصلاة اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات اللهم إني أعوذ بك من المغرم والمأثم فقال له قائل ما أكثر ما تستعيذ يا رسول الله من المغرم قال إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف قال المصنف في الأحكام والظاهر أن هذا يدل على أنه كان بعد التشهد يدل عليه حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد التشهد اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال

وقد تقدم حديث ابن عباس الذي في الصحيحين أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن وحديث أبي هريرة وأنه يقال بعد التشهد وقد روي في لفظ الدبر ما رواه البخاري وغيره عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يعلم بنيه هؤلاء الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة ويقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بهن دبر الصلاة اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر وفي النسائي عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر الصلاة اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر وفي النسائي أيضا عن عائشة رضي الله عنها قالت دخلت علي امرأة من اليهود فقالت إن عذاب القبر من البول فقلت كذبت فقالت بلى إنا لنقرض منه الجلود والثوب فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة وقد ارتفعت أصواتنا فقال ما هذا فأخبرته بما قالت قال صدقت فما صلى بعد يومئذ إلا قال في دبر الصلاة اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أجرني من حر النار وعذاب القبر قال المصنف في الأحكام والظاهر أن المراد بدبر الصلاة في الأحاديث الثلاثة قبل السلام توفيقا بينه وبين ما تقدم من حديث ابن عباس وأبي هريرة قلت وهذا الذي قاله صحيح فإن هذا الحديث في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها أعاذك الله من عذاب القبر فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر فقال نعم عذاب القبر حق قالت عائشة فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر والأحاديث في هذا الباب يوافق بعضها بعضا فتبين ما تقدم و الله أعلم [1]

جماع الدين شيئان

وجماع الدين شيئان احدهما ان لا نعبد الا الله تعالى والثانى ان نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع كما قال تعالى { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً } هود7 قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قيل له ما اخلصه وأصوبه قال إن العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وكان عمر بن الخطاب يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وهذا هو دين الاسلام الذى ارسل الله به رسله وأنزل به كتبه وهو الاستسلام لله وحده فمن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته وقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر60 ومن استسلم لله ولغيره كان مشركا فقد قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ }النساء48 ولهذا كان الله حق لا يشركه فيه احد من المخلوقين فلا يعبد الا الله ولا يخاف الا الله ولا يتقى الا الله ولا يتوكل الا على الله ولا يدعى الا الله كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح7-8 [2]

الرغبة لله وحدة

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 199-206 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 495-504

[2] مجموع الفتاوى ج: 28 ص:23- 24

قال تعالى {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر51 ثم قال تعالى مما يأمرهم {سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 فأمرهم أن يجعلوا الرغبة لله وحدة كما قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح7-8 وهذا لأن المخلوق لا يملك للمخلوق نفعا ولا ضرا وهذا عام فى أهل السموات وأهل الأرض قال تعالى { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{56} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{57} الاسراء56-57 قال طائفة من السلف للاخر ابن عباس وغيره هذه الآية فى الذين عبدوا الملائكة والأنبياء كالمسيح وعزير وقال عبد الله بن مسعود كان قوم من الانس يعبدون قوما من الجن فأسلم الجن وبقي أولئك على عبادتهم فالآية تتناول كل من دعا من دون الله من هو صالح عند الله من الملائكة والانس والجن قال تعالى هؤلاء الذين دعوتموهم { فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{56} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{57} الاسراء56-57قال أبو محمد عبد الحق بن عطية فى تفسيره أخبر الله تعالى ان هؤلاء المعبودين يطلبون التقرب إليه والتزلف إليه وأن هذه حقيقة حالهم[1]

فإن الشكوى إنما تكون إلى الله تعالى كما قال العبد الصالح { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ }يوسف86 وفي دعاء موسى عليه السلام اللهم لك التكلان وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ولم يقل سلني ولا استعن بي وقد قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح7-8 [2]

وأوصى النبى صلى الله عليه وآله وسلم طائفة من أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئا فكان سوط أحدهم يسقط من كفه فلا يقول لأحد ناولنى إياه وثبت فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون والإسترقاء طلب الرقية وهو من أنواع الدعاء[3]

لم يقل إرغب إلى الأنبياء والملائكة

قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح 7-8 ولم يقل إرغب إلى الأنبياء والملائكة وقال تعالى { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{56} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{57} الاسراء 56-57 قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون العزير والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية وهذا رسول الله لم يقل لأحد من أصحابه إذا نزل بك حادث فاستوحنى بل قال لابن عمه عبدالله بن عباس وهو يوصيه إحفظ الله يحفظك إحفظ الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 431

[2] منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 244

[3] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 68

تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة إذا سألت فاسأل الله وإذا إستعنت فاستعن بالله وما يرويه بعض العامة من أنه قال إذا سألتم الله فإسألوه بجاهى فإن جاهى عند الله عظيم فهو حديث كذب موضوع لم يروه أحد من أهل العلم ولا هو فى شىء من كتب المسلمين المعتمدة فى الدين [1]

وأما التوكل فعلى الله وحده والرغبة فاليه وحده كما قال تعالى {وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ }التوبة59ولم يقل ورسوله وقالوا { إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 ولو يقولوا هنا ورسوله كما قال فى الايتاء بل هذا نظير قوله{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح 7-8 وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173 وفى صحيح البخاري عن ابن عباس انه قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }الأنفال64 اي الله وحده حسبك وحسب المؤمنين الذين اتبعوك ومن قال ان الله والمؤمنين حسبك فقد ضل بل قوله من جنس الكفرة فإن الله وحده هو حسب كل مؤمن به والحسب الكافي كما قال تعالى {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ }الزمر36 [2]

العبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه

والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8 وقال صلى الله عليه وسلم لإبن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا إستعنت فإستعن بالله ولا بد للإنسان من شيئين طاعته بفعل المأمور وترك المحظور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور فالأول هو التقوى والثانى هو الصبر قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً }آل عمران118 إلى قوله { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }آل عمران120 وقال تعالى {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ }آل عمران125 وقال تعالى {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }آل عمران186 وقد قال يوسف { أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف90 [3]

لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 125

[2] مجموع الفتاوى ج: 26 ص:158- 159

[3] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 668 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 295 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 100

فقوله تعالى {إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ }الأنبياء87 اعتراف بالذنب وهو استغفار فان هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة وقوله { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ }الأنبياء87 تحقيق لتوحيد الالهية فان الخير لا موجب له الا مشيئة الله فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله وان كانت افعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببا للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغى للعبد ان لا يعلق رجاءه الا بالله ولا يخاف من الله ان يظلمه فان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون بل يخاف ان يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روى عن على رضى الله عنه انه قال لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه وفى الحديث المرفوع الى النبى انه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال ارجو الله واخاف ذنوبى فقال ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا اعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف فالرجاء ينبغى ان يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فان تعليق الرجاء بغير الله اشراك وان كان الله قد جعل لها اسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لابد له من معاون ولابد ان يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى الا بمشيئة الله تعالى ولهذا قيل الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب ان تكون اسبابا نقص فى العقل والاعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ولهذا قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8 فامر بأن تكون الرغبة اليه وحده وقال { وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }المائدة23 فالقلب لا يتوكل الا على من يرجوه فمن رجا قوته او عمله او علمه او حاله او صديقه او قرابته او شيخة او ملكة او ماله غير ناظر الى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا احد مخلوقا او توكل عليه الا خاب ظنه فيه فانه مشرك { وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }الحج31 وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً }آل عمران151 والخالص من الشرك يحصل له الا من كما قال تعالى {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ }الأنعام82 وقد فسر النبى الظلم هنا بالشرك ففى الصحيح عن ابن مسعود ان هذه الآية لما نزلت شق ذلك على اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا اينا لم يظلم نفسه فقال النبى انما هذا الشرك الم تسمعوا الى قول العبد الصالح { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }لقمان13 وقال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ{165} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ{166} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ{167} البقرة 165-167 وقال تعالى { قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{56} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{57}الإسراء56-57 ولهذا يذكر الله الاسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى الا الله قال تعالى لما انزل الملائكة {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }آل عمران126 وقال {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }آل عمران160 وقد قدمنا ان الدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة وكلاهما لا يصلح الا لله فمن جعل مع الله الها آخر قعد مذموما مخذولا والراجى سائل طالب فلا يصلح ان يرجو الا الله ولا يسأل غيره ولهذا قال النبى فى الحديث الصحيح ما أتاك من هذا المال وانت غير سائل ولا مشرف فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك فالمشرف الذى

يستشرف بقلبه والسائل الذى يسأل بلسانه وفى الحديث الذى فى الصحيحين عن ابى سعيد الخدرى قال اصابتنا فاقة فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول ايها الناس والله مهما يكن عندنا من خير فلن ندخره عنكم وانه من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله وما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر و الاستغناء ان لا يرجو بقلبه احدا فيتشرف اليه و الاستعفاف ان لا يسأل بلسانه احدا ولهذا لما سئل احمد بن حنبل عن التوكل فقال قطع الاستشراف الى الخلق اى لا يكون فى قلبك ان احدا يأتيك بشىء فقيل له فما الحجة فى ذلك فقال قول الخليل لما قال له جبرائيل هل لك من حاجة فقال اما اليك فلا فهذا وما يشبهه مما يبين ان العبد فى طلب ما ينفعه ودفع يضره لا يوجه قلبه الا الى الله فلهذا قال المكروب { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ }الأنبياء87 ومثل هذا ما فى الصحيحين عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب لا اله الا الله العظيم الحليم لا اله الا الله رب العرش العظيم لا اله الا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم فان هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد وتأله العبد ربه وتعلق رجائه به وحده لا شريك له وهى لفظ خبر يتضمن الطلب والناس وان كانوا يقولون بألسنتهم لا اله الا الله فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة اخرى وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً{43} أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً{44} الفرقان43-44 فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد اتخذ الهه هواه اى جعل معبوده هو ما يهواه وهذا حال المشركين الذين يعبد احدهم ما يستحسنه فهم يتخذون اندادا من دون الله يحبونهم كحب الله ولهذا قال الخليل { لا أُحِبُّ الآفِلِينَ }الأنعام76فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ولكن كان احدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعا كالشمس والقمر والكواكب والخليل بين ان الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره فأى وجه لعبادة من يأفل وكلما حقق العبد الاخلاص فى قول لا اله الا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصى والذنوب كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24 فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين وهؤلاء هم الذين قال فيهم {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }الحجر42 وقال الشيطان {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{83}ص82-83 وقد ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه حرمه الله على النار فإن الاخلاص ينفى اسباب دخول النار فمن دخل النار من القائلين لا اله الا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذى اوقعه فيما ادخله النار والشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل ولهذا كان العبد مأمورا فى كل صلاة ان يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 [1]

تتنوع دلالة اللفظ فى عمومه وخصوصه

تتنوع دلالة اللفظ فى عمومه وخصوصه بحسب الافراد والاقتران ومن هذا الباب لفظ الفقراء والمساكين اذا افرد احدهما دخل فيه الاخر واذا قرن احدهما بالآخر صار بينهما فرق لكن هناك احد الاسمين اعم من الآخر وهنا بينهما عموم وخصوص فمحبة الله وحده والتوكل عليه وحده وخشية الله

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 255-261 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

وحده ونحو هذا كل هذا يدخل في توحيد الله تعالى قال تعالى في المحبة {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ }التوبة24 وقال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }النور52 فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 وقال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح7-8 فجعل التحسب والرغبة الى الله وحده [1]

أصل التوحيد

الله سبحانه له حقوق لا يشركه فيها غيره وللرسل حقوق لا يشركهم فيها غيرهم وللمؤمنين على المؤمنين حقوق مشتركة ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه أن لا يعذبهم فالله تعالى مستحق أن يعبد لا يشرك به شيء وهذا هو أصل التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزلت به الكتب قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}النحل36 ويدخل في ذلك أن لا نخاف إلا إياه ولا نتقي إلا إياه كما قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }النور52 فجعل الطاعة لله وللرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده ويدخل في ذلك انه جعل الرغبة إلى الله وحده دون ما سواه كما قال تعالى في سورة الإنشراح { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8 فأمر بالرغبة إليه ولم يأمر الله قط مخلوقا أن يسأل مخلوقا وإن كان قد أباح ذلك في بعض المواضع لكنه لم يأمر به بل الأفضل للعبد أن لا يسأل قط إلا الله كما ثبت في الصحيح في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فجعل من صفاتهم أنهم لا يسترقون أي لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم ولم يقل لا يرقون وإن كان ذلك قد روي في بعض طرق مسلم فهو غلط فإن النبي صلى الله عليه وسلم رقى نفسه وغيره لكنه لم يسترق فالمسترقي طالب الدعاء من غيره بخلاف الراقي لغيره فإنه داع له وقد قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فالله هو الذي يتوكل عليه ويستعان به ويستغاث به ويخاف ويرجى ويعبد وتنيب القلوب إليه لا حول ولا قوة إلا به ولا منجى منه إلا إليه والقرآن كله يحقق هذا الأصل والرسول صلى الله عليه وسلم يطاع ويحب ويرضى به ويسلم إليه حكمه ويعزر ويوقر ويتبع ويؤمن به وبما جاء به قال تعالى {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ }النساء80[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 275

[2] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 447

الثواب والعقاب يترتب على عبودية القلب واسره

الناس يتفاضلون في العبودية تفاضلا عظيما وهو تفاضلهم فى حقيقة الايمان وهم ينقسمون فيه الى عام وخاص ولهذا كانت ربوبيةالرب لهم فيها عموم وخصوص ولهذا كان الشرك فى هذه الامة أخفى من دبيب النمل وفى الصحيح عن النبى صلى اله عليه وسلم انه قال تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش ان اعطى رضى وان منع سخط فسماه النبى عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الخميصة وذكر ما فيه دعاء وخبر وهو قوله تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش والنقش اخراج الشوكة من الرجل والمنقاش ما يخرج به الشوكة وهذه حال من اذا اصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه وهذه حال من عبد المال وقد وصف ذلك بانه اذا اعطى رضي واذا منع خط كما قال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ }التوبة58 فراضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة او بصورة ونحو ذلك من اهواء نفسه ان حصل له رضي وان لم يحصل له سخط فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له اذا الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ولهذا يقال العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع وقال القائل اطعت مطامعى فاستعبدتنى ولو انى قنعت لكنت حرا ويقال الطمع غل فى العنق قيد فى الرجل فاذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال الطمع فقر واليأس غنى وان احدكم اذا يئس من شيء استغنى عنه وهذا امر يجده الانسان من نفسه فان الامر الذى ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع به ولا يبقى قلبه فقيرا اليه ولا الى من يفعله واما اذا طمع فى امر من الامور ورجاه تعلق قلبه به فصار فقيرا الى حصوله والى من يظن انه سبب فى حصوله وهذا فى المال والجاه والصور وغير ذلك قال الخليل {فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }العنكبوت17 فالعبد لا بد له من الرزق وهو محتاج الى ذلك اذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقيرا اليه وان طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا اليه ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة فى الاصل وانما ابيحت للضرورة وفى النهى عنها احاديث كثيرة فى الصحاح والسنن والمسانيد كقوله لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتى يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم وقوله من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا او خموشا او كدوحا فى وجهه وقوله لا تحل المسألة الا لذى غرم مفظع او دمع موجع او فقر مدقع هذا المعنى فى الصحيح وفيه ايضا لأن يأخذ احدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من ان يسأل الناس اعطوه او منعوه وقال ما اتاك من هذا المال وانت غير سائل ولا مشرف فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك فكره اخذه من سؤال اللسان واستشراف القلب وقال في الحديث الصحيح من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله ما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر واوصى خواص اصحابه ان لا يسألوا الناس شيئا وفى المسند ان ابا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولنى اياه ويقول ان خليلي امرنى ان لا اسأل الناس شيئا وفى صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك ان النبى بايعه فى طائفة واسر اليهم كلمة

خفية ان لا تسألوا الناس شيئا فكان بعض اولئك النفر يسقط السوط من يد احدهم ولا يقول لاحد ناولنى اياه وقد دلت النصوص على الامر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق فى غير موضع كقوله تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح 7-8 وقول النبي لابن عباس اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ومنه قول الخليل {فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ }العنكبوت17 ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر كانه قال لا تبتغوا الرزق الا عند الله وقد قال تعالى { وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ}النساء32 والانسان لا بد له من حصول ما يحتاج اليه من الرزق ونحوه ودفع ما يضره وكلا الامرين شرع له ان يكون دعاؤه لله فله ان يسأل الله واليه يشتكى كما قال يعقوب عليه السلام { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ }يوسف86 والله تعالى ذكر فى القرآن الهجر الجميل و الصفح الجميل و الصبر الجميل وقد قيل ان الهجر الجميل هو هجر بلا اذى والصفح الجميل صفح بلا معاتبة والصبر الجميل صبر بغير شكوى الى المخلوق ولهذا قرىء على احمد بن حنبل فى مرضه ان طاوسا كان يكره انين المريض ويقول انه شكوى فما ان احمد حتى مات واما الشكوى الى الخالق فلا تنافى الصبر الجميل فان يعقوب قال { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ }يوسف83 وقال { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ }يوسف86 وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ فى الفجر بسورة يونس و يوسف و النحل فمر بهذه الآية فى قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف ومن دعاء موسى اللهم لك الحمد واليك المشتكى وانت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك وفى الدعاء الذي دعا به النبى لما فعل به اهل الطائف ما فعلوا اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس انت رب المستضعفين وانت ربي اللهم الى من تكلنى الى بعيد يتجهمنى ام الى عدو ملكته امري ان لم يكن بك غضب علي فلا ابالي غير ان عاقبتك اوسع لي اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة ان ينزل بي سخطك او يحل على غضبك لك العتبى حتى ترضى فلا حول ولا قوة الا بك وفى بعض الروايات ولا حول ولا قوة الا بك وكلما طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه فكما ان طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه كما قيل استغن عمن شئت تكن نظيره وافضل على من شئت تكن اميره واحتج الى من شئت تكن اسيره فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له واعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا اما على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه واما على اهله واصدقائه واما على امواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات او يموت قال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً }الفرقان58 وكل من علق قلبه بالمخلوقات ان ينصروه او يرزقوه او ان يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وان كان فى الظاهر اميرا لهم مدبرا لهم متصرفا بهم فالعاقل ينظر الى الحقائق لا الى الظواهر فالرجل اذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلب اسيرا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو فى الظاهر سيدها لانه زوجها وفي الحقيقة هو اسيرها ومملوكها لا سيما اذا درت بفقره اليها وعشقه لها وانه لا يعتاض عنها بغيرها انها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذى لا يستطيع الخلاص منه بل اعظم فإن اسر القلب اعظم من اسر البدن واستعباد القلب اعظم من استعباد البدن فان من استعبد بدنه واسترق لا يبالى اذا كان قلبه متريحا من ذلك مطمئنا بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص واما اذا كان القلب الذي هو الملك رقيقا مستعبدا متيما لغير الله هذا هو

الذل والاسر المحض والعبودية لما استعبد القلب وعبودية القلب واسره هي التى يترتب عليها الثواب والعقاب ان المسلم لو اسره كافر او استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك اذا كان قائما بما يقدر علي من الواجبات ومن استعبد بحق اذا ادى حق الله وحق مواليه له اجران ولو اكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالايمان لم يضره ذلك واما من استعبد قلبه صار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان فى الظاهر ملك الناس فالحرية حريةالقلب والعبودية عبودية القلب كما ان الغنى غنى النفس قال النبى ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس وهذا لعمري اذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة فاما من استعبد قلبه صورةمحرمة امرأة اوصبى فهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه وهؤلاء من اعظم الناس عذابا واقلهم ثوابا فإن العاشق لصورة اذا بقى قلبه متعلقا بها مستعبدا لها اجتمع له من انواع الشر والفساد ما لا يحصيه الا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة اشد ضررا عليه ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول اثره من قلبه وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى افاقة من به سكران وقيل قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق اعظم مما بالمجانين العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وانما يصرع المجنون فى الحين ومن اعظم اسباب هذا البلاء اعراض القلب عن الله فان القلب اذا ذاق طعم عبادة الله والاخلاص له لم يكن عنده شيء قط احلى من ذلك ولا ألذ ولا اطيب والانسان لا يترك محبوبا الا بمحبوب آخر يكون أحب اليه منه او خوفا من مكروه فالحب الفاسد انما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح او بالخوف من الضرر[1]

لله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد

ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم وللأنبياء حق وللمؤمنين حق ولبعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم فى حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا اليه ولا يجعلوا لله ندا لا فى محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الإستعانة به كما فى الصحيحين أنه قال من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار وسئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك وقيل له ما شاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال تعالى { فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }البقرة22 وقال الله سبحانه وتعالى{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8[2]

العبادة والخشية والتقوى لله وحده

كما انا مأمورون ان لا نخاف الا الله ولا نتوكل الا على الله ولا نرغب الا الى الله ولا نستعين الا الله وان لا تكون عبادتنا الا لله فكذلك نحن مأمورون ان نتبع الرسول ونطيعه ونتأسى به فالحلال ما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:180- 187

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 305

حلله الله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 فجعل الايتاء لله والرسول كما قال { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا }الحشر7 وجعل التوكل على الله وحده بقوله { وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ }التوبة59 ولم يقل ورسوله كما قال فى الآية الأخرى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173 ومثله قوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }الأنفال64 اى حسبك وحسب المؤمنين كما قال {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ }الزمر36 ثم قال {سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ }التوبة59 فجعل الايتاء لله والرسول وقدم ذكر الفضل لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وله الفضل على رسوله وعلى المؤمنين وقال { إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 فجعل الرغبة الى الله وحده كما فى قوله { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح 7-8 وقال النبى لابن عباس اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله والقرآن يدل على مثل هذا فى غير موضع فجعل العبادة والخشية والتقوى لله وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله كما فى قول نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }نوح3 وقوله {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }النور52 وامثال ذلك فالرسل امروا بعبادته وحده والرغبة اليه والتوكل عليه والطاعة لهم فأضل الشيطان النصارى واشباههم فأشركوا بالله وعصوا الرسول فاتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم فجعلوا يرغبون اليهم ويتوكلون عليهم ويسألونهم مع معصيتهم لأمرهم ومخالفاتهم لسنتهم وهدى الله المؤمنين المخلصين لله اهل الصراط المستقيم الذين عرفوا الحق واتبعوه فلم يكونوا من المغضوب عليهم ولا الضالين فأخلصوا دينهم لله واسلموا وجوههم لله وانابوا الى ربهم واحبوه ورجوه وخافوا وسألوه ورغبوا اليه وفوضوا امورهم اليه وتوكلوا عليه واطاعوا رسله وعزروهم ووقروهم واحبوهم ووالوهم واتبعوهم واقتفوا آثارهم واهتدوا بمنارهم وذلك هو دين الاسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل وهو الدين الذى لا يقبل الله من احد دينا الا اياه وهو حقيقة العباده لرب العالمين فنسأل الله العظيم ان يثبتنا عليه ويكمله لنا ويميتنا عليه وسائر اخواننا المسلمين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم[1]

ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه

ومعلوم أن الرسول مطيع لربه عز وجل فى قوله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8 فهو لا يرغب الى غير الله وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون والإسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه والرقية من نوع الدعاء وكان هو يرقى نفسه وغيره ولا يطلب من أحد أن يرقيه ورواية من روى فى هذا لا يرقون ضعيفة غلط فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذى غيره أفضل منه فإن من لا يسأل الناس بل لا يسأل إلا الله أفضل ممن يسأل الناس ومحمد سيد ولد آدم ودعاء الغائب للغائب أعظم إجابة من دعاء الحاضر لأنه أكمل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:235- 236

إخلاصا وأبعد عن الشرك فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه الى دعاء من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر وفى الحديث أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب وفى صحيح مسلم عن النبى أنه قال ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة الا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به آمين ولك بمثله وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه والمخلوق قادر على دعاء الله ومسألته فلهذا كان طلب الدعاء جائزا كما يطلب منه الإعانة بما يقدر عليه والأفعال التى يقدر عليها فأما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه لا يطلب ذلك لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من غيرهم ولا يجوز أن يقال لغير الله اغفر لى واسقنا الغيث وانصرنا على القوم الكافرين أو اهد قلوبنا ونحو ذلك ولهذا روى الطبرانى فى معجمه أنه كان فى زمن النبى منافق يؤذى المؤمنين فقال الصديق قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق فجاءوا اليه فقال إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله وهذا فى الإستغاثة مثل ذلك فأما ما يقدر عليه البشر فليس من هذا الباب[1]

طلب الرزق لا يتعارض مع التوكل

وأما قول القائل أن الأنبياء و الأولياء لم يطلبوا رزقا فليس الأمر كذلك بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسبابا يحصل بها الرزق كما قال نبينا صلى الله عليه و سلم في الحديث الذي رواه أحمد فى المسند عن إبن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله و حده لاشريك له و جعل رزقى تحت ظل رمحي و جعل الذل و الصغار على من خالف أمري و من تشبه بقوم فهو منهم و قد ثبت فى الصحيح قوله صلى الله عليه و سلم إن أفضل ما أكل الرجل من كسبه و كان داود يأكل من كسبه و كان يصنع الدروع و كان زكريا نجارا و كان الخليل له ماشية كثيرة حتى أنه كان يقدم للضيف الذين لايعرفهم عجلا سمينا و هذا إنما يكون مع اليسار و خيار الأولياء المتوكلين المهاجرون و الأنصار و أبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأولياء المتوكلين بعد الأنبياء و كان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها كان الصديق تاجرا و كان يأخذ ما يحصل له من المغنم و لما ولى الخلافة جعل له من بيت المال كل يوم درهمان و قد أخرج ماله كله و قال له النبى صلى الله عليه و سلم ما تركت لأهلك قال تركت لهم الله و رسوله و مع هذا فما كان يأخذ من أحد شيئا لا صدقة و لا فتوحا و لا نذرا بل إنما كان يعيش من كسبه بخلاف من يدعى التوكل و يخرج ماله كله ظانا أنه يقتدي بالصديق و هو يأخذ من الناس إما بمسألة و إما بغير مسألة فإن هذه ليست حال أبى بكر الصديق بل فى المسند أن الصديق كان إذا و قع من يده سوط ينزل فيأخذه و لا يقول لأحد ناولني إياه ويقول إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئا فأين هذا ممن جعل الكدية و سؤال الناس طريقا الى الله حتى أنهم يأمرون المريد بالمسألة للخلق وقد تواترت الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بتحريم مسألة الناس إلا عند الضرورة و قال لاتحل المسألة إلا لذي غرم مقطع أو دم موجع أو فقر مدقع و قال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح 7-8 فأمره أن تكون رغبته الى الله و حده ومن هؤلاء من يجعل دعاء الله و مسألته نقصا و هو مع ذلك يسأل الناس و يكديهم و سؤال العبد لربه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 328

حاجته من أفضل العبادات و هو طريق أنبياء الله و قد أمر العباد بسؤاله فقال {وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ }النساء32 و مدح الذين يدعون ربهم رغبة و رهبة من الدعاء ما هو فرض على كل مسلم كالدعاء المذكور فى فاتحة الكتاب و من هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل أنه لما ألقي فى النار قال له جبرئيل هل لك من حاجة فقال أما اليك فلا قال سل قال حسبى من سؤالي علمه بحالي و أول هذا الحديث معروف و هو قوله أما إليك فلا قال سل قال حسبى من سؤالى علمه بحالى و أول هذا الحديث معروف و هو قوله أما إليك فلا و قد ثبت فى صحيح البخاري عن إبن عباس رضي الله عنه عنهما في قوله حسبنا الله و نعم الوكيل أنه قالها إبراهيم حين ألقى فى النار و قالها محمد صلى الله عليه و سلم حين قال له الناس{ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ }آل عمران173 و أما قوله حسبى من سؤالي علمه بحالي فكلام باطل خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل و غيره من الأنبياء من دعائهم لله و مسألتهم إياه و هو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا و الآخرة كقولهم {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }البقرة201 و دعاء الله و سؤاله و التوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب كما يقدره بها فكيف يكون مجرد العلم مسقطا لما خلقه و أمر به و الله أعلم و صلى الله على محمد و سلم [1]

من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه فهو مشرك

أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التى تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون انها تماثيل الأنبياء والصالحين وأنها وسائل يتقربون بها الى الله وهو من الشرك الذى أنكره الله على النصارى حيث قال {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }التوبة31 وقال تعالى{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح7-8 وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل الا عليه وقال تعالى { فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً }المائدة44[2]

من حلف بغير الله فقد أشرك

وإن قال قائل بل أنا أساله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات إما الأنبياء دون غيرهم أو نبى دون غيره كما جوز بعضهم الحلف بذلك أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم قيل له بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة فى أنه لا يجعل شيء منها ندا لله تعالى فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ولا يقسم بمخلوق كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا الا بالله وفى السنن عنه أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات لا فرق فى ذلك بين الملائكة والانبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبى ونبى

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 8 ص:537- 539

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 135

وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات فى ذم الشرك بها وان كانت معظمة قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 وقال تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح 7-8 فبين سبحانه وتعالى أنه كان ينبغى لهؤلاء أن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ويقولوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا الى الله راغبون فذكر الرضا بما آتاه الله ورسوله لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله فى تبليغ أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ووعده ووعيده فالحلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله ولهذا قال تعالى {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا }الحشر7 فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات فى هذه الأحكام لم يجعل لأحد من المخلوقين سواء كان نبيا أو ملكا أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب اليه ولا يخشى ولا يتقى [1]

حكم سؤاله الغير أن يدعو له

فى أن لا يسأل العبد إلا الله قال الله تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8}الشرح 7-8 قال النبى لابن عباس إذا سألت فإسأل الله وإذا إستعنت فاستعن بالله وفى الترمذى ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا إنقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر وفى الصحيح أنه قال لعدى بن مالك والرهط الذين بايعهم معه لا تسألوا الناس شيئا فكان سوط أحدهم يسقط من يده فلا يقول لأحد ناولنى إياه وفى الصحيح فى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون والإسترقاء طلب الرقية وهو نوع من السؤال وأحاديث النهى عن مسألة الناس الأموال كثيرة كقوله لا تحل المسألة إلا لثلاثة وقوله لأن يأخذ أحدكم حبله الحديث وقوله لاتزال المسألة بأحدهم وقوله من سأل الناس وله ما يغنيه وأمثال ذلك وقوله من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته فأما سؤال ما يسوغ مثله من العلم فليس من هذا الباب لأن المخبر لا ينقص الجواب من علمه بل يزداد بالجواب والسائل محتاج الى ذلك قال صلى الله عليه وسلم هلا سألوا إذ لم يعلموا فإن شفاء العى السؤال ولكن من المسائل ما ينهى عنه كما قال تعالى لا تسألوا عن أشياء الآية وكنهيه عن أغلوطات المسائل ونحو ذلك وأما سؤله لغيره أن يدعو له فقد قال النبى لعمر لا تنسنا من دعائك وقال إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجوا أن أكون أنا ذلك العبد فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له شفاعتى يوم القيامة وقد يقال فى هذا هو طلب من الأمة الدعاء له لأنهم إذا دعوا له حصل لهم من الأجر أكثر مما لو كان الدعاء لأنفسهم كما قال للذى قال أجعل صلاتى كلها عليك فقال إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك فطلبه منهم الدعاء له لمصلحتهم كسائر أمره إياهم بما أمر به وذلك لما فى ذلك من المصلحة لهم فإنه قد صح عنه أنه قال ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كل ما دعا دعوة قال الملك الموكل به آمين ولك مثل[2]

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التى لا يجب عليهم فعلها ليس واجبا على السائل ولا مستحبا بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة اليه والتوكل عليه وسؤال الخلق فى الأصل محرم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 292-294

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 78

لكنه أبيح للضرورة وتركه توكلا على الله أفضل قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح7-8 أى ارغب الى الله لا الى غيره[1]

ليعزم المسألة

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له فبين أن الرب سبحانه يفعل ما يشاء لا يكرهه أحد على ما اختاره كما قد يكره الشافع المشفوع إليه وكما يكره السائل المسؤول إذا ألح عليه وآذاه بالمسألة فالرغبة يجب أن تكون إليه كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8} الشرح7-8 [2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 181

[2] زيارة القبور ج: 1 ص: 20

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة التين
95

رقية محمود الغرايبة

~§§ التين(مكية)8 §§~

سورة التين 1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1} وَطُورِ سِينِينَ{2} وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ{3} لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{4} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6} فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ{7} أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ{8}

أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الأماكن الثلاثة

قال تعالى (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1} وَطُورِ سِينِينَ{2} وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ{3} التين1-3 فالارض المقدسة وجبل الطور ومكة فهذه الأماكن الثلاث أقسم الله بها في القرآن فأقسم بالتين والزيتون وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيها ذلك ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل وكان بها أنبياء بني إسرائيل وأسري بمحمد إليها وظهرت بها نبوته وأقسم بطور سينين وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة وأقسم بالبلد الأمين وهي بلد مكة التي بعث الله منه محمدا وأنزل عليه القرآن وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه وهو الذي جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم خلقا وأمرا قدرا وشرعا فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }إبراهيم37[1]

ومكة وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه وهو الذي جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم خلقا وأمرا قدرا وشرعا فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال تعالى{ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ{125} وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{126} سورة البقرة الآيتان 125 و 126 فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدا آمنا واستجاب الله دعاء إبراهيم وذكر ذلك في غير موضع وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ }العنكبوت67 فقوله تعالى { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1} وَطُورِ سِينِينَ{2} وَهَذَا الْبَلَدِ

---

[1] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 204 و القواعد النورانية ج: 3 ص: 374

الْأَمِينِ{3}التين1-3 إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه وأنزل فيها الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران ولما كان ما في التوراة خبرا عنها أخبر بها على ترتيبها الزماني فقدم الأسبق فالأسبق وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيما لشأنها وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة فختمها بأعلى الدرجات فأقسم أولا بالتين والزيتنون ثم بطور سينا ثم بمكة أن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل وكذلك الأنبياء فأقسم بها على وجه التدريج كما في قوله { وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً{1} فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً{2} فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً{3} الذاريات 1-3 فأقسم بطبقات المخلوقات طبقة بعد طبقة فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ثم بالجاريات يسرا وقد قيل إنها السفن ولكن الأنسب أن تكون هي الكواكب المذكورة في قوله {فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ {15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16} التكوير15 فسماها جوري كما سمى الفلك جواري في قوله {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ }الشورى32 والكواكب فوق السحاب[1]

مكة هى الأول والشام هى الآخر

ذكر الله أرض الشام فى هجرة إبراهيم إليها ومسرى الرسول إليها وإنتقال بنى إسرائيل إليها ومملكة سليمان بها ومسير سبأ إليها وصفها بأنها الأرض التى باركنا فيها وأيضا ففيها الطور الذى كلم الله عليه موسى والذى أقسم الله به فى سورة الطور وفى { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1} وَطُورِ سِينِينَ{2} التين1-2 وفيها المسجد الأقصى وفيها مبعث أنبياء بنى إسرائيل وإليها هجرة إبراهيم وإليها مسرى نبينا ومنها معراجه وبها ملكه وعمود دينه وكتابه وطائفة منصورة من أمته وإليها المحشر والمعاد كما أن من مكة المبدأ فمكة أم القرى من تحتها دحيت الأرض والشام إليها يحشر الناس كما فى قوله { لِأَوَّلِ الْحَشْرِ }الحشر2 نبه على الحشر الثانى فمكة مبدأ وإيليا معاد فى الخلق وكذلك فى الأمر فإنه أسرى بالرسول من مكة إلى إيليا ومبعثه ومخرج دينه من مكة وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى مملكة المهدى بالشام فمكة هى الأول والشام هى الآخر فى الخلق والأمر فى الكلمات الكونية والدينية [2]

التفاسير الباطلة

هذه التفاسير الباطلة يقول مثلها كثير من الجهال كما يقولون محمد رسول الله والذين معه أبو بكر أشداء على الكفار عمر رحماء بينهم عثمان تراهم ركعا سجدا على يجعلون هذه الصفات لموصوفات متعددة ويعينون الموصوف في هؤلاء الأربعة والآية صريحة في أبطال هذا وهذا فإنها صريحة في ان هذه الصفات كلها لقوم يتصفون بها كلها وأنهم كثيرون ليسوا واحدا ولا ريب أن الأربعة أفضل هؤلاء وكل من الأربعة موصوف بهذا كله وأن كان بعض الصفات في بعض أقوى منها في

---

[1] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 207-208

[2] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 506-507

آخر واغرب من ذلك قول بعض جهال المفسرين{ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1} وَطُورِ سِينِينَ{2} وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ{3} التين1-3 أنهم الأربعة فإن هذا مخالف للعقل والنقل لكن الله اقسم بالأماكن الثلاثة التي أنزل فيها كتبه الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن وظهر منها موسى وعيسى ومحمد كما قال في التوراة جاء الله من طور سينا واشرق من ساعين واستعلن من جبال فاران فالتين والزيتون الأرض التي بعث فيها المسيح وكثيرا ما تسمى الأرض بما ينبت فيها فيقال فلأن خرج إلى الكرم والى الزيتون و إلى الرمان ونحو ذلك ويراد الأرض التي فيها ذلك فإن الأرض تتناول ذلك فعبر عنها ببعضها وطور سينين حيث كلم الله موسى وهذا البلد الأمين مكة أم القرى التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم[1]

لا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية

أن ما خلقه الله في سائر الأرض من القوت واللباس والمراكب والمساكن لم يكن كل نوع منه كان موجودا في الحجاز فلم يأكل النبي من كل نوع من أنواع الطعام القوت والفاكهة ولا لبس من كل نوع من أنواع اللباس ثم ان من كان من المسلمين بأرض أخرى كالشام ومصر والعراق واليمن وخراسان وأرمينية وأذربيجان والمغرب وغير ذلك عندهم أطعمة وثياب مجلوبة عندهم أو مجلوبة من مكان آخر فليس لهم أن يظنوا ترك الإنتفاع بذلك الطعام واللباس سنة لكون النبي لم يأكل مثله ولم يلبس مثله إذ عدم الفعل إنما هو عدم دليل واحد من الأدلة الشرعية وهو أضعف من القول باتفاق العلماء وسائر الأدلة من أقواله كأمره ونهيه وإذنه من قول الله تعالى هي أقوى وأكبر ولا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية وكذلك إجماع الصحابة أيضا من أقوى الأدلة الشرعية فنفي الحكم بالاستحباب لانتفاء دليل معين من غير تأمل باقي الأدلة خطأ عظيم فان الله يقول { وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا }فصلت10 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً }البقرة29 وقال تعالى {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ }الجاثية13 وقال تعالى {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }النحل8 ولم تكن البغال موجودة بأرض العرب ولم يركب النبي بغلة إلا البغلة التي أهداها له المقوقس من أرض مصر بعد صلح الحديبية وهذه الآية نزلت بمكة ومثلها في القرآن يمتن الله على عباده بنعمه التي لم تكن بأرض الحجاز كقوله تعالى { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} عبس 24-31 ولم يكن بأرض الحجاز زيتون ولا نقل عن النبي أنه أكل زيتونا ولكن لعل الزيت كان يجلب إليهم وقد قال تعالى {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ }التين1 ولم يكن بأرضهم لا هذا ولا هذا ولا نقل عن النبي أنه أكل منهما وكذلك قوله {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ }المؤمنون20 وقد قال النبي كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة وقال تعالى { الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ }النور35 وكذلك قوله {وَحَدَائِقَ غُلْباً }عبس30 وكذلك قوله في البحر { لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا }النحل14 وقوله { وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 7 ص:229- 232

مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ{12} لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ{13} وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ{14}الزخرف12-14 ولم يركب النبي البحر ولا أبو بكر ولا عمر وقد أخبر بمن يركب البحر من أمته غزاة في سبيل الله كأنهم ملوك على الأسرة لأم حرام بنت ملحان وقالت ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم وكانت سنة رسول الله أنه يطعم ما يجده في أرضه ويلبس ما يجده ويركب ما يجده مما أباحه الله تعالى فمن استعمل ما يجده في أرضه فهو المتبع للسنة كما أنه حج البيت من مدينته فمن حج البيت من مدينة نفسه فهو المتبع للسنة وإن لم تكن هذه المدينة تلك

وكان يجاهد من يليه من الكفار من المشركين وأهل الكتاب فمن جاهد من يليه من هؤلاء فقد اتبع السنة وإن كان نوع هؤلاء غير نوع أولئك إذ أولئك كان غالبهم عربا ولهم نوع من الشرك هم عليه فمن جاهد سائر المشركين تركهم وهندهم وغيرهم فقد فعل ما أمر الله به وإن كانت أصنامهم ليست تلك الأصنام ومن جاهد اليهود والنصارى فقد اتبع السنة وإن كان هؤلاء اليهود والنصارى من نوع آخر غير النوع الذي جاهدهم النبي فانه جاهد يهود المدينة كقريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر وضرب الجزية على نصارى نجران وغزا نصارى الشام عربها ورومها عام تبوك ولم يكن فيها قتال وأرسل إليهم زيدا وجعفرا وعبد الله بن رواحة قاتلوهم في غزوة مؤتة وقال أميركم زيد فان قتل فجعفر فان قتل فعبد الله بن رواحة وصالح أهل البحرين وكانوا مجوسا على الجزية وهم أهل هجر وفي الصحيح أنه قدم مال البحرين فجعله في المسجد وما ثاب حتى قسمه وهذا باب واسع قد بسطناه في غير هذا الموضع وميزنا بين السنة والبدعة وبينا ان السنة هي ما قام الدليل الشرعي عليه بأنه طاعة لله ورسوله سواء فعله رسول الله أو فعل على زمانه أو لم يفعله ولم يفعل على زمانه لعدم المقتضى حينئذ لفعله أو وجود المانع منه فانه إذا ثبت أنه أمر به أو استحبه فهو سنة كما أمر باجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب وكما جمع الصحابة القرآن في المصحف وكما داوموا على قيام رمضان في المسجد جماعة[1]

إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته بخلاف المخلوق

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم[2]

الإبتداء لاسباب متعددة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 21 ص:315- 318

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

أن الإبتداء قد يكون كثيرا بغير الافضل بل يبتدأ بالشيء لاسباب متعددة كما فى قوله تعالى {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ }التين1 {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا }الشمس1 الآيات و {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ }الرحمن68 الى غير ذلك ولم يدل التقديم فى شيء من هذه المواضع على فضل المبدوء به فعلم أن التقديم ليس لازما للفضل[1]

جواب القسم تارة يذكر وتارة يحذف

وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور وانما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته واقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته فالقسم اما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ }الذاريات23 وإما على جملة طلبية كقوله تعالى {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{93}الحجر92-93 مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر وقد يراد به محض القسم والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلابد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية اذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها وما أقسم عليه الرب عز وجل فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسما به ولا ينعكس وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب وتارة يحذفه كما يحذف جواب لو كثيرا كقوله تعالى { لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ }التكاثر5 وقوله {وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ }الرعد31 {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ}الأنفال50 {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ }سبأ51 {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ }الأنعام27 {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ }الأنعام30 ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام لأن المراد أنك لو رأيته لرئيت هولا عظيما فليس فى ذكر الجواب زيادة على ما دل المحرم وهو أيضا تنبيه فاذا أقسم به وفيه الحلال فاذا كان فيه الحرام كان أولى بالتعظيم وكذلك اذا أريد الحلول فانه هو السلبى فالمعنى واحد وقد أقسم ب { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1} التين1 و { وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ{3} التين3 و { لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ{1} وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ{2} وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{3} البلد1-3 والجواب مذكور فى قوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}التين4 و{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ }البلد4 وهو مكابدة أمر الدنيا والآخرة وهذه المكابدة تقتضى قوة صاحبها وكثرة تصرفه واحتياله فقال تعالى { أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ{5} يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً{6}يَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ{7} البلد5-7 فهذا الانسان من جنس أولئك الأمم ومن جنس الذى قال { مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ{28} هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ{29}الحاقة 28-29 له قوة يكابد بها الأمور وكل أهلكه أفيظن مع هذا أنه لن يقدر عليه أحد فيجازيه بأعماله ويحسب أن ما أهلكه من المال لم يره أحد فيعلم ما فعل والقدرة والعلم بهما يحصل الجزاء بل بهما يحصل كل شيء واخباره تعالى بأنه قادر وأنه عالم يتضمن الوعيد والتهديد فانه اذا كان قادرا أمكن الجزاء واذا كان عالما أمكن الجزاء فبالعدل يقدر ما عمل ومن لم يكن قادرا عالما لم يمكنه الجزاء فان العاجز عن الشخص لا يمكنه جزاؤه والذى له قدرة لكن لا يرى ما فعل ان جازاه بلا علم كان ظالما معتديا فلابد له من العلم بما فعل [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 386

[2] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 316-317

عاقبة الكفار

قال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ }الحديد20 و قد جعل إهلاك المهلكين حصادا لهم فقال {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ }هود100 و قال { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{4} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6} فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ{7} أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ{8}التين 4-8 فقوله { وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4} فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5} الاعلى4-5 هو مثل للحياة الدنيا و عاقبة الكفار و من إغتر بالدنيا فإنهم يكونون فى نعيم و زينة و سعادة ثم يصيرون إلى شقاء فى الدنيا و الآخرة كالمرعى الذي جعله غثاء أحوى [1]

إنه ما ثم دار إلا الجنة أو النار

وقد ذكر أبو عبدالله ابن الجد الأعلى أنه سمع أبا الفرج ابن الجوزى ينشد فى مجلس وعظه البيتين المعروفين هب البعث لم تأتنا رسله و جاحمة النار لم تضرم أليس من الواجب المستحق حياء العباد من المنعم فقد صرح فى هذا بأنه من الواجب المستحق حياء الخلق من الخالق المنعم و هذا تصريح بأن شكره واجب مستحق و لو لم يكن وعيد ولا رسالة أخبرت بجزاء و هو يبين ثبوت الوجوب و الإستحقاق و ان قدر أنه لا عذاب وهذا فيه نزاع قد ذكرناه فى غير هذا الموضع و بينا أن هذا هو الصحيح و نتيجة فعل المنهى إنخفاض المنزلة و سلب كثير من النعم التى كان فيها و إن كان لا يعاقب بالضرر و يبين أن الوجوب و الإستحقاق يعلم بالبديهة فتارك الواجب و فاعل القبيح و إن لم يعذب بالآلام كالنار فيسلب من النعم و أسبابه ما يكون جزاءه و هذا جزاء من لم يشكر النعمة بل كفرها أن يسلبها فالشكر قيد النعم و هو موجب للمزيد و الكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب و قبل ذلك ينقص النعمة و لا يزيد مع أنه لابد من إرسال رسول يستحق معه النعيم أو العذاب فإنه ما ثم دار إلا الجنة أو النار قال تعالى {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{4} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6} التين 4-6 [2]

الإسم متناول لآدم عينا

قوله {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً }البقرة30 يعم آدم و بنيه لكن الإسم متناول لآدم عينا كقوله {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }التين4 و قوله {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ 14} وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ{15}الرحمن14 و قوله { وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ{7} ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 153

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 253

مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ{8} السجدة7-8 {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ }المؤمنون13 إلى أمثال ذلك [1]

الهداية والفلاح للمؤمنين

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ }سبأ50 وتقرير الحجة فى القرآن بالرسل كثير كقوله {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }النساء165 ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التى هى القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا وكذلك ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ {3} البقرة 1-3 ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا وقوله (وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3 وقوله { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6} التين 5-6 فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما شائعا متواترا اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته [2]

العمل الظاهر لازم للعمل الباطن

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 46

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 5

الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [1]

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }التوبة33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }التين6[2]

الثواب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ }البقرة98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ }الأحزاب7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ }محمد2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا }محمد2 وهذه نزلت فى الصحابةوغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ }البقرة238

وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

ذكرها تخصيصا وتنصيصا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عمن سواهم [1]

{ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }

وهو سبحانه تارة يذكر خلق الإنسان مجملا و تارة يذكره مفصلا كقوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ{12} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{13} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{14} المؤمنون12-14 ثم ذكر المعادين الأصغر و الأكبر فقال { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ{15} ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ{16}المؤمنون15-16 و من الناس من يقول لم دخلت لام التوكيد فى الموت و هو مشاهد و لم تدخل فى البعث و هو غيب فيحتاج إلى التوكيد و ذلك و الله أعلم أن المقصود بذكر الموت و البعث هو الإخبار بالجزاء و المعاد و أول ذلك هو الموت فنبه على الإيمان بالمعاد و الإستعداد لما بعد الموت و هو إنما قال{ تُبْعَثُونَ }المؤمنون 16 فقط و لم يقل تجازون لكن قد علم أن البعث للجزاء و أيضا ففيه تنبيه على قهر الإنسان و إذلاله يقول بعد هذا

كله إنك تموت فترد إلى أسفل سافلين إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات كما قال { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{4} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6}التين 4-6 و هذا الرد هو بالموت فإنه يصير فى أسفل سافلين إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات كما قال {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ }المطففين7 و قال { إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ }المطففين18 و فى قوله {أَسْفَلَ سَافِلِينَ }التين5 قولان قيل الهرم و قيل العذاب بعد الموت و هذا هو الذي دلت عليه الآية قطعا فإنه جعله فى أسفل سافلين إلا المؤمنين و الناس نوعان فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين و المؤمن فى عليين و أما القول الأول ففيه نظر فإنه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد إلى أسفل سافلين بل كثير من الكفار يموت قبل الهرم و كثير من المؤمنين يهرم و إن كان حال المؤمن فى الهرم أحسن حالا من الكافر فكذلك فى الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر فجعل الرد إلى أسفل سافلين في آخر العمر و تخصيصه بالكفار ضعيف و لهذا قال بعضهم أن الإستثناء منقطع على هذا القول و هو أيضا

ضعيف فإن المنقطع لا يكون فى الموجب و لو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعى فى أي إستثناء شاء أنه منقطع و أيضا فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول و المؤمنون بعض نوع الإنسان و قد فسر ذلك بعضهم على القول الأول بأن المؤمن يكتب له ما كان يعمله إذا عجز قال إبراهيم النخعي إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز عن العمل كتب الله له ما كان يعمل و هو قوله { فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }التين6 و قال ابن قتيبة المعنى {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا }التين6 في و قت القوة و القدرة فإنهم فى حال الكبر غير منقوصين و إن عجزوا عن الطاعات فإن الله يعلم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير فهو يجري لهم أجر ذلك فيقال و هذا أيضا ثابت فى حال الشباب إذا عجز الشاب لمرض أو سفر كما فى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلىالله عليه و سلم قال إذا مرض

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 198-199

العبد أو سافر كتب الله له من العمل ما كان يعمل و هو صحيح مقيم و فسره بعضهم بما روى عن ابن عباس أنه قال من قرأ القرآن فإنه لا يرد إلى أرذل العمر فيقال هذا مخصوص بقارئ القرآن و الآية إستثنت الذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء قرأوا القرآن أم لم يقرأوه و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب و ريحها طيب و مثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب و لا ريح لها وأيضا فيقال هرم الحيوان ليس مخصوصا بالإنسان بل غيره من الحيوان إذا كبر هرم و أيضا فالشيخ و إن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب و لو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا ردا إلى أسفل سافلين فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف كقوله { ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً }الروم54 و قوله {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ }يس68 فهو يعيده إلى حال الضعف و معلوم أن الطفل ليس هو فى أسفل سافلين فالشيخ كذلك و أولى و إنما فى أسفل سافلين من يكون فى سجين لا فى عليين كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }النساء145 ومما يبين ذلك قوله { فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 فإنه يقتضي إرتباط هذا بما قبله لذكره بحرف الفاء و لو كان المذكور إنما هو رده إلى الهرم دون ما بعد الموت لم يكن هناك تعرض للدين و الجزاء بخلاف ما إذا كان المذكور أنه بعد الموت يرد إلى أسفل سافلين غير المؤمن المصلح فإن هذا يتضمن الخبر بأن الله يدين العباد بعد الموت فيكرم المؤمنين و يهين الكافرين و أيضا فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة ب {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1} وَطُورِ سِينِينَ{2} وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ{3} التين 1-3 و هي المواضع التى جاء منها محمد و المسيح و موسى و أرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين و منذرين و هذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد بل على الأمور الغائبة التى تؤكد بالأقسام فإن إقسام الله هو على أنباء الغيب و في نفس المقسم به و هو إرسال هؤلاء الرسل تحقيق للمقسم عليه و هو الثواب و العقاب بعد الموت لأن الرسل أخبروا به و هو يتضمن أيضا الجزاء في الدنيا كإهلاك من أهلكهم من الكفار فإنه ردهم إلى أسفل سافلين بهلاكهم في الدنيا و هو تنبيه على زوال النعم إذا حصلت المعاصي كمن رد فى الدنيا إلى أسفل جزاء على ذنوبه و قوله {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي بالجزاء يتناول جزاءه على الأعمال فى الدنيا و البرزخ و الآخرة إذ كان قد أقسم بأماكن هؤلاء المرسلين الذين أرسلوا بالآيات البينات الدالة على أمر الله و نهيه و وعده و وعيده مبشرين لأهل الإيمان منذرين لأهل الكفر و قد أقسم بذلك على أن الإنسان بعد أن جعل في أحسن تقويم إن آمن و عمل صالحا كان له أجر غير ممنون و إلا كان فى أسفل سافلين فتضمنت السورة بيان ما بعث به هؤلاء الرسل الذين أقسم بأماكنهم و الإقسام بمواضع محنهم تعظيم لهم فإن موضع الإنسان إذا عظم لآجله كان هو أحق بالتعظيم و لهذا يقال فى المكاتبات إلى المجلس و المقر و نحو ذلك السامي و العالي و يذكر بخضوع له و تعظيم و المراد صاحبه فلما قال {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 دل على أن ما تقدم قد بين فيه ما يمنع التكذيب بالدين و في قوله { يُكَذِّبُكَ }التين7 قولان قيل هو خطاب للإنسان كما قال مجاهد و عكرمة و مقاتل و لم يذكر البغوي غيره قال عكرمة يقول فما يكذبك بعد بهذه الأشياء التى فعلت بك و عن مقاتل فما الذي يجعلك مكذبا بالجزاء و زعم أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعة والثاني أنه خطاب للرسول و هذا أظهر فإن الإنسان إنما ذكر مخبرا عنه لم يخاطب و الرسول هو الذي أنزل عليه القرآن و الخطاب فى هذه السور له كقوله {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى }الضحى3 و قوله {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }الشرح1 و قوله{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 والإنسان إذا خوطب قيل له {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ }الانفطار6 {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً }الانشقاق6 و أيضا فبتقدير أن يكون خطابا للإنسان يجب أن يكون خطابا للجنس كقوله {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ

}الانشقاق6 و على قول هؤلاء إنما هو خطاب للكافر خاصة المكذب بالدين و أيضا فإن قوله { يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي يجعلك كاذبا هذا هو المعروف من لغة العرب فإن إستعمال كذب غيره أي نسبه إلى الكذب و جعله كاذبا مشهور و القرآن مملوء من هذا و حيث ذكر الله تكذيب المكذبين للرسل أو التكذيب بالحق و نحو ذلك فهذا مراده لكن هذه الآية فيها غموض من جهة كونه قال { يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 فذكر المكذب بالدين فذكر المكذب و المكذب به جميعا و هذا قليل جاء نظيره فى قوله {فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ }الفرقان19 فأما أكثر المواضع فإنما يذكر أحدهما إما المكذب كقوله {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ }الشعراء105 و إما المكذب به كقوله {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ}الفرقان11 و أما الجمع بين ذكر المكذب و المكذب به فقليل و من هنا اشتبهت هذه الآية على من جعل الخطاب فيها للإنسان و فسر معنى قوله {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 فما يجعلك مكذبا وعبارة آخرين فما يجعلك كذابا قال ابن عطية و قال جمهور من المفسرين المخاطب الإنسان الكافر أي ما الذي يجعلك كذابا بالدين تجعل لله أندادا و تزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل قلت و كلا القولين غير معروف فى لغة العرب أن يقول كذبك أي جعلك مكذبا بل كذبك جعلك كذابا و إذا قيل جعلك كذابا أي كاذبا فيما يخبر به كما جعل الكفار الرسل كاذبين فيما أخبروا به فكذبوهم و هذا يقول جعلك كاذبا بالدين فجعل كذبه أنه أشرك و أنه أنكر المعاد و هذا ضد الذي ينكر ذاك جعله مكذبا بالدين و هذا جعله كاذبا بالدين و الأول فاسد من جهة العربية و الثاني فاسد من جهة المعنى فإن الدين هو الجزاء الذي كذب به الكافر و الكافر كذب به لم يكذب هو به و أيضا فلا يعرف في المخبر أن يقال كذبت به بل يقال كذبته و أيضا فالمعروف فى كذبه أى نسبه إلى الكذب لا أنه جعل الكذب فيه فهذا كله تكلف لا يعرف في اللغة بل المعروف خلافه و هو لم يقل {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 و لا قال فما كذبك و لهذا كان علماء العربية على القول الأول قال ابن عطية و اختلف فى المخاطب بقوله {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 فقال قتادة و الفراء و الأخفش هو محمد صلى الله عليه و سلم قال الله له فما الذي يكذبك فيما تخبربه من الجزاء و البعث و هو الدين بعد هذه العبرة التى يوجب النظر فيها صحة ما قلت قال و يحتمل أن يكون الدين على هذا التأويل جميع شرعه و دينه قلت و على أن المخاطب محمد صلى الله عليه و سلم فى المعنى قولان أحدهما قول قتادة قال {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي إستيقن فقد جاءك البيان من الله و هكذا رواه عنه ابن أبي حاتم بإسناد ثابت و كذلك ذكره المهدوي {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي إستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين فالخطاب للنبى صلى الله عليه و سلم و قال معناه عن قتادة قال و قيل المعنى فما يكذبك أيها الشاك يعنى الكفار فى قدرة الله أي شيء يحملك على ذلك بعد ما تبين لك من قدرته قال و قال الفراء فمن يكذبك بالثواب و العقاب و هو إختيار الطبري قلت هذا القول المنقول عن قتادة هو الذي أوجب نفور مجاهد عن أن يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه و سلم كما روى الناس و منهم إبن أبي حاتم عن الثوري عن منصور قال قلت لمجاهد {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 عنى به النبى صلى الله عليه و سلم قال معاذ الله عنى به الإنسان و قد أحسن مجاهد فى تنزيه النبى صلى الله عليه و سلم أن يقال له {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 أي إستيقن و لا تكذب فإنه لو قيل له لا تكذب لكان هذا من جنس أمره بالإيمان و التقوى و نهيه عما نهي الله عنه و أما إذا قيل {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 فهو لم يكذب بالدين بل هو الذي أخبر بالدين و صدق به فهو {وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ }الزمر33 فكيف يقال له {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 فهذا القول فاسد لفظا و معنى و اللفظ الذي رأيته منقولا بالإسناد عن قتادة ليس صريحا فيه بل يحتمل أن يكون أراد به خطاب الإنسان فإنه قال {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 قال إستيقن فقد جاءك البيان و كل إنسان مخاطب بهذا فإن

كان قتادة أراد هذا فالمعنى صحيح لكن هم حكوا عنه أن هذا خطاب للرسول صلى الله عليه و سلم و على هذا فهذا المعنى باطل فلا يقال للرسول فأي شيء يجعلك مكذبا بالدين و إن ارتأت به النفس لأن هذا فيه دلائل تدل على فساده و لهذا إستعاذ منه مجاهد و الصواب ما قاله الفراء و الأخفش و غيرهما و هو الذي اختاره أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى و غيره من العلماء كما تقدم و كذلك ذكره أبو الفرج ابن الجوزي عن الفراء فقال إنه خطاب للنبى صلى الله عليه و سلم و المعنى فمن يقدر على تكذيبك بالثواب و العقاب بعد ما تبين له أنا خلقنا الإنسان على ما و صفنا قاله الفراء قال و أما الدين فهو الجزاء قلت و كذلك قال غير واحد كما روى ابن أبى حاتم عن النضر بن عربي {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي بالحساب و من تفسير العوفى عن ابن عباس أي بحكم الله قلت قال بحكم الله لقوله {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ }التين8 و هو سبحانه يحكم بين المصدق بالدين و المكذب به و على هذا قوله فما وصف للأشخاص و لم يقل فمن لأن ما يراد به الصفات دون الأعيان و هو المقصود كقوله { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء3 و قوله {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ }الكافرون2 و قوله {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا }الشمس7 كأنه قيل فما المكذب بالدين بعد هذا أي من هذه صفته و نعته هو جاهل ظالم بنفسه و الله يحكم بين عباده فيما يختلفون فيه من هذا النبأ العظيم و قوله { بَعْدُ }التين7 قد قيل إنه بعد ما ذكر من دلائل الدين وقد يقال لم يذكر إلا الإخبار به و أن الناس نوعان فى أسفل سافلين و نوع لهم أجر غير ممنون فقد ذكر البشارة و النذارة و الرسل بعثوا مبشرين و منذرين فمن كذبك بعد هذا فحكمه إلى الله أحكم الحاكمين و أنت قد بلغت ما و جب عليك تبليغه و قول {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 ليس نفيا للتكذيب فقد و قع بل قد يقال إنه تعجب منه كما قال {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ }الرعد5 و قد يقال أن هذا تحقير لشأنه و تصغير لقدره لجهله و ظلمه كما يقال من فلان و من يقول هذا إلا جاهل لكنه ذكره بصيغة ما فإنها تدل على صفته و هي المقصودة إذ لا غرض في عينه كأنه قيل فأي صنف و أي جاهل يكذبك بعد بالدين فإنه من الذين يردون إلى أسفل سافلين و قوله {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ }التين8 يدل على أنه الحاكم بين المكذب بالدين و المؤمن به و الأمر في ذلك له سبحانه و تعالى و القرآن لا تنقضي عجائبه و الله سبحانه بين مراده بيانا أحكمه لكن الإشتباه يقع على من لم يرسخ فى علم الدلائل الدالة فإن هذه السورة و غيرها فيها عجائب لا تنقضي منها أن قوله{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 ذكر فيه الرسول المكذب و الدين المكذب به جميعا فإن السورة تضمنت الأمرين تضمنت الإقسام بأماكن الرسل المبينة لعظمتهم و ما أتوا به من الآيات الدالة على صدقهم الموجبة للإيمان و هم قد أخبروا بالمعاد المذكور فى هذه السورة و قد أقسم الله عليه كما يقسم عليه فى غير موضع و كما أمر نبيه أن يقسم عليه في مثل قوله {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ }التغابن7 و قوله {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ }سبأ3 فلما تضمنت هذا و هذا ذكر نوعي التكذيب فقال {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 و الله سبحانه أعلم وأيضا فإنه لا ذنب له فى ذلك و القرآن مراده أن يبين أن هذا الرد جزاء على ذنوبه و لهذا قال { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }6{التين 6 كما قال { وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3}العصر 1-3 لكن هنا ذكر الخسر فقط فوصف المستثنين بأنهم تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر مع الإيمان و الصلاح و هناك ذكر أسفل سافلين و هو العذاب و المؤمن المصلح لا يعذب و إن كان قد ضيع أمورا خسرها لو حفظها لكان رابحا غير خاسر و بسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أنه سبحانه يذكر خلق الإنسان مجملا و مفصلا و تارة يذكر إحياءه كقوله تعالى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }البقرة28 و هو كقول الخليل عليه السلام {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ }البقرة258 فإن خلق الحياة و لوازمها و ملزوماتها أعظم و أدل على القدرة و النعمة و الحكمة[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:278- 292 و دقائق التفسير ج: 3 ص: 154-162

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة العلق
96

رقية محمود الغرايبة

~§§ العلق(مكية)19 §§~

مقدمة سورة العلق

سورة إقرأ هي أول ما نزل من القرآن

في الصحيحين عن عائشة قالت كان اول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الى اهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجئة الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرا قال ما انا بقارىء قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرا قلت ما انا بقارىء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرا قلت ما انا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق1-5 وذكر الحديث بطوله وذكر فترة الوحي قال جابر في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم في فترة الوحي قال بينا انا امشي اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والارض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ{5} المدثر1-5 فحمى الوحي وتتابع[1]

سورة إقرأ هي أول ما نزل من القرآن و لهذا إفتتحت بالأمر بالقراءة و ختمت بالأمر بالسجود و وسطت بالصلاة التى أفضل أقوالها و أولها بعد التحريم هو القراءة و أفضل أفعالها و آخرها قبل التحليل هو السجود و لهذا لما أمر بأن يقرأ أنزل عليه بعدها المدثر لأجل التبليغ فقيل له {قُمْ فَأَنذِرْ }المدثر2 فبالأولى صار نبيا و بالثانية صار رسولا و لهذا خوطب بالمتدثر و هو المتدفئ من برد الرعب و الفزع الحاصل بعظمة ما دهمه لما رجع إلى خديجة ترجف بوادره و قال دثرونى دثرونى فكأنه نهي عن الإستدفاء و أمر بالقيام للإنذار[2]

بهذه السورة صار نبيا

وفى الصحيحين عن عائشة قالت أول ما بدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصادقة وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى غار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى

---

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 492-493 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 388

[2] ب مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 477

فجأه الحق وهو بحراء فأتاه الملك فقال له اقرأ قال لست بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت لست بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت لست بقارئ ثم أخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره الحديث بطوله فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئا وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه وبها صار نبيا ثم أنزل عليه سورة المدثر وبها صار رسولا لقوله {قُمْ فَأَنذِرْ }المدثر2[1]

قصد غار حراء ليس من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد ثم يرجع فيتزود لذلك حتى فجأه الوحي وهو بغار حراء فأتاه الملك فقال له اقرأ فقال لست بقارئ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ثم قال اقرأ فقلت لست بقارئ مرتين أو ثلاثا ثم قال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 1-5 فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره الحديث بطوله فتحنثه وتعبده بغار حراء كان قبل المبعث ثم أنه لما أكرمه الله بنبوته ورسالته وفرض على الخلق الإيمان به وطاعته واتباعه أقام بمكة بضع عشرة سنة هو ومن آمن به من المهاجرين الأولين الذين هم افضل الخلق ولم يذهب هو ولا أحد من أصحابه إلى حراء ثم هاجر إلى المدينة واعتمر أربع عمر عمرة الحديبية التي صده فيها المشركون عن البيت الحرام والحديبية عن يمينك وأنت قاصد مكة إذا مررت بالتنعيم عند المساجد التي يقال إنها مساجد عائشة والجبل الذي عن يمينك يقال له جبل التنعيم والحديبية غربيه ثم إنه اعتمر من العام القابم عمرة القضية ودخل مكة هو وكثير من أصحابه وأقاموا بها ثلاثا ثم لما فتح مكة وذهب إلى ناحية حنين والطائف شرقي مكة فقاتل هوازن بوادي حنين ثم حاصر أهل الطائف وقسم غنائم حنين بالجعرانة فأتى بعمرته من الجعرانة إلى مكة ثم إنه اعتمر عمرته الرابعة مع حجة الوداع وحج معه جماهير المسلمين لم يتخلف عن الحج معه إلا من شاء الله وهو في ذلك كله لا هو ولا أحد من اصحابه يأتي غار حراء ولا يزوره ولا شيئا من البقاع التي حول مكة ولم يكن هناك إلا بالمسجد الحرام وبين الصفا والمروة وبمنى ومزدلفة وعرفات وصلى الظهر والعصر ببطن عرنة وضربت له القبة يوم عرفة بنمرة المجاورة لعرفة ثم بعده خلفاءه الراشدين وغيرهم من السابقين الأولين لم يكونوا يسيرون إلى حراء ونحوه للصلاة فيه والدعاء[2]

العبادات البدعية

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 151

[2] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 424

اذ المقصود هنا الكلام فى اجناس عبادات غير مشروعة حدثت فى المتأخرين كالخلوات فانها تشتبه بالاعتكاف الشرعي والاعتكاف الشرعي فى المساجد كما كان النبى يفعله هو واصحابه من العبادات الشرعية واما الخلوات فبعضهم يحتج فيها بتحنثه بغار حراء قبل الوحي وهذا خطأ فان ما فعله قبل النبوة ان كان قد شرعه بعد النبوة فنحن مأمورون باتباعه فيه والا فلا وهو من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك الى غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون وقد اقام صلوات الله عليه بمكة قبل الهجرة بضع عشرة سنة ودخل مكة فى عمرة القضاء وعام الفتح أقام بها قريبا من عشرين ليلة واتاها في حجة الوداع واقام بها اربع ليال وغار حراء قريب منه ولم يقصده وذلك ان هذا كانوا يأتونه فى الجاهلية ويقال ان عبد المطلب هو سن لهم اتيانه لانه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التى جاء بها بعد النبوة صلوات الله عليه كالصلاة والاعتكاف فى المساجد فهذه تغني عن اتيان حراء بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحي فانه لم يكن يقرأ بل قال له الملك عليه السلام اقرأ قال صلوات الله عليه وسلامه فقلت لست بقاري ولا كانوا يعرفون هذه الصلاة ولهذا لما صلاها النبى نهاه عنها من نهاه من المشركين كابي جهل قال الله تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19} العلق 9-19 و طائفة يجعلون الخلوة اربعين يوما ويعظمون امر الاربعينية ويحتجون فيها بان الله تعالى واعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة واتمها بعشر وقد روى ان موسى عليه السلام صامها وصام المسيح ايضا اربعين لله تعالى وخوطب بعدها فيقولون يحصل بعدها الخطاب والتنزل كما يقولون فى غار حراء حصل عده نزول الوحى وهذا ايضا غلط فان هذه ليست من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بل شرعت لموسى عليه السلام كما شرع له السبت والمسلمون لا يسبتون وكما حرم فى شرعه اشياء لم تحرم فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم فهذا تمسك بشرع منسوخ وذاك تمسك بما كان قبل النبوة وقد جرب ان من سلك هذه العبادات البدعية اتته الشياطين وحصل له تنزل شيطاني وخطاب شيطاني وبعضهم يطير به شيطانه واعرف من هؤلاء عددا طلبوا ان يحصل لهم من جنس ما حصل للانبياء من التنزل فنزلت عليهم الشياطين لانهم خرجوا عن شريعة النبى التى امروا بها قال تعالى {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ {18} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ{19}الجاثية18 -19 وكثير منهم لا يحد للخلوة مكانا ولا زمانا بل يأمر الانسان ان يخلو فى الجملة[1]

أول ما أنزل الله تبارك وتعالى ذكر بأنه الخالق

فأول ما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق1-5 فذكر نفسه بأنه الخالق ولم يصف قط شيئا من المخلوقات بهذا لا ملكا ولا نبيا[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 394

[2] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 45

فقوله تعالى { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء{255} البقرة فإن هذا يقتضي أنه الذي يعلم العباد ما شاء من علمه وأنه لا علم لهم إلا ما علمهم فبين أنه المنفرد بالتعليم والهداية لا يعلم أحد شيئا إن لم يعلمه إياه كما أنه المنفرد بالخلق والإحداث فهو الذي خلق فسوى وهو الذي قدر فهدى وأول ما نزل من القرآن {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق 1-5[1]

جمع بين أفضل أعمال الصلاة في أول سورة

والصلاة أفضل الأعمال و هي مؤلفة من كلم طيب و عمل صالح أفضل كلمها الطيب وأوجبه القرآن و أفضل عملها الصالح وأوجبه السجود كما جمع بين الأمرين في أول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها بقوله تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 و ختمها بقوله { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }العلق19 فوضعت الصلاة على ذلك أولها القراءة و آخرها السجود ولهذا قال سبحانه فى صلاة الخوف { فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ }النساء102 و المراد بالسجود الركعة التى يفعلونها و حدهم بعد مفارقتهم للامام و ما قبل القراءة من تكبير و استفتاح و استعاذة هي تحريم للصلاة و مقدمة لما بعده أول ما يبتدىء به كالتقدمة و ما يفعل بعد السجود من قعود و تشهد فيه التحية لله و السلام على عباده الصالحين و الدعاء و السلام على الحاضرين فهو تحليل للصلاة و معقبة لما قبله قال النبى صلى الله عليه و سلم مفتاح الصلاة الطهور و تحريمها التكبير و تحليلها التسليم[2]

أمر في أولها بالقراءة وفي آخرها بالسجود

وشرع الله سبحانه وتعالى لنا الصلوات الخمس وقراءة القرآن فيها والاستماع له والاجتماع لسماع القرآن خارج الصلاة أيضا فأول سورة أنزلها على نبيه (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} العلق1 أمر في أولها بالقراءة وفي آخرها بالسجود بقوله تعالى { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19} العلق19 ولهذا كان أعظم الأذكار التي في الصلاة قراءة القرآن وأعظم الأفعال السجود لله وحده لا شريك له وقال تعالى { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً }الإسراء78 وقال تعالى {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }الأعراف204 وكان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقي يستمعون وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى رضي الله عنهما ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون ومر النبي بأبي موسى رضي الله عنه وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته فقال يا أبا موسى مررت بك البارحة فجعلت أستمع لقراءتك فقال لو علمت لحبرته لك تحبيرا وقال لله أشد أذنا أي استماعا إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة وأكابر المشائخ كمعروف الكرخي والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ونحوهم وهو سماع المشائخ المتأخرين الأكابر كالشيخ عبدالقادر والشيخ عدي بن

---

[1] الصفدية ج: 2 ص: 65

[2] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 6

مسافر والشيخ أبي مدين وغيرهم من المشائخ رحمهم الله وأما المشركون فكان سماعهم كما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله تعالى {وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً }الأنفال35 قال السلف المكاء الصفير والتصدية التصفيق باليد فكان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام يصفقون ويصوتون يتخذون ذلك عبادة وصلاة فذمهم الله على ذلك وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه فمن اتخذ نظير هذا السماع عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله فقد ضاهى هؤلاء في بعض أمورهم وكذلك لم تفعله القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ولا فعله أكابر المشائخ وأما سماع الغناء على وجه اللعب فهذا من خصوصية الأفراح للنساء والصبيان كما جاءت به الآثار فإن دين الإسلام واسع لا حرج فيه وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله [1]

كل أحد فيه ما يقتضي معرفته بالحق

والله سبحانه قد تفضل على بنى آدم بأمرين هما أصل السعادة أحدهما أن كل مولود يولد على الفطرة كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو نصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }الروم30 قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }الروم30 وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه و سلم قال يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين و حرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالالهية محبة له تعبده لا تشرك به شيئا و لكن يفسدها ما يزين لها شياطين الانس و الجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ {172} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{173}الأعراف172 -173 وتفسير هذه الآية مبسوط فى غير هذا الموضع الثاني أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة و أسباب العلم و بما أنزل إليهم من الكتب و أرسل إليهم من الرسل قال تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 1-5 و قال تعالى {الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4} الرحمن1-4 وقال تعالى { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 426-428

فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} و قال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }البلد10 ففي كل أحد ما يقتضي معرفته بالحق ومحبته له وقد هداه ربه إلى أنواع من العلم ويمكنه أن يتوصل بها إلى سعادة الأولى والآخرة وجعل في فطرته محبة لذلك لكن قد يعرض الإنسان بجاهليته وغفلته عن طلب علم ما ينفعه وكونه لا يطلب ذلك ولا يريده أمر عدمي ولا يضاف إلى الله تعالى فلا يضاف إلى الله لا عدم علمه بالحق ولا عدم إرادته للخير لكن النفس من لوازمها الإرادة و الحركة فإنها حية حياة طبيعية لكن سعادتها أن تحيا الحياة النافعة فتعبد الله و متى لم تحيى هذه الحياة كانت ميتة و كان مالها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها فلا هي حية متنعمة بالحياة و لا ميتة مستريحة من العذاب قال تعالى {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى }الأعلى13 فالجزاء من جنس العمل لما كان فى الدنيا ليس بحي الحياة النافعة و لا ميتا عديم الإحساس كان في الآخرة كذلك و النفس إن علمت الحق و أرادته فذلك من تمام إنعام الله عليها و إلا فهى بطبعها لابد لها من مراد معبود غير الله و مرادات سيئة فهذا تركب من كونها لم تعرف الله و لم تعبده و هذا عدم[1]

ذكر الخلق والتعليم عموما وخصوصا

أن الأشياء لها وجود في أنفسها وهو وجودها العيني أولها ثبوتها في العلم ثم في اللفظ المطابق للعلم ثم في الخط وهذا الذي يقال وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان ووجود في البيان ووجود عيني ووجود علمي ولفظي ورسمي ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق 1-5 فذكر الخلق عموما وخصوصا وذكر التعليم عموما وخصوصا فالخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق العلم والعلم يطابق المعلوم[2]

يقال للشيء أربع وجودات وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان ووجود في البنان وجود عيني وعلمي ولفظي ورسمي ولهذا كان أول ما أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم سورة اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} فذكر في هذه السورة التي ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها أول ما أنزل عليه من القرآن أنه سبحانه موجد الموجودات الأربعة فذكر الوجود العيني وهو الوجود الحقيقي الثابت في نفسه فعم بالخلق وخص الإنسان فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق ثم ذكر الموجودات الثلاثة المطابقة لهذا فعم وخص فقال اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فذكر العلم عموما وخص الإنسان بالتعليم وذكر أنه علم بالقلم وذلك هوالخط والخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق المعنى الذي في القلب فإن الخط لا يدل بنفسه على المعنى وإنما يدل على العبارة الدالة على المعنى ولهذا من لم يعرف لغة صاحب الخط فإنه إذا قرأ خطا بالعربي واللسان فارسي وهو لا يعرف معنى اللغة الفارسية لم يعرف المعنى فإن الخط إنما يدل بواسطة اللفظ[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:295- 297 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 66-67 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 208

[2] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 289

[3] الصفدية ج: 2 ص: 278

استعمال قياس الاولى في القران

كانت طريقة الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه الاستدلال على الرب تعالى بذكر اياته وان استعملوا في ذلك القياس استعملوا القياس الاولى ولم يستعملوا قياس شمول يستوى افراده ولا قياس تمثيل محض فان الرب تعالى لا مثل له ولا يجتمع هو وغيره تحت كلي يستوي افراده بل ما ثبت بغيره من كمال لا نقص فيه فثبوته له بطريق الاولى وما تنزه عنه غيره من النقائص فتنزهه عنه بطريق الاولى استعمال قياس الاولى في القران ولهذا كانت الاقيسة العقلية البرهانية المذكورة في القران من هذا الباب كما يذكره في دلائل ربو بيته وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وامكان المعاد وغير ذلك من المطالب العالية السنية والمعالم الالهية التي هي اشرف العلوم واعظم ما تكمل به النفوس من المعارف وان كان كما لها لا بد فيه من كمال علمها وقصدها جميعا فلا بد من عبادة الله وحده المتضمنة لمعرفته ومحبته والذل له واما استدلاله تعالى بالآيات فكثير في القران والفرق بين الايات وبين القياس ان الاية هي العلامة وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول لا يكون مدلوله امرا كليا مشتركا بين المطلوب وغيره بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول كما ان الشمس آية النهار قال تعالى وجعلنا اليل والنهار ايتين فمحونا اية اليل وجعلنا اية النهار مبصرة فنفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار وكذلك آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نفس العلم بها يوجب العلم بنبوته بعينه لا يوجب امرا كليا مشتركا بينه وبين غيره وكذلك آيات الرب تعالى نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى لا يوجب علما كليا مشتركا بينه وبين غيره والعلم بكون هذا مستلزما لهذا هو جهة الدليل فكل دليل في الوجود لا بد ان يكون مستلزما للمدلول والعلم باستلزام المعين للمعين المطلوب اقرب الى الفطرة من العلم بأن كل معين من معينات القضية الكلية يستلزم النتيجة والقضايا الكلية هذا شأنها فان القضايا الكلية ان لم تعلم معيناتها بغير التمثيل والا لم تعلم الا بالتمثيل فلا بد من معرفة لزوم المدلول للدليل الذي هو الحد الاوسط فلا بد ان يعرف ان كل فرد من افراد الحكم الكلي المطلوب يلزم كل فرد من افراد الدليل كما اذا قيل كل ا ب وكل ب ج فكل ج ا فلا بد ان يعرف ان كل فرد من افراد الجيم يلزم كل فرد من أفراد الباء وكل فرد من أفراد الباء يلزم كل فرد من أفراد الالف ومعلوم ان العلم بلزوم الجيم المعين للباء المعين والباء المعين للالف المعين اقرب الى الفطرة من هذا وهذا كما قدمناه في امثلة اقيستهم البرهانية مثل قولهم الكل اعظم من الجزء و الاشياء المساوية لشيء واحد متساوية و الضدان لا يجتمعان والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ونحو ذلك فان هذه قضايا كلية ومعلوم ان الانسان اذا تصور ما يتصوره من معين او جزئه فان تصوره لكون هذا الكل المعين اعظم من جزئه اسبق الى عقله من ان يتخيل ان كل كل اعظم من جزئه فهو يتصور ان بدنه اعظم من يده ورجله وان السماء اعظم من كواكبها والجبل اعظم من بعضه والمدينة اعظم من بعضها ونحو ذلك قبل ان يتصور القضية الكلية الشاملة لجميع هذه الافراد ولذلك اذا تصور شيئا معينا يعلم انه لا يكون موجودا معدوما في حال واحدة قبل ان يتصور ان كل نقيضين لا يجتمعان ولذلك اذا تصور سوادا معينا علم انه لا يكون اللون الواحد سوادا بياضا قبل ان يتصور ان كل ضدين لا يجتمعان وامثال ذلك كثيرة واذا قيل تلك القضية الكلية تحصل في الذهن ضرورة او بديهة من واهب العقل قيل فحصول تلك القضية المعينة

في الذهن من واهب العقل اقرب عظم الفرق بين اثبات الرب بالايات وبين اثباته بالقياس البرهاني ومعلوم ان كل ما سوى الله من الممكنات فانه مستلزم لذات الرب تعالى يمتنع وجوده بدون وجود ذات الرب تعالى وتقدس وان كان مستلزما ايضا لامور كلية مشتركة بينه وبين غيره فلأنه يلزم من وجوده وجود لوازمه وتلك الكليات المشتركة من لوازم المعين اعني يلزمه ما يخصه من ذلك الكلي العام والكلي المشترك يلزمه بشرط وجوده ووجود العالم الذي يتصور القدر المشترك وهو سبحانه يعلم الامور على ما هي عليه فيعلم نفسه المقدسة بما يخصها ويعلم الكليات انها كليات فيلزم من وجود الخاص وجود العام المطلق أي حصة المعين من ذلك العام كما يلزم من وجود هذا الانسان وجود الانسان ومن وجود هذا الانسان وجود الانسانية والحيوانية القائمة به فكل ما سوى الرب مستلزم لنفسه المقدسة بعينها يمتنع وجود شيء سواه بدون وجود نفسه المقدسة فان الوجود المطلق الكلي لا تحقق له في الاعيان فضلا عن ان يكون خالقا لها مبدعا ثم يلزم من وجوده المعين الوجود المطلق المطابق للمعين فاذا تحقق الوجود الواجب تحقق الوجود المطلق المطابق للمعين واذا تحقق الفاعل لكل شيء تحقق الفاعل المطلق المطابق واذا تحقق القديم الازلي تحقق القديم المطلق المطابق واذا تحقق الغنى عن كل شيء تحقق الغنى المطابق واذا تحقق رب كل شيء تحقق الرب المطابق كما ذكرنا انه اذا تحقق هذا الانسان وهذا الحيوان تحقق الانسان المطلق المطابق والحيوان المطلق المطابق لكن المطلق لا يكون مطلقا الا في الاذهان لا في الاعيان والله تعالى هو الخالق للامور الموجودة في الاعيان والمعلم للصور الذهنية المطابقة لما في الاعيان ولهذا كان اول ما انزل على رسوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق1-5 بين في اول ما انزل انه خالق الاعيان عموما وخصوصا فكما انه خالق الموجودات العينية فهو المعلم للماهيات الذهنية فالموجودات الخارجية ايات مستلزمة لوجود عينه واذا تصورتها الاذهان معينة او مطلقة فهو المعلم لهذا المتصور إذ الصور الذهنية ايضا من آياته المستلزمة لوجود عينه لكنها تدل مع ذلك على هدايته وتعليمه كما قال تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى1-3 {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 كما ان الموجودات العينية من آيات وجوده والصور الذهنية من حيث انها موجودات عينيه من هذا الباب كما أنها من جهة مطابقتها للموجودات الخارجية من الباب الاول لكن إذا علم إنسان وجود إنسان مطلق وحيوان مطلق لم يكن عالما بنفس المعين كذلك من علم واجبا مطلقا وفاعلا مطلقا وغنيا مطلقا لم يكن عالما بنفس رب العالمين وما يختص به عن غيره وذلك هو مدلول آياته تعالى فآياته تستلزم عينه التي يمنع تصورها من وقوع الشركة فيها وكل ما سواه دليل على عينه وآية له فانه ملزوم لعينه وكل ملزوم فانه دليل على لازمة ويمتنع تحقق شئ من الممكنات إلا مع تحقق عينه فكلها ملزوم لنفس الرب دليل عليه آية له[1]

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 150-154

سورة العلق1-5

بسم اله الرحمن الرحيم

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}

البسملة آية من القرآن مفردة وليست من السورة

والذين يستحبون بعض المشروع ويكرهون بعضه فإن الله سبحانه يقيم طائفة تقول هذا وطائفة تقول هذا وطائفة تقول هذا ويتنازعون فإن بسبب النزاع تظهر كل طائفة من السنة ما قالت به وتركته الأخرى كالمختلفين فى البسملة هل تجب ويجهر بها أم تكره قراءتها سرا وجهرا يحتاج أولئك أن يظهروا ما يدل على أنها من القرآن آية فردة بتعا للسور ويحتاج اولئك أن يظهروا ما يدل على أنها ليست من السور ولا تجب قراءتها وكلا القولين حق وسورة اقرأ هى أول ما نزل من القرآن وقد إحتج بها كل من الطائفتين وفيها حجة لما معه من الحق فالذين قالوا ليست من السورة قالوا إن جبريل لما أتى النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمره بقراءتها بل أمره أن يقرأ { بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } ولو كانت هى أول السورة لأمره بها وهذا ثابت فى الصحيحين من حديث عائشة والذين قالوا بقراءتها قد قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 فهذا أمر لكل قارىء أن يقرأ بإسم ربه فإذا قيل أذبح بسم الله وكل بسم الله وإركب بسم الله فمعناه ذكر إسم الله إذا فعلت ذلك فلما قال إقرأ بإسم ربك كان أمرا للقارىء أن يذكر إسم الله فيقول بإسم الله وهذا أولى من ذكر إسم ربه عند الذبح والأكل والشرب وهنا قد أمر بالإستعاذة أيضا عند القراءة وهو إذا قال بسم الله الرحمن الرحيم فقد إمتثل ما أمر به فذكر إسم ربه إذا قرىء وإنما لم يذكرها جبريل إبتدا لأنه بعد لم يتعلم شيئا من القرآن لكن علمه هذا وأمره فيه يذكر إسم ربه إذا قرأ فكان بعد هذا إذا قرأ السورة يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم كما ثبت فى صحيح مسلم أنه قال قد أنزل على آنفا سورة ثم قرأ {بسم الله الرحمن الرحيم { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ{1} فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{2} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ{3} الكوثر1-3 ولكن هذه تدل على أنها تبع للقرآن المقصود لما فيها من ذكر الله ولهذا كتبت فى المصاحف مفردة عن السورة لم تخلط بها فهى قرآن مكتوب فى المصاحف لكن أنزل تبعا لغيره والمقصود غيره فلهذا أفردت فى الكتابة والتلاوة ففى الكتابة تكتب مفردة وفى التلاوة كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يجهر بها ولم يجعلها من القرآن المفروض فى الحديث الصحيح بقوله يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين نصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى فإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى على عبدى فإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى إلى آخر الحديث وهذا قول جمهور العلماء فى البسملة أنها آية من القرآن مفردة وليست من السورة وأنه يقرأ بها فى الصلاة سرا فلا تخرج من القرآن وتهجر لا تشبه بالقرآن المقصود فتجهر وهى تشبه الإستعاذة من بعض الوجوه لكن

الإستعاذة ليست بقرآن ولم تكتب فى المصاحف وإنما فيه الأمر بالإستعاذة وهذا قرآن والفاتحة سبع آيات بالإتفاق وقد ثبت ذلك بقوله ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله وسلم أنه قال فاتحة الكتاب هى السبع المثانى وقد كان كثير من السلف يقول البسملة آية منها ويقرؤها وكثير من السلف لا يجعلها منها ويجعل الآية السابعة أنعمت عليهم كما دل على ذلك حديث أبى هريرة الصحيح وكلا القولين حق فهى منها من وجه وليست منها من وجه والفاتحة سبع آيات من وجه تكون البسملة منها فتكون آية ومن وجه لا تكون منها فالآية السابعة أنعمت عليهم لأن البسملة أنزلت تبعا للسور والمقصود أن يبتدأ القرآن بذكر إسم الله فهى أنزلت فى أول السورة تبعا لم تنزل فى أواخر السور وكتبت فى المصاحف مفردة لكن تبعا لما بعدها لا لما قبلها ولهذا قال النبى قد أنزلت على آنفا سورة وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطينا الكوثر وفى السنن كان النبى لا يعلم فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم فمن جهة كونها تابعة للسورة تجعل منها ومن جهة كون المقصود أن يقرأ بسم الله كما يفعل سائر الأفعال بإسم الله والقرآن المقصود غيرها لم تكن آية من السورة ولهذا قال النبى أنى لا لأعلم سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لرجل حتى غفر له وهى تبارك الذى بيده الملك والقراء منهم من يفصل بها بين السورتين ومنهم من لا يفصل لكون القرآن كله كلام الله فلا يفصلون بها بين السورتين كمن سمى إذا أكل ثم أكل أنواعا من الطعام ومنهم من يسمى فى أول كل سورة وهذا أحسن لمتابعته لخط المصحف وهو بمنزلة رفع طعام ووضع طعام فالتسمية عنده أفضل[1]

قراءة بسم الله فى أول السور

فالاسم يظهر به المسمى ويعلو فيقال للمسمى سمة اى اظهره واعله اى اعل ذكره بالاسم الذى يذكر به لكن يذكر تارة بما يحمد به ويذكر تارة بما يذم به كما قال تعالى {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ }الشعراء84 وقال فى النوع المذموم {وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ }القصص42 وقال تعالى {نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }القصص3 فكلاهما ظهر ذكره لكن هذا امام فى الخير وهذا امام فى الشر وما ليس له اسم فانه لا يذكر ولا يظهر ولا يعلو ذكره بل هو كالشىء الخفى الذى لا يعرف ولهذا يقال الاسم دليل على المسمى وعلم على المسمى ونحو ذلك ولهذا كان أهل الاسلام والسنة الذين يذكرون أسماء الله يعرفونه ويعبدونه ويحبونه ويذكرونه ويظهرون ذكره والملاحدة الذين ينكرون اسماءه وتعرض قلوبهم عن معرفته وعبادته ومحبته وذكره حتى ينسوا ذكره { نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ }التوبة67 {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ }الحشر19 {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ }الأعراف205 والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور فى القلب وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى فانه من الكلام والكلام اسم لفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره لكن ذكره بهما أتم والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وامر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى فيدعى بأسمائه الحسنى ويسبح اسمه وتسبيح اسمه هو تسبيح له اذ المقصود بالاسم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 349-352

المسمى كما أن دعاء هو دعاء المسمى قال تعالى {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى }الإسراء110 والله تعالى يأمر بذكره تارة وبذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال { اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً }الأحزاب41 {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ }الأعراف205 وهذا كثير وقال {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً }المزمل8 كما قال {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام118 {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام121{ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ }المائدة4 لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذى هو ألف سين ميم واما فى قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ }المزمل8 فيقال سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله فى الذبيحة {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام118 كقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 وقوله {بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا }هود41 فقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 هو قراءة بسم الله فى أول السور وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارىء مأمور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هى تابعة لغيرها وهنا يقول {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }النمل30 كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم فى قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ }الإنسان25 فانه يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ}الإنسان25 يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله { وَاذْكُر رَّبَّكَ }آل عمران41 فقد يتناول ذكر القلب وقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 هو كقول الآكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله وأما التسبيح فقد قال {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }الأحزاب42 وقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى }الأعلى1 وقال {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 وفى الدعاء {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى }الإسراء110 فقوله { أَيّاً مَّا تَدْعُواْ }الإسراء110 يقتضى تعدد المدعو لقوله ايا ما وقوله { فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى }الإسراء110 يقتضى ان المدعو واحد له الاسماء الحسنى وقوله {ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ }الإسراء110 ولم يقل ادعوا باسم الله او باسم الرحمن يتضمن ان المدعو هو الرب الواحد بذلك الاسم فقد جعل الاسم تارة مدعوا وتارة مدعوا به فى قوله {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}الأعراف180 فهو مدعو به باعتبار ان المدعو هو المسمى وانما يدعى باسمه وجعل الاسم مدعوا باعتبار ان المقصود به هو المسمى وان كان فى اللفظ هو المدعو المنادى كما قال {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ }الإسراء110 أى ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم والمراد اذا دعوته هو المسمى اى الاسمين دعوت ومرادك هو المسمى { فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}الإسراء110 فمن تدبر هذه المعانى اللطيفة تبين له بعض حكم القرآن واسراره ف{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ }الفرقان1 فانه كتاب مبارك تنزيل من حكيم حميد لا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء من ابتغى الهدى فى غيره اضله الله ومن تركه من جبار قصمه الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو قرآن عجب يهدى الى الرشد انزله الله هدى ورحمة وشفاء وبيانا وبصائر وتذكرة فالحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله آخره ولله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 210-212

تنزيه الاسم وتسبيحه تنزيه للمسمى وتسبيح له

ولهذا لما كان يقصد بذكر اسمه ذكر المسمى صار يقول من يقول إن الاسم هو المسمى أن المراد المقصود من الاسم هو المسمى لا أن نفس اللفظ هو المسمى فإن هذا لا يقوله عاقل وتنزيه الاسم وتسبيحه تنزيه للمسمى وتسبيح له كما قال تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 وجاء في الحديث لا تقوم القيامة حتى لا يعبد الله اسم أي لا يعبد الله باسم من أسمائه فإنه إذا قيل دعوت الله وعبدته فإنما في اللفظ الاسم والمقصود هو المسمى[1]

المشروع فى ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة

و ما ذكره سيبويه وغيره من ائمة النحو ان العرب يحكون بالقول ما كان كلاما لا يحكون به ما كان قولا فالقول لا يحكي به الا كلام تام او جملة اسمية او فعلية ولهذا يكسرون ان جاءت بعد القول فالقول لا يحكى به اسم والله تعالى لا يأمر احدا بذكر اسم مفرد ولا شرع للمسلمين اسما مفردا مجردا والاسم المجرد لا يفيد الايمان باتفاق اهل الاسلام ولا يؤمر به فى شىء من العبادات ولا فى شىء من المخاطبات ونظير من اقتصر على الاسم المفرد ما يذكر ان بعض الأعراب مر بمؤذن يقول اشهد ان محمدا رسول الله بالنصب فقال ماذا يقول هذا هذا الاسم فاين الخبر عنه الذى يتم به الكلام وما فى القرآن من قوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً }المزمل8 وقوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 وقوله { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15} الاعلى 14-15 وقوله {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 ونحو ذلك لا يقتضى ذكره مفردا بل فى السنن انه لما نزل قوله {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل قوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال اجعلوها فى سجودكم فشرع لهم ان يقولوا فى الركوع سبحان ربي العظيم وفى السجود سبحان ربي الأعلى وفى الصحيح انه كان يقول فى ركوعه سبحان ربى العظيم وفى سجوده سبحان ربى الأعلى وهذا هو معنى قوله اجعلوها فى ركوعكم وسجودكم باتفاق المسلمين فتسبيح اسم ربه الأعلى وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد كما فى الصحيح عنه انه قال افضل الكلام بعد القرآن اربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وفى الصحيح عنه انه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من قال فى يومه مائة مره لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كتب الله له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت احد بأفضل مما جاء به الا رجل قال مثل ما قال او زاد عليه ومن قال فى يومه مائة مره سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر وفى الموطأ وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال افضل ما قلته انا والنبيون من قبلى لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وفى سنن ابن ماجة وغيره عنه انه قال افضل

---

[1] القواعد النورانية ج: 3 ص: 401

الذكر لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله ومثل هذه الأحاديث كثيرة فى انواع ما يقال من الذكر والدعاء وكذلك ما فى القرآن من قوله تعالى {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ }الأنعام121 وقوله { فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ }المائدة4 انما هو قوله بسم الله وهذا جملة تامة اما اسمية على اظهر قولى النحاة او فعلية والتقدير ذبحى باسم الله او اذبح باسم الله وكذلك قول القارىء بسم الله الرحمن الرحيم فتقديره قراءتى بسم الله او اقرأ بسم الله ومن الناس من يضمر فى مثل هذا ابتدائى بسم الله او ابتدأت بسم الله والأول احسن لأن الفعل كله مفعول بسم الله ليس مجرد ابتدائه كما اظهر المضمر فى قوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 وفى قوله { بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا }هود41 وفى قول النبى من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها اخرى ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله ومن هذا الباب قول النبى فى الحديث الصحيح لربيبة عمر بن ابى سلمة سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فالمراد ان يقول بسم الله ليس المراد ان يذكر الاسم مجردا وكذلك قوله فى الحديث الصحيح لعدى بن حاتم اذا ارسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل وكذلك قوله اذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله وعند خروجه وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وامثال ذلك كثير وكذلك ما شرع للمسلمين فى صلاتهم واذانهم وحجهم واعيادهم من ذكر الله تعالى انما هو بالحملة التامة كقول المؤذن الله اكبر الله اكبر اشهد ان لا اله الا الله اشهد ان محمدا رسول الله وقول المصلى الله اكبر سبحان ربى العظيم سبحان ربى الاعلى سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد التحيات لله وقول الملبى لبيك اللهم لبيك وامثال ذلك فجميع ما شرعه الله من الذكر انما هو كلام تام لا اسم مفرد لا مظهر ولا مضمر وهذا هو الذى يسمى فى اللغة كلمة كقوله كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله العظيم وقوله افضل كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد الا كل شىء ما خلا الله باطل ومنه قوله تعالى {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ }الكهف5 الآية وقوله {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً }الأنعام115 وامثال ذلك مما استعمل فيه لفظ الكلمة فى الكتاب والسنة بل وسائر كلام العرب فانما يراد به الجملة التامة كما كانوا يستعملون الحرف فى الاسم فيقولون هذا حرف غريب اى لفظ الاسم غريب وقسم سيبوية الكلام الى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم وفعل وكل من هذه الأقسام يسمى حرفا لكن خاصة الثالث انه حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل وسمى حروف الهجاء باسم الحرف وهى اسماء ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها كما قال النبى من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات اما انى لا اقول الم حرف ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف وقد سأل الخليل اصحابه عن النطق بحرف الزاى من زيد فقالوا زاي فقال جئتم بالاسم وانما الحرف ز ثم ان النحاة اصطلحوا على ان هذا المسمى فى اللغة بالحرف يسمى كلمة وان لفظ الحرف يخص لما جاء المعنى ليس باسم ولا فعل كحروف الجر ونحوها واما الفاظ حروف الهجاء فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ وتارة باسم ذلك الحرف ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهم من اعتاده انه هكذا فى لغة العرب ومنهم من يجعل لفظ الكلمة فى اللغة لفظا مشتركا بين الاسم مثلا وبين الجملة ولا يعرف فى صريح اللغة من لفظ الكلمة الا الجملة التامة والمقصود هنا ان المشروع فى ذكر الله سبحانه هو ذكره بجملة تامة وهو المسمى بالكلام والواحد منه بالكلمة وهو الذى ينفع القلوب ويحصل به الثواب والأجر والقرب الى الله ومعرفته ومحبته وخشيته وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية واما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرا او مضمرا فلا اصل له (كما يقول بعض المتصوفة وغيرهم قول (الله)فقط على اعتبار انه ذكر) فضلا عن ان يكون من ذكر الخاصة والعارفين بل هو

وسيلة الى انواع من البدع والضلالات وذريعة الى تصورات احوال فاسدة من احوال اهل الالحاد واهل الاتحاد كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع[1]

ذكر الخلق والتعليم

قال تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}سورة العلق1-5 أطلق الخلق ثم خص الإنسان وأطلق التعليم ثم خص التعليم بالقلم والخلق يتضمن فعله والتعليم يتضمن قوله فإنه يعلم بتكليمه وتكليمه بالإيحاء وبالتكليم من وراء حجاب وبإرسال رسول يوحى بإذنه ما يشاء قال تعالى { وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ }النساء113 وقال تعالى {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ }آل عمران61 وقال تعالى { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً }طه114 وقال تعالى {الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4} الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ{5} الرحمن1-5[2]

ذكر المطلق والمقيد

قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} الاعلى2 فأطلق الخلق و التسوية و لم يخص بذلك الإنسان كما أطلق قوله بعد {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى3 لم يقيده فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات و قد بين موسى عليه السلام شموله فى قوله { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 و قد ذكر المقيد بالإنسان فى قوله { يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ{6} الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ{7}الانفطار6-7 و قد ذكر المطلق و المقيد في أول ما نزل من القرآن و هو قوله{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق1-5 و فى جميع هذه الآيات مطلقها و مقيدها و الجامع بين المطلق و المقيد قد ذكر خلقه و ذكر هدايته و تعليمه بعد الخلق كما قال فى هذه السورة { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى2 -3 لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها فلابد أن تهدى إلى تلك الغاية التخلقت لها فلا تتم مصلحتها و ما أريدت له إلا بهدايتها لغاياتها و هذا مما يبين أن الله خلق الأشياء لحكمة و غاية تصل إليها كما قال ذلك السلف و جمهور المسلمين و جمهور العقلاء وقالت طائفة كجهم و أتباعه إنه لم يخلق شيئا لشيء و وافقه أبو الحسن الأشعري و من اتبعه من الفقهاء أتباع الأئمة و هم يثبتون أنه مريد و ينكرون أن تكون له حكمة يريدها و طائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته و حكمته و ينكرون إرادته و كلاهما تناقض و قد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء فى غير هذا الموضع و أن منتهاهم جحد الحقائق فإن هذا يقول لو كان له حكمة يفعل لأجلها لكان يجب أن يريد الحكمة و ينتفع بها

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 228-233

[2] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 229

و هو منزه عن ذلك و ذاك يقول لو كان له إرادة لكان يفعل لجر منفعة فإن الإرادة لا تعقل إلا كذلك و أرسطو و أتباعه يقولون لو فعل شيئا لكان الفعل لغرض و هو منزه عن ذلك[1]

إثبات أن العباد لا يعلمون إلا ما علمهم إياه الله

قال تعالى { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء }البقرة255 بين أنهم لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه كما قالت الملائكة { لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا }البقرة32 فكان فى هذا النفي إثبات أن عباده لا يعلمون إلا ما علمهم إياه فأثبت أنه الذي علمهم لا ينالون العلم إلا منه فإنه { الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2}العلق1-2 و {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق4-5[2]

أمر بالصلاة فى اول أوقات الوحى

وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة فانه أمر بالصلاة فى اول أوقات الوحي بل قد ثبت فى الصحيح أن أول ما أنزل عليه { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق1-5 ثم أنزل عليه بعد ذلك { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2}المدثر 1-2 فهذا الخطاب إرسال له الى الناس والارسال بعد الانباء فإن الخطاب الاول ليس فيه إرسال وآخر سورة إقرأ {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19} العلق19 فأول السورة أمر بالقراءة وآخرها أمر بالسجود والصلاة مؤلفة من أقوال وأعمال فأفضل أقوالها القراءة وأفضل أعمالها السجود والقراءة أول أقوالها المقصودة وما بعده تبع له وقد روى أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ثم فرضت الخمس ليلة المعراج وكانت ركعتين ركعتين فلما هاجر أقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر وكانت الصلاة تكمل شيئا بعد شيء فكانوا أولا يتكلمون فى الصلاة ولم يكن فيها تشهد ثم أمروا بالتشهد وحرم عليهم الكلام وكذلك لم يكن بمكة لهم اذان وإنما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة وكذلك صلاة الجمعة والعيد والكسوف والاستسقاء وقيام رمضان وغير ذلك إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة وأمروا بالزكاة والإحسان فى مكة أيضا ولكن فرائض الزكاة ونصبها إنما شرعت بالمدينة وأما صوم شهر رمضان فهو إنما فرض فى السنة الثانية من الهجرة وأدرك النبى تسع رمضانات وأما الحج فقد تنازع الناس فى وجوبه فقالت طائفة فرض سنة ست من الهجرة عام الحديبية بإتفاق الناس قالوا وهذه الآية تدل على وجوب الحج ووجوب العمرة أيضا لأن الأمر بالاتمام يتضمن الامر بإبتداء الفعل وإتمامه وقال الأكثرون إنما وجب الحج متأخرا قيل سنة تسع وقيل سنة عشر وهذا هو الصحيح فإن آية الإيجاب إنما هي قوله تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ }آل عمران97 وهذه الآية فى آل عمران فى سياق مخاطبته لأهل الكتاب وصدر آل عمران وما فيها من مخاطبة أهل الكتاب نزل لما قدم على النبى وفد نجران النصارى وناظروه فى امر المسيح وهم اول من أدى الجزية من أهل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:129- 130

[2] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 114

الكتاب وكان ذلك بعد إنزال سورة براءة التى شرع فيها الجزية وأمر فيها بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وغزا النبى غزوة تبوك التى غزا فيها النصارى لما امر الله بذلك فى قوله {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }التوبة29 ولهذا لم يذكر وجوب الحج فى عامة الأحاديث وإنما جاء فى الأحاديث المتأخرة[1]

شرع في الصلاة القراءة والركوع والسجود

لما شرعت الصلاة شرع فيها القراءة فى القيام ثم الركوع والسجود فأول ما أنزل الله من القرآن {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 فافتتحها بالأمر بالقراءة وختمها بالأمر بالسجود فقال { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }العلق19[2]

أصول الدين الأصول العقلية أول ما أنزل

فى بيان أن الرسول صلى الله عليه و سلم أول ما أنزل عليه بيان أصول الدين و هي الأدلة العقلية الدالة على ثبوت الصانع و توحيده و صدق رسوله صلى الله عليه و سلم وعلى المعاد إمكانا و وقوعا و قد ذكرنا فيما تقدم هذا الأصل غير مرة و أن الرسول صلى الله عليه و سلم بين الأدلة العقلية و السمعية التى يهتدى بها الناس إلى دينهم و ما فيه نجاتهم و سعادتهم فى الدنيا و الآخرة و أن الذين إبتدعوا أصولا تخالف بعض ما جاء به هي أصول دينهم لا أصول دينه و هي باطلة عقلا و سمعا كما قد بسط في غير موضع وبين أن كثيرا من المنتسبين إلى العلم و الدين قاصرون أو مقصرون في معرفة ما جاء به من الدلائل السمعية و العقلية فطائفة قد إبتدعت أصولا تخالف ما جاء به من هذا و هذا و طائفة رأت أن ذلك بدعة فأعرضت عنه و صاروا ينتسبون إلى السنة لسلامتهم من بدعة أولئك و لكن هم مع ذلك لم يتبعوا السنة على وجهها و لا قاموا بما جاء به من الدلائل السمعية و العقلية بل الذي يخبر به من السمعيات مما يخبر به عن ربه و عن اليوم الآخر غايتهم أن يؤمنوا بلفظه من غير تصور لما أخبر به بل قد يقولون مع هذا إنه نفسه لم يكن يعلم معنى ما أخبر به لأن ذلك عندهم هو تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله و أما الأدلة العقلية فقد لا يتصورون أنه أتى بالأصول العقلية الدالة على ما يخبر به كالأدلة الدالة على التوحيد و الصفات و منهم من يقر بأنه جاء بهذا مجملا و لا يعرف أدلته بل قد يظن أن ما يستدل به كالإستدلال بخلق الإنسان على حدوث جواهره هو دليل الرسول و كثير من هؤلاء يعتقدون أن في ذلك ما لا يجوز أن يعلم بالعقل كالمعاد و حسن التوحيد و العدل و الصدق و قبح الشرك و الظلم والكذب والقرآن يبين الأدلة العقلية الدالة على ذلك و ينكر على من لم يستدل بها و يبين أنه بالعقل يعرف المعاد وحسن عبادته وحده وحسن شكره و قبح الشرك و كفر نعمه كما قد بسطت الكلام على ذلك في مواضع وكثير من الناس يكون هذا في فطرته و هو ينكر تحسين العقل و تقبيحه إذا صنف فى أصول الدين على طريقة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 605

[2] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 149

النفاة الجبرية أتباع جهم و هذا موجود فى عامة ما يقوله المبطلون يقولون بفطرتهم ما يناقض ما يقولونه في إعتقادهم البدعى وقد ذكر أبو عبدالله ابن الجد الأعلى أنه سمع أبا الفرج ابن الجوزى ينشد فى مجلس وعظه البيتين المعروفين هب البعث لم تأتنا رسله و جاحمة النار لم تضرم أليس من الواجب المستحق حياء العباد من المنعم فقد صرح فى هذا بأنه من الواجب المستحق حياء الخلق من الخالق المنعم و هذا تصريح بأن شكره واجب مستحق و لو لم يكن و عيد و لا رسالة أخبرت بجزاء و هو يبين ثبوت الوجوب و الإستحقاق و ان قدر أنه لا عذاب وهذا فيه نزاع قد ذكرناه فى غير هذا الموضع و بينا أن هذا هو الصحيح و نتيجة فعل المنهى إنخفاض المنزلة و سلب كثير من النعم التى كان فيها و إن كان لا يعاقب بالضرر و يبين أن الوجوب و الإستحقاق يعلم بالبديهة فتارك الواجب و فاعل القبيح و إن لم يعذب بالآلام كالنار فيسلب من النعم و أسبابه ما يكون جزاءه و هذا جزاء من لم يشكر النعمة بل كفرها أن يسلبها فالشكر قيد النعم و هو موجب للمزيد و الكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب و قبل ذلك ينقص النعمة و لا يزيد مع أنه لابد من إرسال رسول يستحق معه النعيم أو العذاب فإنه ما ثم دار إلا الجنة أو النار قال تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{4} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6}التين 4-6 و هذا مبسوط في مواضع والمقصود هنا أن بيان هذه الأصول وقع فى أول ما أنزل من القرآن فإن أول ما أنزل من القرآن {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 عند جماهير فإن أول ما أنزل من القرآن {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 عند جماهير العلماء و قد قيل {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }المدثر1 روى ذلك عن جابر و الأول أصح فإن ما فى حديث عائشة الذي فى الصحيحين يبين أن أول ما نزل {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 نزلت عليه و هو في غار حراء و أن المدثر نزلت بعد و هذا هو الذي ينبغي فإن قوله اقرأ أمر بالقراءة لا بتبليغ الرسالة و بذلك صار نبيا و قوله {قُمْ فَأَنذِرْ }المدثر2 أمر بالإنذار و بذلك صار رسولا منذرا ففي الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة قالت أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يأتى غار حراء فيتحنث فيه و هو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله و يتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق و هو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 1-5 فرجع بها رسول الله صلى الله عليه و سلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة و أخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت له خديجة كلا و الله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم و تحمل الكل و تقري الضيف و تكسب المعدوم و تعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى إبن عم خديجة و كان أمرا تنصر فى الجاهلية و كان يكتب الكتاب العبري فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب و كان شيخا كبيرا قد عمى فقالت له خديجة يا إبن عم إسمع من إبن أخيك فقال له و رقة يا إبن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه و سلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتنى فيها جذعا ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أو مخرجي هم قال نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا

عودي و إن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفى و فتر الوحي
قال إبن شهاب الزهري سمعت أبا سلمة بن عبدالرحمن قال أخبرنى جابر بن عبدالله أنه سمع رسول
الله صلى الله عليه و سلم يحدث عن فترة الوحى فبينما أنا أمشى سمعت صوتا فرفعت بصري قبل
السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء و الأرض فجئثت حتى هويت إلى
الأرض فجئت أهلى فقلت زملونى زملوني فزملوني فأنزل الله تعالى {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ {1} قُمْ
فَأَنذِرْ{2}المدثر1-2 إلى قوله {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } المدثر4 فهذا يبين أن المدثر نزلت بعد تلك
الفترة و أن ذلك كان بعد أن عاين الملك الذي جاءه بحراء أولا فكان قد رأى الملك مرتين و هذا
يفسر حديث جابر الذي روى من طريق آخر كما أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير قال سألت أبا
سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }المدثر1 قلت يقولون {
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}العلق1 فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبدالله عن ذلك و قلت له مثل
ما قلت فقال جابر لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم قال جاورت بحراء فلما
قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا و نظرت عن شمالي فلم أر شيئا و
نظرت أمامي فلم أر شيئا و نظرت خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فرأيت شيئا فأتيت خديجة فقلت
دثروني و صبوا علي ماء باردا فدثروني و صبوا علي ماء باردا قال فنزلت {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1}
قُمْ فَأَنذِرْ{2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{3}المدثر1 -3 فهذا الحديث يوافق المتقدم و أن المدثر نزلت بعد أن
هبط من الجبل و هو يمشي و بعد أن ناداه الملك حينئذ و قد بين فى الرواية الأخرى أن هذا الملك هو
الذي جاءه بحراء و قد بينت عائشة أن اقرأ نزلت حينئذ في غار حراء لكن كأنه لم يكن علم أن
اقرأ نزلت حينئذ بل علم أنه رأى الملك قبل ذلك و قد يراه و لا يسمع منه لكن فى حديث عائشة
زيادة علم و هو أمره بقراءة اقرأ و فى حديث الزهري أنه سمي هذا فترة الوحى و كذلك
فى حديث عائشة فترة الوحى فقد يكون الزهري روى حديث جابر بالمعنى و سمى ما بين
الرؤيتين فترة الوحى كما بينته عائشة و إلا فإن كان جابر سماه فترة الوحى فكيف يقول
أن الوحى لم يكن نزل و بكل حال فالزهري عنده حديث عروة عن عائشة و حديث أبى سلمة عن
جابر و هو أوسع علما و أحفظ من يحيى بن أبي كثير لو إختلفا لكن يحيى ذكر أنه سأل أبا سلمة عن
الأولى فأخبر جابر بعلمه و لم يكن علم ما نزل قبل ذلك و عائشة أثبتت و بينت والآيات آيات اقرأ
و المدثر تبين ذلك و الحديثان متصادقان مع القرآن و مع دلالة العقل على أن هذا الترتيب هو
المناسب و إذا كان أول ما أنزل {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق1-5 ففي الآية الأولى
إثبات الخالق تعالى و كذلك فى الثانية و فيها و فى الثانية الدلالة على إمكان النبوة و على نبوة
محمد صلى الله عليه و سلم أما الأولى فإنه قال{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} ثم قال {خَلَقَ
الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} فذكر الخلق مطلقا ثم خص خلق الإنسان أنه خلقه من علق و هذا أمر معلوم
لجميع الناس كلهم يعلمون أن الإنسان يحدث في بطن أمه و أنه يكون من علق و هؤلاء بنو آدم و
قوله الإنسان هو اسم جنس يتناول جميع الناس و لم يدخل فيه آدم الذي خلق من طين فإن
المقصود بهذه الآية بيان الدليل على الخالق تعالى و الإستدلال إنما يكون بمقدمات

يعلمها المستدل و المقصود بيان دلالة الناس و هدايتهم و هم كلهم يعلمون أن الناس يخلقون من
العلق فأما خلق آدم من طين فذاك إنما علم بخبر الأنبياء أو بدلائل أخر و لهذا ينكره طائفة من
الكفار الدهرية و غيرهم الذين لا يقرون بالنبوات و هذا بخلاف ذكر خلقه فى غير هذه السورة
فإن ذاك ذكره لما يثبت النبوة و هذه السورة أول ما نزل و بها تثبت النبوة فلم يذكر فيها ما علم
بالخبر بل ذكر فيها الدليل المعلوم بالعقل و المشاهدة و الأخبار المتواترة لمن لم ير العلق و ذكر

سبحانه خلق الإنسان من العلق و هو جمع علقة و هي القطعة الصغيرة من الدم لأن ما قبل ذلك كان نطفة و النطفة قد تسقط في غير الرحم كما يحتلم الإنسان و قد تسقط في الرحم ثم يرميها الرحم قبل أن تصير علقة فقد صار مبدأ لخلق الإنسان و علم أنها صارت علقة ليخلق منها الإنسان و قد قال في سورة القيامة { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى{37} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى{38} فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{39} أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى{40} القيامة 37-40 فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب و لهذا قال في موضع آخر {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ}الحج5 ففي القيامة إستدل بخلقه من نطفة فإنه معلوم لجميع الخلق و في الحج ذكر خلقه من تراب فإنه قد علم بالأدلة القطعية و ذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة و أما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى إبتداء فذكر أنه خلق الإنسان من علق و هو من العلقة الدم يصير مضغة و هو قطعة لحم كاللحم الذي يمضغ بالفم ثم تخلق فتصور كما قال تعالى { ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ }الحج5 فإن الرحم قد يقذفها غير مخلقة فبين للناس مبدأ خلقهم و يرون ذلك بأعينهم و هذا الدليل و هو خلق الإنسان من علق يشترك فيه جميع الناس فإن الناس هم المستدلون و هم أنفسهم الدليل و البرهان و الآية فالإنسان هو الدليل و هو المستدل كما قال تعالى {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ }الذاريات21 و قال {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ }فصلت53 و هذا كما قال في آية أخرى {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ }الطور35 وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه و يذكره كلما تذكر في نفسه و فيمن يراه من بني جنسه فيستدل به على المبدأ و المعاد كما قال تعالى { وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً{66} أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً{67} مريم 66-67 و قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{77} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79} يس 77-79 و كذلك قال زكريا لما تعجب من حصول و لد على الكبر فقال { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً{8} قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً{9} مريم 8-9 و لم يقل إنه أهون عليه كما قال في المبدأ و المعاد {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }الروم27 و قال سبحانه {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }العلق2 بعد أن قال { الَّذِي خَلَقَ }العلق1 فأطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق ثم عين خلق الإنسان فكان كلما يعلم حدوثه داخلا في قوله { الَّذِي خَلَقَ }العلق1 و ذكر بعد الخلق التعليم الذي هو التعليم بالقلم و تعليم الإنسان ما لم يعلم فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة و لم يقل هنا هدى فيذكر الهدى العام المتناول للإنسان و سائر الحيوان كما قال في موضع آخر{ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى1-3 و كما قال موسى {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 لأن هذا التعليم الخاص يستلزم الهدى العام و لا ينعكس و هذا أقرب إلى إثبات النبوة فإن النبوة نوع من التعليم و ليس جعل الإنسان نبيا بأعظم من جعله العلقة إنسانا حيا عالما ناطقا سميعا بصيرا متكلما قد علم أنواع المعارف كما أنه ليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته و القادر على المبدأ كيف لا يقدر على المعاد و القادر على هذا التعليم كيف لا يقدر على ذاك التعليم و هو بكل شيء عليم و لا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء و قال سبحانه أولا علم بالقلم فأطلق التعليم و المعلم فلم يخص نوعا من المعلمين فيتناول تعليم الملائكة و غيرهم من الإنس و الجن كما تناول الخلق لهم كلهم و ذكر التعليم بالقلم لأنه يقتضي تعليم الخط و الخط يطابق اللفظ و هو البيان و الكلام ثم اللفظ يدل على المعاني المعقولة التي في القلب فيدخل فيه كل علم في القلوب و كل شيء

له حقيقة في نفسه ثابتة فى الخارج عن الذهن ثم يتصوره الذهن و القلب ثم يعبر عنه اللسان ثم يخطه القلم فله وجود عيني و ذهني و لفظي و رسمي وجود في الأعيان و الأذهان و اللسان و البنان لكن الأول هو هو و أما الثلاث فإنها مثال مطابق له فالأول هو المخلوق و الثلاثة معلمة فذكر الخلق و التعليم ليتناول المراتب الأربع فقال { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق 1-5 و قد تنازع الناس في الماهيات هل هي مجعولة أم لا و هل ماهية كل شيء زائدة على وجوده كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع و بين الصواب فى ذلك و أنه ليس إلا ما يتصور فى الذهن و يوجد في الخارج فإن أريد الماهية ما يتصور فى الذهن و بالوجود ما في الخارج أو بالعكس فالماهية غير الوجود إذا كان ما فى الأعيان مغايرا لما فى الأذهان و إن أريد بالماهية ما فى الذهن أو الخارج أو كلاهما و كذلك بالوجود فالذي فى الخارج من الوجود هو الماهية الموجودة فى الخارج و كذلك ما في الذهن من هذا هو هذا ليس في الخارج شيئان وهو سبحانه علم ما فى الأذهان و خلق ما فى الأعيان و كلاهما مجعول له لكن الذي فى الخارج جعله جعلا خلقيا و الذي فى الذهن جعله جعلا تعليميا فهو الذى { خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} العلق2 و هو { الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق3-5 و قوله {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } يدخل فيه تعليم الملائكة الكاتبين و يدخل فيه تعليم كتب الكتب المنزلة فعلم بالقلم أن يكتب كلامه الذى أنزله كالتوراة و القرآن بل هو كتب التوراة لموسى و كون محمد كان نبيا أميا هو من تمام كون ما أتي به معجزا خارقا للعادة و من تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم كما قال تعالى {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }العنكبوت48 فغيره يعلم ما كتبه غيره و هو علم الناس ما يكتبونه و علمه الله ذلك بما أوحاه إليه و هذا الكلام الذى أنزل عليه هو آية و برهان على نبوته فإنه لا يقدر عليه الإنس و الجن{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }الإسراء88 {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }يونس38 و في الآية الأخرى { فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ }هود13 {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {13} فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{14}هود13-14 وقد بسطنا في غير هذا الموضع طرق الناس فى إثبات الصانع و النبوة و أن كل طريق تتضمن ما يخالف السنة فإنها باطلة فى العقل كما هي مخالفة للشرع و الطريق المشهورة عند المتكلمين هو الإستدلال بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام و قد بينا الكلام على هذه في غير موضع و أنها مخالفة للشرع و العقل و كثير من الناس يعلم أنها بدعة فى الشرع لكن لا يعلم فسادها فى العقل و بعضهم يظن أنها صحيحة فى العقل و الشرع و أنها طريقة إبراهيم الخليل عليه السلام و قد بين فساد هذا فى غير موضع و المقصود هنا أن طائفة من النظار مثبتة الصفات أرادوا سلوك سبيل السنة و لم يكن عندهم إلا هذه الطريق فاستدلوا بخلق الإنسان لكن لم يجعلوا خلقه دليلا كما في الآية بل جعلوه مستدلا عليه و ظنوا أنه يعرف بالبديهة و الحسن حدوث أعراض النطفة و أما جواهرها فاعتقدوا أن الأجسام كلها مركبة من الجواهر المنفردة و أن خلق الإنسان و غيره إنما هو إحداث أعراض فى تلك الجواهر بجمعها و تفريقها ليس هو إحداث عين فصاروا يريدون أن يستدلوا على أن الإنسان مخلوق ثم إذا ثبت أنه مخلوق قالوا إن له خالقا و استدلوا على أنه مخلوق بدليل الأعراض و أن النطفة و العلقة و المضغة لا تنفك من اعراض حادثة إذ كان عندهم جواهر تجمع تارة و تفرق أخرى فلا تخلو عن إجتماع و إفتراق و هما حادثان فلم يخل الإنسان عن الحوادث و ما لم يخل من الحوادث فهو حادث لإمتناع حوادث لا أول لها و

هذه هي الطريقة التى سلكها الأشعري فى اللمع فى الرد على أهل البدع و شرحه أصحابه شروحا كثيرة و كذلك فى رسالته إلى اهل الثغر و ذكر قوله تعالى { أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ{58} أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ{59} الواقعة 58-59 فاستدل على أن الإنسان مخلوق بأنه مركب من الجواهر التى لا تخلو من إجتماع و إفتراق فلم تخل من الحوادث فهى حادثة و هذه الطريقة هي مقتضية من كون الأجسام كلها كذلك و تلك هي الطريقة المشهورة التى يسلكها الجهمية و المعتزلة و من إتبعهم من المتأخرين المنتسبين إلى المذاهب الأربعة و غيرهم من أصحاب أبى حنيفة و مالك و الشافعى و أحمد كما ذكرها القاضي و ابن عقيل و غيرهما و ذكرها أبو المعالي الجوينى و صاحب التتمة و غيرهما و ذكرها أبو الوليد الباجى و أبو بكر بن العربى و غيرهما و ذكرها أبو منصور الماتريدي و الصابونى و غيرهما لكن هؤلاء الذين إستدلوا بخلق الإنسان فرضوا ذلك فى الإنسان ظنا أن هذه طريقة القرآن و طولوا في ذلك و دققوا حتى إستدلوا على كون عين الإنسان و جواهره مخلوقة لظنهم أن المعلوم بالحس و بديهة العقل إنما هو حدوث أعراض لا حدوث جواهر و زعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب و المطر و الزرع و الثمر و الإنسان و الحيوان فإنما يحدث فيه أعراضا و هي جمع الجواهر التى كانت موجودة و تفريقها وزعموا أن أحدا لا يعلم حدوث غيره من الأعيان بالمشاهدة و لا بضرورة العقل و إنما يعلم ذلك إذا إستدل كما استدلوا فقالوا هذه أعراض حادثة في جواهر وتلك الجواهر لم تخل من الأعراض لامتناع خلو الجواهر من الأعراض ثم قالوا و ما لم يخل من الحوادث فهو حادث و هذا بنوه على أن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التى لا تقبل القسمة و قالوا إن الأجسام لا يستحيل بعضها إلى بعض و جمهور العقلاء من السلف و أنواع العلماء و أكثر النظار يخالفون هؤلاء فيما يثبتون من الجوهر الفرد و يثبتون إستحالة الأجسام بعضها إلى بعض و يقولون بأن الرب لا يزال يحدث الأعيان كما دل على ذلك القرآن و لهذا كانت هذه الطريق باطلة عقلا و شرعا و هي مكابرة للعقل فإن كون الإنسان مخلوقا محدثا كائنا بعد أن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس و كل أحد يعلم أنه حدث فى بطن أمه بعد أن لم يكن و أن عينه حدثت كما قال تعالى { وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً }مريم9 و قال تعالى {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً }مريم67 ليس هذا مما يستدل عليه فإنه أبين و أوضح مما يستدل به عليه لو كان صحيحا فكيف إذا كان باطلا و قولهم إن الحادث أعراض فقط و إنه مركب من الجواهر الفردة قولان باطلان لا يعلم صحتهما بل يعلم بطلانهما و يعلم حدوث جوهر الإنسان و غيره من المادة التى خلق منها و هي العلق كما قال {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }العلق2 و كونه مركبا من جواهر فردة ليس صحيحا و لو كان صحيحا لم يكن معلوما إلا بأدلة دقيقة لا تكون هي أصل الدين الذي هو مقدمات أولية فإن تلك المقدمات يجب أن تكون بينة أولية معلومة بالبديهة فطريقهم تضمن جحد المعلوم و هو حدوث الأعيان الحادثة و هذا معلوم للخلق و إثبات ما ليس بمعلوم بل هو باطل و أن الأحداث لها إنما هو جمع و تفريق للجواهر و أنه إحداث أعراض فقط و لهذا كان إستدلالهم بطريقة الجواهر و الأعراض على هذا الوجه مما أنكره عليهم أئمة الدين و بينوا أنهم مبتدعون فى ذلك بل بينوا ضلالهم شرعا و عقلا كما بسط كلام السلف و الأئمة عليهم في غير هذا الموضع إذ هو كثير فالقرآن إستدل بما هو معلوم للخلق من أنه {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }العلق2 و هؤلاء جاءوا إلى هذا المعلوم فزعموا أنه غير معلوم بل هو مشكوك فيه ثم زعموا أنهم يذكرون الدليل الذي به يصير معلوما فذكروا دليلا باطلا لا يدل على حدوثه بل يظن أنه دليل و هو شبهة و لها لوازم فاسدة فأنكروا المعلوم بالعقل ثم الشرع و ادعوا طريقا معلومة بالعقل و هي باطلة فى العقل و الشرع فضاهوا الذين قال الله فيهم { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 و كذلك

في إثبات النبوات و إمكانها و في إثبات المعاد و إمكانه عدلوا عن الطريق الهادية التى توجب العلم اليقيني التى هدى الله بها عباده إلى طريق تورث الشك و الشبهة و الحيرة و لهذا قيل غاية المتكلمين المبتدعين الشك و غاية الصوفية المبتدعين الشطح ثم لها لوازم باطلة مخالفة للعقل و الشرع فألزموا لوازمها التى أوجبت لهم السفسطة فى العقليات و القرمطة فى السمعيات و تكلموا فى دلآئل النبوة و المعاد و دلائل الربوبية بأمور و زعموا أنها أدلة و هي عند التحقيق ليست بأدلة و لهذا يطعن بعضهم فى أدلة بعض وإذا استدلوا بدليل صحيح فهو مطابق لما جاء به الرسول و إن تنوعت العبارات و لهذا قد يستدل بعضهم بدليل إما غير صحيح فيطعن فيه آخر و يزعم أنه يذكر ما هو خير منه و يكون الذي يذكره دون ما ذكره ذاك و هذا يصيبهم كثيرا فى الحدود يطعن هؤلاء فى حد هؤلاء و يذكرون حدا مثله أو دونه و تكون الحدود كلها من جنس واحد و هي صحيحة إذا أريد بها التمييز بين المحدود و غيره و أما من قال إن الحدود تفيد تصوير ماهية المحدود كما يقوله أهل المنطق فهؤلاء غالطون ضالون كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع و إنما الحد معرف للمحدود و دليل عليه بمنزلة الإسم لكنه يفصل ما دل عليه الإسم بالإجمال فهو نوع من الأدلة كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع إذ المقصود هنا التنبيه على الفرق بين الطريق المفيد للعلم و اليقين كالتى بينها القرآن و بين ما ليس كذلك من طرق أهل البدع الباطلة شرعا وعقلا وهؤلاء الذين بنوا أصل دينهم على طريقة الأعراض و الإستدلال بها على حدوث الأجسام إضطربوا كثيرا كما قد بسط في مواضع و لابد لكل منهم مع مخالفته للشرع المنزل من السماء إلى أن يخالف أيضا صريح العقل و يكابر فيكون ممن لا يسمع و لا يعقل فإن القول له لوازم فإذا كان باطلا فقد يستلزم أمورا باطلة ظاهرة البطلان و صاحبه يريد إثبات تلك اللوازم فيظهر مخالفته للحس و العقل كالذين أثبتوا الجواهر المنفردة و قالوا إن الحركات في نفسها لا تنقسم إلى سريع و بطيء إذ كانت الحركة عندهم منقسمة كانقسام المتحرك و كذلك الزمان و أجزاء الزمان و الحركة و المتحرك عندهم واحد لا ينقسم فإذا كان المتحركان سواء و حركة أحدهما أسرع قالوا إنما ذاك لتخلل السكنات و إدعوا أن الرحا و الدولاب و كل مستدير إذا تحرك فإن زمان حركة المحيط و الطوق الصغير و احد مع كثرة أجزاء المحيط فيجب أن تكون حركتها أكثر فيكون زمانها أكثر و ليس هو بأكثر فادعوا أنها تنفك ثم تتصل و هذه مكابرة من جنس طفرة النظام و كذلك الذين قالوا بأن العرض لا يبقى زمانين خالفوا الحس و ما يعلمه العقلاء بضرورة عقولهم فإن كل أحد يعلم أن لون جسده الذي كان لحظة هو هذا اللون و كذلك لون السماء و الجبال و الخشب و الورق و غير ذلك و مما ألجأهم إلى هذا ظنهم أنهما لو كانا باقيين لم يمكن إعدامهما فإنهم حاروا فى إفناء الله الأشياء إذا أراد أن يفنيها كما حاروا فى إحداثها و حيرتهم فى الإفناء أظهر هذا يقول يخلق فناء لا في محل فيكون ضدا لها فتفنى بضدها و هذا يقول يقطع عنها الأعراض مطلقا أو البقاء الذي لا تبقى إلا به فيكون فناؤها لفوات شرطها ومن أسباب ذلك ظنهم أو ظن من ظن منهم أن الحوادث لا تحتاج إلى الله إلا حال إحداثها لا حال بقائها و قد قالوا إنه قادر على إفنائها فتكلفوا هذه الأقوال الباطلة و هؤلاء لا يحتجون على بقاء الرب بافتقار العالم إليه بل بأنه قديم و ما و جب قدمه إمتنع عدمه و إلا فالباقي حال بقائه لا يحتاج إلى الرب عندهم و هؤلاء شر من الذين سألوا موسى هل ينام ربك فضرب الله لهم المثل بالقارورتين لما أرق موسى ليالي ثم أمره بإمساك القارورتين فلما أمسكهما غلبه النوم فتكسرتا فبين الله له لو أخذته سنة أونوم لتدكدك العالم و على رأي هؤلاء لو أخذته سنة أو نوم لم يعدم الباقى لكن منهم من يقول هو محتاج إلى إحداث الأعراض متوالية لأن العرض عنده لا يبقى زمانين فمن هذا الوجه يقول إذ لو أخذته سنة أو نوم لم تحدث الأعراض التى تبقى بها الأجسام لا لأن الأجسام في نفسها مفتقرة إليه فى حال بقائها عنده و كذلك يقولون إن الإرادة لا تتعلق بالقديم و لا بالباقي و كذلك

القدرة عندهم لا تتعلق بالباقي و لا العجز يصح أن يكون عجزا عن الباقى و القديم عندهم لأن العجز عندهم إنما يكون عجزا عما تصح القدرة عليه و هؤلاء يقولون علة الإفتقار إلى الخالق مجرد الحدوث و آخرون من المتفلسفة يقولون هو مجرد الإمكان و يدعون أن القديم الأزلي الذي لم يزل و لا يزال هو مفتقر إلى الصانع فهذا يدعى أن الباقي المحدث لا يفتقر و هذا يدعي أن الباقي القديم يفتقر و كلا القولين فاسد كما قد بسط في مواضع والحق أن كل ما سوى الله حادث و هو مفتقر إليه دائما و هو يبقيه و يعدمه كما ينشئه و يحدثه كما يحدث الحوادث من التراب و غيره ثم يفنيها و يحيلها إلى التراب و غيره و هؤلاء إدعى كثير منهم أن كل ما سوى الله يعدم ثم يعاد و بعضهم قال هذا ممكن لكنه موقوف على الخبر و الخبر لم يتعرض لذلك بنفي و لا إثبات و هذا هو المعاد عندهم و هذا لم يأت به كتاب و لا سنة و لا دل عليه عقل بل الكتاب و السنة يبين أن الله يحيل العالم من حال إلى حال كما يشق السماء و يجعل الجبال كالعهن و يكور الشمس إلى غير ذلك مما أخبر الله في كتابه لم يخبر أن جميع الأشياء تعدم ثم تعاد ثم منهم من يقول إنها تعدم بعد ذلك لإمتناع و جود حوادث لا آخر لها كما تقوله الجهمية و هذا مما أنكره عليهم السلف و الأئمة كما قد ذكر في غير هذا الموضع و هؤلاء إنما قالوا هذا طردا لقولهم بامتناع دوام جنس الحوادث و قالوا ما وجب أن يكون له إبتداء وجب أن يكون له إنتهاء كما قد بسط هذا و بين فساد هذا الأصل وهو سبحانه تارة يذكر خلق الإنسان مجملا و تارة يذكره مفصلا كقوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ{12} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{13} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{14} المؤمنون12-14 ثم ذكر المعادين الأصغر و الأكبر فقال { ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ{15} ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ{16}المؤمنون15-16 و من الناس من يقول لم دخلت لام التوكيد فى الموت و هو مشاهد و لم تدخل فى البعث و هو غيب فيحتاج إلى التوكيد و ذلك و الله أعلم أن المقصود بذكر الموت و البعث هو الإخبار بالجزاء و المعاد و أول ذلك هو الموت فنبه على الإيمان بالمعاد و الإستعداد لما بعد الموت و هو إنما قال{ تُبْعَثُونَ }المؤمنون 16 فقط و لم يقل تجازون لكن قد علم أن البعث للجزاء و أيضا ففيه تنبيه على قهر الإنسان و إذلاله يقول بعد هذا كله إنك تموت فترد إلى أسفل سافلين إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات كما قال { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{4} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6}التين 4-6 و هذا الرد هو بالموت فإنه يصير فى أسفل سافلين إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات كما قال {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ }المطففين7 و قال { إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ }المطففين18 و فى قوله {أَسْفَلَ سَافِلِينَ }التين5 قولان قيل الهرم و قيل العذاب بعد الموت و هذا هو الذي دلت عليه الآية قطعا فإنه جعله فى أسفل سافلين إلا المؤمنين و الناس نوعان فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين و المؤمن فى عليين و أما القول الأول ففيه نظر فإنه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد إلى أسفل سافلين بل كثير من الكفار يموت قبل الهرم و كثير من المؤمنين يهرم و إن كان حال المؤمن فى الهرم أحسن حالا من الكافر فكذلك فى الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر فجعل الرد إلى أسفل سافلين في آخر العمر و تخصيصه بالكفار ضعيف و لهذا قال بعضهم أن الإستثناء منقطع على هذا القول و هو أيضا ضعيف فإن المنقطع لا يكون فى الموجب و لو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعى فى أي إستثناء شاء أنه منقطع و أيضا فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول و المؤمنون بعض نوع الإنسان و قد فسر ذلك بعضهم على القول الأول بأن المؤمن يكتب له ما كان يعمله إذا عجز قال إبراهيم النخعي إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز عن العمل كتب الله له ما كان يعمل و هو قوله { فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }التين6 و

قال ابن قتيبة المعنى {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا }التين6 في و قت القوة و القدرة فإنهم فى حال الكبر غير منقوصين و إن عجزوا عن الطاعات فإن الله يعلم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير فهو يجري لهم أجر ذلك فيقال و هذا أيضا ثابت فى حال الشباب إذا عجز الشاب لمرض أو سفر كما فى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلىالله عليه و سلم قال إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من العمل ما كان يعمل و هو صحيح مقيم و فسره بعضهم بما روى عن ابن عباس أنه قال من قرأ القرآن فإنه لا يرد إلى أرذل العمر فيقال هذا مخصوص بقارئ القرآن و الآية إستثنت الذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء قرأوا القرآن أم لم يقرأوه و قد قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب و ريحها طيب و مثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب و لا ريح لها وأيضا فيقال هرم الحيوان ليس مخصوصا بالإنسان بل غيره من الحيوان إذا كبر هرم و أيضا فالشيخ و إن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب و لو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا ردا إلى أسفل سافلين فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف كقوله { ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً }الروم54 و قوله {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ }يس68 فهو يعيده إلى حال الضعف و معلوم أن الطفل ليس هو فى أسفل سافلين فالشيخ كذلك و أولى و إنما فى أسفل سافلين من يكون فى سجين لا فى عليين كما قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }النساء145 ومما يبين ذلك قوله {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 فإنه يقتضي إرتباط هذا بما قبله لذكره بحرف الفاء و لو كان المذكور إنما هو رده إلى الهرم دون ما بعد الموت لم يكن هناك تعرض للدين و الجزاء بخلاف ما إذا كان المذكور أنه بعد الموت يرد إلى أسفل سافلين غير المؤمن المصلح فإن هذا يتضمن الخبر بأن الله يدين العباد بعد الموت فيكرم المؤمنين و يهين الكافرين و أيضا فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة ب {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1} وَطُورِ سِينِينَ{2} وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ{3} التين 1-3 وهي المواضع التى جاء منها محمد و المسيح و موسى و أرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين و منذرين و هذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد بل على الأمور الغائبة التى تؤكد بالأقسام فإن إقسام الله هو على أنباء الغيب و في نفس المقسم به و هو إرسال هؤلاء الرسل تحقيق للمقسم عليه و هو الثواب و العقاب بعد الموت لأن الرسل أخبروا به و هو يتضمن أيضا الجزاء في الدنيا كإهلاك من أهلكهم من الكفار فإنه ردهم إلى أسفل سافلين بهلاكهم في الدنيا و هو تنبيه على زوال النعم إذا حصلت المعاصي كمن رد فى الدنيا إلى أسفل جزاء على ذنوبه و قوله {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي بالجزاء يتناول جزاءه على الأعمال فى الدنيا و البرزخ و الآخرة إذ كان قد أقسم بأماكن هؤلاء المرسلين الذين أرسلوا بالآيات البينات الدالة على أمر الله و نهيه و وعده و وعيده مبشرين لأهل الإيمان منذرين لأهل الكفر و قد أقسم بذلك على أن الإنسان بعد أن جعل في أحسن تقويم إن آمن و عمل صالحا كان له أجر غير ممنون و إلا كان فى أسفل سافلين فتضمنت السورة بيان ما بعث به هؤلاء الرسل الذين أقسم بأماكنهم و الإقسام بمواضع محنهم تعظيم لهم فإن موضع الإنسان إذا عظم لآجله كان هو أحق بالتعظيم و لهذا يقال فى المكاتبات إلى المجلس و المقر و نحو ذلك السامي و العالي و يذكر بخضوع له و تعظيم و المراد صاحبه فلما قال {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 دل على أن ما تقدم قد بين فيه ما يمنع التكذيب بالدين و في قوله { يُكَذِّبُكَ }التين7 قولان قيل هو خطاب للإنسان كما قال مجاهد و عكرمة و مقاتل و لم يذكر البغوي غيره قال عكرمة يقول فما يكذبك بعد بهذه الأشياء التى فعلت بك و عن مقاتل فما الذي يجعلك مكذبا بالجزاء و زعم أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعة والثاني أنه خطاب للرسول و هذا أظهر فإن الإنسان إنما ذكر مخبرا عنه لم يخاطب و الرسول هو الذي أنزل عليه القرآن و الخطاب فى هذه

السور له كقوله {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى }الضحى3 و قوله {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }الشرح1 و قوله{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 والإنسان إذا خوطب قيل له {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ }الانفطار6 {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً }الانشقاق6 و أيضا فبتقدير أن يكون خطابا للإنسان يجب أن يكون خطابا للجنس كقوله {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ }الانشقاق6 و على قول هؤلاء إنما هو خطاب للكافر خاصة المكذب بالدين و أيضا فإن قوله { يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي يجعلك كاذبا هذا هو المعروف من لغة العرب فإن إستعمال كذب غيره أي نسبه إلى الكذب و جعله كاذبا مشهور و القرآن مملوء من هذا و حيث ذكر الله تكذيب المكذبين للرسل أو التكذيب بالحق و نحو ذلك فهذا مراده لكن هذه الآية فيها غموض من جهة كونه قال { يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 فذكر المكذب بالدين فذكر المكذب و المكذب به جميعا و هذا قليل جاء نظيره فى قوله {فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ }الفرقان19 فأما أكثر المواضع فإنما يذكر أحدهما إما المكذب كقوله {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ }الشعراء105 و إما المكذب به كقوله {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ}الفرقان11 و أما الجمع بين ذكر المكذب و المكذب به فقليل و من هنا اشتبهت هذه الآية على من جعل الخطاب فيها للإنسان و فسر معنى قوله {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 فما يجعلك مكذبا وعبارة آخرين فما يجعلك كذابا قال ابن عطية و قال جمهور من المفسرين المخاطب الإنسان الكافر أي ما الذي يجعلك كذابا بالدين تجعل لله أندادا و تزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل قلت و كلا القولين غير معروف فى لغة العرب أن يقول كذبك أي جعلك مكذبا بل كذبك جعلك كذابا و إذا قيل جعلك كذابا أي كاذبا فيما يخبر به كما جعل الكفار الرسل كاذبين فيما أخبروا به فكذبوهم و هذا يقول جعلك كاذبا بالدين فجعل كذبه أنه أشرك و أنه أنكر المعاد و هذا ضد الذي ينكر ذاك جعله مكذبا بالدين و هذا جعله كاذبا بالدين و الأول فاسد من جهة العربية و الثاني فاسد من جهة المعنى فإن الدين هو الجزاء الذي كذب به الكافر و الكافر كذب به لم يكذب هو به و أيضا فلا يعرف في المخبرأن يقال كذبت به بل يقال كذبته و أيضا فالمعروف فى كذبه أى نسبه إلى الكذب لا أنه جعل الكذب فيه فهذا كله تكلف لا يعرف في اللغة بل المعروف خلافه و هو لم يقل {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 و لا قال فما كذبك و لهذا كان علماء العربية على القول الأول قال ابن عطية و اختلف فى المخاطب بقوله {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 فقال قتادة و الفراء و الأخفش هو محمد صلى الله عليه و سلم قال الله له فما الذي يكذبك فيما تخبربه من الجزاء و البعث و هو الدين بعد هذه العبرة التى يوجب النظر فيها صحة ما قلت قال و يحتمل أن يكون الدين على هذا التأويل جميع شرعه و دينه قلت و على أن المخاطب محمد صلى الله عليه و سلم فى المعنى قولان أحدهما قول قتادة قال {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي إستيقن فقد جاءك البيان من الله و هكذا رواه عنه ابن أبي حاتم بإسناد ثابت و كذلك ذكره المهدوي {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي إستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين فالخطاب للنبى صلى الله عليه و سلم و قال معناه عن قتادة قال و قيل المعنى فما يكذبك أيها الشاك يعنى الكفار فى قدرة الله أي شيء يحملك على ذلك بعد ما تبين لك من قدرته قال و قال الفراء فمن يكذبك بالثواب و العقاب و هو إختيار الطبري قلت هذا القول المنقول عن قتادة هو الذي أوجب نفور مجاهد عن أن يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه و سلم كما روى الناس و منهم إبن أبي حاتم عن الثوري عن منصور قال قلت لمجاهد {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 عنى به النبى صلى الله عليه و سلم قال معاذ الله عنى به الإنسان و قد أحسن مجاهد فى تنزيه النبى صلى الله عليه و سلم أن يقال له {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 أي إستيقن و لا تكذب فإنه لو قيل له لا تكذب لكان هذا من جنس أمره بالإيمان و التقوى و نهيه عما نهي الله عنه و أما إذا قيل {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 فهو لم يكذب بالدين بل هو

الذي أخبر بالدين و صدق به فهو {وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ }الزمر33 فكيف يقال له {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 فهذا القول فاسد لفظا و معنى و اللفظ الذي رأيته منقولا بالإسناد عن قتادة ليس صريحا فيه بل يحتمل أن يكون أراد به خطاب الإنسان فإنه قال {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 قال إستيقن فقد جاءك البيان و كل إنسان مخاطب بهذا فإن كان قتادة أراد هذا فالمعنى صحيح لكن هم حكوا عنه أن هذا خطاب للرسول صلى الله عليه و سلم و على هذا فهذا المعنى باطل فلا يقال للرسول فأي شيء يجعلك مكذبا بالدين و إن ارتأت به النفس لأن هذا فيه دلائل تدل على فساده و لهذا إستعاذ منه مجاهد و الصواب ما قاله الفراء و الأخفش و غيرهما و هو الذي اختاره أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى و غيره من العلماء كما تقدم و كذلك ذكره أبو الفرج ابن الجوزي عن الفراء فقال إنه خطاب للنبى صلى الله عليه و سلم و المعنى فمن يقدر على تكذيبك بالثواب و العقاب بعد ما تبين له أنا خلقنا الإنسان على ما و صفنا قاله الفراء قال و أما الدين فهو الجزاء قلت و كذلك قال غير واحد كما روى ابن أبى حاتم عن النضر بن عربي {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 أي بالحساب و من تفسير العوفى عن ابن عباس أي بحكم الله قلت قال بحكم الله لقوله {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ }التين8 و هو سبحانه يحكم بين المصدق بالدين و المكذب به و على هذا قوله فما وصف للأشخاص و لم يقل فمن لأن ما يراد به الصفات دون الأعيان و هو المقصود كقوله { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء3 و قوله {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ }الكافرون2 و قوله {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا }الشمس7 كأنه قيل فما المكذب بالدين بعد هذا أي من هذه صفته و نعته هو جاهل ظالم بنفسه و الله يحكم بين عباده فيما يختلفون فيه من هذا النبأ العظيم و قوله { بَعْدُ }التين7 قد قيل إنه بعد ما ذكر من دلائل الدين وقد يقال لم يذكر إلا الإخبار به و أن الناس نوعان فى أسفل سافلين و نوع لهم أجر غير ممنون فقد ذكر البشارة و النذارة و الرسل بعثوا مبشرين و منذرين فمن كذبك بعد هذا فحكمه إلى الله أحكم الحاكمين و أنت قد بلغت ما و جب عليك تبليغه و قول {فَمَا يُكَذِّبُكَ }التين7 ليس نفيا للتكذيب فقد و قع بل قد يقال إنه تعجب منه كما قال {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ }الرعد5 و قد يقال أن هذا تحقير لشأنه و تصغير لقدره لجهله و ظلمه كما يقال من فلان و من يقول هذا إلا جاهل لكنه ذكره بصيغة ما فإنها تدل على صفته و هي المقصودة إذ لا غرض في عينه كأنه قيل فأي صنف و أي جاهل يكذبك بعد بالدين فإنه من الذين يردون إلى أسفل سافلين و قوله {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ }التين8 يدل على أنه الحاكم بين المكذب بالدين و المؤمن به و الأمر في ذلك له سبحانه و تعالى و القرآن لا تنقضي عجائبه و الله سبحانه بين مراده بيانا أحكمه لكن الإشتباه يقع على من لم يرسخ فى علم الدلائل الدالة فإن هذه السورة و غيرها فيها عجائب لا تنقضي منها أن قوله{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 ذكرفيه الرسول المكذب و الدين المكذب به جميعا فإن السورة تضمنت الأمرين تضمنت الإقسام بأماكن الرسل المبينة لعظمتهم و ما أتوا به من الآيات الدالة على صدقهم الموجبة للإيمان و هم قد أخبروا بالمعاد المذكور فى هذه السورة و قد أقسم الله عليه كما يقسم عليه فى غير موضع و كما أمر نبيه أن يقسم عليه في مثل قوله {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ }التغابن7 و قوله {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ }سبأ3 فلما تضمنت هذا و هذا ذكر نوعي التكذيب فقال{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ }التين7 و الله سبحانه أعلم وأيضا فإنه لا ذنب له فى ذلك و القرآن مراده أن يبين أن هذا الرد جزاء على ذنوبه و لهذا قال { إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ {6}التين 6 كما قال { وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3}العصر 1-3 لكن هنا ذكر الخسر فقط فوصف

المستثنين بأنهم تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر مع الإيمان و الصلاح و هناك ذكر أسفل سافلين و هو العذاب و المؤمن المصلح لا يعذب و إن كان قد ضيع أمورا خسرها لو حفظها لكان رابحا غير خاسر و بسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أنه سبحانه يذكر خلق الإنسان مجملا و مفصلا و تارة يذكر إحياءه كقوله تعالى {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }البقرة28 و هو كقول الخليل عليه السلام {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ }البقرة258 فإن خلق الحياة و لوازمها و ملزوماتها أعظم و أدل على القدرة و النعمة و الحكمة قوله { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 3-5 سمى ووصف نفسه بالكرم و بأنه الأكرم بعد إخباره أنه خلق ليتبين أنه ينعم على المخلوقين و يوصلهم إلى الغايات المحمودة كما قال فى موضع آخر {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3}الأعلى2 -3 و كما قال موسى عليه السلام { رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 و كما قال الخليل عليه السلام {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ }الشعراء78 فالخلق يتضمن الإبتداء و الكرم تضمن الإنتهاء كما قال فى أم القرآن { رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2 ثم قال { الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ } الفاتحة3 و لفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن و المحامد لا يراد به مجرد الإعطاء بل الإعطاء من تمام معناه فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن و الكرم كثرة الخير و يسرته و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم لا تسموا العنب الكرم فإنما الكرم قلب المؤمن و هم سموا العنب الكرم لأنه أنفع الفواكه يؤكل رطبا و يابسا و يعصر فيتخذ منه أنواع و هو أعم و جودا من النخل يوجد في عامة البلاد و النخل لا يكون إلا فى البلاد الحارة و لهذا قال فى رزق الإنسان { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27} وَعِنَباً وَقَضْباً{28} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29} وَحَدَائِقَ غُلْباً{30} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32}عبس 24-32 فقدم العنب و قال فى صفة الجنة {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً {31} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{32}النبأ31 -32 و مع هذا نهى النبى صلى الله عليه و سلم عن تسميته بالكرم و قال الكرم قلب المؤمن فإنه ليس في الدنيا أكثر و لا أعظم خيرا من قلب المؤمن والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ }الشعراء7 قال ابن قتيبة من كل جنس حسن و قال الزجاج الزوج النوع و الكريم المحمود و قال غيرهما {مِن كُلِّ زَوْجٍ }الشعراء7 صنف و ضرب كريم حسن من النبات مما يأكل الناس و الأنعام يقال نخلة كريمة إذا طاب حملها و ناقة كريمة إذا كثر لبنها وعن الشعبى الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم و من دخل النار فهو لئيم والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه و فيهم من يهينه قال تعالى { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }الحجرات13 و قال تعالى { وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }الحج18 و قال النبى صلى الله عليه و سلم لمعاذ بن جبل و إياك و كرائم أموالهم و اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب و كرائم الأموال التى تكرم على أصحابها لحاجتهم إليها و انتفاعهم بها من الأنعام و غيرها و هو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل و التعريف لها فدل على أنه الأكرم وحده بخلاف ما لو قال و ربك أكرم فإنه لا يدل على الحصر و قوله{ الْأَكْرَمُ }العلق3 يدل على الحصر ولم يقل الأكرم من كذا بل أطلق الإسم ليبين أنه الأكرم مطلقا غير مقيد فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه و لا نقص فيه قال إبن عطية ثم قال له تعالى {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }العلق3 على جهة التأنيس كأنه يقول إمض لما أمرت به و ربك ليس كهذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص فهو ينصرك و يظهرك قلت و قد قال بعض السلف لا يهدين أحدكم لله ما يستحيى أن يهديه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء أي هو أحق من

كل شيء بالإكرام إذ كان أكرم من كل شيء و هو سبحانه ذو الجلال و الإكرام فهو المستحق لأن يجل و لأن يكرم و الإجلال يتضمن التعظيم و الإكرام يتضمن الحمد و المحبة و هذا كما قيل فى صفة المؤمن إنه رزق حلاوة و مهابة و فى حديث هند بنت أبي هالة فى صفة النبى صلى الله عليه و سلم من رآه بديهة هابه و من خالطه معرفة أحبه و هذا لأنه سبحانه له الملك و له الحمد و قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع و بين أن أهل السنة يصفونه بالقدرة الإلهية و الحكمة و الرحمة و هم الذين يعبدونه و يحمدونه و أنه يجب أن يكون هو المستحق لأن يعبد دون ما سواه و العبادة تتضمن غاية الذل و غاية الحب و أن المنكرين لكونه يحب من الجهمية و من و افقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يعبد كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة و لا رحمة يقتضي أنه لا يحمد فهم إنما يصفونه بالقدرة و القهر و هذا إنما يقتضى الإجلال فقط لا يقتضى الإكرام و المحبة و الحمد و هو سبحانه الأكرم قال تعالى {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ {12} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ{13}البروج12 -13 ثم قال { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16} البروج14-16 و قال شعيب {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }هود90 وفى أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق و بأنه الأكرم والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقا مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقا لا يصفونه بالكرم ولا الرحمة ولا الحكمة و إن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها بل يطلقونها لأجل مجيئها فى القرآن ثم يلحدون فى أسمائه و يحرفون الكلم عن مواضعه فتارة يقولون الحكمة هي القدرة و تارة يقولون هي المشيئة و تارة يقولون هي العلم وأن الحكمة و إن تضمنت ذلك و استلزمته فهي أمر زائد على ذلك فليس كل من كان قادر أو مريدا كان حكيما و لا كل من كان له علم يكون حكيما حتى يكون عاملا بعلمه قال ابن قتيبة و غيره الحكمة هي العلم و العمل به و هي أيضا القول الصواب فتتناول القول السديد و العمل المستقيم الصالح و الرب تعالى أحكم الحاكمين و أحكم الحكماء و الأحكام الذي فى مخلوقاته دليل على علمه و هم مع سائر الطوائف يستدلون بالأحكام على العلم و إنما يدل إذا كان الفاعل حكيما يفعل لحكمة و هم يقولون إنه لا يفعل لحكمة و إنما يفعل بمشيئة تخص أحد المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص و هذا مناقض للحكمة بل هذا سفه وهو قد نزه نفسه عنه فى قوله { لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ{17} بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ{18}الأنبياء17-18 وقد أخبر أنه إنما خلق السموات و الأرض و ما بينهما بالحق و أنه لم يخلقها باطلا و أن ذلك ظن الذين كفروا و قال{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً }المؤمنون115 و قال {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }القيامة36 أي مهملا لا يؤمر و لا ينهى و هذا إستفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه و لا تنزهه عن فعل و إن كان من منكرات الأفعال و لا تنعته بلوازم كرمه و رحمته و حكمته و عدله فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك و لا يفعل ما يضاد ذلك بل تجوز كل مقدور أن يكون و أن لا يكون و إنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعى أو عادة مطردة مع تناقضهم فى الإستدلال بالخبر أخبار الرسل و عادات الرب كما بسط هذا في مواضع مثل الكلام على معجزات الأنبياء و على إرسال الرسل و الأمر و النهى و على المعاد و نحو ذلك مما يتعلق بأفعاله و أحكامه الصادرة عن مشيئته فإنها صادرة عن حكمته و عن رحمته و مشيئته مستلزمة لهذا و هذا لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها فهم فى الحقيقة لا يقرون بأنه الأكرم و الإرادة التى يثبتونها لم يدل عليها سمع و لا عقل فإنه لا تعرف إرادة ترجح مرادا على مراد بلا سبب يقتضي الترجيح و من قال من الجهمية و المعتزلة إن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح

فهو مكابر و تمثيلهم ذلك بالجائع إذا أخذ أحد الرغيفين و الهارب إذا سلك أحد الطريقين حجة عليهم فإن ذلك لا يقع إلا مع رجحان أحدهما إما لكونه أيسر فى القدرة و إما لأنه الذي خطر بباله و تصوره أو ظن أنه أنفع فلابد من رجحان أحدهما بنوع ما إما من جهة القدرة و إما من جهة التصور و الشعور و حينئذ يرجح إرادته و الآخر لم يرده فكيف يقال أن إرادته رجحت أحدهما بلا مرجح أو أنه رجح إرادة هذا على إرادة ذاك بلا مرجح و هذا ممتنع يعرف إمتناعه من تصوره حق التصور و لكن لما تكلموا في مبدأ الخلق بكلام إبتدعوه خالفوا به الشرع و العقل إحتاجوا إلى هذه المكابرة كما قد بسط فى غير هذا الموضع و بذلك تسلط عليهم الفلاسفة من جهة أخرى فلا للإسلام نصروا و لا للفلاسفة كسروا و معلوم بصريح العقل أن القادر إذا لم يكن مريدا للفعل و لا فاعلا ثم صار مريدا فاعلا فلا بد من حدوث أمر إقتضي ذلك و الكلام هنا فى مقامين أحدهما فى جنس الفعل و القول هل صار فاعلا متكلما بمشيئته بعد أن لم يكن أو ما زال فاعلا متكلما بمشيئته و هذا مبسوط فى مسائل الكلام و الأفعال فى مسألة القرآن و حدوث العالم و الثاني إرادة الشيء المعين و فعله كقوله تعالى {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 و قوله { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا }الكهف82 و قوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً }الإسراء16 و قوله { وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ }الرعد11 و قوله {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ }يونس107 و قوله {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ }الزمر38 وهو سبحانه إذا أراد شيئا من ذلك فللناس فيها أقوال قيل الإرادة قديمة أزلية و احدة و إنما يتجدد تعلقها بالمراد ونسبتها إلى الجميع واحدة و لكن من خواص الإرادة أنها تخصص بلا مخصص فهذا قول ابن كلاب و الأشعرى و من تابعهما و كثير من العقلاء يقول إن هذا فساده معلوم بالإضطرار حتى قال أبو البركات ليس فى العقلاء من قال بهذا و ما علم أنه قول طائفة كبيرة من أهل النظر و الكلام و بطلانه من جهات من جهة جعل إرادة هذا غير إرادة ذاك و من جهة أنه جعل الإرادة تخصص لذاتها و من جهة أنه لم يجعل عند وجود الحوادث شيئا حدث حتى تخصص أو لا تخصص بل تجددت نسبة عدمية ليست و جودا و هذا ليس بشيء فلم يتجدد شيء فصارت الحوادث تحدث و تتخصص بلا سبب حادث و لا مخصص و القول الثاني قول من يقول بإرادة واحدة قديمة مثل هؤلاء لكن يقول تحدث عند تجدد الأفعال إرادات فى ذاته بتلك المشيئة القديمة كما تقوله الكرامية و غيرهم و هؤلاء أقرب من حيث أثبتوا إرادات الأفعال و لكن يلزمهم ما لزم أولئك من حيث أثبتوا حوادث بلا سبب حادث و تخصيصات بلا مخصص و جعلوا تلك الإرادة واحدة تتعلق بجميع الإرادات الحادثة

و جعلوها أيضا تخصص لذاتها و لم يجعلوا عند وجود الإردات الحادثة شيئا حدث حتى تخصص تلك الإرادات الحدوث و القول الثالث قول الجهمية و المعتزلة الذين ينفون قيام الإرادة به ثم إما أن يقولوا بنفي الإرادة أو يفسرونها بنفس الأمر و الفعل أو يقولوا بحدوث إرادة لا فى محل كقول البصريين و كل هذه الأقول قد علم أيضا فسادها و القول الرابع أنه لم يزل مريدا بإرادات متعاقبة فنوع الإرادة قديم و أما إرادة الشيء المعين فإنما يريده فى و قته و هو سبحانه يقدر الأشياء و يكتبها ثم بعد ذلك يخلقها فهو إذا قدرها علم ما سيفعله و أراد فعله في الوقت المستقبل لكن لم يرد فعله فى تلك الحال فإذا جاء و قته أراد فعله فالأول عزم و الثاني قصد وهل يجوز و صفه بالعزم فيه قولان أحدهما المنع كقول القاضي أبى بكر و القاضي أبى يعلى و الثاني الجواز و هو أصح فقد قرأ جماعة من السلف { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ }آل عمران159 بالضم و فى الحديث الصحيح من حديث أم سلمة ثم عزم الله لي و كذلك فى خطبة مسلم

فعزم لي و سواء سمي عزما أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها فى وقتها و أراد أن يفعلها فى وقتها فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعين و نفس الفعل و لابد من علمه بما يفعله ثم الكلام في علمه بما يفعله هل هو العلم المتقدم بما سيفعله و علمه بأن قد فعله هل هو الأول فيه قولان معروفان و العقل و القرآن يدل على أنه قدر زائد كما قال لنعلم فى بضعة عشر موضعا و قال ابن عباس إلا لنرى و حينئذ فإرادة المعين تترجح لعلمه بما في المعين من المعنى المرجح لإرادته فالإرادة تتبع العلم و كون ذلك المعين متصفا بتلك الصفات المرجحة إنما هو فى العلم و التصور ليس فى الخارج شيء و من هنا غلط من قال المعدوم شيء حيث أثبتوا ذلك المراد فى الخارج و من لم يثبته شيئا في العلم أو كان ليس عنده إلا إرادة واحدة و علم واحد ليس للمعلومات و المرادات صورة علمية عند هؤلاء فهؤلاء نفوا كونه شيئا فى العلم و الإرادة و أولئك أثبتوا كونه شيئا فى الخارج وتلك الصورة العلمية الإرادية حدثت بعد أن لم تكن و هي حادثة بمشيئته و قدرته كما يحدث الحوادث المنفصلة بمشيئته و قدرته فيقدر ما يفعله ثم يفعله فتخصيصها بصفة دون صفة و قدر دون قدر هو للأمور المقتضية لذلك فى نفسه فلا يريد إلا ما تقتضي نفسه إرادته بمعنى يقتضي ذلك و لا يرجح مرادا على مراد إلا لذلك و لا يجوز أن يرجح شيئا لمجرد كونه قادر فإنه كان قادرا قبل إرادته و هو قادر على غيره فتخصيص هذا بالإرادة لا يكون بالقدرة المشتركة بينه و بين غيره و لا يجوز أيضا أن تكون الإرادة تخصص مثلا على مثل بلا مخصص بل إنما يريد المريد حد الشيئين دون الآخر لمعنى فى المريد و المراد لابد أن يكون المريد إلى ذلك أميل و أن يكون فى المراد ما أوجب رجحان ذلك الميل و القرآن و السنة تثبت القدر و تقدير الأمور قبل أن يخلقها و أن ذلك في كتاب و هذا أصل عظيم يثبت العلم و الإرادة لكل ما سيكون و يزيل إشكالات كثيرة ضل بسببها طوائف فى هذا المكان فى مسائل العلم و الإرادة فالإيمان بالقدر من أصول الإيمان كما ذكره النبى صلى الله عليه و سلم فى حديث جبريل قال الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و بالبعث بعد الموت و تؤمن بالقدر خيره و شره و قد تبرأ ابن عمر و غيره من الصحابة من المكذبين بالقدر و مع هذا فطائفة من أهل الكلام و غيرهم لا تثبت القدر إلا علما أزليا و إرادة أزلية فقط و إذا أثبتوا الكتابة قالوا إنها كتابة لبعض ذاك و أما من يقول إنه قدرها حينئذ كما فى صحيح مسلم عن عبدالله ابن عمرو عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و كان عرشه على الماء فقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع و هو كقوله {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ }الأعراف167 و قوله{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص85 و قوله {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى }طه129 و قوله {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{171} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{172} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{173} الصافات171 -173 و قوله {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }الأنفال68 و الكتاب في نفسه لا يكون أزليا و في حديث رواه حماد بن سلمة عن الأشعث بن عبدالرحمن الجرمي عن أبي قلابة عن أبى الأشعث الصنعاني عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات و الأرض بالفى سنة أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة رواه الترمذي و قال غريب و هو سبحانه أنزل القرآن ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا و كثير من الكتب المصنفة فى أصول الدين و الكلام يوجد فيها الأقوال المبتدعة دون القول الذي جاء به الكتاب و السنة فالشهر ستاني مع تصنيفه في الملل و النحل يذكر فى مسألة الكلام و الإرادة و غيرهما أقوالا ليس فيها القول الذي دل عليه الكتاب و السنة و إن كان بعضها أقرب وقبله أبو الحسن كتابه فى إختلاف المصلين

من أجمع الكتب و قد أستقصى فيه أقاويل أهل البدع و لما ذكر قول أهل السنة و الحديث ذكره مجملا غير مفصل و تصرف فى بعضه فذكره بما اعتقده هو أنه قولهم من غير أن يكون ذلك منقولا عن أحد منهم و أقرب الأقوال إليه قول ابن كلاب فأما ابن كلاب فقوله مشوب بقول الجهمية و هو مركب من قول أهل السنة و قول الجهمية و كذلك مذهب الأشعري فى الصفات و أما في القدر و الإيمان فقوله قول جهم و أما ما حكاه عن أهل السنة و الحديث و قال و بكل ما ذكرنا من قولهم نقول و إليه نذهب فهو أقرب ما ذكره و بعضه ذكره عنهم على و جهه و بعضه تصرف فيه و خلطه بما هو من أقوال جهم في الصفات و القدر إذ كان هو نفسه يعتقد صحة تلك الأصول و هو يحب الإنتصار لأهل السنة و الحديث و موافقتهم فأراد أن يجمع بين مارآه من رأى أولئك و بين ما نقله عن هؤلاء و لهذا يقول فيه طائفة إنه خرج من التصريح إلى التمويه كما يقوله طائفة إنهم الجهمية الإناث و أولئك الجهمية الذكور و أتباعه الذين عرفوا رأيه فى تلك الأصول و وافقوه أظهروا من مخالفة أهل السنة و الحديث ما هو لازم لقولهم و لم يهابوا أهل السنة و الحديث و يعظموا و يعتقدوا صحة مذاهبهم كما كان هو يرى ذلك و الطائفتان أهل السنة و الجهمية يقولون إنه تناقض لكن السني يحمد موافقته لأهل لحديث و يذم موافقته للجهمية و الجهمي يذم موافقته لأهل الحديث و يحمد موافقته للجهمية و لهذا كان متأخروا أصحابه كأبي المعالي و نحوه أظهر تجهما و تعطيلا من متقدميهم و هي مواضع دقيقة يغفر الله لمن أخطأ فيها بعد اجتهاده لكن الصواب ما أخبر به الرسول فلا يكون الحق فى خلاف ذلك قط و الله أعلم و من أعظم الأصول التى دل عليها القرآن في مواضع كثيرة جدا و كذلك الأحاديث و سائر كتب الله و كلام السلف و عليها تدل المعقولات الصريحة هو إثبات الصفات الإختيارية مثل أنه يتكلم بمشيئته و قدرته كلاما يقوم بذاته و كذلك يقوم بذاته فعله الذي يفعله بمشيئته فإثبات هذا الأصل يمنع ضلال الطوائف الذين كذبوا به و القرآن و الحديث مملوء و كلام السلف و الأئمة مملوء من إثباته فالحق المحض ما أخبر به الرسول صلى الله عليه و سلم فلا يكون الحق في خلاف ذلك لكن الهدى التام يحصل بمعرفة ذلك و تصوره فإن الإختلاف تارة ينشأ من سوء الفهم و نقص العلم و تارة من سوء القصد و الناس يختلفون فى العلم و الإرادة فى تعدد ذلك و إيجاده و معلوم أن ما يقوم بالنفس من إرادة الأمور لا يمكن أن يقال فيه العلم بهذا هو العلم بهذا و لا إرادة هذا هو إرادة هذا فإن هذا مكابرة و عناد و ليس تمييز العلم عن العلم و الإرادة عن الإرادة تمييزا مع إنفصال أحدهما عن الآخر بل نفس الصفات المتنوعة كالعلم و القدرة و الإرادة إذا قامت بمحل واحد لم ينفصل بعضها عن بعض بل محل هذا هو محل هذا كالطعم و اللون و الرائحة القائمة بالأترجة الواحدة و أمثالها من الفاكهة و غيرها فإذا قيل هي علوم وإرادات لم ينفصل هذا عن هذا بفصل حسي بل هو نوع واحد قائم بالنفس و إذا علم هذا بعد علمه بذلك فقد زاد هذا النوع و كثر و إن شئت قلت عظم فلا يزيد فيه زيادة الكمية عن زيادة الكيفية بل يقال علم كثير و علم عظيم بأن تكون العظمة ترجع إلى قوته و شرف معلومه و نحو ذلك كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لأبي بن كعب أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم قال {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }البقرة255 فقال ليهنك العلم أبا المنذر و كتب سلمان إلى أبي الدرداء ليس الخير أن يكثر مالك و ولدك و لكن الخير أن يكثر علمك و يعظم حلمك و انضمام العلم إلى العلم و الإرادة إلى الإرادة و القدرة إلى القدرة هو شبيه بإنضمام الأجسام المتصلة كالماء إذا زيد فيه ماء فإنه يكثر قدره لكن هو كم متصل لا منفصل بخلاف الدراهم فإذا قيل تعددت العلوم و الإرادات فهو إخبار عن كثرة قدرها و أنها أكثر و أعظم مما كانت لا أن هناك معدودات منفصلة كما قد يفهم بعض الناس و لهذا كان العلم اسم جنس فلا يكاد يجمع فى القرآن بل يقال {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ }آل عمران61 فيذكر

الجنس و كذلك الماء ليس فى القرآن ذكر مياه بل إنما يذكر جنس الماء {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً }الفرقان48 و نحو ذلك و العلم يشبه بالماء كقوله صلى الله عليه و سلم إن مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضا الحديث و قد قال {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا }الرعد17إلى قوله { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ }الرعد17 وما خلقه الرب تعالى فإنه يراه و يسمع أصوات عباده و المعدوم لا يرى بإتفاق العقلاء و السالمية كأبي طالب المكي و غيره لم يقولوا إنه يرى قائما بنفسه و إنما قالوا يراه الرب فى نفسه و إن كان هو معدوما في ذات الشيء المعدوم فهم يجعلون الرؤية لما يقوم بنفس العالم من صورته العلمية ما هوعدم محض و هم و إن كانوا غلطوا فى بعض ما قالوه فلم يقولوا إن العدم المحض الذي ليس بشيء يرى فإن هذا لا يقوله عاقل و فى الحقيقة إذا رؤى شيء فإنما رؤى مثاله العلمي لا عينه و أبو الشيخ الأصبهاني لما ذكرت هذه المسألة أمر بالإمساك عنها فقبل أن يوجد لم يكن يرى و بعد أن يعدم لا يرى و إنما يرى حال وجوده و هذا هو الكمال فى الرؤية و كذلك سمع أصوات العباد هو عند و جودها لا بعد فنائها و لا قبل حدوثها قال تعالى {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ }التوبة105 و قال {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ }يونس14 الرسول صلى الله عليه و سلم بعثه الله تعالى هدى و رحمة للعالمين فإنه كما أرسله بالعلم و الهدى و البراهين العقلية و السمعية فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس و الرحمة لهم بلا عوض و بالصبر على أذاهم و إحتماله فبعثه بالعلم و الكرم و الحلم عليم هاد كريم محسن حليم صفوح قال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{52} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ{53} الشورى 52-53 و قال تعالى {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }إبراهيم1 و قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 و نظائره كثيرة و قال {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ مِنْ أَجْرٍ}الفرقان57 و قال {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }سبأ47 و قال{ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً }الأنعام90 فهو يعلم و يهدي و يصلح القلوب و يدلها على صلاحها فى الدنيا و الآخرة بلا عوض و هذا نعت الرسل كلهم كل يقول {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ }الشعراء109 و لهذا قال صاحب يس { يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{20} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{21}يس21 و هذه سبيل من اتبعه كما قال {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي }يوسف108 و أما المخالفون لهم فقد قال عن المنتسبين إليهم مع بدعة { إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ }التوبة34 فهؤلاء أخذوا أموالهم و منعوهم سبيل الله ضد الرسل فكيف بمن هو شر من هؤلاء من علماء المشركين و السحرة و الكهان فهم أوكل لأموالهم بالباطل و أصد عن سبيل الله من الأحبار و الرهبان و هو سبحانه قال {إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ }التوبة34 فليس كلهم كذلك بل قال فى موضع آخر { وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ }المائدة82 و قد قال فى و صف الرسول {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ }التكوير24 و فيها قراءتان فمن قرأ بظنين أي ما هو بمتهم على الغيب بل هو صادق أمين فيما يخبر به و من قرأ بضنين أي ما هو ببخيل لا يبذله إلا بعوض كالذين يطلبون العوض على ما يعلمونه فوصفه بأنه يقول الحق فلا يكذب و لا يكتم و قد و صف أهل الكتاب بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها و يخفون كثيرا و أنهم يشترون به ثمنا قليلا ومع هذا و هذا قد أمده بالصبر على أذاهم و جعله كذلك يعطيهم ما هم محتاجون إليه غاية الحاجة بلا عوض و هم

يكرهونه و يؤذونه عليه و هذا أعظم من الذي يبذل الدواء النافع للمرضى و يسقيهم إياه بلا عوض و هم يؤذونه كما يصنع الأب الشفيق و هو أب المؤمنين و كذلك نعت أمته بقوله {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }آل عمران110 قال أبو هريرة كنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل حتى تدخلوهم الجنة فيجاهدون يبذلون أنفسهم و أموالهم لمنفعة الخلق و صلاحهم و هم يكرهون ذلك لجهلهم كما قال أحمد فى خطبته الحمد لله الذي جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى و يصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى و يبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه و كم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس و أقبح أثر الناس عليهم إلى آخر كلامه فهذا هذا و الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه و هو سبحانه يجزي الناس بأعمالهم و الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه فهو ينعم على الرسول بإنعامه جزاء على إحسانهم و الجميع منه فهو الرحمن الرحيم الجواد الكريم الحنان المنان له النعمة و له الفضل و له الثناء الحسن و له الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه و هو سبحانه يحب معالي الأخلاق و يكره سفسافها و هو يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات و يحب العقل الكامل عند حلول الشهوات وقد قيل أيضا وقد يحب الشجاعة ولو على قتل الحيات و يحب السماحة و لو بكف من تمرات و القرآن أخبر أنه يحب المحسنين و يحب الصابرين و هذا هو الكرم و الشجاعة وقوله الأكرم يقتضي إتصافه بالكرم في نفسه و أنه الأكرم و أنه محسن إلى عباده فهو مستحق للحمد لمحاسنه و إحسانه و قوله{ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن27 فيه ثلاثة أقوال قيل أهل أن يجل و أن يكرم كما يقال إنه { أَهْلُ التَّقْوَى }المدثر56 أي المستحق لأن يتقى و قيل أهل أن يجل فى نفسه و أن يكرم أهل ولايته و طاعته و قيل أهل أن يجل فى نفسه وأهل أن يكرم ذكر الخطابي الإحتمالات الثلاثة و نقل ابن الجوزي كلامه فقال قال أبو سليمان الخطابي الجلال مصدر الجليل يقال جليل بين الجلالة والجلال والإكرام مصدر أكرم يكرم إكراما و المعنى أنه يكرم أهل ولايته وطاعته وأن الله يستحق أن يجل ويكرم ولا يجحد ولا يكفر به قال ويحتمل أن يكون المعنى يكرم أهل ولايته ويرفع درجاتهم قلت وهذا الذي ذكره البغوي فقال ذو الجلال العظمة والكبرياء والإكرام يكرم أنبياءه و أولياءه بلطفه مع جلاله وعظمته قال الخطابي وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين وهو الجلال مضافا إلى الله بمعنى الصفة له والآخر مضافا إلى العبد بمعنى الفعل كقوله تعالى { هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ }المدثر56 فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة والآخر إلى العباد وهي التقوي قلت القول الأول هو أقربها إلى المراد مع أن الجلال هنا ليس مصدر جل جلالا بل هو إسم مصدر أجل إجلالا كقول النبى صلى الله عليه و سلم إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافى عنه وإكرام ذي السلطان المقسط فجعل إكرام هؤلاء من جلال الله أي من إجلال الله كما قال {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً }نوح17 و كما يقال كلمه كلاما و أعطاه عطاء و الكلام و العطاء إسم مصدر التكليم و الإعطاء و الجلال قرن بالإكرام و هو مصدر المتعدي فكذلك الإكرام و من كلام السلف أجلوا الله أن تقولوا كذا و في حديث موسى يارب إني أكون على الحال التى أجلك أن أذكرك عليها قال أذكرنى على كل حال و إذا كان مستحقا للإجلال و الإكرام لزم أن يكون متصفا فى نفسه بما يوجب ذلك كما إذا قال الاله هو المستحق لأن يؤله أي يعبد كان هو في نفسه مستحقا لما يوجب ذلك و إذا قيل {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى }المدثر56 كان هو فى نفسه متصفا بما يوجب أن يكون هو المتقي و منه قول النبى صلى الله عليه و سلم إذا رفع رأسه من الركوع بعد ما يقول ربنا و لك الحمد ملء السموات و ملء الأرض و ملء ما بينهما و ملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت و لا

معطى لما منعت و لا ينفع ذا الجد منك الجد أي هو مستحق لأن يثنى عليه و تمجد نفسه والعباد لا يحصون ثناء عليه و هو كما أثنى على نفسه كذلك هو أهل أن يجل و أن يكرم و هو سبحانه يجل نفسه و يكرم نفسه و العباد لا يحصون إجلاله و إكرامه و الإجلال من جنس التعظيم و الإكرام من جنس الحب و الحمد و هذا كقوله { لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ}التغابن1 فله الإجلال و الملك و له الإكرام و الحمد و الصلاة مبناها على التسبيح فى الركوع و السجود و التحميد و التوحيد فى القيام و القعود و التكبير فى الإنتقالات كما قال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فكنا إذا علونا كبرنا و إذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك رواه أبو داود و فى الركوع يقول سبحان ربى العظيم و قال النبى صلى الله

عليه و سلم إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا أما الركوع فعظموا فيه الرب و أما السجود فاجتهدوا فيه فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم و إذا رفع رأسه حمد فقال سمع الله لمن حمده ربنا و لك الحمد فيحمده في هذا القيام كما يحمده فى القيام الأول إذا قرأ أم القرآن فالتحميد و التوحيد مقدم على مجرد التعظيم و لهذا إشتملت الفاتحة على هذا أولها تحميد و أوسطها تمجيد ثم فى الركوع تعظيم الرب و فى القيام يحمده و يثنى عليه و يمجده فدل على أن التعظيم المجرد تابع لكونه محمودا و كونه معبودا فإنه يحب أن يحمد و يعبد و لابد مع ذلك من التعظيم فإن التعظيم لازم لذلك و أما التعظيم فقد يتجرد عن الحمد و العبادة على أصل الجهمية فليس ذلك بمأمور به و لا يصير العبد به لا مؤمنا و لا عابدا و لا مطيعا و أبو عبدالله ابن الخطيب الرازي يجعل الجلال للصفات السلبية و الإكرام للصفات الثبوتية فيسمى هذه صفات الجلال و هذه صفات الإكرام و هذا إصطلاح له و ليس المراد هذا في قوله {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن27 و قوله {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن78 و هو فى مصحف أهل الشام تبارك إسم ربك ذو الجلال و الإكرام وهي قراءة ابن عامر فالإسم نفسه يذوى بالجلال و الإكرام و فى سائر المصاحف و فى قراءة الجمهور ذي الجلال فيكون المسمى نفسه و فى الأولى {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }الرحمن27 فالمذوى وجهه سبحانه و ذلك يستلزم أنه هو ذو الجلال و الإكرام فإنه إذا كان وجهه ذا الجلال و الإكرام كان هذا تنبيها كما أن اسمه إذا كان ذا الجلال و الإكرام كان تنبيها على المسمى و هذا يبين أن المراد أنه يستحق أن يجل و يكرم فإن الإسم نفسه يسبح و يذكر و يراد بذلك المسمى و الإسم نفسه لا يفعل شيئا لا إكراما و لا غيره و لهذا ليس فى القرآن إضافة شيء من الأفعال و النعم إلى الإسم و لكن يقال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ }الرحمن78 و نحو ذلك فإن اسم الله مبارك تنال معه البركة و العبد يسبح إسم ربه الأعلى فيقول سبحان ربى الأعلى و لما نزل قوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى قال إجعلوها في سجودكم فقالوا سبحان ربي الأعلى فكذلك كان النبى صلى الله عليه و سلم لا يقول سبحان إسم ربى الأعلى لكن قوله سبحان ربي الأعلي هو تسبيح لإسمه يراد به تسبيح المسمى لا يراد به تسبيح مجرد الإسم كقوله {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}الإسراء110 فالداعى يقول يا الله يا رحمن و مراده المسمى و قوله { أَيّاً مَّا }الإسراء110 أي الإسمين تدعوا و دعاء الإسم هو دعاء مسماه وهذا هو الذى أراده من قال من أهل السنة أن الإسم هو المسمى أرادوا به أن الإسم إذا دعى و ذكر يراد به المسمى فإذا قال المصلي الله أكبر فقد ذكر اسم ربه و مراده المسمى لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة فى الخارج فإن فساد هذا لا يخفى على من تصوره ولو كان كذلك كان من قال نارا إحترق لسانه و بسط هذا له موضع آخر و المقصود أن الجلال و الإكرام مثل الملك و الحمد كالمحبة و التعظيم و هذا يكون

في الصفات الثبوتية و السلبية فإن كل سلب فهو متضمن للثبوت و أما السلب المحض فلا مدح فيه و هذا مما يظهر به فساد قول من جعل أحدهما للسلب و الآخر للإثبات لا سيما إذا كان من الجهمية الذين ينكرون محبته و لا يثبتون له صفات توجب المحبة و الحمد بل إنما يثبتون ما يوجب القهر كالقدرة فهؤلاء آمنوا ببعض و كفروا ببعض و ألحدوا في أسمائه و آياته بقدر ما كذبوا به من الحق كما بسط هذا في غير هذا الموضع قوله تعالى في أول ما أنزل {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 و قوله {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }العلق3 ذكر فى الموضعين بالإضافة التى توجب التعريف و أنه معروف عند المخاطبين إذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الإستدلال بكونه خلق و أن المخلوق مع أنه دليل و أنه يدل على الخالق لكن هو معروف فى الفطرة قبل هذا الإستدلال و معرفته فطرية مغروزة في الفطرة ضرورية بديهية أولية و قوله {اقْرَأْ }العلق1 و إن كان خطابا للنبى صلى الله عليه و سلم أو لا فهو خطاب لكل أحد سواء كان قوله {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }العلق3 هو خطاب للإنسان مطلقا و النبى صلى الله عليه و سلم أول من سمع هذا الخطاب أو من النوع أو هو خطاب النبى صلى الله عليه و سلم خصوصا كما قد قيل فى نظائر ذلك مثل قوله {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 قيل خطاب له و قيل خطاب للجنس و أمثال ذلك فإنه و إن قيل أنه خطاب له فقد تقرر أن ما خوطب به من أمر و نهي فالأمة مخاطبة به ما لم يقم دليل التخصيص وبهذا يبين أن قوله تعالى {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ }يونس94 يتناول غيره حتى قال كثير من المفسرين الخطاب لرسول الله صلى الله عليه و سلم و المراد به غيره أي هم الذين أريد منهم أن يسألوا لما عندهم من الشك و هو لم يرد منه السؤال إذ لم يكن عنده شك و لا شك أن هذا لا يمنع أن يكون هو مخاطبا و مرادا بالخطاب بل هذا صريح اللفظ فلا يجوز أن يقال إن الخطاب لم يتناوله و لأن ليس فى الخطاب أنه أمر بالسؤال مطلقا بل أمر به إن كان عنده شك و هذا لا يوجب أن يكون عنده شك و لا أنه أمر به مطلقا بل أمر به إن كان هذا موجودا و الحكم المعلق بشرط عدم عند عدمه وكذلك كثير من المفسرين يقول فى قوله {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ }البقرة147 و في قوله {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ }الأحزاب48 و نحو ذلك إن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه و سلم و المراد به غيره أي غيره قد يكون ممتريا و مطيعا لأولئك فنهي و هو لا يكون ممتريا و لا مطيعا لهم و لكن بتقدير أن يكون الأمر كذلك فهو أيضا مخاطب بهذا و هو منهى عن هذا فالله سبحانه قد نهاه عما حرمه من الشرك و القول عليه بلا علم و الظلم و الفواحش و بنهى الله له عن ذلك و طاعته لله فى هذا استحق عظيم الثواب و لولا النهي و الطاعة لما استحق ذلك و لا يجب أن يكون المأمور المنهى ممن يشك فى طاعته و يجوز عليه أن يعصى الرب أو يعصيه مطلقا و لا يطيعه بل الله أمر الملائكة مع علمه أنهم يطيعونه و يأمر الأنبياء مع علمه أنهم يطيعونه و كذلك المؤمنون كل ما أطاعوه فيه قد أمرهم به مع علمه أنهم يطيعونه و لا يقال لا يحتاج إلى الأمر بل بالأمر صار مطيعا مستحقا لعظيم الثواب ولكن النهي يقتضي قدرته على المنهى عنه و أنه لو شاء لفعله ليثاب على ذلك إذا تركه و قد يقتضى قيام السبب الداعى إلى فعله فينهى عنه فإنه بالنهي و إعانة الله له على الإمتثال يمتنع مما نهى عنه إذا قام السبب الداعى له إليه و كذلك قد قيل في قوله {سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ }البقرة211 إنه أمر للرسول و المراد به هو و المؤمنون و قيل هو أمر لكل مكلف فقوله فى هذه السورة {اقْرَأْ }العلق1 كقوله فى آخرها {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }العلق19 و قوله { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ{9} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ{10} وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ{11}الضحى 9-11 هذا متناول لجميع الأمة و قوله {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ {1} قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً{2}المزمل1-2 فإنه كان خطابا للمؤمنين كلهم و كذلك قوله { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2}المدثر1-2 لما أمر بتبليغ ما أنزل

إليه من الإنذار و هذا فرض على الكفاية فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه و ينذروا كما أنذر قال تعالى { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }التوبة122 و الجن لما سمعوا القرآن { وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ }الأحقاف29 و إذا كان كذلك فكل إنسان في قلبه معرفة بربه فإذا قيل له {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 عرف ربه الذي هو مأمور أن يقرأ باسمه كما يعرف أنه مخلوق و المخلوق يستلزم لخالق و يدل عليه و قد بسط هذا في غير هذا الموضع و بين أن الإقرار و الإعتراف بالخالق فطري ضروري فى نفوس الناس و إن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة و هذا قول جمهور الناس و عليه حذاق النظار أن المعرفة تارة تحصل بالضرورة و تارة بالنظر كما اعترف بذلك غير واحد من أئمة المتكلمين و هذه الآية أيضا تدل على أنه ليس النظر أول واجب بل أول ما أوجب الله على نبيه صلى الله عليه و سلم {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 لم يقل أنظر و إستدل حتى تعرف الخالق و كذلك هو أول ما بلغ هذه السورة فكان المبلغون مخاطبين بهذه الآية قبل كل شيء و لم يؤمروا فيها بالنظر و الإستدلال و قد ذهب كثير من أهل الكلام إلى أن إعتراف النفس بالخالق و إثباتها له لا يحصل إلا بالنظر ثم كثير منهم جعلوا ذلك نظر مخصوصا و هو النظر فى الأعراض و أنها لازمة للأجسام فيمتنع وجود الأجسام بدونها قالوا و ما لا يخلو عن الحوادث أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ثم منهم من إعتقد أن هذه المقدمة بينة بنفسها بل ضرورية و لم يميز بين الحادث المعين و المحدود و بين الجنس المتصل شيئا بعد شيء إما لظنه أن هذا ممتنع أو لعدم خطوره بقلبه لكن و إن قيل هو ممتنع فليس العلم بذلك بديهيا و إنما العلم البديهي أن الحادث الذي له مبدأ محدود كالحادث و الحوادث المقدرة من حين محدود فتلك ما لا يسبقها فهو حادث و ما لا يخلو منها لم يسبقها فهو حادث فإنه إذا لم يسبقها كان معها أو متأخرا عنها و على التقديرين فهو حادث و أما إذا قدر حوادث دائمة شيئا بعد شيء فهذا إما أن يقال هو ممكن و إما أن يقال هو ممتنع لكن العلم بإمتناعه يحتاج إلى دليل و لم تعلم طائفة معروفة من العقلاء قالوا إن العلم بإمتناع هذا بديهي ضروري و لا يفتقر إلى دليل بل كثير من الناس لا يتصور هذا تصورا تاما بل متى تصور الحادث قدر في ذهنه مبدأ ثم يتقدم فى ذهنه شيء قبل ذلك ثم شيء قبل ذلك لكن إلى غايات محدودة بحسب تقدير ذهنه كما يقدر الذهن عددا بعد عدد و لكن كل ما يقدره الذهن فهو منته و من الناس من إذا قيل له الأزل أو كان هذا موجودا فى الأزل تصور ذلك و هذا غلط بل الأزل ما ليس له أول كما أن الأبد ليس له آخر و كل ما يومئ إليه الذهن من غاية ف الأزل و راءها و هذا لبسطه موضع آخر و المقصود هنا أن هؤلاء الذين قالوا معرفة الرب لا تحصل إلا بالنظر ثم قالوا لا تحصل إلا بهذا النظر هم من أهل الكلام الجهمية القدرية و من تبعهم و قد إتفق سلف الأمة و أئمتها و جمهور العلماء من المتكلمين و غيرهم على خطأ هؤلاء فى إيجابهم هذا النظر المعين و فى دعواهم أن المعرفة موقوفة عليه إذ قد علم بالإضطرار من دين الرسول صلى الله عليه و سلم أنه لم يوجب هذا على الأمة و لا أمرهم به بل و لا سلكه هو و لا أحد من سلف الأمة فى تحصيل هذه المعرفة ثم هذا النظر هذا الدليل للناس فيه ثلاثة أقوال قيل إنه واجب و أن المعرفة موقوفة عليه كما يقوله هؤلاء و قيل بل يمكن حصول المعرفة بدونه لكنه طريق آخر إلى المعرفة و هذا يقوله كثير من هؤلاء ممن يقول بصحة هذه الطريقة لكن لا يوجبها كالخطابى و القاضي أبى يعلى و أبى جعفر السمنانى قاضي الموصل شيخ أبى الوليد الباجي و كان يقول إيجاب النظر بقية بقيت على الشيخ أبى الحسن الأشعرى من الإعتزال و هؤلاء الذين لا يوجبون هذا النظر و منهم من لا يوجب النظر مطلقا كالسمنانى و ابن حزم و غيرهما و منهم من يوجبه في الجملة كالخطابى و أبى الفرج المقدسي و القاضي أبو يعلى يقول بهذا تارة و

بهذا تارة بل و يقول تارة بإيجاب النظر المعين كما يقوله أبو المعالي و غيره ثم من الموجبين للنظر من يقول هو أول الواجبات و منهم من يقول بل المعرفة الواجبة به و هو نزاع لفظي كما أن بعضهم قال أول الواجبات القصد إلى النظر كعبارة أبى المعالي و من هؤلاء من قال بل الشك المتقدم كما قاله أبو هاشم و قد بسط الكلام على هذه الأقوال و غيرها فى موضع آخر و بين أنها كلها غلط مخالف للكتاب و السنة و إجماع السلف و الأئمة بل و باطلة فى العقل أيضا وهذه الآية مما يستدل به على ذلك فإن أول ما أوجب الله على رسوله و على المؤمنين هو ما أمر به فى قوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} العلق1 و الذين قالوا المعرفة لا تحصل إلا بالنظر قالوا لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر و غيره فيقال لهم و ليس فيما قص الله علينا من أخبار الرسل أن منهم أحدا أوجبها بل هي حاصلة عند الأمم جميعهم و لكن أكثر الرسل إفتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه كما أخبر الله عن نوح وهود و صالح و شعيب و قومهم كانوا مقرين بالخالق لكن كانوا مشركين يعبدون غيره كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه و سلم ومن الكفار من أظهر جحود الخالق كفرعون حيث قال { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ }القصص38 و قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و قال لموسى { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }الشعراء29 وقال { يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ{36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً {37}غافر36 -37 ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله فى القرآن قال { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{10} قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ{11} قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ{12} وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ{13} وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ{14} قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ{15} فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{16} أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ{17} قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ{18} وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ{19} قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ{20} فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ{21}الشعراء 10-21 قال فرعون إنكارا و جحدا { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء23 قال موسى { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ{24} قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ{25} قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ{26} قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ{27} قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا {28}الشعراء 28 الآيات وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء23 هو سؤال عن ماهية الرب كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول ما الإنسان ما الملك ما الجنى و نحو ذلك قالوا و لما لم يكن للمسئول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به و هو قوله { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }الشعراء23 و هذا قول قاله بعض المتأخرين و هو باطل فإن فرعون إنما استفهم إستفهام إنكار و جحد لم يسأل عن ماهية رب أقر بثبوته بل كان منكرا له جاحدا و لهذا قال في تمام الكلام { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }الشعراء29 و قال { وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً }غافر37 فإستفهامه كان إنكارا و جحدا يقول ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا إنكارا له فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده وأنكم إنما تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم كما قال موسى فى موضع آخر لفرعون {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ}الإسراء102 و قال الله تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }النمل14 و لم يقل فرعون و من رب العالمين فإن من سؤال عن عينه يسأل بها من عرف جنس المسؤل عنه أنه من أهل العلم و قد شك فى

عينه كما يقال لرسول عرف انه جاء من عند إنسان من أرسلك و أما ما فهى سؤال عن الوصف يقول أي شيء هو هذا و ما هو هذا الذي سميته { رَبُّ الْعَالَمِينَ }الشعراء23 قال ذلك منكرا له جاحدا فلما سأل جحدا أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر و أظهر من أن يشك فيه و يرتاب فقال {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ } الشعراء24 و لم يقل موقنين بكذا و كذا بل أطلق فأي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب كما قالت الرسل لقومهم { أَفِي اللَّهِ شَكٌّ }إبراهيم10 و إن قلتم لا يقين لنا بشيء من الأشياء بل سلبنا كل علم فهذه دعوى السفسطة العامة و مدعيها كاذب ظاهر الكذب فإن العلوم من لوازم كل إنسان فكل إنسان عاقل لابد له من علم و لهذا قيل فى حد العقل إنه علوم ضرورية و هي التى لا يخلو منها عاقل فلما قال فرعون { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ }الشعراء27 و هذا من إفتراء المكذبين على الرسول لما خرجوا عن عاداتهم التى هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون و لما كانوا مظهرين للجحد بالخالق أو للإسترابة و الشك فيه هذه حال عامتهم و دينهم و هذا عندهم دين حسن و إنما إلههم الذي يطيعونه فرعون قال { إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ }الشعراء27 فبين له موسى أنكم الذين سلبتم العقل النافع و أنتم أحق بهذا الوصف فقال {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ }الشعراء28 فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية و أعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق فلما ذكر أولا أن من أيقن بشيء فهو موقن به و اليقين بشيء هو من لوازم العقل بين ثانيا أن الإقرار به من لوازم العقل و لكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه فإن لم يعمل به صاحبه قيل إنه ليس له عقل و يقال أيضا لمن لم يتبع ما أيقن به إنه ليس له يقين فإن اليقين أيضا يراد به العلم المستقر فى القلب و يراد به العمل بهذا العلم فلا يطلق الموقن إلا على من استقر في قلبه العلم و العمل و قوم فرعون لم يكن عندهم إتباع لما عرفوه فلم يكن لهم عقل و لا يقين و كلام موسى يقتضى الأمرين إن كان لك يقين فقد عرفته و إن كان لك عقل فقد عرفته و إن ادعيت أنه لا يقين لك و لا عقل لك فكذلك قومك فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان و من يكون هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية مع أن هذا باطل منكم فإنكم موقنون به كما قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً }النمل14و لكم عقل تعرفونه به و لكن هواكم يصدكم عن إتباع موجب العقل و هو إرادة العلو في الأرض و الفساد فأنتم لا عقل لكم بهذا الإعتبار كما قال أصحاب النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 و قال تعالى عن الكفار {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }الفرقان44 قال تعالى عن فرعون و قومه {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ }الزخرف54

و الخفيف هو السفيه الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه و بسط هذا له موضع آخر و المقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا و استدلوا حتى تعرفوه فلم يكلفوا أولا بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقر به وكل مولود يولد على الفطرة لكن عرض للفطرة ما غيرها و الإنسان إذا ذكر ذكر ما فى فطرته و لهذا قال الله فى خطابه لموسى {فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ }طه44 ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه و يعرف إنعامه عليه و إحسانه إليه و إفتقاره إليه فذلك يدعوه إلى الإيمان { أَوْ يَخْشَى }طه44 ما ينذره به من العذاب فذلك أيضا يدعوه إلى الإيمان كما قال تعالى {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ }النحل125 فالحكمة تعريف الحق فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة و من نازعه هواه وعظ بالترغيب والترهيب فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى إتباعه فإن الحق محبوب فى الفطرة وهو أحب إليها وأجل فيها وألذ عندها من الباطل الذي لا

حقيقة له فإن الفطرة لا تحب ذاك فإن لم يدعه الحق و العلم به خوف عاقبة الجحود والعصيان وما فى ذلك من العذاب فالنفس تخاف العذاب بالضرورة فكل حى يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع فمن الناس من يتبع هواه فيتبع الأدنى دون الأعلى كما أن منهم من يكذب بما خوف به أو يتغافل عنه حتى يفعل ما يهواه فإنه إذا صدق به و استحضره لم يبعث نفسه إلى هواها بل لابد من نوع من الغفلة و الجهل حتى يتبعه و لهذا كان كل عاص لله جاهلا كما قد بسط هذا فى مواضع إذ المقصود هنا التنبيه على أن قوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 فيه تنبيه على أن الرب معروف عند المخاطبين و أن الفطر مقرة به و على ذلك دل قوله {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }الأعراف172 الآية كما قد بسط الكلام عليها فى غير هذا الموضع و كذلك قول الرسل { أَفِي اللّهِ شَكٌّ }إبراهيم10 هو نفي أي ليس فى الله شك و هو إستفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس فى الله شك فهذا إستفهام تقرير فإن حرف الإستفهام إذا دخل على حرف النفي كان تقريرا كقوله {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ }الشرح1 {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ }البلد8 {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ }التوبة70 و مثله كثير بخلاف إستفهام فرعون فإنه إستفهام إنكار لا تقرير إذ ليس هناك إلا أداة الإستفهام فقط و دل سياق الكلام على أنه إنكار فإن قيل إذا كانت معرفته و الإقرار به ثابتا فى كل فطرة فكيف ينكر ذلك كثير من النظار نظار المسلمين و غيرهم و هم يدعون أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية فيقال أولا أول من عرف فى الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام الذي إتفق السلف على ذمه من الجهمية و القدرية و هم عند سلف الأمة من أضل الطوائف و أجهلهم و لكن إنتشر كثير من اصولهم فى المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر فى الأصل عن علماء المسلمين و ليس كذلك إنما صدر أولا عمن ذمه ائمة الدين و علماء المسلمين الثاني أن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم و الإرادات و غيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بانها قامت به فوجود الشيء في الإنسان و غيره غير علم الإنسان به و هذا كصفات بدنه فإن منها ما لا يراه كوجهه و قفاه و منها ما يراه إذا تعمد النظر إليه كبطنه و فخذه و عضديه و قد يكون بهما آثار من خيلان و غير خيلان و غير ذلك من الأحوال و هو لم يره و لم يعرفه لكن لو تعمد رؤيته لرآه و من الناس من لا يستطيع رؤية ذلك لعارض عرض لبصره من العشى أو العمى أو غير ذلك كذلك صفات نفسه قد يعرف بعضها و بعضها لا يعرفه لكن لو تعمد تأمل حال نفسه لعرفه و منها ما لا يعرفه و لو تأمل لفساد بصيرته و ما عرض لها و الذي يبين ذلك أن الأفعال الإختيارية لا تتصور إلا بإرادة تقوم بنفس الإنسان و كل من فعل فعلا إختياريا و هو يعرفه فلابد أن يريده كالذي يأكل و يشرب و يلبس و هو يعرف أنه يفعل ذلك فلابد أن يريده فالفعل الإختيارى يمتنع أن يكون بغير إرادة و إذا تصور الفعل الذي يفعله و قد فعله لزم أن يكون مريدا له و قد تصوره و إذا كان مريدا له و قد تصوره إمتنع أن لا يريد ما تصوره و فعله فالإنسان إذا قام إلى صلاة يعلم أنها الظهر فمن الممتنع أن يصلي الظهر و هو يعلم هذا لم ينسه و لا يريد صلاة الظهر و كذلك الصيام إذا تصور أن غدا من رمضان و هو مريد لصوم رمضان إمتنع أن لا ينوى صومه و كذلك إذا أهل بالحج و هو يعلم أنه مهل إمتنع أن لا يكون مريدا للحج و كذلك الوضوء إذا علم أنه يتوضأ للصلاة و هو يتوضأ إمتنع أن لايكون مريدا للوضوء و مثل هذا كثير نجد خلقا كثيرا من العلماء دع العامية يستدعون النية بألفاظ يقولونها و يتكلفون ألفاظا و يشكون فى و جودها مرة بعد مرة و يخرجون إلى ضرب من الوسوسة التى يشبه أصحابها المجانين و النية هي الإرادة و هي القصد و هي موجودة فى نفوسهم لوجودها فى نفس كل من يصلي فى ذلك المسجد و الجامع و من

توضأ فى تلك المطهرة أولئك يعلمون هذا من نفوسهم و لم يحصل لهم وسواس وهؤلاء ظنوا أن النية لم تكن في قلوبهم يطلبون حصولها من قلوبهم وهم يعلمون أن التلفظ بها ليس بواجب وإنما الفرض وجود الإرادة فى القلب وهي موجودة ومع هذا يعتقدون أنها ليست موجودة وإذا قيل لأحدهم النية حاصلة فى قلبك لم يقبل لما قام به من الإعتقاد الفاسد المناقض لفطرته وكذلك حب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن لا يمكنه دفع ذلك من قلبه إذا كان مؤمنا وتظهر علامات حبه لله ولرسوله إذا أخذ أحد يسب الرسول ويطعن عليه أو يسب الله ويذكره بما لا يليق به فالمؤمن يغضب لذلك أعظم مما يغضب لو سب أبوه و أمه و مع هذا فكثير من أهل الكلام والرأي أنكروا محبة الله و قالوا يمتنع أن يكون محبا أو محبوبا و جعلوا هذا من أصول الدين وقالوا خلافا للحلولية كأنه لم يقل بأن الله يحب إلا الحلولية ومعلوم أن هذا دين الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين و أهل الإيمان أجمعين وقد دل على ذلك الكتاب والسنة كما قد بسطناه فى مواضع فهذه المحبة لله ورسوله موجودة فى قلوب أكثر المنكرين لها بل في قلب كل مؤمن وإن أنكرها لشبهة عرضت له

وهكذا المعرفة موجودة في قلوب هؤلاء فإن هؤلاء الذين أنكروا محبته هم الذين قالوا معرفته لا تحصل إلا بالنظر فأنكروا ما في فطرهم وقلوبهم من معرفته ومحبته ثم قد يكون ذلك الإنكار سببا إلى إمتناع معرفة ذلك في نفوسهم وقد يزول عن قلب أحدهم ما كان فيه من المعرفة والمحبة فإن الفطرة قد تفسد فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }الحج46 و قد قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{31}الروم30-31 و فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة إقرءوا إن شئتم {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }الروم30 و الفطرة تستلزم معرفة الله و محبته و تخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد و هو التوحيد و هذا معنى قول لا إله إلا الله كما جاء مفسرا كل مولود يولد على هذه الملة و روى على ملة الإسلام وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن النبى صلى الله عليه و سلم قال يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين و حرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا فأخبر أنه خلقهم حنفاء و ذلك يتضمن معرفة الرب و محبته و توحيده فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية و هي معنى قول لا إله إلا الله فإن فى هذه الكلمة الطيبة التى هي { كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ }إبراهيم24 فيها إثبات معرفته و الإقرار به و فيها إثبات محبته فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يكون مألوها و هذا أعظم ما يكون من المحبة و فيها أنه لا إله إلا هو ففيها المعرفة و المحبة و التوحيد و كل مولود يولد على الفطرة و هي الحنيفية التى خلقهم عليها و لكن أبواه يفسدان ذلك فيهودانه و ينصرانه و يمجسانه و يشركانه كذلك يجهمانه فيجعلانه منكرا لما في قلبه من معرفة الرب و محبته و توحيده ثم المعرفة يطلبها بالدليل و المحبة ينكرها بالكلية و التوحيد المتضمن للمحبة ينكره من لا يعرفه و إنما ثبت توحيد الخلق و المشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد و هذا الشرك فهما يشركانه و يهودانه و ينصرانه و يمجسانه و قد بسط الكلام على هذا الحديث و أقوال الناس فيه فى غير هذا الموضع و أيضا مما يبين أن الإنسان قد يخفى عليه كثير من أحوال نفسه فلا يشعر بها أن كثيرا من الناس يكون فى نفسه حب الرياسة كمن لا يشعر به بل إنه مخلص فى عبادته و قد خفيت عليه عيوبه و كلام الناس فى هذا كثير مشهور و لهذا سميت هذه الشهوة الخفية قال شداد بن أوس يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء و الشهوة

الخفية قيل لأبي داود السجستاني ما الشهوة الخفية قال حب الرياسة فهي خفية تخفى على الناس و كثيرا ما تخفىعلى صاحبها بل كذلك حب المال و الصورة فإن الإنسان قد يحب ذلك و لا يدري بل نفسه سكنة ما دام ذلك موجودا فإذا فقده ظهر من جزع نفسه و تلفها ما دل على المحبة المتقدمة و الحب مستلزم للشعور فهذا شعور من النفس بأمور وجب لها والإنسان قد يخفى ذلك عليه من نفسه لا سيما والشيطان يغطي على الإنسان أمورا و ذنوبه أيضا تبقى رينا على قلبه قال تعالى { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15}المطففين 14-15 و في الترمذي و غيره عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه و إن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }المطففين14 قال الترمذى حديث حسن صحيح و منه قوله تعالى {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ }البقرة88 و قال {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ }الأعراف201 فالمتقون إذا أصابهم هذا الطيف الذي يطيف بقلوبهم يتذكرون ما علموه قبل ذلك فيزول الطيف و يبصرون الحق الذي كان معلوما و لكن الطيف يمنعهم عن رؤيته قال تعالى {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ }الأعراف202 فإخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى غيهم { ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ }الأعراف202 لا تقصر الشياطين عن المدد و الإمداد ولا الإنس عن الغي فلا يبصرون مع ذلك الغي ما هو معلوم لهم مستقر في فطرهم لكنهم ينسونه و لهذا كانت الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها و تقويته وإمداده و نفي المغير للفطرة فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة و تكميلها لا بتغيير الفطرة و تحويلها والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة وهذا النسيان نسيان الإنسان لنفسه و لما فى نفسه حصل بنسيانه لربه و لما أنزله قال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }الحشر19 و قال تعالى فى حق المنافقين {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ }التوبة67 و قال { كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى }طه126 و قوله {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ }الحشر19 يقتضي أن نسيان الله كان سببا لنسيانهم أنفسهم و أنهم لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم و نسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم و غفلتهم و عدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكرا ينفعها و يصلحها و أنهم لو ذكروا الله لذكروا أنفسهم و هذا عكس ما يقال من عرف نفسه عرف ربه و بعض الناس يروي هذا عن النبى صلى الله عليه و سلم و ليس هذا من كلام النبى صلى الله عليه و سلم و لا هو فى شيء من كتب الحديث و لا يعرف له إسناد و لكن يروى فى بعض الكتب المتقدمة إن صح يا إنسان إعرف نفسك تعرف ربك و هذا الكلام سواء كان معناه صحيحا أو فاسدا لا يمكن الإحتجاج بلفظه فإنه لم يثبت عن قائل معصوم لكن إن فسر بمعنى صحيح عرف صحة ذلك المعنى سواء دل عليه هذا اللفظ أو لم يدل و إنما القول الثابت ما فى القرآن و هو قوله {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}الحشر19 فهو يدل على أن نسيان الرب موجب لنسيان النفس و حينئذ فمن ذكر الله و لم ينسه يكون ذاكرا لنفسه فإنه لو كان ناسيا لها سواء ذكر الله أو نسيه لم يكن نسيانها مسببا عن نسيان الرب فلما دلت الآية على أن نسيان الإنسان نفسه مسبب عن نسيانه لربه دل على أن الذاكر لربه لا يحصل له هذا النسيان لنفسه و الذكر يتضمن ذكر ما قد علمه فمن ذكر ما يعلمه من ربه ذكر ما يعلمه من نفسه و هو قد ولد على الفطرة التى تقتضي أنه يعرف ربه و يحبه و يوحده فإذا لم ينس ربه الذي عرفه بل ذكره على الوجه الذي يقتضي محبته و معرفته و توحيده ذكر نفسه فأبصر ما كان فيها قبل من معرفة الله و محبته و

توحيده و أهل البدع الجهمية و نحوهم لما أعرضوا عن ذكر الله الذكر المشروع الذي كان فى الفطرة و جاءت به الشرعة الذي يتضمن معرفته و محبته و توحيده نسوا الله من هذا الوجه فأنساهم أنفسهم من هذا الوجه فنسوا ما كان في أنفسهم من العلم الفطري و المحبة الفطرية و التوحيد الفطري و قد قال طائفة من المفسرين { نَسُوا اللَّهَ }الحشر19 أي تركوا أمر الله { فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ }الحشر19 أي حظوظ أنفسهم حيث لم يقدموا لها خيرا هذا لفظ طائفة منهم البغوي و لفظ آخرين منهم ابن الجوزي حين لم يعملوا بطاعته و كلاهما قال { نَسُوا اللَّهَ }الحشر19 أي تركوا أمر الله ومثل هذا التفسير يقع كثيرا في كلام من يأتي بمجمل من القول يبين معنى دلت عليه الآية و لا يفسرها بما يستحقه من التفسير فإن قولهم تركوا أمر الله هو تركهم للعمل بطاعته فصار الأول هو الثاني و الله سبحانه قال {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ }الحشر19 فهنا شيئان نسيانهم لله ثم نسيانهم لأنفسهم الذي عوقبوا به فإن قيل هذا الثاني هو الأول لكنه تفصيل مجمل كقوله و كم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون و هذا هو هذا قيل هو لم يقل نسوا الله فنسوا حظ أنفسهم حتى يقال هذا هو هذا بل قال { نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ }الحشر19 فثم إنساء منه لهم أنفسهم و لو كان هذا هو الأول لكان قد ذكر ما يعذرهم به لا ما يعاقبهم به فلو كان الثاني هو الأول لكان { نَسُوا اللَّهَ }الحشر19 أي تركوا العمل بطاعته فهو الذي أنساهم ذلك و معلوم فساد هذا الكلام لفظا و معنى و لو قيل { نَسُوا اللَّهَ }الحشر19 أي نسوا أمره { فَأَنسَاهُمْ }الحشر19 العمل بطاعته أي تذكرها لكان أقرب و يكون النسيان الأول على بابه فإن من نسى نفس أمر الله لم يطعه و لكن هم فسروا نسيان الله بترك أمره و أمره الذي هو كلامه ليس مقدورا لهم حتى يتركوه إنما يتركون العمل به فالأمر بمعنى المأمور به إلا أن يقال مرادهم بترك أمره هو ترك الإيمان به فلما تركوا الإيمان أعقبهم بترك العمل و هذا أيضا ضعيف فإن الإيمان الذي تركوه إن كان هو ترك التصديق فقط فكفى بهذا كفرا و ذنبا فلا تجعل العقوبة ترك العمل به بل هذا أشد و إن كان المراد بترك الإيمان ترك الإيمان تصديقا و عملا فهذا هو ترك الطاعة كما تقدم و هؤلاء أتوا من حيث أرادوا أن يفسروا نسيان العبد بما قيل في نسيان الرب و ذاك قد فسر بالترك ففسروا هذا بالترك و هذا ليس بجيد فإن النسيان المناقض للذكر جائز على العبد بلا ريب و الإنسان يعرض عما أمر به حتى ينساه فلا يذكره فلا يحتاج أن يجعل نسيانه تركا مع إستحضار و علم و أما الرب تعالى فلايجوز عليه ما يناقض صفات كماله سبحانه و تعالى و فى تفسير نسيانه الكفار بمجرد الترك نظر ثم هذا قيل فى قوله تعالى { كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى }طه126 أي تركت العمل بها و هنا قال { نَسُوا اللَّهَ }الحشر19 و لا يقال فى حق الله تركوه قوله { الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2}العلق1-2 بيان لتعريفه بما قد عرف من الخلق عموما و خلق الإنسان خصوصا و إن هذا مما تعرف به الفطرة كما تقدم ثم إذا عرف أنه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون إلا قادرا بل كل فعل يفعله فاعل لا يكون إلا بقوة و قدرة حتى أفعال الجمادات كهبوط الحجر و الماء و حركة النار هو بقوة فيها و كذلك حركة النبات هي بقوة فيه و كذلك فعل كل حي من الدواب و غيرها هو بقوة فيها و كذلك الإنسان و غيره و الخلق أعظم الأفعال فإنه لا يقدر عليه إلا الله فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة و ليس لها نظير من قدر المخلوقين و أيضا فالتعليم بالقلم يستلزم القدرة فكل من الخلق و التعليم يستلزم القدرة وكذلك كل منهما يستلزم العلم فإن المعلم لغيره يجب أن يكون هو عالما بما علمه إياه و إلا فمن الممتنع أن يعلم غيره ما لا يعلمه هو فمن علم كل شيء الإنسان و غيره ما لم يعلم أول أن يكون عالما بما علمه و الخلق أيضا يستلزم العلم كما قال تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك14 و ذلك من جهة أن الخلق يستلزم الإرادة فإن فعل الشيء على صفة مخصوصة و مقدار مخصوص

دون ما هو خلاف ذلك لا يكون إلا بإرادة تخصص هذا عن ذاك و الإرادة تستلزم العلم فلا يريد المريد إلا ما شعر به و تصور في نفسه و الإرادة بدون الشعور ممتنعة و أيضا فنفس الخلق خلق الإنسان هو فعل لهذا الإنسان الذي هو من عجائب المخلوقات و فيه من الإحكام و الإتقان ما قد بهر العقول و الفعل المحكم المتقن لا يكون إلا من عالم بما فعل و هذا معلوم بالضرورة فالخلق يدل على العلم من هذا الوجه و من هذا الوجه و قد قال في سورة الملك { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }الملك14 و هو بيان ما فى المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه كما قال يوسف عليه السلام {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }يوسف100 و هذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة و العلم بالطريق الموصل و كذلك الخبرة و بسط هذا يطول إذ المقصود هنا التنبيه على ما فى الآيات التى هي أول ما أنزل ثم إذا ثبت أنه قادر عالم فذلك يستلزم كونه حيا و كذلك الإرادة تستلزم الحياة و الحي إذا لم يكن سميعا بصيرا متكلما كان متصفا بضد ذلك من العمى و الصمم و الخرس و هذا ممتنع في حق الرب تعالى فيجب أن يتصف بكونه سميعا بصيرا متكلما و الإرادة إما أن تكون لغاية حكيمة أو لا فإن لم تكن لغاية حكيمة كانت سفها و هو منزه عن ذلك فيجب أن يكون حكيما و هو إما أن يقصد نفع الخلق و الإحسان إليهم أو يقصد مجرد ضررهم و تعذيبهم أو لا يقصد و احدا منهما بل يريد ما يريد سواء كان كذا أو كذا و الثاني شرير ظالم يتنزه الرب عنه و الثالث سفيه عابث فتعين أنه تعالى رحيم كما أنه حكيم كما قد بسط في مواضع فصل إثبات صفات الكمال له طرق أحدها ما نبهنا عليه من أن الفعل مستلزم للقدرة و لغيرها فمن النظار من يثبت أولا القدرة و منهم من يثبت أولا العلم و منهم من يثبت أولا الإرادة و هذه طرق كثير من أهل الكلام و هذه يستدل عليها بجنس الفعل و هي طريقة من لا يميز بين مفعول و مفعول كجهم بن صفوان و من إتبعه و هؤلاء لا يثبتون حكمة و لا رحمة إذ كان جنس الفعل لا يستلزم ذلك لكن هم أثبتوا بالفعل المحكم المتقن العلم و كذلك تثبت بالفعل النافع الرحمة و بالغايات المحمودة الحكمة و لكن هم متناقضون في الإستدلال بالإحكام و الإتقان على العلم إذ كان ذلك إنما يدل إذا كان فاعلا لغاية يقصدها و هم يقولون إنه يفعل لا لحكمة ثم يستدلون بالأحكام على العلم و هو تناقض كما تناقضوا فى المعجزات حيث جعلوها دالة على صدق النبى إما للعلم الضروري بذلك و إما لكونه لو لم تدل لزم العجز و هي إنما تدل إذا كان الفاعل يقصد إظهارها ليدل بها على صدق الأنبياء فإذا قالوا إنه لا يفعل شيئ لشيء تناقضوا وأما الطريق الأخرى فى إثبات الصفات و هي الإستدلال بالأثر على المؤثر و أن من فعل الكامل فهو أحق بالكمال والثالثة طريقة قياس الأولى و هي الترجيح و التفضيل و هو أن الكمال إذا ثبت للمحدث الممكن المخلوق فهو للواجب القديم الخالق أولى و القرآن يستدل بهذه و هذه و هذه فالإستدلال بالأثر على المؤثر أكمل كقوله تعالى { وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً }فصلت15 قال الله تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً }فصلت15 و هكذا كل ما فى المخلوقات من قوة و شدة تدل على أن الله أقوى و أشد و ما فيها من علم يدل على أن الله أعلم و ما فيها من علم و حياة يدل على أن الله أولى بالعلم و الحياة و هذه طريقة يقر بها عامة العقلاء حتى الفلاسفة يقولون كل كمال في المعلوم فهو من العلة و أما الإستدلال بطريق الأولى فكقوله {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ }النحل60 و مثل قوله {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }الروم28 و أمثال ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدث المخلوق الممكن فهو للقديم الواجب الخالق أولى من جهة أنه أحق بالكمال لأنه أفضل و ذاك من جهة أنه هو جعله كاملا و أعطاه تلك الصفات وإسمه العلى يفسر بهذين المعنيين يفسر بأنه أعلى من غيره

قدرا فهو أحق بصفات الكمال و يفسر بأنه العالي عليهم بالقهر و الغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم و هم المقدورون و هذا يتضمن كونه خالقا لهم و ربا لهم و كلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شيء فلا شيء فوقه كما قال النبى صلى الله عليه و سلم أنت الأول فليس قبلك شيء و أنت الآخر فليس بعدك شيء و أنت الظاهر فليس فوقك شيء و أنت الباطن فليس دونك شيء فلا يكون شيء قبله و لا بعده و لا فوقه و لا دونه كما أخبر النبى صلى الله عليه و سلم و أثنى به على ربه و إلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصا و كان ذلك أعلى منه وإن قيل إنه لا داخل العالم و لا خارجه كان ذلك تعطيلا له فهو منزه عن هذا و هذا هو العلي الأعلى مع أن لفظ العلي و العلو لم يستعمل فى القرآن عند الإطلاق إلا فى هذا و هو مستلزم لذينك لم يستعمل فى مجرد القدرة و لا فى مجرد الفضيلة و لفظ العلو يتضمن الإستعلاء و غير ذلك من الأفعال إذا عدى بحرف الإستعلاء دل على العلو كقوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف54 فهو يدل على علوه على العرش و السلف فسروا الإستواء بما يتضمن الإرتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري فى صحيحه عن أبي العالية فى قوله { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف54 قال إرتفع و كذلك رواه ابن أبي حاتم و غيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبى إياس عن أبى جعفر عن أبى الربيع عن أبى العالية { ثُمَّ اسْتَوَى }الأعراف54 قال إرتفع و قال البخاري و قال مجاهد في قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف54 علا على العرش و لكن يقال علا على كذا و علا عن كذا و هذا الثاني جاء فى القرآن فى مواضع لكن بلفظ تعالى كقوله {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً }الإسراء43 {عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }المؤمنون92 و بسط هذا له موضع آخر و المقصود هنا أن كل واحد من ذكر أنه خلق و أنه{ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4}العلق 3-4 يدل على هاتين الطريقتين من إثبات الصفات كما دلنا على الطريقة الأولى طريقة الإستدلال بالفعل فإن قوله الأكرم يقتضي أنه أفضل من غيره فى الكرم و الكرم إسم جامع لجميع المحاسن فيقتضي أنه أحق بجميع المحامد و المحامد هي صفات الكمال فيقتضي أنه أحق بالإحسان إلى الخلق و الرحمة و أحق بالحكمة و أحق بالقدرة و العلم و الحياة و غير ذلك و كذلك قوله خلق فإن الخالق قديم أزلي مستغن بنفسه واجب الوجود بنفسه قيوم و معلوم أنه أحق بصفات الكمال من المخلوق المحدث الممكن فهذا من جهة قياس الأولى و من جهة الأثر فإن الخالق لغيره الذي جعله حيا عالما قادرا سميعا بصيرا هو أولى بأن يكون حيا عالما قديرا سميعا بصيرا و { الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 3-5 فجعله عليما و العليم لا يكون إلا حيا و كرمه أيضا أن يكون قديرا سميعا بصيرا و الأكرم الذي جعل غيره عليما هو أولى أن يكون عليما و كذلك فى سائر صفات الكمال و المحامد فهذا استدلال بالمخلوق الخاص و الأول استدلال بجنس الخلق و لهذا دل هذا على ثبوت الصفات بالضرورة من غير تكلف و كذلك طريقة التفضيل و الأولى و أن يكون الرب أولى بالكمال من المخلوق و هذه الطرق لظهورها يسلكها غير المسلمين من أهل الملل و غيرهم كالنصارى فإنهم أثبتوا أن الله قائم بنفسه حتى يتكلم بهذه الطريق لكن سموه جوهرا و ضلوا في جعل الصفات ثلاثة و هي الأقانيم فقالوا و جدنا الأشياء تنقسم إلى جوهر و غير جوهر و الجوهر أعلى النوعين فقلنا هو جوهر ثم و جدنا الجوهر ينقسم إلى حي و غير حي و وجدنا الحي أكمل فقلنا هو حي و وجدنا الحي ينقسم إلى ناطق و غير ناطق فقلنا هو ناطق وكذلك يقال لهم في سائر صفات الكمال إن الأشياء تنقسم إلى قادر و غير قادر و القادر أكمل و قد بسط ما فى كلامهم من صواب و خطأ فى الكتاب الذي سميناه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح و المقصود هنا التنبيه على دلالة هذه الآية و هذه الآيات التى هي أول ما نزل على أصول الدين وقوله { عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }العلق5 يدل على قدرته

على تعليم الإنسان ما قد علمه مع كون جنس الإنسان فيه أنواع من النقص فإذا كان قادرا على ذلك التعليم فقدرته على تعليم الأنبياء ما علمهم أولى و أحرى و ذلك يدخل فى قوله { عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }العلق5 فإن الأنبياء من الناس فقد دلت هذه الآيات على جميع الأصول العقلية فإن إمكان النبوات هو آخر ما يعلم بالعقل و أما وجود الأنبياء و آياتهم فيعلم بالسمع المتواتر مع أن قوله { عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }العلق5 يدخل فيه إثبات تعليمه للأنبياء ما علمهم فهي تدل على الإمكان و الوقوع و قد ذكرنا فى مواضع أن تنزيهه يرجع إلى أصلين تنزيهه عن النقص المناقض لكماله فما دل على ثبوت الكمال له فهو يدل على تنزهه عن النقص المناقض لكماله و هذا مما يبين أن تنزهه عن النقص معلوم بالعقل بخلاف ما قال طائفة من المتكلمين إن ذلك لا يعلم إلا بالسمع و قد بينا في غير هذا الموضع أن الطرق العقلية التى سلكوها من الإستدلال بالأعراض على حدوث الأجسام لا تدل على إثباته و لا على إثبات شيء من صفات الكمال و لا على تنزهه عن شيء من النقائص فليس عند القوم ما يحيلون به عنه شيئا من النقائص و هم معترفون بأن الأفعال يجوز عليه منها كل شيء بخلاف الصفات لكن طريقهم فى الصفات فاسد متناقض كما قد بسط فى غير هذا الموضع الثاني أنه ليس كمثله شيء فى صفات الكمال و القرآن مملوء بإثبات هذين الأصلين بإثبات صفات الكمال على و جه التفصيل و تنزيهه عن التمثيل سبحانه و تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا فصل وقوله{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1}العلق 1 و قوله { عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق 4-5 يدل على إثبات أفعاله و أقواله فالخلق فعله و التعليم يتناول تعليم ما أنزله كما قال { الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4} الرحمن 1-4 و قوله { بِالْقَلَمِ} العلق4 يتناول تعليم كلامه الذي يكتب بالقلم و نزوله فى أول السورة التى أنزل فيها كلامه و علم نبيه كلامه الذي يكتب بالقلم دليل على شمول الآية لذلك فإن سبب اللفظ المطلق و العام لابد أن يكون مندرجا فيه و إذا دل على أنه خلق و تكلم و قد قال { خَلَقَ الْإِنسَانَ } الرحمن 3 و معلوم بالعقل و بالخطاب أن الإنسان المخلوق غير خلق الرب له و كذلك خلقه لغيره و الذين نازعوا فى ذلك إنما نازعوا لشبهة عرضت لهم كما قد ذكر بعد هذا و فى مواضع و إلا فهم لا يتنازعون أن خلق فعل له مصدر يقال خلق يخلق خلقا و الإنسان مفعول المصدر المخلوق ليس هو المصدر و لكن قد يطلق لفظ المصدر على المفعول كما يقال درهم ضرب الأمير و منه قوله {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ }لقمان11 و المراد هناك هذا مخلوق الله و ليس الكلام فى لفظ خلق المراد به المخلوق بل في لفظ الخلق المراد به الفعل الذي يسمى المصدر كما يقال خلق يخلق خلقا و كقوله {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ }لقمان28 و قوله { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ }الزمر6 و قوله {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ }الكهف51 و إذا كان الخلق فعله فهو بمشيئته إذ يمتنع أن يكون فعله بغير مشيئة و ما كان بالمشيئة إمتنع قدم عينه بل يجوز قدم نوعه و إذا كان الخلق للحادث لابد له من مؤثر تام أوجب حدوثه لزم أنه لم يزل متصفا بما يقوم به من الأمور الإختيارية لكن إن يثبت أنه كان قبل هذا المخلوق مخلوق آخر ثبت أنه متصف بخلق بعد خلق و كذلك الكلام هو متكلم بمشيئته و يمتنع أن لا يكون متكلما ثم يصير متكلما لوجهين أحدهما أنه سلب لكماله و الكلام صفة كمال و الثاني أنه يمتنع حدوث ذلك فإن من لا يكون متكلما يمتنع أن يجعل نفسه متكلما و من لا يكون عالما يمتنع أن يجعل نفسه عالما و من لا يكون حيا يمتنع أن يجعل نفسه حيا فهذه الصفات من لوازم ذاته و كذلك من لا يكون خالقا يمتنع أن يجعل نفسه خالقا فإنه إذا لم يكن قادرا على أن يخلق فجعله خالقة أعظم فيكون هذا ممتنعا بطريق الأولى فإن جعل نفسه خالقة يستلزم و جود المخلوق و لهذا لما كان قادرا على جعل الإنسان فاعلا كان هو الخالق

لما يفعله الإنسان فلو جعل نفسه خالقة كان هو الخالق لما جعلها تخلقه فإذا فرض أنه يمتنع أن يكون خالقا فى الأزل إمتنع أن يجعل نفسه خالقة بوجه من الوجوه و يلزم من القول بإمتناع الفعل عليه في الأزل إمتناعه دائما و قد دلت الآية على أنه خلق فعلم أنه ما زال قادرا على الخلق ما زال يمكنه أن يخلق و ما زال الخلق ممكنا مقدورا و هذا يبطل أصل الجهمية بل و إذا كان قادرا عليه فالموجب له ليس شيئا بائنا من خارج بل هو من نفسه فيمتنع أن يجعل نفسه مريدة بعد أن لم تكن فيلزم أنه ما زال مريدا قادرا وإذا حصلت القدرة و الإرادة وجب وجود المقدور وأهل الكلام الذين ينازعون فى هذا يقولون لم يزل قادرا على ما سيكون فيقال لهم القدرة لا تكون إلا مع إمكان المقدور إذا كانت القدرة دائمة فهل كان يمكنه أن يفعل المقدور دائما و هم يقولون لا بل الإمكان إمكان الفعل حادث و هذا يناقض إثبات القدرة و إن قالوا بل الإمكان حاصل تبين أنه لم يزل الفعل ممكنا فثبت إمكان و جود ما لا يتناهي من مقدور الرب و حينئذ فإذا كان لم يزل قادرا و الفعل ممكنا و هذا الممكن قد وجد فما لا يزال فالموجب لوجود جنس المقدور كالإرادة مثلا إما أن يكون وجودها فى الأزل ممتنعا فيلزم إمتناع الفعل و قد بينا أنه ممكن و أيضا إذا كان وجودها ممتنعا لم يزل ممتنعا لأنه لا شيء هناك يجعلها ممكنة فضلا عن أن تكون موجودة و معلوم أن وجودها بعد أن لم تكن لابد له من موجب و إذا كان وجودها فى الأزل ممكنا فوجود هذا الممكن لا يتوقف على غير ذاته و ذاته كافية فى حصوله فيلزم أنه لم يزل مريدا و هكذا فى جميع صفات الكمال متى ثبت إمكانها فى الأزل لزم وجودها فى الأزل فإنها لو لم توجد لكانت ممتنعة إذ ليس فى الأزل شيء سوى نفسه يوجب و جودها فإذا كانت ممكنة و المقتضي التام لها نفسه لزم وجوبها فى الأزل و هذا مما يدل على أنه لم يزل حيا عليما قديرا مريدا متكلما فاعلا إذ لا مقتضى لهذه الأشياء إلا ذاته و ذاته و حدها كافية في ذلك فيلزم قدم النوع و أنه لم يزل متكلما إذا شاء لكن أفراد النوع تحصل شيئا بعد شيء بحسب الإمكان و الحكمة و لهذا قد بين فى مواضع أنه ليس فى نفس الأمر ممكن يستوي طرفا وجوده و عدمه بل إما أن يحصل المقتضى لوجوده فيجب أو لا يحصل فيمتنع فما إتصف به الرب فإتصافه به واجب و ما لم يتصف به فإتصافه به ممتنع و ما شاء كان ووجب وجوده و ما لم يشأ لم يكن و إمتنع وجوده فالممكن مع مرجحه التام واجب و بدونه ممتنع ففى قوله تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2}العلق 1-2 و فى قوله{ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} العلق 3-4 دلالة على ثبوت صفات الكمال له و أنه لم يزل متصفا بها و أقوال السلف فى ذلك كثيرة و بهذا فسروا قوله { وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }النساء158 و نحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس و رواه ابن أبى حاتم من عدة طرق لما قيل له قوله {وَكَانَ اللّهُ }النساء158 كأنه كان شيء ثم مضى فقال إبن عباس هو سمى نفسه بذلك و لم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبى حاتم من طريق أبى معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس كذلك كان و لم يزل و من رواية عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال سمعت الله يقول {وَكَانَ اللّهُ }النساء158 كأنه شيء كان فقال ابن عباس أما قوله {كَانَ } فإنه لم يزل و لا يزال و هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شيء عليم و من رواية عبدالرحمن بن مغرا عن مجمع بن يحيى عن عمه عن ابن عباس قال قال يهودي إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما فكيف هو اليوم فقال ابن عباس إنه كان فى نفسه عزيزا حكيما و هذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفا بخبر كان و لا يزال كذلك و أن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفا فى نفسه إذا كان من لوازم نفسه و لهذا لا يزال لأنه من نفسه و قال أحمد بن حنبل لم يزل الله عالما متكلما غفورا و قال أيضا لم يزل الله متكلما إذا شاء فصل وكما أنه أول آية نزلت من القرآن تدل على

ذلك فأعظم آية فى القرآن تدل على ذلك لكن مبسوطا دلالة أتم من هذا و هي آية الكرسي كما ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لأبي بن كعب يا أبا المنذر أتدري أي آية فى كتاب الله معك أعظم فقال {اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }البقرة255 فقال ليهنك العلم أبا المنذر و هنا إفتتحها بقوله {اللَّهُ }البقرة255 و هو أعظم من قوله و ربك و لهذا إفتتح به أعظم سورة فى القرآن فقال {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2 [1]

{وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }

و الحكيم إما أن يكون حكيما بنفسه و إما أن تكون حكمته من غيره و من جعل غيره حكيما فهو أولى أن يكون حكيما فيلزم وجود الحكيم بنفسه على التقديرين و كذلك إذا قيل الرحيم إما أن تكون رحمته من نفسه و إما أن يكون غيره جعله رحيما و من جعل غيره رحيما ف هو أولى أن يكون رحيما و تكون رحمته من لوازم نفسه فثبت و جود الرحيم بنفسه الذي رحمته من لوازم نفسه على التقديرين وكذلك إذا قيل الكريم المحسن إما أن يكون كرمه و إحسانه من نفسه و إما أن يكون من غيره و من جعل غيره كريما محسنا فهو أولى أن يكون كريما محسنا و ذلك من لوازم نفسه و فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه رأى إمرأة من السبى إذا رأت طفلا أرضعته رحمة له فقال أترون هذه طارحة و لدها فى النار قالوا لا يا رسول الله فقال لله أرحم بعباده من هذه بولدها فبين أن الله أرحم بعباده من أرحم الوالدات بولدها فإنه من جعلها رحيمة أرحم منها و هذا مما يدل عليه قوله {وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }العلق3 و قولنا الله أكبر فإنه سبحانه أرحم الراحمين و خير الغافرين و خير الفاتحين و خير الناصرين و أحسن الخالقين و هو نعم الوكيل و نعم المولى و نعم النصير و هذا يقتضي حمدا مطلقا على ذلك و أنه كافى من توكل عليه و أنه يتولى عبده توليا حسنا و ينصره نصرا عزيزا و ذلك يقتضي أنه أفضل و أكمل من كل ما سواه كما يدل على ذلك قولنا الله أكبر [2]

لكل شيء أربع وجودات

أن الأشياء لها وجود فى أنفسها وهو وجودها العينى ولها ثبوتها فى العلم ثم فى اللفظ المطابق للعلم ثم فى الخط وهذا الذى يقال وجود فى الأعيان ووجود فى الأذهان ووجود فى اللسان ووجود فى البنان وجود عيني ووجود علمى ولفظى ورسمى ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 251-270

[22] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 448

لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق 1-5 فذكر الخلق عموما وخصوصا ثم ذكر التعليم عموما وخصوصا فالخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق العلم والعلم هو المطابق للمعلوم[1]

إذا كتب الكلام فى المصحف سموا ذلك حروفا فيراد بالحرف الشكل المخصوص ولكل أمة شكل مخصوص هى خطوطهم التى يكتبون بها كلامهم ويراد به المادة ويراد به مجموعهما وهذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها فسميت باسمائها إذ كان الانسان يكتب اللفظ بقلمه ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1}خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق1-5 فبين سبحانه فى أول ما أنزله انه سبحانه هو الخالق الهادى{ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3} الاعلى2-3 كما قال موسى {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }طه50 فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الانسان فقال { خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} العلق2 ثم ذكر انه علم فان الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات والعلم له ثلاث مراتب علم بالجنان وعبارة باللسان وخط بالبنان ولهذا قيل ان لكل شىء أربع وجودات وجود عينى وعلمى ولفظى ورسمى وجود فى الأعيان ووجود فى الأذهان واللسان والبنان لكن الوجود العينى هو وجود الموجودات فى أنفسها والله خالق كل شىء وأما الذهنى الجنانى فهو العلم بها الذى فى القلوب والعبارة عن ذلك هو اللسانى وكتابة ذلك هو الرسمى البنانى وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة واللفظ وذلك يستلزم تعليم العلم فقال { عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4}العلق4 لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث وأطلق التعليم ثم خص فقال { عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق5 وقد تنازع الناس فى وجود كل شىء هل هو عين ماهيته أم لا وقد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع وبين أن الصواب من ذلك انه قد يراد بالوجود ما هو ثابت فى الأعيان وبالماهية ما يتصور فى الأذهان فعلى هذا فوجود الموجودات الثابت فى الأعيان ليس هو ماهيتها المتصورة فى الأذهان لكن الله خلق الموجود الثابت فى الأعيان وعلم الماهيات المتصورة فى الأذهان كما أنزل بيان ذلك فى أول سورة أنزلها من القرآن وقد يراد بالوجود والماهية كلاهما ما هو متحقق فى الأعيان وما هو متحقق فى الأذهان فاذا أريد بهذا وهذا ما هو متحقق فى الأعيان أو ما هو متصور فى الأذهان فليس هما فى الأعيان اثنان بل هذا هو هذا وكذلك الذهن إذا تصور شيئا فتلك الصورة هى المثال الذى تصورها وذلك هو وجودها الذهنى الذى تتصوره الأذهان[2]

الله سبحانه هو معطى الوجودين

أن كل شىء فله أربع مراتب فى الوجود وجود فى الأعيان ووجود فى الأذهان ووجود فى اللسان ووجود فى البنان وجود عيني وعلمى ولفظى ورسمى ولهذا كان أول ما أنزل الله من القرآن{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} العلق1 وذكر فيها أنه سبحانه معطى الوجودين فقال اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} العلق1 -2 فهذا الوجود العينى ثم قال { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق3-5 فذكر أنه أعطى الوجود العلمي الذهنى وذكر التعليم بالقلم لأنه مستلزم لتعليم اللفظ والعبارة وتعليم اللفظ والعبارة مستلزم

---

[1] دقائق التفسير ج: 2 ص: 195 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 289

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 111-113

لتعليم المعنى فدل بذكره آخر المراتب على أولها لأنه لو ذكر أولها أو أطلق التعليم لم يدل ذلك على العموم والاستغراق[1]

فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأمم

ومما يبين به فضل أمته على جميع الأمم وذلك مستلزم لكونه رسولا صادقا كما تقدم وهو آية وبرهان على نبوته فإن كل ملزوم فإنه دليل على لازمه إن الأمم نوعان نوع لهم كتاب منزل من عند الله كاليهود والنصارى ونوع لا كتاب لهم كالهند واليونان والترك وكالعرب قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وما من أمة إلا ولا بد لها من علم وعمل بحسبهم ويقوم به ما يقوم من مصالح دنياهم وهذا من الهداية العامة التي جعلها الله لكل إنسان بل لكل حي كما يهدي الحيوان لجلب ما ينفعه بالأكل والشرب ودفع ما يضره باللباس والكن وقد خلق الله فيه حبا لهذا وبغضا لهذا قال تعالى وقال في أول ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم} اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق 1-5[2]

الوجود العينى والعلمى

فإن الذى عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء ان الماهيات مجعولة وأن ماهية كل شىء عين وجوده وأنه ليس وجود الشىء قدرا زائدا على ماهيته بل ليس فى الخارج الا الشىء الذى هو الشىء وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته وليس وجوده وثبوته فى الخارج زائدا على ذلك وأولئك(بعض الملحدين والفلاسفة) يقولون الوجود قدر زائد على الماهية ويقولون الماهيات غير مجعولة ويقولون وجود كل شىء زائد على ماهيته ومن المتفلسفة من يفرق بين الوجود والواجب والممكن فيقول الوجود الواجب عين الماهية وأما الوجود الممكن فهو زائد على الماهية وشبهة هؤلاء ما تقدم من أن الإنسان قد يعلم ماهية الشئ ولا يعلم وجوده وأن الوجود مشترك بين الموجودات وماهية كل شىء مختصة به ومن تدبر تبين له حقيقة الامر فانا قد بينا الفرق بين الوجود العلمى والعينى وهذا الفرق ثابت فى الوجود والعين والثبوت والماهية وغير ذلك فثبوت هذه الأمور فى العلم والكتاب والكلام ليس هو ثبوتها فى الخارج عن ذلك وهو ثبوت حقيقتها وماهيتها التى هى هى فالإنسان إذا تصور ماهية فقد علم وجودها الذهنى ولا يلزم من ذلك الوجود الحقيقى الخارجى فقول القائل قد تصورت حقيقة الشىء وعينه ونفسه وماهيته وما علمت وجوده أو حصل وجوده العلمى وما حصل وجوده العينى الحقيقى ولم يعلم ماهيته الحقيقية ولا عينه الحقيقية ولا نفسه الحقيقية الخارجية فلا فرق بين لفظ وجوده ولفظ ماهيته الا أن أحد اللفظين قد يعبر به عن الذهنى والآخر عن الخارجى فجاء الفرق من جهة المحل لا من جهة الماهية والوجود وأما قولهم إن الوجود مشترك والحقيقة لا اشتراك فيها فالقول فيه كذلك فان الوجود المعين الموجود فى الخارج لا اشتراك فيه كما أن الحقيقة المعينة الموجودة فى الخارج لا اشتراك فيها وإنما العلم يدرك الموجود المشترك كما يدرك الماهية

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 385

[2] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 6

المشتركة فالمشترك ثبوته فى الذهن لا فى الخارج وما فى الخارج ليس فيه اشتراك ألبته والذهن إن أدرك الماهية المعينة الموجودة فى الخارج لم يكن فيها اشتراك وإنما الاشتراك فيما يدركه من الامور المطلقة العامة وليس فى الخارج شىء مطلق عام بوصف الإطلاق والعموم وإنما فيه المطلق لا بشرط الإطلاق وذلك لا يوجد فى الخارج إلا معينا فينبغى للعاقل أن يفرق بين ثبوت الشئ ووجوده فى نفسه وبين ثبوته ووجوده فى العلم فإن ذاك هو الوجود العينى الخارجى الحقيقى وأما هذا فيقال له الوجود الذهنى والعلمى وما من شىء إلا له هذان الثبوتان فالعلم يعبر عنه باللفظ ويكتب اللفظ بالخط فيصير لكل شئ أربع مراتب وجود فى الأعيان ووجود فى الاذهان ووجود فى اللسان ووجود فى البنان وجود عينى وعلمى ولفظى ورسمى ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} العلق1 ذكر فيها النوعين فقال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} العلق1-2 فذكر جميع المخلوقات بوجودها العينى عموما ثم خصوصا فخص الإنسان بالخلق بعد ما عم غيره ثم قال { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق3-5 فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم وذكر القلم لأن التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ فإن الخط يطابقه وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم لأن العبارة تطابق المعنى فصار تعليمه بالقلم مستلزما للمراتب الثلاث اللفظى والعلمى والرسمى بخلاف ما لو اطلق التعليم أو ذكر تعليم العلم فقط لم يكن ذلك مستوعبا للمراتب فذكر فى هذه السورة الوجود العينى والعلمى وأن الله سبحانه هو معطيهما فهو خالق الخلق وخالق الإنسان وهو المعلم بالقلم ومعلم الإنسان فأما اثبات وجود الشىء فى الخارج قبل وجوده فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع وهو مخالف للكتاب والسنة والاجماع[1]

جاءت الكتب الإلهية بالمعقولات الصحيحة الفطرية

جاءت الكتب الإلهية بخطاب الناس بالمعقولات الصحيحة الفطرية فإن الرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة وتحويلها والنفس إنما تنال كمالها بسعادتها ونجاتها بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة ولهذا حيث ذكر الله في كتابه شيئا من هذه الأسماء التي تدل على الفعل لم يعقل العقلاء من ذلك إلا أنه محدث كقوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم سورة العلق 1 3 وقوله {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ }الذاريات47 إلى أمثال ذلك من الخطاب الذي قد علم بالإضطرار معناه وأن بناءها أمر حادث كان بعد أن لم يكن[2]

ذكر الله هو أصل الإيمان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 156-158

[2] الصفدية ج: 2 ص: 159

وذكر الله يعطي الإيمان وهو أصل الإيمان والله سبحانه هو رب كل شيء ومليكه وهو معلم كل علم وواهبه فكما أن نفسه أصل لكل شيء موجود فذكره والعلم به أصل لكل علم وذكره في القلب والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان كما قال جندب بن عبدالله البجلي وغيره من الصحابة تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} العلق1 فأمره أن يقرأ باسم الله فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق وقال (بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق1-5 فذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عموما وخصوصا وهو الإنسان وأنه المعلم للعلم عموما وخصوصا للإنسان وذكر التعليم بالقلم الذي هو آخر المراتب ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذي في القلب وحقيقة الأمر أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى طالب سائل فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويدله كما قال يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ومما يوضح ذلك أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال والتفكر والتدبر لا يحصل له ذلك إن لم ينظر في دليل يفيده العلم بالمدلول عليه ومتى كان العلم مستفادا بالنظر فلا بد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت في قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر فيكون ذلك المعلوم أصلا وسببا للتفكر الذي يطلب به معلوما آخر ولهذا كان الذكر متعلقا بالله لأنه سبحانه هو الحق المعلوم وكان التفكر في مخلوقاته كما قال الله تعالى {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }آل عمران191 وقد جاء الأثر تفكروا في المخلوق ولا تتفكروا في الخالق لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات

وأما الخالق جل جلاله سبحانه وتعالى فليس له شبيه ولا نظير فالتفكر الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه وإنما هو معلوم بالفطرة فيذكره العبد وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة لا تنال بمجرد التفكير والتقدير أعني من العلم به نفسه فإنه الذي لا تفكير فيه فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك فيدخل فيها التفكير والتقدير كما جاء به الكتاب والسنة ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك وكثير من أرباب النظر والكلام يأمرون بالتفكر والنظر ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق والنظر صحيح إذا كان في حق ودليل كما تقدم فكل من الطريقين فيها حق لكن يحتاج إلى الحق الذي في الأخرى ويجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل وذلك كله باتباع ما جاء به المرسلون وقد بسطنا الكلام في هذا غير هذا الموضع وبينا طرق أهل العبادة والرياضة والذكر وطريق أهل والنظر والاستدلال وما في كل منهما من مقبول ومردود وبينا ما جاءت به الرسالة من الطريق الكاملة الجامعة لكل حق وليس هذا موضع بسط ذلك[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 39

الملحدون لم يفرقوا بين الوجود العلمى والوجود العينى

وإنما غلط هؤلاء[1] من حيث لم يفرقوا بين علم الله بالأشياء قبل كونها وأنها مثبتة عنده فى أم الكتاب فى اللوح المحفوظ وبين ثبوتها فى الخارج عن علم الله تعالى فإن مذهب المسلمين أهل السنة والجماعة ان الله سبحانه وتعالى كتب فى اللوح المحفوظ مقادير الخلائق قبل ان يخلقها فيفرقون بين الوجود العلمى وبين الوجود العينى الخارجى ولهذا كان أول ما نزل على رسول الله سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} العلق1-4 فذكر المراتب الأربع وهى الوجود العينى الذى خلقه والوجود الرسمى المطابق للفظى الدال على العلمى وبين ان الله تعالى علمه ولهذا ذكر التعليم بالقلم فإنه مستلزم للمراتب الثلاثة[2]

الله سبحانه خالق الانسان ومعلمه

أن الله خالق كل شىء والمعدوم ليس بشىء فى الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به فيكون سببا فى العلم والذكر والكتاب لا فى الخارج كما قال {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 والله سبحانه خالق الانسان ومعلمه فهو الذى { خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} العلق 2 وهو الأكرم {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق4-5[3]

والله سبحانه الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى الذي اخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة يهدي من يشاء من عباده بما تيسر له من الأدلة التي تبين له الحق من الباطل والصدق من الكذب كما في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم[4]

ان الله علم الانسان البيان كما قال تعالى{ الرَّحْمَنُ{1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2} خَلَقَ الْإِنسَانَ{3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4}الرحمن 1-4 وقال تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا }البقرة31 وقال {عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }العلق5 والبيان بيان القلب واللسان كما أن العمى والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ }البقرة18 وقال { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }البقرة171 وقال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال وفي الاثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب وكان مسعود يقول إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه[5]

---

[1] ب يقصد بهؤلاء الملحدين

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 470

[3] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 204

[4] منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 420

[5] مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 65

{ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى }

ومن ذلك أن يمحص الله الذين آمنوا فيخلصهم من الذنوب فإنهم إذا انتصروا دائما حصل للنفوس من الطغيان وضعف الإيمان ما يوجب لها العقوبة والهوان وقال تعالى { كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى{6} أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى{7} العلق 6-7[1]

سعادة العبد فى كمال افتقاره الى ربه

أن سعادة العبد فى كمال افتقاره الى ربه واحتياجه اليه أى فى أن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع والا فالخلق كلهم محتاجون لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى كما قال تعالى { كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى{6} أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى{7} العلق 6-7[2]

{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى }

قال تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }الزمر42 وهذا بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ثم منها ما يمسك فلا يرسل الى بدنه وهو الذى قضى عليه الموت ومنها ما يرسل الى أجل مسمى وهذا إنما يكون فى شيء يقوم بنفسة لا فى عرض قائم بغيره فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت والأحاديث الصحيحة توافق هذا كقول النبى باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت نفسى فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين وقال لما ناموا عن صلاة الصبح أن الله قبض أرواحنا حيث شاء بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ثم منها ما يمسك فلا يرسل الى بدنه وهو الذى قضى عليه الموت ومنها ما يرسل الى أجل مسمى وهذا إنما يكون فى شيء يقوم بنفسة لا فى عرض قائم بغيره فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت والأحاديث الصحيحة توافق هذا كقول النبى باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت نفسى فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين وقال لما ناموا عن صلاة الصبح أن الله قبض أرواحنا حيث شاء وقال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {60} وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ{61} ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ{62}الأنعام60 -62 فهذا توف لها بالنوم إلى أجل الموت الذى ترجع فيه إلى الله وأخبار أن الملائكة تتوفاها بالموت ثم يردون الى الله والبدن وما يقوم به من الأعراض لايرد إنما يرد الروح وهو مثل قوله فى يونس {ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ }الأنعام62 وقال تعالى{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى }العلق8 وقال تعالى }يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30}الفجر 27-30 وقال تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ }السجدة11 وتوفى الملك إنما يكون لما هو موجود قائم بنفسه والا فالعرض القائم بغيره لايتوفى فالحياة القائمة بالبدن لاتتوفى بل نزول وتعدم كما تعدم حركته وإدراكه وقال تعالى فى

---

[1] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 130

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 50

المؤمنين {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ {99} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{100}المؤمنون99-100 فقوله { ارْجِعُونِ {99} المؤمنون99 طلب لرجع النفس الى البدن كما قال فى الواقعة { فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87} الواقعة86-87 وهو يبين أن النفس موجودة تفارق البدن بالموت قال تعالى { إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{100}المؤمنون 100 آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1]

العمومات الدالة على فضل الصلاة

من العمومات الدالة على فضل الصلاة والصيام كقوله تعالى {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}العلق 9-10 وقوله صلى الله عليه وسلم الصلاة نور وبرهان ونحو ذلك[2]

كفاية الله له أعداءه آية لنبوته

في كفاية الله له أعداءه وعصمته له من الناس وهذا فيه آية لنبوته من وجوه منها أن ذلك تصديق لقوله تعالى{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{95} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{96} الحجر 94-96 فهذا إخبار الله بأنه يكفيه المشركين المستهزئين وأخبر أنه يكفيه أهل الكتاب بقوله { قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{136} فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{137} البقرة 136-137 فأخبره الله أنه يكفيه هؤلاء الشاقين له من أهل الكتاب وأخبره أنه يعصمه من جميع الناس بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }المائدة67 فهذا خبر عام بأن الله يعصمه من جميع الناس فكل من هذه الأخبار الثلاثة العامة قد وقع كما أخبر وفي هذا عدة آيات منها أنه كفاه أعداءه بأنواع عجيبة خارجة عن العادة المعروفة ومنها أنه نصره مع كثرة أعدائه وقوتهم وغلبتهم وأنه كان وحده جاهرا بمعاداتهم وسب آبائهم وشتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم والطعن في دينهم وهذا من الأمور الخارقة للعادة والمستهزئون كانوا من أعظم سادات قريش وعظماء العرب وكان أهل مكة أهل الحرم أعز الناس وأشرفهم يعظمهم جميع الأمم أما العرب فكانوا يدينون لهم وأما غيرهم من الامم فكانوا يعظمونهم به لا سيما من حين ما جرى لأهل الفيل ما جرى كما كانت الأمم تعظم بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الآيات ما ظهر

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص:286- 271

[2] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 290

وهؤلاء بنو إسرائيل ابن خليل الله وهؤلاء بنو إسحاق ابن خليل الله وكلاهما ممن وعد الله إبراهيم في التوراة فيهم بما وعده من إنعام الله عليه النعمة التي لم ينعم الله بها على غيرهم فكان أهل مكة معظمين لأنهم جيران البيت ولأنهم أشرف بني إسماعيل فإن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى هاشم من قريش واصطفى محمدا من بني هاشم وكان قد عاداه أشراف هؤلاء كما عادى المسيح أشراف بني إسرائيل وبدل هؤلاء وهؤلاء نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار وكفى الله رسوله المسيح من عاداه منهم ولم ينفعهم نسبهم ولا فضل مدينتهم وكذلك كفى الله محمدا من عاداه وانتقم منهم ولم ينفعهم أنسابهم ولا فضل مدينتهم فإن الله إنما يثبت بالإيمان والتقوى لا بالبلد والنسب وقال تعالى {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ }محمد13 وقد سمى أهل العلم بعض من كفاه الله إياه من المستهزئين وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة في الدنيا فذكروهم ليعرف هذا الأمر العظيم الذي أكرم الله نبيه به ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قيل نعم قال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه فقيل له مالك قال إن بيني وبينه لخندقا من نار وهو لا وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا وأنزل الله تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19} العلق 9-19[1]

الشارع استعمل الاسماء مقيدة لا مطلقة

وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ }بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}العلق9-10

---

[1] الجواب الصحيح ج: 6 ص:274- 276

وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}العلق9-10 فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى فإذا قيل لهم {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ } عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد[1]

قرن التكذيب بالتولى

الايمان قولا وعملا ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا فى قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج الى بيته فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق فى القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح ولهذا انما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار كقوله { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ{42} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ{43}القلم 42-43 وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما فى الحديث الطويل حديث التجلي أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط وثبت أيضا فى الصحيح أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء الا موضع السجود فان الله حرم على النار أن تأكله فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله وكذلك ثبت فى الصحيح أن النبى يعرف أمته يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فدل على أن من لم يكن غرا محجلا لم يعرفه النبى فلا يكون من أمته وقوله تعالى { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{45} كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ{46} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{47} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ{48} المرسلات 45-48 وقوله تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ{22} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ{23} الانشقاق 20-23 وكذلك قوله تعالى { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32} القيامة 31-32 وكذلك قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} المدثر 42-46 فوصفه بترك الصلاة كما وصفه بترك التصديق ووصفه بالتكذيب والتولي و المتولي هو العاصي الممتنع من الطاعة كما قال تعالى {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }الفتح16 وكذلك وصف أهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين وكذلك قرن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

التكذيب بالتولي فى قوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق 9-16 أيضا فى القرآن علق الاخوة فى الدين على نفس اقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما علق ذلك على التوبة من الكفر فاذا انتفي ذلك انتفت الاخوة و أيضا فقد ثبت عن النبى أنه قال العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر وفى المسند من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه الذمة و أيضا فإن شعار المسلمين الصلاة ولهذا يعبر عنهم بها فيقال اختلف أهل الصلاة وإختلف أهل القبلة والمصنفون لمقالات المسلمين يقولون مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين وفى الصحيح من صلى صلاتنا وإستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ما لنا وعليه ما علينا وأمثال هذه النصوص كثيرة فى الكتاب والسنة[1]

ذم المتولى عن الطاعة

قال تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق 9-16 قال تعالى { لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{15} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{16} الليل 15-16 أى كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر وانما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا وكذلك قال في فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَى} النازعات21 وقال عن جنس الكافر { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32} القيامة 31-32 فالتكذيب للخبر والتولي عن الأمر وانما الايمان تصديق الرسل فيما اخبروا وطاعتهم فيما أمروا ومنه قوله { إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً{15} فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{16} المزمل15-16 ولفظ التولى بمعنى التولى عن الطاعة مذكور فى مواضع من القرآن كقوله { سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً } الفتح16 وذمه فى غير موضع من القرآن من تولى دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وان الأمر المطلق يقتضى وجوب الطاعة وذم المتولى عن الطاعة كما علق الذم بمطلق المعصية فى مثل قوله {فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ {16} المزمل 16[2]

الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص:611- 619

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 60

غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182}الصافات180 -182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه وقوله {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى }العلق14[1]

ذكر رؤيته الأعمال يتضمن الوعيد

وكذلك فى العلم بالرؤية كقوله هنا { أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ{7}البلد7وقوله تعالى فى الذى ينهى عبدا اذا صلى {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى }العلق14 وقوله تعالى {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}التوبة105 وقوله {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ }الزخرف80 وقوله تعالى { وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ{52} وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ{53}القمر52-53 وأمثال ذلك فذكر رؤيته الأعمال وعلمه بها واحصائه لها يتضمن الوعيد بالجزاء عليها كما يقول القائل قد علمت ما فعلت وقد جاءتنى أخبارك كلها وأمثال ذلك فليس المراد الاخبار بقدرة مجردة وعلم مجرد لكن بقدرة وعلم يقترن بهما الجزاء اذ كان مع حصول العلم والقدرة يمكن الجزاء ويبقى موقوفا على مشيئة المجازى لا يحتاج معه الى شيء حينئذ فيجب طلب النجاة بالاستغفار والتوبة اليه وعمل الحسنات التى تمحو السيئات[2]

من تكلم فى الدين بلا علم كان كاذبا

وقال تعالى { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{221} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{222} الشعراء 221-222 فالأفاك هو الكذاب والأثيم الفاجر كما قال { لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق15-16 ومن تكلم فى الدين بلا علم كان كاذبا وإن كان لا يتعمد الكذب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130-131 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 12

[2] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 321

كما ثبت فى الصحيحين عن النبى لما قالت له سبيعة الأسلمية وقد توفى عنها زوجها سعد بن خولة فى حجة الوداع فكانت حاملا فوضعت بعد موت زوجها بليال قلائل فقال لها أبو السنابل بن بعكك ما أنت بناكحة حتى يمضى عليك آخر الأجلين فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذب أبو السنابل بل حللت فإنكحى وكذلك لما قال سلمة بن الأكوع أنهم يقولون أن عامرا قتل نفسه وحبط عمله فقال كذب من قالها أنه لجاهد مجاهد وكان قائل ذلك لم يعتمد الكذب فإنه كان رجلا صالحا وقد روى أنه كان أسيد بن الحضير لكنه لما تكلم بلا علم كذبه النبى وقد قال أبوبكر وإبن مسعود وغيرهما من الصحابة فيما يفتنون فيه بإجتهادهم إن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فهو منى ومن الشيطان والله ورسوله بريآن منه فإذا كان خطأ المجتهد المغفور له هو من الشيطان فكيف بمن تكلم بلا إجتهاد يبيح له الكلام فى الدين فهذا خطؤه ايضا من الشيطان مع أنه يعاقب عليه إذا لم يتب والمجتهد خطؤه من الشيطان وهو مغفور له كما أن الإحتلام والنسيان وغير ذلك من الشيطان وهو مغفور بخلاف من تكلم بلا إجتهاد يبيح له ذلك فهذا كاذب آثم فى ذلك وإن كانت له حسنات فى غير ذلك فإن الشيطان ينزل على كل إنسان ويوحى إليه بحسب موافقته له ويطرد بحسب إخلاصه لله وطاعته له قال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } الحجر42 وعباده هم الذين عبدوه بما أمرت به رسله من اداء الواجبات والمستحبات وأما من عبده بغير ذلك فإنه من عباد الشيطان لا من عباد الرحمن قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{61} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{62} يس60-62[1]

الكذب يهدى الى الفجور

وبالصدق فى كل الأخبار والعدل في الانشاء من الأقوال والأعمال تصلح جميع الاحوال وهما قرينان كما قال تعالى{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } الأنعام115 وقال النبى صلى الله عليه سلم لما ذكر الظلمة من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولا يرد على الحوض ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ولهذا قال سبحانه وتعالى { هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{221} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{222} الشعراء221-222 وقال { لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق15-16[2]

اسم الخاطىء فلم يجىء فى القرآن الا للاثم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 449

[2] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 67 و الجواب الصحيح ج: 5 ص: 356

قال تعالى { لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق15-16 فلفظ الخطا وأخطا عند الاطلاق يتناول غير العامد واذا ذكر مع النسيان أو ذكر فى مقابلة العامد كان نصا فيه وقد يراد به مع القرينة العمد أو العمد والخطأ جميعا كما في قراءة ابن عامر وفى الحديث الالهي إن كان لفظه كما يرويه عامة المحدثين تخطئون بالضم واما اسم الخاطىء فلم يجيء فى القرآن الا للاثم بمعنى الخطيئة كقوله {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ }يوسف29 وقوله {قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ }يوسف91 وقوله {قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ }يوسف97 وقوله {لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ }الحاقة37[1]

صفة اهل النار

قال تعالى في صفة اهل النار{ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ{28} لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ{29} عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ{30} وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ{31}المدثر26-31 وقال تعالى { فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} العلق17-18 قال غير واحد من الصحابة والتابعين كأبي هريرة وعبد الله بن الحارث وعطاء هم الملائكة وقال قتادة الزبانية في كلام العرب الشرط وقال مقاتل هم خزنة جهنم قال اهل اللغة كابن قتية وغيره هو مأخوذ من الزبن وهو الدفع كأنهم يدفعون اهل النار اليها قال ابن دريد الزبن الدفع يقال ناقة زبون اذا زبنت حالبها دفعته برجلها وتزابن القوم تداراوا واشتقاق الزبانية من الزبن[2]

سجود القرآن نوعان

فى سجود القرآن وهو نوعان خبر عن أهل السجود ومدح لهم أو أمر به وذم على تركه وفى الانشقاق أمر صريح عند سماع القرآن { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21}الانشقاق20-21 و {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }العلق1 امر مطلق {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }العلق19 فالستة الأول الى الأولى من الحج خبر ومدح والتسع البواقى من الثانية من الحج أمر وذم لمن لم يسجد الا ص فنقول قد تنازع الناس فى وجوب سجود التلاوة قيل يجب وقيل لا يجب وقيل يجب اذا قرئت السجدة فى الصلاة وهو رواية عن أحمد والذى يتبين لى أنه واجب فان الآيات التى فيها مدح لا تدل بمجردها على الوجوب لكن آيات الأمر والذم والمطلق منها قد يقال إنه محمول على الصلاة كالثانية من الحج والفرقان واقرأ وهذا ضعيف فكيف وفيها مقرون بالتلاوة كقوله {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }السجدة15 فهذا نفى للايمان بالآيات عمن لا يخر ساجدا اذا ذكر بها واذا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 23

[2] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 498

كان سامعا لها فقد ذكر بها وكذلك سورة الانشقاق {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21} الانشقاق 20-21 وهذا ذم لمن لا يسجد اذا قرىء عليه القرآن كقوله {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ }المدثر49 {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ }الحديد8 { فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً }النساء78 وكذلك سورة النجم قوله{ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ{59} وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ{60} وَأَنتُمْ سَامِدُونَ{61} فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا{62}النجم 59-62 أمر بالغا عقب ذكر الحديث الذى هو القرآن يقتضى أن سماعه سبب الأمر بالسجود لكن السجود المأمور به عند سماع القرآن كما أنه ليس مختصا بسجود الصلاة فليس هو مختصا بسجود التلاوة فمن ظن هذا أو هذا فقد غلط بل هو متناول لهما جميعا كما بينه الرسول فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه فالسجود عند سماع آية السجدة هو سجود مجرد عند سماع آية السجدة سواء تليت مع سائر القرآن أو وحدها ليس هو سجودا عند تلاوة مطلق القرآن فهو سجود عند جنس القرآن وعند خصوص الأمر بالسجود فالأمر يتناوله وهو أيضا متناول لسجود القرآن أيضا وهو أبلغ[1]

وجوب الركوع والسجود فى الكتاب والسنة

قال تعالى {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }العلق19 فإن الله تعالى أوجب الركوع والسجود فى الكتاب والسنة وهو واجب بالإجماع لقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا }الحج77 وقوله تعالى {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }السجدة15[2]

السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله

فقد أخبر الله في غير موضع من القرآن عن سجود سحرة فرعون كما قال تعالى{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ{46} قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{47} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{48}الشعراء46-48 وذلك سجود مع إيمانهم وهو مما قبله الله منهم وأدخلهم به الجنة ولم يكونوا على طهارة وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بنسخه ولو قرئ القرآن على كفارة فسجدوا لله سجود إيمان بالله ورسوله محمد أو رأوا آية من آيات الإيمان فسجدوا لله مؤمنين بالله ورسوله لنفعهم ذلك ومما يبين هذا أن السجود يشرع منفردا عن الصلاة كسجود التلاوة وسجود الشكر وكالسجود عند الآيات فإن ابن عباس لما بلغه موت بعض أمهات المؤمنين سجد وقال ان رسول الله أمرنا إذا رأينا آية ان نسجد وقد تنازع الفقهاء في السجود المطلق لغير سبب هل هو عبادة أم لا ومن سوغه يقول هو خضوع لله

والسجود هو الخضوع قال تعالى { وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ }البقرة58 قال أهل اللغة السجود في اللغة هو الخضوع وقال غير واحد من المفسرين أمروا أن يدخلوا ركعا منحنين فان الدخول مع وضع الجبهة على الأرض لا يمكن وقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 139
[2] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 566

السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ} الحج18 وقال تعالى {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً } الرعد15 ومعلوم أن سجود كل شيء بحسبه ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض وقد قال النبي في حديث أبي ذر لما غربت الشمس إنها تذهب فتسجد تحت العرش رواه البخاري ومسلم فعلم ان السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله وأعز ما في الإنسان وجهه فوضعه على الأرض لله غاية خضوعه ببدنه وهو غاية ما يقدر عليه من ذلك ولهذا قال النبي أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد و قال تعالى {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } العلق19 فصار من جنس أذكار الصلاة التي تشرع خارج الصلاة كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل وقراءة القرآن وكل ذلك يستحب له الطهارة ويجوز للمحدث فعل ذلك بخلاف ما لا يفعل إلا في الصلاة كالركوع فإن هذا لا يكون إلا جزءا من الصلاة وأفضل أفعال الصلاة السجود وأفضل أقوالها القراءة وكلاهما مشروع في غير الصلاة فيسرت العبادة لله لكن الصلاة أفضل الأعمال فاشترط لها أفضل الأحوال واشترط للفرض ما لم يشترط للنفل من القيام والاستقبال مع القدرة[1]

الله سبحانه يقرب من خلقه كيف شاء

فإن قربه من عباده وتقريبه لهم عند سلف الأمة وأمتها وعامة المشايخ الأجلاء ليس مجرد الإنعام والكرامة بل يقرب من خلقه كيف شاء ويقرب إليه منهم من يشاء كما قد بينا ذلك في موضعه وقد ثبت أن النبي ص قال أقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل الآخر وثبت في الصحيح أنه قال أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وقال تعالى {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } العلق19 [2]

اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد

أن الله تعالى قال {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } العلق19 وقد ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى أنه قال اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وهذا نص فى أنه فى حال السجود أقرب الى الله منه فى غيره وهذا صريح فى فضيلة السجود على غيره والحديث رواه مسلم فى صحيحه عن ابى هريرة أن رسول الله قال أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا الدعاء[3]

والمراد القرب من الداعى فى سجوده كما قال وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم فأمر بالاجتهاد فى الدعاء فى السجود مع قرب العبد من ربه وهو ساجد وقد أمر المصلى أن يقول فى سجوده سبحان ربى الأعلى رواه اهل السنن وكذلك حديث ابن مسعود اذا سجد العبد فقال فى سجوده سبحان ربى الأعلى ثلاثا ثم سجوده وذلك أدناه رواه أبو داود وفى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 21 ص:283- 284 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 73

[2] الاستقامة ج: 1 ص: 139

[3] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 76

حديث حذيفة الذى رواه مسلم أنه صلى بالليل صلاة قرأ فيها بالبقرة والنساء وآل عمران ثم ركع ثم سجد نحو قراءته يقول فى ركوعه سبحان ربى العظيم وفى سجوده سبحان ربى الأعلى وذلك أن السجود غاية الخضوع والذل من العبد وغاية تسفيله وتواضعه بأشرف شيء فيه لله وهو وجهه بأن يضعه على التراب فناسب فى غاية سفوله ان يصف ربه بأنه الاعلى والاعلى أبلغ من العلى فان العبد ليس له من نفسه شيء هو باعتبار نفسه عدم محض وليس له من الكبرياء والعظمة نصيب وكذلك فى العلو فى الأرض {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ}القصص83 ليس للعبد فيه حق {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ}القصص83 فانه سبحانه ذم من يريد العلو فى الأرض كفرعون وابليس وأما المؤمن فيحصل له العلو بالايمان لا بارادته له كما قال تعالى {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران139 فلما كان السجود غاية سفول العبد وخضوعه سبح اسم ربه الأعلى فهو سبحانه الأعلى والعبد الأسفل كما أنه الرب والعبد العبد وهو الغنى والعبد الفقير وليس بين الرب والعبد الا محض العبودية فكلما كملها قرب العبد اليه لأنه سبحانه بر جواد محسن يعطى العبد ما يناسبه فكلما عظم فقره اليه كان أغنى وكلما عظم ذله له كان أعز فان النفس لما فيها من أهوائها المتنوعة وتسويل الشيطان لها تبعد عن الله حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة واللعنة هى البعد ومن أعظم ذنوبها ارادة العلو فى الأرض والسجود فيه غاية سفولها قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }غافر60 وفى الصحيح لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر[1]

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }العلق3 على وزن أفعل التفضيل مثل الأعلى والأكبر والأجمل[2]

2- وقد جاء فى الكتاب والسنة الفاظ من نحو لقاء الله كقوله {إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى }العلق8[3]

3- قال تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} العلق 9-10 ولفظ العبد فى القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها[4]

4- قال تعالى { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق 9 -16 عامة الأسماء يتنوع مسماها

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 236-238

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 114

[33] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 466

[4] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 44

بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا }الأعراف43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام87 وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ }التوبة33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا[1]

5- فإن النكرة تبدل من المعرفة كما فى قوله { لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق 15-16 فذكرت معرفة و موصوفة[2]

6- والناد اسم للحال والمحل ايضا ومنه قوله {فَلْيَدْعُ نَادِيَه }العلق17 وقوله { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ }العنكبوت29 فهنا هو المحل وفي تلك هو الحال وهم القوم الذين ينتدون ومنه دار الندوة واصله من مناداة بعضهم لبعض بخلاف النجاء فانهم الذين يتناجون قال الشعبى اذا كثرت الحلقة فهي اما نداء واما نجاء قال تعالى {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً }مريم52 فناداه وناجاه[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 581

[3] مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 468

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة القدر

97

رقية محمود الغرايبة

~§§ القدر(مكية)5 §§~

مقدمة سورة القدر

نزول القرآن ليلة القدر

خوطب فى المزمل و هو المتلفف للنوم لما أمر بالقيام إلى الصلاة فلما أمر فى هذه السورة بالقراءة ذكر فى التى تليها نزول القرآن ليلة القدر و ذكر فيها تنزل الملائكة و الروح[1]

[11] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 477

سورة القدر1-5

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ{1} وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ{2} لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ{3} تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ{4} سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ{5}

انزله إلى بيت العزة

و ما جاء عن إبن عباس وغيره من السلف فى تفسير قوله {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ }القدر1 انه انزله إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث[1]

نزول الملائكة بالوحى من أمره

قال تعالى {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}النحل2 فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحى من أمره الذى هو كلامه وكذلك قوله {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ }القدر4 يناسب قوله {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ {4} أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ{5}الدخان4-5 فهذا شبيه بقوله {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ }النحل102 [2]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ }القدر4 الروح إنما هو ملك[3]

2-قال تعالى {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ }القدر4 فإن الإذن نوعان إذن لمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى الإباحة والإجازة النوع الثاني مع كونه بمشيئته وقدرته [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 129

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 249

[3] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 227

[44] الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 132

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة البينة
98

رقية محمود الغرايبة

~§§ البينة(مدنية)8 §§~

سورة البينة1-3

بسم الله الرحمن الرحيم

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}

هذه السورة سورة جليلة القدر

فى قوله تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 فإن هذه السورة سورة جليلة القدر و قد و رد فيها فضائل و قد ثبت فى الصحيح أن الله أمر نبيه أن يقرأها على أبي بن كعب ففي الصحيحين عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لأبي إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن قال آلله سماني لك قال آلله سماك لي قال فجعل أبي يبكى و فى رواية أخرى إن الله أمرنى أن أقرأ عليك{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا }البينة1 قال سمانى لك قال نعم فبكى و فى رواية للبخاري و ذكرت عند رب العالمين قال نعم فذرفت عيناه قال قتادة أنبئت أنه قرأ عليه {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ }البينة1 و تخصيص هذه السورة بقراءتها على أبي يقتضي إختصاصها و إمتيازها بما إقتضى ذلك و قوله أن اقرأ عليك أي قراءة تبليغ و إسماع و تلقين ليس هي قراءة تلقين و تصحيح كما يقرأ المتعلم على المعلم فإن هذا قد ظنه بعضهم و جعلوا هذا من باب التواضع و جعل أبو حامد هذا مما يستدل به على تواضع المتعلم و ليس هذا بشيء فإن هذه القراءة كان يقرأها على جبريل يعرض عليه القرآن كل عام فإنه هو الذي نزل عليه القرآن و أما الناس فمنه تعلموه فكيف يصحح قراءته على أحد منهم أو يقرأ كما يقرأ المتعلم و لكن قراءته على أبي بن كعب كما كان يقرأ القرآن على الإنس و الجن فقد قرأ على الجن القرآن و كان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام و يقرأ عليهم القرآن و يقرأه على الناس فى الصلاة و غير الصلاة قال تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21}الانشقاق20-21 و قال تعالى { إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً }مريم58 و قال تعالى{لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ }آل عمران164 و ذكر مثل هذا فى غير موضع فهو يتلو على المؤمنين آيات الله و أبي بن كعب أمر بتخصيصه بالتلاوة عليه لفيضلة أبي و إختصاصه بعلم القرآن كما ثبت في الصحاح عن عمر أنه قال أبي أقرأنا و علي أقضانا و في الصحيح أنه قال لابن مسعود إقرأ علي القرآن قال أقرأ عليك و عليك أنزل قال إنى أحب أن أسمعه من غيري فقراءة إبن مسعود عليه فى هذا

الموضع لإسماعه إياه لا لأجل التصحيح و التلقين و فى معنى قوله تعالى لم يكن هؤلاء و هؤلاء منفكين ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين هل المراد لم يكونوا منفكين عن الكفر أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث فلم يكونوا منفكين عن محمد و التصديق بنبوته حتى بعث أو المراد أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول وممن ذكر هذا أبو الفرج بن الجوزي قال {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ }البينة1 يعنى اليهود و النصارى و المشركين و هم عبدة الأوثان { مُنفَكِّينَ }البينة1 أي منفصلين و زائلين يقال فككت الشيء فإنفك أي إنفصل و المعنى لم يكونوا زائلين عن كفرهم و شركهم حتى أتتهم البينة لفظه لفظ المستقبل معناه الماضي و البينة الرسول و هو محمد صلى الله عليه و سلم بين لهم ضلالهم و جهلهم و هذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم به و لفظ البغوي نحو هذا قال لم يكونوا منتهين عن كفرهم و شركهم و قال أهل اللغة { مُنفَكِّينَ } البينة1 منفصلين زائلين يقال فككت الشيء فإنفك أي إنفصل { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 لفظه مستقبل و معناه الماضي أي حتى أتتهم البينة الحجة الواضحة يعنى محمدا أتاهم بالقرآن فبين لهم ضلالتهم و جهالتهم و دعاهم إلى الإيمان فأنقذهم الله به من الجهل و الضلالة و لم يذكر غير هذا قال أبو الفرج و ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبيا حتى بعث فافترقوا وقال بعضهم لم يكونوا منفكين عن حجج الله حتى أقيمت عليهم البينة قال و الوجه هو الأول و ذكر الثلاثة أبو محمد بن عطية لكن الثالث وجهه وقواه ولم يحكه عن غيره فقال قوله { مُنفَكِّينَ }البينة1 أي منفصلين متفرقين تقول إنفك الشيء عن الشيء إذا إنفصل عنه قال و ما إنفك التى هى من أخوات كان لا مدخل لها فى هذه الآية فبين فى هذه أن تكون هذه الصفة منفكة قال و إختلف الناس عما ذا فقال مجاهد و غيره لم يكونوا منفكين عن الكفر و الضلال حتى جاءتهم البينة و أوقع المستقبل موقع الماضي في { تَأْتِيَهُمُ }البينة1 لأن بأس الشريعة و عظمها لم يجئ بعد وقال الفراء و غيره لم يكونوا منفكين عن معرفة نبوة محمد صلى الله عليه و سلم و التوكد لأمره حتى جاءتهم البينة فتفرقوا عند ذلك قال و ذهب بعض النحويين إلى أن هذا المنفى المتقدم مع منفكين يجعلهم تلك هي مع كان و يروى التقدير فى خبرها عارفين أمر محمد أو نحو هذا قال و فى معنى الآية قول ثالث بارع المعنى و ذلك أن يكون المراد لم يكونوا هؤلاء منفكين من أمر الله و قدرته و نظره لهم حتى يبعث إليهم رسولا منذرا تقوم عليهم به الحجة و تتم على من آمن النعمة فكأنه قال ما كانوا يتركوا سدى قال و لهذا المعنى نظائر فى كتاب الله و قد ذكر الثعلبي ثلاثة أقوال لكن الثالث حكاه عمن جعل مقصوده إهلاكهم بإقامة الحجة و جعل {مُنفَكِّينَ }البينة1 بمعنى هالكين فقال لم يكونوا منفكين منتهين عن كفرهم و شركهم و قال أهل اللغة زائلين تقول العرب ما إنفك فلان يفعل كذا أي ما زال و أصل الفك الفتح و منه فك الكتاب و فك الخلخال {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 الحجة الواضحة و هو محمد أتاهم بالقرآن فبين ضلالتهم و جهالتهم و دعاهم إلى الإيمان قال و قال ابن كيسان معناه لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة محمد في كتابهم حتى بعث فلما بعث تفرقوا فيه و قال قال العلماء فى أول السورة إلى قوله { فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة 3 حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب و المشركين { وَمَا تَفَرَّقَ } البينة4 حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتب بعد قيام الحجة عليهم قال و قال بعض أئمة اللغة قوله منفكين أي هالكين من قولهم إنفك صلا المرأة عند الولادة و هو أن ينفصل و لا يلتئم فتهلك و معنى الآية لم يكونوا هالكين مكذبين إلا بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسول و إنزال الكتاب و قد ذكر البغوي هذا و الأول قال و الأول أصح قلت القول الثانى الذي حكاه عن إبن كيسان هو قول الفراء و قد قدمه المهدوي على الأول فقال { مُنفَكِّينَ }البينة1 من إنفك الشيء من الشيء إذا فارقه و المعنى لم يكونوا متفرقين إلا إذا جاءهم

الرسول لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره و صفته و كفرهم بعد البينات قال و لا يحتاج { مُنفَكِّينَ } البينة1 على هذا التأويل إلى خبر و يدل على ذلك قوله{ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة 4 قال و قال مجاهد المعنى لم يكونوا منتهين عما هم عليه و عن مجاهد أيضا لم يكونوا ليؤمنوا حتى تأتيهم البينة قال و قال الفراء لم يكونوا تاركين ذكر ما عندهم من ذكر النبى حتى ظهر فلما ظهر تفرقوا و اختلفوا قلت هذا المعنى الذي قدمه لكن الفراء و ابن كيسان جعل الإنفكاك مفارقتهم و تركهم لذكره و خبره و البشارة به أي لم يكونوا مفارقين تاركين لما علموه من خبره حتى ظهر فانفكوا حينئذ و ذاك يقول لم يكونوا منفكين أي متفرقين إلا إذا جاء الرسول لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره وهو معنى ما حكاه أبو الفرج لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبيا حتى بعث فافترقوا فالإنفكاك إنفكاك بعضهم عن بعض أو إنفكاكهم عما كان عندهم من علمه وخبره وهذا القول ضعيف لم يرد بهذه الآية قطعا فإن الله لم يذكر أهل الكتاب بل ذكر الكفار من المشركين و أهل الكتاب و معلوم أن المشركين لم يكونوا يعرفونه و يذكرونه و يجدونه فى كتبهم كما كان ذلك عند أهل الكتاب و لا كانوا قبل مبعثه على دين واحد متفقين عليه فلما جاء تفرقوا فيمتنع أن يقال لم يكن المشركون تاركين لمعرفة محمد وذكره والإيمان به ولم يكونوا مختلفين فى ذلك ولا متفرقين فيه حتى بعث فهذا معنى باطل في المشركين و لا يستقيم هذا أيضا فى أهل الكتاب فإن الله إنما ذكر الكفار منهم فقال {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة1 و معلوم أن الذين كانوا يعرفون نبوته و يقرون به و يذكرونه قبل أن يبعث لم يكونوا كلهم كفارا بل كان الإيمان أغلب عليهم يبين هذا أنه إذا ذكر تفرق الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءتهم البينة فإنه يعمهم فيقول {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة 4 و أنه لا يقول كان الكفار من أهل الكتاب متفقين على الحق حتى جاءتهم البينة و أيضا فاستعمال لفظ الإنفكاك في هذا غير معروف لا يعرف فى اللغة له شاهد فتسمية الإفتراق و الإختلاف إنفكاكا غير معروف و أيضا فهو لم يذكر ل {مُنفَكِّينَ } البينة1 خبرا كما يقال ما انفكوا يذكرون محمدا و ما زالوا يؤمنون به و نحو ذلك و هذه التى هي من أخوات كان لا يقال فيها ما كنت منفكا بل يقال ما إنفككت أفعل كذا فهو يلي حرف ما و أيضا فليس فى اللفظ ما يدل على أن الإنفكاك عن أمر محمد خاصة و أيضا فهذا المعنى مذكور في قوله {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة 4 فلو أريد بهذه لكان تكريرا محضا والقول الأول أشهر عند المفسرين و منهم من يذكر غيره كالبغوي و غيره فإنه معروف عن مجاهد و الربيع بن أنس كما فى التفسير المعروف عن ابن أبى نجيح عن مجاهد { مُنفَكِّينَ } البينة1 قال منافقين لم يكونوا ليؤمنوا حتى تبين لهم الحق و قال الربيع بن أنس لم يزالوا مقيمين على الشك و الريبة حتى جاءتهم البينة والرسل و هذا القول يتضمن مدحهم و الثناء عليهم بعد مجيء البينة و لهذا إحتاج من قاله إلى أن يقول هذا فيمن آمن من الفريقين فى أنه بيان لنعمة الله عليهم و جعلوا قوله {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ }البينة 4 فيمن لم يؤمن منهم بمحمد صلى الله عليه و سلم و هذا أيضا ضعيف فإن أهل الكتاب تفرقوا و اختلفوا قبل إرسال محمد إليهم كما أخبر الله بذلك فى غير موضع فقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ {16} وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{17}الجاثية16-17 و قال { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ{18}الجاثية 18 و قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }البقرة213 ثم قال {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ

فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }البقرة213 فأخبر أن الله هدى المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فكان الإختلاف قبل و جود أمة محمد صلى الله عليه و سلم و قال تعالى {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }النحل124 و قال تعالى{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }يونس93 ثم قال تعالى {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ }يونس94 و قال تعالى { تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{63} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{64}النحل 63-64 فقد أخبر تعالى أنه أرسل إلى أمم من قبل محمد و أن الشيطان زين لهم أعمالهم و هو حين يبعث محمد وليهم وأنه أنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي اختلفوا فيه و قال تعالى{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{76} وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ{77} النمل 76-77 و قال لأمة محمد {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }آل عمران105 فهذا بين أنهم تفرقوا و اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات قبل محمد و قد نهى الله أمته أن يكونوا مثلهم و قد قال تعالى {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ }المائدة14 و قال عن اليهود { وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ }المائدة64 وقال {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ }الأعراف168 و قد جاءت الأحاديث فى السنن و المسند من و جوه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال تفرقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة و ستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة و إن كان بعض الناس كابن حزم يضعف هذه الأحاديث فأكثر أهل العلم قبلوها و صدقوها وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و إختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه و إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما إستطعتم و فى الصحيحين عنه أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي إختلفوا فيه فهدانا الله له الناس لنا فيه تبع غدا لليهود و بعد غد للنصارى و هذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب إختلفوا و تفرقوا قبل إرسال محمد صلى الله عليه و سلم بل اليهود إفترقوا قبل مجيء المسيح ثم لما جاء المسيح إختلفوا فيه ثم إختلف النصارى إختلافا آخر فكيف يقال أن قوله {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة4 هو فيمن لم يؤمن بمحمد منهم و أيضا فالذين كفروا بمحمد كفار و هم المذكورون في قوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 و هم تفرقوا و اختلفوا فيما جاءت به الأنبياء قبل محمد و كفر من كفر منهم قبل إرسال محمد و كان منهم من لم يكفر بل كان مؤمنا بالأنبياء كما قال تعالى {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }الأعراف159 {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ }الأعراف168 و قال تعالى { لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ{113} يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ{114}ال عمران113-114 و قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ }المائدة66 و فى صحيح مسلم و غيره عن عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم

عربهم و عجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب و أن ربى قال لي قم فى قريش فأنذرهم فقلت أي رب إذا يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة فقال إنى مبتليك و مبتل بك و منزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما و يقظانا فابعث جندا نبعث مثليهم و قاتل بمن أطاعك من عصاك و الحديث أطول من هذا و المقصود هنا الكلام على الآية فنقول القول الثالث و هو أصح الأقوال لفظا و معنى أما من جهة اللفظ و دلالته و بيانه فإن هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الإنسان يعنى إختياره و يقهر عليه إذا تخلص منه يقال إنفك منه كالأسير و الرقيق المقهور بالرق و الأسر يقال فككت الأسير فإنفك و فككت الرقبة قال تعالى { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12} فَكُّ رَقَبَةٍ{13}البلد12-13 و قال النبى صلى الله عليه و سلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عودوا المريض و أطعموا الجائع و فكوا العانى و فى الصحيح أيضا أن عليا لما سئل عما في الصحيفة فقال فيها العقل و فكاك الأسير و أن لا يقتل مسلم بكافر ففكه فصله عمن يقهره و يستولى عليه بغير إختياره و التفريق بينهما و يقال فلان ما يفك فلانا حتى يوقعه فى كذا و كذا و المتولي لا يفك هذا حتى يفعل كذا يقال لمن لزم غيره و استولى عليه إما بقدرة و قهر و إما بتحسين و تزيين و أسباب حتى يصير بها مطيعا له ويقال للمستولى عليه هو ما ينفك من هذا كما لا ينفك الأسير و الرقيق من المستولى عليه فقوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ}البينة1 أي لم يكونوا متروكين بإختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم كما أن المنفك لا حجر عليه و هو لم يقل مفكوكين بل قال منفكين و هذا أحسن فإنه نفى لفعلهم و لو قال مفكوكين كان التقدير لم يكونوا مسيبين مخلين فهو نفي لفعل غيرهم و المقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون و لا ينهون و لا ترسل إليهم رسل بل يفعلون ما شاؤا مما تهواه الأنفس و المعنى أن الله ما يخليهم و لا يتركهم فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولا و هذا كقوله {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }القيامة36 لا يؤمر و لا ينهى أي أيظن أن هذا يكون هذا ما لا يكون ألبتة بل لابد أن يؤمر و ينهى و قريب من ذلك قوله تعالى { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{3} وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ{4} أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ{5}الزخرف 3-5 و هذا إستفهام إنكار أي لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر و نعرض عن إرسال الرسل و من كره إرسالهم فإن الأول تكذيب بوجودهم و الثانى يتضمن بغضهم و كراهة ما جاؤا به قال تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ }محمد9و قال عن مؤمن آل فرعون {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ }غافر34 و أما من كذب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر و لكن من ظن أن الله لا يرسل إليه رسولا و أنه يترك سدى مهملا لا يؤمر و لا ينهى فهذا أيضا مما ذمه الله إذا كان لابد من إرسال الرسل و إنزال الكتب كما أنه أيضا لابد من الجزاء على الأعمال بالثواب و العقاب و قيام القيامة و لهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون فقال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ {27} أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ{28}ص27 -28 و قال تعالى {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }المؤمنون115 و قال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ {85} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{86}الحجر85 -86 و قال {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }الجاثية22 و قال عن أولي الألباب {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }آل عمران191 و نحوه فى القرآن مما يبين أن الأمر و النهي و الثواب و العقاب و المعاد مما

لابد منه و ينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك وأنه يمتنع أن لا يقع و هذا متفق عليه بين أهل الملل المصدقين للرسل من المسلمين وغيرهم من جهة تصديق الخبر فإن الله أخبر بذلك و خبره صدق فلابد من و قوع مخبره و هو واجب بحكم وعده وخبره فإنه إذا علم أن ذلك سيكون و أخبر أنه سيكون فلابد أن يكون فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما علمه و أخبر به و كتبه و قدره و أيضا فإنه قد شاء ذلك و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و لابد أن يقع كل ما شاءه لكن هل يقال إن المشيئة موجبة فيه نزاع و كذلك يقال إن ذلك و جب لإيجابه له على نفسه أو لإقتضاء حكمته ذلك فيه أيضا نزاع و ما أقسم ليفعلنه فلابد أن يقع و القسم متضمن معنى الخبر و معنى الحض و الطلب لكن في ثبوت الثاني في حق الله نزاع بين الناس كقوله {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص85 و قوله {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ }الأعراف167 والذين قالوا إن حكمته أو حكمه أو مشيئته توجب ذلك يقولون إن ذلك قد يعرف بالعقل فيقولون أنه قد يعرف بالعقل أنه لابد من إرسال الرسل و أن ذلك واجب فى حكمه و حكمته و هذا قول كثير من الطوائف أو أكثرهم و منهم من يقول لا يعلم شيء من ذلك إلا بالخبر و هذا قول الجهمية و الأشعرية وذاك قول المعتزلة و الكرامية و الحنفية أو أكثرهم و أما أصحاب مالك و الشافعى و أحمد فمنهم من يقول بهذا و لكن جمهور الفقهاء مع السلف يثبتون الحكمة و التعليل و إنما ينفى ذلك منهم من وافق الجهمية المجبرة كالأشعرى و من و افقه و كذلك جمهورهم يثبتون للأفعال صفات بها كانت حسنة أو سيئة قبيحة لا يجعلون حسنها و قبحها ترجيحا لأحد الأمرين بلا مرجح بل لمحض المشيئة كما تقوله الجهمية و من و افقهم هذا قول الأئمة و الجمهور كما أن الأئمة و الجمهور على إثبات القدر و الإيمان به و أن الله خالق كل شيء و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن لا يقولون بقول من أنكر القدر من المعتزلة و نحوهم و لا بقول من أنكر حكمة الرب من الجهمية المجبرة و نحوهم فلا يقولون بقول القدرية النفاة للقدر و لا بقول القدرية المجبرة الذين يستلزم قولهم إنكار الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و الجزاء بالثواب و العقاب لا سيما من أفصح منهم بذلك أو قال إن من شهد القدر سقط عنه الأمر و النهي و الوعد و الوعيد فآمنوا بما جاءت به الرسل فى الجملة و أوجبوا ما أوجبه الله و حرموا ما حرمه الله و آمنوا بالجنة و النار و اجتهدوا فى متابعة الرسل لكن أخطاؤا حيث نفوا القدر و ظنوا أن إثباته يناقض الأمر و النهي و الوعد و الوعيد و أنه لا يتم إيمانهم بأن الله عادل صادق حتى يكذبوا بالقدر و بإخراج أهل الكبائر من النار ظنا منهم أن الله أخبر بأن كل من كان له ذنب يستحق به العذاب لا يخرجه من النار و لا يرحمه أبدا فلم يجوزوا أن يعذب بذنبه ثم يرحم بل عندهم من كان له ذنب يستحق به العذاب لم يرحم أبدا و هم و إن كانوا لم يتعمدوا تكذيب الرسل فقولهم هذا يتضمن مخالفة الأخبار المتواترة عند أهل العلم بالحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى خروج أهل الذنوب من النار وشفاعة الشفعاء فيهم ويتضمن أنهم آيسوا الخلق من رحمة الله مع تكذيبهم بعموم خلق الله و مشيئته و قدرته حيث زعموا أن من الحوادث ما لا يقدر عليه ولا يشاؤه ولا يخلقه و تشبهوا بالمجوس من هذا الوجه حتى قيل القدرية مجوس هذه الأمة و قابلهم أولئك فتوقفوا فى خبر الله مطلقا حتى أنكروا صنفي العموم فلم يعلموا بخبره ما أخبر به من الوعد و الوعيد فلا يجزمون بالنجاة للصنف الذين يعلم الله أنهم آمنوا و عملوا الصالحات و كانوا من أعظم الناس طاعة لله إذا كان لأحدهم سيئة واحدة صغيرة و لا بالعذاب للصنف الذين يعلم الله أنهم أفجر أهل القبلة و شرها بل يجوزون مع علم الله بهذا و بهذا أن يعذب أهل الحسنات الكبيرة على سيئة صغيرة عذابا ما يعذبه أحدا من أهل القبلة و أن يدخل فجار أهل القبلة الجنة مع السابقين الأولين و بسط الكلام على هؤلاء و هؤلاء له مقام آخر

والمقصود هنا أن هذه السورة دلت على ما تدل عليه مواضع أخر من القرآن من أن الله يرسل الرسل إلى الناس تأمرهم و تنهاهم يرسلهم مبشرين و منذرين كما قال تعالى {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ }الأنعام48 ينذرون الذين أساؤا عقوبات أعمالهم و يبشرون الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالنعيم المقيم و { أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً{2} مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً{3} الكهف 2-3 فقوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدعهم و يتركهم على ما هم عليه من الكفر بل لا يفكهم حتى يرسل إليهم الرسول بشيرا و نذيرا {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى }النجم31 و مما يبين ذلك أن حتى حرف غاية و ما بعد الغاية يخالف ما قبلها كما في قوله {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ }البقرة187 و قوله { حَتَّىَ يَطْهُرْنَ }البقرة222 و قوله { حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ }البقرة230 و نظائر ذلك فلو أريد أنهم لم يكونوا منتهين و يؤمنون حتى يتبين لهم الحق لزم أن يكونوا كلهم بعد مجيئ البينة قد إنتهوا و آمنوا فإن اللفظ عام فيهم و كذلك لو كان المراد أنهم كانوا متفقين على تصديق الرسول حتى بعث لزم أن يكونوا كلهم كانوا يعرفونه قبل إرساله إليهم و أنهم كلهم بعد إرساله تفرقوا و اختلفوا و كلاهما باطل فكثير منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني و لم يكونوا يعرفون ما في الكتب من بعثه و من أمور أخر و لما بعث فقد آمن به خلق كثير منهم و لم يتفرقوا كلهم عن الإيمان به و حينئذ فالآية لم تتضمن مدحهم مطلقا كما ظن من ظن أن معناها أنهم لم ينتهوا و لم يؤمنوا حتى يتبين لهم الحق و لا تتضمن ذمهم مطلقا كما ظن من ظن أنهم لما جاءهم الرسول تفرقوا و اختلفوا بعد ما كانوا متفقين على التصديق بل تضمنت مدح من آمن منهم بالرسول و ذم من لم يؤمن و الإخبار أنه لابد من إرسال الرسول إليهم فيؤمن به بعضهم و يكفر بعض قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }البقرة253 ثم أن الذين آمنوا بالرسل لابد أن يمتحنهم ليميز بين الصادق و الكاذب كما قال تعالى {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {2} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ{3}العنكبوت2 -3 ثم قال { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ{4} العنكبوت 4 فالناس إذا أرسل إليهم أحد رجلين إما رجل آمن بهم فى الظاهر فلابد أن يمتحن حتى يتبين الصادق من الكاذب و إما رجل عمل السيئات و لم يؤمن فلا يفوت الله بل هو آخذه سبحانه و تعالى و لهذا إنقسم الناس فى الرسل إلى ثلاثة أقسام مؤمن باطن و ظاهر و كافر مظهر للكفر و منافق مظهر للإيمان مبطن للكفر و من حين هاجر النبى صلى الله عليه و سلم إلى المدينة حصل هذا الإنقسام و أنزل الله تعالى فى أول البقرة أربع آيات فى صفة المؤمنين و آيتين فى صفة الكافرين و بضع عشرة آية فى صفة المنافقين و أما حين كان بمكة و كان المؤمنون مستضعفين فلم يكن أحد يحتاج إلى النفاق بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه من كثير من الناس ومنهم من يتكلم بالكفر مكرها مع طمأنينة قلبه بالإيمان و هذا مؤمن باطنا و ظاهرا فإنه وإن أظهر الكفر لبعض الناس ما أكره عليه أو كتم عنه إيمانه فهو يتكلم بالإيمان فى خلوته و مع من يأمنه و يعمل بما يمكنه و ما عجز عنه فقد سقط عنه و لهذا قال العلماء منهم أحمد بن حنبل لم يكن يمكنهم نفاق إنما كان النفاق بالمدينة و لكن كان بمكة من في قلبه مرض كما قال فى السورة المكية { وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً}المدثر31 و هو سبحانه قد ذكر أن المظهرين للإيمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيث من الطيب و يمتحنهم كما قال تعالى {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ }آل عمران179 و قال {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }التوبة16 و قال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ }البقرة214 و أمثال ذلك فكذلك الذين كفروا لم يكن ليتركهم حتى يبعث إليهم الرسول بالآيات البينات فهذا معنى قوله{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 و هم إذا جاءتهم البينة منهم من يؤمن و منهم من يكفر و إذا قيل إن الآية بعد ذلك المعنى الآخر و هو أنهم لم يكونوا ليهتدوا و يعرفوا الحق و يؤمنوا حتى تأتيهم البينة إذ لا طريق لهم إلى معرفة الحق إلا برسول يأتي من الله أيضا أو لم يكونوا منتهين متعظين و إن عرفوا الحق حتى يأتيهم من الله من يذكرهم فهذا المعنى لا يناقض ذاك بخلاف قول من قال لم يكن المشركون و أهل الكتاب تاركين لمعرفة محمد و لذكره و لم يكونوا متفرقين فيه بل متفقين على الإيمان به حتى جاءتهم البينة فتركوا الإيمان به و تفرقوا فإن هذا غير مراد قطعا و مما يبين ذلك قوله { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 و لم يقل حتى أتتهم و أولئك لما لم يفهموا معنى الآية ظنوا أن الموضع موضع الماضي و أن المراد ما إنفكوا عما كانوا عليه إما من كفر و إما من إيمان حتى أتتهم البينة فلما قيل {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 أشكل عليهم و قال بعضهم لما تأتهم كلها و أما على المعنى الصحيح فالموضع موضع المضارع كقوله تعالى {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ }آل عمران179 فإن المراد ما كانوا مفكوكين متروكين حتى تأتيهم البينة و هو سبحانه قال {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا }البينة1 و لم و إن كانت تقلب المضارع ماضيا فذاك إذا تجرد فقيل لم يأت و لم يذهب فمعناه ما أتى و ما ذهب و أما إذا قيل لم يكن يفعل هذا و { لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً }النساء137 فالمقصود معنى الفعل الدائم مطلقا و إذا قيل لم يكن فلان آتيا حتى يذهب إليه فلان بخلاف ما إذا قلت لم يكن فلان قد أتى حتى ذهب إليه فلان و لو قيل ما كان فلان فاعلا لهذا حتى يكون كذا كان نحو ذاك بخلاف ما إذا قيل ما كان فلان قد فعل حتى أتى فلان فنفى المضارع الذي خبره إسم فاعل و هو الدائم و المراد لم يكونوا فى الحال و الإستقبال متروكين حتى تأتيهم البينة و لو قيل هنا حتى أتتهم البينة لم يكن موضعه وكذلك لو أراد الإنتهاء عن الكفر و الإيمان لقيل { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 أي لم يكونوا يعرفون الحق حتى يأتيهم نبى يعرفهم أو لم يكونوا متعظين عاملين حتى يأتي من يعظهم و يذكرهم فليس هذا موضع لماضي بخلاف ما لو قيل ما زالوا كافرين حتى أتاهم فالآية تتضمن الإخبار عن و جوب إثبات البينة و إمتناع الإنفكاك بدونها لم يقصد بها مجرد الخبر عن عدم الإنفكاك ثم ثبوته فى الماضي و هو كما قيل لم يكونوا ينفكوا حتى تأتيهم البينة لكن هنا ذكر إسم الفاعلين فقيل { مُنفَكِّينَ }البينة1 وهو سبحانه لما ذكر أنه لابد من إرسال الرسل إلى الذين كفروا من المشركين و أهل الكتاب لتقوم عليهم الحجة بذلك ذكر بعد هذا أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة و قامت عليهم الحجة فبينات الله و حجته قامت على هؤلاء و هؤلاء وهو لم يعذب واحدا من الحزبين إلا بعد أن جاءتهم البينة و قامت عليهم الحجة كما فى قصة موسى و من أرسل إليه فإن الله لم يدع فرعون و قومه حتى أرسل إليهم موسى و لم يعذبهم إلا بعد إقامة الحجة ثم لما آمن بنو إسرائيل بالكتب و الرسل لم يتفرقوا و يختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة فلم يكونوا معذورين في ذلك و لهذا نهيت أمة محمد عن التشبه بهم فقيل {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ }آل عمران105 والناس الذين بعث إليهم محمد هم كذلك فمن كان كافرا لم يكن منفكا حتى تأتيه البينة و

من آمن بمحمد من الأمم ثم تفرقوا و إختلفوا فما اختلفوا إلامن بعد ما جاءتهم البينة و ما أمر الجميع {إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 و الآية تضمنت مدح الرب و ذكر حكمته و عدله و حجته فى أنه لا يدعهم حتى يرسل إليهم رسولا كما قال لأهل الكتاب { قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ }المائدة19 الآية لم تتضمن مدحهم على بقائهم على الكفر حتى يأتي الرسول فإن هذا غايته أن لا يعاقبوا عليه حتى يأتي الرسول لا أن يحمدوا عليه حتى يأتي الرسول فإن هذا لا يقوله عاقل و لم يقله أحد لا سيما و أهل الكتاب قد قامت عليهم الحجة بأنبياء قبله ونظير هذا فى اللفظ قوله {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ }النحل7 ليس المراد ما كنتم بالغيه فى الماضي بل هذه حالهم دائما فقوله لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم يقتضي أن هذه حالهم دائما وتضمنت السورة ذكر أصناف الخلق و ما أمر الله به جميع العباد و أن ذلك أمر لابد منه لابد من إرسال الرسل و إنزال الكتب و بيان السعداء أهل الجنة و الأشقياء أهل النار فقوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ {1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة1 -3 جملة فيه بيان إرسال الرسول إلى الجميع و قوله { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4}البينة 4 فيه إقامة الحجة على أهل الشرائع و ذم تفرقهم و إختلافهم و أن ذلك بعد أن جاءتهم البينة و هاتان الجملتان نظيرهما قوله {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }البقرة213 ثم قال

{وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ }البقرة213 و مثل ذلك قوله تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى13 ثم قال {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }الشورى14 و قوله {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }هود110 فى سورة هود و سورة عسق ثم ذكر ما أمربه الجميع بقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5} البينة 5 ثم ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين و عاقبة الذين آمنوا و عملوا الصالحات { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ{6} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ{7} جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ{8}البينة6-8 [1]

توحد الملة وتعدد الشرائع

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 480-510

فى توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعى وما فى ذلك من اقرار ونسخ وجريان ذلك فى اهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعتبار قال الله تعالى {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }البقرة124 فهذا نص فى انه امام الناس كلهم وقال {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً }النحل120وهو القدوة الذى يؤتم به وهو معلم الخير وقال تعالى فى آل عمران {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{18} إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ {19}آل عمران18 -19 فاخبر ان الدين عند الله الاسلام وان الذين اختلفوا من اهل الكتاب وصاروا على ملل شتى ما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم وفيه بيان ان الدين واحد لا اختلاف فيه وقال {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ {1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5}البينة1-5 وذكر فى النحل دعوة المرسلين جميعهم واتفاقهم على عبادة الله وحده لا شريك له فقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ }النحل36 الاية وهذا فى القرآن مذكور فى مواضع كثيرة وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مثل ما ترجم عليه البخارى فقال باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد وذكر الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة عن النبى قال انا معاشر الأنبياء اخوة لعلات ومثل صفته فى التوراة لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فافتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ولهذا وحد الصراط والسبيل فى مثل قوله تعالى { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ{7} الفاتحة6-7 والاسلام دين جميع المرسلين[1]

لفظ المشركين

أن الله فرق بين المشركين وأهل الكتاب في عدة مواضع ووصف من أشرك منهم في بعض المواضع بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين في بعض المواضع وكلا الأمرين حق فالأول كقوله تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1[2]

لفظ المشركين قد يقرن بأهل الكتاب فقط وقد يقرن بالملل الخمس كما فى قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }الحج17 و الأول كقوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1[3]

يدخل فى الذين كفروا جميع المشركين وأهل الكتاب

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 110

[2] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 112

[33] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 55

وحرف من في هذه المواضع لبيان الجنس فتبين جنس المتقدم وإن كان ما قبلها يدخل في جميع الجنس الذي بعدها بخلاف ما إذا كان للتبعيض كقوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 فإنه يدخل في الذين كفروا بعد مبعث النبي جميع المشركين وأهل الكتاب وكذلك دخل في الذين لا يؤمنون بالله والا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق جميع أهل الكتاب الذين بلغتهم دعوته ولم يؤمنوا به[1]

أهل الكتاب يدخلون في الشرك المقيد

أهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسما من المشركين وتارة يجعلهم الله قسيما لهم كما قال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 وقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ }البينة6 وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }الحج17 الآية وقال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ }التوبة31 الآية وهذا بعد قوله {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ }التوبة30 إلى قوله { وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }التوبة32 وقال {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ }المائدة72 [2]

أن الشرك المطلق في القرآن لا يدخل فيه أهل الكتاب وإنما يدخلون في الشرك المقيد قال الله تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ }البينة1 فجعل المشركين قسما غير أهل الكتاب وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا }الحج17 فجعلهم قسما غيرهم فأما دخولهم في القيد ففي قوله تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }التوبة31 فوصفهم بأنهم مشركون وسبب هذا أن أصل دينهم الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل ليس فيه شرك كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 وقال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 ولكنهم بدلوا وغيروا فابتدعوا من الشرك ما لم ينزل به الله سلطانا فصار فيهم شرك باعتبار ما ابتدعوا لا باعتبار أصل الدين [3]

يمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى مع التكذيب بنبوة محمد

---

[1] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 64

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 21

[3] الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 199 و مجموع الفتاوى ج: 35 ص:213- 220

فإن الدلائل الدالة على صدق محمد أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ومعجزاته أعظم من معجزات غيره والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام وأمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو في القرآن أو مثله أو منه وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى وهذه جملة مبسوطة في موضع آخر لم نبسطها هنا لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلى ذلك فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام مع التكذيب بنبوة محمد ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل الناس وأضلهم أو من أعظمهم عنادا واتباعا لهواه وذلك أن هؤلاء القوم احتجوا بما نقلوه عن الأنبياء ولم يذكروا الأدلة الدالة على صدقهم بل أخذوا ذلك مسلما وطلبوا ان يحتجوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله وبما نقلوه عنه على صحة دينهم وهذه حجة داحضة سواء صدقوه أو كذبوه فإن صدقوه بطل دينهم وإن كذبوه بطل دينهم فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل وأنه أبطل ما هم عليه من الاتحاد وغيره وكفرهم في غير موضع ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمدا رسول الله ولو إلى العرب يوجب بطلان دين النصارى واليهود وكل دين يخالف دينه فإن من كان رسولا لله فإنه لا يكذب على الله ومحمد قد علم منه أنه دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم وأنه كفر من لم يؤمن به ووعده النار وهذا متواتر عنه تواترا تعلمه العامة والخاصة وفي القرآن من ذلك ما يكثر ذكره كما قال تعالى { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ{6} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ{7} جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ{8} سورة البينة 1-8[1]

يخاطب الله فى القرآن الأميين وأهل الكتاب

ومن الناس من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى أو موسى والمسيح معه دون محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا يخاطب الله فى القرآن الأميين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين ببعض الرسل كما فى قوله {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ }آل عمران20 وفى قوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ }البينة1 [2]

---

[1] الجواب الصحيح ج: 2 ص: 5

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 33

الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس

والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس فاصطفى جبريل من الملائكة واصطفى محمدا من الناس وقال فى جبريل {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }التكوير19 وقال في محمد {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }الحاقة40 وكلاهما رسول من الله كما قال{ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة 1-3 فكلاهما رسول من الله بلغ ما أرسل به[1]

دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه

وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه ويكفر من لم يتبعه منهم ويذمه ويلعنه والوعيد له كما في تكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه والوعيد كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً }النساء47 وفي القرآن من قوله يا أهل الكتاب يا بني اسرائيل ما لا يحصى إلا بكلفة وقال تعالى { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ{6}البينة1- 6 ومثل هذا في القرآن كثير جدا وقد قال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }الأعراف158 وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ}سبأ28 واستفاض عنه فضلت على الأنبياء بخمس ذكر فيها أنه قال كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة بل تواتر عنه أنه بعث إلى الجن والإنسان فإذا علم بالإضطرار بالنقل المتواتر الذي تواتر كما تواتر ظهور دعوته أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وأنه حكم بكفر من لم يؤمن به منهم وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه وأنه ضرب الجزية عليهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم فحاصر بني قينقاع ثم أجلاهم إلى أذرعات وحاصر بني النضير ثم أجلاهم إلى خيبر وفي ذلك أنزل الله سورة الحشر ثم حاصر بني قريظة لما نقضوا العهد وقتل رجالهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وقد ذكره الله تعالى في سورة الأحزاب وقاتلأهل خيبر حتى فتحها وقتل من رجالهم وسبى من سبى من حريمهم وقسم أرضهم بين المؤمنين وقد ذكرها الله تعالى في سورة الفتح وضرب الجزية على النصارى وفيهم أنزل الله سورة آل عمران وغزا النصارى عام تبوك وفيها أنزل الله سورة براءة وفي عامة السور المدنية مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغير ذلك من السور المدنية من دعوة أهل الكتاب وخطابهم مالا تتسع هذه الفتوى لعشره ثم خلفاؤه بعده أبو بكر وعمر ومن معهما من المهاجرين والأنصار الذي يعلم أنهم كانوا أتبع الناس له وأطوعهم لامره وأحفظهم لعهده وقد غزوا الروم كما غزوا فارس وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس فقاتلوا من قاتلهم وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يد وهم صاغرون ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 68

والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار قال سعيد بن جبير تصديق ذلك في كتاب الله تعالى { وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } هود17 ومعنى الحديث متواتر عنه معلوم بالإضطرار فإذا كان الامر كذلك لزم بأنه رسول الله إلى كل الطوائف فإنه يقرر بأنه رسول الله لا يكذب ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر الله ولا يستحل دماءهم وأموالهم وديارهم بغير إذن الله [1]

فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون قد شهد عليهم بالكفر وأمرهم بجهادهم وكفر من لم يجعلهم كافرين ويوجب جهادهم[2]

اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران

وأما كون النصارى فيهم شرك كما ذكره الله فهذا متفق عليه بين المسلمين كما نطق به القرآن كما أن المسلمين متفقون على أن قوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة1 أن النصارى واليهود لم يدخلوا في لفظ الذين أشركوا وهذا لأن اللفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد ما لا يدخل فيه عند الإقتران بغيره[3]

كلام الله المكتوب ليس هو إلها خالقا

فكلام الله كالتوراة وزبور داود والإنجيل والقرآن وغير ذلك فإن هذا كله كلام الله وهو مكتوب في القراطيس باتفاق أهل الملل بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب في القراطيس وقد قال تعالى في القرآن بل هو قرءان مجيد { رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة2 -3 ومعلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ليس هو إلها خالقا وهو كلام كثير لا ينحصر في كلمة ولا كلمتين[4]

أسماء القرآن

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة القيم { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2 -3 [5]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 206

[2] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 63

[3] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 116

[4] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 326

[5] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

الفرق بين كلام الله تعالى وبين مداد كلماته

وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً }الكهف109 وكلمات الله غير مخلوقة والمداد الذى يكتب به كلمات الله مخلوق والقرآن المكتوب فى المصاحف غير مخلوق وكذلك المكتوب فى اللوح المحفوظ وغيره قال تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقال { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} عبس11-14 وقال تعالى { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2 -3 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{80} الواقعة 77-80[1]

الكتاب اسم للقرآن العربى

والكتاب اسم للقرآن العربى بالضرورة والاتفاق فان الكلابية أو بعضهم يفرق بين الكلام وكتاب الله فيقول كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق وكتابه هو المنظوم المؤلف العربى وهو مخلوق والقرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة والله تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنا وكتابا وكلاما فقال تعالى {الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ }الحجر1 وقال {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ }النمل1 وقال {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ }الأحقاف29 الى قوله تعالى {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ }الأحقاف30 فبين ان الذى سمعوه هو القرآن وهو الكتاب وقال {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22}البروج21-22 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} الواقعة 77-78 وقال { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2-3 وقال {وَالطُّورِ{1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{2} فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ{3}الطور 1-3 وقال {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ }الأنعام7 ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} الواقعة 77-78 وقال { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً }الإسراء13[2]

قوله تعالى { وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193}الشعراء 192-193 الى قوله { وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ{196} أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ{197} الشعراء 196-197 فالذى فى زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد فان هذا القرآن لم ينزل على احد قبله ولكن فى زبر الأولين ذكر القرآن وخبره كما فيها ذكر محمد وخبره كما أن أفعال العباد فى الزبر كما قال تعالى {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ }القمر52 فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء فى الزبر وبين كون الكلام نفسه فى الزبر كما قال تعالى {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 56

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 125

كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78}الواقعة77-78 وقال تعالى { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2-3 [1]

هل نفس المصحف هو نفس القرآن أم كتابته وما فى الصدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه

الواجب ان يطلق ما أطلقه الكتاب والسنة كقوله تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقوله { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79}الواقعة77-79 وقوله { وَالطُّورِ{1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{2} فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ{3} الطور1-3 وقوله { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3} البينة2-3 وقوله تعالى { كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{15} كِرَامٍ بَرَرَةٍ{16}عبس 11-16 وكذلك قول النبى لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو وقوله استذكروا القرآن فلهو أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم فى عقلها وكلاهما فى الصحيحين وقوله الجوف الذى ليس فيه شىء من القرآن كالبيت الخرب قال الترمذى حديث صحيح فمن قال القرآن فى المصاحف والصدور فقد صدق ومن قال فيها حفظه وكتابته فقد صدق ومن قال القرآن مكتوب فى المصاحف محفوظ فى الصدور فقد صدق ومن قال ان المداد أو الورق أو صفة العبد أو فعله أو حفظه وصوته قديم أو غير مخلوق فهو مخطىء ضال ومن قال إنما فى المصحف ليس هو كلام الله أو ما فى صدور القراء ليس هو كلام الله أو قال إن القرآن العزيز لم يتكلم به الله ولكن هو مخلوق أو صنفه جبريل أو محمد وقال إن القرآن فى المصاحف كما أن محمدا فى التوراة والانجيل فهو أيضا مخطىء ضال فان القرآن كلام والكلام نفسه يكتب فى المصحف بخلاف الأعيان فانه إنما يكتب اسمها وذكرها فالرسول مكتوب فى التوراة والإنجيل ذكره ونعته كما أن القرآن فى زبر الأولين وكما أن أعمالنا فى الزبر قال تعالى {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ }الشعراء196 وقال تعالى {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ }القمر52 ومحمد مكتوب فى التوراة والإنجيل كما أن القرآن فى تلك الكتب وكما ان أعمالنا فى الكتب وأما القرآن فهو نفسه مكتوب فى المصاحف ليس المكتوب ذكره والخبر عنه كما يكتب إسم الله فى الورق ومن لم يفرق بين كتابة الأسماء والكلام وكتابة المسميات والأعيان كما جرى لطائفة من الناس فقد غلط غلطا سوى فيه بين الحقائق المختلفة كما قد يجعل مثل هؤلاء الحقائق المختلفة شيئا واحدا كما قد جعلوا جميع أنواع الكلام معنى واحدا [2]

القرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 240

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص:564- 566

و الاقتصاد في السنة واتباعها كما جاءت بلا زيادة ولا نقصان مثل الكلام في القرآن وسائر الصفات فإن مذهب سلف الأمة وأهل السنة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود هكذا قال غير واحد من السلف روى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار وكان من التابعين الأعيان قال مازلت أسمع الناس يقولون ذلك والقرآن الذي أنزله الله على رسوله هو هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم وهو كلام الله لا كلام غيره وإن تلاه العباد وبلغوه بحركاتهم وأصواتهم فإن الكلام لمن قاله مبتدئا لا لمن قاله مبلغا مؤديا قال الله تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ }التوبة6 وهذا القرآن في المصاحف كما قال تعالى { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22} البروج21-22 وقال تعالى { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً {2} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3}البينة2 -3 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78} الواقعة77-78 والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه كل ذلك يدخل في القرآن وفي كلام الله وإعراب الحروف هو من تمام الحروف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه وإذا كتب المسلمون مصحفا فإن أحبوا أن لا ينقطوه ولا يشكلوه جاز ذلك كما كان الصحابة يكتبون المصاحف من غير تنقيط ولا تشكيل لأن القوم كانوا عربا لا يلحنون وهكذا هي المصاحف التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار في زمن التابعين ثم فشا اللحن فنقطت المصاحف وشكلت بالنقط الحمر ثم شكلت بمثل خط الحروف فتنازع العلماء في كراهة ذلك وفيه خلاف عن الإمام أحمد رحمه الله وغيره من العلماء قيل يكره ذلك لأنه بدعة وقيل لا يكره للحاجة إليه وقيل يكره النقط دون الشكل لبيان الإعراب والصحيح أنه لا بأس به والتصديق بما ثبت عن النبي أن الله يتكلم بصوت وينادي آدم عليه السلام بصوت إلى أمثال ذلك من الأحاديث فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة وقال أئمة السنة القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق حيث تلى وحيث كتب فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن إنها مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل ولا يقال غير مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد ولم يقل قط أحد من أئمة السلف إن أصوات العباد بالقرآن قديمه بل أنكروا على من قال لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق وأما من قال إن المداد قديم فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة قال الله تعالى {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً }الكهف109 فأخبر أن المداد يكتب به كلماته وكذلك من قال ليس القرآن في المصحف وإنما في المصحف مداد وورق أو حكاية وعبارة فهو مبتدع ضال بل القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو ما بين الدفتين والكلام في المصحف على الوجه الذي يعرفه الناس له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء وكذلك من زاد على السنة فقال إن ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة فهو مبتدع ضال كمن قال إن الله لا يتكلم بحرف ولا بصوت فإنه أيضا مبتدع منكر للسنة وكذلك من زاد وقال إن المداد قديم فهو ضال كمن قال ليس في المصاحف كلام الله وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون إن الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط كلام الله فهو بمنزلة من يقول ما تكلم الله بالقرآن ولا هو كلامه هذا الغلو من جانب الإثبات يقابل التكذيب من جانب النفي وكلاهما خارج عن السنة والجماعة وكذلك أفراد الكلام في النقطة والشكلة بدعة نفيا وإثباتا وإنما حدثت هذه البدعة من مائة سنة أو أكثر بقليل فإن من قال إن المداد الذي تنقط به الحروف ويشكل به قديم فهو ضال جاهل ومن قال إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن فهو ضال مبتدع بل الواجب أن يقال هذا القرآن العربي هو كلام الله وقد دخل في ذلك حروفه بإعرابها كما دخلت معانيه ويقال ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله فإن كان المصحف منقوطا مشكولا أطلق على ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله وإن كان غير منقوط

ولا مشكول كالمصاحف القديمة التي كتبها الصحابة كان أيضا ما بين اللوحين هو كلام الله فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظي لا حقيقة له ولا يجوز أن يحدث في الدين ما ليس منه[1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 والكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والإنجيل[2]

2-البينة من البيان و البينة هي السبيل البينة وهي الطريق البينة الواضحة وهي أيضا ما تبين بها الحق فهي بينه فى نفسها مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهى الدلالة والإرشاد فتكون كالهدى كما يقال فلان على هدى وعلى علم فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل ومنه قوله { أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى }طه133 أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها أو الأمر البين فيها وقد سمى الرسول بينة كما قال { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ {1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ {2}البينة1 -2 فإنه يبين الحق والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه[3]

3-قال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ {1} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2}البينة1-2 فهذه الأشياء كلها من الله وهي مخلوقة[4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 403-404

[2] الجواب الصحيح ج: 2 ص: 354

[3] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75

[4] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 68

سورة البينة4-5

{ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5}

باب الفساد الذى وقع فى هذه الأمة

فإن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف وذم التفرق والاختلاف فقال تعالى {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ }آل عمران103 [1]

ففى صفات العبادات الظاهرة التى حصل فيها تنازع بين الأمة فى الرواية والرأى مثل الأذان والجهر بالسملة والقنوت فى الفجر والتسليم فى الصلاة ورفع الأيدى فيها ووضع الأكف فوق الأكف ومثل التمتع والإفراد والقران فى الحج ونحو ذلك فإن التنازع فى هذه العبادات الظاهرة والشعائر أوجب أنواعا من الفساد الذى يكرهه الله ورسوله وعباده المؤمنون احدها التفرق والإختلاف المخالف للإجتماع والإئتلاف حتى يصير بعضهم يبغض بعضا ويعاديه ويحب بعضا ويواليه على غير ذات الله وحتى يفضى الأمر ببعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز وببعضهم إلى الإقتتال بالأيدى والسلاح وببعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلى بعضهم خلف بعض وهذا كله من أعظم الأمور التى حرمها الله ورسوله والإجتماع والأئتلاف من أعظم الأمور التى أوجبها الله ورسوله قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{102} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ {103}آل عمران102-103إلى قوله { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{105} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ {106} ال عمران 105-106 قال إبن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السنة التى شرعها رسول الله لأمته ومن أهل الفرقة بالفرقة المخالفة للجماعة التى أمر الله بها ورسوله قال تعالى { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5}البينة4-5

وقال تعالى { فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ }الأنفال1 وقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ }الحجرات10 وقال { إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ }النساء114 وهذا الأصل العظيم وهو الإعتصام بحبل الله جميعا وأن لا يتفرق هو من أعظم أصول الإسلام ومما

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 467

عظمت وصية الله تعالى به فى كتابه ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ومما عظمت به وصية النبى فى مواطن عامة وخاصة مثل قوله عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة وقوله فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد وقوله من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وقوله ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال صلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هى الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين وقوله من جاءكم وامركم على رجل واحد منكم يريد أن يفرق جماعتكم فإضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان وقوله يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم وقوله ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة ناجية وإثنتان وسبعون فى النار وقيل ومن الفرقة الناجية قال هى الجماعة يد الله على الجماعة و باب الفساد الذى وقع فى هذه الأمة بل وفى غيرها هو التفرق والإختلاف فإنه وقع بين امرائها وعلمائها من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم وإن كان بعض ذلك مغفورا لصاحبه لإجتهاده الذى يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم أن رعايته من اعظم أصول الإسلام ولهذا كان إمتياز أهل النجاة عن أهل العذاب من هذه الأمة بالسنة والجماعة ويذكرون فى كثير من السنن والآثار فى ذلك ما يطول ذكره وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة الذى يجب تقديم العمل به هو الإجماع فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة[1]

وجوب الاجتماع فى الدين

وقال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }النساء59 وقال تعالى {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }الحشر10 اذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الامر منا وامرنا عند التنازع فى شىء أن نرده الى الله والى الرسول وامرنا بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالايمان وسمانا المسلمين وأمرنا ان ندوم عليه الى الممات فهذه النصوص وما كان فى معناها توجب علينا الاجتماع فى الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا فى الدين وولاة الأمور فينا هم خلفاء الرسول قال النبى فى الحديث الصحيح إن بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى قام نبى و إنه لا نبى بعدى وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال اوفوا بيعة الأول فالأول وأدوا لهم الذى لهم فان الله سائلهم عما استرعاهم وقال ايضا العلماء ورثة الأنبياء وروى عنه أنه قال وددت أنى قد رأيت خلفائى قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتى يعلمونها الناس فهؤلاء هم ولاة الأمر بعده وهم الأمراء والعلماء وبذلك فسرها السلف ومن تبعهم من الأئمة كالامام احمد وغيره وهو ظاهر قد قررناه فى غير هذا الموضع فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والاجماع هى بمنزلة

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 358-360

الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الاسلام المحض وهم أهل السنة والجماعة[1]

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ولهذا كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنة رسول الله وعما مضت عليه جماعة المسلمين فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله وأمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى{ {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء } البينة5[2]

ذم تفرق أهل الكتاب و النهى عن التشبه بهم

وقوله {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة4 قال طائفة من المفسرين هو تفرقهم في محمد بعد أن كانوا مجتمعين على الإيمان به ثم من هؤلاء من جعل تفرقهم إيمان بعضهم و كفر بعض قال البغوي ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } البينة4 أى البيان فى كتبهم انه نبى مرسل قال المفسرون لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد متى بعثه الله فلما بعث تفرقوا فى أمره و اختلفوا فآمن به بعضهم و كفر به بعضهم و هكذا ذكر طائفة فى قوله {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ }يونس93 قال أبو الفرج قال ابن عباس ما اختلفوا فى أمر محمد لم يزالوا به مصدقين حتى جاءهم العلم يعني القرآن و روى عنه حتى جاءهم العلم يعني محمدا فعلى هذا يكون العلم هنا عبارة عن المعلوم و بيان هذا أنه لما جاءهم اختلفوا في تصديقه فكفر به أكثرهم بغيا و حسدا بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه بغيا و حسدا و منهم من جعل المتفرقين كلهم كفارا قال ابن عطية ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يتفرقوا فى أمر محمد إلا من بعد أن رأوا الآيات الواضحة و كانوا من قبل متفقين على نبوته و صفته فلما جاء من العرب حسدوه و كذلك قال الثعلبى ما تفرق الذين أوتوا الكتاب فى أمر محمد فكذبوه إلا من بعد ما جاءتهم البينة البيان في كتبهم أنه نبى مرسل قال العلماء من أول هذه السورة إلى قوله {فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ }البينة3 حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب و المشركين {وَمَا تَفَرَّقَ }البينة4 حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليه وكذلك قال أبو الفرج قال {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ }البينة4 يعني من لم يؤمن { إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة4 و فيها ثلاثة أقوال أحدها أنه محمد و المعنى لم يزالوا مجتمعين على الإيمان به حتى بعث قاله الأكثرون و الثاني القرآن قاله أبو العالية و الثالث ما فى كتبهم من بيان نبوته ذكره الماوردي قلت هذا هو الذي قطع به أكثر المفسرين و لم يذكر الثعلبى و البغوي و غيرهما سواه و أبو العالية إنما قال الكتاب لم يقل القرآن هكذا رواه ابن أبى حاتم بالإسناد المعروف عن الربيع بن أنس {إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة4 قال قال

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 19 ص:116- 117

[2] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 369

أبو العالية الكتاب و مراد أبي العالية جنس الكتاب فيتناول الكتاب الأول كما قال {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ }هود110 فصلت45 فى موضعين من القرآن و قال تعالى { فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ}البقرة213 ثم قال { وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ }البقرة213 وهذا التفسير معروف عن أبى العالية و رواه عن أبى بن كعب و رواه إبن أبى حاتم و غيره عن الربيع عن أبى العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين و أن الله إنما أرسل الرسل و أنزل الكتب عند الإختلاف {وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ }البقرة213 قال أنزل الكتاب عند الإختلاف { وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ }البقرة213 يعنى بنى إسرائيل أوتوا الكتاب و العلم { مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ }البقرة213 يقول بغيا على الدنيا و طلب ملكها و زخرفها و زينتها أيهم يكون له الملك و المهابة فى الناس فبغى بعضهم على بعض و ضرب بعضهم رقاب بعض { فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ }البقرة213 يقول فهداهم الله عند الإختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الإختلاف أقاموا على الإخلاص لله و حده و عبادته لا شريك له و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و أقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الإختلاف و اعتزلوا الإختلاف فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة كانوا شهداء على قوم نوح و قوم هود و قوم صالح و قوم شعيب و آل فرعون أن رسلهم قد بلغتهم و أنهم كذبوا رسلهم قلت الإختلاف في كتاب الله نوعان أحدهما يذم فيه المختلفين كلهم كقوله { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }البقرة176 و قوله { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ {119}هود118-119 و الثاني يمدح المؤمنين و يذم الكافرين كقوله { وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }البقرة253 و قوله {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ }الحج19 إلى قوله {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }الحج23 و قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }الحج17 وإذا كان كذلك فالذي ذمه من تفرق أهل الكتاب و إختلافهم ذم فيه الجميع و نهى عن التشبه بهم فقال {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ }آل عمران105 و قال { وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ }البقرة213 و ذلك بأن تؤمن طائفة ببعض حق و تكفر بما عند الأخرى من الحق و تزيد فى الحق باطلا كما إختلف اليهود و النصارى فى المسيح و غير ذلك و حينئذ نقول من قال إن أهل الكتاب ما تفرقوا فى محمد إلا من بعد ما بعث إرادة إيمان بعضهم و كفر بعضهم كما قاله طائفة فالمذموم هنا من كفر لا من آمن فلا يذم كل المختلفين و لكن يذم من كان يعرف أنه رسول فلما جاء كفر به حسدا أو بغيا كما قال تعالى {وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ }البقرة89 وإن أريد بالتفرق فيه أنهم كلهم كفروا به و تفرقت أقوالهم فيه فليس الأمر كذلك و قد بين القرآن فى غير موضع أنهم تفرقوا و اختلفوا قبل إرسال محمد صلى الله عليه و سلم فإختلاف هؤلاء و تفرقهم في محمد صلى الله عليه و سلم هو من جملة ما تفرقوا و إختلفوا فيه و الله أعلم[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 511-516

ومعلوم أن الكفار فرقوا دينهم وكانوا شيعا[1]

ذم الذين يؤمنون ببعض دون بعض

وقد ذم الله تعالى في كتابه أهل التفرق والاختلاف في مثل قوله { {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة4 [2]

وذم الذين تفرقوا واختلفوا في الكتب وهم الذين يؤمنون ببعض دون بعض فيكون مع هؤلاء بعض ومع هؤلاء بعض كقوله {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }البقرة176 وقوله {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ }البقرة213 [3]

سبب الإجتماع والألفة

ثم قال بعد ذلك {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ }الشورى14 فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم الذى بين لهم ما يتقون فإن الله ما كان ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغيا والبغى مجاوزة الحد كما قال إبن عمر الكبر والحسد وهذا بخلاف التفرق عن إجتهاد ليس فيه علم ولا قصد به البغى كتنازع العلماء السائغ والبغى إما تضييع للحق وإما تعد للحد فهو إما ترك واجب وإما فعل محرم فعلم أن موجب التفرق هو ذلك وهذا كما قال عن أهل الكتاب {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ }المائدة14 فأخبر أن نسيانهم حظا مما ذكروا به وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به كان سببا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم وهكذا هو الواقع فى أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة فى أصول دينها وكثير من فروعه من أهل الأصول والفروع ومثلما نجده بين العلماء وبين العباد ممن يغلب عليه الموسوية أو العيسوية حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة ليست الأخرى على شيء كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة كل منهما ينفى طريقة الآخر ويدعى أنه ليس من أهل الدين أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين فتقع بينهما العداوة والبغضاء وذلك أن الله أمر بطهارة القلب وأمر بطهارة البدن وكلا الطهارتين الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجبه قال تعالى { مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }المائدة6 وقال { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ }التوبة108 وقال {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }البقرة222 وقال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 وقال {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ }المائدة41 وقال {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}التوبة28 وقال { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ

---

[1] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 46

[2] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 310

[3] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 13

أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }الأحزاب33 فنجد كثيرا من المتفقهة والمتعبدة إنما همته طهارة البدن فقط ويزيد فيها على المشروع اهتماما وعملا ويترك من طهارة القلب ما أمر به إيجابا أو استحبابا ولا يفهم من الطهارة الا ذلك ونجد كثيرا من المتصوفة والمتفقرة إنما همته طهارة القلب فقط حتى يريد فيها على المشروع اهتماما وعملا ويترك من طهارة البدن ما أمر به إيجابا أو استحبابا فالأولون يخرجون الى الوسوسة المذمومة في كثرة صلب الماء وتنجيس ما ليس بنجس واجتناب ما لا يشرع اجتنابه مع اشتمال قلوبهم على أنواع من الحسد والكبر والغل لإخوانهم وفي ذلك مشابهة بينة لليهود وآخرون يخرجون الى الغفلة المذمومة فيبالغون في سلامة الباطن حتى يجعلون الجهل بما تجب معرفته من الشر الذي يجب اتقاءه من سلامة الباطن ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعرفة المأمور بها ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات ويقيمون الطهارة الواجبة مضاهات للنصارى وتقع العدواة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به والبغى الذي هو مجاوزة الحد إما تفريط وتضييعا للحق وإما عدوانا وفعلا للظلم والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض وتارة يكون في حقوق الله وهما متلازمان ولهذا قال بغيا بينهم فإن كل طائفة بغت على الآخرى فلم تعرف حقها الذي بأيديها ولم تكف عن العدوان عليها وقال تعالى {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة4 وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }البقرة213 وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ }الجاثية16 الآية وقال تعالى في موسى بن عمران مثل ذلك وقال {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }آل عمران105 وقال {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ }الأنعام159 وقال {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{32} الروم30 -32 لأن المشركين كل منهم يعبد إلها يهواه كما قال في الآية الأولى { كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ }الشورى13 وقال { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{52} فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{53} المؤمنون51-53 فظهر أن سبب الإجتماع والألفة جمع الدين والعمل به كله و هوعبادة الله وحده لا شريك له كما أمر به باطنا وظاهرا وسبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به والبغى بينهم ونتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه وصلواته وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه ونتيجة الفرقة عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه وبراءة الرسول منهم وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة فإنهم اذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين فلا تكون طاعة لله ورحمته بفعل لم يأمر الله به من إعتقاد أو قول أو عمل فلو كان القول أو العمل الذى إجتمعوا عليه لم يأمر الله به لم يكن ذلك طاعة لله ولا سببا لرحمته وقد إحتج بذلك أبو بكر عبد العزيز فى أول التنبيه نبه على هذه النكتة وقال قال فى الحديث المشهور فى السنن من رواية فقيهى الصحابة عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولات الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وفى حديث أبى هريرة المحفوظ إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم فقد

جمع فى هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث إخلاص العمل لله ومناصحة أولى الأمر ولزوم جماعة المسلمين وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التى لله ولعباده وتنتظم مصالح الدنيا والآخرة وبيان ذلك أن الحقوق قسمان حق لله وحق لعباده فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئا كما جاء لفظه فى أحد الحديثن وهذا معنى إخلاص العمل لله كما جاء فى الحديث الآخر وحقوق العباد قسمان خاص وعام أما الخاص فمثل بر كل إنسان والديه وحق زوجته وجاره فهذه من فروع الدين لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه ولأن مصلحتها خاصة فردية وأما الحقوق العامة فالناس نوعان رعاة ورعية فحقوق الرعاة مناصحتهم وحقوق الرعية لزوم جماعتهم فإن مصلحتهم لا تتم إلا بإجتماعهم وهم لا يجتمعون على ضلالة بل مصلحة دينهم ودنياهم فى إجتماعهم وإعتصامهم بحبل الله جميعا فهذه الخصال تجمع أصول الدين وقد جاءت مفسرة فى الحديث الذى رواه مسلم عن تميم الدارى قال قال رسول الله الدين النصيحة الدين النصحية الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله تدخل فى حق الله وعبادته وحده لا شريك له والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هى مناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم فإن لزوم جماعتهم هى نصيحتهم العامة وأما النصيحة الخاصة لكل واحد منهم بعينه فهذه يمكن بعضها ويتعذر إستيعابها على سبيل التعيين [1]

الاختلاف سببه البغي

دين الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له فإن هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا غيره وكذلك الإسلام العام وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي ولهذا ترجم البخاري على ذلك باب من جاء في أن دين الأنبياء واحد وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{213} البقرة 213 قال ابن عباس وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وقوله كان الناس أمة واحدة أي على الحق وهو دين الإسلام فاختلفوا كما ذكر ذلك في سورة يونس هذا قول الجمهور وهو الصواب وقد قيل كانوا أمة واحدة على الباطل وهو من الباطل فدين الله تعالى الذي ارتضاه لنفسه دين واحد في الأولين والآخرين وهو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو دين الإسلام وتنوع الشرائع كتنوع الشريعة الواحدة للشيء الواحد فإن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأفضل المرسلين لا نبي بعده وقد بعث بدين الإسلام ما زال الإسلام دينه وقد أمر أولا باستقبال صخرة بيت المقدس ثم أمر ثانيا باستقبال الكعبة والدين واحد وإن تنوعت الشريعة وقال تعالى {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{18} إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ{19} فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{20} آل عمران 18 20 فأخبر سبحانه أن الدين عنده هو الإسلام أولا وآخرا وهو دين واحد ثم بين أن أهل

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 14-19

الكتاب إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم من بعضهم على بعض لا لأجل طلب الحق وهذا كقوله تعالى { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5} البينة 4 5[1]

قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه

إن المحبة لله نوعان محبة له نفسه ومحبة لما منهم من الاحسان وكذلك الحمد له نوعان حمد لله على ما يستحقه بنفسه وحمد على إحسانه لعبده فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة ولهذا ذكر فى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وفي الصحيحين

عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملا صالحا بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{83}ص82 -83 وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر42 وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{100}النحل99-100 فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24 واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص85 وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ }النساء48 وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً

---

[1] الصفدية ج: 2 ص:307- 309

}الزمر53 فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الآولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء {5} البينة4-5 الآية وهذا حقيقة قول لا اله إلا الله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 وقال {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ }الأعراف59 وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول { اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ } لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هوالامام الذى قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }البقرة124 وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{28} الزخرف26-28 فهذه الكلمة هى كلمة الاخلاص لله وهى البراءة من كل معبود الامن الخالق الذى فطرنا كما قال صاحب يس { وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{22} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{23} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{24} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{25} يس 22-25 [1]

أعظم السيئات جحود الخالق والشرك به

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس و إن كانت بقدر الله فأعظم السيئات جحود الخالق و الشرك به و طلب النفس أن تكون شريكه و ندا له أو أن تكون إلها من دونه و كلا هذين وقع فان فرعون طلب أن يكون إلها معبودا دون الله تعالى و قال {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 و قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و قال لموسى {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }الشعراء29 و {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ}الزخرف54 و إبليس يطلب أن يعبد و يطاع من دون الله فيريد أن يعبد و يطاع هو و لا يعبد الله و لا يطاع وهذا الذى فى فرعون و إبليس هو غاية الظلم و الجهل وفى نفوس سائر الانسن و الجن شعبة من هذا و هذا إن لم يعن الله العبد و يهديه و إلا وقع فى بعض ما وقع فيه إبليس و فرعون بحسب الامكان قال بعض العارفين ما من نفس إلا و فيها ما فى نفس فرعون غير أن فرعون قدر فأظهر و غيره عجز فأضمر وذلك أن الانسان إذا اعتبر و تعرف نفسه و الناس و سمع أخبارهم رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع و تعلو بحسب قدرته فالنفس مشحونة بحب العلو و الرياسة بحسب إمكانها فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه و يعادى من يخالفه فى هواه و إنما معبوده ما يهواه و يريده قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:50- 51 وأمراض القلوب ج: 1 ص: 60 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 60

إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً }الفرقان43 و الناس عنده فى هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك و غيرهم يقولون ياارباعى أي صديق و عدو فمن وافق هواهم كان وليا و إن كان كافرا مشركا و من لم يوافق هواهم كان عدوا و إن كان من أولياء الله المتقين و هذه هى حال فرعون و الواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الالهية و جحود الصانع و هؤلاء و إن كانوا يقرون بالصانع لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته و طاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه كما عادى فرعون موسى وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل و إيمان لايطلب هذا الحد بل يطلب لنفسه ما هو عنده فان كان مطاعا مسلما طلب أن يطاع فى أغراضه و إن كان فيها ما هو ذنب و معصية لله و يكون من أطاعه في هواه أحب اليه و أعز عنده ممن أطاع و خالف هواه وهذه شعبة من حال فرعون و سائر المكذبين للرسل وإن كان عالما أو شيخا أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره حتى لو كانا يقرآن كتابا واحدا كالقرآن أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها كالصلوات الخمس فانه يحب من يعظمه بقبول قوله و الاقتداء به اكثر من غيره و ربما أبغض نظيره و أتباعه حسدا و بغيا كما فعلت اليهود لما بعث الله محمدا صلى الله عليه و سلم يدعو إلى مثل ما دعا اليه موسى قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ }البقرة91 و قال تعالى {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة4 و قال تعالى {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ }الشورى14 ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به عن فرعون و سلط عليهم من انتقم به منهم فقال تعالى عن فرعون {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }القصص4 و قال تعالى عنهم {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً }الإسراء4 و لهذا قال تعالى {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً }القصص83 والله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ليذكروه و يشكروه و يعبدون و أرسل الرسل و أنزل الكتب ليعبدوه و حده و يكون الدين كله لله و تكون كلمة الله هي العليا قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 [1]

أصل الدين

وأصل الدين أن يكون الحب لله والبغض لله والموالاة لله والمعاداة لله والعبادة لله والإستعانة بالله والخوف من الله والرجاء لله والإعطاء لله والمنع لله وهذا إنما يكون بمتابعة رسول الله الذي أمره أمر الله ونهيه نهي الله ومعاداته معاداة الله وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله ولا يغضب لغضب الله ورسوله بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه ويكون مع ذلك معه شبهة دين أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة وهو الحق وهو الدين فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله وأن

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:323- 327 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص:86- 88 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 217-219

تكون كلمة الله هي العليا بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه أو فعل ذلك شجاعة وطبعا أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهدا في سبيل الله فكيف إذا كان الذي يدعي الحق والسنة هو كنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة وهذا حال المختلفين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وكفر بعضهم بعضا وفسق بعضهم بعضا ولهذا قال تعالى فيهم { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5} البينة 4- 5 وقال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً }البقرة213 يعني فاختلفوا كما في سورة يونس وكذلك في قراءة بعض الصحابة وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين أنهم كانوا على دين الإسلام وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس أنهم كانوا على الكفر وهذا ليس بشيء وتفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس بل قد ثبت عنه أنه قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وقد قال في سورة يونس {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ }يونس19 فذمهم على الإختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقا والاختلاف في كتاب الله على وجهين أحدهما أن يكون كله مذموما كقوله{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }البقرة176 والثاني أن يكون بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل كقوله {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }البقرة253 لكن إذا أطلق الإختلاف فالجميع مذموم كقوله { وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ{118} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ {119} هود 118 119 وقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ولهذا فسروا الإختلاف في هذا الموضع بأنه كله مذموم قال الفراء في اختلافهم وجهان أحدهما كفر بعضهم بكتاب بعض والثاني تبديل ما بدلوا وهو كما قال فإن المختلفين كل منهم يكون معه حق وباطل فيكفر بالحق الذي مع الآخر ويصدق بالباطل الذي معه وهو تبديل ما بدل فالإختلاف لا بد أن يجمع النوعين ولهذا ذكر كل من السلف أنواعا من هذا أحدها الإختلاف في اليوم الذي يكون فيه الإجتماع فاليوم الذي أمروا به يوم الجمعة فعدلت عنه الطائفتان فهذه أخذت السبت وهذه أخذت الأحد وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له الناس لنا فيه تبع اليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى وهذا الحديث يطابق قوله تعالى { فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ }البقرة213 وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم والحديث الأول يبين أن الله تعالى هدى المؤمني لغير ما كان فيه المختلفون فلا كانوا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء وهو مما يبين أن الإختلاف كله مذموم والنوع الثاني القبلة فمنهم من يصلي إلى المشرق ومنهم من يصلي إلى المغرب وكلاهما مذموم لم يشرعه الله والثالث إبراهيم قالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا وكلاهما كان من الإختلاف المذموم {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }آل عمران67 والرابع عيسى جعلته اليهود لغية وجعلته النصارى إلها والخامس الكتب المنزلة آمن هؤلاء ببعض وهؤلاء ببعض والسادس الدين أخذ هؤلاء بدين وهؤلاء بدين ومن هذا الباب قوله تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ

وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ }البقرة113 وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال اختصمت يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي صلى الله عليه وسلم فقالت اليهود ليست النصارى على شيء ولا يدخل الجنة إلا من كان يهوديا وكفروا بالإنجيل وعيسى وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وكفروا بالتوراة وموسى فأنزل الله هذه الآية والتي قبلها واختلاف أهل البدع هو من هذا النمط فالخارجي يقول ليس الشيعي على شيء والشيعي يقول ليس الخارجي على شيء والقدري النافي يقول ليس المثبت على شيء والقدري الجبري المثبت يقول ليس النافي على شيء والوعيدية تقول ليست المرجئة على شيء والمرجئة تقول ليست الوعيدية على شيء بل ويوجد شيء من هذا بين أهل المذاهب الأصولية والفروعية[1]

دين الإسلام مبنى على أصلين

فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين وهذا هو دين الإسلام الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل فلا يقبل من أحد دينا غيره قال تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران85 وكان نوح وابراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الأنبياء عليهم السلام على الإسلام وقال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ}المائدة44 ودين الإسلام مبنى على أصلين أن نعبد الله وحده لا شريك له وأن نعبده بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو أمر استحباب فيعبد فى كل زمان بما أمر به فى ذلك الزمان فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين وكذلك شريعة الإنجيل وكذلك فى أول الإسلام لما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الى بيت المقدس كانت صلاته اليه من الإسلام ولما أمر بالتوجه الى الكعبة كانت الصلاة اليها من الإسلام والعدول عنها الى الصخرة خروجا عن دين الإسلام فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم ولا بد فى جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين كما قال تعالى { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5}البينة 4-5 فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان الى عباد الله بالنفع والمال هو مأمور بأن يفعله خالصا لله رب العالمين لا يطلب من مخلوق عليه جزاء ولا دعاء ولا غير دعاء فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء لا دعاء ولا غيره[2]

الله سبحانه ألزم الخلق التوحيد

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 256-259

[22] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 190

أن الله ألزم الخلق التوحيد و أمرهم به و قضى به و حكم فقال {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ }الإسراء23 و قال { أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ }النحل2 و قال {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 الآية و قال تعالى {وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }النحل51 و قال { وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }التوبة31 وقال { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 و هذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته و توحيده و يحرم عليهم عبادة ما سواه فقد حكم و قضى أنه لا إله الا هو فلفظ الاله يقتضي أنه يستحق العبادة فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمرا بما يستحقه و ليس المراد هنا بالاله من عبده عابد بلا استحقاق فإن هذه الآلهة كثيرة و لكن تسميتهم آلهة و الخبر عنهم بذلك و اتخاذهم معبودين أمر باطل كما قال تعالى {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ }النجم23 و قال {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ}الحج62 فالآلهة التى جعلها عابدوها آلهة يعبدونها كثيرة لكن هي لا تستحق العبادة فليست بآلهة كمن جعل غيره شاهدا أو حاكما أو مفتيا أو أميرا و هو لا يحسن شيئا من ذلك ولابد لكل إنسان من إله يألهه و يعبده تعس عبد الدينار و عبد الدرهم فإن بعض الناس قد ألله ذلك محبة و ذلا و تعظيما كما قد بسط فى غير هذا الموضع فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم و قضى بأن لا يعبد إلا إياه [1]

التوحيد هو أول ما دعا الرسول صلى الله عليه

والتوحيد هو أول ما دعا الرسول صلى الله عليه و سلم إليه الخلق و هو أول ما يقاتلهم عليه و هو أول ما أمر رسله أن يأمروا الناس به و قد تواتر عنه أنه أول ما دعا الخلق إلى أن يقولوا لا إله إلا الله و لما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله و فى الصحيحين أنه لما بعث معاذا إلى اليمن قال له إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم و الليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فإعلمهم أن الله تعالى إفترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك و كرائم أموالهم و إتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب فقال لمعاذ ليكن أول ما تدعوهم إليه التوحيد و مع هذا كانوا من أهل الكتاب كانوا يهودا فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن و هذا الذي أمر به معاذا موافق لقوله تعالى {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ }التوبة5 و فى الآية الأخرى {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }التوبة11 و هذا مطابق لقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 و فى الصحيحين عنه صلى الله عليه و سلم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 171-173

أنه قال الإيمان بضع و ستون أو بضع و سبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله و أدناها إماطة الأذى عن الطريق و الحياء شعبة من الإيمان [1]

العبادة كلها لله وحده

فالقيام والقعود والركوع والسجود حق للواحد المعبود خالق السموات والأرض وما كان حقا خالصا لله لم يكن لغيره فيه نصيب مثل الحلف بغير الله عز وجل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت متفق عليه وقال أيضا من حلف بغير الله فقد اشرك فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وإن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وإن تناصحوا من ولاه الله أمركم وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشرك دقه وجله وحقيره وكبيره حتى أنه قد تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها بألفاظ متنوعة تارة يقول لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها وتارة ينهى عن الصلاة بعد طلوع الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس وتارة يذكر ان الشمس إذا طلعت طلعت بين قرنى شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار ونهى عن الصلاة فى هذا الوقت لما فيه من مشابهة المشركين فى كونهم يسجدون للشمس فى هذا الوقت وإن الشيطان يقارن الشمس حينئذ ليكون السجود له فكيف بما هو أظهر شركا ومشابهة للمشركين من هذا وقد قال الله تعالى فيما امر رسوله أن يخاطب به اهل الكتاب {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران64 وذلك لما فيه من مشابهة أهل الكتاب من إتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ونحن منهيون عن مثل هذا ومن عدل عن هدى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وهدى أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى ما هو من جنس هدى النصارى فقد ترك ما أمر الله به ورسوله [2]

الدين هو التعاهد والتعاقد

و الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان اى ذللته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له [3]

الدين هو التعاهد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص:354- 356

[2] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 93-95

[3] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 152

باتفاقهم علي ذلك وهو التعاهد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالي {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6}الكافرون1-6 وقال تعالي { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ }يوسف76 وقال تعالي{قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ }التوبة29 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فلله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبينا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لاينفع صاحبه وقد قال سبحانه {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وقال تعالي {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ}البقرة193 وقال تعالي { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ }التوبة36 وقال تعالي {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }الأنعام161 وقال تعالي {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ }التوبة122 وفي الصحيحين عن النبي انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالي { وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }البقرة217 وقال تعالي{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }المائدة54 وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره كما قال تعالي {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ }آل عمران19 وقال تعالي {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران85 وقال تعالي {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }آل عمران83 وقال تعالي {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ }الشورى13 وقال تعالي {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ }الأنعام159 كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة

والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالي { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً } هود7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالي{وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً } المائدة3 وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به [1]

أعظم عون لولي الأمر وللعامة

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر وأما قرانه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدا قال تعالى { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } البينة5 فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه وفي الزكاة بالإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل معروف صدقة فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئا قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئا قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل فإن لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأم سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة[2]

النية المعهودة فى العبادات

أن النية المعهودة فى العبادات تشتمل على أمرين على قصد العبادة و قصد المعبود و قصد المعبود هو الأصل الذي دل عليه قوله سبحانه { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } البينة5 و قول النبى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله و رسوله و من كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص:36- 40

[2] السياسة الشرعية ج: 1 ص: 112

إليه فإنه صلى الله عليه وسلم ميز بين مقصود و مقصود و هذا المقصود فى الجملة لابد منه فى كل فعل اختياري قال النبى صلى الله عليه و سلم أصدق الأسماء حارث و همام فإن كل بشر بل كل حيوان لابد له من همة و هو الإرادة و من حرث و هو العمل إذ من لوازم الحيوان أنه يتحرك بإرادته ثم ذلك الذي يقصده هو غايته و إن كان قد يحدث له بعد ذلك القصد قصد آخر و إنما تطمئن النفوس بوصولها الى مقصودها وأما قصد العبادة فقصد العمل الخاص فإن من أراد الله و الدار الآخرة بعمله فقد يريده بصلاة و قد يريده بحج و كذلك من قصد طاعته بامتثال ما أمره به فقد أطاعه فى هذا العمل و قد يقصد طاعته فى هذا العمل فهذا القصد الثاني مثل قصد الصلاة دون الصوم ثم صلاة الظهر دون صلاة العصر ثم الفرض دون النفل و هذه النية التى تذكر غالبا فى كتب الفقه المتأخرة و كل واحدة من النيتين فرض فى الجملة أما الأولى فبها يتميز من يعبد الله مخلصا له الدين ممن يعبد الطاغوت أو يشرك بعبادة ربه و من يريد حرث الآخرة ممن يريد حرث الدنيا و هو الدين الخالص لله الذي تشترك فيه جميع الشرائع الذي نهى الأنبياء عن التفرق فيه كما قال تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ }الشورى13 ولهذا كان دين الأنبياء واحدا و إن كانت شرائعهم متنوعة قال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 و قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 و قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 و قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ }البقرة21 وأما النية الثانية فبها تتميز أنواع العبادات و أجناس الشرائع فيتميز المصلي من الحاج و الصائم و يتميز من يصلي الظهر و يصوم قضاء رمضان ممن يصلي العصر و يصوم شيئا من شوال و يتميز من يتصدق عن زكاة ماله ممن يتصدق من نذر عليه أو كفارة وأصناف العبادات مما تتنوع فيه الشرائع إذ الدين لا قوام له إلا الشريعة إذ أعمال القلوب لا تتم إلا بأعمال الأبدان كما أن الروح لا قوم لها إلا بالبدن أعني ما دامت في الدنيا وكما أن معاني الكلام لا تتم إلا بالألفاظ و بمجموع اللفظ و المعنى يصير الكلام كلاما و إن كان المعنى لا يختلف باختلاف الأمم و اللفظ يتنوع بتنوع الأمم ثم قد يكون لغة بعض الأمم أبلغ فى إكمال المعنى من بعض و بعض ألفاظ اللغة أبلغ تماما للمعنى من بعض فالدين العام يتعلق بقصد القلب ثم لابد من عمل بدني يتم به القصد و يكمل فتنوعت الأعمال البدنية كذلك و تنوعت لما اقتضته مشيئة الله و رحمته لعباده و بحكمته فى أمره و إنما و جب كل و احد من النيتين لأن الله فرض علينا أن نقيم دينه بالشريعة التى بعث بها رسوله محمدا صلى الله عليه و سلم إذ لا يقبل منا أن نعبده بشريعة غيرها والأعمال المشروعة مؤلفة من أقوال و أعمال مخصوصة قد يعتبر لها أوقات و أمكنة مخصوصة و صفات كلما كان فرضا علينا أن نعبد الله و أن تكون العبادة على و صف معين كان فرضا علينا أن نقصده القصد الذي نكون به عابدين و القصد الذي به نكون عابدين بنفس العمل الذي أمر به ثم اعلم أن النيات قد تحصل جملة و قد تحصل تفصيلا و قد تحصل بطريق التلازم و قد تتنوع النيات حتى يكون بعضها أفضل من بعض بحيث يسقط الفرض بأدناها لكن الفضل لمن أتى بالأعلى و قد يكون الشيء مقصودا بالقصد الثاني دون الأول ثم قد يحضر الإنسان القصد الثاني و يذهل عن القصد الأول فإن الإنسان فى قصده العبادة قد يريد و جه الله من حيث الجملة أو يريد طاعته أو عبادته أو

التقرب إليه أو يريد ثوابه من غير أن يستشعر ثوابا معينا أو يرجو ثوابا معينا فى الآخرة أو في الدنيا أو فيهما أو يخاف عقابا إما مجملا و إما مفصلا و تفاصيل هذه النيات باب واسع [1]

المراءاة فى العبادات من أعظم الذنوب

وقد ذكر الله تعالى الإخلاص فى كتابه في غير موضع كقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }البينة5 وقوله { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ {3}الزمر2-3 وقوله {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }الزمر14 وغير ذلك من الآيات وإخلاص الدين هو أصل دين الإسلام ولذلك ذم الرياء فى مثل قوله { وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء142 وقال تعالى { كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ }البقرة264 الآية وقوله تعالى {وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قَرِيناً }النساء38 الآية [2]

فإن مراءاة الناس في العبادات المختصة كالصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن من أعظم الذنوب قال الله تعالى{ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{7} الماعون4-7 وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء142 فأما المرائى بالفرائض فكل أحد يعلم قبح حاله وأن الله يعاقبه لكونه لم يعبده مخلصا له الدين والله تعالى يقول {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وقال تعالى{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }الزمر2 فهذا فى القرآن كثير وأما المرائى بنوافل الصلاة والصوم والذكر وقراءة القرآن فلا يظن الظان أنه يكتفى فيه بحبوط عمله فقط بحيث يكون لا له ولا عليه بل هو مستحق للذم والعقاب على قصده شهرة عبادة غير الله إذ هى عبادات مختصة ولا تصح إلا من مسلم ولا يجوز إيقاعها على غير وجه التقرب بخلاف ما فيه نفع العبد كالتعليم والإمامة فهذا فى الإستئجار عليه نزاع بين العلماء والله أعلم [3]

آكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة

جعل الله الاسلام مبينا على أركان خمسة ومن آكدها الصلاة وهي خمسة فروض وقرن معها الزكاة فمن آكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة الاحسان الى خلقه فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آيه ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة من ذلك قوله تعالى {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ }البقرة43 وقال {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 23-27

[2] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 257

[3] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 507

الدِّينِ }التوبة11 وقال {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وفي الصحيحين من حديث أبى هريرة رواه مسلم من حديث عمر أن جبريل سأل النبى عن الاسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذا الى اليمن قال له إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب فصل وجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملا فبينه الرسول وان بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن فقد سمى الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينموا إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا }الشمس9 {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى }الأعلى14 نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يطهر ويزيد في المعنى [1]

الإرادة التى يحبها الله ورسوله

فإن الحى لابد له من ارادة فلا يمكن حيا أن لا تكون له إرادة فإن الإرادة التى يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر إستحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له والله تعالى وصف الأنبياء والصديقين بهذه الإرادة فقال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }الأنعام52 وقال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 ولا عبادة إلا بإرادة الله ولما أمر به وقال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ }البقرة112 أى أخلص قصده لله وقال تعالى { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة [2]

{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ }

قال تعالى { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 و قوله { وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً }التوبة31 و هذا إختيار الزجاج و غيره و هذا هو المعروف عن مجاهد بالإسناد الثابت قال إبن أبى حاتم ثنا أبو سعيد الأشج { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 لآمرهم و أنهاهم كذلك روي عن الربيع بن أنس قال ما خلقتهما إلا للعبادة و يدل على هذا مثل قوله {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }القيامة36 يعنى لايؤمر و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 6-9

[2] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 495-496

لا ينهي و قوله {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ }الفرقان77 أي لولا عبادتكم و قوله {مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ }النساء147 و قوله {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا}الأنعام130 إلى قوله { وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ }الأنعام131 و قوله {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{61}يس60-61 الآيات وما بعدها و قالت الجن لما سمعوا القرآن {يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {30} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ{31}الأحقاف30-31 الآية و ما بعدها و قالت الجن {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً }الجن14 الآية و ما بعدها وقد قال فى القرآن فى غيرموضع {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ }البقرة21 {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ }النساء1 فقد أمرهم بما خلقهم له و أرسل الرسل إلى الإنس و الجن و محمد أرسل إلى الثقلين و قرأ القرآن على الجن و قد روى أنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن و جعل يقرأ {فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }الرحمن13 يقولون و لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعا و هو الذي تفهمه جماهير المسلمين و يحتجون بالآية عليه و يعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه لا ليضيعوا حقه و فى الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه و سلم قال له يامعاذ أتدري ما حق الله على عبادة قال الله و رسوله أعلم قال فإن حق الله على عبادة أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله و رسوله أعلم قال فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم و فى المسند عن إبن عمر عن النبى صلى الله عليه و سلم قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله و حده لا شريك له و جعل رزقى تحت ظل رمحي جعل الذل و الصغار على من خالف أمرى و من تشبه بقوم فهو منهم [1]

فلا خالق إلا الله ولا رب إلا الله ولا يجيب المضطرين ويرزق العباد إلا الله فهو الذى يعطى ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل وهو الذى يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ويستعاذ به ويلتجىء العباد إليه فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد كما قال تعالى فى فاتحة الكتاب {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فالعباد لا ينبغى لهم أن يعبدوا الا الله كما قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5[2]

دِينُ الْقَيِّمَةِ هو ما إختص به محمد

لفظ الإسلام يستعمل على وجهين متعديا كقوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ }النساء125 وقوله { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ }آل عمران20 الآية وقوله فى دعاء المنام أسلمت نفسي إليك ويستعمل لازما كقوله {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }البقرة131 وقوله {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً}آل عمران83 وقوله عن بلقيس

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 58

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 489

{ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }النمل44 وهو يجمع معنيين أحدهما الإنقياد والإستسلام و الثاني إخلاص ذلك وإفراده كقوله {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ }الزمر29 وعنوانه قول لا إله إلا الله وله معنيان أحدهما الدين المشترك وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي بعث به جميع الأنبياء كما دل على إتحاد دينهم نصوص الكتاب والسنة والثانى ما إختص به محمد من الدين والشرعة والمنهاج وهو الشريعة والطريقة والحقيقة وله مرتبتان أحدهما الظاهر من القول والعمل وهي المبانى الخمس والثاني أن يكون ذلك الظاهر مطابقا للباطن فبالتفسير الأول جاءت الآيتان فى كتاب الله والحديثان عن رسول الله وهو أعم من الايمان فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا وبالتفسير الثانى يقال {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ }آل عمران19 وقوله {وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5[1]

هل فى اللغة أسماء شرعية ؟

وبسبب الكلام فى مسألة الايمان تنازع الناس هل فى اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها فى اللغة أو أنها باقية فى الشرع على ما كانت عليه فى اللغة لكن الشارع زاد فى أحكامها لا فى معنى الاسماء وهكذا قالوا فى إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية فى كلام الشارع على معناها اللغوى لكن زاد فى أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهى بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها مثل الزكاة هى اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله قال تعالى { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ{7}فصلت 6-7 وهى عند المفسرين التوحيد وقد بين النبى مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد فى الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ }بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}العلق9-10 وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبى عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 635-636

عقبيه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10}العلق9-10 فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبى لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتمون بالنبى فإذا قيل لهم {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ } عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد[1]

عماد الدين

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة[2]

عطف خاص على عام

عطف خاص على عام والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 كقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح[3]

قطب رحى الدين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 299-300

[2] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

[3] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

قال تعالى { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحى الدين وذلك أن العبد بل كل حى بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحى هى من جنس النعيم واللذة والمضرة هى من جنس الألم والعذاب فلابد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع ويلتذ به والثانى هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثانى أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حى لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحى فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعه دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثانى من معنى الربوبية إذ الاله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقوله { عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }الممتحنة4 وقوله تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ }الفرقان58 وقوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ }الرعد30 وقوله {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً {9}المزمل8-9 فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين[1]

عمل القلب أصل العمل

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصرى ما يقوله فى قصائده فى مدح الرسول من الإستغاثة به مثل قوله بك أستغيث وأستعين وأستنجد ونحو ذلك وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم والإستعانة بهم أحياء وأمواتا فإنى أنكرت ذلك فى مجالس عامة وخاصة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 21

وبينت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 وقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله [1]

فالعبادة والإستعانة فلله وحده لا شريك له كما قال {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5[2]

فاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال { اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ }البقرة21 فالعبادة لابد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود واذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وانابة كان وبالا على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ }الأعراف18 فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وانما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابدا له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }البقرة21 وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لارب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }نوح3 وكذلك الرسل فى سورة الأعراف وغيرها وقال تعالى { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 71

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

[3] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 12-14

ونحن علينا أن نتبع ما أنزل الينا من ربنا من الكتاب والحكمة ونلزم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ونعتصم بحبل الله جميعا ولا نتفرق ونأمر بما أمر الله به وهو المعروف وننهى عما نهى عنه وهو المنكر وأن نتحرى الاخلاص لله فى أعمالنا فان هذا هو دين الإسلام قال الله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5[1]

إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان

وان الله سبحانه و تعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع {أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ }و إقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع و السجود فإني أراكم من بعد ظهري و في رواية أتموا الركوع و السجود و سيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم اجلس حتى تطمئن جالسا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر واقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تستوى قائما ثم افعل ذلك في صلاتك كلها و في رواية له ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تستوي قائما و باقيه مثله و في رواية و إذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك و ما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك وعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه أن رجلا دخل المسجد فذكر الحديث و قال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر و يحمد الله عز و جل و يثني عليه و يقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راكعا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائما ثم يسجد حتى يطمئن ساجدا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعد ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته و في رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز و جل فيغسل وجهه و يديه إلى المرفقين و يمسح برأسه و رجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله و يحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له و تيسر و ذكر نحو اللفظ الأول و قال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه و ربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله و تسترخي ثم يكبر فيستوي قاعدا على مقعدته و يقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود و النسائي و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 516

ابن ماجه و الترمذي و قال حديث حسن و الروايتان لفظ أبي داود و في رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن و بما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك و امدد ظهرك و قال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى وفي رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز و جل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن و قال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن و افترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفي رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فاقرأ به و إلا فاحمد الله عز و جل و كبره و هلله و قال فيه و إن انتقصت منه شيئا انتقصت من صلاتك فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر ذلك المسيء في صلاته بأن يعيد الصلاة و أمر الله و رسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب و أمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع و السجود و أمره المطلق على الإيجاب و أيضا قال له فإنك لم تصل فنفى أن يكون عمله الأول صلاة و العمل لا يكون منفيا إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز و جل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة [1]

النية لها ركنان

النية لها ركنان احدهما ان ينوي العبادة و العمل و الثاني ان ينوي المعبود المعمول له فهو المقصود بذلك العمل و المراد به الذي عمل العمل من اجله كما بينه النبي صلى الله عليه و سلم بقوله إنما الاعمال بالنيات و إنما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله و من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه فميز صلى الله عليه و سلم بين من كان عمله لله و من كان عمله لمال أو نكاح و الذي يجب ان يكون العمل له هو الله سبحانه وحده لا شريك له فان هذه النية فرض في جميع العبادات بل هذه النية اصل جميع الاعمال و منزلتها منها منزلة القلب من البدن و لا بد في جميع العبادات ان تكون خالصة لله سبحانه كما قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ{3} الزمر2-3 و قال تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }الزمر11 وقال تعالى {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }الزمر14 و قال تعالى {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }غافر14 و قال سبحانه {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }غافر65 و قال {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ }الصافات40 في عدة مواضع و قال تعالى {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً }النساء146 و قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 و هذه الآيات كما دلت على فرض العبادة ففرضت العبادة و ان تكون لله خالصة و هذه حقيقة الاسلام و ما في القران من قوله اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا و قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 و قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 إلى

---

[1] القواعد النورانية ج: 1 ص: 26

غير ذلك من الآيات كلها تدل على هذا الاصل بل جماع مقصود الكتاب و الرسالة هو هذا و هو معنى قول لا اله الا الله و هو دين الله الذي بعث به جميع المرسلين و ضد هذه النية الرياء و السمعة و هو ارادة ان يرى الناس عمله و ان يسمعوا ذكره و هؤلاء الذين ذمهم الله تعالى في قوله { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} الماعون 4-6 و قال{ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ }النساء142 و من صلى بهذه النية فعمله باطل يجعله الله هباء منثورا و كذلك من ادى شيئا من الفرائض و الكلام في هذه النية و تفاصيلها لا يختص بعبادة دون عبادة اذ الفعل بدون هذه النية ليس عبادة اصلا الركن الثاني ان ينوي ما تتميز به عبادة عن عبادة فينوي الصلاة لتتميز عن سائر اجناس العبادات وينوي صلاة الظهر مثلا لتتميز عن صلوات سائر الاوقات و هكذا في كل ما يميز تلك العبادة من غيرها سواء كانت مفروضة ام مستحبة و هذه النية هي التي يتكلم عليها في هذه المواضع اذ الكلام هنا في فروع الدين و شرائعه و تلك النية متعلقة باصل الدين و جماعه و الفقه في شرائع الدين و فروعه إنما هو بعد تحقيق اصوله اذ الفروع كمال الاصول و اتمامها[1]

الصلاة في أصل اللغة الدعاء

الصلاة في أصل اللغة الدعاء و منه قول تعالى { وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ }التوبة103 و قوله تعالى {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ }التوبة99 و قول النبي صلى الله عليه و سلم إذا دعي أحدكم فليجب فان كان مفطرا فليطعم و إن كان صائما فليصل رواه مسلم و الداعي يؤم المدعو و يقصده و سمي الثاني من الخيل مصليا لاتباعه السابق و قصده إياه ثم سمي عظم الورك صلا لأنه هو الذي يقصده المصلي من السابق ثم اتسع ذلك حتى قال علي رضي الله عنه سبق رسول الله صلى الله عليه و سلم و صلى أبو بكر و ثلث عمر و لما بين القاصد و المقصود من الإيصال و القرب كان منه في الاشتقاق الأوسط الوصل لأن فيه الصاد و اللام و الواو و لهذا يقال الصلاة صلة بالله و منه الاشتقاق الأكبر صلى النار و اصطلابها لما فيه من المماسة و المقاربة و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }غافر60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ }القصص88 فان الدعاء في هذه المواضع يراد به نفس اتخاذ المدعو ربا و إلها بحيث يسأل و يعبد و قد فصل معنى الدعاء بقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 و قوله تعالى {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 و في قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }هود88 و نحو ذلك من الآي فهو يعبد من حيث هو اله و يسأل من حيث هو رب و إن كان كل عابد سائلا و طالبا و كل سائل عابدا و قاصدا من جهة الإلتزام فسميت العبادات لله المحضة مثل الصلاة و الذكر و السؤال و الركوع و السجود و الطواف صلاة أو هي دعاء لله و عبادة لله بلا توسط شيء آخر و لهذا قال ابن مسعود ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة و إن كنت في السوق غلب هذا الاسم على ما كان فيه فعل مثل القيام و السجود و الطواف دون القول المحض

---

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 576

كالقراءة و الذكر و السؤال و لأن ذلك عبادة بجميع البدن و لهذا اشترطت له الطهارة و إن اشتركا في استحباب الطهارة ثم غلب على القيام و الركوع و السجود مع أذكارها لأنها أخص بالتعبد من الطواف و لهذا حرم فيه الكلام و العمل الكثير و سمي السجود المفرد كسجود التلاوة و الشكر و القيام المفرد كقيام الجنازة صلاة و إن كان اغلب الصلوات المشروعة هي مما اشتملت على القيام و القعود و الركوع و السجود فإذا أطلق اسم الصلاة في الشرع لم يفهم منه إلا هذا و هي القيام و الركوع و السجود لله بالأذكار المشروعة فيها ثم قال جماعة من أصحابنا منهم أبو الخطاب و ابن عقيل هي منقولة في اللغة إلى الشرع و معدول بها عن المفهوم الأول إلى مفهوم آخر و قال القاضي و غيره ليست منقولة بل ضمت إليها الشريعة شروطا و قيودا و هي مبقاة على ما كانت عليه و كذلك القول في اسم الزكاة و الصيام و غيرها من الأسماء الشرعية و تحقيق ذلك إن تصرف الشرع فيها كتصرف أهل العرف في بعض الأسماء اللغوية إما تخصيصها ببعض معانيها كالدابة و إما تحويلها إلى ما بينه و بين المعنى الأول سبب كإسم الراوية و الغائط و العذرة فالصلاة كانت اسما لكل دعاء فصاري إسما لدعاء مخصوص أو كانت اسما لدعاء فنقلت إلى الصلاة الشرعية لما بينها و بين الدعاء من المناسبة و الأمر في ذلك متقارب نعم قد يسرف بعض من يقول هي منقولة فلا يشترط إن يكون بين المنقولة منه والمنقولهه إليه مناسبة بل يجعله وصفا ثانيا حتى كأنه ليس من المجاز اللغوي و يسرف من يقول هي منقولة حتى يعتقد أن مفهومها في الشرع هو محض الدعاء و المسألة فقط مما يكون في اللغة و ما خرج عن ذلك من قيام و قعود و غير ذلك فهو شرط في الحكم بمعنى الصلاة التي هي الدعاء لا تجزئ إلا على هذا الوجه كمالا تجزئ إلا بتقدم الإيمان و الطهارة و لا يجعل هذه الأفعال جزءا من المسمى و لا مفهومة من نفس الاسم و كلا القولين طرف و خيار الأمور أوسطها و بهذا التقرير قول من يقول هي منقولة اقرب إلى الصواب وكذلك أيضا بهذا التقرير أن معنى النقل تخصيصها ببعض معانيها وهي في ذلك أبلغ من تخصيص أهل العرف الاسم ببعض معانيه كالدابة و النجم لأن ذلك التخصيص كان معلوما بخلاف ما كان من خصائص الصوم و الصلاة و الزكاة فانه لم يكن معروفا معناه و لا دلالة للفظ عليه و قد اتفقوا على إن الصلاة المشروعة بعد بيان النبي صلى الله عليه و سلم صارت في المفهوم من لفظ الصلاة في الكتاب و السنة و من ادعى بعد ذلك أنها بعد ذلك تصرف إلى مجرد المعنى اللغوي فقد غلط و الصلاة واجبة في الجملة قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وقال { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }التوبة11و نصوص القرآن التي فيها ذكر الصلاة كثيرة جدا و كذلك السنة منها حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال بني الإسلام على خمس شهادة أن لا اله إلا الله و أن محمدا رسول الله و إقام الصلاة وإيتاء الزكاة و حج البيت و صوم رمضان متفق عليه و أجمعت الأمة على أن الصلاة واجبة في الجملة و أنها اعظم مباني الإسلام الفعلية و هي عمود الدين[1]

فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 27

جبل مدارسة العلم التسبيح فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي[1]

الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال

فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال و تبين ذلك من وجوه نذكر بعضها مما انتزعه الإمام احمد و غيره منها أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تعم جميع الطاعات و قد خصت الصلاة بذلك الأمر و الاصطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل{ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 و إذا ذكرت المناسك قيل {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام162 و إن ذكر الصوم قيل {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }البقرة45فان الصبر المعدود في المثاني هو الصوم قال صلى الله عليه و سلم صوم شهر الصبر و ثلاثة أيام من كل شهر[2]

العبادات المقصودة لا تصح إلا بنية

وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بتحقيق التوحيد وتجريده ونفي الشرك بكل وجه حتى في الألفاظ كقوله صلى الله عليه وسلم لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء محمد بل ما شاء الله ثم شاء محمد وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أجعلتني لله ندا قل ما شاء الله وحده والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله تحقيقا لقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 فالصلاة لله وحده والصدقة لله وحده والصيام لله وحده والحج لله وحده إلى بيت الله وحده فالمقصود من الحج عبادة الله وحده في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها ولهذا كان الحج شعار الحنيفية حتى قال طائفة من السلف حنفاء لله أي حجاجا فإن اليهود والنصارى لا يحجون البيت[3]

النية وهي أن يقصد الطواف بالبيت فلو دار حول البيت طالبا لرجل أو متروحا بالمشي ونحو ذلك لم يكن ذلك طوافا كما لو أمسك عن المفطرت ولم يقصد الصوم أو تجرد عن المخيط ولبى ولم يقصد الاحرام وهذا أصل مستقر في جميع العبادات المقصودة لا تصح إلا بنية لقوله سبحانه {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }البينة5 [4]

العبادة كلها لله وحده لا شريك له

---

[1] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 1

[2] شرح العمدة ج: 4 ص: 89

[3] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 449

[44] شرح العمدة ج: 3 ص: 582

فالقيام والقعود والركوع والسجود حق للواحد المعبود خالق السماوات والأرض وما كان حقا خالصا لله لم يكن لغيره فيه نصيب مثل الحلف بغير الله عز وجل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت متفق عليه وقال أيضا من حلف بغير الله فقد أشرك فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشرك دقه وجله وحقيره وكبيره[1]

الغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران85 وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا[2]

لطائف لغوية

---

[1] زيارة القبور ج: 1 ص: 57

[2] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

1-قال تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }البينة5 و الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان اى ذللته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 152

سورة البينة6-8

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ{6} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ{7} جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ{8}

لفظ الكفر

لفظ الكفر و النفاق فالكفر اذا ذكر مفردا فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ }البينة6 وأمثال هذه النصوص كثير فى القرآن فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم فى الباطن كفار ليس معهم من الايمان شىء كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر بل المنافقون فى الدرك الأسفل من النار كما أخبر الله بذلك فى كتابه ثم قد يقرن الكفر بالنفاق فى مواضع ففى أول البقرة ذكر أربع آيات فى صفة المؤمنين وآيتين فى صفة الكافرين وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين فقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً }النساء140[1]

لفظ المشركين

لفظ المشركين قد يقرن بأهل الكتاب فقط وقد يقرن بالملل الخمس كما فى قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }الحج17 و الأول كقوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ }البينة6[2]

لفظ المؤمنين

ويذكر لفظ المؤمنين مقرونا بالذين هادوا والنصارى والصابئين ثم يقول { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة62 فالمؤمنون

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 54

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 55

فى ابتداء الخطاب غير الثلاثة والايمان الآخر عمهم كما عممهم فى قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ }البينة7 وسنبسط هذا ان شاء الله تعالى[1]

الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ }البقرة98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ }الأحزاب7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ }محمد2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا }محمد2 وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ }البقرة238 وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيصا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عمن سواهم[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 14

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }التوبة33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }البينة7 [1]

لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الاسلام واخباره أنه دينه الذى ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}التوبة72 فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ{7} جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ {8} البينة 7-8 الآيات فى هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة فى الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق بإسم الايمان وكما علق بإسم التقوى واسم البر فى مثل قوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ }المرسلات41 وقوله {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ }المطففين22 وباسم أولياء الله كقوله { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{62} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{64} يونس62-64 فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون فى قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده فى النار لأن فى قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان[2]

لفظ الإيمان

اسم الإيمان فإنه تارة يذكر مفردا مجردا لا يقرن بالعمل الواجب فيدخل فيه العمل الواجب تضمنا ولزوما وتارة يقرن بالعمل فيكون العمل حينئذ مذكورا بالمطابقة والنص ولفظ الإيمان يكون مسلوب الدلالة عليه حال الاقتران أو دالا عليه ومن استقرأ ذلك علم أن الاسم الشرعي كالإيمان والصلاة والوضوء والصيام لا ينفيه الشارع عن شيء إلا لانتفاء ما هو واجب فيه لا لانتفاء ما هو مستحب فيه وأما قوله تعالى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ونحو ذلك فالعمل مخصوص بالذكر إما توكيد وإما لأن الاقتران لا يغير دلالة الاسم فهذا موقف يزول فيه كثير من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 347-348

النزاع اللفظي في ذلك وأيضا فإن الإيمان يتنوع بتنوع ما أمر الله تعالى به العبد فحين بعث الرسول لم يكن الإيمان الواجب ولا الإقرار ولا العمل مثل الإيمان الواجب في آخر الدعوة فإنه لم يكن يجب إذ ذاك الإقرار بما أنزله الله تعالى بعد ذلك من الإيجاب والتحريم والخبر ولا العمل بموجب ذلك بل كان الإيمان الذي أوجبه الله تعالى يزيد شيئا فشيئا كما كان القرآن ينزل شيئا فشيئا والدين يظهر شيئا فشيئا حتى أنزل الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا وكذلك العبد أول ما يبلغه خطاب الرسول عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام إنما يجب عليه الشهادتان فإذا مات قبل أن يدخل عليه وقت صلاة لم يجب عليه غير الإقرار ومات مؤمنا كامل الإيمان الذي وجب عليه وإن كان إيمان غيره الذي دخلت عليه الأوقات أكمل منه فهذا إيمانه ناقص كنقص دين النساء حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم إنكن ناقصات عقل ودين أما نقصان عقلكن فشهادة امرأتين بشهادة رجل واحد وأما نقصان دينكن فإن إحداكن إذا حاضت لم تصل ومعلوم أن الصلاة حينئذ ليست واجبة عليها وهذا نقص لا تلام عليه المرأة لكن من جعل كاملا كان أفضل منها بخلاف من نقص شيئا مما وجب عليه فصار النقص في الدين والإيمان نوعين نوعا لا يذم العبد عليه لكونه لم يجب عليه لعجزه عنه حسا أو شرعا وإما لكونه مستحبا ليس بواجب ونوعا يذم عليه وهو ترك الواجبات فقول النبي صلى الله عليه وسلم لجارية معاوية بن الحكم السلمي لما قال لها أين الله قالت في السماء قال من أنا قالت أنت رسول الله قال أعتقها فإنها مؤمنة ليس فيه حجة على أن من وجبت عليه العبادات فتركها وارتكب المحظورات يستحق الاسم المطلق كما استحقته هذه التي لم يظهر منها بعد ترك مأمور ولا فعل محظور ومن عرف هذا تبين أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لهذه إنها مؤمنة لا ينافي قوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن فإن ذلك نفى عنه الاسم لانتفاء بعض ما يجب عليه من ترك هذه الكبائر وتلك لم تترك واجبا تستحق بتركه أن تكون هكذا ويتبع هذا أن من آمن بما جاء به الرسل مجملا ثم بلغه مفصلا فأقر به مفصلا وعمل به كان قد زاد ما عنده من الدين والإيمان بحسب ذلك ومن أذنب ثم تاب أو غفل ثم ذكر أو فرط ثم أقبل فإنه يزيد دينه وإيمانه بحسب ذلك كما قال من قال من الصحابة كعمير بن حبيب الخطمي وغيره الإيمان يزيد وينقص قيل له فما زيادته ونقصانه قال إذا حمدنا الله وذكرناه وسبحناه فذلك زيادة وإذا غفلنا ونسينا وأضعنا فذلك نقصانه فذكر زيادته بالطاعات وإن كانت مستحبة ونقصانه بما أضاعه من واجب وغيره وأيضا فإن تصديق القلب يتبعه عمل القلب فالقلب إذا صدق بما يستحقه الله تعالى من الألوهية وما يستحق الرسول من الرسالة تبع ذلك لا محالة محبة الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام وتعظيم الله عز وجل ورسوله والطاعة لله ورسوله أمر لازم لهذا التصديق لا يفارقه إلا لعارض من كبر أو حسد أو نحو ذلك من الأمور التي توجب الاستكبار عن عبادة الله تعالى والبغض لرسوله عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك من الأمور التي توجب الكفر ككفر إبليس وفرعون وقومه[1]

إنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي

[1] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 176-178

التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [1]

من جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه { رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }البينة8[2]

فان الله تعالى سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمى نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيما الى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى { رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ }البينة8وامثال ذلك فالقول فى بعض هذه الصفات كالقول فى بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التى وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 رد على أهل النفى والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

[2] العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 10

وقد اتفق جميع اهل الاثبات على ان الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة [1]

اسماء الله سبحانه وصفاته مختصة به

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأ سماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مسماهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمى الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }البقرة255 وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }الروم19وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ }الروم19 اسم للحى المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطق مسمى موجود فى الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا فى جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمى صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه ووصف نفسه بالرضا ووصف عبده بالرضا فقال{ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ }البينة8 ومعلوم أن رضى الله ليس مثل رضى العبد[2]

وجوب الرضا بالمشروع

وقد تنازع الناس في الرضا بالفقر والمرض والذل ونحوها هل هو مستحب أو واجب على قولين في مذهب أحمد وغيره وأكثر العلماء على أن الرضا بذلك مستحب وليس بواجب لأن الله أثنى على أهل الرضا بقوله { رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ }البينة8 وإنما أوجب الله الصبر فإنه أمر به في غير آية ولم يأمر بالرضا بالمقدور ولكن أمر بالرضا بالمشروع فالمأمور به يجب الرضا به كما في قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ }التوبة59 [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 195

[2] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 13

[3] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 204

الله تعالى راض عن السابقين

والله تعالى راض عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان قال تعالى{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ{7} جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ{8} البينة 8-7 [1]

الجزاء من جنس العمل

وفى صحيح البخارى عن النبى قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولابد له منه فهذا المؤمن الذى تقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض احبه الله لأنه فعل ما احبه الله والجزاء من جنس العمل قال الله تعالى { جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }البينة8 وفى الحقيقة فالعبد الذى يرضى الله لرضاه ويغضب لغضبه وهو يرضى لرضا الله ويغضب لغضب الله وليكن هذان مثالان فمن أحب ما أحب الله وابغض ماأبغض الله ورضى ما رضى الله لما يرضى الله ويغضب لما يغضب[2]

لطائف لغوية

1- قال تعالى { جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }البينة8 قوله تعالى {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا }يوسف82 وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال [3]

2- قال تعالى { جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }البينة8 و الخشية فى القرآن مطلقة تتناول خشية الله و خشية عذابه فى الدنيا و الآخرة [4]

---

[1] الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 120 و الاستقامة ج: 2 ص: 83

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 516

[3] مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

[44] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 174

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الزلزلة
99

رقية محمود الغرايبة

~§§ الزلزلة(مدنية)8 §§~

مقدمة سورة الزلزلة

إذا زلزلت تعدل نصف القرآن

روى الترمذي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن و من قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له ربع القرآن و عن إبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا زلزلت تعدل نصف القرآن و قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن رواهما الترمذي وقال عن كل منهما غريب [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 14

سورة الزلزلة 1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا{1} وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا{2} وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا{3} يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا{4} بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا{5} يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ{6} فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}

العمل الصالح يثاب عليه المؤمن

قال تعالى { إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا{1} وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا{2} وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا{3} يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا{4} بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا{5} يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ{6} فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} سورة الزلزلة 1-8 فمن كان مؤمنا وعمل عملا صالحا لوجه الله تعالى فان الله لا يظلمه بل يثيبه عليه وأما ما يفعله من المحرم اليسير فيستحق عليه العقوبة ويرجى له من الله التوبة كما قال الله تعالى {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ }التوبة102 وإن مات ولم يتب فهذا أمره إلى الله هو أعلم بمقدار حسناته وسيئاته لا يشهد له بجنة ولا نار بخلاف الخوارج والمعتزلة فانهم يقولون إنه من فعل كبيرة أحبطت جميع حسناته وأهل السنة والجماعة لا يقولون بهذا الاحباط بل أهل الكبائر معهم حسنات وسيئات وأمرهم إلى الله تعالى وقوله تعالى { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }المائدة27 أى من اتقاه فى ذلك العمل بأن يكون عملا صالحا خالصا لوجه الله تعالى وأن يكون موافقا للسنة كما قال تعالى { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً }الكهف110 وكان عمر بن الخطاب يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وأهل الوعيد يقولون لا يتقبل العمل الا ممن اتقاه بترك جميع الكبائر وهذا خلاف ما جاء به الكتاب والسنة فى قصة حمار الذى كان يشرب الخمر وقال النبى إنه يحب الله ورسوله وكما فى أحاديث الشفاعة وإخراج أهل الكبائر من النار حتى يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فقد قال الله تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ }فاطر32الآية ومع هذا فقد صح عن النبى أنه قال لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن وقال من شرب الخمر فى الدنيا ولم يتب منها حرمها فى الآخرة وقال لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وساقيها وآكل ثمنها[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 661-662

الله سبحانه مقدس منزه ان يظلم احدا

ان الله سبحانه مقدس منزه ان يظلم احدا كما قال { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً }الكهف49 وقد أمر عباده ان يكونوا قوامين بالقسط وقال {أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ }الرعد33 فهو يقوم عليها بكسبها لا بكسب غيرها وهذا من قيامه بالقسط وقال {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً }الأنبياء47 الاية وايضا فمن قيامه بالقسط وقيامه على كل نفس بما كسبت انه لا يظلم مثقال ذرة كما قال {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ }الزلزلة7 الى اخرها[1]

الوعيد لأهل الكبائر لا يلحق التائب

وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين أن الوعيد في الكتاب والسنة لأهل الكبائر موجود ولكن الوعيد الموجود في الكتاب والسنة قد بين الله في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا يلحق التائب بقوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }الزمر53 أي لمن تاب وقال في الآية الأخرى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ }النساء48 فهذا في حق من لم يتب فالشرك لا يغفر وما دون الشرك ان شاء الله غفره وان شاء عاقب عليه وفي الصحيحين عن النبي أنه قال ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه ولهذا لما نزل قوله { مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ }النساء123 قال أبو بكر يا رسول الله قد جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأوى فذلك مما تجزون به فالمصائب في الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن ما به يكفر وكذلك الحسنات التي يفعلها قال الله تعالى { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }هود114 وقال النبي الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر فالله تعالى لا يظلم عبده شيئا كما قال { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}الزلزلة 7-8 فالوعيد ينتفي عنه إما بتوبة وإما بحسنات يفعلها تكافيء سيئاته وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياه وأما بغير ذلك وكما أن أحاديث الوعيد تقدم وكذلك أحاديث الوعد فقد يقول لا إله إلا الله ويجحد وجوب الصلاة والزكاة فهذا كافر يجب قتله وقد يكون من أهل الكبائر المستوجبين للنار وهذه مسألة الوعد والوعيد من اكبر مسائل العلم وقد بسطناها في مواضع[2]

الأمر الذي حرمه الله سبحانه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 182

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 648

أن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول إن الله تعالى ليس بعدل ولا من يقول إنه ليس بحكيم ولا فيهم من يقول إنه يجوز أن يترك واجبا ولا أن يفعل قبيحا فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذي أطلقه ومن أطلقه كان كافرا مباح الدم باتفاق المسلمين ولكن هذه مسألة القدر والنزاع فيها معروف بين المسلمين فأما نفاة القدر كالمعتزلة ونحوهم فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخرو الإمامية وأما المثبتون للقدر وهو جمهور الأمة وأئمتها كالصحابة والتابعين لهم بإحسان وأهل البيت وغيرهم فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله وحكمته والظلم الذي يجب تنزيهه عنه وفي تعليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك فقالت طائفة إن الظلم ممتنع منه غير مقدور وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين وإن كل ممكن مقدور فليس هو ظلما وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم وهؤلاء يقولون إنه لو عذب المطيعين ونعم العصاة لم يكن ظالما وقالوا الظلم التصرف فيما ليس له والله تعالى له كل شيء أو هو مخالفة الأمر والله لا آمر له وهذا قول كثير من أهل الكلام المثبتين للقدر ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة وقال طائفة بل الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزه لا يفعله لعدله ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئا والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع قالوا وقد قال تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً }طه112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم حسناته وقال تعالى {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ{100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ{101}هود 100- 101 فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكهم بذنوبهم وقال تعالى { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }الزمر69 فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزه عنه وقال تعالى {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ }الأنبياء47 أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها فدل على أن ذلك ظلم ينزه الله عنه وقال تعالى { قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ{28} مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ{29} ق 28- 29 وإنما نزه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزه الله عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره وقال تعالى { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }الأنعام164 فإن ذلك ينزه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا فقد حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}الأنعام54 وفي الحديث الصحيح لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدورا له سبحانه فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه ولا يحرمه على نفسه وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر من أهل الحديث والتفسير والفقه والكلام والتصوف من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم وعلى هذا القول فهؤلاء هم القائلون بعدل الله تعالى وإحسانه دون من يقول من القدرية إن من فعل كبيرة حبط إيمانه فإن هذا نوع من الظلم الذي نزه الله سبحانه نفسه

عنه وهو القائل { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة7-8 [1]

لا يحاسب العباد إلا هو وحده سبحانه

ولا يحاسب العباد إلا هو وحده وهو الذى يجازيهم بأعمالهم {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة7-8[2]

الذنوب عواقبها مذمومة مطلقا

أن الذنوب عواقبها مذمومة مطلقا وقوله{ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ }النساء123 و { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة7-8 قول حق و قال تعالى فى قصة قوم لوط {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ }الذاريات37 فما من أحد يبتلى بجنس عملهم إلا ناله شيء من العذاب الأليم حتى تعمد النظر يورث القلب علاقة يتعذب بها الانسان و ان قويت حتى صارت غراما و عشقا زاد العذاب الأليم سواء قدر أنه قادر على المحبوب أو عاجز عنه فإن كان عاجزا فهو فى عذاب أليم من الحزن و الهم و الغم و أن كان قادرا فهو فى عذاب اليم من خوف فراقه و من السعي في تأليفه و أسباب رضاه فإن نزل به الموت أو افتقر تضاعف عليه العذاب و ان صار الى غيره استبدالا به أو مشاركة قوى عذابه فإن هذا الجنس يحصل فيه من العذاب مالا يحصل فى عشق البغايا و ما يحصل مثله فى الحلال و ان حصل فى الحلال نوع عذاب كان أخف من نظيره و كان ذلك سبب ذنوب أخرى [3]

افعال العباد جارية على قانون العدل و الاحسان

أن السيئة إذا كانت من النفس و السيئة خبيثة مذمومة و وصفها بالخبث في مثل قوله {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ }النور26 قال جمهور السلف الكلمات الخبيثة للخبيثين و قال بعضهم الأقوال و الأفعال الخبيثة للخبيثين و قال تعالى { ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً }إبراهيم24 الى قوله {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ }إبراهيم26 و قال{ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ }فاطر10 و الأقوال و الأفعال صفات القائل الفاعل فإذا كانت النفس متصفة بالسوء و الخبث لم يكن محلها إلا ما يناسبها فمن أراد أن يجعل الحيات و العقارب يعاشرون الناس كالسنانير لم يصلح و من أراد أن يجعل الكذاب شاهدا لم يصلح و كذلك من أراد أن يجعل الجاهل معلما أو الأحمق سائسا فالنفوس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء فإن ذلك موجب

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 1 ص:135- 137

[2] مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 374

[3] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:157- 158

للفساد أو غير ممكن بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت حتى تصلح لسكنى الجنة كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إن المؤمنين إذا نجوا من النار أي عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة والتهذيب التخليص كما يهذب الذهب فيخلص من الغش فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب والتنقية من بقايا الذنوب فكيف بمن لم يكن له حسنات يعبر بها الصراط وأيضا فإذا كان سببها ثابتا فالجزاء كذلك بخلاف الحسنة فإنها من إنعام الحي القيوم الباقي الأول الآخر فسببها دائم فيدوم بدوامه وإذا علم الإنسان أن السيئة من نفسه لم يطمع في السعادة التامة مع ما فيه من الشر بل علم تحقيق قوله تعالى { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة 7-8 وعلم أن الرب عليم حليم رحيم عدل وأن أفعاله جارية على قانون العدل والإحسان وكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع و علم فساد قول الجهمية الذين يجعلون الثواب و العقاب بلا حكمة و هو سبحانه قد شهد أن لا إله إلا هو و الملائكة و أولوا العلم قائما بالقسط [1]

الذنوب تضر من اصر عليها

وثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لن يدخل الجنة احد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدنى الله برحمة منه وفضل وهذا لا ينافى قوله {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ }الحاقة24 فان الرسول نفى باء المقابلة والمعادلة والقرآن اثبت باء السبب وقول من قال إذا احب الله عبدا لم تضره الذنوب معناه انه إذا أحب عبدا الهمه التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب ومن ظن ان الذنوب لا تضر من اصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف والأئمة بل { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة7 وانما عباده الممدوحين هم المذكورون فى قوله تعالى { وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ{133} الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{135} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ{136} آل عمران133-136 [2]

الحسنة العظيمة يغفر الله بها السيئة العظيمة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 227 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 226 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 347-348 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 102

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 256

وفى الصحيح عن على بن أبى طالب أن النبى صلى الله عليه و سلم أرسله و الزبير إبن العوام و قال لهما إئتيا روضة خاخ فإن بها ظعينة و معها كتاب قال على فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى لقينا الظعينة فقلنا أين الكتاب فقالت ما معي كتاب فقلنا لها لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب قال فاخرجته من عقاصها فاتينا به النبى صلى الله عليه و سلم و إذا كتاب من حاطب الى بعض المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى صلى الله عليه و سلم فقال النبى صلى الله عليه و سلم ماهذا ياحاطب فقال والله يارسول الله مافعلت هذا ارتدادا عن دينى و لا رضاء بالكفر بعد الاسلام و لكن كنت امرأ ملصقا فى قريش و لم أكن من انفسها و كان من معك من المسلمين لهم قرابات يحمون بهم أهاليهم بمكة فاحببت إذ فاتنى ذلك منهم ان اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى و فى لفظ و علمت أن ذلك لايضرك يعنى لأن الله ينصر رسوله و الذين آمنوا فقال عمر دعنى

أضرب عنق هذا المنافق فقال النبى صلى الله عليه و سلم إنه قد شهد بدرا و مايدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم فهذه السيئة العظيمة غفرها الله له بشهود بدر فدل ذلك على أن الحسنة العظيمة يغفر الله بها السيئة العظيمة و المؤمنون يؤمنون بالوعد و الوعيد لقوله صلى الله عليه و سلم من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة و أمثال ذلك مع قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً }النساء10 ولهذا لا يشهد لمعين بالجنة إلا بدليل خاص و لايشهد على معين بالنار إلا بدليل خاص و لا يشهد لهم بمجرد الظن من اندراجهم فى العموم لأنه قد يندرج فى العمومين فيستحق الثواب و العقاب لقوله تعالى { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}الزلزلة 7-8 و العبد إذا اجتمع له سيئات و حسنات فإنه و إن استحق العقاب على سيئاته فإن الله يثيبه على حسناته و لا يحبط حسنات المؤمن لأجل ما صدر منه و إنما يقول بحبوط الحسنات كلها بالكبيرة الخوارج و المعتزلة الذين يقولون بتخليد أهل الكبائر وأنهم لايخرجون منها بشفاعة و لا غيرها و أن صاحب الكبيرة لا يبقى معه من الايمان شيء و هذه أقوال فاسدة مخالفة للكتاب و السنة المتواترة و اجماع الصحابة [1]

من مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار

قال تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً }طه112أي لايخاف أن يظلم فيحمل عليه من سيئات غيره و لا يهضم من حسناته و قال تعالى {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ }ق29 و قال النبى صلى الله عليه و سلم فى حديث البطاقة الذي رواه الإمام أحمد و الترمذي و غيرهما يجاء برجل من أمتى يوم القيامة فتنشر له تسعة و تسعون سجلا كل سجل مد البصر فيقال له هل تنكر من هذا شيئا فيقول لا يارب فيقال له ألك عذر أ لك حسنة فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة و أنه لا ظلم عليك اليوم قال فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله فتوضع البطاقة فى كفة و السجلات فى كفة فطاشت السجلات و ثقلت البطاقة فقد أخبر

[1] مجموع الفتاوى ج: 35 ص:67- 70

النبى صلى الله عليه و سلم أنه لا يظلم بل يثاب على ما أتى به من التوحيد كما قال تعالى {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة7-8 [1]

و أما قول الذين يحتجون بسابق القدر و يقولون إنه قد مضى الأمر و الشقى شقى و السعيد سعيد محتجين بقوله صلى الله عليه و سلم من قال لا إله إلا الله دخل الجنة و إن زنى و إن سرق فيقال له لاريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد وقد قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً }النساء10 و قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً {29} وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً{30}النساء29 -30 و مثل هذا كثير فى الكتاب و السنة و العبد عليه أن يصدق بهذا و بهذا لا يؤمن ببعض و يكفر ببعض فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد و يكذبوا بالوعيد و الحرورية و المعتزلة أرادو ا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد وكلاهما أخطأ والذي عليه أهل السنة و الجماعة الإيمان بالوعد و الوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط بأن لا يتوب فإن تاب تاب الله عليه و بأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه فإِنَّ{ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }هود114 و بأن لا يشاء الله أن يغفر له {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ }النساء48 فهكذا الوعد له تفسير و بيان فمن قال بلسانه لاإله إلا الله و كذب الرسول فهو كافر بإتفاق المسلمين و كذلك إن جحد شيئا مما أنزل الله فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره الى الله إن شاء عذبه و إن شاء غفر له فإن إرتد عن الإسلام و مات مرتدا كان فى النار فالسيئات تحبطها التوبة و الحسنات تحبطها الردة و من كان له حسنات و سيئات فإن الله لا يظلمه بل { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}الزلزلة 7-8 و الله تعالى قد يتفضل عليه و يحسن إليه بمغفرته و رحمته ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار فالزاني و السارق لا يخلد فى النار بل لا بد أن يدخل الجنة فإن النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان و هؤلاء المسؤول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين و قد جاء فى ذمهم من الآثارما يضيق عنه هذا المكان و الله سبحانه و تعالى أعلم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم و حسبنا الله و نعم الوكيل [2]

الظلم ثلاثة أنواع

فالظلم ثلاثة أنواع فالظلم الذى هو شرك لا شفاعة فيه وظلم الناس بعضهم بعضا لابد فيه من اعطاء المظلوم حقه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة فالظالم المطلق ما له من شفيع مطاع وأما الموحد فلم يكن ظالما مطلقا بل هو موحد مع ظلمه لنفسه وهذا انما نفعه فى الحقيقة اخلاصه لله فبه صار من أهل الشفاعة وأما الظلم المقيد فقد يختص بظلم الانسان نفسه وظلم الناس بعضهم بعضا كقول آدم عليه السلام وحواء { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا }الأعراف23 وقول موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 92

[2] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 271

}القصص16 وقوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ }آل عمران135 لكن قول آدم وموسى إخبار عن واقع لا عموم فيه وذلك قد عرف ولله الحمد أنه ليس كفرا واما قوله {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ }آل عمران135 فهو نكرة فى سياق الشرط يعم كل ما فيه ظلم الانسان نفسه وهو اذا أشرك ثم تاب تاب الله عليه وقد تقدم ان ظلم الانسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الاطلاق وقال تعالى{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ }فاطر32 فهذا ظلم لنفسه مقرون بغيره فلا يدخل فيه الشرك الأكبر وفى الصحيحين عن ابن مسعود أنه لما أنزلت هذه الآية {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ }الأنعام82 شق ذلك على أصحاب النبى وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال النبى انما هو الشرك ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }لقمان13 والذين شق ذلك عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه وأنه لا يكون الأمن والاهتداء الا لمن يظلم نفسه فشق ذلك عليهم فبين النبى لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله تعالى وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء الا لمن لم يلبس ايمانه بهذا الظلم ومن لم يلبس ايمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا }فاطر32 الى قوله {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا {33} فاطر33 وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه اذا لم يتب كما قال تعالى {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة 7-8 وقال تعالى { مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ }النساء123 وقد سأل أبو بكر النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال يا رسول الله وأينا لم يعمل سوءا فقال يا أبا بكر ألست تنصب ألست تحزن ألست تصيبك اللأواء فذلك ما تجزون به فبين أن المؤمن الذى اذا تاب دخل الجنة قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة وفى الصحيحين عنه أنه قال ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه وفى حديث سعد بن أبى وقاص قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه وان كان فى دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة رواه أحمد والترمذى وغيرهما وقال المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها والأحاديث فى هذا الباب كثيرة فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام والاهتداء التام ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقا بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخرى وقد هداه الى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه الى الجنة ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من ايمانه بظلمه نفسه وليس مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله انما هو الشرك ان من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الامن التام ولا الاهتداء التام الذى يكونون به مهتدين الى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم بل معهم أصل الاهتداء الى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولابد لهم من دخول الجنة وقول النبى صلى الله عليه وسلم انما هو الشرك ان أراد به الشرك الأكبر فمقصوده ان من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد الى ذلك وان كان مراده جنس الشرك فيقال ظلم العبد نفسه كبخله

لحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار [1]

هل الكبائر لا تغفر الا بالتوبة ؟

قد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن عقوبة الذنوب تزول عن العبد بنحو عشرة أسباب منها الحسنات الماحية كما قال تعالى {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }هود114 وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا إجتنبت الكبائر وقال من صام رمضان إيمانا وإحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وقال من قام ليلة القدر إيمانا وإحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وقال من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه وقال فتنة الرجل فى أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه وهذه الأحاديث وأمثالها فى الصحاح وقال الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وسؤالهم على هذا الوجه أن يقولوا الحسنات انما تكفر الصغائر فقط فأما الكبائر فلا تغفر الا بالتوبة كما قد جاء فى بعض الأحاديث ما اجتنبت الكبائر فيجاب عن هذا بوجوه أحدها أن هذا الشرط جاء فى الفرائض كالصلوات الخمس والجمعة وصيام رمضان وذلك ان الله تعالى يقول {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ }النساء31 فالفرائض مع ترك الكبائر مقتضية لتكفير السيئات واما الأعمال الزائدة من التطوعات فلابد أن يكون لها ثواب آخر فان الله سبحانه يقول {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}الزلزلة 7-8 الثانى أنه قد جاء التصريح فى كثير من الأحاديث بان المغفرة قد تكون مع الكبائر كما فى قوله غفر له وان كان فر من الزحف وفى السنن أتينا رسول الله فى صاحب لنا قد أوجب فقال اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار وفى الصحيحين فى حديث أبى ذر وان زنا وان سرق الثالث أن قوله لأهل بدر ونحوهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ان حمل على الصغائر أو على المغفرة مع التوبة لم يكن فرق بينهم وبين غيرهم فكما لا يجوز حمل الحديث على الكفر لما قد علم أن الكفر لا يغفر الا بالتوبة لا يجوز حمله على مجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر الرابع أنه قد جاء فى غير حديث أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة فان أكملها والا قيل أنظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع أكملت به الفريضة ثم يصنع بسائر أعماله كذلك ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب فان ترك المستحب لا يحتاج الى جبران ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول فعلم أنه يكمل نقص الفرائض من التطوعات وهذا لا ينافى من أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة مع أن هذا لو كان معارضا للأول لوجب تقديم الأول لأنه أثبت وأشهر وهذا غريب رفعه وانما المعروف أنه فى وصية أبى بكر لعمر وقد ذكره أحمد فى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 79-82

رسالته فى الصلاة وذلك لأن قبول النافلة يراد به الثواب عليها ومعلوم أنه لا يثاب على النافلة حتى تؤدى الفريضة فانه اذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كانت جبرا لها واكمالا لها فلم يكن فيها ثواب نافلة ولهذا قال بعض السلف النافلة لا تكون الا لرسول الله لأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره يحتاج الى المغفرة وتأول على هذا قوله{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ }الإسراء79 وليس اذا فعل نافلة وضيع فريضة تقوم النافلة مقام الفريضة مطلقا بل قد يكون عقوبته على ترك الفريضة أعظم من ثواب النافلة فان قيل العبد اذا نام عن صلاة أو نسيها كان عليه أن يصليها اذا ذكرها بالنص والاجماع فلو كان لها بدل من التطوعات لم يجب القضاء قيل هذا خطأ فان قيل هذا يقال فى جميع مسقطات العقاب فيقال اذا كان العبد يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم ينه عن الفعل ومعلوم أن العبد عليه أن يفعل المأمور ويترك المحظور لأن الاخلال بذلك سبب للذم والعقاب وان جاز مع اخلاله أن يرتفع العقاب بهذه الأسباب كما عليه أن يحتمى من السموم القاتلة وان كان مع تناوله لها يمكن رفع ضررها بأسباب من الأدوية والله عليم حكيم رحيم أمرهم بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم ثم اذا وقعوا فى أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته بل جعل لهم أسبابا يتوصلون بها الى رفع الضرر عنهم ولهذا قيل ان الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصى الله ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب قال بعضهم لشيخه إنى أذنب قال تب قال ثم أعود قال تب قال ثم أعود قال تب قال الى متى قال الى أن تحزن الشيطان وفى المسند عن على عن النبى أنه قال ان الله يحب العبد المفتن التواب وأيضا فان من نام عن صلاة أو نسيها فصلاته اذا استيقظ أو ذكرها كفارة لها تبرأ بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الذم والعقاب ويستوجب بذلك المدح والثواب وأما ما يفعله من التطوعات فلا نعلم القدر الذى يقوم ثوابه مقام ذلك ولو علم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات ثم اذا قدر أنه أمر بما يقوم مقام ذلك صار واجبا فلا يكون تطوعا والتطوعات شرعت لمزيد التقرب الى الله كما قال تعالى فى الحديث الصحيح ما تقرب الى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه الحديث فاذا لم يكن العبد قد أدى الفرائض كما أمر لم يحصل له مقصود النوافل ولا يظلمه الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة بل يقيمها مقام نظيرها من الفرائض كمن عليه ديون لأناس يريد أن يتطوع لهم بأشياء فان وفاهم وتطوع لهم كان عادلا محسنا وان وفاهم ولم يتطوع كان عادلا وان أعطاهم ما يقوم مقام دينهم وجعل ذلك تطوعا كان غالطا فى جعله بل يكون من الواجب الذى يستحقونه

ومن العجب أن المعتزلة يفتخرون بأنهم أهل التوحيد و العدل وهم فى توحيدهم نفوا الصفات نفيا يستلزم التعطيل والإشراك وأما العدل الذي وصف الله به نفسه فهو أن لا يظلم مثقال ذرة وأنه {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}الزلزلة7-8 وهم يجعلون جميع حسنات العبد وإيمانه حابطا بذنب واحد من الكبائر وهذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه فكان وصف الرب سبحانه بالعدل الذي وصف به نفسه أولى من جعل العدل هو التكذيب بقدر الله [1]

يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 489-493

جاء فى أحاديث الشفاعة الصحيحة يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من ايمان وفى بعضها مثقال ذرة من خير وهذا مطابق لقوله تعالى { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة 7-8 وذلك الذى هو مثقال ذرة من خير هو مثقال ذرة من ايمان [1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}الزلزلة 7-8 صيغة عامة وصيغة من الشرطية من أبلغ صيغ العموم[2]

ولفظ من أبلغ صيغ العموم لا سيما إذا كانت شرطا أو إستفهاما كقوله { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة 7-8 وقوله {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً }فاطر8 وقوله {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ }الأنعام122 وقوله {أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ }محمد14 [3]

2-فإن الجزاء عند أهل اللغة يكون عقب الشرط وبعده ولا يكون الجزاء مع الشرط في الزمان ولهذا قد يكون الجزاء مما يتأخر زمانه كقوله تعالى { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8} الزلزلة7-8 وفي النذر إذا قال إن شفى الله مريضى فعلى صوم سنة فلا يجب عليه الصوم إلا بعد الشفاء لا مقارنا للشفاء ولا في زمن الشفاء وكذلك إذا قال إن سلم الله مالى الغائب وكذلك إذا قال من رد عبدي الآبق أو بنى لى هذا الحائط ونحو ذلك وأيضا فهذا يذكر بحرف الفاء والفاء للتعقيب يوجب ان يكون الثاني عقيب الاول لا معه [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 184

[2] الجواب الصحيح ج: 2 ص: 118

[3] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 84

[4] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 377

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة العاديات

100

رقية محمود الغرايبة

~§§ العاديات(مكية)11 §§~

مقدمة سورة العاديات

وسورة والعاديات فيها قولان أحدهما أنها نزلت بمكة وهذا يروى عن ابن مسعود وعكرمة وعطاء وغيرهم والثاني أنها نزلت بالمدينة وهو مروى عن ابن عباس وقتادة وهذا القول يناسب قول من فسر العاديات بخيل المجاهدين لكن المشهور عن علي المنقول عنه في كتب التفسير أنه كان يفسر العاديات بإبل الحجاج وعدوها من مزدلفة إلى منى وهذا يوافق القول الأول وكان ابن عباس والأكثر يفسرونها بالخيل العاديات في سبيل الله [1]

[1] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 117

سورة العاديات1-11

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً{1} فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً{2} فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً{3} فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً{4} فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً{5} إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ{6} وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ{7} وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ{8} أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ{9} وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ{10} إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ{11}

الإقسام يتضمن ذكر الآيات الدالة على الوحدانية

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1]

الخيل العاديات فى سبيل الله

وسورة والعاديات فيها قولان أحدهما أنها نزلت بمكة وهذا يروى عن ابن مسعود وعكرمة وعطاء وغيرهم والثاني أنها نزلت بالمدينة وهو مروى عن ابن عباس وقتادة وهذا القول يناسب قول من فسر العاديات بخيل المجاهدين لكن المشهور عن علي المنقول عنه في كتب التفسير أنه كان يفسر العاديات بإبل الحجاج وعدوها من مزدلفة إلى منى وهذا يوافق القول الأول وكان ابن عباس والأكثر يفسرونها بالخيل العاديات في سبيل الله[2]

{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً }

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

[2] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 117

وكما أن التوالد فى الحيوان لا يكون إلا من أصلين سواء كان الأصلان من جنس الولد و هو الحيوان المتوالد أو من غير جنسه و هو المتولد فكذلك فى غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين سواء كانا خشبتين أو كانا حجرا و حديدا أو غير ذلك قال الله تعالى {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً }العاديات2 و قال تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ{71} أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ{72} نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ{73} الواقعة 71-73 و قال تعالى { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{80}يس78-80 قال غير و احد من المفسرين هما شجرتان يقال لأحداهما المرخ و الأخرى العفار فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين و هما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ و هو ذكر على العفار و هو أنثي فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى و تقول العرب في كل شجر نار و إستمجد المرخ و العفار و قال بعض الناس فى كل شجرة نار إلا العناب { فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ } يس 80 فذلك زنادهم [1]

ذم الإنسان بكونه كفورا

فإن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور إذ يقول {إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ }العاديات6 [2]

حال الإنسان عند السراء والضراء وذلك أن الإنسان هو كما وصفه الله بقوله تعالي { وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ{9} وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ{10} هود9-10 وقال تعالي { إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } هود11 فأخبر أنه عند الضراء بعد السراء ييأس من زوالها في المستقبل ويكفر بما أنعم الله به عليه قبلها وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود الضراء في المستقبل وينسي ما كان فيه بقوله { ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} هود10 علي غيره يفخر عليهم بنعمة الله عليه وقال تعالي {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21}المعارج19-21 فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه منوع عند الخير يبخل به وقال تعالي { إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ }إبراهيم34 وقال تعالي {إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ }العاديات6 وقال تعالي { إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً }الأحزاب72 وقال تعالي { وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً }الإسراء100 وقال { وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ }فصلت49 وقال تعالي { فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً }الإسراء67 وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون في البأساء والضراء وحين البأس والصابرون في النعماء أيضا بقوله تعالي {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }هود11 والصبر في السراء قد يكون أشد ولهذا قال من قال من الصحابة ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وكان النبي يستعيذ بالله من فتنة القبر وشر فتنة الغني وقال لأصحابه والله ما الفقر أخشي عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علي من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كم أهلكتهم[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 238

[2] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 159

[3] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 172-173

سبيل الله يحمد فيه الزهد

الزهد خلاف الرغبة يقال فلان زاهد فى كذا وفلان راغب فيه و الرغبة هى من جنس الإرادة فالزهد فى الشىء إنتفاء الإرادة له أما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريدا له ولا كارها له وكل من لم يرغب فى الشىء ويريده فهو زاهد فيه وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه ولهذا كان أساس الطريق الإرادة كما قال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }الأنعام52 وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً }الإسراء19 ونظائرة متعددة كما رغب فى الزهد وذم ضده فى قوله {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ {15} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ{16}هود15-16 وقال تعالى{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ{1} التكاثر 1 السورة و قال تعالى {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً {19} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20}الفجر19 -20 وقال { إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ{6} وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ{7} وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ{8} العاديات 6-8 وقال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ }الحديد20الآية وهذا باب واسع وإنما المقصود هنا تميز الزهد الشرعى من غيره وهو الزهد المحمود وتميز الرغبة الشرعية من غيرها وهى الرغبة المحمودة فإنه كثيرا ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيرا ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذى ضل سعى صاحبه [1]

قال تعالى { أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ }الأحزاب19 وقيل أشحة على الخير أى بخلاء به لا ينفعون لا بنفوسهم ولا بأموالهم وأصل الشح شدة الحرص الذى يتولد عنه البخل والظلم من منع الحق وأخذ الباطل كما قال النبى إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا فهؤلاء أشحاء على إخوانهم أى بخلاء عليهم وأشحاء على الخير أى حراص عليه فلا ينفقونه كما قال {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ }العاديات8[2]

قول القلب وعمله هو الأصل

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء فى الحديث الذى فى الترمذى من احب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد إستكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:616- 617 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 51

[2] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 458

فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر فى بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ }البقرة165 ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن إستعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما إستعاذ منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى { وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ }البقرة93 وذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 وقوله تعالى {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ{9} وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ{10} العاديات 9-10 ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل[1]

القلب يشبه القبر

والقلب يشبه القبر ولهذا قال لما فاتته صلاة العصر يوم الخندق ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا وفى لفظ قلوبهم وقبورهم نارا وفرق بينهما فى قوله {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ {9} وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ{10}العاديات9-10[2]

البلاغة هى علم المعانى والبيان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:754- 755 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 185

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 287

وليست الفصاحة التشدق في الكلام والتقعير في الكلام ولا سجع الكلام ولا كان في خطبة علي ولا سائر خطباء العرب من الصحابة وغيرهم تكلف الأسجاع ولا تكلف التحسين الذي يعود إلى مجرد اللفظ الذي يسمى علم البديع كما يفعله المتأخرون من أصحاب الخطب والرسائل والشعر وما يوجد في القرآن من مثل قوله { وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً }الكهف104 و {إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ }العاديات11 ونحو ذلك فلم يتكلف لأجل التجانس بل هذا تابع غير مقصود بالقصد الأول كما يوجد في القرآن من أوزان الشعر ولم يقصد به الشعر كقوله تعالى { وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ }سبأ13 وقوله {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }الحجر49 { وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ{2} الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ{3}الشرح 2- 3 ونحو ذلك وإنما البلاغة المأمور بها في مثل قوله تعالى { وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً }النساء63 هي علم المعاني والبيان فيذكر من المعاني ما هو أكمل مناسبة للمطلوب ويذكر من الألفاظ ما هو أكمل في بيان تلك المعاني فالبلاغة بلوغ غاية المطلوب أو غاية الممكن من المعاني بأتم ما يكون من البيان فيجمع صاحبها بين تكميل المعاني المقصودة وبين تبيينها بأحسن وجه ومن الناس من تكون همته إلى المعاني ولا يوفيها حقها من الألفاظ المبينة ومن الناس من يكون مبينا لما في نفسه من المعاني لكن لا تكون تلك المعاني محصلة للمقصود المطلوب في ذلك المقام فالمخبر مقصودة تحقيق المخبر به فإذا بينه وبين ما يحقق ثبوته لم يكن بمنزلة الذي لا يحقق ما يخبر به أو لا يبين ما يعلم به ثبوته والأمر مقصودة تحصيل الحكمة المطلوبة فمن أمر ولم يحكم ما أمر به أو لم يبين الحكمة في ذلك لم يكن بمنزلة الذي أمر بما هو حكمة وبين وجه الحكمة فيه وأما تكلف الأسجاع والأوزان والجناس والتطبيق ونحو ذلك مما تكلفه متأخروا الشعراء والخطباء والمترسلين والوعاظ فهذا لم يكن من دأب خطباء الصحابة والتابعين والفصحاء منهم ولا كان ذلك مما يهتم به العرب وغالب من يعتمد ذلك يزخرف اللفظ بغير فائدة مطلوبة من المعاني كالمجاهد الذي يزخرف السلاح وهو جبان [1]

[1] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 53

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة القارعة
101

رقية محمود الغرايبة

§§~القارعة(مكية)11~§§

سورة القارعة1-11

بسم الله الرحمن الرحيم

{الْقَارِعَةُ{1} مَا الْقَارِعَةُ{2} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ{3} يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ{4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ{5} فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ{6} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ{7} وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ{8} فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ{9} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ{10} نَارٌ حَامِيَةٌ{11}

الأمر لله وحده

جعل الاسم الظاهر موضع المضمر إظهارا لأن الأمر له وحده في هذا وهذا ومثل هذا في القرآن كقوله {الْقَارِعَةُ{1} مَا الْقَارِعَةُ{2}سورة القارعة1-2 وقال تعالى {تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }فصلت2 والله هو المنزل ولم يقل مني[1]

اليوم الاخر هو كما ذكره الله

قال تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ }التوبة29 مع ان النصارى يقرون بمعاد الابدان لكن لما انكروا ما اخبر به الرسول من الاكل والشرب ونحو ذلك صاروا ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر وهؤلاء الفلاسفة لا يقرون بمعاد الابدان ولهم في معاد النفوس ثلاثة اقوال والثلاثة تذكر عن الفارابي نفسه انه كان يقول تارة هذا وتارة هذا وتارة هذا منهم من يقر بمعاد الانفس مطلقا ومنهم من يقول انما تعاد النفوس العالمة دون الجاهلة فان العالمة تبقى بالعلم فان النفس تبقى ببقاء معلومها والجاهلة التي ليس لها معلوم باق تفسد وهذا قول طائفة من اعيانهم ولهم فيه مصنفات ومنهم من ينكر معاد الانفس كما ينكر معاد الابدان وهو قول طوائف منهم وكثير منهم يقول بالتناسخ وليس شيء من ذلك ايمانا باليوم الاخر فان اليوم الاخر هو الذي ذكره الله في قوله تعالى {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }آل عمران9 وقوله تعالى {الْقَارِعَةُ{1} مَا

---

[1] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 451

الْقَارِعَةُ{2} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ{3} يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ{4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ{5} القارعة 1-5[1]

السنة مطابقة لما في القرآن

فالذي جاءت به السنة مطابق لما في القرآن في المستقبل أخبر تعالى بالقيامة والحسنات والجنة والنار ولم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى بحيث لا يبقى شيء بل أخبر باستحالة العالم قال تعالى { يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ{4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ{5}القارعة 4 -5 وأمثال هذه النصوص التي تبين الإستحالة والتغير على السموات والأرض والجبال وأنها تستحيل أنواعا من الإستحالة لتعدد الأوقات[2]

الاعمال توزن بموازين

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر وبنعيمه فأما الفتنة فإن الناس يفتنون فى قبورهم فيقال للرجل من ربك وما دينك ومن نبيك {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ }إبراهيم27 فيقول المؤمن الله ربى والإسلام دينى ومحمد نبي وأما المرتاب فيقول هاه هاه لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى ان تقوم القيامة الكبرى فتعاد الارواح الى الاجساد وتقوم القيامة التى أخبر الله بها فى كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق وتنصب الموازين فتوزن فيها اعمال العباد { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ{6} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ{7} وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ{8} فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ{9} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ{10} نَارٌ حَامِيَةٌ{11} القارعة 6-11 وقال تعالى { فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{8} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ{9}الاعراف 8-9 وتنشر الدواوين وهى صحائف الاعمال فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره كما قال سبحانه وتعالى {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً{13} اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً{14}الإسراء13 -14 ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك فى الكتاب والسنة وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم وتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون وفى عرصة القيامة الحوض المورود لمحمد ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل

---

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 459

[2] الصفدية ج: 2 ص: 225

آنيته عدد نجوم السماء طوله شهر وعرضه شهر من يشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا والصراط منصوب على متن جهنم وهو الجسر الذى بين الجنة والنار يمر الناس عليه على قدر أعمالهم فمنهم من يمر كلمح البصر ومنهم من يمر كالبرق الخاطف ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الجواد ومنهم من يمر كركاب الإبل ومنهم من يعدو عدوا ومنهم من يمشى مشيا ومنهم من يزحف زحفا ومنهم من يخطف فيلقى فى جهنم فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم فمن مر على الصراط دخل الجنة فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة[1]

كيفية الموازين من الغيب

وفى الصحيحين عن النبى أنه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وقال عن ساقى عبد الله بن مسعود لهما فى الميزان أثقل من أحد وفى الترمذى وغيره حديث البطاقة وصحيحه الترمذى والحاكم وغيرهما فى الرجل الذى يؤتى به فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيوضع فى كفة ويؤتى له ببطاقة و فيها شهادة أن لا اله الا الله قال النبى فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وهذا وأمثاله مما يبين أن الاعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس فهو ما به تبين العدل والمقصود بالوزن العدل كموازين الدنيا وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 145 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 33

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 302

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة التكاثر

102

رقية محمود الغرايبة

§§~التكاثر(مكية)8~§§

مقدمة سورة التكاثر

تنبيه على البعث

سورة التكاثر قيل فيها { حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}التكاثر2 تنبيها على أن الزائر لابد أن ينتقل عن مزاره فهو تنبيه على البعث ثم قال {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{3} ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{4}التكاثر3-4 فهذ خبر عن علمهم في المستقل و لهذا روى عن علي أنه في عذاب القبر ثم قال { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}التكاثر5 فهذا إشارة إلى علمهم في الحال و الخبر محذوف أي لكان الأمر فوق الوصف و لعلمتم أمرا عظيما و لألهاكم عما ألهاكم فإن الإلتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين كما قال { كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ }الأعراف136 و مثل قول النبى صلى الله عليه و سلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا و حذف جواب لو كثير في القرآن تعظيما له و تفخيما فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ إذ المخبر ليس كالمعاين و لهذا إتبع ذلك بالقسم على الرؤية التي هي عين اليقين التى هي فوق الخبر الذي هو علم اليقين فقال { لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ{6} ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ{7} التكاثر6-7 و هذا الكلام جواب قسم محذوف مستقبل مع كون جواب لو محذوفا كما تقدم فى أحد القولين و فى الآخر هو متعلق بلو لكن يقال جواب لو إنما يكون ماضيا فيقال لرأيتم الجحيم كقول النبى صلى الله عليه و سلم لو تكونون على الحال التى تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في طرقكم و على فرشكم و لو كان ماضيا فليس مما يؤكد بل يقال لو يجيء لأجي و جواب هذا أنه جواب قسم محذوف سد مسد جواب لو كقوله {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ }الأنعام121 و له نظائر فى القرآن و كلام العرب فإن الكلام إذا اشتمل على قسم و شرط و كل منهما يقتضي جوابه أجيب الأول منهما و هو هنا القسم و هو المقصود و على هذا القول يكون المعنى و الله لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم بقلوبكم و الأول هو المشهور و من المفسرين من لم يذكر سواه و هو الذي أثروه عن متقدميهم و يدل على صحته و أنه الحق أن قوله {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا } { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ } معطوف على ما قبله فيكون داخلا في حيزه فلو كان الأول معلقا بالشرط لكان المعطوف عليه كذلك و هو باطل لأن رؤيتها عين اليقين و المسألة عن النعيم ليس معلقا بأن يعلموها فى الدنيا علم اليقين وأيضا فتفسير الرؤية المطلقة برؤية القلب ليس هو المعروف من كلام العرب و أيضا فيكون الشرط هو الجواب فإن المعنى حينئذ لو علمتم علم اليقين لرأيتم بقلوبكم و ذلك هو العلم فالمعنى لو علمتم لعلمتم و هذا لا يفيد و لو أريد بمشاهدة القلب قدر زائد على مجرد العلم فهذا معلوم أن من علم الشيء أمكنه أن يجعل مشاهدا له بقلبه و أيضا فهذا المعنى لو كان مفيدا لم يكن مما يستحق القسم عليه فإنه ليس بطائل و أيضا فقوله { لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ{5}التكاثر5 لم يذكر المعلوم حتى يستلزم العلم به العلم

بالجحيم فإن أريد معلوم خاص فلا دليل في الشرط عليه حتى يصح الإرتباط و إن أريد المعلوم العام و هو ما بعد الموت فذاك يستلزم العلم بالجحيم و غيرها و هذا فيه نظر فقد يسأل و يقال قوله { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{3} ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{4}التكاثر3-4 لم يذكر فيه المعلوم بل أطلق و معلوم أن كل أحد سوف يعلم شيئا لم يكن علمه و جوابه أن سياق الكلام يقتضي الوعيد و التهديد حيث إفتتحه بقوله { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ } التكاثر 1 و أيضا فمثل هذا الكلام قد صار في العرف يستعمل فى الوعيد غالبا أو في الوعد و إذا كان العلم مقيدا بالسياق اللفظي و بالوضع العرفي فقوله { لَوْ تَعْلَمُونَ } التكاثر 5 هو ذاك العلم أخبر بوقوعه مستقبلا ثم علق بوقوعه حاضرا و قيد المعلق به بعلم اليقين فإنهم قد يعلمون ما بعد الموت لكن ليس علما هو يقين[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 517

سورة التكاثر1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ{1} حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ{2} كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{3} ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{4} كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ{5} لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ{6} ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ{7} ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ{8}

حكم زيارة القبور

وتنازع المسلمون فى زيارة القبور فقال طائفة من السلف أن ذلك كله منهى عنه لم ينسخ فإن أحاديث النسخ لم يروها البخارى ولم تشتهر ولما ذكر البخارى زيارة القبور إحتج بحديث المرأة التى بكت عند القبر ونقل ابن بطال عن الشعبى أنه قال لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور لزرت قبر ابنى وقال النخعى كانوا يكرهون زيارة القبور وعن ابن سيرين مثله قال ابن بطال وقد سئل مالك عن زيارة القبور فقال قد كان نهى عنها عليه السلام ثم أذن فيها فلو فعل ذلك إنسان ولم يقل إلا خيرا لم أر بذلك بأسا وليس من عمل الناس وروى عنه أنه كان يضعف زيارتها وكان النبى قد نهى أولا عن زيارة القبور بإتفاق العلماء فقيل لأن ذلك يفضى إلى الشرك وقيل لأجل النياحة عندها وقيل لأنهم كانوا يتفاخرون بها وقد ذكر طائفة من العلماء فى قوله تعالى { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ{1} حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ{2} التكاثر 1-2 أنهم كانوا يتكاثرون بقبور الموتى وممن ذكره إبن عطيه فى تفسيره قال وهذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور أى حتى جعلتم اشغالكم القاطعة لكم عن العبادة والعلم زيارة القبور تكثرا بمن سلف وإشادة بذكره ثم قال النبى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا فكان نهيه فى معنى الآية ثم أباح الزيارة بعد لمعنى الإتعاظ لا لمعنى المباهاة والتفاخر وتسنيمها بالحجارة الرخام وتلوينها سرفا وبنيان النواويس عليها هذا لفظ ابن عطية والمقصود ان العلماء متفقون على أنه كان نهى عن زيارة القبور ونهى عن الإنتباذ فى الدباء والحنتم والمزفت والمقير واختلفوا هل نسخ ذلك فقالت طائفة لم ينسخ ذلك لأن أحاديث النسخ ليست مشهورة ولهذا لم يخرج أبو عبدالله البخارى ما فيه نسخ عام وقال الاخرون بل نسخ ذلك ثم قالت طائفة منهم إنما نسخ الى الإباحة فزيارة القبور مباحة لا مستحبة وهذا قول فى مذهب مالك وأحمد قالوا لأن صيغة إفعل بعد الحظر إنما تفيد الإباحة كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها وكنت نهيتكم عن الإنتباذ فى الأوعية فانتبذوا ولا تشربوا مسكرا وروى فزوروها ولا تقولوا هجرا وهذا يدل على أن النهى كان لما كان يقال عندها من الأقوال المنكرة سدا للذريعة كالنهى عن الإنتباذ فى الأوعية أولا لأن الشدة المطربة تدب فيها ولا يدرى بذلك فيشرب الشارب الخمر وهو لا يدرى وقال الأكثرون زيارة قبور المؤمنين

مستحبة للدعاء للموتى السلام عليهم كما كان النبى يخرج إلى البقيع فيدعو لهم وكما ثبت عنه فى الصحيحين أنه خرج إلى شهداء أحد فصلى عليهم صلاته على الموتى كالمودع للأحياء والأموات وثبت عنه فى الصحيح انه كان يعلم اصحابه إذا زاروا القبور ان يقولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسال الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم وإغفر لنا ولهم وهذا فى زيارة قبور المؤمنين واما زيارة قبر الكافر فرخص فيها لأجل تذكار الآخرة ولا يجوز الإستغفار لهم وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال إستاذنت ربى فى أن أزور قبرها فأذن لى وإستاذنته فى ان استغفر لها فلم يأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة

والعلماء المتنازعون كل منهم يحتج بدليل شرعى ويكون عند بعضهم من العلم ما ليس عند الآخر فإن العلماء ورثة الأنبياء وقال تعالى {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ{78} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً {79}الانبياء78-79 والأقوال الثلاثة صحيحة بإعتبار فإن الزيارة إذا تضمنت أمرا محرما من شرك أو كذب أو ندب أو نياحة وقول هجر فهى محرمة بالإجماع كزيارة المشركين بالله والساخطين لحكم الله فإن هؤلاء زيارتهم محرمة فإنه لا يقبل دين إلا دين الإسلام وهو الإستسلام لخلقه وأمره فيسلم لما قدره وقضاه ويسلم لما يأمر به ويحبه وهذا نفعله وندعو إليه وذاك نسلمه ونتوكل فيه عليه فنرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ونقول فى صلاتنا{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 مثل قوله تعالى { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ }هود123 وقوله تعالى{ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }البقرة153 وقوله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ{114} وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{115}هود114 -115 والنوع الثانى زيارة القبور لمجرد الحزن على الميت لقرابته أو صداقته فهذه مباحة كما يباح البكاء على الميت بلا ندب ولا نياحة كما زار النبى قبر أمه فبكى وابكى من حوله وقال زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة فهذه الزيارة كان نهى عنها لما كانوا يفعلون من المنكر فلما عرفوا الإسلام اذن فيها لأن فيها مصلحة وهو تذكر الموت فكثير من الناس إذا راى قريبه وهو مقبور ذكر الموت وإستعد للآخرة وقد يحصل منه جزع فيتعارض الأمران ونفس الحزن مباح إن قصد به طاعة كان طاعة وإن عمل معصية كان معصية وأما النوع الثالث فهو زيارتها للدعاء لها كالصلاة على الجنازة فهذا هو المستحب الذى دلت السنة على استحبابه لأن النبى فعله وكان يعلم اصحابه ما يقولون إذا زاروا القبور وأما زيارة قباء فيستحب لمن أتى المدينة أن يأتى قباء فيصلى فى مسجدها وكذلك يستحب له عند الجمهور أن يأتى البقيع وشهداء أحد كما كان النبى يفعل فزيارة القبور للدعاء للميت من جنس الصلاة على الجنائز يقصد فيها الدعاء لهم لا يقصد فيها ان يدعو مخلوقا من دون الله ولايجوز ان تتخذ مساجد ولا تقصد لكون الدعاء عندها أو بها أفضل من الدعاء فى المساجد والبيوت والصلاة على الجنائز أفضل باتفاق المسلمين من الدعاء للموتى عند قبورهم وهذا مشروع بل فرض على الكفاية متواتر متفق عليه بين المسلمين ولو جاء إنسان إلى سرير الميت يدعوه من دون الله ويستغيث به كان هذا شركا محرما بإجماع المسلمين ولو ندبه وناح لكان أيضا محرما وهو دون الأول [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 375-379

الزهد الشرعى

الزهد خلاف الرغبة يقال فلان زاهد فى كذا وفلان راغب فيه و الرغبة هى من جنس الإرادة فالزهد فى الشىء إنتفاء الإرادة له أما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريدا له ولا كارها له وكل من لم يرغب فى الشىء ويريده فهو زاهد فيه وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه ولهذا كان أساس الطريق الإرادة كما قال تعالى {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }الأنعام52 وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً }الإسراء19 ونظائرة متعددة كما رغب فى الزهد وذم ضده في قوله {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ {15} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ{16}هود15-16 وقال تعالى{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ {1} حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ{2} كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{3} ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{4} كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ{5} لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ{6} ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ{7} ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ{8} التكاثر1-8 و قال تعالى {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً {19} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20}الفجر19 وقال { إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ{6} وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ{7} وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ{8} العاديات 6-8 وقال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ }الحديد20الآية وهذا باب واسع وإنما المقصود هنا تميز الزهد الشرعى من غيره وهو الزهد المحمود وتميز الرغبة الشرعية من غيرها وهى الرغبة المحمودة فإنه كثيرا ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيرا ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذى ضل سعى صاحبه [1]

عِلْمَ الْيَقِينِ وعَيْنَ الْيَقِينِ

ففي قوله تعالى { عِلْمَ الْيَقِينِ } { عَيْنَ الْيَقِينِ }{ حَقُّ الْيَقِينِ } للناس فى هذه الأسماء مقالات معروفة منها أن يقال { عِلْمَ الْيَقِينِ }التكاثر5 ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر و { عَيْنَ الْيَقِينِ }التكاثر7 ما شاهده وعاينه بالبصر و { حَقُّ الْيَقِينِ }الواقعة95 ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالإعتبار فالأولى مثل من أخبر أن هناك عسلا وصدق المخبر أو رأى آثار العسل فإستدل على وجوده و الثانى مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه وهذا أعلى كما قال النبى ليس المخبر كالمعاين و الثالث مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد كما قال النبى فى الحديث الصحيح ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:616- 617 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 51

مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره ان يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار وقال ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات الأولى من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه او يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك و الثانية من شاهد ذلك وعاينه مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم وإن كان هذا فى الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو ابلغ من المخبر والمستدل بآثارهم و الثالثة أن يحصل له من الذوق والوجد فى نفسه ما كان سمعه كما قال بعض الشيوخ لقد كنت فى حال أقول فيها إن كان أهل الجنة فى الجنة فى مثل هذا الحال أنهم لفى عيش طيب وقال آخر أنه ليمر على القلب اوقات يرقص منها طربا وقال الاخر لأهل الليل فى ليلهم الذ من أهل اللهو فى لهوهم و الناس فيما أخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات أحداهما العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل وما قام من الأدلة على وجوب ذلك الثانية إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار و الثالثة إذا باشروا ذلك فدخل أهل الجنة الجنة وذاقوا ما كانوا يوعدون ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون فالناس فيما يوجد فى القلوب وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث وكذلك فى أمور الدنيا فإن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به فإن شاهدوه ولم يذقه كان له معاينة له فإن ذاقه بنفسه كان به ذوق وخبرة به ومن لم يذق الشىء لم يعرف حقيقته فإن العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشىء المعبر عنه وعرفه وخبره ولهذا يسمون أهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر وفى الحديث الصحيح أن هرقل ملك الروم سأل ابا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من أمور النبى قال فهل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه قال لا قال وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يسخطه أحد فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب بل يحبه ويرضاه فإن له من الحلاوة فى القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه والناس متفاوتون فى ذوقه والفرح والسرور الذى فى القلب له من البشاشة ما هو بحسبه وإذا خالطت القلب لم يسخطه قال تعالى {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }يونس58 وقال تعالى {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ }الرعد36 وقال تعالى {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }التوبة124 فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن والإستبشار هو الفرح والسرور وذلك لما يجدونه فى قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما انزل الله و اللذة أبدا تتبع المحبة فمن احب شيئا ونال ما احبه وجد اللذة به فالذوق هو ادراك المحبوب اللذه الظاهرة كالاكل مثلا حال الإنسان فيها انه يشتهى الطعام ويحبه ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته وكذلك النكاح وامثال ذلك وليس للخلق محبة أعظم ولا اكمل ولا اتم من محبة المؤمنين لربهم وليس فى الوجود ما يستحق ان يحب لذاته من كل وجه الا الله تعالى وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه فان الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله كما قال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ }آل عمران31 وفى الحديث احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله وأحبوا اهل بيتى لحبى وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ }التوبة24 الى قوله { أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }التوبة24 وقال النبى لا يؤمن احدكم

حتى اكون احب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وفى حديث الترمذى وغيره من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 فالذين آمنوا اشدا حبا لله من كل محب لمحبوبه وقد بسطنا الكلام على هذا فى مواضع متعددة والمقصود هنا ان اهل الايمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الايمان ما يناسب هذه المحبة ولهذا علق النبى صلى الله عليه وسلم ما يجدونه بالمحبة فقال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وان يحب المرء لايحبه الا الله وان يكره ان يعود فى الكفر كما يكرة ان يقذف فى النار ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص والتوكل والدعاء لله وحده فان الناس فى هذا الباب على ثلاث درجات منهم من علم ذلك سماعا واستدلالا ومنهم من شاهد وعاين ما يحصل لهم ومنهم من وجد حقيقة الاخلاص والتوكل على الله والالتجاء اليه والاستعانه به وقطع التعلق بما سواه وجرب من نفسه انه اذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم ان يجلبوا له منفعة او يدفعوا عنه مضره فانه يخذل من جهتهم ولا يحصل مقصوده بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو ان ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه إما لعجزهم واما لانصراف قلوبهم عنه وإذا توجه الى الله بصدق الافتقار اليه واستغاث به مخلصا له الدين أجاب دعاءه وأزال ضرره وفتح له ابواب الرحمه فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهة دون ما سواه يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك بل من اتبع هواه فى مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة او جمعه للمال يجد فى أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر مالا يعبر عنه وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ولايحصل له ما يسره بل هو فى خوف وحزن دائما إن كان طالبا لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل فاذا ادركه كان خائفا من زواله وفراقه و {أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }يونس62 فاذا ذاق هذا او غيره حلاوة الاخلاص لله والعبادة له وحلاوة ذكره ومناجاته وفهم كتابه واسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحا ويكون لوجه الله خالصا فانه يجد من السرور واللذة و الفرح ما هو اعظم مما يجده الداعى المتوكل الذى نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا او اندفع عنه ما يضره فإن حلاوة ذلك هى بحسب ما حصل له من المنفعة او اندفع عنه من المضرة ولا انفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله ولا اضر عليه من الاشراك فاذا وجد حقيقة الاخلاص التى هى حقيقة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ }الفاتحة5مع حقيقة التوكل التى هى حقيقة { وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا والله اعلم [1]

النعمة من النعيم

أنه مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب ولهذا كانت النعمة من النعيم وهو ما ينعم الله به على عباده مما يكون فيه لذة ونعيم وقال {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }التكاثر8 أي عن شكره فسبب اللذة إحساس الملائم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 645 -652 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 78-81

[2] أمراض القلوب ج: 1 ص: 29 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 140

{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }

القلب لابد له من ارادة فاذا كان يكره الشر كله فلابد أن يريد الخير والمباح بالنية الحسنة يكون خيرا وبالنية السيئة يكون شرا ولا يكون فعل اختيارى الا بارادة ولهذا قال النبى فى الحديث الصحيح أحب الأسماء الى الله عبد الله وعبدالرحمن وأصدق الأسماء حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة وقوله أصدق الأسماء حارث وهمام لأن كل انسان همام حارث والحارث الكاسب العامل والهمام الكثير الهم وهو مبدأ الارادة وهو حيوان وكل حيوان حساس متحرك بالارادة فاذا فعل شيئا من المباحات فلا بد له من غاية ينتهى اليها قصده وكل مقصود اما ان يقصد لنفسه واما أن يقصد لغيره فان كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لاشريك له وهو إلهه الذى يعبده لا يعبد شيئا سواه وهو احب اليه من كل ما سواه فان ارادته تنتهى الى ارادته وجه الله فيثاب على مباحاته التى يقصد الاستعانة بها على الطاعة كما فى الصحيحين عن النبى انه قال نفقة الرجل على اهله يحتسبها صدقة وفى الصحيحين عنه انه قال لسعد بن ابى وقاص لما مرض بمكة وعاده انك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك وقال معاذ بن جبل لأبى موسى انى احتسب نومتى كما احتسب قومتى وفى الاثر نوم العالم تسبيح وإن كان أصل مقصوده عبادة غير الله لم تكن الطيبات مباحة له فان الله أباحها للمؤمنين من عباده بل الكفار واهل الجرائم والذنوب واهل الشهوات يحاسبون يوم القيامة على النعم التى تنعموا بها فلم يذكروه ولم يعبدوه بها ويقال لهم { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ }الأحقاف20 وقال تعالى {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }التكاثر8 اى عن شكره والكافر لم يشكر على النعيم الذى انعم الله عليه به فيعاقبه على ذلك والله انما اباحها للمؤمنين وامرهم معها بالشكر كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }البقرة172 وفى صحيح مسلم عن النبى انه قال ان الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وفى سنن ابن ماجه وغيره الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وكذلك قال للرسل {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً }المؤمنون51[1]

وجوب الشكر

والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }البقرة172 وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وفي الأثر الطاعم الشاكر كالصائم الصابر رواه ابن ماجة عن النبي وقد قال تعالى {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }التكاثر8 ولما ضاف النبي أبا الهيثم بن التيهان وجلسوا في الظل وأطعمهم فاكهة ولحما وسقاهم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص:43- 44

ماء باردا قال هذا من النعيم الذي تسألون عنه والسؤال عنه لطلب شكره لا لإثم فيه فالله تعالى يطلب من عباده شكر نعمه وعليه أن لا يستعين بطاعته على معصيته فإذا ترك ما وجب عليه في نعمته من حق واستعان بها على محرم صار فعله بها وتركه لما فيها سببا للعذاب أيضا فالعذاب أستحقه بترك المأمور وفعل المحظور على النعمة التي هي من فعل الله تعالى وإن كان فعله وتركه بقضاء الله وقدره بعلمه ومشيئته وقدرته وخلقه فأن حقيقة الأمر أنه نعم العبد تنعيما وكان ذلك التنعيم سببا لتعذيبه أيضا فقد اجتمع في حقه تنعيم وتعذيب ولكن التعذيب إنما كان بسبب معصيته حيث لم يؤد حق النعمة ولم يتق الله فيها وعلى هذا فهذه التنعمات هي نعمة من وجه دون وجه فليست من النعم المطلقة ولا هي خارجة عن جنس النعم مطلقها ومقيدها فباعتبار ما فيها من التنعم يصلح أن يطلب حقها من الشكر وغيرها وينهى عن استعمالها في المعصية فتكون نعمة في باب الأمر والنهي والوعد والوعيد وباعتبار أن صاحبها يترك فيها المأمور ويفعل فيها المحظور الذي يزيد عذابه على نعمها كانت وبالا عليه وكان أن لا يكون ذلك من حقه خيرا له من أن يكون فليست نعمة في حقه في باب القضاء والقدر والخلق والمشيئة العامة وإن كان يكون نعمة في حق عموم الخلق والمؤمنين وعلى هذا يظهر ما تقدم من خيرات الله فإن ذلك استدراج ومكر وإملاء وهذا الذي ذكرناه من ثبوت الإنعام بها من وجه وسلبه من وجه آخر مثل ما ذكر الله في قوله تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16} كَلَّا {17} الفجر15-17 فإنه قد أخبر أنه أكرمه وأنكر قول المبتلى ربي أكرمن واللفظ الذي أخبر الله به مثل اللفظ الذي أنكره الله من كلام المبتلى لكن المعني مختلف فإن المبتلي اعتقد أن هذه كرامة مطلقة وهي النعمة التي يقصد بها أن النعم إكرام له والإنعام بنعمة لا يكون سببا لعذاب أعظم منها وليس الأمر كذلك بل الله تعالى ابتلاه بها ابتلاء ليتبين هل يطيعه فيها أم يعصيه مع علمه بما سيكون من الأمرين لكن العلم بما سيكون شيء وكون الشيء والعلم به شيء[1]

اصل الدين فعل الواجبات وترك المحرمات

وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }البقرة172 فأمر بالأكل من الطيبات والشكر له والطيب هو ما ينفع الإنسان وحرم الخبائث وهو ما يضره وأمر بشكره وهو العمل بطاعته بفعل المأمور وترك المحذور وفى صحيح مسلم عن النبى أنه قال إن الله ليرضى على العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وقال تعالى { كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً }المؤمنون51 فمن اكل من الطيبات ولم يشكر ولم يعمل صالحا كان معاقبا على ما تركه من الواجبات ولم تحل له الطيبات فإنه إنما أحلها لمن يستعين بها على طاعته لا لمن يستعين بها على معصيته كما قال تعالى {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }المائدة93 وقال الخليل {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }البقرة126 ولهذا لا يجوز أن يعان الإنسان بالمباحات على المعاصى مثل من يعطى الخبز واللحم لمن يشرب عليه الخمر ويستعين به على الفواحش ومن حرم الطيبات التى أحلها الله من الطعام واللباس

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 164-166

والنكاح وغير ذلك وإعتقد أن ترك ذلك مطلقا هو أفضل من فعله لمن يستعين به على طاعة الله كان معتديا معاقبا على تحريمه ما أحل الله ورسوله وعلى تعبده لله تعالى بالرهبانية ورغبته عن سنة رسول الله وعلى ما فرط فيه من الواجبات وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وكذلك من أسرف فى بعض العبادات كسرد الصوم ومداومة قيام الليل حتى يضعفه ذلك عن بعض الواجبات كان مستحقا للعقاب كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمرو إن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزوجك عليك حقا فآت كل ذى حق حقه فاصل الدين فعل الواجبات وترك المحرمات فما تقرب العبد إلى الله بأفضل من أداء ما افترض عليه ولا يزال العبد يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه فالنوافل المستحبة التى لا تمنع الواجبات مما يرفع الله بها الدرجات وترك فضول المباحات وهو ما لا يحتاج إليها لفعل واجب ولا مستحب مع الإيثار بها مما يثيب الله فاعله عليه ومن تركها لمجرد البخل لا للتقرب إلى الله لم يكن محمودا ومن إمتنع عن نوع من الأنواع التى اباحها الله على وجه التقرب بتركها فهو مخطىء ضال ومن تناول ما اباحه الله من الطعام واللباس مظهرا لنعمة الله مستعينا على طاعة الله كان مثابا على ذلك وقوله تعالى {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } التكاثر8 أي عن شكر النعيم فيطالب العبد بأداء شكر نعمة الله على النعيم فإن الله سبحانه لا يعاقب على ما أباح وإنما يعاقب على ترك مأمور وفعل محذور وهذه القواعد الجامعة تبين المسائل المذكورة وغيرها [1]

الله سبحانه لا يعاقب على ما أباح

فأباح الله للمتقين الطيبات التى يستعينون بها على عبادة ربهم التى خلقوا لها و حرم عليهم الخبائث التى تضرهم في المقصود الذي خلقوا له و أمرهم مع أكلها بالشكر و نهاهم عن تحريمها فمن أكلها و لم يشكر ترك ما أمر الله به و إستحق العقوبة و من حرمها كالرهبان فقد تعدى حدود الله فإستحق العقوبة قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } البقرة172 و فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها و يشرب الشربة فيحمده عليها و فى حديث آخر الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر و قال تعالى {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } التكاثر8 أي عن شكره فإنه لا يبيح شيئا و يعاقب من فعله و لكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه و عما حرمه عليه هل فرط بترك مأمور أو فعل محظور كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [2]

تحريم الطيبات بدون سبب شرعي بدعة مذمومة

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } البقرة172 فأمر بالأكل والشكر فمن حرم الطيبات عليه وامتنع من أكلها بدون سبب شرعي فهو

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 137

[2] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 181

مذموم مبتدع داخل في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ }المائدة87 ومن أكلها بدون الشكر الواجب فيها فهو مذموم قال الله تعالى {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }التكاثر8 أي شكر النعيم وقد روى عن النبي أنه قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وفي الصحيح عن النبي أنه قال إن الله ليرضى عن العبد بأن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها وكذلك الإسراف في الأكل مذموم وهو مجاوزة الحد ومن أكل بنية الاستعانة على عبادة كان مأجورا على ذلك وكذلك ما ينفقه على أهل بيته كما قال النبي في الحديث الصحيح نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة وقال لسعد إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك[1]

لطائف لغوية

1-الله سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب وتارة يحذفه كما يحذف جواب لو كثيرا كقوله تعالى { لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ }التكاثر5 وقوله {وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ }الرعد31 {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ }الأنفال50 {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ }سبأ51 {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ }الأنعام27 {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ }الأنعام30 ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام لأن المراد أنك لو رأيته لرئيت هولا عظيما فليس فى ذكر الجواب زيادة على ما دل المحرم وهو أيضا تنبيه فاذا أقسم به وفيه الحلال فاذا كان فيه الحرام كان أولى بالتعظيم وكذلك اذا أريد الحلول فانه هو السلبى فالمعنى واحد [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 212

[2] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 316

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة العصر
103

رقية محمود الغرايبة

~§§ العصر(مكية)3 §§~

مقدمة سورة العصر

لو فكر الناس كلهم فى سورة العصر لكفتهم

يؤمر المؤمنون ان يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات كما يقابل الطبيب المرض بضده فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه وذلك بشيئين بفعل الحسنات وترك السيئات مع وجود ما ينفى الحسنات ويقتضى السيئات وهذه أربعة أنواع ويؤمر ايضا باصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وامكانه قال تعالى { وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3 وروى عن الشافعى رضى الله عنه انه قال لو فكر الناس كلهم فى سورة والعصر لكفتهم وهو كما قال فان الله تعالى اخبر ان جميع الناس خاسرون الا من كان فى نفسه مؤمنا صالحا ومع غيره موصيا بالحق موصيا بالصبر واذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سببا لعلو الدرجة وعظيم الأجر كما سئل النبى أى الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلابة زيد فى فى بلائه وان كان فى دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة وحينئذ فيحتاج من الصبر مالا يحتاج اليه غيره وذلك هو سبب الامامة فى الدين كما قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24 فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به وترك السئ المحظور ويدخل فى ذلك الصبر على الاذى وعلى ما يقال والصبر على ما يصيبه من المكاره والصبر عن البطر عند النعم وغير ذلك من أنواع الصبر ولا يمكن العبد ان يصبر ان لم يكن لهم ما يطمئن به ويتنعم به ويغتذى به وهو اليقين كما فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى انه قال يا أيها الناس سلوا الله اليقين والعافية فانه لم يعط احد بعد اليقين خيرا من العافية فسلوهما الله وكذلك إذا أمر غيره بحسن او أحب موافقته على ذلك او نهى غيره عن شئ فيحتاج أن يحسن الى ذلك الغير احسانا يحصل به مقصوده من حصول المحبوب واندفاع المكروه فان النفوس لا تصبر على المر الا بنوع من الحلو لا يمكن غير ذلك ولهذا أمر الله تعالى بتاليف القلوب حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيبا فى الصدقات وقال تعالى لنبيه {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }الأعراف199 وقال تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }البلد17 فلا بد أن يصبر وان يرحم وهذا هو الشجاعة والكرم ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة وهى الاحسان الى الخلق وبينهما وبين الصبر تارة ولابد من الثلاثة الصلاة والزكاة والصبر لا تقوم مصلحة المؤمنين الا بذلك فى صلاح نفوسهم واصلاح غيرهم لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة فالحاجة الى ذلك تكون أشد فالحاجة الى السماحة والصبر عامة لجميع بنى أدم لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم الا به ولهذا جمعيهم يتمادحون بالشجاعة والكرم حتى ان ذلك عامة ما يمدح به الشعراء فى شعرهم وكذلك يتذامون بالبخل والجبن والقضايا التى يتفق عليها بنوا آدم لا تكون الا حقا كاتفاقهم على مدح الصدق

والعدل وذم الكذب والظلم وقد قال النبى لما سأله الأعراب حتى اضطروه الى سمرة فتعلقت بردائه فالتفت اليهم قال والذى نفسى بيده لو أن عندى عدد هذه العضاه نعما لقسمته عليكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا [1]

[1] الاستقامة ج: 2 ص: 259-262 ومجموع الفتاوى ج: 28 ص: 154-155

سورة العصر 1-3

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3}

إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته

فان إقسام الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته كالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا { وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} سورة العصر 1-3 فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما فى السنن عن النبى أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك وقد صححه الترمذى وغيره وفى لفظ فقد كفر وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1]

ذم الإنسان كله إلا ما إستثناه

م فذم الإنسان كله إلا ما إستثناه فمن لم يكن متصفا بما إستثناه كان مذموما كما فى قوله تعالى{ وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3}العصر 1-3 [2]

هنا ذكر الخسر فقط فوصف المستثنين بأنهم تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر مع الإيمان و الصلاح [3]

أصل العلم الإلهى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 203

[2] جموع الفتاوى ج: 22 ص: 571

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 294

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ }سبأ50 وتقرير الحجة فى القرآن بالرسل كثير كقوله {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }النساء165 ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التى هى القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا وكذلك ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ {3} البقرة 1-3 ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا وقوله (وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3 وقوله { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6} التين 5-6 فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما شائعا متواترا اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته[1]

وجوب معرفة الحق

أن الإنسان يجب عليه أن يعرف الحق وأن يتبعه وهذا هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين وهذا هو الصراط الذي أمرنا الله أن نسأله هدايتنا إياه في كل صلاة بل في كل ركعة وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه استكبارا وحسدا وغلوا واتباعا للهوى وهذا هو الغي والنصارى ليس لهم علم بما يفعلونه من العبادة والزهد والأخلاق بل فيهم الجهل والغلو والبدع والشرك جهلا منهم وهذا هو الضلال وإن كان كل من الأمتين فيه ضلال وغي لكن الغي أغلب على اليهود والضلال أغلب على النصارى ولهذا وصف الله اليهود بالكبر والحسد واتباع الهوى والغي وإرادة العلو في الأرض والفساد قال تعالى { أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ }البقرة87 وقال تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً }النساء54 وقال {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ }الأعراف146 وقال تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً }الإسراء4 ووصف النصارى بالشرك والضلال والغلو والبدع فقال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }التوبة31 وقال تعالى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 5

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ }المائدة77 وقال تعالى { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا }الحديد27وهذا مبسوط في غير هذا الموضع وقد نزه الله نبيه عن الضلال والغي فقال { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} النجم 1- 3 فالضال الذي يعرف الحق والغاوي الذي يتبع هواه وقال تعالى {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ }ص45 فالأيدي القوة في طاعة الله والأبصار البصائر في الدين وقال تعالى { وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3 [1]

الارادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر

فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة والارادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ولهذا قال سبحانه وتعالى { وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3 وقال تعالي {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24 فاليقين هو العلم الثابت المستقر والصبر لابد منه لتحقيق الإرادة الجازمة [2]

التواصي بالحق مع الصبر

مثل حرارة المحموم متي مكن المحموم مما يضره ازداد مرضه أو انتقل إلي مرض شر منه فهذه حال أهل الشهوات بل تدفع تلك الشهوة الحلوة بضدها والمنع من موجباتها ومقابلتها بالضد من العذاب المؤلم ونحوه الذي يخرج المحبة من القلب كما قيل فإني رأيت الحب في القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب فإذا كان يحصل بالمحبة ونيل الشهوة أمر مما يزيد ألمه علي لذتها انكفت النفس وكذلك إذا حصل بدله أمر لذيذ أطيب منه اغتاظت النفس فاللذيذ يترك لما يرجح عليه من لذيذ وأليم كما أن الأليم محتمل لما يرجح عليه من لذيذ وأليم وإذا تكافئا تقابلا فلم يغلب أحدهما الآخر بل تبقي الأمور علي ما هو عليه إذا استوت الدواعي والصوارف واحتمال الأليم وفوت اللذيذ وإن كان فيه مرارة فذلك يدفع به ما هو أمر منه ويجلب به ما هو أرجح منه من الحلو ولكن هذا من محبة بني آدم وفتنتهم التي لا بد منها وهي مخالفة الأهواء فلا تقوم مصلحة أحد من بني آدم بدون ذلك أبدا لا مصلحة دنياه ولا مصلحة دينه كما قال إبراهيم الحربي أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ولا بد من الصبر في جميع الأمور قال تعالي { وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3 فلا بد من التواصي بالحق والصبر إذ أن أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم إلا بصبر عليه أيضا لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر وأولئك يتواصون بالصبر علي باطلهم كما قال قائلهم أن امشوا واصبروا علي آلهتكم إن هذا لشيء يراد فالتواصي بالحق بدون الصبر كما

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 13

[2] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 157

يفعله الذين يقولون { آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ }العنكبوت10 والذين يعبدون الله علي حرف فإن أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب علي وجهه خسر الدنيا والآخرة والتواصي بالصبر بدون الحق كقول الذين قالوا { أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ }ص6 كلاهما موجب للخسران وإنما نجا من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وهذا موجود في كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة وأهل الشبهات الفاسدة أهل الفجور وأهل البدع [1]

الإمامة فى الدين موروثة عن الصبر واليقين

ان الانسان إذا ابتلى فعلية ان يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد فى جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل فى ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى اللة عنة وقد ذكر الله الصبر فى كتابه فى اكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }البقرة45 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }البقرة153 وقوله {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ }هود114 الى قوله {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }هود115 {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا }طه130 {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ }غافر55 الآية وجعل الامامة فى الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24 فان الدين كله علم بالحق وعمل به والعمل به لا بد فيه من الصبر بل وطلب علمه يحتاج الى الصبر كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالعلم فان طلبه لله عبادة ومعرفته خشية والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ومذاكرته تسبيح به يعرف الله ويعبد وبه يمجد الله ويوحد يرفع الله بالعلم اقواما يجعلهم للناس قادة وائمة يهتدون بهم وينتهون الى رأيهم فجعل البحث عن العلم من الجهاد ولا بد فى الجهاد من الصبر ولهذا قال تعالى {وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3}العصر 1-3 وقال تعالى {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ }ص45 فالعلم النافع هو اصل الهدى والعمل بالحق هوالرشاد وضد الاول الضلال وضد الثانى الغى فالضلال العمل بغير علم والغى اتباع الهوى قال تعالى { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} النجم 1-2 فلا ينال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد الا بالصبر ولهذا قال على ألا ان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد فاذا انقطع الرأس بان الجسد ثم رفع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشائخ من اصحاب الامام احمد وغيرهم فى الرضا بالقضاء هل هو واجب او مستحب على قولين فعلى الأول يكون من أعمال

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 207

المقتصدين وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين قال عمر بن عبد العزيز الرضا عزبز ولكن الصبر معول المؤمن وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لابن عباس إن استطعت ان تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل فان لم تستطع فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ولهذا لم يجئ فى القرآن الا مدح الراضين لا ايجاب ذلك وهذا فى الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلزال كما قال تعالى { وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ }البقرة177 وقال تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ }البقرة214 فالبأساء فى الأموال والضراء فى الأبدان والزلزال فى القلوب وأما الرضا بما امر الله به فأصله واجب وهو من الايمان كما قال النبى فالحديث الصحيح ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وهو من توابع المحبة كما سنذكره ان شاء الله تعالى قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً }النساء65 [1]

الصبر ضابط الأخلاق

أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر فكما أنا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيصاء بها فقد نهينا عن قبول ضدها و هو التكذيب بالحق والترك للصبر فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر و الصبر ضابط الأخلاق المأمور بها ولهذا ختم السورة به و قال {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا }فصلت35 وقال تعالى{ وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} فكان فى سورة العصر ما بين هنا فنهاه عن طاعة الذي فى خسر ضد الذي للمؤمنين الآمرين بالحق و الصبر [2]

الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد

والله سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه النهى عنه وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر فإن حب الشيء وفعله وبغض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر فإن ذلك مسبوق بعلمه فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض ولا فعل ولا ترك لكن فعل الشيء و الأمر به يقتضى أن يعلم علما مفصلا يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلا ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صفة الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا أمر بأوصاف فلا بد من العلم بثبوتها فكما أنا لا تكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة فلا نكون مطيعين إلا إذا لم نعلم وجودها بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها وكون كل منهما معصية فإن الجهل بالتساوى كالعلم بالتفاضل فى بيع الأموال الربوية بعضها بجنسه فإن لم نعلم المماثلة كان كما لو علمنا المفاضلة وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكتفى بمعرفته فى بعض المواضع مجملا فالإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره وقد يحتاج إلى

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 54-55 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 40-41 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 54-55

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 69

الحجج المبنية لذلك وإلى الجواب عما يعارض به اصحابها من الحجج وإلى دفع أهوائهم وإرادتهم وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك وذلك لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى{ وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3 وأول ذلك أن تذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها والنهى عنها وبيان ما فيها من الفساد فإن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والفساق والعصاة من اقوالهم وأفعالهم يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولأهلها وبيان فسادها وضدها والتحذير منها كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان ومن فيهم من أنبيائه وأوليائه على وجه المدح والحب وبيان صلاحه ومنفعته والترغيب فيه وذلك نحو قوله تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ }الأنبياء26 {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً{88} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً{89} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً{90} أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً{91} وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً{92} إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً{93} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً{94} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً{95} مريم 88-95 {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }التوبة30 الآيات وهذا كثير جدا فالذى يحب أقوالهم وأفعالهم هو منهم إما كافر وإما فاجر بحسب قوله وفعله وليس منهم من هو بعكسه وليس عليه عذاب فى تركه لكنه لا يثاب على مجرد عدم ذلك وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه لله وهذا العلم والقصد والبغض هو من الإيمان الذى يثاب عليه وهو ادنى الإيمان كما قال النبى من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إلى آخره وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته وذلك لا يكون إلآ بعد العلم به وبقبحه ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد والنبى قال وذلك أضعف الإيمان فيمن رأى المنكر فأما إذا رآه فلم يعلم أنه منكر ولم يكرهه ولم يكن هذا الإيمان موجودا فى القلب فى حال وجوده ورؤيته بحيث يجب بغضه وكراهته والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين إذا وجدوا وإذا لم يكن المنكر موجودا لم يجب ذلك ويثاب من أنكره عند وجوده ولا يثاب من لم يوجد عنده حتى ينكره وكذلك ما يدخل فى ذلك من الأقوال والأفعال المنكرات قد يعرض عنها كثير من الناس إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهؤلاء وإن كانوا من المهاجرين الذين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين يجاهدون فى إزالتها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فتدبر هذا فإنه كثيرا ما يجتمع فى كثير من الناس هذان الأمران بغض الكفر وأهله وبغض الفجور وأهله وبغض نهيهم وجهادهم كما يحب المعروف وأهله ولا يحب أن يأمر به ولا يجاهد عليه بالنفس والمال وقد قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }الحجرات15 وقال تعالى {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }التوبة24 وقوله {لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }المجادلة22 وكثير من الناس بل أكثرهم كراهتهم للجهاد على المنكرات اعظم من كراهتهم للمنكرات لا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات فربما مالوا إليها تارة وعنها أخرى فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمارة ثم إذا إرتقى إلى الحال الأعلى فى هجر السيئات وصارت نفسه

مطمئنة تاركة للمنكرات والمكروهات لا تحب الجهاد ومصابرة العدو على ذلك وإحتمال ما يؤذيه من الأقوال والأفعال فإن هذا شيء آخر داخل فى قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً }النساء77 الآيات إلى قوله {وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً }النساء85 والشفاعة الإعانة إذ المعين قد صار شفيعا للمعان فكل من أعان على بر أو تقوى كان له نصيب منه ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كفل منه وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين كما قال تعالى قبل ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً }النساء71 إلى قوله{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً }النساء76 [1]

السنة التي يجب اتباعها

أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله لا سيما المتأخرون من الأمة الذين لم يحكموا معرفة الكتاب والسنة والفقه فيهما ويميزوا بين صحيح الأحاديث وسقيمها وناتج المقايسس وعقيمها مع ما ينضم إلى ذلك من غلبة الأهواء وكثرة الأراء وتغلظ الاختلاف والافتراق وحصول العداوة والشقاق فإن هذه الأسباب ونحوها مما يوجب قوة الجهل والظلم اللذين نعت الله بهما الإنسان في قوله { وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً }الأحزاب72 فإذا من الله على الإنسان بالعلم والعدل أنقذه من هذا الضلال وقد قال سبحانه (وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر 1-3 وقد قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24 وأنتم تعلمون أصلحكم الله أن السنة التي يجب اتباعها ويحمد أهلها ويذم من خالفها هي سنة رسول الله في أمور الاعتقادات وأمور العبادات وسائر أمور الديانات وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه في أقواله وأفعاله وما تركه من قول وعمل ثم ما كان عليه السابقون والتابعون لهم بإحسان وذلك في دواوين الإسلام المعروفة مثل صحيحي البخاري ومسلم وكتب السنن مثل سنن أبي داوود والنسائي وجامع الترمذي وموطأ الإمام مالك ومثل المسانيد المعروفة كمثل مسند الإمام أحمد وغيره ويوجد في كتب التفاسير والمغازي وسائر كتب الحديث جملها وأجزائها من الآثار ما يستدل ببعضها على بعض وهذا أمر قد أقام الله له من أهل المعرفة من اعتنى به حتى حفظ الله الدين على أهله[2]

الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد

فإن الإيمان كما قال فيه قيصر لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبي هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه قال لا قال وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ولهذا قال بعض السلف عمر بن عبدالعزيز أو غيره من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده بل هم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص:337- 338

[2] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 378

أعظم الناس صبرا على ذلك وإن امتحنوا بأنواع المحن وفتنوا بأنواع الفتن وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين كأهل الأخدود ونحوهم وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة حتى كان مالك رحمه الله يقول لا تغبطوا أحدا لم يصبه في هذا الأمر بلاء يقول إن الله لا بد أن يبتلي المؤمن فإن صبر رفع درجته كما قال تعالى (وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3[1]

احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل

كان السلف يقولون احذروا من الناس صنفين صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه وكانوا يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم ووصف بعضهم أحمد بن حنبل فقال رحمه الله عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها وقد وصف الله أئمة المتقين فقال {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24 فبالصبر تترك الشهوات وباليقين تدفع الشبهات ومنه قوله في سورة العصر { وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }العصر3 وقوله {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ }ص45 ومنه الحديث المرسل عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات[2]

القلب له عمل مع التصديق

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 51

[2] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 22

وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه [1]

لفظ الإيمان إذا أطلق

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله {مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ }البقرة98 وقوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ }الأحزاب7 وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ }محمد2 فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا }محمد2 وهذه نزلت فى الصحابةوغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ }البقرة238 وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ }البينة5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيصا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عمن سواهم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 198-199

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }التوبة33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ }العصر3 [1]

كمال الانسان

والحق المبين أن كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا كما امره ربه وهؤلاء هم عباد الله وهم المؤمنون والمسلمون وهم اولياء الله المتقون وحزب الله المفلحون وجند الله الغالبون وهم اهل العلم النافع والعمل الصالح وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها كملوا القوة النظرية العلمية والقوة الارادية العملية كما قال تعالى {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }العصر3 [2]

الفتنة سببها ترك الحق او ترك الصبر

ولا تقع فتنة إلا من ترك ما أمر الله به فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر فالفتنة إما من ترك الحق وإما من ترك الصبر فالمظلوم المحق الذي لا يقصر في علمه يؤمر بالصبر فإذا لم يصبر فقد ترك المأمور وإن كان مجتهدا في معرفة الحق ولم يصبر فليس هذا بوجه الحق مطلقا لكن هذا وجه نوع حق فيما أصابه فينبغي أن يصبر عليه وإن كان مقصرا في معرفة الحق فصارت ثلاثة ذنوب أنه لم يجتهد في معرفة الحق وأنه لم يصبه وأنه لم يصبر وقد يكون مصيبا فيما عرفه من الحق فيما يتعلق بنفسه ولم يكن مصيبا في معرفة حكم الله في غيره وذلك بأن يكون قد علم الحق في أصل يختلف فيه بسماع وخبر أو بقياس ونظر أو بمعرفة وبصر ويظن مع ذلك أن ذلك الغير التارك للإقرار بذلك الحق عاص أو فاسق أو كافر ولا يكون الأمر كذلك لأن ذلك الغير يكون مجتهدا قد استفرغ وسعه ولا يقدر على معرفة الأول لعدم المقتضى ووجود المانع وأمور القلوب لها أسباب كثيرة ولا يعرف كل احد حال غيره من ايذاء له بقول أو فعل قد يحسب المؤذى إذا كان مظلوما لا ريب فيه أن ذلك المؤذى محض باغ عليه ويحسب أنه يدفع ظلمه بكل ممكن ويكون مخطئا في هذين الأصلين إذ قد يكون المؤذى متأولا مخطئا وإن كان ظالما لا تأويل له فلا يحل دفع ظلمه بما فيه فتنة بين الأمة وبما فيه شر أعظم من ظلمه بل يومر المظلوم ها هنا بالصبر فإن ذلك في حقه محنة وفتنة وإنما يقع المظلوم في هذا لجزعه وضعف صبره أو لقلة علمه وضعف رأيه فإنه قد يحجب أن القتال ونحوه من الفتن يدفع الظلم عنه ولا يعلم أنه يضاعف الشر كما هو الواقع وقد يكون جزعه يمنعه من الصبر والله سبحانه وصف المؤمنين بالصبر واليقين فقال {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }العصر3 [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 97

[3] الاستقامة ج: 1 ص: 40

لطائف لغوية

1-ان من لغة القوم استعمال الواحد فى الجمع كقوله {إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ }العصر2 ولفظ الجمع فى الوحد كقوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ }آل عمران173 ولفظ الجمع فى الاثنين كقوله { صَغَتْ قُلُوبُكُمَا }التحريم4 [1]

2-قال تعالى {إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ }العصر2 الإنسان اسم جنس محلى باللام فيوجب العموم[2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 365

[2] الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 122

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الهمزة
104

رقية محمود الغرايبة

~§§ الهمزة(مكية)9 §§~

سورة الهمزة1-9

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ{1} الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ{2} يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ{3} كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ{4} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ{5} نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ{6} الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ{7} إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ{8} فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ{9}

{ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ}

قوله { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} الهمزة1 هو الطعان العياب كما قال{هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ }القلم11 و قال {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ}التوبة58 و قال {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }التوبة79 و الهمز أشد لأن الهمز الدفع بشدة و منه الهمزة من الحروف و هي نقرة في الحلق و منه {وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ }المؤمنون97 و منه قول النبى صلى الله عليه و سلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه و نفثه و قال همزه الموتة و هى الصرع فالهمز مثل الطعن لفظا و معنى و اللمز كالذم و العيب و إنما ذم من يكثر الهمز و اللمز فإن الهمزة و اللمزة هو الذي يفعل ذلك كثيرا و الهمزة و اللمزة الذي يفعل ذلك به كما فى نظائره مثل الضحكة و الضحكة و اللعبة و اللعبة وقوله {الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ }الهمزة2 و صفه بالطعن فى الناس و العيب لهم و بجمع المال و تعديده و هذا نظير قوله {إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{36} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ {37}النساء 36-37 { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{23} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ {24} الحديد 23-24 في النساء و الحديد فإن الهمزة اللمزة يشبه المختال الفخور و الجماع المحصي نظير البخيل و كذلك نظيرهما قوله { هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ{11} مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12} عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ{13}القلم11-13 و صفه بالكبر و البخل و كذلك قوله {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى }الليل8 فهذه خمس مواضع و ذلك ناشيء عن حب الشرف و المال فإن محبة الشرف تحمل إنتقاص غيره بالهمز و اللمز و الفخر و الخيلاء و محبة المال تحمل على البخل و ضد ذلك من أعطى فلم يبخل وإتقى فلم يهمز و لم يلمز و أيضا فإن المعطى نفع الناس و المتقى لم يضرهم فنفع و لم يضر و أما المختال الفخور البخيل فإنه ببخله منعهم الخير و بفخره سامهم الضر فضرهم و لم ينفعهم و كذلك الهمزة الذي جمع مالا و نظيره قارون الذي جمع مالا و كان من قوم موسى فبغى عليهم و من تدبر القرآن و جد بعضه يفسر بعضا فإنه كما قال ابن عباس فى رواية الوالى مشتمل على الأقسام و الأمثال و هو تفسير { مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ }الزمر23 و لهذا جاء كتاب الله جامعا كما قال صلى الله عليه و سلم أعطيت جوامع الكلم و قال تعالى {كِتَاباً

مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ }الزمر23 فالتشابه يكون فى الأمثال و المثاني فى الأقسام فإن التثنية فى مطلق التعديد كما قد قيل فى قوله { ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ }الملك4 و كما فى قول حذيفة كنا نقول بين السجدتين رب إغفر لي رب إغفر لي و كما يقال فعلت هذا مرة بعد مرة فتثنية اللفظ يراد به التعديد لأن العدد ما زاد على الواحد و هو أول التثنية و كذلك ثنيت الثوب أعم من أن يكون مرتين فقط أو مطلق العدد فهو جميعه متشابه يصدق بعضه بعضا ليس مختلفا بل كل خبر و أمر منه يشابه الخبر لإتحاد مقصود الأمرين و لإتحاد الحقيقة التى إليها مرجع الموجودات فلما كانت الحقائق المقصودة و الموجودة ترجع إلى أصل و احد و هو الله سبحانه كان الكلام الحق فيها خبرا و أمرا متشابها ليس بمنزلة المختلف المتناقض كما يوجد فى كلام أكثر البشر و المصنفون الكبار منهم يقولون شيئا ثم ينقضونه و هو جميعه مثانى لأنه إستوفيت فيه الأقسام المختلفة فإن الله يقول {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ }الذاريات49 فذكر الزوجين مثاني و الإخبار عن الحقائق بما هي عليه بحيث يحكم على الشيء بحكم نظيره و هو حكم على المعنى الواحد المشترك خبرا أو طلبا خطاب متشابه فهو متشابه مثان وهذا فى المعاني مثل الوجوه في الألفاظ فإن كل شيئين من الأعيان و الأعراض و غير ذلك إما أن يكون أحدهما مثل الآخر أو لا يكون مثله فهي الأمثال و جمعها هو التأليف و إذا جاءت بلفظ واحد كانت نظائر و إن لم يكن مثله فهو خلافه سواء كان ضدا أو لم يكن و قد يقال إما أن يجمعهما جنس أولا فإن لم يجمعهما جنس فأحدهما بعيد عن الآخر و لا مناسبة بينهما و إن جمعهما جنس فهي الأقسام و جمعها هو التصنيف و دلالة اللفظ الواحد على المعاني المختلفة تسمى الوجوه و الكلام الجامع هو الذي يستوفي الأقسام المختلفة و النظائر المتماثلة جمعا بين المتماثلين و فرقا بين المختلفين بحيث يبقى محيطا و إلا فذكر أحد القسمين أو المثلين لا يفيد التمام و لا يكون الكلم محيطا و لا الكلم جوامع و هو فعل غالب الناس فى كلامهم و الحقائق فى نفسها منها المختلف و منها المؤتلف و المختلفان بينهما إتفاق من و جه و إفتراق من وجه فإذا أحاط الكلام بالأقسام المختلفة و الأمثال المؤتلفة كان جامعا و بإعتبار هذه المعاني كانت ضروب القياس العقلي المنطقي ثلاثة الحمليات و الشرطيات المتصلة و الشرطيات المنفصلة فالأول للحقائق المتماثلة الداخلة في القضية الجامعة و الثاني للمختلفات التى ليست متضادة بل تتلازم تارة و لا تتلازم أخرى و الثالث للحقائق المتضادة المتنافية إما و جودا أو عدما و هي النقيضان و إما و جودا فقط و هو أعم من النقيضين و إما عدما فقط و هو أخص من النقيضين فالحمليات للمثلين و الأمثال والشرطيات المنفصلة للمتضادين و المتضادات و يسمى التقسيم و السبر و الترديد و البيانى و المتصلة للخلافين غير المتضادين و يسمى التلازم [1]

الهمز واللمز من جنس الغيبة

فى الحديث الصحيح لما سئل عن الغيبة فقال هى ذكرك أخاك بما يكره قيل يا رسول الله أرأيت ان كان فى أخى ما أقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته والمقصود هنا ان النبى فرق بين الاغتياب وبين البهتان وأخبر أن المخبر بما يكره أخوه المؤمن عنه اذا كان صادقا فهو المغتاب وفى قوله ذكرك أخاك بما يكره موافقة لقوله تعالى{ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ }الحجرات12 فجعل جهة

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 521

التحريم كونه أخا اخوة الايمان ولذلك تغلظت الغيبة بحسب حال المؤمن فكلما كان أعظم ايمانا كان أغتيابه أشد ومن جنس الغيبة الهمز واللمز فان كلاهما فيه عيب الناس والطعن عليهم كما فى الغيبة لكن الهمز هو الطعن بشدة وعنف بخلاف اللمز فانه قد يخلو من الشدة والعنف كما قال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ }التوبة58 أى يعيبك ويطعن عليك وقال تعالى {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ }الحجرات11 اى لا يلمز بعضكم بعضا وقال {هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ }القلم11 وقال { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ{1} الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ{2} يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ{3} كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ{4} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ{5} نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ{6} الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ{7} إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ{8} فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ{9}سورة الهمزة 1-9 [1]

لطائف لغوية

1- واللمز العيب والطعن ومنه قوله تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ }التوبة58 أي يعيبك ويطعن عليك وقوله {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ }التوبة79 وقوله { وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ }الحجرات11 أي لا يلمز بعضكم بعضا كقوله {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً }النور12 وقوله { فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ }البقرة54 وقد قال تعالى {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ }الهمزة1 والهمز العيب والطعن بشدة وعنف ومنه همز الأرض بعقبة ومنه الهمزة وهي نبرة من الصدر [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 238

[2] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 235

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الفيل
105

رقية محمود الغرايبة

مقدمة سورة الفيل

أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن وملكهم سار إلى مكة بالفيل ليخرب البيت وكانوا نصارى فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيرا أبابيل وهي جماعات في تفرقة تحمل حجارة من طين فألقتها على الحبشة النصارى فأهلكتهم وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت وعلم العقلاء أن هذا لم يكن نصرا من الله لمشركي العرب فإن دين النصارى خير من دينهم وإنما كان نصرا للبيت وللأمة المسلمة التي تعظمه وللنبي المبعوث من البيت وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله في ذلك سورة الفيل ثم أن سيف بن ذي يزن ذهب إلى كسرى وطلب منه جيشا يغزو به الحبشة فأرسل معه عسكرا من الفرس والمجوس فأخرجوا الحبشة من اليمن فصارت بيد العرب وبها نائب كسرى وسيف بن ذي يزن هذا ممن بشر بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره وأخبر بذلك جده عبد المطلب لما وفد عليه[1]

[1] الجواب الصحيح ج: 1 ص: 318-319

سورة الفيل1-5

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5}

الرد على من يدعى ان المعجزات قوى نفسية للانبياء

أن يقال تأثير النفوس مشروط بشعورها فإن النفس حية مريدة تفعل بإرادتها ففعلها مشروط بإرادتها والفعل الاختياري الإرادي مشروط بالشعور وخوارق العادات التي للأنبياء منها ما لا يكون النبي شاعرا به ومنها ما لا يكون مريدا له فلا يكون ذلك من فعل نفسه بل ومنها ما يكون قبل وجوده ووجود قدرته ومنها ما يكون بعد موته ومفارقة نفسه لهذا العالم ومن المعلوم أن ما يكون قبل أن تصير لنفسه قوة ونحو ذلك يمتنع أن يكون مضافا إلى قوته فإن المعدوم لا قوة له وذلك مثل قصة أصحاب الفيل التي أنزلها الله لما أتى بالفيل إلى مكة وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول وكان أهل الفيل نصارى ودينهم كان خيرا من دين أهل مكة إذ ذاك فإنهم كانوا مشركين ودين النصارى خير من دين المشركين الذين يعبدون الأوثان لكن كان ذلك كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم المبعوث بحرمة البيت وكان عام الفيل عام مولده صلى الله عليه وسلم قبل مولده بنحو خمسين ليلة ولم تكن له قوة نفسانية يؤثر بها ولا شعور بما جرى ولا إرادة له في ذلك وكذلك ما حصل من الحوادث حين مولده صلى الله عليه وسلم وكذلك إخبار الكهان بأموره وما صارت الجن تخبرهم به من نبوته أمور خارجة عن قدرته وعلمه وإرادته وكذلك ما أخبر به أهل الكتاب وما وجد مكتوبا عند أهل الكتاب من إخبار الأنبياء المتقدمين بنبوته ورسالته وأمر الناس باتباعه أمور خارجة عن قدرته وعلمه وإرادته كائنة قبل مولده وكذلك ما خص الله به الكعبة البيت الحرام من حين بناه إبراهيم وإلى هذا الوقت من تعظيمه وتوقير وانجذاب القلوب إليه ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والمدائن والقصور بالآلات العظيمة البناء المحكم ثم لا يلبث أن ينهدم ويهان والكعبة بيت مبني من حجارة سود بواد غير ذي زرع ليس عنده ما تشتهيه النفوس من البساتين والمياه وغيرها ولا عنده عسكر يحميه من الأعداء ولا في طريقه من الشهوات ما تشتهيه الأنفس بل كثيرا ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله ومع هذا فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوى إليه ما لا يعلمه إلا الله وقد جعل للبيت من العز والشرف والعظمة ما أذل به رقاب أهل الأرض حتى تقصده عظماء الملوك ورؤساء الجبابرة فيكونون هناك في الذل والمسكنة كآحاد الناس وهذا مما يعلم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر وقوى نفوسهم وأبدانهم والذي بناه قد مات من ألوف سنين ولهذا كان أمر البيت مما حير هؤلاء الفلاسفة والمنجمين والطبائعية لكون خارجا عن قياس عقولهم وقوانين علومهم حتى اختلفوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كل عاقل لبيب مثل قول بعضهم أن تحت الكعبة بيتا فيه صنم يبخر ويصرف

وجهه إلى الجهات الأربع ليقبل الناس إلى الحج وهذا مما يعلم كل من عرف أمر مكة أنه من أبين الكذب وأنه ليس تحت الكعبة شيء من هذا وأنه لا ينزل أحد من أهل مكة إلى ما تحت الكعبة ولا يحفره أحد ولا يبخر أحد شيئا هناك ولا هناك صنم ولا غير صنم[1]

الحكمة من ذكر سوء عاقبة من كفر بالرسل

وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5} الفيل 1-5 يذكر الله تعالى قصص رسله ومن آمن بهم وما حصل لهم من النصر والسعادة وحسن العاقبة وقصص من كفر بهم وكذبهم وما حصل لهم من البلاء والعذاب وسوء العاقبة وهذا من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم وكذب من خالفهم وفجوره ثم إنه سبحانه بين أن ذلك يعلم بالبصر أو السمع أو بهما فالله سبحانه وتعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة[2]

دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

ومن آيات محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته التي في القرآن قصة الفيل قال تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5} الفيل 1-5 وقد تواترت قصة أصحاب الفيل وأن أهل الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم معهم فيل ليهدموا الكعبة لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنايسهم فارسل الله عليهم طيرا أهلكهم وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ودين النصارى خير من دينهم فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ بل كانت لأجل البيت أو لأجل النبي صلى الله عليه وسلم الذي ولد به في ذلك العام عند البيت أو لمجموعهما وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته فإنه إذا قيل إنما كانت آية للبيت وحفظا له وذبا عنه لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت ويصلى إليه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومحمد هو الذي فرض حجه والصلاة إليه فإذا كان هذا البيت عند أهل الكنائس لما ارادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت علم أن دين أهل هذا البيت خير من دين النصارى والمشركون ليسوا خيرا من النصارى فتعين أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير من النصارى وذلك يستلزم أن نبيهم صادق وإلا فمن كانوا متبعين لنبي كاذب فليسوا خيرا من النصارى بل هم شرار الخلق كأتباع مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهما وقال في القرآن { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5} الفيل 1-5 والأبابيل جماعات في تفرقة فوج بعد فوج {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} الفيل 4 أي من طين مستحجر { فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5} الفيل 5 كالتبن الذي أكل

---

[1] الصفدية ج: 1 ص: 219

[2] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 135

وقوله ألم تر إستفهام في معنى التقرير وهذا يقتضي أن هذا قد وقع وعلم به الناس ورأوه وقد قررهم على ذلك لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام على الخلق ومن آيته الظاهرة التي في القرآن ما ذكره من { مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً }الجن8 بخلاف ما كانت العادة جارية به قال تعالى { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً{1} يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً{2} وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً{3} الجن 1-3[1]

الكعبة فإن الله شرفها وجعلها محرمة

وأما الكعبة فإن الله شرفها وعظمها وجعلها محرمة فلم يمكن الله أحدا من إهانتها لا قبل الإسلام ولا بعده بل لما قصدها أهل الفيل عاقبهم الله العقوبة المشهورة كما قال تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5} الفيل1-5 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }الحج25 قال ابن مسعود رضي الله عنه لو هم رجل بعدن أبين أن يلحد في الحرم لأذاقه الله من عذاب أليم رواه الإمام أحمد في مسنده موقوفا ومرفوعا ومعلوم أن من أعظم الناس كفرا القرامطة الباطنية الذين قتلوا الحجاج وألقوهم في بئر زمزم وأخذوا الحجر الأسود وبقى عندهم مدة ثم أعادوزه وجرى فيه عبرة حتى أعيد ومع هذا فلم يسلطوا على الكعبة بإهانة بل كانت معظمة مشرفة وهم كانوا من أكفر خلق الله تعالى وأما ملوك المسلمين من بني أمية وبني العباس ونوابهم فلا ريب أن أحدا منهم لم يقصد أهانة الكعبة لا نائب يزيد ولا نائب عبد الملك الحجاج بن يوسف ولا غيرهما بل كان المسلمين كانوا معظمين للكعبة وإنما كان مقصودهم حصار ابن الزبير والضرب بالمنجنيق كان له لا للكعبة ويزيد لم يهدم الكعبة ولم يقصد إحراقها لا وهو ولا نوبه باتفاق المسلمين ولكن ابن الزبير هدمها تعظيما لها لقصد إعادتها وبنائها على الوجه الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها وكانت النار قد أصابت بعض ستائرها فتفجر بعض الحجارة ثم إن عبد الملك أمر الحجاج بإعادتها إلى البناء الذي كانت عليه زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما زاد في طولها في السماء فأمره أن يدعه فهي على هذه الصفة إلى الان وهذه مسألة اجتهاد فابن الزبير ومن وافقه من السلف رأوا إعادتها إلى الصفة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لعائشة لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإن قرشا حين بنت الكعبة استقصرت ولجعلت لها خلفا قال البخاري يعني بابا وعنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية أو قال بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها من الحجر وفي رواية في صحيح مسلم ولجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر وروى مسلم في صحيحه عن عطاء بن أبي رباح قال لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاه أهل الشام فكان من أمره ما كان تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرئهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال يا أيها الناس أشيروا على في الكعبة أنقضها ثم أبنى بناءها أم أصلح ما وهي منها قال ابن عباس رضي الله

---

[1] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 55-57

عنهما فإني قد فرق لي فيها رأى أرى أن تصلح ما وهي منها وتدع بيتا أسلم الناس عليه وأحجارا أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن الزبير لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجده فكيف بيت ربكم إني مستخير ربي ثلاثا ثم عازم على أمرى فلما مضت الثلاث أجمع أمره على أن ينقضها فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا الأرض فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه قال ابن الزبير سمعت عائشة رضي الله عنها تقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمس أذرع ولجعلت لها ما بين بابا يدخل الناس منه وباب يخرجون منه قال فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس قال فزاد فيه خمس أذرع من الجر حتى أبدى أسا نظر إليه الناس قال فزاد فيه خمس أذرع من الحجر حتى أبدى أسا نظر إليه الناس فبنة عليه البناء وكان طول الكعبة ثماني عشرة ذراعا فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع وجعل لها بابين أحدهما يدخل منه والاخر يخرج منه فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء أما ما زاد في طوله فأقره وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه فنقضه وأعاده إلى بنائه وعن عبد الله بن عبيد قال وفد الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته فقال عبد الملك ما أظن أبا خبيب يعني ابن الزبير سمع من عائشة رضي الله عنها ما كان زعم أنه سمعه منها قال الحارث بلى أنا سمعته منها قال سمعتها تقول ماذا قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع هذا حديث عبد الله بن عبيد وعن الوليد بن عطاء عن الحارث في هذا الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم ولجعلت لها بابين موضعين بالأرض شرقيا وغربيا وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها قالت قلت لا قال تعززا ألا يدخلها إلا من أرادوا فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه يرتقى حتى إذا كاد أن يدخلها دفعوه فسقط قال عبد الملك للحارث أنت سمعتها تقول هذا قال نعم فنكت ساعة بعصاه ثم قال وددت أني تركته وما تحمل وذكر البخاري عن يزيد بن رومان شهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسمنة الإبل فذكر الزيادة ستة أذرع أو نحوها قلت وابن عباس وطائفة أخرى رأوا إقرارها على الصفة التي كانت عليها زمن النبي صلى الله عليه وسلم فإن النبي صلى الله عليه وسلم أقرها كذلك ثم إنه لما قتل ابن الزبير رأة عبد الملك أن تعاد كما كانت لاعتقاده أن ما فعله ابن الزبير لا مستند له فيه ولما بلغه الحديث ود أنه تركه فلما كانت خلافة الرشيد رحمه الله شاور مالك بن أنس في أن يفعل كما فعل ابن الزبير فأشار عليه مالك بن أنس أن لا يفعل ذلك وقيل عن الشافعي إنه رجح فعل ابن الزبير وكل من الأمراء والعلماء الذين رأوا هذا وهذا معظمون للكعبة مشرفون لها إنما يقصدون ما يرونه أحب إلى الله ورسوله وأفضل عند الله ورسوله ليس فيهم من يقصد إهانة الكعبة ومن قال إن أحدا من خلق الله قصد رمى الكعبة بمنجنيق أو عذرة فقد كذب فإن هذا لم يكن لا في الجاهلية ولا في الإسلام والذين كانوا كفارا لا يحترمون الكعبة كأصحاب الفيل والقرامطة لم يفعلوا هذا فكيف بالمسلمين الذين كانوا يعظمون الكعبة وأيضا فلو قدر والعياذ بالله أن أحدا يقصد إهانة الكعبة وهو قادر على ذلك لم يحتج إلى رميها بالمنجنيق بل يمكن تخريبها بدون ذلك كما تخرب في اخر الزمان إذا أراد الله أن يقيم القيامة فيخرب بيته ويرفع كلامه من الأرض فلا يبقى في المصاحف والقلوب قران ويبعث ريحا طيبة فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ولا يبقى في

الأرض خير من ذلك وتخريبها بأن يسلط عليها ذو السويقتين كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله ليه وسلم قال كأني به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا وقال الله تعالى {جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلآئِدَ} المائدة97 قال ابن عباس رضي الله عنهما لو ترك الناس الحج سنة واحدة لما نوظروا وقال لو اجتمع الناس على أن لا يحجوا لسقطت السماء على الأرض ذكره الإمام أحمد في المناسك ولهذا قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد إن الحج كل عام فرض على الكفاية والمنجنيق إنما يرمى به مالا يقدر عليه بدونه كما رمى النبي صلى الله عليه وسلم أهل الطائف بالمنجنيق لما دخلوا حصنهم وامتنعوا فيه والذين حاصروا ابن الزبير لما استجار هو وأصحابه بالمسجد الحرام رموهم بالمنجنيق حيث لم يقدروا عليهم بدونه ولما قتل ابن الزبير دخلوا بعد هذا إلى المسجد الحرام فطافوا بالكعبة وحج الحجاج بن يوسف ذلك العام بالناس وأمره عبد الملك بن مروان أن لا يخالف ابن عمر في أمر الحج فلو كان قصدهم بالكعبة شرا لفعلوا ذلك بعد أن تمكنوا منها كما أنهم لما تمكنوا من ابن الزبير قتلوه [1]

آية الفيل أظهر الله تعالى بها حرمة الكعبة

والمشركون فى هذه الأزمان من الهند وغيرهم يحجون إلى آلهتهم كما يحجون إلى سمناة وغيره من آلهتهم وكذلك النصارى يحجون إلى قمامة وبيت لحم ويحجون إلى القونة التى بصيدنايا والقونة الصورة وغير ذلك من كنائسهم التى بها الصور التى يعظمونها ويدعونها ويستشفعون بها وقد ذكر العلماء من أهل التفسير والسير وغيرهم أن أبرهة ملك الحبشة الذى ساق الفيل إلى مكة ليهدمها حين إستولت الحبشة على اليمن وقهروا العرب ثم بعد هذا وفد سيف بن ذى يزن فإستنجد كسرى ملك الفرس فأنجده بجيش حتى أخرج الحبشة عنها وهو ممن بشر بالنبي وكانت آية الفيل التى أظهر الله تعالى بها حرمة الكعبة لما أرسل عليهم الطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل أى جماعات متفرقة والحجارة من سجيل طين قد إستحجر وكان عام مولد النبى وهو من دلائل نبوته وأعلام رسالته ودلائل شريعته والبيت الذى لا يحج ولا يصلى إليه إلا هو وأمته قالوا كان أبرهة قد بنى كنيسة بأرض اليمن وأراد أن يصرف حج العرب إليها فدخل رجل من العرب فأحدث فى الكنيسة فغضب

لذلك أبرهة وسافر إلى الكعبة ليهدمها حتى جرى ما جرى قال تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5} الفيل1-5 وهذا معروف عند عامة العلماء من أهل التفسير والسير وغيرهم أنه بني كنيسة أراد أن يصرف حج العرب إليها ومعلوم أنه إنما أراد أن يفعل فيها ما يفعله فى كنائس النصارى وكذلك فى حديث أبى سفيان لما إجتمع بأمية بن أبى الصلت الثقفى وذكر عن عالم من علماء النصارى أنه أخبره بقرب نبى يبعث من العرب قال أمية قلت نحن من العرب قال إنه من أهل بيت يحجه العرب قال فقلت نحن معشر ثقيف فينا بيت يحجه العرب

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 576-584

قال إنه ليس منكم أنه من إخوانكم قريش كما تقدم وثقيف كان فيهم اللات المذكورة فى القرآن في قوله تعالى {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{19} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{20} أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{21}النجم 19-21 وقد ذكروا أنها مكان رجل كان يلت السويق ويسقيه للحجاج فلما مات عكفوا على قبره وصار ذلك وثنا عظيما يعبد والسفر إليه كانوا يسمونه حجا كما تقدم و قال عبد بن حميد فى تفسيره حدثنا قبيصة عن سفيان عن منصور عن مجاهد {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى}النجم 19 قال كان رجل يلت السويق فمات فإتخذ قبره مصلى وقال حدثنا سليمان بن داود عن أبى الأشهب عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال اللات رجل يلت السويق للحجاج وكذلك رواه ابن أبى حاتم عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه وروى عن الأعمش قال كان مجاهد يقرأ اللات مثقلة ويقول كان رجل يلت السويق على صخرة فى طريق الطائف ويطعمه الناس فمات فقبر فعكفوا على قبره وقال سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء قال اللات حجر كان يلت السويق عليه فسمى اللات وقال حدثنا عبيدالله بن موسى عن إسرائيل عن السدى عن أبى صالح قال اللات الذى كان يقوم على آلهتهم وكان يلت لهم السويق والعزى نخلة كانوا يعقلون عليها الستور والعهن ومناة حجر بقديد وقد قرأ طائفة من السلف اللات بتشديد التاء وقيل أنها إسم معدول عن اسم الله قال الخطابى المشركون يتعاطون الله إسما لبعض أصنامهم فصرفه الله إلى اللات صيانة لهذا الأسم وذبا عنه قلت ولا منافاة بين القولين والقراءتين فإنه كان رجل يلت السويق على الحجر وعكفوا على قبره وسموه بهذا الأسم وخففوه وقصدوا أن يقولوا هو إلا له كما كانوا يسمون الأصنام آلهة فاجتمع فى الأسم هذا وهذا وكانت اللات لأهل الطائف وكانوا يسمونها الربة والعزى لأهل مكة ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد إن لنا العزى ولا عزى لكن فقال النبى ألا تجيبوه فقالوا ما نقول قال قالوا الله مولانا ولا مولى لكم الحديث وقد تقدم وكانت مناة لأهل المدينة فكل مدينة من مدائن أهل الحجاز كان لها طاغوت تحج إليه وتتخذه شفيعا وتعبده وما ذكره بعض المفسرين من أن العزى كانت لغطفان فذلك لأن غطفان كانت تعبدها وهى فى جهتها وأهل مكة يحجون إليها فإن العزى كانت ببطن نخلة من ناحية عرفات ومعلوم بالنقول الصحيحة أن أهل مكة كانوا يعبدون العزى كما علم بالتواتر أن أهل الطائف كان لهم اللات ومناة كانت حذو قديد وكان أهل المدينة يهلون لها كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها وأما ما ذكره معمر بن المثنى من أن هذه الثلاثة كانت أصناما فى جوف الكعبة من حجارة فهو باطل بإتفاق أهل العلم بهذا الشأن وإنما كان فى الكعبة هبل الذى إرتجز له أبو سفيان يوم أحد وقال أعل هبل أعل هبل فقال النبى صلى الله عليه وسلم ألا تجيبوه قالوا وما نقول قال قالوا الله أعلى وأجل كما تقدم ذكره هذا وكان إساف ونائلة على الصفا والمروة وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما وهذه الأسماء الثلاثة مؤنثة اللات والعزى ومناة وبكل حال فقد قال أمية بن أبى الصلت فينا بيت يحجه العرب وأبو سفيان يوافقه على ذلك فدل ذلك على أن البقاع التى يسافر إليها والسفر إليها حج والحج نسك وهو حج إلى غير بيت الله ونسك لغير الله كما أن الدعاء لها صلاة لغير الله وقد قال تعالى { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{161} قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{162} لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ{163}الانعام161-163 فالله تعالى أمر نبيه صلى فالله تعالى أمر

نبيه صلى الله عليه وسلم أن تكون صلاته ونسكه لله فمن سافر إلى بقعة غير بيوت الله التى يشرع السفر إليها ودعا غير الله فقد جعل نسكه وصلاته لغير الله عز وجل [1]

وقال يوسف الصديق { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ{39} مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ {40} يوسف39-40 وكل من عبد شيئا من دون الله فإنما يعبد أسماء ما أنزل الله بها من سلطان وأيضا فالذين يعبدون الملائكة أوالأنبياء لا يرونهم وإنما يعبدون تماثيل صوروها على مثال صورهم وهى من تراب وحجر وخشب فهم يعبدون الموات وفى الصحيح صحيح مسلم عن أبى الهياج الأسدى قال قال لى على بن أبى طالب رضى الله عنه ألا أبعثك على ما بعثتنى عليه رسول الله بعثنى أن لا أدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته وقال تعالى {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ{17} وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{18} وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ{19} وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{20} أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ{21} النحل17-21 وجميع الأموات لا يشعرون أيان يبعثون فلا يعلم بقيام الساعة إلا الله عز وجل وأما قوله تعالى { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{21} تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى{22} النجم21-22 أى قسمة جائرة عوجاء إذ تجعلون لكم ما تحبون وهم الذكور وتجعلون لى الإناث وهذا من قولهم الملائكة بنات الله حيث جعلوا له أولادا إناثا وهم يكرهون أن يكون ولد أحدهم أنثى كالنصارى الذين يجعلون لله ولدا ويجلون الراهب الكبير أن يكون له ولد وأما اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فلما قال تعالى { أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى} النجم21 فسرها طائفة منهم الكلبى بأنهم كانوا يقولون هذه الأصنام بنات الله وهذا هو الذى ذكره طائفة من المتأخرين وليس كذلك فإنهم لم يكونوا يقولون عن هذه الأصنام أنها بنات الله وإنما قالوا ذلك عن الملائكة كما ذكر الله عنهم فى قوله تعالى بعد هذا {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى }النجم27 وقال {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ }الزخرف19 وقال تعالى{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ }الزخرف17 فإن الولد يماثل أباه وكذلك الشريك يماثل شريكه فهم ضربوا الإناث مثلا وهم جعلوا هذه شركاء لله سبحانه فكانوا يجعلونها أندادا لله والشريك كالأخ فجعلوا له أولادا إناثا وشركاء إناثا فجعلوا له بنات وأخوات وهم لا يحبون أن تكون لأحدهم أنثى لا بنت ولا أخت بل إذا كان الأب يكره أن تكون له بنت فالأخت أشد كراهة له منها ولم يكونوا يورثون البنات والأخوات فتبين فرط جهلهم وظلمهم إذ جعلوا لله مالا يرضونه لأنفسهم فكانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه وهذا كما ضرب لهم مثلا فقال تعالى {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ {56} وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ{57}النحل56-57 إلى قوله {لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }النحل60 {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }الروم28 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 355-360

[2] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 362-364

لطائف لغوية

1-قال تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5}سورة الفيل 1-5 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{71} الصافات69 -71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{68}الأحزاب67 -68 وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }النجم2 وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ }القمر47[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة قريش
106

رقية محمود الغرايبة

§§~قريش(مكية)4~§§

مقدمة سورة قريش

دعوة قريش إلى الله

ودعا قريشا إلى الله وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وأنزل تعالى سورة قريش كلها وقد أنزل الله عليه في غير موضع أمر جميع الخلق بعبادته[1]

سورة قريش 1-4

بسم الله الرحمن الرحيم

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4}

فاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال { اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ }البقرة21 فالعبادة لابد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود واذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وانابة كان وبالا على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ }الأعراف18 فلا بد أن يملأ جهنم منه

---

[1] الجواب الصحيح ج: 1 ص: 387

ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وانما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابدا له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }البقرة21 وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لارب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }نوح3 وكذلك الرسل فى سورة الأعراف وغيرها وقال

تعالى{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4} قريش 1-4[1]

فالعبادة والإستعانة فلله وحده لا شريك له كما قال {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ }قريش3[2]

الغاية التى فيها صلاح للنفس

قال تعالى { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4}سورة قريش 1-4 ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران85 وقد قال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 12-14

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا[1]

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ }

فلا خالق إلا الله ولا رب إلا الله ولا يجيب المضطرين ويرزق العباد إلا الله فهو الذى يعطى ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل وهو الذى يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ويستعاذ به ويلتجىء العباد إليه فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد كما قال تعالى فى فاتحة الكتاب {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فالعباد لا ينبغى لهم أن يعبدوا الا الله كما قال تعالى{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ }قريش3[2]

جميع الثقلين مأمورون بالعبادة

قال الله تعالى {لإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4} قريش 1-4 لا يمنع أن يكون غير قريش مأمورين بعبادة رب هذا البيت بل أمر الله جميع الثقلين الجن والإنس أن يعبدوا رب هذا البيت[3]

و قوله {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ }البقرة151 يتناول كل من خوطب بالقرآن و كذلك قوله {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة128 فالرسول من أنفس من خوطب بهذا الكلام إذ هي كاف الخطاب و لما خوطب به أولا قريش ثم العرب ثم سائر الأمم صار يخص و يعم بحسب ذلك و فيه ما يخص قريشا كقوله { لإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} قريش1-2 و قوله {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ }الزخرف44 و فيه ما يعم العرب و يخصهم كقوله {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ }الجمعة2 و الأميون يتناول العرب قاطبة دون أهل الكتاب ثم قال {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ }الجمعة3 فهذا يتناول كل من دخل في الإسلام بعد دخول العرب فيه إلى يوم القيامة كما قال ذلك مقاتل بن حيان و عبد الرحمن بن زيد و غيرهما فإن قوله {وَآخَرِينَ مِنْهُمُ }الجمعة3 أي في الدين دون النسب إذ لو كانوا فى النسب لكانوا من الأميين و هذا كقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ }الأنفال75 و قد ثبت فى الصحيح أن هذه الآية لما نزلت سئل النبى صلى الله عليه و سلم عنهم فقال لو كان الإيمان معلقا بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس فهذا يدل على دخول هؤلاء لا يمنع دخول غيرهم من الأمم و إذا كانوا هم منهم فقد دخلوا فى قوله {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ }آل عمران164 فالمنة على جميع المؤمنين عربهم و عجمهم سابقهم و لاحقهم و الرسول منهم لأنه إنسى مؤمن و هو من العرب أخص لكونه عربيا جاء بلسانهم و هو من قريش أخص

---

[1] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 489

[3] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 152

والخصوص يوجب قيام الحجة لا يوجب الفضل إلا بالإيمان و التقوى لقوله {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }الحجرات13 و لهذا كان الأنصار أفضل من الطلقاء من قريش و هم ليسوا من ربيعة و لا مضر بل من قحطان و أكثر الناس على أنهم من ولد هود ليسوا من ولد إبراهيم و قيل إنهم من ولد إسماعيل لحديث أسلم لما قال إرموا فإن أباكم كان راميا و أسلم من خزاعة و خزاعة من و لد إبراهيم و في هذا كلام ليس هذا موضعه إذ المقصود أن الأنصار أبعد نسبا من كل ربيعة و مضر مع كثرة هذه القبائل و مع هذا هم أفضل من جمهور قريش إلا من السابقين الأولين من المهاجرين و فيهم قرشي و غير قرشي و مجموع السابقين ألف و أربعمائة غير مهاجري الحبشة[1]

التوحيد العملي الإرادي

والتوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له وهو متضمن لشيئين أحدهما القول العملي وهو إثبات صفات الكمال له وتنزيهه عن النقائص وتنزيهه عن أن يماثله احد في شيء من صفاته فلا يوصف بنقص بحال ولا يماثله أحد في شيء من الكمال كما قال تعالى قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد سورة الإخلاص فالصمدية تثبت له الكمال والاحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع والتوحيد العملي الإرادي أن لا يعبد إلا إياه فلا يدعو إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يخاف إلا إياه ولا يرجو إلا إياه ويكون الدين كله لله قال تعالى {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4} قريش 1-4 وهذا التوحيد يتضمن أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه لا شريك له في الملك[2]

العباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم

إن الله سبحانه غنى حميد كريم واجد رحيم فهو سبحانه محسن الى عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر لا لجلب منفعة اليه من العبد ولا لدفع مضرة بل رحمة وإحسانا والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما وإن كان ذلك أيضا من تيسير الله تعالى فإنهم لا يفعلون ذلك الا لحظوظهم من العبد اذا لم يكن العمل لله فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك وكذلك من أحب إنسانا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه فهو يجب أن ينال حظه من تلك المحبة ولولا التلذاذه بها لما أحبه وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو ولو بالدعاء أو الثناء فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله فاجناد الملوك وعبيد المالك وأجراء الصانع وأعوان الرئيس كلهم إنما يسعون فى نيل أغراضهم به لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد علم وأدب من جهة أخرى فيدخل ذلك فى الجهة الدينية أو يكون

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 189-191

[2] الصفدية ج: 2 ص: 229

فيها طبع عدل وإحسان من باب المكأفاة والرحمة والا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه وهذا من حكمة الله التى أقام بها مصالح خلقه وقسم بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا قال الله تعالى {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }الزخرف32 إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر اذا لم يراع العدل فإذا دعوته فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه والرب سبحانه يريدك لك ولمنفعتك بك لا لينتفع بك وذلك منفعة عليك بلا مضرة فتدبر هذا فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجوا المخلوق أو تطلب منه منفعة لك فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول كما أنه لا يقدر عليه ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الإحسان اليهم وإحتمال الأذى منهم بل أحسن اليهم لله لا لرجائهم وكما لا تخفهم فلا ترجهم وخف الله فى الناس ولا تخف الناس فى الله وارج الله فى الناس ولا ترج الناس فى الله وكن ممن قال الله فيه { وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل 17-21 وقال فيه {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }الإنسان9 و أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك وإن كان ذلك ضررا عليك فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها و انه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم فى ذلك و إن الخلق لو إجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك ولو إجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله ولا يضرونك إلا بإذن الله فلا تعلق بهم رجاءك قال الله تعالى { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ{20} أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ{21} الملك 20-21 والنصر يتضمن دفع الضرر والرزق يتضمن حصول المنفعة قال الله تعالى { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4} قريش 3-4 وقال تعالى { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }القصص57 وقال الخليل عليه السلام {رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ }البقرة126 وقال النبى هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم جماع هذا إنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك ولا قادر عليها ولا مريد لها كما ينبغى فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالما بمصلحتك ولا قادر عليها ولا مريد لها والله سبحانه هو الذى يعلم ولا تعلم ويقدر ولا تقدر ويعطيك من فضله العظيم كما فى حديث الإستخارة اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب [1]

مكة حرمها الله

قال تعالى { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً }آل عمران97 فهذا من باب البيت كما قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ }العنكبوت67 وقال تعالى { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص:30- 32

الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4}قريش3-4 وقال تعالى { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ }القصص57 فكانوا فى الجاهلية يقتل بعضهم بعضا خارج الحرم فإذا دخلوا الحرم أو لقى الرجل قاتل أبيه لم يهجه وكان هذا من الآيات التى جعلها الله فيه كما قال {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً }آل عمران97 والإسلام زاد حرمته فمذهب أكثر الفقهاء أن من أصاب حدا خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم لم يقم عليه الحد حتى يخرج منه كما قال إبن عمر وإبن عباس وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد وغيرهما لما ثبت فى الصحيح أن النبى قال إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرا وأنها لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى وإنما أحلت لى ساعة من نهار ثم قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ومن ظن أن من دخل الحرم كان آمنا من عذاب الآخرة مع ترك الفرائض من الصلاة وغيرها ومع إرتكاب المحارم فقد خالف إجماع المسليمن فقد دخل البيت من الكفار والمنافقين والفاسقين من هو من أهل النار بإجماع المسلمين والله أعلم [1]

استجابة الله تعالى لدعاء إبراهيم

ومكة وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه وهو الذي جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم خلقا وأمرا قدرا وشرعا فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال تعالى{ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ{125} وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{126} سورة البقرة الآيتان 125 و 126 فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدا آمنا واستجاب الله دعاء إبراهيم وذكر ذلك في غير موضع وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4} قريش 1-4 [2]

الرزق والنصر مقترنان فى الكتاب والسنة

فالقوة الغضبية هى قوة النصر والقوة الشهوية قوة الرزق وهما المذكوران فى قوله {الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ }قريش4 والرزق والنصر مقترنان فى الكتاب والسنة وكلام الناس كثيرا [3]

قال الله تعالى { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً{3}الطلاق2-3 جعل للتقوى فائدتين أن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 343

[2] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 206

[3] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 433

يجعل له مخرجا وأن يرزقه من حيث لا يحتسب والمخرج هو موضع الخروج وهو الخروج وإنما يطلب الخروج من الضيق والشدة وهذا هو الفرج والنصر والرزق فبين أن فيها النصر والرزق كما قال { الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } قريش4 ولهذا قال النبى وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإستغفارهم هذا لجلب المنفعة وهذا لدفع المضرة [1]

النصر والرزق قوام أمر الناس

قد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قنت للنوازل التى نزلت به من العدو فى قتل أصحابه أو حبسهم ونحو ذلك فانه قنت مستنصرا كما استسقى حين الجدب فاستنصاره عند الحاجة كاسترزاقه عند الحاجة اذ بالنصر والرزق قوام أمر الناس كما قال تعالى{ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4}قريش1-4 وكما قال النبى وهل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم واستغفارهم وكما قال فى صفة الابدال بهم ترزقون وبهم تنصرون وكما ذكر الله هذين النوعين فى سورة الملك وبين أنهما بيده سبحانه فى قوله {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ {20} أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ{21}الملك20-21[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:55- 56

[2] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 102

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الماعون
107

رقية محمود الغرايبة

~§§ الماعون(مكية)7 §§~

سورة الماعون 1-7

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ{1} فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ{2} وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{3} فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{7}

أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه

قال تعالى {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ{1} فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ{2}الماعون 1-2 اليتيم فى الآدميين من فقد أباه لأن أباه هو الذى يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق ولهذا كان تابعا فى الدين لوالده وكان نفقته عليه وحضانته عليه والانفاق هو الرزق و الحضانة هى النصر لأنها الايواء ودفع الأذى فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه لأن الانسان ظلوم جهول والمظلوم عاجز ضعيف فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضى ومن جهة ضعف المانع ويتولد عنه فسادان ضرر اليتيم الذى لا دافع عنه ولا يحسن اليه وفجور الآدمى الذى لا وازع له فلهذا أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه فى آيات كثيرة مثل قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }البقرة83 وقوله {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ }البقرة177 الى قوله {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ }البقرة177 وقوله {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }البقرة215[1]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

[1] مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 110

قال تعالى{ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}الماعون 3 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله { وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}البقرة271 وقوله { فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ }المائدة89 والثانى كقوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ }التوبة60 و هذه الأسماء التى تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الايمان و المعروف مع العمل ومع الصدق و المنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص كلفظ الايمان و البر و التقوى ولفظ الفقير و المسكين فأيها أطلق تناول ما يتناوله الآخر[1]

المسكين الذى لا يسأل ولا يعرف

ففى الحديث الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافا فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فبين النبى صلى الله عليه وسلم أن الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينا وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء فانه مسكين قطعا وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله[2]

مراءاة الناس فى العبادات من أعظم الذنوب

فإن مراءاة الناس في العبادات المختصة كالصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن من أعظم الذنوب قال الله تعالى{ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{7} الماعون4-7 وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء142 فأما المرائى بالفرائض فكل أحد يعلم قبح حاله وأن الله يعاقبه لكونه لم يعبده مخلصا له الدين والله تعالى يقول {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وقال تعالى{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }الزمر2 فهذا فى القرآن كثير وأما المرائى بنوافل الصلاة والصوم والذكر وقراءة القرآن فلا يظن الظان أنه يكتفى فيه بحبوط عمله فقط بحيث يكون لا له ولا عليه بل هو مستحق للذم والعقاب على قصده شهرة عبادة غير الله إذ هى عبادات مختصة ولا تصح إلا من مسلم ولا يجوز إيقاعها على غير وجه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 301

التقرب بخلاف ما فيه نفع العبد كالتعليم والإمامة فهذا فى الإستئجار عليه نزاع بين العلماء والله أعلم[1]

صلاة المنافق تشتمل على التأخير والتطفيف

المراد بهاتين الآيتين{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 وقوله { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5}الماعون4-5 من أضاع الواجب فى الصلاة لا مجرد تركها فهكذا فسرها الصحابة والتابعون وهو ظاهر الكلام فإنه قال { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5}الماعون4-5 فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها وقد قال طائفة من السلف بل هو السهو عما يجب فيها مثل ترك الطمأنينة وكلا المعنيين حق والآية تتناول هذا وهذا كما فى صحيح مسلم عن انس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا فبين النبى فى هذا الحديث أن صلاة المنافق تشتمل على التأخير عن الوقت الذى يؤمر بفعلها فيه وعلى النقر الذى لا يذكر الله فيه إلا قليلا وهكذا فسروا قوله {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 بأن إضاعتها تأخيرها عن وقتها وإضاعة حقوقها وجاء فى الحديث إن العبد إذا قام إلى الصلاة بطهورها وقرائتها وسجودها أو كما قال صعدت ولها برهان كبرهان الشمس تقول له حفظك الله كما حفظتنى وإذا لم يتم طهورها وقراءتها وسجودها أو كما قال تلف كما يلف الثوب وتقول له ضيعك الله كما ضيعتنى قال سلمان الفارسى الصلاة مكيال من وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال فى المطففين وفى سنن أبى داود عن عمار عن النبى أنه قال إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها إلا سدسها إلا سبعها إلا ثمنها إلا تسعها إلا عشرها وقد تنازع العلماء فيمن غلب عليه الوسواس فى صلاته هل عليه الإعادة على قولين لكن الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا إعادة عليه وإحتجوا بما فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى أنه قال إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى التأذين أقبل فإذا ثوب بالصلاة أدبر فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه فيقول إذكر كذا إذكر كذا لما يكن يذكر حتى يضل الرجل لن يدرى كم صلى فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل أن يسلم فقد عم بهذا الكلام ولم يأمر أحدا بالإعادة و الثانى عليه الإعادة وهو قول طائفة من العلماء من الفقهاء والصوفية من أصحاب أحمد وغيره كأبى عبدالله بن حامد وغيره لما تقدم من قوله ولم يكتب له منها إلا عشرها والتحقيق أنه لا أجر له إلا بقدر الحضور لكن إرتفعت عنه العقوبة التى لا يستحقها تارك الصلاة وهذا معنى قولهم تبرأ ذمته بها أى لا يعاقب على الترك لكن الثواب على قدر الحضور كما قال ابن عباس ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها فلهذا شرعت السنن الرواتب لما يحصل من النقص فى الفرائض والله أعلم[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 507

[2] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 234 والفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 7-8 و مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 217

تأخير الصلاة عن الوقت حرام

لا يجوز لأحد أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل ولا يؤخر صلاة الليل إلى النهار لشغل من الأشغال لا لحصد ولا لحرث ولا لصناعة ولا لجنابة ولا نجاسة ولا صيد ولا لهو ولا لعب ولا لخدمة أستاذ ولا غير ذلك بل المسلمون كلهم متفقون على أن عليه أن يصلي في الوقت ألزم بذلك وإن قال لا أصلي إلا بعد غروب الشمس لاشتغاله بالصناعة والصيد أو غير ذلك فإنه يقتل وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله وفي وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب أنه قال إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار وحقا بالنهار لا يقبله بالليل والنبي صلى الله عليه وسلم كان أخر صلاة العصر يوم الخندق لاشتغاله بجهاد الكفار ثم صلاها بعد المغرب فأنزل الله تعالى{حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى }البقرة238 وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الصلاة الوسطى صلاة العصر فلهذا قال جمهور العلماء إن ذلك التأخير منسوخ بهذه الآية فلم يجوزوا تأخير الصلاة حال القتال بل أوجبوا عليه الصلاة قي الوقت حال القتال وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه وعن أحمد رواية أخرى أنه يخير حال القتال بين الصلاة وبين التأخير ومذهب أبي حنيفة يشتغل بالقتال ويصلي بعد الوقت وأما تأخير الصلاة لغير الجهاد كصناعة أو زراعة أو صيد أو عمل من الأعمال ونحو ذلك فلا يجوزه أحد من العلماء بل قد قال تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الماعون4- 5 قال طائفة من السلف هم الذين يؤخرونها عن وقتها وقال بعضهم هم الذين لا يؤدونها على الوجه المأمور به وإن صلاها في الوقت فتأخيرها عن الوقت حرام باتفاق العلماء فإن العلماء متفقون على أن تأخير صلاة الليل إلى النهار وتأخير صلاة النهار إلى الليل بمنزلة تأخير صيام شهر رمضان إلى شوال فمن قال أصلي الظهر والعصر بالليل فهو باتفاق العلماء بمنزلة من قال أفطر شهر رمضان وأصوم شوال وإنما يعذر بالتأخير النائم والناسي كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها لا كفارة لها إلا ذلك فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها لجنابة ولا حدث ولا نجاسة ولا غير ذلك بل يصلي في الوقت بحسب حاله فإن كان محدثا وقد عدم الماء أو خاف الضرر باستعماله تيمم وصلى وكذلك الجنب يتيمم ويصلي إذا عدم الماء أو خاف الضرر باستعماله لمرض أو لبرد وكذلك العريان يصلي في الوقت عريانا ولا يؤخر الصلاة حتى يصلي بعد الوقت في ثيابه وكذلك إذا كان عليه نجاسة لا يقدر أن يزيلها فيصلي في الوقت بحسب حاله وهكذا المريض يصلي على حسب حاله في الوقت كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب فالمريض باتفاق العلماء يصلي في الوقت قاعدا أو على جنب إذا كان القيام يزيد في مرضه ولا يصلي بعد خروج الوقت قائما وهذا كله لأن فعل الصلاة في وقتها فرض والوقت أوكد فرائض الصلاة كما أن صيام شهر رمضان واجب في وقته ليس لأحد أن يؤخره عن وقته ولكن يجوز الجمع بين الظهر والعصر بعرفة وبين المغرب والعشاء بمزدلفة باتفاق المسلمين وكذلك يجوز الجمع بين صلاة المغرب والعشاء وبين الظهر والعصر عند كثير من العلماء للسفر والمرض ونحو ذلك من الأعذار وأما تأخير صلاة النهار إلى الليل وتأخير صلاة الليل إلى النهار فلا يجوز لمرض ولا لسفر ولا لشغل من الأشغال ولا لصناعة باتفاق العلماء بل قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجمع بين صلاتين من غير عذر من الكبائر لكن المسافر يصلي ركعتين ليس عليه أن يصلي أربعا بل الركعتان تجزئ المسافر في سفر القصر باتفاق العلماء ومن قال إنه يجب على كل مسافر أن يصلي أربعا فهو بمنزلة من قال إنه يجب على المسافر أن يصوم شهر

رمضان وكلاهما ضلال مخالف لإجماع المسلمين يستتاب قائله فإن تاب وإلا قتل والمسلمون متفقون على أن المسافر إذا صلى الرباعية ركعتين والفجر ركعتين والمغرب ثلاثا وأفطر شهر رمضان وقضاه أجزأه ذلك وأما من صام في السفر شهر رمضان أو صلى اربعا ففيه نزاع مشهور بين العلماء منهم من قال لا يجزعه ذلك فالمريض له أن يؤخر الصوم باتفاق المسلمين وليس له أن يؤخر الصلاة باتفاق المسلمين والمسافر له أن يؤخر الصيام باتفاق المسلمين وهذا مما بين أن المحافظة على الصلاة في وقتها أوكد من الصوم في وقته قال تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 قال طائفة من السلف إضاعتها تأخيرها عن وقتها ولو تركوها لكانوا كفارا وقال النبي صلى الله عليه وسلم سيكون بعدي أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة رواه مسلم عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بك إذا كان عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها وينسؤون الصلاة عن وقتها قلت فماذا تأمرني قال صل الصلاة لوقتها فإن أدركتها معهم فصل فإنها لك نافلة وعن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سيكون عليكم أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة لوقتها حتى يذهب وقتها فصلوا الصلاة لوقتها وقال رجل أصلي معهم قال نعم إن شئت واجعلوها تطوعا رواه أحمد وأبو داود ورواه عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بكم إذا كان عليكم أمراء يصلون الصلاة لغير ميقاتها قلت فما تأمرني إن أدركني ذلك يا رسول الله قال صل الصلاة لوقتها واجعل صلاتك معهم نافلة ولهذا اتفق العلماء على أن الرجل إذا كان عريانا مثل أن تنكسر بهم السفينة أو تسلبه القطاع ثيابه فإنه يصلي في الوقت عريانا والمسافر إذا عدم الماء يصلي بالتيمم في الوقت باتفاق العلماء وإن كان يجد الماء بعد الوقت وكذلك الجنب المسافر إذا عدم الماء تيمم وصلى ولا إعادة عليه باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم وكذلك إذا كان البرد شديدا فخاف إن اغتسل أن يمرض فإنه يتيمم ويصلي في الوقت ولا يؤخر الصلاة حتى يصلي بعد الوقت باغتسال وقد تنازع العلماء هل يتيمم قبل الوقت وهل يتيمم لكل صلاة أو يبطل بخروج الوقت أو يصلي ما شاء كما يصلي بالماء ولا ينقضه إلا ما ينقض الوضوء أو القدرة على استعمال الماء وهذا مذهب أبي حنيفة وأحد الأقوال في مذهب أحمد وغيره فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال الصعيد الطيب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجدت الماء فامسسه بشرتك فإن ذلك خير قال الترمذي حديث حسن صحيح وكل ما يباح بالماء يباح بالتيمم فاذا تيمم لصلاة فريضة قرأ القرآن داخل الصلاة وخارجها وإن كان جنبا ومن امتنع عن الصلاة بالتيمم فإنه من جنس اليهود والنصارى فان التيمم لأمة محمد خاصة كما قال النبى فى الحديث الصحيح فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لي الأرض مسجدا وجعلت تربتها طهورا و أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وفى لفظ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره وإذا كان عليه نجاسة وليس عنده ما يزيلها به صلى في الوقت وعليه النجاسة كما صلى عمر بن الخطاب وجرحه يثعب دما ولم يؤخر الصلاة حتى خرج الوقت ومن لم يجد إلا ثوبا نجسا فقيل يصلي عريانا وقيل يصلي فيه ويعيد وقيل يصلي فيه ولا يعيد وهذا أصح أقوال العلماء فإن الله لم يأمر العبد أن يصلي الفرض مرتين إلا إذا لم يفعل الواجب الذي يقدر عليه في المرة الأولى مثل أن يصلي بلا طمأنينة فعليه أن يعيد الصلاة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم من صلى ولم يطمئن أن يعيد الصلاة وقال ارجع فصل فإنك لم تصل وكذلك من نسي الطهارة وصلى بلا وضوء فعليه أن يعيد كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم من توضأ وترك لمعة في قدمه لم يمسها الماء أن يعيد الوضوء والصلاة فأما من فعل ما أمر به بحسب قدرته فقد قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا

اسْتَطَعْتُمْ }التغابن16 وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ومن كان مستيقظا في الوقت والماء بعيد منه لا يدركه إلا بعد الوقت فإنه يصلي في الوقت بالتيمم باتفاق العلماء وكذلك إذا كان البرد شديدا ويضره الماء البارد ولا يمكنه الذهاب إلى الحمام أو تسخين الماء حتى يخرج الوقت فإنه يصلي في الوقت بالتيمم والمرأة والرجل في ذلك سواء فإذا كانا جنبين ولم يمكنهما الاغتسال حتى يخرج الوقت فإنهما يصليان في الوقت بالتيمم والمرأة الحائض إذا انقطع دمها في الوقت ولم يمكنها الاغتسال إلا بعد خروج الوقت تيممت وصلت في الوقت ومن ظن أن الصلاة بعد خروج الوقت بالماء خير من الصلاة في الوقت بالتيمم فهو ضال جاهل وإذا استيقظ آخر وقت الفجر فإذا اغتسل طلعت الشمس فجمهور العلماء هنا يقولون يغتسل ويصلي بعد طلوع الشمس وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد وأحد القولين في مذهب مالك وقال في القول الآخر بل يتيمم أيضا هنا ويصلي قبل طلوع الشمس كما تقدم في تلك المسائل لأن الصلاة في الوقت بالتيمم خير من الصلاة بعده بالغسل والصحيح قول الجمهور لأن الوقت في حق النائم هو من حين يستيقظ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها فالوقت في حق النائم هو من حين يستيقظ وما قبل ذلك لم يكن وقتا في حقه وإذا كان كذلك فإذا استيقظ قبل طلوع الشمس فلم يمكنه الاغتسال والصلاة إلا بعد طلوعها فقد صلى الصلاة في وقتها ولم يفوتها بخلاف من استيقظ في أول الوقت فإن الوقت في حقه قبل طلوع الشمس فليس له أن يفوت الصلاة وكذلك من نسي صلاة وذكرها فإنه حينئذ يغتسل ويصلي في أي وقت كان وهذا هو الوقت في حقه فإذا لم يستيقظ إلا بعد طلوع الشمس كما استيقظ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما ناموا عن الصلاة عام خيبر فإنه يصلي بالطهارة الكاملة وإن أخرها إلى حين الزوال فإذا قدر أنه كان جنبا فإنه يدخل الحمام ويغتسل وإن أخرها إلى قريب الزوال ولا يصلي هنا بالتيمم ويستحب له أن ينتقل عن المكان الذي نام فيه كما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن المكان الذي ناموا فيه وقال هذا مكان حضرنا فيه الشيطان وقد نص على ذلك أحمد وغيره وإن صلى فيه جازت صلاته فإن قيل هذا يسمى قضاء أو اداء الفرق بين اللفظين هو فرق إصطلاحي لا أصل له في كلام الله ورسوله فإن الله تعالى سمى فعل العبادة في وقتها قضاء كما قال في الجمعة {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ }الجمعة10 وقال تعالى {فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ }البقرة200 مع أن هذين يفعلان في الوقت والقضاء في لغة العرب هو إكمال الشيء وإتمامه كما قال تعالى {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ }فصلت12 إي أكملهن وأتمهن فمن فعل العبادة كاملة فقد قضاها وإن فعلها في وقتها وقد اتفق العلماء فيما أعلم على أنه لو اعتقد بقاء وقت الصلاة فنواها أداء ثم تبين أنه صلى بعد خروج الوقت صحت صلاته ولو اعتقد خروجه فنواها قضاء ثم تبين له بقاء الوقت أجزأته صلاته وكل من فعل العبادة في الوقت الذي أمر به أجزأته صلاته سواء نواها أداء أو قضاء والجمعة تصح سواء نواها أداء أو قضاء إذا أراد القضاء المذكور في القرآن والنائم والناسي إذا صليا وقت الذكر والانتباه فقد صليا في الوقت الذي أمرا بالصلاة فيه وإن كانا قد صليا بعد خروج الوقت المشروع لغيرهما فمن سمى ذلك قضاء باعتبار هذا المعنى وكان في لغته أن القضاء فعل العبادة بعد خروج الوقت المقدر شرعا للعموم فهذه التسمية لا تضر ولا تنفع وبالجملة فليس لأحد قط شغل يسقط عنه فعل الصلاة في وقتها بحيث يؤخر صلاة النهار إلى الليل وصلاة الليل إلى النهار بل لا بد من فعلها في الوقت لكن يصلي بحسب حاله فما قدر عليه من فرائضها فعله وما عجز عنه سقط عنه ولكن يجوز الجمع للعذر بين صلاتي النهار وبين صلاتي الليل عند أكثر العلماء فيجوز الجمع للمسافر إذا جد به السير عند مالك والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنه ولا يجوز في الرواية الأخرى عنه وهو قول أبي حنيفة وفعل الصلاة في وقتها أولى من الجمع إذا لم يكن عليه حرج بخلاف القصر فإن

صلاة ركعتين أفضل من صلاة أربع عند جماهير العلماء فلو صلى المسافر أربعا فهل تجزئه صلاته على قولين والنبي صلى الله عليه وسلم كان في جميع أسفاره يصلي ركعتين ولم يصل في السفر أربعا قط ولا أبو بكر ولا عمر وأما الجمع فإنما كان يجمع بعض الأوقات إذا جد به السير وكان له عذر شرعي كما جمع بعرفة ومزدلفة وكان في غزوة تبوك أحيانا كان إذا ارتحل قبل الزوال آخر الظهر إلى العصر ثم صلاهما جميعا وهذا ثابت في الصحيح وأما إذا ارتحل بعد الزوال فقد روى إنه كان صلى الظهر والعصر جميعا كما جمع بينهما بعرفة وهذا معروف في السنن وهذا إذا كان لا ينزل إلى وقت المغرب كما كان بعرفة لا يفيض حتى تغرب الشمس وأما إذا كان ينزل وقت العصر فانه يصليها في وقتها فليس القصر كالجمع بل القصر سنة راتبة وأما الجمع فإنه رخصة عارضة ومن يسوي من العامة بين الجمع والقصر فهو جاهل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأقوال علماء المسلمين فإن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقت بينهما والعلماء اتفقوا على أن أحدهما سنة واختلفوا في وجوبه وتنازعوا في جواز الآخر فأين هذا من هذا وأوسع المذاهب في الجمع بين الصلاتين مذهب الامام أحمد فإنه نص على أنه يجوز الجمع للحرج والشغل بحديث روي في ذلك قال القاضي أبو يعلى وغيره من أصحابه يعني إذا كان هناك شغل يبيح له ترك الجمعة والجماعة جاز له الجمع ويجوز عنده وعند مالك وطائفة من أصحاب الشافعي الجمع للمرض ويجوز عند الثلاثة الجمع للمطر بين المغرب والعشاء وفي صلاتي النهار نزاع بينهما ويجوز للمرضع أن تجمع إذا كان يشق عليها غسل الثوب في كل صلاة نص عليه أحمد وتنازع العلماء في الجمع والقصر هل يفتقر إلى نية فقال جمهورهم لا يفتقر إلى نية وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة وأحد القولين في مذهب أحمد وعليه تدل نصوصه وأصوله وقال الشافعي وطائفة من أصحاب أحمد أنه يفتقر إلى نية وقول الجمهور هو الذي تدل عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم و الله سبحانه وتعالى أعلم [1]

ان لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار

وأما عمل النهار الذي لا يقبله الله بالليل وعمل الليل الذي لا يقبله الله بالنهار فهما صلاة الظهر والعصر لا يحل للإنسان أن يؤخرهما إلى الليل بل قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله وفي صحيح البخاري عنه أنه قال من فاتته صلاة العصر حبط عمله فأما من نام عن صلاة أو نسيها فقد قال صلى الله عليه وسلم من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها وأما من فوتها متعمدا فقد أتى كبيرة من أعظم الكبائر وعليه القضاء عند جمهور

العلماء وعند بعضهم لا يصح فعلها قضاء أصلا ومع القضاء عليه لا تبرأ ذمته من جميع الواجب ولا يقبلها الله منه بحيث يرتفع عنه العقاب ويستوجب الثواب بل يخفف عنه العذاب بما فعله من القضاء ويبقى عليه إثم التفويت وهو من الذنوب التي تحتاج إلى مسقط آخر بمنزلة من عليه حقان فعل أحدهما وترك الآخر قال تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الماعون4-5 وتأخيرها عن وقتها من السهو عنها باتفاق العلماء وقال تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 قال غير واحد من السلف إضاعتها تأخيرها عن وقتها فقد أخبر الله سبحانه أن الويل لمن أضاعها وإن صلاها ومن كان له

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 2 ص:50- 56 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 182-183 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 23-33

الويل لم يكن قد يقبل عمله وإن كان له ذنوب أخر فإذا لم يكن ممتثلا للأمر في نفس العمل لم يتقبل ذلك العمل قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لعمر واعلم أن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار وحقا بالنهار لا يقبله بالليل وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة و الله أعلم [1]

تأخير الصلاة عن غير وقتها عمدا من الكبائر

وتأخير الصلاة عن غير وقتها الذي يجب فعلها فيه عمدا من الكبائر بل قد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجمع بين الصلاتين من غير عذر من الكبائر وقد رواه الترمذى مرفوعا عن ابن عباس عن عن النبى أنه قال من جمع بين الصلاتين من غير عذر فقد أتى بابا من أبواب الكبائر ورفع هذا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وإن كان فيه نظر فإن الترمذى قال العمل على هذا عند أهل العلم والأثر معروف وأهل العلم ذكروا ذلك مقرين له لا منكرين له وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله وحبوط العمل لا يتوعد به إلا على ما هو من أعظم الكبائر وكذلك تفويت العصر أعظم من تفويت غيرها فإنها الصلاة الوسطى المخصوصة بالأمر بالمحافظة عليها وهي التى فرضت على من كان قبلنا فضيعوها فمن حافظ عليها فله الأجر مرتين وهي التى لما فاتت سليمان فعل بالخيل ما فعل وفى الصحيح عن النبى ايضا أنه قال من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله والموتور أهله وماله يبقى مسلوبا ليس له ما ينتفع به من الأهل والمال وهو بمنزلة الذى حبط عمله وايضا فإن الله تعالى يقول { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5}الماعون4-5

فتوعد بالويل لمن يسهو عن الصلاة حتى يخرج وقتها وإن صلاها بعد ذلك وكذلك قوله تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 وقد سألوا إبن مسعود عن إضاعتها فقال هو تأخيرها حتى يخرج وقتها فقالوا ما كنا نرى ذلك إلا تركها فقال لو تركوها لكانوا كفارا وقد كان إبن مسعود يقول عن بعض أمراء الكوفة فى زمانه ما فعل خلفكم لكونهم كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها وقوله { وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ }مريم59 يتناول كل من إستعمل ما يشتهيه عن المحافظة عليها فى وقتها سواء كان المشتهى من جنس المحرمات كالمأكول المحرم والمشروب المحرم والمنكوح المحرم والمسموع المحرم أو كان من جنس المباحات لكن الإسراف فيه ينهى عنه أو غير ذلك فمن إشتغل عن فعلها فى الوقت بلعب أو لهو أو حديث مع أصحابه او تنزه فى بستانه أو عمارة عقاره أو سعى فى تجارته أوغير ذلك فقد اضاع تلك الصلاة وإتبع ما يشتهيه وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }المنافقون9 ومن الهاه ماله وولده عن فعل المكتوبة فى وقتها دخل فى ذلك فيكون سرا وقال تعالى ضد هؤلاء { يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ {36} رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ{37}النور36-37

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 134 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 33

فإذا كان سبحانه قد توعد بلقي الغى من يضيع الصلاة عن وقتها ويتبع الشهوات والمؤخر لها عن وقتها مشتغلا بما يشتهيه هو مضيع لها متبع لشهوته فدل ذلك على انه من الكبائر إذ هذا الوعيد لا يكون إلا على كبيرة ويؤيد ذلك جعله خاسرا والخسران لا يكون بمجرد الصغائر المكفرة باجتناب الكبائر وأيضا فلا أحدا من صلى بلا طهارة أو إلى غير القبلة عمدا وترك الركوع والسجود او القراءة او غير ذلك متعمدا أنه قد فعل بذلك كبيرة بل قد يتورع فى كفره إن لم يستحل ذلك وأما إذا استحله فهو كافر بلا ريب ومعلوم ان الوقت للصلاة مقدم على هذه الفروض وغيرها فإنه لا نزاع بين المسلمين أنه إذا علم المسافر العادم للماء أنه يجده بعد الوقت لم يجز له تأخير الصلاة ليصليها بعد الوقت بوضوء أو غسل بل ذلك هو الفرض وكذلك العاجز عن الركوع والسجود والقراءة إذا استحله فهو كافر بلا ريب ومعلوم أنه إن علم أنه بعد الوقت يمكنه أن يصلى باتمام الركوع والسجود والقراءة كان الواجب عليه ان يصلي فى الوقت لإمكانه واما قول بعض أصحابنا إنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها إلا لنا و لجمعها أو مشتغل بشرطها فهذا لم يقله قبله أحد من الأصحاب بل ولا احد من سائر طوائف المسلمين إلا أن يكون بعض أصحاب الشافعي فهذا اشك فيه ولا ريب أنه ليس على عمومه وإطلاقه بإجماع المسلمين وإنما فيه صورة معروفة كما إذا أمكن الواصل إلى البئر أن يضع حبلا يستقي ولا يفرغ إلا بعد الوقت وإذا أمكن العريان أن يخيط له ثوبا ولا يفرغ إلا بعد الوقت ونحو هذه الصور ومع هذا فالذي قاله فى ذلك خلاف المذهب المعروف عن احمد واصحابه وخلاف قول جماعة علماء المسلمين من الحنفية والمالكية وغيرهم وما أعلم من يوافقه على ذلك إلا بعض أصحاب الشافعى ومن قال ذلك فهو محجوج بإجماع المسلمين على أن مجرد الإشتغال بالشرط لا يبيح تأخير الصلاة عن وقتها المحدود شرعا فإنه لو دخل الوقت وأمكنه أن يطلب الماء وهو لا يجده إلا بعد الوقت لم يجز له التأخير بإتفاق المسلمين وإن كان مشتغلا بالشرط وكذلك العريان لو أمكنه أن يذهب إلى قرية ليشتري له منها ثوبا وهو لا يصلي إلا بعد خروج الوقت لم يجز له التأخير بلا نزاع والأمى كذلك إذا أمكنه تعلم الفاتحة وهو لا يتعلمها حتى يخرج الوقت كان عليه أن يصلي في الوقت وكذلك العاجز عن تعلم التكبير والتشهد إذا ضاق الوقت بحسب الإمكان ولم ينتظر وكذلك المستحاضة لو كان دمها ينقطع بعد الوقت لم يجز لها أن تؤخر الصلاة لتصلي بطهارة بعد الوقت بل تصلى فى الوقت بحسب الإمكان وأما حيث جاز الجمع فالوقت واحد والمؤخر ليس بمؤخر عن الوقت الذى يجوز فعلها فيه بل فى أحد القولين أنه لا يحتاج الجمع إلى النية كما قال أبوبكر وكذلك القصر وهو مذهب الجمهور كأبى حنيفة ومالك وكذلك صلاة الخوف تجب فى الوقت مع إمكان أن يؤخرها فلا يستدبر القبلة ولا يعمل عملا كثيرا فى الصلاة ولا يتخلف عن الإمام بركعة ولا يفارق الإمام قبل السلام ولا يقضي ما سبق له قبل السلام ونحو ذلك مما يفعل فى صلاة الخوف وليس ذلك إلا قبل السلام ونحو ذلك إلا لأجل الوقت وإلا ففعلها بعد الوقت ولو بالليل ممكن على إلا كمال وكذلك من اشتبهت عليه القبلة وامكنه تأخير الصلاة إلى أن يأتى مصرا يعلم فيه القبلة لم يجز له ذلك وإنما نازع من نازع إذا امكنه تعلم دلائل القبلة ولا يتعلمها حتى يخرج الوقت وهذا النزاع هو القول المحدث الشاذ الذى تقدم ذكره وأما النزاع المعروف بين الأئمة فى مثل ما إذا إستيقظ النائم فى آخر الوقت ولم يمنكه أن يصلي قبل الطلوع بوضوء هل يصلى بتيمم أو يتوضأ ويصلى بعد الطلوع على قولين مشهورين الأول قول مالك مراعاة للوقت الثانى قول الأكثرين كأحمد والشافعى وأبى حنيفة وهذه المسألة هي التى توهم أن الشرط مقدم على الوقت وليس كذلك فإن الوقت فى حق النائم هو من حين يستيقظ كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال من نام وعن صلاة او نسيها فليصليها إذا ذكرها فإن ذلك وقتها فجعل الوقت الذى أوجب الله على العبد فيه هو وقت الذكر والإنتباه وحينئذ فمن فعلها فى

هذا الوقت بحسب ما يمكنه من الطهارة الواجبة فقد فعلها فى الوقت وهذا ليس بمفرط ولا مضيع لها قال النبى ليس فى النوم تفريط إنما التفريط فى اليقظة بخلاف المتنبه من أول الوقت فإنه مأمور أن يفعلها فى ذلك الوقت بحيث لو اخرها عنه عمدا كان مضيعا مفرطا فإذا إشتغل عنها بشرطها وكان قد أخرها عن الوقت الذى أمر أن يفعلها فيه ولولا أنه مأمور بفعلها فى ذلك الوقت لجاز تأخيرها عن الوقت إذا كان مشتغلا بتحصيل ماء الطهارة أو ثوب الإستعارة بالذهاب إلى مكانه ونحو ذلك وهذا خلاف إجماع المسلمين بل المستيقظ فى آخر الوقت إنما عليه أن يتوضأ كما يتوضأ المستيقظ فى الوقت فلو أخرها لأنه يجد الماء عند الزوال ونحو ذلك لم يجز له ذلك وأيضا فقد نص العلماء على أنه إذا جاء وقت الصلاة ولم يصل فإنه يقتل وإن قال انا اصليها قضاء كما يقتل إذا قال اصلي بغير وضوء أو إلى غير القبلة وكل فرض من فرائض الصلاة المجمع عليها إذا تركه عمدا فإنه يقتل بتركه كما أنه يقتل بترك الصلاة فإن قلنا يقتل بضيق الثانية والرابعة فالأمر كذلك وكذلك إذا قلنا يقتل بضيق الأولى وهو الصحيح أو الثالثة فإن ذلك مبني على أنه هل يقتل بترك الصلاة او بثلاث على روايتن وإذا قيل بترك الصلاة فهل يشترط وقت التى بعدها أو يكفى ضيق وقتها على وجهين وفيها وجه ثالث وهو الفرق بين صلاتى الجمع وغيرهما ولا يعارض ما ذكرناه انه يصح بعد الوقت بخلاف بقية الفرائض لإن الوقت إذا فات لم يمكن إستدراكه فلا يمكنه أن يفعلها إلا فائته ويبقى إثم التأخير من باب الكبائر التى تمحوها التوبة ونحوها وأما بقية الفرائض فيمكن إستدراكها بالقضاء وأما الأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة عن وقتها ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتالهم فإن قيل إنهم كانوا يؤخرون الصلاة إلى آخر الوقت فلا كلام وإن قيل وهو الصحيح إنهم كانوا يفوتونها فقد أمر النبى الأمة بالصلاة فى الوقت وقال اجعلوا صلاتكم معهم نافلة ونهى عن قتالهم كما نهى عن قتال الأئمة إذا استاثروا وظلموا الناس حقوقهم وإعتدوا عليهم وإن كان يقع من الكبائر فى أثناء ذلك ما يقع ومؤخرها عن وقتها فاسق والأئمة لا يقاتلون بمجرد الفسق وإن كان الواحد المقدور قد يقتل لبعض أنواع الفسق كالزنا وغيره فليس كلما جاز فيه القتل جاز أن يقاتل الأئمة لفعلهم إياه إذ فساد القتال أعظم من فساد كبيرة يرتكبها ولي الأمر ولهذا نص من نص من اصحاب أحمد وغيره على أن النافلة تصلى خلف الفساق لأن النبى أمر بالصلاة خلف الأمراء الذين يؤخرون الصلاة حتى يخرج وقتها وهؤلاء الأئمة فساق وقد أمر بفعلها خلفهم نافلة والمقصود أن الفسق بتفويت الصلاة أمر معروف عند الفقهاء لكن لو قال قائل الكبيرة تفويتها دائما فإن ذلك إصرار على الصغيرة قيل له قد تقدم ما يبين أن الوعيد يلحق بتفويت صلاة واحدة وأيضا فان الاصرار هو العزم على العود ومن أتى بصغيرة وتاب منها ثم عاد إليها لم يكن قد أتى كبيرة وايضا فمن اشترط المداومة على التفويت محتاج إلى ضابط فإن أراد بذلك المداومة على طول عمره لم يكن المذكورون من هذا الباب وإن أراد مقدارا محدودا طولب بدليل عليه وأيضا فالقتل بترك واحدة ابلغ من جعل ذلك كبيرة والله سبحانه وتعالى أعلم [1]

حكم إعادة الصلاة فى الوقت الخاص والمشترك

الذي اتفق عليه العلماء أنه يمكن إعادة الصلاة في الوقت الخاص والمشترك كما يصلي الظهر بعد دخول العصر ويؤخر العصر إلى الإصفرار فهذا تصح صلاته وعليه إثم التأخير وهو من المذمومين

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 53-62

في قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الماعون 4 -5 وقوله {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 فإن تأخيرها عن الوقت الذي يجب فعلها فيه هو إضاعة لها وسهو عنها بلا نزاع أعلمه بين العلماء وقد جاءت الآثار بذلك عن الصحابة والتابعين [1]

الذى يؤخر الصلاة وينقرها منافق

الذين يتكلمون بالشهادتين اصناف منهم منافقون في الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{145} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ {146} النساء145-146 الآية وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى }النساء142 الآية وفى صحيح مسلم عن النبى انه قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر اربعا لا يذكر الله فيها الا قليلا فبين النبى ان الذى يؤخر الصلاة وينقرها منافق فكيف بمن لا يصلى وقد قال تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5}الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} الماعون4-6 قال العلماء الساهون عنها الذين يؤخرونها عن وقتها والذين يفرطون فى واجباتها فاذا كان هؤلاء المصلون الويل لهم فكيف بمن لا يصلى وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه يعرف أمته بأنهم غر محجلون من آثار الوضوء وإنما تكون الغرة والتحجيل لمن توضأ وصلى فابيض وجهه بالوضوء وابيضت يداه ورجلاه بالوضوء فصلى أغر محجلا فمن لم يتوضأ ولم يصل لم يكن أغر ولا محجلا فلا يكون عليه سيما المسلمين التي هي الرنك للنبي مثل الرنك الذي يعرف به المقدم أصحابه ولا يكن هذا من أمة محمد وثبت في الصحيح أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء إلا آثار السجود فمن لم يكن من أهل السجود للواحد المعبود الغفور الودود ذو العرش المجيد أكلته النار وفي الصحيح عن النبي أنه قال ليس بين العبد وبين الشرك إلا ترك الصلاة العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر وقال أول ما يحاسب عليه العبد من عمله الصلاة [2]

وجوب المحافظة والإدامة على الصلاة

فإن الله أوجب المحافظة والإدامة على الصلاة وذم إضاعتها والسهو عنها فقال فى أول سورة المؤمنين { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{1} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{2} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{3} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ{4} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{5} إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ{6} فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ{7} وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ{8} وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ{9} أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ{10} الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{11} المؤمنون1-11 وقد سبق بيان أن هذه الخصال

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 234

[2] مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 106

واجبة وكذلك فى سورة سأل سائل قال { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21} إِلَّا الْمُصَلِّينَ{22} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ{23} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{24} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{25} وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{26} وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ{27} إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ{28} {27} إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ{28} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{29} المعارج19-29 فذم الإنسان كله إلا ما إستثناه فمن لم يكن متصفا بما إستثناه كان مذموما كما فى قوله تعالى{ وَالْعَصْرِ{1} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3} العصر1-3 وقال تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 وقال تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الماعون4-5 وقال تعالى {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ }البقرة238 وهذه الآيات تقتضى ذم من ترك شيئا من واجبات الصلاة وإن كان فى الظاهر مصليا مثل أن يترك الوقت الواجب أو يترك تكميل الشرائط والأركان من الأعمال الظاهرة والباطنة وبذلك فسرها السلف ففى تفسير عبد بن حميد وذكره عن إبن المنذر فى تفسيره من حديث عبد حدثنا روح عن سعيد عن قتادة {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }المؤمنون9 على وضوئها ومواقيتها وركوعها وروى أبوبكر بن المنذر فى تفسيره من حديث أبى عبدالرحمن عن عبدالله قال قيل لعبد الله إن الله أكثر ذكر الصلاة فى القرآن {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ }المعارج23 و{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ }المؤمنون2 و {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }المؤمنون9 فقال عبدالله ذلك على مواقيتها فقالوا ما كنا نرى ذلك يا أبا عبدالرحمن إلا الترك قال تركها كفر [1]

حكم من ترك الصلاة والصوم عامدا

واختلف الناس فيمن ترك الصلاة والصوم عامدا هل يقضيه فقال الأكثرون يقضيه وقال بعضهم لا يقضيه ولا يصح فعله بعد وقته كالحج وقد ثبت عن النبى انه قال عن الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها واجعلوا صلاتكم معهم نافلة ودل الكتاب والسنة وإتفاق السلف على الفرق بين من يضيع الصلاة فيصليها بعد الوقت والفرق بين من يتركها ولو كانت بعد الوقت لا تصح بحال لكان الجميع سواء لكن المضيع لوقتها كان ملتزما لوجوبها وإنما ضيع بعض حقوقها وهو الوقت وأتى بالفعل فأما من لم يعلم وجوبها عليه جهلا وضلالا أو علم الإيجاب ولم يلتزمه فهذا إن كان كافرا فهو مرتد وفى وجوب القضاء عليه الخلاف المتقدم لكن هذا شبيه بكفر النفاق فالكلام فى هذا متصل بالكلام فيمن أقام الصلاة وآتى الزكاة نفاقا أو رياء فإن هذا يجزئه فى الظاهر ولا يقبل منه فى الباطن قال الله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ }محمد9 وقال {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ }التوبة54 وقال تعالى{ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{7}الماعون4-7 وقال تعالى {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء142 وقد إختلف أصحابنا فى الإمام إذا أخذ الزكاة قهرا هل تجزئه فى الباطن على وجهين مع أنها لا تستعاد

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 571-573

منه أحدهما لا تجزيه لعدم النية مع القدرة عليها والثانى أن نية الإمام تقوم مقام نية الممتنع لأن الإمام نائب المسلمين فى اداء الحقوق الواجبة عليهم والأول أصح فإن النبى كان يأخذها منهم بإعطائهم إياها وقد صرح القرآن بنفى قبولها لأنهم ينفقون وهم كارهون فعلم أنه ان أنفق مع كراهة الإنفاق لم تقبل منه كمن صلى رياء لكن لو تاب المنافق والمرائى فهل تجب عليه فى الباطن الإعادة أو تنعطف توبته على ما عمله قبل ذلك فيثاب عليه أو لا يعيد ولا يثاب أما الإعادة فلا تجب على المنافق قطعا لأنه قد تاب من المنافقين جماعة عن النفاق على عهد رسول الله ولم يأمر أحدا منهم بالإعادة وقد قال تعالى { وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }التوبة74 وايضا فالمنافق كافر فى الباطن فإذا آمن فقد غفر له ما قد سلف فلا يجب عليه القضاء كما لا يجب على الكافر المعلن إذا أسلم وأما ثوابه على ما تقدم مع التوبة فيشبه الكافر إذا عمل صالحا فى كفره ثم أسلم هل يثاب عليه ففى الصحيحين أن النبى قال لحكيم بن حزام أسلمت على ما سلف لك من خير وأما المرائي إذا تاب من الرياء مع كونه كان يعتقد الوجوب فهو شبيه بالمسألة التى نتكلم فيها وهى مسألة من لم يلتزم أداء الواجب وإن لم يكن كافرا فى الباطن ففى إيجاب القضاء عليه تنفير عظيم عن التوبة فإن الرجل قد يعيش مدة طويلة لا يصلي ولا يزكي وقد لا يصوم أيضا ولا يبالي من أين كسب المال أمن حلال أم من حرام ولا يضبط حدود النكاح والطلاق وغير ذلك فهو فى جاهلية إلا أنه منتسب إلى الإسلام فإذا هداه الله و تاب عليه فإن أوجب عليه قضاء جميع ما تركه من الواجبات وأمر برد جميع ما إكتسبه من الأموال والخروج عما يحبه من الإبضاع إلى غير ذلك صارت التوبة فى حقه عذابا وكان الكفر حينئذ أحب إليه من ذلك الإسلام الذى كان عليه فإن توبته من الكفر رحمة وتوبته وهو مسلم عذاب وأعرف طائفة من الصالحين من يتمنى أن يكون كافرا ليسلم فيغفر له ما قد سلف لأن التوبة عنده متعذرة عليه أو متعسرة على ما قد قيل له وإعتقده من التوبة ثم هذا منفر لأكثر أهل الفسوق عن التوبة وهو شبيه بالمؤيس للناس من رحمة الله ووضع الآصار ثقيلة والأغلال عظيمة على التائبين الذين هم أحباب الله فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين والله أفرح بتوبة عبده من الواجد لماله الذى به قوامه بعد اليأس منه فينبغى لهذا المقام أن يحرر فإن كفر الكافر لم يسقط عنه ما تركه من الواجبات وما فعله من المحرمات لكون الكافر كان معذورا بمنزلة المجتهد فإنه لا يعذر بلا خلاف وإنما غفر له لأن الإسلام توبة والتوبة تجب ما قبلها والتوبة توبة من ترك تصديق وإقرار وترك عمل وفعل فيشبه والله أعلم أن يجعل حال هؤلاء فى جاهليتهم كحال غيرهم[1]

المحافظة على الصلاة فى وقتها فرض

و لا يحل تأخيرها عن وقتها إلا لناو جمعها أو مشتغل عنها بشرطها أما فعلها في الوقت المضروب لها ففرض و تأخيرها عنه عمدا من الكبائر لقوله تعالى {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى }البقرة238 و المحافظة عليها فعلها في الوقت لأن سبب نزول الآية تأخير الصلاة يوم الخندق دون تركها لأن السلف فسروها بذلك و لأن المحافظة خلاف الإهمال و الإضاعة

[1] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 19-22

و من أخرها عن وقتها فقد أهملها و لم يحافظ عليها و قوله تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 و أضاعتها تأخيرها عن وقتها كذلك فسرها ابن مسعود و إبراهيم و القاسم بن محمد و الضحاك و غيرهم من غير مخالف لهم قال ابن مسعود إضاعتها صلاتها لغير وقتها لأن الشيء الضائع ليس هو معدوما إنما هو مهمل غير محفوظ و قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الماعون 4-5 والمشهور منها إضاعة الوقت كذلك فسر هذه المواضع جماهير الصحابة و التابعين و هو معقول من الكلام و قال تعالى { إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً }النساء103 و أمر سبحانه الخائف إن يصلي مع الإخلال بكثير من الأركان و كذلك المتيمم و نحوه و لو جاز التأخير لما احتاج ذلك إلى شيء من ذلك وسائر الآيات الموجبة فعلها في الوقت المحدود مثل قوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى }طه130 وقوله تعالى {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ}الإسراء78 دليل مفصل على ذلك وكذلك الأحاديث عن أبي ذر رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا ذر إنها ستكون عليكم أئمة يميتون الصلاة فان ادركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها واجعلوا صلاتكم معهم نافلة رواه احمد ومسلم وعن أبي قتادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة إن يؤخر صلاة إلى وقت الصلاة الأخرى رواه مسلم والنصوص في ذلك كثيرة و هو مجمع عليه[1]

من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه الذمة

الايمان قولا وعملا ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا فى قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج الى بيته فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق فى القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح ولهذا انما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار كقوله { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ{42} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ{43}القلم 42-43 فى الحديث الطويل حديث التجلي أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط وثبت أيضا فى الصحيح أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء الا موضع السجود فان الله حرم على النار أن تأكله فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله وكذلك ثبت فى الصحيح أن النبى يعرف أمته يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فدل على أن من لم يكن غرا محجلا لم يعرفه النبى فلا يكون من أمته وقوله تعالى { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{45} كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ{46} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{47} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ{48} المرسلات 45-48 وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما فى الحديث الطويل حديث التجلي أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط وثبت أيضا فى

---

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 53

الصحيح أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء الا موضع السجود فان الله حرم على النار أن تأكله فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله وكذلك ثبت فى الصحيح أن النبى يعرف أمته يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فدل على أن من لم يكن غرا محجلا لم يعرفه النبى فلا يكون من أمته وقوله تعالى { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{45} كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ{46} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{47} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ{48} المرسلات 45-48 وقوله تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ{22} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ{23} الانشقاق 20-23 وكذلك قوله تعالى { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32} القيامة 31-32 وكذلك قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} المدثر 42-46 فوصفه بترك الصلاة كما وصفه بترك التصديق ووصفه بالتكذيب والتولي و المتولي هو العاصي الممتنع من الطاعة كما قال تعالى {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }الفتح16 وكذلك وصف أهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين وكذلك قرن التكذيب بالتولي فى قوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق 9-16 أيضا فى القرآن علق الاخوة فى الدين على نفس اقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما علق ذلك على التوبة من الكفر فاذا انتفي ذلك انتفت الاخوة و أيضا فقد ثبت عن النبى أنه قال العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر وفى المسند من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه الذمة و أيضا فإن شعار المسلمين الصلاة ولهذا يعبر عنهم بها فيقال اختلف أهل الصلاة وإختلف أهل القبلة والمصنفون لمقالات المسلمين يقولون مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين وفى الصحيح من صلى صلاتنا وإستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ما لنا وعليه ما علينا وأمثال هذه النصوص كثيرة فى الكتاب والسنة وأما الذين لم يكفروا بترك الصلاة ونحوها فليست لهم حجة الا وهي متناولة للجاحد كتناولها للتارك فما كان جوابهم عن الجاحد كان جوابا لهم عن التارك مع أن النصوص علقت الكفر بالتولى كما تقدم وهذا مثل استدلالهم بالعمومات التى يحتج بها المرجئة كقوله من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وان عيسى عبد الله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه أدخله الله الجنة ونحو ذلك من النصوص وأجود ما إعتمدوا عليه قوله خمس صلوات كتبهن الله على العباد فى اليوم والليلة فمن حافظ عليهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله االجنة قالوا فقد جعل غير المحافظ تحت المشيئة والكافر لا يكون تحت المشيئة ولا دلالة فى هذا فإن الوعد بالمحافظة عليها والمحافظة فعلها فى أوقاتها كما أمر كما قال تعالى {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى }البقرة238 وعدم المحافظة يكون مع فعلها بعد الوقت كما آخر النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق فأنزل الله آية الأمر بالمحافظة عليها وعلى غيرها من الصلوات وقد قال تعالى {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً }مريم59 فقيل لإبن مسعود وغيره ما اضاعتها فقال تأخيرها عن وقتها فقالوا ما كنا نظن ذلك إلا تركها فقال لو تركوها لكانوا كفارا وكذلك قوله { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5}الماعون 4-5 ذمهم مع أنهم يصلون لأنهم سهوا عن حقوقها الواجبة من فعلها فى الوقت واتمام افعالها المفروضة كما ثبت فى صحيح مسلم عن

النبى أنه قال تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا فجعل هذه صلاة المنافقين لكونه آخرها عن الوقت ونقرها وقد ثبت فى الصحيح عن النبى أنه ذكر الأمراء بعده الذين يفعلون ما ينكر وقالوا يا رسول الله أفلا نقاتلهم قال لا ما صلوا وثبت عنه أنه قال سيكون أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها ثم إجعلوا صلاتكم معهم نافلة فنهى عن قتالهم اذا صلوا وكان فى ذلك دلالة على أنهم إذا لم يصلوا قوتلوا وبين أنهم يؤخرون الصلاة عن وقتها وذلك ترك المحافظة عليها لا تركها وإذا عرف الفرق بين الأمرين فالنبى إنما أدخل تحت المشيئة من لم يحافظ عليها لا من ترك ونفس المحافظة يقتضي أنهم صلوا ولم يحافظوا عليها ولا يتناول من لم يحافظ فإنه لو تناول ذلك قتلوا كفارا مرتدين بلا ريب ولا يتصور فى العادة أن رجلا يكون مؤمنا بقلبه مقرا بأن الله أوجب عليه الصلاة ملتزما لشريعة النبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به يأمره ولي الامر بالصلاة فيمتنع حتى يقتل ويكون مع ذلك مؤمنا فى الباطن قط لا يكون إلا كافرا ولو قال أنا مقر بوجوبها غير أنى لا أفعلها كان هذا القول مع هذه الحال كذبا منه كما لو أخذ يلقي المصحف فى الحش ويقول أشهد أن ما فيه كلام الله أو جعل يقتل نبيا من الأنبياء ويقول أشهد أنه رسول الله ونحو ذلك من الأفعال التى تنافى إيمان القلب فإذا قال أنا مؤمن بقلبى مع هذه الحال كان كاذبا فما أظهره من القول [1]

حكم من أخر الصلاة عن وقتها ومات

فمن أخر الصلاة عن وقتها و فعلها فيما بعد فمات أو كان ممن يلزمه إن يفعلها فيما بعد فمات فهذا مع أنه فاسق من أهل الكبائر ليس بكافر كالأمراء الذين يؤخرون الصلاة حتى يخرج الوقت و لذلك امرنا النبي صلى الله عليه و سلم إن نصلي معهم النافلة و لذلك قال ابن مسعود {الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ }الماعون5 أخروها حتى يخرج وقتها و لو تركوها لكانوا كفارا و هذا الضرب كثير في المسلمين و هم من أهل الكبائر الذين ادخرت لهم الشفاعة و ما جاء من الرجاء لمن يتهاون في الصلاة فإليهم ينصرف و لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم ومن لم يحافظ عليها لم يكن له عند الله عهد و نفي المحافظة لا ينفي الفعل بخلاف من لم فانه يكون تاركا بالكلية كما تقدم و كذلك من أخل بما يسوغ فيه الخلاف من شرائطها و أركانها وأما من أخل بشيء من شرائطها و أركانها التي لا يسوغ فيها الخلاف فهذا بمنزلة التارك لها فيما ذكره أصحابنا كما تقدم من حديث حذيفة و لأن هذه الصلاة وجودها كعدمها في منع الاكتفاء بها فأشبه من آمن ببعض الكتاب و كفر ببعض فأما من يترك الصلاة بعض الأوقات لا يقضيها و لا ينوي قضاءها أو يخل ببعض فرائضها و لا يقضيها و لا ينوي قضاءها فمقتضى ما ذكره كثير من أصحابنا أنه يكفر بذلك فإن دعي إليها و امتنع حكم عليه بالكفر الظاهر و إلا لحقه حكم الكفر الباطن بذلك ثم إذا صلى الأخرى صار مؤمنا كما دل على ذلك قوله من ترك صلاة العصر متعمدا حبط عمله و قوله من ترك الصلاة عمدا فقد برئت منه الذمة و لا يلزم ذلك أحكام الكفر في حقه كالمنافقين و الأشبه في مثل هذا أنه لا يكفر بالباطن أيضا حتى يعزم على تركها بالكلية كما لم يكفر في تأخيرها عن وقتها كما تقدم من الأحاديث و لأن الفرائض تجبر يوم القيامة بالنوافل و لأنه متى عزم على بعض الصلاة فقد أتى بما هو مجرد إيمان[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 611-619

[2] شرح العمدة ج: 4 ص: 93

حكم من لم يصل المكتوبة حتى خرج وقتها

و من لم يصل المكتوبة حتى خرج وقتها و هو من أهل فرضها لزمه القضاء على الفور لما روى انس بن مالك رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها ألا ذلك متفق عليه و في رواية لمسلم إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فان الله يقول { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي }طه14 و في لفظ من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها إن يصليها إذا ذكرها و عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم نحوه رواه مسلم و غيره و عن أبي قتادة في قصة نومهم عن الصلاة إن النبي صلى الله عليه و سلم قال ليس في النوم تفريط فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها رواه الجماعة ألا البخاري فأوجب صلى الله عليه و سلم القضاء على الفور مع التأخير لعذر فمن التأخير لغير عذر أولى فان قيل تخصيص الحكم بالناسي دليل على إن العامد بخلافه و قد قال ابن مسعود رضي الله عنه إن للصلاة وقتا كوقت الحج و هذا يدل على إن لا تفعل في غير الوقت قلنا إنما خص النائم و الناسي إذ لا إثم عليهما في التأخير إلى حين الذكر و الانتباه بخلاف العامد فكان تأخيرها عن وقتها من الكبائر و معنى قول ابن مسعود أنه لا يحل له إن يؤخرها عن وقتها و لا يقبل منه إذا آخرها

كما قال الصديق رضي الله عنه إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار و حقا بالنهار لا يقبله بالليل و ذلك إن الله تعالى أوجب عليه إن يصلي و إن يفعل ذلك في الوقت فالإخلال بالوقت لا يوجب الإخلال بأصل الفعل بل يأتي بالصلاة و يبقى التأخير في ذمته أما إن يعذبه الله أو يتوب عليه أو يغفر له و لم يرد إن الصلاة كالحج من كل وجه فان الحج لا يفعل في غير وقته سواء أخر لعذر أو لغير عذر و الصلاة بخلاف ذلك و مثل هذا ما روي إن من افطر يوما من رمضان لم يقض عنه صيام الدهر كله و إن صامه يعني من اجل تفويت عين ذلك اليوم مع إن القضاء واجب عليه و يدل على ذلك إن عمر و ابن مسعود و غيرهما من السلف جعلوا ترك الصلاة كفرا و تأخيرها عن وقتها إثما و معصية و فسروا بذلك قوله تعالى { عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} و قوله تعالى { أَضَاعُوا الصَّلَاةَ}مريم59 فلو كان فعلها بعد الوقت لا يصح بحال كالوقوف بعرفة بعد وقته لكان وجود تلك الصلاة كعدمها و كان المؤخر كافرا كالتارك و قد اخبر النبي صلى الله عليه و سلم عن الأمراء الذين يؤخرون الصلاة حتى يخرج وقتها و امر إن يصلي خلفهم و لو كانت الصلاة فاسدة لم تصح الصلاة خلفهم كالمصلي بغير وضوء و يجوز تأخير القضاء شيئا يسيرا لغرض صالح مثل اختيار بقعة على بقعة و انتظار جماعة يكثر بهم جمع الصلاة بل يستحب له إذا نام عنها في موضع إن ينتقل عنه إلى غيره للقضاء نص عليه و اختاره بعض أصحابنا إذا نام عنها في منزل في السفر و ذلك كما فعل النبي صلى الله عليه و سلم لما فاتته صلاة الفجر في السفر و قال هذا منزل حضرنا فيه الشيطان لأن الصلاة في مظان الشياطين كالحمام و الحش لا تجوز فالتي عرض الشيطان فيها احسن أحوالها أن يستحب ترك الصلاة فيها و لا يجب عليه القضاء اكثر من مرة واحدة لأن النبي صلى الله عليه و سلم لم يقض يوم الخندق و يوم نام عن الفجر اكثر من مرة واحدة و قد احتج احمد على ذلك بما رواه في المسند بإسناد جيد عن عمران بن حصين قال ثم امر بلالا فأذن ثم صلى الركعتين قبل الفجر ثم أقام فصلينا فقالوا يا رسول الله ألا نعيدها في وقتها من الغد فقال أينهاكم ربكم عن الربا و يقبله

منكم و هذا لأن الواجب في الذمة صلاة واحدة فلو امر بصلاتين لكان ربا فان قيل ففي حديث أبي قتادة عن النبي صلى الله عليه و سلم أما أنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها رواه احمد و مسلم و في رواية ابن ماجة فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها و لوقتها في الغد قلنا معناه و الله اعلم فليصلها حاضرة و أكد الأمر بالمحافظة لئلا يتوهم إن الرخصة لغير المعذور و ليتحفظ من تفويت مرة أخرى و قد رواه أبو داود و لفظه من أدرك معكم في غد صلاة فليقض معها مثلها و هذا و الله اعلم توهم من بعض الرواة بما فهم من المعنى و قد علل البخاري هذه الرواية[1]

حكم من ترك صلاة العصر متعمدا

كما أن من ترك صلاة العصر متعمدا حبط عمله وإن قضاها وكما يلحق الوعيد ِ{ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}5{الماعون 5 وإن صلوها بعد الوقت وهنا قد قضوها بأنفسهم[2]

إخلاص الدين هو أصل دين الإسلام

وقد ذكر الله تعالى الإخلاص فى كتابه فى غير موضع كقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }البينة5 وقوله { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ}2{ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ }3{الزمر2-3 وقوله {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }الزمر14 وغير ذلك من الآيات وإخلاص الدين هو أصل دين الإسلام ولذلك ذم الرياء فى مثل قوله{ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ}4{ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}5{ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ}6{الماعون 4-6 وقوله { وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }النساء142 وقال تعالى { كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ }البقرة264 الآية وقوله تعالى {وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً }النساء38 الآية [3]

انما الأعمال بالنيات

فانما الأعمال بالنيات و انما لكل امرىء مانوى و النية هي مما يخفيه الانسان فى نفسه فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب و ان كان قصده رياء الناس استحق العقاب كما قال تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ}4{ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}5{ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ}6{ الماعون4-6 و قال {وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ }النساء142 وفى حديث أبى هريرة الصحيح فى الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار فى الذي تعلم و علم ليقال عالم قاريء و الذي قاتل

---

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 232-235

[2] شرح العمدة ج: 2 ص: 191

[3] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 257

ليقال جريء و شجاع و الذي تصدق ليقال جواد و كريم فهؤلاء انما كان قصدهم مدح الناس لهم و تعظيمهم لهم و طلب الجاه عندهم لم يقصدوا بذلك وجه الله و ان كانت صور أعمالهم صورا حسنة فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب كما فى الحديث من طلب العلم ليباهي به العلماء أو ليماوى به السفهاء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فله من عمله النار و فى الحديث الآخر من طلب علما مما يبتغى به وجه الله لايطلبه الا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة و ان ريحها ليوجد من مسيرةخمسمائة عام و في الجملة القلب هو الاصل كما قال أبو هريرة القلب ملك الأعضاء و الاعضاء جنوده فاذا طاب الملك طابت جنوده و إذا خبث خبثت جنوده و هذا كما في حديث النعمان بن بشير المتفق عليه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال ان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد و إذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا و هي القلب فصلاحه و فساده يستلزم صلاح الجسد و فساده فيكون هذا مما أبداه لا مما أخفاه وكلما أوجبه الله على العباد لابد أن يجب على القلب فانه الاصل و ان وجب على غيره تبعا فالعبد المأمور المنهي انما يعلم بالأمر و النهي قلبه و انما يقصد الطاعة و الامتثال القلب و العلم بالمأمور و الامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به كالصلاة و الزكاة و الصيام و إذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال كان أول المعصية منه بل كان هو العاصي و غيره تبع له فى ذلك و لهذا قال فى حق الشقي{ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32} القيامة31-32 الآيات و قال فى حق السعداء {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 فى غير موضع[1]

النية لها ركنان

النية لها ركنان احدهما ان ينوي العبادة و العمل و الثاني ان ينوي المعبود المعمول له فهو المقصود بذلك العمل و المراد به الذي عمل العمل من اجله كما بينه النبي صلى الله عليه و سلم بقوله إنما الاعمال بالنيات و إنما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله و من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه فميز صلى الله عليه و سلم بين من كان عمله لله و من كان عمله لمال أو نكاح و الذي يجب ان يكون العمل له هو الله سبحانه وحده لا شريك له فان هذه النية فرض في جميع العبادات بل هذه النية اصل جميع الاعمال و منزلتها منها منزلة القلب من البدن و لا بد في جميع العبادات ان تكون خالصة لله سبحانه كما قال تعالى {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ{3} الزمر2-3 و قال تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }الزمر11 قال تعالى {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }الزمر14 و قال تعالى {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }غافر14 و قال سبحانه {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }غافر65 و قال {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ }الصافات40 في عدة مواضع و قال تعالى {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً }النساء146 و قال

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 140-141

تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 و هذه الآيات كما دلت على فرض العبادة ففرضت العبادة و ان تكون لله خالصة و هذه حقيقة الاسلام و ما في القران من قوله اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا و قوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 و قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 إلى غير ذلك من الآيات كلها تدل على هذا الاصل بل جماع مقصود الكتاب و الرسالة هو هذا و هو معنى قول لا اله الا الله و هو دين الله الذي بعث به جميع المرسلين و ضد هذه النية الرياء و السمعة و هو ارادة ان يرى الناس عمله و ان يسمعوا ذكره و هؤلاء الذين ذمهم الله تعالى في قوله { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} الماعون 4-6 و قال{ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ }النساء142 و من صلى بهذه النية فعمله باطل يجعله الله هباء منثورا و كذلك من ادى شيئا من الفرائض و الكلام في هذه النية و تفاصيلها لا يختص بعبادة دون عبادة اذ الفعل بدون هذه النية ليس عبادة اصلا الركن الثاني ان ينوي ما تتميز به عبادة عن عبادة فينوي الصلاة لتتميز عن سائر اجناس العبادات وينوي صلاة الظهر مثلا لتتميز عن صلوات سائر الاوقات و هكذا في كل ما يميز تلك العبادة من غيرها سواء كانت مفروضة ام مستحبة و هذه النية هي التي يتكلم عليها في هذه المواضع اذ الكلام هنا في فروع الدين و شرائعه و تلك النية متعلقة باصل الدين و جماعه و الفقه في شرائع الدين و فروعه إنما هو بعد تحقيق اصوله اذ الفروع كمال الاصول و اتمامها[1]

شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع

جاء الكتاب والسنة بذم البخل والجبن ومدح الشجاعة والسماحة فى سبيله دون ما ليس فى سبيله فقال النبى شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع وقال من سيدكم يا بنى سلمة فقالوا الجد بن قيس على أنه نزنه بالبخل فقال وأى داء أدوا من البخل وفى رواية ان السيد لا يكون بخيلا بل سيدكم الأبيض الجعد البراء بن معرور وكذلك فى الصحيح قول جابر بن عبد الله لابى بكر الصديق رضى الله عنهما اما ان تعطينى واما أن تبخل عنى فقال تقول واما أن تبخل عنى وأى داء أدوأ من البخل فجعل البخل من أعظم الأمراض وفى صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال قال عمر قسم النبى صلى الله عليه وسلم قسما فقلت يا رسول الله والله لغير هؤلاء أحق به منهم فقال انهم خيرونى بين ان يسألونى بالفحش وبين أن يبخلونى ولست بباخل يقول انهم يسألونى مسألة لا تصلح فان أعطيتهم والا قالوا هو بخيل فقد خيرونى بين أمرين مكرهين لا يتركونى من أحدهما الفاحشة والتبخيل والتبخيل أشد فادفع الاشد باعطائهم والبخل جنس تحته أنواع كبائر وغير كبائر قال تعالى {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}آل عمران180 وقال{ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{7}الماعون 4-7 [2]

---

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 576

[2] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 156 و الاستقامة ج: 2 ص: 267

حال المنافقين و المرائين

فالذي يقصد العمل المعين من غير أن يقصد طاعة الله و عبادته كمن يدفع زكاة ماله إلى السلطان لئلا يضرب عنقه أو ينقص حرمته أو يأخذ ماله أو قام يصلي خوفا على دمه أو ماله أو عرضه و هذه حال المنافقين عموما و المرائين فى بعض الأعمال خصوصا كما قال تعالى { وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ }النساء142 و قال { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{7}الماعون4-7 و قال تعالى { وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ }التوبة54 [1]

حكم بذل المنافع

فأما اذا قدر ان قوما اضطروا الى سكنى فى بيت انسان اذا لم يجدوا مكانا يأوون اليه الا ذلك البيت فعليه ان يسكنهم وكذلك لو احتاجوا الى أن يعيرهم ثيابا يستدفئون بها من البرد او الى الات يطبخون بها او يبنون او يسقون يبذل هذا مجانا واذا احتاجوا الى ان يعيرهم دلوا يستقون به او قدرا يطبخون فيها أو فأسا يحفرون به هل يجب بذله مجانا او بطريق التعوض كالأعيان فيه قولان للعلماء فى مذهب احمد وغيره والصحيح وجوب بذل ذلك مجانا اذا كان صاحبها مستغنيا عن تلك المنفعة وعوضها كما دل عليه الكتاب والسنة قال الله تعالى { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{7} الماعون4-7 وفى السنن عن ابن مسعود قال كنا نعد الماعون عارية الدلو والقدر والفاس وفى الصحيحين عن النبى انه لما ذكر الخيل قال هى لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر فاما الذى هى له أجر فرجل ربطها تغنيا وتعفا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها وفى الصحيحين عن النبى أنه قال من حق الابل اعارة دلوها واضراب فحلها وثبت عنه أنه نهى عن عسب الفحل وفى الصحيحين عنه انه قال لا يمنعن جار جاره أن يغرز خشبة فى جداره وايجاب بذل هذه المنفعة مذهب أحمد وغيره ولو احتاج الى اجارء ماء فى أرض غيره من غير ضرر بصاحب االأرض فهل يجبر على قولين للعلماء هما روايتان عن احمد والأخبار بذلك مأثورة عن عمر بن الخطاب قال للمهنع والله لنجرينها ولو على بطنك ومذهب غير واحد من الصحابة والتابعين ان زكاة الحلى عاريته وهو احد الوجهين فى مذهب احمد وغيره والمنافع التى يجب بذلها نوعان منها ما هو حق المال كما ذكره فى الخيل والابل وعارية لحلى ومنها ما يجب لحاجة الناس وايضا فان بذل منافع البدن يحب عند الحاجة كما يجب تعليم العلم وافتاء الناس وأداء الشهادة والحكم بينهم والأمر بالمعرف والنهى عن المنكر والجهاد وغير ذلك من منافع الابدان فلا يمنع وجوب بذل منافع الأموال للمحتاج وقد قال تعالى { وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ }البقرة282 وقال { وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ}البقرة282 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 28

[2] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 98 و مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 187

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الكوثر
108

رقية محمود الغرايبة

~§§ الكوثر(مكية)3 §§~

الكوثر1-3

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ{1} فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{2} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ{3}

حقيقة معناها تعلم من آخرها

ما أجلها من سورة و أغزر فوائدها على إختصاره و حقيقة معناها تعلم من آخرها فإنه سبحانه و تعالى بتر شانئ رسوله من كل خير فيبتر ذكره و أهله و ماله فيخسر ذلك فى الآخرة و يبتر حياته فلا ينتفع بها و لا يتزود فيها صالحا لمعاده و يبتر قلبه فلا يعي الخير و لا يؤهله لمعرفته و محبته و الإيمان برسله و يبتر أعماله فلا يستعمله فى طاعة و يبتره من الأنصار فلا يجد له ناصر و لا عونا و يبتره من جميع القرب و لأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعما و لا يجد لها حلاوة و إن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها و هذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم و رده لأجل هواه أو متبوعه أو شيخه أو أميره أو كبيرة كمن شنأ آيات الصفات و أحاديث الصفات و تأولها على غير مراد الله و رسوله منها أو حملها على ما يوافق مذهبه و مذهب طائفته أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت و لا أحاديث الصفات قالها رسول الله صلى الله عليه و سلم و من أقوى علامات شناءته لها و كراهته لها أنه إذا سمعها حين يستدل بها أهل السنة على ما دلت عليه من الحق إشمأز من ذلك و حاد و نفر عن ذلك لما فى قلبه من البغض لها و النفرة عنها فأي شانيء للرسول أعظم من هذا و كذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغنا و القصائد و الدفوف و الشبابات إذا سمعوا القرآن يتلى و يقرأ في مجالسهم إستطالوا ذلك و استثقلوه فأي شنآن أعظم من هذا و قس على هذا سائر لطوائف فى هذا الباب و كذا من آثر كلام الناس و علومهم على القرآن و السنة فلولا أنه شانيء لما جاء به الرسول ما فعل ذلك حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه و يشتغل بقول فلان و فلان و لكن أعظم من شنأه و رده من كفر به و جحده و جعله أساطير الأولين و سحرا يؤثر فهذا أعظم و أطم إنبتارا و كل من شنأه له نصيب من الإنبتار على قدر شناءته له فهؤلاء لما شنؤه و عادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كله معاديا لهم فبترهم منه و خص نبيه صلى الله عليه و سلم بضد ذلك و هو أنه أعطاه الكوثر و هو من الخير الكثير الذي آتاه الله فى الدنيا و الآخرة فمما أعطاه في الدنيا الهدى و النصر و التأييد و قرة العين و النفس و شرح الصدر و نعم قلبه بذكره و

حبه بحيث لا يشبه نعيمه نعيم فى الدنيا ألبتة و أعطاه في الآخرة الوسيلة و المقام المحمود و جعله أول من يفتح له و لأمته باب الجنة و أعطاه فى الآخرة لواء الحمد و الحوض العظيم فى موقف القيامة إلى غير ذلك و جعل المؤمنين كلهم أولاده و هو أب لهم و هذا ضد حال الأبتر الذي يشنؤه و يشنأ ما جاء به و قوله {إِنَّ شَانِئَكَ }الكوثر3 أي مبغضك و{ الْأَبْتَرُ }الكوثر3 المقطوع النسل الذي لا يولد له خير و لا عمل صالح فلا يتولد عنه خير ولا عمل صالح قيل لأبى بكر بن عياش إن بالمسجد قوما يجلسون و يجلس إليهم فقال من جلس للناس جلس الناس إليه و لكن أهل السنة يموتون و يحيى ذكرهم و أهل البدعة يموتون و يموت ذكرهم لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم فكان لهم نصيب من قوله{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }الشرح4 و أهل البدعة شنؤا ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم فكان لهم نصيب من قوله {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }الكوثر3
فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئا مما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم أو ترده لأجل هواك أو إنتصارا لمذهبك أو لشيخك أو لأجل إشتغالك بالشهوات أو بالدنيا فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله و الأخذ بما جاء به بحيث لو خالف العبد جميع الخلق و اتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعا للرسول و إلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع فاعلم ذلك و اسمع وأطع و اتبع و لا تبتدع تكن أبتر مردودا عليك عملك بل لا خير في عمل أبتر من الإتباع و لا خير في عامله و الله أعلم وقوله تعالى {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ }الكوثر1 تدل هذه الآية على عطية كثيرة صادرة عن معط كبير غنى و اسع و أنه تعالى و ملائكته و جنده معه صدر الآية بأن الدالة على التأكيد و تحقيق الخبر و جاء الفعل بلفظ الماضي الدال على التحقيق و أنه أمر ثابت و اقع و لا يدفعه ما فيه من الإيذان بأن إعطاء الكوثر سابق فى القدر الأول حين قدرت مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة و حذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ فى العموم لما فيه من عدم التعيين و أتى بالصفة أي أنه سبحانه و تعالى قال {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ }الكوثر1 فوصفه بالكوثر و الكوثر المعروف إنما هو نهر فى الجنة كما قد وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة و قال ابن عباس الكوثر إنما هو من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه وإذا كان أقل أهل الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات فما الظن بما لرسول الله صلى الله عليه و سلم مما أعده الله له فيها فالكوثر علامة و أمارة على تعدد ما أعده الله له من الخيرات و اتصالها و زيادتها و سمو المنزلة و ارتفاعها و إن ذلك النهر و هو الكوثر أعظم أنهار الجنة و أطيبها ماء و أعذبها و أحلاها و أعلاها و ذلك أنه أتى فيه بلام التعريف الدالة على كمال المسمى و تمامه كقوله زيد العالم زيد الشجاع أي لا أعلم منه و لا أشجع منه وكذلك قوله {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ }الكوثر1 دل على أنه أعطاه الخير كله كاملا موفرا و إن نال منه بعض أمته شيئا كان ذلك الذي ناله ببركة إتباعه و الإقتداء به مع أن له صلى الله عليه و سلم مثل أجره من غير أن ينقص من أجر المتبع له شيء ففيه الإشارة إلى أن الله تعالى يعطيه في الجنة بقدر أجور أمته كلهم من غير أن ينتقص من أجورهم فإنه هو السبب فى هدايتهم و نجاتهم فينبغي بل يجب على العبد إتباعه و الإقتداء به و أن يمتثل ما أمره به و يكثر من العمل الصالح صوما و صلاة و صدقة و طهارة ليكون له مثل أجره فإنه إذا فعل المحظورات فات الرسول مثل أجر ما فرط فيه من الخير فإن فعل المحظور مع ترك المأمور قوي وزره و صعبت نجاته لإرتكابه المحظور و تركه المأمور و إن فعل المأمور و ارتكب المحظور دخل فيمن يشفع فيه الرسول صلى الله عليه و سلم لكونه ناله مثل أجر ما فعله من المأمور و إلى الله إياب الخلق و عليه حسابهم و هو أعلم بحالهم أي بأحوال عباده فإن شفاعته لأهل الكبائر من أمته و المحسن إنما أحسن بتوفيق الله له و المسيءلا حجة له و لا عذر و المقصود أن الكوثر نهر في الجنة و هو من الخير الكثير الذي أعطاه الله رسوله صلى الله عليه و

سلم فى الدنيا و الآخرة و هذا غير ما يعطيه الله من الأجر الذي هو مثل أجور أمته إلى يوم القيامة فكل من قرأ و علم أو عمل صالحا أو علم غيره أو تصدق أو حج أو جاهد أو رابط أو تاب أو صبر أو توكل أو نال مقاما من المقامات القلبية من خشية و خوف و معرفة و غير ذلك فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر ذلك العامل و الله أعلم و قوله {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين و هما الصلاة و النسك الدالتان على القرب و التواضع و الإفتقار و حسن الظن و قوة اليقين و طمأنينة القلب إلى الله و إلى عدته و أمره و فضله و خلفه عكس حال أهل الكبر و النفرة و أهل الغنى عن الله الذين لا حاجة فى صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها و الذين لا ينحرون له خوفا من الفقر و تركا لإعانة الفقراء و إعطائهم و سوء الظن منهم بربهم و لهذا جمع الله بينهما في قوله تعالى {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام162 و النسك هي الذبيحة إبتغاء و جهه والمقصود أن الصلاة و النسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب لأن فعل ذلك و هو الصلاة و النحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر و الخير الكثير فشكر المنعم عليه و عبادته أعظمها هاتان العبادتان بل الصلاة نهاية العبادات و غاية الغايات كأنه يقول {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ }الكوثر1 الخير الكثير و أنعمنا عليك بذلك لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين شكرا لإنعامنا عليك و هما السبب لأنعامنا عليك بذلك فقم لنا بهما فإن الصلاة و النحر محفوفان بإنعام قبلهما و إنعام بعدهما و أجل العبادات المالية النحر و أجل العبادات البدنية الصلاة و ما يجتمع للعبد فى الصلاة لا يجتمع له فى غيرها من سائر العبادات كما عرفه أرباب القلوب الحية و أصحاب الهمم العالية و ما يجتمع له فى نحره من إيثار الله و حسن الظن به و قوة اليقين و الوثوق بما فى يد الله امر عجيب إذا قارن ذلك الإيمان و الإخلاص و قد إمتثل النبى صلى الله عليه و سلم أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر حتى نحر بيده فى حجة الوداع ثلاثا و ستين بدنة و كان ينحر فى الأعياد و غيرها وفى قوله {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ{1} فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{2}الكوثر1-2 إشارة إلى أنك لا تتأسف على شيء من الدنيا كما ذكر ذلك في آخر طه والحجر و غيرهما و فيها الإشارة إلى ترك الإلتفات إلى الناس و ما ينالك منهم بل صل لربك و انحر و فيها التعريض بحال الأبتر الشانىء الذي صلاته و نسكه لغير الله و في قوله { إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } الكوثر3 أنواع من التأكيد أحدها تصدير الجملة بأن الثاني الإتيان بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد و الإختصاص الثالث مجيء الخبر على أفعل التفضيل دون إسم المفعول الرابع تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه و أنه أحق به من غيره و نظير هذا فى التأكيد قوله {لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى }طه68 و من فوائدها اللطيفة الإلتفات فى قوله { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } الكوثر 2 الدالة على أن ربك مستحق لذلك و أنت جدير بأن تعبده و تنحر له و الله أعلم [1]

عماد الدين

وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 526-533

إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها وبالنسك تارة كقوله تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2[1]

عيد النحر أفضل من عيد الفطر

ان عيد النحر يجتمع فيه المكان والزمان وعيد النحر أفضل من عيد الفطر ولهذا كانت العبادة فيه النحر مع الصلاة والعبادة فى ذاك الصدقة مع الصلاة والنحر أفضل من الصدقة لأنه يجتمع فيه العبادتان البدنية والمالية فالذبح عبادة بدنية ومالية والصدقة والهدية عبادة مالية ولأن الصدقة فى الفطر تابعة للصوم لأن النبى فرضها طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين ولهذا سن أن تخرج قبل الصلاة كما قال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 وأما النسك فانه مشروع فى اليوم نفسه عبادة مستقلة ولهذا يشرع بعد الصلاة كما قال تعالى { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{2} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ{3}الكوثر 2-3 فصلاة الناس فى الأمصار بمنزلة رمي الحجاج جمرة العقبة وذبحهم فى الأمصار بمنزلة ذبح الحجاج هديهم وفى الحديث الذى فى السنن أفضل الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر وفى الحديث الآخر الذى فى السنن وقد صححه الترمذى يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الاسلام وهي أيام أكل وشرب وذكر لله [2]

الأضحية من أعظم شعائر الاسلام

وأما الأضحية فالأظهر وجوبها أيضا فانها من أعظم شعائر الاسلام وهى النسك العام فى جميع الأمصار والنسك مقرون بالصلاة فى قوله {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام162 وقد قال تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 فأمر بالنحر كما أمر بالصلاة وقد قال تعالى {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ }الحج34 وقال {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{36} لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ{37}الحج36-37 وهى من ملة إبراهيم الذي أمرنا بإتباع ملته وبها يذكر قصة الذبيح فكيف يجوز أن المسلمين كلهم يتركون هذا لا يفعله أحد منهم وترك

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 428

[2] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 172 و مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 222

المسلمين كلهم هذا أعظم من ترك الحج فى بعض السنين وقد قالوا إن الحج كل عام فرض على الكفاية لأنه من شعاير الإسلام والضحايا فى عيد النحر كذلك بل هذه تفعل فى كل بلد

هى والصلاة فيظهر بها عبادة الله وذكره والذبح له والنسك له ما لا يظهر بالحج كما يظهر ذكر الله بالتكبير في الأعياد وقد جاءت الأحاديث بالأمر بها وقد خرج وجوبها قولا فى مذهب أحمد وهو قول أبي حنيفة وأحد القولين فى مذهب مالك أو ظاهر مذهب مالك ونفاة الوجوب ليس معهم نص فإن عمدتهم قوله من أراد أن يضحى ودخل العشر فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره قالوا والواجب لا يعلق بالإرادة وهذا كلام مجمل فإن الواجب لا يوكل إلى إرادة العبد فيقال أن شئت فأفعله بل قد يعلق الواجب بالشرط لبيان حكم من الأحكام كقوله{إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ }المائدة6 وقد قدروا فيه إذا أردتم القيام وقدروا إذا أردت القراءة فإستعذ والطهارة واجبة والقراءة فى الصلاة واجبة وقد قال { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} التكوير27-28 ومشيئة الإستقامة واجبة وأيضا فليس كل أحد يجب عليه أن يضحى وإنما تجب على القادر فهو الذي يريد أن يضحى كما قال من أراد الحج فليتعجل فإنه قد تضل الضالة وتعرض الحاجة والحج فرض على المستطيع فقوله من أراد أن يضحى كقوله من أراد الحج فليتعجل ووجوبها حينئذ مشروط بأن يقدر عليها فاضلا عن حوائجه الأصلية كصدقة الفطر ويجوز أن يضحى بالشاة عن أهل البيت صاحب المنزل ونسائه وأولاده ومن معهم كما كان الصحابة يفعلون وما نقل عن بعض الصحابة من أنه لم يضح بل إشترى لحما فقد تكون مسألة نزاع كما تنازعوا في وجوب العمرة وقد يكون من لم يضح لم يكن له سعة فى ذلك العام وأراد بذلك توبيخ أهل المباهاة الذين يفعلونها لغير الله أو أن يكون قصد بتركها ذلك العام توبيخهم فقد ترك الواجب لمصلحة راجحة كما قال لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم إنطلق معي برجال معهم حزم حطب الى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار لولا ما فى البيوت من النساء والذرية فكان يدع الجمعة والجماعة الواجبة لأجل عقوبة المتخلفين فإن هذا من باب الجهاد الذي قد يضيق وقته فهو مقدم على الجمعة والجماعة ولو أن ولى الأمر كالمحتسب وغيره تخلف بعض الأيام عن الجمعة لينظر من لا يصليها فيعاقبه جاز ذلك وكان هذا من الأعذار المبيحة لترك الجمعة فإن عقوبة أولئك واجب متعين لا يمكن إلا بهذا الطريق والنبى قد بين أنه لولا النساء والصبيان لحرق البيوت على من فيها لكن فيها من لا تجب عليه جمعة ولا جماعة من النساء والصبيان فلا تجوز عقوبته كما لا ترجم الحامل حتى تضع حملها لأن قتل الجنين لا يجوز كما فى حديث الغامدية[1]

وقت الأضحية

وقد يكون الترتيب شرطا لا يسقط بجهل ولا نسيان كما في الحديث الصحيح من ذبح قبل الصلاة فإنما هو شاة لحم فالذبح للأضحية مشروط بالصلاة قبله وأبو بردة بن نيار رضي الله عنه كان جاهلا فلم يعذره بالجهل بل أمره بإعادة الذبح بخلاف الذين قدموا في الحج الذبح على الرمي أو الحلق على ما قبله فإنه قال افعل ولا حرج فهاتان سنتان سنة في الأضحية إذا ذبحت قبل الصلاة أنها لا تجزئ وسنة في الهدي إذا ذبح قبل الرمي جهلا أجزأ والفرق بينهما والله أعلم أن الهدي صار نسكا

[1] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 162-165

بسوقه إلى الحرم وتقليده وإشعاره فقد بلغ محله في المكان والزمان فإذا قدم جهلا لم يخرج عن كونه هديا وأما الأضحية فإنها قبل الصلاة لا تتميز عن شاة اللحم كما قال النبي من ذبح قبل الصلاة فإنما هي شاة لحم قدمها لأهله وإنما هي نسك بعد الصلاة كما قال تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 وقال {إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي }الأنعام162 فصار فعله قبل هذا الوقت كالصلاة قبل وقتها فهذا وقت الأضحية وقته بعد فعل الصلاة كما بين الرسول ذلك في الأحاديث الصحيحة وهو قول الجمهور من العلماء مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم وإنما قدر وقتها بمقدار الصلاة الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد كالخرقي وفي الأضحية يشترط في أحد القولين أن يذبح بعد الإمام وهو قول مالك وأحد القولين في مذهب أحمد ذكره أبو بكر والحجة فيه حديث جابر في الصحيح وقد قيل إن قوله{ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ }الحجرات 1 نزلت في ذلك [1]

إراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع و العبادة له

إراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع و العبادة له و لهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتي نار من السماء فتأكله و لهذا قال تعالى {الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }آل عمران183 وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغنم و يكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم و أمة محمد صلى الله عليه و سلم و سع الله عليهم لكمال يقينهم و إخلاصهم و أنهم يقاتلون لله و لو أكلوا المغنم و يذبحون لله ولو أكلوا القربان و لهذا كان عباد الشياطين و الأصنام يذبحون لها الذبائح أيضا فالذبح للمعبود غاية الذل و الخضوع له ولهذا لم يجز الذبح لغير الله و لا أن يسمى غير الله على الذبائح و حرم سبحانه ما ذبح على النصب و هو ما ذبح لغير الله و ما سمى عليه غير إسم الله و إن قصد به اللحم لا القربان و لعن النبى صلى الله عليه و آله و سلم من ذبح لغير الله و نهي عن ذبائح الجن و كانوا يذبحون للجن بل حرم الله ما لم يذكر إسم الله عليه مطلقا كما دل على ذلك الكتاب و السنة فى غير موضع وقد قال تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 أي إنحر لربك كما قال الخليل {إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام162 و قد قال هو و إسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{127} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{128} البقرة128 فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها كما قال تعالى {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ }الحج67 و قال تعالى {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}الحج34 و قال {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ }الحج37 كما قال تعالى {وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ }الحج32 فالمقصود تقوى القلوب لله و هو عبادتها له و حده دون ما سواه بغاية العبودية له و العبودية فيها غاية المحبة و غاية الذل و الإخلاص و هذه ملة إبراهيم الخليل و هذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هي الأصل كما قال النبى صلى الله عليه و سلم إن فى الجسد مضغة إذا صلحت

[1] مجموع الفتاوى ج: 21 ص:419- 420

صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هي القلب و النية و القصد هما عمل القلب فلابد فى المتابعة للرسول صلى الله عليه و سلم من إعتبار النية و القصد[1]

قدم الله الصلاة على النحر

قدم الله الصلاة على النحر فى قوله {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 و قدم التزكي على الصلاة فى قوله { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15} الاعلى 14-15كانت السنة أن الصدقة قبل الصلاة فى عيد الفطر و أن الذبح بعد الصلاة فى عيد النحر [2]

الصلاة مقرونة بكل عبادة من العبادات

أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تعم جميع الطاعات و قد خصت الصلاة بذلك الأمر و الاصطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ }البقرة43 و إذا ذكرت المناسك قيل {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام162 و إن ذكر الصوم قيل {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }البقرة45فان الصبر المعدود في المثاني هو الصوم قال صلى الله عليه و سلم صوم شهر الصبر و ثلاثة أيام من كل شهر[3]

{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }

روى الامام احمد قال ثنا محمد بن ابي عدي عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال لما قدم كعب بن الاشرف مكة قالت قريش الاترى الى هذا الصنبر المنبتر من قومه يزعم انه خير منا ونحن اهل الحجيج واهل السدانة واهل السقاية قال فنزلت فيهم {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }الكوثر3 قال وانزلت فيه {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً }النساء51 الى قوله {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً }النساء52 وقال ثنا عبد الرازق قال قال معمر اخبرني ايوب عن عكرمة ان كعب بن الاشرف انطلق الى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي وامرهم ان يغزوه وقال لهم انا معكم فقالوا انكم اهل كتاب وهو صاحب كتاب ولا نامن ان يكون مكرا منكم فان اردت ان نخرج معك فاسجد للهذين الصنمين وامن بهما ففعل ثم قالوا له انحن اهدى ام محمد نحن نصل الرحم ونقري الضيف ونطوف بالبيت وننحر الكوم ونسقي اللبن على الماء ومحمد قطع رحمه وخرج من

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص:484- 486

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 201

[3] شرح العمدة ج: 4 ص: 89

بلده قال بل انتم خير واهدى قال فنزلت فيه {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً }النساء51[1]

الله سبحانه ينتقم لرسوله ويكفيه

ان ابا لهب كان له من القرابة ماله فلما اذاه وتخلف عن بني هاشم في نصره نزل القران فيه بما نزل من اللعنة والوعيد باسمه خزيا لم يفعل بغيره من الكافرين كما روي عن ابن عباس انه قال ما كان ابو لهب الا من كفار قومه حتى خرج منا حين تحالفت قريش علينا فظاهرهم فسبه الله وبنو المطلب مع مساواتهم لعبد شمس ونوفل في النسب لما اعانوه ونصروه وهم كفار شكر الله ذلك لهم فجعلهم بعد الاسلام مع بني هاشم في سهم ذوي القربى وابو طالب لما اعانه ونصره وذب عنه خفف عنه العذاب فهو من اخف اهل النار عذابا وقد روي ان ابا لهب سقي في نقرة الابهام لعتقه ثويبة اذ بشرته بولادته ومن سنة الله ان من لم يمكن المؤمنين ان يعذبوه من الذين يؤذون الله ورسوله فان الله سبحانه ينتقم منه لرسوله ويكفيه اياه كما قدمنا بعض ذلك في قصة الكتاب المفترى وكما قال سبحانه { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{95}الحجر94-95 والقصة في اهلاك الله واحدا واحدا من هؤلاء المستهزئين معروفة قد ذكرها اهل السير والتفسير وهم على ماقيل نفر من رؤوس قريش منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسودان بن المطلب وابن عبد يغوث والحارث بن قيس وقد كتب النبي الى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم لكن قيصر اكرم كتاب رسول الله واكرم رسوله فثبت ملكه فيقال ان الملك باق في ذريته الى اليوم وكسرى مزق كتاب رسول الله واستهزا برسول الله فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للاكاسرة ملك وهذا والله اعلم تحقيق قوله تعالى {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }الكوثر3 فكل من شناه او ابغضه وعاداه فان الله تعالى يقطع دابره ويمحق عينه واثره وقد قيل انها نزلت في العاص بن وائل او في عقبة بن ابي معيط او في كعب بن الاشرف وقد رايت صنيع الله بهم ومن الكلام السائر لحوم العلماء مسمومة فكيف بلحوم الانبياء عليهم السلام وفي الصحيح عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فكيف بمن عادى الانبياء ومن حارب الله حرب واذا استقريت قصص الانبياء المذكورة في القران تجد اممهم انما اهلكوا حين اذوا الانبياء وقابلوهم بقبيح القول او العمل وهكذا بنو اسرائيل انما ضربت عليهم الذلة وباؤوا بغضب من الله ولم يكن لهم نصير لقتلهم الانبياء بغير حق مضموما الى كفرهم كما ذكر الله ذلك في كتابه ولعلك لاتجد احدا اذى نبيا من الانبياء ثم لم يتب الا ولا بد ان يصيبه الله بقارعة وقد ذكرنا ما جربه المسلمون من تعجيل الانتقام من الكفار اذا تعرضوا لسب رسول الله وبلغنا مثل ذلك في وقائع متعددة وهذا باب واسع لا يحاط به ولم نقصد قصده هنا وانما قصدنا بيان الحكم الشرعي وكان سبحانه يحميه ويصرف عنه اذى الناس وشتمهم بكل طريق حتى في اللفظ ففي الصحيحين عن ابي هريرة قال قال رسول الله الا ترون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وانا محمد فنزه الله اسمه ونعته عن الاذى وصرف ذلك الى من هو مذمم وان كان المؤذي انما قصد عينه[2]

---

[1] الصارم المسلول ج: 2 ص: 156

[2] الصارم المسلول ج: 2 ص: 317-318

اهل البدعة شنأوا بعض ما جاء به الرسول فابترهم

فان الله نصر الكتاب بأمر من عنده وانتقم ممن خرج عن حكم الكتاب كما قال تعالى{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ }التوبة40 الى قوله { وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }التوبة40 وقوله لأبى بكر { إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة40 وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }النحل128 وقال تعالى { إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }البقرة153 وكل من وافق الرسول فى أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه فى ذلك وله نصيب من قوله { لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }التوبة40 فان المعية الالهية المتضمنة للنصر هى لما جاء به الى يوم القيامة وهذا قد دل عليه القرآن وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه وقال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }فصلت53 الى آخر السورة وقال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }القصص 83 وقال تعالى { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{2} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ{3} الكوثر2-3 فمن شنأ شيئا مما جاء به الرسول فله من ذلك نصيب ولهذا قال ابو بكر بن عياش لما قيل له ان بالمسجد أقواما يجلسون ويجلس الناس اليهم فقال من جلس للناس جلس الناس اليه لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم وذلك ان اهل البدعة شنأوا بعض ما جاء به الرسول فابترهم بقدر ذلك والذين أعلنوا ما جاء به النبى فصار لهم نصيب من قوله تعالى {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }الشرح4 فان ما اكرم الله به نبيه من سعادة الدنيا والأخرة فللمؤمنين المتابعين نصيب بقدر ايمانهم فما كان من خصائص النبوة والرسالة فلم يشارك فيه احد من أمته وما كان من ثواب الايمان والأعمال الصالحة فلكل مؤمن نصيب بقد ذلك [1]

ويدخل في هذا الباب ما لم يزل الناس يرونه ويسمعونه من انتقام الله ممن يسبه ويذم دينه بأنواع من العقوبات وفي ذلك من القصص الكثيرة ما يضيق هذا الموضع عن بسطه وقد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه من انتقام الله ممن يؤذيه بأنواع من العقوبات العجيبة التي تبين كلاءة الله لعرضه وقيامه بنصره وتعظيمه لقدره ورفعه لذكره وما من طائفة من الناس إلا وعندهم من هذا الباب ما فيه عبرة لأولي الألباب ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام إذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن ويطول الحصار إلى أن يسب العدو الرسول صلى الله عليه وسلم فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن وانتقام الله من العدو فإنه يكون ذلك قريبا كما قد جربه المسلمون غير مرة تحقيقا لقوله تعالى {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }الكوثر3 ولما مزق كسرى كتابة مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقي لهم ملكهم[2]

حكم الساب اذا تاب واسلم

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 38

[2] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 295-296

واما من قال ان الساب يقتل وان تاب واسلم وسواء كان كافرا او مسلما فقد تقدم دليله ان المسلم يقتل بعد التوبة وان الذمي يقتل وان طلب العود الى الذمة [1]

واما قتل الذمي اذا وجب عليه القتل بالسب وان اسلم بعد ذلك فلهم فيه طرق وهي دالة على تحتم قتل المسلم ايضا كما تدل على تحتم قتل الذمي احداها انه سبحانه وتعالى قال {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }الكوثر3 فاخبر سبحانه ان شانئه هو الابتر والبتر القطع يقال بتر يبتر بترا وسيف بتار اذا كان قاطعا ماضيا ومنه في الاشتقاق الاكبر تبره تتبيرا اذا اهلكه والتبار الهلاك والخسران وبين سبحانه انه هو الابتر بصيغة الحصر والتوكيد لانهم قالوا ان محمدا ينقطع ذكره لانه لا ولد له فبين الله ان الذي يشنأه هو الابتر لا هو والشنان منه ما هو باطن في القلب لم يظهر ومنه ما يظهر على اللسان وهو اعظم الشنان واشده وكل جرم استحق فاعله عقوبة من الله اذا اظهر ذلك الجرم عندنا وجب ان نعاقبه ونقيم عليه حد الله فيجب ان نبتر من اظهر شنانه وابدى عداوته واذا كان ذلك واجبا وجب قتله وان اظهر التوبة بعد القدرة والا لما انبتر له شانيء بايدينا في غالب الامر لانه لا يشاء شانئ ان يظهر شنانه ثم يظهر المتاب بعد رؤية السيف الا فعل فان ذلك سهل على من يخاف السيف تحقيق ذلك انه سبحانه رتب الانبتار على شنانه والاسم المشتق المناسب اذا علق به حكم كان ذلك دليلا على ان المشتق منه علة لذلك الحكم فيجب ان يكون شنانه هو الموجب لانبتاره وذلك اخص مما تضمنه الشنان من الكفر المحض او نقض العهد والانبتار يقتضي وجوب قتله بل يقتضي انقطاع العين والاثر فلو جاز استحياؤه بعد اظهار الشنان لكان في ذلك ابقاء لعينه واثره واذا اقتضى الشنان قطع عينه واثره كان كسائر الاسباب الموجبة لقتل الشخص وليس شئ يوجب قتل الذمي الا هو موجب لقتله بعد الاسلام اذ الكفر المحض مجوز للقتل لا موجب له على الاطلاق وهذا لان الله سبحانه لما رفع ذكر محمد فلا يذكر الا ذكر معه ورفع ذكر من اتبعه الى يوم القيامة حتى انه يبقى ذكر من بلغ عنه ولو حديثا وان كان غير فقيه قطع اثر من شناه من المنافقين واخوانهم من اهل الكتاب وغيرهم فلا يبقى له ذكر حميد وان بقيت اعيانهم وقتا ما اذا لم يظهروا الشنان فاذا اظهروه محقت اعيانهم واثارهم تقديرا وتشريعا فلو استبقى من اظهر شنانه بوجه ما لم يكن مبتورا اذ البتر يقتضي قطعه ومحقه من جميع الجوانب والجهات فلو كان له وجه الى البقاء لم يكن مبتورا
يوضح ذلك ان العقوبات التي شرعها الله نكالا مثل قطع السارق ونحوه لا تسقط باظهار التوبة اذ النكال لا يحصل بذلك فما شرع لقطع صاحبه وبتره ومحقه كيف يسقط بعد الاخذ فان هذا الفظ يشعر بان المقصود اصطلام صاحبه واستئصاله واجتياحه وقطع شأفته وما كان بهذه المثابة كان عما يسقط عقوبته ابعد من كل أحد وهذا بين لمن تامله والله اعلم [2]

الجزاء من جنس العمل

والله سبحانه قد أخبر أنه { أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ }التوبة33 وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا والله سبحانه يجزى الانسان بجنس عمله فالجزاء من جنس العمل فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه فان كان قد قدح فيهم ونسب ما يقولونه الى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ابتلى فى عقله وعلمه وظهر من جهله ما عوقب به ومن قال

---

[1](ذكره في تفسير التوبة 40-101 ،الاحزاب58-62 ،ال عمران86-89 وغيرهما)
[2]الصارم المسلول ج: 3 ص: 863-864

عنهم أنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه ومن قال أنهم جهال أظهر الله جهله ففرعون وهامان وقارون لما قالوا عن موسى أنه ساحر كذاب أخبر الله بذلك عنهم فى قوله { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ{23} إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ{24}غافر23-24 وطلب فرعون أهلاكه بالقتل وصار يصفه بالعيوب كقوله {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ }غافر26 وقال {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ }الزخرف52 أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله وأذله غاية الاذلال وأعجزه عن الكلام النافع فلم يبين حجة وفرعون هذه الأمة أبو جهل كان يسمى أبا الحكم ولكن النبى سماه أبا جهل وهو كما سماه رسول الله ابو جهل أهلك به نفسه وأتباعه فى الدنيا والآخرة والذين قالوا عن الرسول أنه أبتر وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره عوقبوا بانبتارهم كما قال تعالى {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }الكوثر3 فلا يوجد من شنأ الرسول الا بتره الله حتى أهل البدع المخالفون لسنته قيل لأبى بكر بن عياش أن بالمسجد قوما يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة فقال من جلس للناس جلس الناس اليه لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم [1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }الكوثر3 فاخبر سبحانه ان شانئه هو الابتر والبتر القطع يقال بتر يبتر بترا وسيف بتار اذا كان قاطعا ماضيا ومنه في الاشتقاق الاكبر تبره تتبيرا اذا اهلكه والتبار الهلاك والخسران وبين سبحانه انه هو الابتر بصيغة الحصر والتوكيد لانهم قالوا ان محمدا ينقطع ذكره لانه لا ولد له فبين الله ان الذي يشنأه هو الابتر لا هو والشنان منه ما هو باطن في القلب لم يظهر ومنه ما يظهر على اللسان وهو اعظم الشنان واشده[2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 172

[2] الصارم المسلول ج: 3 ص: 863-864

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الكافرون
109

رقية محمود الغرايبة

~§§ الكافرون(مكية)6 §§~

مقدمة سورة الكافرون

مدنية و هو غلط ظاهر[1]

قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن

روى الترمذي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن و من قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له ربع القرآن و عن إبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا زلزلت تعدل نصف القرآن و قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن رواهما الترمذي وقال عن كل منهما غريب [2]

التوحيد الذى بعث الله به رسوله قولا وعملا فالتوحيد القولى مثل سورة الإخلاص قل هو الله أحد والتوحيد العملى قل يا أيها الكافرون ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك[3]

ففى قل يا أيها الكافرون عبادة الله وحده وهو دين الاسلام وفي قل هو الله أحد صفة الرحمن وان يقال فيه ويخبر عنه بما يستحقه وهو الايمان هذا هو التوحيد القولي وذلك هو {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة136 وفى الثانية {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران64 قال أبو العالية فى قوله { لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{93}الحجر92-93 قال خلتان يسئل عنهما كل أحد ماذا كنت تعبد وماذا أجبت المرسلين فالأولى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله والثانية تحقيق الشهادة بان محمدا رسول الله[4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 205

[2] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 14

[3] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 368

[4] مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 172

سورة الكافرون1-6

بسم الله الرحمن الرحيم

{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6}

سورتا الإخلاص

وفى الصحيحين عن النبى أنه قال الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلة كفتاه والآية الوسطى(البقرة 136-137) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر بسورتي الإخلاص قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وتارة يقرأ في الأولى بآية الإيمان التي في البقرة {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة136 الآية وفي الثانية بآية الإسلام في آل عمران {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 64 فيقرأ بما فيه ذكر الإيمان والإسلام أو بما فيه ذكر التوحيد والإخلاص[1]

وبهذا يتميز من يعبد الله ممن يعبد غيره وإن كان كل واحد منهما يقر بأن الله رب كل شيء ومليكه ويتميز عباد الله المخلصون الذين لم يعبدوا إلا إياه ممن عبدوا غيره واشركوا به أو نظروا إلى القدر الشامل لكل شيء فسوى بين المؤمنين والكفار كما كان يفعل المشركون من العرب ولهذا قال صلى الله عليه وسلم إنها براءة من الشرك[2]

قطب القرآن

ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه الا الله ومن

---

[1] الصفدية ج: 2 ص: 312 ومجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

[2] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 465

كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملا صالحا بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{83}ص82 -83 وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر42 وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{100}النحل99-100 فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24

واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص85 وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ }النساء48 وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً }الزمر53 فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الآولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء {5} البينة4-5 الآية وهذا حقيقة قول لا اله إلاالله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 وقال {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ }الأعراف59 وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول { اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ } لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هوالامام الذى قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }البقرة124 وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{28}

الزخرف26-28 فهذه الكلمة هى كلمة الاخلاص لله وهى البراءة من كل معبود الا من الخالق الذى فطرنا ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الذى اقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد وقمع به المشركين من كان مشركا فى الأصل ومن الذين كفروا من اهل الكتب وقال فيما رواه الامام أحمد وغيره بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى ومن تشبه بقوم منهم وقد تقدم بعض ما انزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد وقال تعالى ايضا {وَالصَّافَّاتِ صَفّاً }الصافات1 الى قوله {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ }الصافات4 الى قوله { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ{35} وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ{36} بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ{37}الصافات35-37 الى قوله { إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{40} أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ{41} فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ{42} الصافات 40-42الى ما ذكره من قصص الأنبياء فى التوحيد واخلاص الدين لله الى قوله { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ{159} إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{160}الصافات159-160 وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{145} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{146}النساء145 -146 وفى الجملة فهذا الأصل فى سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم وآل حم وآل المر وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر فهو اصل الأصول وقاعدة الدين حتى فى سورتى الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هوالله أحد وهاتان السورتان كان النبى يقرأ بهما فى صلاة التطوع كركعتى الطواف وسنة الفجر وهما متضمنتان للتوحيد فاما قل يا ايها الكافرون فهى متضمنة للتوحيد العملى الأرادى وهو اخلاص الدين لله بالقصد والارادة وهو الذى يتكلم به مشائخ التصوف غالبا واما سورة قل هو الله احد فمتضمنة للتوحيد القولى العملى كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة ان رجلا كان يقرأ قل هو الله احد فى صلاته فقال النبى سلوه لم يفعل ذلك فقال لانها صفة الرحمن فانا احب ان اقرأ بها فقال اخبروه ان اله يحبه ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانة وتعالى الذى ينفى قول اهل التعطيل وقول اهل التمثيل ما صارت به هى الأصل المعتمد فى سائل الذات كما قد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته من تفسير الأحد الصمد كما جاء تفسيره عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وما دل على ذلك من الدلائل لكن المقصود هنا هو التوحيد العملى وهو اخلاص الدين لله وان

كان احد النوعين مرتبطا بالأخر فلا يوجد أحد من اهل التعطيل الجهميةواهل التمثيل المشبهة الا وفيه نوع من الشرك العملى اذ اصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه او بينه وبين المعدومات كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات فى الصفات السلبية التى لا تستلزم مدحا ولا ثبوت كمال اويسوون بينه وبين الناقص من الموجودات فى صفات النقص وكما يسووى اذا اثبتوا هم ومن ضاها هم من الممثلة بينه وبين المخلوقات فى حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدونها فيعدلون بربهم ويجعلون له اندادا ويسوون المخلوقات برب العالملين واليهود كثيرا ما يعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التى يجب تنزيهه عنها وهى من صفات خلقه والنصارى كثيرا ما يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا فى المخلوقات من نعوت الربوبية وصفات الالهية ويجوزون له مالا يصلح الا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا والله سبحانه وتعالى قد امرنا ان نسأله ان يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين وقد

قال النبى اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وفى هذه الأمة من فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبى لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن والحديث فى الصحيحين فاذا كان اصل العمل الدينى هو اخلاص الدين لله وهو ارادة الله وحده فالشئ المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة لكن اكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ }البقرة21 وامثال هذا والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحبوب الذى لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا والمعظم الذى لا يحب لا يكون معبودا ولهذا قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 فبين سبحانه ان المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله انداد وان كانوا يحبونهم كما يحبون الله فالذين آمنوا اشد حبا لله منهم لله ولأوثانهم لأن المؤمنين اعلنم بالله والحب يتبع العلم وأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده اعلم بالله والحب يتبع العلم ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده واولئك جعلوا بعض حبهم لغيره واشركوا بينه وبين الأنداد في الحب ومعلوم أن ذلك اكمل[1]

العبادة أصلها الصدق والإرادة

ان لفظ الايمان انما يستعمل فى بعض الاخبار وهو مأخوذ من الأمن كما ان الاقرار مأخوذ من قر فالمؤمن صاحب امن كما ان المقر صاحب اقرار فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه فاذا كان عالما بأن محمدا رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس بمؤمن به بل كافر به ومن هذا الباب كفر ابليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وغير هؤلاء فان ابليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا بل استكبر عن امر ربه وفرعون وقومه قال الله فيهم {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً }النمل14 وقال له موسى { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ }الإسراء102 وقال تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ }البقرة146 فمجرد علم القلب بالحق ان لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان وان من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه وهذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به وحينئذ فالايمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف الايمان قول وعمل ثم انه اذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:50- 56 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 62 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 62

الظاهرة فان الارادة الجازمة اذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا وانما ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة او لعدم كمال الارادة والا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختيارى فاذا اقر القلب اقرارا تاما بان محمدا رسول الله واحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك لكن ان كان عاجزا لخرس ونحوه او الخوف ونحوه لم يكن قادرا على النطق بهما

و ابو طالب وان كان عالما بان محمدا رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبته لله بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبوبه هو الرئاسة فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بهما زوال دينه الذى يحبه فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يقر بهما فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه ابو بكر الذى قال الله فيه {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل 17-21 وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلى غيرهم لنطق بالشهادتين قطعا فكان حبه حبا مع الله لا حبا لله ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرته لأنه لم يعمله لله والله لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه بخلاف الذى فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى وهذا مما يحقق ان الايمان والتوحيد لابد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلابد من اخلاص الدين لله والدين لا يكون دينا الا بعمل فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد انزل الله عز وجل سورتى الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هو الله احد احداهما فى توحيد القول والعلم و الثانية فى توحيد العمل والارادة فقال فى الأول { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثانى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} الكافرون1-6 فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عباده غير الله واخلاص العبادة لله و العبادة أصلها الصدق والإرادة[1]

إثبات صفات الكمال لله سبحانه وتعالى

فلا بد للعبد أن يثبت لله ما يجب اثباته له من صفات الكمال وينفى عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال ولا بد له فى أحكامه من ان يثبت خلقه وأمره فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ويثبت امره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويؤمن بشرعه وقدره إيمانا خاليا من الزلل وهذا يتضمن التوحيد فى عبادته وحده لا شريك له وهو التوحيد فى القصد والإرادة والعمل والأول يتضمن التوحيد فى العلم والقول كما دل على ذلك سورة قل هو الله احد ودل على الآخر سورة قل ياأيها الكافرون وهما سورتا الإخلاص وبهما كان النبى يقرأ بعد الفاتحة فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك فأما الأول وهو التوحيد فى الصفات فالأصل فى هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله نفيا وإثباتا فيثبت لله ما اثبته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم ان طريقة سلف الامة وأئمتها إثبات ما اثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع اثبات ما اثبته من الصفات من غير الحاد لا فى أسمائه ولا فى آياته فإن الله

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 270-274 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

تعالى ذم الذين يلحدون فى أسمائه وآياته كما قال تعالى {وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }الأعراف180 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }فصلت40 فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات اثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 ففى قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}الشورى11 رد للتشبيه والتمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 رد للإلحاد والتعطيل والله سبحانه بعث رسله باثبات مفصل ونفى مجمل فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى { فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 قال اهل اللغة هل تعلم له سميا أى نظيرا يستحق مثل اسمه ويقال مساميا يساميه وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 مثيلا أو شبيها وقال تعالى { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص3-4 يتميز من يعبد الله ممن يعبد غيره [1]

سورة البراءة ووجه التكرار

للناس فى وجه تكرير البراءة من الجانبين طرق حيث قال { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3}الكافرون2-3 ثم قال { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5}الكافرون 4-5 منها قولان مشهوران ذكرهما كثير من المفسرين هل كرر الكلام للتوكيد أو لنفى الحال و الإستقبال قال أبو الفرج فى تكرار الكلام قولان أحدهما أنه لتأكيد الأمر و حسم أطماعهم فيه قاله الفراء و قد أفعمنا هذا فى سورة الرحمن قال ابن قتيبة التكرير فى سورة الرحمن للتوكيد قال و هذه مذاهب العرب أن التكرير للتوكيد و الإفهام كما أن مذاهبهم الإختصار للتخفيف و الإيجاز لأن إفتنان المتعلم و الخطيب فى الفنون أحسن من إقتصاده فى المقام على فن و احد يقول القائل و الله لا أفعله ثم و الله لا أفعله إذا أراد التوكيد و حسم الأطماع من أن يفعله كما يقول و الله أفعله بإضمار لا إذا أراد الإختصار ويقول للمرسل المستعجل أعجل أعجل و الرامي إرم إرم قال الشاعر كم نعمة كانت لكم و كم و كم وقال الآخر هل سألت جموع كندة يوم و لوا أين أينا وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها و استوحشوا من إعادتها ثانية لأنها كلمة و احدة فغيروا منها حرفا قال ابن قتيبة فلما عدد الله فى هذه السورة إنعامه و ذكر عباده آلاءه و نبههم على قدرته جعل كل كلمة فاصلة بين نعمتين لتفهيمهم النعم و تقريرهم بها كقولك للرجل ألم أنزلك منزلا و كنت طريدا أفتنكر هذ ألم أحج بك و كنت صرورا أفتنكر هذا قلت قال ابن قتيبة تكرار الكلام فى{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ }الكافرون 1 لتكرار الوقت و ذلك أنهم قالوا إن سرك أن ندخل فى دينك عاما فادخل فى ديننا عاما فنزلت هذه السورة قلت هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ و إن كان كلام العرب و غير العرب فإن جميع الأمم يؤكدون إما فى الطلب و إما في الخبر بتكرار الكلام و منه قول النبى صلى الله عليه و سلم و الله لأغزون قريشا ثم و الله لأغزون قريشا ثم و الله لأغزون قريشا ثم قال إن شاء الله ثم لم يغزهم و روى عنه أنه فى غزوة تبوك كان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 3

يقود به حذيفة و يسوق به عمار فخرج بضعة عشر رجلا حتى صعدوا العقبة ركبانا متلثمين و كانوا قد أرادوا الفتك برسول الله صلى الله عليه و سلم فقال لحذيفة قد قد و لعمار سق سق فهذا أكثر لكن ليس فى القرآن من هذا شيء فإن القرآن له شأن إختص به لا يشبهه كلام البشر لا كلام نبى و لا غيره و إن كان نزل بلغة العرب فلا يقدر مخلوق أن يأتى بسورة و لا ببعض سورة مثله فليس فى القرآن تكرار للفظ بعينه عقب الأول قط و إنما فى سورة الرحمن خطابه بذلك بعد كل آية لم يذكر متواليا و هذا النمط أرفع من الأول وكذلك قصص القرآن ليس فيها تكرارا كما ظنه بعضهم و {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ }الكافرون1 ليس فيها لفظ تكرار إلا قوله {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ }الكافرون3 و5 و هو مع الفصل بينهما بجملة و قد شبهوا ما في سورة الرحمن بقول القائل لمن أحسن إليه و تابع عليه بالأيادي و هو ينكرها و يكفرها ألم تك فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا ألم تك عريانا فكسوتك أفتنكر هذا ألم تك خاملا فعرفتك و نحو ذلك و هذا أقرب من التكرار المتوالي كما في اليمين المكررة و كذلك ما يقوله بعضهم إنه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ كقوله فألفى قولها كذبا و مينا فليس فى القرآن من هذا شيء و لا يذكر فيه لفظ زائدا إلا لمعنى زائد و إن كان فى ضمن ذلك التوكيد و ما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ}آل عمران159 و قوله { عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ }المؤمنون40 و قوله { قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ }الأعراف3 فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه فزيادة اللفظ لزيادة المعنى و قوة اللفظ لقوة المعنى و الضم أقوى من الكسر و الكسر أقوى من الفتح و لهذا يقطع على الضم لما هو أقوى مثل الكره و الكره فالكره هو الشيء المكروه كقوله {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ }البقرة216 و الكره المصدر كقوله { طَوْعاً وَكَرْهاً }آل عمران83 و الشيء الذي فى نفسه مكروه أقوى من نفس كراهة الكاره و كذلك الذبح و الذبح فالذبح المذبوح كقوله {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ }الصافات107 و الذبح الفعل و الذبح مذبوح و هو جسد يذبح فهو أكمل من نفس الفعل قال أبو الفرج و القول الثاني أن المعنى {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2}الكافرون 2 فى حالي هذه { وَلَا أَنتُمْ {3}الكافرون 3 فى حالكم هذه { عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} الكافرون3-4 في ما استقبل و كذلك { أَنتُمْ{3} الكافرون3 فنفى عنهم في الحال و الإستقبال و هذا في قوم بأعيانهم أعلمه الله أنهم لا يؤمنون كما ذكرناه عن مقاتل فلا يكون حينئذ تكرار قال و هذا قول ثعلب و الزجاج قلت قد ذكر القولين جماعة لكن منهم من جعل القول الأول قول أكثر أهل المعاني فقالوا و اللفظ للبغوي معنى الآية { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2}الكافرون 2 فى الحال { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} الكافرون 4 فى الإستقبال {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5}الكافرون5 فى الإستقبال و هذا خطاب لمن سبق فى علم الله أنهم لا يؤمنون قال و قال أكثر أهل المعاني نزل بلسان العرب على مجاري خطابهم و من مذاهبهم التكرار إرادة للتوكيد و الإفهام كما أن من مذاهبهم الإختصار للتخفيف و الإيجاز قلت و من المفسرين من لم يذكر غير الثاني منهم المهدوي و إبن عطية قال ابن عطية لما كان قوله { لَا أَعْبُدُ {2}الكافرون 2 محتملا أن يراد به الآن و يبقى المستأنف منتظرا ما يكون فيه من عبادته جاء البيان بقوله {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} الكافرون 4 أي أبدا ما حييت ثم جاء قوله { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} الكافرون 5 الثاني حتما عليهم أنهم لا يؤمنون أبدا كالذين كشف الغيب عنهم كما قيل لنوح { أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ }هود36 أما إن هذا فخطاب لمعينين و قوم نوح قد عموا بذلك قال فهذا معنى الترديد الذي فى السورة و هو بارع الفصاحة و ليس هو بتكرار فقط بل فيه ما ذكرته مع الإبلاغ و التوكيد و زيادة الأمر بيانا و تبريا منهم قلت هذا القول أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على التكرير لكن فيه نقص من جهة أخرى و هو جعلهم هذا خطابا لمعينين

فنقصوا معنى السورة من هذا الوجه وهذا غلط ن فإن قوله قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} خطاب لكل كافر و كان يقرأ بها فى المدينة بعد موت أولئك المعينين و يأمر بها و يقول هي براءة من الشرك فلو كانت خطابا لأولئك المعينين أو لمن علم منهم أنه يموت كافرا لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه و أيضا فأولئك المعينون إن صح أنه إنما خاطبهم فلم يكن إذ ذاك علم أنهم يموتون على الكفر و القول بأنه إنما خاطب بها معينين قول لم يقله من يعتمد عليه و لكن قد قال مقاتل بن سليمان إنها نزلت في أبي جهل و المستهزئين و لم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد و نقل مقاتل و حده مما لا يعتمد عليه باتفاق أهل الحديث كنقل الكلبى و لهذا كان المصنفون فى التفسير من أهل النقل لا يذكرون عن و احد منهما شيئا كمحمد بن جرير و عبدالرحمن بن أبي حاتم و أبي بكر بن المنذر فضلا عن مثل أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه و قد ذكر غيره هذا عن قريش مطلقا كما رواه عبد بن حميد عن و هب بن منبه قال قالت قريش للنبى صلى الله عليه و سلم إن سرك أن ندخل فى دينك عاما و تدخل فى ديننا عاما فنزلت { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}الكافرون 1 حتى ختمها و عن ابن عباس قالت قريش يا محمد لو إستلمت آلهتنا لعبدنا لهك فنزلت السورة و عن قتادة قال أمره الله أن ينادي الكفار فناداهم بقوله { يَا أَيُّهَا }الكافرون 1 وروى ابن أبي حاتم عن و هب بن منبه قال كفار قريش فذكره و قال عكرمة برأه الله بهذه السورة من عبدة جميع الأوثان و دين جميع الكفار و قال قتادة أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين فتبرأ منهم و روى قتادة عن زرارة بن أوفى كانت تسمى المقشقشة يقال قشقش فلان إذا برىء من مرضه فهي تبرىء صاحبها من الشرك و بهذا نعتها النبى صلى الله عليه و سلم في الحديث المعروف فى المسند و الترمذي من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن فروة بن نوفل عن أبيه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال له مجيء ما جاء بك قال جئت يا رسول الله لتعلمني شيئا أقوله عند منامي قال إذا أخذت مضجعك فاقرأ { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}الكافرون 1 ثم نم على

خاتمتها فإنها براءة من الشرك رواه غير واحد عن أبى إسحاق و كان تارة يسنده و تارة يرسله رواه عنه زهير و إسرائيل مسندا و رواه عنه شعبة و لم يذكر عن أبيه و قال عن أبى إسحاق عن رجل عن فروة بن نوفل و لم يقل عن أبيه قال الترمذي و حديث زهير أشبه و أصح من حديث شعبة قال و قد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه فرواه عبدالرحمن بن نوفل عن أبيه عن النبى صلى الله عليه و سلم و عبدالرحمن بن نوفل هو أخو فروة بن نوفل قلت و قد رواه عن أبى إسحاق إسماعيل بن أبى خالد قال جاء رجل من أشجع إلى النبى صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله علمني كلاما أقوله عند منامي قال إنك لنا ظئر إقرأ { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}الكافرون1 عند منامك فإنها براءة من الشرك فقد أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم واحد من المسلمين أن يقرأها و أخبره أنها براءة من الشرك فلو كان الخطاب لمن يموت على الشرك كانت براءة من دين اولئك فقط لم تكن براءة من الشرك الذي يسلم صاحبه فيما بعد و معلوم أن المقصود منها أن تكون براءة من كل شرك إعتقادي و عملي وقوله { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}الكافرون6 خطاب لكل كافر و إن اسلم فيما بعد فدينه قبل الإسلام له كان و المؤمنون بريئون منه و إن غفره الله له بالتوبة منه كما قال لنبيه {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }الشعراء216 فإنه بريء من معاصي أصحابه و إن تابوا منها و هذا كقوله {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41 و روى ابن أبى حاتم حدثنا أبى ثنا محمد بن موسى الجرشي ثنا أبو خلف عبدالله بن عيسى ثنا داود بن ابى هند عن عكرمة عن ابن عباس أن قريشا دعوا رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل فيهم و يزوجوه ما أراد من النساء و يطأوا عقبه أي يسودوه فقالوا هذا لك عندنا يا محمد و كف عن شتم آلهتنا فلا

تذكرها بسوء فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة و احدة و هي لك و لنا فيها صلاح قال ما هي قالوا تعبد آلهتنا سنة اللات و العزى و نعبد إلهك سنة قال حتى أنظر ما يأتيني من ربى فجاءه الوحي من الله من اللوح المحفوظ { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} الْكَافِرُونَ1 إلى آخرها و أنزل الله عليه { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ{64} وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{65} بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ{66}الزمر64-66 و قوله { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ{64} الزمر64 خطاب لكل من عبد غير الله و إن كان قد قدر له أن يتوب فيما بعد و كذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله و قوله فى هذا الحديث حتى أنظر ما يأتيني من ربى قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين بالتى هي أحسن ليجعل حجته أن الذي عليه طاعته قد منع من ذلك فيؤخر الجواب حتى يستأمره و إن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوه لا سبيل إليه و قد تخطب إلى الرجل إبنته فيقول حتى أشاور أمها و هو يريد أن لا يزوجها بذلك و يعلم أن أمها لا تشير به و كذلك قد يقول النائب حتى أشاور السلطان فليس فى مثل هذا الجواب تردد و لا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك و قد كان جماعة من قريش من الذين يأمرونه و أصحابه أن يعبدوا غير الله و يقاتلونهم و يعادونهم عداوة عظيمة على ذلك ثم تابوا و أسلموا و قرأوا هذه السورة و من النقلة من يعين ناسا غير الذين عينهم غيره منهم من يذكر أبا جهل و طائفة و منهم من يذكر عتبة بن ربيعة و طائفة و منهم من يذكر الوليد بن مغيرة و طائفة و منهم من يقول طلبوا أن يعبدوا الله معه عاما و يعبد آلهتهم معهم عاما و منهم من يقول طلبوا أن يستلم آلهتهم و منهم من يقول طلبوا الإشتراك كما روى ابن أبى حاتم و غيره عن ابن إسحاق قال حدثني سعيد بن ميناء مولى أبى البخترى قال لقى الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل و الأسود بن المطلب و أمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا هلم فلنعبد ما تعبد و تعبد ما نعبد و لنشترك نحن و أنت فى أمرنا كله فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه و أخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا و أخذت بحظك منه فأنزل الله السورة و هذا منقول عن عبيد بن عمير و فيه أن القائل له عتبة و أمية فهذه الروايات متطابقة على معنى و احد و هو أنهم طلبوا منه أن يدخل فى شيء من دينهم و يدخلوا في شيء من دينه ثم إن كانت كلها صحيحة فقد طلب منه تارة هذا و تارة هذا و قوم هذا و قوم هذا و على كل تقدير فالخطاب للمشركين كلهم من مضى و من يأتى إلى يوم القيامة وقد أمره الله بالبراءة من كل معبود سواه و هذه ملة إبراهيم الخليل و هو مبعوث بملته قال الله تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ {28} الزخرف26-28 و قال الخليل أيضا { يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{79}الأنعام78- 79 و قال {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ }الممتحنة4 و قال لنبيه {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41 فقد أمره الله أن يتبرا من عمل كل من كذبه و تبريه هذا يتناول المشركين و أهل الكتاب وقد ذكر المهدوي هذا القول و ذكر معه قولين آخرين فقال الألف و اللام ترجع إلى معهود و إن كانت للجنس حيث كانت صفة لأن لامها مخاطبة لمن سبق فى علم الله أن يموت كافرا فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم و تكرير ما كرر فيها ليس بتكرير فى المعنى و لا في اللفظ سوى موضع و احد منها فإنه تكرير في اللفظ دون المعنى بل معنى { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} الكافرون2 فى الحال { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} الكافرون3 فى الحال { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا

عَبَدتُّمْ{4}الكافرون4 فى الإستقبال { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} الكافرون5 في الإستقبال قال فقد اختلف اللفظ و المعنى فى قوله { لَا أَعْبُدُ {2}الكافرون2 و ما بعده { وَلَا أَنَا {4} الكافرون4 و تكرر { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} الكافرون3 في اللفظ دون المعنى قال و قيل إن معنى الأول و لا أنتم عابدون ما عبدت و معنى الثاني و لا أنتم عابدون ما أعبد فعدل عن لفظ عبدت للإشعار بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر و أكثر ما يأتي ذلك فى إخبار الله تعالى ويجوز أن تكون ما و الفعل مصدرا و قيل إن معنى الآيات و تقديرها قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام الذي تعبدون و لا أنتم عابدون الذي أعبده لاشراككم به وإتخاذكم معه الأصنام فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون لأنكم تعبدونه مشركين به فأنا لا أعبد ما عبدتم أي مثل عبادتكم فهو في الثاني مصدر و كذلك { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} الكافرون5 هو فى الثانى مصدر أيضا معناه و لا أنتم عابدون مثل عبادتى التى هي توحيد قلت القول الثالث هو في معنى الثانى لكن جعل قوله { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } معنيين أحدهما بمعنى ما عبدت و الآخر بمعنى ما أعبد ليطابق قوله لهم { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} فلما تبرأ من أن يعبد في الحال و الإستقبال ما يعبدونه فى الماضي و الحال كذلك برأهم من عبادة ما يعبد فى الحال و الإستقبال لكن العبارة عنهم و قعت بلفظ الماضي قال هؤلاء و إنما لم يقل فى حقه ما عبدت للإشعار بأن ما أعبده في الماضي هو الذي أعبده فى المستقبل قلت أصحاب هذا القول أرادوا المطابقة كما تقدم لكن إذا أريد بقوله ما عبدتم ما أريد بقوله ما أعبد فى أحد الموضعين الماضي كان التقدير على ما ذكروه لا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم فى الماضي فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبدوه فى الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل و كذلك إذا قيل { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } أي في الماضي فسواء أريد بما يعبدون الحال أو الإستقبال إنما نفى عبادة ما عبدوه فى الماضي و هذا أنقص لمعنى الآية و كيف يتبرأ فى المستقبل من عبادة ما عبدوه فى الماضي فقط و كذلك هم وإن قيل فى المستقبل قد يعبدون الله بالإنتقال عن الكفر فهو فى الحال و الإستقبال لا يعبد ما عبدوه قيل فعلى هذا لا يقال لهؤلاء و لا أنتم عابدون في المستقبل ما عبدت في الماضي بل قد يعبدون فى المستقبل إذا انتقلوا ربه الذي عبده فيما مضى و إن قيل قول هؤلاء هو القول الثاني لا أعبد فى الحال ما تعبدون فى الحال و لا أعبد فى المستقبل ما تعبدون فى المستقبل قيل و لفظ الآية { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} ليس لفظها و لا أنا عابد ما تعبدون فقوله {مَّا عَبَدتُّمْ{4} إن أريد به الماضى الذي أراده هؤلاء فسد المعنى و إن أريد به المستقبل بطل ما ذكروه من أن المضارع بمعنى الماضي فى قوله { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } فإن الماضي هنا بمعنى المضارع فإذا كان المضارع مطابقا له بقي مضارعا لم ينقل إلى الماضي فيكون عكس المقصود و القول الرابع الذي ذكره قول من جعل ما مصدرية في الجملة الثانية دون الأخرى و هذا أيضا ليس فى الكلام ما يدل على الفرق بينهما و إذا جعلت فى الجمل كلها مصدرية كان أقرب إلى الصواب مع أن هذا المعنى الذي تدل عليه ما المصدرية حاصل بقوله ما فإنه لم يقل { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } بل قال { مَا أَعْبُدُ } ولفظ ما يدل على الصفة بخلاف من فإنه يدل على العين كقوله{ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء3 أي الطيب {وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا }الشمس5 أي و بانيها و نظيره قوله {أَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي }البقرة133 و لم يقل من تعبدون من بعدي و هذا نظير قوله {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ }الكافرون5 سواء فالمعنى لا أعبد معبودكم و لا أنتم عابدون معبودي فقوله {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ }الكافرون5 يتناول شركهم فإنه ليس بعبادة لله فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه فإذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له و إن دعوه و

صلوا له و أيضا فما عبدوا ما يعبده و هو الموصوف بأنه معبود له على جهة الإختصاص بل هذا يتناول عبادته وحده و يتناول الرب الذي أخبر به بما له من الأسماء و الصفات فمن كذب به فى بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبده من كل و جه و أيضا فالشرائع قد تتنوع فى العبادات فيكون المعبود واحدا و إن لم تكن العبادة مثل العبادة و هؤلاء لا يتبرأ منهم فكل من عبد الله مخلصا له الدين فهو مسلم فى كل و قت و لكن عبادته لا تكون إلا بما شرعه فلو قال لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي فقد يظن أنه تدخل فيه البراءة من كل عبادة تخالف صورتها صورة عبادته و إنما البراءة من المعبود و عبادته إذا تبين هذا فنقول القرآن { تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }فصلت42 و { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ }هود1 و لو أن رجلا من بني آدم له علم أو حكمة أو خطبة أو قصيدة أو مصنف فهذب ألفاظ ذلك و أتى فيه بمثل هذا التغاير لعلم أنه قصد فى ذلك حكمة و أنه لم يخالف بين الألفاظ مع إتحاد المعنى سدى فكيف بكلام رب العالمين و أحكم الحاكمين لا سيما و قد قال فيه {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }الإسراء88 فنقول الفعل المضارع هو في اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضي فيعم الحاضر و المستقبل كما قال سيبوية و بنوه لما مضى من الزمان و لما هو دائم لم ينقطع و لما لم يأت بمعنى الماضى و المضارع و فعل الأمر فجعل المضارع لما هو من الزمان دائما لم ينقطع و قد يتناول الحاضر و المستقبل فقوله { لَا أَعْبُدُ {2} الكافرون 2 يتناول نفي عبادته لمعبودهم فى الزمان الحاضر و الزمان المستقبل وقوله { مَا تَعْبُدُونَ{2} الكافرون2 يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل كلاهما مضارع و قال في الجملة الثانية عن نفسه {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4}الكافرون4 فلم يقل لا أعبد بل قال { وَلَا أَنَا عَابِدٌ {4}الكافرون4 و لم يقل { مَا تَعْبُدُونَ{2} الكافرون2 بل قال {مَّا عَبَدتُّمْ{4}الكافرون4 فاللفظ فى فعله و فعلهم مغاير للفظ فى الجملة الأولى و النفى بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى فإنه قال { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4}الكافرون4 بصيغة الماضى فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي لأن المشركين يعبدون آلهة شتى و ليس معبودهم فى كل و قت هو المعبود في الوقت الآخر كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى فقوله { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} الكافرون4 براءة من كل ما عبدوه فى الأزمنة الماضية كما تبرأ أولا مما عبدوه فى الحال و الإستقبال فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون و الكافرون فى كل زمان ماض و حاضر و مستقبل و قوله أولا { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} لا يتناول هذا كله و قوله {وَلَا أَنَا عَابِدٌ {4} إسم فاعل قد عمل عمل الفعل ليس مضافا فهو يتناول الحال و الإستقبال أيضا لكنه جملة إسمية و النفى بما بعد الفعل فيه زيادة معنى كما تقول ما أفعل هذا و ما أنا بفاعله و قولك ما هو بفاعل هذا أبدا أبلغ من قولك ما يفعله أبدا فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها بخلاف قولك ما يفعل هذا فإنه لا ينفي إمكانه و جوازه منه و لا يدل على أنه لا يصلح له و لا ينبغي له بخلاف قوله ما هو فاعلا و ما هو بفاعل كما في قوله { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ }النحل71 و قوله { مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ }إبراهيم22 و قوله {وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }البقرة74 {وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ }النمل81 { وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ }فاطر22 { وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ }البقرة102 و لا يقال الجملة الإسمية ترك الثبوت و نفى ذلك لا يقتضي نفي العارض فإن هذه الجملة فى معنى الفعلية نفي لكونها عملت عمل الفعل لكنها دلت على إتصاف الذات بهذا فنفت عن الذات أن يعرض لها هذا الفعل تنزيها للذات و نفيا لقبولها لذلك فالأول نفي الفعل في الماضي و المستقبل و الثاني نفى قبوله فى الماضي مع الحاضر و المستقبل فقوله { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4}الكافرون4 أي نفسي لا تقبل و لا يصلح

لها أن تعبد ما عبدتموه قط و لو كنتم عبدتموه فى الماضي فقط فأي معبود عبدتموه في و قت فأنا لا أقبل أن أعبده فى و قت من الأوقات ففي هذا من عموم عبادتهم فى الماضي و المستقبل و من قوة براءته و إمتناعه و عدم قبوله لهذه العبادة فى جميع الأزمان ما ليس فى الجملة الأولى تلك تضمنت نفي الفعل فى الزمان غير الماضي و هذه تضمنت نفي إمكانه و قبوله لما كان معبودا لهم و لو فى بعض الزمان الماضي فقط و التقدير ما عبدتموه و لو فى بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني و لا يسوغ لى أن أعبده أبدا و لكن لم ينف إلا ما يكون منه فى الحاضر و المستقبل لأن المقصود براءته هو فى الحال و الإستقبال و هذه السورة يؤمر بها كل مسلم و إن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها فهو يتبرأ فى الحاضر و المستقبل مما يعبده المشركون فى أي زمان كان و ينفى جواز عبادته لمعبودهم و يبين أن مثل هذا لا يكون و لا يصلح و لا يسوغ فهو ينفى جوازه شرعا و وقوعا فإن مثل هذا الكلام لا يقال إلا فيما يستقبح من الأفعال كمن دعي إلى ظلم أو فاحشة فقال أنا أفعل هذا ما أنا بفاعل هذا أبدا فهو أبلغ من قوله لا أفعله أبدا و هذا كقوله و {وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ }البقرة145 فهو يتضمن نفى الفعل بغضا فيه و كراهة له بخلاف قوله لا أفعل فقد يتركه الإنسان و هو يحبه لغرض آخر فإذا قال ما أنا عابد ما عبدتم دل على البغض و الكراهة و المقت لمعبودهم و لعبادتهم إياه و هذه هى البراءة و لهذا تستعمل فى ضد الولاية فيقال تول فلانا و تبرأ من فلان كما قال تعالى { إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ }الممتحنة4 الآية و أما قوله عن الكفار {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ }الكافرون3 فهو خطاب لجنس الكفار و إن أسلموا فيما بعد فهو خطاب لهم ما داوموا كفارا فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك فإنه حينئذ مؤمنون لا كافرون و إن كانوا منافقين فهم كافرون فى الباطن فيتناولهم الخطاب و هذا كما يقال قل يا أيها المحاربون و المخاصمون و المقاتلون و المعادون فهو خطاب لهم ما داموا متصفين بهذه الصفة و ما دام الكافر كافرا فإنه لا يعبد الله و إنما يعبد الشيطان سواء كان متظاهرا أو غير متظاهر به كاليهود فإن اليهود لا يعبدون الله و إنما يعبدون الشيطان لأن عبادة الله إنما تكون بما شرع و أمر و هم و إن زعموا أنهم يعبدونه فتلك الأعمال المبدلة و المنهى عنها هو يكرهها و يبغضها و ينهى عنها فليست عبادة فكل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافرا و الفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع فهو ما دام كافرا لا يعبد معبود محمد صلى الله عليه و سلم لا في الحاضر و لا فى المستقبل ولم يقل عنهم و لا تعبدون ما أعبد بل ذكر الجملة الإسمية ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد لا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة إذ لا تكون عابدته إلا بان تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد و من كان كافرا بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ و احد بجملة إسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله لم تقتصر على نفي الفعل و لم يحتج أن يقول فيهم و لا أنتم عابدون ما عبدت كما قال فى نفسه { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} الكافرون4 لوجهين أحدهما أن كل مؤمن فهو مأمور بقراءة هذه السورة و منهم من كان معبوده غير الله فلو قال و لا أنتم عابدون ما عبدت لقالوا بل نحن نعبد ما كنت تعبد لما كنت مشركا بخلاف ما إذا قال و لا أنتم عابدون ما أعبده فى هذا الوقت و لم يقل ما أنا عابد له إذ نفسه قد لا تكون عابدة له مطلقا و قد يجوز أن يعبد الواحد من الناس غير الله فى المستقبل فلا يكون من لم يعبد ما يعبده فى المستقبل مذموما بخلاف المؤمن الذي يخاطب بهذه السورة غيره فإنه حين يقولها ما يعبد إلا الله فهو يقول للكفار و لا أنتم عابدون ما أعبده الآن و ذكر النفي عن الكفار فى الجملتين لتقارب كل جملة جملة فلما قال { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} الكافرون2 فنفى الفعل قال { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} الكافرون3 ثم لما زاد النفى بنفى جواز ذلك و براءة النفس منه ذكر ما يدل على كراهته

له و قبحه و نفى أن يعبد شيئا مما عبدوه و لو فى بعض الزمان قال { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} الكافرون5 بل أنتم بريئون من عبادة ما أعبده فليس لبراءتى و كمال براءتى و بعدي من معبودكم و كمال قربى إلى الله فى عبادتى له وحده لا شريك له يكون لكم نصيب من هذه العبادة بل أنتم أيضا فى هذه الحال لا تعبدون ما أعبد لا فى الحال الأولى و لا في الثانية و لو إقتصر فى تبريهم من عبادة الله على الجملة الأولى لم يكن فيها تبرئة لهم فى هذه الحال الثانية فبرأهم من معبوده حين البراءة الأولى الخاصة و حين البراءة الثانية العامة القاطعة و هم لم يختلف حالهم فى الحالين بل هم فيهما لا يعبدون ما يعبد فلم يكن فى تغيير العبارة فائدة و إنما غيرت العبارة فى حقه و حق المؤمنين لتغيير المعنيين و الإنسان يقوى يقينه و إخلاصه و توحيده و براءته من الشرك و أهله و بغضه لما يعبدون و لعبادتهم فرفع درجته فى ذلك و هو فى ذلك يقول للكفار لا تعبدون ما أعبد في هذه الحال سواء كانوا هم قد زاد كفرهم و بغضهم له أو لم يزد فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم و يخبرهم أنهم برآء منه و تبريه منهم إنشاء ينشئه كما ينشيء المتكلم بالشهادتين و هذا يزيد و ينقص و يقوى و يضعف و أما هم فهو يخبر ببراءتهم منه فى هذه الحال لا ينشيء شيئا لم يكن فيهم فخطاب المؤمن عن حالهم خبر عن حالهم و الخبر مطابق للمخبر عنه فلم يتغير لفظ خبره عنهم إذا كانوا فى كل و قت من أوقات عبادته لله لا يعبدون ما يعبد فهذا اللفظ الخبري مطابق لحالهم في جميع الأقات زادوا أو نقصوا و لا يجوز للمؤمن أن ينشيء زيادة فى كفرهم فإن ذلك محرم بل هو مأمور بدعائهم إلى الإيمان و ليس له أن ينقصهم فى خبره عما هم متصفون به فلم يكن فى الإخبار عن حالهم زيادة فيما هم عليه و لا نقص فلم يغير لفظ الخبر فى الحالين بلفظ واحد و أما المؤمن نفسه فهو مأمور بأن ينشيء قوة الإخلاص لله وحده و عبادته وحده و البراءة من كل معبود سواه و عبادته و براءته منه و من عابديه وقوله { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} الكافرون2 وإن كان لفظها خبرا ففيها معنى الإنشاء كسائر ألفاظ الإنشاءات كقوله أشهد أن لا إله إلا الله قوله { إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي {27} الزخرف26-27 و قوله {وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }الأنعام19 فكل هذه الأقوال فيها معنى الإنشاء لها ينشئه المؤمن فى نفسه من زيادة البراءة من الشرك و هي المقشقشة التى تقشقش من الشرك كما يقشقش المريض من المرض فإن الشرك و الكفر أعظم أمراض القلوب فأمر المؤمن بقول يوجب فى قلبه من البراءة من الشرك ما لم يكن فى قلبه قبل ذلك و كلما قاله إزداد براءة من الشرك و قلبه شفاء من المرض و إن كان الكفرة المخاطبون لا يزدادون بالأخبار عنهم إلا كفرا فالجمل الخبرية تطابق المخبر عنه و الإنشاء يوجب إحداث ما لم يكن فقيل { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2}الكافرون1-2 أي أنا ممتنع من هذا تارك له ثم قال { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} الكافرون4 أي أنا برىء من هذا متنزه عنه مزك لنفسي منه فإن الشرك اعظم ما تنجس به النفس و أعظم تزكية النفس و تطهيرها تزكيتها منه و تطهيرها منه فما أنا عابد قط ما عبدتم فى و قت من الأوقات وأنتم مع ذلك ما أنتم عابدون ما أعبد بل أنتم بريئون مما أعبد و أنا برىء مما تعبدون مأمور بالبراءة منه و طالب زيادة البراءة منه و مجتهد فى ذلك و أنا أخبر عنكم بأنكم بريئون مما أعبد إما لكونكم تأمرون بذلك و إما لكونكم تعبدونه فلا أخبر به فإنه كذب وإما لكونكم تجتهدون فى البراءة و تبالغون فيها فبها تختلف فيه أحوالكم و أنا لا يسوغ لي أن أذكر ما يزيل براءتكم و لا أكذب عليكم فإنكم تنقصون منها إذا تبرأت بل التبري منها داع و باعث لمن له عقل أن ينظر في سبب هذه البراءة لا سيما فى حق الرسول الذي خوطب أولا بقوله { قُلْ }الكافرون1 فلينظر العاقل فى سبب براءتى من الشرك و ما أنتم عليه و إختيارى به عداوتكم و الصبر على أذاكم و احتمالي هذه المكاره العظيمة بعد ما كنتم تعظمونى غاية التعظيم و تصفونى بالأمانة و تسموني الأمين و تفضلونى على غيري و نسبي فيكم أفضل

نسب و تعرفون ما جعل الله في من العقل و المعرفة و مكارم الأخلاق و حسن المقاصد و طلب العدل و الإحسان و أني لا أختار لأحد منكم سوءا و لا أريد أن أصيب أحدا بشر فإختياري للبراءة مما تعبدون و إظهاري لسبهم و شتمهم أهو سدى ليس له موجب أوجبه فانظروا فى ذلك ففي السورة دعاء و بعث للكفار إلى طلب الحق و معرفته مع ما فيها من كمال البراءة منهم و معانيها كثيرة شريفة يطول وصفها و قوله{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } الْكَافِرُونَ 1 يتناول كل كافر فهو لا يعبد ما يعبده أحد من الكفار و لا مشركي العرب و لا غيرهم من المشركين و الكفار أهل الكتاب لا اليهود لا النصارى و لا غيرهم من أصناف الكفار و ذلك أنه قال { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} فذكر لفظ ما و لم يقل من تعبدون و { مَا{2} تدل على الصفة كما تقدم وما ذكره المهدوي و غيره من أنه قال { مَا أَعْبُدُ{3} و لم يقل من أعبد يقابل به { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} الذي يراد به الأصنام فضعيف جدا يغير اللغة و يخص عموم القرآن و هوعموم مقصود و يزيل المعنى الذي به تعلقت هذه البراءة فإن ما فى اللغة إما لما لا يعلم و لصفات ما يعلم كما في قوله { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم }النساء3 { وَمَا سَوَّاهَا }الشمس7 {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3 و فى التسبيح المأثور أنه يقال عند سماع الرعد سبحان ما سبحت له و مثله كثير فقوله { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3}الكافرون3 جار على أصل اللغة و أيضا فقوله { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} الكافرون2 خطاب للكفار مطلقا فهو لا يعبد الملائكة و لا غير ذلك مما عبد من دون الله و إن كان ما عبد أهل العلم و العقل فعبر عن ذواتهم ب من فتخصيص البراءة من الشرك بشرك مشركي العرب غلط عظيم و إنما هي براءة من كل شرك وكون الرب يتصف بما تتصف به الأصنام من عدم العلم ما لا يجوز عليه و لا تصح المقابلة فى مثل ذلك بل المقصود ذكر الصفات و الإخبار بمعبود الرسول و المؤمنين ليتبرأ من معبودهم و يبرئهم من معبوده وإذا قال اليهود نحن نقصد عبادة الله كانوا كاذبين سواء عرفوا أنهم كاذبون أو لم يعرفوا كما يقول النصارى إنا نعبد الله و حده و ما نحن بمشركين و هم كاذبون لأنهم لو أرادوا عبادته لعبدوه بما أمر به و هو الشرع لا بالمنسوخ المبدل و أيضا فالرب الذي يزعمون أنهم يقصدون عبادته هو عندهم رب لم ينزل الإنجيل و لا القرآن و لا أرسل المسيح و لا محمدا بل هو عند بعضهم فقير و عند بعضهم بخيل و عند بعضهم عاجز و عند بعضهم لا يقدر أن يغير ما شرعه و عند جميعهم أنه أيد الكاذبين المفترين عليه الذين يزعمون أنهم رسله و ليسوا رسله بل هم كاذبون سحرة قد أيدهم و نصرهم و نصر أتباعهم على أوليائه المؤمنين لأنهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس فالرب الذي يعبدونه هو دائما ينصر أعداءه فهم يعبدون هذا الرب والرسول المؤمنون لا يعبدون هذا المعبود الذي تعبده اليهود فهو منزه عما و صفت به اليهود معبودها من جهة كونه معبودا لهم منزه عن هذه الإضافة فليس هو معبودا لليهود و إنما فى جبلاتهم صفات ليست هي صفاته زينها لهم الشيطان فهم يقصدون عبادة المتصف بتلك الصفات و إنما هو الشيطان فالرسول و المؤمنون لا يعبدون شيئا تعبده اليهود و إن كانوا يعبدون من يعبدونه و هذا مما يظهر فائدة ما ذكرنا وعلى هذا فقوله {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }الكافرون6 خطاب لجميع الكفار كما دلت عليه الآية و بهذا يظهر خطأ من قال إنه خطاب للمشركين و النصارى دون اليهود كما فى قول ابن زيد {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }الكافرون6 قال للمشركين و النصارى و اليهود لا يعبدون إلا الله و لا يشركون إلا أنهم يكفرون ببعض الأنبياء بما جاؤا به من عند الله و يكفرون برسول الله صلى الله عليه و سلم و بما جاء به و قتلوا طوائف الأنبياء ظلما و عدوانا قال إلا العصابة التى تقول حيث خرج بخت نصر و قيل من سموا عزيرا ابن الله و لم يعبدوه و لم يفعلوا كما فعلت النصارى قالت المسيح ابن الله و عبدته فهذا الذي ذكره من أن اليهود لا تشرك كما أشركت العرب و النصاري صحيح لكنهم مع هذا لا يعبدون الله بل يستكبرون عن عبادته و

يعبدون الشيطان لا يعبدون الله و من قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطا قبيحا فكل من عبد الله كان سعيدا من أهل الجنة و كان من عباد الله الصالحين قال تعالى {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{61}يس60 -61 و فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن إنك تأتى قوما هم أهل كتاب فأول ما ندعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و فى رواية فإدعهم إلى عبادة الله فإذا عرفوا الله فأعلمهم فلا يعبد إلا الله بعد أن أرسل محمدا و عرفت رسالته و بلغت و لهذا إتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة و لو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم فإن الله لا يظلم أحدا و قبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به فأما من ترك عبادته بما أمر به و اتبع هواه فهو لا يعبد الله إنما يعبد الشيطان و يعبد الطاغوت و قد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت و أنه لعنهم و غضب عليهم {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ }المائدة60 و هو إسم جنس يدخل فيه الشيطان و الوثن و الكهان و الدرهم و الدينار و غير ذلك و قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ}النساء51 و قال { نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{101} وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ {102} البقرة101-102 الآية وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى و كفرهم أغلظ و هم مغضوب عليهم و لهذا قيل إنهم تحت النصارى فى النار و اليهود إن لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه و على أمه بما هو أعظم من كفر النصارى و لهذا جعل الله النصارى فوقهم إلى يوم القيامة فالنصارى مشركون يعبدون الله و يشركون به و أما اليهود فلا يعبدون الله بل هم معطلون لعبادته مستكبرون عنها كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم إستكبروا ففريقا كذبوا و فريقا يقتلون بل هم متبعون أهواءهم عابدون للشيطان فالنبى و المؤمنون لا يعبدون ما تعبده اليهود و هم و إن وصفوا الله ببعض ما يستحقه فهم يصفونه بما هو منزه عنه و ليس فى قلوبهم عبادة له وحده فإن ذلك لا يكون إلا لمن عبده بما أمره به و السورة لم يقل فيها يا أيها المشركون حتى يقال فيها إنها إنما تناولت من أشرك بل قال { يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ }الكافرون1 فتناولت كل كافر سواء كان ممن يظهر الشرك أو كان فيه تعطيل لما يستحقه الله و إستكبار عن عبادته و التعطيل شر من الشرك و كل معطل فلابد أن يكون مشركا و النصارى مع شركهم لهم عبادات كثيرة و اليهود من أقل الأمم عبادة و أبعدهم عن العبادة لله و حده لكن قد يعرفون ما لا تعرفه النصارى لكن بلا عبادة و عمل بالعلم فهم مغضوب عليهم و أولئك ضالون و كلاهما قد برأ الله منهم و رسوله و المؤمنين و في هذه الأمة من يعرف ما لا تعرفه اليهود و النصارى بلا عمل بالعلم ففيهم شبه كما قال سفيان بن عيينة من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود و من فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى بل قد قال أبو هريرة ما أقرب الليلة من البارحة أنتم أشبه الناس ببنى إسرائيل بل فى الحديث الصحيح لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا اليهود و النصارى قال فمن و فى رواية فارس و الروم قل و من الناس إلا أولئك و قال إفترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة و افترقت النصارى على ثنتين و سبعين فرقة و ستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة و قد بسط هذا فى غير هذا الموضع و بين فيه حال الفرقة الناجية الذين هم على مثل ما كان عليه النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه و مما يوضح ما تقدم أن قوله { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} الكافرون2-3 معناه المعبود و لكن هو لفظ مطلق يتناول الواحد و الكثير و المذكر و المؤنث فهو يتناول كل معبود لهم و المعبود هو الإله فكأنه قال لا أعبد إلهكم و لا تعبدون إلهي كما ذكر الله فى قصة يعقوب قال تعالى {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ

لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة133 و اسم الإله و المعبود يتضمن إضافة إلى العابد و قال {وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ }البقرة133 هو الذي يعبده هؤلاء صلوات الله و سلامه عليهم و يألهونه و إنما يعبده من كان على ملتهم كما قال يوسف { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {37} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ {38}يوسف37-38إلى قوله {ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }يوسف40 فتبين أن ملة آبائه هي عبادة الله و هي ملة إبراهيم و قد قال تعالى {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ }البقرة130 إلى قوله{ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }البقرة132 وإذا كان كذلك فاليهود و النصارى ليسوا على ملة إبراهيم و إذا لم يكونوا على ملته لم يكونوا يعبدون إله إبراهيم فإن من عبد إله إبراهيم كان على ملته قال تعالى {وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }البقرة135 إلى قوله {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }البقرة137 فقوله { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً }البقرة135 يبين أن ما عليه اليهود و النصارى ينافي ملة إبراهيم و هذا بعد مبعث محمد مما لا ريب فيه فإنه هو الذي بعث بملة إبراهيم و الطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهم من التبديل قال تعالى{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ }آل عمران68 و قال {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً }الأنعام161 الآية و قال {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً }النحل123 و قوله {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ }البقرة130 يبين أن كل من رغب عنها فقد سفه نفسه و فيه من جهة الإعراب و المعنى قولان أحدهما و هو قول الفراء و غيره من نحاة الكوفة و إختيار ابن قتيبة و غيره و هو معنى قول أكثر السلف أن النفس هي التى سفهت فإن { سَفِهَ }البقرة130 فعل لازم لا يتعدى لكن المعنى إلا من كان سفيها فجعل الفعل له و نصب النفس على التمييز لا النكرة كقوله و {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً }مريم4 و أما الكوفيون فعرفوا هذا و هذا قال الفراء نصب النفس على التشبيه بالتفسير كما يقال ضقت بالأمر ذرعا معناه ضاق ذرعى به و مثله {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً }مريم4 أي إشتعل الشيب فى الرأس قال و منه قوله ألم فلان رأسه و وجع بطنه و رشد أمره و كان الأصل سفهت نفس زيد و رشد أمره فلما حول الفعل إلى زيد إنتصب ما بعده على التمييز فهذه شواهد عرفها الفراء من كلام العرب و مثله قوله غبن فلان رأيه و بطر عيشه و مثل هذا قوله{ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا }القصص58 أي بطرت نفس المعيشة و هذا معنى قول يمان بن رباب حمق رأيه و نفسه و هو معنى قول ابن السائب ضل من قبل نفسه و قول أبى روق عجز رأيه عن نفسه و البصريون لم يعرفوا ذلك فمنهم من قال جهل نفسه كما قاله ابن كيسان و الزجاج قال لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعلم خالقها و هذا الذي قالوه ضعيف فإنه إن قيل إن المعنى صحيح فهو إنما قال سفه و سفه فعل لازم ليس بمتعد و جهل فعل متعد و ليس فى كلام العرب سفهت كذا ألبتة بمعنى جهلته بل قالوا سفه بالضم سفاهة أي صار سفيها و سفه بالكسر أي حصل منه سفه كما قالوا في فقه و فقه و نقل بعضهم سفهت الشرب إذا اكثرت منه و هو يوافق ما حكاه الفراء أي صار شربه سفيها فسفه شربه لما جاوز الحد و قال الأخفش و يونس نصب بإسقاط الخافض أي سفه فى نفسه و قولهم بإسقاط الخافض ليس هو أصلا فيعتبر به و لكن قد تنزع حروف الجر فى مواضع مسموعة فيتعدى الفعل بنفسه و إن كان مقيسا فى بعض الصور ف سفه ليس من هذا لا يقال سفهت أمر الله و لا دين الإسلام بمعنى جهلته أي سفهت فيه و إنما يوصف بالسفه و ينصب على التمييز ما خص به مثل نفسه أو شربه و

نحو ذلك والمقصود أن كل من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه قال أبو العالية رغبت اليهود و النصارى عن ملة إبراهيم و ابتدعوا اليهودية و النصرانية و ليست من الله و تركوا دين إبراهيم و كذلك قال قتادة بدلوا دين الأنبياء و اتبعوا المنسوخ فأما موسى و المسيح و من إتبعهما فهم على ملة إبراهيم متبعون له و هو إمامهم و هذا معنى قوله {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ }آل عمران68 فهو يتناول الذين إتبعوه قبل مبعث محمد و بعد مبعثه و قيل إنه عام قال الحسن البصري كل مؤمن و لي إبراهيم ممن مضى و ممن بقى و قال الربيع بن أنس هم المؤمنون الذين صدقوا نبى الله و إتبعوه و كان محمد و الذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم و هذا و غيره مما يبين أن اليهود و النصارى لا يعبدون الله و ليسوا على ملة إبراهيم فإن قيل فالمشرك يعبد الله و غيره بدليل قول الخليل { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{75} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ{77} الشعراء75-77 فقد إستثناه مما يعبدون فدل على أنهم كانوا يعبدون الله و كذلك قوله { إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي {27} الزخرف 26-27 و إستثناه أيضا و فى المسند و غيره حديث حصين الخزاعى لما قال له النبى صلى الله عليه و سلم يا حصين كم تعبد اليوم قال سبعة آلهة ستة في الأرض و واحد فى السماء قال فمن الذي تعد لرغبتك و رهبتك قال الذي فى السماء قيل هذا قول المشركين كما تقول اليهود و النصارى نحن نعبد الله فهم يظنون أن عبادته مع الشرك به عبادة و هم كاذبون فى هذا و أما قول الخليل ففيه قولان قال طائفة إنه إستثناء منقطع و قال عبدالرحمن بن زيد كانوا يعبدون الله مع آلهتهم و على هذا فهذا لفظ مقيد فإنه قال { مَا تَعْبُدُونَ }الكافرون2 فسماه عبادة إذا عرف المراد لكن ليست هي العبادة التى هي عند الله عبادة فإنه كما قال تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء و هو كله للذي أشرك و هذا كقوله تعالى {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }يوسف106 سماه إيمانا مع التقييد و إلا فالمشرك الذي جعل مع الله إلها آخر لايدخل فى مسمى الإيمان عند الإطلاق و قد قال { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ }النساء51 { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }آل عمران21 فهذا مع التقييد و مع الإطلاق فالإيمان هو الإيمان بالله و البشارة بالخير و قوله {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ }الكافرون3 نفي العبادة مطلقا ليس هو نفي لما قد يسمى عبادة مع التقييد و المشرك إذا كان يعبد الله و يعبد غيره فيقال إنه يعبد الله و غيره أو يعبده مشركا به لا يقال إنه يعبد مطلقا و المعطل الذي لا يعبد شيئا شر منه و العبادة المطلقة المعتدلة هي المقبولة و عبادة المشرك ليست مقبولة مما يوضح هذا قوله {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ }البقرة133 الآية قالوا فيها {نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ }البقرة133 ثم قالوا {إِلَـهاً وَاحِداً }البقرة133 فهذا بدل من الأول في أظهر الوجهين فإن النكرة تبدل من المعرفة كما فى قوله { لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق 15-16 فذكرت معرفة و موصوفة كذلك قالوا {نَعْبُدُ إِلَـهَكَ }البقرة133 فعرفوه ثم قالوا {إِلَـهاً وَاحِداً }البقرة133 فوصفوه و البدل في حكم تكرير العامل أحيانا كما في قوله {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ }الأعراف75 فالتقدير نعبد إلهك نعبد إلها و احدا و نحن له مسلمون فجمعوا بين الخبرين بأمرين بأنهم يعبدون إلهه و أنهم إنما يعبدون إلها و احدا فمن عبد إلهين لم يكن عابدا لإلهه و إله آبائه و إنما يعبد إلهه من عبد إلها و احدا و لو كان من عبد الله و عبد معه غيره عابدا له لكانت عبادته نوعين عبادة إشراك و عبادة إخلاص و إذا كان كذلك لم يكن قوله {إِلَـهاً وَاحِداً }البقرة133 بدلا لأن هذا كل من كل ليس هو بدل بعض من كل فعلم أن إلهه و إله آبائه لا يكون إلا إلها واحدا والوجه الثانى قوله {إِلَـهاً وَاحِداً}البقرة133 نصب على الحال لكنها حال لازمة فإنه لا يكون إلا إلها و احدا كقوله { وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً }البقرة91 و هو لا

يكون إلا مصدقا و منه {مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً }البقرة135 {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ }آل عمران21 فمن عبد معه غيره فما عبده إلها واحدا و من أشرك به فما عبده و هو لا يكون إلا إلها واحدا فإذا لم يعبده فى الحال اللازمة له لم تكن له حال آخرى يعبده فيها فما عبده فإن قيل المشرك يجعل معه آلهة خرى فهو يعبد فى حال ليس هو فيها الواحد قيل هذا غلط منشؤه لفظ الإله يراد به المستحق للإلهية و يراد به ما إتخذه الناس إلها و إن لم يكن إلها فى نفس الأمر بل هي أسماء سموها هم و آباؤهم فتلك ليست فى نفسها آلهة و إنما هي آلهة فى أنفس العابدين فالهيتها أمر قدره المشركون و جعلوه فى أنفسهم من غير أن يكون مطابقا للخارج كالذي يجعل من ليس بعالم عالما و من ليس بحي حيا و من ليس بصادق و لا عدل صادقا و عدلا فيقال هذا عندك صادق و عادل و عالم و تلك إعتقادات غير مطابقة و أقوال كاذبة غير لائقة و لهذا يجعل سبحانه ذلك من باب الإفتراء و الكذب كما قال أصحاب الكهف {هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً }الكهف15 و قال الخليل {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً }العنكبوت17 و قال {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ }يونس66 أي أي شيء يتبع الذين يشركون و إنما يتبعون الظن و الخرص و هو الحزر هذا صواب و إن ما إستفهامية و قد قيل أنها نافية و بعضهم لم يذكر غيره كأبى الفرج و هو ضعيف كما قد بين ذلك في غير هذا الموضع و قال هود { اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ }هود50 و إذا كانت إلهية ما سوى الله أمرا مختلفا يوجد في الذهن و اللسان لا وجود له فى الأعيان و هو من باب الكذب و الإعتقاد الباطل الذي ليس بمطابق و ما عند عابديها من الحب و الخوف و الرجاء لها تابع لذلك الإعتقاد الباطل كمن إعتقد فى شخص أنه صادق فصدقه فيما يقول و بنى على إخباره أعمالا كثيرة فلما تبين كذبه ظهر فساد تلك الأعمال كأتباع مسلمة و الأسود و غيرهما من أصحاب الزوايا و الترهات و ما يشرعونه لأتباعهم مما لم يأذن به الله بخلاف الصادق و الصدق و لهذا كانت كلمة التوحيد {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء }إبراهيم24 و قال فى كلمة الشرك { كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ }إبراهيم26 فليس لها أساس ثابت و لا فرع ثابت إذ كانت باطلة كأقوال الكاذبين و أعمالهم بل هي أعظم الكذب و الإفتراء مع الحب لها و الشرك أعظم و الظلم قال ابن مسعود قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا و هو خلقك فنفس تألههم لها و عبادتهم إياها و تعظيمها و حبها و دعائها و إعتقادها آلهة و الخبر عنها بأنها آلهة موجود كما كان إعتقاد الكذابين موجودا و أما نفس إتصافها بالإلهية فمفقود كإتصاف مسيلمة بالنبوة فهنا حالان حال للعابد و حال للمعبود فأما العابدون فكلهم فى قلوبهم عبادة و تأله لمن عبدوه و أما المعبودون فالرحمن له الإلهية و ما سواه لا الهية له بل هو ميت لا يملك لعابديه ضرا و لا نفعا {قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 و هو فى أصح القولين سبيلا بالتقرب بعبادته و ذكره و لهذا قال بعدها {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}الإسراء44 فأخبر عن الخلائق كلها أنها تسبح بحمده و قد بسط هذا في موضع آخر فقوله نعبد إلهك إلها و احدا إذا قيل أنه منصوب على الحال فإما أن يكون حالا من الفاعل العابد أو من المفعول المعبود فالأول نعبده فى حال كوننا مخلصين لا نعبد إلا إياه و الثانى نعبده فى الحال اللازمة له و هو أنه إله و احد فنعبده مخلصين معترفين له بأنه الإله و حده دون ما سواه فإن كان التقدير هذا الثانى إمتنع أن يكون المشرك عابدا له فإنه لا يعبده فى هذه الحال و هو سبحانه ليست له حال أخرى نعبده فيها و إن كان التقدير الأول فقد يمكن أن نعبده في حال أخرى نتخذ معه آلهة آخرى فى أنفسنا لكن قوله {إِلَـهاً وَاحِداً}البقرة133 دليل على أنها

حال من المعبود بخلاف ما إذا قيل نعبده مخلصين له الدين فإن هذه حال من الفاعل و لهذا يأتي هذا فى القرآن كثيرا كقوله { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }الزمر2 و قوله {قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }الزمر14 فهذا حال من الفاعل فإنه يكون تارة مخلصا وتارة مشركا و أما الرب تعالى فإنه لا يكون إلا إلها و احدا و الحال و إن كانت صفة للمفعول فهي أيضا حال للفاعل فإنهم قالوا نعبده فى هذه الحال فلزم أن عبادتهم له ليست في غير هذا الحال و بين أن قوله نعبد إلهك و إله آبائك إلها و احدا هي حال متعلقة بالفاعل و المفعول جميعا بالعابد و المعبود فإن العامل فيها المتعلق بها العبادة و هي فعل العابد و الذي يقال له المفعول فى العربية هو المعبود كما قيل فى الجملة {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة133 قيل هي واو العطف و قيل واو الحال أي نعبده فى هذه الحال قالوا و هي حال من فاعل نعبد أو مفعوله لرجوع الهاء إليه فى له و هذا الترديد غلط إذ هي حال منهما جميعا فإنهم إذا عبدوه و هم مسلمون فهم مسلمون حال كونهم عابدين و حال كونه معبودا إذ كونهم عابدين و كونه معبودا ليس مختصا بمقارنة أحدهما دون الآخر فالظرف و الحال هنا كلمة و ليست مفردا و لهذا اشتبه عليهم فإن المفرد لا يمكن أن يكون فى اللفظ صفة لهذا و هذا فإذا قلت ضربت زيدا قاعدا فالقعود حال للفاعل أو المفعول و إذا قلت ضربته و الناس قعود فليس هذه الحال من أحدهما دون الآخر بل هي مقارنة للضرب المتعلق بها كأنه قال ضربته فى زمان قعود الناس فهو ظرف للفعل المتعلق بالفاعل و المفعول بخلاف ما إذا قلت ضربته فى حال قعودي أو قعوده فهذا يختلف و الآية فيها { إِلَـهاً وَاحِداً}البقرة133 فهذه حال من المعبود بلا ريب فلزم أنهم إنما عبدوه فى حال كونه إلها واحدا و هذه لازمة له و إذا قيل المراد فى حال كونه معبودا واحدا لا نتخذ معه معبودا آخر فهذه حال ليست لازمة لكنه صفة للعابدين لا له قيل هذا ليس فيه مدح له و لا و صف له بأنه يستحق الإلهية لكن فيها و صفهم فقط و أيضا فقوله { إِلَـهاً وَاحِداً}البقرة133 كقوله {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ }النحل22 فهو في نفسه إله واحد و إن جعل معه المشركين آلهة بالإفتراء و الحب فيجب أن يكون المراد ما دل عليه هذا الإسم و لو أرادوا ذلك المعنى لقالوا ك نعبده مخلصين له الدين و هذا المعنى قد ذكروه فى الجملة الثانية و هي قولهم { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة133 لا سيما إذا جعلت حالا أي نعبده إلها واحدا فى حال إسلامنا له واسلامهم له يتضمن إخلاص الدين له و خضوعهم و إستسلامهم لأحكامه بخلاف غير المسلمين و لهذا قال آمرا للمؤمنين أن يقولوا {آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة136 ثم قال {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ {138} قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ{139}البقرة138-139 و في هذه الآيات معان جليلة ليس هذا موضع إستيفائها وهذا النزاع فى قوله {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ }الكافرون1 هل هو خطاب لجنس الكفار كما قاله الأكثرون أو لمن علم أنه يموت كافرا كما قاله بعضهم يتعلق بمسمى الكافر و مسمى المؤمن فطائفة تقول هذا إنما يتناول من وافى القيامة بالإيمان فاسم المؤمن عندهم إنما هو لمن مات مؤمنا فأما من آمن ثم ارتد فذاك ليس عندهم بإيمان و هذا إختيار الأشعري و طائفة من أصحاب أحمد و غيرهم و هكذا يقال الكافر من مات كافرا و هؤلاء يقولون إن حب الله و بغضه و رضاه و سخطه و ولايته و عداوته إنما يتعلق بالموافاة فقط فالله يحب من علم أنه يموت مؤمنا و يرضى عنه و يواليه بحب قديم و موالاة قديمة و يقولون إن عمر حال كفره كان و ليا لله و هذا القول معروف عن ابن كلاب و من تبعه كالأشعرى و غيره و أكثر الطوائف يخالفونه في هذا فيقولون بل قد يكون الرجل عدوا لله ثم يصير و ليا لله و يكون الله يبغضه ثم يحبه و هذا مذهب الفقهاء و العامة و هو قول

المعتزلة و الكرامية و الحنفية قاطبة و قدماء المالكية و الشافعية و الحنبلية و على هذا يدل القرآن كقوله {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ }آل عمران31 { وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ }الزمر7 و قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ}النساء137 فوصفهم بكفر بعد إيمان و إيمان بعد كفر و أخبر عن الذين كفروا أنهم كفار و أنهم إن إنتهوا يغفر لهم ما قد سلف و قال {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ }الزخرف55 و قال {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ }محمد28 و فى الصحيحين فى حديث الشفاعة تقول الأنبياء إن ربى قد غضب غضبا لم يغضب قبله مثله و لن يغضب بعده مثله و فى دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس و غيره فإن كنت رضيت عنى فأزدد عنى رضا و إلا فمن الآن فارض عني و بعضهم حذف فارض عني فظن بعض الفقهاء أنه فمن الأن أنه من المن و هو تصحيف و إنما هو من حروف الجر كما فى تمام الكلام و إلا فمن الآن فارض عنى فبين أنه يزداد رضا و أنه يرضى فى و قت محدود و شواهد هذا كثيرة و هو مبسوط فى مواضع ونظير القول في {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ }الكافرون1 القولان فى قوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة6 فإن للناس فى هذه الآية قولين أحدهما أنها خاصة بمن يموت كافرا و هذا منقول عن مقاتل كما قال في قوله {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ }الكافرون1 و كذلك نقل عن الضحاك قالا نزلت فى مشركى العرب كأبي جهل و أبى طالب و أبي لهب ممن لم يسلم و قال الضحاك نزلت في أبى جهل و خمسة من أهل بيته و طائفة من المفسرين لم يذكروا غير هذا القول كالثعلبى و البغوي و ابن الجوزي قال البغوى هذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة فى سابق علم الله و قال ابن الجوزي قال شيخنا على بن عبيدالله و هذه الآية وردت بلفظ العموم و المراد بها الخصوص لأنها آذنت بأن الكفار حين إنذارهم لا يؤمنون و قد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم و لو كانت على ظاهرها فى العموم لكان خبر الله بخلاف مخبره فلذلك و جب نقلها إلى الخصوص و القول الثانى أن الآية على مقتضاها و المراد بها أن الإنذار و عدمه سواء بالنسبة إلى الكافر ما دام كافرا لا ينفعه الإنذار و لا يؤثر فيه كما قيل مثل ذلك فى الآيات إنها غير موجبة للإيمان و قد جمع بينهما فى قوله { وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ }يونس101 فالآيات أفقية و أرضية و قرآنية و هي أدلة العلم و الإنذار يقتضى الخوف فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل به ن فهذا تنفعه الحكمة و الإنذر لمن يعرف الحق و له هوي يصده فينذر بالعذاب الذي يدعوه إلى مخالفة هواه و هو خوف العذاب و هذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة و آخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل فيجادل بالتى هي أحسن و قد قال تعالى {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ }الأنعام111 و قال {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 فالمراد أن الكافر ما دام كافرا لا يقبل الحق سواء انذر أم لم ينذر و لا يؤمن ما دام كذلك لأن على قلبه و سمعه و بصره موانع تصد عن الفهم و القبول و هكذا حال من غلب عليه هواه و هو سبحانه لم يقل أنهم لا يؤمنون و قيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة أو حقت عليه الكلمة كقوله {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ {96} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{97}يونس96 -97 فبين أن هؤلاء لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم وقت رؤية العذاب الأليم كإيمان فرعون المذكور قبلها و موسى قد دعا عليه فقال { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ {88} قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا {89}يونس88 -89 و أما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ }الأنعام111 الآية فبين أنهم قد يؤمنوا إذا

شاء و آية البقرة مطلقة عامة فإنه ذكر فى أول السورة أربع آيات فى صفة المؤمنين و آيتين فى صفة الكافرين و بضع عشرة آية في المنافقين فبين حال الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التى على قلبه و سمعه و بصره و ليس قال إن الله لا يهدى أحدا من هؤلاء فيسمع و يقبل و لكن هو حين يكون كافرا لا تتناوله الآية و هذا كما يقال فى الكافر الحربى لا يجوز أن تعقد له الذمة ولا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربيا فالكفار ما داموا كفارا هم بهذه المثابة لهم موانع تمنعهم من الإيمان كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك و إن أنذروا و هذا كقوله {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }البقرة171 فهذا مثل كل كافر ما دام كافرا وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم و سمعهم و ابصارهم فإنهم لا يسمعون لذلك المعنى المشتق منه وهو الكفر فما داموا هذه حالهم فهم كذلك و لكن تغير الحال ممكن كما قال { إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ }الأنعام111 و كما هو الواقع و مثل هذا يفيد أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه و إنذاره و بيانه يحصل الهدى و لو كان أكمل الناس و أن الداعى و إن كان صالحا ناصحا مخلصا فقد لا يستجيب المدعو لا لنقص فى الدعاء لكن لفساد فى المدعو و هذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل و قبول القابل كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه لا يقطع الحجارة و الحديد و نحو ذلك و النفخ يؤثر إذ كان هناك قابل لا يؤثر في الرماد و الدعاء و التعليم و الإرشاد و كل ما كان من هذا الجنس له فاعل و هو المتكلم بالعلم و الهدى و النذارة و له قابل و هو المستمع فإذا كان المستمع قابلا حصل الإنذار التام و التعليم التام و الهدى التام و إن لم يكن قابلا قيل علمته فلم يتعلم و هديته فلم يهتد و خاطبته فلم يصغ و نحو ذلك فقوله في القرآن {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 هو من هذا إنما يهتدي من يقبل الإهتداء و هم المتقون لا كل أحد و ليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم بل قد يكونوا كفارا لكن إنما يهتدى به من كان متقيا فمن إتقى الله إهتدى بالقرآن و العلم و الإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن و هكذا قوله {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً }يس70 الإنذار التام فإن الحي يقبله و لهذا قال { وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ }يس70 فهم لم يقبلوا الإنذار و مثله قوله {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 و عكسه قوله {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ }البقرة26 أي كل من ضل به فهو فاسق فهو ذم لمن يضل به فإنه فاسق ليس أنه كان فاسقا قبل ذلك و لهذا تأولها سعد بن أبى و قاص في الخوارج و سماهم فاسقين لأنهم ضلوا بالقرآن فمن ضل بالقرآن فهو فاسق فقوله{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ }البقرة6 من هذا الباب و التقدير من ختم على قلبه و جعل على سمعه و بصره غشاوة فسواء عليك أنذرته أم لم تنذره هو لا يؤمن أي ما دم كذلك و لكن هذا قد يزول و فى صفة النبى صلى الله عليه و سلم { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }الأحزاب45 و حرزا للأميين أنت عبدي و رسولي سميتك المتوكل لست بفظ و لا غليظ و لا سخاب في الأسواق و لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو و يغفر و لن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعينا عميا و آذانا صما و قلوبا غلفا و قد قال {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ {6} لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{7}يس6-7 فدل على أن بعضهم يؤمنون ثم قال { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً }يس8 إلى قوله{ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ} يس11 فهذا هو الإنذار التام و هو الإنذار الذي يقبله المنذر و ينتفع به و قوله {وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } يس10 هو أصل الإنذار كما يقال فى البليد و المشغول الذهن بأمور الدنيا و الشهوات سواء عليك أعلمته أم لم تعلمه لا يتعلم و لا يقبل الهدى و يقال فى الذكى الفارغ إنما يتعلم مثل هذا ثم المشغول قد يتفرغ و قد يصلح ذهن بعد فساده و يفسد بعد صلاحه لفساد قلبه و صلاحه و على هذا القول أكثر تفسير السلف كما ذكره ابن إسحاق و قد رواه ابن أبى حاتم و غيره قال ابن إسحاق حدثنى محمد بن

أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ }البقرة6 أي بما أنزل إليك و إن قالوا إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة6 أي إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك و جحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فقد كفروا بما جاءك و بما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذارا و تحذيرا فقد تبين أنهم لا يسمعون الإنذار لكفرهم بما عندهم و ما جاءهم من الحق و معلوم ان منهم خلقا تابوا بعد ذلك و آمنوا و روى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال آيتان فى قادة الأحزاب {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة6 قال هم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ }إبراهيم28 قلت جعلهم قادة الأحزاب لكونهم أضلوا الأتباع فأحلوهم دار البوار و الأحزاب يوم الخندق قد أسلم عامة قادتها و حسن إسلامهم مثل عكرمة بن أبى جهل و صفوان بن أمية و سهيل بن عمرو و أبى سفيان و هؤلاء أسلم منهم من أسلم عام الفتح و هم الطلقاء و منهم من أسلم قبل ذلك و الحزب الآخر غطفان و قد أسلموا أيضا والآية لابد أن تتناول كفار أهل الكتاب كما قال ابن إسحق فإن السورة مدنية و إن تناولت مع ذلك المشركين فهي تعم كل كافر و مقاتل و الضحاك يخصها ببعض مشركي العرب و ابن السائب يقول هي إنما نزلت فى اليهود منهم حيي بن أخطب و كذلك ما ذكره ابن إسحق عن ابن عباس أنها فى اليهود و أبو العالية يقول إنها نزلت في قادة الأحزاب و الآية تعم هؤلاء كلهم و غيرهم كما أن آيات المؤمنين و المنافقين كان سبب نزولها المؤمنين و المنافقين الموجودين و قت النزول و هي تعمهم و غيرهم من المؤمنين و المنافقين إلى قيام الساعة و المقصود أن قوله { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }البقرة6 كقوله {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ {52} وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ {53}الروم52 -53 و قوله { أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ {42} وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ{43}يونس42 -43 و كل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك و تبليغك و حرصك على هداهم ليس موجب ذلك و إنما يحصل ذلك إذا شاء الله هداهم فشرح صدورهم للإسلام كما قال تعالى {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل37 ففيه تعزية لرسوله صلى الله عليه و سلم و بينت الآية له أن تبليغك و إن لم يهتدوا به ففيه مصالح عظيمة غير ذلك و فيه بيان أن الهدى هدى الله { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }الكهف17 و قد قال له {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ }القصص56 ففيه تقرير التوحيد و تقرير مقصود الرسالة و هو سبحانه أخبر عمن لا يؤمن فقال {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ{96} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ {97}يونس96 و قال {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ }يس6 ثم قال {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }يس7 فخص في هذه الآية و فى تلك {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ }يونس96 و هم الذين حق عليهم القول أي حق عليهم ما قاله الله سبحانه و كتبه و قدره فجعل الموجب هو التقدير السابق و هو قوله و القول و إن كان قد يكون خبرا مجردا بما سيكون و قد يكون قولا يتضمن أشياء كاليمين المتضمنة للحض و المنع فقد ذكر فى مواضع تقدم اليمين كقوله {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }السجدة13 و نحو ذلك فهو خبر عما قاله أو قاله و كتبه و هو التقدير الذي يتضمن أنه قدر ما يفعله و علمه و كتبه كما تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و القدر تضمن علمه بما سيكون و مشيئته لوجود ما قدره و علم أن سيخلقه و القول قد يكون خبرا و قد يكون فيه معنى الطلب الحض و المنع بالقسم و إما لكتابته على نفسه كقوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ }الأنعام54 و قوله { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ

الْمُؤْمِنِينَ }الروم47 و قوله يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم محرما فلا تظالموا و أما قوله { وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ }الزمر71 فهذا مختص بالكفار و هو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال كما قال تعالى لإبليس {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص85 و قوله {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى }طه129 أي إن عذابهم له أجل مسمى إما يوم القيامة و إما في الدنيا كيوم بدر و إما عقب الموت و قد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة فلولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب لزاما أي لازما لهم فإن المقتضي له قائم تام وهو كفرهم و أما إذا أطلق القول على الكفار من غير تقييد فإنه لا يريد من لا يؤمن منهم فإن اللفظ لا يدل على ذلك ألبتة و أيضا فإن هذا لا فائدة فيه إذ كان أولئك غير معروفين و إنما هم طائفة قد حق عليهم القول و هم لا يتميزون من غيرهم بل هو مأمور بإنذار الجميع و فيهم من يؤمن و من لا يؤمن فذكر اللفظ العام و إرادة أولئك دون غيرهم ليس فيه بيان للمراد الخاص و ذكر المعنى الذي أوجب أنهم لا يؤمنون قط و لا فيه تعليق الحكم بالمعنى العام و كلام الله تعالى يصان عن مثل ذلك و ما ذكر من الموانع هي موجودة في كل من لم يقبل الإنذار سواء كان كافرا أو منافقا و فاسقا أو غير ذلك لسبب يوجب ذلك فيمتنع قبول الإنذار بسبب الموانع لكن هذه الموانع قد تزول فإنها ليست لازمة لكل كافر و إذا كان المانع ما سبق من القول الذي حق عليهم فقد لا يزول أبدا كما قال {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ {96} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{97}يونس96-97 و قد يذكر هذا و هذا و أما إذا اقتصر على ذكر الموانع التي فيهم و لم يذكر ما سبق من القول فهذه الموانع يرجى زوالها و يمكن ما لم يذكر معها ما يقتضي إمتناع تغير حالهم و حصول الهدى فصل { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} الْكَافِرُونَ1-2 جاء الخطاب فيه ب ما و لم يجيء ب من فقيل { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} الْكَافِرُونَ2 لم يقل لا أعبد من تعبدون لأن من لمن يعلم و الأصنام لا تعلم و هذا القول ضعيف جدا فإن معبود المشركين يدخل فيه من يعلم كالملائكة و الأنبياء و الجن و الإنس و من لم يعلم و عند الإجتماع تغلب صيغة أولي العلم كما في قوله {فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ }النور45 فإذا أخبر عنهم بحال من يعلم عبر عنهم بعبادته كما في قوله {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {194} أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا{195}الأعراف194-195الآية فعبر عنهم بضمير الجمع المذكر و هو لأولى العلم و أما ما لا يعلم فجمعه مؤنث كما تقول الأموال جمعتها و الحجارة قذفتها ف ما هي لما لا يعلم و لصفات من يعلم و لهذا تكون للجنس العام لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته كما قال { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء3 أي الذي طاب و الطيب من النساء فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب و قصد هذه الصفة دون مجرد العين عبر ب ما و لو عبر ب من كان المقصود مجرد العين و الصفة للتعريف حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة كما إذا قلت جاءني من يعرف و من كان أمس في المسجد و من فعل كذا و نحو ذلك فالمقصود الإخبار عن عينه و الصلة للتعريف و إن كانت تلك الصفة قد ذهبت و منه قوله { وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} الشمس 5-7 على القول الصحيح إنها إسم موصول و المعنى و بانيها و طاحيها و مسويها و لما قال { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 أخبر ب من لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه و إن كان فعله للتزكية و التدسية قد ذهب في الدنيا فالقسم هناك بالموصوف بحيث أنه إنما أقسم بهذا الموصوف و الصفة لازمة فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها و لا مطحية إلا بطاحيها و لا مسواة إلا بمسويها و أما

المرء المزكى نفسه و المدسيها فقد انقضى عمله فى الدنيا و فلاحه و خيبته فى الآخرة ليسا مستلزما لذلك العمل و نحو هذا قوله {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3 و لهذا يستفهم بها عن صفات من يعلم فى قوله { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }الشعراء23 كما يستفهم على وجه بها في قوله { مَاذَا تَعْبُدُونَ }الصافات85 و أما قوله {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }لقمان25 فالإستفهام عن عين الخالق للتمييز بينه و بين الآلهة التى تعبد فإن المستفهمين بها كانوا مقرين بصفة الخالق و إنما طلب بالإستفهام تعيينه و تمييزه و لتقام عليهم الحجة باستحقاقه و حده العبادة و أما فرعون فكان منكرا للموصوف المسمى فاستفهم بصيغة ما لأنه لم يكن مقرا به طالبا لتعيينه و لهذا كان الجواب فى هذا الإستفهام بقول موسى {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }الشعراء24 و بقوله {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ }الشعراء26 فأجاب ايضا بالصفة و هناك قال {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }الزخرف87 فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى عن غيره وكذلك قوله {قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }المؤمنون84 الى تمام الآيات

فقوله { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3}الكافرون2-3 يقتضى تنزيهه عن كل موصوف بأنه معبودهم لأن كل ما عبده الكافر و جبت البراءة منه لأن كل من كان كافرا لا يكون معبوده الإله الذي يعبده المؤمن إذ لو كان هو معبوده لكان مؤمنا لا كافرا و ذلك يتضمن أمورا أحدها أن ذلك يستلزم براءته من أعيان من يعبدونهم من دون الله الثاني أنهم إذا عبدوا الله و غيره فمعبودهم المجموع و هو لا يعبد المجموع لا يعبد إلا الله و حده فيعبده على و جه إخلاص الدين له لا على و جه الشرك بينه و بين غيره و بهذا يظهر الفرق بين هذا و بين قول الخليل { إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27}الزخرف 26-27 و قوله { أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{75} أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ{77}الشعراء 75-77 بأن يقال هنا نفي عبادة المجموع و ذلك لا ينفى عبادة الواحد الذي هو الله و الخليل تبرأ من المجموع و ذلك يقتضي البراءة من كل و احد فاستثنى أو يقال الخليل تبرأ من جميع المعبودين من الجميع فوجب أن يستثنى رب العالمين و لهذا لما و قع مستثنى فى أول الكلام فى قوله {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ }الممتحنة4 لم يحتج إلى إستثناء آخر و أما هذه السورة فإن فيها التبري من عبادة ما يعبدون لا من نفس ما يعبدون و هو بريء منهم و من عبادتهم و مما يعبدون فإن ذلك كله باطل كما ثبت في الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء و هو كله للذي أشرك فعبادة المشرك كلها باطلة لا يقال نصيب الله منها حق و الباقي باطل بخلاف معبودهم فإن الله إله حق و ما سواه آلهة باطلة فلما تبرأ الخليل من المعبودين إحتاج إلى إستثناء رب العالمين و لما كان في هذه تبرؤه من أن يعبد ما يعبدون فكان المنفي هو العبادة تبرأ من عبادة المجموع الذين يعبدهم الكافرون الثالث إن كان النفي عن الموصوف بأنه معبودهم لا عن عينه فهو لا يعبد شيئا من حيث هو معبودهم لأنه من حيث هو معبودهم هم مشركون به فوجبت البراءة من عبادته على ذلك الوجه و لو قال من تعبدون لكان يقال إلا رب العالمين لأن النفي واقع على عين المعبود و ليس إذا لم يعبد ما يعبدون متبرئا منه و معاديا له حتى يحتاج إلى الإستثناء بل هو تارك لعبادة ما يعبدون و هذا يتبين بالوجه الرابع و هو قوله {وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ }الكافرون3 نفى عنهم عبادة معبوده فهم إذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده و كذلك هو إذا عبده مخلصا له الدين لم يكن عابدا معبودهم الوجه الخامس أنهم لو عينوا الله بما ليس هو الله و قصدوا عبادة الله معتقدين أن هذا هو الله كالذين عبدوا العجل و الذين عبدوا المسيح و الذين يعبدون الدجال و الذين يعبدون ما

يعبدون من دنياهم و هواهم و من عبد من هذه الأمة فهم عند نفوسهم إنما يعبدون الله لكن هذا المعبود الذي لهم ليس هو الله فإذا قال {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ }الكافرون2 كان متبرئا من هؤلاء المعبودين و إن كان مقصود العابدين هو الله الوجه السادس أنهم إذا و صفوا الله بما هو بريء منه كالصاحبة و الولد و الشريك و أنه فقير أو بخيل أو غير ذلك و عبدوه كذلك فهو بريء من المعبود الذي لهؤلاء فإن هذا ليس هو الله كما قال النبى صلى الله عليه و سلم ألا ترون كيف يصرف الله عني سب قريش يسبون مذمما و أنا محمد فهم و إن قصدوا عينه لكن لما وصفوه بأنه مذمم كان سبهم و اقعا على من هو مذمم و هو محمد صلى الله عليه و سلم و ذاك ليس هو الله فالمؤمنون برآء مما يعبد هؤلاء الوجه السابع أن كل من لم يؤمن بما و صف به الرسول ربه فهو فى الحقيقة لم يعبد ما عبده الرسول من تلك الجهة و قس على هذا فلتتأمل هذه المعاني و تلخص و تهذب و الله تعالى أعلم [1]

الله تعالى لم يرض دينا غير الإسلام

والإسلام إنما يكون بأن تعبد الله وحده لا شريك له وإنما يعبد بما أمر به فكل ما أمر به فهو حين أمر به من دين الإسلام وحين نهى عنه لم يبق من دين الإسلام والله تعالى قط لم يرض له دينا غير الإسلام ولا أحد من رسله لا سيما خاتم الأنبياء فإنه لم يرض من أحد إلا بدين الإسلام لا من المشركين ولا من الذين أوتوا الكتاب وقوله تعالى قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} سورة الكافرون وهي كلمة تقتضي براءته من دينهم وأن ديني لي وأنتم بريئون منه ودينكم لكم وأنا بريء منه كما قال تعالى في الآية الأخرى {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41 فقوله لي عملي ولكم عملكم هو نظير قوله لكم دينكم ولي دين وقرنه بمقتضاه وموجبه فقال أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة هي براءة من الشرك ولهذا كان يقرأها كثيرا مع قل هو الله أحد في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغيرهما لأن فيهما التوحيد هذه فيها توحيد العمل والإرادة وتلك فيها توحيد القول والعلم وإذا قال في 2 تلك قل هو الله أحد فأمره أن تلك قل هو الله أحد فأمره أن يقول ما هو خبر عن الله بأنه الأحد الصمد وقال في هذه قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون فأمره أن يقول أنه لا يعبد ما يعبدون من دون الله إذ لا يعبد إلا الله وحده[2]

ليس فيها رضى بدين المشركين

هذه براءة منه لمن يخاطب بذلك من المشركين وأهل الكتاب وهي كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله فإن حرف اللام في لغة العرب يدل على الاختصاص فقوله { لَكُمْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 534-601

[2] الصفدية ج: 2 ص: 315

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} الكافرون 6 يدل على أنكم مختصون بدينكم لا أشرككم فيه وأنا مختص بديني لا تشركوني فيه كما قال { لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41 ولهذا قال النبي في قل يا أيها الكافرون هي براءة من الشرك وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين وجعلوها منسوخة بل فيها براءته من دينهم وبراءتهم من دينه وأنه لا تضره أعمالهم ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ولم يرض الرسول بدين المشركين ولا أهل الكتاب طرفة عين قط ومن زعم أنه رضي بدين الكفار واحتج بقوله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين فظن هذا الملحد أن قوله لكم دينكم ولي دين معناه أنه رضي بدين الكفار ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضي بدين الكفار وهذا من أبين الكذب والافتراء على محمد فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه ما رضي قط بدين الكفار لا من المشركين ولا من أهل الكتاب وقوله لكم دينكم ولي دين لا يدل على رضاه بدينهم بل ولا على إقرارهم عليه بل يدل على براءته من دينهم ولهذا قال النبي إن هذه السورة براءة من الشرك ونظير هذه الآية قوله تعالى {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41 وكذلك قوله تعالى {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }الشورى15 وقد يظن بعض الناس أيضا أن قوله لكم دينكم ولي دين الآية أني لا آمر بالقتال ولا أنهي عنه ولا أتعرض له بنفي ولا إثبات وإنما فيها أن دينكم لكم أنتم مختصون به وأنا بريء منه وديني لي وأنا مختص به وأنتم برآء منه وهذا أمر محكم لا يمكن نسخه بحال كما قال تعالى عن الخليل {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27} الزخرف26-27_ بل قال تعالى لنبيه { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{215} فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ{216} الشعراء 215-216 فإذا كان قد برأه الله من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة وأما قوله تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين فهو أمر بالقول لجميع الكافرين من المشركين وأهل الكتاب فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون قد شهد عليهم بالكفر وأمرهم بجهادهم وكفر من لم يجعلهم كافرين ويوجب جهادهم قال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 وقال تعالى {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }المائدة17 وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه والإله المتصف بهذه الصفات لا يعبده اليهود والنصارى وهذا كقوله { قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة133 فهذا الإله الذي يعبده محمد كما دخل في ذلك اهل الكتاب و غيرهم من الكفار لا سيما وقد دخل في ذلك اليهود وهم أولى بالدخول من غيرهم فإن قوله ما تعبدون يتناول صفات المعبود والإله الذي يعبده المؤمنون هو الإله الذي أنزل التوراة والإنجيل والقرآن وأرسل موسى وأمته وليس هو إله المشركين الذي يعبدونه وإن كان هو المستحق لأن يعبدوه فإنهم يشركون بعبادته ويصفونه بما هو بريء منه فلا يخلصون له

الدين فيعبدوا معه آلهة أخرى إن لم يستكبروا عن عبادته وإله العبد الذي يعبده بالفعل ليس حاله معه كحاله مع الذي يستحق أن يعبده وهو لا يعبده بل يشرك به أو يستكبر عن عبادته فهذا هو الذي قال فيه لا أعبد ما تعبدون والشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود[1]

هذه السورة ليست منسوخة

وقد قال طائفة من المفسرين أن هذه السورة منسوخة أي فيما ظنوها دلت عليه من ترك القتال فإنهم ظنوا أن قوله { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} الكافرون 6 يتضمن ترك القتال ومعلوم أن الله لم يأمر نبيه بمكة بالقتال بل إنما أمره بالقتال بالمدينة وأول آية نزلت في القتال قوله {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }الحج39 أذن الله لهم أولا فيه ثم كتب عليهم ثانيا فقال {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }البقرة 216[2]

ويوجد كثير من المفسرين يقول في آيات يظن معناها النهي عن القتال إنها منسوخة بآية السيف {فَإِذَا انسلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5} التوبة 5 فالذين قالوا قل يا أيها الكافرون منسوخة هذا مأخذهم والصواب أن هذه الآية لم تتعرض للقتال لا بأمر ولا بنهي بل مضمونها البراءة من دين الكفار وهذا أمر محكم لا ينسخ أبدا وأما أن يقال فيها أو في غيرها رضي الرسول بدين كافر فهذا لم يقله أحد من علماء المسلمين أصلا ولا أحد من سلف الأمة ولا من الأولين ولا من الآخرين ولا يقول ذلك إلا من هو مفتقر على الله ورسوله لم يرض الله بغير دين الإسلام وهو الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرض الله ولا رسوله من أحد من الخلق بغير هذا الدين قط[3]

الرد على قول وزير التتار أن النبى رضي بدين اليهود والنصارى

أن وزيرهم هذا الخبيث الملحد المنافق صنف مصنفا مضمونه أن النبى رضي بدين اليهود والنصارى وانه لا ينكر عليهم ولا يذمون ولا ينهون عن دينهم ولا يؤمرون بالانتقال الى الاسلام واستدل الخبيث الجاهل بقوله { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} الكافرون1-6 زعم ان هذه الآية تقتضى انه يرضى دينهم قال وهذه الآية محكمة ليست منسوخة وجرت بسبب ذلك أمور ومن المعلوم أن هذا جهل منه فإن قوله {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} الكافرون6 ليس فيه ما يقتضى أن يكون دين الكفار حقا ولا مرضيا له وإنما يدل على تبرئه من دينهم ولهذا قال فى هذه السورة انها براءة من الشرك كما قال فى الاية الاخرى {وَإِن

---

[1] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 58-67

[2] الصفدية ج: 2 ص: 317

[3] الصفدية ج: 2 ص: 323

كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41 فقوله {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }الكافرون6 كقوله {وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ }البقرة139 وقد اتبع ذلك بموجبه ومقتضاه حيث قال {أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41 ولو قدر ان فى هذه السورة ما يقتضى انهم لم يؤمروا بترك دينهم فقد علم بالاضطرار من دين الاسلام بالنصوص المتواترة وباجماع الأمة انه امر المشركين واهل الكتاب بالايمان به وانه جاءهم على ذلك واخبر انهم كافرون يخلدون فى النار [1]

كل دين سوى الإسلام باطل

الدين هو التعاهد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاهد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالي {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6}الكافرون1-6 وقال تعالي { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ }يوسف76

وقال تعالي{قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ }التوبة29 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فلله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبينا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لاينفع صاحبه وقد قال سبحانه {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وقال تعالي {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ}البقرة193 وقال تعالي { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ }التوبة36 وقال تعالي {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }الأنعام161 وقال تعالي {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ }التوبة122 وفي الصحيحين عن النبي انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالي { وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 526-527

}البقرة217 { وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }البقرة217 وقال تعالي{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }المائدة54 وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره كما قال تعالي {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ }آل عمران19 وقال تعالي {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران85 وقال تعالي {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }آل عمران83 وقال تعالي {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ }الشورى13 وقال تعالي {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ }الأنعام159 كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالي { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }هود7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالي{وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً }المائدة3 وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به [1]

العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر

وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم بالله والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال { اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ }البقرة21 فالعبادة لابد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود واذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وانابة كان وبالا على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبده كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ }الأعراف18 فلا بد أن يملأ جهنم منه

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36-40

ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وانما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته الى الله وخشيته له حتى يكون عابدا له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }البقرة21 وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لارب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال نوح عليه السلام {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ }نوح3 وكذلك الرسل فى سورة الأعراف وغيرها وقال تعالى{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} الكافرون 1-6[1]

لطائف لغوية

1- هذه براءة منه لمن يخاطب بذلك من المشركين وأهل الكتاب وهي كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله فإن حرف اللام في لغة العرب يدل على الاختصاص فقوله { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} الكافرون 6 يدل على أنكم مختصون بدينكم لا أشرككم فيه وأنا مختص بديني لا تشركوني فيه كما قال { لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41 [2]

2- و على هذا قوله فما وصف للأشخاص و لم يقل فمن لأن ما يراد به الصفات دون الأعيان و هو المقصود كقوله { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء }النساء3 و قوله {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ }الكافرون2 و قوله {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا }الشمس7 [3]

ما موصولة كقوله تعالى { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3}الكافرون 2-3 و قوله { فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء}النساء3 و هذا المعنى يجيء فى قوله{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى }الليل3 [4]

3- قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ }الحج73 الآية وقوله {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً }النساء117 الآية وقوله {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 12-14

[2] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 58

[3] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 294

[4] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 238

قَبْلُ }فصلت48 الآية وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو فى دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة أحدهما أنهم قالوا { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}الزمر3 فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم الثانى إن الله تعالى فسر هذا الدعاء فى موضع آخر كقوله تعالى{وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{92} مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ{93}الشعراء92- 93 وقوله تعالى {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ }الأنبياء98 وقوله تعالى {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ }الكافرون2 فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم الثالث أنهم كانوا يعبدونها فى الرخاء فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة[1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 13

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة النصر
110

رقية محمود الغرايبة

§§~النصر(مدنية)3~§§

مقدمة سورة النصر

إعلام النبى صلى الله عليه وسلم بقرب وفاته

قد كان عمر يسأل و يسأل عن معاني الآيات الدقيقة و قد سأل أصحابه عن قوله {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } النصر 1 فذكروا ظاهر لفظها و لما فسرها ابن عباس بأنها إعلام النبى صلى الله عليه و سلم بقرب و فاته قال ما أعلم منها إلا ما تعلم و هذا باطن الآية الموافق لظاهرها فإنه لما أمر بالإستغفار عند ظهور الدين و الإستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال و بظهور الدين حصل مقصود الرسالة علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور أخر و فوق كل ذي علم عليم و الإستدلال على الشيء بملزوماته و الشيء قد يكون له لازم و للازمه لازم و هلم جرا فمن الناس من يكون أفطن بمعرفة اللوازم من غيره يستدل بالملزوم على اللازم و من الناس من لا يتصور اللازم و لو تصوره لم يعرف الملزوم بل يقول يجوز أن يلزم و يجوز أن لا يلزم و يحتمل و يحتمل و تردد الإحتمل هو من عدم العلم و إلا فالواقع هو أحد أمرين فحيث كان إحتمال بلا ترجيح كان لعدم العلم بالواقع و خفاء دليله و غيره قد يعلم ذلك و يعلم دليله و من ظن أن ما لا يعلمه هو لا يعلمه غيره كان من جهله فلا ينفي عن الناس إلا ما علم إنتفاؤه عنهم و فوق كل ذي علم عليم أعلم منه حتى ينتهي الأمر إلى الله تعالى و هذا قد بسط فى مواضع [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 417-421

سورة النصر 1-3

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}

الإخبار بالمستقبلات

وفي القرآن من الإخبار بالمستقبلات شيء كثير كقوله تعالى{ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر 1-3 فدخل الناس في دين الله أفواجا بعد الفتح فما مات صلى الله عليه وسلم وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام[1]

والذين رآهم النبي صلى الله عليه وسلم يدخلون في دين الله أفواجا هم الذين كانوا على عصره [2]

الأنبياء معصومون من الاقرار على الذنوب

وأعظم الناس درجة الانبياء عليهم السلام وقد امرهم الله بالتوبة والاستغفار حتى خاتم الرسل أمره الله فى أواخر ما أنزل عليه من القرآن ما أمره به بقوله {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر 1-3 ولهذا كان الذى عليه سلف الأمة وأئمتها ان الأنبياء انما هم معصومون من الاقرار على الذنوب وان الله يستدركهم بالتوبة التى يحبها الله { يُحِبُّ التَّوَّابِينَ }البقرة222 وان كانت حسنات الابرار سيئات المقربين وان ما صدر منهم من ذلك انما كان لكمال النهاية بالتوبة لا لنقص البداية بالذنب وأما غيرهم فلا تجب له العصمة وإنما يدعى العصمة المطلقة لغير الأنبياء الجهال من الرافضة وغالية النساك وهذا مبسوط فى موضعه [3]

---

[1] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 78

[2] منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 33 و رسالة في لفظ السنة في القرآن ج: 2 ص: 208

[3] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 414

الاعتبار بكمال النهاية

والانبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة بل يسارعون اليها ويسابقون اليها لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك ومن اخر ذلك زمنا قليلا كفر الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النون صلى الله عليه وسلم هذا على المشهور ان القاءه كان بعد النبوة واما من قال ان القاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج الى هذا والتائب من الكفر والذنوب قد يكون افضل ممن لم يقع فى الكفر والذنوب واذا كان قد يكون افضل فالافضل احق بالنبوة ممن ليس مثله فى الفضيلة وقد اخبر الله عن أخوه يوسف بما اخبر من ذنوبهم وهم الاسباط الذين نبأهم الله تعالى وقد قال تعالى {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}العنكبوت 26 فآمن لوط لابراهيم عليه السلام ثم ارسله الله تعالى الى قوم لوط وقد قال تعالى في قصة شعيب {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ {88} قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ{89}الأعراف88-89 وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ {13} وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ{14}إبراهيم13 - 14 واذا عرف ان الاعتبار بكمال النهاية وهذا الكمال انما يحصل بالتوبة والاستغفار ولا بد لكل عبد من التوبة وهي واجبة على الاولين والاخرين كما قال تعالى {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }الأحزاب73 وقد اخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوح ومن بعدهما الى خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وآخر ما نزل عليه او من أخر ما نزل عليه قوله تعالى { إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3} النصر 1-3 وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان النبى كان يكثر ان يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن وقد انزل الله عليه قبل ذلك {لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة117 وفى صحيح البخاري عن النبى انه كان يقول يا ايها الناس توبوا الى ربكم فوالذي نفسى بيده انى لاستغفر الله واتوب اليه في اليوم اكثر من سبعين مرة وفى صحيح مسلم عن الاغر المزنى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وفى السنن عن ابن عمر انه قال كنا نعد لرسول الله فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لي وتب علي انك انت التواب الغفور مائة مرة وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي أنه كان

يقول اللهم اغفر لي خطيئتى وجهلى واسرافي فى امري وما انت اعلم به منى اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت ما اخرت وما اسررت وما اعلنت وما انت اعلم به مني انت المقدم وانت المؤخر وانت على كل شيء قدير وفى الصحيحين عن هريرة انه قال يا رسول الله ارايت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول قال اقول االلهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الابيض من الدنس اللهم اغسلنى من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد وفى صحيح مسلم وغيره انه كان يقول نحو هذا اذا رفع راسه من الركوع وفى صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه عن النبى انه كان يقول فى دعاء الاستفتاح اللهم انت الملك لا اله الا انت انت ربي وانا عبدك

ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب الا انت واهدنى لاحسن الاخلاق لا يهدى لاحسنها الا انت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها الا انت وفى صحيح مسلم عن النبى انه كان يقول فى سجوده اللهم اغفر لي ذنبى كله دقه وجله علانيته وسره اوله وآخره وفى السنن عن على ان النبى اتى بدابة ليركبها وانه حمد الله وقال { لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ{13} وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ{14} الزخرف13-14 ثم كبره وحمده ثم قال سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب الا انت ثم ضحك وقال ان الرب يعجب من عبده اذا قال اغفر لي فانه لا يغفر الذنوب الا انت يقول علم عبدي انه لا يغفر الا انا وقد قال تعالى {وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }محمد19 وقال {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{1} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ {2} الفتح1-2 وثبت في الصحيحين فى حديث الشفاعة ان المسيح يقول اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وفى الصحيح ان النبى كان يقوم حتى ترم قدماه فيقال له اتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال افلا اكون عبدا شكورا ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة[1]

التوبة فرض على العباد دائما

ومن الضالين فى القدر من خاصم الرب فى جمعه بين القضاء والقدر والأمر والنهى كما يذكرون ذلك عل لسان ابليس وهؤلاء خصماء الله وأعداؤه وأما أهل الايمان فيؤمنون بالقضاء والقدر والأمر والنهى ويفعلون المأمور ويتركون المحظور ويصبرون على المقدور كما قال تعالى { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف90 فالتقوى تتناول فعل المأمور وترك المحظور والصبر يتضمن الصبر على المقدور وهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة فى الأرض أو فى أنفسهم علموا أن ذلك فى كتاب وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم فسلموا الأمر لله وصبروا على ما ابتلاهم به وأما إذا جاء أمر الله فانهم يسارعون فى الخيرات ويسابقون الى الطاعات ويدعون ربهم رغبا ورهبا ويجتنبون محارمه ويحفظون حدوده ويستغفرون الله ويتوبون اليه من تقصيرهم فيما أمر وتعديهم لحدوده علما منهم بأن التوبة فرض على العباد دائما واقتداء بنبيهم حيث يقول فى الحديث الصحيح أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذى نفسى بيده انى لاستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وفى رواية أكثر من سبعين مرة وآخر سورة نزلت عليه (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3} النصر1-3 [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:309- 313 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 68

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 303-304

تخليص الأعمال مما يفسدها اشد من طول الاجتهاد

توبة الانسان من حسناته على أوجه احدهما أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها و الثانى أن يتوب مما كان يظنه حسنات ولم يكن كحال أهل البدع و الثالث يتوب من اعجابه ورؤيته أنه فعلها وانها حصلت بقوته وينسى فضل الله واحسانه وانه هو المنعم بها وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور ولهذا قيل تخليص الأعمال مما يفسدها اشد على العالمين من طول الاجتهاد وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائما ولهذا قيل هى مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره ولا بد منه لجميع الخلق فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وان يستديموا التوبة قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً{72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{73} الاحزاب 72-73 فغاية كل مؤمن التوبة وقد قال الله لأفضل الأنبياء وأفضل الخلق بعد الأنبياء وهم السابقون الأولون {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }التوبة117 ومن اواخر ما انزل الله قوله { إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3} النصر 1-3 وقد ثبت فى الصحيحين انه كان يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن وفى لفظ لمسلم عن عائشة قالت كان رسول الله يكثر أن يقول قبل أن يموت سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك قالت فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قولك سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك فقال أخبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى فاذا رأيتها أكثرت من قول سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك فقد رأيتها إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1}النصر 1 فتح مكة {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3} النصر 2-3 وأمره سبحانه له بالتسبيح بحمده والاستغفار فى هذه الحال لا يقتضى انه لا يشرع فى غيرها أو لا يؤمر به غيره بل يقتضى أن هذا سبب لما أمر به وان كان مأمورا به فى مواضع أخر كما يؤمر الانسان بالحمد والشكر على نعمه وإن كان مأمورا بالشكر عليها وكما يؤمر بالتوبة من ذنب وان كان مأمورا بالتوبة من غيره لكن هو أمر أن يختم عمله بهذا فغيره أحوج إلى هذا منه وقد يحتاج العبد إلى هذا فى غير هذه الحال كما يحتاج إلى التوبة فهو محتاج إلى التوبة والاستغفار مطلقا كما ثبت فى الصحيح أن النبى كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثا [1]

الصدقة تطفىء الخطيئة

فالتوبة حال مستصحب للعبد من أول أمره إلى آخر عمره كما قال تعالى {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر 1-3 الآية وإذا تاب العبد وأخرج من ماله صدقة للتطهر من ذنبه كان ذلك حسنا مشروعا قال تعالى {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ }التوبة104 وقال النبى الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفى الماء النار والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال النبى فتنة الرجل فى أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 688-689

والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقال كعب بن مالك أن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة فقال النبى أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك [1]

قوام الدين بالتوحيد والاستغفار

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرةعن النبى أنه قال يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ومن تقرب الى شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة وفى بعض الآثار يقول الله تعالى أهل ذكرى أهل مجالستى وأهل شكرى أهل زيارتى وأهل طاعتى أهل كرامتى وأهل معصيتى لا أؤيسهم من رحمتى وان تابوا فانا حبيبهم لأن الله يحب التوابين وان لم يتوبوا فانا طبيبهم ابتليهم بالمصائب حتى اطهرهم من المعائب وقد قال تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً }طه112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن ينقض من حسنات نفسه وقال تعالى { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }النحل118 وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى قال يقول الله تعالى ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ياعبادى كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى اهدكم عبادى كلكم جائع الى من اطعمته فاستطعمونى اطعمكم ياعبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى اكسكم ياعبادى انكم تذنبون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب ولا ابالى فاستغفرونى اغفر لكم ياعبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ياعبادى لو ان اولكم وأخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ياعبادى لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم اجتمعوا فى وصعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكى الا كما ينقص المخيط الا اذا غمس فى البحر يا عبادى انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ومن ذلك رواه البخارى فى صحيحة عن شداد بن اوس قال قال رسول الله سيد الاستغفار ان يقول العبد اللهم انت ربى لااله الا الله أنت خلقتنى وأنا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذبك من شر ما صنعت ابوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فانه لايغفر الذنوب الا انت من قالها اذا اصبح موقنا بها فمات فى يومه دخل الجنة ومن قالها اذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فالعبد دائما بين نعمة من الله يحتاج فيها الى شكر وذنب منه يحتاج فيه الى الاستغفار وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائما فانه لايزال يتقلب فى نعم الله وآلائه ولا يزال محتاجا الى التوبة والاستغفار ولهذا كان سيد آدم وامام المتقين محمد يستغفر فى جميع الاحوال وقال فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ايها الناس توبوا الى ربكم فانى لأستغفر الله واتوب اليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة وفى صحيح مسلم انه قال انه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وقال عبد الله بن عمر كنا نعد لرسول الله فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لى وتب على انك انت التواب الغفور مائة مرة ولهذا شرع الاستغفار فى خواتيم الأعمال قال تعالى { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ }آل عمران17وقال بعضهم احيوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر امروا بالاستغفار وفى الصحيح ان النبى كان اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 552

اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت باذا الجلال والاكرام وقال تعالى { فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ }البقرة198 الى قوله {وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{199} البقرة198 وقد امر الله نبيه بعد ان بلغ الرسالة وجاهد في الله حق جهاده واتى بما امر الله به مما لم يصل اليه احد غيره فقال تعالى {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر 1-3 ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار كما قال الله تعالى { الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ{1} أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ{2} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ{3} هود 1-3 الآية وقال تعالى { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ }فصلت6 وقال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }محمد19 ولهذا جاء فى الحديث يقول الشيطان اهلكت الناس بالذنوب واهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار وقد قال يونس { لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ }الأنبياء87 وكان النبى إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثا ويقول لا اله الا أنت سبحانك ظلمت نفسى فاغفر لى وكفارة المجلس التى كان يختم بها المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ان لا اله الا أنت استغفرك واتوب اليك والله اعلم وصلى الله على محمد وسلم[1]

التوبة من أفضل الكمالات

قوله تعالى {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ }التوبة117 الآية الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ويعظم حسناتهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وليست التوبة نقصا بل هي من أفضل الكمالات وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً{72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{73} الاحزاب72-73 فغاية كل مؤمن هي التوبة ثم التوبة تتنوع كما يقال حسنات الأبرار سيئات المقربين والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والإستغفار عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم فقال آدم {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }الأعراف23 وقال نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ }هود47 وقال الخليل {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ }إبراهيم41 وقال هو وإسماعيل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }البقرة128 وقال موسى { أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ{155} وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ{156}الأعراف155-156 وقال تعالى { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }الأعراف143 وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء والله تعالى { يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }البقرة222 وفى أواخر ما أنزل الله على

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:86- 90 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 79 وأمراض القلوب ج: 1 ص: 79

نبيه {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر1-3 وفي الصحيحين عن النبى أنه كان يقول فى افتتاح الصلاة اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد وفي الصحيح أنه كان يقول فى دعاء الإستفتاح اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسي اعترفت بدنى فاغفر لي ذنبوني جميعا إنه لا يغفر الذنب إلا أنت وفي الصحيح أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهه كان يقول اللهم اغفر لي ذنبى كله دقه وجله علانيته وسره أوله وآخره وفى الصحيحين عنه أنه كان يقول اللهم اغفر لي خطيئتى وجهلي وإسرافى فى أمري وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفرلي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ومثل هذا كثير فى الكتاب والسنة وقد قال الله تعالى { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }محمد19 فتوبة المؤمنين واسغفارهم هو من أعظم حسناتهم وأكبر طاعاتهم وأجل عباداتهم التى ينالوا بها أجل الثواب ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب فإذا قال القائل أي حاجة بالأنبياء إلى العبادات والطاعات كان جاهلا لأنهم إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم فكيف يقال إنهم لا يحتاجون إليها فهى أفضل عبادتهم وطاعتهم وإذا قال القائل فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب والإستغفار كذلك قيل له الذنب الذي يضر صاحبه هو مالم يحصل منه توبة فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة كما قال بعض السلف كان داود بعد التوبة أحسن منه حالا قبل الخطيئة ولوكانت التوبة من الكفر والكبائر فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب ولم يكن ما تقدم قبل التوبة نقصا ولا عيبا بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانا أقوى عبادة وطاعه ممن جاء بعدهم فلم يعرف الجاهلية كما عرفوها ولهذا قال عمر بن الخطاب إنما تنقص عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام مع لم يعرف الجاهلية وقد قال الله تعالى { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً{68} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{69} إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{70}الفرقان68-70 وقد ثبت في الصحيح عن النبى صلى الله عليه سلم أن الله يحاسب عبده يوم القيامة فيعرض عليه صغار الذنوب ويخبأ عنه كبارها فيقول فعلت يوم كذا كذا وكذا فيقول نعم يارب وهو مشفق من كبارها أن تظهر فيقول إني قد غفرتها لك وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة فهنالك يقول رب إن لي سيئات ما أراها بعد فالعبد المؤمن إذا تاب وبدل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له والإعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية فمن نسي القرآن ثم حفظه خير من حفظه الأول لم يضره النسيان من مرض ثم صح وقوي لم يضره المرض العارض والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع والخشوع لله والإنابة إليه وكمال الحذر فى المستقبل والإجتهاد فى العبادة ما لم يحصل بدون التوبة كمن ذاق الجوع والعطش والمرض والفقر والخوف ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه والحذر أن يقع فيما حصل أولا ما لم يحصل بدون ذلك وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وينبغى أن يعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله ويزول عنه كل ما يكره إلا

بها ومحمد أكمل الخلق وأكرمهم على الله وهو المقدم على جميع الخلق فى أنواع الطاعات فهو أفضل المحبين لله وأفضل المتوكلين على الله وأفضل العابدين له وأفضل العارفين به وأفضل التائبين إليه وتوبته أكمل من توبة غيره ولهذا غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر وبهذه المغفرة نال الشفاعة بيوم القيامة كما ثبت في الصحيح ان الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة من آدم فيقول إني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها نفسي نفسي نفسي ويطلبونها من نوح فيقول إني دعوت على أهل الأرض دعوة لم أومر بها نفسي نفسي نفسي ويطلبونها من الخليل ثم من موسى ثم من المسيح فيقول إذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنب وما تأخر قال فيأتونى فأنطلق فإذا رأيت ربى خرت له ساجدا فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فأقول أى رب أمتى فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه دلهم على محمد وأخبر بكمال عبودته لله وكمال مغفرة الله له إذ ليس بين المخلوقين والخالق نسب إلا محض العبودية والإفتقار من العبد ومحض الجود والإحسان من الرب عز وجل وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه قال لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل وثبت عنه فى الصحيح أنه كان يقول يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فو الذي نفسي بيده إنى لأستغفرالله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وثبت عنه في الصحيح أنه قال أنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة فهو صلى الله عليه وسلم لكمال عبوديته لله وكمال محبته له افتقاره إليه وكمال توبته واستغفاره صار أفضل الخلق عند الله فإن الخير كله من الله وليس للمخلوق من نفسه شيء بل هو فقير وجه فكما إزداد العبد تواضعا وعبودية إزداد إلى الله قربا ورفعة ومن ذلك توبته واستغفاره وفي الحديث عن النبى أنه قال كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابين رواه ابن ماجه والترمذي[1]

ختم الاعمال بالتسبيح والإستغفار

العبد مأمور ان يتوب الى الله تعالى دائما قال الله تعالى { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }النور31 وفى صحيح البخارى عن النبى انه قال أيها الناس توبوا إلى ربكم فو الذى نفسى بيده انى لا ستغفر الله واتوب إليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم انه قال إنه ليغان على قلبى وانى لا ستغفر الله فى اليوم مائة مرة وفى السنن عن ابن عمر قال كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول رب اغفر لى وتب على انك انت التواب الرحيم مائة مرة او قال أكثر من مائة مرة وقد أمر الله سبحانه عباده ان يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار فكان النبى إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثا ويقول اللهم انت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح عنه وقد قال تعالى {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ }آل عمران17 فأمرهم ان يقوموا بالليل ويستغفروا بالاسحار وكذلك ختم سورة المزمل وهى سورة قيام الليل بقوله تعالى { وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }المزمل20 بل انزل سبحانه وتعالى فى آخر الأمر لما غزا النبى صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك وهي آخر غزواته { لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص:50- 57

الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{117} وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{118}التوبة117 -118 وهى آخر ما نزل من القرآن وقد قيل ان آخر سورة نزلت قوله تعالى{ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر 1-3 فأمره تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها انه كان يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه كان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى امرى وما انت اعلم به منى اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما اخرت وما اسررت وما أعلنت لا إله إلا انت وفى الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى قال قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى انك أنت الغفور الرحيم وفى السنن عن أبى بكر رضى الله عنه قال يا رسول الله علمنى دعاء ادعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت فقال قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره إلى مسلم قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا اخذت مضجعك [1]

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور كما قال تعالى فى قصة يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف90 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ }غافر55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لابد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبى فى الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى ربكم فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطئى وعمدى وهزلى وجدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبه أباه ومن أشبه أباه فما ظلم ولهذا قرن الله سبحانه بين التوحيد والإستغفار فى غير آية كما قال تعالى { أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ }فصلت6 {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}محمد19 وفى الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم وغيره يقول الشيطان أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وقد ذكر سبحانه عن ذى النون انه {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ{87} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ{88} الانبياء 87-88 قال النبى دعوة أخى ذى النون ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربه وجماع ذلك انه لابد له فى الأمر من أصلين ولابد له فى القدر من أصلين ففى الأمر عليه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 254-255

الإجتهاد فى الإمتثال علما وعملا فلا تزال تجتهد فى العلم بما أمر الله به والعمل بذلك ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه فى المأمور وتعديه الحدود ولهذا كان من المشروع أن يختم جميع الاعمال بالإستغفار فكان النبى اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقد قال الله تعالى { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ }آل عمران17 فقاموا بالليل وختموه بالإستغفار وآخر سورة نزلت قول الله تعالى (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر1-3 وفى الصحيح انه كان يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن وأما فى القدر فعليه أن يستعين بالله فى فعل ما أمر به ويتوكل عليه ويدعوه ويرغب اليه ويستعيذ به ويكون مفتقرا اليه فى طلب الخير وترك الشر وعليه أن يصبر على المقدور ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه واذا آذاه الناس علم أن ذلك مقدر عليه[1]

السعيد يخاف فى أعماله

وقال تعالى (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر1-3 فالسعيد يخاف في أعماله أن لا يكون صادقا في إخلاصه الدين لله أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به على لسان رسوله ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم فذكر البخاري عن أبي عالية قال أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ولهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم أنا مؤمن إن شاء الله ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدي ويتوبون من ذلك وهذا مشروع للأنبياء والمؤمنين كان النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر بعد الصلاة ثلاثا[2]

الاسلام هو الدين الحق

قال تعالى (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}النصر1-3 الدين هو التعاهد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاهد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالي {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6}الكافرون1-6 وقال تعالي { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ }يوسف76 وقال تعالي{قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ }التوبة29 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص:120- 121

[2] رسالة في التوبة ج: 1 ص:257- 258

المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فلله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبينا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لاينفع صاحبه وقد قال سبحانه {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 وقال تعالي {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ}البقرة193 وقال تعالي { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ }التوبة36 وقال تعالي {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }الأنعام161 وقال تعالي {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ }التوبة122 وفي الصحيحين عن النبي انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالي { وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }البقرة217 وقال تعالي{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }المائدة54 وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله دينا غيره كما قال تعالي {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ }آل عمران19 وقال تعالي {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }آل عمران85 وقال تعالي {أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }آل عمران83 وقال تعالي {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ }الشورى13 وقال تعالي {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ }الأنعام159 كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالي { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }هود7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالي{وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً }المائدة3

وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به [1]

التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم

والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التى يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده قال إبن أبي حاتم حدثنا أبى ثنا إبن نفيل الحرانى ثنا النضر إبن عربي قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال إسم يعظم الله به و يحاشي به من السوء و قال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا حفص بن غياث عن حجاج عن إبن أبي مليكة عن إبن عباس قال سبحان قال تنزيه الله نفسه من السوء و عن الضحاك عن إبن عباس فى قوله {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً} الإسراء1 قال عجب و عن أبى الأشهب عن الحسن قال سبحان إسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه و قد جاء عن غير و احد من السلف مثل قول إبن عباس أنه تنزيه نفسه من السوء و روي فى ذلك حديث مرسل و هو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة و نفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال و فيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران إسم يعظم الله به و يحاشى به من السوء و روى عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عثمان بن عبدالله بن موهب عن موسى بن طلحة قال سئل النبى صلى الله عليه و سلم عن التسبيح فقال إنزاهه عن السوء و قال حدثنا الضحاك إبن مخلد عن شبيب عن عكرمة عن إبن عباس سبحان الله قال تنزيهه حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم قال جاء رجل إلى إبن عباس فقال لا إله إلا الله نعرفها أنه لا إله غيره و الحمد لله نعرفها أن النعم كلها منه و هو المحمود عليها و الله أكبر نعرفها أنه لا شيء أكبر منه فما سبحان الله فقال إبن عباس و ما ينكر منها هي كلمة رضيها الله لنفسه و أمر بها ملائكته و فزع إليها الأخيار من خلقه[2]

كلمتان حبيبتان إلى الرحمن

التسبيح والتحميد إثبات إلهيته

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله و الله أكبر والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الكلام أفضل قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده وفي الصحيحين عن النبي

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص:36- 40

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

صلى الله عليه وسلم أنه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وفي القرآن {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ }الحجر98 وقالت الملائكة { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ }البقرة30 وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد والأخرى بالتعظيم فإنا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال والحمد إنما يكون على المحاسن وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام إذ ليس كل معظم محبوبا محمودا ولا كل محبوب محمودا معظما وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد وتتضمن كمال الذل له المتضمن معنى التعظيم ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن وفيها الذل الناشئ عن عظمته وكبريائه ففيها إجلاله وإكرامه وهو سبحانه المستحق للجلال والاكرام فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام ومن الناس من يحسب أن الجلال هو الصفات السلبية و الإكرام الصفات الثبوتية كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق أن كليهما صفات ثبوتية وإثبات الكمال يستلزم نفي النقائص لكن ذكر نوعي الثبوت وهو مايستحق أن يحب وما يستحق أن يعظم كقوله { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }الحج64 وقول سليمان عليه السلام { فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ }النمل40 وكذلك قوله { لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ }التغابن1 فإن كثيرا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودا بل مذموما إذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة فيتضمن إخبار المحاسن المحبوبة محبة له وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك فالأول يهاب ويخاف ولا يحب وهذا يحب ويحمد ولا يهاب ولا يخاف والكمال اجتماع الوصفين كما ورد في الأثر أن المؤمن رزق حلاوة ومهابة وفي نعت النبي صلى الله عليه وسلم كان من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه فقرن التسبيح بالتحميد وقرن التهليل بالتكبير كما في كلمات الأذان ثم أن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا افرد فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الالهية فإن الإلهية تتضمن كونه محبوبا بل تتضمن أنه لا يستحق أن يحب كمال الحب إلا هو والحمد لله هو الاخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق فالإلهية تتضمن كمال الحمد ولهذا كان الحمد مفتاح الخطاب وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم وسبحان الله فيها إثبات عظمته كما قدمناه ولهذا قال{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم رواه أهل السنن وقال أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقمن أن يستجاب لكم رواه مسلم فجعل التعظيم في الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم ففي قوله سبحان الله وبحمده إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده وأما قوله لا إله إلا الله و الله أكبر ففي لا إله إلا الله إثبات محامده فإنها كلها داخلة في إثبات إلهيته[1]

التحميد مقرون بالتسبيح

في السنن عن جابر بن عبد الله قال كنا مع رسول الله إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك ولما نزل قوله{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزل {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 قال اجعلوها في سجودكم وثبت عنه أنه كان

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 251 -253 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص:313- 314 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 365 و مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 232

يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربى الأعلى ولم يكن يكبر في الركوع والسجود لكن قد كان يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه كان يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي بتأول القرآن أي يتأول قوله {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً } النصر 3 فكان يجمع بين التسبيح والتحميد وكذلك قد كان يقرن بالتسبيح في الركوع والسجود والتهليل كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت افتقدت النبى ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسست ثم رجعت فاذا هو راكع أو ساجد يقول سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت فقلت بأبي أنت وأمي إنى لفى شأن وإنك لفى شأن ففى هذه الأحاديث كلها أنه كان يسبح في الركوع والسجود لكن قد يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل وقد يقرن به الدعاء ولم ينقل انه كبر في الركوع والسجود وأما قراءة القرآن فيهما فقد ثبت عنه انه قال إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا وساجدا رواه مسلم من حديث علي ومن حديث ابن عباس وذلك ان القرآن كلام الله فلا يتلى الا في حال الارتفاع والتكبير ايضا محلة الارتفاع وجمهور العلماء على انه يشرع التسبيح في الركوع والسجود وروى عن مالك انه كره المداومة على ذلك لئلا يظن وجوبه ثم اختلفوا في وجوبه فالمشهور عن أحمد وإسحق وداود وغيرهم وجوبه وعن أبي حنيفة والشافعي استحبابه والقائلون بالوجوب منهم من يقول يتعين سبحان ربى العظيم و سبحان ربى الأعلى للأمر بهما وهو قول كثير من اصحاب أحمد ومنهم من يقول بل يذكر بعض الأذكار المأثورة والأقوى انه يتعين التسبيح إما بلفظ سبحان وإما بلفظ سبحانك ونحو ذلك وذلك أن القرآن سماها تسبيحا فدل على وجوب التسبيح فيها وقد بينت السنة أن محل ذلك القيام وسماها قياما و سجودا و ركوعا وبينت السنة علة ذلك ومحله وكذلك التسبيح يسبح في الركوع والسجود وقد نقل عن النبى أنه كان يقول سبحان ربى العظيم و سبحان ربى الأعلى وانه كان يقول سبحانك اللهم وب اللهم اغفر لي و سبحانك وبحمدك لا اله الا انت وفي بعض روايات أبو داود سبحان ربي العظيم وبحمده وفي استحباب هذه الزيادة عن أحمد روايتان وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله كان يقول في ركوعه وسجوده سبوح قدوس رب الملائكة والروح وفي السنن أنه كان يقول سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة فهذه كلها تسبيحات والمنقول عن مالك انه كان يكره المداومة على ذلك فان كان كراهة المداومة علىسبحان ربي الأعلى والعظيم فله وجه وان كان كراهة المداومة على جنس التسبيح فلا وجه له وأظنه الأول وكذلك المنقول عنه إنما هو كراهة المداومة على سبحان ربى العظيم لئلا يظن انها فرض وهذا يقتضي ان مالكا انكر أن تكون فرضا واجبا وهذا قوى ظاهر بخلاف جنس التسبيح فان أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جدا وقد علم انه كان يداوم على التسبيح بألفاظه متنوعة وقوله اجعلوها في ركوعكم وفي سجودكم يقتضى أن هذا محل لامتثال هذا الأمر لا يقتضى انه لا يقال إلا هي مع ما قد ثبت انه كان يقول غيرها والجمع بين صيغتى تسبيح بعيد بخلاف الجمع بين التسبيح والتحميد والتهليل والدعاء فان هذه أنواع والتسبيح نوع واحد فلا يجمع فيه بين صيغتين وأيضا قد ثبت في الصحيح أنه قال أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر فهذا يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها فان جعل التسبيح نوعا واحدا ف سبحان الله أفضل بهذا الحديث وأيضا فقوله {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }الأعلى1 و {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }الواقعة74 أمر بتسبيح ربه ليس أمرا بصيغة معينة فاذا قال سبحان الله وبحمده سبحانك اللهم وبحمدك فقد سبح ربه الأعلى والعظيم واسمه الله يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن وإن كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه ففى اسمه الله التصريح بالالهية واسمه

الله أعظم من اسمه الرب وفي مسلم عن ابي ذر أن رسول الله سئل أي الكلام أفضل فقال ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده فالقيام فيه التحميد و في الاعتدال من الركوع وفي الركوع والسجود التسبيح وفي الانتقال التكبير وفي القعود التشهد وفيه التوحيد فصارت الأنواع الأربعة في الصلاة[1]

فضل الاستغفار

الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب من العمل الناقص الى العمل التام ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل فان العابد لله والعارف بالله فى كل يوم بل فى كل ساعة بل فى كل لحظة يزداد علما بالله وبصيرة فى دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك فى طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله ويرى تقصيره فى حضور قلبه فى المقامات العالية واعطائها حقها فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار بل هو مضطر إليه دائما فى الأقوال والأحوال فى الغوائب والمشاهد لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرات وطلب الزيادة فى القوة فى الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الايمانية وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله من أولهم إلى آخرهم ومن آخرهم إلى أولهم ومن الأعلى إلى الأدنى وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم وهم فيها درجات عند الله ولكل عامل مقام معلوم فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله دقه وجله خطأه وعمده أوله وآخره وسره وعلانيته وتأتى على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه والاستغفار يمحو ما بقى من عثراته ويمحو الذنب الذى هو من شعب الشرك فان الذنوب كلها من شعب الشرك فالتوحيد يذهب أصل الشرك والاستغفار يمحو فروعه فابلغ الثناء قول لا إله إلا الله وأبلغ الدعاء قول أستغفر الله فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولأخوانه من المؤمنين وقال إياك والنظر فى كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوى نور الحق وبرهانه فى القلوب خفى عن المعرفة كما يبهر ضوء الشمس عيون الخفافيش بالنهار فاحذر مثل هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الايمان أصحاب البصائر فى الشبهات والشهوات الفارقين بين الواردات الرحمانية والشيطانية العالمين العاملين { أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }المجادلة22 وقال التوبة من أعظم الحسنات والحسنات كلها مشروط فيها الاخلاص لله وموافقة أمره باتباع رسوله والاستغفار من أكبر الحسنات وبابه واسع فمن أحس بتقصير فى قوله أو عمله أو حاله أو رزقه أو تقلب قلب فعليه بالتوحيد والاستغفار ففيهما الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص وكذلك إذا وجد العبد تقصيرا فى حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والاخوان فعليه بالدعاء لهم والاستغفار قال حذيفة بن اليمان للنبى صلى الله عليه وسلم إن لى لسانا ذربا على أهلى فقال له أين أنت من الاستغفار إنى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة [2]

المغفرة نهاية الخير

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 114-117

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 696-698

أن المغفرة نهاية الخير و لهذا أمر الله رسول الله صلى الله عليه و سلم بالاستغفار بقوله (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3} النصر 1-3 و قد غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و كان ذلك خصوصا خصه به دون سائر الأنبياء و ندب قوام الليل إلى الاستغفار بالأسحار[1]

غاية أولياء الله التوبة

فالانسان ظالم جاهل كما قال تعالى{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }الأحزاب72 الى قوله { ظَلُوماً جَهُولاً }الأحزاب72 وانما غاية أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين التوبة وقد قال تعالى {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً }النصر3 وتوبة كل انسان بحسبه وعلى قدر مقامه وحاله ولهذا كان الدين مجموعا فى التوحيد والاستغفار قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }محمد19 وقال تعالى { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ }فصلت6 وقال تعالى {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ }هود90 ففعل جميع المأمورات وترك جميع المخظورات يدخل فى التوحيد فى قول لا اله الا الله فانه من لم يفعل الطاعات لله ويترك المعاصى لله لم يقبل الله عمله قال تعالى { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }المائدة27 قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور[2]

كان الله سبحانه ولم يزل ولا يزال

قال تعالى (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3} النصر 1-3 وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى{ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }الفتح14{ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً }الفتح4 { إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً }النصر3 ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال[3]

---

[1] شرح العمدة ج: 4 ص: 137

[2] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 34

[3] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 538

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة المسد
111

رقية محمود الغرايبة

~§§ المسد(مكية)5 §§~

سورة المسد 1-5

بسم الله الرحمن الرحيم

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ{1} مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ{2} سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ{3} وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ{4} فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ{5}

في القرآن الإخبار بالمستقبلات

وفي القرآن من الإخبار بالمستقبلات شيء كثير كقوله عن أبي لهب عمه {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ{1} مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ{2} سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ{3}المسد 1-3 وكان كما أخبر به مات أبو لهب كافرا[1]

نزلت في أبي لهب

و في الصحيحين من حديث ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }الشعراء214 خرج رسول الله و سلم حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا الذي يهتف قالوا محمد فاجتمعوا إليه فجعل ينادي يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب و في رواية يا بني فهر يا بني عدي يا بني فلان لبطون قريش فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا ينظر ما هو فاجتمعوا فقال ارايتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل اكنتم مصدقي قالوا ما جربنا عليك كذبا قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك أما جمعتنا إلا لهذا فقام فنزلت هذه السورة {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ }المسد1 و في رواية ارأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم و يمسيكم اكنتم تصدقوني قالوا بلى[2]

---

[1] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 76

[2] منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 309-310

وقال ابن إسحاق لما نزلت هذه الآية {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }الشعراء214 جعل النبي صلى الله عليه وسلم ينادي يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة حتى عدد الأفخاذ من قريش ثم قال إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فقال أبو لهب ألهذا جمعتنا تبا لك سائر اليوم فأنزل الله سورة المسد كلها ودعا قريشا إلى الله وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له[1]

القرآن شرف لمن آمن به

فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم وليس شرفا لجميع قومه بل من كذب به منهم كان أحق بالذم كما قال تعالى { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ{1} سورة المسد الآية 1[2]

الأنساب لا عبرة بها

سورة تبت نزلت فى هذا و امرأته و هما من أشرف بطنين في قريش و هم عم علي و هي عمة معاوية و اللذان تداولا الخلافة فى الأمة هذان البطنان بنو أمية و بنو هاشم و أما أبو بكر و عمر فمن قبيلتين أبعد عنه صلى الله عليه و سلم و إتفق في عهدهما ما لم يتفق بعدهما و ليس فى القرآن ذم من كفر به صلى الله عليه و سلم باسمه إلا هذا و امرأته ففيه أن الأنساب لا عبرة بها بل صاحب الشرف يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم كما قال تعالى {يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ }الأحزاب30 الآية قال النحاس {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ }المسد1 دعاء عليه بالخسر و فى قراءة عبد الله و قد تب و قوله { وَمَا كَسَبَ }المسد2 أي و لده فإن قوله {وَمَا كَسَبَ }المسد2 يتناوله كما فى الحديث و لده من كسبه و استدل بها على جواز الأكل من مال الولد ثم أخبر أنه {سَيَصْلَى نَاراً }المسد3 أخبر بزوال الخير و حصول الشر و الصلي الدخول و الإحتراق جميعا و قوله { حَمَّالَةَ الْحَطَبِ }المسد4 إن كان مثلا للنميمة لأنها تضرم الشر فيكون حطب القلوب و قد يقال ذنبها أعظم و حمل النميمة لا يوصف بالحبل فى الجيد و إن كان وصفا لحالها في الآخرة كما وصف بعلها و هو يصلى و هى تحمل الحطب عليه كما أعانته على الكفر فيكون من حشر الأزواج و فيه عبرة لكل متعاونين على الإثم أو على إثم ما أو عدوان ما و يكون القرآن قد عمم الأقسام الممكنة فى الزوجين و هي أربعة إما كإبراهيم و امرأته و إما هذا و امرأته و إما فرعون و امرأته و إما نوح و امرأته و لوط و يستقيم أن يفسر حمل الحطب بالنميمة بحمل الوقود فى الآخرة كقوله من كان له لسانان إلخ و الله أعلم [3]

اهلاك الله المستهزئين بالرسول

---

[1] الجواب الصحيح ج: 1 ص: 387

[2] الجواب الصحيح ج: 1 ص: 444

[33] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 602

ان ابا لهب كان له من القرابة ماله فلما اذاه وتخلف عن بني هاشم في نصره نزل القران فيه بما نزل من اللعنة والوعيد باسمه خزيا لم يفعل بغيره من الكافرين كما روي عن ابن عباس انه قال ما كان ابو لهب الا من كفار قومه حتى خرج منا حين تحالفت قريش علينا فظاهرهم فسبه الله وبنو المطلب مع مساواتهم لعبد شمس ونوفل في النسب لما اعانوه ونصروه وهم كفار شكر الله ذلك لهم فجعلهم بعد الاسلام مع بني هاشم في سهم ذوي القربى وابو طالب لما اعانه ونصره وذب عنه خفف عنه العذاب فهو من اخف اهل النار عذابا وقد روي ان ابا لهب سقي في نقرة الابهام لعتقه ثويبة اذ بشرته بولادته ومن سنة الله ان من لم يمكن المؤمنين ان يعذبوه من الذين يؤذون الله ورسوله فان الله سبحانه ينتقم منه لرسوله ويكفيه اياه كما قدمنا بعض ذلك في قصة الكتاب المفترى وكما قال سبحانه { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{94} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{95}الحجر94-95 والقصة في اهلاك الله واحدا واحدا من هؤلاء المستهزئين معروفة قد ذكرها اهل السير والتفسير وهم على ماقيل نفر من رؤوس قريش منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسودان بن المطلب وابن عبد يغوث والحارث بن قيس وقد كتب النبي الى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم لكن قيصر اكرم كتاب رسول الله واكرم رسوله فثبت ملكه فيقال ان الملك باق في ذريته الى اليوم وكسرى مزق كتاب رسول الله واستهزا برسول الله فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للاكاسرة ملك وهذا والله اعلم تحقيق قوله تعالى{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ }الكوثر3 فكل من شناه او ابغضه وعاداه فان الله تعالى يقطع دابره ويمحق عينه واثره وقد قيل انها نزلت في العاص بن وائل او في عقبة بن ابي معيط او في كعب بن الاشرف وقد رايت صنيع الله بهم ومن الكلام السائر لحوم العلماء مسمومة فكيف بلحوم الانبياء عليهم السلام وفي الصحيح عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فكيف بمن عادى الانبياء ومن حارب الله حرب واذا استقريت قصص الانبياء المذكورة في القران تجد اممهم انما اهلكوا حين اذوا الانبياء وقابلوهم بقبيح القول او العمل وهكذا بنو اسرائيل انما ضربت عليهم الذلة وباؤوا بغضب من الله ولم يكن لهم نصير لقتلهم الانبياء بغير حق مضموما الى كفرهم كما ذكر الله ذلك في كتابه ولعلك لاتجد احدا اذى نبيا من الانبياء ثم لم يتب الا ولا بد ان يصيبه الله بقارعة وقد ذكرنا ما جربه المسلمون من تعجيل الانتقام من الكفار اذا تعرضوا لسب رسول الله وبلغنا مثل ذلك في وقائع متعددة وهذا باب واسع لا يحاط به ولم نقصد قصده هنا وانما قصدنا بيان الحكم الشرعي وكان سبحانه يحميه ويصرف عنه اذى الناس وشتمهم بكل طريق حتى في اللفظ ففي الصحيحين عن ابي هريرة قال قال رسول الله الا ترون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وانا محمد فنزه الله اسمه ونعته عن الاذى وصرف ذلك الى من هو مذمم وان كان المؤذي انما قصد عينه[1]

العبد له قدرة

إذا أراد العبد الطاعة التى أوجبها الله عليه إرادة جازمة كان قادرا عليها و كذلك إذا أراد ترك المعصية التى حرمت عليه إرادة جازمة كان قادرا على ذلك و هذا مما إتفق عليه المسلمون و سائر

[1] الصارم المسلول ج: 2 ص: 315-318

أهل الملل حتى أئمة الجبرية بل هذا معلوم بالإضطرار من دين الإسلام و إنما ينازع فى ذلك بعض غلاة الجبرية الذين يقولون أن الأمر المتنع لذاته و اقع فى الشريعة و يحتجون بأمره أبا لهب بأنه يؤمن بما يستلزم عدم إيمانه و هذا القول خلاف ما أجمع عليه أئمة الإسلام كالأئمة الأربعة و غيرهم و أئمة الحديث و التصوف و غيرهم خلاف ما أجمع عليه أئمة الكلام من أهل النفي و الإثبات فأما إجماع المعتزلة و نحوهم على ذلك فظاهر و كذلك أئمة المتكلمين المثبتة كأبي محمد بن كلاب و أبى العباس القلانسي و أبى الحسن الأشعري و القاضي أبى بكر البقلانى و أبى بكر بن فورك و أبي إسحق الأسفرائيني و الأستاذ أبي المعالى الجوينى و أبى حامد الغزالى و كذلك أبو عبد الله محمد بن كرام و أصحابه كإبن الهيصم و سائر متكلمي أصحاب أبى حنيفة كأبى منصور الماتريدي وغيره و أمثال هؤلاء كلهم متفقون و قد حكى إجماع المسلمين على ذلك و احد كأبي الحسن بن الزاغونى و إنما نازع فى ذلك بعضهم و اتبعه أبو عبد الله الرازي و إحتجاجهم بقصة أبى لهب حجة باطلة فإن الله أمر أبا لهب بالإيمان قبل أن تنزل السورة فلما أصر و عاند إستحق الوعيد كما إستحق قوم نوح حين قيل له { أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ } هود36 و حين إستحق الوعيد أخبر الله بالوعيد الذي يلحقه و لم يكن حينئذ مأمورا أمرا يطلب به منه ذلك و الشريعة طافحة بأن الأفعال المأمور بها مشروطة بالإستطاعة و القدرة كما قال النبى صلى الله عليه و سلم لعمران إبن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وقد إتفق المسلمون على أن المصلي إذا عجز عن بعض واجباتها كالقيام أو القراءة أو الركوع أو السجود أو ستر العورة أو إستقبال القبلة أو غير ذلك سقط عنه ما ماعجز عنه و إنما يجب عليه ما إذا أراد فعل إرادة جازمة أمكنه فعله و كذلك الصيام إتفقوا على أنه يسقط بالعجز عن مثل الشيخ الكبير و العجوز الكبير الذين يعجزون عن أداء و قضاء و إنما تنازعوا هل على مثل ذلك الفدية بالإطعام فأوجبها الجمهور كأبى حنيفة و الشافعي و أحمد و لم يوجبها مالك[1]

بيان بطلان قول وقوع التكليف بالممتنع لذاته

و الذين زعموا و قوع التكليف بالممتنع لذاته كالرازي و غيره إحتجوا بإن الله كلف أبا لهب بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن و إخباره بإنه لا يؤمن فكلفه بالجمع بين النقيضين بأن يفعل الشيء و بأن يصدق أنه لا يكون مصدقا بذلك و هو صادق فى تصديقه إذا لم يكن و إحتجوا بأنه كلف خلاف المعلوم و خلاف المعلوم محال فيكون حقيقة التكليف أنه يجعل علم الله جهلا و هذا ممتنع لذاته و هؤلاء جعلوا لفظ مالا يطاق لفظا عاما يدخل فيه كل فعل لكون القدرة عندهم لا تكون إلا مع الفعل و يدخل فيه خلاف المعلوم و يدخل فيه المعجوز عنه و يدخل فيه الممتنع لذاته ثم ذكروا نحو عشر حجج يستدلون بها على جواز هذا الجنس فإذا فصل الأمر عليهم ثبت أن دعواهم جواز ما لايطاق للعجز عنه سواء كان ممتنعا لذاته أو ممكنا باطلة لادليل عليها و أما جواز تكليف ما يقدر العبد عليه من العبادة و يقولون هم أنه لا يكون قادرا عليه إلا حين الفعل فهذا مما إتفق الناس على جواز التكليف به لكن ثم نزاع لفظي و معنوى فى كونه يدخل فيما لا يطاق فصار ما أدخلوه فى هذا الأسم أنواعا مختلفة منها ما ينازعون في جوازه أو و قوعه و منها ما ينازعون فى إسمه و

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 437-439

صفته لا فى و قوعه أما تكليف أبى لهب و غيره بالإيمان فهذا حق و هو إذا أمر أن يصدق الرسول فى كل ما يقوله و أخبر مع ذلك أنه لا يصدقه بل يموت كافرا لم يكن هذا متناقضا و لا هو مأمور أن يجمع بين النقيضين فإنه مأمور بتصديق الرسول فى كل ما بلغ و هذا التصديق لا يصدر منه فإذا قيل له أمرناك بأمر و نحن نعلم أنك لا تفعله لم يكن هذا تكليفا للجمع بين النقيضين فإن قال تصديقكم في كل ما تقولون يقتضى أن أكون مؤمنا إذا صدقتكم و إذا صدقتكم لم أكن مؤمنا لأنكم أخبرتم أنى لا أؤمن بكل ما أخبر به قيل له لو و قع منك لم يكن فيه هذا الخبر و لم يكن يخبر أنك لا تؤمن فأنت قادر على تصديقنا و بتقدير و جوده لا يحصل هذا الخبر و إنما و قع لأنك أنت لم تفعل ما قدرت عليه من تصديقنا بهذا الخبر فوقع بعد تكذيبك و تركك ما كنت قادرا عليه لم نقل لك حين أمرناك بالتصديق العام و أنت قادر عليه و لو قيل لك آمن و نحن نعلم أنك لا تؤمن بهذا الخبر فالذي أمرت أن تؤمن به هو الإخبار بأن محمدا رسول الله و هذا أنت قادر عليه و لا تفعله و إذا صدقتنا فى خبرنا أنك لا تؤمن لم يكن هنا تناقض لكن لايمكن الجمع بين الإيمان و التصديق فإنه لم يقع و نحن لم نأمرك بهذا بل أمرناك بإيمان مطلق تقدر عليه و أخبرنا مع ذلك أنك لا تفعل ذلك المقدور عليه و لم نقل لك صدقنا فى هذا و هذا فى حال و احدة لكن الواجب عليك هو التصديق المطلق و التصديق بهذا لايجب عليك حينئذ و لو و قع منك التصديق المطلق إمتنع منا هذا الخبر بل هذا الخبر إنما و قع لما علمنا أنه لايقع منك التصديق المطلق و هذا كله لو قدر أن أبا لهب أسمع هذه الآية و أمر بالتصديق بها و ليس الأمر كذلك لكن لما أنزل الله قوله {سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ } المسد3 لم يسلم لهم أن الله أمر نبيه بإسماع هذا الخطاب لأبي لهب و أمر أبا لهب بتصديقه بل لا يقدر أحد أن ينقل أن النبى صلى عليه و سلم أمر أبا لهب أن يصدق بنزول هذه السورة فقوله أنه أمر أن يصدق بأنه لايؤمن قول باطل لم ينقله أحد من علماء المسلمين فنقله عن النبى صلى الله عليه و سلم قول بلا علم بل كذب عليه فإن قيل فقد كان الإيمان و اجبا على أبي لهب و من الإيمان أن يؤمن بهذا قيل له لانسلم أنه بعد نزول هذه السورة و جب على الرسول أن يبلغه إياها بل و لا غيرها بل حقت عليه كلمة العذاب كما حقت على قوم نوح إذ قيل له { أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } هود36 و بعد ذلك لا يبقى الرسول مأمور بتبليغهم الرسالة فإنه قد بلغهم فكفروا حتى حقت عليهم كلمة العذاب باعيانهم و قد يخبر الله الرسول عن معين أنه لا يؤمن لكن لا يأمره أن يعلمه بذلك بل هو مأمور بتبليغه و إن كان الرسول يعلم أنه لا يؤمن كالذين قال الله فيهم {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ {96} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{97} يونس96 -97 و قوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } البقرة6 فهؤلاء قد يعلم بعض الملائكة و بعض البشر من الأنبياء و غيرهم فى معين منهم أنه لايؤمن و إن كانوا مأمورين بتبليغه أمر الله و نهيه و ليس فى ذلك تكليفه بالجمع بين النقيضين و ذلك خلاف المعلوم فإن الله يفعل ما يشاء بقدوته و ما لايشاء يعلم أنه لا يفعله و أنه قادر عليه لو شاء لفعله و علمه أنه لا يفعله لايمنع أن يكون قادرا عليه و العباد الذين علم الله أنهم يطيعونه بإرادتهم و مشيئتهم و قدرتهم و إن كان خالقا لذلك فخلقه لذلك أبلغ فى علمه به قبل أن يكون كما قال تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } الملك14 و ما لم يفعلوه فما أمرهم به يعلم أنه لا يكون لعدم إرادتهم له لالعدم قدرتهم عليه و ليس الأمر به أمرا بما يعجزون عنه بل هو أمر بما لو أرادوه لقدروا على فعله لكنهم لا يفعلونه لعدم إرادتهم له وجهم و من و افقه من المعتزلة إشتركوا فى أن مشيئة الله و محبته و رضاه بمعنى و احد ثم قالت المعتزلة و هو لا يحب الكفر و الفسوق و العصيان فلا يشاؤه فقالوا إنه يكون بلا مشيئة و قالت الجهمية بل هو يشاء ذلك فهو يحبه و يرضاه و أبو الحسن و أكثر أصحابه و افقوا هؤلاء فذكر أبو المعالي الجويني أن أبا الحسن أول من خالف السلف فى هذه

المسألة و لم يفرق بين المشيئة و المحبة و الرضا و أما سلف الأمة و أئمتها و أكابر أهل الفقه و الحديث و التصوف و كثير من طوائف النظار كالكلابية و الكرامية و غيرهم فيفرقون بين هذا و هذا ويقولون أن الله يحب الإيمان و العمل الصالح و يرضى به كما لايأمر و لا يرضى بالكفر و الفسوق و العصيان و لا يحبه كما لا يأمر به و إن كان قد شاءه و لهذا كان حملة الشريعة من الخلف و السلف متفقين على أنه لو حلف ليفعلن و اجبا أو مستحبا كقضاء دين يضيق وقته أو عبادة يضيق وقتها و قال إن شاء الله ثم لم يفعله لم يحنث و هذا يبطل قول القدرية و لو قال إن كان الله يحب ذلك و يرضاه فإنه يحنث كما لو قال إن كان يندب الى ذلك و يرغب فيه أو يأمر به أمر إيجاب أو إستحباب و هذا يرد على الجهمية و من إتبعهم كأبى الحسن الأشعري و من و افقه من المتأخرين و بسط هذه الأمور له موضع آخر و المقصود هنا جواب هذه المسألة فإن هذه الإشكالات المذكورة إنما ترد على قول جهم و من وافقه من المتأخرين من أصحاب أبى الحسن الأشعري و غيرهم و طائفة من متأخري أصحاب مالك و الشافعي و أحمد وأما أئمة اصحاب مالك والشافعى وأحمد وعامة اصحاب ابى حنفية فانهم لا يقولون بقول هؤلاء بل يقولون بما اتفق عليه السلف من انه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ويثبتون الفرق بين مشيئته وبين محبته ورضاة فيقولون ان الكفر والفسوق والعصيان وان وقع بمئشئتة فهو لا يحبه ولا يرضاه بل بسخطه ويبغضه ويقولون ارادة الله فى كتابه نوعان نوع بمعنى المشيئة لما خلق كقوله {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء}الأنعام125 ونوع بمعنى محبته ورضاه لما امر به وإن لم يخلقه كقوله { يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ }البقرة185 مايريد الله ليجعل علكيم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته علكيم لعلكم تشكرون {يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {26} وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{27} يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{28}النساء26-28 وبهذا يفضل النزاع في مسألة الامر هل هو مستلزم للادارة ام لا فان القدرية تزعم انه مستلزم للمشيئة فيكون قد شاء المأمور به ولم يكن والجهمية قالوا انه غير مستلوم لشيء من الإرادة لا لحبه له ولا رضاه به الا اذا وقع فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكذلك عندهم ما احبه ورضيه كان وما يحبه لم يرضه لم يكن وتأولوا قوله { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ }الزمر7 على ان المراد ممن لم يقع منه الكفر او لا يرضاه دينا كما يقولون لم يشاه ممن لم يقع منه او لا يشاءه دينا اذاكانوا موافقين للجهمية والقدرية فى انه لا فرق بين المحبة والمشيئة وقد قال الله تعالى {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ }الزمر7 فاخبر انه اذا وقع الكفر من عباده لم يرضه لعباده كما قال { إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ }النساء108 وقال { وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ }البقرة205 مع قوله { وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً}الأنعام125 و فصل الخطاب ان الأمر ليس مستلزما لمشية ان يخلق الرب الآمر الفعل المامور به ولا ارادة ان يفعله بل قد يأمر بما لا يخلقه وذلك متسلوم لمحبه الرب ورضاه من العبد ان يفعله بمعنى انه اذا فعل ذلك احبه ورضيه وهو يريد منه ارادة الآمر من المأمور بما امره به لمصلحته وان لم يريد ان يخلقه وان يعينه عليه لما له فى ترك ذلك من الحكمة فان له حكمه بالغة فيما خلقه وفيما لم يخلقه وفرق بين ان يريد ان يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلا يحسن اليه ويتفضل عليه بالإعانه له على مصلحته وبين ان يأمر غيره بما يصلحة ويبين له ما بنفعة اذا فعله وان كان لا يريد هو نفسه ان يعينه لما فى ترك اعانته من الحكمة لكون الاعانه قد متسزم ماينا قض حكمتة والمنهى عنه الذي خلقة هو يبغضه ويمقته كما يمقت ما خلقه من الاعيان الخبيثة كالشياطين والخبائث ولكنه خلقها لحكمه يحبها ويرضاها ونحن نعلم ان العبد يريد ان

يفعل ما لا يحبه لافضائه الى ما يحبه كما يشرب المريض الدواء الكريه لافضائه الى ما يحبه من العافية ويفعل ما يكرهه من الاعمال لافضائه الى مطلوبه المحبوب له ولا منافاة بين كون الشيء بغيضا اليه مع كونه مخلوقا له لحكمه يحبها وكذلك لا منافاة بين ان يحبه اذا كان ولا يفعله لان فعله قد يستلزم تفويت ما هو احب اليه منه او وجود ما هو ابغض اليه من عدمه [1]

الجمع بين الضدين لم يرد فى الشريعة

وكذلك أيضا تنازعهم في المأمور به الذي علم الله أنه لا يكون أو أخبر مع ذلك أنه لا يكون فمن الناس من يقول أن هذا غير مقدور عليه كما أن غالية القدرية يمنعون أن يتقدم علم الله وخبره وكتابه بأنه لا يكون وذلك لاتفاق الفريقين على أن خلاف المعلوم لا يكون ممكنا ولا مقدورا عليه وقد خالفهم في ذلك جمهور الناس وقالوا هذا منقوض عليهم بقدرة الله تعالى وقالوا أن الله يعلمه على ما هو عليه فيعلمه ممكنا مقدورا للعبد غير واقع ولا كائن لعدم إرادة العبد له أو لبغضه إياه ونحو ذلك لا لعجزه عنه وهذا النزاع يزول بتنويع القدرة عليه كما تقدم فإنه غير مقدور القدرة المقارنة للفعل وإن كان مقدورا القدرة المصححة للفعل التي هي مناط الأمر والنهي وأما النوع الثاني فكاتفاقهم على أن العاجز عن الفعل لا يطيقه كما لا يطيق الأعمى والأقطع والزمن نقط المصحف وكتابته والطيران فمثل هذا النوع قد اتفقوا على أنه غير واقع في الشريعة وإنما تنازعوا في جواز الأمر به عقلا حتى نازع بعضهم في الممتنع لذاته كالجمع بين الضدين والنقيضين هل يجوز الأمر به من جهة العقل مع أن ذلك لم يرد في الشريعة ومن غلا فزعم وقوع هذه الضرب في الشريعة كمن يزعم أن أبا لهب كلف بأن يؤمن بأنه لا يؤمن فهو مبطل في ذلك عند عامة أهل القبلة من جميع الطوائف بل إذا قدر أنه أخبر بصليه النار المستلزم لموته على الكفر وأنه أسمع هذا الخطاب ففي هذا الحال انقطع تكليفه ولم ينفعه الإيمان حينئذ كإيمان من يؤمن بعد معاينة العذاب قال تعالى {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا } غافر85 وقال تعالى {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }يونس91[2]

الولد من كسب الأب

فالوالد أصل الولد الذى منه خلق والولد من كسبه كما قال {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } المسد2 [3]

وقوله تعالى {وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ }البقرة233 ولم يقل وعلى الوالد كما قال {وَالْوَالِدَاتُ }البقرة233 لأن المرأة هى التى تلده وأما الأب فلم يلده بل هو مولود له لكن اذا قرن بينهما قيل {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً }الإسراء23 فأما مع الافراد فليس فى القرآن تسميته والدا بل أبا وفيه بيان أن الولد ولد للأب لا للأم ولهذا كان عليه نفقته حملا وأجرة رضاعه وهذا يوافق قوله تعالى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 471-478

[2] مجموع الفتاوى ج: 3 ص:320- 322

[3] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 356

{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ }الشورى49 فجعله موهوبا للأب وجعل بيته بيته فى قوله { وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ }النور61 وإذا كان الأب هو المنفق عليه جنينا ورضيعا والمرأة وعاء فالولد زرع للأب قال تعالى {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ }البقرة223 فالمرأة هى الأرض المزروعة والزرع فيها للأب وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يسقى الرجل ماءه زرع غيره يريد به النهى عن وطء الحبالى فان ماء الواطىء يزيد فى الحمل كما يزيد الماء فى الزرع وفى الحديث الآخر الصحيح لقد هممت أن العنه لعنة تدخل معه فى قبره كيف يورثه وهو لا يحل له وكيف يستعبده وهو لا يحل له واذا كان الولد للأب وهو زرعه كان هذا مطابقا لقوله أنت ومالك لأبيك وقوله ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه فقد حصل الولد من كسبه كما دلت عليه هذه الآية فان الزرع الذى فى الأرض كسب المزدرع له الذى بذره وسقاه وأعطى أجرة الأرض فان الرجل أعطى المرأة مهرها وهو أجر الوطء كما قال تعالى {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ }الممتحنة10 وهو مطابق لقوله تعالى {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ }المسد2 وقد فسر { وَمَا كَسَبَ }المسد2 بالولد فالأم هى الحرث وهى الأرض التى فيها زرع والأب استأجرها بالمهر كما يستأجر الأرض وأنفق على الزرع بانفاقه لما كانت حاملا ثم أنفق على الرضيع كما ينفق المستأجر على الزرع والثمر اذا كان مستورا واذا برز فالزرع هو الولد وهو من كسبه وهذا يدل على أن للأب أن يأخذ من ماله مالا يضر به كما جاءت به السنة وان ماله للأب مباح وان كان ملكا للإبن فهو مباح للأب أن يملكه والا بقى للابن فاذا مات ولم يتملكه ورث عن الابن وللأب أيضا أن يستخدم الولد مالم يضر به وفى هذا وجوب طاعة الأب على الابن اذا كان العمل مباحا لا يضر بالابن فانه لو استخدم عبده فى معصية أو اعتدى عليه لم يجز فالابن أولى ونفع الابن له اذا لم يأخذه الأب بخلاف نفع المملوك فانه لمالكه كما أن ماله لو مات لمالكه لا لوارثه [1]

من التذكير ما لم ينفع أصلا

من التذكير ما لم ينفع أصلا و هو ما لم يؤمر به و ذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن كأبى لهب فإنه بعد أن أنزل الله قوله {سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ }المسد3 فإنه لا يخص بتذكير بل يعرض عنه[2]

نكاح الجاهلية نكاح صحيح

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله عن قوله صلى الله عليه وسلم ولدت من نكاح لا من سفاح ما معناه فأجاب الحمد لله الحديث معروف من مراسيل علي بن الحسين رضي الله عنهما وغيره ولفظه ولدت من نكاح لا من سفاح لم يصبني من نكاح الجاهلية شيء فكانت مناكحهم في الجاهلية على أنحاء متعددة وسئل رحمه الله عن النكاح قبل بعثة الرسل أهو صحيح أم لا فأجاب كانت مناكحهم في الجاهلية على أنحاء متعددة منها نكاح الناس اليوم وذلك النكاح في الجاهلية صحيح عند جمهور العلماء وكذلك سائر مناكح أهل الشرك التي لا تحرم في الإسلام ويلحقها أحكام

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 67-70 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 295-297

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 158

النكاح الصحيح من الإرث والايلاء واللعان والظهار وغير ذلك وحكي عن مالك أنه قال نكاح أهل الشرك ليس بصحيح ومعنى هذا عنده أنه لو طلق الكافر ثلاثا لم يقع به طلاق ولو طلق المسلم زوجته الذمية ثلاثا فتزوجها ذمي ووطئها لم يحلها عنده ولو وطئ ذمي ذمية بنكاح لم يصر بذلك محصنا وأكثر العلماء يحالفونه في هذا وأما كونه صحيحا في لحوق النسب وثبوت الفراش فلا خلاف فيه بين المسلمين فليس هو بمنزلة وطء الشبهة بل لو أسلم الزوجان الكافران أقرا على نكاحهما بالإجماع وإن كانا لا يقران على وطء شبهة وقد أحتج الناس بهذا الحديث على أن نكاح الجاهلية نكاح صحيح واحتجوا بقوله {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ }المسد4 وقوله { اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ }التحريم11 وقالوا قد سماها الله إمرأة والأصل في الأطلاق الحقيقة والله أعلم [1]

لطائف لغوية

1- والتتبيب عبر عنه الأكثرون بأنه التخسير كقوله تعالى {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ }المسد1 وقيل التثبير والإهلاك [2]

2- قال تعالى {مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ }المسد2 أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضر كما قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ }البقرة286 فبين سبحانه أن كسب النفس لها أوعليها و الناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك[3]

3-لفظ الذات في الأصل تأنيث ذو كقوله {سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ }المسد3 وهي تستلزم الإضافة[4]

فإن ذات تأنيث ذو وهو يستعمل مضافا يتوصل به إلى الوصف بالأجناس فإذا كان الموصوف مذكرا قيل ذو كذا وإن كان مؤنثا قيل ذات كذا كما يقال ذات سوار

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 174
[2] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 275
[3] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 387
[4] الصفدية ج: 1 ص: 109

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

[1]مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 334

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الإخلاص
112

رقية محمود الغرايبة

~§§ الإخلاص(مكية)4 §§~

مقدمة سورة الاخلاص

الآية أو السورة قد تنزل مرتين و أكثر

و سورة قل هو الله أحد أكثرهم على أنها مكية و قد ذكر فى أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة و سؤال الكفار من أهل الكتاب و اليهود بالمدينة و لا منافاة فإن الله أنزلها بمكة أولا ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى و هذا مما ذكره طائفة من العلماء و قالوا إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين و أكثر من ذلك فما يذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقا و المراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها نزل جبريل فقرأها عليه ليعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب و إن كان الرسول يحفظها قبل ذلك و الواحد منا قد يسأل عن مسالة فيذكر له الآية أو الحديث ليبين له دلالة النص على تلك المسألة و هو حافظ لذلك لكن يتلى عليه ذلك النص ليتبين و جه دلالته على المطلوب [1]

فضل سورة الاخلاص

يقال ايما افضل هذا العلم او هذا العلم فالعلوم بعضها افضل من بعض فالعلم بالله افضل من العلم بخلقه ولهذا كانت آية الكرسى افضل آية فى القرآن لأنها صفة الله تعالى وكانت قل هو الله احد تعدل ثلث القرآن [2]

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي انزل الله به كتبه وارسل به رسله وهو من الدين فان رسالة الله اما اخبار واما انشاء فالاخبار عن نفسه عز وجل وعن خلقه مثل التوحيد والقصص الذي يندرج فيه الوعد والوعيد والانشاء الامر والنهي والاباحة وهذا كما ذكر في الحديث ان قل هو الله احد سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن لتضمنها الثلث الذي هو التوحيد لأن القرآن توحيد وامر وقصص ثلاثة اثلاث وثلث التوحيد افضل من غيره [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص:191- 192

[222] مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 306

[3] الاستقامة ج: 2 ص: 199 ومجموع الفتاوى ج: 22 ص: 376

الذي أخرجه أصحاب الصحيح كالبخاري ومسلم فأخرجوا فضل قل هو الله أحد
وروى عن الدار قطنى أنه قال لم يصح فى فضل سورة أكثر مما صح فى فضلها و كذلك أخرجوا فضل فاتحة الكتاب قال فيها إنه لم ينزل فى التوراة و لا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها لم يذكر فيها أنها تعدل جزءا من القرآن كما قال فى قل هو الله أحد إنها تعدل ثلث القرآن ففي صحيح البخاري عن الضحاك المشرقي عن أبى سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لصحابه أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن فى ليلة فشق ذلك عليهم و قالوا أينا يطيق ذلك يا رسول الله قال الله الواحد الصمد ثلث القرآن وفى صحيح مسلم عن معدان بن أبى طلحة عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه و سلم قال أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن قالوا و كيف يقرأ ثلث القرآن قال قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن
وروى مسلم أيضا عن ابى الدرداء عن النبى صلى الله عليه و سلم قال إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءا من أجزاء القرآن وفي صحيح البخاري عن عبدالرحمن بن عبدالله بن أبي صعصعة عن أبي سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو الله حد يرددها فلما أصبح جاء إلى النبى صلى الله عليه و سلم فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالها فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن وأخرج عن أبي سعيد قال أخبرني أخي قتادة بن النعمان أن رجلا قام فى زمن رسول الله يقرأ من السحر قل هو الله أحد لا يزيد عليها الحديث بنحوه وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إحشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن قال فحشد من حشد ثم خرج نبى الله صلى الله عليه و سلم فقرأ قل هو الله أحد ثم دخل فقال بعضنا لبعض إنى أري هذا خبرا جاءه من السماء فذاك الذي أدخله ثم خرج نبى الله صلى الله عليه وسلم فقال إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن وفي لفظ له قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ قل هو الله أحد الله الصمد حتى ختمها [1]

التوحيد الذي جاءت به الرسل

لما سأل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم عن نسب ربه أنزل الله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4}الاخلاص 1-4 فلم يخرج من شيء ولا يخرج منه شيء ولا له مثل[2]

والتوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب هو توحيد الإلهية وهو أن يعبد الله وحده لا شريك له وهو متضمن لشيئين أحدهما القول العملي وهو إثبات صفات الكمال له وتنزيهه عن النقائص وتنزيهه عن أن يماثله احد في شيء من صفاته فلا يوصف بنقص بحال ولا يماثله أحد في شيء من الكمال كما قال تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4}الاخلاص 1-4 فالصمدية تثبت له الكمال والاحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع والتوحيد العملي الإرادي أن لا يعبد إلا إياه فلا يدعو إلا إياه ولا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 6-8

[2] النبوات ج: 1 ص: 75

يتوكل إلا عليه ولا يخاف إلا إياه ولا يرجو إلا إياه ويكون الدين كله لله قال تعالى قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين سورة الكافرون وهذا التوحيد يتضمن أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه لا شريك له في الملك[1]

التوحيد القولي

والله أرسل رسوله بالاسلام والايمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر فالاعمال عبادة الله والعلوم تصديق الرسول[2]

و أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله كما قال تعالى {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ {92} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{93}الحجر92-93 قال أبو العالية خلتان تسأل العباد يوم القيامة عنهما عما كانوا يعملون وعما اجابوا الرسل فالأولى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله والثانية تحقيق الشهادة بان محمدا رسول الله ولهذا يقرر الله هذين الأصلين فى غير موضع من القرآن بل يقدمهما على كل ما سواهما لأنهما أصل ألأصول ومن هذا قوله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 وكان النبى يقرأ فى ركعتى الفجر بسورتى الإخلاص تارة وتارة قوله تعالى {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ }البقرة136 الآيات وفى الثانية {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران64 وهذا باب واسع لأن الناس مضطرون إلى هذين الأصلين فلا ينجون من العذاب ولا يسعدون إلا بهما فعليهم أن يؤمنوا بالأنبياء وما جاؤا به وأصل ما جاؤا به أن لا يعبدوا إلا الله وحده كما قال{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه هم وسائط بين الله وبين خلقه فى تبليغ كلامه وأمره ونهيه ووعده ووعيده وأنبائه التى أنبأ بها عن أسمائه وصفاته وملائكته وعرشه وما كان وما يكون[3]

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر بسورتي الإخلاص قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد وتارة يقرأ في الأولى بآية الإيمان التي في البقرة {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }البقرة136 الآية وفي الثانية بآية الإسلام في آل عمران {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ

---

[1] الصفدية ج: 2 ص: 228

[2] النبوات ج: 1 ص: 86

[3] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 279 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 172

شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 64[1]

فان الله يثيب عبده على قل هو الله أحد مع قلة حروفها بقدر ما يثيبه على ثلث القرآن[2]

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204 و الصفدية ج: 2 ص: 312

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 455

سورة الاخلاص 1-4

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4}

صفة الرحمن

الحمد لله الأحاديث المأثورة عن النبى صلى الله عليه و سلم فى فضل قل هو الله أحد و أنها تعدل ثلث القرآن من أصح الأحاديث و أشهرها حتى قال طائفة من الحفاظ كالدارقطنى لم يصح عن النبى صلى الله عليه و سلم فى فضل سورة من القرآن أكثر مما صح عنه فى فضل قل هو الله أحد و جاءت الأحاديث بالألفاظ كقوله قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن و قوله من قرأ قل هو الله أحد مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن و من قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن و من قرأها ثلاثا فكأنما قرأ القرآن كله و قوله للناس إحتشدوا حتى أقرأ عليكم ثلث القرآن فحشدوا حتى قرأ عليهم قل هو الله أحد قال و الذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن وأما توجيه ذلك فقد قالت طائفة من أهل العلم أن القرآن بإعتبار معانيه ثلاثة أثلاث ثلث توحيد و ثلث قصص و ثلث أمر و نهي و قل هو الله أحد هي صفة الرحمن و نسبه و هي متضمنة ثلث القرآن و ذلك لأن القرآن كلام الله تعالى و الكلام إما إنشاء و إما إخبار فالإنشاء هو الأمر و النهي و ما يتبع ذلك كالإباحة و نحوها و هو الإحكام و الإخبار إما إخبار عن الخالق و إما إخبار عن المخلوق فالإخبار عن الخالق هو التوحيد و ما يتضمنه من أسماء الله و صفاته و الإخبار عن المخلوق هو القصص و هو الخبر عما كان و عما يكون و يدخل فيه الخبر عن الأنبياء و أممهم و من كذبهم و الإخبار عن الجنة و النار و الثواب و العقاب قالوا فبهذا الإعتبار تكون قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لما فيها من التوحيد الذي هو ثلث معانى القرآن بقي أن يقال فإذا كانت تعدل ثلث القرآن مع قلة حروفها كان للرجل أن يكتفي بها عن سائر القرآن فيقال فى جواب ذلك إن النبى صلى الله عليه و سلم قال إنها تعدل ثلث القرآن و عدل الشيء بالفتح يقال على ما ليس من جنسه كما قال تعالى أو عدل ذلك صياما فجعل الصيام عدل كفارة و هما جنسان و لاريب أن الثواب أنواع مختلفة فى الجنة فإن كل ما ينتفع به العبد و يلتذ به من مأكول و مشروب و منكوح و مشموم هو من الثواب و أعلاه النظر إلى و جه الله تعالى و إذا كانت أحوال الدنيا لإختلاف منافعها يحتاج إليها كلها و إن كان بعضها يعدل ما هو أكبر منه فى الصورة كما أن الف دينار تعدل من الفضة و الطعام و الثياب و غير ذلك ما هو أكبر منها ثم من ملك الذهب فقد ملك ما يعدل مقدار ألف دينار من ذلك و إن كان لا يستغني بذلك عن سائر أنواع المال التى ينتفع بها لأن المساواة و قعت في القدر لا فى النوع و الصفة فكذلك ثواب قل هو الله أحد و إن كان يعدل ثواب ثلث القرأن فى القدر فلا يجب أن يكون مثله في النوع و الصفة و أما سائر القرآن ففيه من الأمر و النهي و الوعد و الوعيد ما يحتاج إليه العباد فلهذا كان الناس محتاجين لسائر القرآن و منتفعين به منفعة لا تغني عنها

هذه السورة و إن كانت تعدل ثلث القرآن فهذه المسالة مبنية على أصل و هو أن القرآن هل يتفاضل في نفسه فيكون بعضه أفضل من بعض و هذا فيه للمتأخرين قولان مشهوران منهم من قال لا يتفاضل فى نفسه لأنه كله كلام الله و كلام الله صفة له قالوا و صفة الله لا تتفاضل لا سيما مع القول بأنه قديم فإن القديم لا يتفاضل كذلك قال هؤلاء فى قوله تعالى {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا }البقرة106 قالوا فخير إنما يعود إلى غير الآية مثل نفع العباد و ثوابهم والقول الثاني أن بعض القرآن أفضل من بعض و هذا قول الأكثرين من الخلف و السلف فإن النبى صلى الله عليه و سلم قال فى الحديث الصحيح في الفاتحة أنه لم ينزل فى التوراة و لا في الإنجيل و لا الزبور و لا القرآن مثلها فنفى أن يكون لها مثل فكيف يجوز أن يقال إنه متماثل و قد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال لأبي بن كعب يا أبا المنذر أتدري أي آية فى كتاب الله أعظم قال الله لا إله إلا هو الحي القيوم فضرب بيده فى صدره و قال له ليهنك العلم أبا المنذر فقد بين أن هذه الآية أعظم آية فى القرآن و هذا بين أن بعض الآيات أعظم من بعض و أيضا فإن القرآن كلام الله و الكلام يشرف بالمتكلم به سواء كان خبرا أو أمرا فالخبر يشرف بشرف المخبر و بشرف المخبر عنه و الأمر يشرف بشرف الآمر و بشرف المأمور به فالقرآن و إن كان كله مشتركا فإن الله تكلم به لكن منه ما أخبر الله به عن نفسه و منه ما أخبر به عن خلقه و فيه ما أمرهم به فمنه ما أمرهم فيه بالإيمان و نهاهم فيه عن الشرك و منه ما أمرهم به بكتابة الدين و نهاهم فيه عن الربا و معلوم أن ما أخبر به عن نفسه قل هو الله أحد أعظم مما أخبر به عن خلقه تبت يدا أبى لهب و ما أمر فيه بالإيمان و مات نهى فيه عن الشرك أعظم مما أمر فيه بكتابة الدين و نهي فيه عن الربا و لهذا كان كلام العبد مشتركا بالنسبة إلى العبد و هو كلام لمتكلم و احد ثم إنه يتفاضل بحسب المتكلم فيه فكلام العبد الذي يذكر به ربه و يأمر فيه بالمعروف و ينهى فيه عن المنكر أفضل من كلامه الذي يذكر فيه خلقه و يأمر فيه بمباح أو محظور و إنما غلط من قال بالأول لأنه نظر إلى إحدى جهتى الكلام و هى جهة المتكلم به و أعرض عن الجهة الأخرى و هي جهة المتكلم فيه و كلاهما للكلام به تعلق يحصل به التفاضل و التماثل قالوا و ما أعاد التفاضل إلى مجرد كثرة الثواب أو قلته من غير أن يكون الكلام فى نفسه أفضل كان بمنزلة من جعل عملين متساويين و ثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر مع أن العملين فى أنفسهما لم يختص أحدهما بمزية بل كدرهم و درهم تصدق بهما رجل و احد فى و قت و احد و مكان

و احد على إثنين متساويين فى الإستحقاق و نيته بهما و احدة و لم يتميز أحدهما على الآخر بفضيلة فكيف يكون ثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر بل تفاضل الثواب و العقاب دليل على تفاضل الأعمال فى الخير و الشر و هذا الكلام متصل بالكلام فى إشتمال الأعمال على صفات بها كانت صالحة حسنة و بها كانت فاسدة قبيحة و قد بسط هذا فى غير هذا الموضع و قول من قال صفات الله لا تتفاضل و نحو ذلك قول لا دليل عليه بل هو مورد النزاع و من الذي جعل صفته التى هي الرحمة لا تفضل على صفته التى هي الغضب و قد ثبت عن النبى صلى الله عليه و سلم إن الله كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى و فى رواية تسبق غضبى و صفة الموصوف من العلم و الإرادة و القدرة و الكلام و الرضا و الغضب و غير ذلك من الصفات تتفاضل من و جهين أحدهما أن بعض الصفات أفضل من بعض و أدخل في كل الموصوف بها فإنا نعلم أن إتصاف العبد بالعلم و القدرة و الرحمة أفضل من إتصافه بضد ذلك لكن الله تعالى لا يوصف بضد ذلك و لا يوصف إلا بصفات الكمال و له الأسماء الحسنى يدعى بها فلا يدعى إلا بأسمائه الحسنى و أسماؤه متضمنة لصفاته و بعض أسمائه أفضل من بعض و أدخل في كمال الموصوف بها و لهذا في الدعاء المأثور أسألك بإسمك العظيم الأعظم الكبير الأكبر و لقد

دعا الله بإسمه العظيم الذي إذا دعى به أجاب و إذا سئل به أعطى و أمثال ذلك فتفاضل الأسماء و الصفات من الأمور البينات و الثانى أن الصفة الواحدة قد تتفاضل فالأمر بمأمور يكون أكمل من الأمر بمأمور آخر و الرضا عن النبيين أعظم من الرضا عمن دونهم و الرحمة لهم أكمل من الرحمة لغيرهم و تكليم الله لبعض عباده أكمل من تكليمه لبعض و كذلك سائر هذا الباب و كما أن أسماءه و صفاته متنوعة فهي أيضا متفاضلة كما دل على ذلك الكتاب و السنة و الإجماع مع العقل و إنما شبهة من منع تفاضلها من جنس شبهة من منع تعددها و ذلك يرجع إلى نفي الصفات كما يقوله الجهمية لما إدعوه من التركيب و قد بينا فساد هذا مبسوطا فى موضعه و سئل عمن يقرأ القرآن هل يقرأ سورة الإخلاص مرة أو ثلاثا و ما السنة في ذلك فأجاب إذا قرأ القرآن كله ينبغي أن يقرأها كما فى المصحف مرة و احدة هكذا قال العلماء لئلا يزاد ما في المصحف و أما إذا قرأها و حدها أو مع بعض القرآن فإنه إذا قرأها ثلاث مرات عدلت القرآن و الله أعلم [1]

الرب تعالى موصوف بصفات الكمال

فالله سبحانه بعث الرسل بما يقتضى الكمال من إثبات أسمائه وصفاته على وجه التفصيل والنفي على طريق الإجمال للنقص والتمثيل فالرب تعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها منزه عن النقص بكل وجه ممتنع وأن يكون له مثيل في شيء من صفات الكمال فأما صفات النقص فهو منزه عنها مطلقا وأما صفات الكمال فلا يماثله بل ولا يقاربه فيها شيء من الأشياء والتنزيه يجمعه نوعان نفي النقص ونفي مماثلة غيره له في صفات الكمال كما دل على ذلك سورة قل هو الله أحد وغيرها من القرآن مع دلالة العقل على ذلك وإرشاد القرآن إلى ما يدل على ذلك من العقل بل وقد أخبر الله أن في الآخرة من أنواع النعيم ما له شبه في الدنيا كأنواع المطاعم والمشارب والملابس والمناكح وغير ذلك وقد قال ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فحقائق تلك أعظم من حقائق هذه بما لا يعرف قدره وكلاهما مخلوق والنعيم الذي لا يعرف جنسه قد أجمله الله سبحانه وتعالى بقوله {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ }السجدة17 وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فإذا كان هذان المخلوقان متفقين في الإسم مع أن بينهما في الحقيقة تباينا لا يعرف في الدنيا قدره فمن المعلوم أن ما يتصف به الرب من صفات الكمال مباين لصفات خلقه أعظم من مباينة مخلوق لمخلوق ولهذا قال أعلم الخلق بالله في الحديث الصحيح لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وقال في الدعاء المأثور الذي رواه أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما أصاب عبدا هم قط ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكان حزنه فرحا قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لكل من سمعهن أن يتعلمهن فبين أن لله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك ولا نبي وأسماؤه تتضمن صفاته

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 206 -213

ليست أسماء أعلام محضة كاسمه العليم والقدير والرحيم والكريم والمجيد والسميع والبصير وسائر أسمائه الحسنى سبحانه وتعالى وهو سبحانه مستحق للكمال المطلق لأنه واجب الوجود بنفسه يمتنع العدم عليه ويمتنع أن يكون مفتقرا إلى غيره بوجه من الوجوه إذ لو افتقر إلى غيره بوجه من الوجوه كان محتاجا إلى الغير والحاجة إما إلى حصول كمال له وإما إلى دفع ما ينقص كماله ومن احتاج في شيء من كماله إلى غيره لم يكن كماله موجودا بنفسه بل بذلك الغير وهو بدون ذلك الكمال ناقص والناقص لا يكون واجبا بنفسه بل ممكنا مفتقرا إلى غيره لأنه لو كان واجبا بنفسه مع كونه ناقصا مفتقرا إلى كمال من غيره لكان الذي يعطيه الكمال إن كان ممكنا فهو مفتقر إلى واجب آخر والقول في هذا كالقول في الأول وإن كان واجبا ناقصا فالقول فيه كالقول في الأول وإن كان واجبا كاملا فهذا هو الواجب بنفسه وذاك الذي قدر واجبا ناقصا فهو مفتقر إلى هذا في كماله وذاك غنى عنه فهذا هو رب ذاك وذاك عبده ويمتنع مع كونه مربوبا معبدا أن يكون واجبا ففرض كونه واجبا ناقصا محال وأيضا فيمتنع أن يكون نفس ما هو واجب بنفسه فيه نقص يفتقر في زواله إلى غيره لأن ذلك النقص حينئذ يكون ممكن الوجود وإلا لما قبله وممكن العدم وإلا لكان لازما له لا يقبل الزوال والتقدير أنه ممكن زواله بحصول الكمال الممكن الوجود فإن ما هو ممتنع لا يكون كمالا وما هو ممكن فإما أن يكون للواجب أو من الواجب ويمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق فالخالق الواجب بنفسه أحق بالكمال الممكن الوجود الذي لا نقص فيه فلا تكون ذاته مستلزمة لذلك الكمال فيكون ذلك الكمال إذا وجد مفتقرا إليه وإلى ذلك الغير الآخر يحصل بهما جميعا وكل منهما واجب بنفسه فلا يكون ذلك الأثر لا من هذا ولا من هذا بل هو شيء منفصل عنهما وتحقيق ذلك أن كمال الشيء هو من نفس الشيء وداخل فيه فالواجب بنفسه لا يكون واجبا إن لم يكن ما هو داخل في نفسه واجب الوجود لا يفتقر فيه إلى سبب منفصل عنه فمتى افتقر فيما هو داخل فيه إلى سبب منفصل عنه لم تكن نفسه واجبة بنفسه وما لا يكون داخلا في نفسه لا يكون من كماله أيضا بل يكون شيئا مباينا له وإنما يكون ذلك شيئين أحدهما واجب بنفسه والآخر شيء قرن به وضم إليه وأيضا فنفس واجب الوجود هو أكمل الموجودات إذ الواجب أكمل من الممكن بالضرورة فكل كمال ممكن له إن كان لازما له امتنع أن يكون كماله مستفادا من غيره أو أن يحتاج فيه إلى غيره وإن لم يكن لازما له فإن لم يكن قابلا له من قبول غيره من الممكنات له كان الممكن أكمل من الواجب وما لا يقبله لا واجب ولا ممكن ليس كمالا وإن كان قابلا له ولم تكن ذاته مستلزمة له كان غيره معطيا له إياه والمعطى للكمال هو أحق بالكمال فيكون ذلك المعطى أكمل منه وواجب الوجود لا يكون غيره أكمل منه وإذا قيل ذلك الغير واجب أيضا فإن لم يكن كاملا بنفسه كان كل منهما معطيا للآخر الكمال وهذا ممتنع لأنه يستلزم كون كل من الشيئين مؤثرا في الآخر أثرا لا يحصل إلا بعد تأثير الآخر فإن هذا لا يفيد ذلك الكمال للآخر حتى يكون كاملا ولا يكون كاملا حتى يفيده الآخر الكمال وهذا ممتنع كما يمتنع أن لا يوجد هذا حتى يوجده ذاك ولا يوجد ذاك حتى يوجده هذا وإن كان ذلك الغير واجبا كاملا بنفسه مكملا لغيره والآخر واجب ناقص يحتاج في كماله إلى ذلك الكامل المكمل كان جزء منه مفتقرا إلى ذاك وما افتقر جزء منه إلى غيره لم تكن جملته واجبة بنفسها وإيضاح ذلك أن الواجب بنفسه إما أن يكون شيئا واحدا لا جزء له أو يكون أجزاء فإن كان شيئا واحدا لا جزء له امتنع أن يكون له بعض فضلا عن أن يقال بعضه يفتقر إلى الغير وبعضه لا يفتقر إلى الغير وامتنع أن يكون شيئين أحدهما نفسه والآخر كماله وإن قيل هو جزءان أو أجزاء كان الواجب هو مجموع تلك الأجزاء فلا يكون واجبا بنفسه حتى يكون المجموع واجبا بنفسه فمتى كان البعض مفتقرا إلى سبب منفصل عن المجموع لم يكن واجبا بنفسه وهذا المقام برهان بين لمن تأمله وبيانه أن الناس متنازعون في إثبات الصفات لله فأهل السنة يثبتون الصفات لله وكثير

من الفلاسفة والشيعة يوافقهم على ذلك وأما الجهمية وغيرهم كالمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة والفلاسفة كابن سينا ونحوه فإنهم ينفون الصفات عن الله تعالى ويقولون إن إثباتها تجسيم وتشبيه وتركيب وعمدة ابن سينا وأمثاله على نفيها هي حجة التركيب وهو أنه لو كان له صفة لكان مركبا والمركب مفتقر إلى جزئيه وجزاءه غيره والمفتقر إلى غيره لا يكون واجبا بنفسه وقد تكلم الناس على إبطال هذه الحجة من وجوه كثيرة بسبب أن لفظ التركيب والجزء والإفتقار والغير ألفاظ مجملة فيراد بالمركب ما ركبه غيره وما كان متفرقا فاجتمع وما يقبل التفريق والله سبحانه منزه عن هذا بالإتفاق وأما الذات الموصوفة بصفات لازمة لها فإذا سمى المسمى هذا تركيبا كان هذا اصطلاحا له ليس هو المفهوم من لفظ المركب والبحث إذا كان في المعاني العقلية لم يلتفت فيه إلى اللفظ فيقال هب أنكم سميتم هذا تركيبا فلا دليل لكم على نفيه ومن هذا الوجه ناظرهم أبو حامد الغزالي في التهافت وكذلك لفظ الجزء يراد به بعض الشيء الذي ركب منه كأجزاء المركبات من الأطعمة والنباتات والأبنية وبعضه الذي يمكن فصله عنه كأعضاء الإنسان ويراد به صفته اللازمة له كالحيوانية للحيوان والإنسانية للإنسان والناطقية للناطق ويراد به بعضه الذي لا يمكن تفريقه كجزء الجسم الذي لا يمكن مفارقته له إما الجوهر الفرد وإما المادة والصورة عند من يقول بثبوت ذلك ويقول إنه لا يوجد إلا بوجود الجسم وإما غير ذلك عند من لا يقول بذلك فإن الناس متنازعون في الجسم هل هو مركب من المادة والصورة أو من الجواهر المنفردة أو لا من هذا ولا من هذا على ثلاثة أقوال وأكثر العقلاء على القول الثالث كالهشامية والنجارية والضرارية والكلابية والأشعرية وكثير من الكرامية وكثير من أهل الفقه والحديث والتصوف والمتفلسفة وغيرهم والمقصود هنا أن لفظ الجزء له عدة معان بحسب الإصطلاحات وكذلك لفظ الغير يراد به ما باين الشيء فصفة الموصوف وجزؤه ليس غيرا له بهذا الإصطلاح وهذا هو الغالب على الكلابية والأشعرية وكثير من أهل الحديث والتصوف والفقهاء أتباع الأئمة الأربعة وكثير من الشيعة وقد يقولون الغيران ما جاز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود وقد يراد بلفظ الغير ما لم يكن هو الآخر وهذا هو الغالب على اصطلاح المعتزلة والكرامية ومن وافقهم من الشيعة والفلاسفة وكذلك لفظ الإفتقار يراد به التلازم ويراد به افتقار المعلوم إلى علته الفاعلة ويراد به افتقاره إلى محله وعلته القابلة وهذا اصطلاح المتفلسفة الذين يقسمون لفظ العلة إلى فاعلية وغائية ومادية وصورية ويقولون المادة وهي القابل والصورة هما علتا الماهية والفاعل والغاية هما علتا وجود الحقيقة وأما سائر النظار فلا يسمون المحل الذي هو القابل علة فهذه الحجة التي احتج بها هؤلاء الفلاسفة ومن وافقهم على نفي الصفات مؤلفة من ألفاظ مجملة فإذا قالوا لو كان موصوفا بالعلم والقدرة ونحو ذلك من الصفات لكان مركبا والمركب مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره والمفتقر إلى غيره لا يكون واجبا بنفسه قيل لهم قولكم لكان مركبا إن أردتم به لكان غيره قد ركبه أو لكان مجتمعا بعد افتراقه أو لكان قابلا للتفريق فاللازم باطل فإن الكلام هو في الصفات اللازمة للموصوف التي يمتنع وجوده بدونها فإن الرب سبحانه يمتنع أن يكون موجودا وهو ليس بحي ولا عالم ولا قادر وحياته وعلمه وقدرته صفات لازمة لذاته وإن أردتم بالمركب الموصوف أو ما يشبه ذلك قيل لكم ولم قلتم إن ذلك ممتنع قولهم والمركب مفتقر إلى غيره قيل أما المركب بالتفسير الأول فهو مفتقر إلى ما يباينه وهذا ممتنع على الله وأما الموصوف بصفات الكمال اللازمة لذاته الذي سميتموه أنتم مركبا فليس في اتصافه هنا بها ما يوجب كونه مفتقرا إلى مباين له فإن قلتم هي غيره وهو لا يوجد إلى بها وهذا افتقار إليها قيل لكم إن إردتم بقولكم هي غيره أنها مباينة له فذلك باطل وإن أردتم أنها ليست إياه قيل لكم وإذا لم تكن الصفة هي الموصوف فأي محذور في هذا فإذا قلتم هو مفتقر إليها قيل

أتريدون بالإفتقار أنه مفتقر إلى فاعل يفعله أو محل يقبله أم تريدون أنه مستلزم لها فلا يكون موجودا إلا وهو متصف بها فإن أردتم الأول كان هذا باطلا وإن أردتم الثاني قيل وأي محذور في هذا وإن قلتم هي مفتقرة إليه قيل أتريدون أنها مفتقرة إلى فاعل يبدعها أو إلى محل تكون موصوفة به أما الثاني فأي محذور فيه وأما الأول فهو باطل إذ الصفة اللازمة للموصوف لا يكون فاعلا لها وإن قلتم هو موجب لها أو علة لها أو مقتض لها فالصفة إن كانت واجبة فالواجب لا يكون معلولا ويلزم تعدد الواجب وهو الصفة والموصوف وإن كانت ممكنة بنفسها فالممكن بنفسه لا يوجد إلا بموجب فتكون الذات هي الموجبة والشيء الواحد لا يكون فاعلا وقابلا قيل لكم لفظ الواجب بنفسه والممكن بنفسه قد صار فيه اشتراك في خطابكم فقد يراد بالواجب بنفسه ما لا مبدع له ولا علة فاعلة ويراد بالواجب بنفسه ما لا مبدع له ولا محل ويراد بالواجب بنفسه ما لا يكون له صفة لازمة ولا يكون موصوفا ملزوما فإن أردتم بالواجب بنفسه ما لا مبدع له ولا علة فاعلة فالصفة واجبة بنفسها وإن أردتم ما لا محل له يقوم به فالصفة ليست واجبة بنفسها بل الموصوف هو الواجب بنفسه وإن أردتم بالواجب ما ليس بملزوم لصفة ولا لازم فهذا لا حقيقة له بل هذا لا يوجد إلا في الأذهان لا في الأعيان وأنتم قدرتم شيئا في أذهانكم ووصفتموه بصفات يمتنع معها وجوده فجعلتم ما هو واجب الوجود بنفسه ممتنع الوجود وهذه الأمور قد بسطت في غير هذا الموضع والغرض هنا التنبيه على هذا إذ المقصود في هذا المقام يحصل على التقديرين فنقول واجب الوجود بنفسه سواء قيل بثبوت الصفات له وسمى ذلك تركيبا أو لم يسم أو قيل بنفى الصفات عنه يمتنع أنه يكون مفتقرا إلى شيء مباين له وذلك أنه إذا قدر أنه ليس فيه معان متعددة بوجه من الوجوه كما يظنه من يظنه من نفاة الصفات فهذا يمتنع أن يكون له كمال مغاير له وأن يكون شيئين وحينئذ فلو كان فيه ما هو مفتقر إلى غيره للزم تعدد المعاني فيه وهذا ممتنع على التقديرين وإن قيل إن فيه معان متعددة فواجب الوجود هو مجموع تلك الأمور المتلازمة إذ يمتنع وجود شيء منها دون شيء وحينئذ فلو افتقر شيء من ذلك المجموع إلى أمر منفصل لم يكن واجب الوجود فهو سبحانه مستلزم لحياته وعلمه وقدرته وسائر صفات كماله وهذا هو الموجود الواجب بنفسه وهذه الصفات لازمة لذاته وذاته مستلزمة لها وهي داخلة في مسمى اسم نفسه وفي سائر اسمائه تعالى فإذا كان واجبا بنفسه وهي داخلة في مسمى اسم نفسه لم يكن موجودا إلا بها فلا يكون مفتقرا فيها إلى شيء مباين له أصلا ولو قيل إنه يفتقر في كونه حيا أو عالما أو قادرا إل عيره فذلك الغير إن كان ممكنا كان مفتقرا إليه وكان هو سبحانه ربه فيمتنع أن يكون ذلك مؤثرا فيه لأنه يلزم أن يكون هذا مؤثرا في هذا وهذا مؤثرا في هذا وتأثير كل منهما في الآخر لا يكون إلا بعد حصول أثره فيه لأن التأثير لا يحصل إلا مع كونه حيا عالما قادرا فلا يكون هذا حيا عالما قادرا حتى يجعله الآخر كذلك ولا يكون هذا حيا عالما قادرا على حتى يجعله الآخر كذلك فلا يكون أحدهما حيا عالما قادرا إلا بعد أن يجعل الذي جعله حيا عالما قادرا حيا عالما قادرا ولا يكون حيا عالما قادرا إلا بعد كونه حيا علما قادرا بدرجتين وهذا كله مما يعلم امتناعه بصريح العقل وهو من المعارف الضرورية التي لا ينازع فيها العقلاء وهذا من الدور القبلي دور العلل ودور الفاعلين ودور المؤثرين وهو ممتنع باتفاق العقلاء بخلاف دور المتلازمين وهو أنه لا يكون هذا إلا مع هذا ولا يكون هذا إلا مع هذ فهذا جائز سواء كانا لا فاعل لهما كصفات الله أو كانا مفعولين والمؤثر التام فيهما غيرهما وهذا جائز فإن الله يخلق الشيئين معا للذين لا يكون أحدهما إلا مع الآخر كالأبوة والبنوة فإن الله إذا خلق الولد فنفس خلقه للولد جعل هذا أبا وهذا ابنا واحدى الصفتين لم تسبق الأخرى ولا تفارقها بخلاف ما إذا كان أحد الأمرين هو من تمام المؤثر في الآخر فإن هذا ممتنع فإن الأثر لا يحصل إلا بالمؤثر التام فلو كان تمام هذا المؤثر من تمام ذاك وتمام ذاك المؤثر من تمام هذا كان كل من

التمامين متوقفا على تمام مؤثره وتمام مؤثره موقوفا عليه نفسه فإن الأثر لا يوجد إلا بعد تمام مؤثره فلا يكون كل من الأثرين من تمام نفسه التي تم تأثيرها به فأن لا يكون من تمام المؤثر في تمامه بطريق الأولى فإن الشيء إذا امتنع أن يكون علة أو فاعلا أو مؤثرا في نفسه أو في تمام كونه علة ومؤثرا وفاعلا له أو لشيء من تمامات تأثيره فلأن يمتنع كونه فاعلا لفاعل نفسه أو مؤثرا في المؤثر في نفسه وفي تمامات تأثير ذلك أولى وأحرى فتبين أنه يمتنع كون شيئين كل منهما معطيا للآخر شيئا من صفات الكمال أو شيئا مما به يصير معاونا له على الفعل سواء أعطاه كمال علم أو قدرة أو حياة أو غير ذلك فإن هذا كله يستلزم الدور في تمام الفاعلين وتمام المؤثرين وهذا ممتنع وبهذا يعلم أنه يمتنع أن يكون للعالم صانعان متعاونان لا يفعل أحدهما إلا بمعاونة الآخر ويمتنع أيضا أن يكونا مستقلين لأن استقلال أحدهما يناقض استقلال الآخر وسيأتي بسط هذا والمقصود هنا أنه يمتنع أن يكون أحدهما يعطي الآخر كماله ويمتنع أن يكون الواجب بنفسه مفتقرا في كماله إلى غيره فيمتنع أن يكون مفتقرا إلى غيره بوجه من الوجوه فإن الإفتقار إما في تحصيل الكمال وإما في منع سلبه الكمال فإنه إذا كان بنفسه ولا يقدر غيره أن يسلبه كماله لم يكن محتاجا بوجه من الوجوه فإن ما ليس كمالا له فوجوده ليس مما يمكن أن يقال إنه يحتاج إليه إذ حاجة الشيء إلى ما ليس من كماله ممتنعة وقد تبين أنه لا يحتاج إلى غيره في حصول كماله وكذلك لا يحتاج في منع سلب الكمال كإدخال نقص عليه وذلك لأن ذاته إن كانت مستلزمة لذلك الكمال امتنع وجود الملزوم بدون اللازم فيمتنع أن يسلب ذلك الكمال مع كونه واجب الوجود بنفسه وكون لوازمه يمتنع عدمها فإن قيل إن ذاته لا تستلزم كماله كان مفتقرا في حصول ذلك الكمال إلى غيره وقد تبين أن ذلك ممتنع فتبين أنه يمتنع احتياجه إلى غيره في تحصيل شيء أو دفع شيء وهذا هو المقصود فإن الحاجة لا تكون إلا لحصول شيء أو دفع شيء إما حاصل يراد إزالته أو ما لم يحصل بعد فيطلب منعه ومن كان لا يحتاج إلى غيره في جلب شيء ولا في دفع شيء امتنعت حاجته مطلقا فتبين أنه غنى عن غيره مطلقا وأيضا فلو قدر أنه محتاج إلى الغير لم يخل إما أن يقال إنه يحتاج إليه في شيء من لوازم وجوده أو شيء من العوارض له أما الأول فيمتنع فإنه لو افتقر إلى غيره في شيء من لوازمه لم يكن موجودا إلا بذلك الغير لأن وجود الملزوم بدون الأزم ممتنع فإذا كان لا يوجد إلا بلازمه ولازمه لا يوجد إلا بذلك الغير لم يكن هو موجودا إلا بذلك الغير فلا يكون موجودا بنفسه بل يكون إن وجد ذلك الغير وجد وإن لم يوجد لو يوجد ثم ذلك الغير إن لم يكن موجودا بنفسه واجبا بنفسه افتقر إلى فاعل مبدع فإن كان هو الأول لزم الدور في العلل وإن كان غيره لزم التسلسل في العلل وكلاهما ممتنع باتفاق العقلاء كما قد بسط في موضع آخر وإن كان ذلك الغير واجبا بنفسه موجودا بنفسه والأول كذلك كان كل منهما لا يوجد إلا بوجود الآخر وكون كل من الشيئين لا يوجد إلا مع الآخر جائز إذا كان لهما سبب غيرهما كالمتضايفين مثل الأبوة والبنوة فلو كان لهما سبب غيرهما كانا ممكنين يفتقران إلى واجب بنفسه والقول فيه كالقول فيهما وإذا كانا واجبين بأنفسهما امتنع أن يكون وجود كل منهما أو وجود شيء من لوازمه بالآخر لأن كلا منهما يكون علة أو جزء علة في الآخر فإن كلا منهما لا يتم إلا بالآخر وكل منهما لا يمكن أن يكون علة ولا جزء علة إلا إذا كان موجودا وإلا فما لم يوجد لا يكون مؤثرا في غيره ولا فاعلا لغيره فلا يكون هذا مؤثرا في ذاك حتى يوجد هذا ولا يكون ذاك مؤثرا في هذا حتى يوجد ذاك فيلزم أن لا يوجد هذا حتى يوجد مفعول هذا فيكون هذا فاعل فاعل هذا وكذلك لا يوجد ذاك حتى يوجد فاعل ذاك فيكون ذاك فاعل فاعل ذاك ومن المعلوم أن كون الشيء علة لنفسه أو جزء علة لنفسه أو شرط علة نفسه ممتنع بأي عبارة عبر عن هذا المعنى فلا يكون فاعل نفسه ولا جزءا من الفاعل ولا شرطا في الفاعل لنفسه ولا تمام الفاعل لنفسه ولا يكون مؤثرا في نفسه ولا تمام المؤثر في نفسه فالمخلوق لا يكون رب نفسه ولا يحتاج

الرب نفسه بوجه من الوجوه إليه في خلقه إذ لو احتاج إليه في خلقه لم يخلقه حتى يكون ولا يكون حتى يخلقه فيلزم الدور القبلي لا المعي وإذا لم يكن مؤثرا في نفسه فلا يكون مؤثرا في المؤثر في نفسه بطريق الأولى فإذا قدر واجبان كل واحد منهما له تأثير ما في الآخر لزم أن يكون كل منهما مؤثرا في المؤثر في نفسه وهذا ممتنع كما تبين فيمتنع تقدير واجبين كل منهما مؤثر في الآخر بوجه من الوجوه فامتنع أن يكون الواجب بنفسه مفتقرا في شيء من لوازمه إلى غيره سواء قدر أنه واجب أو ممكن وهذا مما يعلم به امتناع أن يكون للعالم صانعان فإن الصانعين إن كانا مستقلين كل منهما فعل الجميع كان هذا متناقضا ممتنعا لذاته فإن فعل أحدهما للبعض يمنع استقلال الآخر به فكيف باستقلاله به ولهذا اتفق العقلاء على امتناع اجتماع مؤثرين تامين في أثر واحد لأن ذلك جمع بين النقيضين إذ كونه وجد بهذا وحده يناقض كونه وجد بالآخر وحده وإن كانا متشاركين متعاونين فإن كان فعل كل واحد منهما مستغنيا عن فعل الآخر وجب أن يذهب كل إله بما خلق فتميز مفعول هذا عن مفعول هذا ولا يحتاج إلى الإرتباط به وليس الأمر كذلك بل العالم كله متعلق بعضه ببعض هذا مخلوق من هذا وهذا مخلوق من هذا وهذا محتاج إلى هذا من جهة كذا وهذا محتاج إلى هذا من جهة كذا لا يتم شيء من أمور العالم إلا بشيء آخر منه وهذا يدل على أن العالم كله فقير إلى غيره لما فيه من الحاجة ويدل على أنه ليس فيه فعل لاثنين بل كله مفتقر إلى واحد فالفلك الأطلس الذي هو أعلى الأفلاك في جوفه سائر الأفلاك والعناصر والمولدات والأفلاك متحركات بحركات مختلفة مخالفة لحركة التاسع فلا يجوز أن تكون حركته هي سبب تلك الحركات المخالفة لحركته إلى جهة أخرى أكثر مما يقال إن الحركة الشرقية هو سببها وأما الحركات الغربية فهي مضادة لجهة حركته فلا يكون هو سببها وهذا مما يسلمه هؤلاء وأيضا فالأفلاك في جوفه بغير اختياره ومن جعل غيره فيه بغير اختياره كان مقهورا مدبرا كالإنسان الذي جعل في باطنه أحشاؤه فلا يكون واجبا بنفسه فأقل درجات الواجب بنفسه أن لا يكون مقهورا مدبرا فإنه إذا كان مقهورا مدبرا كان مربوبا أثر فيه غيره ومن أثر فيه غيره كان وجوده متوقفا على وجود ذلك الغير سواء كان الأثر كمالا أو نقصا فإنه إذا كان زيادة كان كماله موقوفا على الغير وكماله منه فلا يكون موجودا بنفسه وإن كان نقصا كان غيره قد نقصه ومن نقصه غيره لم يكن ما نقصه هو واجب الوجود بنفسه فإن ما كان واجب الوجود بنفسه يمتنع عدمه فذاك الجزء المنقوص ليس واجب الوجود ولا من لوازم واجب الوجود وما لم يكن كذلك لم يكن عدمه نقصا إذ النقص عدم كمال والكمال الممكن هو من لوازم واجب الوجود كما تقدم والتقدير أنه نقص فتبين أن من نقصه غيره شيئا من لوازم وجوده أو أعطاه شيئا من لوازم وجوده لم يكن واجب الوجود بنفسه فالفلك الذي قد حشى بأجسام كثيرة بغير اختياره محتاج إلى ذلك الذي حشاه بتلك الأجسام فإنه إذا كان حشوه كمالا له لم يوجد كماله إلا بذلك الغير فلا يكون واجبا بنفسه وإن كان نقصا فيه كان غيره قد سلبه الكمال الزائل بذلك النقص فلا تكون ذاته مستلزمة لذلك الكمال إذا لو استلزمته لعدمت بعدمه وكماله من تمام نفسه فإذا كان جزء نفسه غير واجب لم تكن نفسه واجبة كما تقدم بيانه وأيضا فالفلك الأطلس إن قيل إنه لا تأثير له في شيء من العالم وجب أن لا يكون هو المحرك للأفلاك التي فيه وهي متحركة بحركته ولها حركة تخالف حركته فيكون في الفلك الواحد قوة تقتضي حركتين متضادتين وهذا ممتنع فإن الضدين لا يجتمعان ولأن المقتضى للشيء لو كان مقتضيا لضده الذي لا يجامعه لكان فاعلا له غير فاعل له فإن كان مريدا له كان مريدا غير مريد وهو جمع بين النقيضين وإن كان له تأثير في تحريك الأفلاك أو غير ذلك فمعلوم أنه غير مستقل بالتأثير لأن تلك الأفلاك لها حركات تخصها من غير تحريكه ولأن ما يوجد في الأرض من الآثار لا بد فيه من الأجسام العنصرية وتلك الأجسام إن لم يكن فاعلا لها فهو محتاج إلى مالم يفعله وإن قدر أنه المؤثر فيها فليس مؤثرا مستقلا فيها لأن الآثار

الحاصلة فيها لا تكون إلا باجتماع اتصالات وحركات تحصل بغيره فتبين أن تأثيره مشروط بتأثير غيره وحينئذ فتأثيره من كماله فإن المؤثر أكمل من غير المؤثر وهو مفتقر في هذا الكمال إلى غيره فلا يكون واجبا بنفسه فتبين أنه ليس واجبا بنفسه من هذين الوجهين وتبين أيضا أن فاعله ليس مستغينا عن فاعل تلك الأمور التي يحتاج إليها الفلك لكون الفلك ليس متميزا مستغنيا من كل وجه عن كل ما سواه بل هو محتاج إلى ما سواه من المصنوعات فلا يكون واجبا بنفسه ولا مفعولا لفاعل مستغن عن فاعل ما سواه وإذا كان الأمر في الفلك الأطلس هكذا فالأمر في غيره أظهر فأي شيىء اعتبرته من العالم وحدته مفتقرا إلى شيء آخر من العالم فيدلك ذلك مع كونه ممكنا مفتقرا ليس بواجب بنفسه على أنه مفتقر إلى فاعل ذلك الآخر فلا يكون في العالم فاعلان فعل كل منهما ومفعوله مستغن عن فعل الأخر ومفعوله وهذا كالإنسان مثلا فإنه يمتنع أن يكون الذي خلقه غير الذي خلق ما يحتاج إليه فالذي خلق مادته كمنى الأبوين ودم الأم هو الذي خلقه والذي خلق الهواء الذي يستنشقه والماء الذي يشربه هو الذي خلقه لأن خالق ذلك لو كان خالقا غير خالقه فإن كانا خالقين كل منهما مستغن عن الآخر في فعله ومفعوله كان ذلك ممتنعا لأن الإنسان محتاج إلى المادة والرزق فلو كان خالق مادته ورزقه غير خالقه لم يكن مفعول أحدهما مستغنيا عن مفعول الآخر فتبين بذلك أنه يمتنع أن يكون للعالم فاعلان مفعول كل منهما مستغن عن مفعول الآخر كما قال تعالى {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ }المؤمنون91 ويمتنع أن يكونا مستقلين لأنه جمع بين النقيضين ويمتنع أن يكونا متعاونين متشاركين كما يوجد ذلك في المخلوقين يتعاونون على المفعولات لأنه حينئذ لا يكون أحدهما فاعلا إلا بإعانة الآخر له وإعانته فعل منه لا يحصل إلا بقدرته بل وبعلمه وإرادته فلا يكون هذا معينا لذاك حتى يكون ذاك معينا لهذا ولا يكون ذاك معينا لهذا حتى يكون هذا معينا لذاك وحينئذ لا يكون هذا معينا لذاك ولا ذاك معينا لهذا كما لا يكون الشيء معينا لنفسه بطريق الأولى فالقدرة التي بها يفعل الفاعل لا تكون حاصلة بالقدرة التي يفعل بها الفاعل الآخر بل إما أن تكون من لوازم ذاته وهي قدرة الله تعالى أو تكون حاصلة بقدرة غيره كقدرة العبد فإذا قدر ربان متعاونان لا يفعل أحدهما حتى يعينه الآخر لم يكن أحدهما قادرا على الفعل بقدرة لازمة لذاته ولا يمكن أن تكون قدرته حاصلة من الآخر لأن الآخر لا يجعله قادرا حتى يكون هو قادرا فإذا لم تكن قدرة واحد منهما من نفسه لم يكن لأحدهما قدرة بحال فتبين امتناع كون العالم له ربان وتبين امتناع كون واجب الوجود له كمال يستفيده من غيره وتبين امتناع أن يؤثر في واجب الوجود غيره وهو سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه وذلك الكمال لازم له لأن الكمال الذي يكون كمالا للموجود إما أن يكون واجبا له أو ممتنعا عليه أو جائزا عليه فإن كان واجبا له فهو المطلوب وإن كان ممتنعا لزم أن يكون الكمال الذي للموجود ممكنا للممكن ممتنعا على الواجب فيكون الممكن أكمل من الواجب وأيضا فالممكنات فيها كمالات موجودة وهي من الواجب بنفسه والمبدع للكمال المعطى له الخالق له أحق بالكمال إذ الكمال إما وجود وإما كمال وجود ومن أبدع الموجود كان أحق بأن يكون موجودا إذ المعدوم لا يكون مؤثرا في الموجود وهذا كله معلوم فتبين أن الكمال ليس ممتنعا عليه وإذا كان جائزا أن يحصل وجائزا أن لا يحصل لم يكن حاصلا إلا بسبب آخر فيكون واجب الوجود مفتقرا في كماله إلى غيره وقد تبين بطلان هذا أيضا فتبين أن الكمال لازم لواجب الوجود واجب له يمتنع سلب الكمال عنه والكمال أمور وجودية فالأمور العدمية لا تكون كمالا إلا إذا تضمنت أمورا وجودية إذ العدم المحض ليس بشيء فضلا عن أن يكون كمالا فإن الله سبحانه إذا ذكر ما يذكره من تنزيهه ونفي النقائص عنه ذكر ذلك في سياق إثبات صفات الكمال له كقوله تعالى {اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ }البقرة255 فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيومية وهذه من صفات الكمال وكذلك قوله { لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ

فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ }سبأ3 فإن نفى عزوب ذلك عنه يتضمن علمه به وعلمه به من صفات الكمال وكذلك قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ }ق38 فتنزيهه لنفسه عن مس اللغوب يقتضى كمال قدرته والقدرة من صفات الكمال فتنزيهه يتضمن كمال حياته وقيامه وعلمه وقدرته وهكذا نظائر ذلك فالرب تعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها إذ كل غاية تفرض كمالا إما أن تكون واجبة له أو ممكنة أو ممتنعة والقسمان الأخيران باطلان فوجب الأول فهو منزه عن النقص وعن مساواة شيء من الأشياء له في صفات الكمال بل هذه المساواة هي من النقص أيضا وذلك لأن المتماثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه فلو قدر أنه ماثل شيئا في شيء من الأشياء للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع على ذلك الشيء وكل ما سواه ممكن قابل للعدم بل معدوم مفتقر إلى فاعل وهو مصنوع مربوب محدث فلو ماثل غيره في شيء من الأشياء للزم أن يكون هو والشيء الذي ماثله فيه ممكنا قابلا للعدم بل معدوما مفتقرا إلى فاعل مصنوعا مربوبا محدثا وقد تبين أن كماله لازم لذاته لا يمكن أن يكون مفتقرا فيه إلى غيره فضلا عن أن يكون ممكنا أو مصنوعا أو محدثا فلو قدر مماثلة غيره له في شيء من الأشياء للزم كون الشيء الواحد موجودا معدوما ممكنا واجبا قديما محدثا وهذا جمع بين النقيضين فالرب تعالى مستحق للكمال على وجه التفصيل كما أخبرت به الرسل فإن الله تعالى أخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير وأنه عليم قدير عزيز حكيم غفور رحيم ودود مجيد وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كلم موسى تكليما وناداه وناجاه إلى غير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة وقال في التنزيه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11{ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ }النحل74 {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 { فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }البقرة22 فنزه نفسه عن النظير باسم الكفء والمثل والند والسمى وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وكتبنا رسالة مفردة في قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 وما فيها من الأسرار والمعاني الشريفة فهذه طريقة الرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها إثبات مفصل ونفي مجمل إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ونفي النقص والتمثيل كما دل على ذلك سورة قل هو الله أحد الله الصمد وهي تعدل ثلث القرآن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح وقد كتبنا تصنيفا مفردا في تفسيرها وآخر في كونها تعدل ثلث القرآن فاسمه الصمد يتضمن صفات الكمال كما روى الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال هو العليم الذي كمل في علمه والقدير الذي كمل في قدرته والسيد الذي كمل في سؤدده والشريف الذي كمل في شرفه والعظيم الذي كمل في عظمته والحليم الذي كمل في حلمه والحكيم الذي كمل في حكمته وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد هو الله سبحانه وتعالى هذه صفته لا تنبغي إلا له والأحد يتضمن نفي المثل عنه والتنزيه الذي يستحقه الرب يجمعه نوعان أحدهما نفي النقص عنه والثاني نفى مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال فإثبات صفات الكمال له مع نفى مماثلة غيره له يجمع ذلك كما دلت عليه هذه السورة وأما المخالفون لهم من المشركين والصابئة ومن اتبعهم من الجهمية والفلاسفة والمعتزلة ونحوهم فطريقتهم نفى مفصل وإثبات مجمل ينفون صفات الكمال ويثبتون ما لا يوجد إلا في الخيال فيقولون ليس بكذا ولا كذا فمنهم من يقول ليس له صفة ثبوتية بل إما سلبية وإما إضافية وإما مركبة منهما كما يقوله من يقوله من الصابئة والفلاسفة كابن سينا وأمثاله ويقول هو وجود مطلق بشرط سلب الأمور الثبوتية عنه ومنهم من يقول وجود مطلق بشرط الإطلاق وقد قرروا في منطقهم ما هو معلوم بالعقل الصريح أن المطلق بشرط

الإطلاق إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان فلا يتصور في الخارج حيوان مطلق بشرط الإطلاق ولا إنسان مطلق بشرط الإطلاق ولا جسم مطلق بشرط الإطلاق فيبقى واجب الوجود ممتنع الوجود في الخارج وهذا مع أنه تعطيل وجهل وكفر فهو جمع بين النقيضين ومن قال مطلق بشرط سلب الأمور الثبوتية فهذا أبعد من المطلق بشرط الإطلاق فإن هذا قيده بسلب الأمور الوجودية دون العدمية وهذا أولى بالعدم مما قيد بسلب الأمور الوجودية والعدمية وهو أيضا أبلغ في الإمتناع فإن الموجود المشارك لغيره في الوجود لا يمتاز عنه بوصف عدمي بل بأمر وجودي فإذا قدر وجود لا يتمير عن غيره إلا بعدم كان أبلغ في الإمتناع من وجود يتميز بسلب الوجود والعدم وأيضا فإن هذا يشارك سائر الموجودات في مسمى الوجود ويمتاز عنها بالعدم وهي تمتاز عنه بالوجود فيكون على قول هؤلاء أي موجود من الممكنات قدر فهو أكمل من الواجب وهذا في غاية الفساد والكفر وإن قالوا هو مطلق لا بشرط كما يقوله الصدر القونوي وأمثاله من القائلين بوحدة الوجود فالمطلق لا بشرط هو موضوع العلم الإلهي عندهم الذي هو الحكمة العليا والفلسفة الأولى عندهم فإن الوجود المطلق لا بشرط ينقسم إلى واجب وممكن وعلة ومعلول وجوهر وعرض وهذا موضوع العلم الأعلى عندهم الناظر في الوجود ولواحقه ومن المعلوم أن الوجود المنقسم إلى واجب وممكن لا يكون هو الوجود الواجب المطلق بشرط الإطلاق وهو الذي يسمونه الكلى الطبيعي ويتنازعون في وجوده في الخارج والتحقيق أنه يوجد في الخارج معينا لا كليا فما هو كلى في الأذهان يوجد في الأعيان لكن لا يوجد كليا فمن قال الكلي الطبيعي موجود في الخارج وأراد هذا المعنى فقد أصاب وأما إن قال إن في الخارج ما هو كلي في الخارج كما يقتضيه كلام كثير من هؤلاء الذين تكلموا في المنطق والإلهيات وادعى أن في الخارج إنسانا مطلقا كليا وفرسا مطلقا كليا وحيوانا مطلقا كليا فهو مخطئ حطأ ظاهرا سواء ادعى أن هذه الكليات مجردة عن الأعيان أزلية كما يذكرونه عن أفلاطون ويسمون ذلك المثل الأفلاطونية أو أدعى أنها لا تكون إلا مقارنة للمعينات أو ادعى أن المطلق جزء من المعين كما يذكرونه عن أرسطو وشيعته كابن سينا وأمثاله ويقولون إن النوع مركب من الجنس والفصل وإن الإنسان مركب من الحيوان والناطق والفرس مركب من الحيوان والصاهل فإن هذا إن أريد به أن الإنسان متصف بهذا وهذا فهذا حق ولكن الصفة لا تكون سبب وجود الموصوف ولا متقدمة عليه لا في الحس ولا في العقل ولا يكون الجوهر القائم بنفسه مركبا من عرضين وإن أراد به أن الإنسان الموجود في الخارج فيه جوهران قائمان بأنفسهما أحدهما الحيوان والآخر الناطق فهذا مكابرة للعقل والحس وإن أريد بهذا التركيب تركيب الإنسان العقلي المتصور في الأذهان لا الموجود في الأعيان فهذا صحيح لكن ذلك الإنسان هو بحسب ما يركبه الذهن فإن ركبه من الحيوان والناطق تركب منهما وإن ركبه من الحيوان والصاهل تركب منهما فدعوى المدعي أن إحدى الصفتين ذاتية مقومة للموصوف لا يتحقق بدونها لا في الخارج ولا في الذهن والأخرى عرضية يتقوم الموصوف بدونها مع كونها مساوية لتلك في اللزوم تفريق بين المتماثلين والفروق التي يذكرونها بين الذاتي والعرضي اللازم للماهية هي ثلاثة وهي فروق منتقضة وهم معترفون بانتقاضها كما يعترف بذلك ابن سينا ومتبعوه شارحو الإشارات وكما ذكره صاحب المعتبر وغيرهم والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع وكذلك الكلام على قولهم وقول من وافقهم من القائلين بوحدة الوجود في وجود واجب الوجود مبسوط في غير هذا الموضع

والمقصود هنا كلام جملي على ما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهذا كله مبسوط في مواضعه[1]

توحيد الألوهية

توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربه وهذا التوحيد كان يقر به المشركون الذين قال الله عنهم {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }لقمان25 وقال تعالى { قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ{86} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ {87} المؤمنون 86- 87 وقال عنهم {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }يوسف106 قال طائفة من السلف يقول لهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره وإنما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية بأن يعبد الله وحده لا يشركون به شيئا فيكون الدين كله لله ولا يخاف إلا الله ولا يدعى إلا الله ويكون الله أحب إلى العبد من كل شيء فيحبون لله ويبغضون لله ويعبدون الله ويتوكلون عليه والعبادة تجمع غاية الحب وغاية الذل فيحبون الله بأكمل محبة ويذلون له أكمل ذل ولا يعدلون به ولا يجعلون له أندادا ولا يتخذون من دونه أولياء ولا شفعاء كما قد بين القرآن هذا التوحيد في غير موضع وهو قطب رحى القرآن الذي يدور عليه القرآن وهو يتضمن التوحيد في العلم والقول والتوحيد في الإرادة والعمل فالأول كما في قوله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الإخلاص1-4 ولهذا كانت هذه السورة تعدل ثلث القرآن لأنها صفة الرحمن والقرآن ثلثه توحيد وثلثه قصص وثلثه أمر ونهي لأنه كلام الله والكلام إما إنشاء وإما إخبار والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق فصار ثلاثة أجزاء جزء أمر ونهي وإباحة وهو الإنشاء وجزء إخبار عن المخلوقين وجزء إخبار عن الخالق فقل هو الله أحد صفة الرحمن محضا وقد بسطنا الكلام على تحقيق قول النبي صلى الله عليه وسلم أنها تعدل ثلث القرآن في مجلد وفي تفسيرها في مجلد آخر وأما التوحيد في العبادة والإرادة والعمل فكما في سورة { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} الكافرون 1-6 فالتوحيد الأول يتضمن إثبات نعوت الكمال لله بإثبات أسمائه الحسنى وما تتضمنه من صفاته والثاني يتضمن إخلاص الدين له كما قال {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء }البينة5 فالأول براءة من التعطيل والثاني براءة من الشرك وأصل الشرك إما التعطيل مثل تعطيل فرعون موسى والذي حاج إبراهيم في ربه خصم إبراهيم والدجال مسيح الضلال خصم مسيح الهدى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم وإما الإشراك وهو كثير في الامم أكثر من التعطيل وأهله خصوم جمهور الأنبياء وفي خصوم إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم معطلة ومشركة لكن التعطيل المحض للذات قليل وأما الكثير فهو تعطيل صفات الكمال وهو مستلزم لتعطيل الذات فإنهم يصفون واجب الوجود بما يوجب أن يكون ممتنع الوجود ثم إنه كل من

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 157-191

كان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان أقرب كان أقرب إلى كمال التوحيد والإيمان والعقل والعرفان وكل من كان عنهم أبعد كان عن ذلك أبعد[1]

دين الإسلام مبنى على أصلين

ودين الإسلام مبنى على أصلين على أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيء وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه وهذان هما حقيقة قولنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فالإله هو الذى تألهه القلوب عبادة وإستعانة ومحبة وتعظيما وخوفا ورجاء واجلالا واكراما والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف الا الله ولا يطاع إلا الله والرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله تعالى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه والرسول صلى الله عليه وسلم واسطة بين الله وبين خلقه فى تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده وتحليله وتحريمه وسائر ما بلغه من كلامه وأما فى إجابة الدعاء وكشف البلاء والهداية والإغناء فالله تعالى هو الذى يسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم وهو سبحانه قادر على إنزال النعم وإزالة الضر والسقم من غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد أحوال عباده أو يعينه على قضاء حوائجهم والأسباب التى بها يحصل ذلك هو خلقها ويسرها فهو مسبب الأسباب وهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ }الرحمن29 فأهل السموات يسألونه وأهل الأرض يسألونه وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا ولا يغلطه اختلاف أصواتهم ولغاتهم بل يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ولا يبرمه إلحاح الملحين بل يجب الإلحاح فى الدعاء التوحيد الذى بعث الله به رسوله قولا وعملا فالتوحيد القولى مثل سورة الإخلاص قل هو الله أحد والتوحيد العملى قل يا أيها الكافرون ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك[2]

غنى الرب لازم لذاته

وأما الرب تعالى فلا يفتقر شيء من صفاته وأفعاله على غيره بل هو الأحد الصمد المستغنى عن كل ما سواه وكل ما سواه مفتقر اليه مصنوع له فيمتنع أن يكون الرب مفتقرا اليه[3]

ان الذى علم بالعقل والسمع أنه يمتنع ان يكون الرب تعالى فقيرا الى خلقه بل هو الغنى عن العالمين وقد علم أنه حى قيوم بنفسه وان نفسه المقدسة قائمة بنفسه وموجودة بذاته وأنه أحد صمد غنى بنفسه ليس ثبوته وغناه مستفادا من غيره وانما هو بنفسه لم يزل ولا يزال حقا صمدا قيوما[4]

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 289-293

[2] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 366-368

[3] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 294

[4] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 348

ان فقر الاشياء الى خالقها لازم لها لا يحتاج الى علة كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر فى اتصافه بالغنى الى علة وكذلك المخلوق لا يفتقر فى اتصافه بالفقر الى علة بل هو فقير لذاته لا تكون ذاته الا فقيرة فقرا لازما لها ولا يستغنى الا بالله وهذا من معانى الصمد وهو الذى يفتقر اليه كل شىء ويستغنى عن كل شىء بل الاشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته فما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم وهذا تحقيق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فلو لم يخلق شيئا بمشيئته وقدرته لم يوجد شىء وكل الأعمال ان لم تكن لأجله فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته والا كانت أعمالا فاسدة فان الحركات تفتقر الى العلة الغائية كما افتقرت الى العلة الفاعلية بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلا ولولا ذلك لم يفعل فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شىء من الأعمال والحركات بل كان العالم يفسد وهذا معنى قوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }الأنبياء22 ولم يقل لعدمتا وهذا معنى قول لبيد ألا كل شىء ما خلا الله باطل وهو كالدعاء المأثور أشهد أن كل معبود من لدن عرشك الى قرار أرضك باطل الا وجهك الكريم ولفظ الباطل يراد به المعدوم ويراد به ما لا ينفع كقول النبى كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل الا رميه بقوسه وتاديبه فرسه وملاعبته لزوجته فانهن من الحق وقوله عن عمر رضى الله عنه ان هذا الرجل لا يحب الباطل ومنه قول القاسم بن محمد لما سئل عن الغناء قال اذا ميز الله يوم القيامة الحق من الباطل فى ايهما يجعل الغناء قال السائل من الباطل قال فماذا بعد الحق الا الضلال ومنه قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ }الحج62 فان الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لا ينفع والمقصود منها لا يحصل فهو باطل واعتقاد الوهيتها باطل اى غير مطابق واتصافها بالالهية فى أنفسها باطل لا بمعنى أنه معدوم ومنه قوله تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }الأنبياء18 وقوله {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً }الإسراء81 فان الكذب باطل لأنه غير مطابق وكل فعل ما لا ينفع باطل لأنه ليس له غاية موجودة محمودة فقول النبى أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شىء ما خلا الله باطل هذا معناه ان كل معبود من دون الله باطل كقوله {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ }لقمان30 وقال تعالى {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ {31} فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ{32} يونس31-32 وقد قال قبل هذا { وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }يونس30 كما قال فى الانعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ }الأنعام61 وقال {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ }محمد3 ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود وهو مريض فقال كيف تجدك قال أجدنى مردودا الى الله مولاى الحق قال تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{24}يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ }النور24-25 وقد اقروا بوجوده فى الدنيا لكن فى ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه ولهذا قال { هُوَ الْحَقُّ }النور 25 بصيغة الحصر فانه يومئذ لا يبقى أحد يدعى فيه الالهية ولا أحد يشرك بربه احدا[1]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 515-517

تنزيه الله سبحانه عن صفات النقص

فكما نزه نفسه عن الولادة نزه نفسه عن اتخاذ الولد والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة كما نزهته عن صفات النقص وفي الصحيح عن النبي أنه قال يقول الله تعالى كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله أنى يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله أني اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وفي الصحيح عن النبي أنه قال ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليجعلون له ولدا وشريكا وهو يرزقهم ويعافيهم ولهذا كان معاذ بن جبل يقول لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية وحرمت أن يتكلم في حق الله باسم ابن أو ولد سدا للذريعة كما منعت أن يسجد أحد لغير الله وإن كان على وجه التحية كما منعت أن يصلي أحد عند طلوع الشمس وغروبها لئلا يشبه عباد الشمس والقمر فكانت بسدها للأبواب التي تجعل لله فيها الشريك والولد أكمل من غيرها من الشرائع كما سدت غير ذلك من الذرائع مثل تحريمها قليل المسكر لأنه يجر إلى كثيره فإن أصول المحرمات التي قال الله فيها {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }الأعراف33[1]

التوحيد لابد فيه من عمل القلب

ان لفظ الايمان انما يستعمل فى بعض الاخبار وهو مأخوذ من الأمن كما ان الاقرار مأخوذ من قر فالمؤمن صاحب امن كما ان المقر صاحب اقرار فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه فاذا كان عالما بأن محمدا رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس بمؤمن به بل كافر به ومن هذا الباب كفر ابليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وغير هؤلاء فان ابليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا بل استكبر عن امر ربه وفرعون وقومه قال الله فيهم {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً }النمل14 وقال له موسى { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ }الإسراء102 وقال تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ }البقرة146 فمجرد علم القلب بالحق ان لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان وان من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه وهذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر فليس كل من كان مستكبرا عن الحق

---

[1] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 153

يكون غير عالم به وحينئذ فالايمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف الايمان قول وعمل ثم انه اذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة فان الارادة الجازمة اذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا وانما ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة او لعدم كمال الارادة والا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختيارى فاذا اقر القلب اقرارا تاما بان محمدا رسول الله واحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك لكن ان كان عاجزا لخرس ونحوه او الخوف ونحوه لم يكن قادرا على النطق بهما

و ابو طالب وان كان عالما بان محمدا رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبته لله بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبوبه هو الرئاسة فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بهما زوال دينه الذى يحبه فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يقر بهما فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه ابو بكر الذى قال الله فيه {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20} وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21} الليل 17-21 وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلى غيرهم لنطق بالشهادتين قطعا فكان حبه حبا مع الله لا حبا لله ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرته لأنه لم يعمله لله والله لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه بخلاف الذى فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى وهذا مما يحقق ان الايمان والتوحيد لابد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلابد من اخلاص الدين لله والدين لا يكون دينا الا بعمل فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد انزل الله عز وجل سورتى الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هو الله احد احداهما فى توحيد القول والعلم و الثانية فى توحيد العمل والارادة فقال فى الأول { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثانى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6} الكافرون1-6 فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عباده غير الله واخلاص العبادة لله [1]

الله سبحانه منزه عن الصفات المختصة بالمخلوقين

والله سبحانه منزه عن أن يوصف بشيء من الصفات المختصة بالمخلوقين وكل ما اختص بالمخلوق فهو صفة نقص والله تعالى منزه عن كل نقص ومستحق لغاية الكمال وليس له مثل في شيء من صفات الكمال فهو منزه عن النقص مطلقا ومنزه في الكمال أن يكون له مثل كما قال تعالى{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الإخلاص 1- 4 فبين أنه أحد صمد واسمه الأحد يتضمن نفى المثل واسمه الصمد يتضمن جميع صفات الكمال كما قد بينا ذلك في الكتاب المصنف في تفسير قل هو الله أحد [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 271-286 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 324-325 و الصفدية ج: 2 ص: 316

[2] منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 529-530

هل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن ؟؟

وإذا علم ما دل عليه الشرع مع العقل و إتفاق السلف من أن بعض القرآن أفضل من بعض و كذلك بعض صفاته أفضل من بعض بقى الكلام في كون قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ما و جه ذلك و هل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن وإذا قدر أن الأمر كذلك فما و جه قراءة سائر القرآن فيقال أما الأول فقد قيل فيه و جوه أحسنها و الله أعلم الجواب المنقول عن الإمام أبى العباس بن سريج فعن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبى صلى الله عليه و سلم قل هو الله أحدتعدل ثلث لقرآن فقال معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام ثلث منها الأحكام و ثلث منها و عد و وعيد و ثلث منها الأسماء و الصفات و هذه السورة جمعت الأسماء و الصفات و قد ذكر أبو الفرج بن الجوزي فى هذا الحديث ثلاثة أوجه بدأ بهذا الوجه فروى قول إبن سريج هذا بإسناده عن زاهد عن الصابونى و البيهقي عن الحاكم أبى عبدالله الحافظ قال سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول سالت أبا العباس بن سريج قلت ما معنى قول النبى صلى الله عليه و سلم قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن قال إن القرآن أنزل على ثلاثة اقسام فثلث أحكام و ثلث و عد و وعيد و ثلث أسماء و صفات و قد جمع في قل هو لله أحد أحد الأثلاث و هو الصفات فقيل أنها تعدل ثلث القرآن الوجه الثاني من الوجوه الثلاثة التى ذكرها أبو الفرج إبن الجوزي أن معرفة الله هي معرفة ذاته و معرفة أسمائه و صفاته و معرفة أفعاله فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته إذ لا يوجد شيء إلا و جد من شيء ما خلا الله فإنه ليس له كفء و لا له مثل قال أبو الفرج ذكره بعض فقهاء السلف قال و الوجه الثالث أن المعنى من عمل ما تضمنته من الإقرار بالتوحيد و الإذعان للخالق كان كمن قرأ ثلث القرآن و لم يعمل بما تضمنته ذكره إبن عقيل قال إبن عقيل و لا يجوز أن يكون المعنى من قرأها فله أجر ثلث القرآن لقول رسول الله صلى الله عليه و سلم من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات قلت كلا الوجهين ضعيف أما الأول فيدل على ضعفه وجوه الأول أن نقول القرآن ليس كله هو المعرفة المذكورة بل فيه أمر بالأعمال الواجبة و نهى عن المحرمات و المطلوب من العباد المعرفة الواجبة و العمل الواجب و الأمة كلها متفقة على وجوب الأعمال التى فرضها الله لم يقل أحد بأنها ليست من الواجبات وإن كان طائفة من الناس نازعوا فى كون الأعمال من الإيمان فلم ينازعوا فى أن الله فرض الصلوات الخمس وغيرها من شرائع الإسلام و حرم الفواحش {مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }الأعراف33 و إذا كان كذلك و قدر أن سورة من السور تضمنت ثلث المعرفة لم يكن هذا ثلث القرآن الثاني أن يقال قول القائل معرفة ذاته و معرفة أسمائه و صفاته و معرفة أفعاله إن أراد بذلك أن ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه و صفاته الثبوتية و السلبية فهذا ممتنع و لو قدر إمكان ذلك أو فرض العبد في نفسه ذاتا مجردة عن جميع القيود السلبية و الثبوتية فليس ذاك معرفته بالله ألبتة و لا هو رب العالمين ذات مجردة عن كل أمر سلبى أو ثبوتي و لهذا لم يقل أحد من العقلاء هذا إلا القرامطة الباطنية يقولون يسلب عنه كل أمر ثبوتي و عدمي فلا يقال موجود و لا معدوم و لا عالم و لا ليس بعالم و لا قادر و لا ليس بقادر و لا نحو ذلك و هؤلاء مع أن قولهم معلوم الفساد بضرورة العقل فإنهم متناقضون أما الأول فلأن سلب النقيضين ممتنع كما أن جمعها ممتنع فيمتنع أن يكون شيء من الأشياء لا موجودا و لا معدوما و أما تناقضهم لابد أن يذكروا ما ذكروا أنه يسلب عنه النقيضان ببعض الأمور التى يتميز بها ليخبر عنه بهذا السلب و أي شيء قالوه فلابد أن يتضمن نفيا

و إثباتا بل لابد أن يتضمن إثباتا و قد بسطنا الرد عليهم فى غير هذا الموضع ولهذا كان كثير من الملاحدة لا يصلون إلى هذا الحد بل يقولون كما قال أبو يعقوب السجستانى و غيره من الملاحدة نحن لا ننفي النقيضين بل نسكت عن إضافة و احد منهما إليه فلا نقول هو موجود و لا معدوم و لا حي و لا ميت و لا عالم و لا جاهل فيقال لهم إعراض قلوبكم عن العلم به و كف ألسنتكم عن ذكره لايوجب أن يكون هو في نفسه مجردا عن النقيضين بل يفيد هذا كفركم بالله و كراهتكم لمعرفته و ذكره و عبادته و هذا حقيقة مذهبكم و من قال من الملاحدة المنتسبين إلى التصوف و التحقيق كإبن سبعين و الصدر القونوي و غيرهما إنه و جود مطلق بشرط الإطلاق عن كل و صف ثبوتى و سلبى فهو من جنس هؤلاء لكن هؤلاء يقولون هو و جود مطلق فيخصونه بالوجود دون العدم ثم يقولون هو مطلق و المطلق بشرط الإطلاق عن كل قيد سلبى و ثبوتى إنما يكون في الأذهان لا فى الأعيان و هؤلاء يقولون الوجود الكلي المقسوم إلى واجب و ممكن الذي يجعله الفلاسفة موضوع العلم الإلهي و يسمونه الحكمة العليا و الفلسفة الأولى إنما يكون كليا فى الأذهان لا في الأعيان فليس فى الخارج قط و جود هو بعينه و اجب و هو بعينه ممكن و لا و جود هو نفسه يتصف به الواجب و هو نفسه يتصف به الممكن بل صفة الواجب تختص به و صفة الممكن تختص به و وجود الواجب يخصه لا يشركه فيه غيره و وجود الممكن يخصه لا يشركه فيه غيره و لهذا كان كل ما وصف به الرب نفسه من صفاته فهي صفات مختصة به يمتنع أن يكون له فيها مشارك أو مماثل فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئا من الذوات و صفاته مختصة به فلا تماثل شيئا من الصفات بل هو سبحانه أحد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد فإسمه الأحد دل على نفي المشاركة و المماثلة و إسمه الصمد دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال كما بسط الكلام على ذلك فى الشرح الكبير المصنف في تفسير هذه السورة و صفات التنزيه كلها بل و صفات الإثبات يجمعهما هذان المعنيان و قد بسط الكلام فى التوحيد و أنه نوعان علمي قولي و عملي قصدي فقل يا أيها الكافرون إشتملت على التوحيد العملي نصا و هي دالة على العلمي لزوما و قل هو الله أحد إشتملت على التوحيد العلمي القولي نصا و هي دالة على التوحيد العملي لزوما و لهذا كان النبى صلى الله عليه و سلم يقرا بهما في ركعتى الفجر و ركعتى الطواف و غير ذلك و قد ثبت أنه كان يقرأ أيضا فى ركعتى الفجر بآية الإيمان التى في البقرة {قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ }البقرة136 في الركعة الأولى و آية الإسلام التى فى آل عمران {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }آل عمران64 و المقصود هنا أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران فى هذه السورة أحدهما نفي النقائص عنه و ذلك من لوازم إثبات صفات الكمال فمن ثبت له الكمال التام إنتفى النقصان المضاد له و الكمال من مدلول إسمه الصمد و الثاني أنه ليس كمثله شيء فى صفات الكمال الثابتة و هذا من مدلول إسمه الأحد فهذان الإسمان العظيمان الأحد الصمد يتضمنان تنزيهه عن كل نقص و عيب و تنزيهه فى صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها و إسمه الصمد يتضمن إثبات جميع صفات الكمال فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال و نفي جميع صفات النقص فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله و تضمنت أيضا كل ما يجب إثباته من و جهين من إسمه الصمد و من جهة أن ما نفى عنه من الأصول و الفروع و النظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضا فإن كل ما يمدح به الرب من النفي فلابد أن يتضمن ثبوتا بل و كذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي فلابد أن يتضمن ثبوتا و إلا فالنفي المحض معناه عدم محض و العدم المحض ليس بشيء فضلا عن أن يكون صفة كمال وهذا كما يذكره سبحانه فى آية الكرسي مثل قوله {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ }البقرة255

فنفي أخذ السنة و النوم له مستلزم لكمال حياته و قيوميته فإن النوم ينافي القيومية و النوم أخو الموت و لهذ كان أهل الجنة لا ينامون ثم قال { لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة255 فنفي الشفاعة بدون إذنه مستلزم لكمال ملكه إذ كل من شفع إليه شافع بلا إذنه فقبل شفاعته كان منفعلا عن ذلك الشافع فقد أثرت شفاعته فيه فصيرته فاعلا بعد أن لم يكن و كان ذلك الشافع شريكا للمشفوع إليه فى ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة إذ كانت بدون إذنه لا سيما و المخلوق إذا شفع إليه بغير إذنه فقبل الشفاعة فإنما يقبلها لرغبة أو لرهبة إما من الشافع أو من غيره و إلا فلو كانت داعيته من تلقاء نفسه تامة مع القدرة لم يحتج إلى شفاعة و الله تعالى منزه عن ذلك كله كما قال فى الحديث الإلهي يا عبدي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعونى و لن تبلغوا ضري فتضرونى و لهذا كان النبى صلى الله عليه و سلم يأمر أصحابه بالشفاعة إليه فكان إذا أتاه طالب حاجة يقول إشفعوا تؤجروا و يقضي الله على لسان نبيه ما شاء أخرجاه فى الصحيحين و كان مقصوده أنهم يؤجرون على الشفاعة و هو إنما يفعل ما أمره الله به و كذلك قوله { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء }البقرة255 بين أنهم لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه كما قالت الملائكة { لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ }البقرة32 فكان فى هذا النفي إثبات أن عباده لا يعلمون إلا ما علمهم إياه فأثبت أنه الذي علمهم لا ينالون العلم إلا منه فإنه { الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} و {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} ثم قال { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا}البقرة255 أي لا يكرثه و لا يثقله و هذا النفي تضمن كمال قدرته فإنه مع حفظه للسموات و الأرض لا يثقل ذلك عليه كما يثقل على من فى قوته ضعف و هذا كقوله تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ }ق38 فنزه نفسه عن مس اللغوب قال أهل اللغة اللغوب الإعياء و التعب و كذلك قوله {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ }الأنعام103 الإدراك عند السلف و الأكثرين هو الإحاطة و قال طائفة هو الرؤية و هو ضعيف لأن نفي الرؤية عند لا مدح فيه فإن العدم لا يرى و كل و صف يشترك فيه الوجود و العدم لا يستلزم امرا ثبوتيا فلا يكون فيه مدح إذ هو عدم محض بخلاف ما إذا قيل لا يحاط به فإنه يدل على عظمة الرب جل جلاله وإن العباد مع رؤيتهم له لا يحيطون به رؤية كما انهم مع معرفته لا يحيطون به علما و كما أنهم مع مدحه و الثناء عليه لا يحيطون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه المقدسة و لهذا قال أفضل الخلق و أعلمهم لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك و هذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر و المقصود هنا الكلام على معنى كون قل هو الله احد تعدل ثلث القرآن و بيان أن الصواب القول الأول الوجه الثالث الذي يدل على فساد القول الثاني أن يقال قول لقائل معرفة أفعاله إن أراد بذلك معرفة آياته الدالة عليه فهذه من تمام معرفته و يبقى معرفة وعده ووعيده وقصص الأمم المؤمنة والكافرة لم يذكره وهو القسم الثانى من أقسام معانى القرآن كما لم يذكر أمره و نهيه و إن جعل هذه من مفعولاته فمعلوم أن معرفة الوعد و الوعيد و القصص المطلوب فيها الإيمان باليوم الآخر و جزاء الأعمال كما أن المطلوب بالأمر و النهي طاعته فإنه لابد من الإيمان بالله واليوم الآخر ومن العمل الصالح لكل أمة كما قال تعالى{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة62 الوجه الرابع أن يقال ما ذكره من نفي من نفي المثل عنه و من نفى الولادة مذكور فى غير هذه السورة فلم يختص بهذا المعنى

الوجه الخامس أن يقال هب أنها تضمنت التنزيه كما ذكره الله فمعرفة الله ليست بمعرفة صفات السلب بل الأصل فيها صفات الإثبات و السلب تابع و مقصوده تكميل الإثبات كما أشرنا إليه من أن كل تنزيه مدح به الرب ففيه إثبات و لهذا كان قول سبحان الله متضمنا تنزيه الرب و تعظيمه

ففيها تنزيهه من العيوب و النقائص و فيها تعظيمه سبحانه و تعالى كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع وأما القول الثالث و هو المراد به أن من عمل بما تضمنته كان كمن قرأ ثلث القرآن و لم يعمل بما تضمنته فهذا أيضا ضعيف و ما نفاه من المعادلة فهو مبنى على قول من إعتبر فى مقدار الأجر كثرة الحروف و هو قول باطل كما قد بين في موضعه و ذلك أن العمل بها إن أراد به العمل الواجب من التصديق بمضمونها و توحيد الله فهذا أجره أعظم من أجر من قرأ القرآن جملة و لم يعمل بذلك فإنه إن خلا عن الإيمان بمضمون القرآن فهو منافق و إن خلا عما يجب عليه من العمل فهو فاسق و معلوم أن هذا لو قرأ القرآن عشر مرات لم يكن أجره مثل أجر المؤمن المتقى و أيضا فإن هذا الأجر على الإيمان بمضمونها سواء قرأها أو لم يقرأها و الأجر المذكور فى الحديث هو لمن قرأها فلا بد أن يكون قد قرأها مع الإيمان بما تضمنته و أيضا فالنبى صلى الله عليه و سلم جعل قراءتها تعدل ثلث القرآن و قرأها على أصحابه وأخبرهم أنه قرأ عليهم ثلث القرآن فكانت قراءته لها تعدل قراءته هو للثلث و كذلك الرحل الذي جعل يرددها و كذلك إخباره لهم بأنها تعدل ثلث القرآن وإنما يراد به ثلثه إذا قرأوه هم لم يرد به الثلث إذا قرأها منافق لا يؤمن بمعنى قل هو الله أحد ثم إن كون المراد بذلك من قرأ الثلث بلا إيمان بها معنى ليس في اللفظ ما يدل عليه و إنما يدل اللفظ على نقيضه و هذا التأويل و أمثاله هو من تحريف الكلم عن مواضعه الذي ذم الله عليه من فعل ذلك من أهل الكتاب و هو نوع من الإلحاد في كلام الله و رسوله و قد ذكر أبو حامد الغزالي وجها آخر غير هذه الثلاثة فقال فى كتابه جواهر القرآن و درره أما قوله قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ما أراك تفهم و جه ذلك فتارة تقول ذكر هذا للترغيب فى التلاوة و ليس المعنى به التقدير و حاشا منصب النبوة عن ذلك و تارة تقول هذا بعيد عن الفهم و التأويل فإن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية فهذا القدر كيف يكون ثلثها و هذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن و نظرك إلى ظاهر ألفاظه فتظن أنها تعظم و تكثر بطول الألفاظ و تقصر بقصرها و ذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهرة الواحدة نظرا إلى كثرتها فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعا و ترجع إلى الأقسام الثلاثة التى ذكرناها فى مهمات القرآن و هي معرفة الله و معرفة الآخرة و معرفة الصراط المستقيم فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة و الباقى توابع و سورة الإخلاص تشتمل على و احدة من الثلاث و هي معرفة الله و تقديسه و توحيده عن مشارك فى الجنس و النوع و هو المراد بنفي الأصل و الفرع و الكفء و الوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه نعم ليس فيها حديث الآخرة و الصراط المستقيم فلذلك تعدل ثلث القرآن أي ثلث الأصول من القرآن كما قال الحج عرفة أي هو الأصل و الباقى تبع قلت آيات القرآن نوعان علمية و عملية و في الايات ما يجمع الأمرين و أبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله و صفاته و أفعاله دون ما يتعلق باليوم الآخر و القصص و سماها جواهر القرآن و جمع العمليات و سماها درر القرآن و جعل الشطر الأول من الفاتحة من الجواهر و الثانى من الدرر و الآيات التى تجمع المعنيين يذكرها في أغلب النوعين عليها و مجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن نحو ألف و خمسمائة آية و جعل معانى القرآن ستة أصناف ثلاثة أصول و ثلاثة توابع فذكر أن القرآن هو البحر المحيط و منه يتشعب علم الأولين و الآخرين و قال سر القرآن و لبابه الأصفى و مقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى رب الآخرة و الأولى و خالق السموات العلى و الأرضين السفلى فالثلاثة المهمة تعريف المدعو إليه و تعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته فى السلوك إليه و تعريف الحال عند الوصول إليه و أما الثلاثة المعنية فأحدها أحوال المجيبين للدعوة و لطائف صنع الله فيهم و سره و مقصوده التشويق و الترغيب و تعريف أحوال الناكبين و الناكلين عن الإجابة و كيفية قمع الله لهم و تنكيله بهم و سره مقصوده الإعتبار و الترهيب و ثانيها حكاية أقوال

الجاحدين و كشف فضائحهم و جهلهم بالمجادلة و المحاجة على الحق و مقصوده و سره فى جنبة الباطل الإفصاح و التحذير و التنفير و فى جنبة الحق الإيضاح و التثبيت و التقرير و ثالثها تعريف عمارة منازل الطريق و كيفية أخذ الزاد و الراحلة و الأهبة للإستعداد قلت ما ذكره من أن أصول الإيمان ثلاثة فهو حق كما ذكره و لابد من الثلاثة فى كل ملة و دين كما قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }البقرة62 و نحو ذلك فى سورة المائدة فذكر هذه الأصول الثلاثة الإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح و أما الثلاثة الأخر التابعة فهي داخلة فى هذه الثلاثة فإن ما في القرآن من ذكر أحوال السعداء و الأشقياء فى الآخرة فهو من تفصيل الإيمان باليوم الآخر و ما فيه من عمارة الطريق فهو من العمل الصالح و ما فيه من المجادلة و المحاجة فذاك من تمام الإخبار بالثلاثة فإنه إذا أخبر بالثلاثة ذكر الأيات و الأدلة المثبتة لذلك و ذكر شبه الجاحدين و بين فسادها و قد ذكر أبو حامد ذلك فقال القسم الجائي لمحاجة الكفار و مجادلتهم و إيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح و كشف أباطيلهم و تخاييلهم و أباطيلهم ثلاثة أنواع الأول ذكر الله لا يليق به من أن الملائكة بناته و أن له و لدا شريكا و أنه ثالث ثلاثة الثاني ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم بأنه ساحر و كاهن و شاعر و إنكار نبوته و ثالثها إنكار اليوم الآخر و جحد البعث و النشور و الجنة و النار و إنكار عاقبة الطاعة و المعصية و أما ما فيه من الإخبار بأحوال المؤمنين و الكفار فى الدنيا و هو الذي أراده أبو حامد بذكر أحوال المستجيبين و الناكبين فهذا من تمام الأدلة و الأيات فإن هذا أمر شوهد في الدنيا و رؤيت آثاره و تواترت أخباره ليس هو مما بعد الموت الذي هو غيب عن العباد و لهذا يذكر سبحانه هذا في معرض الإحتجاج و الإستدلال مع ما في ذلك من الموعظة كقوله {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ }يوسف111 {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ }آل عمران13 و قوله {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ }الحشر2 و قوله {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }الأنعام11 و قوله {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ {45} أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ{46} الحج45-46 و قوله{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }الروم9 وقوله تعالى لما ذكر قصة قوم لوط { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{74} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{75} وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ{76}الحجر74-76 و المتوسم المستدل بالسمة و السيما و هي العلامة قال تعالى {وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ }محمد30 فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها لكن هذا يكون إذا تكلموا و أما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله فغن ذلك أخفى و فى الحديث الذي رواه الترمذي و حسنه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه و سلم قال إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{75}الحجر 75 قال مجاهد و إبن قتيبة للمتفرسين قال إبن قتيبة يقال توسمت في فلا الخير أي تبينته و قال الزجاج المتوسمون في اللغة النظار المثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة

سمة الشيء يقال توسمت فى فلان كذا أي عرفت و قوله المتبتون في نظرهم أي فى نظر أعينهم حتى يعرفوا السيما بخلاف الذين قيل فيهم {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ }يوسف105 و قال الضحاك الناظرون و قال إبن زيد المنتقدون و قال قتادة المعتبرون و كل هذا صحيح فإن المتوسم يجمع هذا كله ثم قال تعالى{ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ }الحجر76 ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة ثم قال { وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ }الحجر79 اي بطريق متبين للناس و اضح وكذلك فى موضع آخر لما قال { فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{35} فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ{36} وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ{37}الذاريات35-37 و قال فى سفينة نوح {وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }القمر15 فأخبر أنه أبقى آيات و هي العلامات و الدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين و حسن عاقبتهم فى الدنيا و أخبار الكفار و سوء عاقبتهم فى الدنيا هو من باب الآيات و الدلالات التى يستدل بها و يعتبر بها علما و وعظا فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل و يفيد الترغيب و الترهيب و يدل ذلك على أن الله يرضي عن أهل طاعته و يكرمهم و يغضب على أهل معصيته و يعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل و يستدل بأحكام الأفعال على علمه لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل و بالتخصيص على مشيئته لأن التخصيص مستلزم لإرادته فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته لأن تخصيص الفعل بما هو محمود فى العاقبة مستلزم للحكمة و يستدل بتخصيص الأنبياء و إتباعهم بالنصر و حسن العاقبة و تخصيص مكذبيهم بالخزي و سوء العاقبة على أنه يأمر و يحب و يرضي ما جاءت به الأنبياء و يكره و يسخط ما كان عليه مكذبوهم لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام و النجاة و الذكر الحسن و الدعاء و تخصيص الآخر بالعذاب و الهلاك و قبح الذكر و اللعنة يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول و بغض ما فعله الصنف الثانى و أما الإرادة التى يقال فيها إنها تخص أحد المثلين عن الاخر بلا سبب فتلك هل يوصف الله بها فيه نزاع فإن قيل إنه لا يوصف بها فلا كلام و إن قيل إنه يوصف بها فمعلوم أن تخصيص الأنبياء عليهم السلام بهذا و تخصيص أعدائهم بهذا لم يصدر عن تخصيص بلا مخصص بل يعلم أنه قصد تخصيص هؤلاء بالإكرام و هؤلاء بالعقاب و إن إيمان هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا و كفر هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا و لبسط هذه الأمور موضع آخر لكن المقصود هنا أن هذه الثلاثة داخلة فى الثلاثة الأول و لكن ابو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام و يجعل عمارة الطريق علم الفقه و يجعل أخبار الأنبياء علم القصص و يقول إن الكلام و الجدل ليس فيه بيان حق بدليل بل إنما فيه دفع البدع ببيان تناقضها و يجعل أهله من جنس خفراء الحجيج و يجعل علم الفقه ليس غايته إلا مصلحة الدنيا و هذا مما نازعه فيه أكثر الناس و تكلموا فيه بكلام ليس هذا موضعه كما تكلموا على ما ذكره فى هذا الكتاب جواهر القرآن و غيره من كتبه من معاني الفلسفة و جعل ذلك هو باطن القرآن و كلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك فإن هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول أمور عظيمة كما تكلموا على ما ذكره في النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها والمقصود أن هذا الذي ذكره فى قل هو الله أحد أحسن من قول كثير من الناس فيها و هو أقرب إلى القول الذي ذكرناه عن إبن سريج و نصرناه لكن ذلك القول هو الصواب بلا ريب فإن النبى صلى الله عليه و سلم أخبر بأن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءا من أجزاء القرآن و هذا يقتضي أن مجموع القرآن ثلاثة أجزاء ليس هو ستة ثلاثة أصول و ثلاثة فروع و كذلك أخبر أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لم يقل ثلث المهم منه و لا ثلث أكثره و لا أصوله فوجب أن يكون القرآن كله ثلاثة أصناف و على ما ذكره أبو حامد هو ستة ثلاثة مهمة و ثلاثة توابع و السورة أحد الثلاثة المهمة و هذا خلاف الحديث و أيضا

فإن تقسيم القرآن إلى ثلاثة أقسام تقسيم بالدليل فإن القرآن كلام و الكلام إما إخبار و إما إنشاء و الإخبار إما عن الخالق و إما عن المخلوق فهذا تقسيم بين و إما جعل علم الفقه خارجا عن الصراط المستقيم و العمل الصالح و جعل علم الأدلة و الحجج خارجا عن الإيمان و المعرفة بالله و اليوم الآخر فهذا مردود عند جماهير السلف و الخلف وأبو حامد إنما ذكر هذا لأنه يقول إنما يعرف معانى ذلك بطريق التصفية فقط لا بطريق الخبر النبوى و لا بطريق النظر الإستدلالي فلا يعرف ذلك بالسمع و لا بالعقل و هذا مما أنكره عليه الناس و صنفوا كتبا فى رد ذلك كما فعل جماعات من العلماء و لكن عذر أبى حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة و أهل الكلام ما يبين الحق في ذلك و لم يعلم طرقا عقلية غير ذلك فنفى أن يعلم بطريق النظر فيه و أما الطرق الخبرية النبوية فلم يكن له خبرة بما صح من ألفاظ الرسول و بطريق دلالة ألفاظه على مقاصده و ظن بما شارك به بعض أهل الكلام و الفلسفة أن الرسول لم يبين مراده بألفاظه فتركب من هذا و هذا سد باب الطريق العقلي و السمعي و ظن أن المطلوب يحصل له بطريق التصفية و العمل فسلك ذلك فلم يحصل له المقصود أيضا فرجع فى آخر عمره إلى قراءة البخاري و مسلم وقد ذكر القاضي عياض أقوالا في كون قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن و كذلك المازري قبله قال قال الإمام يعنى أبا عبدالله المازري قيل معنى ذلك أن القرآن على ثلاثة أنحاء قصص و احكام و أوصاف لله جلت قدرته و قل هو الله أحد تشتمل على ذكر الصفات فكانت ثلثا من هذه الجهة قال و ربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن قلت هذا هو قول إبن سريج و هو الذي نصرناه ذكره المازري فى كلام إبن بطال كما سيأتى قال و قيل معنى ثلث القرآن لشخص النبوة لأن ذلك مما أخبر به النبى صلى الله عليه و سلم أو مما يدل على نبوته و هذا القول ضعيف أيضا فإنه يقال و الأمر و النهي أيضا مما جاء به النبى كما جاء والوعد بالوعيد ويقال أيضا القصص تدل على الأمر و النهي كما تدل على النبوة فإنها تدل على إكرامه لمن أطاعه و عقوبته لمن عصاه و هذا تقرير للأمر و النهي كما تقدم و أيضا فإن مقصود النبوة هو الإخبار بما أمر الله به و بما أخبر به و ما دل على إثبات النبوة من القصص يدل على إثبات ما جاء به النبى و ما دل على إثبات ما جاء به النبى يدل على الأمر و النهي الذي جاء به النبى فهما متلازمان ثم الإلهيات أيضا هي مما جاء به النبى صلى الله عليه و سلم فبين الدلائل العقلية على ما يمكن أن يعرف بالعقل و أخبر عن الغيب المطلق الذي تعجز العقول عن معرفته فلا معنى لجعل القصص داخلة فى النبوة دون الإلهيات فإنه إن عنى أن القصص تدل على نبوته فهي تدل من جهة إخباره بها كإخباره بغيرها من الغيب و فيما أخبر به من الإلهيات و الأمور المستقبلات ما هو كالقصص في ذلك و أبلغ و إن عنى أن تعذيب المكذبين يدل على النبوة فهي تدل على جنس النبوة و على نبوة من عذب قومه لا تدل على نبوة المتأخر إلا أن يكون ما أخبر به من جنس ما أخبر به الأول و هذه الأمور كلها موجودة فى الإلهيات و زيادة فإنه قد أخبر فيها بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله قد ذكر الله ذلك فى غير موضع كقوله {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 و قوله {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 و قوله {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 و قد أخبر الله عن الأنبياء الذين قص إخبارهم كنوح و هود و صالح و شعيب صلوات الله عليهم أجمعين أن كلا منهم يقول لقومه { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ } بل يفتح دعوته بذلك و ذكر تعالى عن الأنبياء و أممهم من نوح إلى الحواريين أنهم كانوا مسلمين كما قد بسط فى غير موضع و أيضا فالإلهيات التى تعلم منها قدرة الرب و إرادته و حكمته و أفعاله منها يعلم النبى من المتنبيء و منها يعلم صدق النبى فهي أدل على صدق النبى من مجرد القصص و ما في القصص من الدلالة على

صدقه إنما يدل مع الإلهيات و إلا فلو تجرد لم يدل على شيء فالنبوة مرتبطة بالإلهيات أعظم من إرتباطها بغيرها و الأنبياء إنما بعثوا بالدعوة إلى الله و حده و قد يذكرون المعاد مجملا و مفصلا و القصص قد يذكر بعضهم بعضها مجملا وأما الإلهيات فهي الأصل و لابد من تفصيل الأمر بعبادة الله و حده دون ما سواه فلا بد لكل نبى من الأصول الثلاثة الإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح و الأصول الكلية التى يشترك فيها الأنبياء يذكرها الله في السور المكية مثل الأنعام و الاعراف و ذوات الر و طسم و و أكثر المفصل و نحو ذلك و المدنيات تتضمن خطاب من آمن بجنس الرسل من أهل الكتاب من المؤمنين بالشرائع التى بعث بها خاتم الرسل و أما قول من قال إن هذا فى شخص بعينه ففى غاية الفساد لفظا و معنى ثم إن الله إنما يخص الشيء المعين بحكم يخصه لمعنى يختص به كما قال لأبي بردة بن نيار و كان قد ذبح فى العيد قبل الصلاة قبل أن يشرع لهم النبى صلى الله عليه و سلم أن الذبح يكون بعد الصلاة هذا فلما قال النبى صلى الله عليه و سلم أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلي ثم نذبح فمن ذبح قبل الصلاة فلعيد فإنما هي شاة لحم قدمها لأهله ذكر له أبو بردة أنه ذبح قبل الصلاة و لم يكن يعرف أن ذلك لا يجوز و ذكر له أن عنده عناقا خيرا من جذعة فقال تجزى عنك و لا تجزى عن أحد بعدك فخصه بهذا الحكم لأنه كان معذورا فى ذبحه قبل الصلاة إذ فعل ذلك قبل شرع الحكم فلم يكن ذلك الذبح منهيا عنه بعد مع أنه لم يكن عنده إلا هذا السن و أما أمره لإمرأة أبى حذيفة بن عتبة أن ترضع سالما مولاه خمس رضعات ليصير لها محرما فهذا مما تنازع فيه السلف هل هو مختص أو مشترك و إذا قيل هذا لمن يحتاج إلى ذلك كما إحتاجت هي إليه كان في ذلك جمع بين الأدلة وبالجملة فالشارع حكيم لا يفرق بين متماثلين إلا لإختصاص أحدهما بما يوجب الإختصاص و لا يسوى بين مختلفين غير متساويين بل قد أنكر سبحانه على من نسبه إلى ذلك و قبح من يحكم بذلك فقال تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص28 و قال تعالى ({أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية21 و قال تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ {35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{36}القلم35 -36 و قال تعالى {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ }القمر43 و قال تعالى { يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ }الحشر2 و إنما يكون الاعتبار إذا سوى المتماثلين و أما إذا قيل ليس الواقع كذلك فلا إعتبار وقد تنازع الناس في هذا الأصل و هو أنه هل يخص بالأمر و النهي ما يخص لا لسبب و لا لحكمة قط بل مجرد تخصيص أحد المتماثلين على الآخر فقال بذلك جهم بن صفوان و من و افقه من الجبرية و وافقهم كثير من المتكلمين المثبتين للقدر و أما السلف و أئمة الفقه و الحديث و التصوف و أكثر طوائف الكلام المثبتين للقدر كالكرامية و غيرهم و نفاته كالمعتزلة و غيرهم فلا يقولون بهذا الأصل بل يقولون هو سبحانه يخص ما يخص من خلقه و أمره لأسباب و لحكمة له فى التخصيص كما بسط الكلام على هذا الأصل فى مواضع المجلد وكذلك قول من قال يضعف لقارئها مقدار ما يعطاه قارىء ثلث القرآن بلا تضعيف قول لا يدل عليه الحديث و لا فى العقل ما يدل عليه و ليس فيه مناسبة و لا حكمة فإن النص أخبر أن قراءتها تعدل ثلث القرآن و أن من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن فإن كان في هذا تضعيف ففي هذا تضعيف وإن لم يكن فى هذا تضعيف لم يكن في الآخر فتخصيص أحدهما بالتضعيف تحكم ثم جعل التضعيف بقدر ثلث القرآن إنما هو لما إختصت به السورة من الفضل و حينئذ ففضلها هو سبب هذا التقدير من غير حاجة إلى نقص ثواب سائر القرآن و أيضا فهذا تحكم محض لا دليل عليه و لا سبب يقتضيه و لا حكمة فيه و الناس كثيرا ما يغلطون من جهة نقص علمهم و إيمانهم بكلام الله و رسوله و قدر ذلك و ما إشتمل عليه ذلك من العلم الذي

يفوق علم الأولين و الآخرين و من علم أن الرسول أعلم الخلق بالحق و أفصح الخلق فى البيان و أنصح الخلق للخلق علم أنه قد إجتمع في حقه كمال العلم بالحق و كمال القدرة على بيانه و كمال الإرادة له و مع كمال العلم و القدرة و الإرادة يجب وجود المطلوب على أكمل وجه فيعلم أم كلامه أبلغ ما يكون وأتم ما يكون وأعظم ما يكون بيانا لما بينه في الدين من أمور الإلهية و غير ذلك فمن وقر هذا فى قلبه لم يقدر على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التى إذا تدبرت و جد من إرادها بذلك القول من أبعد الناس عما يجب إتصاف الرسول به و علم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص ما أوتيه من العلم و الأيمان و قد قال تعالى {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ }المجادلة11 فنسأل الله أن يجعلنا و إخواننا ممن رفع درجاته من أهل العلم و الإيمان و إذ قد تبين ضعف هذه الأقوال غير القول الأول الذي نصرناه و هو قول إبن سريج و غيره كالمهلب و الأصيلي و غيرهما فنقول قد علم أن تفاضل القرآن و غيره من كلام الله ليس بإعتبار نسبته إلى المتكلم فإنه سبحانه و احد و لكن بإعتبار معانيه التى يتكلم بها و بإعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه والذى قد صح عن النبى انه فضل من السور سورة الفاتحة وقال انه لم ينزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى القرآن مثلها والاحكام الشرعية تدل على ذلك وقد بسط الكلام على معانيها فى غير هذا الموضع وفضل من الايات آية الكرسى وقال فى الحديث الصحيح لابى بن كعب أتدرى اى آية فى كتاب الله معك أعظم قال الله لا اله الا هو الحى القيوم فضرب بيده فى صدره وقال ليهنك العلم أبا المنذر وليس فى القرآن اية واحدة تضمنت ما تضمنته اية الكرسى وانما ذكر الله فى اول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة وسنبين إن شاء الله أنه إذا كانت قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة و لا أنها يكتفى بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرىء القرآن كله إلا مرة و احدة كما كتبت في المصحف فإن القرآن يقرأ كما كتب في المصحف لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه والتكبير المأثور عن إبن كثير ليس هو مسندا عن النبى صلى الله عليه و سلم و لم يسنده أحد إلى النبى صلى الله عليه و سلم إلا البزي و خالف بذلك سائر من نقله فإنهم إنما نقلوه إختيارا ممن هو دون النبى صلى الله عليه و سلم و إنفرد هو برفعه وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث و الرجال من علماء القراءة و علماء الحديث كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء فالمقصود أن من السنة فى القرآن أن يقرأ كما فى المصاحف و لكن إذا قرئت قل هو الله أحد مفردة تقرأ ثلاث مرات و أكثر من ذلك و من قرأها من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن لكن عدل الشيء بالفتح يكون من غير جنسه كما سنذكره إن شاء الله و الثواب أجناس مختلفة كما أن الأموال أجناس مختلفة من مطعوم و مشروب و ملبوس و مسكون و نقد و غير ذلك و إذا ملك الرجل من أحد أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلا لم يلزم من ذلك أن يستغنى عن سائر أجناس المال بل إذا كان عنده مال و هو طعام فهو محتاج إلى لباس و مسكن و غير ذلك و كذلك إن كان من جنس غير النقد فهو محتاج إلى غيره و إن لم يكن معه إلا النقد فهو محتاج إلى جميع الأنواع التى يحتاج إلى أنواعها و منافعها و الفاتحة فيها من المنافع ثناء و دعاء مما يحتاج الناس إليه ما لا تقوم قل هو الله أحد مقامه في ذلك و إن كان أجرها عظيما فذلك الأجر العظيم إنما ينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب و لهذا لو صلى بها و حدها بدون الفاتحة لم تصح صلاته و لو قدر أنه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح صلاته لأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التى لابد للعباد منها و قد بسط الكلام عليها فى غير هذا الموضع و بين أن ما فى الفاتحة من الثناء و الدعاء و هو قول { اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة6-7 هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه و هو أوجب دعاء دعا به العبد ربه و أنفع دعاء دعا

به العبد ربه فإنه يجمع مصالح الدين و الدنيا و الآخرة و العبد دائما محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه فلو حصل له أجر تسعه أعشار القرآن دع ثلثه ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقم مقامه و لم يسد مسده وهذا كما لو قدر أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة و جاهد جهادا عظيما يكون أفضل من قراءة القرآن مرات و هو لم يصل ذلك اليوم الصلوات الخمس لم يقم ثواب هذه الأعمال مقام هذه كما لو كان عند الرجل من الذهب و الفضة و الرقيق و الحيوان و العقار أموال عظيمة و ليس عنده ما يتغذى به و يتعشى من الطعام فإنه يكون جائعا متألما فاسد الحال و لا يقوم مقام الطعام الذي يحتاج إليه تلك الأموال العظيمة و لهذا قال الشيخ أبو مدين رحمه الله أشرف العلوم علم التوحيد و أنفع العلم أحكام العبيد فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في و قت بل الأنفع فى كل و قت ما يحتاج إليه العبد فى ذلك الوقت و هو فعل ما أمر الله به و ترك ما نهى الله عنه و لهذا يقال المفضول فى مكانه و زمانه أفضل من الفاضل إذ دل الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة و القراءة أفضل من الذكر و الذكر أفضل من الدعاء فهذا أمر مطلق وقد تحرم الصلاة فى أوقات فتكون القراءة أفضل منها فى ذلك الوقت و التسبيح فى الركوع و السجود هو المأمور به و القراءة منهى عنها و نظائر هذا كثيرة فهكذا يعلم الأمر فى فضل قل هو الله أحد و غيرها فقراءة الفاتحة فى أول الصلاة أفضل من قراءتها بل هو الواجب و الاجتزاء بها و حدها لا يمكن بل تبطل معه الصلاة و لهذا وجب التقرب بالفرائض قبل النوافل والتقرب بالنوافل إنما يكون تقربا إذا فعلت الفرائض لا كما ظنه بعض الاتحادية كصاحب الفتوحات المكية و نحوه من أن قرب الفرائض تكون بعد قرب النوافل و النوافل تجعل الحق غطاءه و تلك تجعل الحق عينه فهذا بناء على أصله الفاسد من الاتحاد كما بين و بين أن الحديث يناقض مذهبه من و جوه كما رواه البخاري فى صحيحه عن أبي هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم يقول الله من عادى لي و ليا فقد بارزني بالمحاربة و ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما إفترضت عليه و لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به و يده التى يبطش بها و رجله التى يمشي بها فبى يسمع و بى يبصر و بى يبطش و بى يمشي و لئن سألني لأعطينه و لئن إستعاذنى لأعيذنه و ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت و أكره مساءته و لا بد له منه و قد بين فى هذا الحديث أن المتقرب ليس هو المتقرب إليه بل هو غيره وأنه ما تقرب إليه بمثل أداء المفروض و أنه لا يزال بعد ذلك يتقرب بالنوافل حتى يصير محبوبا لله فيسمع به و يبصر به و يبطش به و يمشي به ثم قال و لئن سألني لأعطينه و لئن إستعاذنى لأعيذنه ففرق بين السائل و المسؤل و المستعيذ و المستعاذ به و جعل العبد سائلا لربه مستعيذا به و هذا حديث شريف جامع لمقاصد عظيمة ليس هذا موضعها بل المقصود هنا الكلام على قل هو الله أحد و قد بينا أن أحسن الوجوه أن معانى القرآن ثلاثة أنواع توحيد و قصص و أحكام و هذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده و ذلك لأن القرآن كلام الله والكلام نوعان إما إنشاء و إما إخبار والاخبار إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي والخبر عن المخلوق هو القصص والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته وليس فى القرآن سورة هي وصف الرحمن محضا إلا هذه السورة وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث رجلا على سرية فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه و سلم فقال سلوه لأي شيء يصنع ذلك فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أخبروه أن الله يحبه وقال البخاري فى باب الجمع بين السورتين في ركعة و قال عبيد الله عن ثابت عن أنس كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء فكان كلما إفتتح سورة

يقرأ لهم بها فى الصلاة مما يقرأ به إفتتح قل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها فكان يصنع ذلك في كل ركعة فكلمه أصحابه و قالوا إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بأخرى فأما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى فقال ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وإن كرهتم ذلك تركتكم وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبى صلى الله عليه و سلم أخبروه الخبر فقال يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما يحملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة قال إنى أحبها قال حبك إياها أدخلك الجنة و قول النبى صلى الله عليه و سلم إنما تعدل ثلث القرآن حق كما أخبر به فإنه صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى لم يخرج من بين شفتيه إلا حق

والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان أحدهما منع تفاضل كلام الله بعضه على بعض و قد تبين ضعفه الثانى إعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم قالوا لأن النبى صلى الله عليه و سلم قال من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقوال ألم حرف و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف قال الترمذي حديث صحيح قالوا و معلوم أن ثلث القرآن حروفه أكثر بكثير فتكون حسناته أكثر فيقال لهم هذا حق كما أخبر به النبى صلى الله عليه و سلم و لكن الحسنات فيها كبار و صغار و النبى صلى الله عليه و سلم مقصوده أن الله يعطى العبد بكل حسنة عشر أمثالها كما قال تعالى {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا }الأنعام160 فإذا قرأ حرفا كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر تلك الحسنة عشر مرات لكن لم يقل إن الحسنات في الحروف متماثلة كما أن من تصدق بدينار يعطى بتلك الحسنة عشر أمثالها و الواحد من بعد السابقين الأولين لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم و لا نصيفه كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم فهو إذا أنفق مدا كان له بهذه الحسنة عشر أمثالها و لكن لا تكون تلك الحسنة بقدر حسنة من أنفق مدا من الصحابة السابقين و نظائر هذا كثيرة فكذلك حروف القرآن تتفاضل لتفاضل المعانى و غير ذلك فحروف الفاتحة له بكل حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف من تبت يدا أبى لهب و إذا كان الشيء يعدل غيره فعدل الشيء بالفتح هو مساويه و إن كان من غير جنسه كما قال تعالى { أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً }المائدة95 والصيام ليس من جنس الطعام و الجزاء و لكنه يعادله فى القدر و كذلك قوله صلى الله عليه و سلم لا يقبل الله منه صرفا و لا عدلا و قوله تعالى {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ }البقرة123 أي فدية و الفدية ما يعدل بالمفدى و إن كان من غير جنسه { ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ }الأنعام1 أي يجعلون له عدلا أي ندا فى الإلهية و إن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه و لو كان لرجل أموال من أصناف متنوعة و لآخر ذهب بقدر ذلك لكان مال هذا يعدل مال هذا و إن لم يكن من جنسه و لهذا قد يكون عند الرجل من الذهب و غيره من الأموال ما يعدل شيئا عظيما و إذا إحتاج إلى دواء أو مركب أو مسكن أو نحو ذلك و لم يكن قادرا على إشترائه لم تنفعه تلك الأموال العظيمة فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر و النهي و القصص وإن كان التوحيد أعظم من ذلك و إذا إحتاج الانسان إلى معرفة ما أمر به و ما نهى عنه من الأفعال أو إحتاج إلى ما يؤمر به و يعتبر به من القصص و الوعد و الوعيد لم يسد غيره مسده فلا يسد التوحيد مسد هذا و لا تسد القصص مسد الأمر و النهي و لا الأمر و النهي مسد القصص بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس و يحتاجون إليه فإذا قرأ الإنسان قل هو الله أحد حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن بل قد يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر و النهي ولقصص فلا تسد قل هو الله أحد مسد ذلك و لا تقوم مقامه فلهذا لو لم يقرأ قل هو الله أحد فإنه و إن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة غيرها لا

يحصل له بقراءتها بل يبقى فقيرا محتاجا إلى ما يتم به إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد و الوعيد ولو قام الواجب عليه فالمعارف التى تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب و إن كان قارىء قل هو الله أحد ثلاثا يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب لكنه جنس وا حد ليس فيه الأنواع التى يحتاج إليها العبد كمن معه ثلاثة آلاف دينار و آخر معه طعام و لباس و مساكن و نقد يعدل ثلاثة آلاف دينار فإن هذا معه ما ينتفع به في جميع أموره وذاك محتاج إلى ما مع هذا و إن كان ما معه يعدل ما مع هذا و كذلك لو كان معه طعام من أشرف الطعام يساوي ثلاثة آلاف دينار فإنه محتاج إلى لباس و مساكن و ما يدفع به الضرر من السلاح و الأدوية و غير ذلك مما لا يحصل بمجرد الطعام ومما ينبغي أن يعلم أن فضل القراءة و الذكر و الدعاء و الصلاة و غير ذلك قد يختلف بإختلاف حال الرجل فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر و الصلاة بخشوع و حضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك و فى الأثر إن الرجلين ليكون مقامهما فى الصف و احدا و بين صلاتيهما كما بين السماء و الأرض و كان بعض الشيوخ يرقى ب قل هو الله أحد و كان لها بركة عظيمة فيرقى بها غيره فلا يحصل ذلك فيقول ليس قل هو الله أحد من كل أحد تنفع كل أحد و إذا عرف ذلك فقد يكون تسبيح بعض الناس أفضل من قراءة غيره و يكون قراءة بعض ا لسور من بعض الناس أفضل من قراءة غيره ل قل هو الله أحد و غيرها و الإنسان الواحد يختلف أيضا حاله فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة و قد غفر الله لبغي لسقيها الكلب كما ثبت ذلك فى الصحيحين و هذا لما حصل لها فى ذلك العمل من الأعمال القلبية و غيرها و قد ينفق الرجل أضعاف ذلك فلا يغفر له لعدم الأسباب المزكية للعمل فإن الله إنما يتقبل من المتقين وقد قال النبى صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم و لا نصيفه يقوله عن أصحابه ا لسابقين الأولين رضي الله عنهم فإذا قيل إن قل هو الله أحد يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن فلابد من إعتبار التماثل فى سائر الصفات و إلا فإذا إعتبر قراءة غيرها مع التدبر و الخشوع بقراءتها مع الغفلة و الجهل لم يكن الأمر كذلك بل قد يكون قول العبد سبحان الله و ا لحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر مع حضور القلب و إتصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل و الغفلة و الناس متفاضلون في فهم هذه السورة و ما إشتملت عليه كما أنهم متفاضلون فى فهم سائر القرآن فصل وأصل هذه المسألة أن يعلم أن التفاضل و التماثل إنما يقع بين شيئين فصاعدا إذ الواحد من كل و جه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء فالتفاضل فى صفاته تعالى إنما يعقل إذا اثبت له صفات متعددة كالعلم و القدرة و الإرادة و المحبة و البغض و الرضا و الغضب و كإثبات أسماء له متعددة تدل على معان متعددة و أثبت له كلمات متعددة تقوم بذاته حتى يقال هل بعضها أفضل من بعض أم لا و كل قول سوى قول السلف و الأئمة فى هذا الباب فهو خطأ متناقض و أي شيء قاله فى جواب هذه المسألة كان خطأ لا يمكنه أن يجيب فيه بجواب صحيح فمن قال إنه ليس له صفة ثبوتية بل ليس له صفة إلا سلبية أو إضافية كما يقول ذلك الجهمية المحصنة من المتفلسفة و المتكلمة أتباع جهم بن صفوان فهذا إذا قيل له أيهما أفضل نسبته التى لا هي الخلق إلى السموات و الأرض أم إلى بعوضة أم أيما أفضل نفى الجهل بكل شيء عنه و العجز عن كل شيء أم نفي الجهل بالكليات لم يمكنه أن يجيب بجواب صحيح على أصله الفاسد فإنه إن قال خلق السموات مماثل خلق البعوضة كان هذا مكابرة للعقل و الشرع قال تعالى {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } غافر57 و إن قال بل ذلك أعظم و أكبر كما فى القرآن قيل له ليس عندك أمران وجوديان يفضل أحدهما الآخر إذ الخلق على قولك لا يزيد على المخلوق فلم يبق إلا العدم المحض فكيف يعقل في المعدومين من كل

وجه أن يكون أحدهما أفضل من صاحبه إذا لم يكن هناك وجود يحصل فيه التفاضل و كذلك إذا قيل نفي ا لجهل والعجز عن بعض الأشياء مثل نفي ذلك عن بعض الأشياء كان هذا مكابرة و إن قال بل نفي ا لجهل العام أكمل من نفي الجهل ا لخاص قيل له إذا لم يلزم من نفي الجهل ثبوت علم بشيء من الأشياء بل كان النفيان عدمين محضين فكيف يعقل التفاضل فى الشيء الواحد من كل و جه فإنه لا يعقل في العدم المحض والنفي الصرف فإن ذلك ليس بشيء أصلا ولا حقيقة له فى الوجود ولا فيه كمال ولا مدح وإنما يكون التفاضل بصفات الكمال والكمال لابد أن يكون وجودا قائما بنفسه أو صفة موجودة قائمة بغيرها فأما العدم المحض فلا كمال فيه أصلا ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه لا السلبية العدمية لتضمنها أمورا وجودية تكون كمالا يتمدح سبحانه بها كما قد بسط فى غير هذا ا لموضع كقوله تعالى {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ }البقرة255 ففى ذلك يتضمن كمال الحياة و القيومية و كذلك قوله { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة255 يتضمن كمال الملك والربوبية وإنفراده بذلك ونفس إنفراده بالملك والهداية و التعليم وسائر صفات الكمال هو من صفات الكمال ولهذا كانت السورة فيها الإسمان الأحد الصمد و كل منهما يدل على الكمال فقوله{ أَحَدٌ}الاخلاص1 يدل على نفي النظير وقوله {الصَّمَدُ{2}الاخلاص2 بالتعريف يدل على إختصاصه بالصمدية ولهذا جاء التعريف فى إسمه قُلْ { الصَّمَدُ{2} الاخلاص 2 دون الأحد لأن أحدا لا يوصف به فى الإثبات غيره بخلاف الصمد فإن العرب تسمى السيد صمدا قال يحيى بن أبى كثير ا الملائكة تسمى صمدا والآدمي أجوف فقوله { الصَّمَدُ }الإخلاص2 بيان لإختصاص بكمال الصمدية و قد ذكرنا تفسير الصمد وإشتماله على جميع صفات الكمال كما رواه العلماء من تفسير إبن أبي طلحة عن إبن عباس و قد ذكره إبن جرير و إبن أبي حاتم و البيهقى و غيرهم فى قوله{ الصَّمَدُ }الإخلاص2 يقول السيد الذي قد كمل فى سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل فى عظمته و الحكيم الذي قد كمل في حكمته والعليم الذي قد كمل فى علمه والحليم الذي قد كمل في حلمه و هو الذي قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد وهو سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفؤ و ليس كمثله شيء سبحانه الواحد القهار و كذلك قد ثبت من حديث الأعمش عن أبى وائل وقد ذكره البخاري فى صحيحه و رواه كثير من أهل العلم في كتبهم قال الصمد السيد الذي إنتهي سؤدده وقد قال غير واحد من السلف كإبن مسعود وإبن عباس و غيرهما الصمد الذي لاجوف له وكلا القولين حق موافق للغة كما قد بسط في موضعه أما كون { الصَّمَدُ }الإخلاص2 هو السيد فهذا مشهور وأما الآخر فهو أيضا معروف فى اللغة وقد ذكر الجوهري وغيره أن الصمد لغة في الصمت و ليس هذا من إبدال الدال بالتاء كما ظنه بعضهم بل لفظ صمد يصمد صمدا يدل على ذلك والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي فى الأمور الموجودة والصفات السلبية إنما تكون كمالا إذا تضمنت أمورا وجودية و لهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه و تعظيمه جميعا فقول العبد سبحان الله يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء و هذا المعنى يتضمن عظمته فى نفسه ليس هو عدما محضا لا يتضمن وجودا فإن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم و كذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والأولاد وغير ذلك كقوله تعالى{ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } الاسراء 40 إلى قوله{ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً{42} سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً{43} تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً{44} الاسراء 42 -44 و قوله تعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} الصافات180 -181 و غير ذلك فنفى العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال و نفي الشركاء يقتضي الوحدانية و هو من تمام الكمال فإن ماله نظير قد إنقسمت صفات

الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياها و لهذا كان أهل التوحيد والإخلاص أكمل حبا لله من المشركين الذين يحبون غيره الذين إتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ}البقرة165 و هذا مبسوط فى غير هذا ا لموضع قد بين فيه أن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى و في الصحيحين عن إبن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا و هو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل و لدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني بحليلة جارك و أنزل الله تعالى تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ }الفرقان68 الآية فمن جعل لله ندا كحب الله فهو ممن دعا مع الله إلها آخر وهذا من الشرك الأكبر والمقصود هنا أن الشيء إذا إنقسم و وقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم والفواحش يوجب كمال الأمور الوجودية فى عبادتهم وطاعتهم ومعرفتهم ومحبتهم و ذلك من زكاهم كما أن الزرع كما نقي عنه الدغل كان أزكي له وأكمل لصفات الكمال الوجودية فيه قال تعالى {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ{7} فصلت 6-7 و أصل الزكاة التوحيد و الإخلاص كما فسرها أكابر السلف و قال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }النور30 و قال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 و هذا كله مبسوط في غير هذا الموضع [1]

{ اللَّهُ الصَّمَد }

في تفسير { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 و الإسم { الصَّمَدُ } الاخلاص2 فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة و ليست كذلك بل كلها صواب و المشهور منها قولان أحدهما أن الصمد هو الذي لا جوف له الثاني أنه السيد الذي يصمد إليه فى الحوائج و الأول هو قول أكثر السلف من الصحابة و التابعين و طائفة من أهل اللغة والثاني قول طائفة من السلف و الخلف و جمهور اللغويين و الآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها فى كتب التفسير المسندة و فى كتب السنة و غير ذلك و قد كتبنا من الآثار في ذلك شيئا كثيرا بإسناده فيما تقدم و تفسير الصمد بأنه الذي لا جوف له معروف عن إبن مسعود موقوفا و مرفوعا و عن إبن عباس و الحسن البصري و مجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة و الضحاك و السدي و قتادة و بمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال هو الذي لا حشو له و كذلك قال إبن مسعود هو الذي ليست له أحشاء و كذلك قال الشعبى هو الذي لا يأكل و لا يشرب و عن محمد بن كعب القرظي و عكرمة هو الذي لا يخرج منه شيء و عن ميسرة قال هو المصمت قال إبن قتيبة كأن الدال فى هذا التفسير مبدلة من تاء و الصمت من هذا قلت لا إبدال في هذا و لكن هذا من جهة الإشتقاق الأكبر و سنبين إن شاء الله وجه القول من جهة الإشتقاق و اللغة و في الحديث

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 103-146

المأثور في سبب نزول الآية رواه الإمام أحمد في المسند و غيره من حديث أبى سعد الصغانى حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم إنسب لنا ربك فأنزل الله { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2}الاخلاص1-2 إلى آخر السورة قال الصمد الذي لم يلد و لم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت و ليس شيء يموت إلا سيورث و أن الله لا يموت و لا يورث و أما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج فهو أيضا مروى عن إبن عباس موقوفا و مرفوعا فهو من تفسير الوالبى عن إبن عباس قال الصمد السيد الذي كمل فى سؤدده و هذا مشهور عن أبى و ائل شقيق بن سلمة قال هو السيد الذي إنتهى سؤدده و عن أبى أسحق الكوفى عن عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد و يروى هذا عن علي و عن كعب الأحبار الذي لا يكافئه من خلقه أحد و عن السدي أيضا هو المقصود إليه في الرغائب و المستغاث به عند المصائب و عن أبى هريرة رضي الله عنه هو المستغنى عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد و عن سعيد بن جبير أيضا الكامل فى جميع صفاته و أفعاله و عن الربيع الذي لا تعتريه الآفات و عن مقاتل بن حيان الذي لا عيب فيه و عن إبن كيسان هو الذي لا يوصف بصفته أحد قال أبو بكر الأنبارى لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس فى حوائجهم و أمورهم و قال الزجاج هو الذي ينتهى إليه السؤدد فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده و قد أنشدوا فى هذا بيتين مشهورين أحدهما ألا بكر الناعى بخيرى بني أسد بعمرو بن مسعود و بالسيد الصمد وقال الآخر علوته بحسامي ثم قلت له خذها حذيف فأنت السيد الصمد وقال بعض أهل اللغة الصمد هو السيد المقصود فى الحوائج تقول العرب صمدت فلانا أصمده بكسر الميم و أصمده بضم الميم صمدا بسكون الميم إذا قصدته و المصمود صمد كالقبض بمعنى المقبوض و النقض بمعنى المنقوض و يقال بيت مصمود و مصمد إذا قصده الناس فى حوائجهم قال طرفة و أن يلتق الحي الجميع تلاقني إلى ذروة البيت الرفيع المصمد وقال الجوهري صمده يصمده صمدا إذا قصده و الصمد بالتحريك السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج و يقال بيت مصمد بالتشديد أي مقصود وقال الخطابى أصح الوجوه أنه السيد الذى يصمد اليه فى الجوائح لان الاشتقاق يشهد له فان أصل الصمد القصد يقال اصمد صمد فلان أى أقصد قصده فالصمد السيد الذى يصمد اليه فى الامور ويقصد فى الجوائح وقال قتادة الصمد الباقى بعد خلقه وقال مجاهد ومعمر هو الدائم وقد جعل الخطابى وأبو الفرج بن الجوزى الاقوال فيه أربعة هذين واللذين تقدما وسنبين ان شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية وعن مرة الهمدانى هو الذى لا يبلى ولا يفنى وعنه أيضا قال هو الذى يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه و قال إبن عطاء هو المتعالي عن الكون و الفساد و عنه أيضا قال الصمد الذي لم يتبين عليه أثر فيما أظهر يريد قوله { وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ }ق38 و قال الحسين بن الفضل هو الأزلي بلا إبتداء و قال محمد بن علي الحكيم الترمذي هو الأول بلا عدد و الباقى بلا أمد و القائم بلا عمد و قال أيضا الصمد الذي لا تدركه الأبصار و لا تحويه الأفكارولا تبلغه الأقطار و كل شيء عنده بمقدار و قيل هو الذي جل عن شبه المصورين و قيل هو بمعنى نفى التجزي و التأليف عن ذاته و هذا قول كثير من أهل الكلام و قيل هو الذي أيست العقول من الإطلاع على كيفيته و كذلك قيل هو الذي لا تدرك حقيقة نعوته و صفاته فلا يتسع له اللسان و لا يشير إليه البنان و قيل هو الذي لم يعط خلقه من معرفته إلا الإسم و الصفة و عن الجنيد قال الذي لم يجعل لأعدائه سبيلا إلى معرفته ونحن نذكر ما حضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها فروى إبن أبي حاتم فى تفسيره قال ثنا أبى ثنا محمد بن موسى بن نفيع الجرشي ثنا عبدالله بن عيسى يعنى أبا خلف الخزاز ثنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن إبن عباس فى قوله الصمد قال الصمد الذي

تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء حدثنا أبو زرعة ثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسي ثنا محمد بن سواء ثنا سعيد بن أبي عروبة عن أبي معشر عن إبراهيم قال الصمد الذي يصمد العباد إليه فى حوائجهم حدثنا أبي ثنا عبدالرحمن بن الضحاك ثنا سويد بن عبدالعزيز ثنا سفيان بن حسين عن الحسن قال الصمد الحي القيوم الذي لا زوال له حدثنا أبى ثنا نصر بن علي ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة عن الحسن قال الصمد الباقى بعد خلقه و هو قول قتادة حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا إبن نمير عن الأعمش عن شقيق فى قوله الصمد قال السيد الذي قد إنتهى سؤدده حدثنا أبي ثنا أبو صالح ثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن إبن عباس فى قوله الصمد قال السيد الذي قد كمل فى سؤدده و الشريف الذي قد كمل فى شرفه و العظيم الذي قد كمل في عظمته و الحليم الذي قد كمل في حلمه و العليم الذي قد كمل فى علمه و الحكيم الذي قد كمل فى حكمته و هو الذي قد كمل فى أنواع الشرف و السؤدد هو الله سبحانه و تعالى هذه صفته لا تنبغي لأحد إلا له ليس له كفؤ و ليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار حدثنا كثير بن شهاب المذحجي القزوينى ثنا محمد بن سعيد بن سابق ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس فى قوله الصمد قال الذي لم يلد و لم يولد حدثنا أبو سعيد الاشج ثنا إبن علية عن أبى رجاء عن عكرمة فى قوله الصمد قال الذي لم يخرج منه شيء حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا أبو أحمد ثنا مندل بن علي عن أبى روق عطية بن الحارث عن أبى عبدالرحمن السلمى عن عبدالله بن مسعود قال الصمد الذي ليس له أحشاء و روى عن سعيد بن المسيب مثله حدثنا أبى ثنا محمد بن عمر بن عبدالله الرومي ثنا عبيدالله بن سعيد قائد الأعمش عن صالح بن حيان عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال لا أعلمه إلا قد رفعه قال الصمد الذي لا جوف له و روى عن عبدالله بن عباس و عبدالله بن مسعود فى إحدي الروايات و الحسن و عكرمة و عطية و سعيد بن جبير و مجاهد فى إحدي الروايات و الضحاك مثل ذلك حدثنا أبى ثنا قبيصة ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال الصمد المصمت الذي لا جوف له حدثنا أبو عبدالله الطهرانى ثنا حفص بن عمر العدنى ثنا الحكم بن أبان عن عكرمة فى قوله الصمد قال الصمد الذي لا يطعم حدثنا أبى ثنا على بن هاشم بن مرزوق ثنا هشيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى أنه قال الصمد الذي لا يأكل الطعام و لا يشرب الشراب حدثنا أبي و أبو زرعة قالا ثنا أحمد بن منيع ثنا محمد بن ميسر يعنى أبا سعد الصغانى ثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله الصمد قال الصمد الذي لم يلد و لم يولد لأنه ليس شيء يلد إلا يموت و ليس شيء يموت إلا يورث و إن الله لا يموت و لا يورث و لم يكن له كفوا أحد قال لم يكن له شبه و لا عدل و ليس كمثله شيء حدثنا علي بن الحسين ثنا محمود بن خداش ثنا أبو سعد الصغانى ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا إنسب لنا ربك فأنزل الله هذه السورة حدثنا أبو زرعة ثنا العباس بن الوليد ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 قال أن الله لا يكافئه من خلقه أحد حدثنا علي بن الحسين ثنا أبو عبدالله الجرشي ثنا أبو خلف عبدالله بن عيسى ثنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن إبن عباس قال إن اليهود جاءت إلى النبى صلى الله عليه و سلم منهم كعب بن الأشرف و حيي بن أخطب و جدي بن أخطب فقالوا يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ {3} الإخلاص1-3 فيخرج منه الولد {وَلَمْ يُولَدْ{3} الإخلاص3 فيخرج منه شيء و قال إبن جرير الطبري فى تفسيره حدثنا أحمد بن منيع المروزي و محمود بن خداش الطالقاني فذكر مثل إسناد إبن أبي حاتم عن أبي بن كعب سؤال المشركين للنبى صلى الله عليه و سلم إنسب لنا ربك فأنزل الله قل هوالله أحد حدثنا

إبن حميد ثنا يحيى بن و اضح ثنا الحسين عن يزيد عن عكرمة أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم أخبرنا عن صفة ربك ما هو و من أي شيء هو فأنزل الله هذه السورة و رواه أيضا عن أبي العالية و عن جابر بن عبدالله حدثنا شريح ثنا اسماعيل بن مجاهد عن الشعبي عن جابر فذكره قال و قيل هومن سؤال اليهود حدثنا إبن حميد ثنا سلمة ثنا إبن أسحق عن محمد بن سعيد قال أتى رهط من اليهود إلى النبى صلى الله عليه و سلم فقالوا يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه فغضب النبى صلى الله عليه و سلم حتى إنتقع لونه ثم ساورهم غضبا لربه فجاءه جبريل فسكنه و قال أخفض عليك جناحك يا محمد و جاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال يقول الله قل هو الله أحد إلى آخرها فلما تلاها عليهم النبى صلى الله عليه و سلم قالوا له صف لنا ربك كيف خلقه كيف عضده كيف ساعده و كيف ذراعه فغضب النبى صلىالله عليه و سلم أشد من غضبه الأول و ساورهم فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته الأولى و أتاه بجواب ما سألوه فأنزل الله {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }الأنعام91 و روى الحكم بن معبد في كتاب الرد على الجهمية قال ثنا عبدالله بن محمد بن النعمان ثنا سلمة بن شبيب ثني يحيى بن عبدالله ثني ضرار عن أبان عن أنس قال أتت يهود خيبر إلى النبى صلى الله عليه و سلم فقالوا يا ابا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب و آدم من حمأ مسنون و إبليس من لهب النار و السماء من دخان و الأرض من زبد الماء فأخبر عن ربك قال فلم يجيبهم االنبى صلى الله عليه و سلم فأتاه جبريل فقال يامحمد { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 ليس له عروق شعب إليها الصمد ليس بأجوف و لا يأكل و لا يشرب { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } الاخلاص3 ليس له و لد و لا و الد ينسب إليه { وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الاخلاص4 ليس شيء من خلقه يعدل مكانه يمسك السموات و الأرض أن تزولا الحديث وقال إبن جرير ثنا عبدالرحمن بن الأسود ثنا محمد بن ربيعة عن سلمة بن سابور عن عطية عن إبن عباس قال الصمد الذي ليس بأجوف حدثنا إبن بشار ثنا عبدالرحمن ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد الصمد المصمت الذي لا جوف له حدثنا أبو كريب ثنا و كيع عن سفيان عن منصور مثله سواء حدثنا الحارث ثنا الحسن ثنا و رقاء عن إبن أبي نجيح عن مجاهد مثله حدثنا إبن بشار ثنا عبدالرحمن ثنا الربيع بن مسلم عن الحسن قال الصمد الذي لا جوف له و بهذا الإسناد عن إبراهيم بن ميسرة قال أرسلنى مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن الصمد فقال الذي لا جوف له حدثنا إبن بشار ثنا يحيى ثنا إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبى قال الصمد الذي لا يطعم الطعام و رواه يعقوب عن هشيم عن إسماعيل عنه قال لا يأكل الطعام و لا يشرب الشراب حدثنا إبن بشار و زيد بن أخزم قالا ثنا إبن داود عن المستقيم بن عبدالملك عن سعيد بن المسيب قال الصمد الذي لا حشو له حدثنا الحسين ثنا أبو معاذ ثنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول الصمد الذي لا جوف له و روى عن إبن بريدة فيه حديثا مرفوعا لكنه ضعيف قال و قال آخرون هو الذي لا يخرج منه شيء حدثنا يعقوب بن أبي علية عن أبى رجاء سمعت عكرمة قال فى قوله الصمد لم يخرج منه شيء لم يلد و لم يولد حدثنا إبن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي رجاء محمد بن يوسف عن عكرمة قال الصمد الذي لا يخرج منه شيء و قال آخرون لم يلد و لم يولد و ذكر الحديث أبي كعب الذي رواه إبن أبى حاتم و الذي فيه أنه سبحانه لا يموت و لا يورث قال و قال آخرون هو السيد الذي إنتهي فى سؤدده قال و ثنا أبو السائب ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق قال الصمد هو السيد الذي إنتهى فى سؤدده حدثنا أبو كريب و إبن بشار و إبن عبدالأعلى قالوا ثنا و كيع عن الأعمش عن أبي و ائل قال الصمد السيد الذي إنتهى فى سؤدده حدثنا إبن حميد ثنا مهران عن سفيان عن الأعمش عن أبي و ائل مثله حدثنا أبو صالح ثنا

معاوية عن علي عن إبن عباس فى قوله الصمد قال السيد الذي قد كمل في سؤدده و ذكر مثل الحديث الذي رواه إبن أبي حاتم كما تقدم قلت الاشتقاق يشهد للقولين جمعا قول من قال ان الصمد الذى لا جوف له وقول من قال انه السيد وهو على الاول ادل فان الاول اصل للثانى ولفظ الصمد يقال على ما لا جوف له فى اللغة قال يحيى بن ابى كثير الملائكة صمد والادميون جوف وفى حديث آدم ان ابليس قال عنه انه اجوف ليس بصمد وقال الجوهرى المصمد لغة فى المصمت وهو الذى لا جوف له قال والصماد عفاص القارورة وقال الصمد المكان المرتفع الغليظ قال ابو النجم يغادر الصمد كظهر الاجزل وأصل هذه المادة الجمع و القوة و منه يقال يصمد المال أي يجمعه و كذلك السيد أصله سيود إجتمعت ياء و واو و سبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء و أدغمت كما قيل ميت و أصله ميوت و المادة في السواد و السؤدد تدل على الجمع و اللون الأسود هو الجامع للبصر و قد قال تعالى { وَسَيِّداً وَحَصُوراً }آل عمران39 قال أكثر السلف سيدا حليما و كذلك يروى عن الحسن و سعيد بن جبير و عكرمة و عطاء و أبى الشعثاء و الربيع بن أنس و مقاتل و قال أبو روق عن الضحاك أنه الحسن الخلق و روى سالم عن سعيد بن جبير أنه إلتقى و لا يسود الرجل الناس حتى يكون فى نفسه مجتمع الخلق ثابتا وقال عبدالله بن عمر ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم أسود من معاوية فقيل له و لا أبو بكر و لا عمر قال كان أبو بكر و عمر خيرا منه و ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم أسود من معاوية قال أحمد بن حنبل يعنى به الحليم أو قال الكريم و لهذا قيل إذا شئت يوما أن تسود قبيلة فبالحلم سد لا بالتسرع و الشتم ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بأنه سيد قومه فى الدين و قال إبن زيد هو الشريف و قال الزجاج الذي يفوق قومه فى الخير و قال إبن الأنباري السيد هنا الرئيس و الإمام في الخير و عن إبن عباس و مجاهد هو الكريم على ربه و عن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم و قد تقدم أنهم يقولون لعفاص القارورة صماد قال الجوهري العفاص جلد يلبسه رأس القارورة و أما الذي يدخل في فمه فهو الصمام و قد عفصت القارورة شددت عليها العفاص قلت و فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم فى اللقطة ثم أعرف عفاصها و وكاءها و المراد بالعفاص ما يكون فيه الدراهم كالخرقة التى تربط فيها الدراهم و الوكاء مثل الخيط الذي يربط به و هذا من جنس عفاص القارورة و لفظ العفص و السد و الصمد و الجمع و السؤدد معانيها متشابهة فيها الجمع و القوة و يقال طعام عفص و فيه عفوصة أي تقبض و منه العفص الذي يتخذ منه الحبر و قد قال الجوهري هو مولد ليس من كلام أهل البادية و هذا لا يضر لأنه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الإسم لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب و كذلك تسميتهم لما يدخل فى فمها صمام فإن هذه المادة فيها معنى الجمع و السد قال الجوهري صمام القارورة سدادها و الحجر الأصم الصلب المصمت و الرجل الأصم هو الذي لا يسمع لانسداد سمعه و الرجل الصمة الشجاع و الصمة الذكر من الحيات و صميم الشيء خالصه حيث لم يدخل إليه ما يفرقه و يضعفه يقال صميم الحر و صميم البرد و فلان من صميم قومه و الصمصام الصارم القاطع الذي لا ينثنى و صمم فى السير و غيره أي مضى و رجل صم أي غليظ ومنه فى الإشتقاق الأكبر الصوم فإن الصوم هو الإمساك قال أبو عبيدة كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم لأن الإمساك فيه إجتماع و الصائم لا يدخل جوفه شيء و يقال صام الفرس إذا قام في غير إعتلاف قال النابغة خيل صيام و خيل غير صائمة تحت العجاج و أخرى تعلك اللجما وكذلك السد و السداد و السؤدد و السواد و كذلك لفظ الصمد فيه الجمع و الجمع فيه القوة فإن الشيء كلما إجتمع بعضه إلى بعض و لم يكن فيه خلل كان أقوى مما إذا كان فيه خلو و لهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع صمد لقوته و تماسكه و إجتماع أجزائه و الرجل الصمد هوز السيد المصمود أي المقصود يقال قصدته و قصدت

له و قصدت إليه و كذلك هو مصمود و مصمود له و إليه و الناس إنما يقصدون فى حوائجهم من يقوم بها و إنما يقوم بها من يكون فى نفسه مجتمعا قويا ثابتا و هو السيد الكريم بخلاف من يكون هلوعا جزوعا يتفرق و يقلق و يتمزق من كثرة حوائجهم و ثقلها فإن هذا ليس بسيد صمد يصمدون إليه فى حوائجهم فهم إنما سموا السيد من الناس صمدا لما فيه من المعنى الذي لأجله يقصده الناس في حوائجهم فليس معنى السيد في لغتهم معنى إضافي فقط كلفظ القرب و البعد بل هو معنى قائم بالسيد لأجله يقصده الناس و السيد من السؤدد و السواد و هذا من جنس السداد فى الإشتقاق الأكبر فإن العرب تعاقب بين حرف العلة و الحرف المضاعف كما يقولون تقتضي البازي و تقضض و الساد هو الذي يسد غيره فلا يبقى فيه خلو و منه سداد القارورة و سداد الثغر بالكسر فيهما و هو ما يسد ذلك و منه السداد بالفتح و هو الصواب و منه القول السديد قال الله تعالى {اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً }الأحزاب70 قالوا قصدا حقا و عن إبن عباس صوابا و عن قتادة و مقاتل عدلا و عن السدى مستقيما و كل هذه الأقوال صحيح فإن القول السديد هو المطابق الموافق فإن كان خبرا كان صدقا مطابقا لمخبره لا يزيد و لا ينقص و إن كان أمرا كان أمرا بالعدل الذي لا يزيد و لا ينقص و لهذا يفسرون السداد بالقصد و القصد بالعدل قال الجوهري التسديد التوفيق للسداد و هو الصواب و القصد في القول و العمل و رجل مسدد إذا كان يعمل بالسداد و القصد و المسدد المقوم و سدد رمحه و أمر سديد و أسد أي قاصد و قد إستد الشيء إستقام قال الشاعر أعلمه الرماية كل يوم فلما إستد ساعده رماني وقال الأصمعي إشتد بالشين المعجمة ليس بشيء و تعبيرهم عن السيد بالقصد يدلك على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع و القوة و القصد العدل كما أنه السداد و الصواب و هو المطابق الموافق الذي لا يزيد و لا ينقص و هذا هو الجامع المطابق و منه قوله تعالى {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }النحل9 أي القصد و هو السبيل العدل أي إليه تنتهي السبيل العادلة كما قال تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }الليل12 أي الهدي إلينا هذا أصح الأقوال فى الآيتين و كذلك قوله تعالى {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ }الحجر41 و منه فى الإشتقاق الأوسط الصدق فإن حروفه حروف القصد فمنه الصدق فى الحديث لمطابقته مخبره كما قيل فى السداد و الصدق بالفتح الصلب من الرماح و يقال المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل و لا عوج و الصندوق و احد الصناديق فإنه يجمع ما يوصع فيه ومما ينبغى ان يعرف فى باب الاشتقاق انه اذا قيل هذا مشتق من هذا فله معنيان أحدهما ان بين القولين تناسبا فى اللفظ والمعنى سواء كان اهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا او بهذا بعد هذا وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الاخر فان المقصود انه مناسب له لفظا ومعنى كما يقال هذا الماء من هذا الماء وهذا الكلام من هذا الكلام وعلى هذا فاذا قيل ان الفعل مشتق من المصدر او المصدر مشتق من الفعل كان كلا القولين صحيحا وهذا هو الاشتقاق الذى يقوم عليه دليل التصريف واما المعنى الثانى فى الاشتقاق وهو أن يكون احدهما اصلا للاخر فهذا اذا عنى به أن احدهما تكلم به قبل الاخر لم يقم على هذا دليل فى اكثر المواضع قبل الاخر لم يقم على هذا دليل فى اكثر المواضع وان عنى به ان احدهما متقدم على الاخر فى العقل لكون هذا مفردا وهذا مركبا فالفعل مشتق من المصدر والاشتقاق الاصغر اتفاق القولين فى الحروف وترتيبها والاوسط اتفاقهما فى الحروف لا فى الترتيب والاكبر اتفاقهما فى اعيان بعض الحروف وفى الجنس لا فى الباقى كاتفاقهما فى كونهما من حروف الحلق اذا قيل حزر وعزر وازر فان الجميع فه معنى القوة والشدة وقد اشتركت مع الراء والزاء والحاء فى ان الثلاثة حروف حلقية وعلى هذا فاذا قيل الصمد بمعنى المصمت وانه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح فان الدال اخت التاء فان الصمت السكوت وهو امساك واطباق للفم عن الكلام قال ابو عبيد المصمت الذى لا جوف له وقد اصمته انا وباب مصمت قد ابهم اغلاقه والمصمت من الخيل البهم اى لا يخالط لونه لو اخر ومنه قول ابن عباس انما

حرم من الحرير المصمت فالمصمد والمصمت متفقان فى الاشتقاق الاكبر وليست الدال منقلبة عن التاء بل الدال اقوى والمصمد اكمل فى معناه من المصمت وكلما قوى الحرف كان معناه اقوى فان لغة العرب فى غاية الاحكام والتناسب ولهذا كان الصمت عن الكلام مع امكانه والانسان اجوف يخرج الكلام من فيه لكنه قد يصمت بخلاف الصمد فانه انما استعمل فيما لا تفرق فيه كالصمد والسيد والصمد من الارض وصماد القارورة ونحو ذلك فليس فى هذه الالفاظ المتناسبة اكمل من الفاظ الصمد فان فيه الصاد والميم والدال وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ما يناسبها من الحروف والمعانى المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل ومما يناسب هذه المعاني معنى الصبر فإن الصبر فيه جمع و إمساك و لهذا قيل الصبر حبس النفس عن الجزع يقال صبر و صبرته أنا و منه قوله تعالى {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ }الكهف28 و كذلك معنى السيد الصمد خلاف معنى الجزوع المنوع و منه الصبرة من الطعام فإنها مجتمعة مكومة و الصبارة الحجارة و صبر الشيء غلظه و ضده الجزع و فيه معنى التقطع و التفرق يقال جزع له جزعة من المال أي قطع له قطعة و الجزوعة القطعة من الغنم و إجتزعت من الشجر عودا أي إقتطعته و إكتسرته و جزعت الوادي إذا قطعته عرضا و الجزع منعطف الوادى و منه الجزع و هو الخرز اليمانى الذي فيه بياض و سواد و كذلك جزع البسر تجزيعا إذا أرطب نصفه أو ثلثاه و هو خلاف قولهم مصمت للون الواحد لما في ذلك من الإجتماع و في هذا من التفرق و قد قال تعالى { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21} المعارج19-21 قال الجوهري الهلع أفحش الجزع و قال غيره هو فى اللغة أشد الحرص و أسوأ الجزع و منه قول النبى صلى الله عليه و سلم شرما فى المرء شح هالع و جبن خالع و ناقة هلوع إذا كانت سريعة السير خفيفة و ذئب هلع بلع و الهلع من الحرص و البلع من الإبتلاع و لهذا كان كلام السلف فى تفسيره يتضمن هذه المعاني فروى عن إبن عباس قال هو الذي إذا مسه الشر جوعا و إذا مسه الخير منوعا و روى عنه أنه قال هو الحريص على ما لا يحل له و عن سعيد بن جبير شحيحا و عن عكرمة ضجورا و عن جعفر حريصا و عن الحسن و الضحاك بخيلا و عن مجاهد شرها و عن الضحاك أيضا الهلوع الذي لا يشبع و عن مقاتل ضيق القلب و عن عطاء عجولا و هذه المعاني كلها تنافي الثبات و القوة و الإجتماع و الإمساك و الصبر و قد قال تعالى {لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ }التوبة110 و هذا و إن كان قد قيل أن المراد به أنها تنصدع فيموتون فإنه كما قيل فى مثل ذلك قد إنصدع قلبه و قد تفرق قلبى و قد تشتت قلبى و قد تقسم قلبى و منه يقال للخوف قد فرق قلبه و يقال بإزاء ذلك هو ثابت القلب مجتمع القلب مجموع القلب فصل قال الله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2}الاخلاص1-2 فأدخل اللام فى الصمد و لم يدخلها في أحد لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحدا في الإثبات مفردا غير مضاف إلا الله تعالى بخلاف النفي و ما فى معناه كالشرط و الإستفهام فإنه يقال هل عندك أحد و إن جاءني أحد من جهتك أكرمته و إنما إستعمل فى العدد المطلق يقال أحد إثنان و يقال أحد عشر و فى أول الأيام يقال يوم الأحد فإن فيه على أصح القولين إبتدأ الله خلق السموات و الأرض و ما بينهما كما دل عليه القرآن و الأحاديث الصحيحة فإن القرآن أخبر فى غير موضع أنه خلق السموات و الأرض و ما بينهما فى ستة أيام و قد ثبت فى الحديث الصحيح المتفق على صحته أن آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة و إذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة وأما الحديث الذي رواه مسلم فى قوله خلق الله التوبة يوم السبت فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري و غيره قال البخاري الصحيح أنه موقوف على كعب و قد ذكر تعليله البيهقى أيضا و بينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه و سلم و هو مما أنكر الحذاق على مسلم إخراجه

إياه كما أنكرواعليه إخراج أشياء يسيرة و قد بسط هذا فى مواضع أخر و قد ذكر ابو الفرج بن الجوزي فى قوله تعالى { خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ }فصلت9 قال إبن عباس خلق الأرض في يوم الأحد و الإثنين و به قال عبدالله بن سلام و الضحاك و مجاهد و إبن جريج و السدي و الأكثرون و قال مقاتل في يوم الثلاثاء و الأربعاء قال و قد أخرج مسلم حديث أبي هريرة خلق الله التربة يوم السبت قال و هذا الحديث مخالف لما تقدم و هو أصح فصحح هذا لظنه صحة الحديث إذ رواه مسلم و لكن هذا له نظائر روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط مثل قول أبي سفيان لما أسلم أريد أن أزوجك أم حبيبة و لا خلاف بين الناس أنه تزوجها قبل إسلام أبي سفيان و لكن هذا قليل جدا و مثل ما روى فى بعض طرق حديث صلاة الكسوف أنه صلاها بثلاث ركوعات و أربع و الصواب أنه لم يصلها إلا مرة و احدة بركوعين و لهذا لم يخرج البخاري إلا هذا و كذلك الشافعي و أحمد بن حنبل في إحدي الروايتين عنه و غيرهما و البخاري سلم من مثل هذا فإنه إذا و قع فى بعض الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التى تبين غلط الغالط فإنه كان أعرف بالحديث و علله و افقه فى معانيه من مسلم و نحوه و ذكر إبن الجوزي فى موضع آخر أن هذا قول ابن إسحاق قال و قال إبن الإنباري و هذا إجماع أهل العلم و ذكر قولا ثالثا فى إبتداء الخلق أنه يوم الإثنين و قاله إبن إسحاق و هذا تناقض و ذكر أن هذا قول أهل الإنجيل و الإبتداء بيوم الأحد قول أهل التوراة و هذا النقل غلط على أهل الإنجيل كما غلط من جعل الأول إجماع أهل العلم من المسلمين و كأن هؤلاء ظنوا أن كل أمة تجعل إجتماعها فى اليوم السابع من الأيام السبعة التى خلق الله فيها العالم و هذا غلط فإن المسلمين إنما إجتماعهم فى آخر يوم خلق الله فيه العالم و هو يوم الجمعة كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة و المقصود هنا أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله و حده و إنما يستعمل فى غير الله فى النفي قال أهل اللغة يقول لا أحد فى الدار و لا تقل فيها أحد و لهذا لم يجيء في القرآن إلا في غير الموجب كقوله تعالى {فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ }الحاقة47 و كقوله { لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء }الأحزاب32 و قوله {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ }التوبة6 و فى الإضافة كقوله { فَابْعَثُوا أَحَدَكُم }الكهف19 { جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ }الكهف32 وأما إسم الصمد فقد إستعمله أهل اللغة فى حق المخلوقين كما تقدم فلم يقل الله صمد بل قال {اللَّهُ الصَّمَدُ }الإخلاص2 فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه فإنه المستوجب لغايته على الكمال و المخلوق و إن كان صمدا من بعض الوجوه فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه فإنه يقبل التفرق و التجزئة و هو ايضا محتاج إلى غيره فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل و جه فليس أحد يصمد إليه كل شيء و لا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك و تعالى و ليس فى المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ و يتفرق و يتقسم و ينفصل بعضه من بعض و الله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك بل حقيقة الصمدية و كمالها له و حده و اجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه كما قال في آخر السورة {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 إستعملها هنا فى النفي أي ليس شيء من الأشياء كفوا له فى شيء من الأشياء لأنه أحد وقال رجل للنبى صلى الله عليه و سلم أنت سيدنا فقال السيد الله و دل قوله الأحد الصمد على أنه لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد فإن الصمد هو الذي لا جوف له و لا أحشاء فلا يدخل فيه شيء فلا يأكل و لا يشرب سبحانه و تعالى كما قال {قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ }الأنعام14 و في قراءة الأعمش و غيره و لا يطعم بالفتح و قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{56} مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ{57}الذاريات 56-57 و من مخلوقاته الملائكة و هم صمد لا يأكلون و لا يشربون فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى و

كمال جعله لبعض مخلوقاته فلهذا فسر بعض السلف الصمد بأنه الذي لا يأكل لا يشرب و الصمد المصمد الذي لا جوف له فلا يخرج منه عين من الأعيان فلا يلد و لذلك قال من قال من السلف هو الذي لا يخرج منه شيء ليس مرادهم أنه لا يتكلم و إن كان يقال فى الكلام إنه خرج منه كما قال فى الحديث ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه يعنى القرآن و قال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة إن هذا لم يخرج من إل فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه و يبلغ إلى غيره ليس بمخلوق فى غيره كما يقول الجهمية ليس بمعنى أن شيئا من الأشياء القائمة به يفارقه و ينتقل عنه إلى غيره فإن هذا ممتنع فى صفات المخلوقين إن تفارق الصفة محلها و تنتقل إلى غير محلها فكيف بصفات الخالق جل جلاله و قد قال تعالى فى كلام المخلوقين { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً }الكهف5 و تلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم و سمعت منه ليس خروجها من فيه أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته و إنتقل إلى غيره فخروج كل شيء بحسبه و من شأن العلم و الكلام إذا إستفيد من العالم و المتكلم أن لا ينقص من محله و لهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء و هو باق على حاله لم ينقص فقول من قال من السلف الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه و لهذا إمتنع عليه أن يلد و أن يولد و ذلك أن الولادة و التولد و كل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين و ما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلابد لها من مادة تخرج منها و ما كان عرضا قائما بغيره فلابد له من محل يقوم به فالأول نفاه بقوله أحد فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له و لا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة و التولد إنما يكون بين شيئين قال تعالى { أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }الأنعام101 فنفى سبحانه الولد بإمتناع لازمه عليه فإن إنتفاء اللازم يدل على إنتفاء الملزوم و بأنه خالق كل شيء و كل ما سواه مخلوق له ليس فيه شيء مولود له والثاني نفاه بكونه سبحانه الصمد و هذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين كتولد الحيوان من أبيه و أمه بالمنى الذي ينفصل من أبيه و أمه فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر و إلى أن يخرج منهما شيء و كل ذلك ممتنع فى حق الله تعالى فإنه أحد فليس له كفؤ يكون صاحبة و نظيرا و هو صمد لا يخرج منه شيء فكل و احد من كونه أحدا و من كونه صمدا يمنع أن يكون و الدا و يمنع أن يكون مولودا بطريق الأولى و الأخرى وكما أن التوالد فى الحيوان لا يكون إلا من أصلين سواء كان الأصلان من جنس الولد و هو الحيوان المتوالد أو من غير جنسه و هو المتولد فكذلك فى غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين سواء كانا خشبتين أو كانا حجرا و حديدا أو غير ذلك قال الله تعالى {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً }العاديات2 و قال تعالى { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ{71} أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ{72} نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ{73} الواقعة 71-73 و قال تعالى { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{80}يس78-80 قال غير و احد من المفسرين هما شجرتان يقال لأحداهما المرخ و الأخرى العفار فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين و هما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ و هو ذكر على العفار و هو أنثي فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى و تقول العرب فى كل شجر نار و إستمجد المرخ و العفار و قال بعض الناس فى كل شجرة نار إلا العناب { فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ } يس 80 فذلك زنادهم وقد قال أهل اللغة الجوهري و غيره الزند العود الذي يقدح به النار و هوالأعلى و الزندة السفلى فيها ثقب و هي الأنثي فإذا إجتمعا قيل زندان و قال أهل الخبرة بهذا أنهم يسحقون الثقب الذي فى الأنثي بالأعلى كما يفعل ذكر الحيوان فى أنثاه فبذلك السحق و الحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار فتتولد النار من

مادة الذكر و الأنثي كما يتولد الولد من مادة الرجل و المرأة و سحق الأنثى بالذكر و قدحها به يقتضي حرارة كل منهما و يتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما أن إيلاج ذكر الحيوان فى أنثاه بقدح و حك فرجها بفرجه فتقوى حرارة كل منهما و يتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى و يتولد منهما الولد و يقال علقت النار في المحل الذي يقدح عليه الذي هو كالرحم للولد و هو الحراق و الصوفان و نحو ذلك مما يكون أسرع قبولا للنار من غيره كما علقت المرأة من الرجل و قد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة و قد لا تنقدح نار كما لا ينزل مني و النار ليست من جنس الزنادين بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء و الطين فإن الحيوان نوعان متوالد كالإنسان و بهميمة الأنعام و غير ذلك مما يخلق من أبوين و متولد كالذي يتولد من الفاكهة و الخل و كالقمل الذي يتولد من و سخ جلد الإنسان و كالفأر و البراغيث و غير ذلك مما يخلق من الماء و التراب وقد تنازع الناس فيما يخلقه الله من الحيوان و النبات و المعدن و المطر و النار التى تورى بالزناد و غير ذلك هل تحدث أعيان هذه الأجسام فيقلب هذا الجنس إلى جنس آخر كما يقلب المنى علقة ثم مضغة أولا تحدث إلا أعراض و أما الأعيان التى هي الجواهر فهي باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الأكوان الأربعة الإجتماع و الإفتراق و الحركة و السكون على قولين فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التى لا تقبل التجزي كما يقوله كثير من أهل الكلام و إما من جواهر لا نهاية لها كما يحكى عن النظام فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر يقولون أن الله لا يحدث شيئا قائما بنفسه و إنما يحدث الأعراض التى هي الإجتماع و الإفتراق و الحركة و السكون و غير ذلك من الأعراض ثم من قال منهم بأن الجواهر محدثة قال إن الله أحدثها إبتداء ثم جميع ما يحدثه إنما هو إحداث أعراض فيها لا يحدث الله بعد ذلك جواهر و هذا قول أكثر المعتزلة و الجهمة و الأشعرية و نحوهم و من أكابر هؤلاء من يظن أن هذا مذهب المسلمين و يذكر إجماع المسلمين عليه و هو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة و لاجمهور الأمة بل جمهور الأمة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد و تركب الأجسام من الجواهر و إبن كلاب إمام أتباعه هو ممن ينكر الجوهر الفرد و قد ذكر ذلك أبو بكر بن فورك فى مصنفه الذي صنفه فى مقالات إبن كلاب و ما بينه و بين الأشعري من الخلاف و هكذا نفي الجوهر الفرد قول الهشامية و الضرارية و كثير من الكرامية و النجارية أيضا و هؤلاء القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة المشهور عنهم بأن الجواهر متماثلة بل و يقولون أو أكثرهم أن الأجسام متماثلة لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة و إنما إختلفت بإختلاف الأعراض و تلك صفات عارضة لها ليست لازمة فلا تنفي التماثل فإن حد المثلين أن يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر و يجب له ما يجب له و يمتنع عليه ما يمتنع عليه و هم يقولون إن الجواهر متماثلة فيجوز على كل و احد ما جاز على الآخر و يجب له ما يجب له و يمتنع عليه مما يمتنع عليه و كذلك الأجسام المؤلفة من الجواهر و لهذا إذا أثبتوا حكما لجسم قالوا هذا ثابت لجميع الأجسام بناء على التماثل و أكثر العقلاء ينكرون هذا و حذاقهم قد أبطلوا الحجج التى إحتجوا بها على التماثل كما ذكر ذلك الرازي و الآمدي و غيرهمتا و قد بسط الكلام على هذا في مواضع و الشعري في كتاب الإبانة جعل القول بتماثل الأجسام من أقوال المعتزلة التى أنكرها و هؤلاء يقولون إن الله يخص أحد الجسمين المتماثلين بأعراض دون الآخر بمجرد المشيئة على أصل الجهمية أو لمعنى آخر كما تقوله القدرية و يقولون يمتنع إنقلاب الأجناس فلا ينقلب الجسم عرضا و لا جنس من الأعراض إلى جنس آخر فلو قالوا إن الأجسام مخلوقة و أن المخلوق ينقلب من جنس إلى جنس آخر لزم إنقلاب الأجناس فهؤلاء يقولون أن التولد الحاصل في الرحم و الثمر الحاصل فى الشجر و النار الحاصلة من الزناد هي جواهر كانت في المادة التى خلق ذلك منها و هي باقية لكن غيرت صفتها بالإجتماع و الإفتراق و الحركة و السكون و لهذا لما

ذكر أبو عبدالله الرازي أدلة إثبات الصانع ذكر أربعة طرق إمكان الذوات و حدوثها و إمكان الصفات و حدوثها و الطرق الثلاثة الأول ضعيفة بل باطلة فإن الذوات التى إدعوا حدوثها أو إمكانها أو إمكان صفاتها ذكروها بألفاظ مجملة لا يتميز فيها الخالق عن المخلوق و لم يقيموا على ما إدعوه دليلا صحيحا و أما الطريق الرابع و هو الحدوث لما يعلم حدوثه فهو طريق صحيح و هو طريق القرآن لكن قصروا فيه غاية التقصير فإنهم على أصلهم لم يشهدوا حدوث شيء من الذوات بل حدوث الصفات و طريقة القرآن تبين أن كل ما سوى الله مخلوق و أنه آية لله و قد بسط الكلام على ما في القرآن من البراهين و الآيات التى لم يصل إليها هؤلاء المتكلمة و المتفلسفة و أن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن فى غير موضع والمقصود هنا أن هؤلاء لما كان هذا أصلهم فى إبتداء الخلق و هو القول بإثبات الجوهر الفرد كان أصلهم فى المعاد مبنيا عليه فصاروا على قولين منهم من يقول تعدم الجواهر ثم تعاد و منهم من قال نتفرق الأجزاء ثم تجتمع فأورد عليهم الإنسان الذي يأكله حيوان و ذلك الحيوان أكله إنسان آخر فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا و أورد عليهم أن الإنسان يتحلل دائما فما الذي يعاد أهو الذي كان و قت الموت فإن قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة ضعيفة و هو خلاف ما جاءت به النصوص و إن كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض فإدعى بعضهم أن فى الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل و لا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني و العقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شيء باق فصار ما ذكروه فى المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان و أوجب أن صار طائفة من النظار إلى أن الله يخلق بدنا آخر تعود الروح إليه والمقصود تنعيم الروح و تعذيبها سواء كان هذا فى البدن أو فى غيره و هذا أيضا مخالف للنصوص الصريحة بإعادة هذا البدن و هذا المذكور فى كتب الرازي فليس فى كتبه و كتب أمثاله في مسائل أصول الدين الكبار القول الصحيح الذي يوافق المنقول و المعقول الذي بعث الله به الرسول و كان عليه سلف الأمة و أئمتها بل يذكر بحوث المتفلسفة الملاحدة و بحوث المتكلمين المبتدعة الذين بنوا على أصول الجهمية و القدرية في مسائل الخلق و البعث و المبدأ و المعاد و كلا الطريقين فاسد إذ بنوه على مقدمات فاسدة والقول الذي عليه السلف و جمهور العقلاء من أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة و الأطباء و هذا القول و هو القول فى خلق الله للأجسام التى يشاهد حدوثها أنه يقبلها و يحيلها من جسم إلى جسم هو الذي عليه السلف و الفقهاء قاطبة و الجمهور و لهذا يقول الفقهاء فى النجاسة هل تطهر بالإستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا و الخنزير و غيره ملحا و نحو ذلك و المنى الذي فى الرحم يقلبه الله علقة ثم مضغة و كذلك الثمر يخلق بقلب المادة التى يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء و الماء الذي نزل عليها غير ذلك من المواد التى يقلبها ثمرة بمشيئته و قدرته و كذلك الحبة يفلقها و تنقلب المواد التى يخلقها منها سنبلة و شجرة و غير ذلك و هكذا خلقه لما يخلقه سبحانه و تعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظما و لحما و غير ذلك من أجزاء البدن و كذلك المضغة يقلبها عظاما و غير عظام قال الله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ{12} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{13} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{14} ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ{15} ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ{16} المؤمنون12-16 و كذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال تعالى {الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً }يس80 فنفس تلك الأجزاء التى خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان فى الشجر الأخضر نار أصلا كما لم يكن فى الشجرة ثمرة أصلا و لا كان في بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذ الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا و بما ضمه إلى هذا من مواد آخر

و كذلك الإعادة يعيده بعد أن يبلي كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبى صلىالله عليه و سلم أنه قال كل إبن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق إبن آدم و منه يركب وهو إذا أعاد الإنسان فى النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فإن هذه كائنة فاسدة و تلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة و ليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال أهل الجنة لا يبولون و لا يتغوطون و لا و لا يبصقون و لا يتمخطون و إنما هو رشح كرشح المسك و في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ {ي كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ }الأنبياء104 فهم يعودون غلفا لا مختونين وقال الحسن البصري و مجاهد كما بدأكم فخلقكم فى الدنيا و لم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء و قال قتادة بدأهم من التراب و إلى التراب يعودون كما قال تعالى {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }طه55 و قال {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }الأعراف25 وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس فى النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها فى غير موضع كقوله و {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }الأعراف57 و قال {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ }ق7 إلى قوله { وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ }ق11 و قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {5} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{6}الحج5 -6 و قال تعالى {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ }فاطر9 وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق و أنه يحيى العظام و هي رميم و أنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ }الروم27 و يخبر أن الثاني مثل الأول كقوله تعالى { وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً{98} أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ{99} الاسراء98-99 و قال تعالى { وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً{49} قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً{50} أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً{51} يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً{52} الاسراء49-52 و قال تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }يس81 و قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }الأحقاف33 و قال { أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ{58} أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ{59} نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ{60} عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ{61} وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ{62} الواقعة58-62 و المراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم كما أخبر بذلك في قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى }الأحقاف33 فإن القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق فى هذه الدار ناسا أمثالهم فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين و هذه هي النشأة الأولى و قد علموها و بها إحتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة

كما قال {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ }الواقعة62 و قال {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ {78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79} يس78-79 و قال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ }الحج5 و لهذا قال {عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ }الواقعة61 قال الحسن بن الفضل البجلي الذي عندي في هذه الآية { وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ {61} وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى{62} الواقعة61 -62 أي أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت و ذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت فى بطون الأمهات و ليست الأخرى كذلك و معلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح و تلك النطفة من منى الرجل و المرأة و هو يعذبه بدم الطمث الذي يربي به الجنين فى ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة و ظلمة الرحم و ظلمة البطن و النشأة الثانية لا يكونون فى بطن إمرأة و لا يغذون بدوم و لا يكون أحدهم نطفة رجل و إمرأة ثم يصير علقة بل ينشئون نشأة أخرى و تكون المادة من التراب كما قال {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }طه55 و قال تعالى { فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }الأعراف25 {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً{17} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً{18}نوح17-18 و في الحديث أن الأرض تمطر مطرا كمني الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات كما قال تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ }ق11 { كَذَلِكَ النُّشُورُ }فاطر9 { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }الأعراف57 فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان و يتماثلان و يتشابهان من و جه و يفترقان و يتنوعان من و جه آخر و لهذا جعل المعاد هو المبدأ و جعل مثله أيضا فباعتبار إتفاق المبدأ و المعاد فهو هو و بإعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله و هكذا كل ما أعيد فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ و المعاد سواء في ذلك إعادة الأجسام و الأعراض كإعادة الصلاة و غيرها فإن النبى صلى الله عليه و سلم مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة و يقال للرجل أعد كلامك و فلان قد أعاد كلام فلان بعينه و يعيد الدرس فالكلام هو الكلام و إن كان صوت الثاني غير صوت الأول و حركته و لا يطلق القول عليه أنه مثله بل قد قال تعالى {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ}الإسراء88 و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا وإن كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أي مثل هذا قال و يقال فعل هذا عودا على بدء إذا فعله مرة ثانية بعد أولى و منه البئر البدي و البئر العادي فالبدي التى إبتدئت و العادي التى أعيدت و ليست بنسبة إلى عاد كما قيل و يقال إستعدته الشيءفأعاده إذا سالته ان يفعله مرة ثانية و منه سميت العادة يقال عادة و إعتاده و تعوده أي صار عادة له و عود كلبه الصيد فتعوده و هو المعاودة و المعاودة الرجوع إلى الأمر الأول و يقال الشجاع معاود لأنه لا يمل المراس و عاودته الحمى و عاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة و تعاود القوم في الحرب و غيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه و العواد بالضم ما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه مرة أخرى و عواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة بإعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة فى المرة الثانية هي الأولى و إن تعدد الشخص و لهذا يقال هو مثله و يقال هذا هو هذا و كلاهما صحيح و أعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده و إنما يقال حاكاه و شابهه بخلاف ما إذا فعلا ثانيا مثل ما فعل أولا فإنه يقال أعاد فعله و كذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده و لا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده و يقال قريء على هذا و أعاد على هذا و هذا يقرأ أي يدرس و هذا يعيد و لو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد و كذلك من كسر خاتما

أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان و يقال من هدم دارا أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فإن هذا لا يسمى معيدا و المعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه و يقال هذا مثل الأول من كل و جه و نحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من و جه و هو مثله من و جه و بهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان و نحو ذلك مما يمنع إعادته فى صريح العقل و إنما يعاد بالإتيان بمثله و إن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلا بوجه من الوجوه و الإعادة التى أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب و هي الإعادة التى فهمها المشركون و المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و هى التى يدل عليها لفظ الإعادة و المعاد هو الأول بعينه و إن كان بين لوازم الإعادة و لوازم البدأة فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثانى مباينا للأول من كل و جه كما زعم بعضهم و لا أن النشأة الثانية كالأولى من كل و جه كما ظن بعضهم و كما إنه سبحانه خلق الإنسان و لم يكن شيئا كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئا و على هذا فالإنسان الذي صار ترابا و نبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر و هلم جرا و الإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان و أكل ذلك الحيوان إنسانا آخر ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان و هذا الإنسان و صار كل منهما ترابا كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا و يعاد هذا من التراب و إنما يبقى عجب الذنب منه خلق و منه يركب و أما سائره فعدم فيعاد من المادة التى إستحال إليها فإذا إستحال فى القبر الواحد ألف ميت و صاروا كلهم ترابا فإنهم يعادون و يقومون من ذلك القبر و ينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدما محضا كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضا و إذا صار ألف إنسان ترابا فى قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التى خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة و جعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام و الشراب كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات و حيوان و كذلك لو أكل إنسانا أو أكل حيوانا قد أكل إنسانا فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الإستحالة بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة و من غير أن يغذوها بدم الطمث و من غير أن يغذوها بلبن الأم و بسائر ما يأكله من الطعام و الشراب فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التى إستحالت إلي أبدانهم فقد غلط وحينئذ فإذا أكل إنسان إنسانا فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية و هو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية و معلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاما و شرابا ثم يصير كلوسا كالثردة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى فى البدن كله و يأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظما و اللحم لحما و العرق عرقا و هذا فى الرزق كإستحالتهم فى مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة و كما أنه سبحانه لا يحتاج فى الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزا و فاكهة و لحما ثم يجعلها كلوسا و كيموسا ثم دما ثم عظما و لحما و عروقا بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال {وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ }الواقعة61 و لا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الإستحالات التى كانت فى النشأة الأولى و بهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائما فى التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من إنقلاب النطفة علقة و العلقة مضغة و حقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى و أما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى و تماثلها و إذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى إنقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بإنقلابه بسبب التحلل و معلوم أن من رأي شخصا و هو شاب ثم رآه و هو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الإستحالة و كذلك سائر الحيوان و النبات كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل و الإستحالة ثابت فى سائر الحيوان و النبات كما هو فى بدن الإنسان و لا يحتاج عاقل في إعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى و أن هذه الفرس هي التى كانت عنده من سنين و

لا أن هذا الإنسان هو الذي رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل و لا يخطر هذا ببال أحد و لا و لا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذاك على تلك الأجزاء التى لا تعرف و لا تتميز عن غيرها بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة و الفرس و الإنسان مع أنه قد يكون كان صغيرا فكبر و لا يقال إنما كان هو ذاك بإعتبارأن النفس الناطقة و احدة كما زعمه من إدعى أن البدن الثاني ليس هو ذاك الأول و لكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ففي أي بدن كانت حصل المقصود فإن هذا أيضا باطل مخالف للكتاب و السنة و إجماع السلف مخالف للمعقول من الإعادة فإنا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس هو ذاك و هذه الشجرة هي تلك التى كانت من سنين مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه و تقوم بذاتها و كذلك يقولون مثل هذا في الحيوان و في الإنسان مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا و ذاك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذاك مع و جود الإستحالة و علم بذلك أن ما ذكر من الإستحالة لا ينافى أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن و لهذا يشهد البدن المعاد بما عمل فى الدنيا كما قال تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }يس65 و قال تعالى { حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{20} وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{21} فصلت21 -22 ومعلوم أن الإنسان لو قال قولا أو فعل فعلا أو رأي غيره يفعل أو سمعه يقول ثم بعد ثلاثين سنة شهد على نفسه بما قال أو فعل و هو الإقرار الذي يؤاخذ بموجبه أو شهد على غيره بما قبضه[1]

من الأموال و أقر به من الحقوق لكانت الشهادة على عين ذلك المشهود عليه مقبولة مع إستحالة بدنه فى هذه المدة الطويلة و لا يقول عاقل من العقلاء إن هذه الشهادة على مثله أو على غيره و لو قدر أن المعين حيوان أو نبات و شهد أن هذا الحيوان قبضه هذا من هذا و أن هذا الشجر سلمه هذا إلى هذا كان كلاما معقولا مع الإستحالة و إذا كانت الإستحالة غير مؤثرة فقول القائل يعيده على صفة ما كان و قت موته أو سمنه أو هزاله أو غير ذلك جهل منه فإن صفة تلك النشأة الثانية ليست مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال أن الصفات هي المغيرة إذ ليس هناك إستحالة و لا إستفراغ و لا إمتلاء و لا سمن و لا هزال و لا سيما اهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة أبيهم آدم طول أحدهم ستون ذراعا كما ثبت في الصحيحن و غيرهما و روى أن عرضه سبعة أذرع و هم لا يبولون و لا يتغوطون و لا يبصقون و لا يتمخطون و ليست تلك النشأة من أخلاط متضادة حتى يستلزم مفارقة بعضها بعضا كما فى هذه النشأة و لا طعامهم مستحيلا و لا شرابهم مستحيلا من التراب و الماء و الهواء كما هي أطعماتهم فى هذه النشأة و لهذا أبقى الله طعام الذي مر على قرية و شرابه مائة عام لم يتغير و دلنا سبحانه بهذا على قدرته فإذا كان فى دارالكون و الفساد يبقى الطعام الذي هو رطب و عنب أو نحو ذلك و الشراب الذي هو ماء أو ما فيه ماء مائة عام لم يتغير فقدرته سبحانه و تعالى على أن يجعل الطعام و الشراب فى النشأة الأخرى لا يتغير بطريق الأولى و الأخرى و هذه الأمور لبسطها موضع آخر فصل والمقصود هنا أن التولد لابد له من أصلين و إن ظن ظان أن نفس الهواء الذي بين الزنادين يستحيل نارا بسخونته من غير مادة تخرج منهما تنقلب نارا فقد غلط و ذلك لأنه لا تخرج نار إن لم يخرج منهما مادة بالحك و لا تخرج النار بمجرد الحك و أيضا فإنهم يقدحون على شيء أسفل من الزنادين كالصوفان و الحراق فتنزل النار عليه و

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 214-503

إنما ينزل الثقيل فلولا أن هناك جزءا ثقيلا من الزناد الحديد و الحجر لما نزلت النار و لو كان الهواء و حده إنقلب نارا لم ينزل لأن الهواء طبعه الصعود لا الهبوط لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة نارا قد ينقلب الهواء القريب منها نارا أما دخانا و إما لهيبا و المقصود أن المتولدات خلقت من أصلين كما خلق آدم من التراب و الماء و إلا فالتراب المحض الذي لم يختلط به ماء لا يخلق منه شيء لا حيوان و لا نبات و النبات جميعه إنما يتولد من أصلين أيضا و المسيح خلق من مريم و نفخة جبريل كما قال تعالى {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا }التحريم12 و قال { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً {17} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً{18} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً{19} مريم17 -18 و قد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب درعها و الجيب هو الطوق الذي فى العنق ليس هو ما يسميه بعض العامة جيبا و هو ما يكون فى مقدم الثوب لوضع الدراهم و نحوها و موسى لما أمره الله أن يدخل يده فى جيبه هو ذلك الجيب المعروف في اللغة و ذكر أبو الفرج و غيره قولين هل كانت النفخة فى جيب الدرع أو في الفرج فإن من قال بالأول قال فى فرج درعها و أن من قال هو مخرج الولد قال الهاء كناية عن غير مذكور لأنه إنما نفخ فى درعها لا فى فرجها و هذا ليس بشيء بل هو عدول عن صريح القرآن و هذا النقل إن كان ثابتا لم يناقض القرآن و إن لم يكن ثابتا لم يلتفت إليه فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع فمراده أنه صلى الله عليه و سلم لم يكشف بدنها و كذلك جبريل كان إذا أتى النبى صلى الله عليه و سلم و عائشة متجردة لم ينظر إليها متجردة فنفخ فى جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها و المقصود إنما هو النفخ فى الفرج كما أخبر الله به فى آيتين و إلا فالنفخ فى الثوب فقط من غير و صول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن مع أنه لا تأثير له في حصول الولد و لم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين و لا نقله أحد عن عالم معروف من السلف والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين من نفخ جبريل و من أمه مريم وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعة أشهر و الجنين مضغة فإن ذلك نفخ في بدن قد خلق و جبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد و لا كانت مريم حملت و إنما حملت به بعد النفخ بدليل قوله {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً }مريم19 {فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً }مريم22 فلما نفخ فيها جبريل حملت به و لهذا قيل فى المسيح { وَرُوحٌ مِّنْهُ }النساء171 بإعتبار هذا النفخ و قد بين الله سبحانه أن الرسول الذي هو روحه و هو جبريل هو الروح الذي خاطبها و{قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً }مريم19 فقوله {فَنَفَخْنَا فِيهَا }الأنبياء91 أو { فِيهِ مِن رُّوحِنَا }التحريم12 أي من هذا الروح الذي هو جبريل و عيسي روح من هذا الروح فهو روح من الله بهذا الإعتبار و من لإبتداء الغاية والمقصود هنا أنه قد يكون الشيء من أصلين بإنقلاب المادة التى بينهما إذا إلتقيا كان بينهما مادة فتنقلب و ذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلابد من نقص أجزائها و هذا مثل تولد النار بين الزنادين إذا قدح الحجر بالحديد أو الشجر بالشجر كالمرخ و العفار فإنه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر يستحيل بعض أجزائها و يسخن الهواء الذي بينهما فيصير نارا و الزندان كلما قدح أحدهما بالآخر نقصت أجزاؤهما بقوة الحك فهذه النار إستحالت عن الهواء و تلك الأجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر و كذلك النور الذي يحصل بسبب إنعكاس الشعاع على ما يقابل المضيء كالشمس و النار فإن لفظ النور و الضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه كالنار التى في رأس المصباح و هذه لا تحصل إلا بمادة تنقلب نارا كالحطب و الدهن و يستحيل الهواء أيضا نارا و لا ينقلب الهواء أيضا نارا إلا بنقص المادة التى اشتعلت أو نقص الزندين و تارة يراد بلفظ النور و الضوء و الشعاع الشعاع الذي يكون على الأرض و الحيطان من الشمس أو من النار فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه لابد له من محل يقوم به يكون قابلا به فلابد فى

الشعاع من جسم مضيء و لابد من شيء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع و كذلك النار الحاصلة في ذبالة المصباح إذا و ضعت في النار أو و ضع فيها حطب فإن النار تحيل أولا المادة التى هي الدهن أو الحطب فيسخن الهواء المحيط بها فينقلب نارا و إنما ينقلب بعد نقص المادة و كذلك الريح التى تحرك النار مثل ما تهب الريح فتشتعل النار فى الحطب و مثل ما ينفخ في الكير و غيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما فى محل النار كالخشب و الفحم من الإستعداد لإنقلابه نارا و ما في حركة الريح القوية من تحريك النار إلى المحل القابل له و قد ينقلب أيضا الهواء القريب من النار فإن اللهب هوالهواء إنقلب نارا مثل ما فى ذبالة المصباح و لهذا إذا طفئت صار دخانا و هو هواء مختلط بنار كالبخار و هو هواء مختلط بماء و الغبار هواء مختلط بتراب وقد يسمى البخار دخانا ومنه قوله تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ }فصلت11 قال المفسرون بخار الماء كما جاءت الأثار إن الله خلق السموات من بخار الماء وهو الدخان فإن الدخان الهواء المختلط بشيء حار ثم قد لا يكون فيه ماء وهو وهو دخان الصرف وقد يكون فيه ماء فهو دخان وهو بخار كبخار القدر وقد يسمى الدخان بخارا فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر وإن كان لا رطوبة هنا بل دخان الطيب سمي بخارا قال الجوهري بخار الماء ما يرتفع منه كالدخان والبخور بالفتح ما يتبخر به لكن إنما يصير الهواء نارا بعد أن تذهب المادة التي انقلبت نارا كالحطب والدهن فلم تتولد النار إلا من مادة كما يتولد الحيوان إلا من مادة فصل والمقصود أن كل ما يستعمل فيه لفظ التولد من الأعيان القائمة فلابد أن يكون من أصلين و من إنفصال جزء من الأصل و إذا قيل فى الشبع و الري إنه متولد أو في زهوق الروح و نحو ذلك من الأعراض أنه متولد فلابد فى جميع ما يستعمل فيه هذا اللفظ من أصلين لكن العرض يحتاج إلى محل لا يحتاج إلى مادة تنقلب عرضا بخلاف الأجسام فإنها إنما تخلق من مواد تنقلب أجساما كما تنقلب إلى نوع آخر كإنقلاب المنى علقة ثم مضغة و غير ذلك من خلق الحيوان و النبات و أما ما كان من أصل و احد كحلق حواء من الضلع القصري لآدم و هو و إن كان مخلوقا من مادة أخذت من آدم فلا يسمى هذا تولدا و لهذا لا يقال أن آدم و لد حواء و لا يقال أنه أبو حواء بل خلق الله حواء من آدم كما خلق آدم من الطين و أما المسيح فيقال أنه و لدته مريم و يقال المسيح بن مريم فكان المسيح جزءا من مريم و خلق بعد نفخ الروح فى فرج مريم كما قال تعالى {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ }التحريم12 و فى الأخرى { فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ }الأنبياء91 و أما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم كما خلق آدم من المادة الأرضية و هي الماء و التراب و الريح الذي أيبسته حتى صار صلصالا فلهذا لا يقال إن آدم و لد حواء و لا آدم و لده التراب و يقال فى المسيح و لدته مريم فإنه كان من أصلين من مريم و من النفخ الذي نفخ فيها جبريل قال الله تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً{17} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً{18} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً{19} قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً{20} قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً{21} فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً{22}مريم17-22 إلى آخر القصة فهي إنما حملت به بعد النفخ لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الآدميين ففرق بين النفخ للحمل و بين النفخ لروح الحياة فتبين أن ما يقال أنه متولد من غيره من الأعيان القائمة بنفسها فلا يكون إلا من مادة تخرج من ذلك الوالد و لا يكون إلا من أصلين و الرب تعالى صمد فيمتنع أن يخرج منه شيء و هو سبحانه لم يكن له صاحبة فيمتنع أن يكون له و لد و أما ما يستعمل من تولد الأعراض كما يقال تولد الشعاع و تولد العلم عن الفكر و تولد الشبع عن الأكل و تولدت الحرارة عن الحركة و نحو ذلك فهذا ليس من تولد الأعيان مع أن هذا لابد له من

محل و لابد له من أصلين و لهذا كان قول النصاري أن المسيح إبن الله تعالى الله عن ذلك مستلزما لأن يقولوا إن مريم صاحبة الله فيجعلون له زوجة و صاحبة كما جعلوا له و لدا و بأي معنى فسروا كونه إبنه فإنه يفسر الزوجة بذلك المعنى و الأدلة الموجبة تنزيهه عن الصاحبة توجب تنزيهه عن الولد فإذا كانوا يصفونه بما هو ابعد عن إتصافه به كان إتصافه بما هو أقل بعدا لازما لهم و قد بسط هذا في الرد على النصارى فصل وهذا مما يبين أن ما نزه الله نفسه و نفاه عنه بقوله {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ }الإخلاص3 و بقوله { أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ{151} وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{152}الصافات151-152 وقوله {وَجَعَلُواْ بِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ {100} بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{101}الأنعام100-101 يعم جميع الأنواع التى تذكر فى هذا الباب عن بعض الأمم كما أن نفاه من إتخاذ الولد يعم أيضا جميع أنواع الإتخاذات الإصطفائية كما قال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }المائدة18 قال السدي قالوا إن الله أوحي إلي إسرائيل إن و لدك بكرى من الولد فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم و تأكل خطاياهم ثم ينادي مناد أخرجوا كل مختون من بنى إسرائيل و قد قال تعالى {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ }المؤمنون91و قال {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً }الإسراء111 و قال { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً{1} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً{2}الفرقان1-2 و قال { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{26} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{27} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ{28} وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ{29} الانبياء26-29 و قال { وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ{51} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ{52} النحل51-52 إلى قوله {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً }النحل56 إلى قوله {وَيَجْعَلُونَ بِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ }النحل57 و قال {وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً{39} أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً{40} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً{41} قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً{42} الاسراء39-42 و قال { فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ{149} أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ{150} أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ{151} وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{152} أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ{153} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{154} أَفَلَا تَذَكَّرُونَ{155} أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ{156} فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{157} وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ{158} سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ{159} إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{160} فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ{161} مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ{162} إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ{163}الصافات150-163 و قال {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{19} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{20} أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{21} تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى{22} إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى{23} النجم20-23 إلى قوله {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى }النجم27 و قال تعالى {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً }الزخرف15 قال بعض

المفسرين { جُزْءاً }الزخرف15 أي نصيبا و بعضا و قال بعضهم جعلوا لله نصيبا من الولد و عن قتادة و مقاتل عدلا و كلا القولين صحيح فإنهم يجعلون له و لدا و الولد يشبه أباه و لهذا قال {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ }الزخرف17 أي البنات كما قال في الآية الأخرى {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى }النحل58 فقد جعلوها للرحمن مثلا و جعلوا له من عباده جزءا فإن الولد جزء من الوالد كما تقدم قال صلى الله عليه و سلم إنما فاطمة بضعة منى و قوله {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ }الأنعام100 قال الكلبي نزلت في الزنادقة قالوا إن الله و إبليس شريكان فالله خالق النور و الناس و الدواب و الأنعام و إبليس خالق الظلمة و السباع و الحيات و العقارب و أما قوله {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً }الصافات158 فقيل هو قولهم الملائكة بنات الله و سمى الملائكة جنا لإجتنانهم عن الأبصار و هو قول مجاهد و قتادة و قيل قالوا لحي من الملائكة يقال لهم الجن و منهم إبليس و هم بنات الله و قال الكلبى قالوا لعنهم الله بل تزوج من الجن فخرج بينهما الملائكة و قوله { وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ }الأنعام100 قال بعض المفسرين كالثعلبى و هم كفار العرب قالوا الملائكة و الأصنام بنات الله و اليهود قالوا عزير إبن الله و النصاري قالوا المسيح إبن الله فصل وأما الذين كانوا يقولون من العرب أن الملائكة بنات الله و ما نقل عنهم من أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة فقد نفاه الله عنه بإمتناع الصاحبة و بإمتناع أن يكون منه جزء فإنه صمد و قوله { وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ }الأنعام101 و هذا كما تقدم من أن الولادة لا تكون إلا من أصلين سواء فى ذلك تولد الأعيان التى تسمى الجواهر و تولد الأعراض و الصفات بل و لا يكون تولد الأعيان إلا بإنفصال جزء من الوالد فإذا إمتنع أن يكون له صاحبة إمتنع أن يكون له و لد و قد علموا كلهم أن لا صاحبة له و لا من الملائكة و لا من الجن و لا من الإنس فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة فلهذا إحتج بذلك عليهم و ما حكى عن بعض كفار العرب أنه صاهر الجن فهذا فيه نظر و ذلك إن كان قد قيل فهو مما يعلم إنتفاؤه من و جوه كثيرة وكذلك ما قالته النصاري من أن المسيح إبن الله و ما قاله طائفة من اليهود أن العزير إبن الله فإنه قد نفاه سبحانه بهذا و بهذا فإن قيل أما عوام النصاري فلا تنضبط أقوالهم و أما الموجود في كلام علمائهم و كتبهم فإنهم يقولون أن أقنوم الكلمة و يسمونها الإبن تدرع المسيح أي إتخذه درعا كما يتدرع الإنسان قميصه فاللاهوت تدرع الناسوت و يقولون بإسم الاب و الإبن و روح القدس إله و احد قيل قصدهم أن الرب موجود حي عليم فالموجود هو الأب و العلم هو الإبن و الحياة هو روح القدس هذا قول كثير منهم و منهم من يقول بل موجود عالم قادر و يقول العلم هو الكلمة و هو المتدرع و القدرة هي روح القدس فهم مشتركون فى أن المتدرع هو أقنوم الكلمة و هي الإبن ثم إختلفوا فى التدرع و إختلفوا هل هما جوهر أو جوهران و هل لهما مشيئة أو مشيئتان و لهم فى الحلول و الإتحاد كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه فإن مقالة النصاري فيها من الإختلاف بينهم ما يتعذر ضبطه فإن قولهم ليس مأخوذا عن كتاب منزل و لا نبى مرسل و لا هو موافق لعقول العقلاء فقالت اليعقوبية صار جوهرا و احدا و طبيعة و احدة و أقنوما و احدا كالماء في اللبن و قالت النسطورية بل هما جوهران و طبيعتان و مشيئتان لكن حل اللاهوت فى الناسوت حلول الماء فى الظرف و قالت الملكية بل هما جوهر و احد له مشيئتان و طبيعتان أو فعلان كالنار فى الحديد و قد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ }المائدة17 هم اليعقوبية و في قوله {وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ }التوبة30 هم الملكية و قوله {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ }المائدة73 هم النسطورية و ليس بشيء بل الفرق الثلاث تقول المقالات التى حكاها الله عز و جل عن النصارى فكلهم يقولون إنه الله و يقولون إنه إبن الله و كذلك فى أمانتهم التى هم متفقون عليها يقولون إله حق من إله حق و أما قوله {

ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ }المائدة73 فإنه قال تعالى {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ }المائدة116 قال أبو الفرج إبن الجوزي فى قوله {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ }المائدة73 قال المفسرون معنى الآية أن النصارى قالوا بأن الإلهية مشتركة بين الله و عيسى و مريم كل و احد منهم إله و ذكر عن الزجاج الغلو مجاوزة القدر في الظلم و غلو النصارى في عيسى قول بعضهم هو الله و قول بعضهم هو إبن الله و قول بعضهم هو { ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ }المائدة73 فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو إبن الله بما ذكروه من أن الكلمة هي الإبن و الفرق الثلاثة متفقة على ذلك و فساد قولهم معلوم بصريح العقل من و جوه أحدها أنه ليس فى شيء من كلام الأنبياء تسمية صفة الله إبنا لا كلامه و لا غيره فتسميتهم صفة الله إبنا تحريف لكلام الأنبياء عن مواضعه و ما نقلوه عن المسيح من قوله عمدوا الناس بإسم الأب و الإبن و روح القدس لم يرد بالإبن صفة الله التى هي كلمته و لا بروح القدس حياته فإنه لا يوجد فى كلام الأنبياء إرادة هذا المعنى كما قد بسط هذا فى الرد على النصارى الوجه الثاني أن هذه الكلمة التى هي الإبن أهي صفة الله قائمة به أم هي جوهر قائم بنفسه فإن كانت صفته بطل مذهبهم من و جوه أحدها أن الصفة لا تكون إلها يخلق و يرزق و يحيى و يميت و المسيح عندهم إله يخلق و يرزق و يحيى و يميت فإذا كان الذي تدرعه ليس بإله فهو أولى أن لا يكون إلها الثاني أن الصفة لا تقوم بغير الموصوف فلا تفارقه و إن قالوا نزل عليه كلام الله أو قالوا أنه الكلمة أو غير ذلك فهذا قدر مشترك بينه و بين سائر الأنبياء الثالث أن الصفة لا تتحد و تتدرع شيئا إلا مع الموصوف فيكون الأب نفسه هو المسيح و النصارى متفقون على أنه ليس هو الأب فإن قولهم متناقض ينقض بعضه بعضا يجعلونه إلها يخلق و يرزق و لا يجعلونه الأب الذي هو الإله و يقولون إله و احد و قد شبهه بعض متكلميهم كيحيى بن عدى بالرجل الموصوف بأنه طبيب و حاسب و كاتب و له بكل صفة حكم فيقال هذا حق لكن قولهم ليس نظير هذا فإذا قلتم أن الرب موجود حي عالم و له بكل صفة حكم فمعلوم أن المتحد إن كان هو الذات المتصفة فالصفات كلها تابعة لها فإنه إذا تدرع زيد الطبيب الحاسب الكاتب درعا كانت الصفات كلها قائمة به و إن كان المتدرع صفة دون صفة عاد المحذور و إن قالوا المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم إفتراق الصفتين و هذا ممتنع فإن الصفات القائمة بموصوف و احد و هي لازمة له لا تفترق و صفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقي بخلاف صفات الرب تبارك و تعالى الرابع أن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله و لا شيئا من صفاته بل هو مخلوق بكلمة الله و سمي كلمة لأنه خلق بكن من غير الحبل المعتاد كما قال تعالى {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }آل عمران59 و قال تعالى {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ{34} مَا كَانَ لِلّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{35}مريم34 -35 و لو قدر أنه نفسه كلام الله كالتوراة و الإنجيل و سائر كلام الله لم يكن كلام الله و لا شيء من صفاته خالقا و لا ربا و لا إلها فالنصارى إذا قالوا إن المسيح هو الخالق كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقة و من جهة جعله هو نفس الصفة و إنما هو مخلوق بالكلمة ثم قولهم بالتثليث و إن الصفات ثلاث باطل و قولهم ايضا بالحلول و الإتحاد باطل فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه و غيرها فلو قالوا أن الرب له صفات قائمة به و لم يذكروا إتحادا و لا حلولا كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات و إن قالوا أن الصفات أعيان قائمة بنفسها فهذا مكابرة فهم يجمعون بين المتناقضين و ايضا فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل فإن صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير و الأقانيم عندهم التى جعلوها الصفات ليست إلا ثلاثة و لهذا تارة يفسرونها بالوجود و الحياة و العلم و تارة يفسرونها بالوجود و القدرة و العلم و إضطرابهم كثير فإن

قولهم فى نفسه باطل و لا يضبطه عقل عاقل و لهذا يقال لو إجتمع عشرة من النصارى لإفترقوا على أحد عشر قولا و ايضا فكلمات الله كثيرة لا نهاية لها كما قال سبحانه و تعالى {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً }الكهف109 و هذا قول جماهير الناس من المسلمين و غير المسلمين و هذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلما بمشيئته و قول من قال أنه لم يزل قادرا على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاما قائما بذاته حادثا و قول من قال كلامه مخلوق فى غيره وأما من قال كلامه شيء و احد قديم العين فهؤلاء منهم من يقول أنه أمور لا نهاية لها مع ذلك و منهم من يقول بل هو معنى و احد و لكن العبارات عنه متعددة و هؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائما بغير الله و إنما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة و يمتنع أن يكون المسيح شيئا من تلك العبارات فاذا إمتنع أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء فعلى قول الجمهور أشد امتناعا لأن كلمات الله كثيرة و المسيح ليس هو جميعها بل و لا مخلوقا بجميعها و إنما خلق بكلمة منها و ليس هوعين تلك الكلمة فإن الكلمة صفة من الصفات و المسيح عين قائم بنفسه ثم يقال لهم نسميتكم العلم و الكلمة و لدا و ابنا تسمية باطلة بإتفاق العلماء و العقلاء و لم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء قالوا لأن الذات يتولد عنها العلم و الكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها فيتولد من ذاته العلم و الحكمة و الكلام فلهذا سميت الكلمة إبنا قيل هذا باطل من و جوه أحدها أن صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا و نظرنا و فكرنا و إستدلالنا و أما كلمة الرب و علمه فهو قديم لازم لذاته فيمتنع أن يوصف بالتولد إلا أن يدعي المدعي أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه و هي إبن له و معلوم أن هذا من أبطل الأمور فى العقول و اللغات فإن حياة الإنسان و نطقه و غير ذلك من صفاته اللازمة له لا يقال إنها متولدة عنه و إنها ابن له و أيضا فيلزم أن تكون حياة الرب ايضا إبنه و متولدة و كذلك قدرته و إلا فما الفرق بين تولد العلم و تولد الحياة و القدرة و غير ذلك من الصفات و ثانيها أن هذا إن كان من باب تولد الجواهر و الأعيان القائمة بنفسها فلابد له من اصلين و لابد أن يخرج من الأصل جزء و أما علمنا و قولنا فليس عينا قائما بنفسه و إن كان صفة قائمة بموصوف و عرضا قائما فى محل كعلمنا و كلامنا فذاك أيضا لا يتولد إلا عن أصلين و لابد له من محل يتولد فيه و الواحد منا لا يحدث له العلم و الكلام إلا بمقدمات تتقدم على ذلك و تكون أصولا للفروع و يحصل العلم و الكلام فى محل لم يكن حاصلا فيه قبل ذلك فإن قلتم أن علم الرب كذلك لزم أن يصير عالما بالأشياء بعد ان لم يكن عالما بها و أن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلما و هذا مع أنه كفر عند جماهير الأمم من المسلمين و النصارى و غيرهم فهو باطل في صريح العقل فإن الذات التى لا تكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها و الله تعالى يمتنع عليه أن يكون متعلما من خلقه و كذلك الذات التى تكون عاجزة عن الكلام يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا أحد يجعلها قادرة و الواحد منها لا يولد جميع علومه بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها فاذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى لا يقول أحد من بني آدم أنه الإنسان أن يولد علومه كلها أنه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة بل الذي يقدره على النطق هو الذي انطق كل شيء فإن قالوا ان الرب يولد بعض علمه و بعض كلامه دون بعض بطل تسمية العلم الذي هو الكلمة مطلقا الإبن و صار لفظ الإبن إنما يسمى به بعض علمه أو بعض كلامه و هم يدعون أن المسيح هو الكلمة و هو أقنوم العلم مطلقا و ذلك ليس متولدا عنه كله و لا يسمى كله إبنا باتفاق العقلاء و ثالثها أن يقال تسمية علم العالم و كلامه و لدا له لا يعرف في شيء من اللغات المشهورة و هو باطل بالعقل فإن علمه و كلامه كقدرته و علمه فإن جاز هذا جاز تسمية صفات الإنسان كلها الحادثة متولدات عنه له و تسميتها أبناءه و من قال من أهل الكلام القدرية أن العلم الحاصل بالنظر متولد عنه فهو كقوله إن الشبع و الري متولد من الأكل و الشرب لا يقول ان

العلم إبنه و ولده كما لا يقول إن الشبع و الري إبنه و لا و لده لأن هذا من باب تولد الأعراض و المعانى القائمة بالإنسان و تلك لا يقال إنها أولاده و أبناؤه و من إستعار فقال بنيات فكره فهو كما يقال بنيات الطريق و يقال إبن السبيل و يقال لطير الماء إبن ماء و هذه تسمية مقيدة قد عرف أنها ليس المراد بها ما هو المعقول من الأب و الإبن و الوالد و الولد و أيضا فكلام الأنبياء ليس فى شيء منه تسمية شيء من صفات الله إبنا فمن حمل شيئا من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم و هذا مما يقر به علماء النصارى و ما و جد عندهم من لفظ الإبن فى حق المسيح و اسرائيل و غيرهما فهو إسم للمخلوق لا لشيء من صفات الخالق و المراد به أنه مكرم معظم و رابعها أن يقال فإذا قدر أن الأمر كذلك فالذي حصل للمسيح إن كان هو ما علمه الله إياه من علمه و كلامه فهذا موجود لسائر النبيين فلا معنى لتخصيصه بكونه إبن الله و إن كان هو أن العلم و الكلام إله اتحد به فيكون العلم و الكلام جوهرا قائما بنفسه فإن كان هو الأب فيكون المسيح هو الأب و إن كان العلم و الكلام جوهرا آخر فيكون إلهان قائمان بانفسهما فتبين فساد ما قالوه بكل و جه و خامسها أن يقال من المعلوم عند الخاصة و العامة أن المعنى الذي خص به المسيح إنما هو ان خلق من غير أب فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصاري الرب أباه و بهذا ناظر نصارى نجران النبى صلى الله عليه و سلم و قالوا إن لم يكن هو إبن الله فقل لنا من أبوه فعلم ان النصارى إنما ادعوا فيه البنوة الحقيقية و أن ما ذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب ليزيلوا به الشناعة التى لا يبلغها عاقل و إلا فليس فى جعله إبن الله و جه يختص به معقول فعلم أن النصارى جعلوه إبن الله و أن الله أحبل مريم و الله هو أبوه و ذلك لا يكون إلا بإنزال جزء منه فيها و هو سبحانه الصمد و يلزمهم أن تكون مريم صاحبة و زوجة له و لهذا يتأولونها كما أخبر الله عنهم و أي معنى ذكروه فى بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى و بين غيره و لا صار فيه معنى البنوة بل قالوا كما قال بعض مشركي العرب أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة و إذا قالوا اتخذه إبنا على سبيل الإصطفاء فهذا هو المعنى الفعلي و سيأتي إن شاء الله تعالى إبطاله وقوله تعالى { وَرُوحٌ مِّنْهُ }النساء171 ليس فيه أن بعض الله صار في عيسى بل من لإبتداء الغاية كما قال {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً}الجاثية13 وقال {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ }النحل53 وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين إن كان عينا قائما بنفسها فهو مملوك له ومن لابتداء الغاية كما قال تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا}مريم17 وقال في المسيح {وَرُوحٌ مِّنْهُ }النساء171 وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له كما يقال كلام الله وعلم الله وكما قال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }النحل102 وقال {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }الأنعام114 و ألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمرا و المقدور قدرة و المرحوم به رحمة و المخلوق بالكلمة كلمة فإذا قيل فى المسيح أنه كلمة الله فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله كن و لم يخلق على الوجه المعتاد من البشر و إلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به و كذلك إذا قيل عن المخلوق أنه أمر الله فالمراد أن الله كونه بأمره كقوله {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ }النحل1 و قوله {فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ }هود82 فالرب تعالى أحد صمد لا يجوز أن يتبعض و يتجزأ فيصير بعضه فى غيره سواء سمى ذلك روحا أو غيره فبطل ما يتوهمه النصارى من كونه ابنا له و تبين أنه عبد من عباد الله و قد قيل منشأ ضلال القوم أنه كان فى لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالأب و بالإبن عن العبد المربي الذي يربه الله و يربيه فقال المسيح عمدوا الناس بإسم الأب و الابن و روح القدس فأمرهم أن يؤمنوا بالله و يؤمنوا بعبده و رسوله المسيح و يؤمنوا بروح القدس جبريل فكانت هذه الأسماء لله و لرسوله الملكى و رسوله البشري قال الله تعالي {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً

وَمِنَ النَّاسِ}الحج75 وقد أخبر تعالى فى غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس و هو جبريل عند جمهور المفسرين كقوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }البقرة87 فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل بل هذا قول إبن عباس و قتادة و الضحاك و السدى و غيرهم و دليل هذا قوله تعالى { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{101} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ{102}النحل101-102 و روى الضحاك عن ابن عباس أنه الإسم الذي كان يحيى به الموتى و عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم أنه الانجيل و قال تعالى {أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ }المجادلة22 و قال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا }الشورى52 و قال تعالى {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ }النحل2 فما ينزله الله فى قلوب أنبيائه مما تحيا به قلوبهم من الإيمان الخالص يسميه روحا و هو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين منهم و المسيح عليه السلام من أولي العزم فهو أحق بهذا من جمهور الرسل و الأنبياء و قال تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }البقرة253 و قد ذكر الزجاج في تأييده بروح القدس ثلاثة أوجه أحدها أنه أيده به لإظهار أمره و دينه الثاني لدفع بني إسرائيل عنه إذ أرادوا قتله الثالث أنه أيده به فى جميع أحواله ومما يبين ذلك أن لفظ الإبن فى لغتهم ليس مختصا بالمسيح بل عندهم أن الله تعالى قال فى التوراة لإسرائيل أنت ابنى بكري و المسيح كان يقول أبى و أبوكم فيجعله أبا للجميع و يسمى غيره ابنا له فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك و لكن النصاري يقولون هو ابنه بالطبع و غيره ابنه بالوضع فيفرقون فرقا لا دليل عليه ثم قولهم هو إبنه بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلا و سمعا ما يبين بطلانه وأما ما يقوله الفلاسفة القائلون بأن العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته و أنه صدر عنه عقل ثم عقل ثم عقل إلى تمام عشرة عقول و تسعة أنفس و قد يجعلون العقل بمنزلة الذكر و النفس بمنزلة الأنثى فهؤلاء قولهم أفسد من قول مشركي العرب و أهل الكتاب عقلا و شرعا و دلالة القرآن على فساده أبلغ و ذلك من و جوه أحدها أن هؤلاء يقولون بقدم الأفلاك و قدم هذه الروحانيات التى يثبتونها و يسمونها المجردات و المفارقات و الجواهر العقلية و أن ذلك لم يزل قديما أزليا و ما كان قديما أزليا إمتنع أن يكون مفعولا بوجه من الوجوه و لا يكون مفعولا إلا ما كان حادثا و هذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء و عليها الأولون و الآخرون من الفلاسفة و سائر الأمم و لهذا كان جماهير الأمم يقولون كل ممكن أن يوجد و أن لا يوجد فلا يكون إلا حادثا و إنما إدعى و جود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين كابن سينا ومن و افقه زعموا أن الفلك قديم معلول لعلة قديمة و أما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك و هم جمهورهم و من كان قبل ارسطو فهؤلاء موافقون لأهل الملل و من قال بقدم الفلك كارسطو و شيعته فإنما يثبتون له علة غائية يتشبه الفلك بها لا يثبتون له علة فاعلة و ما يثبتونه من العقول و النفوس فهو من جنس الفلك كل ذلك قديم و اجب نفسه و إن كان له علة غائية و هؤلاء أكفر من هؤلاء المتأخرين لكن الغرض أن يعرفوا أن قول هؤلاء ليس قول أولئك الثاني أن هؤلاء يقولون إن الرب و احد و الواحد لا يصدر عنه إلا و احد و يعنون بكونه و احدا أنه ليس له صفة ثبوتية أصلا و لا يعقل فيه معان متعددة لأن ذلك عندهم تركيب و لهذا يقولون لا يكون فاعلا و قابلا لأن جهة الفعل غير جهة القبول و ذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب و مع هذا يقولون أنه عاقل و معقول و عقل و عاشق و معشوق و عشق و لذيذ و ملتذ و لذة إلى غير ذلك من المعانى

المتعددة و يقولون إن كل و احدة من هذه الصفات هي الصفة الأخرى و الصفة هي الموصوف و العلم هو القدرة و هو الإرادة و العلم هو العالم و هو القادر و من المتأخرين منهم من قال العلم هو المعلوم فاذا تصور العاقل أقوالهم حق التصور تبين له أن هذا الواحد الذي أثبتوه لا يتصور وجوده إلا في الأذهان لا فى الأعيان و قد بسط الكلام عليه و بين فساد ما يقولونه فى التوحيد و الصفات و بين فساد شبه التركيب من و جوه كثيرة فى مواضع غير هذا و اذا كان كذلك فالأصل الذي بنوا عليه قولهم أن الواحد لا يصدر عنه إلا و احد أصل فاسد الثالث أن يقال قولهم بصدور الأشياء مع ما فيها من الكثرة و الحدوث عن و احد بسيط فى غاية الفساد الرابع أنه لا يعلم فى العالم و احد بسيط صدر عنه شيء لا و احد و لا اثنان فهذه الدعوى الكلية لا يعلم ثبوتها في شيء أصلا الخامس أنهم يقولون صدر عنه و احد و عن ذلك الواحد عقل و نفس و فلك فيقال إن كان الصادر عنه و احدا من كل و جه فلا يصدر عن هذا الواحد الا و احد أيضا فيلزم أن يكون كل ما فى العالم إنما هو و احد عن و احد و هو مكابرة و إن كان في الصادر الأول كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ليس و احدا من كل و جه فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد و لهذا اضطرب متأخروهم فأبو البركات صاحب المعتبر أبطل هذا القول و رده غاية الرد و ابن رشد الحفيد زعم أن الفلك بما فيه صادر عن الأول و الطوسي و زير الملاحدة يقرب من هذا فجعل الأول شرطا فى الثاني و الثاني شرطا فى الثالث و هم مشتركون في الضلال و هو إثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم تزل و لا تزال معه لم تكن مسبوقة بعدم و جعل الفلك أيضا أزليا و هذا و حده فيه من مخالفة صريح المعقول و الكفر بما جاءت به الرسل ما فيه كفاية فكيف إذا ضم إليه غير ذلك من أوقاويلهم المخالفة للعقل و النقل الوجه السادس أن الصوادر المعلومة في العالم انما تصدر عن اثنين و أما و احد و حده فلا يصدر عنه شيء كما تقدم التنبيه عليه في المتولدات من الأعيان و الأعراض و كل ما يذكرونه من صدور الحراراة عن الحار و البرودة عن البارد و الشعاع عن الشمس و غير ذلك فإنما هو صدور أعراض و مع هذا فلابد لها من أصلين و أما صدور الأعيان عن غيرها فهذا لا يعلم الا بالولادة المعروفة و تلك لا تكون الا بإنفصال جزء من الأصل و هذا الصدور و التولد و المعلولية التى يدعونها في العقول و النفوس و الأفلاك يقولون أنها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر و احد بسيط فهذا من أبطل قول قيل فى الصدور و التولد لأن فيه صدور جواهر عن جوهر و احد و هذا لا يعقل و فيه صدوره عنه من غير جزء منفصل من الأصل و هذا لا يعقل و هم غاية ما عندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض الأعراض كالشعاع عن الشمس و حركة الخاتم عن حركة اليد و هذا تمثيل باطل لأن تلك ليست علة فاعلة و إنما هي شرط فقط و الصادر هناك لم يكن عن أصل و احد بل عن أصلين و الصادر عرض لا جوهر قائم بنفسه فتبين أن ما ذكره هؤلاء من التولد العقلي الذي يدعونه من أبعد الأمور عن التولد و الصدور و هو أبعد من قول النصارى و مشركى العرب و هم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته و قد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه أنه متولد عنه و حينئذ فهم فى دعواهم إلهية العقول و النفوس و الكواكب أكفر من هؤلاء و هؤلاء و من جعل من المنتسبين الى الملل منهم هؤلاء هم الملكية فقوله في جعل الملائكة متولدين عن الله شر من قول العرب و عوام النصارى فإن أولئك أثبتوا و لادة حسية و كونه صمدا يبطلها لكن ما أثبتوه معقول و هؤلاء ادعوا تولدا عقليا باطلا من كل و جه أبطل مما ادعته النصارى من تولد الكلمة عن الذات فكان نفى ما ادعوه أولى من نفى ما ادعاه أولئك لأن المحال الذي يعلم امتناعه فى الخارج لا يمكن تصوره موجودا في الخارج فانه يمتنع و جوده فى الخارج بل هو يفرض في الذهن و جوده فى الخارج و ذلك إنما يمكن إذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له فى الوجود الخارجي ما يشبهه كما إذا قدر مع الله إلها آخر و قدر أن له و لدا فانه يشبه من له و لد من

العباد و من له شريك من العباد ثم يبين امتناع ذلك عليه فكلما كان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة والولادة التى ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة أبعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التى ادعاها بعض مشركي العرب و عوام النصارى و اليهود فكانت هذه الولادة العقلية أشد استحالة من تلك الولادة الحسية اذ الولادة الحسية تعقل فى الأعيان القائمة بنفسها و أما الولادة العقلية فلا تعقل في الأعيان أصلا و أيضا فأولئك أثبتوا و لادة من أصلين و هذا هو الولادة المعقولة و هؤلاء أثبتوا و لادة من أصل و احد و أولئك أثبتوا و لادة بانفصال جزء و هذا معقول و هؤلاء أثبتوا و لادة بدون ذلك و هو لايعقل و أولئك أثبتوا و لادة قاسوها على و لادة الأعيان للأعيان و هؤلاء أثبتوا و لادة قاسوها على تولد الأعراض عن الأعيان فعلم أن قول أولئك أقرب الى المعقول و هو باطل كما بين الله فساده و انكره فقول هؤلاء أولى بالبطلان و هذا كما أن الله اذا كفر من أثبت مخلوقا يتخذ شفيعا معبودا من دون الله فمن أثبت قديما دون الله يعبد و يتخذ شفيعا كان أولى بالكفر و من أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله فمن أنكره مع قوله بقدم العالم فهو اعظم كفرا عند الله تعالى و هذا كما أن النبى صلى الله عليه و سلم لما نهى أمته عن مشابهة فارس المجوس و الروم و النصاري فنهيه عن مشابهة الروم اليونان المشركين و الهند المشركين أعظم و اعظم و اذا كان ما دخل في بعض المسلمين من مشابهة اليهود و النصارى و فارس و الروم مذموما عند الله و رسوله فما دخل من مشابهة اليونان و الهند و الترك المشركين و غيرهم من الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام من أهل الكتاب و من فارس و الروم أولى أن يكون مذموما عند الله تعالى و أن يكون ذمه أعظم من ذاك فهؤلاء الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام الذين ابتلى بهم أواخر المسلمين شر من الأمم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين و ذلك لأن الإسلام كان أهله أكمل و أعظم علما و دينا فإذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء غلبهم المسلمون لفضل علمهم و دينهم و أما هؤلاء المتأخرون فالمسلمون و إن كانوا أنقص من سلفهم فإنه يظهر رجحانهم على هؤلاء لعظم بعدهم عن الإسلام و لكن لما كثرت البدع من متأخري المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء و لبسوا عليهم دينهم و صارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان لأنهم انما ابتلوا بسيوف هؤلاء و ألسنة هؤلاء و كان فيهم من نقص الإيمان ما أورث ضعفا فى العلم و الجهاد و كما كان كثير من العرب فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم فهذا هذا ومما يبين هذا أن مشركي العرب اليهود و النصارى يقولون إن الله خلق السموات و الأرض بمشيئته و قدرته بل يقولون إنه خلق ذلك فى ستة أيام و هؤلاء المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد أن لم تكن فضلا عن أن يكون ذلك فى ستة أيام ثم يلبسون على المسلمين فيقولون العالم محدث يعنون بحدوثه أنه معلول علة قديمة فهو بمنزلة قولهم متولد عن الله تعالى لكن هو أمر لا حقيقة له و لا يعقل و أيضا فمشركوا العرب و أهل الكتاب يقرون بالملائكة و إن كان كثير منهم يجعلون الملائكة و الشياطين نوعا و احدا فمن خرج منهم عن طاعة الله أسقطه و صار شيطانا و ينكرون أن يكون إبليس كان أبا الجن و أن يكون الجن ينكحون و يولدون و يأكلون و يشربون فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هذا مع كفرهم هم خير من هؤلاء المتفلسفة فإن هؤلاء لا حقيقة للملائكة عندهم إلا ما يثبتونه من العقول و النفوس أو من أعراض تقوم بالأجسام كالقوي الصالحة و كذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها فان العرب كانت تثبت الجن و كذلك أكثر أهل الكتاب و هؤلاء لا يثبتونها و يجعلون الشياطين القوي الفاسدة و أيضا فمشركوا العرب مع أهل الكتاب يدعون الله و يقولون أنه يسمع دعاءهم و يجيبهم و هؤلاء عندهم لا يعلم شيئا من جزئيات العالم و لا يسمع دعاء أحد

و لا يجيب أحدا و لا يحدث في العالم شيئا و لا سبب للحدوث عندهم إلا حركات الفلك و الدعاء عندهم يؤثر لأنه تصرف النفس الناطقة فى هيولى العالم و قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه و سلم قال يقول الله عز و جل شتمنى ابن آدم و ما ينبغي له ذلك و كذبني ابن آدم و ما ينبغي له ذلك فأما شتمه إياي فقوله إني اتخذت و لدا و أنا الأحد الصمد الذي لم ألد و لم أولد و لم يكن لي كفوا أحد و أما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدنى كما بدأنى و ليس أول الخلق بأهون علي من إعادته و هذا و إن كان متناولا قطعا لكفار العرب الذين قالوا هذا و هذا كما قال تعالى {وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً }مريم66 الى قوله {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً{88} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً{89} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً{90}مريم88-90 فذكر الله هذا و هذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الأولى فان هؤلاء ينكرون الإعادة و الإبتداء أيضا فلا يقولون ان الله ابتدأ خلق السموات و الأرض و لا كان للبشر ابتداء أولهم آدم و أما شتمهم إياه بقولهم اتخذ و لدا فهؤلاء عندهم الفلك كله لازم له معلول له أعظم من لزوم الولد و الده و الوالد له اختيار و قدرة فى حدوث الولد منه و هؤلاء عندهم ليس لله مشيئة و قدرة فى لزوم الفلك له بل و لا يمكنه أن يدفع لزومه عنه فالتولد الذي يثبتونه أبلغ من التولد الموجود فى الخلق و لا يقولون إنه اتخذ و لدا بقدرته فانه لا يقدر [1]

عندهم على تغيير شيء من العالم بل ذلك لازم له لزوما حقيقته أنه لم يفعل شيئا بل و لا هو موجود و إن سموه علة و معلولا فعند التحقيق لا يرجعون الى شيء محصل فان فى قولهم من التناقض و الفساد أعظم مما في قول النصارى و قد ذكر طائفة من أهل الكلام أن قولهم بالعلة و المعلول من جنس قول غيرهم بالوالد و الولد و أرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم فى الذم و هذا تقصير عظيم بل أولئك خير من هؤلاء و هؤلاء اذا حققت ما يقوله من هو أقر بهم الى الإسلام كابن رشد الحفيد و جدت غايته أن يكون الرب شرطا فى و جود العالم لا فاعلا له و كذلك من سلك مسلكهم من المدعين للتحقيق من ملاحدة الصوفية كابن عربى و ابن سبعين حقيقة قولهم أن هذا العالم موجود و اجب أزلى ليس له صانع غير نفسه و هم يقولون الوجود و احد و حقيقة قولهم أنه ليس في الوجود خالق خلق موجودا آخر و كلامهم فى المعاد و النبوات و التوحيد شر من كلام اليهود و النصارى و عباد الأصنام فإن هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم فى العالم لا يخصون بعض الأصنام بالعبادة فصل وقد إحتج ب سورة الإخلاص من أهل الكلام المحدث من يقول الرب تعالى جسم كبعض الذين و افقوا هشام بن الحكم و محمد بن كرام و غيرهما و من ينفى ذلك و يقول ليس بجسم ممن و افق جهم بن صفوان و أبا الهذيل العلاف و نحوهما فأولئك قالوا هو صمد و الصمد لا جوف له و هذا إنما يكون فى الأجسام المصمتة فانها لا جوف لها كما في الجبال و الصخور و ما يصنع من عواميد الحجارة و كما قيل ان الملائكة صمد و لهذا قيل إنه لا يخرج منه شيء و لا يدخل فيه شيء و لا يأكل و لا يشرب و نحو ذالك و نفى هذا لا يعقل إلا عمن هو جسم و قالوا أصل الصمد الإجتماع و منه تصميد المال و هذا إنما يعقل فى الجسم المجتمع و أما النفاة فقالوا الصمد الذي لا يجوز عليه التفرق و الإنقسام و كل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق و الإنقسام و قالوا أيضا الاحد الذي لا يقبل التجزي و الإنقسام و كل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق و التجزى و الإنقسام و قالوا اذا قلتم هو جسم كان مركبا مؤلفا من الجواهر الفردة أو من المادة و الصورة و ما

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 295

كان مركبا مؤلفا من غيره كان مفتقرا إليه و هو سبحانه صمد و الصمد الغني عما سواه فالمركب لا يكون صمدا فيقال أما القول بأنه سبحانه مركب مؤلف من أجزاء و أنه يقبل التجزى و الانقسام و الانفصال فهذا باطل شرعا و عقلا فان هذا ينافى كونه صمدا كما تقدم و سواء أريد بذلك أنه كانت الأجزاء متفرقة ثم اجتمعت أو قيل إنها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض كما فى بدن الإنسان و غيره من الأجسام فإن الإنسان و ان كان لم يزل مجتمع الأعضاء لكن يمكن أن يفرق بين بعضه من بعض و الله سبحانه منزه عن ذلك و لهذا قدمنا ان كمال الصمدية له فإن هذا انما يجوز على ما يجوز أن يفنى بعضه أو يعدم و ما قبل العدم و الفناء لم يكن و اجب الوجود بذاته و لا قديما أزليا فإن ما و جب قدمه امتنع عدمه و كذلك صفاته التى لم يزل موصوفا بها و هي من لوازم ذاته فيمتنع أن يعدم اللازم الا مع عدم الملزوم ولهذا قال من قال من السلف {الصَّمَدُ }الإخلاص2 هو الدائم و هو الباقى بعد فناء خلقه فإن من لوازم الصمدية اذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمدا و لا تنتفي عنه الصمدية الا بجواز العدم عليه و ذلك محال فلا يكون مستوجبا للصمدية الا اذا كانت لازمة له و ذلك ينافى عدمه و هو مستوجب للصمدية لم يصر صمدا بعد أن لم يكن تعالى و تقدس فإن ذلك يقتضي أنه كان متفرقا فجمع و أنه مفعول محدث مصنوع و هذه صفة مخلوقاته و أما الخالق القديم الذي يمتنع عليه أن يكون معدوما أو مفعولا أو محتاجا الى غيره بوجه من الوجوه فلا يجوز عليه شيء من ذلك فعلم أنه لم يزل صمدا و لا يزال صمدا فلا يجوز أن يقال كان متفرقا فاجتمع و لا أنه يجوز أن يتفرق بل و لا أن يخرج منه شيء و لا يدخل فيه شيء وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين سنيهم و بدعيهم و ان كان أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول إنه مولود و والد و إن كان هذا قد قاله بعض الكفار و قد قال المتفلسفة المنتسبون الى الإسلام من التولد و التعليل ما هو شر من قول أولئك و أما اثبات الصفات له و أنه يرى فى الآخرة و أنه يتكلم بالقرآن و غيره و كلامه غير مخلوق فهذا مذهب الصحابة و التابعين لهم بإحسان و أئمة المسلمين و أهل السنة و الجماعة من جميع الطوائف و الخلاف فى ذلك مشهور مع الجهمية و المعتزلة و كثير من الفلاسفة و الباطنية وهؤلاء يقولون أن اثبات الصفات يوجب أن يكون جسما و ليس بجسم فلا تثبت له الصفات قالوا لأن المعقول من الصفات اعراض قائمة بجسم لا تعقل صفته إلا كذلك قالوا و الرؤية لا تعقل إلا مع المعاينة فالمعاينة لا تكون إلا اذا كان المرئي بجهة و لا يكون بجهة إلا ما كان جسما قالوا و لأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسما فلا يكون الكلام المضاف إليه إلا مخلوقا منفصلا عنه و هذه المعاني مما ناظروا بها الإمام أحمد فى المحنة و كان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفى التجسيم أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث تلميذ حسين النجار و هو من أكابر المتكلمين فإن ابن أبي دؤاد كان قد جمع للإمام أحمد من أمكنه من متكلمي البصرة و بغداد و غيرهم ممن يقول أن القرآن مخلوق و هذا القول لم يكن مختصا بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس فإن كثيرا من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة و بشر المريسي لم يكن من المعتزلة بل فيهم نجارية و منهم برغوث و فيهم ضرارية و حفص الفرد الذي ناظر الشافعي كان من الضرارية أتباع ضرار بن عمرو و فيهم مرجئة و منهم بشر المريسي ومنهم جهمية محضة و منهم معتزلة و ابن أبى دؤاد لم يكن معتزليا بل كان جهميا ينفي الصفات و المعتزلة تنفي الصفات فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة فلما احتج عليه برغوث بأنه لو كان يتكلم و يقوم به الكلام لكان جسما و هذا منفى عنه و أحمد و أمثاله من السلف كانوا يعلمون أن هذه الألفاظ التى ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم و غيره ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها الى نفي ما أثبته الله تعالى و رسوله و يثبتها قوم ليتوصلوا باثباتها الى

اثبات ما نفاه الله و رسوله فالأولى طريقة الجهمية من المعتزلة و غيرهم ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون أن قصدهم التنزيه و مقصودهم بذلك أن الله لا يرى فى الاخرة و أنه لم يتكلم بالقرآن و لا غيره بل خلق كلاما فى غيره و أنه ليس له علم يقوم به و لا قدرة و لا حياة و لا غير ذلك من الصفات قال الامام أحمد في خطبته فى الرد على الجهمية و الزنادقة الحمد لله الذي جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدي و يصبرون منهم على الأذي يحيون بكتاب الله الموتى و يبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد احيوه و كم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس و أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين و إنتحال المبطلين و تأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة و أطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون فى الكتاب مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله و فى الله و فى الكتاب بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام و يخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين والثانية طريقة هشام و أتباعه يحكى عنهم أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من إتصافه بالنقائص و مماثلته للمخلوقات فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء و اتباعهم و هو الإعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{102} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ {103}آل عمران102 -103 و قال {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }البقرة213 وقال تعالى { المص{1} كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{2} اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{3} الاعراف1-3 و قال تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126}طه123-126 و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }النساء59 و قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{1} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{2}الحجرات1-2 وقال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{60} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{61} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{62} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{63} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{64} فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{65}النساء60-65 و قوله تعالى {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }الأنعام153 و قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ }الأنعام159 و قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{32}الروم30-32 و قوله {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ }الشورى13 فهذه النصوص و غيرها تبين أن الله أرسل الرسل و أنزل الكتب لبيان الحق من الباطل و بيان ما اختلف فيه الناس و أن الواجب على الناس اتباع ما أنزل اليهم من ربهم و رد ما تنازعوا فيه الى الكتاب و السنة و ان من لم يتبع ذلك كان منافقا و ان من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل و لا يشقى و من أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالا شقيا معذبا و أن الذين فرقوا دينهم قد برىء الله و رسوله منهم فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة و الجماعة المعتصمين بالكتاب و السنة المتبعين ما أنزل الله اليهم من ربهم و ذلك أن ننظر فما و جدنا الرب قد أثبته لنفسه فى كتابه أثبتناه و ما و جدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه و كل لفظ و جد فى الكتاب و السنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ و كل لفظ و جد منفيا نفي ذلك اللفظ و أما الألفاظ التى لا توجد فى الكتاب و السنة بل و لا فى كلام الصحابة و التابعين لهم باحسان و سائر أئمة المسلبمين لا إثباتها و لا نفيها و قد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لا تثبت و لا تنفى إلا بعد الإستفسار عن معانيها فان و جدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبت و ان و جدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت و ان و جدنا اللفظ أثبتت به حق و باطل أو نفى به حق و باطل أو كان مجملا يراد به حق و باطل و صاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد و غير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق اثباتها و لا نفيها كلفظ الجوهر و الجسم و التحيز و الجهة و نحو ذلك من الألفاظ التى تدخل فى هذا المعنى فقل من تكلم بها نفيا أو إثباتا إلا و أدخل فيها باطلا و أن أراد بها حقا و السلف و الأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل و كذب و قول على الله بلا علم و كذلك ذكر أحمد فى رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه و يقولون عليه بغير علم و كل ذلك مما حرمه الله و رسوله و لم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية و لا كرهوا الإستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب و السنة و لا يخالف الكتاب و السنة إلا ما هو باطل لا يصح بعقل و لا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين و قال و أما توحيد أهل الباطل فهو الخوض فى الجواهر و الأعراض و إنما بعث الله النبى صلى الله عليه و سلم بانكار ذلك و لم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين فإنهما لم يكونا قد أحدثا فى زمنه و إنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة فإن أول من أحدثهما الجهمية و المعتزلة و قصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به و أنكرت الجهمية أسماءه أيضا و أول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسط و قال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا و لم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه و كلام السلف و الأئمة فى ذم هذا الكلام و أهله مبسوط فى غير هذا الموضع والمقصود هنا أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل و غيره كانوا اذا ذكرت لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم و الجوهر و الحيز و نحوها لم يوافقوهم لا على اطلاق الاثبات و لا على اطلاق النفي و أهل البدع بالعكس ابتدعوا ألفاظا و معانى إما في النفي و اما فى الاثبات و جعلوها هي الأصل المعقول المحكم الذي يجب اعتقاده و البناء عليه ثم نظروا فى الكتاب و السنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه و إلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التى لا ندري ما أريد بها فجعلوا بدعهم أصلا محكما و ما جاء به الرسول فرعا له و مشكلا اذا لم يوافقه و هذا أصل الجهمية و القدرية و أمثالهم و أصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية جميع كتبهم توجد على هذا الطريق و معرفة الفرق بين هذا و هذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين الصراط

المستقيم الذي بعث الله به رسوله و بين السبل المخالفة له و كذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية و مسائل أعمال القلوب و حقائقها و غير ذلك كل هذه الأمور قد دخل فيها ألفاظ و معان محدثة و ألفاظ و معان مشتركة فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب و الحكمة أصلا في جميع هذه الأمور ثم يرد ما تكلم فيه الناس الى ذلك و يبين ما فى الألفاظ المجملة من المعانى الموافقة للكتاب و السنة فتقبل و ما فيها من المعانى المخالفة للكتاب و السنة فترد ولهذا كل طائفة أنكر عليها ما ابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى كما يوجد فى ألفاظ أهل الرأي و الكلام و التصوف و إنما يجوز أن يقال فى بعض الآيات إنه مشكل و متشابه اذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة فاذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر و جاء نص آخر يظن أن ظاهره يخالف ذلك يقال في هذا إنه يرد المتشابه الى المحكم أما اذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى و احد لم يجز أن يجعل ما يضاد ذلك المعنى هو الأصل و يجعل ما فى القرآن و السنة مشكلا متشابها فلا يقبل ما دل عليه نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها و لا يجوز أن يكون فى القرآن ما يخالف صريح العقل و الحس الا و في القرآن بيان معناه فان القرآن جعله الله شفاءا لما في الصدور و بيانا للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن قد تخفى آثار الرسالة فى بعض الأمكنة و الأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم إما أن لا يعرفوا اللفظ و إما أن يعرفوا اللفظ و لا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون فى جاهلية بسبب عدم نور النبوة و من ههنا يقع الشرك و تفريق الدين شيعا كالفتن التى تحدث السيف فالفتن القولية و العملية

هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم كما قال مالك بن أنس اذا قل العلم ظهر الجفاء و اذا قلت الآثار ظهرت الأهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم و لهذا قال أحمد فى خطبته الحمد لله الذي جعل فى كل زمان فترة بقايا من أهل العلم فالهدي الحاصل لأهل الأرض انما هو من نور النبوة كما قال تعالى { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه123 فأهل الهدي و الفلاح هم المتبعون للأنبياء و هم المسلمون المؤمنون فى كل زمان و مكان و أهل العذاب و الضلال هم المكذبون للأنبياء يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل اليهم ما جاءت به الأنبياء فهؤلاء فى ضلال و جهل و شرك و شر لكن الله يقول { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }الإسراء15 و قال {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ }النساء165 و قال {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ }القصص59 فهؤلاء لا يهلكهم الله و يعذبهم حتى يرسل اليهم رسولا و قد رويت آثار متعددة فى أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يبعث اليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين فإن الآخرة لا تكليف فيها و ليس كما قال انما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار و الا فهم فى قبورهم ممتحنون و مفتونون يقال لأحدهم من ربك و ما دينك و من نبيك و كذلك فى عرصات القيامة يقال ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس و من كان يعبد القمر القمر و من كان يعبد الطواغيت الطواغيت و تبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير الصورة التى رأوه فيها أول مرة و يقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا و فى رواية فيسألهم و يثبتهم و ذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم فى فتنة القبر فاذا لم يتبعوه لكونه أتى فى غير الصورة التى يعرفون أتاهم حينئذ فى الصورة التى يعرفون فيكشف عن ساق فاذا رأوه خروا له سجدا الا من كان منافقا فانه يريد السجود فلا يستطيعه يبقى ظهره مثل الطبق و هذا المعنى مستفيض عن النبى صلى الله عليه و سلم فى عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي هريرة و أبى سعيد و قد

أخرجاهما فى الصحيحين و من حديث جابر و قد رواه مسلم من حديث ابن مسعود و أبى موسى و هو معروف من رواية أحمد و غيره فدل ذلك على أن المحنة انما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء و أما قبل دار الجزاء امتحان و ابتلاء فاذا انقطع عن الناس نور النبوة و قعوا في ظلمة الفتن و حدثت البدع و الفجور و وقع الشر بينهم كما في الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين و منعنى الثالثة سألته ان لا يهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها و سألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها و البأس مشتق من البؤس قال الله تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ }الأنعام65 و فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه لما نزل قوله تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ }الأنعام65 قال أعوذ بوجهك { أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ }الأنعام65 قال أعوذ بوجهك {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ }الأنعام65 قال هاتان اهون فدل على أنه لابد أن يلبسهم شيعا و يذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول فى هذه الحال و هم فيها في جاهلية و لهذا قال الزهري و قعت الفتنة و أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر انزلوهم منزلة الجاهلية و قد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانمت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية تعنى قوله تعالى {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا }الحجرات9 فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة و جاهلية وهكذا مسائل النزاع التى تنازع فيها الأمة فى الأصول و الفروع اذا لم ترد إلى الله و الرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضا و لم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة فى خلافة عمر و عثمان يتنازعون فى بعض مسائل الإجتهاد فيقر بعضهم بعضا و لا يعتدى عليه و ان لم يرحموا و قع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض إما بالقول مثل تكفيره و تفسيقه و إما بالفعل مثل حبسه و ضربه و قتله و هذه حال أهل البدع و الظلم كالخوارج و أمثالهم يظلمون الأمة و يعتدون عليهم اذا نازعوهم في بعض مسائل الدين و كذلك سائر أهل الأهواء فانه يبتدعون بدعة و يكفرون من خالفهم فيها كما تفعل الرافضة و المعتزلة و الجهمية و غيرهم و الذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء إبتدعوا بدعة و كفروا من خالفهم فيها و استحلوا منع حقه و عقوبته فالناس اذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول صلى الله عليه و سلم إما عادلون و اما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما و صل اليه من آثار الأنبياء و لا يظلم غيره و الظالم الذي يعتدي على غيره و هؤلاء ظالمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى { وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ }آل عمران19 و الا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضا كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله و رسوله فى تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول و قالوا هذه غاية ما قدرنا عليه فالعادل منهم لا يظلم الآخر و لا يعتدى عليه بقول و لا فعل مثل أن يدعى أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبديها و يذم من يخالفه مع أنه معذور وكان الذين امتحنوا أحمد و غيره من هؤلاء الجاهلين فإبتدعوا كلاما متشابها نفوا به الحق فأجابهم أحمد لما ناظروه فى المحنة و ذكروا الجسم و نحو ذلك و أجابهم بأنى أقول كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2}الاخلاص1-2 وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث ليس على أحد أن يتكلم به ألبتة و المعنى الذي يراد به مجمل و لم تبينوا مرادكم حتى نوافقكم على المعنى الصحيح فقال ما أدرى ما تقولون لكن أقول الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد

يقول ما أدري ما تعنون بلفظ الجسم فأنا لا أوافقكم على إثبات لفظ و نفيه إذ لم يرد الكتاب و السنة باثباته و لا نفيه إن لم ندر معناه الذي عناه المتكلم فان عنى فى النفي و الاثبات ما يوافق الكتاب و السنة و افقناه و إن عنى ما يخالف الكتاب و السنة فى النفى الإثبات لم نوافقه ولفظ الجسم و الجوهر و نحوهما لم يأت فى كتاب الله و لا سنة رسوله و لا كلام أحد من الصحابة و التابعين لهم بإحسان الى يوم الدين و سائر أئمة المسلمين التكلم بها في حق الله تعالى لا بنفي و لا إثبات و لهذا قال أحمد فى رسالته الى المتوكل لا أحب الكلام فى شيء من ذلك إلا ما كان في كتاب الله أو فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أو عن الصحابة أو التابعين لهم بإحسان و أما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود و ذكر أيضا فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون ليس فيه كذا و لا كذا و لا كذا و هو كما قال فإن لفظ الجسم له فى اللغة التى نزل بها القرآن معنى كما قال تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ }المنافقون4 و قال تعالى {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ }البقرة247 قال ابن عباس كان طالوت أعلم بنى إسرائيل بالحرب و كان يفوق الناس بمنكبيه و عنقه و رأسه و البسطة السعة قال ابن قتيبة هو من قولك بسطت الشيء إذا كان مجموعا ففتحته و وسعته قال بعضهم و المراد بتعظيم الجسم فضل القوة اذ العادة أن من كان أعظم جسما كان أكثر قوة فهذا لفظ الجسم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن قال الجوهري قال أبو زيد الأنصاري الجسم الجسد و كذلك الجسمان والجثمان وقال الأصمعي الجسم والجسد الجثمان الشخص و قال جماعة جسم الإنسان يقال له الجثمان و قد جسم الشيء أي عظم فهو جسيم و جسام و الجسام بالكسر جمع جسيم قال أبو عبيدة تجسمت فلانا من بين القوم أي اخترته كأنك قصدت جسمه كما تقول تأتيته أي قصدت أتيه و شخصه وأنشد أبو عبيدة تجسمته من بينهن بمرهف
وتجسمت الأرض اذا أخذت نحوها تريدها و تجسم من الجسم و قال ابن السكيت تجسمت الأمر أي ركبت أجسمه و جسيمه أي معظمه قال و كذلك تجسمت الرمل و الجبل أي ركبت أعظمه و الأجسم الأضخم قال عامر بن الطفيل لقد علم الحي من عامر بأن لنا الذروة الأجسما فهذا الجسم فى لغة العرب و على هذا فلا يقال للهواء جسم و لا للنفس الخارج من الإنسان جسم و لا لروحه المنفوخة فيه جسم و معلوم أن الله سبحانه لا يماثل شيئا من ذلك لا بدن الإنسان و لا غيره فلا يوصف الله تعالى بشيء من خصائص المخلوقين و لا يطلق عليه من الأسماء ما يختص بصفات المخلوقين فلا يجوز أن يقال هو جسم و لا جسد و أما أهل الكلام فالجسم عندهم أعم من هذا و هم مختلفون فى معناه إختلافا كثيرا عقليا و إختلافا لفظيا اصطلاحيا فهم يقولون كل ما يشار إليه اشارة حسية فهو جسم ثم اختلفوا بعد هذا فقال كثير منهم كل ما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة ثم منهم من قال الجسم أقل ما يكون جوهرا بشرط أن ينضم الى غيره و قيل بل الجوهران و الجواهر فصاعدا و قيل بل أربعة فصاعدا و قيل بل ستة و قيل بل ثمانية و قيل بل ستة عشر و قيل بل اثنان و ثلاثون و هذا قول من يقول إن الأجسام كلها مركبة من الجواهر التى لا تنقسم وقال آخرون من أهل الفلسفة كل الأجسام مركبة من الهيولى و الصورة لا من الجواهر الفردة و قال كثير من أهل الكلام و غير أهل الكلام ليست مركبة لا من هذا و لا من هذا و لا من هذا و لا من هذا و هذا قول الهشامية و الكلابية و الضرارية و غيرهم من الطوائف الكبار لا يقولون بالجوهر الفرد و لا بالمادة و الصورة و آخرون يدعون إجماع المسلمين على إثبات الجوهر الفرد كما قال أبو المعالي و غيره اتفق المسلمون على أن الأجسام تتناهي في تجزئها و انقسامها حتى تصير افرادا و مع هذا فقد شك هو فيه و كذلك شك فيه أبو الحسين البصري و أبو عبدالله الرازي و معلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة و لا من التابعين لهم بإحسان و لا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين و أول من قال ذلك فى الإسلام طائفة من الجهمية و المعتزلة و

هذا من الكلام الذي ذمه السلف و عابوه و لكن حاكي هذا الإجماع لما لم يعرف أصول الدين الا ما في كتب الكلام و لم يجد الا من يقول بذلك اعتقد هذا إجماع المسلمين و القول بالجوهر الفرد باطل و القول بالهيولى و الصورة باطل و قد بسط الكلام على هذه المقالات فى مواضع أخر و قال آخرون الجسم هو القائم بنفسه و كل قائم بنفسه جسم و كل جسم فهو قائم بنفسه و هو مشار إليه و اختلفوا فى الأجسام هل هي متماثلة أم لا على قولين مشهورين واذا عرف ذلك فمن قال إنه جسم و أراد أنه مركب من الأجزاء فهذا قوله باطل و كذلك إن أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع و العقل أن الله ليس كمثله شيء في شيء من صفاته فمن أثبت لله مثلا في شيء من صفاته فهو مبطل و من قال إنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل و من قال انه ليس بجسم بمعنى أنه لا يري في الآخرة و لا يتكلم بالقرآن و غيره من الكلام و لا يقوم به العلم و القدرة و غيرهما من الصفات و لا ترفع الأيدي إليه فى الدعاء و لا عرج بالرسول صلى الله عليه و سلم إليه و لا يصعد إليه الكلم الطيب و لا تعرج الملائكة و الروح إليه فهذا قوله باطل و كذلك كل من نفى ما أثبته الله و رسوله و قال أن هذا تجسيم فنفيه باطل و تسمية ذلك تجسيما تلبيس منه فإنه إن أراد أن هذا فى اللغة يسمى جسما فقد أبطل و إن أراد أن هذا يقتضي أن يكون جسما مركبا من الجواهر الفردة أو من المادة و الصورة أو أن هذا يقتضي أن يكون جسما و الأجسام متماثلة قيل له أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الأجسام المخلوقة و فى أنها مركبة فلا يقولون أن الهواء مثل الماء و لا أبدان الحيوان مثل الحديد و الجبال فكيف يوافقونك على أن الرب تعالى يكون مماثلا لخلقه اذا اثبتوا له ما أثبت له الكتاب و السنة و الله تعالى قد نفى المماثلات في بعض المخلوقات و كلاهما جسم كقوله { وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ }محمد38 مع أن كلاهما بشر فكيف يجوز أن يقال إذا كان لرب السموات علم و قدرة أنه يكون مماثلا لخلقه و الله تعالى ليس كمثله شيء لا فى ذاته و لا فى صفاته و لا فى أفعاله ونكتة الأمر أن الجسم في اعتقاد هذا النافي يستلزم مماثلة سائر الأجسام و يستلزم أن يكون مركبا من الجواهر الفردة أو من المادة و الصورة و أكثر العقلاء يخالفونه فى هذا التلازم و هذا التلازم منتف بإتفاق الفريقين و هو المطلوب إتفقوا على إنتفاء النقص المنفى عن الله شرعا و عقلا بقى بحثهم فى الجسم الإصطلاحي هل هو مستلزم لهذا المحذور و هو بحث عقلي كبحث الناس في الأعراض هل تبقى أو لاتبقى و هذا البحث العقلي لم يرتبط به دين المسلمين بل لم ينطق كتاب و لا سنة و لا أثر من السلف بلفظ الجسم فى حق الله تعالى لا نفيا و لا اثباتا فليس لأحد أن يبتدع اسما مجملا يحتمل معاني مختلفة لم ينطق به الشرع و يعلق به دين المسلمين و لو كان قد نطق باللغة العربية فكيف اذا أحدث للفظ معنى آخر و المعنى الذي يقصده اذا كان حقا عبر عنه بالعبارة التى لا لبس فيها فإذا كان معتقده أن الأجسام متماثلة و أن الله ليس مثله شيء و هو سبحانه لا سمي له و لا كفوله و لا ند له فهذه عبارات القرآن تؤدي هذا المعنى بلا تلبيس و لا نزاع و ان كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة و أن كل ما يرى و تقوم به الصفات فهو جسم فإن عليه أن يثبت ما أثبته الله و رسوله من علمه و قدرته و سائر صفاته كقوله { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء }البقرة255 و قوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ }الذاريات58 و قوله عليه السلام فى حديث الاستخارة اللهم إنى استخيرك بعلمك و استقدرك بقدرتك و قوله في الحديث الآخر اللهم بعلمك الغيب و قدرتك على الخلق و يقول كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم انكم ترون ربكم يوم القيامة عيانا كما ترون الشمس و القمر لا تضامون في رؤيته فشبه الرؤية بالرؤية و إن لم يكن المرئي كالمرئي فهذه عبارات الكتاب و السنة عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبيس و لا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب و السنة و أقوال الصحابة ثم بعد هذا من كان قد تبين له معنى من جهة العقل أنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله فلازم

الحق حق لكن ذلك المعنى لابد أن يدل الشرع عليه فيبينه بالألفاظ الشرعية و إن قدر أن الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده و حينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس إليه و ان قدر أنه فى نفسه حق و مسألة تماثل الأجسام و تركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام و كثير منهم يقول بهذا تارة و بهذا تارة و أكثر ذلك لأجل الألفاظ المجملة و المعاني المتشابهة و قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع لكن المقصود هنا أنه لو قدر أن الإنسان تبين له أن الأجسام ليست متماثلة و لا مركبة لا من هذا و لا من هذا لم يكن له أن يبتدع فى دين الإسلام قوله ان الله جسم و يناظر على المعنى الصحيح الذي دل عليه الكتاب و السنة بل يكفيه إثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية و لو قدر أنه تبين له أن الأجسام متماثلة و أن الجسم مركب لم يكن له أن يبتدع النفي بهذا الإسم و يناظر على معناه الذي إعتقده بعقله بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع و العقل يمكن اظهاره بعبارة لا إجمال فيها و لا تلبيس و الذين يقولون أن الجسم مركب من الجواهر يدعى كثير منهم أنه كذلك فى لغة العرب لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا يريدون به أنه أكثر أجزاء منه و يقولون هذا جسم أي كثير الأجزاء قال و التفضيل بصيغة أفعل إنما يكون لما يدل عليه الإسم فإذا قيل هذا أعلم و أحلم كان ذلك دالا على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم و الحلم فلما قالوا أجسم لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب فمن قال جسم و ليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب قالوا و هذه تخليطة في اللفظ و إن كنا لا نكفره اذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب و التأليف و قد نازعهم بعضهم فى قولهم هذا أجسم من هذا و قالوا ليس هذا اللفظ من لغة العرب كما يحكى عن ابى زيد فيقال له لا ريب أن العرب تقول هذا جسيم أي عظيم الجثة و هذا أجسم من هذا أي أعظم جثة لكن كون العرب تعتقد أن ذلك لكثرة الأجزاء التى هي الجواهر الفردة إنما يكون اذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون أن الجسم مركب من الجواهر الفردة و الجوهر الفرد هو شيء قد بلغ من الصغر و الحقارة إلى أنه لا يتميز يمينه من يساره و معلوم أن أكثر العقلاء من بني آدم لا يتصور الجوهر الفرد و الذين يتصورونه أكثرهم لا يثبتونه و الذين أثبتوه إنما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة فيمتنع أن يكون اللفظ الشائع فى اللغة التى ينطق بها خواصها و عوامها و أرادوا به هذا و قد علم بالإضطرار أن أحدا من الصحابة و التابعين لهم بإحسان لم ينطق بإثبات الجوهر الفرد و لا بما يدل على ثبوته عنده بل و لا العرب قبلهم و لا سائر الأمم الباقين على الفطرة و لا إتباع الرسل فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا لفظ جسم إلا لما كان مركبا مؤلفا و لو قلت لمن شئت من العرب الشمس و القمر و السماء مركب عندك من اجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزي أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى إلا بعد كلفة ثم اذا تصوره قد يكذبه بفطرته و يقول كيف يمكن أن يكون شيء لا يتميز منه جانب عن جانب و أكثر العقلاء من طوائف المسلمين و غيرهم ينكرون الجوهر الفرد فالفقهاء قاطبة تنكره و كذلك أهل الحديث و التصوف ولهذا كان الفقهاء متفقين على إستحالة بعض الأجسام الى بعض كاستحالة العذرة رمادا و الخنزير ملحا ثم تكلموا في هذه الإستحالة هل تطهر أم لا تطهر و القائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم بل تلك الجواهر التى كانت في الأول هي بعينها في الثانى و إنما إختلف التركيب و لهذا يتكلم بلفظ التركيب فى الماء و نحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين و يقول ان الماء يفارق غيره في التركيب فقط و كذلك القائلون بالجوهر الفرد عندهم انا لم نشاهد قط احداث الله تعالى لشيء من الجواهر و الأعيان القائمة بنفسها و ان جميع ما يخلقه من الحيوان و النبات و المعدن و الثمار و المطر و السحاب و غير ذلك إنما هو جمع الجواهر و تفريقها و تغيير صفاتها من حال الى حال لا أنه يبدع شيئا من الجواهر و الأجسام القائمة بأنفسها و هذا القول أكثر العقلاء ينكره و يقول هو مخالف للحس و العقل و الشرع فضلا عن أن يكون الجسم

فى لغة العرب مستلزما لهذا المعنى ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه و هو عرض قائم بغيره و قد يراد به الشيء الغليظ و هو القائم بنفسه فنقول هذا الثواب له جسم أي غلظ و قوله {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ }البقرة247 قد يحتج به على هذا فإنه قرن الجسم بالعلم الذي هو مصدر فنقول المعنى زاده بسطة فى قدره فجعل قدر بدنه أكبر من بدن غيره فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر وكذلك قوله تعالى { تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ }المنافقون4 أي صورهم القائمة بأبدانهم كما تقول أعجبني حسنه و جماله و لونه و بهاؤه فقد يراد صفة الأبدان و قد يراد نفس الأبدان و هم إذا قالوا هذا اجسم من هذا أرادوا أنه أغلظ و أعظم منه إما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم و الغلظ كان لزيادة الأجزاء فهذا مما يعلم قطعا أنه لم يخطر ببال أهل اللغة إلا من أخذ ذلك عمن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذي أحدث فى الإسلام بعد إنقراض عصر الصحابة و أكثر التابعين فإن هذا لم عرف فى الإسلام من تكلم به أو بمعناه إلا في أواخر الدولة الأموية لما ظهر جهم بن صفوان و الجعد بن درهم ثم ظهر فى المعتزلة فقد تبين أن من قال الجسم هو المؤلف المركب و اعتقد أن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقليا ينازعه فيه أكثر العقلاء من بنى آدم و لم ينقل عن أحد من السلف أنه و افقه عليه و أنه جعل لفظ الجسم في إصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ فى اللغة فقد غير معنى اللفظ فى اللغة و ادعى معنى عقليا فيه نزاع طويل و ليس معه من الشرع ما يوافق ما ادعاه من معنى اللفظ و لا ما ادعاه من المعنى العقلي فاللغة لا تدل على ما قال و الشرع لا يدل على ما قال و العقل لم يدل على مسميات الألفاظ و إنما يدل على المعنى المجرد و ذلك فيه نزاع طويل و نحن نعلم بالاضطرار أن ذلك المعنى الذي و جب نفيه عن الله لا يحتاج نفيه الى ما أحدثه هذا من دلالة اللفظ و لا ما ادعاه من المعنى العقلي بل الذين جعلوا هذا عمدتهم فى تنزيه الرب عن نفى مسمى الجسم لا يمكنهم أن ينزهوه عن شيء من النقائص ألبتة فإنهم إذا قالوا هذا من صفات الأجسام فكل ما أثبتوه هو أيضا من صفات الأجسام مثل كونه حيا عليما قديرا بل كونه موجودا قائما بنفسه فإنهم لا يعرفون هذا فى الشاهد الا جسما فإذا قال المنازع أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه إنقطعوا ثم هؤلاء لهم في استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم هل علم بالإجماع فقط أو علم بالعقل أيضا فيه قولان فمن قال إن ذلك لم يعلم بالعقل كأبى المعالي و الرازي و غيرهما لم يبق معهم دليل عقلي ينزهون به الرب عن كثير من النقائص هذا اذا لم ينف الا ما يجب نفيه عن الله مثل نفيه للنقائص فإنه يجب تنزيه الرب عنها و ينفى عنه مماثلة المخلوقات فإنه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص و عيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له و هذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله و {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }الإخلاص1 دلت على النوعين فقوله { أَحَدٌ }الإخلاص1 مع قوله {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 ينفى المماثلة و المشاركة و قوله{ الصَّمَدُ }الإخلاص2 يتضمن جميع صفات الكمال فالنقائص جنسها منفى عن الله تعالى و كل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التى يجب تنزيه الرب عنها بخلاف ما يوصف به الرب و يوصف العبد بما يليق به مثل العلم و القدرة و الرحمة و نحو ذلك فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعانى فإنه يثبت لله على و جه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات فضلا عن أن يماثله فيه بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل و المشارب و الملابس لا يماثل ما خلقه فى الدنيا و إن إتفقا فى الاسم و كلاهما مخلوق قال ابن عباس رضى الله عنهما ليس فى الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فقد أخبر الله أن في الجنة لبنا و خمرا و عسلا و ماء و حريرا و ذهبا و فضة و تلك الحقائق ليست مثل هذه و كلاهما مخلوق فالخالق تعالى أبعد عن مماثلة المخلوقات من المخلوق الى المخلوق و قد سمى الله نفسه عليما حليما رؤوفا رحيما سميعا بصيرا عزيزا ملكا جبارا متكبرا مؤمنا عظيما كريما غنيا شكورا كبيرا حفيظا

شهيدا حقا و كيلا و ليا و سمى أيضا بعض مخلوقاته بهذه الأسماء فسمى الإنسان سميعا بصيرا و سمى نبيه رؤوفا رحيما و سمى بعض عباده ملكا و بعضهم شكورا و بعضهم عظيما و بعضهم حليما و عليما و سائر ما ذكر من الأسماء مع العلم بأنه المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلا للخالق جل جلاله فى شيء من الأشياء و كذلك النزاع في لفظ التحيز و الجهة و نحو ذلك فمن الناس من يقول هو متحيز و هوفي جهة و منهم من يقول ليس بمتحيز و ليس فى جهة و منهم من يقول هو فى جهة و ليس بمتحيز و لفظ المتحيز يتناول الجسم و الجوهر الفرد و لفظ الجوهر قد يراد به المتحيز و قد يراد به الجوهر الفرد ومن الفلاسفة من يدعى إثبات جواهر قائمة بأنفسها غير متحيزة و متأخروا أهل الكلام كالشهر ستانى و الرازى و الآمدى و نحوهم يقولون ليس فى العقل ما يحيل ذلك و لهذا كان من سلك سبيل هؤلاء و هو إنما يثبت حدوث العالم بحدوث الأجسام يقول بتقدير و جود جواهر عقلية فليس فى هذا الدليل ما يدل على حدوثها و لهذا صار طائفة ممن خلط الكلام بالفلسفة الى قدم الجواهر العقلية و حدوث الأجسام و أن السبب الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس و بعض أعيان المصنفين كان يقول بهذا وكذلك الأرموي صاحب اللباب الذي أجاب عن شبهة الفلاسفة على دوام الفاعلية المتضمنة أنه لابد للحدوث من سبب فأجاب بالجواب الباهر الذي أخذه من كلام الرازي فى المطالب العالية فإنه أجاب به و هو في المطالب العالية العالية يخلط كلام الفلاسفة بكلام المتكلمين و هو فى مسألة الحدوث و القدم حائر و هذا الجواب من أفسد الأجوبة فإنه يقال ما الموجب لحدوث تلك التصورات دائما ثم أن النفس عندهم لابد أن تكون متصلة بالجسم فيمتنع و جود نفس بدون جسم و أيضا فالذي علم بالإضطرار من دين الرسل أن كل ما سوى الله مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن و أيضا فما تثبته الفلاسفة من الجواهر العقلية إنما يوجد فى الذهن لا فى الخارج و أما أكثر المتكلمين فقالوا انتفاء هذه معلوم بضرورة العقل و قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع و بين أن ما تدعى الفلاسفة اثباته من الجواهر العقلية التى هي العقل و النفس و المادة و الصورة فلا حقيقة لها فى الخارج و إنما هي أمور معقوله في الذهن يجردها العقل من الأمور المعينة كما يجرد العقل الكليات المشتركة بين الأصناف كالحيوانية الكلية و الإنسانية الكلية و الكليات إنما تكون كليات فى الأذهان لا فى الأعيان و من هؤلاء من يظن أنها تكون فى الخارج كليات و ان فى الخارج ماهيات كلية مقارنة للأعيان غير الموجودات المعينة و كذلك منهم من يثبت كليات مجردة عن الأعيان يسمونها المثل الأفلاطونية و منهم من يثبت دهرا مجردا عن المتحرك و الحركة و يثبت خلاءا مجردا ليس هو متحيزا و لا قائما بمتحيز و يثبت هيولى مجردة عن جميع الصور و الهيولى فى لغتهم بمعنى المحل يقال الفضة هيولى الخاتم و الدرهم و الخشب هيولى الكرسي أي هذا المحل الذي تصنع فيه هذه الصورة و هذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض و يدعون أن للجسم هيولى محل الصورة الجسمية غير نفس الجسم القائم بنفسه و هذا غلط و إنما هذا يقدر فى النفس كما يقدر امتداد مجرد عن كل ممتد و عدد مجرد عن كل معدود و مقدار مجرد عن كل مقدر و هذه كلها أمور مقدرة فى الأذهان لا و جود لها فى الأعيان و قد اعترف بذلك من عادته نصر الفلاسفة من أهل النظر كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع فالجواهر العقلية التى يثبتها هؤلاء الفلاسفة يعلم بصريح العقل بعد التصور التام انتفاؤها فى الخارج و أما الملائكة الذين أخبر الله عنهم فهذه لا يعرفها هؤلاء الفلاسفة أتباع أرسطو و لا يذكرونها بنفى و لا اثبات كما لا يعرفون النبوات و لا يتكلمون عليها بنفي و لا اثبات انما تكلم فى ذلك متأخروهم كابن سينا و أمثاله الذين أرادوا أن يجمعوا بين النبوات و بين الفلسفة فلبسوا و دلسوا وكذلك العلة الأولى التى يثبتونها لهذا العالم انما أثبتوا علة غائية يتحرك الفلك للتشبه بها و تحريكها للفلك من جنس تحريك الإمام المقتدى به للمؤتم المقتدي

اذا كان يحب أن يتشبه بإمامه و يقتدي بإمامه و لفظ الاله فى لغتهم يراد به المتبوع الإمام الذي يتشبه به فالفلك عندهم يتحرك للتشبه بالاله و لهذا جعلوا الفلسفة العليا و الحكمة الأولى إنما هي التشبه بالاله على قدر الطاقة و كلام أرسطو فى علم ما بعد الطبيعة فى مقالة اللام التى هي منتهى فلسفته و فى غيرها كله يدور على هذا و تارة يشبه تحريكه للفلك بتحريك المعشوق للعاشق لكن التحريك هنا قد يكون لمحبة العاشق ذات المعشوق أو لغرض يناله منه و حركة الفلك عندهم ليست كذلك بل يتحرك ليتشبه بالعلة الأولى فهو يحبها أي يحب التشبه بها لا يحب أن يعبدها و لا يحب شيئا يحصل منها و يشبه ذلك أرسطو بحركة النواميس لإتباعها أي اتباع الناموس قائمون بما فى الناموس و يقتدون به والناموس عندهم هي السياسة الكلية للمدائن التى و ضعها لهم ذوو الرأي و العقل لمصلحة دنياهم لئلا يتظالموا و لا تفسد دنياهم ومن عرف النبوات منهم يظن أن شرائع الأنبياء من جنس نواميسهم و أن المقصود بها مصلحة الدنيا بوضع قانون عدلي و لهذا أوجب ابن سينا و أمثاله النبوة و جعلوا النبوة لابد منها لأجل و ضع هذا الناموس و لما كانت الحكمة العملية عندهم هي الخلقية و المنزلية و المدنية جعلوا ما جاءت به الرسل من العبادت و الشرائع و الأحكام هي من جنس الحكمة الخلقية و المنزلية و المدنية فإن القوم لا يعرفون الله بل هم أبعد عن معرفته من كفار اليهود و النصارى بكثير وأرسطو المعلم الأول من أجهل الناس برب العالمين الى الغاية لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبيعية و هذا بحر علمهم و له تفرغوا و فيه ضيعوا زمانهم و أما معرفة الله تعالى فحظهم منها مبخوس جدا و أما ملائكته و أنبياؤه و كتبه و رسله و المعاد فلا يعرفون ذلك ألبتة و لم يتكلموا فيه لا بنفى و لا إثبات و انما تكلم فى ذلك متأخروهم الداخلون في الملل وأما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركا وسحرا يعبدون الكواكب والاصنام ولهذا عظمت عناياتهم بعلم الهيئة والكواكب لاجل عبادتها وكانوا يبنون لها الهياكل وكان آخر ملوكهم بطليموس صاحب المجسطى ولما دخلت الروم فى النصرانية فجاء دين المسيح صلوات الله عليه و سلامه أبطل ما كانوا عليه من الشرك ولهذا بدل من بدل دين المسيح فوضع دينا مركبا من دين الموحدين ودين المشركين فان أولئك كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب ويصلون لها ويسجدون فجاء قسطنطين ملك النصارى ومن اتبعه فابتدعوا الصلاة الى المشرق وجعلوا السجود الى الشمس بدلا عن السجود لها وكان اولئك يعبدون الاصنام المجسدة التى لها ظل فجاءت النصارى وصورت تماثيل القداديس فى الكنائس وجعلوا الصور المرقومة فى الحيطان والسقوف بدل الصور المجسدة القائمة بأنفسها التى لها ظل

وأرسطو كان و زير الإسكندر بن فيلبس المقدوني نسبة الى مقدونية و هي جزيرة هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الذين يسمون المشائين و هي اليوم خراب أو غمرها الماء و هو الذي يؤرخ له النصارى و اليهود التاريخ الرومي و كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة فيظن من يعظم هؤلاء الفلاسفة أنه كان و زير لذي القرنين المذكور فى القرآن ليعظم بذلك قدره و هذا جهل فإن ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جدا و ذو القرنين بنى سد يأجوج و مأجوج و هذا المقدوني ذهب الى بلاد فارس و لم يصل الى بلاد الصين فضلا عن السد والملائكة التى أخبر الله و رسوله بها لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ليسوا عشرة و لا تسعة و هم عباد الله أحياء ناطقون ينزلون الى الأرض و يصعدون الى السماء و لا يفعلون الا باذن ربهم كما أخبر الله عنهم بقوله {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{26} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{27} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ{28} الانبياء26-28 و قال تعالى {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى }النجم26 و أمثال هذه النصوص وهؤلاء يدعون أن العقول قديمة أزلية و أن العقل الفعال هو رب كل ما

تحت هذا الفلك و العقل الأول هو رب السموات و الأرض و ما بينهما و الملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بنى عبيد كأصحاب رسائل اخوان الصفا و غيرهم و كملاحدة المتصوفة مثل ابن عربي و ابن سبعين و غيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع أول ما خلق الله العقل و في كلام أبي حامد الغزالي فى الكتب المضنون بها على غير أهلها و غير ذلك من معانى هؤلاء قطعة كبيرة و يعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك و الملكوت و الجبروت و مراده بذلك الجسم و النفس و العقل فيأخذ هؤلاء العبارات الإسلامية و يودعونها معانى هؤلاء و تلك العبارات مقبولة عند المسلمين فاذا سمعوها قبلوها ثم اذا عرفوا المعانى التى قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الاسلام و أن هذه معانى هؤلاء الملاحدة ليست هي المعانى التى عناها محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم و اخوانه المرسلون مثل موسى و عيسى صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الإلتباس و عدم المعرفة بحقيقة ما جاء به الرسول و ما يقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم و العبادة و التصوف و من ليس له غرض في مخالفة محمد صلى الله عليه و سلم بل يحب اتباعه مطلقا و لو عرف ان هذا مخالف لما جاء به لم يقبله لكن لعدم كمال علمه بمعانى ما أخبر به الرسول و مقاصد هؤلاء يقبل هذا لا سيما اذا كان المتكلم به ممن له نصيب و افر في العلم و الكلام و التصوف و الزهد و الفقه و العبادة ورأى الطالب أن هذا مرتبته فوق مرتبة الفقهاء الذين انما يعرفون الشرع الظاهر و فوق مرتبة المحدث الذي غايته أن ينقل ألفاظا لا يعلم معانيها و كذلك المقرى و المفسر و رأى من يعظمه من أهل الكلام اما موافق لهم و إما خائف منهم و رأى بحوث المتكلمين معهم في مواضع كثيرة لم يأتوا بتحقيق يبين فساد قولهم بل تارة يوافقونهم على أصول لهم تكون فاسدة و تارة يخالفونهم فى أمر قالته الفلاسفة و يكون حقا مثل من يرى كثير من المتكلمين يخالفهم فى أمور طبيعية و رياضية ظانا أنه ينصر الشرع و يكون الشرع موافقا لما علم بالعقل مثل استدارة الأفلاك فإنه لم يعلم بين السلف خلاف في أنها مستديرة و الآثار بذلك معروفة و الكتاب و السنة قد دلا على ذلك و كذلك استحالة الأجسام بعضها الى بعض هو مما اتفق عليه الفقهاء كما قال هؤلاء الى أمور أخر لكن كثير من المتكلمين أو أكثرهم لا خبرة لهم بما دل عليه الكتاب و السنة و آثار الصحابة و التابعين لهم باحسان بل ينصر مقالات يظنها دين المسلمين بل اجماع المسلمين و لا يكون قد قالها أحد من السلف بل الثابت عن السلف مخالف لها فلما و قع بين المتكلمين تقصير و جهل كثير بحقائق العلوم الشرعية و هم فى العقليات تارة يوافقون الفلاسفة على باطلهم و تارة يخالفونهم فى حقهم صارت المناظرات بينهم دولا و ان كان المتكلمون أصح مطلقا في العقليات الإلهية و الكلية كما أنهم أقرب الى الشرعيات من الفلاسفة فإن الفلاسفة كلامهم فى الإلهيات و الكليات العقلية كلام قاصر جدا و فيه تخليط كثيروانما يتكلمون جيدا فى الأمور الحسية الطبيعية و فى كلياتها فكلامهم فيها فى الغالب جيد وأما الغيب الذي تخبر به الأنبياء و الكليات العقلية التى تعم الموجودات كلها و تقسيم الموجودات كلها قسمة صحيحة فلا يعرفونها ألبتة فإن هذا لا يكون الا ممن أحاط بأنواع الموجودات و هم لا يعرفون الا الحسيات و بعض لوازمها و هذا معرفة بقليل من الموجودات جدا فإن ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدرا و صفة مما يشهدونه بكثير و لهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة اذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة و العرش و الكرسي و الجنة و النار و هم يظنون أن لا موجود الا ما علموه هم و الفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه و إن كان هذا لا دليل عليه و ليس لهم بهذا النفي علم فإن عدم العلم ليس علما بالعدم لكن نفيهم هذا كنفى الطبيب للجن لأنه ليس فى صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن والا فليس فى علم الطب ما ينفى وجود الجن وهكذا تجد من عرف نوعا من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافيا

لما لم يعلمه وبنوا آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم اكثر من ضلالهم فيما اثبتوه وصدقوا به قال تعالى {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ }يونس39 وهذا لان الغالب على الادميين صحة الحس والعقل فاذا أثبتوا شيئا وصدقوا به كان حقا ولهذا كان التواتر مقبولا من جميع اجناس بنى آدم لانهم يخبرون عما شاهدوه وسمعوه وهذا امر لا يشترك الخلق العظيم فى الغلط فيه ولا فى تعمد الكذب فيه فاذا علم انهم لم يتواطؤا عليه ولم يأخذه بعضهم عن بعض كما تؤخذ المذاهب والآراء التى يتلقاها المتاخر عن المتقدم وقد علم ان هذا مما لا يغلط فيه عادة علم قطعها صدقهم فان المخبر اما أ ن يتعمد الكذب واما ان يغلط وكلاهما مأمون فى المتواترات بخلاف ما نفوه وكذبوا به فان غالبهم او كثيرا منهم ينفون ما لا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ما عرفه هؤلاء المتفلسفة اذا سمعوا ما أخبرت به الأنبياء من العرش و الكرسي قالوا العرش هو الفلك التاسع و الكرسي هو الثامن و قد تكلمنا على ذلك فى مسألة الاحاطة و بينا جهل من قال هذا عقلا و شرعا و اذا سمعهم يذكرون الملائكة ظن أنهم العقول و النفوس التى يثبتها المتفلسفة و القوي التى في الأجسام و كذلك الجن و الشياطين يظن أنها أعراض قائمة بالنفوس حيث كان هذا مبلغه من العلم و كذلك يظن ما ذكره ابن سينا و أمثاله من أن الغرائب فى هذا العالم سببها قوة فلكية أو طبيعية أو نفسانية و يجعل معجزات الأنبياء من باب القوى النفسانية و هي من جنس السحر لكن الساحر قصده الشر و النبى قصده الخير و هذا كله من الجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات و أنواعها و من الجهل بما جاء به الرسول فلا يعرفون من العلوم الكلية و لا العلوم الإلهية الا ما يعرفه الفلاسفة المتقدمون و زيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام أو عن أهل الملة فلهذا صار كلام المتأخرين كإبن سينا و أمثاله فى الإلهيات و الكليات أجود من كلام سلفه و لهذا قربت فلسفة اليونان الى أهل الإلحاد المبتدعة من أهل الملل لما فيها من شوب الملة و لهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة فأخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل و النفس و عن المجوس النور و الظلمة و سموه هم السابق و التالي و كذلك الملاحدة المنتسبون الى التصوف و التأله كابن سبعين و أمثاله سلكوا مسلكا جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع و الفلسفة و هم ملاحدة ليسوا من الثنتين و السبعين فرقة و قد بسط الكلام على هؤلاء و هؤلاء في غير هذا الموضع و انما ذكروا هنا لأن أهل الكلام المحدث صاروا لعدم علمهم بما علمه السلف و أئمة السنة من الكتاب و السنة و آثار الصحابة و لما و قعوا فيه من الكلاميات الباطلة يدخل بسببهم هؤلاء الفلاسفة في الإسلام أمورا باطلة و يحصل بهم من الضلال و الغي ما لا يتسع هذا الموضع لذكره و لما أحدثت الجهمية محنتهم و دعوا الناس اليها و ضرب أحمد بن حنبل فى سنة عشرين و مائتين كان مبدأ حدوث القرامطة الملاحدة الباطنية من ذلك الزمان فصارت البدع باب الالحاد كما أن المعاصي يريد الكفر و لبسط هذا موضع آخر و المقصود هنا الكلام على لفظ التحيز و الجهة و هؤلاء المتكلمون المتفلسفة صار بينهم نزاع فى الملائكة هل هي متحيزة أم لا فمن مال الى الفلسفة و رأى أن الملائكة هي العقول و النفوس التى يثبتها الفلاسفة و ان تلك ليست متحيزة قال إن الملائكة ليست متحيزة لا سيما و طائفة من الفلاسفة لم تجعل عددها عشرة عقول و تسعة نفوس كما هو المشهور عن المشائين بل قال لا دليل على نفى الزيادة و رأي النبوات قد أخبرت بكثرة الملائكة فأراد أن يثبت كثرتهم بطريقة فلسفية كما فعل ذلك أبو البركات صاحب المعتبر و الرازي في المطالب العالية و غيرهما وأما المتكلمون فإنهم يقولون إن كل ممكن أوكل محدث أو كل مخلوق فهو إما متحيز و إما قائم بمتحيز و كثير منهم يقول كل موجود إما متحيز و اما قائم بمتحيز و يقولون لا يعقل موجود الا كذلك كما قاله طوائف من أهل الكلام و النظر ثم المتفلسفة كابن سينا و أتباعه و الشهرستانى و الرازي و غيرهم لما أرادوا اثبات موجود ليس كذلك كان أكبر عمدتهم اثبات الكليات

كالإنسانية المشتركة و الحيوانية المشتركة و إذا كانت هذه لا تكون كليات الا فى الذهن فلم ينازعهم الناس فى ذلك و انما نازعوهم في اثبات موجود خارج الذهن قائم بنفسه لا يمكن الإحساس به بحال بل لا يكون معقولا و قالوا لهم المعقول ما كان فى العقل و أما ما كان موجودا قائما بنفسه فلابد أن يمكن الإحساس به و إن لم نحس نحن به فى الدنيا كما لا نحس بالجن و الملائكة و غير ذلك فلابد أن يحس به غيرنا كالملائكة و الجن و أن يحس به بعد الموت أو فى الدار الآخرة أو يحس به بعض الناس دون بعض فى الدنيا كالأنبياء الذين رأوا الملائكة و سمعوا كلامهم وهذه الطريقة و هو أن كل قائم بنفسه يمكن رؤيته هي التى سلكها أئمة النظار كابن كلاب و غيره و سلكها ابن الزاغونى و غيره و أما من قال أن كل موجود يجوز رؤيته أو يجوز أن يحس بسائر الحواس الخمس كما يقوله الأشعري و موافقوه كالقاضي أبي يعلي و أبي المعالي و غيرهما فهذه الطريقة مردودة عند جماهير العقلاء بل يقولون فسادها معلوم بالضرورة بعد التصور التام كما بسط فى موضعه و كذلك نزاعهم فى روح الإنسان التى تفارقه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون هي عين قائمة بنفسها ليست عرضا من أعراض البدن كالحياة و غيرها و لا جزءا من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه فإن كثيرا من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن أو جزء من أجزاء البدن لكن هذا مخالف للكتاب و السنة و إجماع السلف و الخلف و لقول جماهير العقلاء من جميع الأمم و مخالف للأدلة العقلية و هذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام قال القاضي أبو بكر اكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض و بهذا نقول إذا لم يعن بالروح النفس فإنه قال الروح الكائن فى الجسد ضربان أحدهما الحياة القائمة به و الآخر النفس و النفس ريح ينبث به و المراد بالنفس ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام و هذا قول الإسفرائينى و غيره و قال ابن فورك هو ما يجري في تجاويف الأعضاء و أبو المعالي خالف هؤلاء و أحسن فى مخالفتهم فقال إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتها لها فاذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار العادة و مذهب الصحابة و التابعين لهم باحسان و سائر سلف الأمة و أئمة السنة أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن و تنعم و تعذب ليست هي البدن و لا جزءا من أجزائه كالنفس المذكور و لما كان الإمام أحمد ممن نص على ذلك كما نص عليه غيره من الأئمة لم يختلف أصحابه فى ذلك لكن طائفة منهم كالقاضي أبي يعلي زعموا أنها جسم و أنها الهواء المتردد في مخاريق البدن موافقة لأحد المعنيين الذين ذكرهما ابن الباقلانى و هذه الأقوال لما كانت من أضعف الأقوال تسلط بها عليهم خلق كثير و المقصود هنا أن الذين قالوا أنها عين قائمة بنفسها غير البدن و أجزائه و أعراضه تنازعوا هل هي جسم متحيز على قولين كتنازعهم فى الملائكة فالمتكلمون منهم يقولون جسم و المتفلسفة يقولون جوهر عقلي ليس بجسم و قد أشرنا فيما تقدم الى أن ما تسمية المتفلسفة جواهر عقلية لا توجد الا في الذهن و أصل تسميتهم المجردات و المفارقات هو مأخوذ من نفس الإنسان فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت و تتجرد عنه سموها مفارقة مجردة ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول و النفوس و سموها مفارقات و مجردات بناء على ذلك و هم يريدون بالمفارق للمادة ما لا يكون جسما و لا قائما بجسم لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير و العقل و لا تعلق له بالأجسام أصلا و لا ريب أن جماهير العقلاء على اثبات الفرق بين البدن و الروح التى تفارق و الجمهور يسمون ذلك روحا و هذا جسما لكن لفظ الجسم فى اللغة ليس هو الجسم فى اصطلاح المتكلمين بل الجسم هو الجسد كما تقدم و هو الجسم الغليظ أو غلظه و الروح ليست مثل البدن فى الغلظ و الكثافة و لذلك لا تسمى جسما فمن جعل الملائكة و الأرواح و نحو ذلك ليست أجساما بالمعنى اللغوي فقد أصاب فى ذلك و رب العالمين أولى أن لا يكون جسما فانه من المشهور فى اللغة الفرق بين الأرواح و الأجسام و أما

أهل الإصطلاح من المتكلمين و المتفلسفة فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك و هو ما أمكنت الإشارة الحسية إليه و ما قيل أنه هنا و هناك و ما قبل الأبعاد الثلاثة و نحو ذلك و كذلك المتحيز في اصطلاح هؤلاء هو الجسم و يدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته و قد تقدم معنى الجسم في اللغة و أما المتحيز فقد قال تعالى {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ }الأنفال16 و قال الجوهري الحوز الجمع و كل من ضم الى نفسه شيئا فقد حازه حوزا و حيازة و احتازه أيضا و الحوز و الحيز السوق اللين و قد حاز الإبل يحوزها و يحيزها و حوز الابل ساقها الى الماء و قال الأصمعي اذا كانت الإبل بعيدة المرعى عن الماء فأول ليلة توجهها الى الماء ليلة الحوز و تحوزت الحية و تحيزت تلوت يقال مالك تتحوز تحوز الحية و تتحيز تحيز الحية قال سيبويه هو تفعل من حزت الشيء قال القطامي تحيز منى خشية أن أضيفها كما انحازت الأفعى مخافة ضارب يقول تتنحى عنى هذه العجوز و تتأخر خشية أن أنزل عليها ضيفا و الحيز ما إنضم الى الدار من مرافقها و كل ناحية حيز و أصله من الواو و الحيز تخفيف الحيز مثل هين و هين و لين و لين و الجمع أحياز و الحوزة الناحية و انحاز عنه انعدل و انحاز القوم تركوا مركزهم الى آخر يقال للأولياء انحازوا عن العدو و حاصوا و الاعداء انهزموا و ولوا مدبرين و تحاوز الفريقان فى الحرب انحاز كل فريق فهذا المذكور عن أهل اللغة فى هذا اللفظ و مادته يقتضي أن التحيز و الإنحياز و التحوز و نحو ذلك يتضمن عدولا من محل الى محل و هذا أخص من كونه يحوزه أمر موجود فهم يراعون في معنى الحوز ذهابه من جهة الى جهة و لهذا يقولون حزت المال و حزت الابل و ذلك يتضمن نقله من جهة الى جهة فالشيء المستقر فى موضعه كالجبل و الشمس و القمر لا يسمونه متحيزا و أعم من هذا أن يراد بالمتحيز ما يحيط به حيز موجود فيسمى كل ما أحاط به غيره أنه متحيز و على هذا فما بين السماء و الأرض متحيز بل ما فى العالم متحيز إلا سطح العالم الذي لا يحيط به شيء فإن ذلك ليس بمتحيز و كذلك العالم جملة ليس بمتحيز بهذا الإعتبار فإنه ليس في عالم آخر أحاط به و المتكلمون يريدون بالمتحيز ما هو أعم من هذا و الحيز عندهم أعم من المكان فالعالم كله فى حيز و ليس هو في مكان و المتحيز عندهم لا يعتبر فيه أنه يحوزه غيره و لا يكون له حيز و جودي بل كلما أشير اليه و امتاز منه شيء عن شيء فهو متحيز عندهم ثم هم مختلفون بعد هذا فى المتحيز هل هو مركب من الجواهر المنفردة أو من المادة و الصورة أو هو غير مركب لا من هذا و لا من هذا كما تقدم نزاعهم فى الجسم فالجسم عندهم متحيز و لا يخرج عنه شيء إلا الجوهر الفرد عند من أثبته و هؤلاء يعتقد كثير منهم أو أكثرهم أن كل متحيز فهو مركب أي يقبل الإنقسام الى جزء لا يتجزأ بل يظن بعضهم أن هذا إجماع المسلمين و أكثرهم يقولون المتحيزات متماثلة في الحد و الحقيقة و من كان معنى المتحيز عنده هذا فعليه أن ينزه الله تعالى أن يكون متحيزا بهذا الاعتبار و اذا قال الملائكة متحيزون بهذا الإعتبار أو الروح متحيزة بهذا الإعتبار نازعه فى ذلك جمهور العقلاء من المسلمين و غيرهم بل لا يعرف أحد من سلف الأمة و أئمتها يقول إن الملائكة متحيزة بهذا الإعتبار و لا قالوا لفظا يدل على هذا المعنى و كذلك روح بني آدم التى تفارقه بالموت لم يقل أحد من السلف إنها متحيزة بهذا الإعتبار و لا قال فيها لفظا يدل على هذا المعنى فإذا كان إثبات هذا التحيز للملائكة و الروح بدعة في الشرع و باطلا فى العقل فلأن يكون ذلك بدعة و باطلا فى رب العالمين بطريق الأولى و الأحرى ومن هنا يتبين أن عامة ما يقوله المتفلسفة و هؤلاء المتكلمة فى نفوس بني آدم و في الملائكة باطل فكيف بما يقولونه فى رب العالمين و لهذا توجد الكتب المصنفة التى يذكر فيها مقالات هؤلاء و هؤلاء فى هذه المسائل الكبار فى رب العالمين و فى ملائكته و في أرواح بنى آدم و فى المعاد و فى النبوات ليس فيها قول يطابق العقل و الشرع و لا يعرفون ما قاله السلف و الأئمة فى هذا الباب و لا ما دل عليه الكتاب و السنة

فلهذا يغلب على فضلائهم الحيرة فإنهم اذا أنهوا النظر لم يصلوا الى علم لأن ما نظروا فيه من كلام الطائفتين مشتمل على باطل من الجانبين و لهذا قال أبو عبدالله الرازي في آخر عمره لقد تأملت الطرق الكلامية و المناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا و لا تروي غليلا و رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الإثبات {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ }فاطر10 {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 و اقرأ فى النفي { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 { وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً }طه110 و من جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى وأما من اعتقد أن المتحيز هو ما باين غيره فانحاز عنه و ليس من شرطه أن يكون مركبا من الأجزاء المنفردة و لا أنه يقبل التفريق و التقسيم فإذا قال أن الرب متحيز بهذا المعنى أي أنه بائن عن مخلوقاته فقد أراد معنى صحيحا لكن إطلاق هذه العبارة بدعة و فيها تلبيس فإن هذا الذي أراده ليس معنى المتحيز فى اللغة و هو اصطلاح له و لطائفته و فى المعنى المصطلح نزاع بين العقلاء فصار يحتمل معنى فاسدا يجب تنزيه الرب عنه و ليس للإنسان أن يطلق لفظا يدل عند غيره على معنى فاسد و يفهم ذلك الغير ذلك المعنى الفاسد من غير بيان مراده بل هؤلاء المتكلمون الذين أرادوا بالمتحيز ما كان مؤلفا من أجزاء لا تقبل القسمة و هو ما كان قابلا للقسمة إذا قالوا ان كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو إما متحيز و اما قائم بمتحيز كان جماهير العقلاء يخالفونهم فى هذا التقسيم و لم يكن أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة و لا من التابعين لهم بإحسان الى يوم الدين و لا سائر أئمة المسلمين موافقا لهم على هذا التقسيم فكيف اذا قال من قال منهم كل موجود فهو اما متحيز و اما قائم بمتحيز و أراد بالمتحيز ما أراده هؤلاء فإن قوله حينئذ يكون أبعد عن الشرع و العقل من قول أولئك و لهذا طالبهم متأخروهم بالدليل على هذا الحصر و ليس خطأ هؤلاء من جهة ما أثبته المتفلسفة من الجواهر العقلية فإن تلك قد علم بطلانها بصريح العقل أيضا وما يقوله هؤلاء المتفلسفة فى النفس الناطقة من أنها لا يشار إليها و لا توصف بحركة و لا سكون و لا صعود و لا نزول و ليست داخل العالم و لا خارجه هو أيضا كلام أبطل من كلام أولئك المتكلمين عند جماهير العقلاء و لا سيما من يقول منهم كابن سينا و أمثاله أنها لا تعرف شيئا من الأمور الجزئية و إنما تعرف الأمور الكلية فإن هذا مكابرة ظاهرة فإنها تعرف بدنها و تعرف كل ما تراه بالبدن و تشمه و تسمعه و تذوقه و تقصده و تأمر به و تحبه و تكرهه الى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها و عملها فكيف يقال إنها لا تعرف الأمور المعينة و انما تعرف أمورا كلية و كذلك قولهم إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير و التصريف كتدبير الملك لمملكته من أفسد الكلام فإن الملك يدبر أمر مملكته فيأمر و ينهى و لكن لا يصرفهم هو بمشيئته و قدرته ان لم يتحركوا هم بارادتهم و قدرتهم و الملك لا يلتذ بلذة أحدهم و لا يتالم بتألمه و ليس كذلك الروح و البدن بل قد جعل الله بينهما من الإتحاد و الائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به و لكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلا لدخول شيء من الأجسام المشهودة فليس دخولها فيه كدخول الماء و نحوه من المائعات فى الأوعية فإن هذه انما تلاقي السطح الداخل من الأوعية لا بطونها و لا ظهورها و إنما يلاقي الأوعية منها أطرافها دون أوساطها و ليس كذلك الروح و البدن بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه و ظاهره و كذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام و الشراب فى بدن الآكل فإن ذلك له مجار نعروفة و هو مستحيل الى غير ذلك من صفاته و لا جريانها في البدن كجريان الدم فإن الدم يكون في بعض البدن دون بعض ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقا بالآخر بخلاف الروح و البدن لكن هي مع هذا في البدن قد و لجت فيه و تخرج منه و قت الموت و تسل منه شيئا فشيئا فتخرج من البدن شيئا فشيئا لا تفارقه كما يفارق الملك مدينته التى يدبرها و الناس لما لم يشهدوا لها نظيرا عسر عليهم التعبير عن حقيقتها و هذا تنبيه لهم على أن رب العالمين لم يعرفوا

حقيقته و لا تصوروا كيفيته سبحانه و تعالى و ان ما يضاف اليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله فإن الروح التى هي بعض عبيده توصف بأنها تعرج اذا نام الإنسان و تسجد تحت العرش و هي مع هذا فى بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية و الإنسان فى نومه يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر في بدنه فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يماثل صعود المشهودات فإنها اذا صعدت الى مكان فارقت الأول بالكلية و حركتها الى العلو حركة انتقال من مكان الى مكان و حركة الروح بعروجها و سجودها ليس كذلك فالرب سبحانه إذا و صفه رسوله صلى الله عليه و سلم بأنه ينزل الى سماء الدنيا كل ليلة و أنه يدنو عشية عرفة الى الحجاج و أنه كلم موسى في الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة و أنه { اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }فصلت11 لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان و شغل آخر فإن نزول الروح و صعودها لا يستلزم ذلك فكيف برب العالمين و كذلك الملائكة لهم صعود و نزول من هذا الجنس فلا يجوز نفي ما أثبته الله و رسوله من الأسماء و الصفات و لا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات لا سيما ما لا نشاهده من المخلوقات فإن ما ثبت لما لا نشاهده من المخلوقات من الأسماء و الصفات ليس مماثلا لما نشاهده منها فكيف برب العالمين الذي هو أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق لمخلوق و كل مخلوق فهو أشبه بالمخلوق الذي لا يماثله من الخالق بالمخلوق سبحانه و تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا و هذا الذي نبهنا عليه مما يظهر به أن ما يذكره صاحب المحصل و أمثاله من تقسيم الموجودات على رأي المتفلسفة و المتكلمة كله تقسيم غير حاصر و كل من الفريقين مقصر عن سلفه اما المتكلمون فلم يسلكوا من التقسيم المسلم الذي دل عليه الكتاب و السنة و كان عليه سلف الأمة و كذلك هؤلاء المتفلسفة اتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين فإن أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم و كانوا يقولون إن فوق هذا العالم عالما آخر يصفونه ببعض ما و صف النبى صلى الله عليه و سلم به الجنة و كانوا يثبتون معاد الأبدان كما يوجد هذا فى كلام سقراط و تاليس و غيرهما من أساطين الفلاسفة و قد ذكروا أن أول من قال منهم بقدم العالم أرسطو فصل وهذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ المركب و المؤ لف و المنقسم و نحو ذلك قد صار كل من أراد نفي شيء مما أثبته الله لنفسه من الأسماء و الصفات عبر بها عن مقصوده فيتوهم من لا يعرف مراده أن المراد تنزيه الرب الذي و رد به القرآن و هو إثبات أحديته و صمديته و يكون قد أدخل في تلك الألفاظ ما رآه هو منفيا و عبر عنه بتلك العبارة و ضعا له و إصطلاحا إصطلح عليه هو و من و افقه على ذلك المذهب و ليس ذلك من لغة العرب التى نزل بها القرآن و لا من لغة أحد من الأمم ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الأحد و الصمد و الواحد و نحو ذلك من الأسماء الموجودة فى الكتاب و السنة و يجعل ما نفاه من المعاني التى أثبتها الله و رسوله من تمام التوحيد و إسم التوحيد إسم معظم جاءت به الرسل و نزلت به الكتب فإذا جعل تلك المعانى التى نفاها من التوحيد ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول صلى الله عليه و سلم أنه يقول بالتوحيد الذي جاءت به الرسل و يسمى طائفته الموحدين كما يفعل ذلك الجهمية و المعتزلة و من و افقهم على نفي شيء من الصفات و يسمون ذلك توحيدا و طائفتهم الموحدين و يسمون علمهم علم التوحيد كما تسمى المعتزلة و من و افقهم نفي القدر عدلا و يسمون أنفسهم العدلية و أهل العدل و مثل هذه البدع كثير جدا يعبر بألفاظ الكتاب و السنة عن معان مخالفة لما أراده الله و رسوله بتلك الألفاظ و لا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها إبتداء عن الله عز و جل و رسوله صلى الله عليه و سلم بل عن شبه حصلت لهم و أئمة لهم و جعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب و السنة حجة لهم و عمدة لهم ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول صلى الله عليه و سلم

لا مخالفون له و كثير منهم لا يعرفون أن ما ذكروه مخالف للرسول صلى الله عليه و سلم بل يظن أن هذا المعنى الذي أراده هو المعنى الذي أراده الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه فلهذا يحتاج المسلمون الى شيئين أحدهما معرفة ما أراد الله و رسوله صلى الله عليه و سلم بألفاظ الكتاب و السنة بأن يعرفوا لغة القرآن التى بها نزل و ما قاله الصحابة و التابعون لهم بإحسان و سائر علماء المسلمين فى معانى تلك الألفاظ فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب و السنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ و كانت معرفة الصحابة لمعانى القرآن أكمل من حفظهم لحروفه و قد بلغوا تلك المعانى إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه فإن المعانى العامة التى يحتاج إليها عموم المسلمين مثل معنى التوحيد و معنى الواحد و الأحد و الإيمان و الإسلام و نحو ذلك كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله و رسوله صلى الله عليه و سلم من معرفته و لا يحفظ القرآن كله إلا القليل منهم و إن كان كل شيء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر و القرآن مملوء من ذكر و صف الله بأنه أحد و واحد و من ذكر أن إلهكم و احد و من ذكر أنه لا اله إلا الله و نحو ذلك فلابد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك فإن معرفته أصل الدين و هو أول ما دعا الرسول صلى الله عليه و سلم إليه الخلق و هو أول ما يقاتلهم عليه و هو أول ما أمر رسله أن يأمروا الناس به و قد تواتر عنه أنه أول ما دعا الخلق إلى أن يقولوا لا إله إلا الله و لما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله و فى الصحيحين أنه لما بعث معاذا إلى اليمن قال له إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم و الليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فإعلمهم أن الله تعالى إفترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك و كرائم أموالهم و إتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب فقال لمعاذ ليكن أول ما تدعوهم إليه التوحيد و مع هذا كانوا من أهل الكتاب كانوا يهودا فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن و هذا الذي أمر به معاذا موافق لقوله تعالى {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ }التوبة5 و فى الآية الأخرى {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }التوبة11 و هذا مطابق لقوله تعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }البينة5 و فى الصحيحين عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال الإيمان بضع و ستون أو بضع و سبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله و أدناها إماطة الأذى عن الطريق و الحياء شعبة من الإيمان فالمقصود أن معرفة ما جاء به الرسول و ما أراده بألفاظ القرآن و الحديث هو أصل العلم و الإيمان و السعادة و النجاة ثم معرفة ما قال الناس فى هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول و المعانى المخالفة لها و الألفاظ نوعان نوع يوجد في كلام الله و رسوله و نوع لا يوجد فى كلام الله و رسوله فيعرف معنى الأول و يجعل ذلك المعنى هو الأصل و يعرف ما يعنيه الناس بالثانى و يرد الى الأول هذا طريق أهل الهدى و السنة و طريق أهل الضلال و البدع بالعكس يجعلون الألفاظ التى أحدثوها و معانيها هي الأصل و يجعلون ما قاله الله و رسوله تبعا لهم فيردونها بالتأويل و التحريف إلى معانيهم و يقولون نحن نفسر القرآن بالعقل و اللغة يعنون أنهم يعتقدن معنى بعقلهم و رأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات و التفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه و لهذا قال الإمام أحمد أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل و القياس و قال يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل و القياس و هذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار و الصغار

فهي طريق الجهمية و المعتزلة و من دخل في التأويل من الفلاسفة و الباطنية الملاحدة وأما حذاق الفلاسفة فيقولون ان المراد بخطاب الرسول صلى الله عليه و سلم إنما هو أن يخيل إلى الجمهور ما ينتفعون به فى مصالح دنياهم و ان لم يكن ذلك مطابقا للحق قالوا و ليس مقصود الرسول صلى الله عليه و سلم بيان الحق و تعريفه بل مقصوده أن يخيل إليهم ما يعتقدونه و يجعلون خاصة النبوة قوة التخييل فهم يقولون أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يبين و لم يفهم بل و لم يقصد ذلك و هم متنازعون هل كان يعلم الأمورعلى ما هي عليه على قولين منهم من قال كان يعلمها لكن ما كان يمكنه بيانها و هؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف و منهم من يقول بل ما كان يعرفها أو ما كان حاذقا فى معرفتها و انما كان يعرف الأمور العملية و هؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبى صلى الله عليه و سلم لأن الأمور العملية أكمل من العلمية فهؤلاء يجعلون خبر الله و خبر الرسول صلى الله عليه و سلم إنما فيه التخييل و أولئك يقولن لم يقصد به التخييل و لكن قصد معنى يعرف بالتأويل و كثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق فى باب التوحيد فخاطب الجمهور بما يخيل لهم كما يقولون إنه لو قال

إن ربكم ليس بداخل العالم و لا خارجه و لا يشار إليه و لا هو فوق العالم و لا كذا و لا كذا لنفرت قلوبهم عنه و قالوا هذا لا يعرف قالوا فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم ربا يعبدونه و ان كان يعرف أن التجسيم باطل و هذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح و إحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم من الإثبات كما يوجد فى كلام غير و احد و تارة يقولون إنما عدل الرسول صلى الله عليه و سلم عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من غير تعريفه و يجتهدوا فى تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك و هم إجتهادهم في عقلياتهم و تأويلاتهم و لا يقولون إنه قصد به إفهام العامة الباطل كما يقول أولئك المتفلسفة و هذا قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية و المعتزلة و من سلك مسلكهم حتى إبن عقيل و أمثاله و أبو حامد و إبن رشد الحفيد و أمثالهما يوجد فى كلامهم المعنى الأول و أبو حامد إنما ذم التأويل في آخر عمره و صنف الجام العوام عن علم الكلام محافظة على هذا الأصل لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإبقاء الظواهر على ما هي عليه و إن كان هو يرى ما ذكره فى كتبه المضنون بها أن النفي هو الثابت فى نفس الأمر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان و الهدي كما و صف الله به كتابه و نبيه حيث قال { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 و قال {هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ }آل عمران138 و قال {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف2 و قال { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }العنكبوت18 و قال { كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}إبراهيم1 و أمثال ذلك و قال النبى صلى الله عليه و سلم تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك و قال تعالى{وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ }الأنعام153 و قال { قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{15} يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{16}المائدة15-16 و قال { مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 و قال { فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }الأعراف157 وثم طائفة ثالثة كثرت فى المتأخرين المنتسبين الى السنة يقولون ما يتضمن أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يكن يعرف معاني ما أنزل عليه من القرآن كآيات الصفات بل لازم قولهم أيضا أنه كان يتكلم بأحاديث الصفات و لا يعرف معانيها و هؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة و التابعين لهم بإحسان أن الوقف التام عند قوله { وَمَا

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ }آل عمران7 و افقوا السلف و أحسنوا في هذه الموافقة لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو معنى اللفظ و تفسيره أو هو التأويل الإصطلاحى الذي يجري فى كلام كثير من متأخري أهل الفقه و الأصول و هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح إلى الإحتمال المرجوح لدليل يقترن به فهم قد سمعوا كلام هؤلاء و هؤلاء فصار لفظ التأويل عندهم هذا معناه و لما سمعوا قول الله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ }آل عمران7 ظنوا أن لفظ التأويل فى القرآن معناه هو معنى لفظ التأويل فى كلام هؤلاء فلزم من ذلك أنه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص إلا الله لا جبريل و لا محمد و لا غيرهما بل كل من الرسولين على قولهم يتلو أشرف ما في القرآن من الأخبار عن الله بأسمائه و صفاته و هو لا يعرف معنى ذلك أصلا ثم كثير منهم يذمون و يبطلون تأويلات أهل البدع من الجهمية و المعتزلة و غيرهما و هذا جيد لكن قد يقولون تجرى على ظواهرها و ما يعلم تأويلها إلا الله فإن عنوا بظواهرها ما يظهر منها من المعانى كان هذا مناقضا لقولهم إن لها تأويلا يخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله و إن عنوا بظواهرها مجرد الألفاظ كان معنى كلامهم أنه يتلكم بهذه الألفاظ و لها باطن يخالف ما ظهر منها و هو التأويل و ذلك لا يعلمه إلا الله و فيهم من يريد بإجرائها على ظواهرها هذا المعنى و فيهم من يريد الأول و عامتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث و قد يريدون به الثانى فإنه أحيانا قد يفسر النص بما يوافق ظاهره و تبين من هذا أنه ليس من التأويل الثالث فيأبون ذلك و يكرهون تدبر النصوص و النظر فى معانيها أعني النصوص التى يقولون إنه لم يعلم تأويلها إلا الله ثم هم فى هذه النصوص بحسب عقائدهم فإن كانوا من القدرية قالوا النصوص المثبتة لكون العبد فاعلا محكمة و النصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريدا لكل ما و قع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله إذا كانوا ممن لا يتأولها فإن عامة الطوائف منهم من يتأول ما يخالف قوله و منهم من لا يتأوله و إن كانوا من الصفاتية المثبتين للصفات التى زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخري الكلابية كأبي المعالي فى آخر عمره و إبن عقيل فى كثير من كلامه قالوا عن النصوص المتضمنة للصفات التى لا تعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله و كثير منهم يكون له قولان و حالان تارة يتأول و يوجب التأويل أو يجوزه و تارة يحرمه كما يوجد لأبي المعالي و لإبن عقيل و لأمثالهما من إختلاف الأقوال و من أثبت العلو بالعقل و جعله من الصفات العقلية كأبي محمد إبن كلاب و أبي الحسن بن الزاغونى و من و افقه و كالقاضي أبي يعلى فى آخر قوليه و أبى محمد أثبتوا العلو و جعلوا الإستواء من الصفات الخبرية التى يقولون لا يعلم معناها إلا الله و إن كانوا ممن يري أن الفوقية و العلو أيضا من الصفات الخبرية كقول القاضي أبى بكر و أكثر الشعرية و قول القاضي أبي يعلى فى أول قوليه و إبن عقيل في كثير من كلامه و أبي بكر البيهقي و أبي المعالي و غيرهم و من سلك مسلك أولئك و هذه الأمور مبسوطة فى موضعها و المقصود هنا أن كل طائفة تعتقد من الآراء ما يناقض ما دل عليه القرآن يجعلون تلك النصوص من المتشابه ثم إن كانوا ممن يرى الوقف عند قوله و ما يعلم تأويله إلا الله قالوا لا يعلم معناها إلا الله فيلزم أن لا يكون محمد و جبريل و لا أحد علم معانى تلك الآيات و الأخبار و إن رأوا أن الوقف على قوله{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ي }آل عمران7 جعلوا الراسخين يعلمون ما يسمونه هم تأويلا و يقولون إن الرسول صلى الله عليه و سلم إنما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس فى معرفة الحق من غير جهته بعقولهم و أذهانهم و يجتهدون في تخريج ألفاظه على اللغات العربية فيجتهدون فى معرفة غرائب اللغات التى يتمكنون بها من التأويل و هذا إن قالوا أنه قصد بالقرآن و الحديث معنى حقا فى نفس الأمر و إن قالوا بقول الفلاسفة و الباطنية الذين لا يرون التأويل قالوا لم يقصد بهذه الألفاظ إلا ما يفهمه العامة

و الجمهور و هو باطل فى نفس الأمر لكن أراد أن يخيل لهم ما ينتفعون به و لم يمكنه أن يعرفهم الحق فإنهم كانوا ينفرون عنه و لا يقبلونه و أما من قال من الباطنية الملاحدة و فلاسفتهم بالتاويل فإنه يتأول كل شيء مما أخبرت به الرسل من أمر الإيمان بالله و اليوم الآخر ثم يؤولون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية وأبو حامد في الأحياء ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة و قال أنهم أسرفوا فى التأويل و اسرفت الحنابلة فى الجمود و ذكر عن أحمد بن حنبل كلاما لم يقله أحمد فإنه لم يكن يعرف ما قاله أحمد و لا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب و لا ما جاء به القرآن و الحديث و قد سمع مضافا إلى الحنابلة ما يقوله طائفة منهم و من غيرهم من المالكية و الشافعية و غيرهم فى الحرف و الصوت و بعض الصفات مثل قولهم إن الأصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية و إن الحروف المتعاقبة قديمة الأعيان و أنه ينزل إلى سماء الدنيا و يخلو منه العرش حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه و بعضها تحته إلى غير ذلك من المنكرات فإنه ما من طائفة إلا و فى بعضهم من يقول أقوالا ظاهرها الفساد و هي التى يحفظها من ينف عنهم و يشنع بها عليهم و إن كان أكثرهم ينكرها و يدفعها كما فى هذه المسائل المنكرة التى يقولها بعض أصحاب أحمد و مالك و الشافعي فإن جماهير هذه الطوائف ينكرها و أحمد و جمهور أصحابه منكرون لها و كلامهم في إنكارها و ردها كثير جدا لكن يوجد فى أهل الحديث مطلقا من الحنبلية و غيرهم من الغلط فى الإثبات أكثر مما يوجد فى أهل الكلام و يوجد فى أهل الكلام من الغلط في النفي أكثر مما يوجد فى أهل الحديث لأن الحديث إنما جاء بإثبات الصفات ليس فيه شيء من النفي الذي إنفرد به أهل الكلام و الكلام المأخوذ عن الجهمية و المعتزلة مبني على النفي المناقض لصرائح القرآن و الحديث بل و العقل الصريح أيضا لكنهم يدعون أن العقل دل على النفي و قد ناقضهم طوائف من أهل الكلام و زادوا فى الإثبات كالهشامية و الكرامية و غيرهم لكن النفي فى جنس الكلام المبتدع الذي ذمه السلف أكثر و المنتسبون إلى السنة من الحنابلة و غيرهم الذين جعلوا لفظ التأويل يعم القسمين يتمسكون بما يجدونه فى كلام الأئمة في المتشابه مثل قول أحمد فى رواية حنبل و لا كيف و لا معنى ظنوا أن مراده أنا لا نعرف معناها و كلام أحمد صريح بخلاف هذا في غير موضع و قد بين أنه إنما ينكر تأويلات الجهمية و نحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله و صنف كتابه فى الرد على الزنادقة و الجهمية فيما أنكرته من متشابه القرآن و تأولته على غير تأويله فأنكر عليهم تأويل القرآن على غير مراد الله و رسوله و هم إذا تأولوه يقولون معنى هذه الآية كذا و المكيفون يثبتون كيفية يقولون أنهم علموا كيفية ما أخبر به من صفات الرب فنفى أحمد قول هؤلاء و قول هؤلاء قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية و قول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون معناه كذا و كذا وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه كما ذكره الخلال فى كتاب السنة و كما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده فى الكتب المصنفة في ذلك فى غير هذا الموضع و بين أن لفظ التأويل فىالآية إنما أريد به التأويل فى لغة القرآن كقوله تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ }الأعراف53 و عن إبن عباس في قوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ }الأعراف53 تصديق ما و عد فى القرآن و عن قتادة تأويله ثوابه و عن مجاهد جزاءه و عن السدي عاقبته و عن إبن زيد حقيقته قال بعضهم تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب و ورود النار و قوله تعالى {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ }يونس39 قال بعضهم تصديق ما و عدوا به من الوعيد و التأويل ما يؤول اليه الأمر و عن الضحاك يعنى عاقبة ما و عد الله فى القرآن أنه كائن من الوعيد و التأويل ما يؤول إليه الأمر و قال الثعلبى تفسيره و ليس بشيء و قال الزجاج لم يكن معهم علم تأويله و قال يوسف الصديق عليه

السلام { يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ }يوسف100 فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه وقال قبل هذا { لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا }يوسف37 أي قبل أن يأتيكما التأويل و المعنى لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام لما {قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً }يوسف36 إلا نبأتكما بتأويله في اليقظة { قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا}يوسف37 الطعام هذا قول أكثر المفسرين و هو الصواب و قال بعضهم لا يأتيكما طعام ترزقانه تطعمانه و تأكلانه الا نبأتكما بتأويله بتفسيره و ألوانه أي طعام أكلتم و كم أكلتم و متى أكلتم فقالوا هذا فعل العرافين و الكهنة فقال ما أنا بكاهن و إنما ذلك العلم مما يعلمنى ربى و هذا القول ليس بشيء فإنه قال {إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ }يوسف37و قد { قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ }يوسف36 فطلبا منه تأويل ما رأياه و أخبرهما بتأويل ذاك و لم يكن تأويل الطعام فى اليقظة و لا في القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه فى اليقظة فكيف يقول قولا عاما { لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ }يوسف37 و هذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا الله و الأنبياء يخبرون ببعض ذلك لا يخبرون بكل هذا و أيضا فصفة الطعام و قدره ليس تأويلا له وأيضا فالله إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا قال يعقوب عليه السلام {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ }يوسف6 و قال يوسف عليه السلام {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ }يوسف101و قال { هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ }يوسف100 و لما رأي الملك الرؤيا قال له الذي أدكر بعد أمة { أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ }يوسف45 و الملك قال { يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ{43} قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ{44} يوسف43-44 فهذا لفظ التأويل في مواضع متعددة كلها بمعنى و احد و قال تعالى { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }النساء59 قال مجاهد و قتادة جزاء و ثوابا و قال السدي و إبن زيد و إبن قتيبة و الزجاج عاقبة و عن إبن زيد أيضا تصديقا كقوله { هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ }يوسف100 و كل هذه الأقوال صحيحة و المعنى و احد و هذا تفسير السلف أجمعين و منه قوله { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً }الكهف78 فلما ذكر له ما ذكر قال { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً }الكهف82 و هذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله و المراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول إليه ما فعلته من مصلحة أهل السفينة و مصلحة أبوي الغلام و مصلحة أهل الجدار وأما قوله بعضهم ردكم إلى الله و الرسول أحسن من تأويلكم فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم و هذا من جنس ما ذكر فى تلك الآية فى لفظ التأويل و هو تفسير له بالإصطلاح الحادث لا بلغة القرآن فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل و التفسير عندهم سواء كما يقول إبن جرير القول في تأويل هذه الآية أي فى تفسيرها و لما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد و هو إمام التفسير جعل الوقف على قوله { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ }آل عمران7 فإن الراسخين فى العلم يعلمون تفسيره و هذا القول إختيار إبن قتيبة و غيره من أهل السنة و كان إبن قتيبة يميل الى مذهب أحمد و إسحاق و قد بسط الكلام على ذلك في كتابه فى المشكل و غيره و أما متأخروا المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير و التأويل قال فمعنى التفسير هو التنوير و كشف المغلق من المراد بلفظه و التأويل صرف الآية إلى معنى تحتمله يوافق ما قبلها و ما بعدها و تكلم فى الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه إلا أن التأويل الذي ذكره هو المعنى الثالث المتأخر و أبو الفرج إبن الجوزي يقول إختلف العلماء هل التفسير و التأويل بمعنى و احد أم يختلفان فذهب قوم يميلون الى العربية الى أنهما بمعنى و هذا قول جمهور المفسرين المتقدمين و ذهب قوم يميلون الى الفقه الى إختلافهما فقالوا التفسير إخراج الشيء عن مقام الخفاء الى مقام التجلي و التأويل نقل الكلام عن

و ضعه الى ما يحتاج فى إثباته الى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ فهو مأخوذ من قولك آل الشيء الى كذا أي صار إليه فهؤلاء لا يذكرون للتأويل إلا المعنى الأول و الثانى و أما التاويل فى لغة القرآن فلا يذكرونه و قد عرف أن التأويل فى القرآن هو الموجود الذي يؤول إليه الكلام و إن كان ذلك موافقا للمعنى الذي يظهر من اللفظ بل لا يعرف في القرآن لفظ التأويل مخالفا لما يدل عليه اللفظ خلاف إصطلاح المتأخرين والكلام نوعان إنشاء و إخبار فالإنشاء الأمر و النهي و الإباحة و تأويل الأمر و النهي نفس فعل المأمور و نفس ترك المحظور كما فى الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول في ركوعه و سجوده سبحانك اللهم ربنا و بحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن فكان هذا الكلام تأويل قوله فسبح بحمد ربك و استغفره قال إبن عيينة السنة تأويل الأمر و النهي و قال أبو عبيد لما ذكر إختلاف الفقهاء و أهل اللغة فى نهي النبى صلى الله عليه و سلم عن إشتمال الصماء قال و الفقهاء أعلم بالتأويل يقول هم أعلم بتأويل ما أمر به و ما نهي عنه فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التى أمر بها و أعيان الأفعال المحظورة التى نهى عنها و تفسير كلامه ليس هو نفس ما يوجد فى الخارج بل هو بيانه و شرحه و كشف معناه فالتفسير من جنس الكلام يفسر الكلام بكلام يوضحه و اما التأويل فهو فعل المأمور به و ترك المنهى عنه ليس هو من جنس الكلام و النوع الثانى الخبر كإخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه و صفاته و إخباره عما ذكره لعباده من الوعد و الوعيد و هذا هو التأويل المذكور فى قوله{ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{52} هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ {53}الاعراف52-53 و هذا كقولهم { يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ }يس52 و مثله قوله {انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ }المرسلات29 و قوله { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{25} قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{26} فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ{27}الملك25-27 و نظائره متعددة في القرآن و كذلك قوله {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {38} بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ {39}يونس38 -39 فإن ما و عدوا به فى القرآن لما يأتهم بعد و سوف يأتيهم فالتفسير هو الإحاطة بعلمه و التأويل هو نفس ما و عدوا به إذا أتاهم فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه و لما يأتهم تأويله و قد يحيط الناس بعلمه و لما يأتهم تأويله فالرسول صلى الله عليه و سلم يحيط بعلم ما أنزل الله عليه و إن كان تأويله لم يأت بعد و فى الحديث عن النبى صلى الله عليه و سلم لما نزل قوله {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ }الأنعام65 الآية قال إنها كائنة و لم يأت تأويلها بعد قال تعالى { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ{66} لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{67} الاتعام 66-67 قال بعضهم موضع قرار و حقيقة و منتهى ينتهي إليه فيبين حقه من باطله و صدقه من كذبه و قال مقاتل لكل خبر يخبر به الله و قت و مكان يقع فيه من غير خلف و لا تأخير و قال إبن السائب لكل قول و فعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه و ما كان منه فى الآخرة فسوف يبدو لكم و سوف تعلمون و قال الحسن لكل عمل جزاء فمن عمل عملا من الخير جوزي به في الجنة و من عمل عمل سوء جوزي به فى النار و سوف تعلمون و معنى قول الحسن أن الأعمال قد و قع عليها الوعد و الوعيد فالوعد و الوعيد عليها هو النبأ الذي له المستقر فبين المعنى و لم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ و عن السدي قال {لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ}الأنعام67 أي ميعاد و عدتكموه فسيأتيكم حتى تعرفونه و عن عطاء {لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ }الأنعام67 تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه فإذا عمل ذنبه عاقبه أي لا يعاقب بالوعيد حتى يفعل الذنب الذي توعده عليه و منه قول كثير من السلف في آيات هذه ذهب تأويلها و

هذه لم يأت تأويلها مثل ما روى أبو الأشهب عن الحسن و الربيع عن أبى العالية أن هذه الاية قرئت على إبن مسعود {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ }المائدة105 الآية فقال إبن مسعود ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال إن القرآن نزل حيث نزل فمنه آي قد مضي تأويلهن قبل أن ينزلن و منه آي و قع تأويلهن على عهد النبى صلى الله عليه و سلم و منه آي و قع تأويلهن بعد النبى صلى الله عليه و سلم بيسير و منه آي يقع تأويلهن بعد اليوم و منه آي يقع تأويلهن فى آخر الزمان و منه آي يقع تأويلهن يوم القيامة ما ذكر من الحساب و الجنة و النار فما دامت قلوبكم و أهواؤكم و احدة و لم تلبسوا شيعا و لم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا و انهوا فإذا إختلفت القلوب و الأهواء و ألبستم شيعا و ذاق بعضكم بأس بعض فأمرؤ و نفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية فابن مسعود رضي الله عنه قد ذكر فى هذا الكلام تأويل الأمر و تأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر و ما ذكر من الحساب و القيامة من باب الخبر و قد تبين أن تأويل الخبر هو و جود المخبر به و تأويل الأمر هو فعل المأمور به فالآية التى مضي تأويلها قبل نزولها هي من باب الخبر يقع الشيء فيذكره الله كما ذكر ما ذكره من قول المشركين للرسول و تكذيبهم له و هي و إن مضي تأويلها فهى عبرة و معناها ثابت في نظيرها و من هذا قول إبن مسعود خمس قد مضين و منه قوله تعالى {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ }القمر1 وإذا تبين ذلك فالمتشابه من الأمر لابد من معرفة تأويله لأنه لابد من فعل المأمور و ترك المحظور و ذلك لا يمكن إلا بعد العلم لكن ليس فى القرآن ما يقتضي أن فى الأمر متشابها فإن قوله {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }آل عمران7 قد يراد به من الخبر فالمتشابه من الخبر مثل ما أخبر به فى الجنة من اللحم و اللبن و العسل و الماء و الحرير و الذهب فإن بين هذا و بين ما في الدنيا تشابه فى اللفظ و المعنى و مع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا و تلك الحقيقة لا نعلمها نحن فى الدنيا و قد قال الله تعالى {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }السجدة17 و فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر فهذا الذي و عد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله و كذلك و قت الساعة لا يعلمه إلا الله و أشراطها و كذلك كيفيات ما يكون فيها من الحساب و الصراط و الميزان و الحوض و الثواب و العقاب لا يعلم كيفيته إلا الله فإنه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة و لا له نظير مطابق من كل و جه حتى يعلم به فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل إستوائه على عرشه و سمعه و بصره و كلامه و غير ذلك فإن كيفيات ذلك لا يعلمها إلا الله كما قال ربيعة بن أبي عبدالرحمن و مالك بن أنس و سائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 كيف إستوى فقال الإستواء معلوم و الكيف مجهول و الإيمان به و اجب و السؤال عنه بدعة هذا لفظ مالك فأخبر أن الإستواء معلوم و هذا تفسير اللفظ و أخبرأن الكيف مجهول و هذا هو الكيفية التى إستأثر الله بعلمها و كذلك سائر السلف كابن الماجشون و أحمد بن حنبل و غيرهما يبينون أن العباد لا يعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فالكيف هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله و أما نفس المعنى الذي بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فإنهم يفهمون معنى السمع و معنى البصر و أن مفهوم هذا ليس هو مفهوم هذا و يعرفون الفرق بينهما و بين العليم و القدير و إن كانوا لا يعرفون كيفية سمعه و بصره بل الروح التى فيهم يعرفونها من حيث الجملة و لا يعرفون كيفيتها كذلك يعلمون معنى الإستواء على العرش و أنه يتضمن علو الرب على عرشه و إرتفاعه عليه كما فسره بذلك السلف قبلهم و هذا معنى معروف من اللفظ لا يحتمل فى اللغة غيره كما قد بسط فى موضعه و لهذا قال مالك الإستواء معلوم و من قال الإستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه فإنهم يقولون إستوى فقط و لا يصلونه بحرف و هذا له

معنى و يقولون إستوى على كذا و له معنى و إستوى الى كذا و له معنى و إستوى مع كذا و له معنى فتتنوع معانيه بحسب صلاته و أما إستوى على كذا فليس في القرآن و لغة العرب المعروفة إلا بمعنى و احد قال تعالى { فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ }الفتح29 و قال { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}هود44و قال {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ }الزخرف13 و قال {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ }المؤمنون28 و قد أتي النبى صلى الله عليه و سلم بدابة ليركبها فلما و ضع رجله فى الغرز قال بسم الله فلما إستوى على ظهرها قال الحمد لله و قال إبن عمر أهل رسول الله صلى الله عليه و سلم بالحج لما إستوى على بعيره و هذا المعنى يتضمن شيئين علوه على ما إستوى عليه و إعتداله أيضا فلا يسمون المائل على الشيء مستويا عليه و منه حديث الخليل بن أحمد لما قال إستووا و قوله ثم استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق هو من هذا الباب فإن المراد به بشر بن مروان و إستواؤه عليها أي على كرسي ملكها لم يرد بذلك مجرد الإستيلاء بل إستواء منه عليها إذ لو كان كذلك لكان عبدالملك الذي هو الخليفة قد إستوى أيضا على العراق و على سائر مملكة الإسلام و لكان عمر بن الخطاب قد إستوى على العراق و خراسان و الشام و مصر و سائر ما فتحه و لكان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد إستوى على اليمن و غيرها مما فتحه و معلوم أنه لم يوجد فى كلامهم إستعمال الإستواء في شيء من هذا و إنما قيل فيمن إستوى بنفسه على بلد فإنه مستو على سرير ملكه كما يقال جلس فلان على السرير و قعد على التخت و منه قوله {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً }يوسف100 و قوله {إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ }النمل23 وقول الزمخشري و غيره إستوى على كذا بمعنى مالك دعوى مجردة فليس لها شاهد فى كلام العرب و لو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلا فى إستواء الله على العرش لأنه أخبر أنه خلق السموات و الأرض فى ستة أيام ثم إستوى على العرش و قد أخبر أن العرش كان موجودا قبل خلق السموات و الأرض كما دل على ذلك الكتاب و السنة و حينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه فكيف يكون الإستواء عليه مؤخرا عن خلق السموات و الأرض وأيضا فهو مالك لكل شيء مستول عليه فلا يخص العرش بالإستواء و ليس هذا كتخصيصه بالربوبية في قوله { رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }التوبة129 فإنه قد يخص لعظمته و لكن يجوز ذلك فى سائر المخلوقات فيقال{ رَبُّ الْعَرْشِ }التوبة129 و{ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ }الأنعام164 و أما الإستواء فمختص بالعرش فلا يقال إستوى على العرش و على كل شيء و لا إستعمل ذلك أحد من المسلمين فى كل شيء و لا يوجد فى كتاب و لا سنة كما إستعمل لفظ الربوبية في العرش خاصة و فى كل شيء عامة و كذلك لفظ الخلق و نحوه من الألفاظ التى تخص و تعم كقوله تعالى { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2}العلق1-2 فالإستواء من الألفاظ المختصة بالعرش لا تضاف الى غيره لا خصوصا و لا عموما و هذا مبسوط في موضع آخر و إنما الغرض بيان صواب كلام السلف فى قولهم الإستواء معلوم و إنما الغرض بيان صواب كلام السلف فى قولهم الإستواء معلوم بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى كما ذكر ذلك إبن عربى المعافري يبين هذا أن سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران و مناظرتهم للنبى صلى الله عليه و سلم في أمر المسيح كما ذكر ذلك أهل التفسير و أهل السيرة و هو من المشهور بل من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبى صلى الله عليه و سلم و دعاهم إلى المباهلة المذكورة فى سورة آل عمران فأقروا بالجزية و لم يباهلوه و صدر آل عمران نزل بسبب ما جري و لهذا عامتها في أمر المسيح و ذكروا أنهم إحتجوا بما فى القرآن من لفظ و إنا و نحن و نحو ذلك على أن الآلهة ثلاثة فإتبعوا المتشابه و تركوا المحكم الذي فى القرآن من أن الإله و احد { ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ }آل عمران7 فإنهم

قصدوا بذلك الفتنة و هي فتنة القلوب بالكفر و إبتغاء تأويل لفظ إنا و نحن و ما يعلم تاويل هذه إلا الله لأن هذه الأسماء إنما تقال للواحد الذي له أعوان إما أن يكونوا شركاء له و إما أن يكونوا مماليك له و لهذا صارت متشابهة فإن الذي معه شركاء يقول فعلنا نحن كذا و أنا نفعل نحن كذا و هذا ممتنع فى حق الله تعالى و الذي له مماليك و مطيعون يطيعونه كالملك يقول فعلنا كذا أي أنا فعلت بأهل ملكى و ملكى و كل ما سوى الله مخلوق له مملوك له و هو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه و ملائكته التى هى رسله فى خلقه و أمره و هو سبحانه أحق من قال إنا و نحن بهذا الإعتبار فإن ما سواه ليس له ملك تام و لا أمر مطاع طاعة تامة فهو المستحق أن يقول إنا و نحن و الملوك لهم شبه بهذا فصار فيه أيضا من المتشابه معنى آخر و لكن الذي ينسب لله من هذا الإختصاص لا يماثله فيه شيء و تأويل ذلك معرفة ملائكته و صفاتهم و أقدارهم و كيف يدبر بهم أمر السماء و الأرض و قد قال تعالى {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }المدثر31 فهذا التأويل لهذا المتشابه لا يعلمه إلا هو و إن علمنا تفسيره و معناه لكن لم نعلم تأويله الواقع فى الخارج بخلاف قوله {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ}إبراهيم32 فإنها آية محكمة ليس فيها تشابه فإن هذا الإسم مختص بالله ليس مثل إنا و نحن التى تقال لمن له شركاء و لمن له أعوان يحتاج إليهم و الله تعالى منزه عن هذا و هذا كما قال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ }سبأ22 و قال{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً }الإسراء111 فالمعنى الذي يراد به هذا فى حق المخلوقين لا يجوز أن يكون نظيره ثابتا لله فلهذا صار متشابها وكذلك قوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }الأعراف54 فإنه قد قال {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ }هود44 و قال { فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ }الفتح29 و قال {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ}المؤمنون28 و قال {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ }الزخرف13 فهذا الإستواء كله يتضمن حاجة المستوى الى المستوى عليه و أنه لو عدم من تحته لخر و الله تعالى غني عن العرش و عن كل شيء بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش و حملة العرش و قد روى أنهم إنما أطاقوا حمل العرش لما أمرهم أن يقولوا لا حول و لا قوة إلا بالله فصار لفظ الإستواء متشابها يلزمه فى حق المخلوقين معاني ينزه الله عنها فنحن نعلم معناه و أنه العلو و الإعتدال لكن لا نعلم الكيفية التى إختص بها الرب التى يكون بها مستويا من غير إفتقار منه الى العرش بل مع حاجة العرش و كل شيء محتاج إليه من كل و جه و أنا لم نعهد فى الموجودات ما يستوى على غيره مع غناه عنه و حاجة ذلك المستوى عليه الى المستوى فصار متشابها من هذا الوجه فإن بين اللفظين و المعنيين قدرا مشتركا و بينهما قدرا فارقا هو مراد في كل منهما و نحن لا نعرف الفارق الذي إمتاز الرب به فصرنا نعرفه من و جه و نجهله من و جه و ذلك هو تأويله و الأول هو تفسيره و كذلك ما أخبر الله به في الجنة من المطاعم و المشارب و الملابس كاللبن و العسل و الخمر و الماء فإنا لا نعرف لبنا إلا مخلوقا من ماشية يخرج من بين فرث و دم و إذا بقى أياما يتغير طعمه و لا نعرف عسلا إلا من نحل تصنعه في بيوت الشمع المسدسة فليس هو عسلا مصفى و لا نعرف حريرا إلا من دود القز و هو يبلى و قد علمنا أن ما و عد الله به عباده ليس مماثلا لهذه لا فى المادة و لا فى الصورة و الحقيقة بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه و ذلك هو من التأويل الذي لا نعلمه نحن قال إبن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء لكن يقال فالملائكة قد تعلم هذا فيقال هي لا تعلم ما لم يخلق بعد و لا تعلم كل ما فى الجنة و أيضا فمن النعم ما لا تعرفه الملائكة و التأويل يتناول هذا كله و إذا قدرنا أنها تعرف ما لا نعرفه فذاك لا يكون من المتشابه عندها و يكون من المتشابه عندنا فإن المتشابه قد يراد به ما هو صفة لازمة للآية و قد يراد به ما هو

من الأمور النسبية فقد يكون متشابها عند هذا ما لا يكون متشابها عند هذا و كلام الإمام أحمد و غيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فإن أحمد ذكر فى رده على الجهمية أنها إحتجت بثلاث آيات من المتشابه قوله تعالى {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ }الأنعام و قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 و قوله {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}الأنعام103 و قد فسر أحمد قوله {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ }الأنعام3 فإذ كانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهة عندنا و هي متشابهة عند من إحتج بها و كان عليه أن يردها هو الى ما يعرفه من المحكم و كذلك قال أحمد في ترجمة كتابه الذي صنفه فى الحبس و هو الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن و تأولته على غير تأويله ثم فسر أحمد تلك الآيات آية آية فبين أنها ليست متشابهة عنده بل قد عرف معناها و على هذا فالراسخون فى العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذي هو تفسيره و أما التأويل الذي هو الحقيقة الموجودة فى الخارج فتلك لا يعلمها إلا الله و لكن قد يقال هذا المتشابه الإضافى ليس هو المتشابه المذكور في القرآن فإن ذلك قد أخبر الله أنه لا يعلم تأويله إلا الله و إنما هذا كما يشكل على كثير من الناس آيات لا يفهمون معناها و غيرهم من الناس يعرف معناها و على هذا فقد يجاب بجوابين أحدهما أن يكون فى الآية قراءتان قراءة من يقف على قوله {إِلاَّ اللّهُ }آل عمران7 و قراءة من يقف عند قوله { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ }آل عمران7 و كلتا القراءتين حق و يراد بالأولى المتشابه فى نفسه الذي إستأثر الله بعلم تأويله و يراد بالثانية المتشابه الإضافى الذي يعرف الراسخون تفسيره و هو تأويله و مثل هذا يقع في القرآن كقوله { وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ }إبراهيم46 و لتزول فيه قراءتان مشهورتان بالنفي و الإثبات و كل قراءة لها معنى صحيح و كذلك القراءة المشهورة {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً }الأنفال25 و قرأ طائفة من السلف لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة و كلا القراءتين حق فإن الذي يتعدى حدود الله هو الظالم و تارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه و قد يجعل ظالما بإعتبار ما ترك من الإنكار الواجب و على هذا قوله {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }الأعراف165 فأنجى الله الناهين و أما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا { لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً}الأعراف164 فالأكثرون على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين فأنكروا بحسب قدرتهم و أما من ترك الإنكار مطلقا فهو ظالم يعذب كما قال النبى صلى الله عليه و سلم إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه و هذا الحديث موافق للآية والمقصود هنا أنه يصح النفي و الإثبات بإعتبارين كما أن قوله{ لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً }الأنفال25 أي لا تختص بالمعتدين بل يتناول من رأى المنكر فلم يغيره و من قرأ لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة أدخل في ذلك من ترك الإنكار مع قدرته عليه و قد يراد بذلك أنهم يعذبون فى الدنيا و يبعثون على نياتهم كالجيش الذين يغزون البيت فيخسف بهم كلهم و يحشر المكره على نيته والجواب الثاني القطع بأن المتشابه المذكور فى القرآن هو تشابهها فى نفسها اللازم لها و ذاك الذي لا يعلم تأويله إلا الله و أما الإضافي الموجود فى كلام من أراد به التشابه الإضافي فمرادهم أنهم تكلموا فيما إشتبه معناه و أشكل معناه على بعض الناس و أن الجهمية إستدلوا بما إشتبه عليهم و أشكل و إن لم يكن هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله و كثيرا ما يشتبه على الرجل ما لا يشتبه على غيره ويحتمل كلام الإمام أحمد أنه لم يرد إلا المتشابه فى نفسه الذي يلزمه التشابه لم يرد بشيء منه التشابه الإضافي و قال تأولته على غير تاويله أي غير تأويله الذي هو تأويله فى نفس الأمر و إن كان ذلك التأويل لا يعلمه إلا الله و أهل العلم يعلمون أن المراد به ذلك التأويل فلا يبقى مشكلا عندهم محتملا لغيره و لهذا كان المتشابه فى الخبريات إما عن الله و إما عن الآخرة و

تأويل هذا كله لا يعلمه إلا الله بل المحكم من القرآن قد يقال له تأويل كما للمتشابه تأويل كما قال {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ }الأعراف53 و مع هذا فذلك التأويل لا يعلم و قته و كيفيته إلا الله و قد يقال بل التأويل للمتشابه لأنه فى الوعد و الوعيد و كله متشابه و أيضا فلا يلزم في كل آية ظنها بعض الناس متشابها أن تكون من المتشابه فقول أحمد إحتجوا بثلاث آيات من المتشابه و قوله ما شكت فيه من متشابه القرآن قد يقال أن هؤلاء أو أن أحمد جعل بعض ذلك من المتشابه و ليس منه فإن قول الله تعالى { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }آل عمران7 لم يرد به هنا الأحكام العام و التشابه العام الذي يشترك فيه جميع آيات القرآن و هو المذكور فى قوله { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ }هود1 و في قوله {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ }الزمر23 فوصفه هنا كله بأنه متشابه أي متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضا و هو عكس المتضاد المختلف المذكوة فى قوله { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً }النساء82 و قوله { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ{8} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ{9}الذاريات8-9 فإن هذا التشابه يعم القرآن كما أن إحكام آياته تعمه كله و هنا قد قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }آل عمران7 فجعل بعضه محكما و بعضه متشابها فصار التشابه له معنيان و له معنى ثالث و هو الإضافى يقال قد إشتبه علينا هذا كقول بنى إسرائيل {إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا}البقرة70 و إن كان فى نفسه متميزا منفصلا بعضه عن بعض و هذا من باب إشتباه الحق بالباطل كقوله صلى الله عليه و سلم في الحديث الحلال بين و الحرام بين و بين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها فليست مشتبهة على جميع الناس بل على بعضهم بخلاف ما لا يعلم تأويله إلا الله فإن الناس كلهم مشتركون فى عدم العلم بتأويله و من هذا ما يروى عن المسيح عليه السلام أنه قال الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فإتبعوه و أمر تبين غيه فاجتنبوه و أمر إشتبه عليكم فكلوه الى عالمه فهذا المشتبه على بعض الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه و يبينوا الفرق بين المشتبهين و هذا هو الذي أراده من جعل الراسخين يعلمون التأويل فإنه جعل المشتبهات في القرآن من هذا الباب الذي يشتبه على بعض الناس دون بعض و يكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه ما يعرفه بعض الناس و هذا المعنى صحيح فى نفسه لا ينكر و لا ريب أن الراسخين في العلم يعلمون ما إشتبه على غيرهم و قد يكون هذا قراءة في الآية كما تقدم من أنه يكون فيها قراءتان لكن لفظ التأويل على هذا يراد به التفسير و وجه ذلك أنهم يعلمون تأويله من حيث الجملة كما يعلمون تأويل المحكم فيعرفون الحساب و الميزان و الصراط و الثواب و العقاب و غير ذلك مما أخبر الله به و رسوله معرفة مجملة فيكونون عالمين بالتأويل و هو ما يقع في الخارج على هذا الوجه و لا يعلمونه مفصلا إذ هم لا يعرفون كيفيته و حقيقته إذ ذلك ليس مثل الذي علموه فى الدنيا و شاهدوه و على هذا يصح أن يقال علموا تأويله و هو معرفة تفسيره و يصح أن يقال لم يعلموا تأويله و كلا القراءتين حق وعلى قراءة النفي هل يقال أيضا إن المحكم له تأويل لا يعلمون تفصيله فإن قوله و ما يعلم تأويل ما تشابه منه {إِلاَّ اللّهُ }آل عمران7 لا يدل على أن غيره يعلم تأويل المحكم بل قد يقال أن من المحكم أيضا ما لا يعلم تأويله إلا الله و إنما خص المتشابه بالذكر لأن أولئك طلبوا علم تاويله أو يقال بل المحكم يعلمون تأويله لكن لا يعلمون و قت تأويله و مكانه و صفته وقد قال كثير من السلف إن المحكم ما يعمل به و المتشابه ما يؤمن به و لا يعمل به كما يجيء فى كثير من الآثار و نعمل بحكمه و نؤمن بمتشابهه و كما جاء عن إبن مسعود و غيره في قوله تعالى{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ }البقرة121 قال يحللون حلاله و يحرمون حرامه و يعملون بمحكمه و يؤمنون بمتشابهه و كلام السلف فى ذلك يدل على أن التشابه أمر إضافى فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على هذا فعلى كل أحد أن يعمل بما

إستبان له و يكل ما إشتبه عليه الى الله كقول أبي بن كعب رضي الله عنه فى الحديث الذي رواه الثوري عن مغيرة و ليس بشيء عن أبى العالية قال قيل لأبي بن كعب أوصني فقال إتخذ كتاب الله إماما إرض به قاضيا و حاكما هو الذي إستخلف فيكم رسوله شفيع مطاع و شاهد لا يتهم فيه خبر ما قبلكم و خبر ما بينكم و ذكر ما قبلكم و ذكر ما فيكم و قال سفيان عن رجل سماه عن إبن أبزي عن أبي قال فما إستبان لك فاعمل به و ما شبه عليك فآمن به و كله الى عالمه فمنهم من قال المتشابه هو المنسوخ و منهم من جعله الخبريات مطلقا فعن قتادة و الربيع و الضحاك و السدي المحكم الناسخ الذي يعمل به و المتشابه المنسوخ يؤمن به و لا يعمل به و كذلك فى تفسير العوفى عن إبن عباس و أما تفسير الوالبى عن إبن عباس فقال محكمات القرآن ناسخه و حلاله و حرامه و حدوده و فرائضه و ما يؤمن به و يعمل به و المتشابهات منسوخه و مقدمه و مؤخره و أمثاله و أقسامه و ما يؤمن به و لا يعمل به اما القول الاول فهو والله اعلم ماخوذ من قوله { فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ }الحج52 فقابل بين المنسوخ وبين المحكم وهو سبحانه انما أراد نسخ ما ألقاه الشيطان لم يرد نسخ ما أنزله لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابها لانه يشبه غيره فى التلاوة والنظم وانه كلام الله وقرآن ومعجز وغير ذلك من المعانى مع أن معناه قد نسخ ومن جعل المتشابه كل ما لا يعمل به من المنسوخ و الأقسام و الأمثال فلأن ذلك متشابه و لم يؤمر الناس بتفصيله بل يكفيهم الإيمان المجمل به بخلاف المعمول به فإنه لابد فيه من العلم المفصل و هذا بيان لما يلزم كل الأمة فإنهم يلزمهم معرفة ما يعمل به تفضيلا ليعلموا به و ما أخبروا به فليس عليهم معرفته بل عليهم الإيمان به و إن كان العلم به حسنا أو فرضا على الكفاية فليس فرضا على الأعيان بخلاف ما يعمل به ففرض على كل انسان معرفة ما يلزمه من العمل مفصلا و ليس عليه معرفة العمليات مفصلا وقد روى عن مجاهد وعكرمة المحكم ما فيه من الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضا فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور في قوله { كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ }الزمر23 والحلال مخالف للحرام وهذا على قول مجاهد إن العلماء يعلمون تأويله لكن تفسير المتشابه بهذا مع أن كل القرآن متشابه وهنا خص البعض به فيستدل به على ضعف هذا القول وكذلك قوله { فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ }آل عمران7 لو أريد بالمتشابه تصديق بعضه بعضا لكان اتباع ذلك غير محذور وليس في كونه يصدق بعضه بعضا ما يمنع ابتغاء تأويله وقد يحتج لهذا القول بقوله متشابهات فجعلها أنفسها متشابهات وهذا يقتضي أن بعضها يشبه بعضا ليست مشابهة لغيرها ويجاب عن هذا بأن اللفظ إذا ذكر فى موضعين بمعنيين صار من المتشابه كقوله إنا و نحن المذكور فى سبب نزول الآية و قد ذكر محمد بن أسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران و نزول الآية قال المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا و جها و احدا و المتشابه ما إحتمل فى التأويل أوجها و معنى هذا أن ذلك اللفظ المحكم لا يكون تأويله فى الخارج الا شيئا و احدا و أما المتشابه فيكون له تأويلات متعددة لكن لم يرد الله إلا و احدا منها و سياق الآية يدل على المراد و حينئذ فالراسخون في العلم يعلمون المراد من هذا كما يعلمون المراد من المحكم لكن نفس التأويل الذي هو الحقيقة و وقت الحوادث و نحو ذلك لا يعلمونه لا من هذا و لا من هذا و قد قيل إن نصارى نجران إحتجوا بقوله كلمة الله و روح منه و لفظ كلمة الله يراد به الكلام و يراد به المخلوق بالكلام و روح منه يراد به إبتداء الغاية و يراد به التبعيض فعلى هذا إذا قيل تأويله لا يعلمه إلا الله المراد به الحقيقة أي لا يعلمون كيف خلق عيسى بالكلمة و لا كيف أرسل إليها روحه فتمثل لها بشرا سويا و نفخ فيها من روحه و فى صحيح البخاري عن عائشة عن النبى صلى الله عليه و سلم قال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم والمقصود هنا أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاما لا معنى له و لا يجوز

أن يكون الرسول صلى الله عليه و سلم و جميع الأمة لا يعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين و هذا القول يجب القطع بأنه خطأ سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما و لا يعلمون الآخر و إذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن و بين أن يقال الراسخون في العلم يعلمون كان هذا الإثبات خيرا من ذلك النفي فإن معنى الدلائل الكثير من الكتاب و السنة و أقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه و فهمه و تدبره و هذا مما يجب القطع به و ليس معناه قاطع على أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تفسير المتشابه فإن السلف قد قال كثير منهم أنهم يعلمون تأويله منهم مجاهد مع جلالة قدره و الربيع بن أنس و محمد بن جعفر بن الزبير و نقلوا ذلك عن إبن عباس و أنه قال أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقول أحمد فيما كتبه فى الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن و تأولته على غير تأويله و قوله عن الجهمية أنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ثم تكلم على معناها دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه و أن المذموم تأويله على غير تأويله فأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمد ليس بمذموم و هذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده و هو التفسير فى لغة السلف و لهذا لم يقل أحمد و لا غيره من السلف إن فى القرآن آيات لا يعرف الرسول و لا غيره معناها بل يتلون لفظا لا يعرفون معناه و هذا القول إختيار كثير من أهل السنة منهم إبن قتيبة و أبو سليمان الدمشقي و غيرهما و إبن قتيبة هو من المنتسبين الى أحمد و إسحاق و المنتصرين لمذاهب السنة المشهورة و له في ذلك مصنفات متعددة قال فيه صاحب كتاب التحديث بمناقب أهل الحديث و هو أحد أعلام الأئمة و العلماء و الفضلاء أجودهم تصنيفا و أحسنهم ترصيفا له زهاء ثلاثمائة مصنف و كان يميل إلى مذهب أحمد و إسحاق و كان معاصرا لإبراهيم الحربي و محمد بن نصر المروزي و كان أهل المغرب يعظمونه و يقولون من إستجاز الوقيعة فى إبن قتيبة يتهم بالزندقة و يقولون كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه قلت و يقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فإنه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة وقد نقل عن إبن عباس أيضا القول الآخر و نقل ذلك عن غيره من الصحابة و طائفة من التابعين و لم يذكر هؤلاء على قولهم نصا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فصارت مسألة نزاع فترد إلى الله و إلى الرسول و أولئك إحتجوا بأنه قرن إبتغاء الفتنة بإبتغاء تأويله و بأن النبى صلى الله عليه و سلم ذم مبتغي المتشابه و قال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم و لهذا ضرب عمر بن الخطاب رضي الله عنه صبيغ بن عسل لما سأله عن المتشابه و لأنه قال { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ }آل عمران7 و لو كانت الواو و او عطف مفرد على مفرد لا و او الإستئناف التى تعطف جملة على جملة لقال و يقولون فأجاب الآخرون عن هذا بأن الله قال {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً }الحشر8 ثم قال {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ }الحشر9 ثم قال {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ }الحشر10 قالوا فهذا عطف مفرد على مفرد و الفعل حال من المعطوف فقط و هو نظير قوله {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا }آل عمران7 قالوا ولانه لو كان المراد مجرد الوصف بالايمان لم يخص الراسخين بل قال والمؤمنون يقولون امنا به فان كل مؤمن يجب عليه ان يؤمن به فلما خص الراسخين فى العم بالذكر علم انهم امتازوا بعلم تاويله فعلموه لانهم عالمون وامنوا به لانهم يؤمنون وكان ايمانهم به مع العلم اكمل فى الوصف وقد قال عقيب ذلك { وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ }آل عمران7 وهذا يدل على ان هنا تذكرا يختص به اولوا الالباب فان كان ما ثم الا الايمان بالفاظ فلا يذكر لما بدلهم على ما اريد

بالمتشابه ونظير هذا قوله فى الاية الاخرى {لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ }النساء162 فلما وصفهم بالرسوخ فى العلم وانهم يؤمنون قرن بهم المؤمنين فلو اريد هنا مجرد الايمان لقال والراسخون فى العلم والمؤمنون يقولون امنا به كما قال فى تلك الاية لما كان مراده مجرد الاخبار بالايمان جمع بين الطائفتين و أما الذم فإنما و قع على من يتبع المتشابه لإبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله و هو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح فى القرآن فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب و هي فتنتها به و يطلبون تأويله و ليس طلبهم لتأويله لأجل العلم و الإهتداء بل هذا لأجل الفتنة و كذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لإبتغاء الفتنة و هذا كمن يورد أسئلة و إشكالات على كلام الغير و يقول ماذا أريد بكذا و غرضه التشكيك و الطعن فيه ليس غرضه معرفة الحق و هؤلاء هم الذين عناهم النبى صلى الله عليه و سلم بقوله إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه و لهذا يتبعون أي يطلبون المتشابه و يقصدونه دون المحكم مثل المتبع للشيء الذي يتحراه و يقصده و هذا فعل من قصده الفتنة و أما من سأل عن معنى المتشابه ليعرفه و يزيل ما عرض له من الشبه و هو عالم بالمحكم متبع له مؤمن بالمتشابه لا يقصد فتنة فهذا لم يذمه الله و هكذا كان الصحابة يقولون رضى الله عنهم مثل الأثر المعروف الذي رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني و قد ذكره الطلمنكي حدثنا يزيد بن عبدربه ثنا بقية ثنا عتبة بن أبى حكيم ثني عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى و نية يفليه فلي الرأس يلتمس أن يجد فيه أمرا يخرج به على الناس أولئك شرارأمتهم أولئك يعمى الله عليهم سبل الهدى و رجل يقرؤه ليس فيه هوي و لا نية يفليه فلي الرأس فما تبين له منه عمل به و ما إشتبه عليه و كله إلى الله ليتفقهن فيه فقها ما فقهه قوم قط حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة فليبعثن الله له من يبين له الآية التى أشكلت عليه أو يفهمه إياها من قبل نفسه قال بقية أشهدنى إبن عيينة حديث عتبة هذا فهذا معاذ يذم من إتبع المتشابه لقصد الفتنة و أما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لابد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقها ما فقهه قوم قط قالوا و الدليل على ذلك أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة فى آية أو حديث سأل عن ذلك كما سأله عمر فقال ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت و نطوف به و سأله أيضا عمر ما بالنا نقصر الصلاة و قد أمنا و لما نزل قوله { وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ }الأنعام82 شق عليهم و قالوا أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم و لما نزل قوله {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ }البقرة284 شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك و لما قال النبى صلى الله عليه و سلم من نوقش الحساب عذب قالت عائشة ألم يقل الله {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً }الانشقاق8 قال إنما ذلك العرض قالوا و الدليل على ما قلناه إجماع السلف فإنهم فسروا جميع القرآن و قال مجاهد عرضت المصحف على إبن عباس من فاتحته الى خاتمته أقفه عند كل آية و أسأله عنها و تلقوا ذلك عن النبى صلى الله عليه و سلم كما قال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان و عبدالله بن مسعود و غيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم و العمل قالوا فتعلمنا القرآن و العلم و العمل جميعا و كلام أهل التفسير من الصحابة و التابعين شامل لجميع القرآن إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه لا لأن أحدا من الناس لا يعلمه لكن لأنه هو لم يعلمه و أيضا فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقا و لم يستثن منه شيئا لا يتدبر و لا قال لا تدبروا المتشابه و التدبر بدون الفهم ممتنع و لو كان من القرآن ما لا يتدبر لم يعرف فإن الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره وهذا أيضا مما يحتجون به و يقولون المتشابه أمر نسبى إضافى فقد يشتبه هذا ما لا يشتبه على غيره قالوا و لأن الله أخبر أن القرآن بيان و هدى و شفاء و نور و لم يستثن منه شيئا عن هذا الوصف و هذا ممتنع بدون

فهم المعنى قالوا و لأن من العظيم أن يقال أن الله أنزل على نبيه كلاما لم يكن يفهم معناه لا هو و لا جبريل بل و على قول هؤلاء كان النبى صلى الله عليه و سلم يحدث بأحاديث الصفات و القدر و المعاد و نحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم و لم يكن يعرف معنى ما يقوله و هذا لا يظن بأقل الناس وأيضا فالكلام إنما المقصود به الإفهام فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثا و باطلا و الله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل و العبث فكيف يقول الباطل و العبث و يتكلم بكلام ينزله على خلقه لا يريد به إفهامهم و هذا من أقوى حجج الملحدين وأيضا فما فى القرآن آية إلا و قد تكلم الصحابة الصحابة و التابعون لهم بإحسان فى معناها و بينوا ذلك و إذا قيل فقد يختلفون فى بعض ذلك قيل كما قد يختلفون فى آيات الأمر و النهي و آيات الأمر و النهي مما إتفق المسلمون على أن الراسخين فى العلم يعلمون معناها و هذا أيضا مما يدل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تفسير المتشابه فإن المتشابه قد يكون في آيات الأمر و النهي كما يكون في آيات الخبر و تلك مما إتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها فكذلك الأخرى فإنه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه إلا الله لا ملك و لا رسول و لا عالم و هذا خلاف إجماع المسلمين فى متشابه الأمر و النهي و أيضا فلفظ التأويل يكون للمحكم كما يكون للمتشابه كما دل القرآن و السنة و أقوال الصحابة على ذلك و هم يعلمون معنى المحكم فكذلك معنى المتشابه و أي فضيلة فى المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه و المحكم أفضل منه و قد بين معناه لعباده فأي فضيلة فى المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه و ما إستأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل به خطابا و لم يذكر فى القرآن آية تدل على و قت الساعة و نحن نعلم أن الله إستأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها و إنما النزاع في كلام أنزله و أخبر أنه هدي و بيان و شفاء و أمر بتدبره ثم يقال أن منه ما لا يعرف معناه إلا الله و لم يبين الله و لا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه و لهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران و قد إحتجوا بقوله إنا و نحن و بقوله كلمة منه و روح و هذا قد إتفق المسلمون على معرفة معناه فكيف يقال أن المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة و لا الأنبياء و لا أحد من السلف و هو من كلام الله الذي أنزله إلينا و أمرنا أن نتدبره و نعقله و أخبر أنه بيان و هدى و شفاء و نور و ليس المراد من الكلام إلا معانيه و لولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له وقد قال الحسن ما أنزل الله آية إلا و هو يحب أن يعلم فيما ذا أنزلت و ماذا عنى بها و من قال أن سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم في ألم بحساب الجمل فهذا نقل باطل أما أولا فلأنه من رواية الكلبى و أما ثانيا فهذا قد قيل أنهم قالوه فى أول مقدم النبى صلى الله عليه و سلم إلى المدينة و سورة آل عمران إنما نزل صدرها متأخرا لما قدم و فد نجران بالنقل المستفيض المتواتر و فيها فرض الحج و إنما فرض سنة تسع أو عشر لم يفرض فى أول الهجرة بإتفاق المسلمين و أما ثالثا فلأن حروف المعجم و دلالة الحرف على بقاء هذه الأمة ليس هو من تأويل القرآن الذي إستأثر الله بعلمه بل إما أن يقال أنه ليس مما أراده الله بكلامه فلا يقال أنه إنفرد بعلمه بل دعوي دلالة الحروف على ذلك باطل و إما أن يقال بل يدل عليه فقد علم بعض الناس ما يدل عليه و حينئذ فقد علم الناس ذلك 2 أما دعوي دلالة القرآن على ذلك و أن أحدا لا يعلمه فهذا هو الباطل و أيضا فإذا كانت الأمور العلمية التى أخبر الله بها فى القرآن لا يعرفها الرسول كان هذا من أعظم قدح الملاحدة فيه و كان حجة لما يقولونه من أنه كان لا يعرف الأمور العلمية أو أنه كان يعرفها و لم يبينها بل اذا القول يقتضي أنه لم يكن يعلمها فإن ما لا يعلمه إلا الله لا يعلمه النبى و لا غيره و بالجملة فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول إن فى القرآن آيات لا يعلم معناها 2 الرسول و لا غيره نعم قد يكون فى القرآن آيات لا يعلم معناها من العلماء فضلا عن غيرهم و ليس ذلك فى آية معينة بل

قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا و ذلك تارة يكون لغرابة اللفظ و تارة لإشتباه المعنى بغيره و تارة لشبهة فى نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق و تارة لعدم التدبر التام و تارة لغير ذلك من الأسباب فيجب القطع بأن قوله {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ }آل عمران7 أن الصواب قول من يجعله معطوفا و يجعل الواو لعطف مفرد على مفرد أو يكون كلا القولين حقا و هي قراءتان و التأويل المنفي غير التأويل المثبت و إن كان الصواب هو قول من يجعلها و او إستئناف فيكون التأويل المنفي علمه عن غير الله هو الكيفيات التى لا يعلمها غيره و هذا فيه نظر و إبن عباس جاء عنه أنه قال إنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وجاء عنه أن الراسخين لايعلمون تأويله وجاء عنه أنه قال التفسير على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها و تفسير لا يعذر أحد بجهالته و تفسير يعلمه العلماء و تفسير لا يعلمه إلا الله من إدعى علمه فهو كاذب و هذا القول يجمع القولين و يبين أن العلماء يعلمون من تفسيره ما لا يعلمه غيرهم و أن فيه مالايعلمه إلا الله فأما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عند قوله {إِلاَّ اللّهُ }آل عمران7 و جعل التأويل بمعنى التفسير فهذا خطأ قطعا وأما التأويل بالمعنى الثالث و هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح الى الإحتمال المرجوح فهذا الإصطلاح لم يكن بعد عرف فى عهد الصحابة بل و لا التابعين بل و لا الأئمة الأربعة و لا كان التكلم بهذا الإصطلاح معروفا في القرون الثلاثة بل و لا علمت أحدا منهم خص لفظ التأويل بهذا و لكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعا فى عرف كثير من المتأخرين فظنوا أن التأويل في الآية هذا معناه صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معاني تخالف ما يفهم منه و فرقوا دينهم بعد ذلك و صاروا شيعا و المتشابه المذكور الذي كان سبب نزول الآية لا يدل ظاهره على معنى فاسد و إنما الخطأ في فهم السامع نعم قد يقال أن مجرد هذا الخطاب لا يبين كمال المطلوب و لكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب و بين دلالته على نقيض المطلوب فهذا الثاني هو المنفي بل و ليس فى القرآن ما يدل على الباطل ألبتة كما قد بسط فى موضعه و لكن كثير من الناس يزعم أن لظاهر الآية معنى إما معنى يعتقده و إما معنى باطلا فيحتاج الى تأويله و يكون ما قاله باطلا لا تدل الآية على معتقده و لا على المعنى الباطل و هذا كثير جدا و هؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيرا ما يحتاج إلى التأويل المحدث و هو صرف اللفظ عن مدلوله إلى خلاف مدلوله ومما يحتج به من قال الراسخون فى العلم يعلمون التأويل ما ثبت فى صحيح البخارى وغيره عن ابن عباس ان النبى دعا له وقال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التاويل فقد دعا له بعلم التاويل مطلقا وابن عباس فسر القرآن كله قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من اوله الى اخره اقفه عند كل اية واساله عنها وكان يقول انا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تاويله وايضا فالنقول متواترة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه تكلم فى جميع معانى القرآن من الامر والخبر فله من الكلام فى الاسماء والصفات والوعد والوعيد والقصص ومن الكلام فى الامر والنهى والاحكام ما يبين انه كان يتكلم فى جميع معانى القرآن وايضا قد قال ابن مسعود ما من اية فى كتاب الله الا وانا اعلم فيما ذا انزلت وأيضا فانهم متفقون على ان ايات الاحكام يعلم تاويلها وهى نحو خمسمائة اية وسائر القرآن عن الله واسمائه وصفاته او عن اليوم الاخر والجنة والنار او عن القصص وعاقبة اهل الايمان وعاقبة اهل الكفر فان كان هذا هو المتشابه الذى لا يعلم معناه الا الله فجمهور القرآن لا يعرف احد معناه لا الرسول ولا احد من الامة ومعلوم ان هذا مكابرة ظاهرة وايضا فمعلوم ان العلم بتاويل الرؤيا اصعب من العلم بتاويل الكلام الذى يخبر به فان دلالة الرؤيا على تاويلها دلالة خفية غامضة لا يهتدى لها جمهور الناس بخلاف دلالة لفظا لكلام على معناه فاذا كان الله قد علم عباده تاويل الاحاديث التى يرونها فى المنام فلان يعلمهم تاويل الكلام العربى المبين الذى ينزله على انبيائه بطريق الاولى والاحرى قال يعقوب ليوسف {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ

رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ }يوسف6 وقال يوسف{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ }يوسف101 وقال {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا }يوسف37 وايضا فقد ذم الله الكفار بقوله { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{38} بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ{39} يونس38-39 وقال {وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ{83} حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{84}النمل83 -84 وهذا ذم لمن كذب بما لم يحط بعلمه فما قاله الناس من الاقوال المختلفة فى تفسير القران وتاويله ليس لاحد ان يصدق بقول دون قول بلا علم ولا يكذب بشيء منها الا ان يحيط بعلمه وهذا لا يمكن الا اذا عرف الحق الذى اريد بالاية فيعلم ان ماسواه باطل فيكذب بالباطل الذى احاط بعلمه واما اذا لم يعرف معناها ولم يحط بشيء منها علما فلا يجوز له التكذيب بشيء منها مع ان الاقوال المتناقضة بعضها باطل قطعا ويكون حينئذ المكذب بالقران كالمكذب بالاقوال المتناقضة والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم وأيضا فانه ان بنى على ما يعتقده من انه لا يعلم معانى الايات الخبرية الا الله لزمه ان يكذب كل من احتج باية من القرآن خبرية على شيء من امور الايمان بالله واليوم الاخر ومن تكلم فى تفسير ذلك وكذلك يلزم مثل ذلك فى احاديث الرسول وان قال المتشابه هو بعض الخبريات لزمه ان يبين فصلا يتبين به ما يجوز ان يعلم معناه من ايات القرآن وما لا يجوز ان يعلم معناه بحيث لا يجوز ان يعلم معناه لا ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا احد من الصحابة ولا غيرهم ومعلوم انه لا يمكن احدا ذكر حد فاصل بين ما يجوز ان يعلم معناه بعض الناس وبين ما لا يجوز ان يعلم معناه احد ولو ذكر ما ذكر انتقض عليه فعلم ان المتشابه ليس هو الذى لا يمكن احدا معرفة معناه وهذا دليل مستقل فى المسالة وأيضا فقوله { لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ }يونس39 {أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً}النمل84 ذم لهم على عدم الإحاطة مع التكذيب و لو كان الناس كلهم مشتركين في عدم الإحاطة بعلم المتشابه لم يكن في ذمهم بهذا الوصف فائدة و لكان الذم على مجرد التكذيب فإن هذا بمنزلة أن يقال أكذبتم بما لم تحيطوا به علما و لا يحيط به علما إلا الله و من كذب بما لا يعلمه إلا الله كان أقرب إلى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس فلو لم يحط بها علما الراسخون كان ترك هذا الوصف أقوى في ذمهم من ذكره و يتبين هذا بوجه آخر هو دليل في المسألة و هو أن الله ذم الزائغين بالجهل و سوء القصد فإنهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله و لا يعلم تأويله إلا الراسخون فى العلم و ليسوا منهم و هم يقصدون الفتنة لا يقصدون العلم و الحق و هذا و هذا كقوله تعالى {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ }الأنفال23 فإن المعنى بقوله {لَّأَسْمَعَهُمْ }الأنفال23 فهم القرآن يقول لو علم الله فيهم حسن قصد و قبولا للحق لأفهمهم القرآن لكن لو أفهمهم لتولوا عن الإيمان و قبول الحق لسوء قصدهم فهم جاهلون ظالمون كذلك الذين فى قلوبهم زيغ هم مذمومون بسوء القصد مع طلب علم ما ليسوا من أهله و ليس إذا عيب هؤلاء على العلم و منعوه يعاب من حسن قصده و جعله الله من الراسخين فى العلم فإن قيل فأكثر السلف على أن الراسخين فى العلم لا يعلمون التأويل و كذلك أكثر أهل اللغة يروى هذا عن إبن مسعود و أبي إبن كعب و إبن عباس و عروة و قتادة و عمر بن عبدالعزيز و الفراء و أبي عبيد و ثعلب و إبن الأنباري قال إبن الأنباري فى قراءة عبدالله إن تأويله إلا عند الله و الراسخون فى العلم و فى قراءة أبي و إبن عباس و يقول الراسخون فى العلم قال و قد أنزل الله فى كتابه أشياء إستأثر بعلمها كقوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ }الأحزاب63 و قوله {وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً }الفرقان38 فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد و يكفر به الكافر فيشقى قال إبن الأنباري و الذي روى القول الآخر عن مجاهد هو

إبن أبي نجيح و لا تصح روايته التفسير عن مجاهد فيقال قول القائل أن أكثر السلف على هذا قول بلا علم فإنه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قال أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه و عن إبن أبي مليكة عن عائشة أنها قالت كان رسوخهم فى العلم أن آمنوا بمحكمه و بمتشابهه و لا يعلمونه فقد روى البخاري عن إبن أبي مليكة عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها الحديث المرفوع في هذا و ليس فيه هذه الزيادة و لم يذكر أنه سمعها من القاسم بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون كما تقدم حديث معاذ بن جبل فى ذلك و كذلك نحوه عن إبن مسعود و إبن عباس و أبي بن كعب و غيرهم و ما ذكر من قراءة إبن مسعود و أبي بن كعب ليس لها إسناد يعرف حتى يحتج بها و المعروف عن إبن مسعود أنه كان يقول ما في كتاب الله آية إلا و أنا أعلم فيما ذا أنزلت و ماذا عني بها و قال أبو عبدالرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان و عبدالله بن مسعود و غيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم و العمل و هذا أمر مشهور رواه الناس عن عامة أهل الحديث و التفسير و له إسناد معروف بخلاف ما ذكر من قراءتها و كذلك إبن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله و قد صح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه دعا له يعلم تأويل الكتاب فكيف لا يعلم التأويل مع أن قراءة عبدالله إن تأويله إلا عند الله لا تناقض هذا القول فإن نفس التأويل لا يأتى به إلا الله كما قال تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ }الأعراف53 و قال {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ }يونس39

وقد إشتهر عن عامة السلف أن الوعد و الوعيد من المتشابه و تأويل ذلك هو مجيء الموعود به و ذلك عند الله لا يأتى به إلا هو و ليس في القرآن إن علم تأويله إلا عند الله كما قال فى الساعة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ {187} قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ {188} الأعراف187-188 و كذلك لما قال فرعون لموسى { فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى{51} قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى{52}طه521-52 فلو كانت قراءة إبن مسعود تقتضي نفي العلم عن الراسخين لكانت إن علم تأويله إلا عند الله لم يقرأ أن تأويله إلا عند الله فإن هذا حق بلا نزاع و أما القراءة الأخرى المروية عن أبي و إبن عباس فقد نقل عن إبن عباس ما يناقضه و أخص أصحابه بالتفسير مجاهد و على تفسير مجاهد يعتمد أكثر الأئمة كالثوري و الشافعي و أحمد بن حنبل و البخاري قال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به و الشافعى في كتبه أكثر الذي ينقله عن إبن عيينة عن إبن أبي نجيح عن مجاهد و كذلك البخاري فى صحيحه يعتمد على هذا التفسير وقول القائل لا تصح رواية إبن أبي نجيح عن مجاهد جوابه أن تفسير إبن أبي نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير بل ليس بأيدى أهل التفسير كتاب فى التفسير أصح من تفسير إبن أبي نجيح عن مجاهد إلا أن يكون نظيره فى الصحة ثم معه ما يصدقه و هو قوله عرضت المصحف على إبن عباس أقفه عند كل آية و أسأله عنها و أيضا فأبي بن كعب رضي الله عنه قد عرف عنه أنه كان يفسر ما تشابه من القرآن كما فسر قوله{ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا }مريم17 و فسر قوله {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }النور35 و قوله {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ }الأعراف172 و غير ذلك و نقل ذلك معروف عنه بالإسناد أثبت من نقل هذه القراءة التى لا يعرف لها إسناد و قد كان يسئل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر و سئل عن ليلة القدر و أما قوله أن الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن فيقال هذا حق لكن هل فى الكتاب و السنة أو قول أحد من السلف أن الأنبياء و الملائكة و الصحابة لا يفهمون ذلك الكلام

المجمل أم العلماء متفقون على أن المجمل فى القرآن يفهم معناه و يعرف ما فيه من الإجمال كما مثل به من و قت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذي أخبر الله به عن الساعة و أنها آتية لا محالة و أن الله إنفرد بعلم و قتها فلم يطلع على ذلك أحدا و لهذا قال النبى صلى الله عليه و سلم لما سأله السائل عن الساعة و هو في الظاهر أعرابي لا يعرف قال له متى الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل و لم يقل أن الكلام الذي نزل في ذكرها لا يفهمه أحد بل هذا خلاف إجماع المسلمين بل و العقلاء فإن أخبار الله عن الساعة و أشراطها كلام بين و اضح يفهم معناه و كذلك قوله { وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً }الفرقان38 قد علم المراد بهذا الخطاب و أن الله خلق قرونا كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله كما قال {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ }المدثر31 فأي شيء فى هذا مما يدل على أن ما أخبر الله به من أمر الإيمان بالله و اليوم الآخر لا يفهم معناه أحد لا من الملائكة و لا من الأنبياء و لا الصحابة و لا غيرهم و أما ما ذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقه أنه كان لا يفسر عامة آي القرآن إلا آيات قليلة رواها عن عائشة و معلوم أنه إذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم أنه لا يعرفه غيره من الخلفاء الراشدين و علماء الصحابة كإبن مسعود و أبي بن كعب و إبن عباس و غيرهم و أما اللغويون الذين يقولون أن الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون فى ذلك فإن هؤلاء كلهم يتكلمون فى تفسير كل شيء في القرآن و يتوسعون في القول فى ذلك حتى ما منهم أحد إلا و قد قال فى ذلك أقوالا لم يسبق إليها و هي خطأ و إبن الأنباري الذي بالغ فى نصر ذلك القول هو أكثر الناس كلاما فى معاني الآي المتشابهات يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف و يحتج لما يقوله فى القرآن بالشاذ من اللغة و قصده بذلك الإنكار على إبن قتيبة و ليس هو أعلم بمعانى القرآن و الحديث و إتبع للسنة من إبن قتيبة و لا أفقه في ذلك و إن كان إبن الأنباري من أحفظ الناس للغة لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة وقد نقم هو و غيره على إبن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسيره غريب الحديث و إبن قتيبة قد إعتذر عن ذلك و سلك فى ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم و هو و أمثاله يصيبون تارة و يخطئون أخرى فإن كان المتشابه لا يعلم معناه إلا الله فهم كلهم يجترئون على الله يتكلمون في شيء لا سبيل إلى معرفته و إن كان ما بينوه من معانى المتشابه قد أصابوا فيه و لو فى كلمة و احدة ظهر خطؤهم فى قولهم أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله و لا يعلمه أحد من المخلوقين فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا و معلوم أنهم أصابوا في شيء كثير مما يفسرون به المتشابه و أخطأوا فى بعض ذلك فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقينى فإنهم أصابوا فى كثير من تفسير المتشابه و كذلك ما نقل عن قتادة من أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه فكتابه في التفسير من أشهر الكتب و نقله ثابت عنه من رواية معمر عنه و رواية سعيد بن أبي عروبة عنه و لهذا كان المصنفون فى التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل عنه و مع هذا يفسر القرآن كله محكمه و متشابهه و الذي إقتضي شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع كالجهمية و القدرية من المعتزلة و غيرهم فصار أولئك يتكلمون في تأويل القرآن برأيهم الفاسد و هذا أصل معروف لأهل البدع أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلي و تأويلهم اللغوي فتفاسير المعتزلة مملوءة بتأويل النصوص المثبتة للصفات و القدر على غير ما أراده الله و رسوله فإنكار السلف و الأئمة هو لهذه التأويلات الفاسدة كما قال الإمام أحمد في ما كتبه فى الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن و تأولته على غير تأويله فهذا الذي أنكره السلف و الأئمة من التأويل فجاء بعدهم قوم إنتسبوا إلى السنة بغير خبرة تامة بها و بما يخالفها ظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله فظنوا أن معنى التأويل هو معناه في إصطلاح المتأخرين و هو صرف اللفظ عن الإحتمال الراجح الى المرجوح فصاروا في موضع يقولون و

ينصرون أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ثم يتناقضون في ذلك من و جوه أحدها أنهم يقولون النصوص تجري على ظواهرها و لا يزيدون على المعنى الظاهر منها و لهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر و يقرون المعنى الظاهر و يقولون مع هذا أن له تأويلا لا يعلمه إلا الله و التأويل عندهم ما يناقض الظاهر فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر و قد قرر معناه الظاهر و هذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ذلك إبن عقيل على شيخه القاضي أبي يعلى و منها أنا و جدنا هؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بنص يخالف قولهم لا فى مسألة أصلية و لا فرعية إلا تأولوا ذلك النص بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات الجهمية و القدرية للنصوص التى تخالفهم فأين هذا من قولهم لا يعلم معاني النصوص المتشابهة إلا الله تعالى و إعتبر هذا بما تجده في كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة في مسائل الصفات و القرآن و القدر إذا إحتجت المعتزلة على قولهم بالآيات التى تناقض قول هؤلاء مثل أن يحتجوا بقول { وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ }البقرة205 { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْر }الزمر7 {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}الأنعام103 {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ }البقرة30 و نحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد و إن كان فى بعضها حق فإن كان ما تأولوه حقا دل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل المتشابه فظهر تناقضهم و إن كان باطلا فذلك أبعد لهم وهذا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة الصابر فى المحنة الذي قد صار للمسلمين معيارا يفرقون به بين أهل السنة و البدعة لما صنف كتابه فى الرد على الزنادقة و الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن و تأولته على غير تأويله تكلم على معانى المتشابه الذي إتبعه الزائغون إبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله آية آية و بين معناها و فسرها ليبين فساد تأويل الزائغين و إحتج على أن الله يري و أن القرآن غير مخلوق و أن الله فوق العرش بالحجج العقلية و السمعية و رد ما إحتج به النفاة من الحجج العقلية و السمعية و بين معاني الآيات التى سماها هو متشابهة و فسرها آية آية و كذلك لما ناظروه و إحتجوا عليه بالنصوص جعل يفسرها آية آية و حديثا حديثا و يبين فساد ما تأولها الزائغون و يبين هو معناها و لم يقل أحمد إن هذه الآيات و الأحاديث لا يفهم معناها إلا الله و لا قال أحد له ذلك بل الطوائف كلها مجتمعة على إمكان معرفة معناها لكن يتنازعون في المراد كما يتنازعون فى آيات الأمر و النهي و كذلك كان أحمد يفسر المتشابه من الآيات و الأحاديث التى يحتج بها الزائغون من الخوارج و غيرهم كقوله لا يزنى الزانى حين يزنى و هو مؤمن و لا يسرق السارق حين يسرق و هو مؤمن و لا يشرب الشارب الخمر حين يشرب و هو مؤمن و أمثال ذلك و يبطل قول المرجئة و الجهمية و قول الخوارج و المعتزلة و كل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها و لم يقل أحد لا من أهل السنة و لا من هؤلاء لما يستدل به هو أو يستدل به عليه منازعه هذه آيات و أحاديث لا يعلم معناها أحد من البشر فأمسكوا عن الإستدلال بها و كان الإمام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم و تأويلهم من غير إستدلال بسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم و أقوال الصحابة و التابعين الذين بلغهم الصحابة معاني القرآن كما بلغوهم ألفاظه و نقلوا هذا كما نقلوا هذا لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله و رسوله و يدعون أن هذا هو التأويل الذي يعلمه الراسخون و هم مبطلون فى ذلك لا سيما تأويلات القرامطة و الباطنية الملاحدة و كذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية و القدرية و غيرهم و لكن هؤلاء يعترفون بأنهم لا يعلمون التأويل و إنما غايتهم أن يقولو ظاهرهذه الآية غير مراد و لكن يحتمل أن يراد كذا و أن يراد كذا و لو تأولها الواحد منهم بتأويل معين فهو لا يعلم أنه مراد الله و رسوله بل يجوز أن يكون مراد الله و رسوله عندهم غيرذلك كالتأويلات التى يذكرونها في نصوص الكتاب كما يذكرونه فى قوله

{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 و ينزل ربنا و {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 {وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً }النساء164 {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ }الفتح6 و {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 و أمثال ذلك من النصوص فإن غاية ما عندهم يحتمل أن يراد به كذا و يجوز كذا و نحو ذلك و ليس هذا علما بالتأويل و كذلك كل من ذكر فى نص أقوالا و إحتمالات و لم يعرف المراد فإنه لم يعرف تفسير ذلك و تأويله و إنما يعرف ذلك من عرف المراد و من زعم من الملاحدة أن الأدلة السمعية لا تفيد العلم فمضمون مدلولاته لا يعلم أحد تفسير المحكم و لا تفسير المتشابه و لا تأويل ذلك و هذا إقرار منه على نفسه بأنه ليس من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه فضلا عن تأويل المحكم فإذا إنضم إلى ذلك أن يكون كلامهم فى العقليات فيه من السفسطة و التلبيس ما لا يكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لا معرفة بالسمعيات و لا بالعقليات و قد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك10 و مدح الذين إذا ذكروا بآياته لم يخروا عليها صما و عميانا و الذين يفقهون و يعقلون و ذم الذين لا يفقهون و لا يعقلون فى غير موضع من كتابه و أهل البدع المخالفون للكتاب و السنة يدعون العلم و العرفان و التحقيق و هم من أجهل الناس بالسمعيات و العقليات و هم يجعلون ألفاظا لهم مجملة متشابهة تتضمن حقا و باطلا يجعلونها هي الأصول المحكمة و يجعلون ما عارضها من نصوص الكتاب و السنة من المتشابه الذي لا يعلم معناه عندهم إلا الله و ما يتأولونه بالإحتمالات لا يفيد فيجعلون البراهين شبهات و الشبهات براهين كما قد بسط ذلك في موضع آخر و قد نقل القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد أنه قال المحكم ما إستقل بنفسه و لم يحتج الى بيان و المتشابه ما إحتاج الى بيان و كذلك قال الإمام أحمد في رواية و الشافعي قال المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا و جها و احدا و المتشابه ما إحتمل من التأويل و جوها و كذلك قال الإمام أحمد و كذلك قال إبن الأنباري المحكم ما لم يحتمل من التأويل إلا و جها و احدا و المتشابه الذي تعتوره التأويلات فيقال حينئذ فجميع الأمة سلفها و خلفها يتكلمون فى معاني القرآن التى تحتمل التأويلات و هؤلاء الذين ينصرون أن الراسخين فى العلم لا يعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاما فيه و الأئمة كالشافعي و أحمد و من قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معانى و يرجحون بعضها على بعض بالأدلة فى جميع مسائل العلم الأصولية و الفروعية لا يعرف عن عالم من علماء المسلمين أنه قال عن نص إحتج به محتج في مسألة أن هذا لا يعرف أحد معناه فلا يحتج به و لو قال أحد ذلك لقيل له مثل ذلك و إذا إدعى فى مسائل النزاع المشهورة بين الأئمة أن نصه محكم يعلم معناه و أن النص الآخر متشابه لا يعلم أحد معناه قوبل بمثل هذه الدعوى و هذا بخلاف قولنا أن من النصوص ما معناه جلى و اضح ظاهر لا يحتمل إلا و جها و احدا لا يقع فيه إشتباه و منها ما فيه خفاء و إشتباه يعرف معناه الراسخون في العلم فإن هذا تفسير صحيح و حينئذ فالخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال أنه يعرف معناه يبين حجته على ذلك وأيضا فما ذكره السلف و الخلف فى المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال أن المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف و هذا القول مأثور عن إبن مسعود و إبن عباس و قتادة و السدي و غيرهم و إبن مسعود و إبن عباس و قتادة هم الذين نقل عنهم أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله و معلوم قطعا بإتفاق المسلمين أن الراسخين يعلمون معنى المنسوخ و أنه منسوخ فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل و يدل على أنه كذب إن كان هذا صدقا و إلا تعارض النقلان عنهم و المنقول عنهم أن الراسخين يعلمون معنى المتشابه و القول الثانى مأثور عن جابر بن عبد الله أنه قال المحكم ما علم العلماء تأويله و المتشابه ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة و معلوم أن و قت قيام الساعة مما إتفق المسلمون على أنه لا يعلمه الا الله فإذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به لا يعلم و قت تأويله إلا الله

و هذا حق و لا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك و كذلك إن أريد بالتأويل حقائق ما يوجد و قيل لا يعلم كيفية ذلك إلا الله فهذا قد قدمناه و ذكر أنه على قول هؤلاء من و قف عند قوله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ }آل عمران7 هو الذي يجب أن يراد بالتأويل و إما أن يراد بالتأويل التفسير و معرفة المعنى و يوقف على قوله إلا الله فهذا خطأ قطعا مخالف للكتاب و السنة و إجماع المسلمين ومن قال ذلك من المتأخرين فإنه متناقض يقول ذلك و يقول ما يناقضه و هذا القول يناقض الإيمان بالله و رسوله من و جوه كثيرة و يوجب القدح في الرسالة و لا ريب أن الذي قالوه لم يتدبروا لوازمه و حقيقته بل أطلقوه و كان أكبر قصدهم دفع تأويلات أهل البدع للمتشابه و هذا الذي قصدوه حق و كل مسلم يوافقهم عليه لكن لا ندفع باطلا بباطل آخر و لا نرد بدعة ببدعة و لا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بأن يقال الرسول صلى الله عليه و سلم و الصحابة كانوا لا يعرفون تفسير ما تشابه من القرآن ففي هذا من الطعن فى الرسول و سلف الأمة ما قد يكون أعظم من خطأ طائفة فى تفسير بعض الآيات و العاقل لا يبنى قصرا و يهدم مصرا والقول الثالث أن المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور يروى هذا عن إبن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الإسمية و الفعلية و انما هي أسماء موقوفة و لهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد و التركيب و إنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث و لهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها في النطق أسماء و لهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاى من زيد قالوا زا قال نطقتم بالإسم و إنما النطق بالحرف زه فهي فى اللفظ أسماء و فى الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبى صلى الله عليه و سلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم حرف و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و الح لغة الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسما و فعلا و حرفا و لهذا قال سيبويه فى تقسيم الكلام

إسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الإسم حرف و الفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل و هذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام و أما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد و ينطق بها غير معربة و لا يقال فيها معرب و لا مبنى لأن ذلك إنما يقال في المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم ثم يقال هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا و هي المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى و هذا المطلوب وأيضا فإن الله تعالى قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }آل عمران7و هذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء و إنما يعدها آيات الكوفيون و سبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابه و لكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء و الرابع أن المتشابه ما إشتبهت معانيه قال مجاهد و هذا يوافق قول أكثر العلماء و كلهم يتكلم فى تفسير هذا المتشابه و يبين معناه والخامس أن المتشابه ما تكررت ألفاظه قاله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال المحكم ما ذكر الله تعالى فى كتابه من قصص الأنبياء ففصله و بينه و المتشابه هو ما إختلفت ألفاظه فى قصصهم عند التكرير كما قال فى موضع من قصة نوح { احْمِلْ فِيهَا }هود40 و قال فى موضع آخر { فَاسْلُكْ فِيهَا }المؤمنون27 و قال فى عصي موسى { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى }طه20 و فى موضع آخر { فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ }الأعراف107 و صاحب هذا القول جعل المتشابه إختلاف اللفظ مع إتفاق المعنى كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ و قد صنف بعضهم فى هذا المتشابه لأن القصة

الواحدة يتشابه معناها فى الموضعين فإشتبه على القارئ أحد اللفظين بالآخر و هذا التشابه لا ينفى معرفة المعاني بلا ريب و لا يقال فى مثل هذا أن الراسخين يختصون بعلم تأويله فهذا القول إن كان صحيحا كان حجة لنا و إن كان ضعيفا لم يضرنا والسادس أنه ما إحتاج إلى بيان كما نقل عن أحمد والسابع أنه ما إحتمل و جوها كما نقل عن الشافعي و أحمد و قد روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن و جوها و قد صنف الناس كتب الوجوه و النظائر فالنظائر اللفظ الذي إتفق معناه فى الموضعين و أكثر و الوجوه الذي إختلف معناه كما يقال الأسماء المتواطئة و المشتركة و إن كان بينهما فرق و لبسطه موضع آخر

وقد قيل هي نظائر فى اللفظ و معانيها مختلفة فتكون كالمشتركة و ليس كذلك بل الصواب أن المراد بالوجوه و النظائر هو الأول و قد تكلم المسلمون سلفهم و خلفهم فى معانى الوجوه و فيما يحتاج الى بيان و ما يحتمل و جوها فعلم يقينا أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه و علم أن من قال إن من القرآن ما لا يفهم أحد معناه و لا يعرف معناه إلا الله فإنه مخالف لاجماع الأمة مع مخالفته للكتاب و السنة و الثامن أن المتشابه هو القصص و الأمثال و هذا أيضا يعرف معناه و التاسع أنه ما يؤمن به و لا يعمل به و هذا أيضا مما يعرف معناه و العاشر قول بعض المتأخرين إن المتشابه آيات الصفات و أحاديث الصفات و هذا أيضا مما يعلم معناه فإن أكثر آيات الصفات إتفق المسلمون على أنه يعرف معناها و البعض الذي تنازع الناس فى معناه إنما ذم السلف منه تأويلات الجهمية و نفوا علم الناس بكيفيته كقول مالك الإستواء معلوم و الكيف مجهول و الإيمان به و اجب و السؤال عنه بدعة و كذلك قال سائر أئمة السنة و حينئذ ففرق بين المعنى المعلوم و بين الكيف المجهول فإن سمى الكيف تأويلا ساغ أن يقال هذا التأويل لا يعلمه إلا الله كما قدمناه أولا و أما إذا جعل معرفة المعنى و تفسيره تأويلا كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلا و قيل أن النبى صلى الله عليه و سلم و جبريل و الصحابة و التابعين ما كانوا يعرفون معنى قوله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }طه5 و لا يعرفون معنى قوله { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }ص75 و لا معنى قوله {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ }الفتح6 بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمي الذي لا يفهمه العربي و كذلك إذا قيل كان عندهم قوله تعالى {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ }الزمر67 و قوله {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ }الأنعام103 و قوله { وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً }النساء134 و قوله {رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ }المائدة119 و قوله {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ }محمد28 و قوله { وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }البقرة195 و قوله {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ }التوبة105 و قوله {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً }الزخرف3 و قوله { فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ }التوبة6 و قوله {فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا }النمل8 و قوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ }البقرة210 و قوله {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 و قوله {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ }الأنعام158 و قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ }فصلت11 و قوله{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }يس82 الى أمثال هذه الآيات فمن قال عن جبريل و محمد صلوات الله و سلامه عليهما و عن الصحابة و التابعين لهم بإحسان و أئمة المسلمين و الجماعة أنهم كانوا لا يعرفون شيئا من معاني هذه الآيات بل إستاثر الله بعلم معناها كما إستاثر بعلم و قت الساعة و إنما كانوا يقرأون ألفاظا لا يفهمون لها معنى كما يقرأ الإنسان كلاما لا يفهم منه شيئا فقد كذب على القوم و النقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا و أنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن و إن كان كنه الرب عز و جل لا يحيط به العباد

و لا يحصون ثناءا عليه فذاك لا يمنع أن يعلموا من أسمائه و صفاته ما علمهم سبحانه و تعالى كما أنهم إذا علموا أنه بكل شيء عليم و أنه على كل شيء قدير لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه و قدرته و إذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته وهذا مما يستدل به على أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل فإن الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم و معلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فى الآيات المحكمات فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لا ينفى العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام و بيان معناه بل يعلمون تأويل المحكم و المتشابه ولا يعرفون كيفية الرب لا فى هذا و لا في هذا فإن قيل هذا يقدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذي يراد به التفسير و بين التأويل الذي فى كتاب الله تعالى قيل لا يقدح فى ذلك فإن معرفة تفسير اللفظ و معناه و تصور ذلك فى القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة فى الخارج المرادة بذلك الكلام فإن الشيء له و جود فى الأعيان و وجود في الأذهان و وجود في اللسان و وجود فى البنان فالكلام لفظ له معنى فى القلب و يكتب ذلك اللفظ بالخط فإذا عرف الكلام و تصور معناه فى القلب و عبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة فى الخارج و ليس كل من عرف الأول عرف عين الثانى مثال ذلك أن أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه و سلم و خبره و نعته و هذا معرفة الكلام و معناه و تفسيره و تأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام و كذلك الإنسان قد يعرف الحج و المشاعر كالبيت و المسجد و منى و عرفة و مزدلفة و يفهم معنى ذلك و لا يعرف أعيان الأمكنة حتى يشاهدها فيعرف أن الكعبة المشاهدة المذكورة في قوله { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ }آل عمران97 و كذلك أرض عرفات هي المذكورة فى قوله { فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ }البقرة198و كذلك المشعر الحرام هي المزدلفة التى بين مأزمي عرفة و وادي محسر يعرف أنها المذكورة في قوله {فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ }البقرة198 وكذلك الرؤيا قد يراها الرجل و يذكر له العابر تأويلها فيفهمه و يتصوره مثل أن يقول هذا يدل على أنه كان كذا و يكون كذا و كذا ثم إذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا ليس تأويلها نفس علمه و تصوره و كلامه و لهذا قال يوسف الصديق {هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ }يوسف100 و قال { لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا }يوسف37 فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن يأتي التأويل و الأنباء ليس هو التاويل فالنبي صلى الله عليه و سلم عالم بالتأويل و إن كان التأويل لم يقع بعد و إن كان لا يعرف متى لا يقع فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله فى القرآن من الوعد و الوعيد و إن كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور في قوله سبحانه و تعالى {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ }الأعراف53 الآية و قال تعالى{لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ }الأنعام67 فنحن نعلم مستقر نبأ الله و هو الحقيق التى أخبر الله بها و لا نعلم متى يكون و قد لا نعلم كيفيتها و قدرها و سواء فى هذا تأويل المحكم و المتشابه كما قال الله تعالى {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ }الأنعام65 قال النبى صلى الله عليه و سلم أنها كائنة و لم يأت تأويلها بعد فقد عرف تأويلها و هو و قوع الإختلاف و الفتن و إن لم يعرف متى يقع و قد لا يعرف صفته و لا حقيقته فإذا و قع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذي دلت عليه الآية و غيره قد لا يعرف ذلك أو ينساه بعد ما كان عرفه فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن فإنه لما نزل قوله تعالى {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً}الأنفال25 قال الزبير لقد قرأنا هذه الآية زمانا و ما أرانا من أهلها و إذا نحن المعنيون بها {وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً }الأنفال25 وأيضا فإن الله قد ذم في كتابه من يسمع القرآن و لا يفقه معناه و ذم من لم يتدبره و مدح من يسمعه و يفقهه فقال تعالى {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى

قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ }محمد16الآية فأخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم ماذا قال الرسول فى هذا الوقت المتقدم فدل على أن أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معانى كلام رسول الله صلى الله عليه و سلم ما لا يعرفه غيرهم وهؤلاء هم الراسخون فى العلم الذين يعلمون معاني القرآن محكمه و متشابهه و هذا كقوله تعالى {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ }العنكبوت43 فدل على أن العالمين يعقلونها و إن كان غيرهم لا يعقلها والأمثال هي المتشابه عند كثير من السلف و هي الى المتشابه أقرب من غيرها لما بين المثل و الممثل به من التشابه و عقل معناها هو معرفة تأويلها الذي يعرفه الراسخون فى العلم دون غيرهم و يشبه هذا قوله تعالى {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }سبأ6 فلولا أنهم عرفوا معنى ما أنزل كيف عرفوا أنه حق أو باطل و هل يحكم على كلام لم يتصور معناه أنه حق أو باطل و قال تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }محمد24 و قال {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً }النساء82 و قال تعالى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ }المؤمنون68 و قال تعالى {فَبَشِّرْ عِبَادِ{17} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ {18}الزمر17-18 و قال {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً }الفرقان73 و قال {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }يوسف2 و قال { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }هود1 و قال {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {3} بَشِيراً وَنَذِيراً {4}فصلت3 الى قوله {وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ }فصلت5 فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم احد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا بعضه و هذا خلاف ما دل عليه القرآن لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه كالآيات الخبرية و الأخبار عن اليوم الآخر أو الجنة و النار و عن نفي الشركاء و الأولاد عن الله و تسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيا و إثباتا و ما يخبرهم به عن اليوم الآخر و قد ذم الله من لا يعقل ذلك و لا يفقهه و لا يتدبره فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك و تدبره و قد قال تعالى { وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ{42} وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ{43} يونس42-43 و قال {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً }الأنعام25 الآية و قال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً {46}الإسراء45 -46 الآية و قد إستدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا كان منفردا به كقوله {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ }النمل65 و قوله { لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ }الأعراف187 و قوله { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }المدثر31 فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفى فإن كان مما إستأثر الله به قيل فيه ذلك و إن كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة255 و قوله {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً }الجن26 الى قوله{ رَصَداً }الجن27 و قوله { قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ }الرعد43 و قوله{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ }آل عمران18 و قوله {لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ }النساء166 الى قوله { شَهِيداً }النساء166 و قوله { قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ }الكهف22 و قال للملائكة { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }البقرة30 و قالت الملائكة{ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا }البقرة32 و فى كثير من كلام الصحابة الله و رسوله أعلم و فى الحديث المشهور أسألك بكل إسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو إستأثرت به فى علم الغيب عندك وقد قال تعالى { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ }النساء59 و أول النزاع النزاع في معاني القرآن فإن لم يكن الرسول عالما بمعانيه إمتنع الرد إليه و قد إتفق الصحابة و التابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن و تبينه و تدل عليه و تعبر عن مجمله و أنها تفسر مجمل القرآن من الأمر و الخبر و قال تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ }البقرة213 الى قوله {فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ }البقرة213 ومن أعظم الإختلاف الإختلاف فى المسائل العلمية الخبرية المتعلقة بالإيمان بالله و اليوم الآخر فلابد أن يكون الكتاب حاكما بين الناس فيما إختلفوا فيه من ذلك و يمتنع أن يكون حاكما إن لم يكن معرفة معناه ممكنا و قد نصب الله عليه دليلا و إلا فالحاكم الذي يبين ما فى نفسه لا يحكم بشيء و كذلك إذا قيل هو الحاكم بالكتاب فإن حكمه فصل يفصل به بين الحق و الباطل و هذا إنما يكون بالبيان و قد قال تعالى فى القرآن { إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ } الطارق 13 أي فاصل يفصل بين الحق و الباطل فكيف يكون فصلا إذا لم يكن الى معرفة معناه سبيل وأيضا فإن الله قال {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ }البقرة78 فذم هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى كما ذم الذين يحرفون معناه و يكذبون فقال تعالى {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }البقرة75 الى قوله { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }البقرة76 فهذا الصنفين ثم قال تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ }البقرة78 أي تلاوة {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ }البقرة78 ثم ذم الذين يفترون كتبا يقولون هي من عند الله و ما هي من عند الله فقال {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ }البقرة79 و هذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال و البدع فإن أهل البدع الذين ذمهم الله و رسوله نوعان أحدهما عالم بالحق يتعمد خلافه و الثاني جاهل متبع لغيره فالأولون يبتدعون ما يخالف كتاب الله و يقولون هو من عند الله إما أحاديث مفتريات و إما تفسير و تأويل للنصوص باطل و يعضدون ذلك بما يدعونه من الرأي و العقل و قصدهم بذلك الرياسة و المأكل فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل و ويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك و هؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية و قيل لهم هذه تخالفكم حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة قال الله تعالى{أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }البقرة75 و أما النوع الثانى الجهال فهؤلاء الأميون الذين { لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ }البقرة78فعن إبن عباس و قتادة فى قوله {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ }البقرة78 أي غير عارفين بمعاني الكتاب يعلمونها حفظا و قراءة بلا فهم و لا يدرون ما فيه و قوله{إِلاَّ أَمَانِيَّ }البقرة78 أي تلاوة فهم لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم قاله الكسائي و الزجاج و كذلك قال إبن السائب لا يحسنون قراءة الكتاب و لا كتابته إلا أمانى إلا ما يحدثهم به علماؤهم و قال أبو روق و أبو عبيدة أي تلاوة و قراءة عن ظهر القلب و لا يقرأونها فى الكتب ففي هذا القول جعل الأماني التى هي التلاوة تلاوة الأميين أنفسهم و في ذلك جعله ما يسمعونه من تلاوة علمائهم و كلا القولين حق و الآية تعمهما فإنه سبحانه و تعالى قال { لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ }البقرة78 لم يقل لا يقرأون و لا يسمعون ثم قال {إِلاَّ أَمَانِيَّ }البقرة78و هذا إستثناء منقطع لكن يعلمون أمانى إما بقراءتهم لها و إما بسماعهم قراءة غيرهم و إن جعل الإستثناء متصلا كان التقدير لا يعلمون الكتاب إلا علم أماني لا علم تلاوة فقط بلا فهم و الأماني جمع أمنية و هي التلاوة و منه قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }الحج52 قال الشاعر تمنى كتاب الله أول ليلة و آخرها لاقي حمام المقادر

و الأميون نسبة الى الأمة قال بعضهم الى الأمة و ما عليه العامة فمعنى الأمي العامي الذي لا تمييز له و قد قال الزجاج هو على خلق الأمة التى لم تتعلم فهو على جبلته و قال غيره هو نسبة الى الأمة لأن الكتابة كانت فى الرجال دون النساء و لأنه على ما و لدته أمه والصواب أنه نسبة الى الأمة كما يقال عامي نسبة الى العامة التى لم تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة و كذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة و القراءة و يقال الأمي لمن لا يقرأ و لا يكتب كتابا ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرأونه و إن كان قد يكتب و يقرأ ما لم ينزل و بهذا المعنى كان العرب كلهم أميين فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله قال الله تعالى { وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ }آل عمران20 و قال {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ }الجمعة2 و قد كان فى العرب كثير ممن يكتب و يقرأ المكتوب و كلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين بإعتبار أنهم لا يقرأون كتابا من حفظهم بل هم يقرأون القرآن من حفظهم و أنا جيلهم في صدورهم لكن بقوا أميين بإعتبار أنهم لا يحتاجون الى كتابة دينهم بل قرآنهم محفوظ فى قلوبهم كما فى الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال خلقت عبادي يوم خلقتهم حنفاء و قال فيه إنى مبتليك و مبتل لك و أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما و يقظانا فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم فى قلوبهم بل لوعدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظا فى قلوب الأمة و بهذا الإعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن و حفظه كما فى الصحيح عن إبن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إنا أمة أمية لا نحسب و لا نكتب الشهر هكذا و هكذا فلم يقل إنا لا نقرأ كتابا و لا نحفظ بل قال لا نكتب و لا نحسب فديننا لا يحتاج أن يكتب و يحسب كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم و فطرهم بكتاب و حساب و دينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم و لهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن و الحديث أكثر من أهل البدع و أهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه وقوله { فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ }الأعراف158 هو أمي بهذا الإعتبار لأنه لا يكتب و لا يقرأ ما فى الكتب لا بإعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ و الأمي إصطلاح الفقهاء خلاف القارئ و ليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول و يعنون به فى الغالب من لا يحس الفاتحة فقوله تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ }البقرة78 أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة لا يفهمون معناها و هذا يتناول من لا يحسن الكتابة و لا القراءة من قبل و إنما يسمع أماني علما كما قال إبن السائب و يتناول من يقرأه عن ظهر قلبه و لا يقرأه من الكتاب كما قال أبو روق و أبو عبيدة وقد يقال ان قوله { لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ }البقرة78 اى الخط اى لا يحسنون الخط وانما يحسنون التلاوة ويتناول ايضا من يحسن الخط والتلاوة ولا يفهم ما يقرأه ويكتبه كما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معانى الكتاب يعلمونها حفظا وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه والكتاب هنا المراد به الكتاب المنزل وهو التوراة ليس المراد به الخط فانه قال {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ }البقرة78 فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعانى الكتاب ولا فكون الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم ان يكون لا علم عنده بل يظن ظنا بل كثير ممن يكتب بيده لا يفهم ما يكتب وكثير ممن لا يكتب يكون عالما بمعانى ما يكتبه غيره وأيضا فإن الله ذكر هذا فى سياق الذم لهم و ليس فى كون الرجل لا يخط ذم إذا قام بالواجب و إنما الذم على كونه لا يعقل الكتاب الذي أنزل إليه سواء كتبه و قرأه أو لم يكتبه و لم يقرأه كما قال النبى صلى الله عليه و سلم هذا أوأن يرفع العلم فقال له زياد بن لبيد كيف يرفع العلم و قد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه و لنقرئنه نساءنا فقال له إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة أو ليست التوراة و الإنجيل عند اليهود و النصاري فماذا تغني عنهم و هو حديث معروف رواه الترمذي و غيره و لأنه قال تعالى قبل هذا

{ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }البقرة75 فأولئك عقلوه ثم حرفوه و هم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم و يكتبونه و يقرأونه حفظا و كتابة أو لم يكونوا كذلك فكان من المناسب أن يذكرالذين لا يعقلونه و هم الذين لا يعلمونه إلا أمانى فإن القرآن أنزله الله كتابا متشابها مثانى و يذكر فيه الأقسام و الأمثال فيستوعب فيكون مثاني و يذكر الأمثال فيكون متشابها و هؤلاء و إن كانوا يكتبون و يقرأون فهم أميون من أهل الكتاب كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمي و ساذج و عامي و إن كان يحفظ القرآن و يقرأ المكتوب إذا كان لا يعرف معناه و إذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لا يعرفون الكتاب إلا تلاوة دون فهم معانيه كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون دل على أن كلا النوعين مذموم الجاهل الذي لا يفهم معانى النصوص و الكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه و هذا حال أهل البدع فإنهم أحد رجلين إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه و يتكلم برأيه و يؤوله بما يضيفه الى الله فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم و يقولون هو من عند الله و يجعلون تلك المقالات التى إبتدعوها هي مقالة الحق و هي التى جاء بها الرسول و التى كان عليها السلف و نحو ذلك ثم يحرفون النصوص التى تعارضها فهؤلاء إذا تعمدوا ذلك و علموا أن الذي يفعلونه مخالف للرسول فهم من جنس هؤلاء اليهود و هذا يوجد فى كثير من الملاحدة و يوجد في بعض الأشياء فى غيرهم و أما الذين قصدهم أتباع الرسول باطنا و ظاهرا و غلطوا فيما كتبوه و تأولوه فهؤلاء ليسوا من جنسهم لكن قد و قع بسبب غلطهم ما هو من جنس ذلك الباطل كما قيل إذا زل العالم زل بزلته عالم و هذا حال المتأولين من هذه الأمة و أما رجل مقلد أمي لا يعرف من الكتاب إلا ما يسمعه منهم أو ما يتلوه هو و لا يعرف إلا أمانى و قد ذمه الله على ذلك فعلم أن الله ذم الذين لا يعرفون معاني القرآن و لا يتدبرونه و لا يعقلونه كما صرح القرآن بذمهم فى غير موضع فيمتنع مع هذا أن يقال إن أكثر القرآن أو كثيرا منه لا يعلمه أحد من الخلق إلا أماني لا جبريل و لا محمد و لا الصحابة و لا أحد من المسلمين فإن هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به فإن قيل أفلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية قيل نعم لكن معرفة معانى الجميع فرض على الكفاية و على كل مسلم معرفة ما لابد منه و هؤلاء ذمهم الله لأنهم لا يعلمون معانى الكتاب إلا تلاوة و ليس عندهم إلا الظن و هذا يشبه قوله {وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }هود110 فإن قيل فقد قال بعض المفسرين {إِلاَّ أَمَانِيَّ }البقرة78 إلا ما يقولونه بأفواههم كذبا و باطلا و روى هذا عن بعض السلف و إختاره الفراء و قال الأماني الأكاذيب المفتعلة قال بعض العرب لإبن دأب و هو يحدث أهذا شيء رويته أم تمنيته أي إفتعلته فأراد بالأمانى الأشياء التى كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم ثم أضافوها الى الله من تغيير صفة محمد صلى الله عليه و سلم و قال بعضهم الأماني يتمنون على الله الباطل و الكذب كقولهم { لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً }البقرة80 و قولهم {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى }البقرة111 و قولهم { نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ }المائدة18 و هذا أيضا يروى عن بعض السلف قيل كلا القولين ضعيف و الصواب الأول لأنه سبحانه قال {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ }البقرة78 و هذا الإستثناء إما أن يكون متصلا أو منقطعا فإن كان متصلا لم يجز إستثناء الكذب و لا أماني القلب من الكتاب و إن كان منقطعا فالإستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور و شبيها له من بعض الوجوه فهو من جنسه الذي لم يذكر فى اللفظ ليس من جنس المذكور و لهذا لايصلح المنقطع حيث يصلح الإستثناء المفرغ و ذلك كقوله {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى }الدخان56 ثم قال { إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى }الدخان56 فهذا منقطع لأنه يحسن أن يقال لا يذقون إلا الموتة الأولى و كذلك قوله تعالى{ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ }النساء29 لأنه يحسن أن يقال لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارة و قوله

{ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ }النساء157 يصلح أن يقال و ما لهم إلا إتباع الظن فهنا لما قال {لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ }البقرة78 يحسن أن يقال لا يعلمونه إلا أماني فإنهم يعلمونه تلاوة يقرأونها و يسمعونها و لا يحسن أن يقال لا يعلمون إلا ما تتمناه قلوبهم أو لا يعلمون إلا الكذب فإنهم كانوا يعلمون ما هو صدق أيضا فليس كل ما علموه من علمائهم كان كذبا بخلاف الذي لا يعقل معنى الكتاب فإنه لا يعلم إلا تلاوة و أيضا فهذه الأماني الباطلة التى تمنوها بقلوبهم و قالوها بألسنتهم كقوله تعالى { تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ }البقرة111 قد إشتركوا فيها كلهم فلا يخص بالذم الأميون منهم و ليس لكونهم أميين مدخل فى الذم بهذه و لا لنفي العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل و لهذا لما ذم الله بها عمم و لم يخص فقال تعالى {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ }البقرة111 الآية و أيضا فإنه قال { وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ }البقرة78 فدل على أنه ذمهم على نفى العلم و على أنه ليس معهم إلا الظن و هذا حال الجاهل بمعانى الكتاب لا حال من يعلم أنه يكذب فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب و الباطل و لو أريد ذلك لقيل لا يقولون إلا أماني لم يقل لايعلمون الكتاب إلا أماني بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه و يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب و ما هو من الكتاب و يقولون هو من عند الله و ما هو من عند الله و يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فهم يحرفون معاني الكتاب و هم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه و يكذبون فى لفظهم و خطهم و قد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود و النصارى قال فمن و في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم قال لتأخذن أمتى مآخذ الأمم قبلها شبرا بشبر و ذراعا بذراع قالوا يا رسول الله فارس و الروم قال و من الناس إلا أولئك فهذا دليل على أن ما ذم الله به أهل الكتاب فى هذه الآية يكون فى هذه الأمة من يشبههم فيه و هذا حق قد شوهد قال تعالى {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }فصلت53 فمن تدبر ما أخبر الله به و رسوله رأي أنه قد و قع من ذلك أمور كثيرة بل أكثر الأمور و دله ذلك على و قوع الباقي فصل فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه و سلم من الكتاب و الحكمة و معرفة ما أراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة و التابعون لهم بإحسان و من سلك سبيلهم فكل ما يحتاج الناس إليه فى دينهم فقد بينه الله و رسوله بيانا شافيا فكيف بأصول التوحيد و الإيمان ثم إذا عرف ما بينه الرسول نظر فى أقوال الناس و ما أرادوه بها فعرضت على الكتاب و السنة والعقل الصريح دائما موافق للرسول صلى الله عليه و سلم لا يخالفه قط فإن الميزان مع الكتاب و الله أنزل الكتاب بالحق و الميزان لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته و حاروا فيه لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه فالرسل صلوات الله و سلامه عليهم تخبر بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول فهذا سبيل الهدى و السنة و العلم و أما سبيل الضلال و البدعة و الجهل فعكس ذلك أن يبتدع بدعة برأي رجال و تأويلاتهم ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعا لها و يحرف ألفاظه و يتأول على و فق ما أصلوه و هؤلاء تجدهم فى نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول و لا يتلقون الهدى منه و لكن ما و افقهم منه قبلوه و جعلوه حجة لا عمدة و ما خالفهم تأولوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أو فوضوه كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني و هؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول إما عجزا و إما تفريطا فإنه يحتاج الى مقدمتين أن الرسول قال كذا و أنه أراد به كذا أما الأولى فعامتهم لا يرتابون فى أنه جاء بالقرآن و إن كان من غلاة أهل البدع من يرتاب في بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها و هم يظنون أن هذه رواها آحاد

يجوزون عليهم الكذب و الخطأ و لا يعرفون من كثرة طرقها و صفات رجالها و الأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث فإن هؤلاء يقطعون قطعا يقينا بعامة المتون الصحيحة التى فى الصحيحين كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع وأما المقدمة الثانية فإنهم لا يعرفون معانى القرآن و الحديث و منهم من يقول الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم و قد بسطنا الكلام على فساد ذلك فى غير هذا الموضع و كثير منهم إنما ينظر من تفسير القرآن و الحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم فالنصوص التى توافقهم يحتجون بها و التى تخالفهم يتأولونها و كثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر إتباع نص أصلا و هذا في البدع الكبار مثل الرافضة و الجهمية فإن الذي و ضع الرفض كان زنديقا إبتدأ تعمد الكذب الصريح الذى يعلم أنه كذب كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب و هم يعلمون ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ما إفتراه أولئك و هم فى شك منه كما قال تعالى {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }الشورى14 و كذلك الجهمية ليس معهم على نفي الصفات وعلو الله على العرش و نحو ذلك نص أصلا لا آية و لا حديث و لا أثر عن الصحابة بل الذي إبتدأ ذلك لم يكن قصده إتباع الأنبياء بل و ضع ذلك كما و ضعت عبادة الأوثان و غير ذلك من أديان الكفار مع علمهم بأن ذلك مخالف للرسل كما ذكر عن مبدلة اليهود ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا أصل ذلك وهذا بخلاف بدعة الخوارج فإن أصلها ما فهموه من القرآن فغلطوا فى فهمه و مقصودهم إتباع القرآن باطنا و ظاهرا ليسو زنادقة و كذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر و النهي و الوعد و الوعيد الذي جاءت به الرسل و يتبعون من القرآن ما دل على ذلك فعمرو إبن عبيد و أمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول صلى الله عليه و سلم كالذي إبتدع الرفض و كذلك الإرجاء إنما أحدثه قوم قصدهم جعل أهل القبلة كلهم مؤمنين ليسوا كفارا قابلوا الخوارج و المعتزلة فصاروا فى طرف آخر و كذلك التشيع المتوسط الذي مضمونه تفضيل علي و تقديمه على غيره و نحو ذلك لم يكن هذا من إحداث الزنادقة بخلاف دعوى النص فيه و العصمة فإن الذي إبتدع ذلك كان منافقا زنديقا و لهذا قال عبدالله بن المبارك و يوسف بن اسباط و غيرهما أصول البدع أربعة الشيعة و الخوارج و القدرية و المرجئة قالوا و الجهمية ليسوا من الثنتين و سبعين فرقة و كذلك ذكر أبو عبدالله بن حامد عن أصحاب أحمد فى ذلك قولين هذا أحدهما و هذا أرادوا به التجهم المحض الذي كان عليه جهم نفسه و متبعوه عليه و هو نفي الأسماء مع نفي الصفات بحيث لا يسمى الله بشيء من أسمائه الحسنى و لا يسميه شيئا و لا موجودا و لا غير ذلك و إنما نقل عنه أنه كان يسميه قادرا لأن جميع الأسماء يسمى بها الخلق فزعم أنه يلزم منها التشبيه بخلاف القادر فانه كان رأس الجبرية و عنده ليس للعبد قدرة و لا فعل و لا يسمى غير الله قادرا فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادرا وشر منه نفاة الأسماء و الصفات و هم الملاحدة من الفلاسفة و القرامطة و لهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود و النصارى و هؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين و سبعين فرقة و اذا أظهروا الإسلام فغايتهم أن يكونوا منافقين كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و أولئك كانوا أقرب الى الإسلام من هؤلاء فإنهم كانوا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة و هؤلاء قد يقولون برفعها فلا صوم و لا صلاة و لا حج و لا زكاة لكن قد يقال إن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء وأما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة و نحوهم الذين يتدينون بدين الإسلام باطنا و ظاهرا فهؤلاء من أمة محمد صلى الله عليه و سلم بلا ريب و كذلك من هو خير منهم كالكلابية و الكرامية و كذلك الشيعة المفضلين لعلي و من كان منهم يقول بالنص و العصمة مع إعتقاده نبوة محمد صلى الله

عليه و سلم باطنا و ظاهرا و ظنه أن ما هو عليه هو دين الإسلام فهؤلاء اهل ضلال و جهل ليسوا خارجين عن أمة محمد صلى الله عليه و سلم بل هم من الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا و عامة هؤلاء ممن يتبع ما تشابه من القرآن إبتغاء الفتنة و إبتغاء تأويله كما أن من المنافقين و الكفار من يفعل ذلك و لهذا قال طائفة من المفسرين كالربيع بن أنس هم النصارى كنصاري نجران و قالت طائفة كالكلبي هم اليهود و قالت طائفة كإبن جريج هم المنافقون و قالت طائفة كالحسن هم الخوارج و قالت طائفة كقتادة هم الخوارج و الشيعة و كان قتادة إذا قرأ هذه الآية { فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ }آل عمران7 يقول إن لم يكونوا الحرورية و السبائية فلا أدري من هم و السبائية نسبة الى عبدالله بن سبأ رأس الرافضة فصل والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل و الشريك و الند قد دل عليه قوله سبحانه {أَحَدٌ }الإخلاص1 و قوله {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 و قوله { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 و أمثال ذلك فالمعاني الصحيحة ثابتة بالكتاب و السنة و العقل يدل على ذلك و قول القائل الأحد أو الصمد أو غير ذلك هو الذي لا ينقسم و لا يتفرق أو ليس بمركب و نحو ذلك هذه العبارات إذا عنى بها أنه لا يقبل التفرق الإنقسام فهذا حق و أما إن عنى به أنه لا يشار إليه بحال أو من جنس ما يعنون بالجوهر الفرد أنه لا يشار الى شيء منه دون شيء فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع و جوده و إنما يقدر في الذهن تقديرا و قد علمنا أن العرب حيث أطلقت لفظ الواحد و الأحد نفيا و إثباتا لم ترد هذا المعنى فقول تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ }التوبة6 لم يرد به هذا المعنى الذي فسروا به الواحد و الأحد و كذلك قوله { وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ }النساء11 و كذلك قوله {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 ف المعنى لم يكن له من الآحاد كفوا له فإن كان الأحد عبارة عمالا يتميز منه شيء عن شيء و لا يشار الى شيء منه دون شيء فليس في الموجودات ما هو أحد إلا ما يدعونه من الجوهر الفرد و من رب العالمين و حينئذ لا يكون قد نفى عن شيء من الموجودات أن يكون كفوا للرب لأنه لم يدخل في مسمى أحد و قد بسطنا الكلام على هذا بسطا كثيرا في المباحث العقلية و السمعية التى يذكرها نفاة الصفات من الجهمية و أتباعهم فى كتابنا المسمى بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية و لهذا لما إحتجت الجهمية على السلف كالإمام أحمد و غيره على نفي الصفات بإسم الواحد قال أحمد قالوا لا تكونون موحدين أبدا حتى تقولوا قد كان الله و لا شيء قلنا نحن نقول كان الله و لا شيء و لكن إذا قلنا أن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلها و احدا و ضربنا لهم فى ذلك مثلا فقلنا أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذع و كرب و ليف و سعف و خوص و جمار و إسمها شيء و احد و سميت نخلة بجميع صفاتها فكذلك الله و له المثل الأعلى بجميع صفاته إله و احد لا نقول أنه قد كان فى و قت من الأوقات و لا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة و لا نقول قد كان فى و قت من الأوقات لا يعلم حتى خلق له علما و لكن نقول لم يزل عالما قادرا مالكا لا متى و لا كيف و مما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذي ذكره المفسرون يدل على ذلك فإنهم ذكروا أسبابا أحدها ما تقدم عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم إنسب لنا ربك فنزلت هذه السورة و الثاني أن عامر بن الطفيل قال للنبى صلى الله عليه و سلم الى م تدعونا إليه يا محمد قال الى الله قال فصفه لي أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد فنزلت هذه السورة و روى ذلك عن إبن عباس من طريق أبى ظبيان و أبى صالح عنه و الثالث أن بعض اليهود قال ذلك قالوا من أي جنس هو و ممن و رث الدنيا و لمن يورثها فنزلت هذه السورة قاله قتادة و الضحاك قال الضحاك و قتادة و مقاتل جاء ناس من أحبار اليهود الى النبى صلى الله عليه و سلم فقالوا يا محمد صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فإن الله أنزل نعته في التوراة فأخبرنا به من أي شيء هو و من أي جنس هو أمن ذهب أم من نحاس هو أم من صفر أم من حديد أم

من فضة و هل يأكل و يشرب و ممن و رث الدنيا و لمن يورثها فأنزل الله هذه السورة و هي نسبة الله خاصة

و الرابع ما روى عن الضحاك عن إبن عباس أن و فد نجران قدموا على النبي صلى الله عليه و سلم بسبعة أساقفة من بني الحارث بن كعب منهم السيد و العاقب فقالوا للنبى صلى الله عليه و سلم صف لنا ربك من أي شيء هو قال النبى صلى الله عليه و سلم إن ربى ليس من شيء و هو بائن من الأشياء فأنزل الله تعالى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }الإخلاص1 فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات و هل هو من مادة فبين الله تعالى أنه أحد ليس من جنس شيء من المخلوقات و أنه صمد ليس من مادة بل هو صمد لم يلد و لم يولد و إذا نفي عنه أن يكون مولودا من مادة الوالد فلأن ينفى عنه أن يكون من سائر المواد أولى و أحرى فإن المولود من نظير مادته أكمل من مادة ما خلق من مادة أخرى كما خلق آدم من الطين فالمادة التى خلق منها أولاده أفضل من المادة التى خلق منها هو و لهذا كان خلقه أعجب فإذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيها و هذا كما أنه إذا كان منزها عن أن يكون أحد كفوا له فلأن يكون منزها عن أن يكون أحد أفضل منه أولى و أحرى و هذا مما يبين أن هذه السورة إشتملت على جميع أنواع التنزيه و التحميد على النفى و الإثبات و لهذا كانت تعدل ثلث القرآن فالصمدية تثبت الكمال المنافى للنقائص و الأحدية تثبت الإنفراد بذلك و كذلك إذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التى هي أشرف المواد فلأن ينزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بطريق الأولى و الأخرى و إذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن ينزه عن أن يخرج منه فضلات لا تصلح أن تكون مادة بطريق الأولى و الأحرى و الإنسان يخرج منه مادة الولد و يخرج منه مادة غير الولد كما يخلق من عرقه و رطوبته القمل و الدود و غيرؤ ذلك و يخرج منه المخاط و البصاق و غير ذلك و قد نزه الله أهل الجنة عن أن يخرج منهم شيء من ذلك و أخبر الرسول صلى الله عليه و سلم أنهم لا يبولون و لا يتغوطون و لا يبصقون و لا يتمخطون و أنه يخرج منهم مثل رشح المسك و أنهم يجامعون بذكر لا يخفى و شهوة لا تنقطع و لا مني و لا منية و إذا إشتهى أحدهم الولد كان حمله و وضعه فى زمن يسير فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له و لد و أن يخرج منه شيء من الأشياء كما يخرج من غيره من الملخوقات و هذا أيضا من تمام معنى الصمد كما سبق فى تفسيره أنه الذي لا يخرج منه شيء و كذلك تنزيه نفسه عن أن يولد فلا يكون من مثله تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأولى و الأحرى و قد تقدم فى حديث أبي بن كعب أنه ليس شيء يولد إلا سيموت و وليس شيء يموت إلا يورث و الله تعالى لا يموت و لا يورث و هذا رد لقول اليهود ممن و رث الدنيا و لمن يورثها و كذلك ما نقل من سؤال النصارى صف لنا ربك من أي شيء هو فقال النبى صلى الله عليه و سلم إن ربي ليس من شيء و هو بائن من الأشياء و كذلك سؤال المشركين و اليهود أمن فضة هو أم من ذهب هو أم من حديد و ذلك لأن هؤلاء عهدوا الآلهة التى يعبدونها من دون الله يكون لها مواد صارت منها فعباد الأوثان تكون أصنامهم من ذهب و فضة و حديد و غير ذلك و عباد البشر سواء كان البشر لم يأمروهم بعبادتهم أو أمروهم بعبادتهم كالذين يعبدون المسيح و عزيرا و كقوم فرعون الذين قال لهم { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و { مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي }القصص38 و قال لموسى {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }الشعراء29 كالذي آتاه الله نصيبا من الملك الذي حاج إبراهيم فى ربه إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى و يميت قال أنا أحيي و أميت و كالدجال الذي يدعى الألهية و ما من خلق آدم الى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال و كالذين {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً }نوح23 وقد قال غير و احد من السلف أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم فلما ماتوا عكفوا على قبورهم

ثم صوروا تماثيلهم ثم بعد ذلك عبدوهم و ذلك أول ما عبدت الأصنام و أن هذه الأصنام صارت الى العرب و قد ذكر ذلك البخاري فى صحيحه عن إبن عباس قال صارت الأوثان التى فى قوم نوح فى العرب بعد أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل و أما سواع فكانت لهذيل و أما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ و أما يعوق فكانت لهمدان و أما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن إنصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا و سموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك و نسخ العلم عبدت ونوح عليه السلام أقام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم الى التوحيد و هو أول رسول بعثه الله الى أهل الأرض كما ثبت ذلك في الصحيح و محمد صلى الله عليه و سلم خاتم الرسل و كلا المرسلين بعث الى مشركين يعبدون هذه الأصنام التى صورت على صور الصالحين من البشر و المقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين و كذلك المشركون من أهل الكتاب و من مبتدعة هذه الأمة و ضلالها هذا غاية شركهم فإن النصارى يصورون فى الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى و أمه مثل ما رجرجس و غيره من القداديس و يعبدون تلك الصور و يسألونها و يدعونها و يقربون لها القرابين و ينذرون لها النذور و يقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين و الشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين تارة بأن يتمثل الشيطان فى صورة ذلك الشخص الذي يدعى و يعبد فيظن داعيه أنه قد اتي أو يظن أن الله صور ملكا على صورته فإن النصرانى مثلا يدعو في الأسر و غيره مارجرجس أو غيره فيراه قد أتاه فى الهواء و كذلك أخر غيره و قد سألوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد فى هذه الأماكن فقال هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه و إنما تلك شياطين أضلت المشركين و هكذا كثير من أهل البدع و الضلال و الشرك المنتسبين الى هذه الأمة فإن أحدهم يدعو و يستغيث بشيخه الذي يعظمه و هو ميت أو يستغيث به عند قبره و يسأله و قد ينذر له نذرا و نحو ذلك و يرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء و دفع عنه بعض ما يكره أو كلمه ببعض ما سأله عنه و نحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حيا حتى إنى أعرف من هؤلاء جماعات يأتون الى الشيخ نفسه الذي إستغاثوا به و قد رأوه أتاهم فى الهواء فيذكرون ذلك له هؤلاء يأتون الى هذا الشيخ و هؤلاء يأتون الى هذا الشيخ فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية فإن كان يحب الرياسة سكت و أوهم أنه نفسه أتاهم و أغاثهم و إن كان فيه صدق مع جهل و ضلال قال هذا ملك صوره الله على صورتى و جعل هذا من كرامات الصالحين و جعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين و يتخذهم أربابا و أنهم إذا إستغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم و لهذا أعرف غير و احد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق و زهد و عبادة لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصى مريديه يقول إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي و ليستنجدنى و ليستوصنى و يقول أنا أفعل بعد موتى ما كنت أفعل في حياتى و هو لايعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله و تضل أتباعه فتحسن لهم الإشراك بالله و دعاء غير الله و الإستغاثة بغير الله و أنها قد تلقى في قلبه أنا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم فى حياتك فيظن هذا من خطاب إلهي ألقي فى قلبه فيأمر أصحابه بذلك و أعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه فى حياته بأنواع الخدم مثل خطاب أصحابه المستغيثين به و أعانتهم و غير ذلك فلما مات صاروا يأتون أحدهم فى صورة الشيخ و يشعرونه أنه لم يمت و يرسلون الى أصحابه رسائل بخطاب و قد كان يجتمع بى بعض أتباع هذا الشيخ و كان فيه زهد و عبادة و كان يحبني و يحب هذا الشيخ و يظن أن هذا من الكرامات و أن الشيخ لم يمت و ذكر لي الكلام الذي أرسله إليه بعد موته فقرأه فإذا هو كلام الشياطين بعينه و قد ذكر لي غير و احد ممن أعرفهم أنهم إستغاثوا بى فرأونى فى الهواء و قد أتيتهم من تلك الشدائد مثل من أحاط به النصارى

الأرمن ليأخذوه و آخر قد أحاط به العدو و معه كتب ملطفات من مناصحين لو أطلعوا على ما معه لقتلوه و نحو ذلك فذكرت لهم أنى مادريت بما جرى أصلا و حلفت لهم على ذلك حتى لا يظنوا أنى كتمت ذلك كما تكتم الكرامات و أنا قد علمت أن الذي فعلوه ليس بمشروع بل هو شرك و بدعة ثم تبين لي فيما بعد و بينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به وحكى لي غير و احد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن إستغاث بهم مثل ذلك و حكى خلق كثير أنهم إستغاثوا بأحياء و أموات فرأوا مثل ذلك و إستفاض هذا حتى عرف أن هذا من الشياطين و الشياطين تغوى الإنسان بحسب الإمكان فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته فى الشرك الظاهر و الكفر المحض فأمرته أن لا يذكر الله و أن يسجد للشيطان و يذبح له و أمرته أن يأكل الميتة و الدم و يفعل الفواحش و هذا يجري كثيرا في بلاد الكفر المحض و بلاد فيها كفر و إسلام ضعيف و يجري فى بعض مدائن الإسلام فى المواضع التى يضعف إيمان أصحابها حتى قد جرى ذلك في مصر و الشام على أنواع يطول و صفها و هو فى أرض الشرق قبل ظهور الإسلام فى التتار كثير جدا و كلما ظهر فيهم الإسلام و عرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم و إن كان مسلما يختار الفواحش و الظلم أعانته على الظلم و الفواحش و هذا كثير جدا أكثر من الذي قبله فى البلاد التى فى أهلها إسلام و جاهلية و بر و فجور و إن كان الشيخ فيه إسلام و ديانة و لكن عنده قلة معرفة بحقيقة ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه و سلم و قد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات و هو لايعرف كمال الولاية و أنها الإيمان و التقوى و إتباع الرسل باطنا و ظاهرا أو يعرف ذلك مجملا و لا يعرف من حقائق الإيمان الباطن و شرائع الإسلام الظاهرة ما يفرق به بين الأحوال الرحمانية و بين النفسانية و الشيطانية كما أن الرؤيا ثلاثة أقسام رؤيا من الله و رؤيا مما يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيراه في المنام و رؤيا من الشيطان فكذلك الأحوال فإذا كان عنده قلة معرفة بحقيقة دين محمد صلى الله عليه و سلم أمرته الشياطين بأمر لا ينكره فتارة يحملون أحدهم فى الهواء و يقفون به بعرفات ثم يعيدونه الى بلده و هو لابس ثيابة لم يحرم حين حاذى المواقيت و لا كشف رأسه و لا تجرد عما يتجرد عنه المحرم و لا يدعونه بعد الوقوف يطوف طواف الإفاضة و يرمي الجمار و يكمل حجه بل يظن أن مجرد الوقوف كما فعل عبادة و هذا من قلة علمه بدين الإسلام و لو علم دين الإسلام لعلم أن هذا الذي فعله ليس عبادة لله و أنه من إستحل هذا فهو مرتد يجب قتله بل إتفق المسلمون على أنه يجب الإحرام عند الميقات و لا يجوز للإنسان المحرم اللبس فى الإحرام إلا من عذر و أنه لا يكتفي بالوقوف بل لابد من طواف الإفاضة بإتفاق المسلمين بل و عليه أن يفيض الى المشعر الحرام و يرمي جمرة العقبة و هذا مما تنوزع فيه هل هو ركن أو و اجب يجبره دم و عليه أيضا رمي الجمار أيام منى بإتفاق المسلمين و قد تحمل أحدهم الجن فتزوره بيت المقدس و غيره و تطير به فى الهواء و تمشي به فى الماء و قد تريه أنه قد ذهب به الى مدينة الأولياء و ربما أرته أنه يأكل من ثمار الجنة و يشرب من أنهارها و هذا كله و أمثاله مما أعرفه قد و قع لمن أعرفه لكن هذا باب طويل ليس هذا موضع بسطه وإنما المقصود أن أصل الشرك فى العالم كان من عبادة البشر الصالحين و عبادة تماثيلهم و هم المقصودون و من الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب إما الشمس و إما القمر و إما غيرهما و صورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب و شرك قوم إبراهيم و الله أعلم كان من هذا أو كان بعضه من هذا و من الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن و ضعت الأصنام لأجلهم و إلا فنفس الأصنام الجمادية لم تعبد لذاتها بل لأسباب إقتضت ذلك و شرك العرب كان أعظمه الأول و كان فيه من الجميع فإن عمرو بن لحي هو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام و كان قد أتى الشام و رآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع و يدفعون بها المضار فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة و لاة البيت قبل قريش و كان هو سيد خزاعة و فى الصحيحين عن

النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار أي أمعاءه و هو أول من غير دين إبراهيم و سيب السوائب و بحر البحيرة و كذلك و الله أعلم شرك قوم نوح و إن كان مبدؤه من عبادة الصالحين فالشيطان يجر الناس من هذا الى غيره لكن هذا أقرب الى الناس لأنهم يعرفون الرجل الصالح و بركته و دعاءه فيعكفون على قبره و يقصدون ذلك منه فتارة يسألونه و تارة يسألون الله به و تارة يصلون و يدعون عند قبره ظانين أن الصلاة و الدعاء عند قبره أفضل منه فى المساجد و البيوت ولما كان هذا مبدأ الشرك سد النبى صلى الله عليه و سلم هذا الباب كما سد باب الشرك بالكواكب ففي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك وفي الصحيحين عنه أنه صلى الله عليه و سلم ذكر له كنيسة بأرض الحبشة و ذكر من حسنها و تصاوير فيها فقال إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا و صوروا فيه تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة و فى الصحيحين عنه أنه قال صلى الله عليه و سلم في مرض موته لعن الله اليهود و النصارى إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا قالت عائشة و لولا ذلك لأبرز قبره و لكن كره أن يتخذ مسجدا و فى مسند أحمد و صحيح أبي حاتم عنه أنه قال صلى الله عليه و سلم إن من شرار الناس من تدركهم الساعة و هم أحياء و الذين يتخذون القبور مسجد و فى سنن أبي داود و غيره عنه أنه قال صلى الله عليه و سلم لا تتخذوا قبري عيدا و صلوا علي حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني و في موطأ مالك عنه أنه قال صلىالله عليه و سلم اللهم لا تجعل قبري و ثنا يعبد إشتد غضب الله على قوم إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد و في صحيح مسلم عن أبي الهياج السدي قال لي على بن أبي طالب رضى الله عنه ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم أمرنى أن لا أدع قبرا مشرفا إلا سويته و لا تمثالا إلا طمسته فأمره بمحو التمثالين الصورة الممثلة على صورة الميت و التمثال الشاخص المشرف فوق قبره فإن الشرك يحصل بهذا و بهذا و قد ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان فى سفر فرأي قوما ينتابون مكانا للصلاة فقال ما هذا فقالوا هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال إنما هلك من كان قبلكم بهذا أنهم إتخذوا آثار أنبيائهم مساجد من أدركته الصلاة فليصل و إلا فليمض و بلغه أن قوما يذهبون الى الشجرة التى بايع النبى صلى الله عليه و سلم أصحابه تحتها فأمر بقطعها و ارسل إليه أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال و عنده مصحف فيه أخبار ما سيكون قد ذكر فيه أخبار المسلمين و أنهم إذا أجدبوا كشفوا عن القبر فمطروا فأرسل إليه عمر يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا و يدفنه بالليل فى و احد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتنوا به فإتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله و رسوله و إن لم يبن عليها مسجدا كان بناء المساجد عليها أعظم كذلك قال العلماء يحرم بناء المساجد على القبور و يجب هدم كل مسجد بنى على قبر و إن كان الميت قد قبر فى مسجد و قد طال مكثه سوى القبر حتى لا تظهر صورته فإن الشرك إنما يحصل إذا ظهرت صورته و لهذا كان مسجد النبى صلى الله عليه و سلم أو لا مقبرة للمشركين و فيها نخل و خرب فأمر بالقبور فنبشت و بالنخل فقطع و بالخرب فسويت فخرج عن أن يكون مقبرة فصار مسجدا ولما كان إتخاذ القبور مساجد و بناء المساجد عليها محرما و لم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة و التابعين لهم بإحسان و لم يكن يعرف قط مسجد على قبر و كان الخليل عليه السلام في المغارة التى دفن فيها و هي مسدودة لا أحد يدخل إليها و لا تشد الصحابة الرحال لا إليه و لا الى غيره من المقابر لأن فى الصحيحين من حديث أبى هريرة و أبى سعيد رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام و المسجد الأقصى و مسجدي هذا فكان يأتى من يأتى منهم إلى المسجد الأقصى يصلون فيه ثم يرجعون لا

يأتون مغارة الخليل و لا غيرها و كانت مغارة الخليل مسدودة حتى إستولى النصارى على الشام فى أواخر المائة الرابعة ففتحوا الباب و جعلوا ذلك المكان كنيسة ثم لما فتح المسلمون البلاد إتخذه بعض الناس مسجدا و أهل العلم ينكرون ذلك و الذى يرويه بعضهم في حديث الإسراء أنه قيل للنبى صلى الله عليه و سلم هذه طيبة أنزل فصل فنزل فصلى هذا مكان أبيك أنزل فصل كذب موضوع لم يصل النبى صلى الله عليه و سلم تلك الليلة إلا فى المسجد الأقصى خاصة كما ثبت ذلك فى الصحيح و لا نزل إلا فيه و لهذا لما قدم الشام من الصحابة من لا يحصى عددهم إلا الله و قدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس و بعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية و شرط عليهم الشروط المعروفة و قدمها مرة ثالثة حتى و صل إلى سرغ و معه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار فلم يذهب أحد منهم إلى مغارة الخليل و لا غيرها من آثار الأنبياء التى بالشام لا ببيت المقدس و لا بدمشق و لا غير ذلك مثل الآثار الثلاثة التى بجبل قاسيون فى غربية الربوة المضافة إلى عيسى عليه السلام و في شرقيه المقام المضاف إلى الخليل عليه السلام و فى و سطه و أعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله قابيل فهذه البقاع و أمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها و لا يزورونها و لا يرجون منها بركة فإنها محل الشرك ولهذا توجد فيها الشياطين كثيرا و قد رآهم غير و احد على صورة الإنس و يقولون لهم رجال الغيب يظنون أنهم رجال من الإنس غائبين عن الأبصار و إنما هم جن و الجن يسمون رجالا كما قال الله تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً }الجن6 و الإنس سموا إنسا لأنهم يؤنسون 0000000000 أى يرون كما قال تعالى { إِنِّي آنَسْتُ نَاراً }طه10 أي رأيتها و الجن سموا جنا لأجتنانهم يجتنون عن الأبصار أي يستترون كما قال الله تعالى{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ }الأنعام76 أي إستولى عليه فغطاه و ستره و ليس أحد من الإنس يستتر دائما عن و قدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس و بعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية و شرط عليهم الشروط المعروفة و قدمها مرة ثالثة حتى و صل إلى سرغ و معه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار فلم يذهب أحد منهم إلى مغارة الخليل و لا غيرها من آثار الأنبياء التى بالشام لا ببيت المقدس و لا بدمشق و لا غير ذلك مثل الآثار الثلاثة التى بجبل قاسيون فى غربية الربوة المضافة إلى عيسى عليه السلام و في شرقيه المقام المضاف إلى الخليل عليه السلام و فى و سطه و أعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله قابيل فهذه البقاع و أمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها و لا يزورونها و لا يرجون منها بركة فإنها محل الشرك ولهذا توجد فيها الشياطين كثيرا و قد رآهم غير و احد على صورة الإنس و يقولون لهم رجال الغيب يظنون أنهم رجال من الإنس غائبين عن الأبصار و إنما هم جن و الجن يسمون رجالا كما قال الله تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً }الجن6 و الإنس سموا إنسا لأنهم يؤنسون أى يرون كما قال تعالى { إِنِّي آنَسْتُ نَاراً }طه10 أي رأيتها و الجن سموا جنا لأجتنانهم يجتنون عن الأبصار أي يستترون كما قال الله تعالى{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ }الأنعام76 أي إستولى عليه فغطاه و ستره و ليس أحد من الإنس يستتر دائما عن أبصار الإنس و إنما يقع هذا لبعض الإنس فى بعض الأحوال تارة على و جه الكرامة له و تارة يكون من باب السحر و عمل الشياطين و لبسط الكلام على الفرق بين هذا موضع آخر والمقصود ههنا أن الصحابة و التابعين لهم بإحسان لم يبنوا قط على قبر نبى و لا رجل صالح مسجدا و لا جعلوه مشهدا و مزارا و لا على شىء من آثار الأنبياء مثل مكان نزل فيه أوصلى فيه أو فعل فيه شيئا من ذلك لم يكونوا يقصدون بناء مسجدا لأجل آثار الأنبياء و الصالحين و لم يكن جمهورهم يقصدون الصلاة فى مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه بل نزل أو صلى فيه إتفاقا بل كان أئمتهم كعمر بن الخطاب و غيره ينهى عن قصد الصلاة فى مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه

و سلم إتفاقا لا قصدا و إنما نقل عن إبن عمر خاصة أنه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول الله صلى الله عليه و سلم و ينزل حيث نزل و يصلى حيث صلى و إن كان النبى صلى الله عليه و سلم لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل بل حصل إتفاقا و كان إبن عمر رضي الله عنهما رجلا صالحا شديد الإتباع فرأى هذا من الإتباع و أما أبوه و سائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان و علي و سائر العشرة و غيرهم مثل إبن مسعود و معاذ بن جبل و أبى بن كعب فلم يكونوا يفعلون ما فعل إبن عمر و قول الجمهور أصح وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل لأجل أنه فعل فإذا قصد الصلاة و العبادة فى مكان معين كان قصد الصلاة و العبادة فى ذلك المكان متابعة له و أما إذا لم يقصد تلك البقعة فإن قصده يكون مخالفة لا متابعة له مثال الأول لما قصد الوقوف و الذكر و الدعاء بعرفة و مزدلفة و بين الجمرتين كان قصد تلك البقاع متابعة له و كذلك لما طاف و صلى خلف المقام ركعتين كان فعل ذلك متابعة له و كذلك لما صعد الصفا و المروة للذكر و الدعاء كان قصد ذلك متابعة له و قد كان سلمة بن الأكوع يتحرى الصلاة عند الإسطوانة قال لأني رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يتحرى الصلة عندها فلما رآه يقصد تلك البقعة لأجل الصلاة كان ذلك القصد للصلاة متابعة و كذلك لما أراد عتبان بن مالك أن يبني مسجدا لما عمى فأرسل الى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال له أنى أحب أن تأتيني تصلي فى منزلي فأتخذه مصلى و فى رواية فقال تعال فخط لي مسجدا فأتي النبى صلى الله عليه و سلم و من شاء من أصحابه و في رواية فغدا علي رسول الله صلى الله عليه و سلم و أبو بكر الصديق حين إرتفع النهار فإستأذن رسول الله صلى الله عليه و سلم فأذنت له فلم يجلس حتى دخل البيت فقال أين تحب أن أصلي من بيتك فأشرت له الى ناحية من البيت فقام رسول الله صلى الله عليه و سلم فقمنا و راءه فصلى ركعتين ثم سلم الحديث فإنه قصد أن يبني مسجدا و أحب أن يكون أول من يصلى فيه النبى صلى الله عليه و سلم و أن يبنيه في الموضع الذي صلى فيه فالمقصود كان بناء المسجد و أراد أن يصلي النبى صلى الله عليه و سلم في المكان الذي يبنيه فكانت الصلاة مقصودة لأجل المسجد لم يكن بناء المسجد مقصودا لأجل كونه صلى فيه إتفاقا و هذا المكان مكان قصد النبى صلى الله عليه و سلم الصلاة فيه ليكون مسجدا فصار قصد الصلاة فيه متابعة له بخلاف ما إتفق أنه صلى فيه بغير قصد و كذلك قصد يوم الإثنين و الخميس بالصوم متابعة لأنه قصد صوم هذين اليومين و قال فى الحديث الصحيح أنه تفتح أبواب الجنة فى كل خميس و إثنين فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجلا كان بينه و بين أخيه شحناء فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا وكذلك قصد إتيان مسجد قباء متابعة فإنه قد ثبت عنه فى الصحيحين أنه كان يأتي قباء كل سبت راكبا و ماشيا و ذلك أن الله أنزل عليه {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ }التوبة108 و كان مسجده هو الأحق بهذا الوصف و قد ثبت فى الصحيح أنه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال هو مسجدي هذا يريد أنه أكمل فى هذا الوصف من مسجد قباء و مسجد قباء أيضا أسس على التقوى و بسببه نزلت الآية و لهذا قال { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ }التوبة108 وكان أهل قباء مع الوضوء و الغسل يستنجون بالماء تعلموا ذلك من جيرانهم اليهود و لم تكن العرب تفعل ذلك فأراد النبى صلى الله عليه و سلم و آله و سلم أن لا يظن ظان أن ذاك هو الذي أسس على التقوى دون مسجده فذكر أن مسجده أحق بأن يكون هو المؤسس على التقوى فقوله {لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى }التوبة108 يتناول مسجده و مسجد قباء و يتناول كل مسجد أسس على التقوى بخلاف مساجد الضرار

ولهذا كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشبه ذلك و يرون العتيق أفضل من الجديد لأن العتيق أبعد عن أن يكون بنى ضرارا من الجديد الذي يخاف ذلك فيه و عتق المسجد مما يحمد لبه و لهذا قال { ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ }الحج33 و قال {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ }آل

عمران96 فإن قدمه يقتضي كثرة العبادة فيه أيضا و ذلك يقتضي زيادة فضله و لهذا لم يستحب علماء السلف من أهل المدينة و غيرها قصد شيء من المساجد و المزارات التى بالمدينة و ما حولها بعد مسجد النبى صلى الله عليه و سلم و آله و سلم إلا مسجد قباء لأن النبى صلى الله عليه و سلم لم يقصد مسجدا بعينه يذهب إليه إلا هو و قد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الأنصار مسجد لكن ليس فى قصده دون أمثاله فضيلة بخلاف مسجد قباء فإنه أول مسجد بنى بالمدينة على الإطلاق و قد قصده الرسول صلى الله عليه و سلم بالذهاب إليه و صح عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال من توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة ومع هذا فلا يسافر إليه لكن إذا كان الإنسان بالمدينة أتاه و لا يقصد إنشاء السفر إليه بل يقصد إنشاء السفر الى المساجد الثلاثة لقوله صلى الله عليه و سلم لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام و المسجد الأقصى و مسجدي هذا و لهذا لو نذر السفر الى مسجد قباء لم يوف بنذره عند الأئمة الأربعة و غيرهم بخلاف المسجد الحرام فإنه يجب الوفاء بالنذر إليه بإتفاقهم و كذلك مسجد المدينة و بيت المقدس فى أصح قوليهم و هو مذهب مالك و أحمد و الشافعي فى أحد قوليه و فى الآخر و هو قول أبي حنيفة ليس عليه ذلك لكنه جائز و مستحب لأن أصله أنه لا يجب بالنذر إلا ما كان و اجبا بالشرع و الأكثرون يقولون يجب بالنذر كل ما كان طاعة لله كما ثبت فى صحيح البخاري عن عائشة عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال من نذر أن يطيع الله فليطعه و من نذر أن يعصي الله فلا يعصه ويستحب أيضا زيارة قبور أهل البقيع و شهداء أحد للدعاء لهم و الإستغفار لأن النبى صلى الله عليه و سلم كان يقصد ذلك مع أن هذا مشروع لجميع موتى المسلمينن كما يستحب السلام عليهم و الدعاء لهم و الإستغفار و زيارة القبور بهذا القصد مستحبة و سواء فى ذلك قبور الأنبياء و الصالحين و غيرهم و كان عبدالله بن عمر إذا دخل المسجد يقول السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبت ثم ينصرف و أما زيارة قبور الأنبياء و الصالحين لأجل طلب الحاجات منهم أو دعائهم و الإقسام بهم على الله أو ظن أن الدعاء أو الصلاة عند قبورهم أفضل منه فى المساجد و البيوت فهذا ضلال و شرك و بدعة بإتفاق أئمة المسلمين و لم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك و لا كانوا إذا سلموا على النبى صلى الله عليه و سلم يقفون يدعون لأنفسهم و لهذا كره ذلك مالك و غيره من العلماء و قالوا إنه من البدع التى لم يفعلها السلف و إتفق العلماء الأربعة و غيرهم من السلف على أنه إذا أراد أن يدعو يستقبل القبلة و لا يستقبل قبر النبى صلى الله عليه و سلم و أما إذا سلم عليه فأكثرهم قالوا يستقبل القبر قاله مالك و الشافعي و أحمد و قال أبو حنيفة بل يستقبل القبلة أيضا و يكون القبر عن يساره و قيل بل يستدبر القبلة و مما يبين هذا الأصل أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما هاجر هو و أبو بكر ذهبا الى الغار الذي بجبل ثور و لم يكن على طريقهما بالمدينة فإنه من ناحية اليمن و المدينة من ناحية الشام و لكن إختبآ فيه ثلاثا لينقطع خبرهما عن المشركين فلا يعرفون أين ذهبا فإن المشركين كانوا طالبين لهما و قد بذلوا في كل و احد منهما ديته لمن يأتى به و كانوا يقصدون منع النبى صلى الله عليه و سلم أن يصل الى أصحابة بالمدينة و أن لا يخرج من مكة بل لما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكة فلو سلك الطريق إبتداء لأدركوه فأقام بالغار ثلاثا لأجل ذلك فلو أراد المسافر من مكة الى المدينة أن يذهب الى الغار ثم يرجع لم يكن ذلك مستحبا بل مكروها و النبى صلى الله عليه و سلم في الهجرة سلك طريق الساحل و هي طويلة و فيها دورة و أما فى عمره و حجته فكان يسلك الوسط و هو أقرب الى مكة فسلك فى الهجرة طريق الساحل لأنها كانت أبعد عن قصد المشركين فإن الطريق الوسطى كانت أقرب الى المدينة فيظنون أنه سلكها كم كان إذا أراد غزوة و رى بغيرها و هو صلى الله عليه و آله و سلم لما قسم غنائم حنين بالجعرانة إعتمر منها و لما صده المشركون عن مكة حل بالحديبية

و كان قد أنشأ الإحرام بالعمرة من ميقات المدينة ذي الحليفة و لما إعتمر من العام القابل عمرة القضية إعتمر من ذي الحليفة و لم يدخل الكعبة في عمره و لا حجته و إنما دخلها عام الفتح و كان بها صور مصورة فلم يدخلها حتى محيت تلك الصور و صلى بها ركعتين وصلى يوم الفتح ثمان ركعات و قت الضحى كما روت تلك أم هانىء و لم يكن يقصد الصلاة و قت الضحى إلا لسبب مثل أن يقدم من سفر فيدخل المسجد فيصلى فيه ركعتين و مثل أن يشغله نوم أو مرض عن قيام الليل فيصلي بالنهار ثنتي عشرة ركعة و كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة فصلى ثنتي عشرة ركعة شفعا لفوات و قت الوتر فإنه صلى الله عليه و سلم قال المغرب و تر صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل و قال إجعلوا آخر صلاتكم بالليل و ترا و قال صلاة الليل مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة والمأثور عن السلف أنهم إذا ناموا عن الوتر كانوا يوترون قبل صلاة الفجر و لا يؤخرونه الى ما بعد الصلاة و في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ما صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم سبحة الضحي قط و إنى لأسبحها و إن كان ليدع العمل و هو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم و قد ثبت عنه فى الصحيح أنه أوصى بركعتى الضحى لأبي هريرة و لأبي الدرداء و فيها أحاديث لكن صلاته ثمان ركعات يوم الفتح جعلها بعض العلماء صلاة الضحى و قال آخرون لم يصلها إلا يوم الفتح فعلم أنه صلاها لأجل الفتح و كانوا يستحبون عند فتح مدينة أن يصلى الإمام ثمانى ركعات شكرا لله و يسمونها صلاة الفتح قالوا لأن الإتباع يعتبر فيه القصد و النبى صلى الله عليه و سلم لم يقصد الصلاة لأجل الوقت و لو قصد ذلك لصلى كل يوم أو غالب الأيام كما كان يصلي ركعتي الفجر كل يوم و كذلك كان يصلي بعد الظهر ركعتين و قبلها ركعتين أو أربعا و لما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاهما بعد العصر و هو صلى الله عليه و سلم لما نام هو و أصحابه عن صلاة الفجر فى غزوة خيبر فصلوا بعد طلوع الشمس ركعتين ثم ركعتين لم يقل أحد أن هذه الصلاة في هذا الوقت سنة دائما لأنهم إنما صلوها قضاء لكونهم ناموا عن الصلاة و لما فاتته العصر فى بعض أيام الخندق فصلاها بعد ما غربت الشمس و روى أن الظهر فاتته أيضا فصلى الظهر ثم العصر ثم المغرب لم يقل أحد إنه يستحب أن يصلي بين العشاءين أحد عشر ركعة لأن ذلك قضاء بل و لا نقل عنه أحد أنه خص ما بين العشاءين بصلاة و قوله تعالى{ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ }المزمل6 عند أكثر العلماء هو إذا قام الرجل بعد نوم ليس هو أول الليل و هذا هو الصواب لأن النبى صلى الله عليه و آله و سلم هكذا كان يصلي و الأحاديث بذلك متواترة عنه كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشاءين و كذلك أكله ما كان يجد من الطعام و لبسه الذي يوجد بمدينته طيبة مخلوقا فيها و مجلوبا إليها من اليمن و غيرها لأنه هو الذي يسره الله له فأكله التمر و خبزه الشعير و فاكهته الرطب و البطيخ الأخضر و القثاء و لبس ثياب اليمن لأن ذلك هو كان أيسر فى بلده من الطعام و الثياب لا لخصوص ذلك فمن كان ببلد آخر و قوتهم البر و الذرة و فاكهتهم العنب و الرمان و نحو ذلك و ثيابهم مما ينسج بغير اليمن القز لم يكن إذا قصد أن يتكلف من القوت و الفاكهة و اللباس ما ليس في بلده بل يتعسر عليهم متبعا للرسول صلى الله عليه و سلم و إن كان ذلك الذي يتكلفه تمرا أو رطبا أو خبز شعير فعلم أنه لابد في المتابعة للنبى صلى الله عليه و سلم من إعتبار القصد و النية فإنما الأعمال بالنيات و إنما لكل إمرىء ما نوى فعلم أن الذي عليه جمهور الصحابة و أكابرهم هو الصحيح و مع هذا فإبن عمر رضي الله عنهما لم يكن يقصد أن يصلي إلا فى مكان صلى فيه النبى صلى الله عليه و سلم لم يكن يقصد الصلاة فى موضع نزوله و مقامه و لا كان أحد من الصحابة يذهب الى الغار المذكور فى القرآن للزيارة و الصلاة فيه و إن كان النبى صلى الله عليه و سلم و صاحبه أقاما به ثلاثا يصلون فيه الصلوات الخمس و لا كانوا أيضا يذهبون الى حراء و هو المكان الذي كان يتعبد فيه قبل النبوة و فيه نزل عليه الوحي أولا و

كان هذا مكان يتعبدون فيه قبل الإسلام فإن حراء أعلى جبل كان هناك فلما جاء الإسلام ذهب النبى صلى الله عليه و آله و سلم الى مكة مرات بعد أن أقام بها قبل الهجرة بضع عشرة سنة و مع هذا فلم يكن هو و لا أصحابه يذهبون الى حراء ولما حج النبى صلى الله عليه و سلم إستلم الركنين اليمانيين و لم يستلم الشاميين لأنهما لم يبنيا على قواعد إبراهيم فإن أكثر الحجر من البيت و الحجر الأسود إستلمه و قبله و اليمانى إستلمه و لم يقبله و صلى بمقام إبراهيم و لم يستلمه و لم يقبله فدل ذلك على أن التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين و تقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة و دل على أن إستلام مقام إبراهيم و تقبيله ليس بسنة و إذا كان هذا نفس الكعبة و نفس مقام إبراهيم بها فمعلوم أن جميع المساجد حرمتها دون الكعبة و أن مقام إبراهيم بالشام و غيرها و سائر مقامات الأنبياء دون المقام الذي قال الله فيه و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى فعلم أن سائر المقامات لا تقصد للصلاة فيها كما لا يحج الى سائر المشاهد و لا يتمسح بها و لا يقبل شيء من مقامات الأنبياء و لا المساجد و لا الصخرة و لا غيرها و لا يقبل ما على و جه الأرض إلا الحجر الأسود وأيضا فالنبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يصل بمسجد بمكة إلا المسجد الحرام و لم يأت للعبادات إلا المشاعر منى و مزدلفة و عرفة فلهذا كان أئمة العلماء على أنه لا يستحب أن يقصد مسجدا بمكة للصلاة غير المسجد الحرام و لا تقصد بقعة للزيارة غير المشاعر التى قصدها رسول الله صلى الله عليه و سلم و إذا كان هذا في آثارهم فكيف بالمقابر التى لعن رسول الله صلى الله عليه و سلم من إتخذها مساجد و أخبر أنهم شرار الخلق عند الله يوم القيامة ودين الإسلام أنه لا تقصد بقعة للصلاة إلا أن تكون مسجدا فقط و لهذا مشاعر الحج غير المسجد الحرا م تقصد للنسك لا للصلاة فلا صلاة بعرفة و إنما صلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم الظهر و العصر يوم عرفة بعرنة خطب بها ثم صلى ثم بعد الصلاة ذهب الى عرفات فوقف بها و كذلك يذكر الله و يدعى بعرفات و بمزدلفة على قزح و بالصفا و المروة و بين الجمرات و عند الرمي و لا تقصد هذه البقاع للصلاة و أما غير المساجد و مشاعر الحج فلا تقصد بقعة لا للصلاة و لا للذكر و لا للدعاء بل يصلى المسلم حيث أدركته الصلاة إلا حيث نهى و يذكر الله و يدعوه حيث تيسر من غير قصد تخصيص بقعة بذلك و إذا إتخذ بقعة لذلك كالمشاهد نهى عن ذلك كما نهى عن الصلاة فى المقبرة إلا ما يفعله الرجل عند السلام على الميت من الدعاء له و للمسلمين كما يفعل مثل ذلك في الصلاة على الجنازة فإن زيارة قبر المؤمن من جنس الصلاة على جنازته يفعل فى هذا من جنس ما يفعل في هذا و يقصد بالدعاء هنا ما يقصد بالدعاء هنا و مما يشبه هذا أن الأنصار بايعوا النبى صلى الله عليه و سلم ليلة العقبة بالوادي الذي و راء جمرة العقبة لأنه مكان منخفض قريب من منى يستر من فيه فإن السبعين الأنصار كانوا قد حجوا مع قومهم المشركين و ما زال الناس يحجون الى مكة قبل الإسلام و بعده فجاءوا مع قومهم الى منى لأجل الحج ثم ذهبوا بالليل الى ذلك المكان لقربه و ستره لا لفضيلة فيه و لم يقصدوه لفضيلة تخصه بعينه ولهذا لما حج النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه لم يذهبوا إليه و لا زاروه و قد بنى هناك مسجد و هو محدث و كل مسجد بمكة و ما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث و منى نفسها لم يكن بها على عهد النبى صلى الله عليه و سلم مسجد مبنى و لكن قال منى مناخ لمن سبق فنزل بها المسلمون و كان يصلي بالمسلمين بمنى و غير منى و كلك خلفاؤه من بعده و إجتماع الحجاج بمنى أكثر من إجتماعه بغيرها فإنهم يقيمون بها أربعا و كان النبى صلى الله عليه و سلم و أبو بكر و عمر يصلون بالناس بمنى و غير منى و كانوا يقصرون الصلاة بمنى و عرفة و مزدلفة و يجمعون بين الظهر و العصر بعرفة و بين المغرب و العشاء بمزدلفة و يصلي بصلاتهم جميع الحجاج من أهل مكة و غير أهل مكة و كلهم يقصرون الصلاة بالمشاعر و كلهم يجمعون بعرفة و مزدلفة وقد تنازع العلماء في أهل مكة و نحوهم هل

يقصرون أو يجمعون فقيل لا يقصرون و لا يجمعون كما يقول ذلك من يقوله من أصحاب الشافعى و أحمد و قيل يجمعون و لا يقصرون كما يقول ذلك أبو حنيفة و أحمد و من و افقه من أصحابه و أصحاب الشافعي و قيل يجمعون و يقصرون كما قال ذلك مالك و إبن عيينة و أسحق بن راهويه و بعض أصحاب أحمد و غيرهم و هذا هو الصواب بلا ريب فإنه الذي فعله أهل مكة خلف النبى صلى الله عليه و سلم بلا ريب و لم يقل النبى صلى الله عليه و سلم قط و لا أبو بكر و لا عمر بمنى و لا عرفة و لا مزدلفة يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر و لكن ثبت أن عمر قال ذلك فى جوف مكة و كذلك فى السنن عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ذلك في جوف مكة فى غزوة الفتح و هذا من أقوى الأدلة على أن القصر مشروع لكل مسافر و لو كان سفره بريدا فإن عرفة من مكة بريد أربع فراسخ و لم يصل النبى صلى الله عليه و سلم و لا خلفاؤه بمكة صلاة عيد بل و لا صلى فى أسفاره قط صلاة العيد و لا صلى بهم في أسفاره صلاة جمعة يخطب ثم يصلي ركعتين بل كان يصلي يوم الجمعة فى السفر ركعتين كما يصلي فى سائر الأيام وكذلك لما صلى بهم الظهر و العصر بعرفة صلى ركعتين كصلاته في سائر الأيام و لم ينقل أحد أنه جهر بالقراءة يوم الجمعة في السفر لا بعرفة و لا بغيرها و لا أنه خطب بغير عرفة يوم الجمعة في السفر فعلم أن الصواب ما عليه سلف الأمة و جماهيرها من الأئمة الأربعة و غيرهم من أن المسافر لا يصلي جمعة و لا غيرها و جمهورهم أيضا على أنه لا يصلي عيدا و هو قول مالك و أبى حنيفة و أحمد فى إحدى الروايتين و هذا هو الصواب أيضا فإن النبى صلى الله عليه و سلم و خلفاؤه لم يكونوا يصلون العيد إلا في المقام لا فى السفر و لم يكن يصلي صلاة العيد إلا فى مكان و احد مع الإمام يخرج بهم الى الصحراء فيصلي هناك فيصلي المسلمون كلهم خلفه صلاة العيد كما يصلون الجمعة و لم يكن أحد من المسلمين يصلي صلاة عيد فى مسجد قبيلته و لا بيته كما لم يكونوا يصلون جمعة فى مساجد القبائل و لا كان أحد منهم بمكة يوم النحر يصلي صلاة عيد على عهد النبى صلى الله عليه و سلم و خلفائه بل عيدهم بمنى بعد إفاضتهم من المشعر الحرام و رمى جمرة العقبة لهم كصلاة العيد لسائر أهل الأمصار يرمون ثم ينحرون و سائر أهل الأمصار يصلون ثم ينحرون و النبى صلى الله عليه و سلم لما أفاض من في نزل بالمحصب فإختلف أصحابه هل التحصيب سنة لإختلافهم فى قصده هل قصد النزول به أو نزل به لأنه كان أسمح لخروجه و هذا مما يبين أن المقاصد كانت معتبرة عندهم فى المتابعة ولما إعتمر عمرة القضية و كانت مكة مع المشركين لم تفتح بعد و كان المشركون قد قالوا يقدم عليكم قوم قد و هنتهم حمي يثرب و قعد المشركون خلف قعيقعان و هو جبل المروة ينظرون إليهم فأمر النبى صلى الله عليه و سلم أصحابه أن يرملوا ثلاثة أشواط من الطواف ليرى المشركون جلدهم و قوتهم و روى أنه دعا لمن فعل ذلك و لم يرملوا بين الركنين لأن المشركين لم يكونوا يرونهم من ذلك الجانب فكان المقصود بالرمل إذ ذاك من جنس المقصود بالجهاد فظن بعض المتقدمين أنه ليس من النسك لأنه فعل لقصد و زال لكن ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه لما حجوا رملوا من الحجر الأسود الى الحجر الأسود فكملوا الرمل بين الركنين و هذا قدر زائد على ما فعلوه فى عمرة القضية و فعل ذلك فى حجة الوداع مع الأمن العام فإنه لم يحج معه إلا مؤمن فدل ذلك على أن الرمل صار من سنة الحج فإنه فعل أولا لمقصود الجهاد ثم شرع نسكا كما روى فى سعي هاجر و فى رمي الجمار و فى ذبح الكبش أنه فعل أولا لمقصود ثم شرعه الله نسكا و عبادة لكن هذا يكون إذا شرع الله ذلك و أمر به و ليس لأحد أن يشرع ما لم يشرعه الله كما لو قال قائل أنا أستحب الطواف بالصخرة سبعا كما يطاف بالكعبة أو أستحب أن أتخذ من مقام موسى و عيسي مصلى كما أمر الله أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى و نحو ذلك لم يكن له ذلك لأن الله تعالى يختص ما يختصه من الأعيان و الأفعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه إما لمعنى يختص به لا

يوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم و إما لمحض تخصيص المشيئة على قول بعضهم كما خص الكعبة بأن يحج إليها و يطاف بها و كما خص عرفات بالوقوف بها و كما خص منى برمي الجمار بها و كما خص الأشهر الحرم بتريمها و كما خص شهر رمضان بصيامه و قيامه الى أمثال ذلك وابراهيم و محمد كل منهما خليل الله فإنه قد ثبت فى الصحاح من غير و جه عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إن الله إتخذنى خليلا كما إتخذ إبراهيم خليلا وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه و سلم يا خير البرية قال ذاك إبراهيم فإبراهيم أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه و سلم و قوله ذاك إبراهيم تواضع منه فإنه قد ثبت عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال أنا سيد و لد آدم و لا فخر آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة و لا فخر الى غير ذلك من النصوص المبينة أنه أفضل الخلق و أكرمهم على ربه و إبراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }البقرة124 و هو الأمة أي القدوة الذي قال الله فيه {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلّهِ حَنِيفاً }النحل120 و هو الذي بوأه الله مكان البيت و أمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه و قد حرم الله الحرم على لسانه و إسماعيل نبأه معه و هو الذبيح الذي بذل نفسه لله و صبر على المحنة كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة فى غير هذا الموضع و أمه هاجر هي التى أطاعت الله و رسوله إبراهيم فى مقامها مع إبنها فى ذلك الوادي الذي لم يكن به أنيس كما قال الخليل {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ }إبراهيم37 وكان لإبراهيم و لآل إبراهيم من محبة الله و عبادته و الإيمان به و طاعته ما لم يكن لغيرهم فخصهم الله بأن جعل لبيته الذي بنوه له خصائص لا توجد لغيره و جعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس و عبادة يتبعونهم فيها و لا ريب أن الله شرع لإبراهيم السعى و رمى الجمار و الوقوف بعرفات بعد ما كان من أمر هاجر و إسماعيل و قصة الذبح و غير ذلك ما كان كما شرع لمحمد الرمل فى الطواف حيث أمره أن ينادي فى الناس بحج البيت و الحج مبناه على الذل و الخضوع لله و لهذا خص بإسم النسك و النسك في اللغة العبادة قال الجوهري النسك العبادة و الناسك العابد و قد نسكك و تنسك أي تعبد و نسك بالضم أي صار ناسكا ثم خص الحج بإسم النسك لأنه أدخل فى العبادة و الذل لله من غيره و لهذا كان فيه من الأفعال ما لا يقصد فيه إلا مجرد الذل لله و العبادة له كالسعي و رمي الجمار قال النبى صلى الله عليه و سلم إنما جعل رمي الجمار و السعي بين الصفا و المروة لإقامة ذكر الله رواه الترمذي و خص بذلك الذبح الفداء أيضا دون مطلق الذبح لأن إراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع و العبادة له و لهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتي نار من السماء فتأكله و لهذا قال تعالى {الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }آل عمران183 وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغنم و يكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم و أمة محمد صلى الله عليه و سلم و سع الله عليهم لكمال يقينهم و إخلاصهم و أنهم يقاتلون لله و لو أكلوا المغنم و يذبحون لله ولو أكلوا القربان و لهذا كان عباد الشياطين و الأصنام يذبحون لها الذبائح أيضا فالذبح للمعبود غاية الذل و الخضوع له ولهذا لم يجز الذبح لغير الله و لا أن يسمى غير الله على الذبائح و حرم سبحانه ما ذبح على النصب و هو ما ذبح لغير الله و ما سمى عليه غير إسم الله و إن قصد به اللحم لا القربان و لعن النبى صلى الله عليه و آله و سلم من ذبح لغير الله و نهي عن ذبائح الجن و كانوا يذبحون للجن بل حرم الله ما لم يذكر إسم الله عليه مطلقا كما دل على ذلك الكتاب و السنة فى غير موضع وقد قال تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ }الكوثر2 أي إنحر لربك كما قال الخليل {إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الأنعام162 و قد قال هو و إسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{127} رَبَّنَا

وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{128}البقرة128 فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها كما قال تعالى {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ }الحج67 و قال تعالى {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}الحج34 و قال {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ }الحج37 كما قال تعالى {وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ }الحج32 فالمقصود تقوى القلوب لله و هوعبادتها له و حده دون ما سواه بغاية العبودية له و العبودية فيها غاية المحبة و غاية الذل و الإخلاص و هذه ملة إبراهيم الخليل و هذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هي الأصل كما قال النبى صلى الله عليه و سلم إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هي القلب و النية و القصد هما عمل القلب فلابد فى المتابعة للرسول صلى الله عليه و سلم من إعتبار النية و القصد ومن هذا الباب أن النبى صلى الله عليه و سلم لما إحتجم و أمر بالحجامة و قال فى الحديث الصحيح شفاء أمتى فى شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار و ما أحب أن أكتوى كان معلوما أن المقصود بالحجامة إخراج الدم الزائد الذي يضر البدن فهذا هو المقصود و خص الحجامة لأن البلاد الحارة يخرج الدم فيها الى سطح البدن فيخرج بالحجامة فلهذا كانت الحجامة فى الحجاز و نحوه من البلاد الحارة يحصل بها مقصود إستفراغ الدم و أما البلاد الباردة فالدم يغور فيها الى العروق فيحتاجون الى قطع العروق بالفصاد و هذا أمر معروف بالحسن و التجربة فإنه في زمان البرد تسخن الأجواف و تبرد الظواهر لأن شبيه الشيء منجذب إليه فإذا برد الهواء برد ما يلاقيه من الأبدان و الأرض فيهرب الحر الذي فيها من البرد المضاد له الى الأجواف فيسخن باطن الأرض و أجواف الحيوان و يأوي الحيوان الى الأكنان الدافئة و لقوة الحرارة في باطن الإنسان يأكل فى الشتاء و فى البلاد الباردة أكثر مما يأكل فى الصيف و فى البلاد الحارة لأن الحرارة تطبخ الطعام و تصرفه و يكون الماء النابع فى الشتاء سخنا لسخونة جوف الأرض و الدم سخن فيكون فى جوف العروق لا في سطح الجلد فلو إحتجم لم ينفعه ذلك بل قد يضره و فى الصيف و البلاد الحارة تسخن الظواهر فتكون البواطن باردة فلا ينهضم الطعام فيها كما ينهضم فى الشتاء و يكون الماء النابع باردا لبرودة باطن الأرض و تظهر الحيوانات الى البراري لسخونة الهواء فهؤلاء قد لا ينفعهم الفصاد بل قد يضرهم و الحجامة أنفع لهم و قوله شفاء أمتى إشارة الى من كان حينئذ من أمته و هم كانوا بالحجاز كما قال ما بين المشرق و المغرب قبلة لأن هذا كان قبلة أمتى حينئذ لأنهم كانوا بالمدينة و ما حولها و هذا كما أنه فى آخر الأمر بعد أن فرض الحج سنة تسع أو سنة عشر و قت ثلاث مواقيت للمدينة و لنجد و للشام و لما فتح اليمن و قت لهم يلملم ثم و قت ذات عرق لأهل العراق و هذا كما أنه فرض صدقة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير عن كل صغير و كبير ذكرا و أنثي من المسلمين و كان هذا هو الفرض على أهل المدينة لأن الشعير و التمر كان قوتهم و لهذا كان جماهير العلماء على أنه من إقتات الأرز و الذرة و نحو ذلك يخرج من قوته و هو إحدى الروايتين عن أحمد و هل يجزيه أن يخرج التمر و الشعير إذا لم يكن يقتاته فيه قولان للعلماء و كان الصحابة يرمون بالقوس العربية الطويلة التى تشبه قوس الندف و فتح الله لهم بها البلاد و قد رويت آثار في كراهة الرمي بالقوس الفارسية عن بعض السلف لكونها كانت شعار الكفار فأما بعد أن إعتادها المسلمون و كثرت فيهم و هي فى أنفسها أنفع فى الجهاد من تلك القوس فلا تكره فى أظهر قولي العلماء أو قول أكثرهم لأن الله تعالى قال {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ }الأنفال60 والقوة في هذا أبلغ بلا ريب و الصحابة لم تكن هذه عندهم فعدلوا عنها الى تلك بل لم يكن لهم غيرا فينظر فى قصدهم بالرمي أكان لحاجة إليها إذ ليس لهم غيرها أم كان لمعنى فيها و من كره الرمي بها كرهه لمعنى لازم كما يكره الكفر و ما يستلزم الكفر

أم كرهها لكونها كانت من شعائر الكفار فكره التشبه بهم و هذا كما أن الكفار من اليهود و النصاري إذا لبسوا ثوب الغيار من أصفر و أزرق نهى عن لباسه لما فيه من التشبه بهم و إن كان لو خلا عن ذلك لم يكره و في بلاد لا يلبس هذه الملابس عندهم إلا الكفار فنهى عن لبسها و الذين إعتادوا ذلك من المسلمين لا مفسدة عندهم فى لبسها و لهذا كره أحمد و غيره لباس السواد لما كان فى لباسه تشبه بمن يظلم أو يعين على الظلم و كره بيعه لمن يستعين بلبسه على الظلم فأما إذا لم يكن فيه مفسدة لم ينه عنه و كره من كره من الصحابة و التابعين بيع الأرض الخراجية لأن المسلم المشتري لها إذا أدى الخراج عنها أشبه أهل الذمة في إلتزام الجزية فإن الخراج جزية الأرض و إن لم يؤدها ظلم المسلمين بإسقاط حقهم من الأرض لم يكرهوا بيعها لكونها و قفا فإن الوقف إنما منع من بيعه لأن ذلك يبطل الوقف و لهذا يباع و لا يوهب و لا يورث و الأرض الخراجية تنتقل الى الوارث بإتفاق العلماء و تجوز هبتها و المتهب المشتري يقوم فيها مقام البائع فيؤدي ما كان عليه من الخراج و ليس فى بيعها مضرة لمستحقي الخراج كما فى بيع الوقف و قد غلط كثير من الفقهاء فظنوا أنهم كرهوا بيعها لكونها و قفا و إشتبه عليهم الأمر لأنهم رأوا الآثار مروية فى كراهة بيعها و قد عرفوا أن عمر جعلها فيئا لم يقسمها قط و ذلك فى معنى الوقف فظنوا أن بيعها مكروه لهذا المعنى و لم يتأملوا حق المتأمل فيرون أن هذا البيع ليس هو من جنس البيع المنهي عنه فى الوقف فإن هذه يصرف مغلها الى مستحقها قبل البيع و بعده و على حد و احد ليست كالدار التى إذا بيعت تعطل نفعها عن أهل الوقف و صارت للمشتري و أعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا مكة إنما كره بيع رباعها لكونها فتحت عنوة و لم تقسم أيضا و هم قد قالوا مع جميع الناس أن الأرض العنوة التى جعلت أرضها فيئا يجوز بيع مساكنها و الخراج إنما جعل على المزارع لا على المساكن فلو كانت

مكة قد جعلت أرضها للمسلمين و جعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها لذلك فكيف و مكة أقرها النبى صلى الله عليه و سلم بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها و مزارعها و لم يقسمها و لم يضرب عليها خراجا و لهذا قال من قال إنها فتحت صلحا و لا ريب أنها فتحت عنوة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة لكن النبى صلى الله عليه و سلم أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل إلا من قاتله و لم يسب لهم ذرية و لا غنم لهم مالا و لهذا سموا الطلقاء وأحمد و غيره من السلف إنما عللوا ذلك بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين كما قال تعالى { وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ }الحج25 و هذه هي العلة التى إختصت بها مكة دون سائر الأمصار فإن الله أوجب حجها على جميع الناس و شرع إعتمارها دائما فجعلها مشتركة بين جميع عباده كما قال { سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ }الحج25 و لهذا كانت منى و غيرها من المشاعر من سبق الى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه كالمساجد و مكة نفسها من سبق الى مكان فهو أحق به و الإنسان أحق بمسكنه ما دام محتاجا إليه و ما إستغنى عنه من المنافع فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج و غيرهم و لهذا كانت الأقوال فى إجارة دورها و بيع رباعها ثلاثة قيل لا يجوز لا هذا و لا هذا و قيل يجوز الأمران و الصحيح أنه يجوز بيع رباعها و لا يجوز إجارتها و على هذا تدل الآثار المنقولة فى ذلك عن النبى صلى الله عليه و سلم و عن الصحابة رضى الله عنهم فإن الصحابة كانوا يتبايعون دورها و الدور تورث و توهب و إذا كانت تورث و توهب جاز أن تباع بخلاف الوقف فإنه لا يباع و لا يورث و لا يوهب وكذلك أم الولد من لم يجوز بيعها لم يجوز هبتها و لا أن تورث و أما إجارتها فقد كانت تدعى السوائب على عهد النبى صلى الله عليه و سلم و أبي بكر و عمر رضي الله عنهما من إحتاج سكن و من إستغنى أسكن لأن المسلمين كلهم محتاجون الى المنافع فصارت كمنافع الأسواق و المساجد و الطرقات التى يحتاج إليها المسلمون فمن سبق الى

شيء منها فهو أحق به و ما إستغنى عنه أخذه غيره بلا عوض و كذلك المباحات التى يشترك فيها االناس و يكون المشترى لها إستفاد بذلك أنه أحق من غيره ما دام محتاج و إذا باعها الإنسان قطع إختصاصه بها و توريثه إياها و غير ذلك من تصرفاته و لهذا له أن لا يبذله إلا بعوض و النبى صلى الله عليه و سلم من على أهل مكة فإن الأسير يجوز المن عليه للمصلحة و أعطاهم مع ذلك ذراريهم و أموالهم كما من على هوازن لما جاءوا مسلمين بإحدى الطائفتين السبي أو المال فإختاروا السبي فأعطاهم السبي و كان ذلك بعد القسمة فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم و كان قد قسم المال فلم يرده عليهم و قريش لم تحاربه كما حاربته هوازن و هو إنما من على من لم يقاتله منهم كما قال من أغلق بابه فهو آمن و من ألقى سلاحه فهو آمن و من دخل المسجد فهو آمن فلما كف جمهورهم عن قتاله و عرف أنهم مسلمون أطلقهم و لم يغنم أموالهم و لا حريمهم و لم يضرب الرق لا عليهم و لا على أولادهم بل سماهم الطلقاء من قريش بخلاف ثقيف فإنهم سموا العتقاء فإنه أعتق أولادهم بعد الإسترقاق و القسمة و كان فى هذا ما دل على أن الإمام يفعل بالأموال و الرجال و العقار و المنقول ما هو أصلح فإن النبى صلى الله علي و سلم فتح خيبر فقسمها بين المسلمين و سبي بعض نسائها و أقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك فلم يسترقهم و مكة فتحها عنوة و لم يقسمها لأجل المصلحة وقد تنازع العلماء في الأرض إذا فتحت عنوة هل يجب قسمها كخيبر لأنها مغنم أو تصير فيئا كما دلت عليه سورة الحشر وليست الأرض من المغنم أو يخير الإمام فيما بين هذا و هذا على ثلاثة أقوال وأكثر العلماء على التخيير وهو الصحيح وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه و غيرهما ولو فتح الإمام بلدا وغلب على ظنه أن أهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم كما فعل النبي بأهل مكة فإنهم أسلموا كلهم بلا خلاف بخلاف أهل خيبر فإنه لم يسلم منهم أحد فأولئك قسم أرضهم لأنهم كانوا كفارا مصرين على الكفر وهؤلاء تركها لهم لأنهم كلهم صاروا مسلمين والمقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله وقد كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم ليتألف على الإسلام فكيف لا يتألفهم بإبقاء ديارهم وأموالهم وهم لما حضروا معه حنينا أعطاهم من غنائم حنين ما تألفهم به حتى عتب بعض الأنصار كما في الصحيحن عن أنس بن مالك أن ناسا من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوزان ما أفاء فطفق رسول الله يعطي رجالا من قريش المائة من الإبل فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس فحدث ذلك النبي من قولهم فأرسل رسول الله إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما حديث بلغني عنكم فقال له فقهاء الأنصار أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا وأما أناس منا حديثه أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألف أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يا رسول الله قد رضينا قال فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض قالوا سنصبر وفي رواية لو سلك الناس واديا أو شعبا وسلكت الأنصار واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم الناس دثار والأنصار شعار ولولا الهجرة لكنت أمرءا من الأنصار وحدثهم حتى بكوا رضي الله تعالى عنهم فهذا كله بذل وعطاء لأجل إسلام الناس وهو المقصود بالجهاد ومن قال إن الإمام يجب عليه قسمة العقار والمنقول مطلقا فقوله في غاية الضعف مخالف لكتاب الله وسنة رسوله المنقول بالتواتر وليس معه حجة حجة واحدة توجب ذلك فإن قسمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خيبر تدل على جواز ما فعل لا تدل على وجوبه إذ الفعل لا يدل بنفسه علو الوجوب وهو لم يقسم مكة ولا شك أنها فتحت عنوة وهذا يعلمه ضرورة من تدبر الأحاديث وكذلك المنقول من قال

أنه يحب قسمه كله بالسوية بين الغانمين في كل غزاة فقوله ضعيف بل يجوز فيه التفضيل للمصلحة كما كان النبي يفضل في كثير من المغازي والمؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غنائم خيبر فيما أعطاهم قولان أحدهما أنه من الخمس والثاني أنه من أصل الغنيمة وهذا أظهر فإن الذي أعطاهم إياه هو شيء كثير لا يحتمله الخمس ومن قال العطاء كان من خمس الخمس فلم يدر كيف وقع الأمر ولم يقل هذا أحد من المتقدمين هذا مع قوله ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم وهذا لأن المؤلفة قلوبهم كانوا من العسكر ففضلهم في العطاء للمصلحة كما كان يفضلهم فيما يقسمه من الفيء للمصلحة وهذا دليل على أن الغنيمة للإمام أن يقسمها باجتهاد كما يقسم الفيء باجتهاده إذا كان إمام عدل قسمها بعلم وعدل ليس قسمتها بين الغانمين كقسمة الميراث بين الورثة وقسمة الصدقات في الأصناف الثمانية ولهذا قال في الصدقات إن الله لم يرض فيها بقسمة نبي ولا غيره ولكن جعلها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأصناف أعطيتك فعلم أن ما أفاء الله من الكفار بخلاف ذلك وقد قسم النبي من خيبر لأهل السفينة الذين قدموا مع جعفر ولم يقسم لأحد غاب غيرهم وقسم من غنائم بدر لطلحة والزبير ولعثمان وكان قد أقام بالمدينة وهؤلاء الذين كانوا يريدون القتال وكانوا مشغولين ببعض مصالح المسلمين الذين هم فيها في الجهاد وأيضا أهل السفينة وطلحة والزبير وعثمان لم يكونوا كغيرهم والقتال لم يكن لأجل الغنيمة فليست الغنيمة كمباح اشتراك في ناس مثل الإحتشاش والإحتطاب والإصطياد فإن ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال بخلاف الغنيمة بل من قاتل فيها لأجل المال لم يكن مجاهدا في سبيل الله ولهذا لم تبح الغنائم لمن قبلنا وابيحت لنا معونة على مصلحة الدين فالغنائم أبيحت لمصلحة الدين وأهله فمن كان قد نفع المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم جعل منهم وإن لم يحضر ولهذا قال النبي المسلمون يد واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ويرد متسريهم على قاعدهم فإن المتسري إنما تسري بقوة القاعد فالمعاونون للمجاهدون من المجاهدون ولبسط هذه الأمور موضع آخر والمصود هنا ذكر متابعة النبي وهو أنه يعتبر فيه متابعته في قصده فإذا قصد مكانا للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سنة وأما إذا صلى فيه اتفاقا من غير قصد لم يكن مشابهته في ذلك وابن عمر رضي الله عنهما مع أنه كان يحب مشابهته في ظاهر الفعل لم يكن يقصد الصلاة إلا في الموضع الذي صلى فيه لا في كل موضع نزل به ولهذا رخص أحمد بن حنبل في ذلك إذا كان شيئا يسيرا كما فعله ابن عمر ونهى عنه رضي الله عنه إذا كثر لأنه يفضي إلى المفسدة وهي اتخاذ آثار الأنبياء مساجد وهي التي تسمى المشاهد وما أحدث في الإسلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار فهو من البدع المحدثة في الإسلام من فعل من لم يعرف شريعة الإسلام وما بعث الله بها محمدا من كمال التوحيد وإخلاص الدين لله وسد أبواب الشرك التي يفتحها الشيطان لبني آدم ولهذا يوجد من كان أبعد عن التوحيد وإخلاص الدين لله ومعرفة دين الإسلام هم أكثر تعظيما لمواضع الشرك فالعارفون بسنة رسول الله وحديثه أولى بالتوحيد وإخلاص الدين لله وأهل الجهل بذلك أقرب إلى الشرك والبدع ولهذا يوجد ذلك في الرافضة أكثر مما يوجد في غيرهم لأنهم أجهل من غيرهم وأكثر شركا وبدعا ولهذا يعظمون المشاهد أعظم من غيرهم ويخربون المساجد أكثر من غيرهم فالمساجد لا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ولا يصلون فيها أن صلوا إلا أفرادا وأما المشاهد فيعظمونها أكثر من المساجد حتى قد يرون أن زيارتها أولى من حج بيت الله الحرام ويسمونها الحج الأكبر وصنف ابن المفيد منهم كتابا سماه مناسك حج المشاهد وذكر فيه من الأكاذيب والأقوال مالا يوجد في سائر الطوائف وإن كان في غيرهم أيضا نوع من الشرك والكذب والبدع لكن هو فيهم أكثر وكلما كان الرجل اتبع لمحمد كان أعظم توحيدا لله وإخلاصا له في الدين وإذا بعد عن متابعة نقص من دينه بحسب ذلك إذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع مالا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى

اتباع الرسول والله إنما أمر في كتابه وسنة رسوله بالعبادة في المساجد والعبادة فيها هي عمارتها قال تعالى{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ }البقرة114 ولم يقل مشاهد الله وقال تعالى {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }الأعراف29 ولم يقل عند كل مشهد فإن أهل المشاهد ليس فيهم إخلاص الدين لله بل فيهم نوع من الشرك وقال تعالى {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ {17} إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ{18}التوبة17-18 الآيات وفي الترمذي عن النبي أنه قال إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ثم قرأ هذه الأية فإن المراد بعمارتها عمارتها بالعبادة فيها كالصلاة والإعتكاف يقال مدينة عامرة إذا كانت مسكونة ومدينة خراب إذا لم يكن فيها ساكن ومنه قوله تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }التوبة19 وأما نفس بناء المساجد فيجوز أن يبنيها البر والفاجر والمسلم والكافر وذلك يسمى بناء كما قال النبي من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة فبين الله تعالى إن المشركين ما كان لهم عمارة مساجد الله مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر وبين إنما يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله وهذه صفة أهل التوحيد وإخلاص الدين لله الذين لا يخشون إلا الله ولا يرجون سواه ولا يستعينون إلا به ولا يدعون إلاإياه وعمار مشاهد الله فإن المشاهد ليست بيوت الله إنما هي بيوت الشرك ولهذا ليس في القرآن آية فيها مدح المشاهد ولا عن النبي في ذلك حديث وإنما ذكره الله عمن كان قبلنا أنهم بنوا مسجدا على قبر أهل الكهف وهؤلاء من الذين نهانا الله أن نتشبه بهم حيث قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إن من كان قبلكم كانوا يتحذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك ففي هذا الحديث ذم أهل المشاهد وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة كما قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا وقال أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة ثم أهل المشاهد كثير من مشاهدهم أو أكثرها كذب فإن الشرك مقرون بالكذب في كتاب الله كثيرا قال تعالى{ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ{30} حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ {31}التوبة 30-31 وقال النبي عدلت شهادة الزور الإشراك بالله قالها ثلاثا وذلك كالمشهد الذي بنى بالقاهرة على رأس الحسين وهو كذب باتفاق أهل العلم ورأس الحسين لم يحمل إلى هناك أصلا وأصله من عسقلان وقد قيل أنه كان رأس راهب ورأس الحسين لم يكن بعسقلان وإنما أحدث هذا في أواخر دولة الملاحدة بني عبيد وكذلك مشهد علي رضي الله عنه إنما أحدث في دولة بني بويه وقال محمد بن عبد الله مطين الحافظ وغيره إنما هو قبر المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه وعلي رضي الله عنه إنما دفن بقصر الإمارة بالكوفة ودفن معاوية بقصر الإمارة بدمشق ودفن عمرو بن العاص بقصر الإمارة بمصر خوفا عليهم إذا دفنوا في المقابر البارزة أن ينبشهم الخوارج المارقون فإن الخوارج كانوا تعاهدوا على قتل الثلاثة فقتل ابن ملجم عليا وجرح صاحبه معاوية وعمرو كان استخلف رجلا اسمه خارجة فقتله الخارجي وقال أردت عمرا وأراد الله خارجة فسارت مثلا فالمقصود أن هذا المشهد إنما أحدث في دولة الملاحدة دولة بني عبيد وكان فيهم من الجهل والضلال ومعاضدة الملاحدة وأهل البدع من المعتزلة والرافضة أمور كثير ولهذا كان في زمنهم قد تضعضع الإسلام تضعضعا كثيرا ودخلت النصارى إلى الشام فإن بني عبيد ملاحدة منافقون ليس لهم غرض في الإيمان بالله ورسوله ولا في الجهاد في سبيل الله بل الكفر والشرك ومعاداة الإسلام بحسب الإمكان واتباعهم كلهم أهل بدع وضلال فاستولت النصارى في دولتهم على أكثر الشام ثم قيض الله من ملوك السنة مثل نور الدين وصلاح الدين وأخوته وأتباعهم

ففتحوا بلاد الإسلام وجاهدوا الكفار والمنافقين ونهى النبي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ والشيطان يقارنها وإن كان المسلم المصلي لا يقصد السجود لها لكن سد الذريعة لئلا يتشبه بالمشركين في بعض الأمور التي يختصون بها فيفضي إلى ما هو شرك ولهذا نهى عن تحري الصلاة في هذين الوقتين هذا لفظ ابن عمر الذي في الصحيحين فقصد الصلاة فيها منهي عنه وأما إذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله مثل تحية المسجد وصلاة الكسوف وسجود التلاوة وركعتي الطواف وإعادة الصلاة مع إمام الحي ونحو ذلك فهذه فيها نزاع مشهور بين العلماء والأظهر جواز ذلك واستحبابه فإنه خير لا شر فيه وهو يفوت إذا ترك وإنما نهى عن قصد الصلاة وتحريها في ذلك الوقت لما فيه من مشابهة الكفار بقصد السجود ذلك الوقت فما لا سبب له قد قصد فعله في ذلك الوقت وإن لم يقصد الوقت بخلاف ذي السبب فإنه فعل لأجل السبب فلا تأثير فيه للوقت بحال ونهى النبي عن الصلاة في المقبرة عموما فقال الأرض كلها مسجد إلاالمقبرة والحمام رواه أهل السنن وقد روي مسندا ومرسلا وقد صحح الحفاظ أنه مسند فإن الحمام مأوى الشياطين والمقابر نهى عنها لما فيه من التشبه بالمتخذين القبور مساجد وإن كان المصلي قد لا يقصد الصلاة لأجل فضيلة تلك البقعة بل اتفق له ذلك لكن فيه تشبه بمن يقصد ذلك فنهى عنه كما ينهى عن الصلاة المطلقة وقت الطلوع والغروب وإن لم يقصد فضيلة ذلك الوقت لما فيه من التشبه بمن يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون فنهيه عن الصلاة في هذا الزمان كنهيه عن الصلاة في ذلك المكان فلما كان الشرك الذي أضل أكثر بني آدم أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على صورهم فإن المشركين قد اعتادوا آلهة يلدون ويولدون ويرثون ويورثون ويكونون من شيء من الأشياء فسألوا النبي عن إلهه الذي يعبده من أي شيء هو أمن كذا أم من كذا وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فقال تعالى{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4}الاخلاص1-4 وفي حديث أبي بن كعب لأنه ليس أحد يولد إلا يموت ولا أحد يرث إلا يورث يقول كل من عبد من دون الله قد ولد مثل المسيح والعزيز وغيرهما من الصالحين وتماثيلهم ومثل الفراعنة المدعين الآلهية فهذا مولود يموت وهو إن كان ورث من غيره ما هو فيه فإذا مات ورثه غيره والله سبحانه حي لا يموت ولا يورث سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على محمد [1]

أكبر اصول الايمان

ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 260-315

الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لايكون عملا صالحا بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لايقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{83}ص82 -83 وقال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر42 وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{100}النحل99-100 فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }يوسف24

واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }ص85 وقد قال سبحانه {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ }النساء48 وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لايغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً }الزمر53 فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الآولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء {5} البينة4-5 الآية وهذا حقيقة قول لا اله إلاالله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }الأنبياء25 وقال {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }الزخرف45 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام {اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ }الأعراف59 وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول { اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ } لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هوالامام الذى قال الله فيه { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً }البقرة124 وفى ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{28} الزخرف26-28 فهذه الكلمة هى كلمة الاخلاص لله وهى البراءة من كل معبود الامن الخالق الذى فطرنا كما قال صاحب يس { وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{22} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{23} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{24} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{25} يس 22-25 ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الذى اقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد وقمع به المشركين من كان مشركا فى الأصل ومن الذين كفروا

من اهل الكتب وقال فيما رواه الامام أحمد وغيره بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى ومن تشبه بقوم منهم وقد تقدم بعض ما انزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد وقال تعالى ايضا {وَالصَّافَّاتِ صَفّاً }الصافات1 الى قوله {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ }الصافات4 الى قوله { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ{35} وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ{36} بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ{37}الصافات35-37 الى قوله { إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{40} أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ{41} فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ{42} الصافات 40-42الى ما ذكره من قصص الأنبياء فى التوحيد واخلاص الدين لله الى قوله { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ{159} إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{160}الصافات159-160 وقال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{145} إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{146}النساء145 -146 وفى الجملة فهذا الأصل فى سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم وآل حم وآل المر وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر فهو اصل الأصول وقاعدة الدين حتى فى سورتى الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هو الله أحد وهاتان السورتان كان النبى يقرأ بهما فى صلاة التطوع كركعتى الطواف وسنة الفجر وهما متضمنتان للتوحيد فاما قل يا ايها الكافرون فهى متضمنة للتوحيد العملى الأرادى وهو اخلاص الدين لله بالقصد والارادة وهو الذى يتكلم به مشائخ التصوف غالبا واما سورة قل هو الله احد فمتضمنة للتوحيد القولى العملى كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة ان رجلا كان يقرأ قل هو الله احد فى صلاته فقال النبى سلوه لم يفعل ذلك فقال لانها صفة الرحمن فانا احب ان اقرأ بها فقال اخبروه ان اله يحبه ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانة وتعالى الذى ينفى قول اهل التعطيل وقول اهل التمثيل ما صارت به هى الأصل المعتمد فى سائل الذات كما قد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته من تفسير الأحد الصمد كما جاء تفسيره عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وما دل على ذلك من الدلائل لكن المقصود هنا هو التوحيد العملى وهو اخلاص الدين لله وان كان احد النوعين مرتبطا بالأخر فلا يوجد أحد من اهل التعطيل الجهمية واهل التمثيل المشبهة الا وفيه نوع من الشرك العملى اذ اصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه او بينه وبين المعدومات كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات فى الصفات السلبية التى لا تستلزم مدحا ولا ثبوت كمال اويسوون بينه وبين الناقص من الموجودات فى صفات النقص وكما يسووى اذا اثبتوا هم ومن ضاهاهم من الممثلة بينه وبين المخلوقات فى حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدونها فيعدلون بربهم ويجعلون له اندادا ويسوون المخلوقات برب العالملين واليهود كثيرا ما يعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التى يجب تنزيهه عنها وهى من صفات خلقه والنصارى كثيرا ما يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا فى المخلوقات من نعوت الربوبية وصفات الالهية ويجوزون له مالا يصلح الا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا والله سبحانه وتعالى قد امرنا ان نسأله ان يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين وقد قال النبى اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وفى هذه الأمة من فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبى لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن والحديث فى الصحيحين فاذا كان اصل العمل الدينى هو اخلاص

الدين لله وهو ارادة الله وحده فالشئ المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة لكن اكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }الذاريات56 وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ }البقرة21 وامثال هذا والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحبوب الذى لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا والمعظم الذى لا يحب لا يكون معبودا ولهذا قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 فبين سبحانه ان المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله اندادا وان كانوا يحبونهم كما يحبون الله فالذين آمنوا اشد حبا لله منهم لله ولأوثانهم لأن المؤمنين اعلنم بالله والحب يتبع العلم وأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده اعلم بالله والحب يتبع العلم ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده واولئك جعلوا بعض حبهم لغيره واشركوا بينه وبين الأنداد في الحب ومعلوم أن ذلك اكمل[1]

كره السلف ان ترد البدعة بالبدعة

كره السلف والأئمة كالامام احمد وغيره ان ترد البدعة بالبدعة فكان أحمد فى مناظرته للجهمية لما ناظروه على ان القرآن مخلوق وألزمه أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث انه اذا كان غير مخلوق لزم ان يكون الله جسما وهذا منتف فلم يوافقه احمد لا على نفي ذلك ولا على اثباته بل قال (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} ونبه أحمد على ان هذا اللفظ لا يدرى ما يريدون به وإذا لم يعرف مراد المتكلم به لم يوافقه لا على إثباته ولا على نفيه فان ذكر معنى اثبته الله ورسوله اثبتناه وإن ذكر معنى نفاه الله ورسوله نفيناه باللسان العربى المبين ولم نحتج إلى الفاظ مبتدعة فى الشرع محرفة فى اللغة ومعانيها متناقضة فى العقل فيفسد الشرع واللغة والعقل كما فعل اهل البدع من اهل الكلام الباطل المخالف للكتاب والسنة [2]

سورة الاخلاص فيها إثبات الذات

فإن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن إذ كان القرآن باعتبار معانيه ثلاث أثلاث ثلث توحيد وثلث قصص وثلث أمر ونهي لأن القرآن كلام الله والكلام إما إنشاء وإما إخبار والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق والإنشاء أمر ونهي وإباحة فقل هو الله أحد فيها ثلث التوحيد الذي هو خبر عن الخالق وقد قال صلى الله عليه وسلم قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن وعدل الشيء بالفتح يكون ما ساواه من غير جنسه وعدل الشيء بالفتح يكون ما ساواه من غير جنسه كما قال تعالى أو { أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً}المائدة95 وذلك يقتضي أن له من الثواب ما يساوي الثلث في القدر ولا يكون مثله في الصفة كمن معه ألف دينار وآخر معه ما يعدلها من الفضة والنحاس وغيرهما ولهذا يحتاج إلى سائر القرآن ولا تغني عنه هذه السورة مطلقا كما يحتاج من معه نوع من المال إلى سائر الأنواع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 54-58 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 62 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 62

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 429

إذ كان العبد محتاجا إلى الأمر والنهي والقصص وسورة قل هو الله أحد فيها التوحيد القولي العملي الذي تدل عليه الأسماء والصفات ولهذا قال تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص وقد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع وسورة قل هو الله أحد فيها إثبات الذات وما لها من الأسماء والصفات التي يتميز بها مثبتو الرب الخالق الأحد الصمد عن المعطلين له بالحقيقة نفاة الأسماء والصفات المضاهين لفرعون وأمثاله ممن أظهر التعطيل والجحود للإله المعبود وإن كان في الباطن يقر به كما قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }النمل14 وقال موسى {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً }الإسراء102 والله سبحانه بعث أنبياءه بإثبات مفصل ونفي مجمل فأثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقات ومن خالفهم من المعطلة المتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل يقولون ليس كذا لس كذا ليس كذا فإذا أرادوا إثباته قالوا وجود مطلق بشرط النفي أو بشرط الإطلاق وهم يقرون في منطقهم اليوناني أن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون في الخارج فليس في الخارج حيوان مطلق بشرط الإطلاق ولا إنسان مطلق بشرط الإطلاق ولا موجود مطلق بشرط الإطلاق بخلاف المطلق لا بشرط الذي يطلق على هذا وهذا وينقسم إلى هذا وهذا فإن هذا يقال إنه في الخارج لا يكون إلا معينا مشخصا أو يقولون إنه الوجود المشروط بنفي كل ثبوت عنه منه فيكون مشاركا لسائر الموجودات في مسمى الوجود متميزا عنها بالعدم وكل موجود متميزا بأمر ثبوتي والوجود خير من العدم فيكون أحقر الموجودات خيرا من العدم وذلك ممتنع لأن المتميز بين الموجودين لا يكون عدما محضا بل لا يكون إلا وجودا فهؤلاء الذين يدعون أنهم أفضل المتأخرين من الفلاسفة المشائين يقولون في وجود واجب الوجود ما يعلم بصريح المعقول الموافق لقوانينهم المنطقية أنه قول بامتناع وجود الواجب وأنه جمع بين النقضيين وهذا هو في غاية الجهل والضلال وأما الرسل صلوات الله عليهم فطريقتهم طريقة القرآن قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182} الصافات180 -182 والله تعالى يخبر في كتابه أنه حي قيوم عليم حكيم غفور رحيم سميع بصير علي عظيم خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش وكلم موسى تكليما وتجلى للجبل فجعله دكا يرضى عن المؤمنين ويغضب على الكافرين إلى أمثال ذلك من الأسماء والصفات ويقول في النفي ليس كمثله شيء ولم يكن له كفوا أحد هل تعلم له سميا فلا تجعلوا لله أندادا فنفى بذلك أن تكون صفاته كصفات المخلوقين وأنه ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في شيء من صفاته ولا أفعاله {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً {43} تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً{44}الإسراء43 -44 فالمؤمن يؤمن بالله وما له من الأسماء الحسنى ويدعوه بها ويجتنب الإلحاد في أسمائه وآياته قال تعالى {وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }الأعراف180 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا }فصلت40 وهو يدعو الله وحده ويعبده وحده ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ويجتنب طريق المشركين الذين قال الله تعالى فيهم {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً {56} أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{57}الإسراء56 -57 وقال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ

فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ{22} وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ{23} سبأ22-23 وهذه جمل لها تفاصيل ونكت تشير إلى خطب جليل فليجتهد المؤمن في تحقيق العلم والأيمان وليتخذ الله هاديا ونصيرا وحاكما ووليا فإنه نعم المولى ونعم النصير وكفى بربك هاديا ونصيرا وإن أحب دعا بالدعاء الذي رواه مسلم وأبو داود وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلي من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم وذلك أن الله تعالى يقول {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً }البقرة213 أي فاختلفوا كما في سورة يونس {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ }يونس19 وقد قيل إنها كذلك في حرف عبد الله { فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }البقرة213[1]

الصمد اسم يتضمن إثبات صفات الكمال

فالله سبحانه احد صمد والاحد ينفى التمثيل و الصمد ينفى ان يكون قابلا للتفريق والتقسيم والبعضية سبحانه وتعالى[2]

فالصمد اسم يتضمن إثبات صفات الكمال ونفي النقائص وهو العليم الكامل في علمه القدير الكامل في قدرته الحكيم الكامل في حكمته ولنا مصنف مبسوط في تفسير هذه السورة وآخر في بيان أنها تعادل ثلث القرآن وذكرنا كلام علماء المسلمين من الصحابة والتابعين في معنى الصمد وأن عامة ما قالوه حق كقول من قال منهم إن الصمد الذي لا جوف له ومن قال منهم إنه السيد الذي انتهى سؤدده كما قيل إنه المستغني عن كل ما سواه وكل ما سواه محتاج إليه وكما قيل إنه العليم الكامل في علمه والقدير الكامل في قدرته إلى سائر صفات الكمال وذكر تعالى في هذه السورة أنه أحد ليس له كفوا أحد فنفى بذلك أن يكون شيئا من الأشياء له كفوا وبين أنه أحد لا نظير له وقال في آية أخرى {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 وقال { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 وقال {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }النحل74 وقال {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }البقرة22 وما ورد في القرآن والسنة من إثبات صفات الله فقد ورد في التوراة وغيرها من كتب الله مثل ذلك فهو أمر اتفقت عليه الرسل وأهل الكتاب في ذلك كالمسلمين[3]

---

[1] اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 464-468

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 426

[3] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

واجمع سلف الأمة وأئمتها على ان الرب تعالى بائن من مخلوقاته يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ويعلم انه ليس كمثله شيء فى صفات الكمال كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص 1-4 قال ابن عباس الصمد العليم الذى كمل فى علمه العظيم الذى كمل فى عظمته القدير الكامل فى قدرته الحكيم الكامل فى حكمته السيد الكامل فى سؤدده وقال ابن مسعود وغيره هو الذى لا جوف له و الاحد الذى لا نظير له فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفى النقائص عنه واسمه الاحد يتضمن اتصافه انه لا مثل له وقد بسطنا الكلام على ذلك فى تفسير هذه السورة وفى كونها تعدل ثلث القرآن [1]

العقل الصريح يجزم بأن الله ليس كمثله شيء

لا ريب أن الله كما وصف نفسه وقد دل على ذلك العقل فإن المثلين اللذين يسد أحدهما مسد الآخر يجب لأحدهما ما يجب للآخر ويمتنع عليه ما يمتنع عليه ويجوز عليه ما يجوز عليه فلو كان للخالق مثل للزم أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع والخالق يجب له الوجود والقدم ويمتنع عليه العدم فيلزم أن يكون المخلوق واجب الوجود قديما أزليا لم يعدم قط وكونه محدثا مخلوقا يستلزم أن يكون كان معدوما فيلزم أن يكون موجودا معدوما قديما محدثا وهو جمع بين النقيضين يمتنع في بداية العقول وأيضا فالمخلوق يمتنع عليه القدم ويجب له سابقة العدم فلو وجب للخالق القديم ما يجب له لوجب كون الواجب للقدم واجب الحدوث بعد العدم وهذا جمع بين النقيضين فالعقل الصريح يجزم بأن الله ليس كمثله شيء والكلام على هذا مبسوط في موضع آخر [2]

نزه الله نفسه عن ادعاءات النصارى

فحقيقة قول النصارى انهم يجمعون بين جعل الآلهة واحدا وإثبات ثلاثة آلهة وبين إثبات جوهر واحد وبين إثباته ثلاثة جواهر وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 فنزه نفسه أن يلد كما يقولون هو الأب وأن يولد كما يقولون هو الابن وأن يكون له كفوا أحد كما يقولون إن له من يساويه في الجوهر [3]

دلالة القرآن على الامور نوعان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 250-251

[2] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 205

[3] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 231

ان الكمال ثابت لله بل الثابت له هو اقصى ما يمكن من الاكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه الا وهو ثابت للرب تعالى يستحقه بنفسه المقدسة وثبوت ذلك مستلزم نفى نقيضه فثبوت الحياة يستلزم نفى الموت وثبوت العلم يستلزم نفى الجهل وثبوت القدرة يستلزم نفى العجز وان هذا الكمال ثابت له بمقتضى الادلة العقلية والبراهين اليقينية مع دلالة السمع على ذلك ودلالة القرآن على الامور نوعان أحدهما خبر الله الصادق فما اخبر الله ورسوله به فهو حق كما أخبر الله به و الثانى دلالة القرآن بضرب الامثال وبيان الادلة العقلية الدالة على المطلوب فهذه دلالة شرعية عقلية فهى شرعية لان الشرع دل عليها وارشد اليها و عقلية لانها تعلم صحتها بالعقل ولا يقال انها لم تعلم الا بمجرد الخبر واذا اخبر الله بالشىء ودل عليه بالدلالات العقلية صار مدلولا عليه بخبره ومدلولا عليه بدليله العقلى الذى يعلم به فيصير ثابتا بالسمع والعقل وكلاهما داخل فى دلالة القرآن التى تسمى الدلالة الشرعية وثبوت معنى الكمال قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة دالة على معانى متضمنة لهذا المعنى فما فى القرآن من اثبات الحمد لله وتفصيل محامده وان له المثل الاعلى واثبات معانى اسمائه ونحو ذلك كله دال على هذا المعنى وقد ثبت لفظ الكامل فيما رواه ابن ابى طلحة عن ابن عباس فى تفسير (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} الاخلاص 1-2 ان الصمد هو المستحق للكمال وهو السيد الذى كمل فى سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمل فى عظمته والحكم الذى قد كمل فى حكمه والغنى الذى قد كمل فى غناه والجبار الذى قد كمل فى جبروته والعالم الذى قد كمل فى علمه والحكيم الذى قد كمل فى حكمته وهو الشريف الذى قد كمل فى انواع الشرف والسؤدد وهو الله سبحانه وتعالى وهذه صفة لا تنبغى الا له ليس له كفؤ ولا كمثله شىء وهكذا سائر صفات الكمال ولم يعلم احد من الامة نازع فى هذا المعنى بل هذا المعنى مستقر فى فطر الناس بل هم مفطورون عليه فانهم كما انهم مفطورون على الاقرار بالخالق فانهم مفطورون على انه اجل واكبر واعلى واعلم واعظم واكمل من كل شىء وقد بينا فى غير هذا الموضع ان الاقرار بالخالق وكماله يكون فطريا ضروريا فى حق من سلمت فطرته وان كان مع ذلك تقوم عليه الادلة الكثيرة وقد يحتاج الى الادلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة واحوال تعرض لها واما لفظ الكامل فقد نقل الاشعرى عن الجبائى انه كان يمنع ان يسمى الله كاملا ويقول الكامل الذى له ابعاض مجتمعة وهذا النزاع ان كان فى المعنى فهو باطل وان كان فى اللفظ فهو نزاع لفظى و المقصود هنا ان ثبوت الكمال له ونفى النقائص عنه مما يعلم بالعقل[1]

المستوجب لصفات السؤدد

فثبوت صفات الكمال له ينفى إتصافه بأضدادها و هي النقائص و هو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من صفات الكمال فهو منزه عن النقص المضاد لكماله و منزه عن أن يكون له مثل فى شيء من صفاته و معانى التنزيه ترجع إلي هذين الأصلين و قد دل عليهما سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن بقوله{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} الاخلاص1-2 فإسمه الصمد يجمع معاني صفات الكمال كما قد بسط ذلك فى تفسير هذه السورة و فى غير موضع و هو كما فى

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 71-73

تفسير إبن أبى طلحة عن إبن عباس أنه المستوجب لصفات السؤدد العليم الذي قد كمل فى علمه الحكيم الذي قد كمل فى حكمته إلى غير ذلك مما قد بين و قوله الأحد يقتضي أنه لا مثل له و لا نظير { وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص4 [1]

إثبات علوه سبحانه على ما سواه

فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه فى كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء و الأولاد فليس كمثله شيء و هذا يقتضى ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه و أنه لا يماثله غيره فى شيء من صفات الكمال بل هو متعال عن أن يماثله شيء و تضمن أنه عال على كل ما سواه قاهر له قادر عليه نافذة مشيئته فيه و أنه عال على الجميع فوق عرشه فهذه ثلاثة أمور في إسمه العلى و إثبات علوه علوه على ما سواه و قدرته عليه و قهره يقتضي ربوبيته له و خلقه له و ذلك يستلزم ثبوت الكمال و علوه عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له فى صفات الكمال و هذا و هذا يقتضي جميع ما يوصف به في الإثبات و النفي ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال و فى النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال و ينزه عن أن يكون له مثل فى صفات الكمال كما قد دلت على هذا و هذا سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2}الاخلاص 1-2 وتعاليه عن الشركاء يقتضي إختصاصه بالإلهية و أنه لا يستحق العبادة إلا هو و حده كما قال{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً }الإسراء42 أي و إن كانوا كما يقولون يشفعون عنده بغير إذنه و يقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب و الإله دونهم وكانوا يبتغون إليه سبيلا بالعبادة له والتقرب إليه[2]

يجب تنزيه الله سبحانه عن كل عيب و نقص

فالعبد لا بد له فى كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو الهه ومنتهى يطلب منه هو مستعانه وذلك هو صمده الذى يصمد اليه فى إستعانته وعبادته[3]

فالإنسان وكل مخلوق فقير الى الله بالذات وفقره من لوازم ذاته يمتنع أن يكون إلا فقيرا إلى خالقه وليس أحد غنيا بنفسه إلا الله وحده فهو الصمد الغنى عما سواه وكلما سواه فقير اليه فالعبد فقير الى الله من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته كما قد بسط هذا فى مواضع[4]

ولا ريب أن الله يجب تنزيهه عن كل عيب و نقص وآفة فإنه القدوس السلام الصمد السيد الكامل فى كل نعت من نعوت لكمال كمالا يدرك الخلق حقيقته منزة عن كل نقص تنزيها لا يدرك الخلق كماله و كل كمال ثبت لموجود من غير إستلزام نقص فالخالق تعالى أحق به و أكمل فيه منه و كل نقص

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 98-99

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:123- 124

[3] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 36

[4] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 42

ينزة عنه مخلوق فالخالق أحق بتزيهه عنه وأولى ببراءته منه روينا من طريق غير و احد كعثمان بن سعيد الدارمي و أبى جعفر الطبري و أبى بكر البيهقى و غيرهم فى تفسير على بن أبى طلحة عن أبن عباس فى قوله تعالى الصمد قال السيد الذي قد كمل فى سؤدده و الشريف الذي قد كمل فى شرفه و العظيم الذي قد كمل فى عظمته و الحكيم الذي قد كمل في حكمته و الغنى الذى قد كمل فى غناه و الجبار الذى قد كمل فى جبروته و العالم الذى قد كمل فى علمه و الحليم الذى قد كمل في حلمه وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف و السؤدد وهو و الله عز و جل هذه صفة لا تنبغي إلاله ليس له كفؤ و ليس كمثله شيء سبحانه الواحد القهار و هذا التفسير ثابت عن عبد الله بن أبى صالح عن معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة الوالبي لكن يقال أنه لم يسمع التفسير من إبن عباس و لكن مثل هذا الكلام ثابت عن السلف و روى عن سعيد بن جبير أنه قال الصمد الكامل فى صفاته و أفعاله و ثبت عن أبى و ائل شقيق بن سلمة أنه قال الصمد السيد الذى إنتهى سؤدده و هذه الأقوال و ما أشبهها لا تنافى ما قاله كثير من السلف كسعيد بن المسيب و سعيد بن جبير و مجاهد و الحسن و السدى و الضحاك و غيرهم من أن الصمد هو الذي لا جوف له وهذا منقول عن ابن مسعود عن عبد الله بن بريدة عن أبيه موقوفا أو مرفوعا فإن كلا القولين حق كما بسط الكلام على ذلك فلا غير هذا الموضع [1]

والنقص ضد الكمال وذلك مثل أنه قد علم أنه حى والموت ضد ذلك فهو منزه عنه وكذلك اللغوب نقص في القدرة والقوة والأكل والشرب ونحو ذلك من الأمور فيه افتقار إلى موجود غيره كما أن الإستعانة بالغير والإعتضاد به ونحو ذلك تتضمن الإفتقار إليه والإحتياج إليه وكل من يحتاج إلى من يحمله أو يعينه على قيام ذاته وأفعاله فهو مفتقر إليه ليس مستغنيا عنه بنفسه فكيف من يأكل ويشرب والآكل والشارب أجوف والمصمت الصمد أكمل من الآكل والشارب ولهذا كانت الملائكة صمدا لا تأكل ولا تشرب وقد تقدم أن كل كماله ثبت لمخلوق فالخالق أولى به وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بتنزيهه عن ذلك والسمع قد نفى ذلك في غير موضع كقوله تعالى {اللَّهُ الصَّمَدُ{2} الاخلاص2 والصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب وهذه السورة هي نسب الرحمن أوهى الأصل في هذا الباب وقال في حق المسيح وأمه {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ }المائدة75 فجعل ذلك دليلا على نفى الألوهية فدل ذلك على تنزيهه عن ذلك بطريق الأولى والأخرى والكبد والطحال ونحو ذلك هى أعضاء االأكل والشرب فالغنى المنزه عن ذلك منزه عن آلات ذلك بخلاف اليد فأنها للعمل والفعل وهو سبحانه موصوف بالعمل والفعل إذ ذاك من صفات الكمال فمن يقدر أن يفعل أكمل ممن لا يقدر على الفعل وهو سبحانه منزه عن الصحابة والولد وعن آلات ذلك وأسبابه وكذلك البكاء والحزن هو مستلزم الضعف والعجز الذي ينزه عنه سبحانه بخلاف الفرح والغضب فإنه من صفات الكمال فكما يوصف بالقدرة دون العجز وبالعلم دون الجهل وبالحياة دون الموت وبالسمع دون الصمم وبالبصر دون العمى وبالكلام دون البكم فكذلك يوصف بالفرح دون الحزن وبالضحك دون البكاء ونحو ذلك وأيضا فقد ثبت بالعقل ما أثبته السمع من أنه سبحانه لا كفؤ له ولا سمى له وليس كمثله شيء فلا يجوز أن تكون حقيقته كحقيقة شيء من المخلوقات ولا حقيقة شيء من صفاته كحقيقة شيء من صفات المخلوقات فيعلم قطعا أنه ليس من جنس المخلوقات ولا الملائكة ولا السموات ولا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 149-150

الكواكب ولا الهواء ولا الماء ولا الأرض ولا الآدميين ولا أبدانهم ولا أنفسهم ولا غير ذلك بل يعلم أن حقيقته عن مماثلات شيء من الموجودات أبعد من سائر الحقائق وأن مماثلته لشيء منها أبعد من مماثلة حقيقة شيء من المخلوقات لحقيقة مخلوق آخر فإن الحقيقتين إذا تماثلتا جاز على كل واحدة ما يجوز على الأخرى ووجب لها ما وجب لها فيلزم أن يجوز على الخالق القديم الواجب بنفسه ما يجوز على المحدث المخلوق من العدم والحاجة وأن يثبت لهذا ما يثبت لذلك من الوجوب والفناء فيكون الشيء الواحد واجبا بنفسه غير واجب بنفسه موجودا معدوما وذلك جمع بين النقيضين وهذا مما يعلم به بطلان قول المشبهة الذين يقولون بصر كبصري أو يد كيدي ونحو ذلك تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا [1]

انتفاء التجسيم والتشبيه

قوله (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } الاخلاص1 وقوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 وقوله { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 وهؤلاء الايات انما يدللن على انتفاء التجسيم والتشبيه[2]

وجوب إثبات ما اثبته من الصفات

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182}الصافات180 -182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفى والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف به نفسه فى سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 وما وصف به نفسه فى أعظم آية فى كتابه حيث يقول {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص:85- 86

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 368

عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }البقرة255 ولا يؤوده حفظهما اى لا يكرثه ولا يثقله وهو العلى العظيم ولهذا كان من قرأ هذه الآية فى ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح [1]

فلا بد للعبد أن يثبت لله ما يجب اثباته له من صفات الكمال وينفى عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال ولا بد له فى أحكامه من ان يثبت خلقه وأمره فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ويثبت امره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويؤمن بشرعه وقدره إيمانا خاليا من الزلل وهذا يتضمن التوحيد فى عبادته وحده لا شريك له وهو التوحيد فى القصد والإرادة والعمل والأول يتضمن التوحيد فى العلم والقول كما دل على ذلك سورة قل هو الله احد ودل على الآخر سورة قل ياأيها الكافرون وهما سورتا الإخلاص وبهما كان النبى يقرأ بعد الفاتحة فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك فأما الأول وهو التوحيد فى الصفات فالأصل فى هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله نفيا وإثباتا فيثبت لله ما اثبته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم ان طريقة سلف الامة وأئمتها إثبات ما اثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع اثبات ما اثبته من الصفات من غير الحاد لا فى أسمائه ولا فى آياته فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون فى أسمائه وآياته كما قال تعالى {وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }الأعراف180 وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }فصلت40 فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات اثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 ففى قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}الشورى11 رد للتشبيه والتمثيل وقوله { وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 رد للإلحاد والتعطيل والله سبحانه بعث رسله باثبات مفصل ونفى مجمل فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى { فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 قال اهل اللغة هل تعلم له سميا أى نظيرا يستحق مثل اسمه ويقال مساميا يساميه وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 مثيلا أو شبيها وقال تعالى { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص3-4 واما الإثبات المفصل فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله فى محكم آياته كقوله {اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}البقرة255 الآية بكمالها وقوله (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص 1-4 وقوله وهو العليم الحكيم وهو العليم القدير وهو السميع البصير وهو العزيز الحكيم وهو الغفور الرحيم [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 7

[2] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 3 -6

أكمل اللذات لذة النظر إلى الله

أن أكمل اللذات لذة النظر إلى الله كما دلت عليه نصوص الأنبياء ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هو ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئا أحب من النظر إليه وهي الزيادة فدل على أن اللذة الحاصلة بالنظر أعظم من كل لذة كانت قبل ذلك

وفي حديث آخر رواه النسائي وغيره عن عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا وأسألك القصد في الغنى والفقر وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين وهذا كما أنه ليس في الدنيا من اللذات أعظم من لذة العلم بالله وذكره وعبادته ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة هكذا لفظ الحديث لم يقل حبب إلي ثلاث فإن المحبب إليه من الدنيا اثنان وجعلت قرة عينه في الصلاة فهي أعظم من ذينك ولم يجعلها من الدنيا وفي الحديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة قال حلق الذكر ولهذا كان أعظم آية في القرآن آية الكرسي وثبت في الصحيح من غير وجه أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن فإن القرآن كلام والكلام إما خبر وإما إنشاء فالإنشاء هو الأمر والنهي والإباحة والخبر إما عن المخلوق وهو القصص وإما عن الخالق وقل هو الله أحد اشتملت على هذا الثلث وهو الخبر عن الخالق[1]

فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه سبحانه

وقال الشيخ الامام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال فى كتاب السنة ثنا أبو بكر الأثرم ثنا ابراهيم بن الحارث يعنى العبادى حدثنا الليث ابن يحيى قال سمعت ابراهيم بن الأشعث قال أبو بكر هو صاحب الفضيل قال سمعت الفضيل بن عياض يقول ليس لنا أن نتوهم فى الله كيف هو لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ فقال (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص 1-4 فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه وكل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الإطلاع كما يشاء أن ينزل وكما يشاء أن يباهي وكما يشاء أن يضحك وكما يشاء أن يطلع فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف فاذا قال الجهمى أنا أكفر برب يزول عن مكانه فقل بل أومن برب يفعل ما يشاء ونقل هذا عن الفضيل جماعة منهم البخارى فى أفعال العباد [2]

---

[1] الصفدية ج: 2 ص: 271

[2] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 62

الله سبحانه مباين للمخلوقات

فان الكتاب والسنة مع العقل دلت على أن الله لا تماثله المخلوقات فى شىء من الاشياء ودلت على أن الله غنى عن كل شىء ودلت على أن الله مباين للمخلوقات عال عليها وان كان يعتقد أن الخالق تعالى بائن عن المخلوقات وانه فوق سمواته على عرشه بائن من مخلوقاته ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته وان الله غنى عن العرش وعن كل ما سواه لا يفتقر الى شىء من المخلوقات بل هو مع استوائه على عرشه يحمل العرش وحملة العرش بقدرته ولا يمثل استواء الله باستواء المخلوقين بل يثبت لله ما اثبته لنفسه من الأسماء والصفات وينفى عنه مماثلة المخلوقات ويعلم أن الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا أفعاله فهذا مصيب فى اعتقاده موافق لسلف الأمة وأئمتها فان مذهبهم أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل فيعلمون أن الله بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير وأنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كلم موسى تكليما وتجلى للجبل فجعله دكا هشيما ويعلمون أن الله ليس كمثله شىء فى جميع ما وصف به نفسه وينزهون الله عن صفات النقص والعيب ويثبتون له صفات الكمال ويعلمون أنه ليس له كفو أحد فى شىء من صفات الكمال قال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها والله أعلم [1]

تنزيه الله سبحانه عن الكفؤ والسمى والمثل

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فى النفى والاثبات والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} فبين أنه لم يكن أحد كفوا له وقال تعالى {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 فأنكر أن يكون له سمى وقال تعالى {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً }البقرة22 وقال تعالى {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ }النحل74 وقال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفؤ والسمى والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له فى صفاته ولا أفعاله ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفؤ والسمى والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له فى صفاته ولا أفعاله فان التماثل فى الصفات والأفعال يتضمن التماثل فى الذات فان الذاتين المختلفتين يمتنع تماثل صفاتهما وأفعالهما اذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات فان الصفة تابعة للموصوف بها والفعل أيضا تابع للفاعل بل هو مما يوصف به الفاعل فاذا كانت الصفتان متماثلتين كان الموصوفان متماثلين حتى أنه يكون بين الصفات من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الموصوفين كالانسانين كما كانا من نوع واحد فتختلف مقاديرهما وصفاتهما بحسب اختلاف ذاتيهما ويتشابه ذلك بحسب تشابه ذلك كذلك اذا قيل بين الانسان والفرس تشابه من جهة أن هذا حيوان وهذا حيوان اختلاف من جهة أن هذا ناطق وهذا صاهل وغير ذلك من الامور كان بين الصفتين من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الذاتين وذلك أن الذات المجردة عن الصفة لا توجد الا فى الذهن فالذهن يقدر ذاتا مجردة عن الصفة ويقدر وجودا مطلقا لا يتعين وأما الموجودات فى أنفسها فلا يمكن فيها وجود ذات مجردة عن كل صفة ولا وجود

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 263

مطلق لا يتعين ولا يتخصص واذا قال من قال من أهل الاثبات للصفات انا اثبت صفات الله زائدة على ذاته فحقيقة ذلك أنا نثبتها زائدة على ما أثبتها النفاة من الذات فان النفاة اعتقدوا ثبوت ذات مجردة عن الصفات فقال أهل الاثبات نحن نقول باثبات صفات زائدة على ما اثبته هؤلاء وأما الذات نفسها الموجودة فتلك لا يتصور أن تتحقق بلا صفة أصلا بل هذا بمنزلة من قال اثبت انسانا لا حيوانا ولا ناطقا ولا قائما بنفسه ولا بغيره ولا له قدرة ولا حياة ولا حركة ولا سكون أو نحو ذلك أو قال أثبت نخلة ليس لها ساق ولا جذع ولا ليف ولا غير ذلك فان هذا يثبت ما لا حقيقة له فى الخارج ولا يعقل ولهذا كان السلف والأئمة يسمون نفاة الصفات معطلة لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالى وان كانوا هم قد لا يعلمون ان قولهم مستلزم للتعطيل بل يصفونه بالوصفين المتناقضين فيقولون هو موجود قديم واجب ثم ينفون لوازم وجوده فيكون حقيقة قولهم موجود ليس بموجود حق ليس بحق خالق ليس بخالق فينفون عنه النقيضين إما تصريحا بنفيها واما امساكا عن الاخبار بواحد منهما ولهذا كان محققوهم وهم القرامطة ينفون عنه النقيضين فلا يقولون موجود ولا لا موجود ولا حى ولا لا حى ولا عالم ولا لا عالم قالوا لأن وصفه بالاثبات تشبيه له بالموجودات ووصفه بالنفى فيه تشبيه له بالمعدومات فآل بهم اغراقهم فى نفى التشبيه الى أن وصفوه بغاية التعطيل ثم أنهم لم يخلصوا مما فروا منه بل يلزمهم على قياس قولهم أن يكونوا قد شبهوه بالممتنع الذى هو أخس من الموجود والمعدوم الممكن ففروا فى زعمهم من تشبيهه بالموجودات والمعدومات ووصفوه بصفات الممتنعات التى لا تقبل الوجود بخلاف المعدومات الممكنات وتشبيهه بالممتنعات شر من تشبيهه بالموجودات والمعدومات الممكنات وما فر منه هؤلاء الملاحدة ليس بمحذور فانه اذا سمى حقا موجودا قائما بنفسه حيا عليما رؤوفا رحيما وسمى المخلوق بذلك لم يلزم من ذلك أن يكون مماثلا للمخلوق اصلا ولو كان هذا حقا لكان كل موجود مماثلا لكل موجود ولكان كل معدوم مماثلا لكل معدوم ولكان كل ما ينفى عنه شىء من الصفات مماثلا لكل ما ينفى عنه ذلك الوصف فاذا قيل السواد موجود كان على قول هؤلاء قد جعلنا كل موجود مماثلا للسواد واذا قلنا البياض معدوم كنا قد جعلنا كل معدوم مماثلا للبياض ومعلوم أن هذا فى غاية الفساد ويكفى هذا خزيا لحزب الالحاد واذا لم يلزم مثل ذلك فى السواد الذى له أمثال بلا ريب فاذا قيل فى خالق العالم أنه موجود لا معدوم حى لا يموت قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم فمن أين يلزم أن يكون مماثلا لكل موجود ومعدوم وحى وقائم ولكل ما ينفى عنه العدم وما ينفى عنه صفة العدم وما ينفى عنه الموت والنوم كأهل الجنة الذين لا ينامون ولا يموتون وذلك أن هذه الاسماء العامة المتواطئة الى تسميها النحاة اسماء الاجناس سواء اتفقت معانيها فى محالها أو تفاضلت كالسواد ونحوه وسواء سميت مشككة وقيل أن المشككة نوع من المتواطئة اما أن تستعمل مطلقة وعامة كما اذا قيل الموجود ينقسم الى واجب وممكن وقديم ومحدث وخالق ومخلوق والعلم ينقسم الى قديم ومحدث واما أن تستعمل خاصة معينة كما اذا قيل وجود زيد وعمرو وعلم زيد وعمرو وذات زيد وعمرو فاذا استعملت خاصة معينة دلت على ما يختص به المسمى لم تدل على ما يشركه فيه غيره فى الخارج فان ما يختص به المسمى لا شركة فيه بينه وبين غيره فاذا قيل علم زيد ونزول زيد واستواء زيد ونحو ذلك لم يدل هذا الا على ما يختص به زيد من علم ونزول واستواء ونحو ذلك لم يدل على ما يشركه فيه غيره لكن لما علمنا أن زيدا نظير عمرو وعلمنا أن علمه نظير علمه ونزوله نظير نزوله واستواءه نظير استوائه فهذا علمناه من جهة القياس والمعقول والاعتبار لا من جهة دلالة اللفظ فاذا كان هذا فى صفات المخلوق فذلك فى الخالق أولى فاذا قيل علم الله وكلام الله ونزوله واستواؤه ووجوده وحياته ونحو ذلك لم يدل ذلك على ما يشركه فيه أحد من المخلوقين بطريق الاولى ولم يدل ذلك على مماثلة الغير له فى ذلك كما دل فى زيد وعمرو لأنا هناك علمنا التماثل من جهة الاعتبار

والقياس لكون زيد مثل عمرو وهنا نعلم أن الله لا مثل له ولا كفو ولا ند فلا يجوز أن نفهم من ذلك أن علمه مثل علم غيره ولا كلامه مثل كلام غيره ولا استواءه مثل استواء غيره ولا نزوله مثل نزول غيره ولا حياته مثل حياة غيره ولهذا كان مذهب السلف والأئمة اثبات الصفات ونفى مماثلتها لصفات المخلوقات فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذى لا نقص فيه منزه عن صفات النقص مطلقا ومنزه عن أن يماثله غيره فى صفات كماله فهذان المعنيان جمعا التنزيه وقد دل عليهما قوله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2}الاخلاص1-2 فالاسم الصمد يتضمن صفات الكمال والاسم الأحد يتضمن نفى المثل كما قد بسط الكلام على ذلك فى تفسير هذه السورة فالقول فى صفاته كالقول فى ذاته والله تعالى ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله لكن يفهم من ذلك أن نسبة هذه الصفة الى موصوفها كنسبة هذه الصفة الى موصوفها فعلم الله وكلامه ونزوله واستواؤه هو كما يناسب ذاته ويليق بها كما أن صفة العبد هى كما تناسب ذاته وتليق بها ونسبة صفاته الى ذاته كنسبة صفات العبد الى ذاته ولهذا قال بعضهم اذا قال لك السائل كيف ينزل أو كيف استوى أو كيف يعلم أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق فقل له كيف هو فى نفسه فاذا قال أنا لا أعلم كيفية ذاته فقل له وأنا لا أعلم كيفية صفاته فان العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف[1]

{ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد }

فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً}فاطر1 فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}الحج75 وملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والإرادات والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة عن النبي قال ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها قال يتمون الصف الأول ويتراصون في الصف وفي الصحيحين عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة في حديث المعراج عن النبي لما ذكر صعوده إلى السماء السابعة قال فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم وقال البخاري وقال همام عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي أنه قال إذا أمن القارىء فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه وفي الرواية الأخرى في الصحيحين إذا قال آمين فإن الملائكة الملائكة في السماء تقول آمين وفي الصحيح أيضا عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله قال إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا ولك الحمد فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه وفي الصحيح عن عروة عن عائشة زوج النبي أنها سمعت رسول الله يقول أن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي قال أن لله ملائكة سيارة فضلاء يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 325-330

ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء فيسألهم الله وهو أعلم من أين جئتم فيقولون جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك قال وما يسألوني قالوا يسألونك جنتك قال وهل رأوا جنتي قالوا لا أي رب قال فكيف لو رأوا جنتي قالوا ويستجيرونك قال ومم يستجيرونني قالوا من نارك قال وهل رأوا ناري قالوا يا رب لا قال فكيف لو رأوا ناري قالوا ويستغفرونك قال فيقول قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا قال يقولون رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم قال فيقول وله قد غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم وفي الصحيحين عن عروة عن عائشة حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا وأمثال هذه الأحاديث الصحاح مما فيها ذكر الملائكة الذين في السموات وملائكة الهواء والجبال وغير ذلك كثيرة وكذلك الملائكة المتصرفون في أمور بني آدم مثل قوله في الحديث المتفق عليه حديث الصادق المصدوق إذ يقول ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال اكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح وفي الصحيح حديث البراء بن عازب قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان اهجهم أو هاجهم وجبريل معك وفي الصحيح أيضا أن النبي قال له أجب عني اللهم أيده بروح القدس وفي الصحيح عن أنس قال كأني أنظر إلى غبار ساطع في سكة بني غنم موكب جبريل وفي الصحيحين عن عائشة أن الحارث بن هشام قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي قال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول وإتيان جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم تارة في صورة أعرابي وتارة في صورة دحية الكلبي ومخاطبته وإقراؤه إياه كثيرا أعظم من أن يذكر هنا وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال النبي يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر والعصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم 2 يصلون وأتيناهم وهم يصلون وفي الصحيحين عن عائشة قالت حشوت للنبي وسادة فيها تماثيل كأنها نمرقة فجاء فقام وجعل يتغير وجهه فقلت ما لنا يا رسول الله قال ما بال هذه الوسادة قالت وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها قال أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة إن من صنع الصور يعذب يوم القيامة يقال أحيوا ما خلقتم وفي الصحيحين عن ابن عباس قال سمعت أبا طلحة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل وكذلك في الصحيحين عن عبدالله بن عمر قال وعد النبي جبريل فقال إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي قال إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يحدث وأمثال هذه النصوص التي يذكر فيها من أصناف الملائكة وأوصافهم وأفعالهم ما يمنع أن تكون على ما يذكرونه من العقول والنفوس أو أن يكون جبريل هو العقل الفعال وتكون ملائكة الآدميين هي القوى الصالحة والشياطين هي القوى الفاسدة كما يزعم هؤلاء وأيصا فزعمهم أن العقول والنفوس التي جعلوها الملائكة وزعموا أنها معلولة عن الله صادرة عن ذاته صدور المعلول عن علته هو قول بتولدها عن الله وأن

الله ولد الملائكة وهذا مما رده الله ونزه نفسه عنه وكذب قائله وبين كذبه بقوله { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4}الاخلاص 3-4 فأخبر أنهم معبدون أي مذللون مصرفون مدينون مقهورون ليسوا كالمعلول المتولد تولدا لازما لا يتصور أن يتغير عن ذلك وأخبر أنهم عباد لله لا يشبهون به كما يشبه المعلول بالعلة والولد بالوالد كما يزعمه هؤلاء الصابئون وقال تعالى { وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ{116} بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{117}البقرة117 -118 فأخبر أنه يقتضي كل شيء بقوله كن لا بتولد المعلول عنه[1]

فنفيه سبحانه عن نفسه أن يلد شيئا اقتضى أن لا يتولد عنه شيء ونفيه أن يتخذ ولدا يقتضي أنه لم يفعل ذلك بشيء من خلقه على سبيل التكريم وأن العباد لا يصلح أن يتخذ شيئا منهم بمنزلة الولد وهذا يبطل دعوى من يدعي مثل ذلك في المسيح وغيره ومن يقول نحن أبناء الله ومن يقول الفلسفة هي التشبه بالإله فإن الولد يكون من جنس والده ويكون نظيرا له وإن كان فرعا له ولهذا كان هؤلاء القائلون بهذه المعاني من أعظم الخلق قولا بالتشبيه والتمثيل وجعل الأنداد له والعدل والتسوية ولهذا كانت الفلاسفة الذين يقولون بصدور العقول والنفوس عنه على وجه التولد والتعليل يجعلونها له أندادا ويتخذونها آلهة وأربابا بل قد لا يعبدون إلا إياها ولا يدعون سواها ويجعلونها هي المبدعة لما سواها مما تحتها {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}الإسراء111 فالحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك[2]

النبى صلى الله عليه وسلم نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة

وأصل دين الإسلام أن نعبد الله وحده ولا نجعل له من خلقه ندا ولا كفوا ولا سميا قال تعالى { فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 وقال تعالى {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 وقال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 وقال تعالى { فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }البقرة22 وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم اى قال أن تزانى بحليلة جارك فأنزل الله تصديق رسوله {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً }الفرقان68 الآية وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 فمن سوى بين الخالق والمخلوق فى الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك والنبى نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة حتى قال من حلف بغير الله فقد أشرك رواه أبو داود وغيره وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد و جاء معاذ بن جبل مرة فسجد له فقال ما هذا يا معاذ فقال يا رسول الله رأيتهم فى الشام يسجدون لأساقفتهم يا معاذ إنه لا يصلح

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص:123- 128

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 134

السجود إلا لله ولو كنت آمرا أحدا ان يسجد لأحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها [1]

ومن الفرقان أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق وان المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق والمخلوق فى شىء فيجعل المخلوق ندا للخالق [2]

من شبه الله بخلقه فقد كفر

وقال تعالى فى النفى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }البقرة22 { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 فبين فى هذه الآيات ان الله لا كفو له ولا ند له ولا مثل له ولا سمى له فمن قال إن علم الله كعلمى أو قدرته كقدرتى أو كلامه مثل كلامى أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتى ومحبتى ورضائى وغضبى أو استوأه على العرش كاستواء أو نزوله كنزولى أو اتيانه كاتيانى ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه تعالى الله عما يقولون وهو ضال خبيث مبطل بل كافر ومن قال ان الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا مشيئة ولا سمع ولا بصر ولا محبة ولا رضى ولا غضب ولا استواء ولا اتيان ولا نزول فقد عطل اسماء الله الحسنى وصفاته العلى وألحد فى اسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر بل مذهب الأئمة والسلف اثبات الصفات ونفى التشبيه بالمخلوقات اثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل كما قال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها ومما يبين ذلك أن الله تعالى أخبرنا ان فى الجنة ماء ولبنا وخمرا وعسلا ولحما وفاكهة وحريرا وذهبا وفضة وغير ذلك وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الاسماء فاذا كانت المخلوقات فى الجنة توافق المخلوقات فى الدنيا فى الاسماء والحقائق ليست مثل الحقائق فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه فى الاسم والله تعالى قد اخبر انه سميع بصير واخبر عن الانسان انه سميع بصير وليس هذا مثل هذا واخبر انه حى وعن بعض عباده أنه حى وليس هذا مثل هذا واخبر انه رؤوف رحيم واخبر عن نبيه انه رؤوف رحيم وليس هذا مثل هذا واخبر انه عليم حليم واخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم وليس هذا مثل هذا وسمى نفسه الملك وسمى بعض عباده الملك وليس هذا مثل هذا وهذا كثير فى الكتاب والسنة فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل ابى حنيفة ومالك والشافعى واحمد وغيرهم على هذا إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل لا يقولون بقول أهل التعطيل نفاة الصفات ولا بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوقات فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم وأما المخالفون للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من المتفلسفة وأشباههم فيصفون الرب تعالى بالصفات السلبية ليس كذا ليس كذا ولا يصفونه بشىء من صفات الاثبات بل بالسلب الذى يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكروه مطابقا للمعدوم فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم وهم يقولون إنه موجود ليس بمعدوم فيتناقضون يثبتونه من وجه ويجحدونه من وجه آخر ويقولون إنه وجود مطلق لا يتميز بصفة وقد علم الناس ان المطلق لا يكون موجودا فانه ليس فى الأمور

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 338-339

[22] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 14

الموجودة ما هو مطلق لا يتعين ولا يتميز عن غيره وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء فى نفسه فيقر أمرا مطلقا وان كان لا حقيقة له فى الخارج فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجودا مباينا لخلقه بل إما ان يجعلوه مطلقا فى ذهن الناس أو يجعلوه حالا فى المخلوقات أو يقولون هو وجود المخلوقات ومعلوم أن الله كان قبل ان يخلق المخلوقات وخلقها فلم يدخل فيها ولم يدخلها فيه فليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته وعلى ذلك دل الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم الذين امتحنوا المسلمين كما تقدم كانوا على هذا الضلال فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة ونصرهم بقى هذا النفى فى نفوس كثير من اتباعهم فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم[1]

وثبت عن إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني أنه قال إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة يعرفون ربهم تبارك وتعالى بصفاته التي نطق بها كتابه وتنزيله وشهد له بها رسوله على ما وردت به الأخبار الصحاح ونقله العدول الثقات ولا يعتقدون تشبيها لصفاته بصفات خلقه ولا يكيفونها تكييف المشبه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريف المعتزلة والجهمية وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف ومن عليهم بالتفهيم والتعريف حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه واكتفوا بنفي النقائص بقوله عز وجل من قائل { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 وبقوله تعالى {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 وقال سعيد بن جبير ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين وثبت عن الربيع بن سليمان أنه قال سألت الشافعي رحمه الله تعالى عن صفات الله تعالى فقال حرام على العقول أن تمثل الله تعالى وعلى الأوهام أن تحده وعلى الظنون أن تقطع وعلى النفوس أن تفكر وعلى الضمائر أن تعمق وعلى الخواطر أن تحيط وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام[2]

المسلمون وسط

والمسلمون وسط يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل يصفونه بصفات الكمال وينزهونه عن النقائص التي تمتنع على الخالق ولا يتصف بها إلا المخلوق فيصفونه بالحياة والعلم والقدرة والرحمة والعدل والإحسان وينزهونه عن الموت والنوم والجهل والعجز والظلم والفناء ويعلمون مع ذلك أنه لا مثيل له في شيء من صفات الكمال فلا أحد يعلم كعلمه ولا يقدر كقدرته ولا يرحم كرحمته ولا يسمع كسمعه ولا يبصر كبصره ولا يخلق كخلقه ولا يستوي كاستوائه ولا يأتي كإتيانه ولا ينزل كنزوله كما قال تعالى قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولا يصفون أحدا من المخلوقين بخصائص

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 482-483

[2] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 5-6

الخالق جل جلاله بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له وهو الصمد الذي يحتاج إليه كل شيء ويسأله كل أحد وهو غني بنفسه لا يحتاج إلى أحد في شيء من الأشياء[1]

الله سبحانه نزه نفسه عن الشريك والولد

فإن الله تعالى وصف نفسه بصفات الكمال على وجه التفصيل فأخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه عزيز حكيم غفور ودود سميع بصير إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته وأخبر أنه ليس كمثله شيء ولم يكن له كفوا أحد وقال تعالى هل تعلم له سميا سورة مريم 65 فأثبت لنفسه ما يستحقه من الكمال بإثبات الأسماء والصفات ونفى عنه مماثلته المخلوقات ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل يثبتون له الأسماء والصفات وينفون عنه مماثلة المخلوقات إثبات بلا كمثيل وتنزيه بلا تعطيل[2]

فإن أثبات الصفات لازم لله تعالى فيمتنع زوال صفات الكمال عنه ويمتنع أن يجوز عليه خلاف الصمدية كالتفرق ونحوه فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد[3]

أن الله نزه نفسه عن الشريك والولد في غير موضع فنزه نفسه عن الولد والكفو وهذا القول يوجد في مشركي العرب وفي النصارى وغيرهم فنزه نفسه عن الولد والكفو وهذا القول يوجد في مشركي العرب وفي النصارى وغيرهم و هم يقرون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ولكن يثبتون تولدا من بعض الوجوه وهو تولد حادث كما تقوله النصارى في المسيح وكما كانت تقوله مشركو العرب في الملائكة ونحو ذلك [4]

كفر من جعل لله سبحانه ولدا أو والدا أو شريكا

اذا كان الباطل فى الأصل هو العدم والعدم هو المنفى فالشئ ينفى لانتفاء وجوده فى الجملة كقوله تعالى { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص3-4[5]

وأما انكار الباطل فقد نزه الله نفسه عن الوالد والولد وكفر من جعل له ولدا أو والدا أو شريكا فقال تعالى فى السورة التى تعدل ثلث القرآن التى هى صفة الرحمن ولم يصح عن النبى فى فضل سورة من القرآن ما صح فى فضلها حتى أفرد الحفاظ مصنفات فى فضلها كالدارقطنى وأبى نعيم وأبى محمد الخلال وأخرج أصحاب الصحيح فيها أحاديث متعددة قال فيها (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1}

---

[1] الجواب الصحيح ج: 2 ص: 143

[2] الصفدية ج: 1 ص: 103

[3] الصفدية ج: 1 ص: 106

[4] الصفدية ج: 1 ص: 215

[5] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 423

اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص 1-4 وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة فى التوحيد كالإمام أحمد والفضيل بن عياض وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء وهى جماع ما ينسب اليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن بل والنبات ونحو ذلك فإنه ما من شىء من المخلوقات الا ولابد أن يكون له شىء يناسبه اما أصل واما فرع واما نظير أو اثنان من ذلك أو ثلاثة وهذا فى الآدميين والجن والبهائم ظاهر وأما الملائكة فانهم وان لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الامثال والاشباه ولهذا قال سبحانه {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {49} فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ {50}الذاريات49-50 قال بعض السلف لعلكم تتذكرون فتعلمون أن خالق الازواج واحد ولهذا كان فى هذه السورة الرد على من كفر من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين فإن قوله { لَمْ يَلِدْ {3}الاخلاص3 رد لقول من يقول ان له بنين وبنات من الملائكة أو البشر مثل من يقول الملائكة بنات الله أو يقول المسيح أو عزير ابن الله كما قال تعالى عنهم {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ }الأنعام100 وقال تعالى {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ {149} أَمْ خَلَقْنَا الْمَلآئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ{150} أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ{151} وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{152} أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ{153} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{154} أَفَلا تَذَكَّرُونَ{155} أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ{156} فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{157} وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ{158} الصافات149-158 وقال تعالى {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{30} اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{31} التوبة30-31 [1]

فهذا نفى كونه سبحانه والدا لشىء أو متخذا لشىء ولدا بأى وجه من وجوه الولادة أو اتخاذ الولد أيا كان وأما نفى كونه مولودا فيتضمن نفى كونه متولدا بأى نوع من التوالد من أحد من البشر وسائر ما تولد من غيره فهو رد على من قال المسيح هو الله ورد على الدجال الذى يقول انه الله ورد على من قال فى بشر أنه الله من غالية هذه الأمة فى على وبعض أهل البيت أو بعض المشايخ كما قال قوم ذلك فى على وطائفة من أهل البيت وقالوه فى الانبياء أيضا وقاله قوم فى الحلاج وقوم فى الحاكم بمصر وقوم فى الشيخ عدى وقوم فى يونس العنينى وقوم يعمونه فى المشايخ ويصوبون هذا كله فقوله سبحانه { وَلَمْ يُولَدْ }الإخلاص3 نفى لهذا كله فان هؤلاء كلهم مولودون والله لم يولد ولهذا لما ذكر الله المسيح فى القرآن قال ابن مريم بخلاف سائر الأنبياء كقوله {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ }المائدة72 وقوله {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ }البقرة87 وفي ذلك فائدتان إحداهما بيان أنه مولود والله لم يولد والثانية نسبته الى مريم بأنه ابنها ليس هو ابن الله وأما قوله {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ}النساء172 الآية وقوله {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ }التوبة30 فإنه حكى قولهم الذى قالوه وهم قد نسبوه الى الله أنه ابنه فلم يضمنوا ذلك قولهم المسيح بن مريم وقوله {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 نفى للشركاء والأنداد يدخل فيه كل من جعل شيئا كفوا لله فى شىء من خواص الربوبية مثل خلق الخلق والالهية كالعبادة له

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 438

ودعائه ونحو ذلك فهذه نكت تبين اشتمال كتاب الله على ابطال قول من يعتقد فى أحد من البشر الإلهية باتحاد أو حلول أو غير ذلك[1]

طريقة السلف

وأما السلف والأئمة فلم يدخلوا مع طائفة من الطوائف فيما ابتدعوه من نفى او اثبات بل اعتصموا بالكتاب والسنة وراوا ذلك هو الموافق لصريح العقل فجعلوا كل لفظ جاء به الكتاب والسنة من اسمائه وصفاته حقا يجب الأيمان به وان لم تعرف حقيقة معناه وكل لفظ احدثه الناس فاثبته قوم ونفاه اخرون فليس علينا ان نطلق اثباته ولا نفيه حتى نفهم مراد المتكلم فان كان مراده حقا موافقا لما جاءت به الرسل والكتاب والسنة من نفى او اثبات قلنا به وان كان باطلا مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة من نفى او اثبات منعنا القول به وراوا ان الطريقة التى جاء بها القرآن هى الطريقة الموافقة لصريح المعقول وصحيح المنقول وهى طريقة الأنبياء والمرسلين وان الرسل صلوات الله عليهم جاؤوا بنفى مجمل واثبات مفصل ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{182} الصافات180-181 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وطريقة الرسل هى ما جاء بها القرآن والله تعالى فى القرآن يثبت الصفات على وجه التفصيل وينفى عنه على طريق الاجمال التشبيه والتمثيل فهو فى القرآن يخبر أنه بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير وانه عزيز حكيم غفور رحيم وانه سميع بصير وانه غفور ودود وانه تعالى على عظم ذاته يحب المؤمنين ويرضى عنهم ويغضب على الكفار ويسخط عليهم وانه خلق السموات والأرض فى ستة ايام ثم استوى على العرش وانه كلم موسى تكليما وانه تجلى للجبل فجعله دكا وامثال ذلك ويقول فى النفى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ }الشورى11 {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ }النحل74 (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص 1-4 فيثبت الصفات وينفى مماثلة المخلوقات ولما كانت طريقة السلف ان يصفوا الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل[2]

علم بالشرع مع العقل أن الله تعالى ليس كمثله شىء

القرآن ملآن من توحيد الله تعالى وأنه ليس كمثله شىء فلا يمثل به شىء من المخلوقات فى شىء من ألاشياء إذ ليس كمثله شىء لافى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فيما يستحقه من العبادة والمحبة والتوكل والطاعة والدعاء وسائر حقوقه قال تعالى {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً }مريم65 فلا أحد يساميه ولا يستحق أن يسمى بما يختص به من الأسماء ولا يساويه فى معنى شىء من الأسماء لا فى معنى الحى ولا العليم ولا القدير ولا غير ذلك من الأسماء ولا فى معنى الذات والموجود ونحو ذلك من الأسماء العامة ولا يكون إلها ولا ربا ولا خالقا فقال تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1} اللَّهُ الصَّمَدُ{2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 448-449
[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 37

أَحَدٌ{4} الاخلاص1-4 فلم يكن أحد يكافيه فى شىء من الأشياء فلا يساويه شىء ولا يماثله شىء ولا يعادله شىء قال تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ }الأنعام1 وقال تعالى {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ{94} وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ{95} قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ{96} تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{97} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{98} الشعراء94-98 وقال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ {73} فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{74}النحل73 -74 [1]

وقال تعالى ولم يكن له كفوا أحد فالذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل فإنه قد علم بالشرع مع العقل أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله كما قال تعالى ولم يكن له كفوا أحد وقد علم بالعقل أن المثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه فلو كان المخلوق مماثلا للخالق للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع والخالق يجب وجوده وقدمه والمخلوق يستحيل وجوب وجوده وقدمه بل يجب حدوثه وإمكانه فلو كانا متماثلين للزم اشتراكهما في ذلك فكان كل منهما يجب وجوده وقدمه ويمتنع وجوب وجوده وقدمه ويجب حدوثه وإمكانه فيكون كل منهما واجب القدم واجب الحدوث واجب الوجود ليس واجب الوجود يمتنع قدمه لا يمتنع قدمه وهذا جمع بين النقيضين [2]

من أعظم ما يوسوس فى التوحيد

وقال عمرو بن عثمان المكى فى كتابه الذى سماه التعرف بأحوال العباد والمتعبدين قال باب ما يجيء به الشيطان للتائبين وذكر أنه يوقعهم فى القنوط ثم فى الغرور وطول الأمل ثم فى التوحيد فقال من أعظم ما يوسوس فى التوحيد بالتشكل أو فى صفات الرب بالتمثيل والتشبيه أو بالجحد لها والتعطيل فقال بعد ذكر حديث الوسوسة وأعلم رحمك الله ان كلما توهمه قلبك أو سنح فى مجارى فكرك أو خطر فى معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو ضياء أو اشراق أو جمال أو سنح مسائل أو شخص متمثل فالله تعالى بغير ذلك بل هو تعالى أعظم وأجل وأكبر الا تسمع لقوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }الشورى11 وقوله { وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4} الاخلاص4 أى لا شبيه ولا نظير ولا مساوى ولا مثل او لم تعلم أنه لما تجلى للجبل تدكدك لعظم هيبته وشامخ سلطانه فكما لا يتجلى لشىء الا اندك كذلك لا يتوهمه أحد الا هلك فرد بما بين الله فى كتابه من نفسه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفؤ فإن اعتصمت بها وامتنعت منه أتاك من قبل التعطيل لصفات الرب تعالى وتقدس فى كتابه وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال لك اذا كان موصوفا بكذا أو وصفته أوجب له التشبيه فأكذبه لأنه اللعين انما يريد أن يستزلك ويغويك ويدخلك فى صفات الملحدين الزائغين الجاحدين لصفة الرب تعالى وأعلم رحمك الله تعالى ان الله تعالى واحد لا كالآحاد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد الى أن قال خلصت له الأسماء السنية فكانت واقعة فى قديم الأزل بصدق الحقائق لم يستحدث تعالى صفة كان منها خليا واسما كان

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 366

[2] العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 25

منه بريا تبارك وتعالى فكان هاديا سيهدى وخالقا سيخلق ورازقا سيرزق وغافرا سيغفر وفاعلا سيفعل ولم يحدث له الإستواء إلا وقد كان فى صفة أنه سيكون ذلك الفعل فهو يسمى به فى جملة فعله كذلك قال الله تعالى {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً }الفجر22 بمعنى أنه سيجىء فلم يستحدث الاسم بالمجىء وتخلف الفعل لوقت المجىء فهو جاء سيجىء ويكون المجىء منه موجودا بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه لأن ذلك فعل الربوبية فيستحسر العقل وتنقطع النفس عند ارادة الدخول فى تحصيل كيفية المعبود فلا تذهب فى أحد الجانبين لا معطلا ولا مشبها وأرض لله بما رضى به لنفسه وقف عند خبره لنفسه مسلما مستسلما مصدقا بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير[1]

لطائف لغوية

1-فإن أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد في النفي لما يشار إليه ويميز الحس منه شيئا من شيء قال تعالى {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 فنفى أن يكون أحد كفوا له فلو كان ما يشار إليه لا يسمى أحدا لم يكن قد نزهه عن مماثلة المخلوقات له فإن المشهود من المخلوقات كلها يشار إليها فإن لم يدخل في أحد لم يكن قد نزه نفسه عن مماثلتها [2]

2- قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وخلق من السلف الصمد الذى لا جوف له وقال آخرون هو السيد الذى كمل فى سؤدده وكلا القولين حق فان لفظ الصمد فى اللغة يتناول هذا وهذا والصمد فى اللغة السيد والصمد أيضا المصمد والمصمد المصمت وكلاهما معروف فى اللغة [3]

فالصمد السيد المستوجب لصفات الكمال والأحد الذي ليس له كفو ولا مثال[4]

3- وهذه طريقة الملاحدة الذين ألحدوا فى اسماء الله وآياته ومن شاركهم فى بعض ذلك مثل قول من يقول الواحد الذى لا ينقسم ومعنى قوله لا ينقسم اى لا يتميز منه شىء عن شىء ويقول لا تقوم به صفة ثم زعموا ان الأحد والواحد فى القرآن يراد به هذا ومعلوم أن كل ما فى القرآن من اسم الواحد والاحد كقوله تعالى { وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ }النساء11 وقوله {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ}القصص26 وقوله {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }الإخلاص4 وقوله {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ }التوبة6 وقوله {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً }المدثر11 وامثال ذلك يناقض ما ذكروه فان هذه الاسماء اطلقت على قائم بنفسه مشار اليه يتميز منه شىء عن شىء وهذا الذى يسمونه فى اصطلاحهم جسما[5]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 63-64

[2] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 435

[3] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 353

[44] الجواب الصحيح ج: 1 ص: 73

[5] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 112

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الفلق
113

رقية محمود الغرايبة

~§§ الفلق(مكية)5 §§~

مقدمة الفلق

وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وفى لفظ قال لي رسول الله أنزل علي آيات لم ير مثلهن قط المعوذتان فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعوذتين كما أخبر أنه لم ينزل فى التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثل الفاتحة وهذا مما يبين فضل بعض القرآن على بعض [1]

عن عقبة بن عامر قال أمرنى رسول الله أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة [2]

سورة الفلق 1-5

بسم الله الرحمن الرحيم

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{2} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ{3} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ{4} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ{5}

إذا استعنت فاستعن بالله

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 14

[22] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 492

يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ }الفلق1[1]

الاستعاذة من الشر الموجود و المفقود

وأما قوله { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{2} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ{3} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ{4} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ{5} الفلق1-5 فيشترك فيه النوعان فإنه يستعاذ من الشر الموجود أن لا يضر ويستعاذ من الشر الضار المفقود أن لا يوجد[2]

الإستعاذة من شر المخلوقات عموما و خصوصا

قال تعالى {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ }الفلق1 قال تعالى {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى }الأنعام95 و قال تعالى {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً }الأنعام96 و الفلق فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض فكل ما فلقه الرب فهو فلق قال الحسن الفلق كل ما إنفلق عن شيء كالصبح و الحب و النوى قال الزجاج و إذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن إنفلاق

كالأرض بالنبات و السحاب بالمطر و قد قال كثير من المفسرين الفلق الصبح فإنه يقال هذا أبين من فلق الصبح و فرق الصبح و قال بعضهم الفلق الخلق كله و أما من قال أنه واد فى جهنم أو شجرة فى جهنم أو أنه إسم من أسماء جهنم فهذا أمر لا تعرف صحته لا بدلالة الإسم عليه و لا بنقل عن النبى صلى الله عليه و سلم و لا فى تخصيص ربوبيته بذلك حكمة بخلاف ما إذا قال رب الخلق أو رب كل ما إنفلق أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به و إذا قيل الفلق يعم و يخص فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق و بخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب فإن الغاسق قد فسر بالليل كقوله {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ }الإسراء78 و هذا قول أكثر المفسرين و أهل اللغة قالوا و معنى وقب دخل في كل شيء قال الزجاج الغاسق البارد و قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار و قد روى الترمذي و النسائي عن عائشة أن النبى صلى الله عليه و سلم نظر الى القمر فقال يا عائشة تعوذي بالله من شره فإنه الغاسق إذا وقب و روي من حديث أبي هريرة مرفوعا أن الغاسق النجم و قال إبن زيد هو الثريا و كانت الأسقام و الطواعين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 73

[2] مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 289

تكثر عند و قوعها و ترتفع عند طلوعها و هذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولا آخر ثم فسروا وقوبه بسكونه قال إبن قتيبة و يقال الغاسق القمر إذا كسف و أسود و معنى و قب دخل فى الكسوف و هذا ضعيف فإن ما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا يعارض بقول غيره و هو لا يقول إلا الحق و هو لم يأمر عائشة بالإستعاذة منه عند كسوفه بل مع ظهوره و قد قال الله تعالى {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً }الإسراء12 فالقمر آية الليل و كذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل فأمره بالإستعاذة من ذلك أمر بالإستعاذة من آية الليل و دليله و علامته و الدليل مستلزم للمدلول فإذا كان شر القمر موجودا فشر الليل موجود و للقمر من التأثير ما ليس لغيره فتكون الإستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى و يكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى هو مسجدي هذا مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعا و كذلك قوله عن أهل الكساء هؤلاء أهل بيتى مع أن القرآن يتناول نساءه فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف فالقمر أحق ما يكون بالليل بالإستعاذة و الليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس و الجن مالا تنتشر بالنهار و يجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر و الفسوق و العصيان و السحر و السرقة و الخيانة و الفواحش و غير ذلك فالشر دائما مقرون بالظلمة و لهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين و راحتهم لكن شياطين الإنس و الجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار و يتوسلون بالقمر و بدعوته و القمر و عبادته و أبو معشر البلخي له مصحف القمر يذكر فيه من الكفريات و السحريات ما يناسب الإستعاذة منه فذكر سبحانه الإستعاذة من شر الخلق عموما ثم خص الأمر بالإستعاذة من شر الغاسق إذا و قب و هو الزمان الذي يعم شره ثم خص بالذكر السحر و الحسد فالسحر يكون من الأنفس الخبيثة لكن بالإستعانة بالأشياء كالنفث فى العقد و الحسد يكون من الأنفس الخبيثة أيضا إما بالعين و إما بالظلم باللسان و اليد و خص من السحر النفاثات فى العقد و هن النساء و الحاسد الرجال فى العادة و يكون من الرجال و من النساء و الشر الذي يكون من الأنفس الخبيثة من الرجال و النساء هو شر منفصل عن الإنسان ليس هو فى قلبه كالوسواس الخناس و فى سورة الناس ذكر {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ }الناس4 فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر و الفسوق و العصيان ففيها الإستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التى تضره من الكفر و الفسوق و العصيان و قد تضمن ذلك الإستعاذة من شر نفسه وسورة الفلق فيها الإستعاذة من شر المخلوقات عموما و خصوصا و لهذا قيل فيها برب الفلق و قيل فى هذه برب الناس فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما فى الظلمة من الشر و فالق الحب و النوى بعد إنعقادهما يزيل ما فى عقد النفاثات فإن فلق الحب و النوى أعظم من حل عقد النفاثات و كذلك الحسد هو من ضيق الإنسان و شحه لا ينشرح صدره لانعام الله عليه فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد و شحه و هو سبحانه لا يفلق شيئا إلا بخير فهو فالق الإصباح بالنور الهادي و السراج الوهاج الذي به صلاح العباد و فالق الحب و النوى بأنواع الفواكه و الأقوات التى هي رزق الناس و دوابهم و الإنسان محتاج الى جلب المنفعة من الهدي و الرزق و هذا حاصل بالفلق و الرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي إبتدأ بإنعامه عليه و فلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة و إخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت و الميت من الحي و هذا من نوع الفلق فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 504-508

في { الْفَلَقِ } الفلق 1 أقوال ترجع الى تعميم و تخصيص فإنه فسر بالخلق عموما و فسر بكل ما يفلق منه كالفجر و الحب والنوى و هو غالب الخلق و فسر بالفجر و أما تفسيره بالنار أو بجب أو شجرة فيها فهذا مرجعه الى التوقيف و الغاسق قد روى فى الحديث المرفوع عائشة فى الترمذي و النسائي أن النبى صلى الله عليه و سلم نظر الى القمر و قال لها يا عائشة تعوذي بالله من هذا فهذا الغاسق إذا و قب قال إبن قتيبة الغاسق القمرإذا كسف فإسود و معنى و قب دخل فى الكسوف و المشهور عند أهل التفسير و اللغة أن الغاسق الليل و قب دخل فى كل فأظلم و الغسق الظلمة و قال الزجاج الغاسق البارد فقيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار أو يقال الغسق السيلان و الإحاطة و غسق الليل سيلانه و إحاطته بالأرض و إذا فسر بالقمر فقد يقال و قوبه أي دخوله و هو دخوله في الكسوف و لا منافاة بين تفسيره بالليل و بالقمر فإن القمر آية الليل فهنا ثلاث مراتب الليل مطلقا ثم القمر مطلقا ثم القمر حال كسوفه و هذا مناسب لما ذكر فى المستعاذ به فإن عموم الفلق للخلق بإزاء من شر ما خلق و خصوصه بالفجر الذي هو ظهور النور بإزاء الغاسق إذا و قب الذي هو دخول الظلام و قال إبن زيد الغاسق الثريا إذا سقطت و كانت الأسقام و الطواعين تكثر عند و قوعها و قد تقع عند طلوعها و يشبه و الله أعلم أن يكون من الحكمة فى ذلك أن النور هو جنس الخير و الظلمة جنس الشر و فى الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع فى النهار و القمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه فإن النبى صلى الله عليه و سلم قال إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده و التخويف إنما يكون بإنعقاد سبب الخوف و لا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب أو مظنته فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب بأهل الأرض و لهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة و الصدقة و العتاقة و الدعاء لدفع العذاب و كذلك عند سائر الآيات التى هي إنشاء العذاب كالزلزلة و ظهور الكواكب و غير ذلك و هو أقرب الكواكب التى لها تأثير فى الأرض بالترطيب و اليبس و غير ذلك و لهذا كان الطالبون للمنفعة و المضرة من الكواكب إنما يأخذون الأحداث بحسب سير القمر فإذا كان فى شرفه كالسرطان كان الوقت عندهم سعيدا و إذا كان فى العقرب و هو هبوطه كان نحسا فهذا في علمهم و كذلك فى عملهم من السحر و غيره القمر أقرب المؤثرات حتى صنفوا مصحف القمر لعبادته و تسبيحه فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب إنتقالا من الأعم الأعلى الأبعد الى الأخص الأقرب الأسفل فجعلت أربعة أقسام الأول من شر المخلوقات عموما و قول الحسن إنه إبليس و ذريته و قول بعضهم إنه جهنم ذكر للشر الذي هو لنا شر محض من الأرواح و الأجسام و الثاني شر الغاسق إذا و قب فدخل فيه ما يؤثر من العلويات فى السفليات من الليل و ما فيه من الكواكب كالثريا و سلطانه الذي هو القمر و دخل فى ذلك سحر التمر سحات الذي هو أعلي السحر و أرفعه الثالث شر النفاثات فى العقد و هن السواحر اللواتي يتصورون بأفعال في أجسام و الرابع الحاسد و هي النفوس المضرة سفها فإنتظم بذلك جميع أسباب الشرور ثم خص فى سورة الناس الشر الصادر من الجن و الإنس و هم الأرواح المضرة فصل وتظهر المناسبة بين السورتين من و جه آخر و هو أن المستعاذ منه هو الشر كما أن المطلوب هو الخير إما من فعل العبد و إما من غير فعله و مبدأ فعله للشر هو الوسواس الذي يكون تارة من الجن و تارة من الإنس و حسم الشر بحسم أصله و مادته أجود من دفعه بعد و قوعه فإذا أعيذ العبد من شر الوسواس الذي يوسوس فى الصدور فقد أعيذ من شر الكفر و الفسوق و العصيان فهذا في فعل نفسه و تعم الآية

أيضا فعل غيره لسوء معه فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد و أما الشر الصادر من غيره فسورة الفلق فإن فيها الإستعاذة من شر المخلوقات عموما و خصوصا و الله أعلم 18[1]

الله سبحانه ما خلق شيئا إلا لحكمة

الحسنة أنعم الله بها وبثوابها والسيئة هي من نفس الإنسان ناشئة وإن كانت بقضائه وقدره كما قال تعالى من شر ما خلق فمن المخلوقات ماله شر وإن كان بقضائه وقدره أن الحسنة مضافة إليه لأنه أحسن بها من كل وجه كما تقدم فما من و جه من و جوهها إلا و هو يقتضي الاضافة إليه وأما السيئة فهو إنما يخلقها بحكمة و هى باعتبار تلك الحكمة من احسانه فان الرب لا يفعل سيئة قط بل فعله كله حسن و حسنات و فعله كله خير ولهذا كان النبى صلى الله عليه و سلم يقول فى دعاء الاستفتاح و الخير بيديك و الشر ليس اليك فإنه لا يخلق شرا محضا بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير و لكن قد يكون فيه شر لبعض الناس و هو شر جزئي اضافي فإما شر كلي أو شر مطلق فالرب منزه عنه و هذا هو الشر الذي ليس اليه وأما الشر الجزئى الاضافى فهو خير باعتبار حكمته و لهذا لا يضاف الشر إليه مفردا قط بل اما أن يدخل فى عموم المخلوقات كقوله { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}الأنعام101 { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ }الفرقان2 واما أن يضاف الي السبب كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 واما أن يحذف فاعله كقول الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 وهذا الموضع ضل فيه فريقان من الناس الخائضين فى القدر بالباطل فرقة كذبت بهذا و قالت انه لا يخلق أفعال العباد و لا يشاء كل ما يكون لأن الذنوب قبيحة و هولا يفعل القبيح و ارادتها قبيحة و هولا يريد القبيح وفرقة لما رأت أنه خالق هذا كله و لم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة بل قالت إذا كان يخلق هذا فيجور أن يخلق كل شر و لا يخلق شيئا لحكمة وما ثم فعل تنزه عنه بل كل ما كان ممكنا جاز أن يفعله وجوزوا أن يأمر بكل كفر و معصية و ينهى عن كل ايمان و طاعة و صدق و عدل و أن يعذب الأنبياء و ينعم الفراعنة و المشركين و غير ذلك و لم يفرقوا بين مفعول و مفعول و هذا منكر من القول و زور كالأول قال تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }الجاثية21 و قال تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ{35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{36}القلم35 -36 و قال تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }ص28 و نحو ذلك مما يوجب أنه يفرق بين الحسنات و السيئات و بين المحسن و المسيء و أن من جوز عليه التسوية بينهما فقد أتى بقول منكر و زور ينكر عليه وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لايكون فيه حكمة بل فيه من الحكمة و الرحمة ما يخفى على بعضهم مما لا يقدر قدره إلا الله وليس إذا و قع فى المخلوقات ما هو شر جزئي بالاضافة يكون شرا كليا عاما بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيرا و مصلحة للعباد كالمطر العام و كارسال رسول عام وهذا مما يقتضى أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذابا عليه بالمعجزات التى أيد بها أنبياءه الصادقين فان هذا شر عام للناس يضلهم و يفسد عليهم دينهم و دنياهم و آخرتهم وليس هذا كالملك الظالم و العدو فإن الملك الظالم لابد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه وقد قيل ستون

---

[1] ب مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 533-536

سنة بامام ظالم خير من ليلة و احدة بلا إمام وإذا قدر كثرة ظلمه فذاك ضرر في الدين كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم و يثابون عليها و يرجعون فيها إلى الله و يستغفرونه و يتوبون اليه و كذلك ما يسلط عليهم من العدو و أما من يكذب على الله و يقول أي يدعى أنه نبى فلو أيده الله تأييد الصادق للزم أن يسوى بينه و بين الصادق فيستوى الهدى و الضلال و الخير و الشر و طريق الجنة و طريق النار و يرتفع التمييز بين هذا و هذا و هذا مما يوجب الفساد العام للناس فى دينهم و دينا هم و آخرتهم ولهذا أمر النبى صلى الله عليه و سلم بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع كالخوارج و أمر بالصبر على جور الأئمة و نهى عن قتالهم و الخروج عليهم و لهذا قد يمكن الله كثيرا من الملوك الظالمين مدة وأما المتنبؤن الكذابون فلا يطيل تمكينهم بل لابد أن يهلكهم لأن فسادهم عام في الدين و الدينا و الآخرة قال تعالى { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{46} الحاقة44-46 و قال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }الشورى24 فأخبر أنه بتقدير الافتراء لابد أن يعاقب من افترى عليه [1]

لا يضاف لله سبحانه الشر مفردا

ومعلوم أن كل مخلوق يقال هو من الله بمعنى أنه خلقه بائنا عنه لا بمعنى أنه قام به واتصف به كما في قوله تعالى {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ }الجاثية13 وقوله تعالى {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ }النحل53 والله تعالى وإن كان خالقا لكل شيء فإنه خلق الخير والشر لما له في ذلك من الحكمة التي باعتبارها كان فعله حسنا متقنا [2]

قالت طوائف من المسلمين و أهل الكلام و الفقه و غيرهم من الحنفية و الحنبلية و غيرهم و من الكرامية و الصوفية و كثير من المتفلسفة جميع ما يحدثه الله عز وجل فى الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال الله تعالى { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 و قال {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ }السجدة7 و الضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شرا مطلقا و إن كان شرا بالنسبة إلى من تضرر به و لهذا لايجيء في كلام الله تعالى و كلام رسوله صلى الله عليه و سلم إضافة الشر و حده إلى الله بل لا يذكر الشر إلا على أحد و جوه ثلاثة إما أن يدخل فى عموم المخلوقات فإنه إذا دخل فى العموم أفاد عموم القدرة و المشيئة و الخلق و تضمن ما إشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم و إما أن يضاف إلى السبب الفاعل و إما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }الزمر62 و نحو ذلك و من هذا الباب أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع و الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع فلا يفرد الإسم المانع عن قرينه و لا الضار عن قربنه لإن إقترانهما يدل على العموم و كل مافى الوجود من رحمة و نفع و مصلحة فهو من فضله تعالى و ما فى الوجود من غير ذلك فهو من عدله فكل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل و النهار أرأيتم ما أنفق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 14 ص:265- 270 الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 44-45

[2] ب منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 142

منذ خلق السموات و الأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه و بيده الأخرى القسط يخفض و يرفع فأخبر أن يده اليمنى فيها الإحسان إلى الخلق و يده الأخرى فيها العدل و الميزان الذى به يخفض و يرفع فخفضه و رفعه من عدله و إحسانه إلى خلقه من فضله وأما حذف الفاعل فمثل قول الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 و قوله تعالى في سورة الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 و نحو ذلك و إضافته إلى السبب كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 و قوله { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا }الكهف79 مع قوله { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ً }الكهف82 و قوله تعالى {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 و قوله { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا }الأعراف23 و قوله تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ }آل عمران165 و أمثال ذلك [1]

لا تمنع الاستعاذة مما خلقه من الشر

أن الله تعالى قد أمرنا أن نستعيذ من عذاب جهنم وعذاب القبر وغير ذلك من مخلوقاته التي هي مخلوقاته باتفاق المسلمين فعلم أنه لا يمتنع أن نستعيذ مما خلقه من الشر كما قال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{2} الفلق 1-2 [2]

الشر لم يرد فى أسماء الله سحانه و إنما و رد فى مفعولاته

أن الشر لم يرد فى أسمائه و إنما و رد فى مفعولاته و لم يضف إليه إلا على سبيل العموم و أضافه إلى السبب المخلوق أو بحذف فاعله و ذلك كقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}الزمر62 و {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 و كأسمائه المقترنة مثل المعطى المانع الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع و كقوله {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }الشعراء80 و كقوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7} الفاتحة7 و كقول الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 و قد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه كان يقول فى دعاء الإستفتاح و الخير بيديك و الشر ليس إليك و سواء أريد به أنه لا يضاف إليك و لا يتقرب به إليك أو قيل إن الشر إما عدم و إما من لوازم العدم و كلاهما ليس إلى الله فهذا يبين أنه سبحانه إنما يضاف إليه الخير و أسماؤه تدل على صفاته و ذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر و إنما و قع الشر فى المخلوقات قال تعالى{ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{49} وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{50}الحجر 49-50 و قال تعالى {اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }المائدة98 وقال تعالى {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }الأنعام165 فجعل المغفرة و الرحمة من معاني أسمائه الحسنى التى يسمى بها نفسه فتكون المغفرة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص:94- 95

[2] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 216

و الرحمة من صفاته و أما العقاب الذي يتصل بالعباد فهو مخلوق له و ذلك هو الأليم فلم يقل و إني أنا المعذب[1]

الفرق بين المحبة والمشيئة

فما خلق شيئا إلا لحكمة وهو سبحانه قد قال { أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ }السجدة7 وقال { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 وليس في أسمائه الحسنى إلا اسم يمدح به ولهذا كانت كلها حسنى والحسنى بخلاف السوأى فكلها حسنة والحسن محبوب ممدوح فالمقصود بالخلق ما يحبه ويرضاه وذلك أمر ممدوح ولكن قد يكون من لوازم ذلك ما يريده لأنه من لوازم ما يحبه ووسائله فإن وجود الملزوم بدون اللازم ممتنع كما يمتنع وجود العلم والإرادة بلا حياة ويمتنع وجود المولود مع كونه مولودا بلا ولادة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حديث الإستفتاح والخير كله بيديك والشر ليس إليك وقد قيل في تفسيره لا يتقرب به إليك بناء على أنه الأعمال المنهي عنها وقد قيل لا يضاف إليك بناء على أنه المخلوق والشر المخلوق لا يضاف إلى الله مجردا عن الخير قط وإنما يذكر على أحد وجوه ثلاثة إما مع إضافته إلى المخلوق كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 وإما مع حذف الفاعل كقوله تعالى {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 ومنه في الفاتحة صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 فذكر الإنعام مضافا إليه وذكر الغضب محذوفا فاعله وذكر الضلال مضافا إلى العبد وكذلك قوله {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }الشعراء80 وإما أن يدخل في العموم كقوله { خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }الأنعام102 ولهذا إذا ذكر باسمه الخاص قرن بالخير كقوله في أسمائه الحسنى الضار النافع المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل فجمع بين الأسمين لما فيه من العموم والشمول الدال على وحدانيته وأنه وحده يفعل جميع هذه الأشياء ولهذا لا يدعى بأحد الإسمين كالضار والنافع والخافض والرافع بل يذكران جميعا ولهذا كان كل نعمة منه فضلا وكل نقمة منه عدلا وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغضيها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع فالإحسان بيده اليمنى والعدل بيده الأخرى وكلتا يديه يمين مباركة كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المقسطون عند الله يوم القيامة عن منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذي يعدلون في أهليهم وما ولوا ولبسط هذا موضع آخر والمقصود هنا أنه سبحانه إذا خلق ما يبغضه ويكرهه لحكمة يحبها ويرضاها فهو مريد لكل ما خلقه وإن كان بعض مخلوقاته إنما خلقه لغيره وهو يبغضه ولا يحبه وهذا الفرق بين المحبة والمشيئة هو مذهب السلف وأهل الحديث والفقهاء وأكثر متكلمي أهل السنة كالحنفية والكرامية[2]

وجود الملزوم بدون و جود اللازم ممتنع

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص:94- 95

[2] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 410-411

كما ثبت فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى و غيره عن شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال سيد الإستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة و من قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة و فى هذا الحديث قوله أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبى و من نعمه على عبده المؤمن ما ييسره له من الإيمان و الحسنات فإنها من فضله و إحسانه و رحمته و حكمته و سيئات العبد من عدله و حكمته إذ كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و هو لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته و رحمته و عدله لا لمجرد قهره و قدرته كما يقوله جهم و أتباعه و قد بسط الكلام على هذا و بين حقيقة قوله و الخير بيديك و الشر ليس إليك و إن كان خالق كل شيء و بين أن الشر لم يضف الى الله فى الكتاب و السنة إلا على أحد وجوه ثلاثة إما بطريق العموم كقوله {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}الزمر62 و أما بطريقة إضافته الي السبب كقوله {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }الفلق2 وإما أن يحذف فاعله كقول الجن{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }الجن10 و قد جمع في الفاتحة الأصناف الثلاثة فقال {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2 و هذا عام و قال {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ}الفاتحة7 فحذف فاعل الغضب و قال { وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 فأضاف الضلال الى المخلوق و من هذا قول الخليل {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }الشعراء80 و قول الخضر { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا }الكهف79 {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً }الكهف81 { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا }الكهف82 و قد بسط الكلام على حقائق هذه الأمور و بين أن الله لم يخلق شيئا إلا لحكمة قال تعالى {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ }السجدة7 و قال { صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 فالمخلوق بإعتبار الحكمة التى خلق لأجلها خير و حكمة و إن كان فيه شر من جهة أخرى فذلك أمر عارض جزئي ليس شرا محضا بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح هو خير من الفاعل الحكيم و إن كان شرا لمن قام به و ظن الظان أن الحكمة المطلوبة التامة قد تحصل مع عدمه إنما يقوله لعدم علمه بحقائق الأمور و إرتباط بعضها ببعض فإن الخالق إذا خلق الشيء فلا بد من خلق لوازمه فإن وجود الملزوم بدون و جود اللازم ممتنع و لا بد من ترك خلق أضداده التى تنافيه فإن إجتماع الضدين المتنافيين فى و قت و احد ممتنع وهو سبحانه على كل شيء قدير لايستثنى من هذا العموم شيء لكن مسمى الشيء ما تصور و جوده فأما الممتنع لذاته فليس شيئا بإتفاق العقلاء[1]

أكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا

فقوله تعالى{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ }البقرة186 يتناول نوعي الدعاء وبكل منها فسرت الآية قيل أعطيه إذا سألني وقيل أثيبه إذا عبدني والقولان متلازمان وليس هذا من إستعمال اللفظ المشترك فى معينه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه بل هذا استعماله فى حقيقته المتضمنة للأمرين جميعا فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع وقل ما يفطن له وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا فهي من هذا القبيل مثال ذلك قوله تعالى{أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 511-512

الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ}الإسراء78 فسر الدلوك بالزوال وفسر بالغروب وليس بقولين بل اللفظ يتناولهما معا فإن الدلوك هو الميل ودلوك الشمس ميلها ولهذا الميل مبتدأ ومنتهى فمبتداه الزوال ومنتهاه الغروب واللفظ متناول لهما بهذا الإعتبار ومثاله أيضا تفسيره {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ }الفلق3 الغاسق بالليل وتفسيره بالقمر فإن ذلك ليس باختلاف بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائرة كثيرة [1]

اثبات الاسباب والقوى

والعلماء متفقون على اثبات حكمة الله في خلقه وامره واثبات الاسباب والقوى كما قد ذكرنا اقوالهم في موضعها وليس من السلف من انكر كون حركات الكواكب قد تكون من تمام اسباب الحوادث كما ان الله جعل هبوب الرياح ونور الشمس والقمر من اسباب الحوادث وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الشمس والقمر ايتان من ايات الله لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته ولكنهما ايتان من ايات الله يخوف الله بهما عباده فاذا رايتموهما فافزعوا الى الصلوة وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالصلوة والذكر والدعاء والصدقة والعتاقة والاستغفار وكذلك عند سائر الايات التي يخوف الله بها عباده وقوله لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته رد لما كان قد توهمه بعض الناس من ان كسوف الشمس كان لاجل موت ابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد مات وكسفت الشمس فتوهم بعض الجهال من المسلمين ان الكسوف كان لاجل هذا فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم ان الكسوف لا يكون سببه موت احد من اهل الارض ونفى بذلك ان يكون الكسوف معلولا عن ذلك وظنوا ان هذا من جنس اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ كما ثبت ذلك في الصحيح فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وبين ان ذلك من ايات الله التي يخوف بها عباده والتخويف انما يكون بما يكون سببا للشر قال تعالى {وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً }الإسراء59 فلو كان الكسوف وجوده كعدمه بالنسبة الى الحوادث لم يكن سببا لشر وهو خلاف نص الرسول وايضا في السير ان النبي صلى الله عليه وسلم نظر الى القمر وقال لعائشة يا عائشة تعوذي بالله من شر هذا فان هذا هو الغاسق اذا وقب والاستعاذة انما تكون مما يحدث عنه شر وامر صلى الله عليه وسلم عند انعقاد اسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئتة الله تعالى وقدرته من الصلوة والدعاء والذكر والاستغفار والتوبة والاحسان بالصدقة والعتاقة فان هذه الاعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه كما في الحديث ان الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والارض فيعتلجان وهذا كما لو جاء عدو فانه يدفع بالدعاء وفعل الخير وبالجهاد له واذا هجم البرد يدفع باتخاذ الدفء فكذلك الاعمال الصالحة والدعاء وهذا ما اتفق عليه الملل واساطين الفلاسفة حتى يذكر عن بطلميوس انه قال واعلم ان ضجيج الاصوات في هياكل العبادات بفنون اللغات يحلل ما عقدته الافلاك الدائرات وكسوف الشمس انما يكون وقت استسرار القمر اخر الشهر وخسوف القمر انما يكون ليالي الابدار الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كما ان الهلال قد يكون ليلة الثلاثين او الحادي والثلاثين هذا الذي اجرى الله به عادته في حركات الشمس والقمر [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 12

[22] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 270- 275

الاستعاذة انما تكون مما يحدث عنه شر

وأما انكار بعض الناس ان يكون شيء من حركات الكواكب وغيرها من الاسباب فهو أيضا قول بلا علم وليس له فى ذلك دليل من الأدلة الشرعية و لاغيرها فان النصوص تدل على خلاف ذلك كما فى الحديث الذى فى السنن عن عائشة رضى الله عنها ان النبى نظر الى القمر فقال يا عائشة تعوذى بالله من شر هذا فهذا الغاسق اذا وقب وكما تقدم فى حديث الكسوف حيث اخبر ان الله يخوف بهما عباده وقد تبين أن معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم لا يخسفان لموت احد ولا لحياته اى لا يكون الكسوف معللا بالموت فهو نفى العلة الفاعلة كما فى الحديث الآخر الذى فى صحيح مسلم عن ابن عباس عن رجال من الانصار انهم كانوا عند النبى اذ رمى بنجم فاستنار فقال ما كنتم تقولون لهذا فى الجاهلية فقالوا كنا نقول ولد الليلة عظيم او مات عظيم فقال انه لا يرمى بها لموت احد ولا لحياته ولكن الله اذا قضى بالأمر سبح حملة العرش وذكر الحديث فى مسترق السمع فنفى النبى أن يكون الرمى بها لأجل انه قد ولد عظيم او مات عظيم بل لأجل الشياطين المسترقين السمع ففى كلا الحديثين من ان موت الناس وحياتهم لا يكون سببا لكسوف الشمس والقمر ولا الرمى بالنجم وإن كان موت بعض الناس قد يقتضى حدوث أمر فى السموات كما ثبت فى الصحاح ان العرش عرش الرحمن اهتز لموت سعد ابن معاذ واما كون الكسوف او غيره قد يكون سببا لحادث فى الأرض من عذاب يقتضى موتا او غيره فهذا قد اثبته الحديث نفسه وما أخبر به النبى لا ينافى لكون الكسوف له وقت محدود يكون فيه حيث لا يكون كسوف الشمس الا فى اخر الشهر ليلة السرار ولا يكون خسوف القمر الا فى وسط الشهر وليالى الابدار ومن إدعى خلاف ذلك من المتفقهة او العامة فلعدم علمه بالحساب ولهذا يمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل إذ كل ذلك بحساب كما قال تعالى { وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً }الأنعام96 وقال تعالى {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ }الرحمن5 وقال تعالى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ }يونس5 وقال {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ }البقرة189 ومن هنا صار بعض العامة اذا رأى المنجم قد اصاب فى خبره عن الكسوف المستقبل يظن ان خبره عن الحوادث من هذا النوع فان هذا جهل اذ الخبر الأول بمنزلة اخباره بان الهلال يطلع اما ليلة الثلاثين واما ليلة إحدى وثلاثين فان هذا امر اجرى الله به العادة لا يخرم ابدا وبمنزلة خبره ان الشمس تغرب آخر النهار وأمثال ذلك فمن عرف منزلة الشمس والقمر ومجاريهما علم ذلك وان كان ذلك علما قليل المنفعة فإذا كان الكسوف له اجل مسمى لم يناف ذلك ان يكون عند اجله يجعله الله سببا لما يقضيه من عذاب وغيره لمن يعذب الله فى ذلك الوقت او لغيره ممن ينزل الله به ذلك كما ان تعذيب الله لمن عذبه بالريح الشديدة الباردة كقوم عاد كانت فى الوقت المناسب وهو آخر الشتاء كما قد ذكر ذلك اهل التفسير وقصص الأنبياء وكان النبى اذا رأى مخيلة وهو السحاب الذى يخال فيه المطر اقبل وادبر وتغير وجهه فقالت له عائشة ان الناس اذا رأوا مخيلة استبشروا فقال يا عائشة وما يؤمننى قد رأى قوم عاد العذاب عارضا مستقبل أوديتهم فقالوا هذا عارض ممطرنا قال الله تعالى { بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ }الأحقاف24 وكذلك الأوقات الذى ينزل الله فيها الرحمة كالعشر الآخرة من رمضان والأول من ذى الحجة وكجوف الليل وغير ذلك هى اوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر وينزل فيها من الرحمة ما لا ينزل فى غيرها وقد جاء فى بعض طرق احاديث الكسوف ما رواه ابن ماجه وغيره فى قوله إنهما

لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته ولكن الله اذا تجلى لشيء من خلقه خشع له وقد طعن فى هذا الحديث ابو حامد ونحوه وردوا ذلك لا من جهة علم الحديث فانهم قليلوا المعرفة به كما كان ابو حامد يقول عن نفسه أنا مزجى البضاعة فى علم الحديث ولكن من جهة كونهم اعتقدوا ان سبب الكسوف اذا كان مثلا كون القمر اذا حاذاها منع نورها ان يصل الى الأرض لم يجز ان يعلل ذلك بالتجلى والتجلى المذكور لا ينافى السبب المذكور فان خشوع الشمس والقمر لله فى هذا الوقت اذا حصل لنوره ما يحصل من انقطاع يرفع تأثيره عن الأرض وحيل بينه وبين محل سلطانه وموضع انتشاره وتأثيره فان الملك المتصرف فى مكان بعيد لو منع ذلك لذل لذلك وأما قوله تعالى {فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً }النازعات5 فالمدبرات هى الملائكة واما اقسام الله بالنجوم كما اقسم بها فى قوله { فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16}التكوير15-16 فهو كاقسامه بغير ذلك من مخلوقاته كما اقسم بالليل والنهار والشمس والقمر وغير ذلك يقتضى تعظيم قدر المقسم به والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة والمنفعة للناس والانعام عليهم وغير ذلك ولا يوجب ذلك ان تتعلق القلوب به او يظن انه هو المسعد المنحس كما لا يظن ذلك فى { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى{1} وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى{2} الليل 1-2 وفى { وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً{1} فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً{2}الذاريات 1-2 وفى { وَالطُّورِ{1} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{2} الطور1-2 وأمثال ذلك وإعتقاد المعتقد ان نجما من النجوم السبعة هو المتولى لسعده ونحسه اعتقاده فاسد وان المعتقد انه هو المدبر له فهو كافر وكذلك ان انظم الى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كفرا وشركا محصنا وغاية من يقول ذلك ان يبنى ذلك على ان هنا الولد حين ولد بهذا الطالع وهذا القدير يمتنع ان يكون وحده هو المؤثر فى احوال هذا المولود بل غايته ان يكون جزءا يسيرا من جملة الأسباب وهذا القدر لا يوجب ما ذكر بل ما علم حقيقة تأثيره فيه مثل حال الوالدين وحال البلد الذى هو فيه فان ذلك سبب محسوس فى احوال المولود ومع هذا فليس هذا مستقلا ثم إن الأوائل من هؤلاء المنجمين المشركين الصابئين واتباعهم قد قيل انهم كانوا اذا ولد لهم المولود اخذوا طالع المولود وسموا المولود باسم يدل على ذلك فاذا كبر سئل عن اسمه اخذ السائل حال الطالع فجاء هؤلاء الطرقية يسألون الرجل عن اسمه واسم امه ويزعمون انهم يأخذون من ذلك الدلالة على احواله وهذه ظلمات بعضها فوق بعض منافية للعقل والدين وأما اختياراتهم وهو انهم يأخذون الطالع لما يفعلونه من الأفعال مثل اختياراتهم للسفر ان يكون القمر فى شرفه وهو السرطان وان لا يكون فى هبوطه وهو العقرب فهو من هذا الباب المذموم ولما أراد على بن ابى طالب ان يسافر لقتال الخوارج عرض له منجم فقال يا أمير المؤمنين لا تسافر فإن القمر فى العقرب فانك ان سافرت

والقمر فى العقرب هزم اصحابك او كما قال فقال على بل أسافر ثقة بالله وتوكلا على الله وتكذيبا لك فسافر فبورك له فى ذلك السفر حتى قتل عامة الخوارج وكان ذلك من أعظم ما سر به حيث كان قتاله لهم بأمر النبى وأما ما يذكره بعض الناس ان النبى قال لا تسافر والقمر فى العقرب فكذب مختلق بإتفاق أهل الحديث [1]

الدعوى ان السحر هى قوى نفسانية من أبطل الباطل

[11] مجموع الفتاوى ج: 35 ص:174-179

قال تعالى { وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ }الفلق 4 فدعوى المدعي ان السحر هي قوى نفسانية من أبطل الباطل فإن السحر كثير منه يكون بالشياطين وكتب السحر مملوءة من الأقسام والعزائم على الجن بساداتهم الذين يعظمونهم ولذلك كانت الإنس تستعيذ بالجن كما قال الله تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً }الجن6 كانوا إذا نزل الرجل منهم بواد يقول أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فأنزل الله هذه الآية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ففرق بين الشيطان وبين الهوام وبين أعين الإنس كما يدل ذلك على وجود الضرر في هذه الجهات الثلاث الإنس والجن والهوام وقال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6} الناس 1-6 فأمره بالتعوذ من شر الوسواس من الجنة والناس الذي يوسوس في صدور الناس [1]

الحسد من امراض القلوب

ومن امراض القلوب الحسد كما قال بعضهم فى حده انه اذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء فلا يجوز ان يكون الفاضل حسودا لأن الفاضل يجرى على ما هو الجميل وقد قال طائفة من الناس إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود وان لم يصر للحاسد مثلها بخلاف الغبطة فانه تمنى ملها من غير حب زوالها عن المغبوط والتحقيق ان الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان احدهما كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم واذا ابغض ذلك فانه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضا فى قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وان لم يحصل له نفع بزوالها لكن نفعه زوال الألم الذى كان فى نفسه ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة واشده كالمريض الذى عولج بما يسكن وجعه والمرض فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض فان تلك النعمة قد تعود على المحسود واعظم منها وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود والحاسد ليس له غرض فى شئ معين لكن نفسه تكره ما انعم به على النوع ولها قال من قال انه تمنى زوال النعمة فان من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه و النوع الثانى ان يكره فضل ذلك الشخص عليه فيجب أن يكون مثله او افضل منه فهذا حسد وهو الذى سموه الغبطة وقد سماه النبى حسدا فى الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما انه قال لاحسد الا فى اثنتين رجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ورجل اتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق هذا لفظ ابن مسعود ولفظ ابن عمر رجل اتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل اتاه الله مالا فهو ينفق منه فى الحق آناء الليل والنهار وراه البخارى من حديث أبى هريرة ولفظه لاحسد الا فى اثنين رجل اتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار فسمعه رجل فقال ياليتنى أوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا ورجل اتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق فقال رجل ياليتنى اوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه ما يعمل هذا فهذا الحسد الذى نهى عنه النبى الا فى موضعين هو الذى سماه اولئك الغبطة وهو ان يحب مثل حال الغير ويكره ان يفضل عليه فإن قيل اذا لم سمى حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه قيل مبدأ هذا

---

[11] الصفدية ج: 1 ص: 169

الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته ان يتفضل عليه ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك فلما كان مبدأ ذلك كراهته ان يتفضل عليه الغير كان حسدا لأنه كراهة تتبعها محبة واما من احب ان ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى احوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شئ ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثانى وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان فى الأمر المحبوب المطلوب كلاهما يطلب ان يأخذه وذلك لكراهية أحدهما ان يتفضل عليه الآخر كما يكره المستبقان كل منهما ان يسبقه الآخر والتنافس ليس مذموما مطلقا بل هو محمود فى الخير قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26} المطففين22-26 فأمر المنافس ان ينافس فى هذا النعيم لا ينافس فى نعيم الدنيا الزائل وهذا موافق لحديث النبى فانه نهى عن الحسد إلا فيمن اوتى العلم فهو يعمل به ويعلمه ومن اوتى المال فهو ينفقه فاما من اوتى علما ولم يعمل به ولم يعلمه او أوتى مالا ولم ينفقه فى طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله فانه ليس فى خير يرغب فيه بل هو معرض للعذاب ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل أدى الأمانات إلى اهلها وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة لكن هذا فى جهاد عظيم كذلك المجاهد فى سبيل الله والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم فلهذا لم يذكره وإن كان المجاهد فى سبيل الله أفضل من الذى ينفق المال بخلاف المنفق والمعلم فان هذين ليس لهم فى العادة عدو من خارج فان قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه فذلك أفضل لدرجتهما وكذلك لم يذكر النبى المصلى والصائم والحاج لأن هذه الأعمال لا يحصل منها فى العادة من نفع الناس الذى يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والانفاق والحيد فى الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة وإلا فالعامل لايحسد فى العادة ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح اكثر من غيره بخلاف هذين النوعين فانهما يحسدان كثيرا ولهذا يوجد بين أهل العلم لهم أتباع من الحسد مالا يوجد فيمن ليس كذلك وكذلك فيمن له اتباع بسبب إنفاق ماله فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين مثلا بهذا ومثلا بهذا فقال {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{75} وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{76} النحل 75-76 والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه فان الأوثان لاتقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع فاذا قدر عبد مملوك لايقدر على شئ وأخر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوى هذا المملوك العاجز عن الاحسان وهذا القادر على الاحسان المحسن إلى الناس سرا وجهرا وهو سبحانه قادر على الاحسان إلى عباده وهو محسن إليهم دائما فكيف يشبه به العاجز المملوك الذى لايقدر على شئ حتى يشرك به معه وهذا مثل الذى اعطاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل والنهار و المثل الثانى إذا قدر شخصان أحدهما ابكم لا يعقل ولا يتكلم ولايقدر على شئ وهو مع هذا كل على مولاة اينما يوجهه لا يأت بخير فليس فيه من نفع قط بل هو كل على من يتولى أمره وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ويعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم وهذا نظير الذى اعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس وقد ضرب ذلك مثلا لنفسه فانه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم كما قال تعالى {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }آل عمران18 وقال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }هود56ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس كان عبد الله يعلم الناس واخوه يطعم الناس فكانوا يعظمون على ذلك ورأى معاوية الناس

يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال هذا والله الشرف او نحو ذلك هذا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه نافس ابا بكر رضى الله عنه الانفاق كما ثبت فى الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال امرنا رسول الله ان نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت اليوم اسبق ابا بكر ان سبقته يوما قال فجئت بنصف مالى قال فقال لى رسول الله ما ابقيت لاهلك قلت مثله واتى ابو بكر رضى الله عنه بكل ما عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ابقيت لاهلك قال ابقيت لهم الله ورسوله فقلت لا اسابقك الى شئ ابدا فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة لكن حال الصديق رضى الله عنه افضل منه انه خال من المنافسة مطلقا لا ينظر الى حال غيره وكذلك موسى فى حديث المعراج حصل له منافسة وغبطة للنبى حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له ما يبكيك فقال ابكى لان غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من امته اكثر ممن يدخلها من امتى اخرجاه فى الصحيحين وروى فى بعض الالفاظ المروية غير الصحيح مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته اكرمته وفضلته قال فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال من هذا معك ياجبريل قال هذا احمد قال مرحبا بالنبى الامى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لامته قال ثم اندفعنا فقلت من هذا يا جبريل قال هذا موسى ابن عمران قلت ومن يعاتب قال يعاتب ربه فيك قلت ويرفع صوته على ربه قال إن الله عز وجل قد عرف صدقه وعمر رضى الله عنه كان مشبها بموسى ونبينا حاله افضل من حال موسى فانه لم يكن عنده شيء من ذلك وكذلك كان فى الصحابة ابو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الامور فكانوا ارفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة وإن كان ذلك مباحا ولهذا استحق أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون امين هذه الأمة فإن المؤتمن إذا لم يكن فى نفسه مزاحمة على شئ مما اؤتمن عليه كان احق بالامانة ممن يخاف مزاحمته ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف انه لا يزاحم على الكبرى ويؤتمن على المال من يعرف انه ليس له غرض فى اخذ شئ منه وإذا اؤتمن من فى نفسه خيانة شبه بالذئب المؤتمن على الغنم فلا يقدر ان يؤدى الامانة فى ذلك لما فى نفسه من الطلب لما اؤتمن عليه وفى الحديث الذى رواه الامام احمد فى مسنده عن أنس رضىالله عنه قال كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من اهل الجنة قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبى مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما كان اليوم الثالث قال النبى صلى الله عليه وسلم مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما قام النبى صلى الله عليه وسلم اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضى

الله عنه فقال انى لاحيت ابى فاقسمت ان لا ادخل عليه ثلاثا فان رأيت ان تؤينى اليك حتى تمضى الثلاث فعلت قال نعم قال أنس رضى الله عنه فكان عبد الله يحدث انه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير انه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم الى صلاة الفجر فقال عبد الله غير انى لم اسمعه يقول إلا خيرا فلما فرغنا من الثلاث وكدت ان احقر عمله قلت ياعبد الله لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من اهل الجنة فطلعت انت الثلاث مرات فأردت أن آوى اليك لأنظر ما عملك فاقتدى بذلك فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله قال ماهو إلا ما رأيت غير اننى لا أجد على احد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق فقول عبد الله بن عمرو له هذه التى بلغت بك وهى التى لانطيق يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال { وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ }الحشر9 اى مما اوتى

اخوانهم المهاجرون قال المفسرون لا يجدون فى صدرهم حاجة اى حسدا وغيظا مما اوتى المهاجرون ثم قال بعضهم من مال الفئ وقيل من الفضل والتقدم فهم لا يجدون حاجة مما اوتوا من المال ولا من الجاه والحسد يقع على هذا وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله احب الآخرون ان يفعلوا نظير ذلك فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ }المطففين26 واما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى فى حق اليهود {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ }البقرة109 يودون اى يتمنون ارتدادكم حسدا فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق لأنهم لما رأوا انكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم وكذلك فى الآية الاخرى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً{54} فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً{55}النساء54 -55 وقال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{2} وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ{3} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ{4} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ{5} الفلق1-5 وقد ذكر طائفة من المفسرين انها نزلت بسبب حسد اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم حتى سحروه سحره لبيد بن الاعصم اليهودى فالحاسد المبغض للنعمة على من انعم الله عليه بها ظالم معتد والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهى عن ذلك إلافيما يقربه الى الله فاذا احب ان يعطى مثل ما اعطى مما يقربه الى الله فهذا لا بأس به واعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر الى حال الغير افضل ثم هذا الحسد ان عمل بموجبه صاحب كان ظالما معتديا مستحقا للعقوبة الا ان يتوب وكان المحسود مظلوما مأمورا بالصبر والتقوى فيصبر على اذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه كما قال تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة109 و ان الحسد مرض من امراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه الا قليل من الناس ولهذا يقال ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه وقد قيل للحسن البصرى ايحسد المؤمن فقال ما انساك اخوة يوسف لا ابالك ولكن عمه فى صدرك فانه لا يضرك مالم تعذبه يدا ولسانا فمن وجد فى نفسه حسدا لغيره فعليه ان يستعمل معه التقوى والصبر فيكره ذلك من نفسه وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود فلا يعينون من ظلمه ولكنهم ايضا لا يقومون بما يجب من حقه بل اذا ذمه احد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده وكذلك لو مدحه احد لسكتوا وهؤلاء مدينون فى ترك المأمور فى حقه مفرطون فى ذلك لا معتدون عليه وجزاؤهم انهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون ايضا فى مواضع ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود واما من اعتدى بقول اوفعل فذلك يعاقب ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل فى الظالمين نفعه الله بتقواه كما جرى لزينب بنت جحش رضى الله عنها فانها كانت هى التى تسامى عائشة من ازواج النبى وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزوج واحد فان المرأة تغار على زوجها لحظها منه فانه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها وهكذا الحسد يقع كثيرا بين المتشاركين فى رئاسة او مال اذا اخذ بعضهم قسطا من ذلك وفات الآخر ويكون بين النظراء لكراهةاحدهما ان يفضل الآخر عليه كحسد اخوة يوسف وكحسد ابنى آدم احدهما لاخيه فانه حسده لكون ان الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا فحسده على ما فضله الله من الايمان والتقوى كحسد اليهود للمسلمين وقتله على ذلك ولهذا قيل اول ذنب عصى الله به ثلاثة الحرص والكبر والحسد فالحرص من آدم والكبر من ابليس والحسد من قابيل حيث قتل هابيل وفى الحديث ثلاث لا ينجو منهم احد الحسد والظن والطيرة وسأحدثكم بما يخرج من ذلك اذا حسدت فلا تبغض واذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت

وامض رواه ابن ابى الدنيا من حديث ابى هريرة وفى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء وهى الحالقة لا اقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين فسماه داء كما سمى البخل داء فى قوله وأى داء ادوا من البخل فعلم ان هذا مرض وقد جاء فى حديث آخر اعوذ بك من منكرات الاخلاق والاهواء والادواء فعطف الأدواء على الاخلاق والاهواء فإن الخلق ما صار عادة للنفس وسجية قال تعالى {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ }القلم4 قال ابن عباس وابن عيينة واحمد بن حنبل رضى الله عنهم على دين عظيم وفى لفظ عن ابن عباس على دين الاسلام وكذلك قالت عائشة رضى الله عنها كان خلقه القرآن وكذلك قال الحسن البصري أدب القرآن هو الخلق العظيم واما الهوى فقد يكون عارضا والداء هوالمرض وهو تالم القلب والفساد فيه وقرن فى الحديث الاول الحسد بالبغضاء لان الحاسد يكوه اولا فضل الله على ذلك التغير ثم ينتقل الى بغضه فان بعض اللازم يقتضى بغض الملزوم فان نعمة الله اذا كانت لازمة وهو يحب زوالها وهى لاتزول الا بزواله ابغصه واحب عدمه والحسد يوجب البغى كما اخبرالله تعالى عمن قبلنا انهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فلم يكن اختلافهم لعدم العلم بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض كما يبغى الحاسد على المحسود وفى الصحيحين عن انس بن مالك رضى الله عنه ان النبى قال لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام وقد قال فى الحديث المتفق على صحته من رواية انس ايضا والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه وقد قال تعالى {وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً {72} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً{73}النساء72-73 فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لأخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم بل ان اصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم وان اصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها بل أحبوا ان يكون لهم منها حظ فهم لا يفرحون الا بدينا تحصل لهم او شر دنيوى ينصرف عنهم إذا كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ولوكانوا كذلك لا حبوا اخوانهم واحبوا ماوصل اليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه ما يسوء المؤمنين فليس منهم ففى الصحيحين عن عامر قال سمعت النعمان بن بشر يخطب ويقول سمعت رسول الله يقول مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه شئ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وفى الصحيحين عن ابى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله المؤمن للمؤمن كالبنيان يبشد بعضه بعضا وشبك بين اصابعه والشح مرض والبخل مرض والحسد شر من البخل كما فى الحديث الذى رواه ابودواد عن النبى أنه قال الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وذلك ان البخيل يمنع نفسه والحسود يكره نعمة الله على عباده وقد يكون فى الرجل اعطاء لمن يعينه على اغراضه وحسد لنظرائه وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح اصل ذلك وقال تعالى { وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }الحشر9 وفى الصحيحين عن النبى صلىالله عليه وسلم انه قال إياكم والشح فانه اهلك من كان قبلكم امرهم بالبخل فبخلوا وامرهم بالظلم فظلموا وامرهم بالقطيعة فقطعوا وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء فى طوافه يقول اللهم قنى شح نفسى فقال له رجل ما اكثر ما تدعو بهذا فقال إذا وقيت شح نفسى وقيت الشح والظلم والقطيعة والحسد

يوجب الظلم فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها بل وحبها لما يضرها ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب [1]

مدح تعالى وذم على أفعال القلوب

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء فى الحديث الذى فى الترمذى من احب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد إستكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر فى بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ }البقرة165 ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن إستعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما إستعاذ منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى { وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ }البقرة93 وذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ }البقرة165 وقال {وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ }الفلق5 ومثل هذا كثير فى كتاب الله وسنة رسوله وإتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعى القلوب واعمالها مثل قوله فى الحديث الصحيح المتفق عليه لا تباغضوا ولا تحاسدوا [2]

الحاسد ظالم معتد

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 121-129

[2] مجموع الفتاوى ج: 10 ص:754- 756

فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله فإذا أحب أن يعطى مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالما معتديا مستحقا للعقوبة إلا أن يتوب وكان المحسود مظلوما مأمورا بالصبر والتقوى فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه كما قال تعالى البقرة { فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة109 وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسب حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم حتى سحروه سحره لبيد بن الأعصم اليهودي [1]

لطائف لغويه

1- قال تعالى {وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ }الفلق5 ومن امراض القلوب الحسد كما قال بعضهم فى حده انه اذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء فلا يجوز ان يكون الفاضل حسودا لأن الفاضل يجرى على ما هو الجميل وقد قال طائفة من الناس إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود وان لم يصر للحاسد مثلها بخلاف الغبطة فانه تمنى ملها من غير حب زوالها عن المغبوط والتحقيق ان الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود[2]

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 19

[22] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 121-129

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة الناس
114

رقية محمود الغرايبة

~§§ الناس(مكية)6 §§~

مقدمة سورة الناس

في صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وفى لفظ قال لي رسول الله أنزل علي آيات لم ير مثلهن قط المعوذتان فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعوذتين كما أخبر أنه لم ينزل فى التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثل الفاتحة وهذا مما يبين فضل بعض القرآن على بعض [1]

عن عقبة بن عامر قال أمرنى رسول الله أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة [2]

سورة الناس 1-3

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6}

جمع بين الاسمين اسم الإله واسم الرب

وحال العبد المحض لله الذى يعبده ويستعينه فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 توحيد الالهية وتوحيد الربوبية وان كانت الالهية تتضمن الربوبية تستلزم الالهية فان احدهما اذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع ان يختص بمعناه عند الاقتران كما في قوله { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} الناس 1-3 وفى قوله {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }الفاتحة2 فجميع بين الاسمين اسم الاله واسم الرب فان الاله هو المعبود الذى يستحق ان يعبد و الرب هو الذى يرب عبده فيدبره ولهذا كانت العبادة متعلقة باسمه الله

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 14

[22] مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 492

والسؤال متعلقا باسمه الرب فإن العبادة هى الغاية التى لها خلق الخلق والالهية هي الغاية والربوبية تتضمن خلق الخلق وانشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم والمصلى اذا قال {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 فبدأ بالمقصود الذى هو الغاية على الوسيلة التى هى البداية فالعبادة غاية مقصوده والاستعانة وسيلة اليها تلك حكمة وهذا سبب والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروف ولهذا يقال اول الفكرة آخر العمل واول البغية آخر الدرك فالعلة الغائية متقدمة فى التصور والارادة وهى متأخرة فى الوجود فالمؤمن يقصد عباده الله ابتداء وهو يعلم ان ذلك لا يحصل الا باعانته فيقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }الفاتحة5 ولما كانت العبادة متعلقة باسمه الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان الله اكبر الله اكبر ومثل الشهادتين

اشهد ان لا اله الاالله اشهد ان محمدا رسول الله ومثل التشهد التحيات لله ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير سبحان الله والحمدلله ولا اله الا الله والله اكبر واما السؤال فكثيرا ما يجيء باسم الرب كقول آدم وحواء { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }الأعراف23 وقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ }هود47 وقول موسى {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي }القصص16وقول الخليل {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ}إبراهيم37الآية وقوله مع اسماعيل { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }البقرة127 وكذلك قول الذين قالوا { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }البقرة201 ومثل هذا كثير وقد نقل عن مالك انه قال اكره للرجل ان يقول فى دعائه ياسيدى ياسيدى يا حنان يا حنان ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء ربنا ربنا ربنا نقله عنه العتبى فى العتبية وقال تعالى عن اولى الألباب {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }آل عمران191 الآيات فإذا سبق الى قلب العبد قصد السؤال ناسب ان يسأله باسمه الرب وان سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسنا واما اذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله اولى بذلك اذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله واذا قصد الدعاء دعا باسم الرب [1]

قلب الإيمان

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارج له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ }النحل36 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 286 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص:331- 361

عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ }الناس1[1]

الوسوسة

فى سورة الناس ذكر {الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ }الناس4 فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر و الفسوق و العصيان ففيها الإستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التى تضره من الكفر و الفسوق و العصيان و قد تضمن ذلك الإستعاذة من شر نفسه [2]

وكذلك الوسواس في النفس يكون من الشيطان تارة ومن النفس تارة قال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ }ق16 وقال {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ }طه120 وقال {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا }الأعراف20 والوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ومنه وسوسة الحلى وهو الكلام الخفي والصوت الخفي وقد قال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6} الناس 1-6 وقد قيل إن المعنى من الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة ومن الناس وأنه جعل الناس أولا تتناول الجنة والناس فسماهم ناسا كما سماهم رجالا قاله الفراء وقيل المعنى من شر الموسوس في صدور الناس من الجن ومن شر الناس مطلقا قاله الزجاج ومن المفسرين كأبي الفرج بن الجوزى من لم يذكر غيرهما وكلاهما ضعيف والصحيح أن المراد القول الثالث وهو أن الإستعاذة من شر الموسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس فأمر بالإستعاذة من شر شياطين الإنس والجن كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ }الأنعام112 وفي حديث أبي ذر الطويل الذي رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه بطوله قال يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن فقال يا رسول الله أو للإنس شياطين قال نعم شر من شياطين الجن وقد قال تعالى {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }البقرة14 والمنقول عن عامة المفسرين أن المراد شياطين الإنس وما علمت أحدا قال إنهم شياطين الجن فعن ابن مسعود وابن عباس والحسن والسدي أنهم رؤوسهم في الكفر وعن أبي العالية ومجاهد إخوانهم من المشركين وعن الضحاك وابن السائب كهنتهم والآية تتناول هذا كله وغيره ولفظها يدل على أن المراد شياطين الإنس لأنه قال {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ }البقرة14 ومعلوم أن شيطان الجن معهم لما لقوا الذين آمنوا لا يحتاج أن يخلوا به وشيطان الجن هو الذي أمرهم بالنفاق ولم يكن ظاهرا حتى يخلوا معهم ويقول إنا معكم لا سيما إذا كانوا يظنون أنهم على حق كما قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ }البقرة13 ولو علموا أن الذي يأمرهم بذلك شيطان لم يرضوه وقد قال

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 73

[22] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 508

الخليل بن أحمد كل متمرد عند العرب شيطان وفي اشتقاقه قولان أصحهما أنه من شطن يشطن إذا بعد عن الخير والنون أصلية قال أمية بن أبي الصلت في صفة سليمان عليه السلام أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأغلال عكاه أوثقه وقال النابغة نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها رهين ولهذا قرنت به اللعنة فإن اللعنة هي البعد من الخير والشيطان بعيد من الخير فيكون وزنه فيعالا وفيعال نظير فعال وهو من صفات المبالغة مثل القيام والقوام فالقيام فيعال والقوام فعال ومثل العياذ والعواذ وفي قراءة عمر الحي القيام فالشيطان المتصف بصفة ثابتة قوية في كثرة البعد عن الخير بخلاف من بعد عنه مرة وقرب منه أخرى فإنه لا يكون شيطانا ومما يدل على ذلك قولهم تشيطن يتشيطن شيطنة ولو كان من شاط يشيط لقيل تشيط يتشيط والذي قال هو من شاط يشيط إذا احترق والتهب جعل النون زائدة وقال وزنه فعلان كما قال الشاعر وقد يشيط على أرماحنا البطل وهذا يصح في الإشتقاق الأكبر الذي يعتبر فيه الإتفاق في جنس الحروف كما يروى عن أبي جعفر أنه قال العامة مشتق من العمى ما رضى الله أن يشبههم بالأنعام حتى قال { بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً }الفرقان44 وهذا كما يقال السرية مأخوذة من السر وهو النكاح ولو جرت على القياس لقيل سريرة فإنها على وزن فعيلة ولكن العرب تعاقب بين الحرف المضاعف والمعتل كما يقولون تقضي البازي وتقضض قال الشاعر تقضى البازى إذا البازى كسر ومنه قوله تعالى { فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ }البقرة259 وهذه الهاء تحتمل أن تكون أصلية فجزمت بلم ويكون من سانهت وتحتمل أن تكون هاء السكت كالهاء من كتابيه وحسابيه واقتده وماليه وسلطانيه وأكثر القراء يثبتون الهاء وصلا ووقفا وحمزة والكسائي يحذفانها من الوصل هنا ومن اقتده فعلى قراءتهما يجب أن تكون هاء السكت فإن الأصلية لا تحذف فتكون لفظة لم يتسن كما تقول لم يتغن وتكون مأخوذة من قولهم تسنى يتسنى وعلى الإحتمال الآخر تكون من تسنه يتسنه والمعنى واحد قال ابن قتيبة أى لم يتغير بمر السنين عليه قال واللفظ مأخوذ من السنه يقال سانهت النخلة إذا حملت عاما وحالت عاما فذكر ابن قتيبة لغة من جعل الهاء أصلية وفيها لغتان يقال عاملته مسانهة ومساناة ومن الشواهد لما ذكره ابن قتيبه قول الشاعر فليست بسنهاء ولا رجبية ولكن عرايا في السنين الجوائح يمدح النخلة والمقصود مدح صاحبها بالجود فقال إنه يعريها لمن يأكل ثمرها لا يرجبها لتخلية ثمرها ولا هي بسنهاء والمفسرون من أهل اللغة يقولون في الآية معناه لم يتغير وأما لغة من قال إن أصله سنوة فهي مشهورة ولهذا يقال في جمعها سنوات ويشابهه في الإشتقاق الأكبر الماء الآسن وهو المتغير المنتن ويشابهه في الإستقاق الأصغر الحمأ المسنون فإنه من سن يقال سننت الحجر على الحجر إذا حككته والذي يسيل بينهما سنن ولا يكون إلا منتنا وهذا أصح من قول من يقول المسنون المصبوب على سنة الوجه أو المصبوب المفرغ أي أبدع صورة الإنسان فإن هذا أنما كان بعد أن خلق من الحمأ المسنون ونفس الحمأ لم يكن على صورة الإنسان ولا صورة وجه ولكن المراد المنتن فقوله { لَمْ يَتَسَنَّهْ }البقرة259 بخلاف قوله { مَّاء غَيْرِ آسِنٍ }محمد15 فإنه من قولهم أسن يأسن فهذا من جنس الاشتقاق الأكبر لاشتراكهما في السين والنون والنون الأخرى والهمزة والهاء متقاربتان فإنهما حرفا حلق وهذا باب واسع والمقصود أن اللفظين إذا اشتركا في أكثر الحروف وتفاوتا في بعضها قيل أحدهما مشتق من الآخر وهو الإشتقاق الأكبر والأوسط أن يشتركا في الحروف لا في ترتيبها كقول الكوفيين الإسم مشتق من السمة والإشتقاق الأصغر الخاص الإشتراك في الحروف وترتيبها وهو المشهور كقولك علم يعلم فهو عالم وعلى هذا فالشيطان مشتق من شطن وعلى الإشتقاق الأكبر هو من باب شاط يشيط لأنهما اشتركا في الشين والطاء والنون والياء متقاربتان فهو سبحانه أمر في سورة الناس بالإستعاذة من شر الوسواس من الجنة والناس الذي يوسوس في صدور الناس ويدخل في ذلك وسوسة نفس الإنسان

له ووسوسة غيره له والقول في معنى الآية مبسوط في مصنف مفرد والمقصود هنا أنه قد ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس أن العبد إذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإن تركها لله كتبت له حسنة كاملة فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة وأنه إذا هم بحسنة كتبت له حسنه كاملة فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى التأذين أقبل فإذا ثوب بالصلاة أدبر يعني الإقامة فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل إن يدري كم صلى فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين فقد أخبر أن هذا التذكير والوسواس من الشيطان وأنه ينسيه حتى لا يدري كم صلى وأمره بسجدتي السهو ولم يؤثمه بذلك والوسواس الخفيف لا يبطل الصلاة باتفاق العلماء وأما إذا كان هو الأغلب فقيل عليه الإعادة وهو اختيار أبي عبد الله بن حامد والصحيح الذي عليه الجمهور وهو المنصوص عن أحمد وغيره أنه لا إعادة عليه فإن حديث أبي هريرة عام مطلق في كل وسواس ولم يأمر بالإعادة لكن ينقص أجره بقدر ذلك قال ابن عباس ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها وفي السنن عن عمار بن ياسر أنه صلى صلاة فخففها فقيل له في ذلك فقال هل نقصت منها شيئا قالوا لا قال فإني بدرت الوسواس وإن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الرجل لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها إلا عشرها إلا تسعها إلا ثمنها حتى قال إلا نصفها وهذا الحديث حجة على ابن حامد فإن أدنى ما ذكر نصفها وقد ذكر إنه يكتب له عشرها وأداء الواجب له مقصودان أحدهما براءة الذمة بحيث يندفع عنه الذم والعقاب المستحق بالترك فهذا لا تجب معه الإعادة فإن الإعادة يبقى مقصودها حصول ثواب مجرد وهو شأن التطوعات لكن حصول الحسنات الماحية للسيئات لا يكون إلا مع القبول الذي عليه الثواب فبقدر ما يكتب له من الثواب يكفر عنه به من السيئات الماضية وما لا ثواب فيه لا يكفر وإن برئت به الذمة كما في الحديث المأثور رب صائم ليس حظه من صيامه إلا الجوع والعطش ورب قائم حظه من قيامه السهر يقول إنه تعب ولم يحصل له منفعة لكن برئت ذمته فسلم من العقاب فكان على حاله لم يزدد بذلك خيرا [1]

الوسواس أصل كل شر

قوله { مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6} الناس4-6 فيها أقوال و لم يذكر ابن الجوزي إلا قولين و لم يذكر الثالث و هو الصحيح و هو أن قوله من الجنة و الناس لبيان الوسواس أي الذي يوسوس من الجنة و من الناس فى صدور الناس فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل { لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً }الأنعام112و إيحاؤهم هو و سوستهم و ليس من شرط الموسوس أن يكون مستترا عن البصر بل قد يشاهد قال تعالى {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ {20}

[1] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 187-196

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ{21}الأعراف20 -21 و هذا كلام من يعرف قائله ليس شيئا يلقي فى القلب لا يدري ممن هو و إبليس قد أمر بالسجود لآدم فأبى و إستكبر فلم يكن ممن لا يعرفه آدم و هو و نسله يرون بني آدم من حيث لا يرونهم و أما آدم فقد رآه و قد يرى الشياطين و الجن كثير من الإنس لكن لهم من الإجتنان و الإستتار ما ليس للإنس و قد قال تعالى {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ }الأنفال48 وفى التفسير و السيرة أن الشيطان جاءهم فى صورة بعض الناس و كذلك قوله {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ }الحشر16 و فى حديث أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم نعوذ بالله من شياطين الإنس و الجن قلت أو للإنس شياطين قال نعم شر من شياطين الجن وأيضا فالنفس لها و سوسة كما قال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ }ق16 فهذا توسوس به نفسه لنفسه كما يقال حديث النفس قال النبى صلى الله عليه و سلم إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به أخرجاه فى الصحيحين فالذي يوسوس فى صدور الناس نفسه و شياطين الجن و شياطين الإنس و الوسواس الخناس يتناول و سوسة الجنة و وسوسة الإنس و الا أي معنى للإستعاذة من و سوسة الجن فقط مع أن و سوسة نفسه و شياطين الإنس هي مما تضره و قد تكون أضر عليه من و سوسة الجن وأما قول الفراء أن المراد من شر الوسواس الذي يوسوس فى صدور الناس الطائفتين من الجن و الإنس و أنه سمى الجن ناسا كما سماهم رجالا و سماهم نفرا فهذا ضعيف فإن لفظ الناس أشهر و أظهر و أعرف من أن يحتاج الى تنويعه الى الجن و الإنس و قد ذكر الله تعالى لفظ الناس فى غير موضع وأيضا فكونه يوسوس في صدور الطائفين صفة توضيح وبيان وليس وسوسة الجن معروفة عند الناس وإنما يعرف هذا بخبر ولا خبر هنا ثم قد قال {مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ }الناس6 فكيف يكون لفظ الناس عاما للجنة والناس وكيف يكون قسيم الشيء قسما منه فهو يجعل الناس قسيم الجن ويجعل الجن نوعا من الناس وهذا كما يقول أكرم العرب من العجم والعرب فهل يقول هذا واحد وإذا سماهم الله تعالى رجالا لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناسا وإن قدر الله تعالى رجالا لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناسا وإن قدر أنه يقال جاء ناس من الجن فذاك من التقيد كما يقال إنسان من طين وماء دافق ولا يلزم من هذا أن يدخلوا في لفظ الناس وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا }النساء1 فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء مع أنه سبحانه يخاطب الجن والإنس والرسول صلى الله عليه و سلم مبعوث الى الجنسين لكن لفظ الناس لم يتناول الجن و لكن يقول يا معشر الجن و الإنس و كذلك قول الزجاج أن المعنى {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ }الناس4 الذي هو الجنة و من شر الناس فيه ضعف و إن كان أرجح من الأول لأن شر الجن أعظم من شر الإنس فكيف يطلق الإستعاذة من جميع الناس و لا يستعيذ إلا من بعض الجن و أيضا فالوسواس الخناس إن لم يكن إلا من الجنة فلا حاجة الى قوله {مِنَ الْجِنَّةِ }الناس6 و من { النَّاسِ }الناس6 فلماذا يخص الإستعاذة من و سواس الجنة دون و سواس الناس و أيضا فإنه إذا تقدم المعطوف إسما كان عطفه على القريب أولى كما أن عود الضمير الى الأقرب أولى إلا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد فعطف الناس هنا على الجنة المقرون به أولى من عطفه على الوسواس

و يكفي أن المسلمين كلهم يقرأون هذه السورة من زمن نبيهم و لم ينقل هذان القولان إلا عن بعض النحاة و الأقوال المأثورة عن الصحابة و التابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا بل إنما فيها القول الذي نصرناه كما فى تفسير معمر عن قتادة {مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ }الناس6 قال إن فى

الجن شياطينا و إن فى الإنس شياطينا فنعوذ بالله من شياطين الإنس و الجن فبين قتادة أن المعنى الإستعاذة من شياطين الإنس و الجن و روى إبن و هب عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله { الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ }الناس4 قال الخناس الذي يوسوس مرة و يخنس مرة من الجن و الإنس فبين إبن زيد أن الوسواس الخناس من الصنفين و كان يقال شياطين الإنس أشد على الناس من شياطين الجن شيطان الجن يوسوس و لا تراه و هذا يعاينك معانية وعن إبن جريج {مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ }الناس6 قال أنهما و سواسان فوسواس من الجنة فهو { الْخَنَّاسِ }الناس4 و وسواس من نفس الإنسان فهو قوله { وَ النَّاسِ }الناس6 و هذا القول الثالث و إن كان يشبه قول الزجاج فهذا أحسن منه فإنه جعل من الناس الوسواس الذي من نفس الإنسان فمعناه أحسن ذكر الثلاثة إبن أبي حاتم في تفسيره و أيضا فإنه ذكر في الآية { بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} الناس1-3 فإن كان المقصود أن يستعيذ الناس بربهم و ملكهم و إلههم من شر ما يوسوس فى صدورهم فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم و يطلب منه دفع الشر الذي يضرهم و الوسواس أصل كل شر يضرهم لأنه مبدأ للكفر و الفسوق و العصيان و عقوبات الرب إنما تكون على ذنوبهم و إذا لم يكن لأحدهم ذنب فكل ما يصيبه نعمة فى حقه و إذا إبتلى بما يؤلمه فإن الله يرفع درجته و يأجره إذا قدر عدم الذنوب مطلقا لكن هذا ليس بواقع منهم فإن كل بنى آدم خطاء و خير الخاطئين التوابون و قد قال تعالى {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً{72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{73} الأحزاب72 -73 فغاية المؤمنين الأنبياء فمن دونهم هي التوبة قال الله تعالى{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }البقرة37 و قال نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ }هود47 و قال إبراهيم و إسماعيل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }البقرة128 و قال موسى{ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ }الأعراف155 و دعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف فكان الوسواس مبدأ كل شر فإن كانوا قد إستعاذوا بربهم و ملكهم و الههم من شره فقد دخل في ذلك و سواس الجن و الإنس و سائر شر الإنس إنما يقع بذنوبهم فهو جزاء على أعمالهم كالشر الذي يقع من الجن بغير الوسواس و كما يحصل من العقوبات السماوية و هم لم يستعيذوا هنا من شر المخلوقات مطلقا كما إستعاذوا فى سورة الفلق بل من الشر الذي يكون مبدؤه فى نفوسهم و إن كان ذكر رب الناس ملك الناس إله الناس يستعيذوا به ليعيذهم و ليعيذ منهم و هذا أعم المعنيين فذلك يحصل بإعاذته من شر الوسواس الموسوس في صدور الناس فإنه هو الذي يوسوس بظلم الناس بعضهم بعضا و بإغواء بعضهم بعضا و بإعانة بعضهم بعضا على الإثم و العدوان فما حصل لإنسي شر من إنسي إلا كان مبدؤه من الوسواس الخناس و إلا فما يحصل من أذي بعضهم لبعض إذا لم يكن من الوسواس بل كان من الوحي الذي بعث الله به ملائكته كان عدلا كإقامة الحدود و جهاد الكفار و الإقتصاص من الظالمين فهذه الأمور فيها ضرر و أذي للظالمين من الإنس لكن هي بوحي الله لا من الوسواس و هي نعمة من الله في حق عباده حتى فى حق المعاقب فإنه إذا عوقب كان ذلك كفارة له إن كان مؤمنا و إلا كان تخفيفا لعذابه في الآخرة بالنسبة الى عذاب من لم يعاقب في الدنيا

و لهذا كان محمد صلى الله عليه و سلم رحمة فى حق العالمين بإعتبار ما حصل من الخير العام به و ما حصل للمؤمنين به من سعادة الدنيا و الاخرة و بإعتبار أنه فى نفسه رحمة فمن قبلها و إلا كان هو الظالم لنفسه و بإعتبار أنه قمع الكفار و المنافقين فنقص شرهم و عجزوا عما كانوا كانوا يفعلونه بدونه و قتل من قتل منهم فكان تعجيل موته خيرا من طول عمره فى الكفر له و للناس فكان محمد

صلى الله عليه و سلم رحمة للعالمين بكل إعتبار فلا يستعاذ منه و من أمثاله من الأنبياء و أتباعهم المؤمنين و هم من الناس و إن كانوا يفعلون بأعدائهم ما هو أذي و عقوبة و ألم لهم فلم تبق الإستعاذة من الناس إلا مما يأتى به الوسواس إليهم فيستعاذ برب الناس ملك الناس إله الناس على هذا التقدير من شر الوسواس الذي يوسوس للمستعيذ و من شر الوسواس الذي يوسوس لسائر الناس حتى لا تحصل منهم شر للمستعيذ فإذا لم يكن للناس شر إلا من الوسواس كانت الإستعاذة من شر الذي يوسوس لهم تحصيلا للمقصود و كان حسما للمادة و أقرب الى العدل و كان مخرجا لأنبياء الله و أوليائه أن يستعاذ من شرهم و أن يقرنوا بالوسواس الخناس و يكون ذلك تفضيلا للجن على الإنس و هذا لا يقوله عاقل فإن قيل فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس فلا حاجة الى ذكر الإستعاذة من و سواس الناس فإنه تابع لوسواس الجن قيل بل الوسوسة نوعان نوع من الجن و نوع من نفوس الإنس كما قال {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}ق16 فالشر من الجهتين جميعا و الإنس لهم شياطين كما للجن شياطين و الوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة يقال فلان يوشوش فلانا و قد و شوشه إذا حدثه سرا فى أذنه و كذلك الوسوسة و منه و سوسة الحلي لكن هو بالسين المهملة أخص و رب الناس الذي يربيهم بقدرته و مشيئته و تدبيره و هو رب العلمين كلهم فهو الخالق للجميع و لأعمالهم و {مَلِكِ النَّاسِ }الناس2 الذي يأمرهم و ينهاهم فإن الملك يتصرف بالكلام و الجماد لا ملك له فإنه لا يعقل الخطاب لكن له مالك و إنما يكون الملك لمن يفهم عنه و الحيوان يفهم بعضه عن بعض كما قال {عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ }النمل16 { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ }النمل18 فلهذا كان له ملك من جنسه و من غير جنسه كما كان سليمان ملكهم و الإله هو المعبود الذي هو المقصود بالإرادات و الأعمال كلها كما قد بسط الكلام على ذلك و قد قيل إنما خص الناس بالذكر لأنهم مستعيذون أو لأنهم المستعاذ من شرهم ذكرهما أبو الفرج و ليس لهما و جه فإن و سواس الجن أعظم و لم يذكره بل ذكر الناس لأنهم المستعيذون فيستعيذون بربهم الذي يصونهم و بملكهم الذي أمرهم و نهاهم و بإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم و بين عبادته و يستعيذون أيضا من شر الوسواس الذي يحصل فى نفوس الناس منهم و من الجنة فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم و الذي يرد عليهم وبهذا يتبين بعض هذه الإستعاذة و التى قبلها كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلهما فإن الوسواس أصل كل كفر و فسوق و عصيان فهو أصل الشر كله فمتى و قي الإنسان شره و قي عذاب جهنم و عذاب القبر و فتنة المحيا و الممات و فتنة المسيح الدجال فإن جميع هذه إنما تحصل بطريق الوسواس و وقي عذاب الله فى الدنيا و الآخرة فإنه إنما يعذب على الذنوب و أصلها من الوسواس ثم إن دخل فى الآية و سواس غيره بحيث يكون قوله {مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ }الناس4 إستعاذة من الوسواس الذي يعرض له و الذي يعرض للناس بسببه فقد و قي ظلمهم و إن كان إنما يريد و سواسه منهم إنما يسلطون عليه بذنوبه و هي من و سواسه قال تعالى {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ }آل عمران165 و قال {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ }الشورى30 و قال {مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ }النساء79 والوسواس من جنس الحديث و الكلام و لهذا قال المفسرون فى قوله{ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ }ق16 قالوا ما تحدث به نفسه و قد قال صلى الله عليه و سلم إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به و هو نوعان خبر و إنشاء فالخبر إما عن ماض و إما عن مستقبل فالماضي يذكره به و المستقبل يحدثه بأن يفعل هو أمورا أو أن أمورا ستكون بقدر الله أو فعل غيره فهذه الأماني و المواعيد الكاذبة و الإنشاء امر و نهي و إباحة والشيطان تارة يحدث و سواس الشر و تارة ينشيء الخير و كان ذلك بما يشغله به من حديث النفس

قال تعالى في النسيان { وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }الأنعام68 و قال فتى موسى {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ }الكهف63 و قال تعالى{فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ }يوسف42 و ثبت في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان و له ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضي التأذين أقبل فإذا ثوب بالصلاة أدبر فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء و نفسه فيقول أذكر كذا أذكر كذا لما لم يذكر حتى يظل الرجل لم يدر كم صلى فالشيطان ذكره بأمور ماضية حدث بها نفسه مما كانت فى نفسه من أفعاله و من غير أفعاله فبتلك الأمور نسي المصلي كم صلى و لم يدر كم صلى فإن النسيان أزال ما في النفس من الذكر و شغلها بأمر آخر حتى نسي الأول و أما إخباره بما يكون فى المستقبل من المواعيد و الأماني فكقوله {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم}إبراهيم22 و فى هذه الآية أمره و وعده و قال تعالى { وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً{119} يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً{120} أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً{121}النساء119-121 و قال تعالى{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }البقرة268 ففي هذه أيضا أمره و وعده و قال موسى لما قتل القبطي { هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ }القصص15 وقد قال غير و احد من الصحابة كأبي بكر و إبن مسعود فيما يقولونه بإجتهادهم إن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمني و من الشيطان فجعلوا ما يلقي في النفس من الإعتقادات التى ليست مطابقة من الشيطان و إن لم يكن صاحبها آثما لأنه إستفرغ و سعه كما لا يأثم بالوسواس الذي يكون في الصلاة من الشيطان و لا بما يحدث به نفسه و قد قال المؤمنون{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا }البقرة286 و قد قال الله قد فعلت والنسيان للحق من الشيطان و الخطأ من الشيطان قال تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }الأنعام68 و قد قال صلى الله عليه و سلم من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها و لما نام هو و أصحابه عن الصلاة فى غزوة خيبر قال لأصحابه إرتحلوا فإن هذا مكان حضرنا فيه شيطان و قال إن الشيطان أتى بلالا فجعل يهديه كما يهدي الصبي حتى نام و كان النبى صلى الله عليه و سلم و كل بلالا أن يوقظهم عند الفجر و النوم الذي يشغل عما أمر به و النعاس من الشيطان و إن كان معفوا عنه و لهذا قيل النعاس فى مجلس الذكر من الشيطان و كذلك الإحتلام فى المنام من الشيطان و النائم لا قلم عليه وقد ثبت في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال الرؤيا ثلاثة رؤيا من الله و رؤيا من الشيطان و رؤيا ما يحدث به المرء نفسه فى اليقظة فيراه فى النوم و قد قيل أن هذا من كلام إبن سيرين لكن تقسيم الرؤيا الى نوعين نوع من الله و نوع من الشيطان صحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم بلا ريب فهذان النوعان من و سواس النفس و من و سواس الشيطان و كلاهما معفو عنه فإن النائم قد لرفع القلم عنه و وسواس الشيطان يغشي القلب كطيف الخيال فينسيه ما كان معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق فيقع فى الباطل فإذا كان من المتقين كان كما قال الله {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ }الأعراف201 فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشي القلب و قد يكون لطيفا و قد يكون كثيفا إلا أنه غشاوة على القلب تمنعه إبصار الحق قال النبى صلى الله عليه و سلم إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه و إن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }المطففين14 لكن طيف

الشيطان غير رين الذنوب هذا جزاء على الذنب و الغين ألطف من ذلك كما فى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه و سلم قال أنه ليغان على قلبي و إني لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة فالشيطان يلقي فى النفس الشر و الملك يلقي الخير و قد ثبت في الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال ما منكم من أحد إلا و قد كل به قرينه من الملائكة و قرينه من الجن قالوا و إياك يا رسول الله قال و إياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم و في رواية فلا يأمرني إلا بخير أي إستسلم و إنقاد و كان إبن عيينة يرويه فأسلم بالضم و يقول إن الشيطان لا يسلم لكن قوله فى الرواية الأخرى فلا يأمرنى إلا بخير دل على أنه لم يبق يأمره بالشر و هذا إسلامه و إن كان ذلك كناية عن خضوعه و ذلته لا عن إيمانه بالله كما يقهر الرجل عدوه الظاهر و يأسره و قد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر فلا يقبله بل يعاقبه على ذلك فيحتاج لإنقهاره معه الى أنه لا يشير عليه إلا بخير لذلته و عجزه لا لصلاحه و دينه و لهذا قال صلى الله عليه و سلم إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرنى إلا بخير و قال إبن مسعود أن للملك لمة و أن الشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير و تصديق بالحق و لمة الشيطان إيعاد بالشر و تكذيب بالحق و قد قال تعالى {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ }آل عمران175 أي يخوفكم أولياؤه بما يقذف فى قلوبكم من الوسوسة المرعبة كشيطان الإنس الذي يخوف من العدو فيرجف و يخذل وعكس هذا قوله تعالى {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ }الأنفال12 و قال تعالى {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ }إبراهيم27 و قال تعالى {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً }الإسراء74 و التثبت جعل الإنسان ثابتا لأمر تابا و ذلك بإلقاء ما يثبته من التصديق بالحق و الوعد بالخير كما قال إبن مسعود لمة الملك و عد بالخير و تصديق بالحق فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه و إذا علم أن الله قد و عده بالتصديق و ثق بوعد الله فثبت فهذا يثبت بالكلام كما يثبت الإنسان الإنسان فى أمر إضطرب فيه بأن يخبره بصدقه و يخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت و قد يكون التثبت بالفعل بأن يمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت وفي الحديث عن النبى صلى الله عليه و سلم من سأل القضاء و إستعان عليه و كل إليه و من لم يسأل القضاء و لم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده فهذا الملك يجعله سديد القول بما يلقي فى قلبه من التصديق بالحق و الوعد بالخير و قد قال تعالى {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }الأحزاب43 فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات الى النور و قد ذكر إخراجه للمؤمنين من الظلمات الى النور فى غير آية كقوله {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}البقرة257 و قال {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }الحديد9 و قال {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}إبراهيم1 و في الحديث إن الله و ملائكته يصلون على معلمي الناس الخير و ذلك أن هذا بتعليمه الخير يخرج الناس من الظلمات الى النور و الجزاء من جنس العمل و لهذا كان الرسول أحق الناس بكمال هذه الصلاة كما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ }الأحزاب56 والصلاة هي الدعاء إما بخير يتضمن الدعاء و إما بصيغة الدعاء فالملائكة يدعون للمؤمنين كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال و الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يحدث فبين أن صلاتهم قولهم اللهم أغفر له اللهم إرحمه و في الأثر أن الرب يصلي فيقول سبقت أو غلبت رحمتى غضبي و هذا كلامه سبحانه هو خبر و إنشاء يتضمن أن الرحمة تسبق الغضب و تغلبه و هو سبحانه لا يدعو غيره أن يفعل كما يدعوه الملائكة و غيرهم من الخلق بل طلبه بأمره و قوله و

قسمه كقوله لأفعلن كذا و قوله كن فيكون و قوله لأفعلن كذا قسم منه كقوله {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ }ص85 و قوله { وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }السجدة13 و قوله {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً }النور55 و قوله {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }المجادلة21 و هذا و عد مؤكد بالقسم بخلاف قوله {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }غافر51 فإن هذا و عد و خبر ليس فيه قسم لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم و قوله {وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا }الفتح20 و قوله {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ }الأنفال7 و نحو ذلك و عد مجرد وقد قال تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ }الشورى51 فأخبر أنه يوحي الى البشر تارة و حيا منه و تارة يرسل رسولا فيوحي الى الرسول بإذنه ما يشاء والملائكة رسل الله و لفظ الملك يتضمن معنى الرسالة فإن أصل الكلمة ملأك لى و زن مفعل لكن لكثرة الإستعمال خففت بأن ألقيت حركة الهمزة على الساكن قبلها و حذفت الهمزة و ملاك مأخوذ من المألك و الملأك بتقديم الهمزة على اللام و اللام على الهمزة و هو الرسالة و كذلك الألوكة بتقديم الهمزة على اللام قال الشاعر أبلغ النعمان عني مألكا أنه قد طال حبسي و إنتظاري وهذا بتقديم الهمزة لكن الملك هو بتقديم اللام على الهمزة و هذا أجود فإن نظيره في الإشتقاق الأكبر لاك يلوك إذا لاك الكلام و اللجام و الهمز أقوي من الواو و يليه فى الإشتقاق الأوسط أكل يأكل فإن الآكل يلوك ما يدخله فى جوفه من الغذاء و الكلام و العلم ما يدخل فى الباطن و يغذي به صاحبه قال عبدالله بن مسعود أن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته و أن مأدبة الله القرآن و الآدب المضيف و المأدبة الضيافة و هو ما يجعل من الطعام للضيف فبين أن الله ضيف عباده بالكلام الذي أنزله إليهم فهو غذاء قلوبهم و قوتها و هو أشد إنتفاعا به و إحتياجا إليه من الجسد بغذائه و قال علي رضي الله عنه الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة و يربونهم عليها و قد قال صلى الله عليه و سلم إني أبيت عند ربي يطعمني و يسقيني و قد أخبر الله تعالى أن القرآن شفاء لما فى الصدور و الناس الى الغذاء أحوج منهم الى الشفاء فى القلوب و الأبدان و في الصحيحين عنه صلى الله عليه و سلم قال مثل ما بعثنى الله به من الهدي و العلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة أمسكت الماء فأنبتت الكلأ و العشب الكثير و كانت منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس و سقوا و زرعوا و كانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء و لا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله و نفعه ما بعثنى الله به من الهدي و العلم و مثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدي الله الذي أرسلت به فأخبر أن ما بعث به للقلوب كالماء للأرض تارة تشربه فتنبت و تارة تحفظه و تارة لا هذا و لا هذا و الأرض تشرب الماء و تغتذي به حتى يحصل الخير و قد أخبر الله تعالى أنه روح تحيا به القلوب فقال {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الشورى52 وإذا كان ما يوحيه الى عباده تارة يكون بوساطة ملك و تارة بغير و ساطة فهذا للمؤمنين كلهم مطلقا لا يختص به الأنبياء قال تعالى {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ }القصص7 و قال تعالى {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ }المائدة111و إذا كان قد قال {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ }النحل68 الآية فذكر أنه يوحي إليهم فالى الإنسان أولى و قال تعالى { وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا}فصلت12 و قد قال تعالى {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8}الشمس7-8 فهو سبحانه يلهم الفجور و التقوى للنفس و الفجور يكون بواسطة الشيطان و هو إلهام و سواس و التقوى بواسطة ملك و هو إلهام و حي هذا أمر بالفجور و هذا أمر

بالتقوي و الأمر لابد أن يقترن به خبر و قد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أطلق لا يراد به الوسوسة و هذه الآية مما تدل على أنه يفرق بين إلهام الوحي و بين الوسوسة فالمأمور به أن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي و إن كان من الفجور فهو من و سوسة الشيطان فيكون الفرق بين الإلهام المحمود و بين الوسوسة المذمومة هو الكتاب و السنة فإن كان مما ألقي في النفس مما دل الكتاب و السنة على أنه تقوى لله فهو من الإلهام المحمود و إن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس المذموم و هذا الفرق مطرد لا ينتقض و قد ذكر أبو حازم فى الفرق بين و سوسة النفس و الشيطان فقال ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه و ما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فإنهها عنه وقد تكلم النظار فى العلم الحاصل في القلب عقب النظر و الإستدلال فذكروا فيه ثلاثة أقوال كما ذكر ذلك أبو حامد فى مستصفاه و غيره قول الجهمية و قول القدرية و قول الفلاسفة و كثير من أهل الكلام لا يذكر إلا القولين قول الجهمية و قول القدرية و ذلك أنهم يذكرون في كتبهم ما يعرفونه من أقوال من يعرفونه تكلم فى هذا و هم لا يعرفون إلا هؤلاء و المسألة هي من فروع القدر فإن الحاصل فى نفس حادث فيها فالقول فيه كالأقوال في أمثاله و مذهب جهم و من و افقه كأبي الحسن الأشعري و كثير من المتأخرين المثبتة هو مذهب أهل السنة و الجماعة أن الله خالق كل شيء و أن الله خالق أفعال العباد لكنه لا يثبت سببا و لا قدرة مؤثرة و لا حكمة لفعل الرب فأنكر الطبائع و القوي التى في الأعيان و أنكر السباب و الحكم فلهذا لم يجعل لشيء سببا بل يقول هذا حاصل بخلق الله و قدرته و لم يذكروا له سببا و هم صادقون في إضافته الى قدره و أنه خالقه خلافا للقدرية لكن من تمام المعرفة إثبات الأسباب و معرفتها وأما القدرية من المعتزلة و غيرهم فبنوه على أصلهم و هو أن كل ما تولد عن فعل العبد فهو فعله لا يضاف الى غيره كالشبع و الري و زهوق الروح و نحو ذلك فقالوا هذا العلم متولد عن نظر العبد أو تذكر النظر و المتفلسفة بنوه على أصلهم فى أن ما يحدث من الصور هو من فيض العقل الفعال عند إستعداد المواد القابلة فقالوا يحصل فى نفوس البشر من فيض العقل الفعال عند إستعداد النفس بإستحضار المقدمتين و هذا القول خطأ و الذي قبله أقرب منه و الأول أقرب و ليس فى شيء منها تحقيق الأمر في ذلك و حقيقته أن الله و كل بالإنس ملائكة و شياطين يلقون فى قلوبهم الخير و الشر فالعلم الصادق من الخير و العقائد الباطلة من الشر كما قال إبن مسعود لمة الملك تصديق بالحق و لمة الشيطان تكذيب بالحق و كما قال النبى صلى الله عليه و سلم فى القاضي أنزل الله عليه ملكا يسدده و كما أخبر الله أن الملائكة توحي الى البشر ما توحيه و إن كان البشر لا يشعر بأنه من الملك كما لا يشعر بالشيطان الموسوس لكن الله أخبر أنه يكلم البشر و حيا و يكلمه بملك يوحي بإذنه ما يشاء و الثالث التلكيم من و راء حجاب و قد قال بعض المفسرين المراد بالوحي هنا الوحي فى المنام و لم يذكر ابو الفرج غيره و ليس الأمر كذلك فإن المنام تارة يكون من الله و تارة يكون من النفس و تارة يكون من الشيطان و هكذا ما يلقي في اليقظة و الأنبياء معصومون فى اليقظة و المنام ولهذا كانت رؤيا الأنبياء و حيا كما قال إبن عباس و عبيد بن عمير و قرأ قوله { إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ } الصافات102 و ليس كل من رأي رؤيا كانت و حيا فكذلك ليس كل من ألقي في قلبه شيء يكون و حيا و الإنسان قد تكون نفسه فى يقظته أكمل منها فى نومه كالمصلي الذي يناجي ربه فإذا جاز أن يوحي إليه في حال النوم فلماذا لا يوحي إليه فى حال اليقظة كما أوحي الى أم موسى و

الحواريين و الى النحل لكن ليس لأحد أن يطلق القول على ما يقع في نفسه أنه و حي لا في يقظة و لا في المنام إلا بدليل يدل على ذلك فإن الوسواس غالب على الناس و الله أعلم [1]

" ان للملك لمة وللشيطان لمة "

وهذا سلف الامة والتابعين لهم بأحسان وائمة المسلمين فأنهم يقولون ان الشياطين توسوس في نفوس بني ادم كالعقائد الفاسدة والامر باتباع الهوى وان الملائكة بالعكس انما تقذف في القلوب الصدق والعدل قال ابن مسعود ان للملك لمة وللشيطان لمة فلمة الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما منكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن قالوا واياك يا رسول الله قال واياي الا ان الله اعانني عليه فأسلم وفي لفظ فلا يأمرني الا بخير قال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6} الناس1-6 والقول الصحيح الذي عليه اكثر السلف ان المعنى من شر الموسوس من الجنة ومن الناس من شياطين الانس والجن وقال{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً }الأنعام112 وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابي ذر يا ابا ذر تعوذ بالله من شياطين الانس والجن قال يا رسول الله او للانس وشياطين قال نعم شر من شياطين الجن قال تعالى {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }البقرة14 وهم شياطينهم من الانس كما قال ذلك عامة السلف وكما يدل عليه سياق القران فان شياطين الجن لم يكونوا يحتاجون الى ان يخلوا بهم و لا هم يقولون لهم انا معكم انما نحن مستهزءون [2]

الرؤيا ثلاثة

وأما الرؤيا فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الرؤيا ثلاثة رؤيا من الله ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام ورؤيا من الشيطان فقد بين الصادق المصدوق أن من الرؤيا ما هو من حديث النفس ومنها ما هو من وسوسة الشيطان وقد امرنا سبحانه أن نستعيذ من هذين الواسواسين في قوله{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6} الناس 6-1 [3]

الأمر بالتعوذ من شر الوسواس

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 509-532

[2] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 506-507

[3] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 482

فدعوى المدعي ان السحر هي قوى نفسانية من أبطل الباطل فإن السحر كثير منه يكون بالشياطين وكتب السحر مملوءة من الأقسام والعزائم على الجن بساداتهم الذين يعظمونهم ولذلك كانت الإنس تستعيذ بالجن كما قال الله تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً }الجن6 كانوا إذا نزل الرجل منهم بواد يقول أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فأنزل الله هذه الآية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ففرق بين الشيطان وبين الهوام وبين أعين الإنس كما يدل ذلك على وجود الضرر في هذه الجهات الثلاث الإنس والجن والهوام وقال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6} الناس 1-6 فأمره بالتعوذ من شر الوسواس من الجنة والناس الذي يوسوس في صدور الناس[1]

ذكر الله أصل لدفع الوسواس

قال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6} الناس 1-6 وقالوا فى الوسواس الخناس هو الذى اذا ذكر الله خنس واذا غفل عن ذكر الله وسوس فتبين بذلك أن ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذى هو مبدأ كل كفر وجهل وفسق وظلم وقال الله تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ }الحجر42 وقال {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }النحل99 وقال {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }آل عمران101 ونحو ذلك من النصوص [2]

المؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر

وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التى يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لئن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الايمان وفى رواية ما يتعاظم ان يتكلم به قال الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذى جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوساوس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولابد لعامة الخلق من هذه الوساوس فمن الناس من يجيبها فصير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوساوس فى الصلاة ما لا يعرض لهم اذا

---

[1] الصفدية ج: 1 ص: 169

[2] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 17

لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ِ}فاطر6 ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً }الإسراء82 وقال تعالى {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ }آل عمران138 وقال تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً }التوبة124 وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{100}النحل98-100 فان المستعيذ بالله مستجير به لاجىء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائذ بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ{34} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{35} وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{36}فصلت34 -36 وفى الصحيحين عن النبى أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته فى ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبى كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماؤهم فعلماؤهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماؤهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة فى العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوساوس التى تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال إبن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض [1]

[11] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 282-285

لطائف لغوية

1- قال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6} الناس 1-6 الوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ومنه وسوسة الحلى وهو الكلام الخفي والصوت الخفي [1]

2- و كثيرا ما تأتي الصفات بلا عطف كقوله {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ }الحشر23و قوله { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1} مَلِكِ النَّاسِ{2} إِلَهِ النَّاسِ{3}الناس1-3 [2]

---

[11] منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 187-196

[22] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 130

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

الحمدلله رب العالمين

فهذا من فضل الله رب العرش العظيم

###